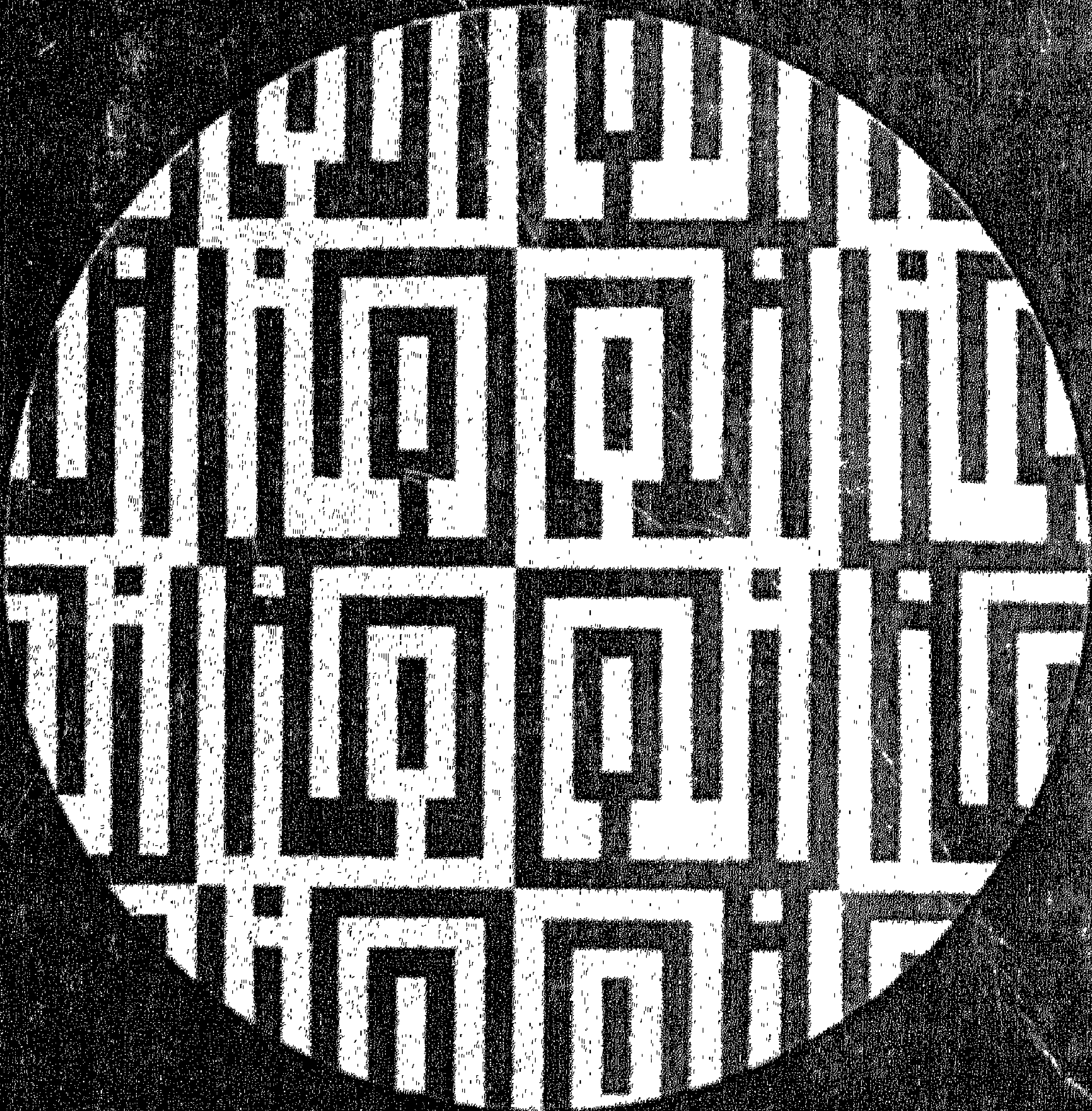
شؤون فلسطينية

٩٤
ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

---

٩٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني

(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ــ لبنان ، ص . ب ١٦٩١

تلفون التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠

برقيا . مرابحات ، بيروت .

مدير التوزيع غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) ٦٠ ل . ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل . ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) ٦٥ ل . ل . في جميع الدول غير العربية .

الغلاف للفنان
كمال بلاطه

المحتويات

الصفحة

ادوار سَعيــد

قضيـة انـدرويونغ في اطـارها الداخـلي

تحمل استقالة أندرويونغ دلالة مركبة على المدى الذي قطعته قضية فلسطين داخل المجتمع الأمريكي المعاصر . وانه لخطأ ، على اية حال ، تبسيط النظرة الى الاستقالة ، على أنها مجرد برهان جديد على التحكم الصهيوني بالمجتمع السياسي المعاصر في الغرب . على أن اندرو يونغ ، في تصريحاته التي ادلى بها في الخامس عشر من آب(اغسطس) الى مراسلي البيت الأبيض ، بدا وكأنه يقول إنه بسبب عدم اتفاقه مع سياسة الولايات المتحدة حيال منظمة التحرير الفلسطينية ، وإنه بسبب كون تلك السياسة محل اتفاق بين الولايات المتحدة وبين إسرائيل بشأن « المنظمة » ، فانه كان باستقالته يستسلم أمام الطرح الصهيوني اساسا لقضية فلسطين أضف الى ذلك انه توفرت الى جانب هذا كله ، الناحية التقنية للمسألة برمتها ، اي لجهة ما هو في وسع سفير أن يفعل أو لا يفعل ، ليس في مضمار العموميات السياسية فحسب ، بل وخصوصا في تلك المجالات ذات الاصداء المحلية الواسعة . وفي هذا الاطار ايضا ، كان هناك إقرار من جانب يونغ ، بأنه حينما تمس السياسة الامريكية باسرائيل ، فان شخصية أمريكية لامعة وراءها قطاع انتخابي عريض ، كيونغ نفسه ، كان ينبغي ان تكون جاهزة لتحمل مضاعفات خطيرة ، إذا ما بدا أن هناك مساسا ما ، بأية طريقة ، بالمصالح الصهيونية .

لكن الأهم بكثير هو ما قاله يونغ للمراسلين من ان التجربة التي مر بها لم تروعه ، وأضاف « لقد جئت اليكم لانني لم اخضع » . يبدو أن القضية الصهيونية طالبت بضحية ؛ ويبدو كذلك أن الرئيس الاميركي كشف مرة أخرى عن وهنه وعجزه بتضحيته بقيادي أمريكي أسود (وصديق شخصي مقرب من الرئيس نفسه) امام الضغوط الوقحة التي تمارسها على الحياة السياسية الامريكية . فلسفة سياسية طائفية متعصبة ضيقة الأفق : وصحيح أيضا وأيضا ان اجتماع يونغ العادي بممثل منظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة زهدي الطرزي قد نال القصاص باعتباره انتهاكا شديدا لسياسة الولايات المتحدة المعلنة ، وباعتباره كذلك خرقا لأحكام مرحلة ما بعد ووترغيت التي لا تقبل من الشخصيات الرسمية اذا كذبت ان تضبط متلبسة لكن الحقيقة أن يونغ أضاف الى خصائصه ومآثره موقفا مبدئيا ذا طابع مستقبلي فيما يختص بحقيقة

وجود منظمة التحرير الفلسطينية . وفوق هذا وذاك ، رسم خطا داخل المجتمع الامريكي ، لا يجوز أن يكون متاحا للسياسة الصهيونية والامبريالية الأمريكية أن تخاطر بتجاوزه بلا عقاب .

النقطة الرئيسية هي أن خطوطا كهذه موجودة ومرسومة فعلا ، حتى إذا لم تكن ظاهرة بجلاء كلي في الوقت الراهن ، فان هناك أناسا وتقاليد ومؤسسات داخل الولايات المتحدة ، مهيأة لرسمها (الخطوط) ، ولتحديد أبعادها ، وللكفاح في سبيل حمايتها . ولقد أطلق يونغ نفسه منذ استقالته ، كما قبلها ، تصريحات أكد فيها وجوب التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية بجدية . وهناك قياديون آخرون من السود ، بمن فيهم جيسي جاكسون رالف أبرناثي ، لم يجدوا حرجا في اعلان دعمهم للحقوق الفلسطينية . وهناك العديد من الشخصيات المستقلة في المجتمع الأمريكي (في أوساط الحركة المناوئة للحرب عادة) تجاهر الآن بالحقوق الفلسطينية . بل إن جيمي كارتر نفسه شبه الحركة الفلسطينية بحركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة ، وهو تشبيه كان ــ بصورة غير اعتيادية ــ أقوى في الواقع ، وبما لا يقارن ، من تعبير « الحقوق الوطنية » ، في داخل البيئة الأمريكية . وهذا كله استوجب الهجمة الصهيونية المتوقعة . ومع ذلك ينبغي لنا أن نلاحظ أن الطرح الصهيوني هو الذي يبدو الآن في الجانب الدفاعي ، وذو وضعية « أجنبية » متزايدة بل وغير مقبولة . وأكثر من ذلك ، فالقضية الفلسطينية أصبحت ولأول مرة على الاطلاق ، تعبيرا للتقدمية السياسية في المعادلات المطروحة راهنا في التشكيلات الأمريكية . فلم يحدث من قبل أبدا أن واجهت الصهيونية مثل هذه المقاومة ، ولم يحدث من قبل أبدا أن خرجت هذه المقاومة من قوة ــ أو تراث ــ يتمتع بهذه المصداقية الأدبية والايجابية البارزة التي يجسدها أندرو يونغ والمجتمع الأسود المنظم .

ومرة أخرى ينبغي هنا ألا نسمح لأنفسنا بالتورط في تحليل تبسيطي ، ولا بالوقوع في وهدة التفاؤل المفرط . فالحرب بين الأمريكيين السود وبين اليهود لم تعلن فجأة . وان منظمة التحرير الفلسطينية لم تزح القضية الصهيونية جانبا لتحل مكانها فورا في الولايات المتحدة . فالتغير يأخذ مجراه منذ ١٩٧٤ ، لكن الحلقة التي لعبها يونغ تمثل المرحلة الدراماتيكية الاولى للتغير الداخلي في التفكير الأمريكي حيال فلسطين .

التحالف بين السود واليهود في موضوع الشرق الأوسط ، لم ينفصم ولم ينفرط عقده طيلة هذه المدة ، لماذا ؟ إذا كان لنا أن نرد على السؤال بصراحة جارحة ، نقول انه كانت هناك مقايضة ، فمقابل الدعم اليهودي الاستثنائي (والنموذجي) لحقوق السود المدنية ، كان هناك استعداد لدى السود لمساندة السياسات الخارجية المؤيدة للصهيونية . إنه التساوق بين الكسب الداخلي وبين الكسب الخارجي لكلا الفريقين . ونضرب لذلك مثال مارتن لوثر كنغ الذي جاهر بمساندته المتحمسة للصهيونية ، والذي كان يتلقى في المقابل دعما إجماعيا من المجتمع اليهودي . وكانت النتيجة أن الصهيونية

ظلت على الدوام تتكيف مع ، وتجد تعبيراتها في قلب الاطار السياسي الاميركي . فالنجاح الصهيوني في الولايات المتحدة وفي سواها من اقطار الغرب ، ارتكز على قدرة الحركة الصهيونية ، على أن تكون جزءا عضويا من سياق متطور وملموس وأخلاقي في داخل المجتمع نفسه . واذا تابعنا الكلام عن المقاومة الفلسطينية مستخدمين التشبيه ذاته ، لقلنا إنها بدت على الدوام خارج ذلك السياق . وجاءت استقالة يونغ لتنهي تلك المقايضة (بين السود واليهود) ، ولتكشف كم كانت تلك الصفقة غير سوية وغير متكافئة وغير متوازية ، على امتداد اعوام واعوام .

من السذاجة القول إنه بسبب الاعتماد الأمريكي على النفط العربي ، نشأ نزاع بين مناصرة الصهيونية وبين التيقن من أنه لن يكون هناك أي استخدام جديد للنفط كسلاح . بعبارة أخرى ، فلو ان الصهيونية قصرت اعتمادها على مصالح الغرب المادية ، لجني المكاسب ، لكانت قد تلاشت منذ أمد بعيد . ذلك أن أناسا مثل ديفيد روكفلر ، وشركات مثل أرامكو ، يعلنون على الملأ منذ عقد من السنين على الاقل ، اهتمامهم بالقضية العربية ، دون أن يشكل ذلك أي تحد للصهيونية في الداخل الأمريكي . لا : فالصهيونية شيدت جانبا عظيما من دعائمها على مرتكزات الوعي الأمريكي ، حتى داخل القطاعات الاجتماعية المشهود لها بمعاداة « المؤسسة » . فبناء عليه ، إن حركتي الحقوق المدنية ، ومناوأة الحرب ، ساندتا الصهيونية حتى الآن ، على الرغم من ــ وليس بسبب ــ الدعم العسكري لاسرائيل كشريك استراتيجي للولايات المتحدة في آسيا .

حسنا . علام إذن كان كل هذا التغير ومن أجل ماذا ، إن لم يكن بدافع القلق على إمدادات الطاقة (وهو قلق يفسر المسألة جزئيا) ؟ لندع جانبا المسلمات والعوامل المتفق عليها تقليديا : أي ، فلنسلم بلا جدل بأن حرب أكتوبر ، والحظر النفطي ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ ، وعملية السلام الجديدة الاسرائيلية ــ المصرية ــ الامريكية ، وسقوط الشاه ، كانت كافة ذات تأثير شديد على الرأسمالية الاحتكارية الامريكية ، وعلى الاستراتيجية الدفاعية الأمريكية ، وعلى التوجه اللاعقلاني المفرط المعادي للسوفيات لدى زبغنيو برجزنسكي وبول نتزي ورونالد ريغان والموزوموالت . لكن اندرو يونغ لم يستقل بسبب النفط ، ولا هو طرح على كارتر وفانس سياسة بديلة للسلم في الشرق الأوسط . فما قاله أندرو يونغ ، وما فعله ، في موضوع منظمة التحرير الفلسطينية ، قاله وفعله ــ في اعتقادي ــ في السياق الأمريكي الداخلي كلية . فاننا امام امريكي اسود قام بتشخيص ، أو على الأصح بترجمة المسألة الفلسطينية من إطارها الأجنبي الخارجي إلى سياق آخر ، حيث وجد أنه ــ وهو الأسود ذو الوعي الذاتي العنصري المرهف ــ يستشعر التعاطف معها . ولقد قاده هذا التعاطف بالضبط الى المكان الذي حرم الصهيونيون الأمريكيون الوصول اليه ، أي ، الى الاقرار ببساطة بالوجود المدني والسياسي للفلسطينيين ، تماما مثلما كانت جماعة التمييز العنصري في الجنوب الأمريكي تنفي وجود الشعب الأسود ، وكان يونغ ، وكينغ واخرون يقولون بوجود جانب سياسي لمشكلة السود .

من هذا المنظور ، فان ما فعله يونغ في منتصف آب ـ أغسطس هو أمر مثلث الجوانب : أولا أنه رد على ركام الانكار الصهيوني والقمع الصهيوني بالتأكيد ببساطة على الحقوق الفلسطينية ، وبلغة حركة الحقوق المدنية الامريكية . ثانيا ، إنه لم يقل ما يتجاوز فحوى طروحات كمب ديفيد ، لكنه تصرف على أن منظمة التحرير الفلسطينية حقيقة لا يمكن إسقاطها : ان معظم الرسميين الأمريكيين يسلمون بأهمية منظمة التحرير الفلسطينية ، لكن أحدا منهم لا يجرؤ على الجهر بموقفه علنا . والجانب الثالث والأهم ، أنه جعل الصهيونيين يهاجمونه لانه تكلم خارج الاطار ، واللغة ، بل وحتى التفكير المسموح به تقليديا حيال الشرق الأوسط . على أن يونغ مشهور كرجل يتكلم بحرية ، وعلى الأقل كرجل حطم قوالب الكلمات المنمقة والقيود المتكلفة المفروضة على السياسي الأمريكي . فما قاله عن وجود سجناء سياسيين في أمريكا لم يكن قابلا للنسيان بسهولة ، مثلما لن ينسى بسهولة أبدا أن يونغ (ابرز سياسي امريكي اسود) طرد فعليا من جانب رئيس جنوبي أبيض يعود في انتخابه في ١٩٧٦ الى يونغ وقطاعه الانتخابي الاسود ، لا إلى الصوت اليهودي . لكن الجانب الأهم في قضية يونغ أن الصهيونية ظهرت في العمل وكأنها قوة خارجية تتصدى لصوت أمريكي داخلي وأصيل . وكان هذا هو النصر الرمزي الرئيسي للكفاح الفلسطيني في الحلبة السياسية الأمريكية .

مما لا ريب فيه أن يونغ سوف يقول المزيد . وسوف تكون هناك مناظرات حامية في الولايات المتحدة بشأن السياسة الشرق أوسطية . أما الادارة الأمريكية فسوف تتابع ـ في المستقبل المنظور ـ عجزها عن اتخاذ القرار وعماها ، مثلما فعلت حتى الآن . وهناك شوط طويل جدا لا بد من قطعه قبل أن نصل الى مرحلة الاعتراف الأمريكي للفلسطينيين بحق تقرير المصير . كيف سيحدث ذلك ومتى ؟ هذا أمر يتوقف في معظمه على النضال الفلسطيني نفسه . فبما أنه في عالم السياسة لا شيء يعطى مجانا ولوجه الله ، فان كل ثورة ـ في التحليل الاخير ـ تحصل على أشياء ، وكل ثورة تقوم بتغيير إطار الظروف والأوضاع ، وكل ثورة تفرض إرادتها على الواقع الراهن . ومن المؤكد أن حادثة يونغ تمثل شهادة على إيجابية المنجزات التي حققها الكفاح الفلسطيني ، مثلما هي شهادة للرجل ووعيه السياسي . ويبقى الجدير بالذكر من جانبنا نحن ، هو أن يونغ لم يفعل في التحليل الاخير ، أكثر من أن عبر عن آراء قطاع آخر ومعارض داخل الحياة الامريكية . فاذا كان يونغ ما زال غير قادر على أن يرى في هزيمة العدوانية الصهيونية الطريق الكفيل بفرض حق تقرير المصير للفلسطينيين ، فمرد ذلك أن أمر فرض الحقيقة وإلحاق الهزيمة بالصهيونيين ، يتوقفان على الثورة الفلسطينية . وساعتئذ سوف يظهر اندرو يونغ آخر ، ويكون له الموقف الصحيح .

سمير كرم

"سالت" بين الوفاق والصراعات الدولية

استغرقت المحادثات التي ادت الى توقيع اول معاهدة للحد من الاسلحة الاستراتيجية (سالت ـ ١) بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي اقل من ثلاث سنوات . فقد بدأت (في هلسنكي) يوم ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ . ووقعت المعاهدة بين الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون وامين عام الحزب الشيوعي السوفياتي ليونيد بريجنيف في موسكو يوم ٢٦ ايار (مايو) ١٩٧٢ .

اما المحادثات التي ادت الى توقيع المعاهدة الثانية للحد من الاسلحة الاستراتيجية (سالت ـ ٢) فقد استغرقت عمليا سبع سنوات ، من تاريخ توقيع المعاهدة الاولى حتى تاريخ توقيع المعاهدة الثانية (في فيينا) يوم ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٧٩ .

والواقع انه كان مقررا لمحادثات « سالت ـ ٢ » ان تستغرق ـ كالاولى ـ ثلاث سنوات ايضا بحيث توقع في غضون العام ١٩٧٥ ، اي في الوقت الذي ينتهي فيه اجل معاهدة سالت ـ ١

ومن المؤكد ان طول فترة المحادثات بالنسبة للمعاهدة الثانية له دلالة ، ليس فقط على صعوبة الموضوعات التي تتناولها هذه المحادثات ومدى تعقيد المسائل التكنولوجية والعسكرية والسياسية التي تنطوي عليها ، انما ايضا على مناخ العلاقات الثنائية بين « الدولتين العظميين » . الامر الذي يدل عليه اختلاف مناخ هذه العلاقات في الفترة من اواخر العام ١٩٦٩ الى منتصف العام ١٩٧٢ ، عنه في الفترة التالية حتى منتصف هذا العام . وهذا يدل بدوره على حقيقة ان محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية وان كانت تخص الدولتين وحدهما ، وان كانت تتعلق فقط بهذا الجانب الاستراتيجي ـ تربطها علاقة مباشرة بالتوازن النووي الاستراتيجي بين قوتيهما العسكريتين .

وعلى هذا الاساس يمكن ادراك التمييز الواضح بين اعتبار « سالت » رمزا ـ مجرد رمز ـ للانفراج او « الوفاق » بين الدولتين العظميين ، واعتبارها هي الانفراج او الوفاق بينهما [1] . ويمكن بالتالي ان ندرك تاثير « سالت » على الوفاق ، و على ما هو اوسع نطاقا بكثير من العلاقات بين الدولتين العظميين .

فقد اصبح من المسلم به ان « الوفاق » يكون بخير طالما سارت محادثات « سالت » سيرا حسنا ، وان الوفاق لا بد ان يتأثر سلبا ان تعثرت هذه المحادثات . فقد اثبتت السنوات العشر الماضية منذ بداية هذه المحادثات ، ان « سالت » هي ابرز رمز على قدرة الدولتين العظميين على الاتفاق فيما بينهما ، والتعاون على تحقيق اهداف مشتركة .

لهذا تبقى العلاقة بين « سالت » والوفاق الدولي هي محور الاهتمام الرئيسي بما استطاعت الدولتان العظميتان تحقيقه وما يمكن ان تحققاه في مرحلة ــ او مراحل ــ ما بعد « سالت ــ ٢ » .

ولقد كان اهتمام الباحثين ابان فترة محادثات « سالت ــ ١ » (٦٩ ــ ١٩٧٢) قد تركز على تحليل جوانب « التقارب » التي حدثت بين المفاهيم الاستراتيجية الاميركية والسوفياتية ــ تلك التي تشكل المذهبين العسكريين للدولتين ــ مما ادى الى تحقيق الحد من الاتفاق الذي خلق فكرة الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، ثم معالجتها والتوصل فيها الى معاهدة محورة المعالم والاهداف .

وفي الوقت الحاضر ، كان اهتمام الباحثين يتجه بالضرورة الى الاهتمام بتعميق فهم هذا الجانب النظري المجرد ، ولكنهم لا بد ان يولوا اهتماما ــ الى جانب هذا ــ بالتأثيرات السياسية لهذا التقارب المفاهيمي الذي سمح بتطوير « سالت » واستمرار نهجها . ولا شك ان فترة السنوات العشر من بداية محادثات سالت ــ ١ الى توقيع سالت ــ ٢ تترك مجالا للدراسة التحليلية التي تستطيع على مدى هذه المساحة الامنية بما تخللها من احداث ، ان تستخلص النتائج منها حول الابعاد السياسية لهذه المحادثات والمعاهدات .. كأساس ضروري رسم صورة مستقبلية للتحولات التي تحدثها هذه المعاهدات على طبيعة الصراع بين الدولتين العظميين ، التي تتزعم احداهما (الولايات المتحدة) دول المعسكر الامبريالي الرأسمالي ، وتتزعم الاخرى (الاتحاد السوفياتي) دول المعسكر التحرري الاشتراكي .

وليس ادل على اهمية مثل هذه الدراسة التحليلية من المزاعم التي رافقت محادثات سالت في مرحلتيها ، وخاصة الاخيرة ، والتي تدور حول اعتبار هذه المحادثات اساسا لتقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين العظيمتين . وهي مزاعم قامت دائما على اساس دبلوماسية « الربط » بين مجالات الصراع المختلفة بين الدولتين المتعلق منها بالحد من الاسلحة او المتعلق منها بمصالح الدولتين ــ والمعسكرين ــ في القضايا الدولية المختلفة .

فقد بدأت محادثات « سالت » كعملية ثنائية مقصورة على الدولتين ، وتختص بجانب واحد من جوانب العلاقات بينهما ، هو جانب سباق التسلح ، بل انها تقتصر على زاوية واحدة من هذا الجانب هي زاوية الاسلحة الاستراتيجية . ولكن طبيعة دور الدولتين العظميين في السياسة الدولية ــ بحكم قوة ما تملكانه وما تستطيعان انتاجه الان ومستقبلا من اسلحة استراتيجية ــ ما كان يمكن ان تبقي ما بدا ثنائيا على حاله ، حتى وان اقتصرت المحادثات على الطرفين ذاتهما حتى الان ، وهو وضع قابل للتغيير مستقبلا ، بل يكاد يكون من المؤكد ان تتحول محاولات الحد من الاسلحة الاستراتيجية في مرحلة سالت ــ ٣ الى عملية متعددة

الاطراف ، على الاقل بحكم دور الدولتين العظميين على رأس حلفين دوليين (الاطلسي ووارسو) .

كذلك فان هذه المحادثات التي بدأت ذات طابع تقني خالص ، يتمثل في اعلى اشكال التقدم التكنولوجي في المجال العسكري ، وهي اشكال لا يرقى اليها غير الدولتين العظميين ، لم تحتفظ بهذا الطابع التقني الخالص ، واصبحت لها ابعاد سياسية تربط بين الجوانب السياسية للمسائل الاستراتيجية لعلاقات القوة بين الكتلتين والجوانب السياسية الاخرى الاوسع نطاقا .. اي الدولية .

ومن ناحية ثالثة فان محادثات سالت بدات عسكرية خالصة . ومع نموها كعملية متطورة فانها تتحول الى عملية عسكرية ـ سياسية ـ اقتصادية . وحتى ايديولوجية في بعض الجوانب . فلكل من جانبي المحادثات فلسفته الخاصة الاقتصادية ـ الاجتماعية ، ومصالحه السياسية المرتبطة بنظامه الاقتصادي ـ الاجتماعي ، كما ان لكل طرف منهما ارتباطات ذات طبيعة ، خاصة تختلف عن طبيعة ارتباطات الطرف الاخر ، سواء بحلفائه المباشرين او بالقوى التي تتمتع بتاييد على الساحة الدولية . ويتبين من تطور عملية « سالت » انها ليست معزولة تماما عن هذه الامور كلها .

وهكذا يصدق التعبير القائل بان محادثات سالت هي « مناخ » وليست فقط « عقدا »[٢] .

وعلى الصعيد العملي فقد دلت الفترة التي تعثرت فيها محادثات « سالت ـ ٢ » (من الموعد الذي كان مقررا لابرامها ـ اي ١٩٧٥ ـ الى الموعد الذي ابرمت فيه فعلا ـ اي ١٩٧٩) على ان تعثرها لم يكن ناجما عن صعاب تقنية خاصة بالاسلحة الاستراتيجية واعدادها وانواعها ومستوياتها ، انما كان ايضا ناجما عن تطورات سياسية لا تتعلق بالاسلحة الاستراتيجية ذات القدرة التدميرية الشاملة لدى الطرفين ، انما تتعلق بصراعات اخرى ربما لا تتجاوز الاسلحة المستخدمة فيها حدود المدفع الرشاش ، او بصراعات ليس للسلاح الحربي دور مباشر فيها !

وهكذا يتضح ان عملية « سالت » هي عملية معقدة وتنطوي على تناقض موضوعي ، بين درجة استقلاليتها عن الصراعات الاخرى ، ودرجة ارتباطها بهذه الصراعات . وكنتيجة لهذا التناقض الموضوعي فان « سالت » سجلت تحولا هاما تمثل في ادراك الدولتين العظميين ـ تحت تاثير التطور التكنولوجي الهائل في مجال التسلح ـ ضرورة تجفيد هذا الشكل الاعلى من اشكال الصراع بينهما ، بحكم ان ممارسة هذا الشكل من الصراع لا تؤدي الى انتصار وهزيمة ، وانما تؤدي الى ابادة متبادلة لطرفيه ، وللاطراف الاخرى جمعاء ، اي للبشرية . ولكن « سالت » سجلت ـ في الوقت نفسه ـ استحالة الغاء اشكال الصراع الاخرى السائدة في العالم . فقد استمرت اشكال الصراع العسكري المتمثلة في حروب محدودة في مناطق مختلفة من العالم ، واشكال الصراع الاقتصادي ، بما فيها الصراع بين الدولتين العظميين والنظامين اللذين يمثلان ، اشكال الصراع الايديولوجي .. الخ .

وبطبيعة الحال فانه ليس من قبيل الصدفة ان تكون الفترة الزمنية التي شهدت محادثات من اواخر الستينات الى اواخر السبعينات ــ وخاصة فترة « سالت ــ ٢ » ــ هي في الوقت نفسه فترة اشتداد حدة صراع البلدان النامية (بلدان العالم الثالث) من اجل تأكيد استقلالها الاقتصادي ، ومحاولة البلدان الرأسمالية حل أزماتها الاقتصادية الحادة على حساب بلدان العالم الثالث باستحداث طرق مختلفة للاستغلال تختلف عن الطرق القديمة . وهي الفترة ذاتها التي شهدت تعاظم دور وتأثير الشركات المتعددة الجنسية ، واستماتة الدول الرأسمالية في محاولات استعادة الفوائض المالية التي حققتها الدول المنتجة للنفط نتيجة لزيادة اسعاره ، وتوظيفها في الاقتصاد الغربي والتجارة الغربية . وبالمقابل فان الفترة نفسها تشهد تعاظم دور الدول الاشتراكية في تأييد نضال دول العالم الثالث من اجل التحرر السياسي والاقتصادي . وقد تعاظم هذا الدور الى درجة لم تألفها الدول الرأسمالية التي تتصدى لهذا التحرر بوجهيه ، ولهذا فانها تعتبر ان الاتحاد السوفياتي قد انتقل الى سياسة هجومية (او عدوانية) تعتمد اساليب الهيمنة وفرض النفوذ .

اشتداد هذه الصراعات

وينبغي في هذا الصدد تسجيل ملاحظتين اساسيتين ؟

□ ان اشتداد هذه الصراعات المحدودة لا بد ان يكون قد اضاف الى أسباب اقتناع الدولتين العظميين بضرورة الحد من اسلحتهما الاستراتيجية ، باعتبار ان زيادة مجالات الاحتكاك بينهما في مناطق العالم ترفع من خطر تحول اي صدام تقليدي محدود الى صدام نووي وشامل .

○ ان اشتداد هذه الصراعات قد فرض على الدولتين العظميين اعباء اقتصادية حادة ، وهي اكثر وطأة على العالم الاشتراكي منها على العالم الرأسمالي . فالعالم الاشتراكي ــ وخاصة الاتحاد السوفياتي ــ مضطر للحفاظ على درجة التعادل ــ على الاقل ــ في التسلح الاستراتيجي مع العالم الرأسمالي ، على الرغم من انه لم يصل الى درجة التعادل الاقتصادي معه . وفي الوقت نفسه كانت ازمة العالم الرأسمالي المتمثلة في تخبط نظامه النقدي ، وفي مشكلات التضخم والبطالة ، تجبره هو الاخر على التفكير في الاثار الاقتصادية الايجابية للحد من الاسلحة الاستراتيجية .

ونعود ــ بعد هاتين الملاحظتين ــ الى النقطة التي كنا بصددها قبلهما ، وهي ان الفترة الاخيرة هي في وقت واحد فترة اتفاق على ضرورة الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، واشتداد حدة الصراعات الدولية من حول الدولتين العظميين . وهذه المفارقة هي سبب ونتيجة ــ في وقت واحد للموقف الدولي الراهن . ولكي تتضح الصورة اكثر يستحسن ان نستعرض الاحداث التي سبقت توقيع المعاهدة الثانية (سالت ــ ٢) اخيرا، والتي اعتبر انها كانت من العوامل التي اخرت توقيع المعاهدة عن موعدها نحو ثلاث سنوات . واهمية هذه الاحداث هي دلالتها بالنسبة لعلاقات التأثير والتأثر بين « الوفاق » الثنائي ، الامريكي ــ السوفياتي ، و« الوفاق » الدولي بمعناه الأوسع . ويلاحظ ان معظم الجولات الهامة من محادثات سالت ــ ٢ ــ خاصة منذ بداية فترة رئاسة جيمي كارتر ــ قد ارتبطت بخلافات حادة بين الدولتين ، حول

مشكلات سياسية حتى ان احد خبراء ـ الشؤون السوفياتية الاميركية قال ان السنة الاولى من حكم كارتر ازالت معظم التفاؤل الاميركي السابق دون ان تبدد الكثير من المخـــاوف الاميركية (٣) .

(١) **صراعات القرن الافريقي** : وما تردد عن دور سوفياتي غير مباشر ، ودور كوبي مباشر ، في احداث هذا الصراع . وكذلك احداث شابا (زائير) ، وما تعتقد الولايات المتحدة انه دور سوفياتي في تأجيج الصراع في روديسيا .

(٢) **الشرق الاوسط** : وخاصة التفرد الاميركي بما اسمته الولايات المتحدة « عملية السلام » التي اسفرت عن «مبادرة السادات»، ثم نتائج ذلك في « كامب ديفيد » و« معاهدة السلام » المصرية ـ الاسرائيلية ، مما ادانه الاتحاد السوفياتي كمؤامرة ضد الشعوب العربية وخاصة ضد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، واعتبره بمثابة تدخل اميركي ضار بصالح الاطراف المختلفة ، بما فيها الاتحاد السوفياتي نفسه نظرا لقربه من المنطقة ولاهتمامه بالسلام والامن فيها .

(٣) **حملة حقوق الانسان**: التي استهل بها الرئيس كارتر فترة رئاسته،والتي اعتبرها الاتحاد السوفياتي من البداية بمثابة تدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى . وقد زاد من حدة هذه المشكلة تركيز الاهتمام الاميركي في هذه الحملة على الدفاع عن « المنشقين السوفيات » ذوي الاتجاهات الصهيونية المكشوفة .

ولعل هذه الحملة ـ وهذا الجانب منها بالذات ـ قد اصاب محادثات « سالت ـ ٢ » باكبر ضرر ، حينما حمل سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي (الجديد) مقترحات الادارة الاميركية الجديدة الى موسكو في اذار (مارس) ١٩٧٧ . وهي مقترحات اعتبرتها موسكو الغاء من جانب واحد لما كان قد تم الاتفاق عليه ـ مبدئيا ـ بين الرئيس الاميركي السابق جيرالد فورد وبريجنيف في « فلاديفو ستوك » عام ١٩٧٤ . غير ان حملة الدفاع عن المنشقين اليهود السوفيات اضافت وقودا الى نار هذه الخلاف . الامر الذي انعكس في تصريح لوزير الخارجية السوفياتي اندريه غروميكو امام فانس في ذلك الوقت كان التصريح من شقين .

ـ « لا يستطيع المرء ان يتحدث عن استقرار حينما تأتي قيادة جديدة وتلغي كل ما تم انجازه من قبل » .

ـ وفي هذا الشق ذكر غروميكو بما سبق الاتفاق عليه في « فلاديفو ستوك » .

ـ « اننا لن نسمح للآخرين بأن يأخذوا منا موقف المحاضرين وان يعلمونا كيف ينبغي ان ندير شؤوننا الداخلية » .

وفي هذا الشق كان رد موسكو القاطع على اي تدخل من اجل « المنشقين » ، وفي الوقت نفسه رفض اي ربط بين « قضية حقوق الانسان » و« محادثات سالت » .

(٤) **الازمة الكوبية الجديدة** : التي كادت ان تنشأ نتيجة ما اثارته الولايات المتحدة حول ارسال الاتحاد السوفياتي سرب طائرات من طراز ميغ ـ ٢٣ السوفياتية الى كوبا . في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ ، وهي طائرات لفتت الولايات المتحدة النظر الى انها يمكن ان تحمل

قنابل نرية ، « الامر الذي يعتبر انتهاكا للاتفاق الاميركي ــ السوفياتي الذي انهى ازمة الصواريخ في كوبا عام ١٩٦٢ ، والذي حظر وجود اسلحة نووية في كوبا . وقد سادت لفترة قصيرة اجواء ازمة كوبا السابقة ، الا انه امكن محاصرة الازمة الجديدة خلال وقت قصير ، اثناء المحادثات التي اجراها فانس وغروميكو في جنيف في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ .

(٥) **الورقة الصينية** : وهو تعبير يلخص الازمة الناجمة عن شكوك الاتحاد السوفياتي في اهداف التقارب الاميركي ــ الصيني الذي بدأ بزيارة زبغنيو برجنسكي مستشار الرئيس الاميركي لشؤون الامن القومي للصين في ايار (مايو) ١٩٧٨ ، حيث كانت الزيارة بالنسبة لبرجنسكي والزعماء الصينيين على السواء فرصة لاظهار مدى الاتفاق بينهما في العداء للاتحاد السوفياتي . وقد بلغ هذا التقارب ذروته في قرار الولايات المتحدة والصين تبادل العلاقات الكاملة بينهما (في بيان مشترك صدر في ١٩٧٨/١٢/١٥) ، واتخذ التقارب الاميركي ــ الصيني صورة احتفالية دعائية واسعة في الزيارة التي قام بها دونغشياو ــ بنغ نائب رئيس الوزراء الصيني للولايات المتحدة في كانون الثاني (يناير) الماضي .

وقد اعلن الرئيس الاميركي بوضوح (في حديث تليفزيوني يوم ١٩/ ١) عن اعتقاده بان اعتراف الولايات المتحدة بالصين الشعبية هو الذي دفع بموسكو الى ارجاء التوصل الى معاهدة « سالت ــ ٢ » ومن ثم تأجيل عقد لقاء القمة بينه وبين بريجنيف [٤] .

اما الاتحاد السوفياتي فقد اعلن انه وان كان يرحب بقرار الولايات المتحدة باعتباره خطوة طبيعية ، بل وصفت « برافدا » هذه الخطوة بانها جاءت متأخرة من جانب الولايات المتحدة ، ولكنها اعربت ــ في الوقت نفسه ــ عن عدم ارتياح ازاء لهجة البيان الاميركي ــ الصيني التي تكشف عن اتفاق اساسه العداء للاتحاد السوفياتي .

وقبلها كان جورجي ارباتوف مدير المعهد السوفياتي للدراسات الاميركية قد صرح بانه « اذا تم بناء محور غربي ــ صيني على اساس العداء السوفياتي عندئذ لن يكون ثمة مكان للوفاق »[٥] .

كيسنجر بين سالت ــ ١ وسالت ــ ٢

وكان من الامور التي لها دلالتها ان هنري كيسنجر وزير الخارجية السابق ، الذي يعد واحدا من اهم « مهندسي » سياسة « الوفاق » وبالتحديد سياسة الحد من الاسلحة الاستراتيجية اتخذ موقفا مناهضا دالا على مدى تأثر محادثات « سالت ــ ٢ » بالتطورات التي وقعت خلال سنواتها .

فقد صرح بقوله : « انظروا لما حدث منذ العام ١٩٧٥ ، ففي غضون فترة تقل عن اربع سنوات رأينا القوات الكوبية في انغولا ، والقوات الكوبية في اثيوبيا ، وشهدنا غزوين لزائير ، وانقلابا شيوعيا في افغانستان ، وانقلابا شيوعيا في اليمن الجنوبي ، واحتلالا لكمبوديا بواسطة فيتنام . وقد تحققت هذه كلها باسلحة سوفياتية وتشجيع سوفياتي ــ وفي حالات كثيرة عن طريق الفيتو السوفياتي في الامم المتحدة » [٦] .

وعندما وقف هنري كيسنجر في اوائل اب (اغسطس) الماضي للادلاء برأيه في مناقشة لجان الكونغرس لمعاهدة « سالت ـ ٢ » (وقد استغرق ذلك سبع ساعات ونصف كاملة) قال ان على الولايات المتحدة ان تسعى الى السلام عن طريق اتباع دربين متوازيين . الاول محاولة ايجاد مجالات للتعاون مع الاتحاد السوفياتي ، والثاني تأمين ان تكون الترسانة العسكرية الاميركية من القوة بدرجة كافية للحفاظ على توازن القوى، واوضح ان احد الاهداف الاساسية من الجهود التي تبذل للحد من الاسلحة الاستراتيجية هو « ايجاد صيغة تحفظ لكلا الدولتين العظميين » قدرة الرد الانتقامي » ضد هجوم نووي ، وهذا يتطلب « خفض الحافز والقدرة مع شن هجوم مفاجيء ... ان القلق على الامن القومي يتطلب ترسانة ضخمة من الاسلحة في الوقت الذي تستمر فيه الجهود لبناء سلام دائم » .

وعندما وصل كيسنجر الى ضرورة تحديد موقف بنعم او لا لمعاهدة « سالت ـ ٢ » فانه اجاب قائلا « نعم . ولكن ... » واعترف بان المعاهدة تتضمن جوانب مفيدة كثيرة ولكنه يتعين على مجلس الشيوخ ان لا يصادق على المعاهدة الا بشروط معينة .

☐ ان يقوم تفاهم ملزم بين الكونغرس والرئيس على معالجة الخطر الجسيم الذي يفرضه الميزان العسكري الراهن . ودعا في هذا الصدد الى زيادة كبيرة في النفقات العسكرية الاميركية للسنة المالية الحالية ، ووضع « خطة خمس سنوات دفاعية » . فاذا لم تكن الادارة الاميركية قادرة على تحقيق هذا الشرط فانه يكون على مجلس الشيوخ ان يؤجل البت في المعاهدة .

☐ ان يصدر مجلس الشيوخ بيانا يلحقه بقرار الموافقة على معاهدة « سالت ـ ٢ » يعلن فيه ان بنود المعاهدة لا تشكل عائقا امام العلاقات التعاونية بين الولايات المتحدة وحلفائها . وذلك لكي تؤكد الولايات المتحدة حقها في اشراك حلفائها في تكنولوجيا الاسلحة ، والاصرار على ان ذلك لا يشكل انتهاكا للمعاهدة .

☐ ان يصدر اعلان واضح وقاطع بان بروتوكول المعاهدة ـ الذي يحظر نصب الصواريخ الطوافة « كروز » التي تطلق من قواعد برية او بحرية ذات اماد تتجاوز ٣٧٣ ميلا (٦٠٠ كيلومتر) ـ لن يمد اجله الى ما بعد العام ١٩٨١ . عندما يحين موعد انتهاء العمل به

☐ ان تصدر مجموعة من التعليمات الى المفاوضين الاميركيين في محادثات « سالت ـ ٣ » بازالة جوانب عدم التكافؤ الناشئة عن معاهدة « سالت ـ ٢ » ، والتي منها السماح للسوفيات بنصب ٣٠٨ صواريخ عملاقة من طراز إس . إس . ـ ١٨ العابرة للقارات ، مع حرمان الولايات المتحدة من تطوير صواريخ قوية مماثلة .

☐ ان يعبر مجلس الشيوخ بطريقة قوية عن وجود « رابطة » بين « سالت » ومسلك السوفيات الجيوبوليتيكي [الجغرافي ـ السياسي] ، بمعنى ان يصبح مفهوما انه ستكون هناك انعكاسات سلبية مع « سالت » اذا غذى السوفيات الصراعات الاقليمية واذا ايدوا جماعات ونشاطات ترمي الى تدمير حكومات صديقة للولايات المتحدة .

وفي هذه النقطة بالذات طالب كيسنجر بان تقدم الادارة الاميركية الى مجلس الشيوخ تقريرا سنويا عن « السلوك الدولي للاتحاد السوفياتي » ، بحيث يصوت المجلس سنويا مع ما

اذا كان السلوك السوفياتي يستحق الاستمرار في اية محادثات تتعلق بالحد من الاسلحة ، تكون جارية اثناء ذلك التصويت .

وحذر كيسنجر من انه بحلول اوائل الثمانينات ستؤدي التحسينات في دقة الصواريخ وتكنولوجيا الرؤوس النووية ، الى جعل السوفيات في مركز يمكنهم من ان يبيدوا تقريبا ، كل ما تملكه الولايات المتحدة من الصواريخ الباليستيكية العابرة للقارات التي تطلق من قواعد ارضية .

بل ان وزير الخارجية الاميركي السابق ذهب الى حد القول : « نادرا ما حدث في التاريخ ان قبلت امة ، بهذا القدر من السلبية (كالولايات المتحدة) تغيرا جذريا كهذا في التوازن العسكري » .

غير ان كيسنجر حذر في الوقت نفسه من ان عدم الموافقة على «سالت ـ٢» سيكون له ثمن يدفع من هيبة الولايات المتحدة ، لان من شأن ذلك « ان يدمر الثقة الدولية في قدرتنا مع ادراك مصالحنا الخاصة او التنسيق بين فروع حكومتنا المختلفة » . كما يمكن ان تكون له اثار سلبية على العلاقات بين الشرق والغرب خالقا « جو ازمة » [٧] .

واذا كنا فصلنا بعض الشيء في رأي هنري كيسنجر في المعاهدة ، فذلك لأنه يعد في اميركا « المهندس المصمم لسياسة الحد من الاسلحة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي » في اوائل السبعينات . وهو في الوقت نفسه صاحب نظرية « الربط » Linkage كما يسميها الاستراتيجيون الاميركيون ، او دبلوماسية « المساومة » كما يسميها المعلقون السوفيات ، والتي تلخص بانها « محاولة قبض الثمن عن اي اتفاق مع السوفيات بشأن الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، من حساب مشكلات اخرى لا علاقة لها مباشرة بمشكلة التوازن الاستراتيجي بين الدولتين » . وتعد هذه النظرية واحدة من اسس تفكير كيسنجر في الاستراتيجية والسياسة الخارجية [٧] .

وهكذا فان كيسنجر ـ والقوى التي يمثلها ، ويمثلها فكره السياسي والاستراتيجي في الولايات المتحدة ـ يقف وراء محاولة استخدام علاقة الوفاق ـ الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (في جانبيهما المتناقضين) لتحقيق مكاسب لمواقع الولايات المتحدة والمعسكر الراسمالي في العالم ، في ضوء الظروف الموضوعية السائدة في العالم ، والتي ذكرناها في « ملاحظتين اساسيتين » و« خمس نقاط » سبقت الاشارة اليها في بحثنا هذا .

ويكاد يكون من المؤكد ان يلعب « التحليل » الذي قدمه كيسنجر امام لجان مجلس الشيوخ ، الدور الرئيسي في توجيه مناقشات تلك اللجان ، ثم في نتيجة التصويت التي سينتهي اليها المجلس ، خاصة ازاء وضعنا في الاعتبار مشكلة الضعف المزمن الذي انتهت اليه ادارة كارتر ، بعد توقيع معاهدة « سالت ـ ٢ » .. بسبب المعاهدة من ناحية ، وبسبب عدد من المشكلات التي اقتضت في الحد من تفاقمها ، مثل ازمة الطاقة والتضخم المالي وانهيار مركز الدولار الاميركي .

واذا كان لا بد من تسجيل رأي اخر بين اتجاهات الآراء الاخرى في الولايات المتحدة ازاء

« سالت ـ ٢ » كتطور يتعلق بالتوازن الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، فان بروز اسم الجنرال الكسندر هيغ في الاشهر التي تخللها توقيع المعاهدة ومناقشتها امام الكونغرس . يجعل اسم هذا العسكري يفرض نفسه بالحاح بين اتجاهات الرأي السائدة . والكسندر هيغ كان حتى اخر شهر حزيران (يونيو) الماضي قائدا عاما لقوات حلف الاطلسي ، وهو معروف منذ ان كان مساعدا لهنري كيسنجر ، عندما كان الاخير رئيسا لمجلس الامن القومي الاميركي . ولكنه بدوره ، وخاصة في الفترة الاخيرة من توليه منصب القائد العام لقوات الاطلسي ، اصبح ممن يدرجون بين « الصقور » في المؤسسة العسكرية الاميركية في شأن عدد من المسائل الدولية ، في مقدمتها التوازن الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وبين حلفي الاطلسي ووارسو ، بل وفي ما يتعلق بمسائل « المصالح الاميركية » في الشرق الاوسط والخليج العربي .

وقد شن الجنرال هيغ هجوما عنيفا على معاهدة « سالت ـ ٢ » من موقع جديد له كواحد من الشخصيات المطروحة لفرض معركة انتخابات الرئاسة الاميركية في العام ١٩٨٠ . وكان من اخطر التقديرات التي قدمها عن حالة الميزان الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قوله « نحن الاميركيين ظللنا في حالة تحذير منذ ازمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ نتيجة شعور زائف بالتفوق على الروس ، بينما كانوا هم يمضون السنوات الخمس عشرة الماضية يبنون الصواريخ . فليس الاتحاد السوفياتي اقوى من الولايات المتحدة استراتيجيا فحسب ، بل ان اي قيادة جديدة هناك معرضة لان تكون مصابة بجنون العظمة » .

ووجه الجنرال هيغ تحذيرا الى مجلس الشيوخ بضرورة تأخير التصديق على معاهدة « سالت ـ ٢ » الى ان يتم تعديلها او تزيد ادارة كارتر ميزانية الدفاع زيادة ضخمة . وقال انه لو كان عضوا في مجلس الشيوخ لما صوت مع المعاهدة (٨) .

واذا اخذنا بعين الاعتبار ـ بالاضافة الى ضعف ادارة كارتر ـ الازمة الحادة التي تمر بها الرأسمالية الاميركية ، والتي يمكن ان تدفعها باتجاه اختيار رئيس عسكري . فاننا نستطيع ان نتوقع تعمق التيار الذي يمثله الكسندر هيغ واشتداد نفوذه . وهو تيار يدفع باتجاه دعم سباق التسلح النووي . من خلال المطالبة بزيادة النفقات العسكرية ، وباتجاه انتهاج سياسة مواجهة مع الاتحاد السوفياتي وتصعيد للتوترات في مناطق العالم المختلفة .

ومن المناسب ان نذكر هنا ان « ادارة بحوث الكونغرس » التابعة لمكتبة الكونغرس العامة نشرت مؤخرا (١٩٧٩/١/٤) قائمة باسماء الاسلحة الاستراتيجية التي « يمكن صنعها بطريقة قانونية في ظل معاهدة سالت ـ ٢ » والتي ـ في ظل اجواء يخلقها التيار الذي يعبر عنه الجنرال هيغ ـ سيتم صنعها بالتاكيد . وتضم القائمة اعدادا من الصواريخ وانظمة الاسلحة الهجومية والدفاعية يقدر لها ان تكلف مئات المليارات من الدولارات خلال سنوات الثمانينات .

ويجدر بنا أن نشير هنا الى ان هيئة اركان الحرب المشتركة الاميركية . قررت تأييد المعاهدة امام الكونغرس .

ولا يعني هذا اننا نتصور ـ بالضرورة ـ ان المعارضة الداخلية في الولايات المتحدة ستتمكن

من الصمود في وجه معاهدة « سالت ـ ٢ » وستحبط عملية تمريرها في مجلس الشيوخ . ذلك ان المسألة ليست مرهونة بارادة هذه القوى المعارضة او بمشاريعها السياسية والعسكرية . انما هي مرهونة اساسا بما تعترف به هذه القوى قبل غيرها من تقدم الاتحاد السوفياتي في مجال الاسلحة الاستراتيجية الى حد لا يمكن معه التعامل مع مسائل العلاقات الثنائية ولا العلاقات الدولية على الاسس نفسها التي كانت سائدة عندما كان للولايات المتحدة تفوق استراتيجي حاسم على الاتحاد السوفياتي . فضلا عن انه ليس من المسلم به لدى الجميع في الولايات المتحدة ان زيادة الانفاق العسكري (وخاصة على التسلح الاستراتيجي الباهظ) يمكن ان يخرج الولايات من ازمتها الاقتصادية الخطيرة ، خاصة اذا وضعنا في الحسبان اعتبارات المنافسة الاقتصادية ـ المتزايدة حدة بين الولايات المتحدة والدول الحليفة لها .

قد تجر معاهدة « سالت ـ ٢ » طريقها الى تصديق الكونغرس الاميركي . وعلى اثرها ستبدأ مباشرة المحادثات لتوقيع « سالت ـ ٣ » ـ وستكون هذه بمثابة نقلة نوعية في جهود الحد من الاسلحة الاستراتيجية على نطاق عالمي . ولكن القوى الداخلية في الولايات المتحدة التي تعارض هذا الاتجاه للتطورات الدولية ستجد دائما حججا امنية وايديولوجية واجتماعية تستند اليها في موقفها الرافض . وبمعنى اوضح فان ازدواج الرأي في الولايات المتحدة بازاء هذه المسألة قابل للاستمرار لامد طويل ، وبالتالي كان تعقيد عملية « سالت » قابل ايضا للاستمرار ، ليس فقط بسبب ازدواجية الرأي في الولايات المتحدة ازاء مسألة التوازن الاستراتيجي ، انما ايضا بسبب المؤثرات الخارجية على هذه المسألة : ابتداء من الثورة التكنولوجية ، الى حركة التحرر الوطني العالمية ، الى ازمة الرأسمالية العالمية .

توازن .. واختلال

مع ذلك فانه لا بد من التسليم بان لمفاوضات « سالت » درجة من الاستقلالية عن الاحداث والتطورات المحيطة بها ، على الاقل من زاوية كونها تدور في دائرة الدولتين العظميين وحدهما ، وحتى اذا توسعت مع بداية المحادثات حول « سالت ـ ٣ » لتشمل عددا من الدول الاوروبية (الغربية والشرقية) فانها ستبقى داخل اطار التفوق التكنولوجي لهذه الدول المعدودة وانعكاسات هذا التفوق على المشاكل الامنية للعلاقات بين « القوى الكبرى » . وبالتالي ـ وبقدر هذه الاستقلالية ـ تلعب مشكلة الثقة بين المعسكرين الراسمالي والاشتراكي دورا خطرا في تكوين تصورات كل منهما ومدى استعداده للالتزام بما يتم التوصل اليه من اتفاقات ، وايضا مدى استعداده لتصديق التزام الطرف الآخر بها . وهنا لا بد من الاشارة الى ان كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قد اكتسبا معرفة اكبر بكل منهما الآخر خلال السنوات العشر التي مضت منذ بدء محادثات « سالت » عام ١٩٦٩ . وهي معرفة كان جانب كبير منها ضروريا لتوصلهما الى الحد من الاتفاق الذي توصلا اليه ، سواء في « سالت ـ ١ » او « سالت ـ ٢ » .

وهكذا نستطيع ان نلمح صعودا في درجة الثقة المتبادلة بين الطرفين نتيجة لهذا « الفهم »

(ولا نقول التفاهم) من مستوى بعيد بلغته في « سالت ـ ١ » الى مستوى اعلى بلغته في « سالت ـ ٢ » على الرغم من استمرار الصراع بين الدولتين في كافة ـ المجالات ، بما فيه مجال التسلح الاستراتيجي نفسه . ونشأ عن هذا الفهم ادراك بانه لم يعد ثمة مفر من المضي قدما في عملية الحد من الاسلحة الاستراتيجية ووقف سباق التسلح الاستراتيجي . اي انه نشأ ادراك متبادل لضرورة الاتفاق على تجميد هذا الشكل من اشكال الصراع في ابعادها التي تعني ـ اذا انطلق انصارها واذا لم يتم اتفاق على تجميدها ـ فناء طرفي الصراع . وقد كان تجميد هذا الشكل من الصراع محكوما بعامل « الرعب النووي » ـ رعب الدمار الشامل للخصمين بل للبشرية جمعاء ـ مع استمرار التناقض بين النظامين ومصالحهما واهدافهما .. غير انه من الواضح ان طاقة الصراع الناشئة عن هذا التناقض تتجه ، اكثر من قبل ، نحو اشكال الصراع التي لا تدخل دائرة الدمار الشامل ، اي الى اشكال مثل الحروب المحدودة والتنافس الاقتصادي والتكنولوجي .

وينبغي عن هذا الجانب من الموضوع ان نتنبه الى حقيقة ان وصول معرفة الدولتين الكبريين بامكانيات الدمار الشامل التي تملكها كل منهما الى حد التسليم بضرورة وضع حد لمزيد من التراكم لقدرات التدمير الاستراتيجية قد سبق حدوث توازن موازي في قدرات الدولتين بشكل عام. بمعنى ان الاتحاد السوفياتي الذي استطاع ان يحقق الكثير في تطوير قدراته العسكرية الاستراتيجية خلال السنوات العشرين الماضية ، وانجز فتوحات تكنولوجية ضخمة في مجالات التكنولوجيا الفضائية ذات العلاقة المباشرة او غير المباشرة بالقدرة العسكرية (مثل مجال الفضاء) ـ لا يزال دون مستوى الولايات المتحدة من حيث القوة الاجمالية الاقتصادية ـ ولا ينطبق هذا على مجموع دول المعسكرين ، حيث لا يزال المعسكر الراسمالي متقدما اقتصاديا على المعسكر الاشتراكي بمقاييس اجمالي الانتاج القومي ، ودخل الفرد ، والكفاية الانتاجية للقوى العاملة ، وحتى في حجم التراكم الراسمالي اللازم للاستثمارات ونسبته من الدخل القومي . وتنعكس هذه المفارقة في حقيقة لا بد من ان تتضح عند تقييم اهمية ما حققه الاتحاد السوفياتي من توازن استراتيجي مع قوة الولايات المتحدة العسكرية ، وهي ان ما يتحمله الدخل القومي السوفياتي ـ وبالتالي دخل الفرد السوفياتي ـ من نصيب لتحقيق هذا التقدم الاستراتيجي يقدر بضعف ـ واكثر من ضعف ـ ما يتحمله الدخل القومي الاميركي ـ ودخل الفرد الاميركي ـ في سبيل الحفاظ على هذا التوازن .

وهنا يبرز عامل « العقيدة » او التوجيه الايديولوجي الذي مكن النظام السوفياتي من جعل هذه التضحية ممكنة في المجتمع السوفياتي .. وهو عامل له اثاره ليس فقط على تحقيق هذا التوازن ، بل له اثاره بالنسبة لاي تصور بامكان حدوث الصدام العسكري الفعلي بين الدولتين او المعسكرين . وبمعنى اوضح فانه اذا كانت « الايديولوجيا » قد لعبت دورا في تمكين الدولة الاشتراكية من تحقيق هذا الانجاز في المجال العسكري الاستراتيجي (النووي والتقليدي في الواقع) فانه من المتوقع ان تلعب ايضا دورها المؤثر في حالة ما اذا وضع هذا الانحاز موضع الاختبار العملي في صدام عسكري على اي مسرح كان . وبالفعل فقد بدأ الكتاب الاستراتيجيون الغربيون انفسهم ـ في وقت متأخر ـ يتنبهون الى ما للبعد الايديولوجي ـ والاجتماعي ـ من اهمية في مشكلة التوازن الاستراتيجي ، وظهرت في السنوات الخمس الاخيرة بحوث ودراسات

(معظمها صدر عن مراكز للدراسات الاستراتيجية او من بعض الجامعات والمعاهد المعنية بالشؤون الاستراتيجية والتي تقوم بدور استشاري بالنسبة لحكومات غربية ، وخاصة في الولايات المتحدة) ، تدعو الى اللحاق بالدول الاشتراكية في الاهتمام بهذا الجانب . وتتوصل هذه الدراسات الى استنتاجات محددة في ما يتعلق بدور الايديولوجيا الاجتماعية في اي « سيناريو محتمل » لاستراتيجية يجري وضعها او لحرب يتصور وقوعها.

وعلى سبيل المثال نجد مفكرا استراتيجيا غربيا مثل مايكل هوارد (استاذ تاريخ الحرب في جامعة اكسفورد البريطانية) يكتب بحثا مستفيضا عن « الابعاد المنسية للاستراتيجية » يقول فيه : «. اذا نشبت حرب نووية على الاطلاق فانها ستنشب هنا (يقصد في اوروبا) على الارجح ، وفي اوروبا من شأن مثل هذا الصراع ان ينطوي لا على مجرد تبادل اطلاق الصواريخ النووية العابرة للقارات ، انما سينطوي على صراع قوات مسلحة للسيطرة على الارض ، وبالاحرى على ارض ذات كثافة سكانية عالية . والاهتمام الذي يبديه الكتاب السوفيات في مسار مثل هذه الحرب ، والذي قد يجده بعض الكتاب في الغرب اهتماما شريرا للغاية ، يبدو لي من قبيل الحس السليم لا اكثر .. ان الاهتمام الذي يوليه الكتاب السوفيات لاهمية استقرار البنية الاجتماعية لأي دولة مشتركة في حرب نووية يبدو لي ايضا امرا له ما يبرره تماما .. ».

ويضيف هوارد الى ذلك قوله :

« لا يمكن ان يقوم شك ولو ضئيل في ان مجتمعات ، كمجتمعي الاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين الشعبية ، قد طورت اليات (ميكانيزمات) قوية للسيطرة الاجتماعية ، وتتمتع بميزة اولية ظاهرة على مجتمعات الغرب التي تعمل وفق اتفاقات في الرأي يتم التوصل اليها من خلال خلافات وصراعات محتملة .. واذا اخذنا في الحسبان البعد الاجتماعي للاستراتيجية في العصر النووي فانه من المرجح ان نستنتج ان القادة الغربيين قد يجدون من الصعب للغاية عليهم ان يبدأوا حربا ذرية اكثر مما يصعب ذلك على اقرانهم السوفيات » (٨) .

ولنأخذ مثلا آخر للاهتمام بالبعد الاجتماعي في التفكير الاستراتيجي الغربي . ونجد هذا المثل فيما يقوله الاميركي ريتشارد بارنت « الزميل » بمعهد الدراسات السياسية :

« ان واحدا من التهديدات الرئيسية التي تتعرض لها قوة الولايات المتحدة واستقرارها الاقتصادي ومكانتها ، لا يمكن ازالته باستخدام القوة العسكرية . فتماما كما ان الصور المأساوية لآخر الطائرات الاميركية ــ وهي تغادر سايغون المحاصرة كانت ترمز الى عجز الولايات المتحدة عن استخدام قوتها العسكرية بنجاح في ثورة بعيدة ، كذلك فان مليارات الدولارات قيمة المعدات الحربية المعقدة التي ترقد مشلولة الى جانب حقول النفط المضربة والمباني المحترقة في ايران ترمز الى عدم مناسبة القوة السياسية المستوردة للحركات السياسية المحلية .. القوة العسكرية لن تمكننا من مساندة الدولار ــ او المحافظة على قدرة الوصول الى مصادر الثروة الحرجة ، او ممارسة نفوذ سياسي على نحو ما كنا نفعل » (٩) .

لكن ثمة بعدا آخر لأهتمام الغرب بالبعد الايديولوجي والاجتماعي لمشكلة التوازن

الاستراتيجي ، وتأثيراتها على مواقف الاتحاد السوفياتي بالنسبة لمحادثات « سالت ــ ٢ » . هذا البعد المهم هو محاولة فهم « العقيدة العسكرية السوفياتية » فهما نظريا من خلال العقيدة الفكرية للقادة السوفيات ، او بالاحرى العقيدة التي يقوم عليها النظام الاجتماعي السوفياتي ككل ، وهي الماركسية ــ اللينينية . ومن هنا برز الاهتمام بالمضامين الاستراتيجية ــ العسكرية للماركسية ــ اللينينية ، وانعكاساتها وتفسيراتها في كتابات الاستراتجيين السوفيات . وخاصة العسكريين منهم .

وفي هذا الصدد يلاحظ ان معظم الكتابات الغربية ــ وخاصة الاميركية ــ وقع تحت تاثير النظرية الغربية القائلة بتقارب الراسمالية والاشتراكية ، والتي تذهب الى ان الواقع المتطور ياخذ افضل ما في النظامين ، وانه بالتالي لن يكون مجتمع المستقبل لا رأسماليا ولا اشتراكيا ، وانما مزيج منهما جديد في خصائصه . فاتجهت ابحاث الاستراتجيين الاميركيين خاصة في محاولتهم لفهم تطور الفكر الاستراتيجي والعسكري السوفياتي نحو رؤية جوانب الاتفاق والتماثل فيما توصل اليه الاستراتيجيون الغربيون والسوفيات من استنتاجات حول قضايا الحرب والاستراتيجية والقوة النووية ... الخ .

وثمة استنتاج اخر توصل اليه الكتاب الاستراتيجيون الغربيون يذهب الى ان العسكريين يلعبون الدور الأكبر في رسم الاستراتيجية العسكرية السوفياتية ، في حين ان الفكر العسكري الاستراتيجي في الولايات المتحدة هو شأن من شؤون مفكرين مدنيين بالدرجة الاولى . ورتبوا على هذا الاستنتاج عددا من الامور ، منها لدى اهتمام العسكريين السوفيات انفسهم بمحادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية وفي هذا الصدد يقول رايموند غارتهوف كبير مستشاري وزارة الخارجية الاميركية في وفد الولايات المتحدة الى محادثات « سالت ــ ١ » .

« خلال الجولات الثلاث الاولى من سالت ، من اواخر العام ١٩٦٩ « نهاية العام ١٩٧٠ ، كان العضو الثاني في الوفد السوفياتي هو الكولونيل جنرال (الجنرال في الجيش الآن) نيكولاي اونماركوف ــ وكان وقتها نائب رئيس اركان القوات المسلحة السوفياتية . وحينما يكرس رجل له هذا المركز الكبير والمسؤوليات الواسعة ثمانية اشهر من فترة ١٤ شهرا ليكون في وفد بالخارج ــ بالاضافة الى ما قضاه من وقت في موسكو للاعداد لكل جولة مفاوضات ــ فان هذا يبرهن على مدى الجدية التي تعزوها الحكومة السوفياتية والعسكريون السوفيات لمحادثات سالت(١) .

ويضيف غارتهوف « ان العسكريين السوفيات هم الذين توصلوا في العام ١٩٦٩ الى النتيجة القائلة بان التفوق الاستراتيجي ــ بمعنى قدرة توجيه الضربة الاولى مع السماح بالافلات من ضربة انتقامية ساحقة ــ لم تعد ممكنة لاي من الجانبين في الظروف المعاصرة . وانه نتيجة لهذا دخل الى حيز الوجود نوع من التوازن النووي من حيث قدرات التدمير المتبادل وفي الوقت نفسه فقد اقلقهم امكان تعرض هذا التوازن للتهديد اذا حقق احد الطرفين (الولايات المتحدة) دفاعا صاروخيا مضادا على درجة عالية من الكفاية بينما لم يحرز الطرف الاخر (الاتحاد السوفياتي) على مثل هذا الدفاع » (١٢) .

وتؤكد كتابات غربية عديدة ان الاستراتجيين الغربيين (الاميركيين بالتحديد) قد توصلوا الى النتيجة نفسها في حوالى هذا الوقت نفسه حينما خرجوا بـ « نظرية الجنون » (نظرية « التدمير المؤكد المتبادل » Mutual Assured Destruction — وتكتب اختصارا بحروفها الاولى MAD ومعناها « مجنون ») . كما تؤكد هذه الكتابات ان اهتمام الاتحاد السوفياتي والاميركيين المدنيين بالقضايا الاستراتيجية قد نما مع تفاصيل محادثات « سالت » في وقت واحد تقريبا .

مع ذلك فان هناك اختلافات عديدة بين التصورات والمفاهيم السوفياتية والاميركية التي تحكم مواقف الدولتين في محادثات « سالت » ، والتي ستظل تحكمها حتى في المرحلة التالية من هذه المحادثات التي ينتظر ان تتسع لأطراف دولية اخرى (اوروبا الشرقية والغربية) .

وتشمل هذه الاختلافات مفاهيم « الردع » و« التوازن » و« الخوف المتبادل » ، وبالتالي بانها تتناول اهداف كل من الطرفين من وراء التوصل الى معاهدات « سالت » .

وعلى سبيل المثال يعتبر روبرت لينغفولد (عضو مجلس العلاقات الخارجية الاميركي — نيويورك) ان مفهوم « الردع » لدى الولايات المتحدة هو « بناء عقلي من صنع مدنيين وتمتد جذوره في النظرية السيكولوجية او نظرية التنافس ، وليس في النظرية التنظيمية احدى نظريات العلم العسكري . اما بالنسبة للاتحاد السوفياتي فانه مفهوم عرضي ، او هو اثر جانبي ينشأ عن انجاز مهام اخرى اولية ، منها سياسة خارجية قوية ودفاع منيع » بل يلاحظ لينغفولد انه لا يوجد مقابل في اللغة الروسية للكلمة الانكليزية Deterrence (الردع) ، وان هم القادة العسكريين السوفيات الاول هو الانتصار في الحرب [١٣] . (وكأنه يريد ان يقول ان الامر ليس كذلك بالنسبة للقادة العسكريين الاميركيين !).

ويولي مفكر استراتيجي اميركي اخر اهتماما لتطور مفهوم السوفيات عن « الهجوم المفاجيء » من الاعتقاد خلال الخمسينات بان الهجوم المفاجيء في العصر الذري ليس من مشكلة ان يكون حاسما في حرب بين الاتحاد السوفياتي والامبريالية الاميركية ، وان سيكون بامكان القوات المسلحة السوفياتية — حتى اذا تعرض الاتحاد السوفياتي لهجوم نووي مفاجيء — ان ترد الهجوم بنجاح وان توجه ضربات مضادة للعدو ، وان تضمن النصر ... الى مفهوم عكسي — في اواخر الستينات — يقول بان الهجوم المفاجيء في العصر النووي يمكن ان يكون حاسما ، وبالتالي فانه لا بد من توجيه العقيدة العسكرية وجهة ترتكز على جعل الهجوم المفاجيء امرا غير ممكن عمليا [١٤] .

ويستدل من هذا التطور على صحة الرأي القائل بان محادثات « سالت » هي في الحقيقة عملية ذات ثلاثة جوانب ، فهي ليست فقط محادثات ثنائية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، وانما هي ايضا نقاش دائر داخل الاتحاد السوفياتي ، ونقاش دائر داخل الولايات المتحدة . وهو نقاش دار في معظمه حول محدودية الفائدة السياسية التي يمكن ان تجنى من وراء سباق التسلح الاستراتيجي ، بل حتى من وجود الحد القائم من هذا التسلح ، خاصة اذا قورنت باضرار هذا السباق الاقتصادية .

مع ذلك فان التطور بالنسبة للحد من الاسلحة الاستراتيجية يتجه بها بعيدا عن الطابع الثنائي الذي بدأت به واحتفظت به حتى توقيع « سالت ــ ٢ » في حزيران (يونيو) الماضي . والواقع ان اوروبا الغربية هي الطرف الاكثر اهتماما بمحادثات « سالت » بين كل المناطق الجغرافية في العالم خارج اطار الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وذلك بسبب قرب اوروبا الغربية الشديد من الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية الى حد خطر . ويلاحظ ان الخطين المتعارضين في النظر الى محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية (وخاصة « سالت ــ ٢) اللذين لاحظنا وجودهما في الولايات المتحدة موجودان بالمثل في اوروبا الغربية .

فهناك من ينبه الى ان تركيز محادثات « سالت » على الاسلحة الاستراتيجية البعيدة المدى التي يستطيع بها الاتحاد السوفياتي ان يصيب اهدافا في الولايات المتحدة ، وتلك التي تستطيع بها الولايات المتحدة ان تصيب اهدافا في الاتحاد السوفياتي معناه حماية الولايات المتحدة من هجوم نووي سوفياتي ولكنه لا يعني حماية لأوروبا الغربية من هجوم كهذا ، بل ان ما اتفق عليه في « سالت ــ ٢ » من تخفيض للاسلحة الاستراتيجية يحدد قدرة الولايات المتحدة على حماية اوروبا الغربية (١٥) .

وقد ذكر بيير ليلوش الخبير الاستراتيجي بمعهد العلاقات الدولية الفرنسي « ان « سالت ــ ٢ » ليست صفقة سيئة بالنسبة للولايات المتحدة ، ومن المحتمل انها تعكس بامانة التوازن الاستراتيجي القائم ، ولكني وانا اجلس في الوسط ــ في اوروبا ــ لا ارتاح اليها قدر انملة »(١٦) . وقالت مجلة « تايم » الاميركية قبل وقت قصير من توقيع « سالت ــ ٢ » ان كثيرا من زعماء اوروبا الغربية يشاركون ليلوش رأيه ، ويخشون ان تكون النتيجة الرئيسية للمعاهدة هي تحويل مركز سباق التسلح من الترسانات « الاستراتيجية » الى « الترسانات » التكتيكية » ، اي الى المواجهة بين الشرق والغرب في اوروبا نفسها . ونقلت عن مسؤول بوزارة الدفاع في بون قوله « ان سالت ــ ٢ رائعة ولكنها لا يمكن ان تعتبر اكثر من بداية طيبة . ونحن ننتظر بشغف شديد سالت ــ ٣ لدى شيئا يمكن عمله في النهاية بشأن الصواريخ الباليستيكية المتوسطة المدى » .

ولكن هناك رأيا اخر يعلق اهمية كبيرة على محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية ويعتبر ان امتناع الكونغرس الاميركي عن التصديق على « سالت ــ ٢ » ــ اذا حدث ــ سيكون بمثابة كارثة على عملية التقارب بين الشرق والغرب ، باعتبار ان هذه المفاوضات اصبحت « باروميتر » الوفاق والتجسيد الرئيسي له . ويرى اصحاب هذا الرأي ان اي انقلاب في تيار الوفاق الذي تعبر عنه « سالت » نحو علاقات اكثر عدائية هو امر غير مرغوب فيه اطلاقا ، وسيخلق مشكلات استقطاب سياسي داخلي في كل من فرنسا ، وايطاليا (حيث يوجد اكبر حزبين شيوعيين في العالم الغربي) والمانيا الغربية ، (التي تعلق اهمية كبيرة على تحسين علاقاتها مع جاراتها الشرقية) .

مع ذلك فان اصحاب هذا الرأي وذاك متفقون على ان توقيع « سالت ــ ٢ » يطرح بالحاح مشكلة « التوازن الاوروبي » وهي مشكلة تتجاوز حدود الاسلحة الاستراتيجية الى القوات التقليدية (غير النووية) بين قوات حلفي الاطلسي ووارسو .

وهكذا فقد بدات ــ خارج الاطار الرسمي ــ مناقشة الاستراتيجيين الغربيين لما يسمى لمشكلة « المنطقة الرمادية » ، وهو تعبير يقصد به المجال الواقع بين الاسلحة الاستراتيجية والاسلحة التكتيكية فيما ينطبق جغرافيا على اوروبا الغربية . وبلغ حجم الاهتمام بهذه المنطقة حد القول بانها « ستاتي من حيث الترتيب بعد مشكلة الدولار على جدول اعمال العلاقات بين الولايات المتحدة واوروبا في السنوات العديدة المقبلة » (١٨) .

واصبح في حكم المؤكد ان تدخل مشكلة الصواريخ المتوسطة المدى في محادثات « سالت ــ ٣ » ، وان تصبح خلال الاشهر او السنوات القادمة واحدة من المسائل الرئيسية بين الدول الغربية والاتحاد السوفياتي من ناحية وداخل حلف الاطلسي من ناحية اخرى ، كما ستكون مشكلة من مشكلات السياسة الداخلية لعدد كبير من الدول الاوروبية (١٩) . (صاحب هذا الرأي ــ فرانسوا دي بوز ــ كان سفيرا لفرنسا لدى حلف الاطلسي طوال الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٥ . وتربطه علاقة وثيقة لعدة سنوات بالبرامج النووية الفرنسية العسكرية والمدنية) . بل ان ابيل وزير الدفاع في المانيا الغربية حذر الولايات المتحدة في العام الماضي من ان « سالت ــ ٢ » ستؤدي الى ترك الولايات المتحدة في مواجهة قوة ساحقة من الاسلحة السوفياتية في المنطقة الرمادية ، وان حل مشكلة المنطقة الرمادية هو واحد من اكثر المهام الامنية اهمية ، التي تواجه حلف الاطلسي اليوم (٢٠) . وبدأ الحديث عن تعمق شكوك الدول الاوروبية الحليفة للولايات المتحدة في قدرة الاخيرة على حماية المصالح الامنية الاوروبية ، او في اهتمامها بذلك . ولهذا فانه من المؤكد ان مفاوضات مضنية بين الولايات المتحدة وحلفائها في اوروبا الغربية حول هذه المسألة الامنية الرئيسية ستسبق اية مفاوضات في اطار « سالت ــ ٣ » بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وذلك فيما يوصف « بمرحلة تخطيط ضرورية يتم فيها تحديد وتحليل الخيارات ، وتسبق مرحلة اتخاذ القرار باختيار واحد او اكثر من هذه الخيارات لوضعه موضع التنفيذ . اي انه لا بد من التوصل داخل الغرب الى اتفاق في الرأي حول هدف واتجاه وحدود الاستراتيجية الغربية للحد من التسلح . ولما كان التوصل الى مثل هذا الاتفاق في الرأي قد امنت انه امر صعب في داخل الولايات المتحدة نفسها خلال السنوات العشر الماضية ، فانه من المؤكد ان يكون اشد صعوبة حينما يدخل فيه حلفاء اوروبيون او غيرهم (كاليابان مثلا) . بل ان التوصل الى اتفاق في الرأي داخل اوروبا الغربية نفسها سيكون امرا صعبا للغاية بسبب الاختلافات الكامنة في وجهات النظر والتقديرات للمخاطر والمواقف من الاسلحة الذرية بين دولها. فـ«حلف الاطلسي» ــ على الرغم من تاريخ امتد ٣٠ عاما ــ يفتقر الى الخبرة بخلق اتفاق في الرأي السياسي وفي اتخاذ قرارات جماعية للتحالف خاصة في مجال المفاوضات بين الشرق والغرب في ما يتعلق بالامور المتصلة بالاسلحة النووية ، وهي امور تنطوي على مسائل خطيرة بالنسبة للامن القومي والبقاء (٢١) .

وبطبيعة الحال ، عندما تثار الامور المتعلقة بامن اوروبا الغربية ، تثار في الوقت نفسه الامور المتعلقة بامن اوروبا الشرقية . وهنا تلعب عوامل عديدة دورها في تحديد الصعوبات امام « سالت ــ ٣ » . هناك عامل الجغرافيا حيث الحليف الرئيسي لأوروبا الشرقية ، (اي الاتحاد السوفياتي) قريب منها لا يحتاج الى عبور قارات لمساندتها ، بل ان بينه وبين دول اوروبا

الشرقية حدودا مشتركة . في حين ان الحليف الرئيسي لأوروبا الغربية (الولايات المتحدة) تفصله عنها مياه المحيط الاطلسي بما يعنيه ذلك من اعتبارات عسكرية وعملياتية . وهناك عامل الايديولوجيا ، حيث العلاقة بين الاتحاد السوفياتي وحلفائه في اوروبا الشرقية (وان كنا نستبعد تصورها علاقة تطابق كامل في وجهات النظر والاهداف والتقديرات والمصالح) تستند الى توجه ايديولوجي ، بما لذلك من انعكاسات تفصيلية على الميادين العسكرية والسياسية حتى ابسط اشكالها ، كوحدة التدريب وتكامل برامج التسليح والتوجيه المعنوي .. الخ . وهناك عامل السياسة حيث لوجود الاحزاب الشيوعية ـ مثلا ـ داخل اوروبا الغربية تأثيره الاكيد على تكوين مواقف دولها سواء تجاه الولايات المتحدة او تجاه الاتحاد السوفياتي ، في حين لا يوجد وجود موازن لهذه الاحزاب وتأثيرها على الجانب الشرقي من اوروبا .

وهكذا نجد ان الاتحاد السوفياتي يستفيد من دخول اوروبا الشرقية طرفا في محادثات « سالت ـ ٣ » ، حتى في حالة اصرار اوروبا الغربية على طرح مشكلة « المنطقة الرمادية » . في حين ان اشتراك اوروبا الغربية الى جانب الولايات المتحدة في هذه المحادثات سيكون من شأنه تعقيد الامور عليها . خاصة وان لفرنسا ـ مثلا ـ سياسة نووية مستقلة ترفض في اطارها الى الان توقيع معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية وحظر اجراء التجارب الذرية في الجو ، فضلا عن موقفها الخاص من حلف الاطلسي الذي انسحبت من هيئته العسكرية منذ ١٠ سنوات . وحتى اذا فكرنا في اطراف اوروبية شرقية لا تشارك الاتحاد السوفياتي في وجهات نظره بالكامل ـ مثل يوغوسلافيا ورومانيا ـ لا بد ان تضع في الاعتبار ان قربها من الاتحاد السوفياتي ، بقدر بعد اوروبا الغربية عن الولايات المتحدة يجعلها تتردد كثيرا قبل تبني اي سياسة استراتيجية تعتمد على التقارب مع الولايات المتحدة البعيدة اكثر مما تعتمد على الاقتراب من الاتحاد السوفياتي القريب . والعكس بالعكس بالنسبة لدول اوروبا الغربية التي تجد نفسها في موقع القريب من « الخطر » .. البعيد عن « الحليف » .

الواقع ان الاتحاد السوفياتي قد جنى ثمار انجازه المتعادل الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، والذي لولاه لما كانت تحققت كل خطوات الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، لان هذه المحادثات مبنية على اساس اعتراف متبادل بهذا التعادل وبضرورة الحفاظ عليه . ومع تحييد القوة الاستراتيجية للدولتين العظميين ـ بحكم هذا، التعادل نفسه . تعود التناقضات الاخرى لتلعب الدور الرئيسي في الصراع بين النظامين الاشتراكي و الامبريالي . ولكن هذا لا يعني اغفال حقيقة ان الاتحاد السوفياتي بحكم تحقيق هذا التوازن نفسه قد وضع الأساس الضروري لحرية حركة النظام الاشتراكي وحركة التحرر الوطني العالمية في مواجهة الامبريالية دون خوف من جبروتها العسكري . ومن شأن التطورات المستقبلية ان تقيم تقييما موضوعيا وسليما قيمة هذه الخطوة التاريخية بالنسبة لمصير الانسانية ، ككل ، على الاقل في المسائل الدولية ، وفي مصائر اقطار العالم وشعوبه .

الحـواشي

(1) Christoph Bertram (ed.), The Future of Arms Control: Part I, Beyond Salt II, (Adelphi Papers No. 141) *The International Institute for Strategic Studies*, London, 1978, *p.* 2.

(٢) محمد سيد احمد ، الانعكاسات الدولية لتوقيع اتفاقية « سولت ـ ٢ » ، السياسة الدولية ، القاهرة ، العدد ٥٦ ، ابريل ١٩٧٩ ، ص ٣١١ .

(3) Adam Ulam, U.S.-Soviet Relations: Unhappy Coexistence, *Foreign Affairs,* America and the World, 1978, *p.* 556.

(4) *International Herald Tribune,* 20 January 1979., *p.* 1.

(5) *International Herald Tribune*, November 11-12, 1978, *p.* 5.

(6) Kissinger's Critique, *The Economist,* Feb. 3, 1979.

(7) *Time*, August 13, 1979.

(٨) لمزيد من التفاصيل عن نظرية « الربط » انظر :

سمير كرم : « معادلة التوازن الاستراتيجي ، بين سحر التكنولوجيا والعقيدة العسكرية » ، شؤون فلسطينية ، العدد ٨٠ ، تموز (يوليو) ١٩٧٨ .

(9) *International Herald Tribune,* August 8, 1979.

(10) Howard, Michael, «The Forgotten Dimensions of Strategy», *Foreign Affairs*, Summer 1979, *pp.* 982-86.

(11) Barnet, J. Richard, «U.S.-Soviet Relations: The Need for a Comprehensive Approach», *Foreign Affairs*, Spring 1979, *pp.* 791-92.

(١٢) انظر على سبيل المثال :

Sienkiewicz, Stanley: «Salt and Soviet Nuclear Doctrine», *International Security*, Spring 1978, pp. 84-100.

- Legvold, Robert, «Strategic Doctrine and Salt: Soviet and American Views», *Survival*, January-February 1979. *pp.* 8-13.

(13) Garthoff, Raymond L., «Salt and the Soviet Military», *Problems of Communism*, January - February 1975.

(14) *Ibid.*

(15) Legvold, *Op. Cit.*

(16) Sienkiewicz, *Op. Cit.*

(17) Williams, Phil, Salt, Strategy and Atlantic Relations, RUSI, *Journal of the Royal United Services Institute for Defence Studies,* London, March 1979.

(18) *Time,* May 21, 1979.

(19) Williams, *Op. Cit.*

(20) Treverton, Gregory, «Nuclear Weapons and the Grey Area», *Foreign Affairs,* Summer 1979, *p.* 1975.

(21) Rose, Franscois de, The Future of Salt and Western Security in Europe, *Foreign Affairs*, Summer 1979, *p.* 1065.

Paul, Arms Control Enters the Grey Area, *International Security*, Winter 1978-79

(22) *International Herald Tribune*, September 18, 1975.

(23) Metzger, Robert and Doty,

فـواز تـركي

نص الغربــة

في تلك الايام كانت بيروت لا تـزال اثـرا لظل مـن ماضينا الاستعماري . وداخل بطنها كان يعيش عدد لا يحصى من النفوس المحرومة من حقوقها الطبيعية والانسانية وهي من عالم الفقراء والعاجزين وعديمي الجنسية . وكانوا يتدفقون الى الشوارع طوال النهار وطوال الليل ، كل يوم وكل ليلة من ايام السنة ولياليها ، في نوع من المشاركة المعقدة مع مدينة طال جنونها من اختبارها الاستعماري وحدة اله . وكان بائعو بطاقات اليانصيب يطوفون في شوارعها ويصرخون بالامهم الى السماء ، تماما كما يفعل بائعو العلكة وماسحو الاحذية وتجار السوق السوداء والقوادون والمتسولون والاحداث الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة بعد ، وجميعهم يمتصون شقاءهم كأنه القلب النابض لاحد الأكوان . وكان الفقراء يضربون الفقراء ، والعاجزون يدفعون العاجزين، وعديمو الجنسية ينخسون عديمي الجنسية . وكأبناء اية مدينة اخرى من مدن العالم الثالث ، كانوا يخدشون باصابع عتيقة وينفسون عن عدوانهم ضد بعضهم البعض ويتنافسون على ملكية الشوارع وعلى عالم لا وجودهم المشوه . وفي لحظة بشعة من الوقت المتزامن ، تعايش مع هذا العالم ، وعلى مسافة صرخة ألم مهموسة منه ، العالم الآخر للاثرياء والاقوياء والدولة . ومدفوعا بالعواطف المستوردة والاحتياجات الغربيــة المتنافرة ، قام هذا العالم بعيدا عن الحياة ، بعيدا عن لبنان . ولم يكن لواقعه واقع ، فيما عدا واقع تغذية الغيظ الذي صار فيما بعد اكثر عنفا من ان تحتويه حدود البلد الصغير .

وربما لم يعرف الأسياد والحكام المطلقون ، المحليون والاستعماريون ، الذين كانوا قد اعادوا تجميع الواقع السياسي والاقتصادي للبنان استجابة لمصالحهم ، ان بيروت ، والبلد الذي هي عاصمته ، لا يمكن ان تبقى الى اجل غير محدود موطنا لقوتين تتعارض احداهما ديالكتيكيا الى هذا الحد مع الاخرى . او ربما كانوا يعرفون لا يستطيع احد التأكد من ذلك .

اطوف في شوارع المدينة اليوم ، في شتاء ١٩٧٩ ، باحثا عن بقايا ضئيلة لكسرة او كسرتين قد اكون تركتها ورائي لعشرين سنة خلت . وتحت الاطلال لا ارى الا الوهم الساذج لماضي المدينة .

ومع هذا فههنا نشأت ، في الشوارع ، مع جيل من الفلسطينيين الذين كانوا مجرد اطفال

عندما غادروا فلسطين . وكان في بيروت ، في العالم الدمر لمخيمات اللاجئين ، ان قمت بقفزتي الاصلية الى وعي ناضج وان كونت نظرتي الى العالم . وكان هنا ان اعيد جمع امتنا في المنفى ، جمعا اقوى منه في اي جزء آخر من اجزاء غربتنا . وكان هنا ان خلقت صيغ الوعي الباطني لجيلي الوطن الوجودي الاصيل الوحيد في العالم ، وهو وطن كانت علته وتوتراته الجماعية ، طيلة هذه السنين ، جزءا لا يتجزأ من جغرافية روحي .

اليوم في بيروت ابحث عن الصلة التي تربط جيلي من الفلسطينيين بجيلين آخرين – جيل والدي وذلك الجيل الذي ولد ونشأ كليا في المنفى . ولعلي بفعل ذلك سأتعلم شيئا عن المشاغل الداخلية للنفس الوطنية للفلسطينيين، وعما يؤلف أبعاد وطن وجودي. وقد اتعلم لماذا لايوجد اي انقطاع في الصلة التي تربط وعيي بوعي الفلسطينيين الآخرين الذين « بقوا » في لبنان واماكن اخرى . وقد اكتسب فكرة متماسكة عن كيف ان روح كل جيل كان قد نشأ عن نفس الباعث ، عن الرغبة في العودة الى فلسطين ، على الرغم من كون كل جيل قد جلب معه على نحو محتوم شيئا مختلفا ـ ظلا من الفارق يضاف الى هويتنا، توترا خاصا يتميزبه. وكيف ان رؤيا العودة، الكثيرة الشيوع في ادابنا وفولكلورنا وعادات تبادلنا الاحتفالي ، قد غدت اختبارا متقاسما ، كالدين والاسطورة ، وثبت الفلسطيني الفرد من خلالها مجموعة معانيه .

جئت الى هنا، الى بيروت لاجد اجوبة عن نفسي كما عن شعبي . واظل اسأل لماذا . لماذا تبقى الميثولوجيا الناشطة لجيل والدي ، عند المستويات المنوية للارتباط بها ، مطابقة لميثولوجيتي ؟ وما هي الطاقة المعقدة واء كون لغة واستعارة الفلسطينيين في كل مكان تتميزان بشبه داخلي لهم ، استقلال مغلف خاص بهم . ولماذا لم نختلف كليا في انفساح غربتنا ؟ ولماذا في مواضعنا المجزأة المتباينة ، في الضفة الغربية وغزة و« داخل اسرائيل » ، وفي الكويت والعربية السعودية وسورية واجزاء اخرى من العالم العربي ، وفي استراليا والولايات المتحدة واوروبا ، لم نفقد قبضتنا على فلسطيني بوصفها المرجع الوحيد في حياتنا اليومية ، حتى بعدما فقدت فلسطين مسوغاتها الجغرافية بوقت طويل ؟ ولماذا في كل مرة عاد بها فلسطيني الى لا وعيه ، لينشد تحديداته الذاتية ، وليضم جراح حاسة آخريته ، كان على اتصال بلا وعي جماعي متجذر في فلسطين ؟ ولماذا تحولت فلسطين الى فكرة بقدر ما هي ارض ودخلت ، بمثل هذا اليأس ، نفس الفلسطينيين واضطرم فيها اللهب ، فغدت المصدر البنيوي الوحيد لتوتراتهم ، ولوضعهم الوجودي والاختباري ؟

البعض بحث عن اجوبة اكاديمية لكل هذه الاسئلة وعثر عليها في سوسيولوجية الملعونين ، سوسيولوجية شعب اختبر خسارة تتخطى كل فهم عقلاني . حينما حاولت ان اعين سبب هواجسي ، معتمدا على موارد داخلية لايسعني ادراكها ولا تفسيرها ، وجدت جوابا واحدا . فانا اعتقد حقا اننا في الواقع لم نغادر فلسطين ابدا . اخذناها فحسب معنا ، سنة ١٩٤٨ ، ونقلناها ، سليمة ، الى الاماكن المختلفة في الغربة التي سكناها منذ ذلك الحين . واعلم انني لم اعش قط خارج فلسطين منذ ذلك الوقت ، لثلاثين سنة خلت ، عندما كنت طفلا في الثامنة ورحلنا انا وعائلتي على طول الطريق الساحلية من حيفا الى بيروت بحثا عن ملجأ . لقد حملت كسرة من فلسطين معي ، طيلة هذه الاعوام ، في اوروبا ، في الهند ، في استراليا ، في الولايات المتحدة ، وهي احتوتني في داخلها . وكل مرة حاولت ان اتركها ، مخبولا بحاسة آخريتي وتباعدي ،

برغبتي في الخلاص من الم كوني مختلفا ، ادركت انني كنت اخرج من صيغة المضارع في قواعد روحي .

لدى عودتي الى بيروت في شتاء ١٩٧٩ ، كنت آنذاك ازور من جديد قطعة من فلسطين في لبنان ، واحيا من جديد اختبارا كانت له قيمة مركزية مهمة في حياتي . واردت ايضا ان ارى اين ينطبق مكاني ، عند هذه المرحلة الحاسمة من تحولي الذاتي ، في امة فصلت عنها جغرافيا هذه السنين العشرين الماضية ، ولماذا بقيت هذه الامة ، على نحو لا يصدق بما لها من موارد قليلة ظاهريا ورغم تكرار الانقضاضات على حياتها واوصالها . واردت ان ارى أيا من اقربائي واصدقائي بقي على قيد الحياة . واردت ان اطالب باسترداد ملكية جزء من ماضي في بيروت ، وهو ماض ادرك ان سكونه المتجهم قد مهد الطريق للحماسة التي تميز هوية ذلك الجيل من الفلسطينيين الذي جاء بعد جيلي.واخيرااردت ان ارى متى، في اي يوم قد يأتي وقد لايأتي، سوف ننبش جميع الالعاب،جميع الممتلكات غير الملموسة، التي تركناها في عليات وطننا. وجادلت رومنطيقيا بانني ربما اذ ادخل نفسي في محيط فليسطيني صرف حيث يعقد الناس صفقات يومية مع التاريخ،فان نار فلسطين الخلاقة ستغمرني،وفكرت انني ربما استطعت ، والصورة تمارس سحرا غريبا على ذهني ، ان ألمس فحسب طفلا من تل الزعتر ، نجا من الاعمال الوحشية البربرية التي انزلت في مخيم اللاجئين ذاك في ١٩٧٦ — المسه باصابعي الهشة التي لا تفعل اكثر من ان تضرب المفاتيح الخرساء لالة كاتبة كل يوم ، وسأستمد من اللمسة سحرا من النوع الذي سيضيف معنى الى توافه عملي في الولايات المتحدة . وفي وقت ما سأعرف لماذا ، من بين جميع الأشياء التي تقوم في علاقة حيوية متبادلة مع ثقافتنا ، قد اقحم شيء كرشيش الكلاشينكوف ، المستورد من روسيا ، نفسه في ميثولوجية حياتنا اليومية وشعرنا وفولكلورنا ورقصنا .

بيد انه كان ثمة شيء اكثر من النار الخلاقة والسحر في اللمسة المستمدة من بقاء طفل من تل الزعتر في زيارتي الى امتنا في المنفى ، بعد عشرين سنة من الغياب عنها .

اصل الى بيروت في يوم بارد من ايام شتاء ١٩٧٩ ، وجراح المدينة من الحرب الاهلية واشتباكاتها الطبقية لا تزال دامية وغير مندملة . ويلتقيني عند الطائرة فلسطيني متوسط العمر من « الحركة » يعتمر قبعة صوفية روسية . ويقول : « انا ابو كريم » .

لحظتي الاولى هنا واختبار هبوب نفحة من فلسطين « التي بقيت في لبنان » هما عميقا العاطفة ..هذا فلسطيني حقيقي ، باسم مثل ابو كريم ، يتكلم بلهجة فلسطينية حقيقية ، واقفا هناك على الطريق المسفلتة ، مبتسما ومادا يده لاصافحها . وحبست ما انا متأكد انه دفق من الدموع . واقول ، علي ان اضبط نفسي ، فكيف سيكون رد فعلي للقاءات تنطوي على شحنات عاطفية اكبر ، ولزيارة مخيم لاجئي برج البراجنة من جديد حيث ترعرعت ، وجميع المخيمات الاخرى في لبنان ، التي هي مصدر لقدر كبير من الطاقة المعقدة في فلسطينيتنا وتاريخنا ؟

ونتعانق انا وابو كريم ويقبل واحدنا الاخر على الوجنتين كما هي العادة في ثقافتنا . انه يبتسم لي بكثير من الدفء ويتمتم مكررا « اهلا ، اهلا ، اهلا بك يا اخ » .

داخل المطار ، وراء حواجز الجمرك والهجرة ، هناك مئات من اللبنانيين العرب ينتظرون

وصول الركاب . ولهم جميعا وجوه عربية جميلة ، وجوه سامية عتيقة ببشرة سمراء وعيون سوداء . واحدق بهم ، ويختلف هذا بالنسبة لي عن رؤية عرب في حالة اجتماعية او قاعة محاضرات في الولايات المتحدة . هؤلاء هم عرب في العالم العربي ، خاضوا حروبا مختلفة في لبنان ، ومزقت حياتهم الام لا حصر لها . واذ انظر الى وجوههم متسائلا كيف حولتها التوترات المستمرة طيلة العقدين الماضيين ، ادركانني انظر الى الوجوه ايضا بنوع من الوجل والقلق ، وكأن وترا حساسا اصيب في ، مطلقا مخاوف قديمة . ربما كان الخوف الذي خامرني دائما في العالم العربي حيث ان اكون فلسطينيا في تلك الايام كان يعني ان اكون الآخر والأقل في نظام الاشياء ، للصيد للسباب من قبل هؤلاء الذين ارادوك دوما قريبا من الباب من اجل الطرد او الابعاد او السجن السهل .

استدير ويطلب مني ابو كريم ان اعطيه جواز سفري ورقع امتعتي . فافعل ذلك ونعبر الجمرك دون ان يفتشوا حقائبي ، ونمر عبر دائرة الهجرة ويختم جواز سفري في غيابي . واتساءل : كيف يستطيع ان يفعل ذلك ونحن **فلسطينيون** ؟

ومع انني اعي ، فكريا على الأقل ، التغييرات التي حصلت هنا ، فما زالت توجعني صور الفلسطينيين الموحشة في العالم العربي التي اخذتها معي عندما تركت هذا المكان لعشرين سنة خلت . وظللت افكر ان شرطيا ما سيعتقلني في اية لحظة الآن بوصفي فلسطينيا « شيوعيا ملحدا » ويورطني في مؤامرة ما لاحداث تغيير تحويلي في المجتمع . انا مثل رجل اصيب بالعمى ويستمر في ادراك واقعه في سياق صور يتذكرها .

خارج المطار اقع اسير مشهد يحبس الانفاس ، مشهد حميم ومتمم لطفولتي في بيروت حتى ان جميع حواسي تجفل . انه مشهد شارع،وسائقو سيارات الاجرة يحومون حول مركباتهم والبائعون واولاد العلكة والحمالون والصيارفة وكثيرون غيرهم ممن اختاروا منطقة المطار ليقوموا فيها باعمالهم ، جميعهم يصرخون في بعضهم البعض ، وفي العالم حولهم ، او يمتدحون صفات ما هم يبيعون . واصاب بالدوار من حدة المشهد والألم . اذ ها هنا ترعرعت ، وهكذا ترعرعت كطفل ، لعدد من السنين بعد ١٩٤٨ ، في شوارع بيروت ، بائعا ، سارقا ، جائعا ، متشاجرا ، وشاقا طريقي في الحياة . ها هنا اكتسبت تربيتي الاصلية قبل ان ابدأ في اكتساب مظهر تربية اكاديمية . في هذه الشوارع عينها . ويمد طفل لا يكاد يبلغ العاشرة ، مرتديا سترة رجل اكبر حجما منه ، صندوقا من العلكة في اتجاهي : « علكة ، ارجوك ! » .

هذا ليس صحيحا . هذا ليس واقعيا . الم يتغير شيء في لبنان ؟ حرب اهلية ازهقت ارواح الالوف ، من المقاتلين والمدنيين ، ولم يتغير شيء . كيف يمكن ان يقال ان شيئا قد تغير في لبنان اذا كان ما يزال هناك اطفال في الشوارع يبيعون العلكة ؟

« انا عربي » اقول لهم ، لجميع الاطفال المتجمهرين حولي ومعهم علب علكة التشكلس الممدودة نحوي وكأنها نياشين الشقاء والهزيمة . « لست اجنبيا . انا فلسطيني » اقول لهم وهم يكلمونني بنوع من الانكليزية .

واظل اقول : « انا عربي . انا فلسطيني » . وكأنني اريد فجأة ان اخلع كل السخام الفكري عن جسدي وروحي الذي اكتسبته في غربتي الغربية ، واحس بدافع قوي لمجرد الوقوف

في وسطهم . اريد ان اصرخ : « انا فلسطيني . انا عربي مثلكم». منذ وقت ليس ببعيد كان ألمكم ألمي ايضا . لا اشعر به اليوم ، ولكنه لا يزال ألمي . لا يزال جزءا من تقليد تصريحي وكفاف رؤياي . كل ما تعلمته في الغرب ، كل فكرة اعتنقتها ، هو مجرد مستحضر تجميل اضيف الى تلك القفزة الاولى لنضوجي التي قمت بها هنا، معكم،وافهم كل شيء ، ولا استعمل غير حاسة فلسطينيتي الاصلية . افهم . افهم لماذا كان يقف الرجال والنساء والاولاد بذل في الصف خارج مستودع اغذية تابع للاونروا كل شهر ، ليتسلموا حصتهم من الغذاء ، في مخيم لاجئي برج البراجنة ، ولماذا القوا نظرات مختلسة الى بعضهم البعض ، واصواتهم ، كوجوههم ، مليئة باليأس الهادىء . وافهم لماذا ذهب الرجال بعشرات الالوف الى شبه الجزيرة العربية ليعملوا في حقول النفط مقابل اجور زهيدة ، والنوم في صناديق من الصفيح هي بيوت مصنوعة مقدما ، كل عشرة في صندوق ، فيما تركوا وراءهم اطفالا وزوجات ووالدين . وافهم لماذا الاطفال في غرف الصف في المدارس التي كنت اذهب اليها في بيروت ارتجفوا تحت ثيابهم في وسط الشتاء . وافهم لماذا كان الفلسطينيون ينقلون من مكان لآخر ، مدة اشهر ، في دائرة الاجانب في وزارة الداخلية لمجرد الحصول على تصريح للسفر خارج البلاد (واحيانا داخل البلاد) لزيارة قريب او السعي وراء وظيفة . وافهم لماذا نحن ، كفلسطينيين ، اختبرنا درجة لا يمكن تصورها من الارهاب خلال اسفارنا في الخارج كاشخاص عديمي الجنسية ، اذ نعبر الحدود بقطعة من الورق صورتنا ملصقة عليها ، تشهد على اننا لا ننتمي الى جنسية معترف بها ، ولا نتمتع بحمايات وقوانين اية حكومة او مؤسسات او دولة معترف بها . وافهم الوحشية المرضية لرجال الشرطة والمسؤولين والبيروقراطيين وعملاء المخابرات والعرب المتغربين المتعجرفين عندما يتفاعلون معنا ، نحن بائسي عالمهم . وافهم كم يصير صعبا ، عندما اكشف عن جنسيتي لشخص ما في الولايات المتحدة ، حيث اعيش ، ان اتقاسم انسانيتي مع الناس ، وان اثبت انني لست ، اننا لسنا جميعا ، قتلة سفاحين ارهابيين مكرسين لممارسة العنف في حياتنا اليومية . وافهم أن مصدر حاسة آخريتي في الولايات المتحدة لا تنبع مني بل من الآخرين الذين يفرضونها علي ، وان ليس ثمة شيء استطيع فعله لاتسلق الجدران العنصرية التي يشيدونها بيننا . وافهم الافكار عن اللاشيء في نفوس النساء في مدننا في العالم العربي اللواتي يغطين وجوههن بالشالات ويجررن الاولاد وراءهن . وافهم ايضا افكار الرجال العاطلين عن العمل الجالسين في المقاهي في الغيتوات ومخيمات اللاجئين في بيروت ، يحركون ببطء كؤوس الشاي ويمصون النرجيلات . وافهم ما يعنيه ان تكون شعبا محتلا او منفيا او مساء فهمه ولماذا لا اقول شيئا الى اميركي يعلو انفه الكلف ويسأل لماذا نقتل دائما النساء والاطفال . وافهم لماذا جلست الكثيرات من الامهات الفلسطينيات بجانب جثث ابنائهن او بناتهن الذين سقطوا في المعركة وضربن صدورهن ووجوههن بيأس وحزن . وافهم التشوشات التي تمتم بها والدي ، عن العودة ، فيما اضطجع يحتضر في غيتونا في بيروت . وافهم لماذا نفكر افكارنا . افهم كل هذا واكثر بكثير . والفرق الوحيد بيني وبينك هو ان ثمة عنصرا فكريا اساسيا لفهمي ، مما يجعل معرفتي اقل تماسكا من معرفتك . ولكني اعرف ان الصفحات في يوم من الايام ستنقلب ، وان الاوراق في يوم من الايام ستتساقط ، وان الخريف سيفسح الطريق للثلج النظيف .

□

تحملني سيارة يقودها احد رجال ابو كريم نحو المدينة . والسائق فتى مراهق يدعى محمود . وعلمت فيما بعد انه ينتمي الى وحدة احتياط في فتح وقد خاض الحرب الاهلية في لبنان ، كما خاض ما يسميه الفلسطينيون حرب الايام الثمانية ، اي الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان في آذار(مارس) ١٩٧٨ .

يحدثني محمود بطريقة متوترة ومثيرة ، اشتبه بانها تنتمي الى هؤلاء الذين يخوضون صراعا من اجل البقاء كل يوم . ان اشخاصا مثله يعرفون كم هم عرضة للخطر في الحياة ، ويحيون ايامهم عند درجة وعي اعلى باستمرار من درجة وعي الآخرين ، لا بد ان يجمعوا احتياطات عظيمة من القوة والدقائق العاطفية .

يريد ان يعرف ماذا « فعلوا » بي في الولايات المتحدة . ويقول بكثير من الايماءات الفكهة : « يا اخ ، تشبه واحدا منهم ، بلحيتك وشعرك » .

في الطريق الى البلدة نعبر عدة نقاط تفتيش ولكنهم يلوحون لنا بالمرور . ويكتفي محمود بالاعراب عن ازدرائه ويكمل سيره . قبل ان نصل الى الغيتو الفلسطيني ، حيث امضي ليلة مع عائلتي ، يوقفوننا عند نقطة تفتيش اخرى . ويدخل جندي مكسو ببطانية رأسه عبر النافذة .

ويطلب منا بفظاظه : « بطاقات الهوية » .

ويعود الخوف . الخوف من الرسميين العرب ، من رجال الشرطة والجنود والممثلين الآخرين للسلطة الحكومية، الذي كان جزءا من الرعب في حياتي كفلسطيني في العالم العربي في الخمسينات . لدي جواز سفر ساري المفعول ، وتأشيرة الى لبنان ويرافقني شخص من « الحركة » ومع هذا فان اللقاء يطلق في بواعث لا عقلانية لا يسعني السيطرة عليها ، ووخزات خوف لم اختبرها منذ عشرين سنة . ويذكرني ذلك بالعبد الهارب في اميركا الذي يعود الى الجنوب ، بعد الغاء الاستعباد بوقت طويل ، ويسمع على حين غرة لهجة جنوبية ، وتتصاعد من لا وعيه مخاوف اعتقد انها اختفت الى الابد .

يتفحص الجندي بطاقة هوية محمود الصادرة عن فتح ويعيدها على الفور . واسلمه انا جواز سفري الاسترالي ، وهو جواز سفر كان معي منذ ان صرت مواطنا استراليا متجنسا في ١٩٦٤ . ويحيره جواز السفر ويريد ان يعرف ما اذا كان لدي بطاقة هوية لبنانية . وعندما اقول لا ، يصر على انه لا بد ان يكون لدي بطاقة هوية عربية وعندما اقول انني لا املك تلك ايضا ، يأخذ في الصراخ بنوع من الالحاح اليائس في صوته انه لا بد ان يكون لدي على الاقل وثيقة « عربية » من نوع ما .

ويأخذ محمود في الصراخ فعلا الآن في الرجل قائلا له الا يزعج « احد ضيوف الثورة » . ويلين الجندي ويدعنا نذهب .

المزاج السياسي لبيروت ، مغزى حياتها الايديولوجية ، هو ها هنا يحلق بي في وجهي — على الجدران . فكل جدار لكل منطقة نمر بها مغطاة بالشعارات السياسية وبالصور الكبيرة التي بحجم الملصقات لرجال ونساء قتلوا في المعركة . والشعارات على الجدران تعلن عن التضامن والصراع والتحرير والتحالفات والاعياد السنوية .

غدا هو اليوم الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ . انها ذكرى السنة الرابعة عشرة لبروز الثورة الفلسطينية . وهناك اعلام ، في منطقة البسطة ، حيث تعيش عائلتي وحيث تسيطر عناصر من قيادة الكفاح المسلح الفلسطيني والحركة الوطنية اللبنانية ، وجميعها تحتفل بالحدث . وغدا سيقوم ١٠ الاف فدائي بمسيرة في استاد الرياضة ، ومن المتوقع ان يحضر مئة الف مشاهد . والليلة سأرى عما قريب عائلتي ، على الاقل تلك الاجزاء منها التي لم تطرد من البلاد او تقتل .

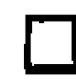
لا بد ان تكون امي سيدة عجوزا متغضنة. شقيقي مع الثورة . ولن اعرف اعمامي وعماتي واخوالي وخالاتي . وابناء العمومة وبنات العمومة وازواجهم وزوجاتهم لم ارهم ابدا . والليلة اتأمل في ذكرى موت والدي ، والسخرية الملازمة له . ففي مثل يوم غد لاربع عشرة سنة خلت مات والدي ، في اليوم نفسه الذي ولدت فيه الثورة .

اعرف كيف احتفل بذكرى ولادة الثورة . ولكن كيف اندب موت ابي ؟ كنت اعرف كيف اندب ابي لو انه مات باسباب طبيعية ، بمرض معين معترف به ، او من الشيخوخة ، او حتى لو مات موتا عنيفا . الا ان ابي مات من شيء آخر . فقد مات من عدم قدرته على الاجابة عن السؤال ، الذي لا بد وان يكون طرحه تكرار اطوال تلك السنين منذ عام ١٩٤٨ ، وله علاقة بلماذا حدث كل هذا لنا .

في ١٩٤٨ كان ابي يعيش في حيفا . كان فقيرا ، كمعظم الفلسطينيين . وكمعظم الفلسطينيين كان ابيا كذلك ، لأنه يعيش في مدينته ، ولديه عمله الصغير ، ويلعب النرد مع اصدقائه في مقاهي الشوارع الجانبية من المدينة ، ويعيل عائلته . وبعد ١٩٤٨ ، نقل الى عالم اعتبر فيه غير موجود في مخيم للاجئين حيث تحولت انسانيته وهويته الى مجرد كسرة . كان الانتقال مفاجئا ، لا يمكن تفسيرة الى حد انه كان يخنقه . وكلما فكر في الامر ، كلما مزقت الفكرة روحه الى نتف من الجراح النازفة ، من اللافهم المشدوه . وفي بداية كل شهر ، كان يصطف عند مخزن الأغذية ليتلقى حصته من الأغذية ، التي تكفينا اسبوعا على وجه التقريب . وبعد ذلك كنا نجوع ، ونبرد ونشعر بالوحدة .

لم يعرف لماذا انهار كل شيء حوله . ولم يستطع التعامل مع تحوله المفاجيء من فلسطيني عربي ابي مكتف بذاته ، الى شيء غير موجود ينتمي الى شعب يصار الى دفعة دفعا خارج صفحات كتب التاريخ . ولما كان مجهزا فقط بصوره التقليدية ، التي افادته في تحديد مجتمع الفلاحين الذين كان هو نتاجا له ، فقد عجز عن تفسير لماذا سلب حقه في الحياة في بلاده .

كان شعر والدي اسود فاحما في ١٩٤٨ ولكنه في اوائل الخمسينات كان يتحول الى لون الثلج . كان يتغضن،وامله ، كصوته ، كان يفقد حدته . لم تكن لديه اجوبة واراد ان يموت فحسب .



ومع هذا اعلم انني لا يجب ان اهتم . لقد حشد ابي ماضيه واستجاب له ، على افضل طريقة يعرفها ، في الحياة وفي الموت . وانا حشدت ماضي . وعندما افكر فيه ، اجد انني نموت

مع العنف تماما كما نموت مع جلدي . لقد ازدهر العنف والموت في تقارب وثيق لكل لحظة ، لكل لقاء ، في حياتي . وحتى وانا طفل كنت اتعلم ، عن العنف الذي يستطيع التاريخ ان ينزله في الروح ، في الايمان في عقلانية الآن او الحياة الاخروية .

كان العنف في شكليه النفسي والمادي دائما يسيطر على حياتي . ومع هذا ففي تلك الفترات الهادئة التي اختبرتها احيانا ، وجد داخلي ، على طول ذكرى الألم والدمار ، شعور محبة قويا الى الحد ذاته ، تأكيد على امكانية العدالة والحرية الانسانية، حارما العنف من احتكار النفس . وحتى كفتى في الثامنة من عمري ، يوجد لدي ذكريات تركتها ورائي . ذكريات على السير والراحة والسير على طول طريق الساحل الى الحدود اللبنانية سعيا وراء ملجأ . وامرأة فلاحة تضع مولودا على قارعة الطريق . والام مخاضها تجعلها تطلق اصواتا طيفية . وامي بسبحة صلاتها تتوسل الالهة ان تسهل الطريق . وعلى الطريق ينضم الينا مشردون وتائهون من حيفا او عكا اومدن ساحلية اخرى ، وجميعهم يسيرون في نفس الاتجاه .شقيقتي لا تتجاوز الثانية من عمرها ، فتأخذ امي شالها وتربطه في عقد حول ظهرها وكتفيها وتضع اختي الطفلة هناك . وعندما نمر بالمستوطنات الصهيونية ، يسير الجميع باتجاه مستقيم ، ناظرين امامهم ، وكأننا بفعلنا ذلك لن يرانا ولن يطلق الرصاص علينا احد .**ماهي هذه المستوطنات ؟ من هم الناس الذين يعيشون فيها ؟ لماذا اختاروا بلادنا ليأتوا اليها ؟ من هم هؤلاء الناس ... ؟ من هم ؟**

قبل ذلك بسنة ، في القرية التي كنا نعيش فيها ، اظل اذكر ... كيف نسف البيت وفرت منه العائلة . جسد المرأة يحترق وكانت تتمسك بوسادة وهي تركض . اسمع صرخة . في الغرفة تلك الليلة الجميع ينهضون . وشقيقي البكر يحمل بندقية ويغادر بسرعة . وصوت نيران الأسلحة يرتفع ... يقترب ... والحيوانات في القرية تركض فالتة ، في الدروب الوسخة ، وراء المنازل . و« اللجنة من اجل الدفاع عن بلد الشيخ » تصدر التعليمات فيما السماء تمطر النيران على قريتنا . ربما الله في سمائه قد جن . **انهم هنا من جديد** . ما يزال الوقت ليلا في الغرفة وامي تتلو ايات من القرآن . **ان عصابة شتيرن هنا من جديد** . وثمة نوع من الجنون في الكلمات القرآنية فيما تتلوها امي . ويطمسها صوت اطلاق الرصاص ثم اسمعهم من جديد ، عاليا ، بشكل محموم ، عندما تكون هناك فجوة ، صمت قصير ، فيما يتوقف اطلاق النار . **انهم هنا ... من هم هؤلاء الناس ... انهم ياخذون وطننا .**

تركنا القرية ونزلنا لنقيم في المدينة مع جدي وعمي . كان جدي يعمل في مرفأ حيفا مع « هيئة المرفأ البريطانية » ... ومع المقاومة السرية . وكان كل ليلة يعود الى البيت ببنادق يهربها من بوابات المرفأ ويأتي بها الى البيت الى عمي . بنادق كان يسرقها من المكاتب التي يعمل فيها . بنادق يشتريها من جنود بريطانيين سكارى . بنادق تشترى من على سفن صديقة قادمة من بيروت واللاذقية او الاسكندرية .

وكان عمي وشقيقي يغيبان عن البيت اياما عدة . كانوا يسمونهم مجاهدين في تلك الايام . وجيلي ، بعد ذلك بعقدين ، صار يعرف بالفدائيين . لكن كل شيء كان يحتضر . كانوا البقية ... غير المنظمة والوحيدة ... لثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ .

خارج منزل جدي ، على الطريق الدولية ، كانت جماعة من المجاهدين تقف بجانب قوالب من الاسمنت . انهم مجهزون برشاشات وقنابل يدوية . ويتخذون مراكزهم بضع دقائق فقط قبل ان يبدأ المكمن . ويجري عمي جيئة وذهابا وهو يصدر التعليمات . وتصل قافلة الشاحنات . ست سيارات شحن مغطاة بالكانفاس والحبال السميكة . متجهة على الطريق الى جبل الكرمل . سائق واحد وراكب واحد في كل شاحنة . وانا اربض قرب النافذة وذراع ابي تحيط بخاصرتي . الجميع في الغرفة يراقبون . وعلى حين غرة توجه نيران المدافع الرشاشة نحو الشاحنات . وتنفجر القنابل اليدوية . ويطلق الرصاص بلا انقطاع لاكثر من دقيقة . وتشتعل النار بسيارتي شحن . ولا اعرف اين انظر . ثمة شيء يحدث في جميع الاتجاهات ، ولجميع الرجال ، ولجميع الشاحنات . واظل اراقب الشاحنة الاقرب الى قوالب الاسمنت ، وارى السائق واحدى يديه على مقود القيادة ، واليد الاخرى تمسك بمسدس يضعه في الخارج ، بلصق الحاجب الزجاجي . معاونه في القيادة ، بجواره ، ميت ، وجسده متدل نصفه من الباب المفتوح . ويقفز الرجل الآن من الشاحنة ويحتمي وراء بعض قوالب الاسمنت . ويربض هناك وهو ما يزال يمسك مسدسه بيده .

عندما يصل الجنود البريطانيون في دباباتهم وشاحناتهم العسكرية ، يعود عمي ورجاله بسرعة الى بيوتهم ومعهم اسلحتهم . ثمة جثة في الشارع . والشاحنات تحترق . وتملأ رائحة دخان البنادق الهواء . والرجل الواقف وراء قوالب الاسمنت يلوح للجنود . واراه وهو يسير مبتعدا معهم والوح له ، بتردد وبراءة . وابدأ في ان اهبه تاريخا خاصا اخلقه له . حياة خاصة تتزخرف مع مرور الوقت . وقد عاشت ذكراه معي منذ ان تركت فلسطين في العام ١٩٤٨ ، منذ ان سطحت القنابل بلادي ، وعرت المراسيم الغابات ، وتاريخنا ، من استعارات الأمل الى ان لم تعد اية حشرة ، اية كلمة ، تستطيع ان تجد مكانا لتختبىء .

بعد ان انقذ الجنود الرجل ، مكث الجنود والدبابات في الجوار . وبعد فترة وجيزة يصل المزيد من الجنود . المئات منهم ، بشعرهم الاشقر وانوفهم المنمشة والوشوم .

ونسمعهم يتسلقون درجات السلم . ان جزء جدي من المنزل هو على الطبقة الثانية من مبنى مؤلف من طبقتين . ونسمع اصواتا اجنبية . انها دائما اصوات اجنبية . اجانب يقولون لنا ماذا نفعل . يأمروننا بفتح الباب . ويصرخون شيئا حول السلطة الممنوحة لهم من ملك انكلترا . هكذا كانت الحال في تلك الايام ... ملك انكلترا يمنح شعبه سلطة لاصدار الاوامر في فلسطين . وفي الهند . وافريقيا . وكينيا . وهونغ كونغ . وبالطبع ما كان اي انكليزي ليسمح لنا بان نرسل اشخاصا الى انكلترا ونمنحهم سلطة دفع الرجال والنساء والاطفال الانكليز يمينا وشمالا .

يندفع الجنود داخل بيتنا . ستة او سبعة منهم . ونساق الى احدى الغرف . ويسألون والدي اذا كان لديهما اسلحة حول المنزل . ونحن نقف ، جميعنا ، واذرعنا مرفوعة . الا ان امي تبدو مضحكة ، بسبحة صلاتها فوق رأسها ،تتمتم تعاويذ لتطرد الارواح الشريرة . ويفتح الجنود خزائن الثياب ، ويحطمون المنضدة المزينة ، ويقذفون بماكينة خياطة جدتي عرض الحائط . ويخربون المكان . والجنديان اللذان يقومان بمعظم التفتيش والنهب ، يصرخان

الشتائم باعلى صوتهما . ويكررون : « عرب قذرون . عرب قذرون » . وطوال هذا الوقت اشعر باللامبالاة . اذ انني رأيت هذا ، واكثر منه بكثير ، يفتعل في القرية . كانوا يمسكون الناس من شعورهم ويجرونهم الى وسط الساحة ويركلونهم الى ان يغيبوا عن الوعي . وكثيرا ما كانوا يأخذون معهم اشخاصا يشتبهون فيهم ولا يعودون ابدا . في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، قبل ان اولد ، شنق البريطانيون ثلاثة رجال من قريتنا ، ثلاثة مجاهدين .

مع ان ابي لم يكن مجاهدا قط ، فقد نقل الي نفسيتهم . ان ميثولوجيا المجاهدين هي جزء لا يتجزأ من تاريخنا الشفهي . فكل طفل فلسطيني يجلس على ركبتي والديه يصغي ، مذهولا ، الى حكايات الرجال الذين تحدوا البريطانيين المقوتين وفيما بعد الصهاينة . كيف ان جماعات من المجاهدين كانت تأتي الى القرية خلال الثورة ، ببنادقها وكوفياتها المرقطة فتخرج النسوة الى الساحة ويقدمن لها الازهار واكياس الاغذية ويشير الاولاد اليها . وفجأة تقف امرأة على مسافة قريبة ، وتضع يدها فوق فمها ، ممسكة شفتيها بأصبعيها وتبدأ بالزغردة . وتنضم اليها النساء الاخريات وتتصادى الساحة ، والقرية كلها ، بالاصوات الصداحة . ويصير الرجال في القرية توقيريين ، ويخفتون اصواتهم ، فيما يحيون المجاهدين . « اهلا وسهلا ، اهلا وسهلا بالابطال » . وقبل ان يغادروا ، ينضم الى المقاتلين بعض الشبان من القرية الذين يتركون الحقول ليعيشوا في الجبال مع المجاهدين .

لم يذهب ابي ابدا . كان صاحب حانوت صغير . وذات يوم يترجل ثلاثة جنود بريطانيين من سيارتهم الجيب خارج حانوته ويتحدثون اليه . انهم سكارى . ويروح احدهم ويشتم ابي لأن هناك ذبابا على السلع المعروضة بصورة مكشوفة . واراد ان يعرف كيف تتوقع من اي شخص ان يأكل هذا البراز والذباب عليه . ويأخذ الجندي الآخر بندقيته ويطيح بأكياس الزيتون والجبنة والبرتقال ، واي شيء قريب منه ، على الارض ،ويقفز عليها ، ويضج بالضحك . ويمسك الجندي الثالث ابي من عنقه ، ويرمي بحطته من على رأسه ويضربه على صدره . وصار اخي مجاهدا في سن السابعة عشرة .

عندما غادرنا فلسطين ، في النهاية ، كان الفجر ينفخ حولنا مثل غضب الله . كانت مدينتنا قد سقطت واحترقت على جثث رقدت مستلقية على ظهرها . وصفق العالم استحسانا . ولكنني لا اكره . لم استطع ان اكره في سن الثامنة . كان نيسان (ابريل) دائما وقتا طيبا من السنة حيث ولدت . فالشمس تشرق ورائحة الزيتون والبرتقال تعبق في الهواء . وهذا النيسان ، في ١٩٤٨ ، كان آخر نيسان لوالدي في فلسطين .

اليوم السابق لمغادرتنا المدينة ، نجلس في المنزل قرب الطريق الدولية ونسمع اصواتا اجنبية تصرخ في مكبرات الصوت . **اخرجوا نساءكم واطفالكم** . وكرهت تلك الاصوات الاجنبية . **اخرجوا الجميع . اخرجوا كل شيء** . ستكون هذه بلاد قوم آخرين الآن . **اخرجوهم** . وحول الشوارع ، في البعد ، ثمة اصوات نيران اسلحة متقطعة . **اخرجوا نساءكم واطفالكم** . وهناك شعل ودخان والعاب نارية تنفجر في السماء ، فوق المنازل ، وراء المرفأ ، قرب جبل الكرمل ، وقرب وسط البلدة . كان شيء ما يحتضر . كان شيء ما ينتهي بالنسبة لهذا الجيل من الفلسطينيين . **اخرجوا** . كانت نقطة التحول .

الرجال والنساء الذين كانوا يدافعون عن حيفا لم يعودوا هناك . كانوا وحدهم . كانوا امواتا . كانوا يحتضرون . كانوا جرحى . ثم يذهب الناس . والراديو مات . وقبل ان يموت يصدر احدهم البيان رقم ١٥ على الهواء . وماذا كان البيان رقم ١٤ ؟ و٨ ؟ واللانهاية ؟ ولكن لم يكن هناك بيان رقم ١٦ . فالأثير كان مختنقا بالنار . واليأس . والموت . ومنذ ذلك الحين ، يتساءل الناس لماذا انا أستعمل النفي المزدوج حول منزلي ، غير عابئين بجدراني المكسوة بالكتب . ولماذا استعمل عبارات مثل الامة والوطن والحقوق غير القابلة للتحويل . منذ ذلك الحين ، سافرت عبر امم كثيرة ، طاويا امتي في تكريات فنية عاجزة وقد كنت أخشى ان احدا ما سيراها ويضحك علي . ولكن في جميع تلك المدن الاجنبية كنت متدثرا بمعاطف مطر سميكة من الآخرية قبل ان تمطر بوقت طويل . وطوال ذلك الوقت بقيت مخلصا لمواقفي في منتصف الليل .

واليوم في بيروت ، بعد ثلاثة عقود ، انا هنا لأبحث عن البيان الرقم ١٦ . واتساءل اذا كان سيكون لنا ابدا مناطق محررة استطيع الذهاب اليها ، وان اكون واشعر فيها بالحرية .

كيف افسر ، اليوم ، موت ابي ؟ كيف افسر تقليد اللاجئية الذي نقله الي في الخمسينات عندما اصغيت الى تمتماته حول كم اننا سنعود جميعا سريعا ــ وبيقين سريعا . وستنتهي جميع الآمنا . انتظر حتى نعود ، ولن نعاد نحن والكون الى سبيلنا الذي حتمه القضاء والقدر الا عندما نعود . هو يذهب الى الاونروا ليتسلم الحصص ويعتمر حطته ويرتدي شرواله فيما ينتظر في الصف . نحن لاجئون ، يقول ، انتظروا حتى نعود . وتبدأ كلماته في اكتساب احرف كبيرة في وعيي . واسأل والدي اي نوع من الحقيقة سنبني عندما نعود ، واي نوع من العالم سنعود اليه . فيقول لي ان هذا لا يوجد الا في قلب الشاعر . مثل هذه المجازات الرائعة اتعلمها منه . وهو يمضي بقية ايامه معتنيا برماد نظام منطقه المدمر المحترق ، آملا في ان تقفز منه ومضة . عالم والدي ، في السنة الثالثة في الغربة ، قد اخذ يسوء ، وصوره الشرسة تظل تضغط بصورة لا تطاق على روحي .

في مخيم اللاجئين الذي اقمنا فيه ، في الاعوام الثلاثة الاولى من غربتنا ، تحكم حياتنا حاسة مريعة من لاجئية ابي ممــزوجة مع دفق قوي لا يمكن تفسيرة من الطاقة . وفي الصيف ، الحر شديد الشراسة ويطن في الهواء ذباب كبير . وكل شيء بطيء الحركة ، هادىء ، ونائم . والكلاب ، كالاطفال ، تظهر العظام تحت جلدها وترقد في ظل الخيام . وفي الساعات بعد الظهر ، لا يمكن رؤية الناس في اي مكان ، في ما عدا امرأة تشاهد احيانا تسير على الدرب الترابية الى مضخة الماء مع مقلاتها . لا احد يعرف اننا هناك . ولا احد يستطيع ان يعرف مَا اذا كنا مهملين او منسيين . وبعد فترة من الوقت لا يعود الامر يهم .

في المساء يجلس الشيوخ في مقهى الشارع الجانبي للمخيم المضاء بقناديل الكاز . ويتحدثون باختلاس الى بعضهم البعض . والكلمات احيانا مشبوبة العاطفة ، غضبى . يتكلمون عن فلسطين . عن العودة . يتكلمون بثقة ، بأمل ، عن مناقشات الامم المتحدة . ولا احد يشك ان بقاءهم هنا هو مؤقت ، وبدل ذلك يتكلمون عن الصعوبات التي يلاقيها الفلسطينيون ، عن كسب الرزق ، والحصول على تصريح عمل ، وتصريح اقامة ، وتصريح لعبور الحدود ، وعن اي زعيم عربي طعننا اكثر في الظهر من الزعماء الآخرين ، وعن اية دولة

عربية هي مخلصة للفلسطينيين واية واحدة رديئة معهم . ستكون فلسطين دوما هناك كما تركوها . وهي ايضا ههنا الليلة ، حول قناديل الكاز ، يجري تحويلها الينا في صورهم ونكرياتهم ولغتهم العاطفية ، في العالم المغلف لمخيم اللاجئين الذي كان بيتا لي طيلة اعوام ثلاثة .

اجلس في المقهى بجوار ابي واراقبه هو واصدقاءه وهم يشربون شايهم ويمصون نراجيلهم . وانا في العاشرة من عمري .

ابي يتحدث الى ابو سليم ، وهو رجل جاء وعائلته حديثا الى المخيم . ابي يسأله من اين هو في فلسطين .

ويجيب ابو سليم : « انا من حواسا » .

ويعرف ابي ان القرية قرب حيفا . « حواسا ، ها ؟ » يسأل بهدوء ، مطولا الاسم ومشددا عليه ، كأن له تأثيرا روحيا شافيا . « حواسا هي قرية جميلة » .

لقد استعمل ابي لتوه فعلا رائعا ، يعج بالاشياء التي تجعل الناس يتحدون التاريخ والسماوات والدول . صيغة جديدة سأضيفها الى قواعد كياني . فبالنسبة الى كل من والدي وابو سليم كانت حواسا ، هي وجميع الحقائق غير الملموسة للقرية ، شيئا سيبقى ابديا وحقيقيا في الخزانة الجوهرية لوعيهما . بالنسبة اليهما حواسا هي الآن ولم تكن مكانا جميلا . وفلسطين هي الآن ولم تكن بلادهم ، وهكذا سأراها انا فيما ادمج في نفسي ذاتيا ذلك الزاد من الطاقة حولي .

بالنسبة الى جيل والدي كان الحاضر جنونا . ولم يكن سلسلة متصلة طبيعية لما كان . كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيعون الارتباط به هو تحويله الى ماض مكبوح ، تحكمه صور وطقوس واحلام فلسطينية . كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها فرض الوئام على حياتهم اليومية ، التي ارعبتهم . كانوا ينظرون الى انفسهم في مرآة ماضيهم ، اذ انهم لو نظروا الى الحاضر لتشققت المرآة . كانت صورة واقعهم ضبابية .

ان فسيفساء كاملة من الفولكلور ابتدأت تبرز فاقتنصت ، وجمدت في العقل ، صورة فلسطين كما تركها جيل والدي . واللغة العامية اعطت انفجارا آنيا للعواطف الجماعية لهؤلاء الذين جاءوا من حيفا ومن يافا ومن عكا ومن المدن الاخرى او القرى المعزولة في فلسطين . **حيفا ، ايتها المدينة الحبيبة ، تركناك مع السمك الذي اصطاده صيادونا وهو لا يزال ينتفض على الرمل .**

وكان يرد ابناء يافا : **هربنا منك يا يافا ، يا مدينة الشمال الحزينة ، ولما تكتمل اغنية دبكتنا** . والذين جاءوا من عكا كانوا يقولون : **يا عكا ، بنيناك غير خائفين من هدير البحر .**

كانت هذه اساطير ثرية ومسيطرة ملخصة من الماضي ، الذي امتحن هوية الفلسطيني وحدد توتراتها المكانية والزمنية في الغربة .

ونصغي لهذا . نحن الذين ولدوا في المخيم . نحن الذين كنا اصغر من ان نتذكر فلسطين . نحن الذين كانت ذكرياتهم ، كذكرياتي ، عن اطلاق نار يطقطق في الليل واسلاك شائكة حول النفس .

انا في العاشرة من عمري ونسير انا وابي على الدروب الترابية لعالمنا المرتجل في مخيم اللاجئين . الجدران مغطاة بالشعارات السياسية . ويقول احدها : « لتحل مليون نكبة على البريطانيين ، اعداء الشعب الفلسطيني » . واقرأ ذلك الشعار بصوت عال لوالدي ، متمعنا بالكلمات .

ويقول جادا : « ليسمع الله صلاتك .. » .

« والصهاينة ايضا اعداء الشعب الفلسطيني » .

« انهم لكذلك ! لتحل عليهم مليون نكبة ايضا . »

بمثل هذا العنف كنت اكتسب ماضيا ووعيا .

ابي وانا في الاعوام الثلاثة الاولى من غربتنا . هو في شرواله التقليدي وحطته ، ممسكا بثلاث ليرات ، وبعض القطع النقدية الصغيرة لاجرة الترامواي ، متجها الى السوق ليشتري الاغذية . والمال ، على قلته ، ثمين . لقد عمل شقيقي طوال اليوم ، في اليوم السابق ، في موقع بناء ليكسبه . وربما استطعنا اليوم ان نأكل شيئا مختلفا عن حليب البودرة والخبز والتمر الذي خصصته لنا الاونروا .

احمل سلة فارغة في احدى يدي . كم ارغب في معرفة ما سوف نشتري . واسأل ابي اذا كنا سنشتري كعكا اليوم .

« لماذا الكعك ؟ من تظننا ؟ تعلم اننا لسنا من ملاكي الاراضي » لسنا من الملاكين . ولكننا لا نزال فلسطينيين ، همنا ان نثبت لا معنى الاراضي .

« عندما نعود الى وطننا ، ستحصل على جميع الكعك الذي تريد . صدقني ، لن يطول ذلك الآن . كن صبورا فقط » .

لم ينتظر ليعرف مني لماذا اريد الكعك بالتحديد اليوم .

في السوق نختلط مع المتسوقين . واليوم حار ورطب . ويساوم والدي على الاسعار ، ويمضي الصباح كله في ذلك ، ليجعل الليرات الثلاث تدوم . ويطن الذباب في الهواء وثمة زعيق من البائعين وتوسلات من الحمالين الذين يدورون وهم يحملون سلالا ضخمة على ظهورهم ويستجدون العمل بصورة محمومة . وعلينا ان نعود مشيا على الاقدام طوال الطريق الى مخيم اللاجئين لأنه لم يبق ما يكفي من النقود لاجرة الترامواي . انها رحلة طويلة بالنسبة لابي في الحر . واتبادل واياه حمل السلة ، المليئة الآن بالخضار . وكل خمس دقائق او نحو ذلك ، يجلس والدي في مكان ما وهو يلهث . وانا اجلس معه على طريق البسطا . لا يزال الطريق بعيدا الى المخيم . واسأل ابي من جديد لماذا لم نضع بعض المال جانبا لنشتري كعكا. وهو يريد ان يعرف لماذا انا مهتم بالكعك الى هذا الحد اليوم .

الطعام في تلك الايام كان بالغ الاهمية في حياتي . لم اكن افكر في اي شيء آخر . كان كأن الطعام هو انشغالي الكامل الوحيد . قد لا اكون قلقت كثيرا حول عدم الذهاب الى المدرسة ، وحول حلق رأسي مرة كل شهرين لاوفر فواتير الحلاقين ، وحول المشيء حافي القدمين ، وحول عدم اكل المغربية ، وارتداء ملابس جديدة او تلقي علاوة خاصة خلال العيد ، لكن الطعام شغل علي حياتي . ومنذ البارحة ــ الكعك ، واقول ذلك لأبي .

كنت قد صعدت التلة لاشاهد مباراة محلية في كرة القدم مع فتى لبناني من الجوار . كان يحمل معه كيسا بنيا من الورق ، وفيما جلسنا لنراقب المباراة ، فتح الكيس واخرج منه قطعة من الكعك . ونظرت اليها واليه . لم ار ابدا شيئا مثلها منذ زمن طويل . ولم اشعر قبل ذلك ابدا ، او منذ ذلك الحين ، بأي شيء في حياتي كما شعرت بمثل تلك الرغبة الشديدة اليائسة التي رغبت بها في قطعة من تلك الكعكة . فقد بدت لي لذيذة ، طيبة ، غنية . واردتها باتقاد كاد يكون شهوانيا في قوته .

وفعلت كل شيء ليعطيني ذلك الفتى قطعة منها ، سوى ان اطلب منه ذلك . **هل خبزت امك هذه الكعكة ؟** نعم . **تبدو حقا طيبة ، اليس كذلك ؟** نعم . ويأكل ويتجاهلني . **تبدو طيبة ولا بد ان يكون طعمها طيبا** . نعم . وطوال الوقت اقاوم دافعا لأن امسك بالفتى من عنقه وانتزع منه ما اريده . ولكنني كنت في العاشرة من عمري فقط ولم يمض على وجودي في الغربة سوى ثلاثة اعوام . لم اكن قد امضيت بعد قدرا كبيرا من الوقت في الشوارع . ولم اكن عنيفا كما تعلمت ان اصير فيما بعد في ثقافتي الشارعية . لذا اكتفيت بالجلوس هناك وبمراقبة المباراة بهدوء .

واذ اروي القصة لابي ، يصغي الي وعلى وجهه نظرة لا تعبير فيها ، وكأنه يحاول ان يقرر ما اذا كان يجب ان يكون غاضبا او حزينا . او ربما كان يتساءل فحسب لماذا يجب ان نكون القوم الوحيدين الذين لا يستطيعون الوصول ، حتى بطريقة صغيرة ، الى قطعة من الكعك هناك . ولماذا لم يكن لدينا شيء . ولم يدرك ، كما لم يدرك جميع الآخرين في تلك الايام ، ان اللاشيء في حياتنا هو الذي وضع الأساس لتأملاتنا التخريبية حول الكينونة والصيرورة .

ويقول ابي بغموض ، وبصوت مستو : « اننا فلسطينيون ، يا ابني ! » ولم اعرف ابدا ماذا عنى . احب ان اعتقد انه اراد ان يقول اننا كنا شعبا أبيا ، بمجموعة ابية من التقاليد . وقد يكون عنى اننا كفلسطينيين كنا فقراء وعاجزين وغير مرغوب فينا وبالتالي لا يجب ان نتوقع غير قرابة من النوع الثقيل الوطأة مع هؤلاء الذين يحيطون بنا . ومهما كان الامر ، وسواء كان انانية مثالية او بتر النفس ، فقد كان زادا من الطاقة كنت قد ابتدأت التقطه ، من حولي ، من حقيقتي الفلسطينية ، وافسره ليعني شيئا واحدا : كنا الآخر .

بالطبع كانت آخريتنا مصدرا لعلتنا بقدر ما كانت مصدرا لقوتنا . ولاجئية ابي . فتلك ايضا كانت جزءا من ميثولوجيا جيلي ، جزءا من عمليتي الخاصة للتحويل الذاتي . اذ انها خلقت اوضاعا لنقيضها في جيلي .

بعد ذلك بسنة او سنتين اكون في الشوارع . فأي مكان آخر كان هناك لأذهب اليه ؟ لم يكن

هناك اي وقت ، اي مكان ، لتكون لي طفولة . في البيت ابي يعلق صورة لعبد الناصر على الحائط ، مستعملا مسمارا محنيا ومنفضة رماد السجائر ليدقه . اي شيء آخر كان له ان يفعل ؟ وعلى مائدة العشاء يراقب الجميع فيما تمد يدك لتتناول السكر او الخبز او الفاصوليا ، مستعدين ليصرخوا : « هاي ، اترك شيئا للآخرين » . الجميع يقولون ذلك لأختي الصغرى . فهناك النذر القليل من كل شيء . تأخذ اكثر من ملعقة سكر فيتصدى لك الجميع . يصرخون : « هاي ، اترك شيئا للآخرين . لسنا من الملاكين » .

انمو بكثير من السخرية في سنوات مراهقتي الباكرة . فأشتم العالم وملائكته وتمتمات ابي المشوشة . والعالم كله خارج المخيم الذي يفس عن عداءاته علينا او يقف مديرا ظهره الينا .

في شوارع مدن العالم الثالث لا تتعلم ان تكون عنيفا فحسب ، بل تتعلم ان تكون سياسيا . اضحك ضحكة نصف مكبوتة من صورة عبد الناصر على الحائط . فالرئيس المصري يبتسم بعذوبة على شقائنا في بيوتنا الطينية لمخيمات اللاجئين . صورة ممزقة موحشة على الحائط ، لرئيس جمهورية عربي يعد ابي بالخلاص ، وقد وثق به ابي لانه لم يكن له مكان آخر يتحول اليه . واحاول ان افهم ثقة ابي بعبد الناصر فاجد في ذلك صعوبة . ففي سن الثالثة عشرة ثمة حقد ساخر عميق في قلبي للزعماء العرب وللنظام الاجتماعي في عالمنا . واذا كنت ساصير فيما بعد ماركسيا ، فان ذلك ببساطة لأن اللغة الماركسية ، والحقائق التي تحدث عنها ماركس ، ثارت حولي في الشوارع كأنها جزء من العناصر . كنت اعرف كل شيء عن ماركس قبل ان اقرأ اي شيء له بزمن طويل . **الصراع الطبقي** ؟ كان هذا حقيقة يومية ملموسة في حياتي ما كان علي الا ان انظر الى جميع الشيوخ والسلاطين والامراء (او مهما كانت الالقاب الجديرة بالازدراء التي يحملونها) الذين يقودون سياراتهم الكاديلاك في بيروت ، ويشربون ويقامرون حتى البله في اندية بيروت الليلية فيما اكثرية الاولاد والبالغين في المدينة يجوعون . **البورجوازية** ؟ هذه لم تكن شيئا تجريديا في كتاب مدرسي ، أو شعارا كنت اصرخ به وانا العب لعبة السياسة اليسارية الجامعية . فحيث ترعرعت كان هذا شيئا اصطدمت به ولمسته ورأيته . ما كان علي الا ان اذهب الى شارع الحمراء ، وهو ما فعلته في سنتي الاولى من بيع العلكة ، وكنت اراهم يجلسون في الانكل سام والكوينز والهورس شو ، يتكلمون الفرنسية او الانكليزية مع بعضهم البعض . بالنسبة اليهم كنا « TRES SAUVAGE , COMPLETEMENT SAUVAGES! » وفيما يتعلق بالزعماء العرب ، في الخمسينات ، بادعاءاتهم الزائفة حول فلسطين ، لم استطع ان اوفق ما كنت اسمعه منهم مع ما كنا جميعا نتحمله كفلسطينيين في دولنا المضيفة . لم استطع ان اوفقه جميعا مع السؤال : لماذا قبل ان ابلغ سنا اكتسب فيه تاريخا سياسيا ممكنا ادراكه ، او ماضيا معقولا ما ، كنت قد جمعت كاتالوغا كاملا من المخاوف والرعب حول فلسطينيتي فيما اخذت احددها استجابة لتفاعلي مع العالم العربي .

وسألت ابي بوقاحة : « اية حاجة بنا الى صورة لعبد الناصر هنا ؟ »

وتقول والدتي : « انتبه لما تقول » .

« لماذا ، اسألكم ، نحتاج الى صورة لعبد الناصر هنا ؟ هل ما يزال بامكاننا ان نثق بالزعماء العرب ؟ »

ويسأل شخص ما في الغرفة غير مصدق : « ليس عبد الناصر ؟ عبد الناصر ؟ »

« لا اثق بأحد . لو كان الله زعيما عربيا ، لما وثقت به . »

فقالت امي : « ملحد . شيوعي »

ابدأ اشتم بعنف وتبدأ امي بتعاويذها القرآنية : « اطلب الغفران لك ، من الله العلي العظيم . لا قوة ولا حول الا به هو العلي القدير » .

ويقف ابي ، وكأنه كان ينتظر اشارة ، ويأمرني بمغادرة الغرفة . وفيما انا اغادر الغرفة اسمع اختي تتناول الحديث حيث تركته انا .

تقول : « انه على حق ، الا ترى يا ابي ؟ هل نستطيع ان نثق بأحد ، الا بانفسنا ، لنحرر بلادنا ؟ » .

ياسمين . اختي الصغيرة ، بنظارتيها وببثرتها المراهقة ، وشعرها الاسود الفاحم . ومع كل كراريسها وكتيباتها حول « تضامن الطبقات العاملة » المخبأة في حقيبتها المدرسية لكي لا يراها والداي . اختي الصغيرة وخوفي من الظلام . ياسمين التي ككل طفل فلسطيني آخر لم تكن لها طفولة ابدا . اختي التي كانت نتاج العنف في تاريخنا بقدر ما كنت انا نتاج العنف . تعمل كخادمة في جبال عجلون ، في الاردن ، في سن الثانية عشرة .

في ذلك الوقت اتصلت بامي امرأة في المخيم كانت تعرف شخصا ما ، وكان هو يعرف شخصا آخر ، وكان هذا الشخص الآخر يعرف عائلة اردنية .

وقالت المرأة لامي بصورة تآمرية : « قريبة من العائلة المالكة . حقا . تصل الى اعلى . قريبة من الملك . انهم يبحثون عن خادمة . خادمة صغيرة مثل ياسمين . لا تتجاوز الثانية عشرة او الثالثة عشرة ، لتساعد في المنزل ، انها عائلة طيبة . وغنية . تقيم في جبل حسين في عمان وتذهب الى جرش في الصيف » .

كانت جرش في ذلك الوقت منتجعا صيفيا للعائلات الاردنية الثرية ، كان لديهم جميعا دارات هناك وملاعبُ لكرة المضرب . وكانت للنساء تسريحات شعر فرنسية . وكانت ملابسهم مستوردة من انكلترا وفرنسا او الولايات المتحدة . وكان الرجال يسيرون بسراويل قصيرة ويراهم الناس وهم يلعبون الكريكيت. هكذا ظنوا ان الناس يفعلون في بريطانيا . وكان الجميع يتكلمون الانكليزية ، واحيانا الفرنسية . الانكليزية والفرنسية كما كان يتكلمها الناس في الثلاثينات . عامية حديثة تستعمل خارج سياقها. عادات وطرق مميزة في السلوك التقطوها من الافلام الغربية . وفيما يرشفون الكونياك ويصرخون « GOOD SHOW , OLD MAN » لأحد ما يلعب كرة المضرب ، كانوا ينظفون حلوقهم ويبصقون على الارض . وكان لهم نظراء في بيروت والقاهرة ودلهي الجديدة واماكن اخرى في العالم الثالث .

راحت اختي تعمل لهذه العائلة . لاننا كنا فقراء ويائسين . وسافرت مع العائلة الى بيتها في جرش في الصيف . وغسلت اطباقهم . والتقطت اشياء . وقامت باعمال . وتبعت سيدة المنزل فيما راحت تزور اصدقاءها في ليالي استقبالهم . تماما كجميع الفتيات الاخريات من مخيمات اللاجئين في عمان واماكن اخرى اللواتي خدمن هذه العائلات . ومثلهن ، جرى حلق رأس ياسمين ، كما جرت العادة ، لكي لا تبدو جذابة للرجال .

وذات ليلة هربت ياسمين لانها كانت خائفة من الظلام وكان صبيان معلمها الثلاثة قد حبسوها في غرفة واطفأوا النور فيما وقفوا في الخارج يضربون ركبهم وهم يضحكون . وضلت طريقها واستغرقت عودتها الى بيروت اسبوعين . ولم تعرف العائلة النابلسية التي التقطتها على الطريق ماذا تفعل بها . وظلت اختي تقول انها من حيفا . وانها تريد العودة الى بيتها . وتريد العودة .

ويظل الناس اليوم يتساءلون لماذا نحن نتصرف دوما كمقداح للحروب الاهلية في جميع الاماكن . وانا اظل اتساءل عن ام رزق ، المرأة في قريتنا في فلسطين ، التي ركضت خارجة من منزلها المحترق ، والنار مشتعلة في جسمها ، وهي تمسك بوسادة ، واعرف ماذا حدث لها فيما بعد عندما اكتشفت ان الذي كانت تحمله بين ذراعيها لم يكن طفلها .

ترجمه عن الانجليزية :

رجا جورج

أديب ديمتري

العرقية الصهيونية وتيار القومية الرجعية

٩ ـ العرقية الصهيونية

لم يكن من قبيل الصدفة أن يكون الممثل الاول والبارز للصهيونية السياسية المانيا ، وأن يبدأ حياته ثوريا رائدا بل واشتراكيا اسهم بنصيب هام في دفع الفكر الاشتراكي في المانيا واوروبا ، ثم ينقلب ويتحول الى الرومانسية الرجعية والعرقية والصهيونية : ونعني به موسى هس Hess, Moses وأن ينشر كتابه الذي عبر فيه عن ارتداده وصهيونيته وعرقيته « روما والقدس » سنة ١٨٦٢ .

لم يكن ذلك من قبيل الصدفة ابدا ، فقد جسد هذا الرائد والداعية الأول لهذا الشكل الجديد من العرقية اليهودية ، بشخصه وشخصيته وتطور فكره ، حركة الردة العامة ، والتراجع الشامل في حركة الثورة في اوروبا . كان تطور حياته وفكره يعكس الحركة العامة في اوروبا ، وليس بين اليهود وحدهم ، من حيث استيلاء الرجعية السوداء والطبقات البورجوازية الكبيرة على زمام السلطة وعلى العقول ، ايضا بين اقسام واسعة من جماهير البورجوازية الصغيرة والشعب ، وارتدادها بحركة القومية الاوروبية من طور الى طور آخر : فقد تحولت القومية الديمقراطية البناءة والصاعدة على يد البورجوازية الثورية خلال الفترتين الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر الى قومية رجعية شوفية وعنصرية منتكسة ومنهارة بزعامة هذه الطبقات الرجعية الجديدة والقديمة في النصف الآخر من القرن . كانت الأولى حركة بناء الامم ، وحركة وحدة وعقلانية ، بينما كانت الثانية حركة تراجع وهدم وانحلال حيث تتمزق الامة وتنحل الى اعراق واديان متصارعة متقاتلة . وقد تحالفت البورجوازية الكبيرة الرجعية مع النبالة القديمة وبقايا الاقطاع لصد موجة الثورة الاشتراكية والراديكالية العارمة في اوروبا ، وكان لا بد أن تخفى اسباب الصراع الحقيقية عن أعين الشعوب في لجة من الهمجية والعرقية ، فاصبحت : الارض والدم والحديد شعاراتها . على انقاض العقل والتقدم ، وأصبح هدم الامم لابنائها ، والقهر لا التحرير هو رسالتها « الالهية » .

رائد الصهيونية العنصرية الالماني .. موسى هس (١٨١١ ـ١٨٧٥)

يصفه هرتزبرج (١) بأنه كان رجلا من رجال القرن التاسع عشر بالكامل ، ولعله يعني ذلك النوع من الرجال الذين انغمسوا في ثورة العصر ، وبعد أن هزمت ، هزموا معها ، بعد أن استغلقت امام اعينهم طرق الثورة .

أراد هس أن يضع حدا لهذا التوتر الرومانسي بين القلب والعقل ، وأن يقدم حلا يوفق بين اسطورة « الشعب المختار » وروح ثورة العصر ، ودورا « حديثا » و « تقدميا » تضطلع به اليهودية في صياغة مستقبل العالم ، فلم يجد ، نتيجة الردة التي انغمس فيها ، سوى صياغات الرومانسيين الرجعيين والكولونياليين : فهو يحدثنا بلغة صوفية غامضة عن القيم المتعالية التي ستنبع من صهيون المستعادة (الفكرة الدينية التراثية والعرقية) والامة اليهودية الجديدة التي ستقوم وتعمل كحارس على ملتقى القارات ومعلما للشعوب الشرقية المتخلفة (الفكرة والدعوة الاستعمارية الكولونيالية في ذلك العصر) فهو يتخيل دورا مميزا لليهودية ، ورسالة للدولة اليهودية داخل اطار رسالة التمدن والتحضر التي تضطلع بها دول الغرب التي تسعى الى التوسع والغزو والفتح في تلك المرحلة التاريخية ، وفكرة هس غير بعيدة عن فكرة هرتزل الاستعمارية الصريحة ، والتي كانت تشكل جزءا من عقيدته السياسية ، عن « سويسرا يهودية » تقوم كنموذج ومثال لليبرالية الاستقراطية بين أمم الشرق المتخلفة ، وهو نفس المذهب الذي كرس له بن يهودا[٢] دعوته لتحويل اللغة المقدسة ، الى لغة حديثة ذات رسالة روحية اخلاقية ، وكذلك بوروشوف [٣] الذي كان يرى في الدولة الصهيونية المبتغاة نحونجا لبناء دولة تعد المقدمة الضرورية للرسالة الملقاة على عاتق القطاع اليوهودي ، والدور المنوط به في الصراع العالمي الطبقي من اجل الاشتراكية[٤] .

ولا يصعب بالطبع أن تقرأ في هذه التطلعات الى دور المعلم والمدن لشعوب الشرق والرسالة الروحية الاخلاقية والدينية نفس اللغة التي كانت تتحدث بها الدوائر البورجوازية الرجعية الامبريالية والكولوتيالية، في مرحلة التوسع والاستيطان هذه عن دور « الشعب المختار » والرسالة التحضيرية للامم الغربية سكسونية كانت أم المانية أو فرنسية الخ ودور الرجل الابيض .. أو اليهودي !! لا فرق وحسب الحاجة .

ويتساءل هرتزبرج بحق : لماذا كتب هس كتابه هذا « روما والقدس » سنة ١٨٦٢ بعد أن كان أحد مؤسسي الاشتراكية ؟ ! وكان في شبابه يدافع عن الاندماجية باعتبارها طريق تحرر اليهود[٥] .

يعترف هرتزبرج بأن العداء للسامية لم يكن في ذاته الشرط المسبق لظهور الصهيونية الحديثة . وقد تكون بعض الأحداث الفردية في مجال العداء للسامية مثل حادث دمشق الدموي المشهور سنة ١٨٤٠ قد أثر في هس ، ولكن تأثيره في الحقيقة كان تأثيرا سطحيا ، كما ينكر هو نفسه ، ولعل هرتزبرج يريد أن يجد بعدا أعمق لظهور الصهيونية في تلك الفترة ، أبعد من مجرد التأثر بحادث فردي ، أو مجرد رد فعل للعداء للسامية ، وهو يريد أن يعزوها الى ظروف العصر ، وانها جاءت كثمرة طبيعية لمجمل التاريخ الاوروبي حينذاك ولعله يريد أن يقول انها حركة قومية ، جاءت كثمرة طبيعية لعصر القومية الأولى في مجمله ، وهو الادعاء الصهيوني

التقليدي . ولكن لنا أن نتساءل ونسأل الكاتب الصهيوني الذي يريد أن يؤصل ويضيف للصهيونية هذا البعد الاكبر في أي ظرف نشأت ، ؟ ومن أي مرحلة من مراحل عصر القومية الاوروبي وعن اي قوى عبرت في تلك المرحلة ؟ ومن أي فكر اوروبي رضعت واستقت ؟ ! فلا يمكن أن نأخذ التاريخ الاوروبي وعصر القومية بالذات في مجمله وعلى علاته دون أن نتساءل عن حقيقة القوى والاتجاهات والبيئات الاجتماعية التي نشأت فيها وتأثرت بها الصهيونية ؟ ! ذلك ما يمنحنا وضوحا اكبر وعندما يؤكد هرتزبرج ان الصهيونية ابنة عصرها ، فهو على حق ، ولكن لنا أن نتساءل ابنة من على وجه التحديد في ذلك العصر؟ ! ووريثة من ؟ فقد كان العصر عامرا بالصراع بين قوى الثورة وقوى الرجعية السوداء بين الراديكاليين والامبرياليين الكولونياليين !

لقد كان العصر الذي ينتمي اليه هس اكثر تعقيدا بكثير من العالم العقلي البسيط للاندماجيين والمصلحين الدينيين اليهود والمسيحيين . فقد ثبت بعد الهزائم التي لحقت بالثورات ، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تلت ، ان الكوسموبوليتية والتقدم والفردية ليست هي اطفال الثورة الفرنسية الوحيدين ، بل ان هناك ايضا القهر القومي والعدوان والحرب . ثم دخلت الرومانسية الرجعية الحلبة ومعها القومية الشوفينية والعرقية بعد منتصف القرن ، واشتدت الاصوات التي تتحدث عن السمات العضوية للروح القومية ، كما تنمو من خلال العملية البطيئة لتاريخ الشعوب (فولك) وكان ظهورها المبرز كما رأينا في المانيا . كانت هذه النزعة القومية الرومانسية في جانبها المحافظ والغالب ثورة مضادة واعية ضد التنوير ، تقدم قيما جديدة وشعارات جديدة محورها الدم والارض ، وقد عممها هيجل بفلسفته الغامضة ، واصبحت الاصول العرقية والشعبية (فولك) لها تاريخ ومصائر ورسالات .

وفي سنة ١٨٥٣ نشرت العنصرية الحديثة عمدة كتبها الكلاسية وهو كتاب جوبينو « مقال في عدم المساواة بين الاجناس البشرية » وتبعها في العقدين التاليين من القرن موجة العنصرية والعداء للسامية ، عبر عنها فاجنر وجورج فون شونرر George Von Shoencrer مؤسس الجامعة الجرمانية في السياسة . وكان هس أول من أخذ هذا المذهب الجديد مأخذ الجد[٦] . لقد كانت النزعة القومية المحافظة في مظاهرها العرقية والعنصرية سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٦٠ هي الرد في نظر هس على الاندماجية ، وقد اخذ هس عن هيردر نزعة التوفيق بين الدين والقومية ، بمعنى أن الدين لا يقوم على اساس عام بل قومي ، مثله مثل اللغة والشعر والعادات والتقاليد .

كذلك تأثرت آراء هس ودعوته الى عودة اليهود الى أرض اجدادهم بكتيب ظهر سنة ١٨٦٠ في هذا المناخ الامبريالي الكولونيالي كتبه السكرتير الخاص لنابليون الثالث ارنست لاهاران Ernest Laharanne . وقد عاصر هذا الكتيب الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا وهو يقدم برنامجا يتلخص في « المسألة الشرقية الجديدة ــ الامبراطورية المصرية العربية واعادة القومية اليهودية » انطلاقا من تفكك الامبراطورية العثمانية . وقد اغرت الدعوة هيس واندفع وراء أمل التحالف بين اليهود والامبريالية الفرنسية في الشرق الادنى لتحقيق حلم العودة .

ويبدو سحر الملحمة الكولونيالية ونفاذها الى اعماقه من خلال كتابه « روما والقدس » وكذلك في مشروع عرضه سنة ١٨٦٧ « لاستعمار الارض المقدسة » وتكوين مستعمرات

عسكرية يهودية ، حتى تتمكن من صد غارات العدو[٧].والغريب في الامر ان هذا المفكر الاشتراكي السابق لا يستنكف يعبر عن آرائه الاستعمارية ودعواته الكولونيالية بصراحة وفجاجة ، ولا يخفي انتماء فكره ودعوته الصهيونية الى حركة الاستعمار الكولونيالي الشاملة في تلك الفترة ، فهو في خطاب مؤرخ أول ديسمبر ١٨٦٥ موجه الى دنير Dunner الحاخام الاكبر لامستردام يسرد تصريحات كبار الشخصيات الاستعمارية والمالية التي ترتبط بالاستعمار الفرنسي للجزائر ، والتي تبدي فهمها واستعدادها « للنظر بعطف » على حد تعبيره ـ وهي تقريبا عبارة تصريح بلفور سنة ١٩١٧ ـ في انشاء مستعمرات يهودية في فلسطين ، وفي المنطقة المحيطة وخاصة بالقرب من قناة السويس . ولا شك أن في هذه الافكار ارهاص بمشروع تشمبرلن الخاص بالاستعمار اليهودي للعريش سنة ١٩٠٢ ، حيث حصل ديلسبس على اراض واسعة من الخديوي[٨] .

وهس عندما ينادي بهذا الحل ، يتوجه به اساسا الى « اليهودية الشرقية » حيث ان اليهود الغربيين يندمجون « ويحسون احساسا طيبا في البلدان التي يعيشون فيها منذ مئات السنين » وكذلك فهم يرفضون الهجرة الى فلسطين . اما جوهر مشروعه لتحقيق الاشتراكية !! وانقاذ اليهودية الشرقية كما جاء في « روما والقدس » فهو « الاستحواذ على ارض قومية مشتركة هو الامل الذي ينطوي على الشروط الضرورية للعمل على تأسيس مجتمعات يهودية للزراعة والصناعة والتجارة وفقا لمبادىء اليهودية أي مبادىء الاشتراكية . تلك الاسس التي تستطيع بفضلها اليهودية الشرقية أن تخرج من صناديق القمامة . وتقود شعلة الوطنية اليهودية ، وتنقذ اليهودية باجمعها »[٩] .

مرة اخرى بغرض السؤال نفسه : ما هو السبب الحقيقي لهذا التحول العميق الذي طرأ على هس وامثاله من صفوف القوى الثورية الراديكالية الى صفوف العنصرية الكولونيالية ؟ ! هذا الانقلاب بلا جدال هو ثمرة الظروف الاوروبية ، ولكن ليس بالمعنى الذي يريده المفكر الصهيوني هرتزبرج ، بانها ثمرة طبيعية ، وانها ابنة ظروفها ليعطيها شرعية ودعما وعمقا ، بل هي الابنة غير الشرعية لحضارة العصر الاوروبية ، هي الوليد غير الشرعي ولقيط الطبقات الرجعية العرقية الاوربية في ذلك العصر ، بمولدها وتبنيها ، وهي تتأثر بالفعل وبالفكر القومي في ذلك الزمان ، ولكن بالقومية الرجعية الشوفينية والعرقية ، وهي تيار من تيارات هذه القومية الرجعية ، وفرقة من فرقها ذات التطلعات الكولونيالية ، وكل ما هنالك انها وجدت في التراث اليهودي التلمودي والعرقي جذورا وارضا تقف عليها ، وفي مناخ العصر الكولونيـــالي الامبريالي ، هواء تتنفس وتتغذى به وتنمو[١٠] .

هس الاشتراكـــي

تاريخ هس كرائد من رواد الاشتراكية الاوروبية يستحق وقفة تأمل ، فعلى الرغم من أن ماركس وانجلز يعترفان ان له الفضل والزيادة في هذا الميدان ، الا انهما في الحقيقة وضعا ايديهما منذ البداية على جذر الانحراف الفكري اليوتوبية الرومانسية التي ستؤدي به في نهاية الأمر الى الردة والضياع . لقد بدأ اشتراكيا ، ولكنه لم يكن ماركسيا قط ، وانتهى عرقيا . وسنرى في مجرى تفكيره كيف يتوه الشراع ويتقلب تحت وطأة أنواء العصر .

كان من شباب اليسار الهجلي ، ولكن مذهبه كان في جوهره اخلاقيا صوفيا ، فقد تأثر بسبينوزاوهيجل وكذلكفيورباخ[١١] . وكون اشتراكيته في البداية والتي سميت بالاشتراكية الحقيقية ، على اساس فلسفي ميتافيزيقي بحت ، بعيدا عن النضال العملي ، ودون ادراك لدور العوامل الاقتصادية في حركة التاريخ والواقع ، ولا معرفة بالطبقات العاملة أو اتصالاتها ، وعندما اضطر الى ترك بلاده المانيا في خضم النضالات الديموقراطية والثورية لذلك الحين ، لجأ الى فرنسا واتصل بالاشتراكيين الفرنسيين ـ واصبح عضوا في العصبة الشيوعية ، (التي اسسها في الاصل الديموقراطيون الالمان المثقفون الراديكاليون والعمال في باريس سنة ١٨١٦) [١٢] وهي التي كلفت ماركس وانجلز بكتابة البيان الشيوعي ، وظهر قبيل ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ في باريس .

وقد استعار هس مفهوم اغتراب الانسان من فيورباخ ، ولكنه نقله الى الميدان الاجتماعي .. فاغتراب الانسان عن جوهره يميز نمط الانتاج الرأسمالي الذي يغرس الانانية ويولدها نتيجة المنافسة ، ولاجل القضاء على الاغتراب وعبودية الانسان للمال ومن أجل أن يتخلص الانسان من الانانية ، ويحيا حياة جماعية مشتركة واخلاقية ، لا بد من القضاء على النظام الرأسمالي ، حتى يتمشى الانسان مع طبيعته الحقة ، ويجعل من حب الانسانية قانون حياته[١٣] .

ولكن اشتراكيته كما بين ماركس ، مثل اشتراكية جميع الاشتراكيين الاصلاحيين البورجوازيين الصغار ، لا تعبر عن البروليتاريا الثورية ولا آمالها ، بل عن الطبقات المتوسطة الصغيرة ، لذلك ظلت تستند الى مفهوم من التضامن البشري ، تفتقد تماما مفاهيم التمايز والصراع الطبقي . وتقوم مشاريع الاصلاح التي يقدمها هؤلاء الاشتراكيين ومن بينهم هس على معاني التضامن البشري العام ، بوصفها قوة طبيعية كبرى ، عاقتها الأنظمة الاجتماعية السيئة عن الافصاح عن نفسها في بناء سليم للعلاقات الاجتماعية . ومن هنا فقد انتهى الى اشتراكية عاطفية[١٤] .

ويشدد ماركس وانجلز في « الايديولوجية الالمانية » على هذا الصنف من الاشتراكيين الذي تغيب عنه الرؤية الطبقية ، ويدعونا بدلا من ذلك الى أن نرتفع فوق الاشتراكية والشيوعية ، لنصل الى الوحدة الاسمى التي تجمع بينهما ، والتي تتمثل في النزعة الانسانية ، فنحن جميعا على حد تعبير هس الذي ينقله ماركس، كائنات بشرية ... نحن جميعا اخوة .. نحن جميعا احبة[١٥] ثم يمضي ليقول أنه سواء كنا كائنات بشرية أو وحوش أو نباتات أو حجارة ، فنحن جميعا أجسام ، وعندما يتحرر الانسان من آخر القوى الخارجة عليه ، يصبح صالحا وقادرا على النشاط الاخلاقي ، متجردا من الانانية ويعلق ماركس وانجلز على ذلك بأن كل هذه العبارات الطنانة عن التحرير الخ . وعن الانسان الذي تحرر ، تبدو فيها المشكلة وكأنما قد حلت من الاساس ، وأن الثورة والمال وغيرها قد كفا عن الوجود ، ويصبح الوصول الى الاشتراكية أو الشيوعية على هذا الوجه طريقة الميتافزيقا .

اما ماركس فعلى خلاف هس تماما ، يرفض هذا المنهج والمفهوم الذي يقوم على الانسانية العامة ، التي لا تمايز فيها ولا صراع ، والتي تتيح للبورجوازية الصغيرة الفرصة لممارسة

أعمالها الخيرة ورغباتها النقية ، وهو ضرب من الاغراق في الاحلام ».يختلط في رأي ماركس مع اعتداد الالمان بأنفسهم واعتقادهم بأنهم اسمى قومية وأن الآخرين غرقى في المصالح المادية الضيقة ، بينما يحلقون هم فوق كل الامم وهم اسماها .

يطرح ماركس جانبا هذه المفاهيم الطوباوية العاطفية جانبا ، والتي تعطي لمعاني الانسانية والحب قوة سحرية ــ ليقيم علم الثورة ــ على مفهوم الصراع الطبقي والمادية الجدلية والمادية التاريخية . لقد استطاع ماركس وانجلز أن يضعا ايديهما على جذر الانحراف في غيمة الرؤية الطبقية ومعالم الصراع الطبقي في المجتمع ، واستبدالها بمفاهيم الحب والنزعة الانسانية الحالمة . وليس من الغريب اذا افتقد هذا الحب طويلا واختفت الانسانية وفي لحظة الهزيمة واليأس ، أن يسقط صاحبها بعد ان غابت عن أعينه معالم الصراع الطبقي في حمأة العرقية والصراع العرقي .

صــراع الاعــراق

وهس الذي يحلق في سماوات الحب والاخوة والانسانية التي تعلو على الطبقات والصراعات الطبقية ، يسقط في التفسيرات العرقية الساذجة ، عندما يصطدم بحقائق الواقع وبهزيمة الثورة . وهو في كتابه ــ روما والقدس ــ يردد من العبارات اكثرها سذاجة في تفسير قصة معاداة اليهود يقول :

« طبيعة الالماني الانسانية البحتة » هي في الحقيقة طبيعة العرق الالماني الصرف التي قد تصل الى مفهوم الانسانية نظريا ، اما عمليا فهي لم تتخط بعد الاحاسيس والتنافرات التي تنطوي عليها فطرتها العريقة .

هناك سببان لاصل العداوة الالمانية الموجهة ضد طموحنا اليهودي يعكسان طبيعة الانسان المزدوجة ، ناحيته الروحية والطبيعية ، وناحيته النظرية والعلمية ، المتميزتان والمتناقضتان عند الالمانيين أكثر من أي شعب آخر .

تتناقض فكرة الطموح القومي ككل مع نظرية الالمان الدولية ، وعلاوة على هذا فأن الالمان يعارضون الطموح القومي اليهودي بسبب نفورهم العرقي الذي لم تستطع حتى أنبل المشاعر عندهم التغلب عليه .

وهو يردد في مواضع كثيرة من « روما والقدس » عبارات القوميين الالمان الشوفينيين وينقلها الى اليهود والقومية اليهودية فيتحدث عن « المقدرة والعبقرية الخلاقة لدى الامة اليهودية » ، و « على شعبنا أن يعيد نفسه الى مجرى تاريخه الذي أهمله العقلانيون اليهود كثيرا ، وأن يضيء في قلوب شبابه تلك الروح التي كانت منبع الحكمة والوحي لانبيائنا وحاخامتنا »(١٦) .

رسالــــة اسرائيــــل

وهو يتحدث بلغة العرقيين الشوفينيين من « التيوتون » و « السكسون » و « اللاتين » عن رسالة الامة اليهودية وهي رسالة اخلاقية في الأساس : هي تحقيق الوحدة بين الاخلاق

والحياة . وهذه لا يمكن تحقيقها على طريقة الاندماجيين بمحو اليهودية بل من خلال أمة منظمة تنظيما سياسيا حيث تستطيع هذه الامة تجسيدها في مؤسساتها الاجتماعية(١٧) .

وتشيع النظرية الحيوية التطورية والتي تتأثر بمفاهيم الداروينية الاجتماعية عند العرقيين الاوروبيين في كل صفحات كتابه « روما والقدس » ويردد نفس عبارات الصراع والبقاء للاقوى والاصلح يقول :

« اصبح تاريخ الانسان مقدسا من خلال اليهودية ، واعني هذا ان التاريخ اصبح تطورا عضويا وموحدا يعود في اصله الى حد الاسرة . وسوف لا يتم هذا التطور الا اذا اصبحت الانسانية كلها اسرة واحدة ، يتحد اعضاؤها بالروح القدس وبابداع التاريخ العبقري بقوة ، كاتحاد اعضاء الجسم بقوة ابداع الطبيعة المقدسة . وبما أنه ليس هناك اي شعب غير اليهود له (دين يربط العناصر القومية والعالمية والتاريخية معا فاليهود اذن هم وحدهم شعب الله ، ومنذ الثورة الفرنسيةاصبح الشعب الفرنسي والشعوب التي سارت على خطاه منافسينا الاشراف وحلفاءنا المخلصين) .

ويتوجه الى اخوته المخلصين ويقول : « وحافظ يا شعبي على مستواك عاليا فان النواة الحية موجودة فيك مثلما توجد الحياة في حبة القمح التي كانت مخزونة داخل قبور المومياء المصرية التي تحافظ على قوة تأثيرها بعد أن انقطعت عن الحياة لمدة آلاف السنين وستعمل هذه الحبات جذورا وتعود الى الحياة في حالة زرعها وفي حالة اعطائها الهواء والنور والمطر الكافي وذلك لأن « القوة الخلاقة في التاريخ » تنتج « شعوبنا » كما تنتج الطبيعة ازهارا وثمارا ونباتات وحيوانات .. وتبدأ حياة الانسان في المجتمع بتميز رئيسي بين أقوام من الناس ، والتي هي في البدء كالنبات توجد جنبا الى جنب ومن ثم تحارب بعضها بعضا كالحيوانات وتحطم بعضها بعضا أو تمتص الواحدة الأخرى لكن سيعيش الناس في النهاية معا وذلك كي يحصلوا على الحرية المطلقة ويعيشوا بصداقة حتى يكون الانسان مقيدا لغيره . هذا دون أن يفقد الفرد هويته المميزة »(١٨) .

أما ميول الصناعة والحضارة المتزايدة « فهي تهدد » كل اصل عضوي للقوة الحياتية بالموت ، وذلك بجعل الحياة ميكانيكيةوسيتطور المجتمع الانساني في التاريخ كالطبيعة تماما « وسيحقق التاريخ كالطبيعة حقيقته المنسجمة الكمال » .

ولا شك أن ماركس وانجلز على حق عندما يسخران من هس فكأنما به يتصور ان قوة المال والثروة قد توقفت في العالم ، وأن تطور البشرية سيأتي بفعل قوى ميتافزيقية خارجة وهو هنا يتصورها القوة الحياتية والتطور الطبيعي للكائنات الذي سيصل بالانسان آخر الأمر وعبر الصراع والقتل الى الاخاء والحب !!

امة الروح وشعب الاخلاق

هذه الدعاوى التي شاعت عند المفكرين الالمان التقدميين ، عن الامة الالمانية أمة الثقافة والروح ، تحولت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتصبح محور الفكر الرجعي عند دعاة الجامعة الجرمانية ثم السلافية فقد أصبحت عصب الدعوة العنصرية والعرقية عند العديد

من المفكرين الصهيونيين الاول المتأثرين بتفكير الجامعة الجرمانية والسلافية .

دعى اليها هس ، فاليهود عنده سواء هاجروا الى فلسطين وكونوا دولتهم أو ظل البعض منهم في اوروبا ، فهم حيثما كانوا مركزا روحيا للشرق والغرب(١٩) .

وقال بها منسكو (١٨٢١ ــ ١٨٩١) بعد تحوله وانقلابه أثر مذابح ١٨٨١ في روسيا ففي كراسة « التحرر الذاتي » سنة ١٨٨٢ يقول « ان اليهود رغم استسلامهم كدولة وكوحدة سياسية ، أثر سحق الرومان لدولتهم ، الا انهم « لم يستسلموا الى دمار كلي ــ لم ينقطع هذا الشعب عن كونه أمة روحية(٢٠) .

وفي سنة ١٨٦٠ اقترح سمولتسكين (١٨٤٢ ــ ١٨٨٥) من اليهودية الروسية تحديد تعريف اليهود والشعب اليهودي بأنه شعب الروح حتى يمكن للشباب المثقف بالثقافة الجديدة والذي لا يؤمن بالدين من أن يرتبط بشعبه . ومع ذلك فقد كان التيار الغالب بين هؤلاء الشباب هو الاندماج ، ولم تصادف دعاواه أي قبول أو انتشار وتطلب الامر صدمتين كبيرتين ، هما المجازر الروسية ١٨٨١ وقضية ديفوس لتخرج الصهيونية من قوقعتها وتتغلب على عزلتها ، ولتصبح مقبولة لدى اعداد متزايدة من جماهير الطبقة الوسطى الصغيرة .

أما احدها عام (١٨٥٦ ــ ١٩٢٧) فقد اصبحت اسرائيل كمركز روحي محور دعاواه ودعوته ، وعبرت عنده عن تيار له قوته ولا يزال بين الصهاينة . فقد عارض صهيونية هرتزل السياسية التي تركن الى الاساليب والوسائل السياسية والدبلوماسية بينما كان هو يرى أسبقية الصهيونية الثقافية ، وهو في هذا يستمد الكثير من آراء هيردر حول الثقافة الشعبية والأدب الشعبي « وقد ساعد وايزمان في اصدار وعد بلفور » .

يقول « اذا كان هناك دولة يهودية ثالثة ، كما نأمل فيجب أن تقوم على الصعيدين القومي والفردي ، على مبدأ أن لا يتحكم الجسد بالروح ولا أن يقهر الجسد من أجل الروح ، انما على رفع الجسد بواسطة الروح »(٢١) « هذا الموطن لليهود الذي ينمو تدريجيا سيصبح مع مرور الزمن مركزا للامة تستطيع منه روحها أن تظهر وتتطور الى اعلى درجات الكمال ومن هذا المركز ستشع روح اليهودية الى انحاء العالم وفي مجتمعات الشباب باعثة فيهم حياة جديدة وعاملة على جمع شمل شعبنا » .

« ان سر بقاء شعبنا ــ هو في ما علمه الانبياء من اقدم العصور : أن يحترم قوة الروح فقط وأن لا يعبد قوة المادة » .

والواقع ان كل هذه الادعاءات الروحية والتطلعات لدور المعلم ، وصاحب الرسالة الروحية والثقافية العالمية ، والتي تعطي لعودة صهيون دورا اكبر مما تعنيه دولة صغيرة ، دورا انسانيا عالميا ، لم تخرج عن كونها تنويعات وتعبيرات مستحدثة وعلمانية عن المفهوم اليهودي التراثي ، مفهوم « الغيرية » و« التمايز » (اليهودي) ، وهي الترجمة العصرية للمفهوم التاريخي الميتافزيقي عن « الشعب المختار » وكل ما هنالك أنه يحاول أن يؤقلم هذا المفهوم الفج وغير المعقول للدعوات الشائعة والسائرة في ذلك الزمان عن « الامة الروحية » الالمانية أو السلافية والرسالات العرقية .

لقد كانت السيادة في النصف الاخير من القرن الماضي لتيار الاندماج القوي بلا جدال ، وقد اسقط الاصلاحيون الاندماجيون الامل السيائي اليهودي في العودة الى صهيون ، وجاءت الصهيونية في هذه المرحلة كحركة انشقاق وردة وخروج على التيار الاندماجي الكاسح ، وكان لا بد لها أن تزاوج بين الرؤية الدينية السلفية والتراثية وبين العصرية العلمانية حتى تجد لها مكانا تحت الشمس ، وهي تدعى وراثة عصر التحرر والقومية ، ويتعلق باهداب هذا العصر ، بينما هي في الحقيقة حركة ردة ــ وخيانة للتحررية والقومية معا ، لأنها تنتمي منذ البداية للقومية الرجعيةالشوفينيةولأنها عندها تبحث عن التمايز ، وتعطي لنفسها رسالة خاصة قومية وعالمية تدفع باليهود خارج قومياتهم ومجتمعاتهم ، وهي اذ تحاول الاندماج في روح العصر ، ترتد بهذه الروح الى عصور سحيقة .

والواقع ان النصف الاخير من القرن يشهد تحول الجامعة السلافية الى عقيدة غالية بين المثقفين الروس ، وهو مذهب مثله مثل الاصل « الجامعة الجرمانية » ينزع الى العصور الوسطى والقومية الرجعية التي صنعت مذابح ١٨٨١ ــ وكانت الجامعة السلافية ترى أن القبيلة هي بطبيعتها « شعب مختار » وأن جميع اعضائها مهما كانوا هم بحكم المولد السلالة الحقيقية للسوبرمان فوق الجموع المنحطة . وكانت معاداة السامية جزءا لا يتجزأ عن هذه الايديولوجية القبلية . فقد كان العداء لليهودي ليس لمجرد أنه غريب ، بل لأن دينه يمثل الصيحة المقابلة : أنه شعب مختار ، وهو مصدر كل اخلاق الهية، يتعين على البشر طاعتها ، ومن هنا كان اليهودي يبدو في صورة العدو بالدرجة الأولى في حرب دينية .

والطريف ان احدها عام يغترف من هذا المنهل القبلي والعرقي ويتأثر به كل التأثر ، يرد على نيتشه الذي ينكر الاخلاق ويعتبرها من صنع الضعفاء ويدعو الاقوياء الى الخروج على هذه القيود المفروضة . باسم الاخلاق . وهو في رده ورفضه لهذه المقولة التي تبدو همجية يعود ليقف على نفس الارض التي يقف عليها نيتشه ولكن من طريق مقابل ، فاحدها عام يرى في مقولة نيتشه قلبا للقيم اليهودية ، ذلك لأن معناها ان القوة متفوقة على الروح ، لذلك فهو يقدم في مقابل سوبرمان نيتشه القوي سوبرمان آخر يهودي هو « الصديق » وهو البطل الاخلاقي .. واذا كان السوبرمان ضرورة للحياة الانسانية فلا بد أن توجد بيئة ملائمة له . وهناك هذا الشعب الذي تجعل منه ميزاته وسماته الموروثة اكثر صلاحية من غيره للنمو والتقدم الاخلاقي وهو الشعب اليهودي فالاخلاق تسيطر على حياته ، وهي اخلاق تسمو على غيرها ، وعلى النمط التقليدي للاخلاق .

والحقيقة أن احدها عام يستعير مفاهيم نيتشة بالضبط عن السوبرمان ويضيف اليها مفاهيم سبنسر البيولوجية فقومية غير اليهود تبنى على القوة ، وفي مقابلها قومية اليهود التي تبنى على الروح تعتد بقوة المادة . والقومية عنده تشتمل على امرين : القومية بشكل عام وهذه القومية بلغة المنطق الصوري الارسطي جنس Genus تندرج تحته انواع وافراد ، أي جميع امم العالم ، وهناك في المقابل قومية الروح وهو ، جنس فريد Unique Genus لا يوجد منها الا نوع واحد ، هو النوع اليهودي . ان احدها عام يلتقي تماما بفكر نيتشة والجامعة السلافية القبلي والعرقي ولكن من الطريق الآخر « ومن هنا يمثل مفهوم الثورة المضادة بوضوح(٢٢) .

الاشتراكية ـ الصهيونية

إن تراث الاشتراكيين اليهود الذين كانوا يناضلون في الاحزاب العمالية الاشتراكية غير اليهودية،جنبا الى جنب مع اخوانهم من الثوار الاشتراكيين عموما دون تمييز بين يهود وغير يهود ، هو تراث لا ينكر : وعلى عكس هذا التراث الثوري الباهر للثوريين اليهود الحقيقيين فان الصهيونيين اليساريين يقدمون نموذجا مختلفا تماما ، فقد كانوا يتشكلون من فئات اصابها اليأس من التضامن العمالي وهجروا ميدان الكفاح والمعركة في حقيقة الامر . وهنا تحس بثقل آثار التركيب الخاص للمجتمع اليهودي في بلدان شرق اوروبا بوجه خاص ، فقد كان يغلب عليه صفة البورجوازية الصغيرة(٢٣) يضاف اليه ان الغالبية من العمال اليهود كانت تعمل في مؤسسات يهودية ، بحيث نجحت البورجوازية في سلب وعيها الطبقي وحرفه عن مساره الطبيعي . ومن هنا هجر الكثير من العمال اليهود المعركة القائمة في اوطانهم من اجل الاشتراكية ، في سبيل معركة متوهمة في فلسطين اليهودية .

لقد كانت الصهيونية منذ البداية حركة تحريف ، تبنتها البورجوازية اليهودية والاوروبية الرجعية لمواجهة ازماتها ومشاكلها وتحقيق اهدافها الكولونيالية والامبريالية ، الامر الذي دعى فون بلهف Von Plehive الى القول بأن « ما كان يطارد في اليهودي هو الثوري »(٢٤) .

لقد تبلور لمواجهة الموقف جناح اشتراكي داخل الحركة الصهيونية ، حاول أن يحقق التكامل بين اليوتوبيا القومية الصهيونية الرجعية والاهداف البروليتارية الاشتراكية ، وقد اصبح لهذا التيار في اطار الظروف العالمية والتاريخية تأثير حاسم على مجرى الاستعمار الكولونيالي لفلسطين وكان هذا الجناح العمالي للصهيونية يمثله حزب عمال صهيون ، واصبح بيربوروشوف Ber Boroshoo (١٨٨١ ــ ١٩١٧) منظره الأول .

القضية ليست في اخلاص هذا التيار أو بعض افراده للاشتراكية أو عدم اخلاصهم ، بل ماذا كان يعنيه هذا التيار في واقع الصراع العالمي والمحلي في البلدان الاوروبية ، وما انتهى اليه في الواقع سواء في اوطانه أو في فلسطين . ذلك ما يكشف حقيقة هذا التيار ومضمونه ومحتواه الحقيقي والتاريخي .

ينطلق بوروشوف من القول بان اليهود من الناحية الاقتصادية لا يعيشون في مجتمع طبيعي أو ظروف طبيعية . فالطبقة العاملة اليهودية يثقل خطاها ويعوقها تركيبها الاجتماعي الذاتي وغير الطبيعي . فهي اذ تتركز في المستويات الدنيا من الانتاج ، لذلك يسود بينها الحرفيون الذين اصابهم الخراب ، والاجراء في الصناعات الصغيرة المانيفاكتورية ، ومن هنا كان تعرضهم أكثر للهزات ولاثار الازمات والركود الاقتصادي . هذا فضلا عن ان تطور الرأسمالية يتجه الى القضاء على المؤسسات الصغيرة الاستهلاكية وعندئذ يجد العمال اليهود انفسهم عرضة للمزاحمات القومية التي لا ترحم .

في مثل هذه الظروف ، ولغياب « القاعدة الاستراتيجية » المناسبة ــ على حد تعبيره ــ بمعنى القاعدة البرولتيارة المعدمة والحقيقية ، لذلك فان البروليتاريا اليهودية في نظره يصعب عليها أن تستمر في النضال ، وفضلا عن أن جماهير البورجوازية الصغيرة لا تتحول الى

بوليتاريا. ومن هنا فلا بد من خلق البيئة الاجتماعية اليهودية الطبيعية ومن هذه الزاوية تبدو الصهيونيةضرورةتاريخة!!(٢٥) ذلك أن تشكيل بروليتاريا يهودية طبيعية في الزراعةوالصناعة الاساسية لن يتيسر الا عن طريق « الحكم الذاتي على ارضه وحدوده السياسية » في بلد متخلف وهي ارض لا بد ان تكون شبه زراعية لان هذه الارض وحدها هي التي يستطيع رأس المال المهاجر ، المتوسط والصغير وقوة العمل اليهودية ، أن تنفذ اليها وتتسلل ، وفي مثل هذه البلاد التي لم يصبها التقدم ولا زالت قاصرة عن النمو يمكن « أن يتحول الى كائن اقتصادي مغلق» لا خوف عليه من أي مناقشة ، ومن هذه اللحظة يمكن للبروليتاريا اليهودية أن تتشكل وتكتسب تركيبا طبيعيا وتخوض صراعها الطبيعي ايضا .. ويتبدى الاختلاف والصراع الطبيعي في راي بوروشوف بين الحزب العمالي الصهيوني والبورجوازية اليهودية في اختلاف الاهداف ، فالحزب العمالي الصهيوني يصر على الكفاح السياسي باعتباره الطريق الذي يعود الى الاستقلال والحكم الذاتي السياسي ، بينما تأمل الصهيونية البورجوازية في تنفيذ مشاريعها عن طريق سياسات القمة ومشروعات الاستعمار الكولونيالي !!

ولكن لماذا فلسطين بالذات ؟ ! هذا السؤال يطرح نفسه بالضرورة ولكن بوروشوف يتهرب عن الاجابة على هذه المسألة بالذات بصراحة ووضوح . والسبب بسيط فمشاريعه وخططه العملية لا تخرج عن كونها تبريرا ذهنيا لدفعات ودوافع لا عقلانية(٢٦) فليس بمقدور منظري الصهيونية العالمية أن يصلوا الى استخلاص واستنتاج العودة الى صهيون انطلاقا من مقدماتهم التي يتحدثون فيها عن « الضرورة التاريخية » لخلق المجتمع اليهودي .

والحقيقة ان تأكيد بوروشوف على ان الطبقة العاملة اليهودية لا يمكن أن تخوض صراعا ناجحا وطبيعيا ، وهي تفتقد القاعدة الاستراتيجية ، يكذبه كل تاريخ الثورات البورجوازية والاشتراكية والدور البارز الثوري الذي لعبه اليهود كجماهير ، أو كقادة في هذه الثورات التي لم تكن لتفرق من اليهودي وغير اليهودي (روزا لوكسمبرج ومارنوف مارتوف وكامنيف وتروتسكي الخ) .

لقد عزل بوروشوف قضية اليهود عن اطارها الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي ، بحثا عن مخرج خارج هذه الأطر . ولم يكن من قبيل الصدفة أن يعجز بوروشوف عن تقديم أي تحليل تاريخي مادي يفسر به استمرار الشعب اليهودي في نظره ، لان مثل هذه الدراسة كفيلة بكشف الاسس الصوفية السلفية التي تقوم عليها معتقداته الصهيونية . والواقع ان تلاميذه قدموا التفسير انطلاقا من المقولات الحيوية العنصرية الشائعة في تراث القومية الرجعية في عصرهم . فقد فسروا استمرار الشعب « بالقوة الحيوية » التي وصفوها بانها « لغز التاريخ » مطبقين هذا التفسير على العديد من الاقليات في العالم .

هذا بوروشوف يذكر في بعض كتاباته فلاحي فلسطين من العرب مثله في ذلك مثل احد هاَم الذي رأى الحل ، عندما ادرك استحالة استيعاب فلسطين لكل اليهود ، في انشاء مركز روحي بها ، أما بوروشوف فيدعوا الى التضامن مع هؤلاء الفلاحين !! هكذا !! في نفس الوقت الذي يركز فيه على المهام العملية للاستعمار الكولونيالي ، والتي لا يمكن ان تنجز الا على حسابهم ؛ وهو لا يجد غرابة – وهو العدو العنيد للاندماج – في أن يتصور ان العرب الفلسطينيين

سيندمجون من جانبهم وطواعية في المجتمع الصهيوني . فاستيعاب العرب في الحياة الاقتصادية والسياسية في رأيه سيفتح الباب للكفاح المشترك ضد الترك !! وقد كتب هذا سنة ١٩٠٦ . فاذا حاصرته الحجة القائلة بأن الصهيونية تعني قهر العرب الفلسطينيين اكتفى بالقول انه يفضل الاساليب الجديدة في العمل سيكون هناك محل للجميع ، وأن العلاقة بين اليهود والعرب ستكون « طبيعية » !!

وقد اثرت أرؤه تأثيرا عميقا في اتباعه . وحاول حزبه « عمال صهيون » الانضمام الى الاممية الشيوعية فرفض طلبه . ولا شك ان تاريخ هذا الحزب وتطور اليسار الصهيوني عموما يكشف عن المآل الحتمي لمثل هذا اليسار الكاذب الشوفيني، الى التسليم والارتماء في احضان القومية الرجعية الشوفينية والعرقية ، أداة الامبريالية .

الحقيقة الاساسية التي لا بد أن تبرز وتتأكد من وراء هذه الرحلة الطويلة في الفكر الاوروبي الحديث والصهيوني ، أن الصهيونية لم تنشأ في اوروبا في اواخر القرن الماضي مجرد رد فعل دفاعي ضد الاضطهادات العنصرية ومعاداة السامية سواء في المانيا والغرب او في شرق اوروبا ، كما لم تقو وتشتد حركتها في الفترة النازية وحكم هتلر والحرب الثانية لمجرد عمليات الابادة والتصفية الجسدية في اوروبا النازية . فهذه الاضطهادات وأن كان لها نصيب في دفع الحركة الى الامام وتهيئة الظروف لدعاواها وادعاءاتها ، ولكنها لم تكن السبب الجوهري والاساسي في نشأة وتطور ظاهرة الصهيونية وتيارها ، ولا يقصد بهذه الدعاوى والتبريرات في الحقيقة سوى استجلاب العطف عليها والتبرير لجرائمها .

اما الحقيقة فهي أن الصهيونية نشأت منذ البداية ، وكما اثبتنا بالدليل التاريخي والتحليل الطبقي الاجتماعي للحركة اليهودية ، كجزء لا يتجزأ عن حركة الرجعية الأوروبية العرقية والعنصرية ، وتيار من تياراتها ، المتعددة والمنتشرة على الساحة الاوروبية في اخريات القرن الماضي . وقد تبدو مناقضة لغلبة تيار معاداة السامية العرقي في هذه المرحلة ، الا انها في الحقيقة رد فعل وجزء لا يتجزأ من هذا التيار وامتداد له في نفس الوقت ، نشأت في نفس التربة ، وغذت من نفس الافكار ، وارتوت من نفس المنابع العامة للفكر الاوروبي في هذه المرحلة الى جانب التراث اليهودي السلفي والتلمودي وقد كانت تلك البداية تيارا معزول ومحصورا في خضم الحركة الاندماجية اليهودية الكاسحة ، ولكنها استطاعت في نهاية الأمر أن تخرج عن عزلتها وتركب الموجة وتستقطب اعدادا اكبر من اليهود في ظروف الازمة وتصاعد تيار الاستيطان العنصري في اسيا وافريقيا والتوسع الامبريالي عموما .

وهذا ما يقودنا الى الحقيقة الثانية والاساسية التي ينبغي ايضا أن تتأكد ، فالصهيونية حرصت منذ البداية على ربط حركتها بعجلة القومية والحركات القومية الاوروبية في القرن التاسع عشر ، والصهيونيون الاول والأخر ايضا لا يكفون في كتاباتهم عن عقد المقارنات والمشابهات بين الحركة القومية اليهودية في زعمهم والحركة الالمانية والايطالية والسلافية الخ واذا كانت الحقيقة المؤكدة أن القرن التاسع عشر كان هو عصر القوميات بلا منازع ، فليس يعني نشأتها في هذا القرن انها كانت نشأة طبيعية وكجزء من هذه الحركات القومية الاوروبية كما يدعي هرتزبرج مثلا وغيره من الكتاب الصهيونيين . ووجه المغالطة الكبيرة في هذا الشأن

ان الحركة القومية الاوروبية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر لم تكن شيئا واحدا ، وإن حمل نفس الاسم وانما تتحدد الحركة القومية بمضمونها ومحتواها في الاساس ، وباتجاه حركتها وتياراتها واهدافها ، لا باسمها وشكلها الخارجي ، تتحدد بالمرحلة التاريخية التي تمر بها وتعبر عنها ، وطبيعة القوى والطبقات الاجتماعية التي تحركها أو تتصدرها وحتى تركيبها . وقد عرضنا بتفصيل للمرحلتين المتميزتين اللتين مرت بهما هذه الحركة والتيارين الاساسيين فيها منذ نشأتها على يد البورجوازية الثورية الصاعدة في القرنين الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر ، وكانت قومية ديموقراطية ليبرالية وعقلانية ، ثم كيف انتكست في مرحلتها الثانية ، وتحولت الى قومية معادية للديمقراطية ، شوفينية عرقية على يد الطبقات البورجوازية الكبيرة والقبالة القديمة بعد فشل ثورات سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ الديموقراطية وبعد كومونة باريس سنة ١٨٧١ بوجه الخصوص ، ثم دخلت مرحلة الامبريالية الكولونيالية وبرزت سماتها العدوانية والتوسعية .. وقد اصبحنا بازاء قوميتين متميزتين وتيارين متناقضين تماما .. امتان على حد تعبير دزرائيلي .. قومية وتيار الشعب العامل والطبقات الثورية والتقدم ، وتيار آخر ينتمي للطبقات الرجعية الامبريالية . فلم يكن من قبيل الصدفة أن تنشأ الصهيونية في المرحلة التي نشأت فيها ، وقد حملت منذ البداية كل سمات تيار القومية الرجعية الشوفينية والعرقية ، كما ارتبطت باهدافها الكولونيالية الاستعمارية فأصبحت من أهم تياراتها في غزو الشرق بحكم ظروفها الخاصة وطبيعة تراثها السلفي وافكارها المتوارثة ومن هنا فاذا ادعت الصهيونية بانها ابنة عصرها في اوروبا ، عصر القوميات فهي صادقة ولكن علينا أن نكمل السؤال : أبنة من على وجه التحديد ؟وربيبة اي طبقات؟ حتى لا تطمس ملامح الوليد ويضيع انتماؤه وهويته الحقيقية خلف اردية القومية الوطنية الكاذبة والمعماة .

العنصرية والتلفيقية

ولكن العصر لم يكن عصر القومية فحسب بل عصر الاشتراكية ايضا ، عصر البيان الشيوعي وكومونة باريس والحركات الاشتراكية الديموقراطية القوية في غرب وشرق أوروبا . ومن طبيعة المذاهب والتيارات العرقية اللاعقلانية انها تنشأ منعزلة متقوقعة لمجافاتها لروح العصر ، لذلك تلجأ لاكتساب الشعبية والجماهيرية التي تفتقدها ، وللخروج من عزلتها ، الى التلفيق وركوب الشعارات الرائجة وسرقة الدعوات والشعارات الجماهيرية بعد تزييفها وحرفها عن اتجاهها الصحيح ، فهذا ما فعله فاشية موسوليني عندما ركبت تيار الوطنية والسندكالية العمالية ، وكذلك نازية هتلر باشتراكيتها الوطنية الكاذبة ، ومن هنا ايضا لم يكن بالصدفة أن تحاول الصهيونية ركوب موجات القومية والاشتراكية معا . خاصة وأن جماهير اليهود كانت تشكل عادة وتلعب دورا بارزا في الحركة الثورية في بلادها سواء في الحركات القومية الاندماجية والديموقراطية أو الاشتراكية الراديكالية حتى اصبح اليهودي العالمي رمزا لمعاداة النظام في كل مكان ، وكان من اهداف البورجوازية اليهودية الكبيرة والمندمجة في بلادها وفي البورجوازيات الاوروبية حرف اتجاه الثوريين وتضليلهم بالشعارات العرقية السامية والمعادية للسامية ، وكان من اهداف البورجوازية اليهودية بالذات ومن مصلحتها ابعاد شبح يهود شرق اوروبا وتحويلهم عن الغرب كما هو معروف حتى لا تضار مصالحهم ولا تسقط في الحرج ، ومن هنا

كانت المصلحة واحدة في دفع الحركة اليهودية كلها نحو فلسطين وضرب اكثر من عصفور بحجر واحد : اجهاض الحركة الثورية واستبدالها بالحركة الاستيطانية وفي نفس الوقت تحقيق الاهداف الاستعمارية والكولونيالية تحت شعارات قومية واشتراكية زائفة .

العــرق أم الطبقــة ؟ !

وقد رأينا عند هس وعند بوروشوف كيف يكون الانتكاس ، عندما ينقلب الصراع الطبقي ليتحول الى صراع عرقي ، تأخذ معاداة السامية التي تختفي وراءها الطبقات الالمانية والروسية الرجعية شكل الصراع بين الاعراق والدماء النقية الجرمانية أو السلافية أو السامية ، بذلك تختفي جذور المشكلات الاجتماعية الحقيقية التي تنشأ عنها هذه الصراعات كما تختفي الاهداف والمصالح الحقيقية للطبقات . ولا يخرج المفهوم الحيوي التطوري والذي ارتبط بالدارونية الاجتماعية والذي تراه شائعا بين جميع مفكري الصهيونية ، وممثلي العرقية الاوروبية خاصة نيتشة وشيلنجر وغيرهما ، هذا الاطار يرى في نشأة الشعوب ونموها وتطورها شيئا لا يختلف عن نمو وتطور الكائنات الطبيعي من المولد ثم اليفاعة حتى الشيخوخة والموت فهذه النظرية والتي تتخفى وراء واجهة علمانية علمية كاذبة تحقق نفس أهداف التعمية ، فهي محاولة لطمس معالم الصراع داخل المجتمعات ومحتواه الحقيقي ومراحل الحركة الاجتماعية ما بين الصعود والهبوط ، النصر أو الهزيمة والتراجع ، فهي تستبدل الرؤية الطبقية الواعية ، والفهم العلمي للعلل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية المحركة والكامنة وراء الحركة الاجتماعية ، وفي جذر قضايا التقدم والتخلف ــ انتصار الثورة أو انتكاسها .. لتحل محلها مفاهيم حيوية مبهمة مثل النمو والشباب والشيخوخة لخفي الجذور الحقيقية للمشاكل .. ومن هنا كان الرواج والترويج ، لهذه المفاهيم بين العرقيين لقد كان في جذور الزيف الصهيوني ولا يزال محاولات سلب الوعي وحجب الصراعات الاجتماعية والامبريالية وراء رواجها الصراع بين الاعراق ــ يهودا أو اعقار ، من كل صنف عربا كانوا أو اوروبيين أو افارقة ..

بقي أن تناقش طبيعة الصراعات التي تنشأ بالضرورة عندما توضع الصهيونية أو بتعبير آخر تيار القومية الرجعية العرقية في التطبيق وتثبت له ايدي واقدام تتشبث بالارض ؟ ماذا يحدث عندما يتحول هذا الفعل الرجعي الذي تخلق هذا التيار الرجعي الذي يخلق في الرحم الأوروبي الامبريالي الى واقع على الأرض العربية ؟ أي صراعات محتومة تنهشها من الداخل ، واي صراعات مع الخارج ، حتى يستطيع ان يتبين مستقبل هذا الصراع في اوطاننا على اسس اكثر وضوحا وتحديدا .

الحواشي

(1) Arthur Hertzberg, *The Zionist Idea,* A temple Book, New York *P.* 19. 1971.

(٢) اليعازر بن يهودا (١٨٥٨ ـ ١٩٢٣) وسنعود اليه بعد قليل .

(٣) روف بير بوروشوف (١٨٨١ ـ ١٩١٧) وسنعود اليه .

(4) Hertzberg *op, cit. P. 19*

(5) Nathan Weinstock, . Le Sionisme contre Israel. Francois Maspero - Paris P. 47.

(6) Hertzberg, *op. cit, P*. 38.

(7) Weinstock n, *op. cit, P*. 48.

(8) *Ibid,* P. 79.

(9) *Ibid.*

(١٠) راجع كتابنا « الماركسية والدولة الصهيونية » ، بيروت ، دار الطليعة جذور العرقية في التاريخ اليهودي القديم .

(١١)ج . هـ . كول تاريخ الفكر الاشتراكي ـ الرواد الاول ١٧٨٠ ـ ١٨٥٠ . القاهرة ، ترجمة عبد الكريم احمد ، ص ٢٠٦ .

(12) George Lichtheim, *A Shart History Of Socialisme,* Weindenfield London 1970 *P*. 53 - 54.

(13) Auguste cornu, *Essai de critique Marviste*. Ed. Sociale *P*. 47.

(14) *Ibid, P*. 48.

(15) Marx and Engels, *German Ideogogy,* Mascow, P. 526

(١٦) الفكرة الصهيونية ، النصوص الاساسية ، ترجمة لطيف العابد ، بيروت ـ منظمة التحرير ص ٢٢ ، ٢٣ .

(١٧) روما والقدس ـ المصدر نفسه ، ص ٣٠

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٥٢

(22) Hertzberg, *op. cit, p.* 21.

(23) Weinstock, *op. cit, p.* 57

(24) *Ibid.*

(25) *Ibid,* 59

(26) *Ibid*

خيرية قاسمية

قراءة تاريخية لاتفاقية فيصل - وايزمان

مقدمة : نحو تصريح بلفور

كان للمشروع الصهيوني منذ بداية توجهه نحو فلسطين ، سياستان . سياسة سرية توجه دعوتها لليهود لانشاء دولة يهودية على حساب سكانها العرب ، وسياسة ظاهرية توجه دعوتها الى التعاون مع العرب تخديراً لاعصابهم حتى تتمكن من السيطرة عليهم في النهاية . وانطلاقا من هذه السياسة كانت المحاولات الدبلوماسية التي سعت فيها الصهيونية ، قبل الحرب العالمية الاولى ، للتقرب الى اوساط بعض الزعامات العربية خارج فلسطين بحجة المنفعة المتبادلة وتقارب الشعبين والعمل معا لاحياء الشرق وما يمكن ان تقدمه الصهيونية من منافع مادية للبلاد العربية كلها. وقد كانت دوافع قادة الرأي العربي خارج فلسطين لمناقشة مسألة التفاهم العربي الصهيوني هو اختلافهم حول مدى تقدير الخطر الصهيوني وقصره على الخط المادي الذي يهدد معيشة السكان ، وانه يمكن مواجهة هذا الخطر بالتوصل الى اتفاق مرحلي مع الصهيونيين ثم العمل على نهضة اهل البلاد لمجاراة اليهود ، وربما احتجب الخطر الصهيوني في اذهان القادة وراء الصراع لنيل الحقوق العربية داخل اطار الدولة العثمانية . وقد تعثرت جميع محاولات التقارب قبل نشوب الحرب العالمية الاولى نتيجة لقوة المعارضة في فلسطين وتخوف الجميع من القوة الصهيونية التي تساندها قوى عالمية وتحقق الزعماء من انه لا بد لمواجهة الخطر من استخدام كافة الوسائل التي تبدأ بتأليف الجمعيات وتنتهي بالكفاح المسلح .

وبعد نشوب الحرب دخلت المسألة الصهيونية مرحلة جديدة مع توقع انهيار الامبراطورية العثمانية ، واستخدمت بريطانيا تعزيز الحركة الصهيونية وسيلة لخلق دولة صديقة شرقي القناة تضمن مصالحها في الشرق وبتعاون وثيق مع الحكومة البريطانية اتخذت خطوات متتالية بلغت اوجها بتصريح بلفور .

وحين قدم الصهيونيون حججهم للمطالبة بالوطن القومي في فلسطين سعوا الى اهمال شأن

الوجود العربي ، ، او على الاقل ، الاستخفاف باهميته واستبعاد خطره ، ويفترض الادعاء الصهيوني ان فلسطين لا تزال ادنى من المستوى الطبيعي في الكثافة ، وتكمن فيها امكانيات خصب هائلة ولا تحتاج الا الى الماء والحراثة لتزدهر من جديد ، وتعود الى سابق عهدها تفيض باللبن والعسل[١] ، وان على السكان ، نظرا لتخلفهم وقلة اعدادهم ، ان يرحبوا بتدفق اليهود النشط لكونهم ساميين من جهة ولأن مصالح السكان لن يصيبها اذى من جهة اخرى بل ستتطور بشكل ايجابي ،

وابدى زعماء الحركة الصهيونية عدم ثقتهم بالثورة العربية ، والتقليل من شأن الحركة القومية العربية كعامل حاسم له اهميته في مجرى الحرب خشية ان يثير ذلك في نفوس الفلسطينيين املا بان يصبحوا جزءا من الدولة العربية المستقلة[٢] . واستخف احد زعمائهم [٣] بالفكرة الداعية للوحدة العربية . « لأن الشعور بالوحدة القومية لا يزال مختفيا وراء حجب المستقبل البعيد ، وقبل ان ينكشف فان الامة العربية المقترحة لا تزال بحاجة الى اساتذة اوروبيين مزودين بالمؤهلات اللازمة لتتعلم اشياء كثيرة تكون الخط الفاصل بين الهمجية وبداية الحضارة » .

وبالنسبة للموقف العربي خلال الحرب فقد توقفت حركة المعارضة للصهيونية ، بسبب الظروف التي رافقت الحرب . وكانت الزعامة السياسية العربية التي يهمها مصير فلسطين قد تجمعت في القاهرة (ومعظمها من المهاجرين السوريين الذين مارسوا نشاطهم قبل الحرب بعيدا عن السلطة العثمانية) او التفت حول الشريف حسين في مكة بعد نشوب الثورة . ومع ان العهود البريطانية التي طلبها الحسين ، وفقا لشروط القيادة العربية في دمشق لم تكن محددة ، فقد دخل بنتيجتها عرب المشرق بقيادة الحسين في حلف مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية ! و بمساعدات مالية بريطانية حقق جيش الثورة بقيادة فيصل الخطة المرسومة له باحتلال سوريا الداخلية . وهكذا فانه بوصول الصهيونية غاية مساعيها بتصريح بلفور مستغلة الظروف السياسية والعسكرية اجبرت الظروف العرب على عقد تحالف مع نفس الدولة صاحبة التصريح .

وتمهيدا لاصدار التصريح بدأت دوائر « المكتب العربي » في القاهرة (وكان يتألف من عصبة من المستشرقين والضباط السياسيين ورجال المخابرات البريطانية ، ويمارس تأثيرا قاطعا على سياسة بريطانيا في الشرق الادنى) بالتعرف على حجم المعارضة العربية للصهيونية حتى تكون الصورة واضحة امام المفاوضين في لندن[٤] . ولم يكن ذلك للتخوف من صدام مع القومية العربية المنتصرة بل تخوفا على اليهود في علاقتهم مع العرب المحليين الذين يتفوقون عليهم عدديا[٥] . ولذلك كانت ملاحظة عابرة وردت في جريدة القبلة (التي تصدر في مكة باسم الحسين) في عددها الثاني(١٨ شوال ١٣٣٤ ، ١٨ اغسطس/اب ١٩١٦) باعثا على قلق الحكومة البريطانية ، فقد اشار الكاتب وهو يهاجم الأتحاديين الى التهديد الصهيوني بتملك اراضي فلسطين . وتوقع مارك سايكس (وكان خبير الحكومة في شؤون الشرق الادنى) احتمال حدوث مصاعب في المستقبل . وابرق الى كلايتون (مدير المخابرات العسكرية في القيادة العامة في القاهرة) في ١٩١٦/١١/٢١ ان يوعز الى بعض الزعماء العرب

بصورة تحذير ، عدم الخوض بهذا الموضوع الخطر اذا كانوا يأملون بنجاح القضية العربية[٦] .

سايكس وسياسته التوفيقية

وكان مارك سايكس هو القوة الموجهة في لندن وراء سياسة بريطانيا في الشرق الادنى خلال الحرب فكان يناصر الصهيونية في مفاوضاتها مع الحكومة البريطانية ويدعم بنشاط القضية العربية[٧].وهو الذي اوعز بنشر تصريح باسم مجلس الوزراء البريطاني بعد سقوط بغداد بيد البريطانيين يؤكد فيه هدف بريطانيا بتوحيد العرب ومساعدتهم للنهوض ثانية واحياء القومية العربية والحضارة العربية والوحدة العربية[٨] . وجاء سايكس الى الشرق في بعثة انكليزية ـ فرنسية كي يضمن قبولا من الزعامة العربية لكل الخطط البريطانية في الشرق ، ومقابل ذلك اوضح سايكس ان العنصر العربي الذي تجمعه رابطة دم ولغة سيتحقق مصيره كقوة لها وزنها في العالم[٩] .وسعى سايكس اثناء زيارته لتهيئة الجو لعلاقات عربية ـ صهيونية تمهيدا لما تعتزم الحكومة البريطانية اصداره ، ويبدو انه افهم لجنة سورية في مصر ان فلسطين تكتنفها مشاكل دولية لا يمكن للدولة العربية الجديدة ان تتولى مسؤوليتها . وان كل ما يطلبه الصهيونيون ان يقام في فلسطين ما يشبه نظام الملة العثماني . وان يعطى اليهود حكما ذاتيا كسائر الملل[١٠] ، ولم تكن فلسطين ضمن موضوع مفاوضات سايكس مع الحسين .

ومع ان المسألة العربية لم تثر في كل اجتماعات مجلس الوزراء البريطاني التي سبقت اصدار التصريح : الا ان المعارضة العربية للصهيونية لم تكن مجهولة ، ومن اجل ذلك حرصت بريطانيا بعد صدور التصريح مباشرة على عدم اثارة المشاعر العربية[١١] . ولم يكن هذا الحرص من اجل السياسة الصهيونية فقط ، بل كان هناك قلق عربي عام يسود المنطقة بعد ان عرفت الاسس العامة للاتفاق الفرنسي البريطاني (سايكس ـ بيكو) ولم تخفف تفسيرات الخارجية من هذا الشعور ، وشعرت بالقلق ، الاوساط البريطانية في مصر التي يهمها ان لا يتأثر التحالف العربي ـ البريطاني . وارجع كلايتون بعض بواعث الشك وعدم الثقة التي تراود الزعماء السوريين وشريف مكة والتي لم تستطع الانتصارات في فلسطين والعراق ان تخفف ما احدثه تصريح بلفور من انطباع عميق على المسلمين والمسيحيين الذين يتخوفون ان تصبح فلسطين ، وسوريا في النهاية ، بيد اليهود الذين يخشى الجميع امكانياتهم العسكرية والتجارية . واقترح كلايتون لتهدئة الشكوك بالاكتفاء بتصريح بلفور في الوقت الحالي وان لا تحدث اية امتيازات اخرى الا بمنتهى الحذر[١٢] .

وعلى ضوء المعلومات التي جاءت من الشرق بدأ سايكس بوضع الخطوط العامة للسياسة التي يراها مناسبة لانقاذ الموقف ، والتي كان قد بدأ بالتمهيد لها قبل صدور التصريح و هي ان هناك مكانا في المنطقة للقوميتين العربية واليهودية كي تعملا معا لاحياء الشرق ، وقدم وعودا لما يمكن ان تحققه الصهيونية لو تم التحالف معها ، وتحذيرا لما يمكن ان تحدثه لو وقف منها العرب موقف العداء . ولا بأس من ان يجد للقومية الارمنية مكانا في التحالف العربي ـ اليهودي ليعطيه صفة اشمل .

وبدأت الخطوة الاولى بالتأثير على الزعامة السورية في القاهرة لانها بنظره المجموعة العربية الواضحة في الشرق التي يهمها امر مستقبل فلسطين كجزء من سوريا فاقترح على لجنة الاتحاد

السورية في القاهرة ، توحيد الجهود بين العرب والصهيونيين بهدف تحرير بقية الولايات العربية . كما شكل لجنة مشتركة في في انكلترا من عرب وارمن وصهيونيين برئاسته للعمل على تحقيق الهدف ، ودبر اجتماعاً جماهيرياً صهيونيا وضع له صيغة قراره بنفسه على النحو التالي(١٣) : « خلال الاربعمائة سنة الماضية كانت العلاقات بين اليهود والعرب قليلة ومتباعدة . فالمآسي المشتركة والاضطهاد وتآمر الطغاة الاجانب قد ابقت الامتين القديمتين متباعدتين . ولكنا نعتقد ان الحوادث الحاضرة تفتح الباب امام تطورات كبيرة صادقة لعصر جديد مرتقب ، وتقدم فرصة رائعة لانشاء علاقات دائمة بين الشعبين اللذين يدفعهما تصميم مشترك لتحقيق التحرر والتقدم . نأمل ونصلي من اجل تحالف حقيقي بين اليهود والعرب يعملان بالاتفاق مع مجموعة الدول التي تحارب لتحرير الشعوب المضطهدة ضد قوى البربرية والطغيان . نحن الذين نعمل لاعادة انشاء وطننا القومي على تربة آبائنا في فلسطين ، نتطلع بتلهف لانشاء دولة عربية تعيد خلق الحضارة العربية التقدمية . و مرة اخرى على مسرح امجادها القديمة ... ونحن نأمل بشوق ان تزدهر قريبا ، بدلا من الدماء وفساد البيروقراطية الطاغية ، العدالة القومية والحضارة والحرية ، وستتعاون الامم الثلاث اليهودية والعربية والارمنية في قضية مشتركة لاحياء الشرق » . وبعث سايكس الى كلايتون نص القرار مسبقا وطلب منه تمهيد الجو بالتأثير على العرب وخاصة الزعماء السوريين ، بدعوى ان « الحلف الصهيوني الارمني يعرض التعاون مع العرب والسوريين ويعطي املا حقيقيا للمستقبل العربي ... وان على العرب ان يلاحظوا ان الصهيونية هي عامل حتمي فهي كحليف تعني ضمانا للاستقلال العربي النهائي ، وكعدو تعني الركود السوري والعربي والاختيار الصحيح واضح » .

وشرح سايكس خطته باسهاب ، كي تصل اصداؤها الى الشرق ، خلال اجتماع جرى في الاوبرا في لندن في كانون الاول (ديسمبر) ، وحضرته شخصيات صهيونية وحكومية وبعض الشخصيات العربية (غير المرموقة) والارمنية(١٤) . فقال مخاطبا الصهيونيين : « ... ربما يكون قدركم ان تكونوا جسراً بين آسيا واوروبا فتنقلوا روحانية آسيا الى اوروبا وحيوية اوروبا الى آسيا » . ويرى سايكس ان العرب رغم بقائهم مدة ثماني قرون تحت الحكم التركي لا تزال لديهم حيوية وقدرة عرب بني امية الذين حملوا الحضارة الى قرطبة ، ومجاهل آسيا الوسطى ، ويتوفر في بلادهم الرجال والتربة الخصبة والبترول والحقول . « ولا احد يتكهن بما سينجم عن هذه القوى عام ١٩٥٠ مثلا » . وكان لليهود ، كما يضيف سايكس ، صلة وثيقة بنهضة العرب . ولا بد من التعاون وحسن النوايا بين الفريقين منذ البداية والا نكبا معا . وينبه اليهود الى ان اسباب تخوف العرب هو ان تنشأ في فلسطين شركات مالية يمتد مجال عملها الى سوريا والعراق وان تمتلك هذه الشركات اراضي شعب فلسطين وتخرجه من ارضه فيصبح فيها عاملا غريباً بعد ان كان مالكا ، ويطلب من الصهيونيين ان يؤكدوا للعرب « ان اليهود لا يطمعون بحيازة ارض لا ينوي اصحابها بيعها وان اصلاح الاراضي سيتم بعمال يهود وانه ليس في نيتهم وضع اليد على فلسطين بالمناورات المالية بل بعرق الجبين» ، وبذلك تصبح الصهيونية كما يراها سايكس « عاملا عظيما من عوامل الاخاء بين الاديان الثلاثة التي انبعثت من اصل واحد ، ولو اساءوا التصرف لكان ذلك فاتحة نزاع شديد لم ير العالم نظيراً له » . الا ان امله بمستقبل

الصهيونيين ظل كبيراً « ان لي في تحقيق امانيكم ضمانا لسلم العالم ... واني اراكم الان بعين الخيال تساعدون البلدان الصغيرة معنويا وتحمونها... وتسعون لازالة الخلافات الدينية التي فرقت بين الناس في جميع القرون و سيكون في القدس قلب كبير ممتلىء حياة وعافية يبرىء جروح اوروبا ويبث الحياة في آسيا » .

وتحدث زعيما الصهيونية سوكولون ووايزمان باسلوب مماثل : امكانية قيام تحالف بين العرب واليهود بعد ان كانت العلاقات بينهما قليلة ومنقطعة بسبب الجهل واللامبالاة ، وسوء الفهم الذي خلفه الاتراك ، التحالف الودي سيكون بداية للتعاون الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في المستقبل ، الصهيونيون يتطلعون الى خلق مملكة عربية واحياء القومية السامية ، اليهود لن يقوموا بتجريد اي شخص من ملكيته او التعدي على حقوق احد لأن في فلسطين ما يكفي من الارض والماء والهواء ، فلسطين المستقبل ستكون نموذجا جديدا في العالم ينبع من التجربة اليهودية ومن الروح اليهودية ومن العبقرية اليهودية وسيختفي النزاع الديني حيث يلتقي الجميع كأخوة ينتمون الى العنصر السامي ويتطلعون الى حقهم في الحصول على مكانة في الحضارة العالمية !

وبدأ كلايتون الدعاية في اوساط السوريين ذوي النفوذ في مصر وتدريجيا في مكة (الشريف حسين) الا انه لم يكن متفائلا مثل سايكس وكانت نصيحته[١٥] ان يكون التقدم بحذرشديد، لأن الدعاية العنيفة تثير المشاعر . ووجد بيكو (الممثل الفرنسي في حملة اللنبي) ان تصريح بلفور قد ترك أثرا سيئا في الاوساط العربية السورية ، لأن العرب يشعرون بأن عليهم التنازل عن اراضيهم مقابل ثمن بخس . واوصى[١٦] بالتوقف عن مساندة حملة الدعاية التي قد تؤدي الى خسارة العرب وتهدد مستقبل العلاقات معهم . وتنبأ وليام بيل[١٧] ان العرب سيقاومون بكل وسيلة التملك اليهودي وسيدخل العنصران في صراع عنيف ونهائي اقتصادي وثقافي وسياسي . الا ان معظم الذين خططوا للتصريح قد استبعدوا في سورة حماسهم خطر المشكلة العربية بفرضية بسيطة انها ستحل نفسها بطريقة ما ، وكان سايكس مقتنعا ، رغم تقديره صعوبة الموقف ، بامكانية التغلب على الصعوبات[١٨] لأن الفقرة الثانية من التصريح البريطاني (بلفور) تكفل مصالح العرب المحليين كما ان اليهود قد اكدوا حرصهم على حقوق مصالح العرب في مسألة الاراضي .

وحاولت السلطات البريطانية في مصر تهدئة مخاوف العناصر السورية ، وفي رسالة خاصة بعثها سايكس الى لجنة الاعانة السورية عبر عن آماله المتعددة حول المنطقة والتسوية المقبلة مبينا لهم قوة اليهودية العالمية المتطلعة الى مركز روحي وامل قومي .... التي هي قوةبناءة وفعالة تتحول بخيبة الامل الى قوة هدامة لو عورضت الصهيونية او فشلت ، وان المصلحة المشتركة بين العالم الخارجي (والشعوب الناطقة بالعربية) ستعزز باليهودية العالمية التي توجد في كل البلاد ، ويعد سايكس ان اي نظام ستقرره الامم بعد الحرب يجب ان يحقق ثلاثة اهداف : ضمان حرمة الاماكن المقدسة، اعطاء فرصة صحيحة للاستيطان الصهيوني ، منح السكان الحاليين ضمانات ضد نزع الملكية والاستغلال والاخضاع .

وكان ضمان قبول الشريف حسين اكثر صعوبة ، بنظر كلايتون ، من الزعماء في

القاهرة ،الذين هم « اكثر صقلا وثقافة »(٢٠).وقد استقر الرأي على ارسال هوغارت (احد رجال المكتب العربي . ومن علماء الآثار المستشرقين) كمبعوث شخصي للتأثير عليه . وبتوجيه من سايكس ، قدمت وزارة الخارجية صيغة للمباحثات تضمن موافقة الحسين : « ان دول الحلفاء مصممة على ان تتاح للشعب العربي فرصة كاملة لاستعادة كيانه كأمة في العالم وهذا لا يتيسر تحقيقه الا بواسطة العرب انفسهم باتحادهم وستتبع بريطانيا العظمى ، وحلفاؤها سياسة ترمي الى تحقيق هذه الوحدة » . اما عن فلسطين فقد اقترح سايكس الصيغة التالية : « نحن مصممون على ان لا يخضع شعب لآخر ، ونظرا لوجود الاماكن المقدسة في فلسطين لاتباع الديانات الثلاث وهي ذات اهمية لكثيرين من الناس خارج فلسطين وبلاد العرب ، فلا بد ان يكون هنك نظام خاص يوافق عليه العالم لادارة هذه الاماكن . واما فيما يتعلق بمسجد عمر فانه سيعد امرا يعني المسلمين وحدهم ولن يكون خاضعا لا مباشرة ولا بطريق غير مباشر لأية سلطة غير اسلامية . ويذكر سايكس بان الرأي العام اليهودي في العالم يعطف على عودة اليهود الى فلسطين ، ولا بد ان يظل هذا الرأي العام عاملا دائما. . وفضلا عن ذلك فان حكومة جلالته مصممة على ان لا توضع عقبة في سبيل تحقيق هذا الامل ، « بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الاهالي الموجودين ، من الوجهتين الاقتصادية والسياسية » . ويشير سايكس الى الادعاء التقليدي بان « صداقة اليهودية العالمية لقضية العرب ، مرادفة لتأييد كل الدول التي لليهود فيها نفوذ سياسي وزعماء الحركة اليهودية مصممون على انجاح الصهيونية بالصداقة والتعاون مع العرب ، ومثل هذا العرض لا يمكن تجاهله » .

هذه هي خلفية رسالة هوغارت للحسين (يناير/كانون الثاني ١٩١٨) التي ابلغت شفويا الى الحسين ، ولكن الاخير قام بتدوينها(٢٢).وفي المذكرات التي دونهاهوغارت حول الحديث مع الحسين يشير الى ان الملك حسين يعتبر الأشراف الدولي على الاماكن المقدسة مسألة يعاد النظر فيها بعد عقد الصلح ويعلق هوغارت « ولكنني لا اشك في انه فيما بينه وبين نفسه لا يتنازل عن شيء من مطالبه الاصلية للعرب او لنفسه مع الزمن » . اما فيما يتعلق باقامة اليهود في فلسطين فيذكر هوغارت ان الملك رحب بقدوم اليهود او كان يبدو عليه الاستعداد لقبول الصيغة التي قدمها هوغارت حول صيانة مصالح الاهالي .

ويعلق هوغارت « اظن ان الحالة فيما يتعلق بهذه الشؤون مثلها فيما يتعلق بما سبق فالملك لا يقبل قيام دولة مستقلة يهودية في فلسطين ، ولم تصدر لي تعليمات بان اذكر له ان هذا ما تفكر فيه وتنويه بريطانيا العظمى ولعله لا يعرف الا القليل عن الحالة الاقتصادية الواقعية او الممكنة في فلسطين ، واما مواقفه السابقة السريعة على اقامة اليهود في فلسطين فلا تعني شيئا ، ولا قيمة لها ، ولكنني اظنه يقدر قيمة التعاون العربي مع اليهود » .

وعن طريق لجنة الاعانة السورية في منشستر سعى سايكس الى اقناع الحسين بقبول الامر الواقع . وفي ١٥شباط(فبراير)١٩١٨ بعثت اللجنة برسالة شخصية الى الحسين (باللغة العربية) عن طريق كلايتون ، واطلق الموقعون على الرسالة على انفسهم اسم« الحزب العربي المدافع عن النهضة العربية والراية الهاشمية ومن اصدقاء الدولة البريطانية » . وشرحوا للحسين الظروف التي حكمت على عدم امكان مقاومة استعمار الاسرائيليين لفلسطين لانهم

يبذلون كل شيء اشتياقا لارض يعتقدون بقدسيتها ولهم المقدرة المالية والسياسية في اوروبا ما يكفل لهم النجاح رغما عنا وعن الحلفاء لان الاتراك والالمان على استعداد ان يعدوهم بما سمحت به الحلفاء ، ولكن الانجليز قد قيدوا وعدهم بشروط عدم مس مصالح الاهالي .... وليس بوسع البلاد العربية مقاومة المشروع وتعكير خواطر الامة الاسرائيلية على العرب في حالة احتياجنا لاصدقاء ومؤازرين الان ، وعد المخابرات بالصلح العام ، واليهود هم الان اعظم سند لنا وهم باستعداد تام بالاموال لاجل العمران وترقي البلاد باسباب المعيشة والثروة ، ومن جملة الصوالح التي لهم معنا هي انهم يرجحون تفضيل جوارنا على غيره لما بيننا وبينهم من التشابه باعتبار الاصل واللغة ، الا ان موقف الحسين ظل غير مشجع . ورغم حرص كلايتون بضرورة ابقاء الحسين على المسرح ، وصفه« بانه طيف عنيد يسعى لتحويل كل شيء غير محدد او واضح لمصلحته(٢٤) » .

البعثة الصهيونية الى الشرق ودعوى التفاهم

وكان على البعثة الصهيونية التي جاءت في آذار(مارس) ١٩١٨ الى الشرق برئاسة وايزمان لتشرف عمليا على وضع التصريح موضع التنفيذ ، ان تقوم بجهد كبير وبرعاية السلطات البريطانية لتترك انطباعا عاما حول توثيق عرى المودة بين اليهود والعرب . وكان اسلوب الاقناع الذي اتبعه وايزمان لدى الزعامات السورية في مصر (وسيكرره في فلسطين) ، لشرح اهداف الصهيونية هو ان ما يطلبه ليس اقامة حكومة يهودية بل اقامة وطن لليهود في الاراضي المقدسة يتيح لهم ممارسة حياتهم القومية ، ومشاركة سائر السكان بالحقوق المتساوية ، وهو لا يهدف الى الاستفادة من الظروف الحالية بشراء الارض بل التجهيز لاستقبال المهاجرين في اراضي الدولة والاراضي المهملة ، وانشاء مدارس فنية للجميع . واكد حرصه على الاماكن المقدسة واملاك الوقف ، وتحدث بعطف عن الثورة العربية واقترح انشاء لجنة مختلطة لتقوية الشعور المتبادل وازالة الشقاق . وقد علق كورينواليس (مدير المكتب العربي) على الانطباع العام الاولي لقدوم البعثة في اذهان السوريين(٢٥) « ان الصهيونية جاءت لتقول انها اكثر اعتدالا في اهدافها مما توقعوه ، وانهم لو قابلوها بروح استرضائية قد يجنون فوائد في المستقبل » ولاحظ ان موقف الزعماء قد تحول من معارضة متصلبة الى تعرف تدريجي للقوى وراء الصهيونية وقبول كاره بان اغراضها ليست سوداء كما صورت ، وانه في ظروف معينة قد يستفيد السكان حتى من الغزو اليهودي .

وقد تقدم الزعماء السوريون بمذكرة الى ممثل الحكومة البريطانية في البعثة الصهيونية(٢٦) تتضمن الشروط الرئيسية التي يجب ان تقوم عليها السياسة المرغوبة ، لتفاهم متبادل وتحالف بين عرب فلسطين وان يكون نظام الحكومة في المستقبل مبنيا على العدالة والمساواة في الحقوق بين العناصر المختلفة ، وان يخضع المستوطنون الجدد لقوانين البلد . ورأت تشكيل لجنة مشتركة لدراسة ورسم كل السبل التي تكفل تقوية الروابط الاقتصادية بين العناصر المختلفة وتنمية شعور بالحوار . واشترطت اللغة العربية لغة رسمية والتعليم بها اجباريا ، ولم تمانع بتسهيل شراء اراضي الدولة للاستيطان الصهيوني . عند تدفق الهجرة مع ترك حصة معقولة من هذه الاراضي للعناصر الاخرى . وطلبت اخذ ضمانات لحماية السكان خوفا من استغلال ظروف الفقر الناجم عن الحرب .

وفي فلسطين واجهت البعثة الصهيونية عند قدومها في مطلع نيسان (ابريل) حالة من القلق لم تكن مشجعة ولم تجد المحاولات التي سبقت قدوم البعثة من اجل التقارب بين العرب واليهود وازالة مخاوف الفلسطينيين على مستقبلهم(٢٧) . وبذل ستورر حاكم القدس العسكري جهده في حشد مجموعة من وجهاء القدس من مسلمين ومسيحيين للاستماع الى وايزمان وهو يشرح لهم انه لا يهدف الى انشاء دولة او حكومة وان ما تسعى له المنظمة الصهيونية هو ادارة بريطانية تمكن العربي واليهودي من العمل بانسجام في ظلها من اجل تطوير البلد على اساس المساواة والعدالة . ونفى نية التدخل بقضية الاماكن المقدسة التي تثير المخاوف ، وان آخر ما يرغب فيه هو تجريد الفلاحين العرب من الملكية او طردهم ، ولكنه يعتقد ان هناك متسعا في فلسطين لليهودي كما للعربي ، وان الاراضي المهملة بحاجة لمن يزرعها وان المستوطنات تعمل ايضا لرفاهية العرب .

وقابل زعماء القدس ، كما تقول « النشرة العربية التي يصدرها المكتب العربي »(٢٨) العبارات بارتياح وطمأنينة رغم التحفظ ، وابدوا رغبتهم بالعيش بسلام مع جيرانهم اليهود لو صح ما جاء في هذه الكلمات . ولكن رأي رجل الشارع كان اكثر تشاؤما ، فهو لا يطمئن على المستقبل لانه يخشى التعدي على حقوقه لو تحققت اماني الصهيونية . وتضيف النشرة العربية : « ان السوريين في فلسطين هم اصعب استرضاء من اقربائهم في مصر » . وتخوف وايزمان من ان الجو السياسي ليس ملائما كما كان يرغب ، او كما توقع ، من اجل التطور الذي رسمه للتصريح . وان محاولة ازالة الاعتقاد الخاطىء باهداف الصهيونية الحقيقية ومحاولة الوصول الى تفاهم ودي مع « غير اليهود » اوضحت انه من المستحيل اجراء مفاوضات في الوقت الراهن(٢٩) . وقد اثار دهشة وايزمان ما جرى في حفلة مدرسية في القدس ، حضرها ستورز ، اذ ناشد الخطباء فيها الامة العربية للاستيقاظ والنهوض للدفاع عن ارضها وحريتها واماكنها المقدسة ، والحوا على عروبة ارض فلسطين ومقاومة اية محاولة لاستعباد عرب فلسطين . ولاحظ وايزمان ان هناك عداء محدداً لأي نوع من الربط بين فلسطين والاماني اليهودية وليس مجرد اعتقاد خاطيء بالاهداف الصهيونية يمكن ازالته بالشرح والتوضيح . وطلب من السلطات البريطانية تعريف عرب فلسطين بنوايا الحكومة وضرورة العمل وفقا لها ، مستخدما تحذيره التقليدي بقوة اليهود العالمية المساندة ليهود فلسطين الذين يشكلون « الحارس المتقدم للشعب اليهودي » .

وحاول ستورز ان يدفع عن السلطات العسكرية في فلسطين تهمة التقصير وعدم التعاطف وشرح لوزارة الخارجية(٣٠) انه قد بذل جهده لتبدأ البعثة عملها في ظل رعاية ودية ، واتهم البعثة الصهيونية بعدم الواقعية ولم يكن ذلك بدافع حرصه على المصلحة العربية ، فهو « يهودي مقتنع » وانما حرصه على المصلحة الصهيونية تلزمه بان لا يكشف تفاصيل سياسة حكومة جلالته الصهيونية التي لم تنشر بعد على الرأي العام . وكل ما يمكن ان يقدمه هو تهيئة لقاء ثان بين اعضاء البعثة وزعماء القدس ليتيح لوايزمان فرصة ازالة سوء الفهم الحاضر حول اهداف الصهيونية .

وفي الكلمة التي القاها وايزمان في حفل العشاء ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩١٨(٣١) لم يأت بجديد . سلام وانسجام وتعاون بين كل الفئات، عرض لنظرية « العودة الى الارض » حيث قام

اجداده منذ عشرين قرنا بنشر رسالتهم ، المراد بالوطن القومي هو العودة لاحياء تقاليدهم المجيدة الماضية وربطها بالمستقبل لخلق نظام اخلاقي فكري ينشأ من عالم جديد بدلا من العالم الرازح الان تحت ثقل المصاعب . الصهيونية تهدف الى خلق الظروف المناسبة لليهود الراغبين بالنزوح الى فلسطين دون الحاق الاذى بأي طائفة ، النعم التي ستحل على البلد بتحقيق اهداف الصهيونية ، في فلسطين مجال واسع ومن الممكن تحويل افقر الصحارى الى قرى مزدهرة ، ستتحول فلسطين الى ارض تفيض باللبن والعسل لو عمل اليهودي في ظل المدنية وتحت اشراف حكومة قوية عادلة ، لن يستأثر اليهود بالسلطة السياسية،ما يطلبونه هو وضع السلطة العليا بيد احدى الدول الديمقراطية التي تختارها عصبة الامم ، اعجاب وعطف على نضال العرب من اجل الحرية والاستقلال حيث يرقب اليهود نهضة دولة العرب وتجدد سلطتها السياسية ، النهضة العربية هي في هذا المثلث التاريخي بين مكة وبغداد ودمشق حيث سيقوم نظام عربي سياسي قوي متحد يعيد تراث العرب العظيم في الادب والعلوم القريبة من علوم اليهود وأدابهم ، فلسطين ستعود ثانية حلقة اتصال بين الشرق والغرب تترجم الاول الى الثاني ، والشعب اليهودي خير من يوكل اليه القيام بهذه المهمة لتصبح فلسطين ينبوع العلوم والمعارف عن طريق جامعة يهودية في القدس تكون نبراسا للعلوم جميعا ، المطالبة بان يعطى الصهيونيون فرصة للنمو القومي الحر واستثمار الارض التي اهملت منذ القديم واتباع الطرق الجدية في ظل نظام اقتصادي عادل ، اليهود في جميع اعمالهم الزراعية والفكرية ، لن يتعرضوا بالاذى لجيرانهم بل يصلون بهم نحو حياة اغنى واكمل وعلى هؤلاء ان لا يبخسوا قيمة هذه المساعدة ، عيون الشعب اليهودي المشتتة في اركان الارض تتركز على الاقلية اليهودية في فلسطين ، الطوائف اليهودية في العالم لها نفوذها في مجالس الامم ، البرنامج الصهيوني لن ينجح الا اذا انطلقت في القدس رسالة تعبر عن حسن النوايا وتعمل على تهدئة المخاوف والشكوك وتعطي الجماهير اليهودية المتعبة الامل بعالم جديد افضل .

وقد رد المفتي بكياسة وبراعة ، كما ذكر ستورز ، واعلن رضاه عن الكلمة التي ازالت كثيرا من الاعتقادات الخاطئة وتطلع نحو تعاون مخلص في تطوير فلسطين في المستقبل. وردد القول الشائع « لهم مالنا وعليهم ما علينا». وفي لقاء آخر دبر في يافا بين البعثة الصهيونية ووجهاء المدينة كرر وايزمان نفس الحجج الى حد بلغ حد الملل والخمول ، كما اقر وايزمان نفسه دون ان تحدث التأثير المطلوب .

وسمحت السلطات البريطانية للجنة سورية بالقدوم الى فلسطين في ١٩ ايار لمتابعة العمل على تبديد التخوف الطبيعي لدى الفلسطينيين وكررت اللجنة تصريحات بريطانية بالعطف على العرب وخاصة المسلمين ، والاهتمام بحفظ حقوقهم الوطنية وان زيادة اعداد اليهود لن تؤثر على مصير فلسطين السياسي ، وانه لا داعي للتخوف طالما ان الدولة البريطانية صديقة العالم الاسلامي والعنصر العربي ، اساس حكمها العدل والابتعاد عن المحاباة[٣٢] . مع ذلك لم يتميز الجهد الذي بذل لتذليل المصاعب التي واجهتها البعثة ونصح كلايتون بضرورة تأجيل اي تغيير لصالح المطالب الصهيونية لأن ذلك يقتضي توسيع مقياس المعاملة التمييزية لليهود وسيؤدي ذلك الى مزيد من الدعاية العدائية بين العرب ، وشكا وايزمان في رسالته الى بلفور[٣٣] ، من المصاعب التي يواجهها وعرض وجهة نظره الحقيقية بالنسبة للعرب ومدى تقبلهم للبرنامج

الصهيوني متهما اياهم بسطحية الذكاء والفطنة وعبادة القوة والظفر وان السلطات البريطانية تتجنب الاساءة الى العرب خوفا من طبيعة العربي الغدارة ، وانهم ــ اي العرب ــ قد استغلوا هذا الموقف . والصقوا بتصريح بلفور شتى التفسيرات الخاطئة . ويستطرد وايزمان ان مؤازرة السلطات البريطانية قد مكنته من مواجهة الوضع الصعب والمعقد بشجاعة وثقة وسيحمل التاريخ اعمالها كواحدة من افضل منجزات السياسة البريطانية ونجحت بذلك في التأثير على الانكياء نوي الافكار المعتدلة ، ولكن كان مقدرا لجهودها ان تفشل لأن اكثرية الناس لا تريد ان تقتنع . وانتقد وايزمان الادارة البريطانية التي لا تتلاءم مع الخطط الصهيونية المقبلة ، فالمناصب يشغلها موظفون عرب « لم يغيروا عقليتهم بتغير السيد ، فاسدون غير اكفاء ، يتحسرون على العهد الماضي حين كانوايعملون تحت وقع السياط وكان (البقشيش) السبيل الوحيد لتسوية الامور الادارية ... وكلما كان النظام الانكليزي اكثر عدلا كلما اصبح العربي اكثر غطرسة ... والموظف الانكليزي العادل لا يعرف حيل العقلية الشرقية ... مما جعل الادارة معادية لليهود » . وينكر وايزمان على الادارة البريطانية تمسكها بالمبدأ الديمقراطي في تنظيم العلاقات بين الفئتين الذي يأخذ بعين الاعتبار القوة العددية النسبية وحجته في ذلك « ان هناك فرقا نوعيا بين الفئتين . وان اليهودي قد احتل في العهد التركي مكانا في البلاد لا يتناسب مع قدرته العددية لاعتراف التركي بتفوق اليهودي على العربي » ... ويتهم وايزمان الادارة العسكرية كذلك بانها لا تزال تعطي بعض الاهمية لقدرة العربي القتالية ، مذكرا بلفور « اننا نحن نمثل قوة ، رغم انها لا تقدر بالبنادق ، ومع ذلك لها قيمة حربية كبرى وقيمة اكبر في السلم » ، مؤكدا له « ان عواطف العرب المتشككة والمخادعة على المدى الطويل ادنى بكثير من السياسة الواعية المدروسة للشعب اليهودي التي ترى في فلسطين اليهودية تحقيقا لآمالها وامانيها . ورأت في تصريحك (اي بلفور) بداية لهذا التحقيق » ويستبعد بلفور امكانية خلق فلسطين العربية « لأن الفلاح العربي متخلف عن عصره باربعة قرون . والافندي (المستفيد من النظام الحالي) ليس امينا ولا متعلما وهو طماع تنقصه الكفاءة والوطنية». وعاد وايزمان للتأكيد بانه ليس لدى اليهود رغبة او حاجة لاستغلال العرب او ان يحلوا بدلا منهم « لأنه توجد مساحات من الارض تكفينا كي نطورها دون التعدي على حقوق السكان فمشكلة العلاقات مع العرب هي مشكلة اقتصادية وليست سياسية » . ويوجه وايزمان النظر الى ان « مركز الثقل العربي من الوجهة السياسية ليس فلسطين بل المثلث بين مكة ودمشق وبغداد » ، ويشير بذلك الى زيارته المرتقبة لفيصل حيث يأمل ان يقيم حلفا سياسيا حقيقيا ، اما مع « عرب فلسطين فالضروري هو اقامة علاقات اقتصادية صحيحة بالنسبة لمصالحنا ومصالح الفلسطينيين»، وارفق وايزمان رسالته بعدد من المطالب التي تحتاج الى توجيهات سياسية : انشاء الجامعة العبرية ، وتسليم حائط المبكى لليهود ، مشروع الاراضي والتخلي عن نظام الملكية الحالي .

الحركة الصهيونية في مواجهة قادة الثورة العربية

لم تؤد تجربة البعثة الصهيونية في فلسطين النتائج المرجوة التي رسمت لها بل عمقت شعور الاستياء الذي سبقها ، وما كانت تخشاه السلطات البريطانية بوجه خاص وتعتبره خطرا على الوضع العسكري(٣٤) ان ينتقل شعور الاستياء عن طريق البدو في المناطق الجنوبية الشرقية « الذين يقاتلون مع فيصل ، الى العرب الذين يدعمون بفعالية العمليات العسكرية ويهم الترك

كثيراً ان يكسبوهم الى جانبهم . وكان لا بد من توجيه الانظار الى منطقة ابعد الى الشرق ورسم خطة جديدة بوضع الحركة الصهيونية بمواجهة القائمين على قيادة الثورة العربية التي تشكل الجناح الايمن للقوات البريطانية في الشرق » . ويهم بريطانيا ان يظل هذا الجناح مصدر قوة(٣٥) . لذلك وخوفا من حدوث صدام متوقع يؤثر على المصالح البريطانية فان الموقف المتعاطف لملك الحجاز وفيصل سوف ينجح كثيرا في تنسيق السياستين الصهيونية والعربية ، هذا ما قاله كلايتون في برقيته الخارجية ٢٦ ايار (مايو) ، وانطلقت هذه السياسة من عدة فرضيات خاطئة : الفرضية الاولى ان مركز الثقل في الحركة العربية هو المثلث القائم بين دمشق ومكة وبغداد ، وحين ركزت الاضواء على فيصل وجد ان هذا المركز يجب ان يتحرك شمالا الى سوريا الشرقية التي مركزها دمشق ، لانه في هذه المنطقة . كما يقول كلايتون(٣٦) . « يمكن ان توجد امة حقيقية وشعب حقيقي » . ووجد وايزمان ان المسألة الفلسطينية يمكن عزلها في حال انشاء حلف سياسي مع قادة الحركة العربية في الشرق(٣٧) .

الفرضية الثانية : ان هناك عنصرين متميزين في المنطقة العربية بينهما فجوة عميقة . الاول يمثله السوريون الغربيون الذين اصبحوا مشرقيين (ليفانت) وهو بنظر اورمسبي غور (الممثل البريطاني في البعثة الصهيونية) « عنصر فوضوي تنقصه الامكانيات البناءة (وهو ما لاحظته البعثة في فلسطين) ليس له حضارة اصيلة بل عاش على حضارات غربية متعاقبة تنقصه المثالية السياسية والعسكرية والروح القومية التي يعبر عنها العنصر الآخر الذي يمثله فيصل ورجاله (ورغم انه يحوي مجموعة من العنصر الاول)» ويضيف اورمسبي غور ان « اليهود بتعزيزهم ومساعدتهم الحركة العربية التي يمثلها فيصل سيربحون كل شيء ، ولن يربحوا شيئا بمساعدة حركة السوريين (الغربيين) » .

الفرضة الثالثة : ان مسألة العلاقة مع الشعب الفلسطيني هي اقتصادية فقط ويمكن التوصل الى حل لها مع تحسن الاوضاع الاقتصادية ، اما الفرضية الاخيرة فهي كما شرحها اورمسبي غور « ان شرفاء مكة لا يهمهم امر عرب فلسطين كثيرا » .

ولم يكن موقف الحسين تجاه البرنامج الصهيوني واضحا من وجهة النظر البريطانية رغم الجهود التي بذلت وكل ما عبر عنه حتى الان ، كما شرح كلايتون(٣٨) . « انه مستعد للاعتراف بحقوق اليهود كمواطنين لأي دولةعربية يمكن ان تقام بعد ذلك » . اما عن رأي الحسين بوجود اليهود الحاليين في فلسطين فقد ورد في مقال في جريدة القبلة تحت عنوان « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو احق بها »(٣٩) ، والمقال كتب تعليقا على مقال آخر ظهر في المقطم (٣ مايو/ أيار) حول المستعمرات الاسرائيلية وضرورة ان ينسج ابناء البلاد على منوال الاجانب في استثمار الارض وترى (القبلة) « ان في وجود الاسرائيليين في فلسطين دافعا لتوليد مادة الاقتباس ... وازاء فكرة المجاراة والتحدي بين ساكنيها والمهاجرين اليها . ولكن الجريدة تعجب من هجرة ابناء فلسطين عن بلادهم ، في وقت يتسلل اليها الاسرائيليون الاجانب . وترى ان سبب هجرة ابناء فلسطين هو نقص الوسائل الكافية في وقت يتوفر للمهاجرين الاسرائيليين قوى مادية ومعنوية . لذا تدعو الجريدة الجالية الى وطنها (اي المهاجرين من ابناء فلسطين) حيث ستكون هذه الجالية « بالمادة والمعنى مدرسة نظرية لاخوانهم المقيمين في مزارعهم ومتاجرهم ومصانعهم » ... والطور الجديد الذي بدأ الناس

يدخلون فيه يدعو الى النهوض ... وانه بهذا الطور يمكن الاستفادة من وجود الاسرائيليين وسواهم من الجاليات الذين قد استفادوا من النظم والمناهج التي اقامتها لهم جمعياتهم الاوروبية والاميركية...وسيتبين كل فرد حينئذ ان في كل شبر من اراضيهم مستقبلا باهرا يستحق ان يعضوا عليه بالنواجز ... فما دامت امامنا نماذج مفيدة نتعلم منها طرقا مثمرة من طرق المعاش والعمران فذلك ضرب من ضروب الحكمة التي نحن مأمورون باقتباسها والعمل بها » .

وقد رأت الجهات البريطانية المسؤولة ان من الافضل توجيه النظر الى فيصل لضمان موافقته والتأثير على والده . وكان التركيز قد بدأ يسلط على فيصل ، اثر انتصاراته العسكرية كي يحقق ما فشل الحسين في تحقيقه . ومنذ شباط (فبراير) ١٩١٨ اسر كلايتون الى سايكس(٤٠) « حثثت لورنس ان يقوم بالتأثير على فيصل حول ضرورة الوفاق مع اليهود ، وهو يميل الى الجانب الآخر .. لقد بينت انها فرصته الوحيدة لعمل اشياء عظيمة حقا واعطاء الحركة العربية ثمارها » .

وجاءت اول اشارة عن لقاء سيتم بين فيصل ووايزمان في برقية كلايتون الى الخارجية في ٢٦ أيار (٤١) بأن وايزمان يرافقه اورمسبي غور سيغادران السويس في ٢٨ منه متجهين نحو العقبة لزيارة فيصل في مقر قيادته (وكان من المتوقع ان يلتقي لورنس بوايزمان في العقبة ليقدمه للامير) . وبرأي كلايتون ان المباحثات يمكن ان تعطي نتائج مثمرة خاصة وان الوقت الراهن موات لأن فيصل سيتوجه بعد فترة الى جدة للاجتماع بوالده . وفي رسالة التقديم التي بعث بها كلايتون الى فيصل(٤٢) ، عرف « وايزمان بانه احد زعماء الحركة الصهيونية البارزين ، وانه جاء من انكلترا لدراسة الوضع في المنطقة وبصورة خاصة تنمية التعاون الكامل بين العرب واليهود الذين يناضلون معا للتحرر من الاضطهاد التركي وتتفق مصالحهم تماما في الوقت الحاضر والمستقبل ، بحيث انه بالتعاون الوثيق والعطف المتبادل يمكن التوصل الى النجاح الدائم »

وقد اوضح وايزمان في رسالة الى بلفور في ٣٠ أيار(٤٣) الخطوط العريضة لمباحثاته المقبلة والعروض والحجج التي سيستخدمها لكسب فيصل « سأقترح على ابن ملك الحجاز انه اذا كان يود بناء مملكة عربية مزدهرة قوية فنحن فقط نستطيع ان نعطيه المساعدة المالية الضرورية والقوة المنظمة ، سنكون جيرانه ولن نشكل اي خطر عليه ، نظراً لأننا لسنا قوة كبرى ولن نكون،فنحن الوسطاء الطبيعيون بين بريطانيا والحجاز ، وان مثل هذه العلاقات ستحمي الحجاز الشمالي من ان يصبح منطقة نفوذ فرنسي. وهو الامر الوحيد الذي يبدو ان شعب الحجاز يتخوف منه. آمل ان استطيع تكوين حلف سياسي حقيقي معه » .

وفي معسكر فيصل قرب العقبة جرى اللقاء في مطلع حزيران (يونيو) ١٩١٨ وحضره الليفتنانت جويس كمترجم ، ولم يحضر اللقاء لورنس ولا اورمسبي غور (وكان فيصل يتحدث بالعربية اما وايزمان فتحدث بالانكليزية وقام جويس بمهمة الترجمة بلغة عربية ركيكة) .

ووضع جويس تقريراً من ثماني نقاط(٤٤) : ذكر وايزمان انه ارسل من قبل بريطانيا للتحقق من تطور المصالح اليهودية في فلسطين وان اكثر مهامه اهمية الاتصال بالزعماء العرب

ومحاولة التعاون معهم ـ بعد الاشارة الى التراث التاريخي للعرقين عبر عن رأيه بضرورة التعاون المباشر في الوقت الحاضر ـ واشار فيصل الى عدم استطاعته التعبير عن آراء محددة حول المسائل السياسية لانه مجرد نائب عن والده ولكنه اعتبر ان مصالح اليهود والعرب يجب ان تحدد بشكل دقيق ـ اشار وايزمان ان فلسطين ستساعد على تطور المملكة العربية التي ستتلقى دعما يهوديا ـ شرح وايزمان ان الصهيونيين لا يهدفون اقامة حكومة يهودية بل يرغبون في العمل تحت اشراف بريطاني من اجل استيطان وتطوير البلد بدون تعد على مصالح الغير الشرعية ـ اشار فيصل انه غير قادر على بحث مستقبل فلسطين سواء كدولة يهودية او بلد تحت اشراف بريطانيا نظرا لان هذه المسائل كانت موضع دعاية المانية تركية وسيساء تأويلها لو بحثت علنا ـ عندما تصبح القضايا العربية اكثر تماسكا يمكن اجراء مباحثات اكثر جدوى، وتقبل الشريف شخصيا امكانية تحقيق المطالب اليهودية في المستقبل في منطقة محددة من فلسطين ، الا انه لا يمكن بحث ذلك علنا نظرا لانه لا يمثل حكومة عربية وهو يخشى دعاية العدو الى حد كبير ، واكد ثانية ضرورة تعاون وثيق بين العرب واليهود لمنفعة الطرفين المتبادلة ـ شرح وايزمان انه سيتوجه قريباً الى اميركا ويمكن استخدام نفوذ الصهيونية في ذلك البلد وفي مكان آخر لصالح الحركة العربية ، وقد ارضت هذه العبارة فيصل كثيراً ـ انتهت المقابلة بتعبير ودي عن العطف المتبادل ودعوة فيصل لتكرار اللقاء بعد عودة وايزمان من اميركا .

وفي تعليقه على نتائج المقابلة يرى جويس ان المقابلة لا قيمة لها رسميا لانه لا يمكن التوقع من فيصل ان يصدر اي تصريح علني لأن هذا خاص « بملك مكة » فقط ولكنه ـ اي جويس ـ يعتقد ان فيصل قد رحب حقيقة بالتعاون اليهودي واعتبره عاملا مدعما للتطلعات العربية في المستقبل ، ويجزم ان فيصل يعرف ان فلسطين اليهودية هي احتمال ممكن في المستقبل وقد يقبلها ضمن حدود اذا كان عن طريقها يمكن الوصول الى توسع عربي ابعد الى الشمال. وينظر جويس ان القضية التي اتفق الطرفان عليها هي استبعاد اي ادعاءات اقليمية في سوريا لغير العرب واليهود ، وقد آمل جويس ان يتوصل الطرفان الى تحالف في المستقبل . وتفاءل كلايتون بنتائج لقاء فيصل ـ وايزمان(٤٥) ورأى ان هذا اللقاء قد عمل على تعزيز العطف والتفاهم المتبادلين والاقلال من قيمة الدعاية التي تثير الشكوك بالنوايا الصهيونية في صفوف المحيطين بفيصل . وفي تحليل كلايتون لدوافع الطرفين يرى ان طموحات فيصل هو ان يصبح الامير الحاكم في سوريا المستقلة ، ومن اجل ذلك لا بد من ان يتلقى دعما عسكريا يمكنه من هزيمة الاتراك ، وهذا يحققه بالاعتماد على بريطانيا . اما من اجل الحصول على دعم اقتصادي وسياسي لاقامة الدولة المستقلة والحفاظ عليها فان فيصل حريص على عدم الاعتماد على دولة واحدة ، حتى لو كانت بريطانيا ، لان هذا يعني وضع الدولة الجديدة تحت الاشراف والقضاء على المظهر الخارجي للاستقلال الذي يوليه العرب اهمية فائقة . ولذا فان الشريف فيصل ، برأي كلايتون ، يرى في الصهيونية ، قوة لو جندت بجانبه ، تكون قادرة على مده بالدعم الاقتصادي والضروري ، ومقاومة اصحاب الامتيازات في العالم وكل القوى التي تميل نحو الاستغلال الاجنبي ، اما من حيث الدعم السياسي فان فيصل يعرف جيدا ان الصهيونية ذات تأثير عالمي ومن خلالها يعتمد على بريطانيا التي يضع ثقته الكبرى بها .

اما دوافع وايزمان ، من وجهة نظر كلايتون ، وتوقعاته من اللقاء فهو ان تحقيق هدفه

بجعل فلسطين مركزا لثقافة يهودية يتطلع لها يهود العالم وتصبح جسرا بين الشرق والغرب ، مرتبط بعطف الدول المحيطة بها وهو شرط اساسي لوجودها وتطورها ، ولا بد لتحقيق الاماني الصهيونية من العمل مع الحركة العربية المجاورة ، وقد وجد كلايتون في لقاء الحركتين واعتمادهما المتبادل حلا للمشكلة التي تجابه الحكومة البريطانية في تنفيذ وعودها للطرفين .

واقترح كلايتون تدبير لقاء مشابه في المستقبل القريب مع « ملك الحجاز » ليضمن تنسيقا للاهداف العربية والصهيونية واقامة تعاطف كامل بين الحركتين . ويقر كلايتون ان الحسين قد يظهر للوهلة الاولى كرها للبرنامج الصهيوني الكامل ، ولكن يمكن اقناعه باسلوب مناسب حول مدى تأثير هذا البرنامج على الآمال العربية في سوريا . وعندها قد يتخذ موقفا حياديا على الاقل ان لم يكون مواليا . وجهة نظر كلايتون ان الحسين كان قد صرح مراراً ان المبرر الوحيد لاعلانه الثورة العربية هو قيام الدولة العربية ، وان ذلك غير ممكن عملياً ، ولكن لو نجح فيصل في تحرير سوريا ليصبح اميراً حاكماً عليها فان الحسين سيثق على الاقل بوجود مظهر خارجي للسيادة على اهم المناطق العربية وقد يرحب بأي سياسة تساعد فيصل على تحقيق هذا الهدف .

وسعى وايزمان بعد عودته من العقبة الى التقدم باقتراح عرضه على وينجيت(٤٦) (المندوب السامي في مصر) من اجل التأثير على الحسين خلاصته : لو اعترف بالحسين زعيما للحركة العربية فان الصهيونيين كمنظمة خاصة سيتعاملون معه مباشرة ليعرضوا عليه مساعدة مادية ومساعدات اخرى لو طلبها من اجل اقامة مملكة الحجاز وكذلك دعم الاماني والعواطف السياسية السورية في اوروبا واميركا ، مقابل اعتراف العرب بالاماني الصهيونية في فلسطين .

وقد نقل وينجيت الى بلفور خلاصة برنامجين آخرين حول مستقبل المنطقة. الاول برنامج تقدم به الحسين لاقامة كتلة عربية تشتمل الجزيرة وسوريا والعراق تحت سيادته التي قد تكون اسمية في بعض الاجزاء المتمتعة بالحكم الذاتي المحلي ومطمحه وضع اساس لاتحاد دول عربية وضمان حق العرب التقليدي بالخلافة . اما البرنامج الثاني فهو الذي وضعه سوريون مثقفون في مصر ، هم رغم انقسامهم ، يتفقون في معارضة السيادة الشريفية ومعارضة فصل فلسطين عن سوريا ، ووضعها تحت الاشراف الصهيوني . فهم يطالبون بسوريا الكاملة تحت حماية بريطانية مقنعة لمرحلة مؤقتة على ان لا يكون ذلك خطوة لفلسطين اليهودية ويرون ان بامكان بريطانيا وحدها دون اليهود ان تفعل كل ما تطلبه سوريا ويشككون بحجة الصهيونية حول نفوذها في الولايات المتحدة . ويرى وينجيت ان البرامج الثلاثة (بما فيها البرنامج الصهيوني) تتضارب ولو لم يوجد بينها اتفاق مشترك سيؤدي ذلك الى تضرر المصلحة البريطانية في مؤتمر السلم المقبل .

ولكن وينجيت في تحليله النهائي يرى ان البرنامج الصهيوني في الوقت الراهن هو اكثرها حظا في النجاح بسبب موارد الصهيونيين المالية ونفوذهم السياسي، ولكنه يرى ان البرنامج الصهيوني يصطدم مع البرنامج السوري بشأن فصل فلسطين عن سائر سوريا كما يصطدم مع البرنامج « الشريفي» حول معاملة الفلسطينيين لما يلحقه منح الحقوق المتساوية لليهود وللعرب من ضرر للاخيرين ان عاجلا او آجلا . ويستنتج وينجيت من برنامج وايزمان ان

الصهيونيين على استعداد لتقديم تعويض نقدي للشريف ، ودعم سياسي للسوريين في اوروبا واميركا . ويفترض وينجيت ان الطرفين سيرحبان بالدعم الصهيوني لمواجهة الادعاءات الفرنسية في سوريا . وان المساعدة الصهيونية لدولة الحجاز الجديدة تجنبها ضرورة الاعتماد المادي على دولة مسيحية وبالتالي اثارة حساسية المشاعر العربية ، وكذلك تحميها من كل اسباب التنافس الدولي.وقد يكون الملك حسين قادرا،بدعم من المنظمة الصهيونية،على توطيد مركزه بين الزعماء العرب في شبه الجزيرة ويمنحه ذلك سندا اقوى لادعاءاته للخلافة . ويطلب وينجيت من الحكومة ان تأخذ ملاحظاته بعين الاعتبار وهذا لا يتم الا لو تحقق شرطان اولهما ان لا تعتبر الحكومة الريطانية اتفاقها الرسمي مع فرنسا اي سايكس ـ بيكو حول سوريا ملزما . والثاني ان تتخلى عن فكرة الحفاظ على امتيازات العرب في فلسطين لأن هذه قد ضمنها تصريح حكومة جلالته الاصلي .

وقد وجد سايكس ان اهداف الصهيونية ، كما عرضها وينجيت قد تجاوزت الحد المرسوم لها بحيث يمكن ان تؤثر على المصلحة البريطانية في الشرق بشأن علاقاتها مع فرنسا(٤٧) ، في حين كان يرى ان من الاوفق ان تعمل بريطانيا على دعم الصهيونية من جهة ، والتحكم بشؤون مكة ودمشق وبغداد من جهة اخرى وهذا سيتيح للعنصر اليهودي نفوذا سائدا في جميع البلاد التي تحيط بفلسطين . ان هدف السياسة البريطانية ، كما يراها سايكس ، بالنسبة للصهيونية ، والتي ساهم برسمها الى حد كبير ، هو تمكين الصهيونيين من حرية العمل في فلسطين نفسها وليس لمطامع ابعد لسبب واحد هو ان المصالح الفرنسية في سوريا امر واقع ولا بد من اخذها بعين الاعتبار . ولم يدخل سايكس في حسابه المسألة العربية اذ ان ما يهمه من سوريا هو فلسطين فقط التي سعى لابقائها مفتوحة في الاتفاقية التي تحمل اسمه . وكان عليه قبل التوصل الى تسوية بشأنها مع فرنسا ان يزيل من اذهان العرب فكرة ضم فلسطين الى سوريا بحجة ظل يرددها مراراً في احاديثه مع ملك الحجاز وفيصل والمثقفين السوريين : « ان فلسطين هي مركز الاهتمام الرئيسي لاتباع الديانات العالمية الثلاثة ، ولا يمكن لدولة سوريا الناشئة التغلب على المشاكل الفلسطينية ، لانه لو اصبحت فلسطين جزءاً من سوريا المحررة فان جميع الفئات ذات العلاقة بفلسطين سوف تتدخل في شؤونكم في كل ازمة تثار حول شراء اراضي للاستيطان اليهودي او نزاع حول الاماكن المقدسة المسيحية ، او الاشراف على مسجد عمر ، وستجدون انفسكم وقد تورطتم بقضايا عشرات الملايين من البشر الذين لا مصلحة لهم في سوريا على الاطلاق » .

وكي يزيل وايزمان تلك الافكار التي بدأت تراود بعض الاوساط الحكومية البريطانية بانه يضع المصلحة الصهيونية اولا ، بعث برسالة الى بلفور(٤٨) يبرهن فيها ان كل ما يفعله في لقائه مع الحركة العربية انما هو للمصلحة البريطانية « انا مقتنع تماما انه كلما تطورت الحركة التي يمثلها فيصل ، وكلما نجحت في ميدان الحرب كلما قل النزاع بين تلك الحركة وبين الصهيونية . انا اتوقع ـ ويوافقني على ذلك فيصل ومستشاروه ـ امكانية قيام تعاون مخلص بين الامتين سيؤدي الى منفعة متبادلة ، ويدعم بريطانيا في الشرق الادنى ... لو نجح فيصل في دخول دمشق ، وهذا ممكن عسكريا ـ فان ذلك سيدعم الموقف العربي ولكنه يحتاج الى مساعدة . ويمكن للحركة الصهيونية ان تعطيه العناصر التي هو بحاجة اليها ، نحن سنأتي

لساعدته ليس كمستغلين او اصحاب امتيازات ، بل برغبة مخلصة للتعاون مع عرق من المقدر له ان يحتل مركزا هاما في الشرق ويستخدم كجسر بينكم وبينه . وقد علمت من مستشاري فيصل المقربين انه يرغب بذلك وستأخذ رغبته شكلا ماديا حين تسنح الظروف العسكرية » .

وكان هدف وايزمان التقليل من مسألة قيام مشكلة عربية خطرة في المستقبل في فلسطين لو دعمت الحركة العربية في مكة ودمشق ، وبرأيه ان ما يسمى مسألة عربية في فلسطين سوف تتخذ بذلك طبيعة محلية صرفة وهي لا تعتبر عاملا هاما من جميع المسطلعين على الوضع المحلي . ولكن وايزمان يشير هنا الى العقبة التي تحول دون تحقيق الاماني العربية والصهيونية والتي تتمثل في اتفاقية سايكس ــ بيكو . وهي نتاج دبلوماسي لسنوات الحرب الاولى فقدت معناها الواقعي في الوقت الحاضر ، بل وتقف ضد مبدأ تقرير المصير الحقيقي الذي عبرت عنه الحركتان العربية والصهيونية ؛ واستمرار الاتفاقية وكل ما تمثله هو مصدر القلق الوحيد والدائم في المنطقة .

موقف عربي رافض من دعوى التفاهم على ابواب مؤتمر السلم

لم تكن محاولة فرض البرنامج الصهيوني في فلسطين بهذه السهولة ، وقد شرح احد خبراء المكتب العربي(٤٩) ، ما تضيفه هذه السياسة من التعقيدات الشائكة للوضع في الشرق . ولم تكن له ثقة بجميع المقابلات التي قام بها وايزمان مع الزعماء العرب . وقدر هوغارث المصاعب التي تحيط بالقضية العربية(٥٠) مؤكدا انه « لا يمكن ان نتوقع من الغالبية (غير اليهودية) قبول التغلغل الصهيوني او قبول المعاملة المتميزة للصهيونيين لأن معارضة الاغلبية تزداد كل يوم » ويجد هوغارث لضمان قبول هذا التغلغل ان يسود العنصر (الشريفي) او من يسميهم (البدو) بين العرب ، حيث يمكن اجراء صفقة مالية والا يجب فرض تعهدات بريطانية للصهيونيين بالقوة .

وقد اقر رئيس تحرير جريدة الكوكب التي عملت على بث الدعاية في الاوساط الفلسطينية(٥١) ، انه رغم جهوده في النصح والارشاد لم ينجح في ازالة سوء الفهم بين الشعب والحكومة بسبب المسألة اليهودية ...وحملت الصحف السورية خارج فلسطين (في الولايات المتحدة(٥٢) ، وباريس) على سياسة بريطانيا بجعل فلسطين دولة يهودية وفند بعضها دعوى الاتفاق والوئام التي حملها وايزمان ، ودعت الى تنظيم مقاومة سلبية للرد على محاولات التقارب التي يدعيها الصهيونيون وتوجيه نداء لمد يد العون والمساعدة لعرب فلسطين(٥٣) .

وتعقدت الامور بعد اعلان الهدنة في ٣٠ تشرين الاول ، واقتراب مؤتمر السلم ، اذ زاد تطرف المطالب الصهيونية وتصاعدت حدة المعارضة العربية ورافق ذلك قلق بريطاني ، كان على الاغلب ، على مصير البرنامج الصهيوني.وفي زيارة سايكس لمنطقة الشرق العربي بعد الهدنة في محاولة لتهدئة الاحتجاجات ضد السياسة الصهيونية ازداد قلقه وهو يرى خلافا كبيرا ينمو بين العناصر اليهودية (وغير اليهودية) في فلسطين ربما يتطور الى شكل اسوا(٥٤) وقد شاهد عن قرب فشل سياسته (التوفيقية) والتباعد السحيق بين وجهتي النظر اليهودية وغير «اليهودية » . وتحليل ذلك بنظره « انه بتأثير الهدنة يشعر الطرفان ان الوقت موات للدعاوى المتنافسة ، وما نتخوف منه ان يفكر (غير اليهود) بان احسن برهان (لمطالبهم) هو

الانفجار العنيف » . ويحدد سايكس وجود مشكلتين تحتاجان الى قرار سريع ، فاليهود يهمهم معرفة حدود فلسطين،و « غير اليهود » يهمهم معرفة فيما اذا كان الهدف الصهيوني هو اقامة دولة يهودية مستقلة عندما تستطيع تلك الاغلبية اليهودية او هل ان الوصاية ستستمر الى حين تطالب العناصر اليهودية (وغير اليهودية) معا بالاستقلال . وبدون ايجاد حل للمشكلتين لن يكون هناك مجال للدبلوماسية او التوفيق . ولا يقترح سايكس ان « يطلب من الصهيونيين اقل مما هو ضروري لتمكينهم من انجاز اهدافهم». وظل سايكس ـ حتى وفاته مع افتتاح مؤتمر السلم ـ يصر على رأيه بان الوضع الحالي ينبع من سوء الفهم اكثر من تضارب الاراء . وقد نصح كلايتون الصهيونيين(٥٥) بتجنب المزيد من المطالب التي قد « تؤثر على نجاحهم باثارة عداء دائم بحجة انهم يريدون تحقيق اهدافهم بالقوة » وكان دافع كلايتون لهذا التحذير اعتبار هام « هو ان غير اليهود في فلسطين هم ٥٧٣,٠٠٠ مقابل ٦٦,٠٠٠ يهودي لذا فان اماني الصهيونيين الحقيقية يمكن ان تحقق بشرط ان ينفذوا برنامجهم بصبر وان يظهروا تعاطفا لمن هم (اليوم) غالبية كبرى » .

وقد كانت اغلبية الصهيونيين تقدر صعوبة (فلسطين المستقبل) التي يحكمها (اقلية) وتحيطها اراض يسكنها شعب تربطه باغلبية سكان فلسطين صلات لغوية ودينية .ولذا كانت استعدادت الصهيونيين على اشدها قبل عقد مؤتمر السلم . وبتوجيه من وزارة الخارجية البريطانية بدأت الاوساط الصهيونية تبحث الخطوط العريضة لوضع تصريح بلفور موضع التنفيذ ورسم حدود فلسطين الجديدة في المستقبل تحت الحماية البريطانية (المؤقتة) . وكان هم الصهيونيين في مؤتمر السلم ان لا يطبق مبدأ الديمقراطية المستند على الارقام المجردة « حتى يحين الوقت الذي تتحول فيه فلسطين الى بلد يهودي بهجرة كثيفة واستيطان منظم في ظل حماية بريطانية »(٥٦) .

وكان العرب من جملة من عانى ، او اسوأ من عانى ، من السياسة الدولية بعد الحرب . ولم يسمح لأي وفد عربي بالمثول امام المؤتمر سوى وفد يرأسه الامير فيصل ، نيابة عن الحسين ولم يكن يتكلم باسم الحجاز بل باسم عرب آسيا . وكانت المطالب العربية التي حملها فيصل لعرضها على مؤتمر السلم تتنازعها عدة عوامل متناقضة : امل العرب بالوحدة والاستقلال ، المطامع الفرنسية ومعاداة العرب لها . تصريح بلفور وكراهية العرب للمشاريع الصهيونية . واخيرا تعهدات بريطانيا المتناقضة . وقد تصور العرب ان الهدف الذي ثاروا من اجله ضد الدولة العثمانية قد تحقق ولكن تبين على ابواب المؤتمر البون الشاسع بين ما يطالب به العرب وبين ما ترضى الحكومة البريطانية ان تعترف به ، والتي اعتبرت مؤتمر السلم تبريراً للتأخير والتنصل من المسؤولية .

ووقفت الحركة الصهيونية كاتجاه آخر يعارض تحقيق المطالب العربية في المؤتمر ومثلها وفد منظم ، في وقت لم يتجاز عدد السكان اليهـود في فلسطين ١٠٪ ورفض طلب رسمي من عرب فلسطين الى مؤتمر السلم يطلبون فيه تمثيلهم للظهور امام الهيئة الدولية . ولم يكن لمقررات المؤتمر القومي الذي عقد في فلسطين ٢٧ يناير ـ ١٠ فبراير ١٩١٩ برفض كامل التعهدات التي ابرمت بشأن فلسطين ولا للاحتجاجات التي رفعت الى المؤتمر من فلسطين وخارجها اي تأثير .

فيصل يوقع اتفاقاً مع وايزمان

.. وقبل افتتاح مؤتمر السلم رسميا اجرى فيصل محادثات مع بلفور بدأت في ١١ كانون اول ١٩١٨ . وكانت مشكلة فيصل الرئيسية في هذه المحادثات هي ادعاءات فرنسا في سوريا والبحث عن دعم بريطاني لمقاومتها . اما حول السياسة البريطانية في فلسطين والعراق فقد كان واثقا كوالده ان العرب سوف يتوصلون الى تسوية ودية حول هذه الامور . مع ان فيصل لم يطلع على تفاصيل الخطط السياسية التي جرت بين الحكومتين الفرنسية والانكليزية بشأن تعديل توزيع مناطق النفوذ طبقاً لاتفاقية سايكس بيكو مقابل دعم بريطانيا للمطالب الفرنسية امام مؤتمر السلم، الا انه شعر من مجرى مباحثاته ان بريطانيا ليست مستعدة للنزاع مع فرنسا حول سوريا مهما بلغت درجة تعاطفها مع الاماني العربية . واصبح موقف فيصل والوفد المرافق له حرجاً فهو اما ان يغادر اوروبا ، او يقوم بمحاولة اخيرة لتأمين الدعم البريطاني للقضية العربية ، وهو الدعم الوحيد الى الان نظرا لأن بقية الدولة كانت مشغولة بشؤونها الخاصة وليس لها مصالح مباشرة في سوريا ضد الادعاءات الفرنسية ، وهي الخطر المباشر للدولة العربية في سوريا(٥٧) . وكان لا يمكن تأمين هذا الدعم الا بالتنازل عن بعض المصالح العربية التي نصت عليها تعليمات والده مع انه قد تلقى برقية من الحسين يهدد بحدوث ثورة اذا لم تلب مطالبه، وطويت البرقية حتى لا تثير ازمة(٥٨) .

ولا يعرف بالضبط ما الذي تم بين الامير ووزارة الخارجية والضغوط التي تعرض لها في لندن لكي تتجدد لقاءاته مع زعماء الصهيونية (وكانت المنظمة الصهيونية قد بعثت الى فيصل بعد دخوله الى دمشق رسالة تهنئة رد عليها بلطف ولباقة)(٥٩) . وتمكنت الحكومة البريطانية بشخص لورنس (الذي كان يرافقه كظله مند وصوله الى اوروبا) من اقناعه بان فرص كسب مساعدة وزارة الخارجية سوف تكون اعظم اذا توصل الى تفاهم مع الصهيونية . ويبدو ان وزارة الخارجية كانت تحتاج الى اعتراف من فيصل بسياستها تجاه الصهيونية دون الرجوع الى عرب فلسطين قبل عرض القضية رسميا على المؤتمر ، كما ان فيصل ، الذي لم يتمرس بعد بأساليب السياسة الاوروبية كان يرى في الحكومة البريطانية صديقته الوحيدة التي يتلقى منها النصح والمشورة . ولا توجد الا رواية وايزمان عن المباحثات(٦٠) ، ولو غضضنا النظر عن طبيعتها المتحيزة لبرزت حقيقة واحدة ،وهو ان كلا من فيصل ووايزمان كانا ضد سايكس ـ بيكو ، ويظهر انه بايعاز من وايزمان او لورنس رأى فيصل انه اذا توصل الى تفاهم مع الصهيونيين فسيوحدون جهودهم للحد من اطماع فرنسا في سوريا(٦١) . وفي تبريره لهذا الاتفاق ادلى فيصل بحديث في آذار الى الصحفي البريطاني جفريز Jeffries (نشرت المقابلة في ديلي ميل) قال فيه« ان العرب قد حرموا من الوصول الى المتوسط وانه كان يطالب بالوفاء بالوعود التي اعطيت لوالده ولكن ايد حكومية رسمية كانت تقبض عليه وتدفعه نحو صداقة جديدة للدكتور وايزمان »(٦٢) .

واصل الاتفاق هو مشروع (بالانكليزية) قدمه وايزمان الى فيصل عن طريق لورنس (وبخط يده) وقام لورنس بترجمة محتوياته الى العربية شفهيا (ولم يكن فيصل يعرف الانكليزية) ويشمل الاتفاق تسع مواد وديباجة والتأريخ المدرج على الاتفاق هو ٣ كانون الثاني١٩١٩، اما نص الاتفاق فكان على النحو التالي(٦٣) :

« ان صاحب السمو الملكي الامير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها ، والدكتور حاييم وايزمان ممثل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنها ، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي ، ويتحققان ان اضمن الوسائل لبلوغ غاية اهدافهما الوطنية هو في اتخاذ اقصى ما يمكن من التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين ، ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي يقوم بينهما فقد اتفقا على المواد التالية :

(١) يجب ان يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين اقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص ، وللوصول الى هذه الغاية تؤسس ويحتفظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الاصول في بلد كل منهما .

(٢) تحدد بعد اتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين .

(٣) عند انشاء دستور ادارة فلسطين تتخذ جميع الاجراءات التي من شأنها تقديم اوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ يوم ٢ نوفمبر ١٩١٧ .

(٤) يجب ان تتخذ جميع الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وباقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الارض عن طريق الاسكان الواسع والزراعة الكثيفة . ولدى اتخاذ مثل هذه الاجراءات يجب ان تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب ويجب ان يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي .

(٥) يجب ان لا يسن نظام او قانون يمنع او يتدخل بأي طريقة ما في ممارسة الحرية الدينية ويجب ان يسمح على الدوام ايضا بحرية ممارسة العقيدة الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز او تفضيل ، ويجب ان لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية او السياسية

(٦) ان الاماكن الاسلامية المقدسة يجب ان توضع تحت رقابة المسلمين .

(٧) تقترح المنظمة الصهيونية ان ترسل الى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الامكانيات الاقتصادية في البلاد وان تقدم تقريرا عن احسن الوسائل للنهوض بها ، وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الامكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وان تقدم تقريرا عن احسن الوسائل للنهوض بها ، وستستخدم المنظمة الصهيونية اقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والامكانيات الاقتصادية في البلاد .

(٨) يوافق الفريقان المتعاقدان ان يعملا بالاتفاق والتفاهم التامين في جميع الامور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح .

(٩) كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب ان يحال الى الحكومة البريطانية للتحكيم .

وقد سطر فيصل على الاتفاق تحفظا ادرجة بالعربية في الفراغ الذي يلي المادة الاخيرة مباشرة وكان كالآتي (٦٤) : « يجب ان اوافق على المواد المذكورة اعلاه بشرط ان يحصل العرب على استقلالهم كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في ٤ كانون الثاني ١٩١٩ المرسلة الى وزارة الخارجية البريطانية ، ولكن اذا وقع اقل تعديل او تحويل (يقصد بما يتعلق بالمطالب الواردة بالمذكرة) فيجب الا اكون عندها مقيداً بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة ، لا شأن ولا قيمة قانونية لها ويجب ان لا اكون مسؤولا بأية طريقة مهما كانت » .

وهذا التحفظ اورده جورج انطونيوس في كتابه The Arab Awakening بالانكليزية ويقول انه ترجمة عن صورة فوتوغرافية عن الاصل (اي الاصل العربي ولم يذكر اين وجد الاصل) . ويستنتج انطونيوس من الشواهد التي تضمنها تحفظ فيصل الى ان الاتفاقية قد وقعت في تاريخ لاحق . ويذكر الصحفي جفريز(٦٥) انه قد حصل على ترجمة موثوقة من تحفظ فيصل بين اوراق فيصل الشخصية . ويذكر سليمان موسى الباحث في وثائق الحركة العربية انه قد حصل عن طريق جريدة الصنداي تايمز على النسخة الاصلية لتحفظ فيصل (وبخط يده) من نسخة وايزمان الاصلية وكان كالآتي . « اذا نالت العرب استقلالها ، كما طلبناه بتقريرها المؤرخ في كانون الثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية (حكومة) بريطانيا العظمى فانني موافق على ما ذكر بباطن هذا من المواد وان حصل (ادنى) تغيير او تبديل فلا أكون ملزوما ومربوطا بأي (كلمة) كانت بل تعد هذه المقاولة (كلا) شيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا اطالب بأي صوت كانت » .

وقد قدم لورنس ترجمة غير محكمة للتحفظ اوردها وايزمان في كتابه (٦٦) ، بانه « اذا سويت قضية العرب كما طلبت في مذكرتي المقدمة الى وزارة الخارجية فانا سأنفذ ما هو مكتوب في هذه الاتفاقية وانه اذا حدث تغيير فانا لن اكون مسؤولا عن الفشل في تنفيذ هذه الاتفاقية » . وقد الحق توقيع وايزمان وفيصل الى التحفظ كما الى الاتفاقية الاصلية . ولم يوضح في التحفظ ما هو منشور في مذكرة ٤ كانون الثاني مع ان الاتفاقية مبنية على هذا الاساس وربما تكون المذكرة هي مطالب فيصل التي قدمت الى مؤتمر السلم وليس مباشرة الى الحكومة البريطانية، لان وزارة الخارجية البريطانية تتلقى عادة نسخة عن الوثيقة التي تقدم الى المؤتمر ، ولم يوضح تحفظ فيصل هذا الفرق الدبلوماسي .

ويبدو من مواد الاتفاقية ان فيصل قد قبل بتفاهم متبادل بين اهداف العرب والصهيونية وتساهلا مع البرنامج الصهيوني في فلسطين او على ما قيل القبول بمضمون تصريح بلفور ولكن يبدو انه لم تكن لدى فيصل افكار واضحة عما تعنيه المقترحات او عن المشاريع الجديدة للصهيونية (وهذا ما اسر به للصحفي البريطاني جفريز في اذار ١٩٢٠(٦٧)) ولا شك ان ثقة فيصل الزائدة بلورنس جعلته يعتمد على تأكيداته(٦٨) بان الاتفاقية لا تبغي الا ايجاد وطن روحي لليهود،وخطة لايجاد مستعمرات يهودية لها حكم ذاتي وبشروط ستسوى فيما بعد والسماح لليهود بالعيش بسلام في فلسطين وانه ليس لديهم مطامع سياسية بل هدفهم المساعدة على انعاش فلسطين دون ان يؤثر ذلك على مصالح العرب المشروعة ، وكان باعتقاده ان اماني الصهيونية وسياسة بريطانيا لاتتعارضان مع حرية العرب السياسية والاقتصادية ... ولم يكن فيصل يعني مطلقا موافقته على فصل فلسطين عن سوريا او اتخاذها وطنا قوميا لليهود .

ولكن كل هذه التبريرات لا تعفي فيصل من المسؤولية حين انفرد وحده بوايزمان ولورنس ليوقع اتفاقية كتبت بلغةانكليزية مهما كانت ثقته بلورنس واقناعه اياه انه هو كل شيء في بريطانيا . فهو الذي قدم الاقتراحات الصهيونية وشرحها له مدعيا ان حكومته جاهلة بها ، وعلاقة لورنس بالاتفاقية حجة كبيرة ضد فيصل وخاصة انه كان وثيق الصلة بالسياسيين البريطانيين المنحازين للصهيونية(٦٩)، وبعض تقارير المحادثات والرسائل والتلغرافات التي تعزى الى فيصل تحمل من الادلة ما يثبت انها كتبت مباشرة بالانكليزية ولم تترجم من الاصول العربية في لهجتها وفحواها(٧٠) .

الا انه لو دققنا النظر في الاتفاقية لوجدنا ان كل ما ادعاه الصهيونيون قد وافق عليه فيصل بشكل شخصي وانها كانت مجرد اقتراح لم تصل على الاطلاق الى مرحلة المعاهدة ، ونظرا لانها لم تعرض على الحسين او على الحكومة العربية فليس لها ادنى قيمة في التعبير النهائي عن السياسة العربية . رغم كل الاهمية الكبرى التي يعزوها وايزمان الى الاتفاقية والى انها كانت سببا للموقف الايجابي الذي اتخذه الاربعة الكبار في مؤتمر السلم(٧١) . والملاحظ ان نصوص الاتفاقية لم يستخدمها زعماء الصهيونية خلال جلسات المؤتمر ، وحتى فيما بعد لم يشر لها احد امام لجنة شو للتحقيق ١٩٢٩ . ولم ينشرها وايزمان الا في ١٠ حـزيـران ١٩٣٦ (وكان فيصل ولورنس قد توفيا) في جريدة التايمز و بيالستين بوست مع ترجمة لورنس لتحفظ فيصل ،كما وردت في تقرير اللجنة الملكية ١٩٣٧ . وان مجرد انتظار وايزمان سبعة عشر عاما لنشر الاتفاقية كانت فيها فلسطين تعاني القلق والدماء دليل كاف على ان لا قيمة لها . وقد ذكر مساعد ضابط الارتباط البريطاني في القدس في رسالة في ٢ آب (اغسطس) ١٩١٩ بان الاتفاقية لا تستحق الورقة التي كتبت عليها او الجهد الذي بذل من اجلها في المحادثات، وحذر قائلا « ان بامكان فيصل ان يعقد اتفاقيات متناقضة مع الفرنسيين والصهيونيين ومعنا ويتلقى الاموال من الجهات الثلاث ثم يتنصل منها » وهذا سبب اضافي لجعل الاتفاقية لا قيمة لها(٧٢) .

القضية العربية ومؤتمر السلم

وفي باريس ، وخلال عرض القضية العربية في جو تسيطر عليه الدول الكبرى باطماعها دون اعتبار لرأي الامم الصغيرة ، كانت فرص فيصل في النجاح ضئيلة . فقد وجد نفسه وسط عالم غريب وبجانبه لورنس الذي رشحه بلفور مستشارا في الوفد البريطاني فربط نفسه بالوفد العربي دون صفة رسمية ، رغم ان اعضاء الوفد كانوا يشكون بخططه . واعتبر فيصل في جلسات المؤتمر ممثلا لمملكة الحجاز فقط وليس للبلاد العربية في آسيا كما تطلع الحسين .

ونظرت القضية العربية رسميا في ٦ شباط (فبراير) ١٩١٩ في مبنى وزارة الخارجية الفرنسية امام (مجلس العشرة) وقام لورنس بترجمة خطاب فيصل دون ان يعرف احد من الوفد العربي ما يقوله لجهلهم بالانكليزية ، ولم يكن يعرف العربية احد في المؤتمر غير لورنس(٧٣) وليس من الواضح اذا كان لورنس قد قدم ترجمة رسمية كاملة للخطاب ، ولكن من المحتمل انه لم يفعل ، لان التايمز لم تعمل على نشر الخطاب كما فعلت ببقية الخطب ولكن جريدة الطان نشرت بعض سطور منه . وقد سبق خطاب فيصل تقديم مذكرتين رسميتين رفعهما

الوفد العربي الى مؤتمر السلم الاولى في ١/١/١٩١٩(٧٤) والثانية في ٢٩/١/١٩١٩ .

وفي المذكرة الاولى « اكد فيصل ما للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من حقوق في الاستقلال والوحدة ملمحا بوجه خاص على العوامل الحضارية والجغرافية والاقتصادية التي حققت التلاحم فيما بينها . ولكنه يقترح نظرا لوجود بعض التباين الاجتماعي والاقتصادي بين هذه الاجزاء ، تعيين مصير كل جزء منها. ولكنه اوضح ان هذه الفروق الاجتماعية والاقتصادية ، لا تشكل عقبة امام الوحدة التي هي هدف الحركات القومية وهو ينتظر من الدول « ان تحسبنا شعبا واحدا (على اهبة التكون) متهيأ للنهوض يغار على لغته وحريته ويطلب منها ان لا تقف حاجزا دون انضمام هذه البلدان تحت حكومة مستقلة » وينهي المذكرة بقوله « نسألكم ان لا تكرهونا على اخذ كل تمدنكم بل تساعدونا على ان نختار من اختباراتكم ما يفيدنا » وحول مستقبل فلسطين تقول المذكرة(٧٥) : « في فلسطين العرب هم الاكثرية الغامرة واليهود قريبو النسب جداً من العرب ، وليس بين الشعبين تناقض في الاخلاق . نحن في المبادىء متفقون . غير اني افكر ان العرب لا يستطيعون اتخاذ المسؤولية على عاتقهم في حفظ التوازن بين الشعوب والاديان المتصادمة ، في هذه الولاية التي كثيرا ما جرت الصعوبات على العالم . وهم يريدون هناك وصيا عظيما ذا مركز نافذ على شرط ان يكون هناك ادارة محلية نيابية تثابر على تنشيط اسباب النجاح في البلاد » .

اما المذكرة الثانية ٢٩/١/١٩١٩ (والتي يعتبرها البعض انها هي التي تمثل حقيقة مطالب العرب التي تقدم بها فيصل واعضاء وفده)(٧٦) فقد اكدت من جديد على طلب الاستقلال والوحدة للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا . وارفق بها النقطة التانية من خطاب ويلسون في مونت فرنون ٤ تـــموز ١٩١٨ والتي تنص على ان تسوية اي مسألة ستبنى على اساس القبول الحر لهذه التسوية من قبل الشعوب المعنية مباشرة .

وقد اشار فيصل في خطابه امام مجلس العشرة في ٦ شـــباط الى هذه المذكرة(٧٧) مشيراً الى « اننا نقدر الحاجة الماسة الى انهاض بلادنا التي نريد ان تكون واسطة لنقل ونشر التمدن الغربي ولا يخطر على بال احد منا اننا نريد ان نقفل ابوابنا في وجه الامم المتمدنة ، بل سنستعين بمن نرى فيه الخير لبلادنا لأننا اصبحنا اسيادها ونغار على نجاحها . واننا لا نريد ان نضحي بذرة من استقلالنا الذي حاربنا من اجله وهو قاعدة رقينا واساس نهوضنا في المستقبل»، وعن فلسطين يقول فيصل في خطابه : « ان فلسطين بالنظر الى اهميتها العالمية ، اترك امرها لتقدير ذوي العلاقات بها . وفي ما سوى هذا ، اطلب استقلال البلاد العربية التي فصلتها في مذكرتي » .

وقد سعى الصهيونيون في مؤتمر السلم للحصول على تأكيد دولي لتصريح بلفور وتأمين ضمه الى نص معاهدة السلم وميثاق العصبة ورفعت المنظمة الصهيونية مذكرتها الى مؤتمر السلم في ٣ شباط(فبراير) ١٩١٩ وضعت في مقدمتها الفقرات الخاصة المتعلقة بفلسطين في مذكرة فيصل ١/١/١٩١٩(٧٨) . وطالبت بحق الشعب اليهودي التاريخي باقامة وطن قومي في فلسطين على ان يعهد الى بريطانيا بالانتداب من قبل العصبة لوضع فلسطين في ظروف سياسية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي ، وتعمل على تشجيع الهجرة والاستيطان وتوسيع

الحكم الذاتي ، والحق بالمذكرة الحدود المقترحة لفلسطين ورفض اعضاء الوفد الصهيوني امام المؤتمر ضم فلسطين الى دولة عربية او تدويلها كما عارضوا مبدأ تقرير المصير ، لانه اذا طبق على فلسطين سيحول دون تأسيس دولة يهودية ورحبوا بادارة بريطانية للمنطقة فاتفقت مصالحهم بذلك مع مصلحة بريطانيا .

رسالة فرنكفورتر وملابساتها

وقبل عودة فيصل الى دمشق واثناء محاولاته اليائسة لكسب المؤيدين للقضية العربية من خلال الدعوة للجنة تحقيق دولية ، نسب اليه انه وجه رسالة الى فليكس فرنكفورتـر Frankfurter (وهو عضو الوفد الصهيوني الاميركي الى مؤتمر السلم وقاضي في المحكمة العليا واستاذ في جامعة هارفارد) بعد احتجاج الزعماء الصهيونيين على تصريح ادلى به فيصل الى صحيفة الماتان في آذار (مارس) ١٩١٩ بمعارضة تأسيس وطن قومي لليهود بانه « اذا رأى الصهيونيون انشاء دولة في الوقت الحاضر فسوف يلاقون المصاعب من السكان المحليين » . لذا طلب الصهيونيون في اجتماع اجراه فيصل مع الزعماء الصهيونيين في باريس بحضور لورنس توضيحا خطيا يعبر عن موقف فيصل تجاه الصهيونية .

وجاء التوضيح على شكل رسالة في ٣آذار (مارس)[٧٩] تؤكد على التفاهم المتبادل بين اهداف العرب واليهود« الذين هم اولاد عمومة في العرق يعانون مظالم متشابهة على يد دول اقوى منهم ، ولكن باتفاق ودي يمكنهم ان يتخذوا الخطوة الاولى نحو تحقيق آمالهم القومية حقا » . كما يعبر عن عطف العرب وخاصة المثقفين منهم على الحركة الصهيونية وموافقة الوفد العربي في باريس على مقترحات المنظمة الصهيونية الى مؤتمر السلم « ونعتبرها معتدلة وصحيحة وسنبذل جهودنا ــ الى الحد الذي يعنينا ــ في المساعدة على تحقيقها . ونتمنى لليهود من كل قلبنا وطنا على الرحب والسعة » وتضيف الرسالة « وقد كان لنا ولا يزال ــ مع زعماء حركتكم وخاصة دكتور وايزمان ــ اوثق الصلات وكان اكبر عون لقضيتنا واتمنى ان يصبح العرب في موقف يمكنهم من رد بعض الجميل لليهود ولعطفهم . نحن نعمل معا من اجل اصلاح واحياء الشرق الادنى وحركتانا تكمل احداهما الاخرى . الحركة اليهودية قومية وليست امبريالية وكذلك حركتنا قومية وليست امبريالية . وهناك مكان في سوريا لكلينا ، وانا اعتقد انه لا يمكن تحقيق النجاح لاي حركة دون الاخرى ولكن البعض الذين دون زعمائنا وعيا ومسؤولية ، والذين يتجاهلون حاجة العرب والصهاينة الى التعاون كانوا يحاولون استغلال الفروق المحلية التي كان لا بد من وجودها في فلسطين في المراحل الاول لحركتينا . وبعضهم ــ كما اخشى ــ قد اساء تمثيل اهدافكم الى الفلاحين العرب ، واهدافنا الى الفلاحين اليهود ، وكانت النتيجة ان هذه الفئات ذات المصالح تمكنت من ان تجني فائدة مما اسمته الفروق بيننا . وارغب ان اعطي رأيي الجازم وهو ان هذه الفروق ليست مسائل مبدأ ولكنها امور تفصيلية . كالتي تحصل دوما لدى الاحتكاك بين الشعوب المتجاورة ، والتي يمكن ازالتها بالارادة المشتركة وهي في الحقيقة ستزول تماما بالمعرفة وانا اتطلع وشعبي نحو مستقبل نتمكن فيه ان نساعدكم وتساعدونا حتى تتمكن البلاد التي تهمنا مصلحتها من ان تحتل مكانها اللائق بين بقية الشعوب المتحضرة في العالم » .

وقد اذاع الصهيونيون نص الرسالة بعد يومين من كتابتها ، دون ان يبرزوا اصل الرسالة ، وامام لجنة شو ١٩٢٩ ابرزوا نسخة عن الرسالة (وبتوقيع فيصل عليهــا بالانكليزية) وقد طلب عوني عبد الهادي (بصفته عضو الوفد العربي امام لجنة شو) من الملك فيصل في بغداد توضيحا لهذه الرسالة فرد عليه رئيس ديوان الملك (رستم حيدر) وكان عضو الوفد العربي ١٩١٩ بقوله « ان جلالته لا ينكر انه قد كتب اي شيء من هذا النوع » . ولم يجد الصحفي البريطاني جفريز بين اوراق فيصل اي اصل عربي للرسالة (ان كان لها اصل)[٨٠] . وهذا ما يدفع الى اتهام لورنس بوضع هذه الرسالة دون علم فيصل .

والحقيقة ان رسالة فرنكفورتر هي كالاتفاية السابقة خطة ستراتيجية لجا اليها الصهيونيون للحصول على وثيقة عربية بالموافقة على الخطط الصهيونية . وكان فيصل الذي يقع تحت تأثير وضغط الحكومة البريطانية ــ كما يبدو ــ هو الوسيلة الوحيدة لاستمالة العرب مع انه بالفعل كان عاملا ثانويا ، لان الحلفاء كان بيدهم كل شيء[٨١] .

المعارضة تشتد

وبعد عودة فيصل الى سوريا تحقق للصهيونيين ان محاولة حصولهم على موافقة شرعية لادعائهم قبل ان يتاح للعرب فرصة تنظيم انفسهم هي محاولة فاشلة .. وتأكد لفيصل صعوبة ايقاف مقاومة السياسة الصهيونية في فلسطين بعد توضح اهدافها وبعد خيبة الامل بتسوية القضية العربية في مؤتمر السلم . وهذا ما اكدته تقارير ضابط الارتباط البريطاني في دمشق في أيار (مايو) ١٩١٩ ، وكان فيصل قد استشاره عن موقف الموظفين البريطانيين في حال قيام ثورة فلسطينية[٨٢] .

وقد اثبتت تحقيقات اللجنة الاميركية (كنغ كرين) ان مطالب الفلسطينيين هي وحدة واستقلال سوريا بما فيها سوريا الجنوبية (فلسطين) . ورفض الهجرة اليهودية والاحتجاج على الصهيونية وعلى الوطن القومي اليهودي على ان يظل اليهود الاصليون الموجودون قديما مواطنين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، وكل من استشارته لجنة التحقيق كان يؤمن بان البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه الا بالقوة . وعبرت قرارات المؤتمر السوري حزيران (يونيو) ١٩١٩) التي قدمت الى اللجنة التأكيد على استقلال سوريا التام ضمن وحدة عربية مع الحرية في اختيار الدولة المنتدبة للاستعانة بخبرتها دون ان يعني ذلك حماية ولا وصاية ، والاحتجاج على كل معاهدة سرية بتجزئة سوريا او كل وعد عربي يرمي الى تمكين الصهيونية في فلسطين مع ضمان لليهود بالتمتع بحقوقهم العامة .

وقد واجهت هذه الحقائق الصريحة لجنة التحقيق ، التي بدأت عملها وذهنها مهيأ مسبقا في صالح الصهيونية مما دفعها الى التوصية بتعديل كبير للبرنامج الصهيوني المتطرف[٨٢] .

وبعث القائم باعمال الضابط السياسي الرئيسي في مقر قيادة الحملة المصرية ٣٠ آب (اغسطس) ١٩١٩[٨٣] تقريرا صور فيه ازدياد المعارضة النابعة من المشاعر القومية ضد البرنامج الصهيوني والمصاعب التي تحول دون انشاء الوطن القومي . وينصح الزعماء الصهيونيين في اوروبا بضرورة اتباع الحذر والاعتدال قولا وعملا في وجه الكراهية المترسخة والحقيقية للسكان (غير اليهود) في فلسطين . وبلغ القلق في سوريا بوجه عام حدا فائقا بعد

رحيل اللجنة الاميركية وخيبة الامل بتحقيق توصياتها وازدياد الادعاءات الفرنسية والصهيونية وشرح فيصل في رسالة بعث بها من دمشق الى لويد جورج في ٣٠آب (اغسطس)١٩١٩ موقفه من الاحزاب المتطرفة التي تطلب مزيداً من الحزم . ويبين رغبته بالسفر الى اوروبا ليحمل الى شعبه تأكيدات جديدة تضمن وحدتهم واستقلالهم والا فانه سيغسل يديه من المهمة ويترك البلاد في فوضى ويطالب باسم « الشرف البريطاني والعدالة الانسانية » ان لا يكون جزاء العرب على اخلاصهم وتضحياتهم هو تجزئة بلادهم ، لأن هذا يؤثر على سمعته وسمعة عائلته وعلى امن شعبه الذي يفضل الموت في سبيل وحدته(٨٤) .

عودة للتقارب

واثناء وجود فيصل في لندن للمرة الثانية ايلول (سبتمبر)١٩١٩ وازدياد حراجة موقفه بعد اتفاقية لويد جورج ـ كلمنصو التي تترك لفرنسا حرية العمل في سوريا ، تقرب وايزمان منه ثانية ليعرض اموالا وخبراء للحكومة العربية ، ووعدا باقناع الحكومة الفرنسية للتخلي عن ادعائها بالمنطقة الداخلية مقابل مساعدة الامير في تحقيق البرامج الصهيونية في فلسطين . ويبدو ان الامور قد توقفت عند هذا الحد بين فيصل ووايزمان لأن الامير كان يريد من الصهيونيين ان يضعوا ثقلهم الى جانب العرب ضد الفرنسيين بينما كان وايزمان يرى ان يحتل الفرنسيون المناطق الساحلية الآن ثم يمكن اخراجهم فيما بعد(٨٥) .

وفي ٣ تشرين اول ١٩١٩ ادلى فيصل بحديث الى مندوب صحيفة جويش كرونكل جاء فيه : « بان فلسطين هي جزء من سوريا ... وانه لا يزال يتفق مع رأي وايزمان في الهجرة والاستيطان ولكنه لا يعتقد ان فلسطين يمكن ان تستوعب اكثر من الف او الف وخمسمائة سنويا . وقد تشكل فلسطين فيما بعد ولاية من الدولة السورية ذات حكم ذاتي يتمتع فيها اليهود بحقوق متساوية مع العرب(٨٦) » ... وقد رد فيصل في هذا الحديث على تصريح ادلى به اسرائيل زانغويل الى نفس الجريدة بان « كل اليهود يتطلعون الى اقامة وطن قومي في فلسطين بحيث يصبح في النهاية دولة يهودية » . واثار حديث فيصل رد فعل صهيوني عبر عنه هربروت صموئيل (فيما بعد) في محاضرة القاها امام اللجنة التاريخية اليهودية في لندن ٢٥ شباط (فبراير)١٩٣٥ذكر فيها بأنه كان عليه ان يزيل سوء التفاهم الناجم عن عبارة فيصل التي ظهرت في الجويش كرونكل وان فيصل قد اخبره « بان ما يعترض عليه هو التأسيس المباشر لدولة يهودية في فلسطين ... لأن مثل هذا العمل سيضع الاغلبية تحت حكم الاقلية ... ولكنه لا يعترض على ما يريده زعماء الصهيونية اي تنمية الهجرة والاستيطان » وابرز هربرت صموئيل رسالة ذكر بان فيصل كان ارسلها له في ١٠كانون الاول (ديسمبر)١٩١٩ في باريس (نشرتها التايمز ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠) يشكره فيها على ازالة سوء التفاهم ويؤكد ان هناك اتفاقا تاما بينه وبين وايزمان « سيكفل الانسجام اللازم لنجاح قضيتنا المشتركة(٨٧) » .

وربما تكون هذه الرسالة كسابقتها (رسالة فرنكفورتر)كتبت بتأثير ووحي بريطانيين . ويظهر من الرسالة غموض جوهري.فما هوسوء التفاهم ؟وعلى اي شيء كان هناك اتفاق تام ؟ وفي نفس الفترة التي يفترض ان فيصل قد كتب هذه الرسالة وكان يشكو بمرارة الى سكرتيره من محاولات وايزمان التقرب منه قائلا : « ماذا يريد هذا الرجل مني ، اني سأعمل كل شيء للتخلص منه ، انه يمزقني باحاديثه الطويلة »(٨٨) .

الصراع مستمر

وبعد فشل مهمة فيصل في مفاوضاته الثانية في اوروبا . لم يحصل فيها الا على مقابلات غير حاسمة في لندن وتهديدات في باريس دفعته الى توقيع اتفاق مبدئي مع كلمنصو ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ بقبول الانتداب في سوريا وازدادت المعارضة الداخلية ونظر الكثيرون الى سياسته المعتدلة بشك وعدم ثقة وعجز عن السيطرة على الرأي العام . وتحت ضغط المتطرفين كتب الى اللنبي في ١١ شباط (فبراير) ١٩٢٠(٨٩) رسالة تصور حراجة موقفه وخاصة بعد نشر برقية والده التي تستنكر اي عمل لا يتفق مع وحدة واستقلال سوريا ، ووجد نفسه معرضا لاتهامات علنية وطالب بتصريح بريطاني حول السياسة المتعلقة بفلسطين حتى يعطي املا للشعب « ويحمي شرفه وشرف عائلته » التي وقفت تحارب الى جانب بريطانيا ، معرضة مركزها واضعة اعتمادها على دعم بريطانيا . ورغم انه يعرف ان مصير البلد قد ترك الى مؤتمر السلم الا انه يصر على معرفة رأي بريطانيا قبل ذهابه الى اوروبا وحضور مؤتمر السلم « حتى لا تبقى البلاد في ظلام من الممكن ان يؤدي الى ما يهدد الامن العام » .

وكان رد اللنبي استدعاء فيصل الى لندن لعرض قضيته ثانية على المجلس الاعلى للحلفاء . ولما وجد فيصل انه لا يستطيع اقناع اعوانه قبول سياسة التسوية التي اعلنها دون ان يخاطر بزعامته وشعبيته . وخشي ان تؤثر الشائعات على اسمه وخاصة ان المتطرفين والوفود العربية التي كانت تؤمه تضغط عليه وتطالبه بما وعد به من « ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » قرر ان يسير في الخط الموافق لاتجاه المعارضة رغم ادراكه صعوبة الموقف(٩٠) ، فوافق على اقتراح اقرب المستشارين والاصدقاء بضرورة وضع الحلفاء امام الامر الواقع باعلان ملكيته على سوريا المستقلة المتحدة بجميع مناطقها بما فيها فلسطين مع رفض الادعاء الصهيوني بالوطن القومي، وكذلك اعلن استقلال العراق مع نوع من الارتباط الاقتصادي بين البلدين .

وجاء رد الفعل البريطاني المباشر عنيفا بحجة ان مستقبل سوريا وفلسطين والعراق تقرره دول الحلفاء التي تعمل باتفاق ، وبذلت حكومة دمشق كل جهدها للمحافظة على الصلات الودية مع جميع الحلفاء وابدى فيصل ثقته الكبرى ببريطانيا التي لا يزال يعتبرها حليفة العرب الرئيسية ، واظهر استعداده لان يضمن المصالح البريطانية في البلاد العربية ويوفق بينها وبين الآمال العربية بشكل لا يضر بمبدأ الاستقلال(٩١) ، وبعث الى لويد جورج برسالة ردا على دعوة وجهت اليه للسفر الى اوروبا جاء فيها(٩٢) : « وردتني برقية من نظارة خارجية ... لأسمع امام المؤتمر (الاعلا) في المشكلة السورية تعلمون فخامتكم ان قصد السوريون هو (وحدت) بلادهم واستقلالهم وهم لا يرضون قط بفصل فلسطين عنها او اتخاذها (وطن قومي) لليهود وطرد العرب (السوريون) عنها انني ارغب بكل قلبي اجابة الدعوى والتوجه بسرعة ولكن حيث اني لا اعلم ما هو الاساس الذي سيتخذ لحل (المسئلة) السورية خاصة والعرب عامة ، فلذا وخوفا من انه بعد استماعي ايضا يصدر قرار يخالف رغباتهم فعندها اكون في موقف جدا حرج امام الامة العربية وامام المجلس (الاعلا) فلذا اطلب ان تخبروني مبدئيا عن القرار الذي سيتخذ وتطمنوني اولا عن استقلال البلاد السياسي ووحدتها فاذا كان يعترف بذلك فانني لا ارى بأسا من التوجه وان كان غير ذلك فأظن ان فخامتكم تعذروني بالنسبة لحراجة الموقف

الذي اكون امامه واؤكد لكم بان اذا قبل هذا المبدأ من طرف المؤتمر والحلفاء فانني اتمكن من التوجه لأجل المذاكرات في التفصيلات » .

ولكن الدولة الجديدة لم تحصل على الاعتراف باستقلالها من الحلفاء الا بشرط قبول الانتداب ، وكان لا يمكنها ان تقبل بالانتداب دون ان تتخلى عن الاستقلال وعن ثلثي سكانها

وقد رحب عرب فلسطين بقرار اعلان الاستقلال ، واكد فيصل ان لقبه كملك يشمل فلسطين كذلك لأن « هدف الحسين كان دوما ضم فلسطين الى المنطقة التي اشترط ان يشملها الاستقلال العربي(٩٣) » ، وعارض الصهيونيون ضم فلسطين للحكومة الجديدة ، ولجأ عرب فلسطين الى اسلوب العنف لأثبات حقهم وبدأت اعمال العصابات الوطنية على الحدود ضد المستعمرات اليهودية وحماتها من السلطات البريطانية وكانت هذه الاعمال يوحي بها سياسيون وضباط من حكومة دمشق . ولا يعرف بالضبط موقف فيصل في حماية هذه الاعمال ، وان كانت احدى رسائله الى اللنبي(٩٤) تذكر « الصداقة الشخصية التي تمنعني واياكم ان نتصور سحب السلاح ضد بعض ... لا يوجد في العرب نية عدائية ضد اي (حكومت) كانت وبالاخص الحكومة البريطانية وجيشها » . وفي مطلع نيسان (ابريل) ١٩٢٠ تفجرت اعمال العنف في القدس التي كانت مظهراً للشعور القومي العربي ولم تكن طائفية بل موجهة ضد الصهيونية وعملية الهجرة . واسف فيصل لحوادث القدس وذكر في برقية الى اللنبي ان سياسته كانت تسعى دوما لخلق اتفاق بين العرب والمواطنين اليهود في فلسطين . ولكن الخطة بتأسيس حكومة يهودية سببت قلقا ليس فقط في فلسطين بل في سوريا كلها(٩٥) .

وجاء قرار سان ريمو بتوزيع الانتداب على مستطيل المشرق العربي كارثة قومية بالنسبة لعرب فلسطين لأن الانتداب ضم مبدأ اقامة الوطن القومي ، وتمسكوا بالمطالب المنحصرة في استقلال سوريا من طوروس الى رفح ورفض الاطماع الصهيونية ، وقدم الوفد العربي احتجاجا رسميا لمؤتمر السلم وعصبة الامم بان الانتداب وزع بشكل مخالف لحق الشعوب في تقرير مصيرها وان فصل فلسطين عن سوريا يناقض رغبات السكان ويهمل بشكل عام الوحدة بين جزئي البلد .

ونقل اللنبي قرارات سان ريمو في ٢٧ نيسان (ابريل)١٩٢٠ الى فيصل مع الالحاح عليه بالسفر لأوروبا . اما بشأن فلسطين فذكر اللنبي « انك كنت تعرف دائما ان حكومة جلالته ملتزمة بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين لأن حكومة جلالته تعتبر نفسها ملزمة بحماية مصالح السكان المحليين في البلاد بكل ما في الكلمة من معنى ، وهذا الالتزام ستؤكده بنود الانتداب »(٩٦) .

وكان رد فيصل على اللنبي في ١٥ايار (مايو)(٩٧) ١٩٢٠، برفض مبدأ الانتداب المتضمن في القرار لانه لا يجوز وضع اي جزء من المنطقة العربية تحت حكم اجنبي . ولم يكن هذا احتجاجه الشخصي بل رأي المؤتمر السوري ورأي الشعب الذي يشعر بالخطر على امنه واستقلاله في المستقبل ، ولا يعني ذلك عدم استعداده للحصول على المساعدة الضرورية . وتضيف الرسالة « اما فيما يتعلق بمستقبل فلسطين ، فانا لم الاحظ في كتابك توضيحا كافيا يفترض الاعتراف ان هذا البلد جزء مكمل لسوريا » رغم ان فلسطين من الناحية

الجغرافية والحضارية والاقتصادية ومن حيث اللغة والتطلع القومي لا يمكن فصلها عن سوريا . بالاضافة الى ذلك فانه قد جاء في مراسلات الحسين مكماهون رسالة باسم الحكومة البريطانية مؤرخة في ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ نعترف بان تكون فلسطين ضمن الدولة العربية التي قبلت حدودها حكومة جلالته . كما ان وقائع اجتماع داوننغ ستريت تعتبر المراسلات لها نفس قيمة التعهدات مع فرنسا ، وحتى اتفاقية سايكس – بيكو قد ذكرت بوضوح في مادتها الثالثة .. ان تقام في فلسطين (المنطقة السمراء) ادارة دولية وان شكل هذه الادارة يجب ان يقرر فيما بعد بالاتفاق مع ممثلي شريف مكة ولم يرد في هذه الاتفاقية اي شيء يتعلق بالصهيونيين او اليهود . ولما كنت بحاجة الى تهدئة مشاعر القلق التي تعتمل في النفوس فاني آمل ان اتلقى من بريطانيا بعض التصريحات المرضية التي يمكن ان استخدمها لأبقي الثقة في قلوب العرب في بريطانيا حليفتهم الكبرى فتبرهن لهم بان اي اتفاق بين بريطانيا والصهيونيين لا يمكن ان يعتبر ذو قيمة تفوق الاتفاق مع الحسين او مع فرنسا » .

ويوضح فيصل في خاتمة رسالته سوء الفهم حول موقفه تجاه الصهيونية(٩٨) « اما مسألة جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود فاني لم اتعهد ابدا به لا كتابة ولا شفاهة وكل ما تعهدت به واتعهد به اليوم ايضا هو ان حقوق اليهود تبقى محفوظة في بلادنا كما كانت في الماضي ، بمعنى اننا نحافظ عليها محافظتنا على العرب الوطنيين ويكون لهم من الحقوق والوظائف ما يكون للوطنيين فيها .. اني اريد قبل كل شيء ان يصرح لي بصورة قطعية ان المؤتمر لا يريد ان يفصل بين فلسطين وسوريا ويقطع ما بينهما من الروابط » .

وبعد ثلاثة ايام اي في ٨ أيار (مايو) بعث فيصل برسالة اخرى الى اللنبي(٩٩) يلفت نظره الى ثلاثة امور يرجو ان يتخذ بشأنها التدابير اللازمة لازالة سوء الفهم الذي يمكن ان ينتج بين السلطة والاهالي : فقد اشار اولا الى ورود خبر زاد هياج الرأي العام وهو انقاص مدة الحكم الذي حكم به على المسلحين اليهود ، وان المسلمين والمسيحيين قد حكموا باحكام هي اشد بكثير من التي حكم بها على اليهود ، والامر الثاني هو ان السلطة الانكليزية في فلسطين تسمح لليهود بان يتسلحوا ضد المسلمين بينما يمنع هؤلاء من اقتناء السلاح تحت عقاب غرامة كبيرة وسجن طويلة . اما الامر الثالث فهو « يفيد خبر ورد الى هنا مؤخرا تعيين السر هربرت صامويل كحاكم كبير في فلسطين ان هذا الخبر اثر تأثيرا سيئا جدا في الامة العربية لأن هربرت صامويل كما يعلم الجميع هو صهيوني غايته تأسيس حكومة يهودية على انقاض قسم كبير من سوريا اعني به فلسطين فان كان خبر هذا التعيين صحيحا فان السكان العرب لا يمكنهم الا ان يعتبروه عملا مضرا بهم ، فأرجو منكم اذن ان تعلموني صحة الخبر فان كان صحيحا ان ترجو من حكومة بريطانيا ان ترجع عن قرارها هذا الذي يمس عواطف العرب » .

وتقدم فيصل باقتراح الى الحكومة البريطانية(١٠٠) من أجل « تأسيس حكومةعربية في فلسطين وان تقبل الحكومة البريطانية وحدة البلاد السورية والفلسطينية على اساس اللامركزية وان تقبل تقييد الهجرة بصورة تتفق مع منافع البلاد وتحفظ كيانها القومي مع عدم السماح بشراء اراض جديدة على ان تعطي الحكومة البريطانية الاولوية في جميع المشاريع الاقتصاديةوالمالية » ولم يكن لهذا الاقتراح اي اثر على التقرير النهائي لمستقبل فلسطين .

وكانت آخر محاولة صهيونية لاعادة الاتصال بفيصل قبل سقوط حكومة دمشق تلك التي تولاها رئيس المكتب العربي في المنظمة الصهيونية دكتور حاييم كالفارسكي وكان قد اسس في فلسطين الجمعية العربية اليهودية التي تدعو الى التعايش السلمي ، وقد جاء الى دمشق في حزيران (يونيو) ١٩٢٠ واتصل ببعض اوساط فيصل وبعض الشخصيات الفلسطينية في المؤتمر السوري محاولا اقناعها بضرورة التفاهم بين العرب واليهود مع عرض جديد بتحسين الاوضاع الثقافية والاقتصادية . وكان الرد حاسما : ففلسطين هي جزء من المملكة السورية ، ولا يمكن التفاهم الا بالتخلي عن فكرة الوطن القومي والهجرة مع ضمان حقوق اليهود الوطنيين المدنية والدينية(١٠١) . وقد فكر البعض باغتياله « ولكنا وجدناه لا يستحق العناية » كما ذكر عزة دروزه احد اعضاء المؤتمر السوري من الفلسطينيين(١٠٢) .

لم يكن طرق باب التفاهم بين العرب والصهيونيين في الفترة بين ١٩١٧ ـ ١٩٢٠ هي المحاولة الاولى والاخيرة التي لجأت اليها الصهيونية كأسلوب للتعامل مع العرب ، ليس بديلا على كل حال عن سياسة القوة . وحين استجاب فيصل للحوار كان يقع تحت تأثير وضغط الحكومة البريطانية ، ويقوم بمحاولة يائسة لتخليص سوريا من الادعاءات الفرنسية ولم تكن لديه فكرة واضحة عن المقترحات الصهيونية او انه لم يخبر بها كاملة ، ولم يكن فيصل يعني مطلقا موافقته فصل فلسطين عن سوريا لتصبح وطنا قوميا لليهود ، ولذلك لما توضح له ان خطة بريطانيا هي الوصاية على فلسطين فقط وليس على سوريا الموحدة ، تمهيدا لتنفيذ تصريح بلفور تغيرت سياسته تجاه الصهيونية تغيرا جذريا وخاصة بعد قرارات المؤتمر السوري العام ، وازدياد المعارضة للصهيونية وخيبة الامل بمقررات مؤتمر السلم .

ولو قبلنا بصحة كل الوثائق والمراسلات التي جرت بين فيصل وزعماء الصهيونية فانه ليس من العدل القول ان هذه الوثائق والمراسلات كانت بالنيابة عن الحركة العربية او عن زعمائها لانه لم يكن هناك اي زعيم له صلاحية منح هذه الوثائق ، فقد بدأت بفيصل وانتهت به ، ونظرا لانها لم تعرض على الحسين ولا على غيره من زعماء الحركة العربية فليس لها ادنى قيمة كتعبير نهائي عن السياسة العربية .

الحواشي

(1) Bentwich, *Palestine of the Jews*, London 1919, *pp*. 201-207.

(2) Arab Bureau papers, F.O. 882-14 *p*̂a, 17-14.

(3) Jabotinsky, V., *Turkey and the war*, London 1916, *p*. 215.

(4) Arab Bureau Papers, 882-14 *pa*, *1712.*

(5) Perlmann, Chapters of Arab-Jewish Diplomacy, 1918-1922, Jewish soial *studies* Vol. XI. No. 2 April 1944. *p*. 129.

(6) Arab Bureau papers, F.O. 882-14 Mis 16-15.

(7)Leslie, Sh., Mark. *Sykes, his life and letters*, London, 1923, *p*. 288.

(8) *Palestine*, 17. 3. 1917. *p*. 57

(٩) برقية سايكس من القاهرة ١٩١٧/٤/٣

(10) F.O. 371-3053-88954-84173.

(١١) برقية الخارجية الى وينجيت (المندوب

السامي في مصر) صباح ١٩١٧/١١/٢ F. O. 371- 3054.

(12) F.O. 371- 3054- 225623.

(١٣) برقية سايكس الى كلايتون في ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر/ ١٩١٧ F.O. 371- 3054- 234304.

(14) F. O. 311- 3062- 228698.
(15) F.O. 371- 3054- 235780.
(16) F.O. 371- 3054- 235780- 86526.

(١٧) كان وليم بيل ممثل وزارة الخارجية الامريكية في حملة اللنبي وكان يرسل تقاريره عن الاوضاع المحلية وقسم كبير منها متعلق بفلسطين والمسالة الصهيونية Yale Papers, No. 23, April 22, 1918.

(١٨) برقية الى بيكو F. O. 371 3054- 236- 062- 86526.
(١٩) ١٥ تشرين الثاني /نوفمبر١٩١٧ F. O. 371- 3398- 27647.
(٢٠) F. O. 371- 3054- 241270.
(٢١) رسالة وينجيت ١٩١٧/١٢/٣١ F. O. 371- 3054- 245810.
(٢٢) جورج انطونيوس يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية . مترجم بيروت ، ١٩٦٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٨ نشرت الحكومة البريطانية وقائع ما دار بين الحسين وهوغارث عام ١٩٣٩ . مع تقرير لجنة دراسة مراسلات حسين مكماهون .

(٢٣) كانت اللجنة قد جمعت تبرعات بمناسبة الاستيلاء على القدس وارسلتها الى الحسين عن طريق سايكس مع امتنانهم له ولابنائه لاستخدام التبرع (للشعوب الناطقة بالعربية في اسيا) F. O. 371- 3404.

(٢٤) رسالة كلايتون الى سايكس ٤ شباط فبراير ١٩١٨ F. O. 371- 3388- 14557.

(25) *Arab Bulletin*, 30. 4. 1918.

(26) Arab Bureau Papers F.O. 882- 14 *p*a. 18-3.

(٢٧) رسالة سليمان ناصيف (احد زعماء السوريين في القاهرة) الى سايكس ١٩١٨/١/١٧ ، F. O. 371- 3388- 14557.

(28) *Arab Bulletin* 30. 4. 1918.

(٢٩) من رسالة وايزمان الى سايكس في ١٩١٩/٤/١٦ F. O. 371- 3398- 92392.

(٣٠) ١٩١٨/٤/٢٢ F. O. 371- 3398.
(٣١) تقرير ستورز الى الخارجية ٧ ايار ١٩١٨

F. O. 371- 3395- 98470- 11053.

(٣٢) الكوكب (القاهرة) ١٩١٨/٦/٤ وتشرف عليها السلطات البريطانية .

(٣٣) ٣٠ مايو/ ايار ١٩١٨ F. O. 371- 3395- 125475.

(٣٤) رسالة كلايتون الى بلفور ١٦ حزيران ١٩١٨ F. O. 371- 3381- 123868- 1467.

(35) Arab Bureau Papers, F.O. 882-14 *p*a. 18-14.

(٣٦) ٢٩ حزيران ١٩١٨ F. O. 371- 3395- 137853.

(٣٧) رسالة وايزمان الى بلفور ٣٠ ايار/مايو ١٩١٨ F. O. 371- 3395- 125475- 11053:

(٣٨) ١ تموز ١٩١٨ F. O. 371- 3395- 105824- 27647.

(٣٩) القبلة العدد ١٨٣ (١٣ شعبان ١٣٣٦ ، ٢٤ ايار/مايو١٩١٨) والشائع ان هذا المقال قد كتب اثر زيارة هوغارث كما ذكر .

Perlmann, *Chapters of Arab-Jewish Diplomacy*. 1918-1922, *p*. 130.

(40) F.O. 371- 3388- 14557.
(41) F.O. 371- 3398- 94197.

(42) Arab Bureau Papers, F. O. 882-14 *p*a. 18-9.

(43) F. O. 371- 3395- 125475- 11053.

(44) Arab Bureau Papers. F. O. 882-14 *P*a. 18-10.

(٤٥) رسالة حزيران/يونيو ١٩١٨ ـ F. O. 317- 3395 - 130342

رسالة ١ تموز/يونيو ١٩١٨ - F. O. 317 - 3395 - 105824 - 17646.

(٤٦) رسالة سايكس الى وينجنيت ٢٥ تموز/يوليو ١٩١٨

(٤٧) رسالة سايكس الى وينجيت ٢٥ تموز/يوليو F. O. 371 - 3381 - 123868

(٤٨) ١٧ تموز/يوليو ١٩١٨ - F. O. 371 - 3398 - 138908.

(٤٩) تقرير وارلاند في تموز/يوليو ١٩١٨ Arab Bureauu Papers F. O. 882- 14.

(٥٠) مذكرة هوغارث الى وزارة الخارجية في ١٩١٨/٨/٢ F. O. 371- 3381- 146256.

(٥١) رفع التقرير الى اللنبي ١٩١٨/٩/٢٩

F. O. 882-14 Arab Bureau Papers.

(٥٢) من هذه الصحف الهدى والشعب ومراة الغرب والسايح

(٥٣) المستقبل (بـــاريس) عدد ١٢٢ . ١٩١٨/٨/٣٠

(٥٤) رسالته من القاهرة في ١٧ تشرين ثاني نوفمبر ١٩١٨ F. O. 371- 3398- 190446

(٥٥) تعليق كلايتون على برقية وايزمان في ٥ كانون اول/ديسمبر ١٩١٨ - F. O. 361- 3885 201968

(٥٦) *Yale's Paper*, No. 24. April 22, 1918.

(٥٧) في مقابلة خاصة مع عوني عبد الهادي (وكان سكرتيرا للوفد العربي) يقول حضر فيصل لاوروبا على سفينة بريطانية كما ان نفقات الوفد العربي كانت تدفعها بريطانية بالاضافة الى ان ادارة حكومة دمشق كانت تتلقى معونة شهرية قدرها ١٥٠,٠٠٠ جنيه .

(٥٨) من مقابلة شخصية مع عوني عبد الهادي (لم يحضر لقاء فيصل وايزمان احد من اعضاء الوفد العربي) .

(59) Esco Foundation for Palestine, *A study of Jewish- Arab and British Policies*, Vol. I Yale University Press 1947-1949, *pp*. 132, 139.

(60) Weizmann, *Trid and Error, London 1949, p. 306.*

(61) Woodward, E. L. Butler, R., (edit.) *Documents on British Foreign Policy*, 1st series, Vol. IV.*pp*. 421-422. من تقرير لضابط الارتباط البريطاني في دمشق (كورونواليس) حول حديث ادلى به فيصل في ١٩١٩/٩/٢٥.

(62) Jeffries, J., *Palestine the Reality*, London 1939, *p*. 249.

(٦٣) **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين** ، المجموعة الاولى ١٩١٥ ــ ١٩٤٦ ، ادارة فلسطين ، جامعة الدول العربية ص ٢٧٦ ، وهي ترجمة عربية للنص الوارد في كتاب : D. H. Miller, *My Diary of the conference of Paris*, Vol. I. New York 1924, *p* 67.

(٦٤) جورج انطونيوس ، **يقظة العرب** ، ص ٥٩٢ والملاحظ ان نص الاتفاق الوارد في مجموعة وثائق Miller يخلو من التحفظ الذي سطره فيصل بالعربية.

(65)*Palestine: the Reality, p*. 249.

(٦٦) الملاحظ ان وايزمان لم يذكر الا المادتين الثالثة والرابعة من الاتفاقية *Trial and Eror, pp.* 308-309.

(67) Palestine: The Reality, 249.

(٦٨) من مقابلة خاصة مع عوني عبد الهادي .

(69) Meinertzhagen, 13., *Middle East Diary* 1917-1956, London 1959 *pp*. 13-43,

وكان الكولونيل مينرتزهاجن مساعدا لاللنبي وهو من الانجليز الصهيونيين ، ولعب دورا كبيرا في السياسة البريطانية وكان يفاخر بان لورنس فعل ذلك بتاثير منه .

(70) Tibawi, A., Syria from the Peace conference to the fall of Damascus, *Islamic Quarterly*, Vol. XI July December 1967, p. 83.

وقد ارسل لورنس برقية باسم فيصل من باريس الى زيد في دمشق محتجا على المعارضة للصهيونية في الصحافة السورية بحجة ان المنظمة الصهيونية تساعد القضية العربية .

(71) Weizmann, p. 308.

(72) Rasheed-Duddin- Khan, The Peace Settlement, Arab Diplomacy and Anglo- French Power Politics, 1919- 1920, *Islamic Culture*, April 1968, July 1968.

(٧٣) من مقابلة شخصية مع عوني عبد الهادي .

(74) Zeine, Z., *Struggle for Indepence*, Beirut 1960 Appendix C. والملاحظ ان انطونيوس لم يشر الى هذه المذكرة واكتفى بالمذكرة الثانية بتاريخ ١٩١٩/١/٢٩ . ويذكر سليمان موسى في كتابه « **المراسلات التاريخية ١٩١٩ : الثورة العربية الكبرى** المجلد الثاني ، عمان ١٩٧٥ (من اوراق الامير زيد) ان مذكرة ١٩١٩/١/١ قد قدمت حقيقة بتاريخ ١٩١٩/٢/٥ واثبت فيصل هذا التاريخ عليها وقال في رسالة بعثها الى ابيه ١٦ فبراير/ شباط ١٩١٩ انه قدم المذكرة قبل دخوله مؤتمر السلم بساعة واحدة ، وقد يكون فيصل قد اعد هذه المذكرة في لندن بتاريخ ١٩١٩/١/١ وارسلها الانجليز الى امانة مؤتمر السلم ، وقد تكون هي المذكرة التي جاء ذكرها في تحفظ فيصل على اتفاقه مع وايزمان .

(٧٥) سليمان موسى ، **المراسلات التاريخية ١٩١٩**) مصدر سابق

(٧٦) عوني عبد الهادي وانطونيوس .

(٧٧) وهو النص الذي ارسله فيصل الى الحسين تحت رقم (١٣) (اوراق الامير زيد) .

(78) Hurwitz, *Diplomacy in the Near and Middle East*. Vol. II. New York 1956 *pp* 45-50.

(79) Weizmann, *p*. 306.
Jeffries *pp*. 256-257.

(80) *Ibid p*. 256.
(81) *Ibid, p*. 242, 257.

Documents on British Foreign Policy, *Ibid*, Vol. IV, *p*. 290.

(82) Howard. H., *The king-crane commission*, (confidential Annex) Beirut 1963.

(83) F. O. 371- 4182.

(84) F.O. 371- 4182.

(85) *Documents on British Foreign Policy pp*. 421-422.

(٨٦) جريدة **العاصمة** (دمشق) ، عدد ١٢٦٦ تشرين اول/اكتوبر ١٩١٩ .

(87) Esco Foundation for Palestine, *Ibid, p*. 204 Jeffries, *Ibid., op . Cit .p*. 308.

(٨٨) مقابلة خاصة مع عوني عبد الهادي .

(٨٩) من مجموعة اوراق عوني عبد الهادي .

(90) Jeffries,*op . cit* 319.

(91) Ibid, *pp*. 3232-24.

(٩٢) من اوراق عوني عبد الهادي .

(93) Jeffries, *op . cit. p* . 325.

(٩٤) مجموعة عوني عبد الهادي .

(95) Tibawi, *op. cit. p* 112.

(96) Butler and Burry, (eds.) *Documents on British Foreign Policy*, Vol. XIII, London 1963. No. 442.

(٩٧) الرسالة بالانجليزية من اوراق وزارة الخارجية في الحكومة العربية السورية ١٩٢٠ (مجموعة عوني عبد الهادي) .

(٩٨) الجزء الاخير من الرسالة هي مسودة بالعربية بخط فيصل (مجموعة اوراق عوني عبد الهادي) وهي لا تختلف في مضمونها عن النص الانجليزي .

(٩٩) من مجموعة اوراق عوني عبد الهادي (رسالة بالعربية بخط فيصل) .

(١٠٠) مسودة رسالة بخط فيصل من مجموعة اوراق عوني عبد الهادي .

(١٠١) **الدفاع** (دمشق) عدد ١٣٦ في ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٢٠ ، **الكنانة** (دمشق) عدد ٢٩١ في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٢١ .

(١٠٢) مذكرات غير منشورة لعزة دروزه .

محمد عدنان البخيت

من تاريخ حيفا العثمانية
دراسة في أحوال عمران الساحل الشامي

في سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م عندما كان الداعية الاسماعيلي ناصر خسرو(١) (ت ح ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م) في طريقه من مرو الى القاهرة ، مركز الدعوة الفاطمية أنذاك ، مر بحيفا(٢) التي يصفها لنا بقوله : « ثم غادرتها (أي عكة) الى قرية تسمى حيفا في طريق به كثير من الرمل الذي يستخدمه صباغ العجم والمسمى بالرمل المكي . وحيفا مشيدة على البحر وبها نخل واشجار كثيرة . وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودي »(٣) . وبعد

(١) ابو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي من مواليد سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م ، عمل ، بعد دراسته مختلف فروع المعرفة المعروفة في عصره أنذاك ، موظفا في مرو وتقلب في عدد من المناصب ، الا انه تركها وغادر مرو لاداء فريضة الحج وربما جاء ذلك تلبية لدعوة من الخليفة الفاطمي في القاهرة. وبعد اقامة له بالقاهرة ادى فريضة الحج وعاد الى بلخ وهو يحمل « لقب الحجة في الدعوة» طارده السلاجقة فالتجأ الى مناطق يمكان حيث انصرف للتاليف والدعوة. توفي سنة ٤٥٢هـ/ سنة ١٠٦٠ م ، حول مؤلفاته ورحلته انظر

E. Berthels, «Nasir-i: Khusraw» *E.I.* Vol.III, *pp.* 869-70.

كذلك انظر المقدمة التي صدر بها يحيى الخشاب الترجمة العربية لسفر نامة ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧٠ ص ٥ ــ ٣٢ .

(٢) حول حيفا انظر «Hayfa» *E.I²*, Vol. III, *pp.* 324-6.

انظر كذلك النصوص المجموعة عنها *Palestine Under The Moslems*, by Guy Le Strange, Khayats, Beirut, 1965, *p.*446.

وفي كتاب بلدانية فلسطين العربية للأب ا.س. مرمرجي الدومنيكي ، مطبعة جان داك ، ١٩٤٨ ، ص ٦٥ . اما عن حيفا في القرن التاسع عشر انظر كتاب

Laurence Oliphant, *Haifa or Life in Modern Palestine*, London, 1887.

اشكر الاستاذ عبد العزيز الدوري والدكتور عوض خليفات اللذان زوداني بنسخة مصورة عن هذا الكتاب ، كذلك انظر مقالة :

Archedeacon Dawling, «The Town of Haifa», *Palestine Expolaration Fund*, (1914) *pp.* 184-91.

اما عن حيفا في مطلع القرن العشرين راجع محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الحلبي ، ولاية بيروت ــ القسم الجنوبي ، مطبعة الاقبال ، بيروت ، ١٣٣٥هـ ، ص ٢٢٦ ــ ٢٧٠ .

(٣) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص ٥٣ ، اما الجودى فهي مفردة قرآنية ترد في سورة هود في معرض قصة سفينة نوح عليه السلام حيث يقول سبحانه وتعالى : (وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء

نلك بقرن من الزمان يشير الجغرافي ابو عبد الله محمد بن محمد الادريسي الحسني[٤] (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٠م) ، اليها بقوله : « وحيفا تحت طرف الكرمل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى حسن لارساء الاساطيل وغيرها ، ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية وبينهما ثلاث مراحل خفاف »[٥] . ان هذه الصورة المشرقة لحيفا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، تنعكس وتبدو مكفهرة في المصادر العربية ونلك بسبب الخراب الذي لحق بها بعد استرجاعها من ايدي الفرنجة . فهذا شهاب الدين ياقـوت الحمـوي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م) ، لا ينكر شيئا عن صناعة السفن فيها ولا يشير الى مرساها وجـل ما يسجله لنا عنها على انها : « حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ولم يزل في ايدي المسلمين الى ان تغلب عليه كندفري[٦] الذي ملك القدس في سنة ٤٩٤هـ/ ١٠٩٩م)[٧] وخربه »[٨] . ولم تمكث

وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) آية رقم ٤٤ . وفسرت الجودى هنا بأنها مكان حيث ينكر ياقوت نلك بقوله « الجودى ... هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من اعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح لما نضب الماء . ومثل نلك ينكره ابن منظور الا انه يضيف اليها معنى اخر نقلا عن الجواليقي فيقول : « والجود ياء بالنبطية او الفارسية الكساء » ونكرت الكلمة في بيت من الشعر بمعنى « جبة السمور » حتى هنا نرى ان هذه اللفظة لا تستخدم بمعنى السفينة . والجدير بالذكر ان شمس الدين محمد بن احمد بن ابي بكر البناء البشارى المقدسي (ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥ م) عند تعداده لبعض انواع السفن لا ينكر الجودى ، زيادة على نلك لا يأتي على نكر حيفا عند تناوله اقليم الشام . كما ان حبيب الزيات في مقالته « معجم المراكب والسفن في الاسلام » لا ينكرها ، وعند العودة الى كتاب جورج فضلو حوراني فانه لا ينكر الجودى . راجع موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (ت ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م) **المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم** ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، طبعة الاوفست ، طهران ، ١٩٦٦ م ، ص ١١١ ، انظر **احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ، تحقيق دوغويه ليدن ١٩٠٦ م ، ص ٨١ ، ص ١٥١ ــ ١٩٢ ، **معجم البلدان** ، ٦ م ، تحقيق فردناند وستنفيلد ، طبعة مصورة ، طهران ، ١٩٦٥ ــ م ٢ ، ص ١٤٤ ، **لسان العرب** ، ١٤ م ، دار صادر بيروت ، ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ ، م ٢ ص ١٣٨ ــ ١٣٩ ، حبيب الزيات ، « معجم المراكب والسفن في الاسلام » ، **المشرق** ، م ٤٣ ، (١٩٤٩ م) ص ٣٢١ ــ ٣٦٤ .

George Fadlo Hourani, *Arab Seafarino in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Khayats, Beirut, 1953.*

(٤) حول حياة الأدريسي انظر : G. Oman, «Al-Idrisi» *E.I²*, Vol.III, *pp.* 1032-5.

(٥) الادريسي ، **نزهة المشتاق في اختراق الافاق** ، المجلد الرابع ، روما ، ١٩٧٤ ص ٣٦٥ .

(٦) كندفري المقصود به هو Godfrey de Bouillon (١٠٦٠ ــ ١١٠٠ م) دوق لـورين ، كـان قد استجاب مع اخوته لنداء البابا اوربان الثاني في ارسال حملات صليبية لاستخلاص قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين ، وشارك في حصار القدس والدخول اليها في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ ، حيث وقع عليه الاختيار ليكون اول ملك صليبي للقدس ولكنه رفض لقب ملك واكتفى بلقب Advocatus Sancti Sepulchri

ولقد كانت وفاته يوم الأربعاء في ١٨ تموز سنة ١١٠٠ م وخلفه على ملك القدس اخوه بلدوين الأول ، انظر حول هذه :

S. Runcimen. *A History of the Crusades*, Vol. I, Combridge U. P, *pp.* 112, 145-7, 28-6, 291-318.

(٧) نكر ياقوت خطأ ان تاريخ استرجاع حيفا كان سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م والواقع كان نلك بعد عشر سنوات من التاريخ الذي نكره . حول نلك انظر العماد الاصفهاني ، محمد بن صفي الدين (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) . **الفتح القسي في الفتح القدسي** ، تحقيق وشرح محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٩٤ ، حيث ينكر ان حيفا استسلمت الى بدر الدين دلديم وغرس الدين قليج بعد فتحهم قيساريه .

(٨) ياقوت ، **معجم البلدان** ، م٢ ، ص ٣٨١ .

حيفا طويلا في ايدي المسلمين اذ استرجعها الفرنجة منهم ، والجدير بالذكر ان الملك لويس التاسع حوالي سنة ١٢٥٠ ـ ١٢٥١م حصن فيها القلعة التي تعرضت للخراب ثانية على يد المماليك وذلك في سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م . فيذكر القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) ، في اخبار سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م ، مما يلي : « وفي سادس وعشرين جمادي الأول (٢ أذار ١٢٦٥م) توجه السلطان (الظاهر بيبرس) الى جهة عثليت جريدة وسير الامير شمس الدين اقسنقر السلاح دار الظاهري والأمير عز الدين الحموي والامير شمس الدين سنقر الألفي الظاهري الى حيفا فساروا اليها ودخلوا قلعتها فنجا الفرنج بانفسهم الى المراكب بعد ان قتل منهم واسر ، واحضرت الاسارى والروس ، وخربوا المدينة وقلعتها واحرقوا ابوابها وجعلوها خاوية على عروشها كأن لم تكن بالامس. وكان اخذها وما اعتمد فيها من قتل واسر وخراب واحراق في يوم واحد وعاد الامراء سالمين »[٩] . ويؤكد على هذه الصورة من الخراب احمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) الذي ينقل عنه الكاتب الموسوعي شهاب الدين احمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) ، وصفه لحيفا بهذه الكلمات : « وهي خراب على الساحل»[١٠] والى مثل ذلك اشار البحارة العثماني بيري محي الدين ريس .[١١] (ت ح ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤ . م) ، في مؤلفه : **كتاب بحرية** ، الذي قدمه سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥ م) الى السلطان سليمان القانوني ، حيث ذكر ان قلعتها مدمرة لكن ميناءها يصلح للرسو .[١٢]

كانت حيفا في العهد المملوكي جزءا من عمل اللجون[١٣] الذي كان تابعا لصفد والتي هي

---

(٩) حول هذا الدمار الذي لحق بحيفا في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، انظر محي الدين بن عبد الظاهر **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ م ، ص ٢٣٤ وكذلك راجع بيبرس الدوادارس المنصوري (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة** ، المتحف البريطاني ، رقم Add. 23325 ورقة ٧٠ ب ، راجع ايضا تقي الدين احمد بن علي المقريزي (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) ، **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، م١/ق٢ تحقيق محمد مصطفى زياده ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨ ، والملاحظ ان الشيخ قطب الدين يونس بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) لا يذكر خبر مهاجمة حيفا في اخبار سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م ، انظر **ذيل مرآة الزمان** ، ٢م ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م ، م٢ ، ص ٣١٨ . اما ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) فيشير الى ان الظاهر بيبرس فتح قيساريه « وتسلم قلعتها في يوم الخميس الآخرَ خامس عشرة فهدمها وانتقل الى غيرها » **البداية والنهاية**» ١٤م ، بيروت ، ١٩٦٦ ، م١٣ ، ص ٢٤٤ .

(١٠) القلقشندي ، **صبح الاعشى في صناعة الانشا** ١٤م ، المطبعة الاميرية ، دار الكتب المصرية ١٩١٣ ـ ١٩١٩ ، م٤ ، ص ١٥٥.

(١١) حول حياة هذا البحار انظر :

Franz Babinger, «Piri Muhyi al-Din Reis» *E.I*, Vol. III, *pp*. 1070-71.

(١٢) انظر هذا الوصف في النص الذي ترجمه ونشره U. Heyd, «A Turkish Description of the Coast of Palestine in the Early Sixteenth Century», *Israel Exploration Journal*, Vol. VI, (1956), *pp*. 201-216.

(١٣) حول اللجون انظر صدر الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني الدمشقي (ت ٧٨٠هـ/ ١٣٧٦م) حيث يذكره على انه ولاية من العمل السابع في صفد وان اهله من عشير يمن

Bernard Lewis, «An Arabic Account of the Prvince of Safad», *BSOAS*, Vol. XV-3, (1953), *p*. 483.

وانظر ايضا ياقوت ، **مصدر سبق ذكره** ، م ٤ ، ص ٢٥١ .

بدورها كانت تشكل القاعدة الخامسة من قواعد المملكة الشامية[١٤] ولم تتبدل هذه التبعية في العهد العثماني . فمن المعروف ان العثمانيين بعد قضائهم سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، على حركة العصيان التي قادها ضدهم الامير المملوكي جان بردى بن عبد الله الغزالي المولى على دمشق « ومعاملاتها »[١٥] ، من قبل السلطان سليم الأول ، قسموا بلاد الشام الى ثلاث ولايات : ولاية حلب ، ولاية طرابلس الشام وولاية دمشق الشام . وقسمت الولاية الاخيرة الى عدد من السناجق (الألوية) هي : دمشق ، تدمر ، عجلون ، الكرك (كانت في معظم الاحيان تدمج مع عجلون) غزة ، القدس الشريف ، نابلس ، صفد واللجون[١٦] . وعند العودة الى دفاتر الطابو (الأراضي) العائدة الى سنجق اللجون نجدها تذكر حيفا كقرية في ناحية ساحل عتليت الغربي التابع للسنجق المذكور . ولعله من المفيد هنا ان نقارن المعلومات الواردة عن حيفا في دفترين من دفاتر الطابو : الأول منهما[١٧] يعود تاريخه الى سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م ، أما الثاني[١٨] فيرجع بتاريخه الى سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م .

---

(١٤) حول صفد المملوكية انظر العثماني المذكور اعلاه ، والقلقشندي مصدر سبق ذكره ، م٤ ، ص ١٤٩ .

(١٥) حول هذه الحركة انظر شمس الدين بن طولون (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ٢م ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ – ١٩٦٤ ، م٢ ، ص ١٢٣ – ١٢٤ ، كذلك لنفس المؤلف ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٢٣١ – ٢٣٧ .

(١٦) حول هذه التقسيمات انظر : U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine 1552-1615,* (O.U.P.) 1960, *p*. 53.

(١٧) هذا الدفتر محفوظ بمديرية المحفوظات التابع لرئاسة الوزراء باسطنبول ، تحت رقم ١٩٢ . والجدير بالذكر انه يوجد بنفس المديرية دفتر طابو آخر تحت رقم ١٠٣٨ ، غير مؤرخ يزودنا بالمعلومات التالية عن حيفا « قرية حيفا تابع مرج بني عامر خانة ١٦ ، حاصل قسم من الربيع ،

حنطة/ غراره	شعير/ غراره	خراج زيتون	خراج تين	رسم معزة	رسم نحل
١٥	٨				
١٩٥٠	٥٦٠	١١٦٥	٥٠	١٣٥	٢٥٠

يكون ٤١١٠ ، ص ٢٢١ » ويبدو ان هذا الدفتر اقدم بعض الشيء من دفتر رقم ١٩٢ .

(١٨) مديرية الأراضي والطابو بأنقرة ، رقم ١٨١ . لقد استخدم كل من W. D. Hutteroth and K. Abdul Fattah هذا الدفتر في دراستهما المعنونة باسم *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Date 16th Century,* Erlangen, 1977.

عن دفاتر الطابو انظر ايضا O. L. Barkan, «Daftar-i Khakani: E. *II*

اما عن الدفاتر المتعلقة بالبلاد العربية انظر : «The Ottoman Archives and Source for the History of the Arab Lands» *JRAS,* London, op. 139-55 Ibidum,» Studies in the Ottoman Archives I « *BSOAS* Vol. XVI-3, London, 1954, *pp*. 469-501.

هذا بالاضافة الى الدليل الواسع الذي اعده

Midhat Sertoglu, *Muthera Bakimindan Bosvekolet Arsivi,* Ankara, 1955.

اما بشأن مديرية محفوظات اسطنبول التابعة لرئاسة الوزراء ، انظر

B. Lewis, «Bosvekolet Arsivi» *E.I2.* Vol. I, *pp*. 1089-91.

الضرائب مقدرة بالاقجة وهي ربع المحصول الشتوي

رقم الدفتر وتاريخه	عدد السكان خانة(١٩)	حنطة غراره	شعير غراره	خراج اشجار زيتون + تين	رسم معزة	رسم نحل	بادهوا	معادية	محصول اسكلة (ميناء)
١٩٢ (اسطنبول) ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م	٢٠ مسلمون	٢٥ / ٣٠٠٠	١٠ / ٧٢٠	٧٥	٦٣ +نحل	٢٩٣	٢٠٠	٤٠٠	١٠٠٠
١٨١(انقرة) ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦ م	٣٢ مسلمون	٤٠ / ٥٦٠٠	٢٠ / ١٦٠٠	+ كروم وغيرها ١٠٠٠	٣٥٠		باد هوا + رسم عروس ٣٥٠		+محصول اسكلة ساحل عتليت وطيونة وطرطورة ٥٠٠ (خاص شاهي)

نلاحظ من هذين الاحصائين انه خلال العهد العثماني من القرن السادس عشر الميلادي ان عدد السكان بحيفا كان قد تضاعف . وهذه الزيادة العالية جاءت متفقة مع ظاهرة زيادة السكان التي شهدتها ولاية دمشق حتى مطلع سبعينات القرن السادس عشر ، الا ان سكان حيفا لم يتناقصوا على غرار ما لوحظ في ولاية الشام[٢٠] . ولقد واكب هذه الزيادة ارتفاع في كميات الضرائب المحصلة اذ ارتفعت من ٤٧٥١ اقجة[٢١] بموجب الدفتر الأول الى عشرة آلاف اقجة حسبما جاء في احصاءات الدفتر الثاني . بجانب ذلك نلحظ ارتفاع الاسعار ، فمثلا كانت غرارة[٢٢] الحنطة تقدر بمائة وعشرين اقجة سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م فأصبحت تقوم بمائة واربعين اقجة بعيد نهاية القرن . وعلينا ان نتذكر هنا ، ان الدولة العثمانية في اواخر القرن السادس عشر الميلادي قد بدأت تعاني من ازمة تضخم مالي كبيرة ، اذ ان عملتها الفضية لم تعد قادرة على مواجهة ضغط العملات الاوروبية خاصة الفلوري الايطالي الذهبي الذي بدأ يغزو الاسواق العثمانية المفتوحة نتيجة لتدفق كميات ضخمة من الذهب والفضة من امريكا على اوروبا . وكان اجتهاد الدولة العثمانية الذي الحق الضرر الكبير بعملتها يتلخص بانقاص كمية

---

(١٩) الخانة وحده تعداد السكان في الدولة العثمانية ، والمقصود بذلك الاسرة ويقدر الدارسون لهذا الموضوع عدد افرادها ما بين ٥ ــ ٧ اشخاص . اما الذين لم يكن لهم اسر فكانوا يدونون تحت عنوان مجردين ، أي غير متزوجين .

(٢٠) حول سكان لواء دمشق الشام في القرن السادس عشر ، انظر :
M.A. Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century*, Ph. D. London, 1972, *pp.* 44-94.

(٢١) الاقجة . الاسم الذي كان يطلق على وحدة النقد العثماني المضروبة من الفضة وتشير اليها المصادر الاوروبية عادة باسم أسبر المحرف عن اليونانية . حول تاريخ هذه الوحدة النقدية ، انظر :
H. Bowen, «Akce» *E.I.*², Vol. I, *pp.* 317-8.

(٢٢) كانت غرارة دمشق تزيد بقليل عن ٢٥٠ ليتر ، حول ذلك انظر :
B. Lewis, «Jaffa in the 16th Century According to the Ottoman Tahrir Registers» in *Arabic and Islamic Studies in Honour of Hamilton A. R. Gibb*, Leiden, *p.* 437, Footnotes.

الفضة في تلك العملة فارتفعت نتيجة لذلك اسعار السلع وبهذا ضعفت القوة الشرائية للاقجة(٢٣) .

كما نرى من قائمة الضرائب المدونة اعلاه ، ان الدولة العثمانية كانت تأخذ ربع الحاصل الشتوي عينا او قيمته نقدا(٢٤) . اما فيما يتعلق باشجار الزيتون فلقد نص قانون لواء اللجون على ما يلي : اذا كان الزيتون روماني فنصف حاصله يعطى للسباهية ، اما اذا كان الزيتون اسلاميا فلقد كانت الدولة تجبي اقجة عثمانية واحدة عن كل شجرتين . وكانت الدولة تأخذ عن كل مائة شجرة من الكرمة خمس اقجات عثمانية . والجدير بالملاحظة ان الضريبة على الاشجار يشار اليها في هذه الدفاتر بالمصطلح الاسلامي المعروف « خراج »(٢٥) . اما الضريبة المحصلة عن الماعز فيشار اليها باسم « رسم » والقاعدة التي اتبعت في جبايتها ان تؤخذ اقجة واحدة عن كل رأسين من الماعز(٢٦) . والطريف ان العثمانيين كانوا يجبون رسوما على المناحل بمعدل اقجة واحدة عن كل منحلة(٢٧) . ويلمس الدارس لدفاتر الطابو المتعلقة ببلاد الشام ان تربية النحل كانت منتشرة في هذه البلاد .

لقد شهدت المحاكم في بلاد الشام في العهد العثماني اجراءات جديدة تتمثل في جمع رسم محدد عند النظر في الدعاوى والقضايا ، او عند عقد نكاح وكذلك عند تسجيل حجة . فكانت الرسوم التي تجمع عند عقد نكاح بكر او مطلقة او ارملة يطلق عليها اسم « رسم عروس »(٢٨) كان جزء من هذه الرسوم يخصص للقاضي ولمن يعمل معه في المحكمة والقسم الاكبر كان يعطى لاصحاب « الخاص » او « الزعامت » او « التميار » حسبما يحدد ذلك دفتر الطابو لكل بلدة او موقع . اما الضرائب الطارئة والمتفرقة وهي تشبه ما كان يشار اليه في العهد العباسي باسم

---

(٢٣) حول اسباب هذه المشكلة من التضخم وارتفاع الاسعار ، انظر :
B. Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, (O.U.P.) 1965, *pp.* 29-32.

وانظر ايضا :
Halil Sqhilliegla, «Sivis Year Crises» in *Studies in the Economic History of the Middle East*, Edited by M.A. Cook, O.U., P, 1970, *pp.* 240-1.

(٢٤) انظر : O. L. Borkan, *Kanunlar*, Istanbul, 1945, *p.* 220.

(٢٥) دفتري طابو ، ١٨١ (انقرة) ، ص ٢ .

(٢٦) المصدر والمكان ذاتهما .

(٢٧) ينص قانون نامة لواء الشام على ما يلي :
«Ve iki kovona Bir Para resim olino» Borkan, *Kanunlar, p.* 220.

(٢٨) حول هذه الضريبة انظر : B. Lewis, «Arus Resmi» *E.I.*, Vol. I. *p.* 678.

وكانت القاعدة في دمشق الشام انه عند عقد نكاح بنت بكر أن تأخذ الدولة مائة وخمسة وعشرين درهما ، عشرون منها تعطى للقاضي العثماني الحنفي ، ودرهم واحد للمأذون الذي اجرى العقد ، واربعة للشهود ، اما المائة الباقية فكانت اما ان تحول للخاص السلطاني او لخاص امير اللواء او لاحد اصحاب التيمارات حسبما يحدد ذلك دفتر الطابو . اما في حالة الارملة او المطلقة فكان الرسم دون ذلك ويبلغ خمسة وسبعين درهما ، خمسة وعشرون منها توزع بالطريقة المشروحة اعلاه والباقي تحول اما للخاص او لصاحب الزعامة او للمستفيد من التيمار ، انظر :

Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus*, *pp.* 139-40.

« الطيارات » ، فان المصادر العثمانيـة عادة ما تعبـر عنهـا بالمصطلـح الفـارسي « بادهوا »(٢٩) — وعند وقوع جريمة قتل او سرقة او انتحار فان الدولة كانت تأخذ من المسؤولين عن تلك الجريمة رسوما تعرف باسم « رسم جرم وجنايت » . اما اذا كان المتسببون بذلك مجهولين فان اهالي الحارة كانوا يجبرون على دفع تلك الرسوم(٣٠) .

اذا ما اجلنا النظر في قائمة الضرائب المدونة اعلاه نجدها تشير الى ضريبة تسميها محصول اسلكة(٣١) (ميناء) . واذا ما عدنا الى قانون نامة لواء اللجون فاننا لا نجد نصا يوضح القاعدة التي كان يتم بموجبها جمع هذه الضريبة . الا أن قانون نامة لواء الشام لحسن الحظ ، يحدد بالتفصيل مقدار الرسوم المحصلة سواء على المواد المصدرة او المستوردة ويشير الى ذلك بما يلي : « يطلق على ما يجبى من جمارك ورسوم وغيرها من الواردات عند ابواب الموانيء الكائنة في ولاية الشام كبيروت وصيدا وصور وعكة ويافا ، يطلق عليها اسم « موجب باب المينا » . ويزودنا قانون نامه المذكور اعلاه بقائمة طويلة ومفصلة باسماء السلع والمواد المستوردة او المصدرة ومقدار الرسم المتوجب عليها، مبيناالقاعدةالمتبعة في تقدير قيمة البضاعة والرسم المستحق(٣٢) . وهناك ضريبة تذكر في الدفتر الأول فقط بينما لا يذكرها الدفتر الثاني، حيث ترد باسم معادية وليس لدينا معلومات عنها ، ولربما كانت المعادية تشبه الضريبة التي كانت تجمع في لواء نابلس من المسلمين باسم « رسم رجالية » بمعدل ٤٠ أقجة على الخانة المسلمة الواحدة(٣٣) . واخيرا فان هذين الدفترين لا يشيران الى ضريبة تجمع عن اشجار النخيل في حيفا مما يدل على عدم وجودها ، هذا مع العلم ان ناصر خسرو كما رأينا في رحلته يشير اليها في حيفا بقوله : « وبها نخل واشجار كثيرة » .

ان كلا الدفترين يشيران الى ان قرية حيفا كانت من ضمن اقطاع اسرة آل طراباي(٣٤)

---

(٢٩) بادهوا (ريح الهواء) مصطلح فارسي مركب من كلمتين باد — ريح وهواء العربية وهي الضرائب المتفرقة حول هذه الضريبة راجع :

B. Lewis, «Bad-i Hawa» *E. I²*. Vol. I, I, 850.

(٣٠) حول هذه الضريبة انظر : Bakhit, *The Ottoman Province*, I, 140. حول الغرامات والعقوبات التي تلحق المرتكب « للجرم والجنايت » في قانون العقوبات العثماني ، انظر : U. Heyd, *Studies in Old Ottoman Criminal Law*, «Edited by V.L. Menage, (O.U.P.) 1973, *p.* 276.

(٣١) كلمة اسكلة مفردة من اصل يوناني تفيد معنى التحميل والتنزيل ، دخلت الى اللغة الايطالية وعن طريق هذه اللغة وبسبب النشاط التجاري للمدن الايطالية تسربت هذه الكلمة للغة العربية على شكل « سقالة » والى اللغة التركية باسم اسكلة — اي الميناء . حول تاريخ هذا المصطلح البحري انظر .

H. Kahane and A Tietze, *The Lingua Franca in the Levant, Turkih Noutical Terms Of Italian and Greek Origin,* Urban, 1953, *pp.* 568-72.

R. Dozy, *Supplement aux Dictionares,* 2 Vols, Brill :Leiden. 1881 Vol. I, *pp.* 23.

(32) J. Redhcuse, Turkse-Ingilizce Sozlugn, Istanbul, 1966, I, 550. Borkan, *Kanunlar, pp.* 224-6.

(٣٣) طابو دفتري ١٠٣٨ (اسطنبول) ص ٢٣٥ .

(٣٤) طابو دفتري ١٩٢ ، ص ٤ .

التي اصبحت تعرف فيما بعد باسم الاسرة الحارثية(٣٥) . فالدفتر الأول ينكرها من ضمن الاقطاعات التي اعطتها الدولة العثمانية « لأمير الدربين » طراباي بن قراجه . كما ان الدفتر الثاني يبين ان ريعها كان موزعا ما بين احمد وعلي : ولدي طراباي ووكيلهم (كتخداهم) داؤد . هذا بالاضافة الى خمس مزارع جوار حيفا، بلغ مجموع ما يتوجب منها سبعة آلاف اقجة موزعة بين ثلاثتهم(٣٦) . الا انه من الملاحظ ان هذه الاسرة لم تسع الى تطوير ميناء حيفا واستغلاله تجاريا مع اوروبا التي نمت تجارتها مع سواحل بلاد الشام في مطلع القرن السابع عشر ، على غرار ما اقدم عليه معاصرهم فخر الدين المعني في تطوير وتوفير الأمن في موانىء بيروت وصيدا وعكه . بل كانوا في سياستهم تلك يلتقون الى حد بعيد مع سياسة الزعيم السني يوسف باشا سيفا (ت ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م) في طرابلس(٣٧) في عدم اكتراثه بتشجيع التجارة مع الاوروبيين . بل اكثر من ذلك فان احد الاحكام الشريفة المرسلة من السلطان الى قاضي اللجون بتاريخ ١٧ شوال ١٠١٩هـ/ ٢ كانون الثاني ١٦١١م ، يشير الى ان تجار الافرنج الذين كانوا يفدون على حيفا للتجارة كانوا يتعرضون للأذى والخطر من جانب امير اللواء واخرين ، لذا فان هؤلاء التجار لم يعودوا يرتادون حيفا، وان الحكم يطلب من القاضي ان يمنع امير اللواء ورجاله عن التعرض بأي اذى لهؤلاء التجار(٣٨) . ويمكننا القول انه نتيجة للصراع الذي نشب ما بين الامير فخر الدين المعني والامير احمد الحارثي (ت ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م) فان حيفا قد اصيبت باضرار بالغة . ففي سنة ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م تبين لفخر الدين المذكور ، زعيم الجناح القيسي في بلاد الشام ، ان احمد الحارثي ، زعيم الجناح اليمني آنذاك ، يعمل ضده فارسل فخر الدين احد رجاله « نصوح بلوكباشي مسك برج حيفا » فما كان من علي الحارثي ، شقيق احمد ، الا ان اغار على ساحل عكا « واخذ طرشه وعاد الى بلاده مارا على حيفا، فطلع اليه ولاقاه نصوح بلوكباشي بسكمانيته وبيرقه في برج حيفا لأن الامير كان اوقفه فيه كما ذكرنا ، وحاربه وقصد بذلك اخذ الطرش منه واستخلاصه فركضوا عليه وعلى جماعته بالخيل مع جماعة مشاة فقتل نصوح المذكور مع رجلين آخرين وانهزم الباقي الى البرج

---

(٣٥) حول هذه الاسرة انظر دراستي : **الاسرة الحارثية في مرج بني عامر** ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م - ١٠٨٨ هـ/ ١٦٧٧م . المقدمة الى ندوة تاريخ العرب الحديث ، جامعة عين شمس ، ايار ١٩٧٧ ، وكذلك مقالة : M. Sharon, «The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centureis» in *Studies on Palestine During the Ottoman Period»* Jerusalem, 1975, *pp.* 11-30.

(٣٦) **طابو دفتري** ١٨١ (الفقرة) ، ص ١٩ .

(٣٧) حول حياة ودور هذا الزعيم في مجريات الاحداث المحلية انظر محمد امين بن فضل الله (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩ م) **خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ٤م** ، تصوير مكتبة خياط، بيروت، لا، ت ، م٤ ، ص ٥٠٢ وكذلك دراسة K. Salibi, «The Sayfas and the Eyalet of Tripoli 1579-1640» *Arabica*, Vol. XX, (1973), *pp.* 25-52.

كذلك مقالتي « احداث بلاد طرابلس الشام ١٠١٥/ ١٠١٦هـ ، ١٦٠٥/ ١٦٠٦م ، **مجلة المجمع العلمي الاردني** ، العدد الأول ، ١٩٧٨ ، ص ١٧١ - ٢٠٦ والمصادر المذكورة في هذا المقال .

(38) U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine, p.* 129.

فدخل عليهم الوهم ونزلوا في مركب وجاؤوا الى عكه..»(٣٩)... وصارت عرب الأمير احمد بن طرباي تغير على بلاد كفركنا وتأخذ طرشها وغلالها وصيرتها دكا، واستمروا على ذلك الى ان وصل اليهم خبر كسرة عسكر الشام « في معركة عنجر »(٤٠) فبعد انتصار فخر الدين في تلك المعركة ، قام في شهر شعبان ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م بالتوجه الى شمالي فلسطين حيث اعادها الى سيطرته وكان من ضمن ذلك حيفا . « وابقى في برج حيفا ترتر حمزه بلوكباشي وحط عنده عازقا(٤١) يكفيه ، وعمل الامير فخر الدين في هذه المنزلة أوتراق(٤٢) ثلاثة أيام »(٤٣) وكانت قد جرت اتصالات للصلح ما بين المعنيين والحوارث « وفي عاشر شهر شوال (١٠٢٣هـ/ ٢٧ تموز ١٦٢٤م) صار بين الامير فخر الدين وبين الامير احمد بن طرباي مكاتبات ومراجعة ومراسلات وحصل الاتفاق بينهما ان الامير فخر الدين بن معن يرفع سكمانيته من برج حيفا، وان الامير احمد بن طرباي يمنع عربانه عن التخريب في بلاد صفد وتصير المصافاة بينهما على بعد ، ففعل كل منهما ذلك ، غير ان الامير احمد بن طرباي ارسل من هدم برج حيفا المذكور بعد خروج السكمانية منه ومشت الدروب بين بلاد حارثة وبلاد صفد وما عاد احد يتعرض الى احمد »(٤٤) فلربما بسبب هذا الخراب نرى احمد الحارثي يخرج عن سياسته التقليدية القائمة على عدم الاهتمام بالميناء فنجده يسمح لاحد الرهبان الكرمليين سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م ببناء مساكن في الميناء ويعطيه بذلك دستورا يقول فيه : « ... وكذلك في المينا يعمر ما يحتاج اليه من المساكن واعطيناه دستورا في ذلك ، فبموجب ذلك لا احد يعترض لهم في ذلك بوجه من الوجوه لا من اهل البلد ولا من غيرهم من العربان والفلاحين وكل من يعترض لهم لا يلوم الا نفسه والحذر من المخالفة في ذلك ، وذلك جرى في اواخر شهر جمادي الأول سنة واحد واربعين بعد الألف »(٤٥) . وكما يبدو ان هذه التجربة لم يكتب لها النجاح اذ ان هناك بعض الاشارات تفيد

---

(٣٩) الشيخ احمد الخالدي الصفدي (ت ١٠٣٤ هـ/ ١٦٢٤م) ، **تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني** ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ ، ص ١٣٩ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .

(٤١) العازق ، محرفة عن ازيق التركية وهي المؤونة ، انظر رد هاوس ، ص ٨٢ ـ ٨٣ (طبعة ١٩٢١) .

(٤٢) اوتراق : الاقامة ، انظر رد هاوس ص ٩٠٤ (طبعة ١٩٦٨) .

(٤٣) الخالدي الصفدي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩٣ .

(٤٤) الخالدي ، المصدر نفسه ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ، يذكر طنوس الشدياق (ت ١٨٥٩ م) دون ان يذكر مصدره ان هدم البرج كان جزءاً من بنود الاتفاق ، **اخبار الاعيان في جبل لبنان** ، ٢م تحقيق فؤاد افرام البستاني ، بيروت ١٩٨٠ ، م١ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، يشير جميل البحري الى برج العجوز او برج الزورة على انه « صخرة منتصبة على شاطىء البحر قيل انها من بقايا برج حصين للمدينة القديمة » فلربما كانت هذه الصخرة من بقايا البرج الذي هدمه احمد الحارثي . هذا مع العلم ان ظاهر العمر الزيداني سنة ١٧٥٠م هدم حيفا وبنى مدينة جديدة بالقرب منها اسماها العمارة الجديدة وانه بسبب ذلك وعلى الارجح ، لم يعن بالبرج القديم انظر ، جميل البحري ، **تاريخ حيفا** ، المطبعة الوطنية ، ١٩٢٢ ، ص ٥ ، كذلك راجع .

L. A. Mayer and J. Pinkerfeld, *Some Principal Muslim Religious Buildings*, Jerusalem, 1950, *pp.* 39-40.

(٤٥) انظر نص هذا الدستور في كتاب جميل البحري ،. **تاريخ حيفا** ، ص ٥٠ ، ويذكر البحري انه نقله عن مخطوط موجود في مكتبة دير الكرمل .

انه بدأ يضايق الرهبان بل زيادة على ذلك سجن احدهم ولم يطلقه الا بعد ان دفع ذاك الراهب لأحمد الحارثي فدية عن نفسه[٤٦] .

كانت الدولة العثمانية السنية تنظر بمزيد من الحذر لتحركات الاقليات من الجماعات والطوائف غير السنية في بلاد الشام خاصة في منطقة الشوف وجبل عاملة والجليل الاعلى . فلقد كان سكان هذه المناطق خاصة جنوبي لبنان وشمالي فلسطين ، خليطا من الدروز والشيعة الاثني عشرية (المتاولة) والعناصر المسيحية التي كان من ابرزها الموارنة الذين دأبوا على الهجرة من الشمال الى الجنوب، بتشجيع من فخر الدين المعني الثاني ، هذا اذا اخذنا أيضا بعين الاعتبار الهجرة اليهودية في القرن السادس عشر[٤٧] الى منطقتي طبرية وصفد . يضاف الى كل ما ذكر اعلاه تواجد العناصر البدوية ، ولعلنا لا نجانب الحقيقة اذا قلنا ان نسبة العناصر السنية المستقرة كانت في تلك المنطقة ضئيلة بالنسبة لمجموع السكان . فمن اجل معالجة هذا الأمر نجد ان الدولة العثمانية تحاول سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م ، بعد هروب فخر الدين المعني الى تسكانيا ، اجراء تنظيم اداري جديد في ولاية دمشق الشام فاقتطعت ناحيتي صيدا وبيروت ولواء صفد وشكلت منها ولاية جديدة عرفت باسم ولاية صيدا ، وكانت الغاية الأولى من وراء ذلك مراقبة وضبط حركات الدروز[٤٨] . الا أن الحياة لم تكتب لهذه المحاولة،اذ ان الدولة العثمانية عادت وصرفت النظر عنها واعادت الولاية الجديدة الى ما كانت عليه في السابق، من حيث تبعيتها لولاية دمشق الشام. والمحاولة الثانية التنظيمية جاءت سنة ١٦٦٠م وهدفت كالأولى الى ضبط العناصر المحلية من المعنيين والشهابيين والحمادية والشيعة وكانت كما وصفها المطران الماروني اسطفان الدويهي (ت ١٧٠٤ م) مشيرا الى خطورة خطوة الوزير محمد باشا كوبريلي والي دمشق الشام آنذاك : « ... وحتى يحطم نزاع اولاد العرب عمل صيدا باشاوية وكتبها على علي باشا الدفتردار . »[٤٩] وبالرغم من هذا التنظيم الاداري الجديد ظلت حيفا جزءا من لواء اللجون وتابعة لولاية دمشق الشام مع العلم ان ساحات كبيرة من الأراضي المحيطة بحيفا بما في ذلك خليجها الشمالي ، كانت قد ضمت الى اراضي الولاية

---

(٤٦) انظر محمود العابدي ، **صفد في التاريخ** ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٧٠ .

(٤٧) انظر حول ذلك :

B. Lewis, «The Jews in Palestine in the 16th Century» in *Notes and Documents From the Turkish Archives*, Jerusalem, 1952, *pp.* 5-47, See also U. Heyd» Turkish Documents Concerning the Jews of Safed in the Sixteenth Century» in *Studies on Palestine During the Ottoman Period*, *pp.* 111-18.

(48) U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, *pp.* 47-8.

(٤٩) الدويهي ، اسطفان (ت ١٧٠٤ م) ، **تاريخ الازمنة** ، تحقيق الاب فردينان توتل اليسوعي ، بيروت ، ١٩٥١ ، ص ٣٥٧ ــ ٣٥٩ ، حول منزلة اسطفان الدويهي التاريخية انظر :

Kamal Salibi, Maronite Historians of Modeval Lebanon, Beirut, 1959, *pp.* 89-160.

الشدياق ، **اخبار الاعيان** ، م١ ، ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧ ، راجع ايضا :

A. Rafeq, *The Province of Damascus 1723-1783*, Khayats, Beirut, 1966, *pp.* 3-4, 32.

الجديدة . وربما كان هذا من حسن حظ حيفا اذ انها بسبب بعدها عن سلطة دمشق اصبحت مأوى للقراصنة وللتجارة المهربة حتى اصبح يطلق عليها اسم « مالطة الصغرى » . فأخذت السفن تقصدها متجاوزة عن عكا وصيدا وعلى الأغلب للتهرب من دفع الضرائب المستحقة او لشراء مواد لم تكن الدولة تسمح بالمتاجرة بها كالقمح والبارود، وللتزود بالماء. وكان القنصل الهولندي في عكار طرفا في عملية التهريب تلك فكان ذلك مدعاة لاثارة حفيظة زميلة القنصل الفرنسي نظرا للاضرار التي لحقت بالتجارة الفرنسية التي كانت تعتمد مينائي صيدا وعكا . ونتيجة للشكاوى الفرنسية ، اصدرت الدولة العثمانية سنة ١٧١٦م فرمانا الى خليل باشا واليها في صيدا ، تشير فيه الى حركة القرصنة وتأمره ببناء عدد من الابراج حول ميناء حيفا في محاولة منها لوضع حد لعملية التهريب تلك . واستجابة لذلك قام الوالي المذكور بزيارة استطلاعية للمنطقة وكانت توصياته تتخلص باعادة بناء القلعة ولكن وفاته المفاجئة أجلت الموضوع الى ان استؤنف النظر فيه سنة ١٧٢٢م(٥٠) . وكان قرار الدولة العثمانية يتلخص في تعمير برجين على جانبي الخليج ، بدل اعادة تعمير القلعة نظرا لما كان يتطلبه اعادة بنائها من التكاليف الباهظة . وكلفت واليها عثمان باشا ابو طوق(٥١) في صيدا بالاشراف على تنفيذ هذا القرار . فتم انجاز تعمير البرج الأول على الجهة الشرقية في سنة ١٧٢٣م وفرغ من اقامة البرج الثاني على الجهة الغربية من الميناء في سنة ١٧٢٥م . وأقام عثمان باشا ابو طوق في كل منها

---

(٥٠) انظر: Amnon Cohen, *Palestine in the 18th Century, Patterns of Government and Administration*, Jerusalem, 1973, *pp*. 137-140.

وحول تواجد القناصل في الدولة الاسلامية انظر :

B. Spuler «Consul». *E.I.*², Vol, II, *pp*. 60-61.

والجدير بالذكر ان السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م) ، يعرف القنصل بقوله : « قلت ويعبر به عن الوكيل للكفار في بلاد الشام ». **تاريخ العروس** م٨ ، ص ٨٩ .

(٥١) القبودان عثمان باشا ابو طوق (ت ١٧ ربيع الثاني ١١٣٩هـ/ ٢٦ كانون الأول ١٧٢٦ م) ، كان زوجا لشقيقة السلطان ، تولى حكومة دمشق الشام اكثر من مرة ، وكذلك البصرة وصيدا ، واثناء توليه دمشق كان امير قافلة الحاج الشريف اكثر من مرة،ومن هنا اكتسب لقب حاج . وولي احد ابنائه الذي كان زوجا لابنة السلطان صيدا واخر ولي القدس . اتسم عهده بدمشق بظهور فئة اطلق عليها اسم العوانية ، الحقت الضرر بالناس وابتزت اموالهم مما دفع العامة بقيادة المفتي محمد خليل البكري الصديقي (ت ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م) الى ان يهاجموا العوانية « فمنهم من قتل ومنهم من صلب واخبروا الدولة العلية بما وقع وصدر » ، حول اوضاع بلاد الشام في عهده انظر ، محمد بن جمعة المقار (ت ح ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م) ، **كتاب الباشات والقضاة** نشره صلاح الدين المنجد مع نصوص اخرى باسم **ولاة دمشق في العهد العثماني** ، دمشق ، ١٩٤٩ ، ص ٥٧ ـ ٦٠ ، الشدياق ، **اخبار الاعيان** ، م١ ، ص ٥٧ ، م٢ ، ص ٣١٦ ، حيدر احمد الشهابي (ت ١٨٣٥م) **الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان** ، تحقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، م٢ ، ص ١٧ ، عبد الكريم رافق ، **بلاد الشام ومصر** ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، ولنفس المؤلف : *The Province of Damascus, pp*. 77-85, 112-13.

يذكر عبد الامير محمد أمين شخصا باسم الوزير عثمان باشا متسلما للبصرة ما بين ١٧١٢ ـ ١٧١٤ ، **القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر** ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ملحق رقم ٣ ، ص ٩٣ ، حول حياة الشيخ البكري راجع محمد خليل المرادي (ت ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١ م) **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** ، م٢ ، ص ٨٣ ـ ٩٧ .

ستة وثمانين من جنود المدفعية(٥٢) وستة وثلاثين من الجبجية(٥٣) . ولقد زار الرحالة الانجليزي Richard Fococke حيفا سنة ١٧٣٧ وأشار الى ان الهدف من وراء تشييد هذين البرجين ، كان صد هجمات القراصنة . ومن خلال تفاصيل رحلته يلاحظ القارىء نشاط القراصنة من مالطا في منطقة شرقي البحر الابيض المتوسط(٥٤) . كل ذلك تم وحيفا ما زالت تابعة لولاية الشام ، فمن اجل تصحيح هذا الوضع ووضع الامور في اطارها الطبيعي صدرت اوامر الدولة في سنة ١٧٢٥م بضمها وضم طنطورة الى ولاية صيدا(٥٥) . ورغبة من الدولة في تعمير حيفا ، وعدت ستة من اصحاب الزعامات في سنجق اللجون وخمسة وثلاثين من اصحاب التيمارات في السنجق المذكور باعفائهم من دفع بدل رواتب الجنود الذين كان يجب عليهم توفيرهم على حسابهم الخاص مقابل حصولهم على تلك الزعامات والتيمارات ، فيما اذا انتقلوا وسكنوا في بيوت تقام لهم بالقرب من البرجين المذكورين. وزيادة في التشجيع على السكن في حيفا ، وعدت الدولة المسيحيين الذين ينتقلون للاقامة في حيفا باعفائهم من الجزية وكذلك من سائر التكاليف العرفية .(٥٦) ولقد كانت الاستجابة من جانب اصحاب الزعامات والتيمارات والينكجرية كبيرة ، ويلاحظ انه بعد انتقالهم للسكنى في حيفا بداوا بالعمل في الزراعة، مما جعلهم يصطدمون مع الاهالي من سكان حيفا ومع الفلاحين هناك . ولقد عقد اجتماع في اواخر صفر ١١٣٨هـ/ اوائل تشرين الثاني ١٧٢٥م ، برئاسة الوالي الحاج عثمان باشا ابو طوق المذكور اعلاه للنظر في الأمر وللبحث عن حل للمشكلة . ولقد تم الاتفاق في ذلك الاجتماع ان لا يتعرض الاهالي ولا الفلاحون اصحاب الزعامات لحراثة وفلاحة الأراضي المهجورة . ولقد تم تسجيل بنود الاتفاق في حجة شرعية باللغتين العربية والعثمانية وحفظت نسخة منها في « الجبخانة » للعودة اليها . ونظرا لأهمية هذه الحجة فاننا نثبت نصها التالي(٥٧) .

---

(٥٢) تذكر المصادر العثمانية جنود المدفعية باسم طوبجو ، حول هذا المصطلح انظر :

H. A. R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West,* (O. U. P) 1963, Vol. I, Parti, *pp.* 66-7.

(٥٣) الجبجية : الجنود الذين يلبسون الدروع ، انظر المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

(٥٤) يصف ذلك بقوله :

«There are also ruins of a large building that seems to have been the castle; and they have built two forts, as adefence aginst the corsairs», *A Description of the East and Some other Countries,* Vol, II Parti, *Observation on Palestine or the Holy Land. Syria, Mosoplamia, Cyprus and Candia.* London, W. Bowyer, 1745, *pp.* 51, 56.

لمزيد من التفاصيل حول هذه المرحلة انظر :

Mohammad Ali Hachicho, *English Travel Books About the Arab Near East in the Eighteenth Century,* Leiden, E. J. Brill, 1965, *pp.* 35-8.

(٥٥) امنين كوهين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٠ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٥٧) الحجة التي نثبت النص العربي منها هنا وجدتها ملصقة في داخل دفتر الطابو رقم ١٨١ الموجود في مديرية الاراضي بانقرة . وتاريخها « اواخر صفر الخير لسنة ثمان وثلاثين ومماية والف » بينما يشير امنين كوهين الى وثيقة مشابهة لها ضمن مجموعة المالية المدورة باسطنبول ولكن تاريخها ١٣ ربيع الثاني ١١٣٨هـ/ ١٩ كانون الأول ١٧٢٥م . انظر كوهين ، المصدر نفسه ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ، وهامش رقم ٩٦ .

« لما انعقد المجلس الشرعي في القلعة المجددة بموجب الفرمان العالي الشريف غربي اسكلة حيفا بحضرة جناب الدستور المكرم المشير المفخم ناظم مناظم الأمم الحاج عثمان(٥٨) باشا محافظ ايالة صيدا حالا زاده الله رفعة واجلالا وبحضرة فخر الاشباه الحاج مصطفى(٥٩) حمود زاده ضابط(٦٠) اسكلة حيفا الملحقة باسكلة عكا(٦١) وفخري المستحفظين(٦٢) طوبجي ابراهيم اغا وجبجي باشي محمد آغا وشعبان اغا وفخر الاشباه حسين بيك اميرالاي(٦٣) سنجق اللجون حالا واميرالاي السنجق للزبور سابقا مصطفى زعيم(٦٤) الطيرة(٦٥) وحيفا

---

(٥٨) انظر هامش رقم ٥١ اعــلاه .

(٥٩) لم اعثر على ترجمة للحاج مصطفى حمود زاده الا انه كما يبدو ان عائلة حمود الصيداوية خلال مطلع القرن الثامن عشر قد كانت تلتزم جباية الضرائب المتوجبة على عكا وصور وصيدا وبيروت. وبهذا الخصوص يذكر عبود الصباغ ما يلي : « بما ان عكه لم تكن في تلك الوقت في يد ضاهر بك كان ملتزمها علي اغا حمود الذي كان مقيماً في صيدا ويلتزم من كل وزير يحضر عكا وبيروت وصور واقلام صيدا ويرسل الى الاماكن المذكورة متسلما من طرفه « **الروض الزاهر في اخبار ضاهر** ، المكتبة الوطنية ، باريس ، Arabe 4610 ورقة ١٩ أ .

(٦٠) ان طبيعة عمل الضابط من خلال هذا النص ونصوص اخرى تبدو لنا انها تعني الالتزام بالضرائب ولكن على نطاق ضيق ومحدود . وعلى الارجح انه ليس ذا بعد عسكري . وكان هذا اللقب يطلق على الملتزمين بغض النظر عن دينهم، فمثلا يذكر حيدر احمد الشهابي ان فارس الدهان (مسيحي) كان ضابط الكمرك لدى الجزار ، على اية حال فان الضابطية كمؤسسة بحاجة لدراسة اوفى ، انظر **تاريخ احمد باشا الجزار** ، نشــــره الأب انطونيوس شبلي والأب اغناطيوس عبده خليفة ، مكتبة انطوان ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ١٠٣ ، انظر ايضا .

B. Lewis, «Dabit.» *E.I.²*, Vol.II, *p.* 74.

(٦١) حول تطوير عكا في القرن الثامن عشر انظر ، امنين كوهين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٢٨ — ١٣٧ . راجع ايضا النصوص التي جمعها عنها الأب مرمرجي الدومنيكي ، **بلدانية فلسطين** ، ص ١٦١ — ١٦٦ كذلك انظر : F. Buhl, «Akka» *E.I.2*, Vol. I, *p.* 341.

(٦٢) المستحفظان · هم الجنود الذين كانوا يوضعون لحماية القلاع .

(٦٣) الآي كلمة تركية تعني مجموعة من العسكر ، انظر : Gibb and Bowen **مصدر سبق ذكره** ، م١ ، ج١ ، ص١ ، ٥١ ، ١٤٥ .

(٦٤) زعيم رتبة في نظام التيمار العثماني ، كان صاحبها يمنح اقطاعا من صنف الخاص ، انظر **المصدر نفسه** ، ص ٤٦ — ٥٦ .

(٦٥) في القرن السادس عشر كان ثلاث قرى باسم الطيرة ، منها اولا قرية طيرة اللوز تابع ساحل عتليت الغربي التي كان عدد سكانها سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م ، ٦٩ خانة ومجردين ، وقيمة حاصلاتها المستحقة ٢٠٣١٠ اقجة (ص ٥ — ٦) ، اما في سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م، فان عدد سكانها يتناقص الى ٥٢ خانة ، وكانت قيمة وريع حاصلاتها ٢٢٠٠٠ اقجة اما رسم الماعز والنحل المحصل منها فكان ٢٠٠ اقجة ومثل ذلك « الباد هوا ورسم عروس » خمسة عشر الف اقجة من هذه العائدات كانت مخصصة كجزء من زعامات احمد وعلي ولدي طراباي وكتخداهم (وكيلهم داود) . (ص ١٨ — ١٩) ، اما الطيرة الثانية ، فكانت تعرف باسم الطيرة الشمالية عدد سكانها بموجب الدفتر الأول ثلاث خانات وقيمة ريع حاصلاتها ١٩٤٢ اقجة . والطيرة الثالثة تذكر باسم الطيرة القبلية عدد سكانها ٥ خانات وقيمة ريع حاصلاتها ١٩٧٠ اقجة (ص ٢٩ — ٣٠) ، وبموجب الدفتر الثاني تذكر الطيرة الشمالية والقبلية كمزارع من زعامات احمد وعلي ولدي طراباي وقيمة ريع حاصلاتها في السنة ١٢٠٠٠ اقجة (ص ١٧) . من هذا يظهر ان المقصود بقرية الطيرة هي ا المشار اليها باسم طيرة اللوز لأن الاخيرتين تحولتا الى مزارع . ويشير U. Heyd الى ان الامير عساف آل طراباي في سنة ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م ، قد بنى مسجدا في قرية الطيرة ، راجع :

U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, *p.* 110. n.4.

وبحضرة الشيخ[٦٦] رافع والشيخ احمد مرعي[٦٧] المتكلمين على اهالي حيفا وكافة الاسباهية واليكجرية الساكنين بقلعة حيفا الشرقية واحمد مصلح وسائر الفلاحين[٦٨] والاسباهية واليكجرية المرموقين . ان الشيخ رافع والسيد احمد مرعي مشايخ حيفا يتعارضونهم في اراضي ناحية حيفا قائلين وزاعمين انها لهم، ولا يأذنون لهم في حرثها وزرعها وطلبوا دفعهم عنهم وعدم المنازعة لهم . فسئل من مشايخ حيفا المذكورين ومن فلاحيها عن ذلك فأجابوا منكرين المنازعة

---

(٦٦) ان كلمة شيخ الشائعة والمتداولة منذ زمن بعيد في التاريخ العربي الاسلامي ذات مدلولات مختلفة ، فعند النسابيين تفيد معنى المتنفذ في العشيرة، وبالنسبة للصوفية تعني من بلغ مستوى رفيعا في الطريقة ، ولدى اصحاب الحرف والاصناف تدل ايضا على المستوى الرفيع في تنظيمهم الهرمي وهي رتبة علمية في وسط العلماء . والملاحظ ان مثل هذا اللقب يشيع استعماله في ريف بلاد الشام بين الفلاحين والزراع ولا يقتصر استخدامه على المسلمين السنة فقط بل ان غيرهم من بعض الاسر الدرزية والمسيحية كان لها مثل هذا اللقب . والسؤال الذي يطرح نفسه هل لقب امير وشيخ ومقدم الذي تذكره المصادر كان يمنح ويستخدم بموافقة الدولة العثمانية ام انه كلقب يدل على منزلة اجتماعية نشأ محليا ؟ من ناحية اخرى حافظت الدولة العثمانية على مؤسسة المشيخة التي كانت استمرارا لمؤسسة امارة العرب التي وجدت في العهد الايوبي واستمرت في عهد المماليك . والذي يبدو ان المشايخ في القرى كانوا اصحاب نفوذ ولم يكونوا اصحاب سلطة الى ان بدأوا يعملون كملتزمين صغار ربما باستثناء ضاهر العمر الذي يصفه عبود الصباغ بقوله « فصار الاسم الى ضاهر عند الدولة والمشيخة عند الفلاحين » وانه كان يحارب « مشايخ الفلاحين الذين بالقرب منه ويأخذ بلادهم ويلتزمها » واصبح لقبه كما يذكره المرادي « شيخ شيوخ البلاد الصفدية » . وعلى الارجح انه لم يكن للشيخ في القرى في هذه المرحلة السلطة والصلاحيات وشبه الصفة الرسمية التي كان يتمتع بها الشيخ في القرية المصرية في القرن الثامن عشر. حول من تلقب بهذا اللقب انظر الشيخ حسن البوريني (ت١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م) ، **تراجم الاعيان من ابناء الزمان** ، ٢م تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، م٢ ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ص ١٣ ، ١٤ ، ٣٦ ، ص ٣٤ ، ٤١ ، ٦٢ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٩٦ ، المرادي ، **سلك الدرر** ، م٣ ، ص ١٨٤ ، عبود الصباغ ، **مصدر سبق ذكره** ، ورقة ٣ ب ، ١٧ ، حيدر الشهابي ، **الغرر الحسان** ، م٢ ، ص ٦ .

عن الشيخ في مصر في القرن الثامن عشر انظر :

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، **الريف المصري في القرن الثامن عشر** ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ ، ص ١٨ ـ ٢٣ .

انظر ايضا عن سياسة الدولة العثمانية تجاه القبائل واحياء المشيخة في القرن الثامن عشر .

Barbir, Carl K., *The Dynamics of Ottoman Rule in Damascus. During the First Half of the Eighteenth Century* Ph. D. Princeton 1976, *pp.* 135-139.

(٦٧) لم اعثر على ترجمة او اية معلومات عن الشيخ رافع او الشيخ احمد مرعي .

(٦٨) ان قوانين نامة الولايات العربية في الدولة العثمانية (قوانين نامة الموصل ، القدس ، الشام ومصر) . تذكر الفلاحين في معرض اعطائهم نصف محصول الزيتون الروماني ، وان الفلاحين كما نص قانون نامة لواء دمشق الشام ليسوا جزءا من ملكية الأرض وان اقتسامهم مخالف للقانون. والملاحظ ان الفلاحين في القرن الثامن عشر في بلاد الشام اصبحوا قوة محلية ذات رئاسة متمثلة بالمشايخ . ويلمس من يقرأ **الروض الزاهر في تاريخ ضاهر** ، ان عبود الصباغ يكثر من استخدام هذا المصطلح مثل « .... والمشيخة له عند الفلاحين » وانه كان « ... يصطبر على الفلاحين لثاني سنة فلاجل ذلك كانت الفلاحين داخل البلاد جميعا يحبوه » ورقة ٣ ب ، ٦ أ ، ١٦ ب ، حول كلمة فلاح في القوانين نامة Barkan, O. L., *Kanunlar*, Istanbul 1945, *pp.* 122, 178, 217, 226, 359-72.

انظر ايضا الخالدي ، الصفدي عن الفلاحين في شمال فلسطين ، **المصدر ذاته** ، ص ١٩٣ .

والمعارضة بل لسائر سكان القلعتين الشرقية والغربية ان يزرعوا ويحرثوا في اي ارض ارادوا زرعها وحرثها ان كانت من ارض السعادة(٦٩) او الحوارث(٧٠) وسائر اراضي احمد زيدان(٧١) واتباعه النازحين عن قريتهم واي ارض تركها اهلها ثلاث سنوات معطلة وغامرة من غير حرث ولا زرع لهم ان يحرثوا ويزرعوا ويتصرفوا بها كما شاءوا واختاروا شرعا . وفرعا لا ينازعهم منازع ولا يعارضهم معارض ، فعندها كان من كلام جناب الوزير المشار اليه ان هذه الاراضي حيث تركها اهلها ونزحوا عن بلادهم رجعت رقبتها وتصرفها لبيت مال المسلمين وصار امرها مفوضاً لوكلاء حضرة السلطان نصرة العزيز الرحمن ولضابطي المقاطعات. ولما كان الأمر كذلك ، صدر الأمر منه ان من سكن في احدى القلعتين المذكورتين من الفلاحين والزراعين والحراثين وسائر الرعايا على موجب الفرمان العالي الشأن السلطاني وعمر بهما بيتا من حجر

---

(٦٩) يذكر الخالدي نهرا في لحف جبل الكرمل اسمه نهر السعادة فلربما كانت الأرض المحيطة به تسمى ارض السعادة ، الخالدي ، الصفدي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٩٢ .

(٧٠) اي اراضي الاسرة الحارثية ، ثم يذكر عبود الصباغ ان ضاهر العمر فيما بعد صار يتغلب على بلاد حارثة ويأخذها من مشايخ الفلاحين التي بها ، **مصدر سبق ذكره** ، ١٠ أ ، ب ، حول اسرة الحوارث ، انظر الملاحظات المذكورة في هامش رقم ٣٥ اعلاه .

(٧١) ان المصادر التاريخية المتوافرة لدينا غير واضحة في المادة التي توردها عن ظاهر العمر الزيداني ، فمثلا المرادي (ت ١٢٠٦هـ ١٧٩١م وهو من اقدم المصادر عن ظاهر يترجم له تحت حرف العين فيقول : « عمر بن صالح الملقب بالظاهر الصفدي الزيداني حاكم مدينة عكا وشيخ شيوخ البلاد الصفدية صاحب المواقع الشهيرة الخارج عن طاعة الدولة العثمانية مولده بصفد سنة ست ومائة والف (١٦٩٤ م) ومن غريب الاتفاق ان هذا التاريخ هو تاريخ مولده موافق لعدد لقبه ظاهر... وكان والده وجده واعمامه حكاما بصفد وعكا ويعرفون ببني زيدان وهم حمولة كبيرة » من هنا يظهر لنا حسبما جاء عند المرادي ان اسمه عمر وان اسم ابيه صالح وظاهر هو عبارة عن لقبه . واذا عدنا الى تاريخ ميخائيل نقولا الصباغ (ت ١٨٦١م) نجده يذكر ان الاسرة كانت تسكن في معرة النعمان وان كبيرها كان اسمه علي وان ابنه الذي تولى مشيخة العائلة كان اسمه عمر تزوج من السردية انجبت له ثلاثة اولاد علي توفي بعد والده عمر ، وسعد وظاهر ، وان الاسرة بقيادة عمر هاجرت الى الجليل» وقاموا جميعا جهزوا حالهم وشدوا رحالهم وسافروا ونزلوا عند قيساريه فاقاموا قليلا فما اعجبهم ذلك المكان لقبحه وخرابه فانتقلوا الى نواحي الاردن الى طبرية ونزلوا بكبير قومها وباهلها فاعجبتهم فاستوطنوها ورأوا اراضيها خصبة فاستغلوا بها واشتروا الغنم والبقر واخصبت معهم تلك السنة وكان ذلك سنة ١٧٠١ وكان ظاهر له من العمر اثني عشر سنة » وفي سنة ١٧٣٠ انتقلوا من طبرية الى قرية عرابة ، فمن المعروف ان قيساريه تقع قريبة من جنوبي حيفا وربما كان جد ظاهر اسمه احمد زيدان ، او ان احد اقاربه كان يحمل هذا الاسم وعرفت الارض به بعد انتقال العائلة من قيساريه الى طبرية ثم فيما بعد الى عرابة . انظر المرادي **سلك الدرر** م٣ ، ص ١٨٤ — ١٨٧ ، عبود الصباغ ، **الروض الزاهر في تاريخ ظاهر** ، ورقة ١ أ ــ ٣ ب ، ميخائيل نقولا الصباغ ، **تاريخ ظاهر العمر** ورقة ١ أ ــ ٢ أ ، حيدر الشهابي ، **الغرر الحسان** ، م٢ ، ص ٦ ، ص ٧ . انظر ايضا الرسالتين اللتين نشرهما عيسى اسكندر المعلوف ، بعنوان « تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني » **المشرق** ، م٢٤ ، (١٩٢٦) ، ص ٥٢٩ ــ ٥٣٠ . حول ابناء واقارب ظاهر انظر :

Cohen, *Palestine in the 18thg Century:* *pp.* 6-10, 14, 25, 34, 46, 58, 81, 84, 85, 95-96.

حول قيمة مخطوط عبود الصباغ انظر :

George, Haddad, «The Chronicle of Aboud al-Sabbagh and the fall of Daher al-Umar of Acre» al-*Abhath,* Vol. xx (196) *pp.* 37-44.

ومدر وسكن واستقر بهما لأجل محافظة بلاد المسلمين ونفوس المؤمنين. ففي اي ارض حرث وزرع من سائر اراضي سنجق اللجون لا يدفع من محصولاتها الا العشر الشرعي للمعشر كما هو مسطر في كتب الفقه ويكونون معافون (كذا) من جميع التكاليف الشاقة وغيرها ، فعندها التمس سكان القلعتين سندا شرعيا يكون بيدهم مخلدا فقرر مشايخ حيفا ان بلدهم خمسية ومن الآن كل من طلبوا منه ما هو متوجب عليه من المال فيفر عنهم ويسكن في احدى القلعتين فيلزم منه خراب بلدتهم ، فعندها صدر الامر من جناب الوزير المشار اليه ان من فر من اهالي حيفا وسكن باحدى القلعتين فمهما كان متوجب عليه من المال يدفعه لهم ولا ينازعهم من سكان القلعتين منازع ومن تاريخ هذا الكتاب من اراد السكنى من اهالي حيفا في احدى القلعتين فلا يأويه احد من سكانهما وارتضى كل من الفريقين على ذلك واقره كل منهم وانفصل الامر عليه والتمس كل منهما كتب هذا الصك وحفظه في كل من القلعتين في الجبخانة العامرة ليكون للفريقين سندا شرعيا فكتب ما وقع وحرر بالطلب في اواخر صفر الخير لسنة ثمان وثلاثين ومائة والف .

شهـــود

الحاج يوسف بيك　　محمد بيك زعيم　　ابراهيم بيك زعيم　　رجب بيك

احمد بيك　　عوض بيك　　محمد بيك　　قرا حسن طوبجي

يوسف جبجي　　وغيرهم

لقد اتسم العهد العثماني في بلاد الشام ، مقارنة بغيره من العهود الاسلامية ، بتوفير الامن والحماية لسواحل تلك البلاد ، ولقد واكب ذلك ازدهار تجاري اوروبي مع السواحل الشامية ، فكان من النتائج التي ترتبت على ذلك ان السواحل التي كانت مهجورة منذ اخراج الصليبيين منها سنة ١٢٩١ ، قد دبت فيهاحركة العمران. ونتيجة للاغراءات التجارية ونظرا للانقسام الذي اصاب الكنيسة الارثوذكسية ، اصبحت العناصر السكانية ، خاصة المسيحية منها تهاجر بالتدريج من الداخل الى الساحل الذي اصبح يكتسب سمة مسيحية بارزة . زيادة على ذلك فان مراكز الثقل الحضاري والتجاري والفكري والسياسي قد بدأت ايضا تتحول تدريجيا عن الداخل نحو الساحل ومن هنا لم يكن ظهور الزيادنة واحمد باشا الجزار ثم دور مدن السواحل في القرن التاسع عشر والعشرين عفويا .

ان حركة العمران تلك التي عرضنا لها في حيفا لم تكن الوحيدة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر بل ان هناك تجارب مشابهة ، والذي يهمنا ان ندعو اليه هنا انه من اجل فهم دقيق وموضوعي للقرن التاسع عشر ، فانه آن الأوان لدراسة القرن الثامن عشر من مختلف جوانبه، لفهم حركة الاصلاح والتجديد ، قبل هبوب رياح الحضارة الاوروبية على المجتمع الشامي الاسلامي لتتركه على مفترق الطرق .

حسين ابو النمل

ما قبل الحديث عن الصهيونية الاقتصادية

"عن التضخم ومستوى المعيشة وتخفيض الليرة والعجز في الميزان التجاري"

تناقض المقدمات والنتائج

رغم أختلاف وتعدد وجهات النظر التي طرحت بشأن الآثار الاقتصادية للسلام بين مصر وأسرائيل ، فأنها تكاد تتفق فيما بينها على أن الأقتصاد الأسرائيلي متدهور ، وأنه يعاني من جملة أمراض أبرز ظواهرها العجز في الميزان التجاري ، تدهور وضع الليرة الأسرائيلية ، أرتفاع نسبة التضخم ... الخ . ومع ذلك هناك شبه اتفاق عام على احتمال حدوث هيمنة أقتصادية أسرائيلية . وفي رأي البعض الآخر أحتمال توسع أقتصادي صهيوني في المنطقة . الأمر الذي ادخل في قاموس الصراع العربي ـ الأسرائيلي تعبيرا جديدا هو « الصهيونية الأقتصادية »[١] .

أن ابسط قواعد المنطق ، تقول بانسجام المقدمات مع النتائج ، وأن كان هنالك من تضارب بينهما فلا بد من تصحيح احدهما لصالح الآخر ، والا فان وجهة النظر المطروحة تكون قد فقدت الشرط الاول لصحتها . نقول هذا استناداً الى بديهية معروفةعن استحالة حدوث هيمنة ، أو توسع ، أو خطر أقتصادي اسرائيلي في حال أقامة علاقات طبيعية ، فيما لو ثبت صحة الرأي القائل بأن « الأعتماد على المساعدات الخارجية،خاصة الاميركية كان يزداد سنة بعد أخرى حتى بالنسبة الى وجبة الفطور». رغم ذلك ، « بدأ الأسرائيليون يشعرون أنهم على أبواب مرحلة جديدة مليئة بالفرص والأطماع ، حتى راحوا يتساءلون ، وبجدية كيف يمكن استغلال هذا الوضع لمصلحتهم »[٢] . ولذا فان « ما يهم اسرائيل هنا هو فتح السوق المصرية على مصراعيها امام البضائع الأسرائيلية »[٣] . البروفسور يسرائيل شاحاك تساءل عن « ما الذي تستطيع أسرائيل بيعه لمصر»...«حسب ما اسمع برادات ومكيفات وأدوية . لكن السؤال كم عدد المصريين الذين يستطيعون شراء هذه المنتوجات؟.ان الحالة هي أن الأمر بالنسبة لأسرائيل ومصر كحال مفلسين يودان دعم بعضهما »[٤] ، وبما ، يكون ما قيل عن موضوع

الافلاس صحيحا ، ولكن الملفت للنظر ان المفلس الأول قادر على أنتاج وبيع برادات وأدوية ومكيفات ، والمفلس الثاني في وضع لا يستطيع معه حتى على شراء منتجات المفلس الأول ! . ربما يكون الحديث عن الأفلاس صحيحاً ، ولكن شتان بين مفلس لديه مصنع برادات وآخر لا يملكه ، ولا يستطيع شراء ما ينتجه المفلس الأول . هذا المنطق صحيح شكلا ، ربما ، لكنه خاطيء موضوعا . وكذا الأمر بشأن الرأي القائل بأن اسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة حتى بالنسبة الى وجبة الفطور ، لأن من تلك حالته غير قادر ولا مؤهل للأستفادة من اية « مرحلة جديدة مليئة بالفرص والأطماع»، ولأن من يستطيع أن « يبيع » الآخرين ، « ويتلهف » للوصول الى اسواقهم ، كان الأولى به ، وهذا هو منطق الأمور، ان يبيع ـ يؤمن لنفسه حتى وجبة الفطور !

ما تقدم من امثلة ليس سوى نموذج للأنفصال التام بين المقدمات والنتائج التي طبعت كثيرا من الدراسات المتعلقة بالأقتصاد الأسرائيلي ، انفصال يستدعي اعادة تصحيح العلاقة بين أطراف المعادلة السياسية الاقتصادية المطروحة . وذلك لكي تستوي ويزول التناقض .

عندما نعرف المقدمات ، يمكن لنا أن نتوقع النتائج ، ومن هنا فأن هذا البحث القصير سيكرس في محاولة لتصحيح بعض الأخطاء الشائعة عن أقتصاد العدو ، وذلك عبر محاولةتقديم الحقيقة ، عن طبيعة« الأمراض » التي يعاني منها ، لأنه ، وكما يبدو من سياق **المقالات،** « والأقاويل » ان دواء ذلك « المريض » هو في أبتلاعنا ، عندها يكون مريضاً بداء « انفلات الشهية » . وهو مرض معروف وشائع منذ الثورة الصناعية ، وما تبعها من تمركز في الصناعة والأنتاج ، الأمر الذي جعل الرأسمالية تعيش ما يعرف في التاريخ الاقتصادي « بأزمة فيض الأنتاج »[٥] ، أي عجز السوق المحلية عن أستهلاك البضائع المنتجة بحكم تفاوت نمو عناصر الأنتاج المختلفة ، فكان ان صدرت الرأسمالية ازمتها للخارج ، أن بشكل بضائع ، كما في عهد ما يسمى « الرأسمالية القديمة »[٦] أو تصدير رأس المال والبضائع معا ، كما في عهد الأمبريالية .

ان ازمة الرأسمالية حين تكون « مفلسة تنتج برادات ومكيفات ، وأدوية » ، أنما هو عدم قدرتها على تصريف مزيد من الأنتاج ، وبالتالي عدم أستغلال رأس المال المتراكم لديها ، بالشكل الذي يحقق لها أقصى الأرباح . وحل هذه الأزمة ، تاريخيا ، أو كما في وضع أسرائيل الآن ، أنما هو في أيجاد مفلس آخر ، ، بالضبط ، كالمفلس الذي تحدث عنه البروفسور شاحاك .

المفلس الغني والمفلس الفقير

الاسرائيلي « المفلس » ، والأفلاس هنا تعبير رمزي وحالة نوعية ، ليس بحاجة الى مفلس من نفس نوعيته ، بل الى مفلس من نوعية أخرى ، ولقد عرفت الأمبريالية دوما ، كيف تخلق قدرة شرائية ، وعادات أستهلاكية جديدة لدى الشعوب النامية ، نقول هذا ، وفي الذهن الحقيقة المعروفة عن العلاقات التي تنشأ بين مركز الامبريالية ومحيطها ، دول تتخصص بانتاج وتصدير السلع المصنعة واخرى بأنتاج المواد الخام وتصديرها ، وأستيراد السلع المصنعة . واذا كان لدى أسرائيل « برادات وأدوية ومكيفات » معروضة للبيع ، فلدى مصر

نفط ، وقطن وسكر . ويمكن لها ان تبادلها ، ولكن على قاعدة السوق الأمبريالية ، لأن الدول غير المتطورة والدول المتطورة تعيش ازمات ، ولكن « الجوع والبؤس في الأولى هما وليد أنتاج ضعيف التطور وجدب هائل في المنتجات . اما في النظام الرأسمالي فتأتي الأزمات عن طريق زيادة الأنتاج ، من فيض « نسبي » في البضائع المنتجة »(٧) .

سوء اللغة وسوء الفهم

« ثلاث » تتكرر في كل مقال ، او دراسة تكتب . التضخم ، التدهور في الميزان التجاري ، تخفيض سعر الليرة الزاحف ، وغير الزاحف ، دون خشية من تهمة التسرع ، أو خرق أصول المنهج ، واستباق النتائج ، أستطيع الأدعاء أن « الأمراض » التي تعاني منها اسرائيل دليل عافية اقتصادية والصلة بين التضخم وتدهور الميزان التجاري وسعر الليرة صلة جدلية ، وهدفها معالجة الأزمة من خلال تعميقها ، بكلمة أخرى ان التضخم الذي تعاني منه أسرائيل في هذه المرحلة بالذات،ليس نوعا من « انفلات الغدد » بل سياسة اقتصادية حازمة تمارسها الحكومات الأسرائيلية المتعاقبة منذ ١٩٧٣ (منتصف ١٩٧٣ وليس بعد حرب تشرين). بكلمة اخرى ، فأن الأمراض الثلاثة هي في حدود سيطرة المخطط الأقتصادي الأسرائيلي . وهي مسألة مختلفة تمام الأختلاف عما اذا كانت مرضا مزمنا .

ان أصدار حكم بشأن « أمراض » اسرائيل الأقتصادية ، يستدعي البحث عن لغة صحيحة للتداول ، يستدعي البحث عن أسباب الظاهرة المرضية معرض الخلاف ، البحث في النتائج القريبة والبعيدة لها ، البحث في مقدار صلتها بما عداها من ظواهر مرضية ، ، وعما اذا كانت العلاقة التي تربط بين ظاهرة وأخرى علاقة المرض المترتب على مرض آخر ، أم العملية الجراحية التي يستدعيها مرض ما ، ومن هنا ضرورة التمييز بين « الأنواع » المختلفة للتضخم .

التضخم والأنتفاخ

يعرف التضخم بأنه « أرتفاع عام في أسعار السلع وعناصر الأنتاج»(٨) «الذي ينتج عن أختلال العلاقة بين كمية الأنتاج المعد للأستهلاك وحجم الطلب عليها معبرا عن هذا بالقدرة الشرائية للمستهلكين . وبكلمة أخرى الحصول على كمية من السلع مقابل مقدار معين من النقود اقل من الكمية التي كان من الممكن الحصول عليها سابقا لقاء نفس الكمية من النقود . وفي هذه الحالة تلعب النقود كوسيط للتبادل دور « القيمة المختزنة »(٩)،أي انه بدلا من الأحتفاظ بسيارة مثلا ، يحتفظ بما يعادل قيمتها نقداً ، وبذلك تؤدي النقود وظيفة تحديد قيمة السلع ، وحين ترتفع أسعار السلع ، فأن هذا لا يعني أن قيمتها الأستعمالية قد ازدادت ، بل يعني أن القدرة الشرائية للنقد قد انخفضت . وفي هذه الحالة يؤدي تخفيض العملة وتترتب عليه النتائج نفسها التي يؤدي اليها التضخم أي أنخفاض القدرة الشرائية للعملة المحلية ، ولكن مع فارق جوهري بين الوضعين . لأن أثر تخفيض العملة يمس بشكل مباشر علاقات البلد المعني مع الخارج ، وبشكل ثانوي وضع المستهلك ، في الداخل ، والعكس صحيح لناحية أثر التضخم حيث يقع أثره المباشر على وضع المستهلك في الداخل .

المرض الواحد وتعدد الأسباب واختلاف النتائج

لا خلاف حول التعريف العام للتضخم ، اي زيادة عرض النقود عن السلع المعدة للأستهلاك . ولكن هذا التعريف العام يستدعي البحث في أسباب زيادة عرض النقود ، وبكلمة أخرى قلة السلع المعروضة ، لأن معرفة السبب هو الذي يمكننا من معرفة نوع التضخم ، وبالتالي ، تحديد ما اذا كان ظاهرة صحية أم مرضية . مرض ، أم عملية جراحية لمعالجة المرض ؟ تلك هي المسألة .

النوع الأول من التضخم ، وهو النوع الأكثر شيوعاً في البلدان المتخلفة ، هو التضخم الناتج عن زيادة الأنفاق الحكومي دون أن يترافق ذلك مع نمو نشاط اجتماعي من نفس المستوى ، وحيث لا يراعى عند أصدار النقود وطرحها للتداول القواعد العلمية المطلوبة لناحية وجود الغطاء المطلوب ، وعلى سبيل المثال ، أن تقرر الحكومة لأعتبارات سياسية محضة ، زيادة الأجور مثلا فتقوم بطبع كميات من أوراق البنكنوت ، وتطرحها في السوق ، مع بقاء المعروض من السلع ثابتا ، وحينئذ تشهد البلاد موجات تضخمية ، بهذه النسبة او تلك تبعا للنسبة التي مولت بها الميزانية بعجز . في مثل هذه الحالة ، لا يترافق التضخم مع نمو يذكر في الأنتاج القومي ، ولم تعرف أسرائيل في كل تاريخها الأقتصادي هذا النوع من التضخم .

النوع الثاني من التضخم ، هو الذي ينتج عادة عن زيادة الأنفاق على المجالات غير المدنية ، اذ كلما تزايد الأنفاق الحربي كلما أرتفع معدل التضخم حيث يبلغ الذروة ابان الحروب وما يرافقها من زيادة في الأجور والبدلات والتعويضات للجنود ، اضافة الى توجيه جزء من طاقة الأقتصاد نحو المجالات ذات المساس بالحرب ، وذلك على حساب المجالات المخصصة للأستهلاك المدني ، وهنا تلعب مدة ونتائج الحرب دورا حاسما ، في تحديد معدلات التضخم . وقد عانت اسرائيل من آثار هذا النوع من التضخم مع ملاحظة ان حرب ١٩٧٣ بحكم نتائجها ومدتها قد كانت لها آثار تضخمية لم تكن لحرب ١٩٦٧ ، حيث لم تعرف أسرائيل من جرائها تضخما غير عادي . تجدر الأشارة بهذا الخصوص الى ان زوال التضخم (الحرب ، تزايد المصروفات الأمنية) يؤدي حكما الى زوال النتيجة المترتبة على السبب ، أي التضخم نفسه .

النوع الثالث من التضخم الذي عرفه الأقتصاد الأسرائيلي هو ذلك النوع الذي يترافق عادة مع نمو في الأنتاج القومي ، وذلك بفعل توجيه مزيد من الموارد البشرية والمالية نحو بناء رأس المال التحتي ، من طرقات وسكك حديد وموانىء ومنشآت كهربائية ... الخ . وتزداد معدلات التضخم في هذه الحالة تبعا لحجم الخطة الاقتصادية ، موضع التنفيذ ، وبالتالي بحجم الموارد المكرسة لها ، ونسبتها من مجمل الموارد الأقتصادية للبلد المعني . وفي هذه الحالة ، لا يمكن أمتصاص الطلب/ عرض النقود ، دون آثار تضخمية بسبب من ان « السلع » المنتجة مقابل النقود المدفوعة/ المعروضة غير قابلة للشراء أو البيع الفردي ، واذ لا يعقل ان يشتري العامل شارعا ، او قاطرة سكك حديد او جسراً .. أسهـــم في انشائه/ انتاجه وقبض لقاء ذلك أجرا .

هذا النوع من التضخم ، وان كان عبئا آنيا على المجتمع ، لكنه ذو قيمة مستقبلية هامة

جدا ، فبدون استكمال بناء رأس المال التحتي لا يمكن للمجتمع المعني ان يلج مرحلة التصنيع المتوسط او الثقيل .

لقد عرفت أسرائيل هذا النمط من التضخم في مرحلة ما قبل ١٩٦٦ ، وهي الحقبة التي نفذ فيها البرنامج التصنيعي الشامل الذي غطي بأموال التعويضات الالمانية الغربية[١٠]، ويمكن لنا ملاحظة ذلك من التذبذب الحاد في معدلات التضخم من مرحلة لأخرى كما يدلنا على ذلك الجدول التالي :

جدول بتغير الأسعار في الفترة بين
١٩٥٣ ــ ١٩٧٦ (أساس القياس العام السابق)

السنة	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩[١١]	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢
نسبة التضخم	٤٣٪	٢٤٪	١٣٪	١٥٪	١٦٪	٩٪	٢٪	٢,٣٪	٦,٨٪	٩,٤٪
السنة	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦[١٢]	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢
نسبة التضخم	٦,٦٪	٥,١٪	٧,٧٪	٨٪	١,٦٪	٢,١٪	٢,٥٪	٦,١٪	١٢٪	١٢,٩٪
السنة	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦[١٣]						
نسبة التضخم	٢٠٪	٣٩,٧٪	٣٩,٣٪	٣١,٣٪						

ويلاحظ من خلال الجدول السابق أن أعلى معدلات التضخم قد كانت للسنوات ١٩٥٣ ــ ١٩٥٧ ، ولقد قيل بشأن العام ١٩٥٧ أنه الوقت الذي « أصبحت فيه المصانع الأسرائيلية جاهزة لأستقبال الآلات »[١٤]، ولذا، فقد هبط معدل التضخم في السنوات اللاحقة بهذه النسبة أو تلك ، ولكنها لم تبلغ في أي من سنوات المرحلة الثانية المعدلات التي بلغتها في سنوات المرحلة الأولى ، وذلك عائد الى أختلاف طبيعة المرحلتين .

لقد ظهرت النتائج المستقبلية الهامة في مرحلة ما بعد ١٩٦٧ ، اذ، وبالرغم من وقوع الحرب ، هبط معدل التضخم الى ادنى معدل له في تاريخ أسرائيل الأقتصادي حيث لم تبلغ النسبة سوى ١,٦٪ .

هبوط معدل التضخم ، بعد ١٩٦٧ ، هو الوجه الآخر للطاقة الأنتاجية العاطلة في الصناعة الأسرائيلية سنة ١٩٦٦ ، تلك الطاقة التي أمكن تشغيلها بفعل الموارد التي توفرت للأقتصاد الأسرائيلي اثر حرب ١٩٦٧ . لأن مزيداً من الأنتاجية ، ومزيداً من السلع المعروضة ، وهو ما حدث فعلا ، سيعني بدرجة او بأخرى توازنا بين عرض النقود وعرض السلع وبالتالي أستقراراً نسبيا في الاسعار .

التضخم بفعل قرار سياسي

النوع الرابع من التضخم ، وهو ما تعاني منه أسرائيل حالياً ، هو التضخم الناتج عن قرار سياسي ، دون أن يكون لأعتبارات السوق المحلية ، دور أساسي فيه ، والحديث عن هذا الأمر ، هو بالأساس حديث عن السياسة الأقتصادية الجديدة التي تنفذها

الحكومةالأسرائيلية ، والتي هي أخطر بكثير ، ولها من الأغراض والنتائج الايجابية على الصعيد الوطني ، ما لا يقارن البتة بالآثار السلبية لموجات التضخم على صعيد المستوطن العادي .

قبل تناول هذه المسألة لا بد من الأشارة الى أمر ملفت للنظر ألا وهو التزايد الطفيف في الأسعار للسنوات الأربع التي تلت حرب ١٩٦٧ ، والذي ترافق مع تزايد في الأنتاج القومي بنسب تكاد تكون قياسية ، ونلحظ في نهاية السنوات الأربع هذه آثار حرب الأستنزاف ، وتنامي قطاع البناء ، ان بفعل تزايد معدل الهجرة والطلب على المساكن ، أو لأعتبارات صناعية اخرى ،ولذا فقد عادت معدلات التضخم الى الأرتفاع ثانية ، الى ان بدأت جنونهـا سنة ١٩٧٣ وتابعت صعودها بنسب كانت تتزايد من عام لآخر . ولكن جنون الأسعار هذا ترافق مع جنون من نوع معاكس اصاب الميزان التجاري الأسرائيلي .

ثمة « أصرار » من قبل بعض وسائل الأعلام على تدهور وضع الميزان التجاري الأسرائيلي وميزان المدفوعات،اذارتفع العجز من حوالى مليار دولار في عام ١٩٧٢ الى ملياري دولار سنة ١٩٧٣ والى ٣,٥ مليارات سنة ١٩٧٤ »(١٥) . رقم مخيف ، ولكن !

حسنا ، لنتابع القراءة ، التاريخ لم يتوقف سنة ١٩٧٤ ، نحن في عام ١٩٧٩ ، خمس سنوات كافية لأن تعتبر مرحلة كاملة ، من الضروري على الأقل ان نعرف ما شهدته من تطورات . لو تابعنا قراءة الأرقام والسنوات لأكتشفنا أن العجز سنة ١٩٧٥ قد بلغ ٢٠٢٨ مليون دولار (اقل من سنة ١٩٧٤) انخفض ثانية سنة ١٩٧٦ الى ١٥١٣ مليـون دولار ... (١٦) .

خداع الأقام واخطار الخلط/ بين علم الحساب وعلم الأقتصاد

كي لا نقع في خداع الأرقام ، ونسهم عن حسن نية في نشر « الوعي الزائف » او في « الحملة المضادة من الوعي الزائف ايضا »،

علينا بالتساؤل عن ايهما أكبر « مليار دولار » سنة ١٩٧٢ أم مليار دولار و نصف سنة ١٩٧٦ ؟ حسابيا ، الجواب معروف سلفا ، ولكن أقتصاديا ، وبفعل التضخم الذي شهده العالم الرأسمالي عموما ما بعد ١٩٧٣ ، فأن القدرة الشرائية للمليار ونصف مليار دولار سنة ١٩٧٦ لا تساوي القدرة الشرائية لمليار دولار سنة ١٩٧٢ . في هذه الطريقة يعمم « الوعي الزائف » وحيث يقاس علم الأقتصاد بمعايير علم الحساب ، فالنقود كوسيلة لأختزان القيم ، ووسيط للتبادل تستمد أهميتها من موقع الطرف صاحب العلاقة ، وعما اذا كان دائنا أم مدينا ، مالكا للنقد كقيمة مختزنة ، أم سلع ، كقيمة أستعمالية بحد ذاتها ، لا يؤثر التضخم على قيمتها ، لكنه يسهم في رفع كمية النقود (السعر) التي يجب ان تدفع لقاء الحصول عليها . وهنا يمكن لنا ان نتساءل هل سيكون مطلوباً من أسرائيل أو غيرها سنة ١٩٧٦ نفس المقدار من السلع والخدمات التي كانت ستقدمها سنة ١٩٧٢ لقاء نفس المبلغ الذي يستحق عليها في السنتين المذكورتين ؟ قطعا لا ، وهذا هو السبب الذي دفع أحد المسؤولين الصهاينة لطمأنة المتخوفين من أرتفاع مديونية أسرائيل للخارج ، بقوله : « من جراء التضخم ، سندفع مقابل ديوننا سلعا اقل » ، وهذا يفسر لنا ولو جزئيا هبوط أحتياطي العملات الأجنبية في

اسرائيل ، وبالذات في السنوات الأخيرة ، رغم تحسن الصادرات وبقاء المساعدات الخارجية على نفس معدلها السابق .

جنون ايجابي واخر سلبي

ترافق جنون التضخم كمظهر سلبي مع مظهر ايجابي آخر ، هو تحسن مضطرد في الميزان التجاري كما يدلنا عليه الجدول التالي :

جدول بصادرات وواردات اسرائيل لجميع انحاء العالم والنسبة بينهما (بملايين الدولارات)

السنة	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦[17]	١٩٧٧[18]
الصادرات	٢٠٣٩,٥٠٨	٢٢٠٢,٢١٥	٢٦٩٩,٢٨١	٣٤١٦,٤
الواردات	٤٢٨٣,٧١٤	٤٢٣٠,٢٦٢	٤٢١٢,٦٥٧	٤٩١٥,٢
نسبة الصادرات للواردات	٪٤٧,٦	٪٥٢,١	٪٦٤,١	٪٦٩,٥

جدول بصادرات وواردات اسرائيل والنسبة بينهما لجميع انحاء العالم والمناطق المحتلة ١٩٦٧ (بملايين الدولارات)

السنة	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨
الصادرات	١٧٣٧,٣٨٤	١٨٣٤,٥٦٣	٢٣٠٦,٥٦٠[19]	٣٠٨٣,٢[21]	٣٧١٨,٢
الواردات	٤١٧٦,٥٤٣	٤١٠٨,٦٨٤	٤٠٦٨,٥٨٧	٤٨٤٥,٢	٥٦١٩,٢
نسبة الصادرات للواردات	٪٤١,٦	٪٤٤,٧	٪٥٦,٧[20]	٪٦٣,٦	٦٦,١[22]

مقابل كل مئة دولار ، واردات اسرائيلية ، كانت تصدر اسرائيل سنة ١٩٧٤ ، ٤٧,٦ دولارا . سنة ١٩٧٨ أرتفع الرقم الى حوالي ٧٢ دولارا بفارق ٢٤,٤ دولاراً خلال خمسة أعوام ..[23] سنة ١٩٧٦ ، هبط رقم الواردات عما كان عليه سنة ١٩٧٥ بـ ١٨ مليون دولار ، لكن رقم الصادرات أرتفع خلال نفس العام بحوالي ٥٠٠ مليون دولار .

٥٠٠ مليون دولار زيادة في الصادرات خلال عام واحد . العجز سنة ١٩٧٦ كان ١٥١٢ مليون دولار ، ترى فيما لو حافظت زيادة الصادرات على الوتيرة نفسها ، ألا يعني هذا أن اسرائيل خلال ثلاثة أعوام ستكون في وضع متوازن : الصادرات تساوي الواردات ؟ اذا لقد كان من الضروري أن نتابع القراءة لما بعد ١٩٧٤ !

ثمة تساؤل : ولكن ما زال هنالك عجز تجاري ، كلام صحيح ، ولكن الفجوة تضيق

بأستمرار بين الصادرات والواردات ، وليس لنا أن نرى العجز ، دون أن نلاحظ تسارع نمو الصادرات وبالنسب المشار اليها .

ما تقدم يضعنا في مأزق ، مأزق ناتج عن تناقض دلالات الجداول الخاصة بالتضخم ، وجنون الأسعار ، ودلالات نمو الصادرات ونسبتها للواردات . مأزق لأن التضخم يعني « نقصا » في السلع . وتحسن الصادرات يعني « زيادة » في السلع . التناقض ناتج عن منطق شكلي يحكم علاقة التضخم بالعجز في الميزان التجاري . ولا يعود ثمة تناقض فيما لو وضعت المسائل في أطارها العلمي الصحيح ، فيما لو حددت الأولويات ، فيما لو أوضحت السياسة الأقتصادية المتبعة .

استهلاك الأنتاج أم تصديره ؟

سبق لنا الأشارة الى تناقض ظاهرة التضخم التي تعني نقصا في السلع مع ظاهرة زيادة الصادرات ، التي تعني زيادة في السلع ، « النقص » كان في السلع المخصصة للسوق الداخلية ، « والزيادة » كانت في السلع المخصصة للسوق الخارجية . وأية زيادة في مخصص السوق الأولى لا بد وأن تكون على حساب ما يخصص للسوق الثانية . هذه قاعدة بديهية من قواعد علم الأقتصاد ، وأسرائيل تعمل بموجبها منذ سنة ١٩٧٢ . قاعدة تنطبق على اسرائيل ، كما تنطبق على الولايات المتحدة ، كما على الاتحاد السوفياتي ، كما على اي دولة اخرى . قاعدة بديهية ، لأن هنالك ندرة في الأقتصاد ، ولو أطلقت الرغبات الشرائية لما أمكن سدها ولذا ففي حالة الدولة ، كما هو في حالة الفرد العادي ، لا بد من التوفيق بين الحاجات المتناقضة ، وتوزيع الموارد المتاحة حسب الأولوية .

في أسرائيل كان التناقض بين تخصيص كل الأنتاج للأستهلاك المحلي ، أو تصدير نسب متزايدة من الأنتاج،وذلك يكون عادة على حساب الأستهلاك المحلي ، وهو أمر يؤدي حكما للتضخم .

كان القرار الأسرائيلي اختيار طريق الأستقلال الأقتصادي ، من خلال رفع نسبة صادراته لوارداته . ما كان من الممكن ، سلوك ذلك الطريق الا على حساب المستهلك في الداخل . سياسة سليمة لأنه من الأولى الضغط على النفس ، لتخفيف الدين ، والحاجة للخارج . وعلى سبيل المثال فقد زادت صادرات اسرائيل سنة ١٩٧٦ قياسا للعام ١٩٧٥ بـ ٤٩٩,٥ مليون دولار وخفضت الواردات بـ ١٧,٦ مليون دولار،أي أن العجز التجاري قد خفض بـ ٥١٧,١ مليون دولار-اي انه قد أقتطع من السوق الأسرائيلية سلعا تساوي المبلغ المذكور ، أي نقص في السلع ، وبالتالي تضخم . السؤال ، فيما لو أن اسرائيل قد قررت عدم زيادة صادراتها وابقاء العجز التجاري على ما كان عليه في العام السابق فمما لا شك فيه أن التضخم كان سيقل ، وان لم نقل سيتلاشى .

التصدير أو الموت

سنة ١٩٧٣ ، وأثر انعقاد المؤتمر الأقتصادي الثالث ، لخصت صحيفة « الجيروزاليم

بوست » مهمة المؤتمر بالشعار الذي اطلقته بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية وهو«التصدير أو الموت »[٢٤].الأمر ليس بهذه الخطورة ، فالهدف منذ سنة ١٩٦٩ : « ان تزيد الصادرات بمعدل ١٥٪ سنويا ونبقي وارداتنا بنسبة ١٠٪ » لماذا ؟ اجاب دافيد هوروفيتش حاكم البنك المركزي السابق ، اذا حدث هذا « فسنحقق استقلالنا الاقتصادي خلال عشر سنوات »[٢٥].قبل ذلك وصفت جويش اوبزرفر هدف المؤتمر الاقتصادي التحضيري الذي عقد سنة١٩٦٧ بانه لـ « أسداء المشورة الى دولة اسرائيل حول أفضل السبل للتوصل الى هدفها الأقتصادي بالأكتفاء الذاتي »[٢٦] ، وقد كانت هذه المسألة محط اهتمام المؤتمر الأقتصادي الثاني والثالث كما سبقت الأشارة .

أن قراءة دقيقة في الميزان التجاري الأسرائيلي ما بعد ١٩٧٠ تبين لنا ان الفجوة بين الصادرات والواردات ، تهبط بأستمرار ، ما عدا عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤ حيث هبطت النسبة لكنها عادت للصعود ثانية كما سبق لنا الأشارة . وذلك رغم ان عدد السكان قد تزايد من ٣,٠٢٢ مليون سنة ١٩٧٠ الى ٣,٥٧٥ مليون سنة ١٩٧٦[٢٧] اي بفارق يبلغ ٥٥٤ ألف نسمة . وهؤلاء طاقة استهلاكية جديدة لا بد من ان توفر أحتياجاتهم ، وأن يخصص لهم نصيبهم من السلع المنتجة .

التضخم ومظلة الحرب

لم تتعود اسرائيل تبديد الفرص ، تلك حقيقة يجب الأقرار بها . وجدت في حرب تشرين مناسبة ملائمة لتطبيق سياستها الأقتصادية المقرة قبل الحرب ، والتي تقضي بزيـادة الصادرات . لقد قررت ان تلعب أوراقها جميعا ، دفعة واحدة .

الورقة الأولى ، كانت معدلات التضخم العالية التي ترتبت على حرب تشرين ، وهي ظاهرة طبيعية ترافق الحروب عادة ، وقد سبق لنا الأشارة اليها . ارتفع معدل التضخم سنة ٧٣ الى ٢٠٪ ، عاد للأرتفاع ثانية سنة ١٩٧٤ الى ٣٩٪ واستمر منذ ذلك الحين ولم يتوقف .

حسنا ، حرب تشرين أفرزت تضخما ، ولكن الحرب انتهت. مرة اولى سنة ١٩٧٥ ، بفك الأشتباك الثاني ، مرة ثانية سنة١٩٧٨ بزيارة السادات . سنة ١٩٧٩ بتوقيع معاهدة استسلام السادات لأسرائيل . ذهبت الحرب وبقي التضخم ، أستمر بفعل السياسة المرسومة سلفا ، وما قبل الحرب التي أتت لتشكل غطاء مناسبا ، لكي تنفذ السياسة التضخمية بهدف زيادة ما يخصص للخارج ، وعلى حساب الأستهلاك الداخلي . وقد أشار موشي زنبار حاكم البنك المركزي سنة ١٩٧٢ الى أن « السياسة الأقتصادية ينبغي ان تهدف الى القاء العبء الأساسي على الأستهلاك الفردي والمحافظة على أقصى سرعة للزيادة في الصادرات »[٢٨].ولقد كانت « سياسة تشجيع التصدير وتخفيض الأستيراد » محل اتفاق اقتصاديي المعراخ والليكود حيث قدموا الحلول نفسها مقترحين«أعانة للمصدرين ورفع اسعار الواردات» [٢٩] وذلك أنسجاما مع الدعوة الى التصرف انطلاقا من الأولوية في جميع المجالات هي بهدف زيادة الصادرات[٣٠].كان هذا هو عنوان البرنامج الأقتصادي ، ولم تكن لدى الأسرائيليين اوهام حول أن « جميع البنود الأخرى في البرنامج الأقتصادي مشروطة بتخفيض القدرة الشرائية لدى الجمهور »[٣١] وهي الدعوة نفسها التي عبر عنها دافيدهوروفيتش الحاكم السابق لبنك اسرائيل

حيث قال في ١٦ آذار ١٩٧٢: « يجب تقليص القوة الشرائية العامة في البلد »(٣٢). بكلمة اخرى ، الدعوة الى اتباع سياسة تضخمية .

لم يكن ممكنا زيادة الصادرات ، الا على حساب كبح الاستهلاك الفردي . كانت الأمكانيات التسويقية أغراء كبيراً لأسرائيل فمنذ ١٩٦٨ اعلن نائب وزير المال الأسرائيلي ان « مجالات التسويق اكثر مما نستطيع ان نغطيها.. »(٣٣) ، سنة ١٩٧٨ ، كانت المشكلة هي ذاتها فـ « هنالك عدة طلبات لمنتوجات صناعية الى بلدان خارجية بقيمة نصف مليون دولار لا تستطيع المصانع في أسرائيل انتاجها ... »(٣٤) .

تقليص القوة الشرائية للجمهور يكون عبر وسائل متعددة ، اسهلها واسرعها تأثيراً ، رفع الأسعار بفعل التضخم ، وابقاء الزيادة في المداخيل أقل من زيادة الأسعار ، وبذا يحصل المستهلك على سلع أقل مما يحصل في السابق . ما يمكن توفيره من سلع أن بسبب التضخم أو بسبب زيادة الأنتاج يوجه للخارج لتحسين الصادرات ... وهذا ما حدث .

السياسة الأسرائيلية المشار اليها ، كان الأستاذ الدكتور يوسف شبل قد توقعها منذ سنة ١٩٧٠ حين عدد البدائل التي قد تلجأ اليها اسرائيل لحل مشاكلها الاقتصادية فوضع « خفض حجم الأستهلاك للجمهور لتخفيف العبء على الميزان التجاري »(٣٥) في رأس المقترحات ـ البدائل التي أفترض حدوثها . الأمر الذي يمكننا من القول ان السياسة التضخمية التي لجأت اليها اسرائيل ، سواء في عهد المعراخ او الليكود ، هي السياسة المنسجمة مع المعايير الأقتصادية السليمة والتي يعتقد بها اقتصادي عربي بارز .

الهجرة ومستوى المعيشة والتضخم

كانت لدى المخطط الأقتصادي الأسرائيلي ورقة ثانية ، أستغلها جيدا ، وأعطته امكانية كبيرة للضغط على مستوى الأستهلاك الفردي في اسرائيل ، دون أن يكون لهذا الضغط مضاعفات خطرة ، لأنه سرعان ما يتبادر للذهن موضوع « مستوى المعيشة المرتفع » كشرط لتدفق الهجرة . ومن هنا كانت المقولة المعروفة ، عن انه « بدون هجرة لا توجد اسرائيل ، وبدون مستوى معيشة مرتفع لا توجد هجرة »(٣٦) ، ومهما قيل في نسبية هذه المقولة فمما لا شك فيه ان لها دوراً في اتباع اسرائيل لـ « سياسات اقتصادية مجافيـة للمنطـق الأقتصادي(٣٧) وبأعتبار « ان الأجراء الأقتصادي السليم قد لا يكون اجراء سياسيا سليما(٣٨) » فأن « المعايير الاقتصادية كانت تتراجع أمام المعايير الأيديولوجية عند ظهور تناقض بينهما(٣٩) . ولذلك فان الأجور التي كانت تدفع كانت تفوق الأنتاجية الحدية للقوى العاملة »(٤٠) لهذا السبب فأن الاستقلال الأقتصادي وتعديل وضع الميزان التجاري ، يصبح ممكنا فيما لو كان هنالك أستعداداً للتضحية . بمعدلات الأستهلاك العالية ، ولكن هل معدلات الأستهلاك عالية ؟ نعم ، أن مستوى المعيشة في اسرائيل ومنذ سنة ١٩٦٨ « اعلى من مثيله في ايطاليا وهولندا والنمسا »(٤٢) لماذا ؟ لأن « الحفاظ على مستوى المعيشة المرتفع ضمان للأمن القومي »(٤٣) ، لهذا السبب حرصت اسرائيل وحتى سنة ١٩٧٣ على عدم المساس بمستوى

المعيشة ، بل واكثر من ذلك فقد كان « راتفاع الأجور في بعض الأحيان اكبر من ارتفاع الأسعار » . (٣٪ ارتفاع الأجور : ٢٪ ارتفاع الأسعار)(٤٤) .

سنة ١٩٧٣ ،/ ١٩٧٤ ، كان لدى المستوطن الصهيوني مستوى معيشة جيد ، كان الجو السياسي مؤاتيا لأطلاق جنون التضخم ، وكانت السياسة الأقتصادية ومنذ أيار ١٩٧٣ واضحة ، تخفيض الأستهلاك الداخلي وزيادة الصادرات ، لذا فقد كان رأي موشي زينار حاكم البنك المركزي « يجدر تخفيض مستوى المعيشة »(٤٥) . دان بنتكن أستاذ الاقتصاد في الجامعة العبرية ، اعتبر « خفض مستوى المعيشة سابقة لا مثيل لها في تاريخ الأقتصاد الأسرائيلي » ولكن هل ثمة خطر ؟ كان جواب بنتكن « الأقتصاد الأسرائيلي أستطاع من سنة لأخرى رفع مستوى معيشة السكان بنسبة ٥٪ وأكثر . الأرتفاع الدائم في مستوى المعيشة في الماضي وخصوصا منذ سنة ١٩٧٠ يوفر لنا ، من ناحية أخرى ، ما هو بمثابة الأحتياطي الذي يمكننا من أمتصاص الخفض اللازم في مستوى المعيشة الآن ، دون الوصول الى وضع خطر لا يمكن أحتماله »(٤٦) .

كان دان بنتكن يعرف مقدار « الدهن » الذي على جسد المستوطن الصهيوني.كان يعرف ان الضغط هو في حدود التحمل . لذلك ، وابان المظاهرات التي نظمها الهستدروت احتجاجا على اجراءات حكومة الليكود اتضحت معاني وحدود الضغط والعبء الذي وقع على المستوطنين الصهاينة . احد المتظاهرين كان يدعى « دافيد يحزقيل » قال : « كنت اتدبر اموري بصعوبة قبل زيادة الأسعار ، اما الآن فقد تحطمت تماما » ! ترى ما يعني بـ « تحطم تماما ؟ . اضاف « هناك نفقات ومصروفات للملابس ، وليس بأستطاعتي ان لا البس اولادي جيداً ، هذا يؤثرعلى معنوياتهم... ماذا اقول لك ،.. بؤس كامل ، ان زيادة الأسعار الأخيرة كسرتنا تماما »(٤٧) .وليفي بدورهما. تظاهرا ايضا ، قالا انهما يقيمان في شقة من ثلاث غرف نوم لديهما سيارة قديمة ، لكن لماذا يتظاهران ؟ ليفي اجاب على سؤال مراسل الأذاعة : « ان الحياة صعبة ، وخاصة بالنسبة للنزهات فأنها تكلف كثيراً » ، زوجته مريام سئلت ، هل أثر ذلك على حياتكم وعلى طعامكم ، مريام اجابت :«.بالنسبة للطعام لا ، لكني اعمل حسابي ، بدل ان اشتري لبنة اشتري لبنا ، بدل ان اشتري خبزاً فاخراً اشتري خبزاً عادياً »(٤٨) .

ان الأشارة لما تقدم أنما هي بغرض تبيان طبيعة المشاكل المعيشية التي قد يجابهها المستوطن الصهيوني ، والتي هي مشاكل مواطن دولة صناعية متقدمة ، لها نمطها في الأستهلاك والمتطلبات ، حيث تتزايد الكماليات التي تنتقل الى مصاف الضروريات ، ومن هنا لا يجوز البتة قياس المشاكل المعيشية في اسرائيل بمقاييس دولة نامية، نظرا لأختلاف المتطلبات ، وعادات الأستهلاك، وبالتالي الخط الأحمر الذي يجب أن لا تتجاوزه عملية التخفيض، وبكلمة أدق عدم تحسين مستوى المعيشة .

وفي هذا الأطار لا بد لنا من تسجيل تحفظ ، وذلك تجنبا لسوء الفهم ، ان هذه الدراسة لا تستطيع تناول المشاكل الأجتماعية والمعيشية الا في اطارها العام ، وفي حدود تماسها مع موضوع التضخم الذي هو محور هذه الدراسة ، هذا من ناحية . ومن ناحية اخرى ، فان مضامين كلمة « مستوى معيشة » تحتمل سوء فهم كبيرا ، كما هو حال تعبير التضخم ، حيث

تبين لنا تعدد الاسباب التي قد تؤدي اليه ، أو النتائج التي تترتب عليه ، والتي تختلف جذريا بين حالة واخرى .

تخفيض سعر الليرة وعلاقته بالتضخم والعجز في الميزان التجاري

سبق لنا الاشارة الى ان محور الخطة الاقتصادية الأسرائيلية كان تحسين وضع الميزان التجاري ، وبالتالي فقد مارست اسرائيل سياسة تضخمية بغرض كبح الاستهلاك الفردي وتوجيه مزيد من السلع المنتجة نحو التصدير ، تساوي ، اهمية الزيادة في الصادرات تخفيض الواردات ، وبتقليل حجم الطلب على السلع المستوردة ، ومن أبرز الوسائل التي يمكن ان يتم اللجوء اليها ،رفع أسعار الواردات . وهي مسألة يمكن الوصول اليها من خلال رفع نسبة الجمارك المفروضة على الواردات او تخفيض سعر صرف العملة بالقياس للعملات الاخرى ... ولكل من الخطوتين آثارهما المختلفة لناحية حدود تأثيرها والمجالات التي تمسها .

ان فرض رسم جمركي يساوي ١٠٠٪ من قيمة السلعة المستوردة يضاعف من سعرها ، ولكن رفع الرسم الى ٢٠٠٪ يضاعف سعرها مرتين ، ويخفض مقدار المستهلك منها حجم الطلب عليها ، وبالتالي تنخفض الواردات . لهذه السياسة آثار جانبية ضارة على صعيد الصادرات ، حيث يترافق هبوط الواردات مع هبوط مشابه في الصادرات ، وذلك لأن فرض جمارك عالية على الواردات ، لا بد وان تقابل بحواجز جمركية من نفس المعدل من قبل الدول الأخرى التي تصدر لأسرائيل لكنها في الوقت نفسه مستوردة للبضائع الاسرائيلية .

أضافة لذلك فأن هنالك أتفاقيات عامة تنظم وضع التجارة الدولية ، كما أن هنالك أتفاقيات خاصة تربط بين أسرائيل وبعض الكتل الاقتصادية الهامة في العالم (السوق المشتركة) ، أتفاقيات ، رغم التسهيلات المؤقتة ، وفترة السماح المعطاة لأسرائيل لناحية الأحتفاظ بالحواجز الجمركية على وارداتها لفترة معينة ، فان اسرائيل مضطرة ،وبموجب الأتفاق المذكور الى رفع تلك الحواجز في نهاية المطاف .

لذا فقد كان الأفضل ، آنيا ومستقبليا معا ، ولمصلحة الصادرات والواردات على السواء ان تلجأ إلى خيار آخر الا وهو تخفيض مقدار سعر صرف العملة الأسرائيلية قياسا للعملات الأخرى ، او ما يعرف بتخفيض قيمة العملة ، رغم ما يحتمل هذا التعبير من دلالات خاطئة يتجنبها التعبير الأول . وهنا وكما هو شأن التضخم ، لا يجوز الخلط بين الأسباب المختلفة والمتعددة للقرارات الأسرائيلية المتعاقبة بتخفيض سعر صرف الليرة الأسرائيلية .

١ ـ التخفيضات الأولى التي لحقت بسعر الليرة الأسرائيلية كانت تابعة ومنسجمة مع التخفيضات التي أجريت على الجنيه الاسترليني والدولار الأميركي ، وبحكم أرتباط الليرة الأسرائيلية بأسواق هاتين العملتين،تصديرا وأستيرادا، فقد كان على أسرائيل ان تخفض سعر صرف عملتها بنفس النسب التي خفضت بها تلك العملات ، وذلك حفاظا على مواقعها في أسواق تلك البلدان (٤٩) .

٢ ـ النوع الثاني من التخفيضات والتي عرفت بـ « التخفيض الزاحف » والذي بدأ مع المعراخ واكتمل مع الليكود ، كان هدفه ليس تثبيت وضع الصادرات والواردات . بل تحسين الأولى ، وتخفيض الثانية.كيف ؟

أرتفاع سعر صرف الليرة من ١٠ ليرات اسرائيلية مقابل الدولار الواحد الى عشرين ليرة اسرائيلية ، يعني على صعيد الواردات ان المستهلك الاسرائيلي سيدفع مقابل سلعة اميركية دولارا واحد ، اي ١٠ ليرات أسرائيلية في الوضع الأول و ٢٠ ليرة اسرائيلية في الوضع الثاني. والعكس صحيح على صعيد الصادرات حيث سيدفع المستهلك الاميركي دولاراً واحدا لشراء سلعة اسرائيلية قيمتها ٢٠ ليرة اسرائيلية بناء على السعر الجديد،في حين كان سيدفع دولارين بناء على السعر القديم ، وذلك على افتراض ان سعر صرف الدولار قد بقي ثابتاً .

ان ما تقدم يعني أن المستهلك الأسرائيلي سيدفع مبالغ أكبر من النقود الأسرائيلية مما كان يدفع في السابق لقاء الحصول على نفس السلعة . وذلك دون أن تكون الدولة مضطرة لرفع نسبة الجمارك على وارداتها . وبذا تلعب مسألة تخفيض العملة الدور الذي يؤديه التضخم .

من ناحية ثانية ، تؤدي عملية تخفيض سعر صرف العملة ، الدور الذي كانت تؤديه سابقا « اعانات التصدير » والتي كانت تدفع بواقع ١٠٪ من قيمة الصادرات(٥٠) . أي ان المصدر يحصل على قيمة صادراته عن طريقين : سعر البيع في الأسواق الخارجية ، وأعانة التصدير التي تدفعها الدولة للمصدر . ولكن اسرائيل لم تعد قادرة على تقديم أعانات تصدير للسلع المصدرة لأسواق دول السوق الأوروبية المشتركة، لاعتبارات تتعلق بقوانين السوق المشتركة التي تحرم الا في حدود استثنائية تقديم دعم لبعض السلع المصدرة بين دولها ، وهي محصورة في السلع الزراعية .

من خلال رفع سعر صرف العملات الأجنبية، بالقياس لليرة الأسرائيلية،يعود على المصدر الأسرائيلي عائد من الليرات الأسرائيلية ثمنا للبضائع المصدرة اعلى من العائد/الثمن الذي كان يعود عليهم من اساس سعر الصرف القديم،وبهذه الطريقة تتلافى أسرائيل الآثار المترتبة على الغاء الحواجز الجمركية على وارداتها ، وتوقفها عن منح أعانات تصدير لبضائعها المصدرة .

في هذا الخصوص تجدر الأشارة الى أن مسألة تخفيض سعر صرف الليرة الأسرائيلية بشكل زاحف قد بدأ تنفيذه منذ سنة ١٩٧٥ ، وفي عهد المعراخ ، وقيام حكومة الليكود بتخفيض سعر الصرف مرة واحدة ، وبمعدلات كبيرة ، لا ينفصل البتة عن بدء سريان الشق الصناعي من اتفاق اسرائيل والسوق المشتركة ، حيث فتحت أسواق الأخيرة امام الصادرات الأسرائيلية .

أن مراقبة تطور وضع الليرة الأسرائيلية والتضخم ، ووضع الميزان التجاري الأسرائيلي يشير ألى أن اسرائيل قد تمكنت من تحقيق الهدف المعلن لسياساتها وخططها الأقتصادية الموضوعة منذ سنة ١٩٧٣ ، والقائمة على اعطاء الاولوية لزيادة الصادرات وتخفيض الواردات ، على طريق تحقيق قدر من التوازن في ميزانها التجاري حتى ولو كان ذلك ولفترة معينة على حساب كبح الأستهلاك الفردي . وهي تضحية مقبولة ، وسعر مناسب جداً لكي ترتفع نسبة الصادرات للواردات من ٤٧,٦٪ سنة ١٩٧٤ الى حوالي ٧٠٪ سنة ١٩٧٧ .

الخيار الصعب والحل البديل

ان لجوء اسرائيل الى خيار صعب مهما قيل في شأنه ، خيار بين التضخم الذي لا بد وان يمس حكما مستوى المعيشة ، وبين استمرار العجز في الميزان التجاري ، لا يعني ان باب الخيارات قد اغلق . هنالك طريق آخر هو زيادة الأنتاج بما يغطي فرص التصدير للخارج وحاجات الأستهلاك الداخلي في آن معا ، حيث لا يكون تخصيص مزيد من السلع للأسواق الخارجية على حساب الطلب الداخلي .

الخيار الجديد يبدو في الأفق مع السلام ، مع احتمال تدفق اليد العاملة الرخيصة من جديد ... فهنالك طلبات لمنتوجات صناعية الى بلدان خارجية بقيمة نصف مليار دولار ، لا تستطيع المصانع في اسرائيل انتاجها وتزويدها بسبب النقص في الطاقة البشرية »(٥٨) . التاريخ ربمايتكرر. ربما نعود لسنة١٩٦٧ والفرص الجديدة التي اتيحت للأقتصاد ذلك العام . حينذاك ربما تحقق اسرائيل سنة ١٩٧٩ سلما ، ما كانت قد حققته سنة ١٩٦٧ حربا .

الحواشي

(١) فارس غلوب ، جريدة السفير البيروتية ، عدد يوم ١٩٧٩/٣/٣١ ص ١١ .
(٢) شؤون فلسطينية ، عدد شباط/آذار ١٩٧٩ رقم ٨٨/٨٧ ، ص ٦٧
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .
(٥) راجع : دراسات في الاقتصاد ، اسلوب الأنتاج الراسمالي ، بيروت ، دار الفارابي ، لا تاريخ للنشر ، راجع « الأزمات الاقتصادية ــ اساس ازمات فيض الانتاج » حيث تشير الدراسة الى ان « الأزمات الراسمالية هي ازمات فيض انتاج ، وأول ما تظهر به الأزمة هو كساد البضائع التي انتج منها اكثر مما يمكن ان يستوعبه المستهلكون الرئيسيون ... » .
(٦) « الرأسمالية القديمة » ، هي راسمالية المزاحمة الحرة . والطور ما قبل الأخير في تحول الرأسمالية الى امبريالية . راجع . لينين ، الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية ، موسكو ، منشورات دار التقدم سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٥ .
(٧) فورييه ، نصوص مختارة ، باريس ، سلسلة المطبوعات الشعبية اصدار دار المنشورات الاجتماعية ، ١٩٥٣ ، ص ١٠٥ ، ذكرها كتاب اسلوب الأنتاج الراسمالي ص ١٩١ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ٢٥٤و دكتور محمد زكي الشافعي ، مقدمة النقود والبنوك ، بيروت دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٠ ، المبحث الثالث ، ص ٧٣ .
(٩) شافعي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٥ .
(١٠) حسين ابو النمل بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ، بيروت مركز الأبحاث ، ١٩٧٥ ، ص ٥ ــ ٥١
(١١) الاحصائيات الاسرائيلية ، سنة ١٩٦١ ص ٣٣٩ ، وذلك للسنوات ١٩٥٣ ــ ١٩٥٩ .
(١٢) المصدر نفسه ، سنة ١٩٦٧ ص ٢٤٠ وذلك للسنوات ١٩٦٠ ــ ١٩٦٦ .
(١٣) المصدر نفسه ، سنة ١٩٧٧ ، ص٢٣٤.
(١٤) ابو النمل ، مصدر سبق ذكره .
(١٥) السفير ، مصدر سبق ذكره .
(١٦) الاحصائيات الاسرائيلية ، سنة ١٩٧٧ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .
(١٧) المصدر نفسه ، سنة ١٩٧٧ ص ١٨٤ ــ ١٨٥
(١٨) المصدر نفسه لسنة ١٩٧٨ ص ٢١٢ ــ ٢١٣ .
(١٩) المصدر نفسه سنة ١٩٧٧ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .
(٢٠) النسب مستخرجة .
(٢١) النشرة الشهرية للاحصائيات الاسرائيلية ، عدد ديسمبر ١٩٧٨ ، ص ٣٢ .
(٢٢) المصدر نفسه ، شباط ١٩٧٩ ص ٣٠ .
(٢٣) البيانات بشأن تجارة اسرائيل الخارجية لسنة ١٩٧٨ تنقصها تجارة اسرائيل مع المناطق المحتلة ١٩٦٧ ، ومن خلال البيانات المتوفرة عن السنوات السابقة يتضح ان المناطق المحتلة ١٩٦٧ ترفع نسبة الصادرات للواردات. بحد ادنى يبلغ ٧٪

وعلى هذا فقد اضيفت لنسبة ١٩٧٨ (مع جميع انحاء العالم عدا المناطق المحتلة ١٩٦٧) حيث امكننا التوقع ان الحد الأدنى لنسبة الصادرات للواردات كانت ٧٢٪ (٦٦,١٪ ــ ٥,٩ ٪).

(٢٤) ذكرتهـــا **نشرة مؤسسة الـــدراسات الفلسطينية** ، سنة ١٩٧٣ ، عن جيروزاليم بوست ١٩٧٣/٣/٢ ص ٢٨٩.

(٢٥) **المصدر نفسه** ، عن جيروزاليم بوست عدد يوم ١٩٦٩/٧/١ ، وذلك في المجلد ١٩٧٣ ، ملحق العدد ٩ ، ص ٢٨٥ .

(٢٦) **المصدر نفسه** ص ٢٨٠ ، عن جويش اوبرزفر ، عدد يوم ١٩٦٧/٨/١٨

(٢٧) **الاحصائيات السنوية** لسنة ١٩٧٧ ، ص ٢٠ .

(٢٨) **نشرة مؤسسة الدراسات** مجلد سنــة ١٩٧٤ . ص ٢٥ ، نقلا عن دافار ، ١٩٧٣/٢/١٦

(٢٩) **نشرة رصد اذاعة اسرائيل** رقم ٥٦٩ .

(٣٠) **نشرة مؤسسة الدراسات** ، مجلد سنــة ١٩٧٤ ، ص ١٨٥.

(٣١) **نشرة رصد اذاعة اسرئيل** ، رقم ٥٧٢ .

(٣٢) **نشرة مؤسسات الدراسات** ، مجلد سنة ١٩٧٤ ، ص ١٨٥ .

(٣٣) **المصدر نفسه** مجلد سنة ١٩٧٣ ص ٢٨٤.

(٣٤) **شؤون فلسطينية** ، عدد ٨٨/٨٧/ ص ٦٩ ، نقلا عن قول رئيس اتحاد الصناعيين الاسرائيليين الى معاريف عدد ١٩٧٨/١٠/١٣ .

(٣٥) د . يوسف شبل ، **اعبـاء الحـرب على الاقتصاد الأسرائيلي** ، بيروت، مركز الابحـاث ، ١٩٧٠ ، ص ٥٩ .

(٣٦) د . عمرو محي الدين الاقتصاد الاسرائيلي بغداد ، مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد ، ١٩٦٢ .

الفلسطينية ، جامعة بغداد ، ١٩٧٣ .

(٣٧) بسام ابو غزالة ، **التخطيط في اسرائيل** ، بيروت ، مركز الابحاث راجع الصفحات ١١٤ ــ ١٣٣ .

(٣٨) شبل جريدة **السياسة اللبنانية** ، عدد يوم ١٩٧١/١/١٦.

(٣٩) محي الدين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٧٨.

(٤٠) شبل ، **السياسة المالية في اسرائيل** ، بيروت ، مركز الابحاث سنة ١٩٦٨ ، ص ١٠٦ .

(٤١) **المصدر نفسه** ، ص ٩٨ .

(٤٢) **شؤون فلسطينية** ، عدد ٢٠ ، ص ٨٤ . الامبريالية والاقتصاد الأسرائيلي لاري لاك وود . وكذلك محي الدين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٦٦ ــ ٦٧ .

(٤٣) محي الدين ، **مصدر سبق ذكره** .

(٤٤) شبل ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٨ .

(٤٥) ر . ا . ا . رقم ٤٠٨ .

(٤٦) **نشرة مؤسسة الدراسات** سنة ١٩٧٤ ، ص ١٨١

(٤٧) ر . ا . ا . رقم ١٣٢٦ .

(٤٨) **المصدر نفسه** .

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن تخفيض الليرة الاسرائيلية راجع : **شؤون فلسطينية** ، رقم العدد ٥ ، مقالة الدكتور يوسف شبل عن « الليرة الاسرائيلية وازمة الدولار » ، ص ١٨ . وايضا شبل ، **تجارة اسرائيل الخارجية** ، بيروت ، مركز الأبحاث ١٩٦٩ الفصل الرابع . **وشؤون فلسطينية** ، العدد ٥٢ ، تقرير عن « تخفيض الليرة الاسرائيلية » ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .

(٥٠) ابو النمل، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٤٦ .

محمود اللبدي

جولة في العقل الاعلامي الصهيوني

مقدمة

لقد أصبح معروفا تأثير الدعاية الصهيونية على الرأي العام العالمي ، ومدى سيطرتها على وسائل وأجهزة الاعلام الغربية . وقد ادى النشاط الاعلامي الصهيوني المتعدد الجوانب الى عزل القضية الفلسطينية ، وطمس معالمها ، حتى كادت كلمة فلسطين ان تختفي ، وأن يصبح الفلسطيني مرادفا للارهابي أو المجرم . ولا بد لنا في هذا البحث المتواضع ان نضع أمام القارىء العربي محاولة في فهم العقل الاعلامي الصهيوني ، وأساليبه المتنوعة .

لقد تفهم الصهاينة تأثير الرأي العام في البلدان الغربية ، وخصوصا ذات النظم البرلمانية والانتخابات الحرة، ودوره في التأثير على القرار السياسي في هذه البلدان . ولهذا جعلوا من الرأي العام شغلهم الشاغل ، حيث اغرقوه بالدعاية التي تبشر بآرائهم وأفكارهم السياسية ، حتى أصبحت تلك المجتمعات حكرا عليهم ، ومغلقة أمام خصومهم . والأنكى من ذلك انهم جعلوا من تلك المجتمعات بوقا لافكارهم ، وخير مدافع عن اطماعهم وتطلعاتهم .

نجح الصهاينة بأساليبهم الاعلامية المختلفة ، وبالوسائل المتاحة لديهم في ان يحققوا اكبر عملية غسل دماغ بشرية في التاريخ لصالح قضيتهم ، التي عملوا من اجلها ، الا وهي تهويد فلسطين ، وتغيير معالمها العربية . ويعود سبب هذا النجاح الاعلامي الصهيوني الى عدة عوامل ذاتية وموضوعية ، سخرت لانجاح فكرتهم . وقد سهلت عليهم ذلك جذورهم الأوروبية ، وفهمهم لطبيعة المجتمعات التي عاشوا بينها ، ومعرفتهم لأفكارها ولغاتها . وجعلوا، من انتشارهم شرقا وغربا قوة تؤثر على عقول الآخرين وأساليب تفكيرهم ، مستفيدين من نفوذهم السياسي والمالي الخ ... في سبيل تثبيت دعاواهم حول حقهم في فلسطين .

الادعاء الصهيوني في فلسطين

ادعى الصهاينة بان لهم حقا في فلسطين ، وان حقهم قديم قدم الزمن ، قدم التوراة أو العهد القديم ، حيث استنبطوا من الكتاب المقدس هذا الادعاء ، أو هذا الحق ، حسب

تفسيرهم . وقد وضعت الحركة الصهيونية هذا الادعاء في اطر عملية في مؤتمر بازل الصهيوني ، الذي عقد سنة ١٨٩٧ في سويسرا . وكان ذلك بدعوة من مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتسل اليهودي النمساوي الأصل . وبهذا المؤتمر ارادت الحركة الصهيونية ان تضع حدا للنقاش الدائر في ذلك الوقت حول فكرة اندماج اليهود في المجتمعات الاخرى ، والنضال مع هذه المجتمعات اجتماعيا وطبقيا وفق الفكر الماركسي ، لتحرير هذه المجتمعات المضطهدة من العبودية والاستغلال ، وكحل للمسألة اليهودية[1] . ورسخ الصهاينة فكرة تأسيس دولة يهودية في فلسطين ، وهجرة اليهود الى هذه الدولة بدلا من الاندماج والانخراط في مجتمعات أوروبا .

ومنذ ذلك الوقت دأبت الحركة الصهيونية ، بجد ونشاط ، على اقناع الدول المسيطرة ومجتمعاتها بفكرتهم ، والعمل داخل التجمعات اليهودية لحث اليهود على الهجرة الى فلسطين كحل وحيد للمسألة اليهودية . واذا كانت الحركة الصهيونية قد حققت نجاحا كبيرا في انتزاع وعد بلفور من حكومة جلالة ملكة بريطانيا سنة ١٩١٧ ، الا ان الحركة النازية قد ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر على انجاح الفكرة الصهيونية . ان زج هتلر النازي لمئات الآلاف من اليهود في معسكرات الاعتقال وافران الغاز، قد اعطى الفكرة الصهيونية دفعا كبيرا الى الأمام . حيث استفادت الحركة الصهيونية من ذلك ، سواء بالتعاون المباشر مع الحركة النازية التي كانت ترفض اليهود وتريد التخلص منهم ، او غير المباشر عندما هرب الكثير من اليهود الألمان الى فلسطين او الى امريكا . فألمانيا النازية ترفض اليهود ، وتريد طردهم ، والصهاينة يريدونهم ليشكلوا مادة اساسية لبناء دولتهم الصهيونية في فلسطين . وتجدر الاشارة هنا إلى ان نسبة الهجرة اليهودية الى فلسطين قد وصلت ذروتها ابان الحكم النازي الذي استمر منذ ١٩٣٣ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

استفادت الحركة الصهيونية من النازية ، سواء أكان ذلك بزيادة كمية الهجرة اليهودية من اوروبا الى فلسطين ، أو بكسب مزيد من العطف الدولي لصالح الفكرة الصهيونية القائلة بانشاء وطن قومي لليهود ، كحل للمسألة اليهودية في اوروبا . ولا بد هنا من الاشارة الى أن اجماع الدول الكبرى المسيطرة في ذلك الوقت ، وخصوصا بعد الحرب العالمية الثانية [أي الدول المنتصرة على الحلف النازي الياباني : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي] هو الذي أدى بشكل او بآخر الى تأسيس الدولة الصهيونية في فلسطين .

لقد جاءت مذابح النازية لليهود لكي تصب في طاحونة الحركة الصهيونية التي استفادت استثمرت هذه المآسي الانسانية لصالح اهدافها . ولم تقف عند هذا الحد ، بل طرقت كل الابواب واستفادت من كل الوسائل المتاحة لها ، وطورت لنفسها ميكانيكية خاصة وفريدة من نوعها للتأثير على العقول ، ووضعت لهم أطرا يفكرون بها تخدم الفكرة الصهيونية ، واعلنت نفسها صاحبة حق في فلسطين، لها ان تفعل ما تريد : تقتل، وتذبح ، وتحتل الاراضي ، وتتوسع ، وتطرد ، وتعاقب ، وتنكل ، دون ان تشعر ولو حتى بادنى ذنب لما تقوم به من اعمال

---

(1) oHo Hellen *Der Untergana des Judentums* Reprint 1975 *p*.15.

لا انسانية ضد اناس لا ذنب لهم ولم يرتكبوا جرماً . وفيما يلي بعض الحجج الصهيونية التي استخدمتها لغسل الأدمغة .

١ ـ الحق التاريخي او التوراتي

عزل اليهود انفسهم في غيتوات ، إما نتيجة لتصوراتهم الدينية المميزة إذ وقعوا فريسة لمقولة « شعب الله المختار » من جهة ، او انهم عزلوا في المجتمعات المسيحية في اوروبا لاسباب دينية مثل مقولة « صالبي المسيح » ، او لاسباب اقتصادية او احتكارية ، وذلك لرفضهم العمل اليدوي ، وامتهانهم التجارة او الربى.ولهذا لم يشارك اليهود في قضايا المجتمعات التي عاشوا بينها في اوروبا . وبالرغم من ان اليهود الاشكناز (اليهود من اصل اوروبي) ينتمون اصلا الى قبائل الخزر الذين سكنوا المناطق شمال البحر الاسود وبحر قزوين الواقعة الآن في الاتحاد السوفياتي واعتنقوا الدين اليهودي في القرن الثامن الميلادي[٢] ، الا انهم ظلوا يرددون جملة « العام القادم في اوروشليم » في نهاية صلواتهم الى الرب يهوه ، ولهذه الجملة رومنسية وجاذبية خاصة في صلواتهم ، مما طبع في اذهانهم بان اصلهم يعود الى فلسطين او القدس ـ اورشليم .

ربط اليهود مصيرهم بالقدس ، وبالمعبد الذي هدمه القائد الروماني المسيحي تيتوس في عام ٧٠ ميلادية ، حيث دمر هيكل سليمان ، واقتاد اليهود معه اسرى الى روما . ومنذ ذلك الوقت وقعت فلسطين في ظل الامبراطورية الرومانية المسيحية ، حتى فتحها عمر بن الخطاب عام ٦٣٨ ميلادية .

استطاع كاتبو العهد القديم[٣] ـ التوراة ـ أن يشدوا اتباع الدين اليهودي الى اورشليم والى البلاد المقدسة ، واعتمد اليهود التوراة بمثابة صك الملكية ، ومنها طوروا فكرة الحق التاريخي . وهكذا ، صورت الدعاية الصهيونية ان تاريخ فلسطين يبدأ من التوراة ، متجاهلة تاريخ القبائل الكنعانية المختلفة التي سكنت البلاد منذ ثلاثة الاف سنة على الاقل ، كما ينكر التاريخ . وقد عرفت فلسطين ببلاد الكنعان او ارض كنعان كما يذكر العهد القديم ـ التوراة . ولم يقتصر هذا التوجه على الجاليات اليهودية فحسب ، بل انطلق الصهاينة الى المجتمعات الاوروبية المسيحية المذهب لاقناعها بان لهم الحق في فلسطين . ومن اجل ذلك ابرز الصهاينة فقرات خاصة من العهد القديم لتثبت ادعاءهم . وقد نشطت حركات دينية مسيحية في اوروبا وامريكا ، متبنية هذا الادعاء الصهيوني ، ومدافعة عنه ، مشوهة بذلك الوجه الصحيح للدين المسيحي في الغرب ، الذي هو دين المحبة والتسامح . وقد غالت بعض الكنائس مثل طائفة الفندامنتالت (Fundamentalist) والمعمدانيين (Baptist) حتى جعلت اسرائيل وكأنها ارادة الله على الارض .

Arthur Koestler, *The Thirteenth Tribe The Khazar Empire and its Heritage*, Hutchinson of London 1976, p. 14, 15, 16.

٣ ـ راجع كتاب جورجي كنعان وثيقة الصهيونية « في العهد القديم » بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٧

وبذلك امنت الحركة الصهيونية جانب الدين المسيحي والمسيحيين في الغرب ، بينما بقي الدين المسيحي في الشرق بعيداً عن التأثيرات الصهيونية . واصبح الغرب يفكر ضمن الاطر الصهيونية وبات يشر بها الطفل الغربي منذ نعومة اظفاره ، ويشب عليها عبر المــدارس في دروس الدين . وهنا نلاحظ ان اشد الفئات تعصبا لاسرائيل هي المسيحية المتدينة في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية .

٢ ـ حق العودة

ومن العهد القديم استنبط الصهاينة مقولة « حق العودة » ، اذ اعتمدت الحـركة الصهيونية على التوراة لتأكيد ما يسمى بحق العودة . ونشرت هذه المقولة بين اليهود المترددين لاقناعهم وحثهم على الانسلاخ عن مجتمعاتهم الأم ، والهجرة الى فلسطين او اورشليم التي طردوا منها . كان ذلك قبل تأسيس الدولة الصهيونية ، أما بعد أن تأسست دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، فقد نشطت الدعاية الصهيونية لنشر هذه المقولة بين المجتمعات الاوروبية المسيحية التي عاشوا بينها ، لكسب تأييدهم لفكرة العودة الى « الوطن الأصلي » لليهود ، الذي وعدهم به الرب يهوه ، او كاتبو العهد القديم . ومن الطبيعي ان تلاقي هذه المقولة آذانا صاغية واستحسانا لدى المجتمعات الغربية المسيحية التي إما لأنها ارادت ان تتخلص من اقلياتها اليهودية من جهة ، او شفقة عليها ورأفة بها لما حل بها من ويلات ومآسي ابان العصور الغابرة في اوروبا ، واخيرا في المانيا النازية .

وتعتبر مقولة « حق العودة » من الحجج الصهيونية المدعمة توراتيا وتاريخيا ، كما انها مدعمة منطقيا ايضا ، لان من حق المطرود من ارض ان يعود اليها . واستعملت الدعاية الصهيونية هذه الحجة بذكاء وخبث ، متجاهلة تماما ما حل بشعب فلسطين الذي طرد من وطنه ، وشرد على أيدي الصهاينة . ولكن الصهاينة فهموا عقلية الغرب ، فطرحوا على شعوبه ما يؤثر من افكارهم السامة .

٣ ـ الارض الخالية من السكان

صورت الدعاية الصهيونية للمجتمعات الغربية أن فلسطين بقيت خالية منذ ان طرد منها اليهود ، ولهذا طرحوا مقولة « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » . اذ طرحت الحركة الصهيونية أن اليهود شعب ذو سمات متجانسة ، وهذا مغالط لقوانين علم الشعوب .* وانهم بحاجة الى ارض يحكمونها ، وهذه الارض خالية من السكان ، ومنطقهم يدور حول : من هو أحق بالأرض من سكانها الاصليين الذين طردوا منها ؟

ساهمت هذه المقولة في تشجيع اليهود على الهجرة الى فلسطين ، حيث اعتقد معظم المهاجرين اليهود بان فلسطين خالية . ولو كان هؤلاء يعلمون ان فلسطين مأهولة ، وان فيها

(*) ان العقيدة الصهيونية مبنية على وحدة الدين والقومية وهذا خطأ اساسي . فالصهيونية تدعي بان اليهود ينتمون الى دين واحد والى قومية واحدة . والفكر الصهيوني ينادي بالقومية الصهيونية ، واليهودية ليست ديانة سماوية فحسب . والقصد من ذلك هو ان الصهاينة يريدون ربط اليهود في اصل واحد تعود جذوره الى فلسطين .

شعباً يسكنها منذ آلاف السنين ، وحتى قبل الهجرات اليهودية الأولى ، لعدل الكثيرون عن الهجرة ، ولاقتصرت الهجرة فقط على فئة قليلة من الشبان المغامرين ، اوبعض الشيوخ المسنين المسالمين الذين يأتون لقضاء آخر ايامهم من اجل الموت في الاراضي المقدسة .

صدقت الشعوب الأوروبية،التي عاش بينها اليهود،هذه المقولة،مما دفعها الى تأييد ودعم فكرة الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية استفاد الصهاينة من جهل الشعوب الاوروبية واقنعوها بان فلسطين كانت فعلا خالية من السكان ، وظلت الدعاية الصهيونية مستمرة في هذا النهج حتى عبرت عن ذلك غولده مئير عندما قالت : « لا يوجد هناك شيء اسمه شعب فلسطين » واستطردت تقول في التصريح نفسه ، في ١٥ حزيران ١٩٦٩ « ليس لهم وجود » .

٤ ـ فلسطين صحراء قاحلة

ومن مقولة « فلسطين خالية من السكان » الى « فلسطين جرداء قاحلة » . وتناقضوا بذلك مع الكتاب المقدس الذي وصف فلسطين بأنها ارض الحليب والعسل . ومن منطلق ان فلسطين صحراء قاحلة ، نشط الاعلام الصهيوني في تصوير ما عمروا فيها وما حولوه الى حزام اخضر بفضل نشاطهم وعبقريتهم . والمنطق يقول إن الأرض لمن يعمرها . اذن هم عمروا الصحراء حسب ادعائهم ، ولذلك فان لهم الحق في امتلاكها . وقد عملوا على تجهيل العقول في البلدان الغربية ، حاجبين عنها أن فلسطين كانت بلداً مصدراً للحمضيات منذ خمسين سنة على الأقل ، قبل تأسيس دولة اسرائيل .

وحجة « فلسطين صحراء » توجهت بها الدعاية الصهيونية الى عقول الغربيين بعد اعلان الدولة الصهيونية في فلسطين ، مستفيدة بذلك من جهلهم ، ثم لكسب تأييدهم للدولة الصهيونية ، وعطفهم عليها ، لانها نشيطة ومنتجة .

ومما لا شك فيه أن الاعلام الصهيوني قد استفاد بشكل مباشر من غياب الاعلام العربي عن الساحة الدولية في العشرين سنة الاولى على الأقل ، مما اعطى للاعلام الصهيوني فرصة للامتداد والانتشار .

٥ ـ حق الولادة والاجيال

من الطبيعي ان من يولد في ارض تصبح وطنه الام وقد ولدت اجيال جديدة من هؤلاء المستوطنين الصهاينة في فلسطين . لذا يدعي الصهاينة بان هذه الارض تعتبر وطنهم بالولادة ، ولا يحق لاحد طردهم منها . وان اي محاولة لطردهم تعتبر عملية عدوانية ضد هذه الاجيال الجديدة من المستوطنين . وتدعي الدعاية الصهيونية بان ليس لهؤلاء الصغار من ذنب اقترفوه .

لقد نشطت الدعاية الصهيونية في نشر هذه المقولة بعد تأسيس دولة اسرائيل . فقامت الدعاية الصهيونية بنشر الصور والمقالات عن الاجيال الجديدة التي ولدت هناك ، وأطلقوا على هؤلاء الشباب لقب « صابرا » ونشطوا في تفسير كلمة « صابرا » والتي تعني بان كل شاب يولد في فلسطين هو مثل كوز الصبر « شوكي من الخارج ولذيذ من الداخل » ، وان لكل

« صابرا » ان يعتبر فلسطين او « اسرائيل » موطناً أساسيا .

والاجيال الجديدة التي تولد تعطي لاسرائيل الحق والشرعية في أن تستمر في المنطقة أكبر مدة ممكنة . والصهاينة يعون ذلك جيدا ، لذلك ينشرون هذه الحجج للتأثير على عقول الغربيين وكسب تأييدهم .

اساليب الاعلام الصهيوني

للاعلام الصهيوني اساليب مختلفة يستعملها في خدمة الاهداف والاطماع الصهيونية في فلسطين . وقد خاطبت الدعاية الصهيونية الناس حسب مستوياتهم وتوجهاتهم الفكرية والايديولوجية . لهذا تعددت وتنوعت اساليب المخاطبة للرأي العام . وقد نشطت دعايتهم على صعيدين مهمين وهما ــ كما ذكرنا ــ اجتذاب المستوطنين الجدد واقناعهم بالهجرة الى فلسطين ، ومن جهة اخرى إقناع الشعوب والدول التي عاشوا بينها بعدالة ادعائهم في فلسطين . بالاضافة الى الحرص على ابقاء اليهود المهاجرين في فلسطين ، واقناعهم بعدم مغادرة البلاد والهجرة المضادة .

ونستطيع ان نحدد بان النشاط الاعلامي الصهيوني قد تركز بشكل رئيسي على مراكز النقل العالمية ، وخصوصا في اوروبا وامريكا الشمالية . وبما ان الحركة الصهيونية قد ربطت نفسها دائما بالدول الكبرى وبطموحاتها واطماعها ، فقد دأبت الدعاية الصهيونية على التأثير على الرأي العام في هذه البلدان ، لكي تجعل منه رافدا وداعما لسياسة الدولة المؤيدة المتفقة مع الاهداف الصهيونية الاستيطانية . نستطيع ان نسوق مثلا على سيطرة الدعاية الصهيونية على الولايات المتحدة الامريكية ، اذ جعلت الدعاية الصهيونية من المجتمع الامريكي العوبة بايدي الادارة الامريكية المؤيدة للاطماع الصهيونية . ونتيجة لعمل دؤوب متواصل لم يعد المجتمع الامريكي يرى نزاع الشرق الاوسط الا من خلال الرؤية الصهيونية . وان ما حققته الحركة الصهيونية من تأثير على المجتمع الامريكي هو عملية غسل دماغ مدروسة لشعب باكمله . من هنا نستطيع القول بان الدعاية الصهيونية هي التي تفكر نيابة عن شعوب العالم الغربي . اذ تعطيهم المعلومات التي تريد ، وتحجب عنهم ما تريد . وهي تمطرهم بالمعلومات الموجهة بشكل يومي مكثف ، حتى لا تسمح لهذه الشعوب بالبحث عن مصادر معلومات خاصة او مغايرة لرؤيتها وتفسيرها للامور .

١ ــ اسلوب الاستعطاف

استفاد الصهاينة من كافة المآسي والويلات التي مر بها اليهود عبر الاجيال من معاناة وملاحقة ، من محاكم التفتيش في اسبانيا الى « البوغروم » في روسيا ، واخيرا افران الغاز الهتلرية ، فنشطت الدعاية الصهيونية من أجل كسب عطف المجتمعات الاوروبية والامريكية لصالح اهدافهم الاستيطانية ، ولدعم دولتهم المنشودة في فلسطين .

بعد تأسيس دولة اسرائيل في العام ١٩٤٨ ، طوروا اسلوبهم الدعاوي لكي يناسب المرحلة الجديدة . لقد استعطفوا العالم حتى يؤيدهم ، ولم يتركوا حجة الا واستخدموها لكي يظهروا للعالم بانهم مساكين بحاجة الى عطف وتأييد . لقد اظهروا للعالم بان اسرائيل مسالمة وتحتاج

الى عطف ، لان العرب دمويون ويريدون القضاء عليها . ومن حججهم المؤثرة أن اسرائيل محاطة ببحر من الاعداء ، وان اسرائيل صغيرة ، اما العرب فهم عديدون وبلادهم كبيرة ، وهم يريدون رمي اليهود في البحر . وابان عهد الرئيس الراحل عبد الناصر صورت الدعاية الصهيونية عبد الناصر كهتلر جديد يريد قتل اليهود الذي نجوا من معسكرات الغاز النازية* . ومن الشعارات التي لا تزال تثير العطف والتعاطف مع اسرائيل ، ولها تأثير كبير على المجتمعات الغربية مقولة « مستحيل مرة اخرى » . « اي لن نذبح مرة اخرى كما ذبحنا هتلر » . هذه المقولة تستخدم ايضا لكي تزيد من التماسك داخل المجتمع الاسرائيلي ، لكي يتوجه باجمعه الى العدو الخارجي ، اي الى العرب . وتظهر هذه المقولة بكثافة عندما تقترب ساعة الخطر .

ولا تزال أجهزة الدعاية الصهيونية تعتمد الاستعطاف كاسلوب ناجح ومؤثر على الشعوب الاوروبية والامريكية الشمالية . وتحرص باستمرار على تأجيج العواطف ، هذا اذا لوحظ فتور في الدعم والتأييد لاهداف اسرائيل الاستيطانية .

٢ ـ اسلوب التشبه بالشعوب المتحضرة

ومن اسلوب الاستعطاف الى اسلوب التشبه بالشعوب الاخرى ، وخصوصا الاوروبية . لقد فهمت اسرائيل انها « جزء من اوروبا وانها حاملة لواء الحضارة الاوروبية في الشرق البربري المتخلف » يقول تيودور هرتسل ويضيف « بالنسبة لاوروبا سوف نبني هناك سدا ضد آسيا ، كما سوف نشكل قلعة متقدمة للحضارة ضد البربرية » . وانطلاقا من ذلك طور الصهاينة عدة شعارات وطروحات استخدموها لكسب تأييد الشعوب والانظمة المختلفة لصالحها .

وقد شبهت اسرائيل نفسها بالانظمة البرلمانية . وطرحت نفسها على انها تبني نظاما برلمانيا ينتخب انتخابا مباشرا من الشعب ، كالنظم في اوروبا الغربية وامريكا ، لتصور نفسها على انها الدولة الوحيدة في الشرق التي تتبنى حضارة الغرب ونظمه السياسية ، فهي بذلك جزء منه ومن الطبيعي ان الانسان يؤيد ويتعاطف مع مثيله او شبيهه .

ولكسب تأييد الشبيبة الاشتراكية في اوروبا وامريكا طرحت الدعاية الصهيونية مقولة « اسرائيل بلد اشتراكي » . والدليل الذي طرحته الصهيونية على ذلك وجود نظام « الكيبوتس » . وقد نشطت الدعاية الصهيونية بين الشباب في اوروبا وامريكا لاجتذابهم للعمل داخل الكيبوتسات في عطل الصيف المدرسية ، حيث كانت شركات السياحة تقلهم بالمئات للعمل في داخل الكيبوتسات .

ومقولة اخرى طرحتها الدعاية الصهيونية لاجتذاب التجار والرأسماليين وهي ان اسرائيل بلد ذو اقتصاد حر ، وانه يحق لأي مستثمر غربي ان يستثمر فلوسه في اسرائيل ، وان يجني منها الارباح ، دون أن يهدده خطر التأميم والخوف على ضياع الأموال . وبهذه المقولة كسبت

(*) وظلت هذه المقولة مسيطرة في الغرب حتى هزيمة حزيران ٦٧ عندما هزمت القلة الكثرة ، فتنفس الغرب الصعداء ، وصورت الدعاية الصهيونية هذا الانتصار بانه انتصار داوود على جوليات .

اسرائيل كبار التجار والشركات التجارية الغربية ، بالاضافة الى اجتذاب الاموال اليهودية الى اسرائيل .

٣ ـ اسلوب الابتزاز والتهديد

هذا اسلوب استعملته الدعاية الصهيونية ضد من يفكر في ان يغير سياسته في الاتجاه المضاد لها . وقد وضعت الدعاية الصهيونية السياسيين الغربيين في حالة خوف دائم . ومن الطبيعي ان يحرص كل سياسي على سمعته السياسية ، ولذا فهو بحاجة الى اداة اعلامية قوية تتكلم عنه باطراء . واستخدم الصهاينة الاعلام لمحاربة خصومهم ، وتحطيمهم سياسيا ، اذا هم وقفوا موقف المعارض لاسرائيل وسياساتها العدوانية والتوسعية . وقد استعملوا هذه السياسة ببراعة ضد الالمان ، خاصة في المانيا الغربية ، حيث لم يجرؤ اي سياسي الماني غربي على ان ينتقد سياسات اسرائيل العدوانية والتوسعية ضد الامة العربية . وكل من تخول له نفسه ذلك كان يوصف بأنه معاد للسامية او لا سامي ، وهي تهمة تكفي لتحطيم الحياة السياسية لاي سياسي غربي . وبهذا الاسلوب الابتزازي كانوا يشعرون الالمان بعقدة الذنب عن مصرع ستة ملايين يهودي ، ذبحهم هتلر حسب ادعائهم . وبهذا الاسلوب كان عطف الرأي العام في المانيا الغربية يأتي دائما لصالح اسرائيل ، ظالمة كانت ام مظلومة .

وتعتبر الحملة الصهيونية الاخيرة المتمثلة في سلسلة افلام الهولوكوست نموذجا من نماذج الابتزاز والتهديد غير المباشر ، حتى يذكروا الشعوب الاوروبية وامريكا بمذابح هتلر ، وحتى لا ينسوا هذه المذابح ، ولتظل عقدة الذنب ماثلة امام اعينهم ، وحتى لا يخف تأييدهم لاسرائيل أو يضعف .

أما في الولايات المتحدة فان اسلوب الابتزاز يتوضح بشكل رئيسي اثناء الانتخابات الرئاسية ، فهم يسخرون اجهزتهم الاعلامية واموالهم لانتخاب رئيس يلائمهم ، ولهذا يحرص كل رئيس ، أو يتسابق المرشحون للرئاسة إلى الادلاء بتصريحات مؤيدة اكثر لاسرائيل ، حتى لا يخسر المرشح الاعلام الصهيوني المسيطر على عقول الناخبين الامريكيين .

٤ ـ اسلوب التهويل بصورة العدو وبشاعتها

تزوير الحقائق هي من اختصاصات الدعاية الصهيونية . فهم يرفعون من يريدون ، ويحطمون من يريدون ، دون ان يقف احد في طريقهم . وقد عمدت بالدرجة الاولى الى التشنيع على الخصم ، وتشويه صورته لدى الرأي العام . وقد صورت الدعاية الصهيونية العرب برابرة ومتخلفين وكسالى وراكبي جمال ومحبي أمية ، وهذا طبعا قبل نشوء المقاومة الفلسطينية . وعندما برزت المقاومة الفلسطينية على الساحة نشطوا لتشويه وجه المقاومة وحقيقة اهدافها ، حتى اصبحت كلمة فلسطيني تساوي « ارهابيا » او « مجرما » يقتل النساء والاطفال . ونشطوا في تزوير الحقائق عن العالم العربي،حتى اصبحت صورةالعربي انسانا له ذنب . لقد شوهت اجهزة الدعاية الصهيونية حقائق النزاع في الشرق الاوسط واعلنت عن موت « الفلسطيني وقضيته » التي هي جوهر الصراع العربي ـ الاسرائيلي . وجعلت من نزاع الشرق الاوسط نزاع حدود بين اسرائيل وجيرانها من الدول العربية ، حتى اذا حلت مشكلة

الحدود ، اصبحت كل الامور في الشرق الأوسط محلولة . واما الفلسطينيون فهؤلاء قتلة وارهابيون ، فكيف يؤيد العالم هؤلاء الارهابيين القتلة حسب رأيهم ؟

ولا تزال رواسب التشنيع الذي الحقته اجهزة الدعاية الصهيونية بالعرب مستفحلة في مجتمعات الغرب . فبعد حرب حزيران نشطت الدعاية الصهيونية في تصوير الجندي العربي على انه جبان يخلع حذاءه، ويهرب من المعركة امام الجندي الاسرائيلي الشجاع .

وأكثر الأمثلة وضوحا على اساليب التزوير هو انهم فسروا الامور على هواهم ، واستعملوا كلمات معينة للتعبير عنها . فالاراضي المحتلة هي اراض محررة ، والاحتلال هو احتلال ديمقراطي وانساني ، والضفة الغربية اصبحت يهودا والسامرة ، والقدس المحتلة هي القدس الموحدة . اما الفلسطينيون فقد اصبحوا عرب ارض ــ اسرائيل ، او سكان ارض ــ اسرائيل ، والمناطق المحتلة هي المناطق المدارة في قاموسهم ، او المناطق فقط والخ ... من هذه الاصطلاحات التي تهدف الى الهاء الناس وحجب الحقائق عنهم ، وخصوصا في الغرب .

اما الصورة الحديثة للعربي فهي تصوره جالسا على منابع البترول ، يمنع البترول عن امريكا والعالم . والعربي هو سبب ازمة الطاقة وغلاء اسعار البنزين ، وهو متخلف وجشع ، وهو سبب كل المشاكل في هذا العالم .

٥ ــ اسلوب التعظيم للذات

اما الاسلوب الذي عمدت الدعاية الصهيونية الى اتباعه مع المستوطنين الصهاينة فهو اسلوب المديح والتفخيم والتعظيم . فالمستوطن الصهيوني اوروبي بكل معنى الكلمة : شجاع ، متفوق ، يجيد استخدام التكنولوجيا الحديثة ، واشقر كالاوروبيين ، ونكي وتصل المغالاة في المديح الى حد الغرور والعنجهية . فالجندي الاسرائيلي يفتش العرب ويرفع ايديهم ويدير وجوههم الى الحائط ، ويتصرف وكأنه بطل فيلم كاوبوي امريكي . ونادرا ما تتحدث الدعاية الصهيونية عن خسائرهم البشرية امام عمليات الفدائيين ، فهم يتكتمون تكتما شديدا حول هذا الموضوع . كما يصورون الاحتلال على انه نعمة من الله الى عرب الضفة الغربية ، وهو ، بالطبع ، احتلال حضاري ينعمون فيه بديمقراطية لم يعرفها العرب من قبل .

وسائل الاعلام

بعد التطور المذهل في وسائل الاعلام اصبح الانسان رهينة لها ، فهو سريع التأثر بما يرى ويسمع ، وبات بالامكان التأثير على مجتمع بأسره وتعبئته تعبئة معينة . فبهذه الوسائل الاعلامية الجماعية يمكنها الصعود بالمجتمع الى القمة ، كما يمكنها النــزول به الى الحضيض ، تماما كما فعل الاعلام النازي بالشعب الالماني عندما رفعه الى القمة ثم حطم المانيا وشعبها ووحدتها ابان الحرب العالمية الثانية ، عندما وقف الشعب الالماني ، المسحور بالاعلام النازي الجبار الذي كان يقوده غوبلز ، وزير اعلام هتلر ، عندما اعلن الأخير الحرب على العالم .

وخير مثال على الاستفادة من وسائل الاعلام الحديثة واستخدامها استخداما ذكيا هو

الاعلام الصهيوني . فالاعلام الصهيوني المتشعب والمنتشر عبر العالم احسن استخدام الوسائل الحديثة ، لا ليؤثر على شعب واحد كشعب المانيا في عهد النازية فحسب ، بل ليؤثر على شعوب العالم اجمع . فقد استفاد الاعلام الصهيوني من المراكز الاعلامية المتشعبة والمنتشرة بانتشار الجاليات اليهودية عبر العالم . وامتهن كثير من اليهود الصحافة ، وخصوصا في أوروبا والامريكتين واستراليا ، كما امتلك اليهود كبريات الصحف العالمية ، وخصوصا في أوروبا الغربية والولايات المتحدة . انهم يجلسون في كبريات الصحف او شركات التلفزة والراديو لبث الافكار الصهيونية التي تبشر بامجاد اسرائيل ووجهها الحضاري . كما تعمل في الوقت نفسه على تشويه وجه الانسان العربي والفلسطيني المناضل من اجل قضيته العادلة . ولم يقتصر ذلك على الجاليات اليهودية فحسب ، بل ان هناك صهاينة غير يهود ، متحمسين ومندفعين لخدمة اسرائيل اكثر من اليهود انفسهم . وخير مثال على ذلك هي مؤسسة شبرنغر الالمانية الغربية[٤] لصاحبها اكسل شبرنغر المسيحي المذهب ، ولكنه متعصب لاسرائيل ، وملكي اكثر من الملك . وهذا الرجل يمتلك حوالي ٤٠٪ من صحف ومجلات المانيا الغربية ، مسخرا جميعها لخدمة اسرائيل ، ولتشويه سمعة العرب . ويمتلك شبرنغر صحيفتين يوميتين رئيسيتين مثل « دي فلت »وهي موجهة لذوي الثقافة المتوسطة و« بلد تسايتونغ » وهي موجهة للطبعة العاملة والبسيطة وتصدر خمسة ملايين نسخة يوميا ، و« بلد ام سونتاغ » وهي جريدة اسبوعية تقرأها ربات البيوت والطبقة العاملة في عطلة الاسبوع .

أما في الولايات المتحدة الامريكية فنسوق مثلا في صحيفة نيويورك تايمز ، والتي تمتلكها عائلة سولزبرغر اليهودية ، وهي تعد من كبريات الصحف في الولايات المتحدة ، وتقرأها الطبقة المثقفة ، ولها تأثير على صانعي القرار الامريكي . وطبعا لهذه الصحيفة دور فعال في تشويه الوجه العربي بشكل عام ، والحق العربي والفلسطيني بوجه خاص .

ومن وسائل الاعلام الناجحة هي النوادي والجمعيات والنشاطات الاجتماعية ، حيث يستطيع الصهاينة ، من خلال هذه النوادي والجمعيات ، تجنيد الانصار وبث الافكار بين الناس . وهذه الجمعيات تعمل على مستويات مختلفة تخاطب الناس وتشدهم لتبني وجهات النظر الصهيونية والدفاع عنها .

ولا شك ان صناعة الافلام هي من الادوات الحديثة للمخاطبة ، فمن خلال السينما انطلق الصهاينة يصنعون الافلام التاريخية والحديثة والتي تشوه التاريخ ، وتفسره تفسيرا مغلوطا يناسب تصوراتهم واهدافهم . ويمتلك الصهاينة شركات الافلام العالمية ، كما ان هناك عدداً كبيراً من اعلام ونجوم السينما من اليهود المتعاطفين مع اسرائيل ، وهم يخدمون الافكار الصهيونية عن وعي وعن سابق اصرار . فالافلام الصهيونية كثيرة ومتعددة ، بدءا بفيلم الوصايا العشر ، الى فيلم اكسودس ، وجميعها مسخرة لخدمة اسرائيل وتشويه الحق العربي والفلسطيني .

وتعرض الافلام الروائية ايضا على الشاشة الصغيرة ــ التلفزيون ، حيث يمتلك الصهاينة شركات التلفزيون ، وخصوصا في الولايات المتحدة ، لأنها خاصة ، وخارجة عن اشراف الدولة

(4) Imperium Springer Macht and manipulation, Bernd Jansen and Arno Klonne Koln, 1968 p. 184.

المباشر . فالتلفزيون مؤثر اكثر من السينما ، لانه في كل بيت وسهل الاستعمال ، وهو ينقل الاخبار اليومية والاعلانات والافلام الدعائية والوثائقية والخ ... ويشاهده الكبار والصغار . وهو وسيلة اعلامية في غاية الاهمية واصبح يحتل الصدارة في التوجيه والتوعية بما في ذلك التعليم المدرسي والجامعي . وتكمن اهميته ايضا في تعدد وتنوع البرامج التي تبث للتأثير على المشاهد وصقل دماغه ، لصالح الفئة الحاكمة او المسيطرة على شركات التلفزة . فمن يمتلك السلطة على التلفزيون يستطيع ان يمتلك عقول البشر ، وخصوصا عقول الشرائح غير المسيسة .

استطاع الصهاينة من خلال امتلاكهم لوسائل الاعلام المختلفة ان يطوقوا العقل البشري في اوروبا وامريكا واستراليا ، وان يجعلوه يفكر ضمن اطرهم ، ولم يبق خارج دائرة التفكير الصهيوني سوى قلة قليلة من المثقفين الذين تمكنهم ظروفهم الحصول على مصادر اخرى للمعلومات ، بينما وقع عامة الشعب في شراك الصهيونية ودوائرها ونمط تفكيرها .

الخاتمة

لسنا هنا بصدد المقارنة بين الاعلام العربي والاعلام الصهيوني . إنما لا بد من التطرق الى هذا الموضوع ، لما له من اهمية في وضع الامور بامانة واخلاص امام القارىء العربي . فالاعلام العربي يمكن وصفه بانه اعلام محلي ومحدود ، وهو لا يصل الى حد التأثير في الرأي العام العالمي لعدة اسباب ذاتية وموضوعية .

لم يعر الاعلام العربي اهتماما للرأي العام الدولي . فرجل الاعلام العربي والسياسي العربي يخاطب نفسه ومجتمعه ولا يخاطب العالم ، كما انه لا يهتم بالطرق والاساليب المتنوعة التي تخاطب الناس على قدر عقولهم .

ولا بد من الاشارة الى ان الاعلام العربي قد اقتصر نشاطه على العرب ، وقد كان بعيدا عن الدراسة والعلمية والموضوعية ، وهو عاطفي . لذلك فقد استفاد الاعلام الصهيوني من هفوات العرب الاعلامية لخدمة اطماعهم في فلسطين ، ولخدمة افكارهم ومواقفهم وادعاءاتهم . فمقولة « رمي اليهود في البحر » ، سواء قيلت رسميا ام بشكل غير رسمي ، خدمت الدعاية الصهيونية واهدافها الاستيطانية في فلسطين . وكم من تصريح عربي كان يصب في طاحونة الاعلام الصهيوني ، وكم من كاريكاتير عربي استفاد منه الصهاينة ونشروه في الغرب لخدمة اهدافهم . وبالرغم من زيادة الوعي والخبرة في مجال الاعلام ، فقد استمر الاعلام العربي يخدم الصهاينة حتى هزيمة حزيران ٦٧ . وهذه الصدمة هزت وجدان العرب ، وخصوصا عندما رأوا ان العالم كله يقف الى جانب اسرائيل ، ويفرح لانتصارها .

اما بعد ٦٧ فقد استفاد العرب من اخطائهم السابقة ، وبدأوا يهتمون بشكل اكبر بالرأي العام العالمي . كما ساعد بروز المقاومة الفلسطينية ، صاحبة الحق المشروع في مقاومة الاحتلال الاجنبي ، على التأثير بشكل ايجابي على الرأي العام الدولي . وما من شك بان الثورة الفلسطينية لم تكن قفزة سياسية على الصعيدين العربي والدولي فحسب ، بل كانت قفزة اعلامية كبيرة بدأت تخرق الحواجز والحصون الصهيونية التي سيطرت لفترة طويلة على الرأي العام الدولي .

فالثورة الفلسطينية الغت مقولة « رمي اليهود في البحر » ، وطرحت شعارا انسانيا معقولا ومنطقيا يناسب العالم المتحضر ، الا وهو شعار الدولة الديمقراطية المتعددة الاديان . والثورة الفلسطينية وضعت قضية الشرق الاوسط في اطارها الصحيح ، بعيدا عن العواطف والمهاترات . فهي صاحبة حق ، وهي مدافعة عن نفسها ، وشعبها صاحب حق في ان يعيش بسلام كباقي شعوب الأرض ، وهي ليست مهاجمة ، وحربها حرب دفاعية ، وشعب فلسطين تحت الاحتلال ، وفي السجون وتحت التعذيب ، وهو ضعيف أمام غطرسة اسرائيل وجبروتها ، ولكنها مصممة على المضي في المقاومة ، لان لا خيار لها في ذلك ولابديل لها عن ذلك وشعب فلسطين يطالب بحق تقرير المصير ويطالب بالعودة الى وطنه الذي شرد منه ويطالب بانسحاب القوات المحتلة ، وبايقاف بناء المستوطنات ، الى آخره من هذه الحجج المنطقية التي لا يمكن ان يرفضها انسان متحضر ، وانسان يحب السلام والحرية والعدالة . ان هذه الحجج التي توجه الى العقل الغربي والى الرأي العام العالمي تتوافق مع عقله ومع انسانيته ولهذا نستطيع ان نقول بان الاعلام الفلسطيني بدأ يحتل مكانة لا بأس بها لدى الرأي العام الدولي ، إذ كسب حتى الآن عدة جولات اعلامية مهمة ؛ كما في جولته في حرب السنتين ضد القوى اليمينية والانعزالية ، وكذلك في حرب الثمانية ايام ضد اسرائيل في آذار ١٩٧٨ في جنوب لبنان . ولا يزال الاعلام الفلسطيني يسير الى الامام بخطى حثيثة ومستمرة في مجابهة الاعلام الصهيوني وفي تعرية الادعاءات الصهيونية ومغالطاتها . وللاعلام الصهيوني هفواته ايضا وهو ضعيف اذا ما اخذنا ضحالة حججه وبعدها عن المنطق وعن الواقع ايضا . فالحق بجانب الفلسطينيين ، وهم اصحاب قضية عادلة ، ولابد ان يكون سهلا ويسيرا على صاحب الحق ان يشرح قضيته . فهو ليس بحاجة الى الكذب والغش والخداع . فقليل من المنطق يكفي رجل الاعلام الفلسطيني لكي يشرح قضيته ويقنع العلم بعدالتها .

بقي ان نقول بان المعارك الاعلامية يخوضها الاعلاميون كما يخوض السياسيون معاركهم السياسية والعسكريون معاركهم العسكرية . فعقل الانسان لا يزال هو المادة التي يحارب من اجلها رجل الاعلام لكسبها الى صفه . والرأي العام المؤيد هو من ضروريات ولوازم حرب الشعب الطويلة الامد حتى ينتصر . والاعلام يتطور ويتألق بتطور حرب الشعب واستمراريتها وانتصاراتها .

ان الاعلام الفلسطيني والعربي لا يزالان ضعيفين اذا ما قورنا بنشاط الاعلام الصهيوني واتساع دائرة تأثيره ، ولكنهما آخذان بالتطور والنمو حتى يصبحا في مستوى القضية التي يناضلان من اجلها ، والتي هي من اعقد قضايا العصر .

عرايب عواد

حول الوحدة الوطنية الفلسطينية

اذا كانت الوحدة الوطنية الفلسطينية ترتدي اهمية استثنائية في هذه المرحلة،فلا يعني ذلك انها لم تكن موضع اهتمام في الماضي ، اذ كانت باستمرار قضية حيوية بالنسبة للشعب الفلسطيني ، وشرطا اساسيا لانتصار ثورته نظرا لطبيعة هذه الثورة كثورة تحرروطني ، تجسد مصالح قوى اجتماعية وسياسية عريضة ، ونظرا لضخامة القوى المعادية المتمثلة في التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي الذي يضم دولة اسرائيل الصهيونية ، ومعها الحركة الصهيونية العالمية والامبرياليةالعالمية ،وعلى راسها الامبريالية الاميركية ، بالاضافة الى ادواتها من الرجعيين والعملاء في المنطقة العربية ، وفي منطقة الشرق الاوسط ، مما يستدعي تعبئة كل طاقات الشعب الفلسطيني النضالية ضمن وحدة وطنية شاملة تضم كل الطبقات والقوى الوطنية وممثليها من المنظمات والهيئات والاحزاب السياسية .

ان ما يستوجب التركيز على الوحدة الوطنية الفلسطينية في اطار منظمة التحرير ، في المرحلة الراهنة ، وتوفير كل المستلزمات لتعزيزها ، هو الوضع الخطير الذي نشأ نتيجة خيانة السادات وانتقاله بشكل سافر ، بعد اتفاقية كامب ديفيد ، الى التحالف مع الامبريالية الاميركية واسرائيل،وهو التحالف الموجه ضد حركة التحرر الوطني العربية والافريقية بوجه عام ، وضد حركة التحرر الوطني الفلسطينية بوجه خاص . فمن خلال مشروع الحكم الذاتي الاداري الذي تضمنه اتفاق كامب ديفيد اتفق السادات مع اميركا واسرائيل على حرمان الشعب الفلسطيني من حقه في العودة وتقرير المصير والاستقلال الوطني ، وعلى تكريس الاحتلال لارضه .

وبالاتفاق بين اطراف كامب ديفيد ، اخذ التآمر ضد الشعب الفلسطيني مجاله للتطبيق العملي من خلال سلسلة الاعتداءات الاسرائيلية الوحشية على لبنان ، بقصد سحق المقاومة الفلسطينية وحليفتها الحركة الوطنية اللبنانية ، والضغط على سوريا لتركيعها ، واطلاق الصهاينة العنان لمشاريع الاستيطان والتهديد على حساب الارض العربية في المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ ، وامتداد هذه السياسة اللصوصية لتشمل ما تبقى من الارض في ايدي العرب المقيمين

تحت الاحتلال ، وخاصة في الجليل والنقب ، وتصعيد اجراءات القمع والارهاب ضد الجماهير الفلسطينية الرازحة تحت نير الاحتلال والتحكم الصهيوني .

فمن الطبيعي اذن في مواجهة هذا الوضع الخطير ان تبرز الوحدة الوطنية الفلسطينية الى المقدمة ، وتستحوذ على اهتمام كل الفصائل والقوى الوطنية الفلسطينية ، وتصبح مطلبا جماهيريا يجري التعبير عنه في الندوات والمؤتمرات والاجتماعات والمذكرات المرفوعة لقيادة منظمة التحرير .

وقد انعكس ذلك في برنامج الوحدة الوطنية بشقيه السياسي والتنظيمي ، الذي وافقت عليه كافة المنظمات والقوى الوطنية الفلسطينية ، وقدم للمجلس الوطني في دورته الرابعة عشرة باعتباره الوثيقة الاساسية، في حين كانت الوثيقتان الاساسيتان اللتان قدمتا للمجلس الوطني في دورتيه الثانية عشرة والثالثة عشرة هما برنامج النقاط العشر ، وبرنامج النقاط الخمس عشرة التي يغلب عليها الطابع السياسي .

ومع ان المجلس الوطني اقر في دورته الاخيرة برنامج الوحدة الوطنية ، الأمر الذي يشكل خطوة هامة على طريق الوحدة الوطنية ، اذ انه لأول مرة منذ عدة سنوات كان هناك اجماع على تأييد الاهداف الوطنية الفلسطينية في هذه المرحلة ، ممثلة في العودة وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة . الا ان استبعاد ممثلي عدد من الفصائل والقوى الوطنية من اللجنة التنفيذية جاء مخالفا لبرنامج الوحدة الوطنية، الذي نص بشكل واضح على ضرورة مشاركة كافة الفصائل والقوى الوطنية الفلسطينية في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، باعتبارها القيادة اليومية للنضال الفلسطيني .

الوحدة الوطنية في الأرض المحتلة في مواجهة مؤامرة كامب ديفيد

اثار اتفاق كامب ديفيد موجة عارمة من الاستنكار والمقاومة في الارض المحتلة ، لأن الجماهير الفلسطينية هناك ادركت منذ الاعلان عن تلك الاتفاقية انها مؤامرة حاكها الثالوث غير المقدس كارتر ـ بيغن ـ السادات ، ضد الشعوب العربية بوجه عام ، وضد الشعب الفلسطيني بوجه خاص ، بقصد تصفية قضيته الوطنية وتخليد الاحتلال لارضه .

وقد اجتاحت الضفة الغربية وقطاع غزة الاضرابات والمظاهرات الصاخبة ، تندد بتلك المؤامرة ، وتدين خيانة السادات ، وتشتبك مع قوات الاحتلال ، معلنة تصميمها على المضي في المقاومة ، حتى دحر الاحتلال والظفر بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير والعودة الى دياره ، واقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني . وقد تجلت الوحدة الوطنية في غمرة النضالات الجماهيرية ضد مؤامرة كامب ديفيد ، من خلال البيانات والمذكرات والمسيرات وسلسلة المؤتمرات الشعبية في القدس وبيرزيت وبيت لحم وغزة ونابلس ، التي ضمت عدة الوف شارك فيها ممثلون عن المجالس البلدية والنقابات العمالية والمهنية ومجالس الطلبة والهيئات النسائية والدينية والاندية . وقد واكب هذه النضالات الجماهيرية اتساع نطاق المقاومة المسلحة ضد المحتلين الصهاينة ، بحيث شملت كل الأرض الفلسطينية ، واججت الحماس الشعبي .

وكان لقاء القوى الوطنية في تلك المؤتمرات وفي النضالات الاخرى يستند الى الاتفاق على

مجموعة من الاهداف والشعارات تجسدت في رفض مؤامرة كامب ديفيد ، وادانة مشروع الحكم الذاتي شكلا وموضوعا ، والتمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا وحيدا للشعب الفلسطيني ، والاصرار على حق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير المصير وبناء الدولةالفلسطينية المستقلة على التراب الوطني .

وقد كان من بين الشعارات التي غطت جدران قاعة بيرزيت خلال انعقاد المؤتمر الشعبي فيها : « **لا للادارة الذاتية ، نعم لمنظمة التحرير** » ، « **عاش النضال في سبيل حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ولاقامة دولته المستقلة** » . « **الجبهة الوطنية العريضة هي الطريق السليم لافشال المؤامرة** » .

ولقد ادركت القوى الوطنية في الارض المحتلة ان هذه المؤتمرات رغم اهميتها ورغم صيغة التمثيل الواسع فيها ، لا تكفي لمواجهة مؤامرة كبيرة خطيرة مثل اتفاق كامب ديفيد ومشروع الادارة الذاتية ، بل لا بد من اطار تنظيمي ثابت يتولى قيادة هذه المواجهة . ومن هنا فقد تمخضت تلك المؤتمرات عن اقامة لجنة عليا للعمل الوطني تفرع عنها عدد من اللجان الفرعية ، تمثل القوى الوطنية المختلفة ، وتتولى مهمة تعبئة الطاقات الشعبية .

واصبحت مهمة تعزيز صيغة الوحدة الوطنية التي برزت في مواجهة كامب ديفيد تتطلب الاستمرار في التعبئة الجماهيرية ضده ، بتنظيم مختلف النضالات ، والتصدي لدعايات واحابيل السادات والمحتلين الصهاينة ورسل الامبريالية الاميركية التي تستهدف تزيين وجه مؤامرة الادارة الذاتية،والسعي لتمريرها على الجماهير الفلسطينية في الداخل ، والرد على هذه الاحابيل التي كانت تتردد هنا وهناك على لسان عدد من الوجهاء من كبار الملاكين والبورجوازية الكبيرة ممن لهم صلات وثيقة بالسادات وبالحكم في الاردن ، المعروفين بمواقفهم المهادنة للاحتلال ، واستعدادهم بحكم طبيعتهم الطبقية وارتباطاتهم للسير على طريق المساومة ، وهذا الاتجاه كان يدعو على استيحاء ، سواء في السر او العلن ، للتريث في الحكم على اتفاقيات كامب ديفيد ومشروع الحكم الذاتي ، ويسعى لتمييع المقاومة ضدهما تحت حجج وذرائع لا تختلف كثيرا عن الحجج والذرائع التي يسوقها السادات ومن يؤيده من الانظمة الرجعية العربية، لتبرير خضوعه للامبريالية والصهيونية ، وتوقيعه صك الاستسلام لمخططاتها العدوانية . ويقدم نشاط رشاد الشوا رئيس بلدية غزة المعين من الحكم العسكري الاسرائيلي ، وتصريحاته التي نشرتها الصحف خلال جولته الاخيرة في الاردن ولبنان وسوريا ، صورة واضحة عن مثل هذا الاتجاه.

وقد جاء كراس « ضد كامب دايفيد » صدر في القدس ، في اوائل تشرين الثاني الماضي ، بقلم بشير البرغوثي، في سياق الحملة ضد الادارة الذاتية والرد على الحجج والمبررات التي تصور ان الحكم الذاتي هو خطوة على طريق الاستقلال الوطني واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة . اذ يبين في معرض رده على نصائح دعاة « التعقل والواقعية » الذين يروجون للحكم الذاتي بالتخلي عن عقدة « لا » التي حكمت الموقف الفلسطيني باستمرار ، كما يزعمون ، والتحلي بشعار « خذ وطالب » .

« ان عرض الادارة الذاتية لا يعطي شيئا للشعب الفلسطيني ،بل يأخذ منه حقه في

الاستقلال الوطني . والصحيح ان اسرائيل هي التي طبقت شعار « خذ وطالب » في كامب ديفيد ، فاخذت الصلح المنفرد مع مصر والموافقة المصرية على بقاء قواتها في الضفة الغربية وارجاء بحث موضوع القدس والسيادة ، والموافقة المصريةعلى استمرار سيادتها على الضفة والقطاع . وقد صرح رئيس الوزارة الاسرائيلية انه بعد الفترة الانتقالية سيطالب باقرار سيادة اسرائيل على الضفة والقطاع والا سيبقى كل شيء على حاله » .

استشراء الاستيطان وتفاقم الارهاب

كان من نتائج عقد اتفاقية كامب ديفيد ونهج السادات الاستسلامي ، واطمئنان الصهاينة لخروجه نهائيا من الصف العربي ، وانتقاله الى التحالف معهم ، تشجيعهم لاطلاق العنان لمشاريع الاستيطان والتهويد . فبعد ان كانت خطة حكومات حزب العمل الاسرائيلي السابقة تغطي الاستيطان بالمناورة والخداع والتركيز على اقامة المستوطنات في الاطراف على غرار حزام المستوطنات الامني حسب مشروع الون ، فان حكومة بيغن اندفعت بشكل سافر ومكشوف لبناء المستوطنات في قلب المناطق ذات الكثافة السكانية في كل ارجاء الضفة الغربية .

واخذ بيغن يضع موضع التطبيق تفسيره لمشروع الحكم الذاتي بانه يشمل السكان ، ولا علاقة له بالارض وما بداخلها من مياه وثروات ، فهي حسب رأيه اسرائيلية ، وراحت حكومته تشق الطرق الجديدة الواسعة التي تقطع الضفة الغربية طولا وعرضا ، بحيث قسمتها الى مربعات زرعت فيها المستوطنات الجديدة ، مما جعل خطر تهويد الارض وطمس معالمها العربية ماثلا امام جماهيرنا في الارض المحتلة . وكانت هذه الهجمة الاستيطانية حافزا لمواجهتها ، والدفاع عن ارض الاباء والاجداد من اوساط واسعة ، ضمت عددا من الوجهاء والاعيان الذين تطلق عليهم الاوساط الامبريالية والصهيونية صفة « المعتدلين » لأنهم عرفوا بترددهم في مواجهة كامب ديفيد ، واستعدادهم للمهادنة والمساومة مع المحتلين . وقد شهدت الضفة الغربية موجة عارمة من النضالات الجماهيرية ضد الهجمة الاستيطانية ، وتحولت في حالات كثيرة في حلحول والخليل وبيرزيت ورام الله ونابلس الى اشتباكات دموية مع قوات الاحتلال ، سقط فيها عدد من الشهداء والجرحى ، بعد ان رد عليها المحتلون بمزيد من الاجراءات الارهابية التي شارك فيها المستوطنون انفسهم . وكانت مسيرة نابلس الضخمة احتجاجا على بناء مستوطنة الون موريه في مشارف المدينة ، مثلا بارزا على شمول حركة مقاومة الاستيطان ، حيث ضمت تلك المسيرة زهاء سبعة آلاف مواطن ، وشاركت فيها كل القوى والاتجاهات في المدينة .

كما لعبت نقابات العمال دورا بارزا في هذه النضالات الجماهيرية : بالاضافة الى مشاركتها في كل المؤتمرات والاجتماعات المكرسة لمقاومة كامب ديفيد والاستيطان ، وعقدت مؤتمرات خاصة بها ، نددت بالحكم الذاتي ، واكدت الموقف الوطني في الالتفاف حول منظمة التحرير وتأييد الدولة المستقلة .

وقد ادى هذا الجو الوطني الى مزيد من النشاطات في الحركة النقابية ورص صفوفها ،

وزيادة المنتسبين اليها مثلما ظهر في مؤتمر اتحاد النقابات في شهر حزيران الماضي،الذي شاركت فيه الاغلبية الساحقة من اعضاء مجلس الاتحاد ، وتمخض عن انتخاب لجنة تنفيذية تمثلت فيها مختلف القوى والمناطق ، بحيث وضع حد للنشاط الانقسامي في الحقل النقابي .

وقد برز الوعي الوطني والغيرة على الوحدة الوطنية في مسلك النقابات العمالية ، وحرصها وهي تقوم بواجبها في الدفاع عن مصالح العمال وحقوقهم على حماية المشاريع والمؤسسات الوطنية ، شريطة ان لا يكون ذلك على حساب العمال والحاق الحيف بهم لصالح اصحاب العمل . وقدمت نقابة عمال ومستخدمي شركة كهرباء القدس مثلا بارزا على هذا المسلك ، فهي رغم موقفها الحازم والصلب في الدفاع عن حقوق العمال في وجه تعنت رئيس مجلس الادارة وعدم اهتمامه بتأمين هذه الحقوق كانت تؤكد في بياناتها ونشاطها العملي حرصها الكامل على حماية الشركة كمؤسسةوطنية امام مساعي شركة الكهرباء القطرية الاسرائيلية للقضاء عليها وابتلاعها .

وفي قطاع غزة تسير الامور على خلاف حسابات وترتيبات المحتلين وحليفهم السادات ، التي بنوها على اعتبار ان القطاع نقطة ضعف يمكن البدء به في تنفيذ مشروع الادارة الذاتية،اذ تمخضت انتخابات جمعية الهلال الاحمر ، وهي اكبر مؤسسة وطنية في القطاع وتضم زهاء ٣٠٠٠ عضو ، وتمارس النشاط في المجالين الاجتماعي والسياسي ، عن فوز قائمة الائتلاف الوطني التي يتزعمها الدكتور حيدر عبد الشافي ، الشخصية الوطنية المرموقة ، وهزيمة القائمة المنافسة المرتبطة برشاد الشوا .

والى جانب ذلك فقد تعززت العلاقة بين القوى الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، من خلال المؤتمرات الشعبية والاجتماعات العامة التي يشارك فيها ممثلون عن الضفة والقطاع لتأكيد وحدة موقف جماهيرنا الفلسطينية في مقاومة الاحتلال ، ورفض الحكم الذاتي ، والالتفاف حول منظمة التحرير ، والتمسك بحق تقرير المصير والعودة وبناء الدولة المستقلة . فقد صدر عن الاجتماع الذي عقد في الثامن من حزيران الماضي ، في مجمع النقابات المهنية في القدس ، وضم مجالس النقابات المهنية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، عدة قرارات تتضمن الاهداف الوطنية الفلسطينية ، من ضمنها قرار يبرز اهمية الوحدة الوطنية على النحو التالي : « لما كان العدو يوجه جهوده المكثفة كجبهة معادية لحقوقنا الوطنية بغرض تمزيق شعبنا وشق ارادته،فان المجتمعين يدعون الى ضرورة تلاقي القوى الوطنية قولا وعملا ، ممثلة باجهزتها السياسية والنقابية والاجتماعية في جبهة وطنية واحدة تقود النضال الفلسطيني داخل الارض المحتلة ، في اطار وتحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وان تجسد هذه الوحدة من خلال الممارسة الفعلية وفي اطار الجو الديمقراطي البناء ، وضمن برنامج الحد الادنى المتمثل في مقاومة الاحتلال الاسرائيلي والنهج الاميركي الساداتي,الاسرائيلي، الهادف الى تطبيق الادارة الذاتية ضد ارادة شعبنا ، والعمل نحو تحقيق حقوقنا الوطنية الثابتة » .

ان الوعي السياسي العميق ، والشعور العالي بالمسؤولية الوطنية هما الطابع المميز لجماهيرنا في الارض المحتلة،وهو الوعي الذي يبرز في نشاطاتها الاجتماعية والفنية والثقافية . فمؤتمر الجمعيات الخيرية الذي انعقد في القدس في قاعة جمعية الشبان المسيحية كان مكرسا في

الأساس لبحث المشاكل الاجتماعية ، وكان مقررا ان لا يزيد عدد المدعوين له عن ثلاثمائة مواطن ، ولكنه تحول الى مؤتمر وطني واسع بعد ان زاد عدد المشاركين فيه عن الالف من ممثلي النقابات العمالية والمهنية والمجالس البلدية ومجالس الطلبة والهيئات النسائية في الضفة والقطاع ، وصدرت عنه قرارات سياسية وطنية تدين الاحتلال والحكم الذاتي ، وتؤيد الدولة الفلسطينية المستقلة ومنظمة التحرير . هذا الطابع المميز نفسه كان سائدا في اسبوع الفولكلور الفلسطيني الذي نظمه نادي الموظفين في القدس ، ومؤتمر التنمية في مجمع النقابات المهنية في القدس .

بيان الجبهة الوطنية الفلسطينية

لقد جاء بيان الجبهة الوطنية الفلسطينية التي تضم في صفوفها التنظيم الشيوعي الفلسطيني وعددا من منظمات المقاومة ، وممثلي القوى الوطنية الاخرى ، ثمرة لهذه النضالات التي جرت في اطار الوحدة الوطنية ، وتتويجا لها ، باعتبار الجبهة الاطار التنظيمي الثابت الذي يتولى تعبئة جماهيرنا في الارض المحتلة وقيادة نضالاتها .

وقد حدد البيان الارضية التي تستند اليها الجبهة الوطنية في نضالها ، والتي تتلخص في رفض « النهج الاستسلامي الذي يقوده السادات ، والذي ادى الى عزلة مصر عن الوطن العربي وتعرية الدور الاميركي الذي راهن عليه السادات تضليلا لشعبنا وللشعوب العربية،فلم يزحزح اسرائيل قيد انملة عن مخططها الصهيوني . وتأكد ذلك بقوة بدعم من الامبريالية ، بعد المبادرة باعلان القادة الصهاينة في اسرائيل بان لا تنازل عن شبر من ارض فلسطين ، ولا تراجع عن القدس ، ولا تراجع عن سياسة الاستيطان ، ولا تسليم بأي حق للشعب الفلسطيني ، وانكار وجوده اصلا .

لقد اسندت الامبريالية والصهيونية العالمية الى نظام السادات والحركة الصهيونية،دور الشرطي لضرب حركة التحرر الفلسطينية والعربية والافريقية واخضاع المنطقة لسيطرتهم .

وقد حذر البيان من المراهنة على الامبريالية الاميركية ، والتعلق بسراب الاوهام بان تقوم بممارسة الضغط على اسرائيل لصالح الشعب الفلسطيني والشعوب العربية . « ان اسلوب المراهنة على الامبريالية الاميركية من اجل الضغط على اسرائيل ادى الى تنازلات وتفريط بحق شعبنا وحق الشعوب العربية ، وانه رهان خاسر ومهين للامة العربية » .

ودعا البيان الى تعزيز التحالف مع قوى التحرير العربية والتقدمية وجبهة الصمود والتصدي ، وزيادة فعاليتها النضالية لكي تتحول الى قوة قادرة على مجابهة الحلف الجديد الامبريالي الصهيوني الرجعي . كما دعا الى تعزيز التحالف مع الدول الاشتراكية ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي .

الانعطاف في موقف الجماهير العربية الفلسطينية في اسرائيل

ان بروز الشخصية الوطنية المستقلة للجماهير العربيةالفلسطينية داخل اسرائيل ،

ونهوضها للدفاع عن ارضها في وجه مشاريع الاستيطان والتهويد ، وصيانة حقوقها المعيشية والوطنية امام سياسة التمييز والاضطهاد العنصري الصهيوني ، يشكل ظاهرة هامة بالنسبة لنضال الشعب الفلسطيني . ورافق هذا النهوض وساهم في دفعه وتحريكه، الوحدة الوطنية التي تمثلت في عدد من الهيئات والمنظمات ، مثل اللجنة القطرية للدفاع عن الارض ، ولجنة الطلبة العرب الجامعيين والثانويين وجمعية انصار السجين الفلسطيني ، ولجنة المبادرة الدرزية حيث تشكل هذه الهيئات ائتلافا وطنيا كما يضم بعضها ممثلين عن القوى التقدمية اليهودية . واستنادا الى هذا الائتلاف الوطني ، وبالتحالف مع القوى التقدمية اليهودية خاضت الجماهير العربية الفلسطينية على امتداد السنوات الثلاث الاخيرة عدة نضالات جريئة ، خاصة في مجال الدفاع عن الارض ، تحولت الى معارك دموية كان آخرها الصدامات في معليا ، والمظاهرة الكبيرة التي نظمت حول الكنيست دفاعا عن ارض النقب ، وشارك فيها الالوف من بدو النقب والجماهير الفلسطينية في الجليل والمثلث ، بالاضافة الى ممثلي القوى التقدمية .

وقد حرصت الجماهير العربية خلال هذه النضالات على التأكيد على وحدة الشعب الفلسطيني في مختلف مواقفه، واعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني ، وتأييدها لمنظمة التحرير بوصفها الممثل الشرعي الوحيد لهذا الشعب ، والتمسك بحقه في العودة وتقرير المصير ، واقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني ، ومقاومة كل المشاريع والمؤامرات التي تحيكها الامبريالية والصهيونية والرجعية لتصفية قضية الشعب الفلسطيني وفي مقدمتها مؤامرة كامب ديفيد .

وكانت هذه الظاهرة مفاجئة للصهاينة باحزابهم وهيئاتهم واجهزتهم الحكومية ، لانها كشفت فشل مخططاتهم لتذويب الجماهير العربية وطمس شخصيتها القومية ، رغم كل ما استخدموه من اساليب القمع والضغط والاغراء على امتداد الثلاثين عاما الماضية .

وجاءت وثيقة كنغ التي كشف امرها في اعقاب معارك يوم الارض ١٩٧٦ ، والدراسة التي نشرتها جريدة الجيروزاليم بوست في عدة حلقات في مطلع هذا العام ، لتوضح ما يعده الصهاينة لمواجهة هذه الظاهرة وضربها عن طريق الارهاب او اعتماد سياسةالاحتواء والتذويب ، وتوجيه النار بشكل خاص ضد الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكح » ، وشن حملات متوالية من التحريض والارهاب ضده واثارة الشكوك حول ولائه الوطني .

ومن الطبيعي ان تتركز الحملة الصهيونية ضد الحزب الشيوعي الاسرائيلي لانه يشكل نواة الائتلاف الوطني ، والمحرك الرئيسي للنهوض الوطني في السنوات الاخيرة ، ونظرا لدوره الكبير في المحافظة على الشخصية الوطنية المستقلة للجماهير العربية بفضل نضاله المثابر على امتداد الثلاثين عاما،دفاعا عن ارضها وتاريخها وثقافتها العربية وحقوقها الوطنية في وجه اشرس اشكال العنصرية الصهيونية،واستقطابه خيرة المناضلين والمثقفين والكتاب والشعراء والفنانين العرب ، ونجاحه من خلال تركيبه العربي اليهودي في تقديم مثل حي ملموس للتعاون الذي يقوم على اساس مناهضة الامبريالية والصهيونية والرجعية ، والاعتراف بحق الفلسطيني في العودة ، وتقرير المصير ، والاستقلال الوطني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية .

ومن الطبيعي ايضا ان يلقى هذا الدور التقدير والدعم في صفوف شعبنا الفلسطيني ، وبين اوساط المقاومة الفلسطينية . وقد انعكس ذلك في قرارات المجلس الوطني في دورتيه الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، وفي لقاء براغ الذي جرى قبل عامين بين وفد منظمة التحرير ووفد الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، وفي الاحتفالات المشتركة التي نظمتها فروع الاتحاد العام لطلبة فلسطين بالتعاون مع طلاب الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، في عدد من البلدان الاشتراكية ، وفيما تنشره « فلسطين الثورة » الصحيفة المركزية لمنظمة التحرير ، وصحف المقاومة الاخرى ، من مقالات « الاتحاد » ومواقف القادة الشيوعيين العرب واليهود ، امثال توفيق طوبي واميل حبيبي وماير فلنر وفيلتسيا لانغر .

لقد اصبح واضحا ان نهوض النصف مليون فلسطيني في اسرائيل ، ووحدتهم الوطنية ، يشكل رافدا من روافد النضال الفلسطيني يلتقي مع الروافد الاخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة في العديد من النضالات المشتركة ، التي كان يوم الارض سنة ١٩٧٦ نقطة انطلاق بارزة فيها ، دفاعا عن الارض ضد الاستيطان والتهويد ، واستنكارا لاجراءات القمع والارهاب ، وتأكيداً على التمسك بالحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني ، مما يؤكد وحدة الشعب الفلسطيني ، وفشل كل محاولات الصهاينة لتجزئته وتمزيقه .

شرطان اساسيان لتعزيز الوحدة الوطنية الفلسطينية

عند التعمق في العوامل الكامنة وراء الوحدة الوطنية بصيغتها المتقدمة في الارض المحتلة يتبين ان هناك عاملين اساسيين : اولهما أن هذه الوحدة انما تقوم وتتقوى في خضم النضال المثابر ضد الاحتلال والتصدي لكل المشاريع والمخططات التي تحيكها الامبريالية والصهيونية والرجعية ، والتخلي عن كل وهم بشأنها ، والقناعة بان الوسيلة الوحيدة لاحباط هذه المخططات هي مواصلة النضال ضدها ، رغم كل الصعاب والتضحيات ونبذ كل الدعاوى والميول الاستسلامية .

والعامل الثاني هو القرار الفلسطيني المستقل الذي يحكم في الاساس مواقف جماهيرنا وقواها الوطنية في الارض المحتلة ، وينبع من الالتزام بالمصلحة الوطنية العليا في حماية ارضها وثقافتها ومقدساتها وكرامتها القومية ، او الخلاص من نير الاحتلال ، مما يفرض على هذه الجماهير وقواها الوطنية ان تتكاتف وتتلاحم ، رغم تعدد تنظيماتها ، واختلاف اتجاهاتها الايديولوجية والسياسية .

ولذلك فان قيام وحدة وطنية راسخة وشاملة في اطار منظمة التحرير يتطلب بالضرورة توفر هذين الشرطين : الموقف الحازم ازاء المؤامرة ومناورات الامبرياليين واعوانهم من الرجعيين ، واليقظة الدائمة ازاءهما ، والقرار الفلسطيني المستقل الذي يضع المصلحة الوطنية الفلسطينية فوق كل اعتبار آخر .

وهكذا ، فان الثغرات التي ما زالت قائمة في مجال الوحدة الوطنية داخل منظمة التحرير ، تعود اساسا الى حقيقة ان مؤامرات ومناورات الامبريالية والرجعية ما زالت قادرة على استدراج بعض الاوساط في الساحة الفلسطينية والى التعلق بالاوهام حول جدوى الحوار مع اميركا ،

رغم عدم تخليها عن عدائها للشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية ، وحول امكانية تحييد اصدقاء اسرائيل وحلفائها من الامبرياليين ، وتتأثر بنصائحهم الرامية الى تمزيق الصف الوطني الفلسطيني ، بالدعوة الى « الاعتدال » وتحجيم « المتطرفين » ، والتلويح بالفزاعة البالية حول خطر انتشار الشيوعية بين الفلسطينيين .

ولا بد من التأكيد على ضرورة تجديد اليقظة ازاء المناورات الامبريالية في الشهور الاخيرة التي ملأت الاجواء بتصريحات العديد من ساسة الامبرياليين في اميركا،وصدور فيض من الاحاديث والبيانات والتعليقات عن الموقف الاميركي الجديد بالنسبة للقضية الفلسطينية ، واستعداد الولايات المتحدة للحوار مع منظمة التحرير .

ان الدافع وراء هذه المناورات ، هو ادراك الامبرياليين في اميركا واوروبا الغربية ، ان مؤامرة كامب ديفيد تعترض طريقها عقبة رئيسية هي العقبة الفلسطينية التي لم تستطع ازاحتها رغم خيانة السادات ، ورغم حرب الابادة التي يشنها الصهاينة ضد الشعب الفلسطيني بدعم من الولايات المتحدة ومباركة السادات ، ولذلك ، فالقصد من هذه المناورات هو نشر البلبلة في صفوف الشعب الفلسطيني ،وشق صفه الوطني ، وتمييع الموقف العربي في مواجهة مؤامرة كامب ديفيد ، واضعاف علاقات التحالف مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية .

وتعود هذه الثغرات ايضا الى تدخل العديد من الانظمة العربية في شؤون منظمة التحرير ، وسعيها لفرض سياستها الخاصة على القرار الفلسطيني في اتجاه استبعاد او تحجيم هذه القوة الوطنية الفلسطينية او تلك ، مستغلة حاجة الشعب الفلسطيني ومنظماته للدعم المادي والسياسي من الشعوب العربية كلها ، نظرا للطابع القومي للمعركةالتي يخوضها الشعب الفلسطيني دفاعا عن الامةالعربية وشعوبها في وجه الغزوة الامبريالية الصهيونية التي تستهدف بسط سيطرتها ، وتحقيق اطماعها التوسعية في الوطن العربي .

ولذلك ، فان المساعي والدعوات لتعزيز الوحدة الوطنية الفلسطينية في اطار منظمة التحرير ، وتطبيق برنامج الوحدة الوطنية الذي اقره المجلس الوطني في دورته الاخيرة : سيظلان متعثرين ان لم يتوفر الشرطان الاساسيان : الموقف الحازم ازاء مناورات ومؤامرات الامبريالية،والحرص على حماية القرار الفلسطيني المستقل .

وبالمقابل ، فان التصدي الثابت للامبريالية بكل مؤامراتها ومناوراتها ، والتمسك بالاهداف الوطنية في العودة وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة ، ورفض كامب ديفيد والحكم الذاتي ،وباقي المشاريع التصفوية ، أو الحرص على التلاحم مع حركة التحرر الوطني العربية بكل قواها الوطنية والتقدمية ، والتحالف مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية ، وحماية القرار الفلسطيني المستقل ، كل ذلك يشكل القاعدة الصلبة الثابتة التي تقوم على اوسع وأشمل وحدة وطنية راسخة تعبىء طاقات شعبنا النضالية ، وتحقق له النصر .

أميرة الزين

دم عربي في روايات غربية

بين يدي روايات فرنسية وانكليزية ، وبعضها منقول عن الالمانية ، يطلق عليها عادة أسم روايات بوليسية أو خيالية أو تجسسية أو مغامرات رائجة جدا « Best Seller يجمعها خيط زمني واحد ، فهي كلها مكتوبة أبتداء من عام ١٩٦٧ ، وتدور أحداثها بين العالم العربي وعواصم العالم الغربي . أنها روايات تشكل ردة فعل على « الخطر العربي » . فمنذ « تدويل » القضية الفلسطينية و « أزمة » النفط التي تقض مضجع العالم الغربي اليوم ، والغرب يصور ان وجوده مهدد من قبل العرب سواء كانوا « أرهابيين فلسطينيين أو شيوخ نفط » . انها روايات التعليق على الحدث العربي من وجهة نظر رأسمالية غربية ، وهي تكتب اليوم بغزارة كما كتبت قبل سنوات روايات«جيمس بوند » كردة فعل على « خطر المعسكر الاشتراكي » . وعلى الرغم من ان بعضها خيالي الا انها جميعا تربط ربطا وثيقا بين الوجود الروائي والمجتمعات التي تصفها ، فهي تعرف جيدا حساسية القارىء الغربي لها وتجاهها ، وتدرك كيف تثير أهتماماته .

طبعا لكل ظروف أجتماعية نصوصها . النص يتزوج الحدث ، والحدث يولد النص . ومنذ ان عرف الانسان السرد وهو يلوذ به ليصب فيه كوابيس مجتمعاته وطموحاتها ، فكل مجتمع يفرض روايته ، ويفرض بذلك شبكة رموزه . بدءا من ظهور الرواية ، تناسلت أشكالها الى ما لا نهاية مواكبة انتقال المجتمع من المرحلة الاقطاعية الى الصناعية فالالية . بذلك أصبحت عالما اجتماعيا مصغرا يعكس العالم الاجتماعي الاكبر .

وازاء تورط الرواية اجتماعيا تحمل الروائي مسؤولية كبيرة . أراده بلزاك ان يكون على مستوى خطر رجل العلم والسياسة واراده هيجل ان يمارس وظيفة اساسية هي تصوير الفرد في وسطه اليومي . ومع هذا التورط لم تكن الرواية بريئة . كانت تخدم غرائز جماهيرها وتتفنن في تجميل نفسها لاغراء هذه الجماهير . ولقد اطلق المجتمع الحديث انواعا شتى من الروايات

ليشبع حاجة مجتمع معين وطبقة معينة مكرسة لحياة آلية تسعى الى الهرب منها . الوجود الروائي متشابك ابدا مع الوجود الاجتماعي . واذا كان القرن التاسع عشر قد عرف ازدهار الرواية النفسية وولادة الرواية البوليسية ، فاننا لم نشهد عصرا عرف مثل هذا الركام من الانتاج الروائي البوليسي التجسسي الخيالي كعصرنا بالرغم من نشوب الحروب التي شهدها القرن السابق ، وحدوث الانهيارات الاقتصادية . ربما لان السياسة يومها لم تكن بحاجة الى خلق انواع روائية متخصصة بالرد المباشر او غير المباشر على هذا التيار او ذاك ، بالرغم من ان روايات القرن التاسع عشر كانت أيضا غير بريئة سياسيا .

في فترة الحرب الباردة انتج الغرب بطلا شعبيا أطلق عليه أسم « جيمس بوند » وجسد فيه خوفه من المعسكر الاشتراكي ، ومجد عبره تفوق المجتمع الرأسمالي ، وفساد المجتمعات المالية ، وحضارة المدن التي شبت بسرعة ، وسيطرة الجنس وهوس العنف . كان جيمس بوند وريث أرسين لوبين الذي مثل قبله الصراع بين الديمقراطية والعدالة .

وبحكم هذا الارتباط الوثيق بين الرواية والمجتمع فاننا سنركز عليه في دراستنا لرواياتنا التي تحدثنا عنها . وكما يقول لينهارت « ان السمة التاريخية الاجتماعية لاشكال اللغة واضحة الى درجة لا يمكن لاجتماعيتها ان تغيب عنا . انها ليست جزأ منفصلا من كل يمكن تسميته بتاريخ الاشكال بقدر ما هي جزء من كل يمكن تسميته بتاريخ الايديولوجيات التي تفرزها المجتمعات ، والتي تعكس تناقضات الفرد في التاريخ وتناقضات التاريخ في الفرد » .

ان الروايات التي بين ايدينا هي جزء من تاريخ ايديولوجي ، بل هي بحد ذاتها واقع تاريخي اجتماعي . لذلك ليس من الغريب ان تبدو طبيعية لابناء الايديولوجية التي تضفي عليها شرعيتها كما تعطي للسلطة شرعيتها . وليس من الغريب كذلك ان تواكب هذه النصوص تغير بنية السوق ، وتتحول الى سلعة تخضع لقانون العرض والطلب ، وبالتالي لمراحل الانتاج والتوزيع والاستهلاك الرأسمالي . ولقد عبر هربرت غانز عن العلاقة الوثيقة للانتاج الثقافي في البلدان الرأسمالية مع التجارة بقوله « ان بعض الشخصيات الحكومية الاميركية تحاول توجيه دور النشر لحساب هذا التيار السياسي او ذلك ، وبالتالي فان الموزعين سياسيون ثقافيون ، وان الجمهور ليس الا الناخب الثقافي » . اما ليو بوغارت فقد كشف عن أرتباط الجريمة السياسية بالجريمة في وسائل الاعلام ، حين ذكر ان لجنة رئاسية قامت ، بعد مقتل كينيدي ، بتحقيق اثبتت فيه ان الفترة التي أغتيل فيها كينيدي كانت الفترة التي روجت فيها وسائل الاعلام لأفلام الاغتيالات السياسية وقصصها . ان الجريمة السياسية في نظر بوغارت نفسه تدفع الى تسويق اكبر لروايات العنف ، او ان روايات العنف هي التي تدفع الى الجريمة السياسية ، وتمنحها شتى التقنيات الخيالية للوصول اليها .

غير اننا لن نصنف الروايات التي بين أيدينا تصنيفها التقليدي ، ولن ندخل في أدبياتها او جمالياتها او مواقعها اللغوية لان أي تحليل من هذا النوع سيطمس بعدها الاجتماعي كما سيعتبر تحليلا عبثيا ، لانها روايات هشة ، وتكاد تكون صحافية . فهذه الروايات هي شبه قوالب جاهزة يسكب فيها التصور الغربي للعربي . انها ليست نصوصا تجريبية ، كالرواية الحديثة التي توجه اللغة في عدد من الاتجاهات وتخضعها لولادات مستمرة ، بل هي نصوص

وظائفية » اذ يمكن تقسيم الانواع الروائية الى نوعين : الروايات التلميحية او النفسية ، والروايات الوظائفية أي الشعبية » . ولكن هذه النصوص تصنف أيضا كنصوص الثقافة الجماهيرية . وقد وضع هذه التسمية » علم أجتماع وسائل الاعلام « حين قسم الثقافة الحديثة الى نوعين : ثقافة تتخصص بها النخبة ، وتخف كلما تعقد المجتمع الصناعي . وثقافة للجماهير لا يقصد بها ثقافة الفقراء ازاء ثقافة النخبة ، بل هي ثقافة المجتمع ككل بما في ذلك ثقافة النخبة . انها ثقافة الفرد المقتلع في المجتمع البرجوازي التقني الصناعي الحديث . وهي الثقافة التي يضيق مضمونها كلما اتسع جمهورها .

من هم كتاب هذه الروايات ؟

أنهم وسطاء بين الغرب وبين الشخصيات العربية التي يصفونها . انهم ليسوا وسطاء خياليين يكتبون من وراء مكاتبهم بل هم وسطاء واقعيون تجولوا و « ساحوا » في المنطقة العربية ، والسياحة هنا تعني التجسس . فمعظم هؤلاء الكتاب مستشارون لهذه الشركة او تلك المؤسسة او الوزارة . وهم غالبا في مراكز فعالة تساعدهم على الحصول على مادة تصورهم الروائية الخام . ان « غي سارتو ليه » كاتب رواية « نيويورك ستنفجر » هو مراسل محطة التلفزيون الفرنسية الاولى من لبنان ، و « بول اردمان » كاتب « انهيار ٩٧٩ » كان مستشارا ماليا لدى الحكومة الاميركية لفترة طويلة ، وقد تجول بحكم عمله في منطقة الخليج ، و « ميخائيل حاييم » كاتب رواية « لوانفجر سد اسوان » مدير قسم الشرق الاوسط في مجلة ميونيخيه ، يعرف المنطقة العربية عن ظهر قلب . اما« جيرار دو فيلييه » الذي يفبرك كل شهر تقريبا رواية عن أهوال وأخطار الشرق الاوسط ، فيبدو انه يعرف المدن العربية التي يصفها بدقة أكثر مما يعرف شوارع عاصمته باريس .

ومع ان تصور هؤلاء الكتاب للعربي مستمد من علاقتهم مع الطبقة البرجوازية التي استضافتهم فان وصفهم لهذه الطبقة اياها لم يكن افضل من وصفهم للنموذج العربي الثاني ، أي الفلسطيني . فالبرجوازية اللبنانية والاردنية في رواية « موت في بيروت »و «مذبحة في عمان » ليست باقل شراسة من « جعفر » الفلسطيني في رواية « اقتلوا كيسنجر » .

ولكي نمسك بخيوط هذه الروايات بشكل افضل لا بد من عرض سريع لبعضها :

«نيويورك ستنفجر » للفرنسي غي سارتوليه

تتلخص الرواية في ان فرقة من « الارهابيين » بينهم فلسطينيون ويابانيون واميركيون لاتينيون ، ومهندس اميركي ، وهم ينتمون جميعا الى منظمة « أمل » . يسرقون البلوتونيوم من مركز طاقة اميركي ثم يخطفون السفير الاميركي في باريس ويطلبون من الامم المتحدة ان تعلن تحرير الضفة الغربية ، وان تلتزم بوحدة اراضي هذا الوطن الجديد ، وتتعهد بانسحاب اسرائيل منها خلال فترة قصيرة . ثم تتوجه بالطائرة التي خطفت السفير الاميركي من باريس الى نيويورك وهي تهدد بأن هنالك قنبلة نووية موجودة في مكان ما من نيويورك ،وقد تنفجر المدينة بين لحظة واخرى اذا لم تستجب الامم المتحدة والحكومة الاميركية لمطالبهم .

وبعد جهود موظفي مكتب التحقيق الفيدرالي يلقى القبض على المهندس الاميركي في قلب نيويورك ، وتعطل القنبلة .

خلال ذلك يقتل الارهابيون وزير الخارجية الاميركية الذي احتجزوه عندما حطوا في مطار كينيدي . وتنتهي الرواية بالقاء القبض على مختطفي الطائرة .

« قطط الامارات » لشارل ديباش

يصور كاتب الرواية وهو رئيس جامعة « اكس ان بروفانس » الفرنسية العالم بعد نفاد النفط : الغرب خائف من تدهور حضارته الصناعية ويبحث عن طاقة بديلة عن النفط . وفي أحدى امارات الخليج التي يسميها الكاتب بامارة «البروفان» يكتشف احد البدو وهو ينقل هرته على عربة ان جلدها يزيد من سرعة الدولاب . وهكذا يقتلها ويضع جلدها على الدولاب ، فتنطلق العربة بسرعة هائلة . وبالمصادفة يرى هذه الحادثة عالم اجتماع فرنسي اسمه روفائيل كان يقوم بدراسة عن البدو ، فيرحل الى فرنسا فورا ليخبر رئيس جمهوريتها بالامر العجب . ويسارع رئيس الجمهورية الفرنسية « غي غوردان » الى ابرام عقد مع امارة البروفان لاستيراد جلد القطط بكميات هائلة ، بعد ان يصدر المجلس العلمي الفرنسي دراسة تقول ان جلد قطط امارة البروفان وحدها صالحة لانتاج الطاقة .

« القرصان » لهارولد روبينز

ملياردير خليجي أسمه سمير يحلم بطفل يرثه . وتشاء الظروف ان تضع زوجته طفلة أنثى خلال رحلة عبر الصحراء الى الحج . في ذلك الوقت كان هنالك يهودي « بن عزرا » يتسلل مع زوجته الى القدس عبر الصحراء وتشاء الظروف ان تكون زوجة اليهودي حاملا ، وتضع في الوقت نفسه طفلا ذكرا على يدي الملياردير الخليجي الجراح . ويقوم الرجلان بمبادلة الطفلين ، خاصة وان الام اليهودية تموت خلال الولادة . ويكبر الطفل اليهودي « بيدر » في بيت الملياردير العربي دون ان يعرف أصله ، ثم يتزوج من فتاة لبنانية يطلقها بعد ذلك ليتزوج من فتاة أميركية . ويصبح له دور كبير في أبرام الصفقات الكبرى بين أميركا والبلدان العربية ، وتلتحق طفلته « ليلى » بصفوف المقاومة دون علم أبيها ، ثم تنسق مع المقاومة للحصول على اسرار صفقات أبيها . بعدها تقوم بخطف زوجة أبيها الاميركية وابنيها على طائرة متوجهة الى بيروت . وتطالب بفدية ضخمة للافراج عنهم .

هنا يتصل « بيدر » بوالده سمير طالبا المعونة . ثم يتصل سمير ببن عزرا الوالد الحقيقي لبيدر طالبا منه انقاذ الموقف . وكان بن عزرا قد أصبح ضابطا في الجيش الاسرائيلي . وهكذا يتوجه بن عزرا مع فرقة من جنوده الى حدود بلد عربي قريب من لبنان ، وينقذ الطائرة المختطفة ، ويرد الزوجة وأبنيها لبيدر .

« لو انفجر سد أسوان » لميخائيل حاييم

هي أهم الروايات التي بين أيدينا ، فقد ترجمت الى عشرات اللغات من الالمانية . تدور أحداثها عام ١٩٧٣ بعد الحرب على السيناريو التالي : اسرائيل تهدد مصر بتفجير سد أسوان واغراقها بطوفان جديد اذا استمرت طائراتها تعبر قناة السويس . ولتخويف المصريين ترمي الطائرات الاسرائيلية اعلاما في أماكن عديدة قريبة من بحيرة ناصر فتبث الرعب في قلوب الجيش المصري الذي يسرع للتحقيق ، ويستعين بالخبراء السوفيات .

وتدل تقارير الخبراء السوفيات والجيش المصري ان هنالك خللا يهدد بانهيار السد وانه يجب ايجاد حل علمي على مستوى دولي لايقاف أكبر كارثة تاريخية عرفها هذا العصر اذ يمكن في أية لحظة ان يهجم ٢٠٠ مليار متر مكعب من الماء والطمي على المدن المصرية .

بعد ذلك تظهر تيارات مائية في البحيرات الاصطناعية ويسقط عدد كبير من الضحايا في المناطق القريبة من السد . وتهدد اسرائيل مصر : اما ان توقعي على معاهدة صلح معنا ، او نغرقك . ان علماءنا التكنولوجيين يملكون حلا لمشكلة السد . اما اذا رفضت الصلح فأننا سنمحو مدينة الموتى وطيبة والقاهرة والاسكندرية من الوجود بلمح البصر .

ويبدأ المنجمون والحاخامات الاسرائيليون بحملة خلاصتها ان الجرح الثاني عشر والاخير لمصر قد تحقق وان النبؤات التوراتية صادقة . وتضطر مصر التي يرئسها رجل اسمه « داسات » الى توقيع معاهدة صلح مع رئيس دولة اسرائيل دايان ، وان تستقبل مفتوحة الذراعين اول سفير اسرائيلي في مصر مناحيم بيغن (الرواية مكتوبة عام ١٩٧٢) .

غير ان الاسرائيليين بعد توقيع السلام يعلنون ان انقاذ السد قد فات اوانه ، وان الكارثة واقعة لا ريب . ويخصص الكاتب الفصل الاخير من الرواية لوصف القاهرة وهي تغرق بطوفان هائل .

روايات « دوفيلييه » الفرنسي

أما روايات دوفيلييه الست « موت في بيروت » و « مذبحة في عمان » و «غرب القدس » و « أقتلوا كيسنجر » و « حارس أسرائيل » و « تموت بعد ان ترى مالطا » فتدور جميعا حول البطل « مالكو » الذي يعمل لحساب السي أي أيه في البلدان العربية كما يعمل لحساب بعض الانظمة العربية لحمايتها من المقاومة الفلسطينية كما في « مذبحة في عمان » و « أقتلوا كيسنجر » .

ويعمل مالكو احيانا في التحقيق عن جريمة قام بها السوفيات ضد أحد عملاء السي أي أيه كما في « حارس أسرائيل » و « موت بيروت » ، او يطالب بالتحقيق في قضية أغتيال موظف تابع للسي أي أيه على يد استخبارات احد بلدان الخليج كما في « غرب القدس » ، او يحقق في نشاط المخابرات الليبية في مالطا وعلاقتها بالمقاومة كما في « تموت بعد ان ترى مالطا » ، حيث تلعب ملكة جمال عالمية لبنانية دور جاسوسة للمقاومة ضد السي أي أيه وتعمل مع زعيم فلسطيني يتنقل بين بيروت وروما ومالطا ، ويقتل في النهاية ، كما في كل روايات دوفيلييه التي ينتصر فيها مالكو على الشياطين العرب والسوفيات .

وأول استنتاج يخرج به القارىء من هذه الروايات هو العنصرية الفجة التي لا تعرف المواربة. فمنذ الصفحة الأولى لا تسعى الى وصف او دراسة نفسية للشخصية الروائية. الكتابة هنا ذات هدف وظائفي واحد: وصف العدو يعني تحطيمه معنويا لذلك ترسم الروايات شخصية العربي كاريكاتوريا ، وبطل افلام كرتون ، وتتفنن في تشويهه جسديا وخلقيا حتى يصير انسانا بشعا جدا غريب الملامح يثير القرف والاشمئزاز . انه بهلوان مضحك ، ومهرج تشفق عليه .

ويلجأ الكتاب الى التكرار كلما استطاعوا حتى يخيل اليك احيانا ان الرواية ليست الا مجموعة اعلانات تجارية تحذيرية من شخصية العربي . ففي « أقتلوا كيسنجر » ص ٥٠ : دعا عبد الزكي مالكو الى الطعام ، واوقفه امام جمل مشوي ، بداخله خروف مشوي ، بداخله دجاج مشوي ، بداخله حمام مشوي ، وبداخل الحمام بيض مسلوق . اكتفى مالكو بان تناول بيضة مسلوقة . كان الوقت متاخرا ولم يبق سوى بعض المدعوين الذين يأكلون بأصابعهم الجمال المشوية ، اذ لا يستطيع أي بدوي ان يقاوم اغراء المآدب . وفي ص ٣٨ من هذه الرواية أيضا : « كانت عيون الشيخ ابو شرجة تلمع سرورا وكبرياء . عيون حمراء جاحظة ، لم يكن دم عشرة أجيال من البداوة يسيل عبثا في عروقه » . وفي ص ١٥٦ : « كان أبو شرجة مقرفا يسيل ككتلة من زبدة » .

وفي ص ٥٦ من «قطط الامارات»« : دعا الامير رئيس الجمهورية (الفرنسية) غي غوردان للالتحاق به في المسبح حيث يتوضأ . ونزل غي غوردان الى الماء بدون تردد وهو حذر نظرا لشيخوخته . .. والقى الامير بثقله على عنق الرئيس ، وقبله بحماسة شديدة على الخدين والعنق . وكانه عاشق يلتقي بحبيبته بعد حرب طويلة ، وقال :

« فخامة رئيس فرنسا المبجل . اريد ان اشكرك على الماء الذي وضعته في تصرفي . انه أجمل هدية . ثم عب الامير جرعة كبيرة من الماء نفخت خديه ، ثم لفظها على صلعة غي غوردان وكانها ماء مطهر » .

وفي ص ٦١ من الرواية : « خلال كل زيارته لباريس لم يفارق الامير المغطس . كان يرفض الدعوات الفخمة ، ويطلب تمرا وتينا ولحم حمار مشويا » .

وفي « موت في بيروت » ص ٦٠ :« كانت منى قد كونت لنفسها فلسفة خاصة عن هؤلاء الشيوخ المتخلفين والمهووسين بنبيهم . يدعونها الى قصورهم البشعة الغارقة بالنفط ثم يجنون فوق جسدها . كانت تعلم انهم يزعمون الايمان بتعاليم نبيهم لكنها رأتهم لاتفه الأسباب يعلنون الجهاد ثم يسكبون الويسكي على جسدها ويلعقونه » .

وتتطور مفردات هذه العنصرية مع تطور الاحداث . فجيرار دوفيلييه يتفنن في أشراك شخصيات جديدة باستمرار . ففي رواية « تموت بعد ان ترى مالطا » يبدأ لاول مرة بوصف شخصيات مستلهمة من الثورة الايرانية . وهكذا تكون الشخصية الرئيسية تحمل أسم آية الله : « كان لا يعرف الابتسامة ابدا كأنه آية الله » و « كان شلال من الشعر الاسود ينسدل على خصرها حتى ان آية الله نفسه يفقد عقله ويجن لو رأها » .

ويبقى تطور هذه المفردات عند جيرار دوفيليه مرتبطا بما يسميه « حرب الكفار » وخاصة في رواية مالطا : « كان مالكو وحيدا في حملته الصليبية . وكان يتابع حرب جده ضد الكفار ، وان تأخر ذلك ، وأختلف الشكل . لم يكن ذلك يزعج مالكو ، فمالطا اذا كانت تتحدث بلغة غريبة وتشبه أرضها أرض شمال أفريقيا أكثر مما تشبه السويد فأنها في أوروبا على كل حال». ان مالكو نفسه ينتمي الى « حركة فرسان مالطا » ، يريد ان « يحرر » هذه الجزيرة من أي وجود عربي أو أسلامي . ولهذا تتحول الرواية الى صراع أوروبي عربي حول هذه الجزيرة

الاستراتيجية : الليبيون والفلسطينيون في جبهة والسي أي أيه والحضارة الغربية في جبهة . اما « آنا ماريا »المالطية أحدى شخصيات الرواية فانها تتوسل لم، ئو (ممثل السي أي آيه) بلسان كل مالطا لكي يخلصها من الاستعباد العربي « لا أريد ان اترك الجزيرة ففيها ولدت . ان هذه الارض لنا ويجب ان لا تعود للعرب . لقد دحرناهم دائما . انها قضيتكم ايضا . خلال الحصار الكبير عام ١٥٦٥ لم يكن فرسان مالطا سوى ٥٤٠ فارسا ومعهم بضعة الاف من المرتزقة ، ومع ذلك فقد وقفوا في وجه ٤٠ ألف تركي وانتصروا » (ص ١٠٣) .

ويحاول مالكو ان يقنعها بان الغرب لم يعد قويا كما كان من قبل . « قال مالكو بحزن انني مقتنع بما تقولين ولكن السي أي أيه لم تعد كما كانت . انهم يخافون من ظلهم . وفي لانغلي يمارسون المحبة المسيحية كما لم يمارسوها من قبل . وكلما صفعوهم على خد اداروا الخد الاخر . ان للرئيس كارتر خلقا كريما » .

«وانهالت انا ماريا على الرئيس كارتر بالشتائم » (ص ١٠٢) .

وتصور العنصرية العربي احيانا بأنه ضعيف وطيب وساذج . فأنت لا تحتقره لان منظره بشع او لانه مهرج وحسب ، وانما تحتقره ضمن منطق عالم يأكل فيه الكبير الصغير . ويجري مالكو حوارا في سره حول ذلك : « شرب مالكو قهوته المرة القوية . كانت تلك فرصته الوحيدة ليستلم زمام الامور وليفاجيء اعداءه . خاصة رضوى . لا شك في ان الخطر كبير ، لكنه تعود على العرب ، فهو يعرف انهم لن يصيروا محترفين ابداً . انه لا يستطيع ان يغامر على هذا الشكل مع الالمان أو الروس لانهم لن يمنحوه اية فرصة . اما مع الفدائيين والوهم الرومانتيكي فلا بأس من ذلك » (ص ٤٠ من مذبحة في عمان) .

وفي ص ٢٥١ من الرواية نفسها : « حجز مالكو غرفة في فندق العقبة ، ثم قام الى الشاطيء الفارغ ، ووجد مركبا للتزلج قريبا ، فأقترب وسأل هل يمكنني ان اقوم برحلة في البحر ، وان اصل حتى الشواطيء السعودية . كان ذلك ممكنا . وأعطى مالكو للملاح أربعة دنانير ثم صعد الى المركب . بعد ثلاث دقائق كان المركب يتوجه الى العقبة وكان هنالك بعض ناقلات النفط ، وليس من مركب آخر في الافق . جلس على المقعد الخلفي وابتدأ يتشمس . بعد ربع ساعة أختفت العقبة . نهض مالكو ثم أقترب من الملاح ، ووجه الى عنقه مسدسه . ابتدأ العربي يرتجف ، واصطكت أسنانه بالرغم من ان مالكو كان يبتسم له برقة . أشار اليه بطرف مسدسه ، وقال بالانكليزية : اقفز الى الماء . فرك العربي عينيه . وكرر مالكو السؤال بقوة هذه المرة : اقفز أو تموت . أخيرا فهم العربي . كان الساحل على بعد مائتي متر فقط . وقفز العربي الى الماء وابتدأ بالسباحة . ووجه مالكو المركب باتجاه الغرب . كانت صحراء سيناء تبعد ٦٠ كلم ، وكذلك مدينة ايلات « الاسرائيلية »توأم العقبة . أي على بعد ثماني دقائق بهذا المركب السريع . ان العرب لا يملكون ردة فعل ابدا . وحين يصل الى منتصف مضيق تيران فأنه يدخل الى المناطق الاسرائيلية ، أي الى الامان . واذا خطر على بال الاردنيين اطلاق رصاصة واحدة فأن أسرائيل ستبيد العقبة عن بكرة أبيها . خلال حرب الايام الستة لم يتجرأ الاردنيون على اطلاق رصاصة واحدة بالرغم من ان أربعة كيلومترات فقط كانت تفصل بين المدينتين » .

اما كاتب رواية« لو انفجر سد أسوان » فلا يملك أية عواطف انسانية امام الطوفان الذي

يجتاح القاهرة ، بل كان يرى انه من الضروري تخليص البشرية من هذه « الملايين الحقيرة » : « رأى دانيو (خبير فرنسي استقدمته السلطات المصرية لفحص سد أسوان) الحارس وابنه في الشارع يحاولان زحزحة السيارة من الموقف . وكان دانيو يراقب تلاعبهما منذ ان وصل الى القاهرة . كان الوالد وأبنه يدفعان بالسيارة وهما يتظاهران ان سيارة أخرى ستاتي وان ليس هنالك من مكان . وهكذا يمضيان النهار على هذه الحال تلمع النقود في الهواء ويلتقطها الصبي بيد واحدة . قال دانيو بسره انها مهنة رابحة خاصة مع الاوضاع المعيشية المصرية . هكذا تأكل عائلة بأكملها . بزحزحة سيارات الناس شمالا وجنوبا يربحون خروفا وبصلا وورق عنب . ولكن اذا أنهار السد فان ذلك سينتهي ، ولن أرى بعد ذلك على مدخل الفنادق صبيانا من النوبة بعيون تشبه عيون الكلاب ... هذا الرجل الذي يحمل خروفا على دراجته وعليه علامة حمراء .. هذا الرجل سيموت أيضا ، وكذلك البائع عند كوبرى التحرير الذي سرق منه المال » (ص ٢٢٢/٢٢٣) .

« وتابع دانيو هل ستموت الصبية بجذع شجرة يقتلها ؟ كلا انها ستموت تحت تأثير الضغط الجوي الذي سينفخ رئتيها ، ثم سيفجرهما . ان جلدها حار جدا . اما قذاف بأنفه الشديد الحمرة فسيموت ايضا على سطح مباني هليوبوليس لا شك . سيحاول التعلق بهوائي تلفزيون قبل ان يغمره الطوفان . كان دانيو في الطابق الاول من الفندق. حاول ان يقدر المسافة التي تبعد نافذته عن الشارع . وكانت مجلة سويسرية قد تنبأت بأن ارتفاع موج الطوفان سيبلغ ١٢ مترا حين يصل الى القاهرة . اذن ١٢ مترا ... بأمكانه ان يبقى نائما مع الصبية حتى مجيء المراكب . ستأتي المراكب وترمي الحبال لكي تنقذه ، وسينزل هو والصبية على الدرجات الموحلة ، ويغطس في الطمي الى ان يصل الى المركب . وقال في سره هل أحملها ؟ سيكون في الغرفة خرفان ميتة ، وربما كان هنالك جثث اطفال جرفتها المياه » .

ولا تكتفي هذه الروايات بهذا الرسم العنصري للعربي ولا بالتشفي من فواجعه ، بل تشحن مشاعر القارىء لقبول كل انواع العنف والتعذيب والقتل للانتقام من هذا العربي ، حتى ان كل هذه الروايات تقوم سطرا سطرا وصفحة صفحة على جثث عربية تتساقط ، وعالم يولول ويستغيث ، وكأنك تعيش في جو الانتقام التوراتي نفسه وخاصة في روايات دوفيلييه ورواية « لو انفجر سد اسوان » . ان هنالك حربا مقدسة ضد العرب ، وثنائية حادة بين الاله الغربي والشيطان العربي . ان مالكو لا يستطيع ان يرتاح في حربه المقدسة هذه ، فطالما ظل هنالك عربي فأن العالم في خطر كما في سفر ارميا أصحاح (٤٨/١٧) : ملعون من يعمل عمل الرب برخاء . وملعون من يمتع سيفه عن الدم . أو أصحاح (٤٧/٦) اه يا سيف الرب حتى متى لا تستريح . انضم الى غمدك وأهدأ وأسكن . كيف يستريح والرب قد أوصاه . واصحاح(٥١/٢٠ ــ ٢٢) انت لي فأس وأدوات حرب فاسحق بك الامم وأهلك بك الممالك واكسر بك الفرس وراكبه واسحق بك المركبة وراكبها ، وأسحق بك الرجل والمرأة واسحق بك الشيخ والفتى وأسحق بك الغلام والعذراء .

وفعلا فان دوفيلييه وميخائيل حاييم يقولان انهما استوحيا التوراة في كتاباتهم بل ان الثاني يقول ان كل روايته (لو انفجر سد أسوان) تحقيق لنبؤة توراتية : « راح الاسرائيليون الاتقياء يقولون ان نبؤة اشعيا قد تحققت مع مصر : سيجف ماء البحيرات وسيجف النهر

ويندثر» (ص ٨٨) . حتى لم ينس الكاتب ان يجعل ابطاله اليهود يقومون ببعض الذبائح الطقسية احتفالا بتمركزهم في مصر : « قال رئيس الشعبة عادل صبرى للاسرائيلي من اين جاء هذا الدم ؟ أجاب الاسرائيلي لقد ذبحنا عنزة صغيرة :

ـ ولكنه دم انسان ؟

ـ كلا انها مجرد عنزة .

كان الطفل يبكي على الدرج . دخل الضابط المصري الى الدهليز وقال لزميله ان كل قبضات الابواب في الشارع ملوثة بالدم . أجاب صبري انهم يريدون ان يحرقوا الموتى . لقد شممت الرائحة . أجاب الاسرائيلي : لقد رمينا الجلد والرأس فقط داخل النار ، وصار يتمتم :« ستحرقون بالنار كل ما يتبقى قبل مجيىء الغد » . وأمسك صبري بلحية الاسرائيلي وهو يصرخ : هل جننت ؟

بقي الاسرائيلي صامتا منخفض الرأس .

كان الطفل ما يزال يبكي على الدرج ، وفي الدهليز كان صبري يسمع صوت أقدام حافية تقترب .

سأل الدركي صبري : هل نعلم القيادة ؟

كلا لم أنته من التحقيق بعد . ووضع الضابط المصري يده على كتف الاسرائيلي وقال أذن انت قتلت عنزة ؟

أجاب الاسرائيلي وهو يتمتم : « تأخذون عنزا ذكرا من بين الخراف والماعز وتذبحونه ، ثم تأخذون قبضة من الزوفاء وتغمسونها بدمه ، وتدهنون بها قبضات الابواب » .

أنهال عليه صبري بالصفعات : أفتح عينيك . وأجاب الاسرائيلي وهو يتمتم : « ان الرب سيأتي وسيعذب المصريين » . (ص ٣٠٠/٣٠١) .

وفي مقطع أخر من الرواية نفسها نقرا :

« في قرية قريبة من الاقصر أختفى طفل في الثالثة وهو أبن معلم . وتم البحث عنه في الحقول وعلى ضفاف قنوات الري لكنها توقفت مع المساء . وفي اليوم التالي وجد البوليس عظام طفل مع شعر محترق ، وأنتشر الخبر : ان الاسرائيليين الذين يعملون في مؤسسة الابحاث الزراعية ألتقطوا الطفل وذبحوه ، وجن جنون الفلاحين مما أضطر الحاكم العسكري للاقصر ان يبعث بشرطته لحماية المستشارين العسكريين الاسرائيليين » (١٨٨) .

اما روايات دوفيلييه فان مالكو لا يرتاح ابدا من مطاردة « الارهابيين » اوامراء النفط : « يكسر عظام الامير الخليجي واحدة بعد أخرى . وخاصة فقرات ظهره » . وفي رواية « حارس أسرائيل » : « راح كريس جونز وميلتون براباك يصوبان كالمجانين على الفلسطيني . فجأة صار الفلسطيني يرتجف كالمجنون . ثم صرخ وأسقط بندقيته وتراجع . قفز كريست جونز ، وهو يتابع اطلاق الرصاص ، ولم يتوقف حتى أفرغ كل مسدسه . وحين وصل مالكو الى

الفلسطيني كان هذا الاخير قد مات وظهره الى الحائط وعيناه مفتوحتان ، والدم ينزف من كل مكان . كان الرصاص قد أصابه في أنفه وصدره وبطنه ، وكان الدم يسيل كالنهر » ... « ولم تجب عاليه . شاهد مالكو وجهها مختنقا بالالم والتعب ثم رأى انفجارا أحمر . طارت الفلسطينية في الفضاء عبر لهب أحمر ثم سقطت في غيمة من الغبار في حين كانت مئات الشظايا تسقط على الارض والجدران » .(ص ١٥٣) .

وفي « مذبحة في عمان » يصف مالكو كيف قتل قائد العملية « الارهابية » : « بحث مالكو عن الخنجر الذي كان قد خباه في حزام البلو جينز ثم وضع حده على صدر العقيد غرغور ، تماما ما بين ضلعين من أضلاعه ثم القى بكل ثقله على الخنجر . دخل حد الخنجر بسهولة وسمع صوته . حاول العقيد ان ينشب أظافره في مالكو ، ثم صرخ وأبتدأ جسده يرتجف، ورأسه يهتز شمالا ويمينا . كان يقاوم الموت ، وكان مالكو يحس بارتياح فيما كانت آخر نبضات قلب العقيد تصل الى قبضة الخنجر » (ص ٢٤٦) .

هنالك وسيلة ثانية لاشباع تشفي القارىء ورغباته . انها وسيلة الجنس . وكما يقول مارسيل دوهاميل عن هذه الروايات التي يطلق عليها اسم « الروايات السوداء » : « أن اللا اخلاقية هنا هي اجمل المشاعر الانسانية » . نجد في هذه الروايات الحب ولكنه حب حيواني . انه شغف وجنون وحقد ، وكما يقول لينهارت ايضا عن هذه الروايات :«اننا لانشهد في الادب التكنوقراطي الراسمالي مشروعات أجتماعية ذات صفة اخلاقية ، ولكننا نشهد قمعا لهذه الاخلاقية باعتبار القمع أحد صفات المجتمع » . في كل هذه الروايات وصف مجنون للمرأة العربية « الخائنة لزوجها ، لان العربي ينام مع زوجته كما ينام مع ناقته » . لذلك تتوسل المرأة العربية دوما الى مالكو البطل الاشقر ذي العينين الزرقاوين ان ينام معها لانه يحسن ممارسة الجنس . حتى الثائرات العربيات لا يقاومن أغراءه .

اما هارولد روبينز في القرصان فان العربي سواء كان اميرا أو ارهابيا يكاد لا يتوقف عن ممارسة الجنس . في الطائرة والمكتب ، وفي خلال أبرامه صفقات التجارة وخلال دخوله الى المرحاض . وكذلك الامر بالنسبة لزوجته . انها في أميركا تجرب كل أنواع الرجال من الاسود الى الهيبي الى الشخصيات المرموقة .

في «مذبحة في عمان»نقرأ «كانت عجيزتها الوقحة المستديرة مضغوطة بمشد ستنفجر فيه في اية لحظة . وعلى خصرها حزام ضخم يبرز الثديين أكثر . ونظرت الى نفسها امام المرآة وتلمظت بشفتيها للتعبير عن سعادتها . ان زيارتها للقصر ستترك آثارا في تاريخ الاردن » وتضيف الرواية أيضا : « كان فادي كرك يتسلق الستائر كلما ابصرا شقراء . كان ذلك ضعفه الوحيد في حياته المتقشفة » . وكان « يمشي وراء الانكليزية الفائقة الجمال وكأنه احدب نوتردام » (ص ٤٩) .

اما في « ترى مالطا وتموت » فنجد : « نظر مالكو الى عجيزتها المقوسة وقال يا للاسف ان هذه اللبنانية مع الاشرار » (ص ٦٤) ، ثم يعلق على نشاط ملكة الجمال العالمية اللبنانية بقوله « ان الشرق الاوسط مليء بالنساء الشريرات مثلها انهن يخضن الحرب وهن يمارسن الجنس . لذلك كان حذرا جدا من تصرفات تمرة » (ص ٦١) .

وفي « موت في بيروت » يصف أعجاب اللبنانيات بالسائح الغربي وكيف يهرولن للنوم معه : « نظرت اللبنانية اليه فأشتهته على الفور نظرت اليه كما ينظر الباكستاني الى قصعة من الرز » (ص ١٤١) .

ولا شك في ان هذه الروايات الجماهيرية تكرس عنصريتها بأنتشارها دوليا ويطموحها الى جعل قارىء هذا المنتاج معنيا بالعربي في حياته اليومية ، فهي تدول المكان والزمان لتسليط الضوء على « الخطر العربي » الذي يمسك العالم بقبضته . كل مكان خطر ما دام فيه عربي . تخطف الطائرة من باريس ، وتحط في نيويورك ... مستشار السعودية يقرر مصير العالم الاقتصادي بين روما وزيوريخ وطهران والرياض ... مالكو يبحث عن ماندي بين صقلية وجنيف وواشنطن .. الخبراء العالميون ينتشرون في كل مكان لعقد المؤتمرات عن خطر انفجار سد أسوان .

وكما ينتشر التصور مكانيا ينتشر كذلك زمانيا ، وذلك بجعل الزمن مسدودا داخل دائرة النفط العربي ، فأذا انتهى النفط فأن الطاقة ستخرج من جديد من بلدان الخليج على شكل جلد قطط . ويمعنى اخر ان الزمن غير موجود الا وظائفيا كعنصر في شبكة سيميولوجية .

ولكي يتسع أيصال هذه النصوص يستخدم كتابها أساليب وسائل الاعلام نفسها فيتكامل النص مع السينما والتلفزيون والاذاعة . ويطبق هؤلاء الكتاب نظرية « الكاميرا القلم » التي ابتدعها الكسندر ستروك من أجل ان يتحول القلم الى كاميرا والكاميرا الى قلم لجذب طبقة أكبر من الجماهير . لذلك نرى في هذه الروايات كثيرا من « الريبورتاجات » والتحليلات الصحافية السريعة والسياسية والاقتصادية . كل ذلك يشكل شبكة تلف الاعلام من كل جهاته عبر ثالوث شهير : عنف . جنس . سياسة . لذلك تشكل هذه الروايات خطرا لا ينتبه اليه العربي الذي يجيء سائحا الى الغرب بالرغم من ان قابليةفرانكشتاين ودراكولاوامانويل العرب موجودة في الكتب الرائجة والافلام البوليسية ومسلسلات التلفزيون التي يذخر بها الغرب .

وهنالك حاليا روايات تتحول الى أفلام مثل رواية القرصان وانهيار١٩٧٩. اما عن روايات دوفيلييه فان هنالك بعض قاعات السينما الباريسية تتخصص في عرض نتاجه .

اذا كان الغرب يريد « من السياسة الثقافية ان تحول المراهق من متلقي نص الى منتج نص » (بارت) ، بأمكاننا ان نتخيل اي مستقبل أعلامي يرشح حقدا ضد العرب .

الرويات

-«Le Krach de 1979»: par Paul Erdurau
- «Le chat des Emirats»: Charles Debbach. Aux Editions Sainte-Victoire.
- «Explasive New-York». Guy Santhoulet. Aux Edition Claude cicérou.
- «Le Pirate». Harold Robins. Aux Edition Belfoud.
- «Assouau: Sile barrage cédait Michaël haîm. Albin Michel.

Gèrard de Villiers روايات

- «Massacre à Ammane. Editions Plom
- «Kill henry kissinger».
- «Mort à Beyrouth».
- «Le gardien.d'Israël».
- «A L'ouest de Jèrusalem».
- «Voir Malte et mourir».

عبرة وذكرى
او الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده

تحقيق ودراسة خالد زيادة

(دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت١٩٧٨) ٢٥٢ صفحة من القطع المتوسط .

لقد مضى ما ينيف على السبعين عاما منذ صدور هذا الكتاب ـ الوثيقة غداة الانقلاب العثماني وإعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد الثاني (٢٤تموز ١٩٠٨) . وفي ذلك يقول سليمان البستاني« اننا تحرر هذه السطور ولم يكد يمر عشرون يوما على استلام الاحرار أزمة الاحكام »(ص ١٨٨) . على ان طابع العمالة لا يفقد هذا الكتاب اهميته من الناحية الوثائقية والسياسية والتراثية التاريخية ولا غرو فان العنوان الذي اختاره سليمان البستاني ليتصدر غلاف الكتاب عن الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ـ « عبرة وذكرى ـ »يهدف الى استخلاص العبرة من احوال البلاد في ظل عهد الاستبداد الحميدي ، والى توجيه الاحرار ورجالات الاصلاح صوب الاستفادة من امثولات الماضي . كما يرمي الى تخليد الذكرى التي تمثلت باعلان الدستور إثر حركة الانقلاب العثماني .

وفي ذلك يقول البستاني مختتما عرضه السريع وتاركا المجال لغيره من الكتاب ودعاة الى الاصلاح ، وتحت عنوان« الدولة العثمانية بعد خمس وعشرين سنة » ، ما نصه :« هذه عجالة سطرناها في شؤون البلاد العامة عبرة وذكرى ، وهذا ما تراءى لنا وجوب الخوض فيه إبان هذا الانتقال الغريب والانقلاب العجيب . وإن هو إلا قطرة من عباب المباحث التي يجب على كتاب العثمانيين ان يخوضوا غمارها ، استلفاتا لانظار إخوانهم وحكومتهم الى كل فرع من فروع الاصلاح ،مما يتناول البلاد برمتها او ينحصر خاصة في كل قطعة منها » . (ص ٢٣٧) .

ويوجز سليمان البستاني في صفحات تمهيدية موجهة « الى ابناء الوطن العثماني ـ ويعد إهداء الكتاب الى روح مدحت باشا ، ابي الاحرار العثمانيين ـ الطابع العام للآراء والافكار التي يعرضها في كتاب « عبرة وذكرى » . فالمؤرخ لا بد له من التأني في تدوين الوقائع ،« ريثما يستجمع مادته وتمر فترة تسكن في خلالها ثورات الفكر المضطربة » ، (ص ٨٠) . لكن الاحداث تمر متسارعة الخطى ، والمؤلف ليس« من ابناء السياسات » ، والواجب يفرض عليه ان يدلي بدلوه بين الدلاء ،وخير البر عاجله : ـ« وان نجمع على هذه الصفحات بعض ما وعته الذاكرة فيما مضى ، بالنظر الى الدستور العثماني وما يتراءى لنا من نتائجه المقبلة ، وما ينال العثمانيين من رغد العيش بخفوق اعلام الحرية فوق رؤوسهم ،وفك عقال العقل والفكر واللسان ، وإطلاق عنان التجارة والصناعة ، وتمهيد سبل الزراعة واستخراج ثروة البلاد الدفينة تحت التراب والمنبوذة على رؤوس الجبال ، وما يخيم عنه من اصلاح جباية الاموال ومالية البلاد (ص ٨٠) .

العثمانية اولا

ولربما جاز وصف الكتاب بانه يتضمن برنامجا وضعه سليمان البستاني لرفع شأن الفكرة العثمانية ولكي يسترشد به الانقلابيون خلال فترة جلوسهم على مقاعد الحكم . إنه اشبه ما يكون بالبرنامج الاصلاحي الشامل ـ على حد قول محقق الكتاب في الدراسة التي قدم له بها . لكن الانطباع الذي يخرج به القارىء المتتبع لسيرة حياة المؤلف الى جانب متابعته للافكار والاراء المبثوثة في صفحات

الكتاب ،لا يستبعد فكرة إقدام المؤلف على تسطير برنامجه الانتخابي الذي يعلن فيه ولاءه الخالص للجامعة العثمانية اولا واخيرا .ولقد كتب مارون عبود في رواد النهضة الادبية(دار العلم للملايين : بيروت ١٩٥٢ . ص ٣٣١) يقول :« وللبستاني غير ترجمة الالياذة كتاب(عبرة وذكرى) الذي طبع عام ١٩٠٨ يوم كنا نبث له الدعوة ليكون نائب بيروت في مجلس المبعوثـــان . فكان ثم صار في مجلس الاعيان ، واخيرا امسى وزيرا خطيرا يرجع الى رأيه في الجلى . » .

حقا ، ان كتاب « عبرة وذكرى » لا يخرج عن كونه « وثيقة دفاع عن الانقلابيين وعن الدستور »(من دراسة المحقق عن الدولة العثمانية والاصلاح ، ص ٤٤) . ولا يدخر البستاني جهدا في التاكيد على ولائه المطلق للفكرة العثمانية مع العلم بان الشهادة للدولة العثمانية الجامعة يسجلها، واحد من الذين لم يدينوا بدينها » . وسوف نرى في عرضنا الموجز لافكار سليمان البستاني انه لا يؤرخ للدولة العثمانية قبل الدستور وبعده الا في نطاق ضيق ومحـــدود للغاية . لا بل هو يؤدي واجبه كعثماني في الدفاع عن تلك الدولة في ظل الدستور ، ويعمل جاهدا رفع شأن الجامعة العثمانية :« وانما هي نفثات عثماني محب لوطنه باح بشيء منها وادخر ما بقي منها لفرصة اخرى »(ص ٢٣٦) .

وفي التمهيد الموجـه الى « ابنــاء الوطـن العثماني »ينبه البستاني الى الاعتقاد الخاطيء لدى من« يحسبون ان للدول ادوار وقد انقض من بينهن دور دولتهم الباسلة »(ص ٣٦) . ومن الصحيح تبعا لنظرته ان الدول لها ادوار ، لكن دور الدولة العثمانية لم ينقض . فهو يرمي في خاتمة الكتاب الى طمأنة ابناء الوطن وتعزيز ثقتهم بالمعلومة التاريخية النظرية التالية :« إن الدول تزول وتنقرض ، وأما الامم فلا تنقرض ولا تتلاشى بل تبقى حية ما حيي الناس . وقد تتحول من حال الى حال فتنحط وترتقي وتندمج بغيرها . وقد تتفرق وتتوزع افرادها في المجتمـــع البشري فتفقـــد وطنيتهـــا الاولى »(ص٢٤٣ ــ٤) . وهذه النغمـة ليسـت ببعيدة عن آراء ابن خلدون في العصبية وادوار الملك ، كما تتكرر فيها اصداء نظرية شبنغلر في الدورة الحياتية التي تمر بها الحضارات والدول .

عبرة وذكرى أخرى

ومما تجدر الاشارة اليه بالنسبة لعنـوان الكتاب ومناسبة تاليفه وصدوره ، إن هناك مجموعة من المقالات صدرت في كراس عام ١٩٠٩(بيروت) يحمل العنوان إياه بالضبط : [« عبرة وذكرى او كلمة حول الشورى »] ، وقد كتبها الدكتور ايوب ثابت لمناسبة إعلان الدستور العثماني . ويقول امين الريحاني في إحدى رسائله المؤرخة سنة ١٩٠٩ ان ريع كتاب الدكتور ثابت قد « حبس على شهداء وجرحى الجيش الدستوري الزاحف » من سالونيك تحت راية الاتحاد والترقي للاطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني .ونعرف من رسالة الريحاني في تقريظ الكتيب ونقده ان الدكتورثابت تناول موضوعات « الملك والرعية والسلطة ومصدرها وحقوق الانسان الطبيعية » كما افرد فصلا بعنـوان « لا دخـل للمذاهب في ترقي الامم وانحطاطها » . وقد يكون ايوب ثابت قد توخى الرد على سليمان البستاني . او الذهاب الى ابعد مما ذهب اليه معرب الالياذة . وليس هنا مجال المقارنة بين هذين الكتابين في تناولهما لموضوع واحد من زوايا مختلفة . ففي تلك الفترة التي اعقبت إعلان الدستور العثماني (القانون الاساسي ، الشورى) استفاق الكثيرون من نشوة الحماس للتآخي والاخاء والانتصـــار العثمانـي والفرحة العارمة التي غمرت النفوس لكي يرسموا أبعاد المرحلة ويحددوا طبيعة التغيير الذي كاد يضيع في زحمة التطبيل والتزمير وبيانات التغني بالاخاء العربي ــ العثماني . فالدكتور ايوب ثابت يتحدث في كراس « عبرة وذكرى » ــ مثلا ــ عن استنارة الشعب كشرط لنجاح الثورة ومن أن الثورات يتبع بعضها بعضا وتتفاوت ازمان وقوعها بتفاوت الامم النازعة اليها في الاستنارة والعلم ويكتب الدكتور ثابت في مجلة المقتطف(المجلد السادس والثلاثون ،ص ٨٣٩ ، ١٩١٠) مقالة ليشرح فيها فكرته الاساسية وتقويمه للانقلاب العثمانـي ملخصـا الموقف بعبارة ان « ثورتنا السياسية لم تتقدمها ثورة في الافكار » .

بينما نجد مفكرا نهضويا آخر هو الدكتور شبلي شميل يتحدث عن الانقلاب العثماني بوصفه

« تغييرا يقتصر على صورة الهيئة الحاكمة »* وفي الرسالة التي بعث بها الشميل الى جمعية الاتحاد السوري في نيويورك (ربيع ١٩٠٩)** ، نجده يتساءل عن طبيعة الانقلاب العثمانـي ويناشـد مستمعيه الاعتراف بان هذا الانقلاب الذي حصل في تركيا سياسي اكثر منه اجتماعي ، وخارجي اكثر منـه داخلي ، ومـالي اضطـراري اكثـر منــه استقلالي »(ص ١٩) الى ان يتوصل الى إعلان النتيجة المبنية على مقدماته في طبيعة الانقــلاب ومستقبل الحكومة العثمانية ، فيقول مخاطبا جمعية الاتحاد السوري : « فاذا وعيتم ما تقدم فهمتم ان هذا الانقلاب الحميد في المملكة العثمانية لم يكن عن اسباب داخلية اجتماعية في قلب الامة وان قبولها له لا يكفي وحده للاحتفاظ به الى حد الاستقــلال التام » . (ص ٢٢ من كراس رسائل) .

ولا يتجاهل سليمان البستاني اثر الثـورة الفرنسية في قيام الحكم الدستوري ، بل يعتبران هذا الحكم « لم يستتب امره على هذا الشكل ويعم دول الحضارة إلا على أثر الثورة الفرنسوية . وإن كانت الثورة الانجليزية ، قبل زهاء قرن ، من اعظم مهيئاته »(ص٨٦)(***)

الاستبداد وإصلاح الدولة

هناك إجماع في الممالك العثمانية« على وجوب تحقيق الاصلاح » . وهي حقيقة معلومة ينشرها البستاني في مطلع كتابه « عبرة وذكرى » اذ يعلن « انه لم يبق في البلاد العثمانية رجل واحد من ارباب العقول لا يرى وجوب تبدل الحال »(ص ٧٦) . ولا يساوره من شك في ان التاريخ سوف يدون في سجلاته تلك المعجزة« أعجوبة القرن العشرين »التي خلقها رجالات الاصلاح وانصار الجيش العثماني وزعماء جمعية الاتحاد والترقي . فالاجماع على ضرورة تحقيق الاصلاح وتبديل الاحوال واعلان الدستور ونيل الحريات الاساسية يقابله استعداد وتجاوب من جانب الامة التي « على تمام الاهمية والاستعداد لتلقي هذا الانقلاب »(ص ٧٩)

ومتى علمنا ان الدستور الجديد (مجموع القوانين والنظامات الذي كان معروفا في بلاد الدولة العثمانية باسم الدستـور Code ،ص ٨٤) . لايخرج عن كونه نسخة طبق الاصل للدستور القديم (« نفس دستورنا القديم » ،ص ٨٥) ، لتبين لنا ان العمل بأحكام الدستور وقوانينه الاساسيــة ومواده هو بيت القصيد . فالعبرة بالتنفيذ :« هذا الدستور ... لوعمل به لما كان بنا الآن حاجة الى هذا الانقلاب العظيم »(ص ٨٥) . والحياة السياسية في ظل الدستور هي الحكم النيابي على الطـراز الحديث (« حيث تحكم الامة نفسها بنفسها » ، مع حفـظ حقـوق الخليفـة الاعظـم » السلطـــان العثماني) ، مقابل الحكم الاستبـدادي المطلـق والجائر على حد سواء . والشـكوى لم تكن في معظمهـــا ـ على حد قول البستانــــي ـ من الاستبدادبمعنى الحكم المطلق ، لان دولة هذا الطراز في الحكم قد دالت ، وانماكانت الشكوى في البلاد العثمانية من الاستبداد بمعنى الحكم الجائـر .

ويصف البستاني أعمال الحكم الجائر والمستبد على النحو التالي : أباح الموبقات واستباح المحرمات

استبداد حكم الانذال برقاب الرجال . تنكيس الرؤوس وإذلال النفوس

(*)يمكن للقارىء ان يعود الى المقالات التالية في مجموعة الدكتور شميل ، وكلها مكتوبة غداة الانقلاب العثماني وإعلان الدستور :« سيادة الامم ومستقبل الملوك »(جريدة البصير ، ١٩٠٨) الامم والحروب(البصير ، ١٩٠٨) . وهناك مقالتان للشميل ترجعان الى فترة مبكرة وتفوقان ما عداهما من حيث الاهمية :« وكما تكونون يولى عليكم ، تركيا الفتاة وتركيا العجوز »(البصير ، ١٨٩٨) و« انحطاط الشرق الادبي والعقلي »(البصير ، ١٨٩٨) .

(* *) انظر :رسائل العلامة سليمان افندي البستاني (احد مبعوثي مدينة بيروت في مجلس الامة العثماني)والدكتورشبلي افندي شميل (الكاتب الاجتماعي والطبيب الشهير في مصر القاهرة) واخرون ، الى جمعية الاتحاد السوري في نيويورك ،(مطبعة جريدة مرآةالغرب بنيويورك ،١٩٠٩) .

(**) يستخدم البستاني لفظة « استحياء »الارض بمعنى انعاش الارض الموات والبور واستصلاحها للزراعة وإعادة دورة الحياة والانتاج الى تربتها .

استبداد لامرشدله إلا التعنت عن هوى
لاشرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غدا
استبداد يتمثل لنفسه بنفسه ،
تصادر به الاموال بغير حساب .
ويبطش المجرمون بالابرياء بغير عقاب ...
ذلك هو الاستبداد الذي نقصده في بحثنا »(ص ٨٨ ـ٨٩) .

الحريات بين الواقع والمرتجى

والملاحظ ان مؤلف « عبرة وذكرى »يقف الفصول التالية من كتابه على شرح الابعاد والصفات الملازمة لكل من الحرية والاستبداد على حد سواء .فهو يضع مقولة الحرية وبلاد الحرية على انواعها مقابل الاستبداد وبلاد الاستبداد في شتى أشكاله ومظاهره ، على طرفي نقيض . وإذا كانت طبيعة البلاد العثمانية تأبى الاستبداد ـ على حد قوله ، فان عهد الاستبداد إذا طال على الامة ، فليس من الجائز أو المستحسن إغراقها دفعة واحدة في مناخ الحرية وإطلاق العنان للحريات الاساسية . والسبب في ذلك يرجع الى استحكام الفوضى والى نشوء نوع من الاستبداد(استبداد الجماعات) هو اشد بلاء من استبداد الرجل الفرد .

والحريات التي يتحدث عنها البستاني ويعقد لكل منها فصلا في الكتاب هي التالية :

(١)**الحرية الشخصية** : « ان اول ما يحرص عليه المرء حرية شخصه . فلقد كانت لعهد مضى مطلقة يسرح المرء ويمرح أيان شاء ويخالط من شاء . ويقول ويعمل ما شاء ، مما لاينال سواه بأذى . »(ص٩٢)

ففي ظل الاستبداد الحميدي ظهر الوشاة الذين أحصوا على الناس حركاتهم وسكناتهم . فكانت الإعتقالات . والتصفيات(إلقاء الجثث في البوسفور) . وجرى نفي الاحرار وابعادهم(شقاء المبعدين الى اطراف السلطنة . لكن عصر الحرية في ظل الدستور كفيل بوضع حد لذلك الكابوس ،ويفتح المجال أمام المستقبل :« سيقوم منا في الغد جهابذة وفحول في العلم والسياسة والادارةوالقضاء ... ») (ص ٩٥) .

٢ ـ **حرية الصحافة** : اذا كانت الصحافة بمثابة الآلة الحيةالتي تنطق بلسان الامة وتنبه الافكار وترشد الى الاصلاح وتشير الى مواطن الخلل ، وتنادي حي على الفلاح ، فانها قد تحولت في ظل المراقبة الحميدية الى« ابواق تمجيد واغوال تهديد » وكان « التعطيل » هو السيف المسلط فوق راسها . حتى سئم الناس قراءة جرائد بلادهم . لقد خضعت الصحف الصادرة في البلاد العثمانية الى قيود واصطلاحات مفروضة . فالبستاني يتحدث عن شيء هو اشبه ما يكون بمعجم الالفاظ الكتابية الذي يتضمن قائمة المنوعات والمخطورات :كالقانون الاساسي والقتل والخلع وما اشتق منه والجمهورية والديناميت والثورة والانصاف والحرية . والشورى والمجلس النيابي وغير ذلك من العبارات والاقوال المأثورة . مثل : العدل اساس الملك ، والظلم مرتعة وخيم والحرية منتهى غايات الامم (ص ٩٨) ان حرية الصحافة هي نعمة واسعة الانتشار في قلب افريقيا واقاصي آسيا . ولا يجوز حرمان العثمانيين منها ، وهم الذين الفوها منذ ٣٦ سنة ولبسوا بحديثي العهد فيها . لا بل هي حق تمتعت به الامة على عهد الاسلاف فجاء الاستبداد الحميدي ليسلبها إياها . والبستاني يتحفظ تجاه إطلاق الحرية الى حد يفضي بها الى الفوضى المستحكمة في جرائد مصر خلال فترة من الفترات على حد قوله . إنه لا ينوي تجاوز الحد المعقول ، وجل ما يرمي اليه :« لا نطمع ولا نود ان نتخطى الآن الى ما وراء المعقول ، فنثب وثبة واحدة من وهدة المسكنة الاضطرارية الى قمة التهور الاختياري ، بل جل ما نتمناه ان تباح لنا رواية الاخبار وترديد صدى الافكار والنظر في شؤون انفسنا من القاء درس مفيد روحي مقترح جديد ونقد عامل وعمل والبحث في كل ما من شانه ان يلذ ويهذب ويفيد »(ص ١٠٢ ـ ٣)

(٣) **حرية التعليم** :يسجل البستاني درجة التقدم والرقي التي احرزها العلم والتعليم في البلاد العثمانية ، حيث« أربى عدد القارئين الكاتبين على عدد الاميين في كثير من الولايات »(ص ١٠٤) .

ويأخذ على شدة المراقبة في العصر الحميدي انها احدثت اختلالا في طرق التعليم وعمدت الى تشويه دراسة التاريخ والجغرافيا عن طريق الحذف والتبديل . حتى انهم حظروا تعليم العلوم الفلسفية والاجتماعية وقراءتها .

ويطيب لصاحب « عبرة وذكرى »التذكير بمسألتين على جانب كبير من الاهمية والمغزى : أولا ــ العنف والضغط والخطر في ميدان التربية والتعليم من شأنها الافضاء الى نتائج معكوسة قد تولد الانفجار (« وهل فاتهم ان دعاةالثورات والاصلاح في اوروبا كان معظمهم ممن عنى في تربيته على خلاف ما نشأ عليه ؟ » (ص ١٠٦) وثانيا ــ بالنسبة للتعليم الوطني والتعليم الاجنبي في مدارس كل منهما ، ينبه سليمان البستاني الى امر خطير يتعلق باهتمام المدارس الاجنبية في بث روح الوطنية بين تلامذتها ، ويقول جهارا ان ارباب هذه المدارس ينتمون الى امم متناظرة ويسعى الواحد منهم جهد طاقته الى استمالة التلامذة العثمانيين الى امته ودولته . ثم يعلن النتيجة التي اسفر عنها التعليم الاجنبي والثمار التي جناها طلاب العلم وأبناء الوطن :

« وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف في الافكار والمذاهب ، وهكذا عمل الاجانب بطريق العلم ، على اقتسام عقولنا ، كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا » .(ص ١٠٧)

(٤)حرية التأليف والقراءة : إذا كانت الدولة العثمانية قد شهدت شيئا من الازدهار على صعيد العلم والتعليم ــ « وإن اتت بالقسر عنه » ــ فان التضييق على الكتابة والكتاب قد اتخذ شكل عدم السماح بنشر الكتب مالم يتم عرضها على « مجلس التفتيش والمعاينة في نفس الاستانة »(ص ١٠٩) . حتى ان مواضيع البحث التي اباحوا التأليف فيها قد خضعت لموافقة سلطات المراقبة ، « فلم تكن تشمل شيئا من المباحث الاخلاقية والاجتماعية والفلسفية » . والشعر الذي سمح بنظمه وإلقائه هو « ما كان ينفخ منه في نفير التبجيل وبوق التبجيل »(ص ١١٢) . ناهيك عن احراق الكتب الممنوعة والتمنع عن العمل بنصوص قانون المطبوعات .

(٥) حرية الكتابة او البوستة والتلغراف : ازدهرت في البلاد العثمانية مكاتب البريد الاجنبية ، لكن رجال السلطان دأبوا على خرق حرية المراسلة والمكاتبة . فعمدوا الى فتح التحارير وفض الاختام ومراقبة رسائل الاحرار من الناس . وخشية من ان تسهل مكاتب البريد الداخلي على دعاة الاصلاح « حرية التخاطب »لجأوا الى إغلاق تلك المكاتب ثم اعادوا فتحها مشترطين« ان لا تقبل إلا التذاكر المفتوحة » . كما ان الرسائل التلغرافية (البرقيات) المتبادلة بين اوروبا والهند تحولت عن المرور ببغداد (طريقها الطبيعي) الى طريق السويس ، مما افقد السلطنة العثمانية موردا ماليا لا بأس به .

(٦) حرية الجمعيات :والمقصود بذلك إباحة الاجتماع وتشجيع ابناء الوطن على تأليف الجمعيات العلمية والادبية والخيرية :« وهيهات ان يسد الافراد في الاعمال العامة مسد الجماعات »(ص ١٢٥) . لكن رجال الاستبداد عمدوا الى تحريم الجمعيات والاجتماعات لخوفهم من تحولها الى أوكار للمؤامرات السياسية ، مع انها كانت ترمي الى تثقيف العقل وترويض الفكر حتى انه لم يبق في البلاد العثمانية سوى الجمعيات الخيرية الطائفية التي أجازوا تأليفها علما بانه « ليس من شأنها ان تسعى في التأليف بين ابناء البلاد » .

حرية الاصلاح والمصلحين

ويمضي سليمان البستاني في الحديث عن الحرية ورجال الدولة ضمن إطارالمقارنة بين بلاد الحرية وبلاد الاستبداد . فالرجل المصاعد في سلم الارتقاء تزداد الرقابة عليه . ولقد انتشر جواسيس السلطان في كل مكان ، وكثرت الوشايات والسعايات . وكان « زعماء الخفية » انفسهم يخضعون لرقابة خفية اخرى . وكيف يتسنى رجال الدولة في ظل الاستبداد والرقابة ان ينصرفوا الى تحقيق الاصلاح ، متى علمنا قبل كل شيء ان « كلمة الاصلاح نفسها كانت من الحروف المقضي عليها بالالغاء . إذا نطق بها ناطق اتهم في انه من دعاة الثورة »(١٣٠)

وهناك إسهاب في شرح الاصلاحات والتنظيمات التي ادخلها مدحت باشا اثناء توليه بغداد (١٧٨٠) . لكن مدحت لم يستطع تنفيذ اصلاحاته

في سوريا (١٨٧٨) ، والسبب يعود الى اطلاق يده في الاولى وغلها بأصفاد الجواسيس والاوامر السرية بعد ذلك » (ص ١٣٥) . ومن الموضوعات التي تمت بصلة وثيقة الى إعلان الدستور وأصلاح حال البلاد واستئصال شأفة الفساد في الاخلاق ، وبخاصة أخلاق المأمورين . قول البستاني إن « اصلاح الحال يصلح بالطبع أخلاق الرجال ، وأن اعلان الدستور وحده يصلح من أخلاق المأمورين الفاسدة ، في زمن الحرية والعدل ،ما لم يكن من الممكن ان ينجح فيه دواء في زمن الاستبداد والظلم »(ص ١٨٧) .

وحين يتحدث سليمان البستاني عن موضوع الدستور والتعصب الذميم ، فانه يميز بين التعصب الديني والتعصب الجنسي . فالدولة العثمانية قد ضمت خليطا متنافرا من الاجناس والامم . والاصلاح يستهدف حصول التفاهم والتغلب على الجهل (« رفيق ملازم للتعصب »)وتحقيق الاندماج والتمازج . على ان روح التعصب الخبيثة لم يخترق الا صدور جهلاء العامة(ص ١٥٧) والهدف المنشود في عصر ما بعد الدستور هو إعلاء الشأن الصالح العام العثماني ، وتعزيز روابط التواد والاخاء ، وترسيخ دعائم الدستور ، لكي تعم المساواة في ظل الجامعة العثمانية . وفي ذلك يقول صاحب « عبرة وذكرى » :

« إن اعظم الوسائل لضمان اضمحلال التعصب الديني تجنيد المسيحيين مع المسلمين . واعظم وسيلة لاضمحلال التعصب الجنسي تعميم اللغة الرسمية وجعل تعليم اللغة التركية إجباريا . فان هاتين الوسيلتين ، مع تعميم اسباب العلم والتهذيب ، يضمنان توثيق عرى التواد والاخاء » .(ص ١٥٩) .

ثم يتوقف عند مسالة الدستور والمهاجرة بنوعيها : هجرة السكان العثمانيين الى خارج بلاد السلطنة ، وقدوم الاجانب الى اراضي الدولة العثمانية بقصد الاقامة والاستيطان . فالمهاجرة من البلاد العثمانية ،سواء كانت هربا من البطش والاغتيال أم على سبيل السعي في طلب الرزق ، ترجع الى مصدر واحد هو الاستبداد الذي تساوى في ظله المسيحيون والمسلمون . وفي لبنان هناك دافع طبيعي إضافة الى دوافع الهجرة التي أشرنا اليها : تكاثر النسل وضيق البلاد من استيعاب الزيادة . غير ان هذه المهاجرة قد خفت حدتها وجاء إعلان الدستور ليشجع الكثيرين على اختصار مدة اغترابهم بعد ان عصف بهم الحنين الى الاوطان . والناحية الاشد خطرا في موضوع المهاجرة والنزوح هي ما يشير اليه البستاني من خلال حديثه عن « البلاء الاعظم الذي ابتليت به البلاد : جلاء الفلاح عن ارضه »(ص ١٧٤) .

الدستور وموارد البلاد : ينقلنا هذا الى القسم الرئيسي الثاني من كتاب « عبرة وذكرى » : موضوع العلاقة بين إعلان الدستور العثماني وموارد الثروة الدفينة في الممالك المحروسة . فالزراعة كانت ولا تزال اثبت موارد الثروة لهذه البلاد .(ص.١٩٢) واذا كانت البلاد قد ابتليت بجلاء الفلاح عن أرضه ، فكيف يتسنى لعهد الاصلاح ان ينطلق الى استصلاح الاراضي البائرة ودفع عجلة الزراعة . يسهب البستاني في الحديث عن مدحت باشاوالتخطيط الذي وضعه لاستصلاح اراضي العراق وريها . كما انه يبدي اهتماما بمسالة التبدي والتحضر ، وكيفية حمل العربان والقبائل البدوية على نبذ البداوة واختيار الاستقرار الحضري والانقطاع الى العمل الزراعي . فالاصلاح الزراعي يتوسل امرين لا بد من توفرهما ، مهما تباينت طرق الري وطبيعة البلاد وتضاريسها وأخلاق السكان وعاداتهم : توطيد الامن والعناية بالفلاح والمزارع . والبستاني يتوسم في الحكومة العثمانية تحت ظل الدستور انها ترمي الى توفير ذلك .

والى جانب الزراعة كمورد رئيسي من موارد الثروة ، يشير الكتاب الى المعادن والكنوز الدفينة في سائر انحاء البلاد العثمانية . ولا يستبعد وجود منابع بترولية غزيرة ، اضافة الى الينابيع المعدنية والغابات والاحراج والصناعةفي البلاد هي أسوأ حالا من الزراعة . هناك صناعات توشك ان تزول وتنقرض ، لكن « جرثومة الصناعة حية تنهض منبعثة لاول دافع يدفعها »(ص ١٢٥) .فالموارد اللازمة متوافرة ، والعمال المهرة ، والطاقة ولا ينقص العثماني سوى النشاط من عقال الخمول

والاطمئنان الى سيادة الامن واتخاذ الحيطة اللازمة لاتقان الصنعة والحرص على جودة المنتوجات .

والموقع الجغرافي للبلاد العثمانية(« عروة الوصل بين قارات العالم القديم الثلاث »(ص ٢٠٨) يؤهل سكانها لان يكونوا يوما في طليعة الامم التجارية . والمؤلف يتفاءل بنمو التجارة في كافة انحاء السلطنة ، في ظل استتباب الامن وتقدم وسائل النقل والمواصلات . وكذلك الحديث على الاعمال العامة والشركات . فانه منوط بوسائل النقل وتقريب سبل الاتصال .وهنا يدرك سليمان البستاني ان المرافق الهامة لا تزال بأيدي الاجانب والشركات الاجنبية ، باستثناءالخط الحديدي الحجازي . ولا بد من قيام شركات وطنية تأخذ زمام المبادرة وتنتزع الامتيازات التي تثقل كاهل الدولة والامة من ايدي المستثمرين الاجانب .

وحين يتساءل عن الموانع التي حالت دون انشاء الشركات الوطنية ، فانه يضيف سببا رابعا هو قلة الثقة بالحكومة الى الاسباب الثلاثة التي يوردها انصار الاستبداد في معرض تبرئتهم لساحة الحكومة : قلة المال ، وانعدام الرغبة لدى الاهالي في الاقبال على ذلك ،وتعذر وجود المديرين الصالحين لكي يقوموا بالعمل (ص ٢٢٧) .ومما تجدر الاشارة اليه ان البستاني يدعو الى « تثمير المال بواسطة المشروعات العامة » ، كما سبق له وابدى اعجابه بتلك العبارة التي تؤثر عن مدحت باشا حيث قال « سوف ياتي زمن يتيسر للدولة فيه ان تعادل بين العمل والاجرة »(ص ١٣١) . غير ان الاقرار بفضل الاجانب في تأليف الشركات وإنشائها والتساهل حيال وجودهم والاعتراف بالفائدة المتبادلة ، كل هذا لا يمنع سليمان البستاني من القول :« ولكننا ننكر كل الانكار ان لا يكون لنا يد في شيىء من تلك الاعمال في بلادنا »(ص ٢٢٩) .

ومما يسترعي انتباه القارىء لكتاب « عبرة وذكرى » ان المؤلف قد أفرد فصلا خاصا للحديث عن السياح والمستوطنين في باب موارد الثروة . فمصادر الثروة الطبيعية توفر اسباب النزهة والراحة ،كما ان الاماكن الدينية من مزارات ومقامات(« موطن الانبياءومهابط الوحي » تجتذب السائحين والزائرين الى البلاد . فلا بد إذا من توفير المناخ الملائم الى جانب تحقيق الاصلاحات اللازمة للمرافق السياحية وأماكن الزيارة بحيث تتامن معدات الراحة في الاقامة ووسائل الانتقال والاتصال . ويتأكد الطابع العصري في نظرة البستاني الى موضوع السياحة من خلال اعتبار الآراء التي يعرضها في الكتاب وكأنها على سبيل البرنامج الانتخابي أو البيان الوزاري في تعهده بتنشيط السياحة وجعلها صناعة من الصناعات التي تدر دخلا محترما على البلاد . ومن الطريف انه يتحدث عن « المجتمعات السياحية » في أماكن الينابيع المعدنية والمياه الاستشفائية والعلاجية .

اما وقد اغفل البستاني في حديثه عن المهاجرة ناحية الهجرة الى البلاد العثمانية بقصد الاقامة أو الاستعمار ، فانه يعود الى تناولها في خاتمة هذا الفصل عن السياح والمستوطنين . ولا غرو فان الامر يتعلق هنا بالهجرة اليهودية الى فلسطين ، إذ تقع هذه الهجرة دون ريب في خانة الاستيطان والاستعمار . والبستاني يميز بين نوعين من الهجرة الاستيطانية :

« مهاجرة فئة من الاجانب ، بمعاونة ارباب الاموال منهم ، فتتوطن في بقعة من الارض كتوطنها في بعض جهات فلسطين ،مع البقاء على جنسيتها »(ص ٢٣٥)

« ومهاجرة القادمين اليها من تلقاء انفسهم بقصد الاقامة والتجنس بالجنسية العثمانية كمهاجري بلاد الجركس والكريت وبوسنة وهرسك . وهؤلاء هم الذين يجب ان توجه الحكومة كل عنايتها الى نفعهم والانتفاع بهم »(ص ٢٣٦)

من الواضح ان الفئة الاولى تنطبق على الهجرة اليهودية الى فلسطين بقصد الاستيطان والاستعمار . والبستاني يعتبر ان موضع البحث فيها ليس ضمن نطاق كتابه ، والسبب في ذلك هو ان الهجرة اليهودية « وخصوصا ان هذه الفئة تجد لها ، من نفسها من أسباب العناية بها ، مايغنيها عن عناية الحكومة »(ص ٢٣٥) . فهو يعرف ان اسرقروتشيلد وغيرها كانت تقوم على تمويل المستوطنات اليهوديةبفلسطين ، وإن هذه المستوطنات ليست بحاجة الى العنايةالحكومية

العثمانية . لكن مؤلف « عبرة وذكرى »يتجاهل او يتغاضى عن مسألة الابقاء على جنسية المستوطنين اليهود . وهو الذي تحدث في مطلع الكتاب عن قانون التابعية العثمانية . ومن يدري لعله كانت هناك اعتبارات انتخابية قد حالت دون التوسع في شرح هذه المسألة التي كانت ستشغل مجلس المبعوثان إعتبارا من العام ١٩٠٩ فصاعدا .

حسنا فعل الناشر والمحقق بتقديم هذا الكتاب – الوثيقة الى القارىء في سلسلة « التراث العربي المعاصر » فانه كان يتصدى للدفاع عن الفكرة العثمانية التي تقوم عليها دعوة الجامعة العثمانية ، فانه يزودنا بوثيقة هامة عن الفترة التي سبقت إعلان الدستور العثماني وتطابقت مع عهد الاستبداد الحميدي . ويضع بالتالي برنامج عمل للمستقبل . كما نجد سليمان البستاني في خاتمة الكتاب يرسم صورة لما يرجو ان تكون عليه الدولة العثمانية العتيدة بعد خمس وعشرين سنة في ظل الدستور والحريات والتقدم المستمر في معارج الرقي . ولا غرو فقد عهد اليه السلطان محمد رشاد بتولي وزارة التجارة والزراعة سنة ١٩١٣ لكي يستقيل من هذا المنصب الوزاري عند اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى ، ويسافر الى سويسرا سنة ١٩١٤ للاقامة هناك حتى العام ١٩١٩ .وأقام البستاني في العراق قرابة ٨ سنوات (١٨٧٦ ــ١٨٨٤) ، كما إن المجلس العثماني أنتخبه وهو المبعوث عن مدينة بيروت رئيسا ثانيا له سنة ١٩١٠ .

يكتب البستاني في « عبرة وذكرى » بمرونة وسعة اطلاع ،ويلسان رجل الدولة الذي يندب نفسه للخير العام* ، أو كمن يضع برنامجا وزاريا للاصلاح في ظل إعلان الدستور والتطلع الى عودة الحريات .

ولا بد من الاشارة العابرة الى بعض الاخطاء المطبعية التي لا تفوت القارىء المدقق : معرض شيكاغو عام ١٨٨٣ وليس ١٩٨٣ (ص ٤٦) وعرف واقعه عن كثب وليس كسب (ص ٥٧) ، الزوراء ... اسسها مدحت باشا سنة ١٨٦٩ او ١٨٧٠ وليس ١٦٨٩ (ص ١٣٢) وإذا كان الاجر على قدر المشقة ، وليس وإن كذلك (١٥٠) ، في باريس وجنيف ولوندرا ، وليس جنوه (ص ١٨٠) وقد يكون هذا الخطأ من المؤلف . وعربنا بدلا من عربنا في الحاشية رقم ١٠٢ ، ص ٢٢٣ .

ملاحظة ختامية :

إنه من المستغرب ان كتاب رئيف خوري عن« الفكر العربي الحديث : أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي »(منشورات دار المكشوف ، بيروت ١٩٤٣) لا يأتي على ذكر سليمان البستاني وكتاب « عبرة وذكرى » ، بينما نجده يشير الى الكراس الذي اصدره الدكتور أيوب ثابت في بيروت ١٩٠٩ حاملا العنوان ذاته . ولقد اعتمده خوري في النصوص المختارة . بينما نجد قدري قلعجي في كتابه عن **مدحت باشا :ابو الدستور العثماني وخالع السلاطين**(سلسلة اعلام الحرية ٢٠ ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥١(ط .أولى : ١٩٤٧) قد اقتبس الكثير ، وبصورة شبه حرفية أحيانا ، عن كتاب سليمان البستاني « عبرة وذكرى » ، حتى انه أورد كافة المعلومات الواردة في كتاب البستاني عن مدحت باشا ومنجزاته .

اسعد رزوق

(*)يتحدث البستاني في رؤيته الشاملة لتقدم الدولة العثمانية خلال ٢٥ عاما في ظل الدستور عن دور المبعوث أو النائب في المجلس العثماني فيقول :

« إن كل مبعوث هو منتدب للنظر في جميع شؤون البلاد . وإن مصالح الولاية التي انتخبته ، إذا كان لها مصالح خاصة ، لا تأتي في الدرجة الثانية ، وإنه كلما خفف عنه منتخبوه من مطالبهم الخاصة ،زادوه مقدرة على خدمتهم ونفعهم »(ص ٢٤٠) .

هشام شرابي ،

الجمر والرماد ـ ذكريات مثقف عربي
(دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٨)

لقد اختار هشام شرابي كتصدير لمذكراته عبارة مستقـــاة من روايـــة تومـــاس مان « الجبل السحري » (١٩٢٤) ، حيث يقــول الروائــي الالماني ــ في معرض تقديمه وتقويمـــه الوصفـــي لشخصية الفتى هانز كاستورب* ، بطل الرواية ، ولحالته الخلقية والمناقبية ، غداة وصول المهندس هانز كاستورب اياه الى تلك المصحة الشهيرة في جبال الألب السويسرية ، في زيارة كان من المقرر لها ان تستغرق ثلاثة اسابيع ، لكن الزائر القـادم من هامبورغ الى المصحة في دانوس امضى ٧ سنوات هناك يقول ما يلي :

« لا يعيش المرء حياته الشخصية كفرد فحسب ، بل يعيش ايضا ــ عن وعي أو عن غير وعي ، حياة عصره وحياة معاصريه » .

ومن المؤكد ان هذا التصدير المقتبس من الرواية والمأخوذ من الذاكرة ، او من النص الانجليزي يقصد منه الايحاء للقارىء بكيفية النظر الى مذكرات الجمر والرماد ، أو ، على نحو أدق ، الى صاحب هذه المذكرات بوصفه مثقفا عربيا يريد لنا كقراء ان نتابع مسيرته الثقافيـــة والحزبيـــة والسياسيـــة ، لكي نستكشف من خلالها حياة عصره ومعاصريه . وبذلك

---

* راجع الفصل الثاني من الطبعة الالمانية السادسة (دار فيشر للنشر) . فرانكفــورت ١٩٦٣ ، ص ٣٠ . ومما تجدر ملاحظته في مستهل هذه المراجعة ان شرابي يحدثنا في مذكراته عن عودته في مطلع ١٩٤٩ وبعد حصوله على شهـادة الماجستير في الفلسفة ، على ظهر باخرة ايطالية من نيويورك الى بيروت . ثم نجد في الصفحـة ١٧٩ من الجمـر والرماد . ان شرابي قد اصطحب معه كتاب « الجبل السحري » لتوماس مان . ومن الطريف ان بطل رواية الجبل السحري هانز كاستورب تعلم غداة اقامته الاولى في المصحة كيف يلتف ببطانية الصوف على شرفة المصحة فاصبح في عزلة كلية عن العالم ، وبينما هو يضع جانبا كتابه الملازم له على الدوام عن « السفن التجارية العابرة للمحيطات » ، يأخذ في استطراده الشهير عن ماهية الزمـن واحســاس الانسان بسيلانه ومروره وديمومته وانسيابه وتوقفه وسرعته ، كما ان موضوع الزمن والرياضة العقلية التي يمارسها بعض نزلاء المصحة في استطراداتهم حول مفهوم الزمن والاحساس به وقياسه وابعاده النفسية وعلاقته الوثيقة بالمرض ومدته، يؤلف الى جانب موضوع الموت والتحلل ، أو التآكل البطيء ، مجموعة من ابرز واهم الموضوعات التي تتناولها هذه الرواية في تشريحها النقدي للعقل الاوروبي وللحياة الاوروبية عشية اندلاع نيران الحرب الكونية الاولى .

يسهل علينا الجمع بين منظوري الوعي واللاوعي ، دون التورط في محاولة رسم الحد الفاصل بينهما .

ومن المرجح ان شرابي عمد الى كتابة مذكراته كمثقف عربي أمضى ثلاثين عاماً من سنواتـه الخمسين في الغرب ــ وفي اميركا بالذات ــ لكي يتبين لنفسه ويبين للقارىء في آن معا حالة الجمر والرماد التي آلت اليها سيرة الوعي عشية بلوغ صاحبها عتبة الخمسين من عمره . ان صفحات مذكراته تعج بالصور والوجوه التـي يستحضرهـا من الماضي ويحركها امام القارىء ببراعة فائقة ــ كالدمى احيانا ــ لكي نكتشف من خلال عنصر المفارقة الزمنية ان المراحل والمحطات التي بلغتها مسيرة الوعي الثقافي واجتازتها ، تبعا لمراحل الدراسـة والانتماء الحزبي والنشاط السياسي ، تتوقف في خاتمة المذكرات عند العام ١٩٤٩ . فالفترة الممتدة من ١٩٤٩ الى ١٩٦٧ توصف في الفقرة التالية من الجمر والرماد بانها فترة « صمت في المنفى » : ــ

« ثم وقعت كارثة ١٩٤٨ . ولم يصبني منها الا الرذاذ . وفي سنة ١٩٤٩ ، التي حطم فيها الحزب (بعد عودتي من شيكاغو ببضعة اشهر) اصبت بضربة مباشرة . ورغم ذلك فقد نجوت بنفسي وعدت الى اميركا . في حين اعتقل معظم اصدقائي وقتل البعض . ومنذ ذلك الحين وحتى سنة ١٩٦٧ تحولت حياتي الى حياة صمت في المنفى »(ص ١٦٧)

لقد شهدت فترة الصمت هذه ــ والتي عاشها شرابي في المنفى . كما يقول في مذكراته ــ صعود الناصرية كظاهرة تحررية ومناهضة للاستعمار على الصعيد السياسي العربي والدولي ، هذا بالاضافة الى الزخم الذي استمده مسار الفكر القومي والوحدوي العربي . ومما يسترعي الانتباه ان مذكرات شرابي تصمت بالفعل حيال هذه الظاهرة البارزة التي استحوذت على عقول الكثيرين من المثقفين واستقطبت تفكيرهم وتوجههم السياسي والقومي طيلة فترة لا يستهان بها من تاريخ العرب المعاصر .

ولا بد من التساؤل عن مبرر هذا الاغفال او الصمت المتعمد من جانب صاحب مذكرات الجمر والرماد . ربما كان احد الاسباب يرجع الى كون هشام شرابي قد سبق له ان تناول هذا الموضوع في كتاب أصدره في « المنفى » عام ١٩٦٦ بعنـوان « القومية والثورة في العالم العربـي » (الشرق الاوسط وشمال افريقيا) ففي هذا الكتاب الصادر عن « مواطن اميركي » من « مواليد لبنان » (كما يقول غلافه) يقدم شرابي تحليلا للقوى التي لعبت وتلعب دورا حاسما وفعالا في تكوين سياسة الشرق الاوسط (اي العالم العربي وشمال افريقيا) .

واذا كان المجال لا يتسع هنا للتوقف عند الملامح الرئيسية لهذا الكتاب الذي نعتبره متمما للنواحي المغفلة في المذكرات ، فلا ضير هناك على الاطلاق في التذكير بان طالب الفلسفة قد تحول هنا الى استاذ للتاريخ وانظمة الحكم في جامعةجورجتاون وحبذا لو اشار شرابي في مذكراته الى هذه الأمور دفعـا للالتباس وتنويرا للقارىء . مع العلم تماما بان فئة معينة من قراء الكتاب تكتفي بالترحيب والاستقبال الحار ، دون الخوض في التفاصيل والتساؤل عن مغزى الاغفال ومبررات اللوذ بالصمت .

ومن الملاحظ لدى متتبعي كتابات شرابي ان المقدمة التي كتبها عام ١٩٧٤ ونشرها في مطلع كتابه « مقدمات لدراسة المجتمع العربي » (صدر عن الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٥) ، تكاد تؤلف فصلا لاحقا من فصول مذكرات الجمر والرماد . فالمثقف الذي بلغ الأربعين من عمره عشية الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، خرج عن صمته في المنفى ودخل في مرحلة جديدة من حياته . لكي ينتقل من المحافظة الى الثورية في التفكير . ويقف عند هذا المنعطف التاريخي الفاصل . ومن ثم يأخذ باعادة النظر جذريا في مواقفه الفكرية والسياسية السابقة كلها . هنا تطالعنا المفارقة الزمنية ، حيث « الماضي يفتح ابوابه امامي » وتعود الذاكرة بهشام شرابي عشية الخامس من حزيران ١٩٦٧ الى مدينة يافا ، مسقط رأسه . التي رآها صاحب الجمر والرماد للمرة الاخيرة من نافذة الطائرة التي اقلعت به ــ وعلى متنها فايز صايغ ــ من مطار اللد « في يوم ماطر من كانون الأول سنة ١٩٤٧ . في طريقها الى اميركا » (المقدمات ، ص ١٣) . وبهذه الرحلة التي ابعدته عن ارض الوطن طلبا للعلم،والثقافة تبدأ فاتحة مذكرات الجمر والرماد .

وحين يعمد الباحثون الى دراسة الآثار التـي خلفتها هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ لدى المثقف العربي سواء كان مقيما في الوطن أم مغتربا في

الخارج أم صامتا في المنفى ـ لا بد لهم من التوقف عند الصراحة الفكرية و« الحقيقة » الملازمة للانسان الذي لا يستطيع العيش بدون « حقيقة » : « ولكل انسان حقيقته ، يضم حياته حولها فتحدد اهدافها وتعطيها دلالة ومضمونا » (المقدمات ، ص ١٢) . لقد تزامن بلوغ هشام شرابي الأربعين من عمره مع « صدمة الخامس من حزيران » ، فكتب متذكراً هذا التزامن الموحي والمطهر للفكر من رواسب الماضي ، العبارة التوفيقية التاليه :

« يقال ، عندما يدخل المرء في الأربعينات ينسى حماقات الشباب ويصبح محافظا ، متشددا . بلغت الأربعين ، ولكن ، بدلا من ان اصبح محافظا اصبحت ثوريا بتفكيري . فقد كانت سنة ١٩٦٧ بالنسبة الي بداية مرحلة جديدة من حياتي اخذت فيها باعادة النظر جذريا بمواقفي الفكرية والسياسية السابقة جميعا . وكان ذلك نتيجة لالتقاء سنواتي الأربعين بصدمة الخامس من حزيران » (مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، المقدمة ، ص ١٣) .

فالقارىء لمذكرات شرابي والمطلع على أمر هذا التحول الجذري في مواقفة الفكرية غداة هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، لا تفاجئه بعد الآن تلك العبارات التي يصف بها موقف شارل مالك من الذين « شبوا عن الطوق وخرجوا عن الدوران في فلك لهجة التسلط الكلامي والعجرفة الجوفاء واساليب التهكم الفكري » . ولقد جاءت الاحداث التي شهدها لبنان منذ ما ينيف على العشرين عاما ، لتثبت صدق وصحة التحليل الذي يقدمه شرابي في الجمر والرماد . ففي خريف العام ١٩٧٠ ، تسنى للمثقف العربي الذي درس الفلسفة في الجامعة الامريكية ببيروت تحت اشراف شارك مالك وتعرض لوطأة اسلوب التلقين« السلطوي » ان يكتشف بصورة قاطعة ومشرقة حقيقة الذين يتكلمون « باسم الحق والقيم العليا » ، وليس على القارىء الراغب في التوسع الا الرجوع الى كتابات سعيد تقي الدين ، حيث تطالعه مكتشفات شرابي بمفعولها الرجعي . ولا سيما في تلك المقالة الثابتة التي ترجع الى عقدين من الزمن وعنوانها « خلينا نشوفك » ـ والى سعيد تقي الدين يرجع الفضل الاول والاخير في نحت لفظة « الشملكة » (من شارل مالك) ! وفي معرض اشارة هشام شرابي الى قطع صلاته وعلاقاته الفكرية بشارل مالك (« منذ ذلك الحين انقطع الرباط الذي جمعني بشارل مالك . ولم يعد بالامكان تسويغ علاقتي به » ، ص ٣٠ من الجمر والرماد) ، ومنعا للاطالة المملة . يجدر بقارىء المذكرات ان يتذكر تلك الكلمات التي وردت في خاطر شرابي مقتبسة عن المفكر الفرنسي موريس ميرلوبونتي « تكمن في الشخص الذي ينادي دائما بالقيم العليا والأخلاق السامية وداخلية الانسان نزعة خفية للعنف والحقد والتعصب » . (ص ٣٩)

والنتيجة المنطقية لمسار تفكير استاذ الفلسفة الذي غادر الجامعة ليشغل منصب وزير لبنان المفوض في واشنطن سنة ١٩٤٥ . لا تتكشف امام طلابه حينذاك ، اذ اعتبروا رحيل استاذهم بمثابة خسارة لهم ومكسبا تجنيه امبركا . فالشق الثاني جاء بالفعل مكسبا اميركيا دون تردد .

« ولم يخطر ببالنا آنذاك ان ما سيفعله مالك في الولايات المتحدة هو التخصص في مهاجمة الشيوعية ومدح المسيحية ، ودعم الحرب الباردة ليعود الى لبنان ويصبح ايديولوجي اليمين المسيحي المتعصب »(ص ٣٩).

على ان المثقف العربي هشام شرابي في بحثه عن الثقافة الليبرالية النقدية («وقد افشلت الجامعة الأميركية في تلقيني إياها ») يتابع مسيرة وعيه من خلال التحاقه بجامعة شيكاغو فيبقى طيلة فترة طويلة نسبيا اسير الالتزام المسبق بوجهه نظر معينة « تعبر عن الايديولوجية المسيطرة ، وطابعها التأملي التجريدي ، الذي يميز الفكر البورجوازي باكلمه » (ص ١٢٠) فالفترة التي امضاها الوعي في دراسة الفلسفة تتميز الى حد ما بمحاولة « التخلص من ادران ثقافتي الماضية » . لكن سفينة الوعي تسير مع التيار السائد ، مما يؤدي بالتالي الى تقبل المواقف الليبرالية المحافظة « دون تساؤل » ـ وهو الذي يشتهر عند عارفيه ومقدريه بكثرة التساؤل والتلذذ اللاواعي بطرح الاسئلة يمنة ويسرة دون كلل او تريث لاستقبال الجواب وإتاحة الفرصة لصدور الرد .

بيد ان الصدق المقنن يبقى رائد المذكرات في تداعيها النفسي والزمني هذا بالاضافة الى نزعة الانتقاء والتوقف عند احداث وظواهر معينة والتركيز عليها دون سواها . وقد تكون لفظة « التأمرك » الفكري غير منصفة على الاطلاق ، ومن الانسب ان نصغي اليه متذكرا سيرة وعيه بين الجمر والرماد :

« فصار تفكيري مشبعا بالنظرة الليبرالية الاميركية (الانجلوسكسونية) ، واتخذت موقفا معاديا للشيوعية والاتحاد السوفياتي . وقبلت بنظرية التنافس الحر والديمقراطية البرلمانية دون اي تساؤل او تردد » (ص ١٢٠) .

وهذا ما يجذبه عن وعي او لا وعي الى الدوران في فلك الشملكة . فالتحول الجذري في الموقف الفكري ترتب عليه الانتظار حتى نكسة الخامس من حزيران في التقائها مع بلوغ المثقف العربي صاحب المذكرات عتبة الاربعين من عمره .

اما بالنسبة الى الواقعة التي تنطلق منها مذكرات الجمر والرماد ـ « غادرنا بلادنا في وقت محنتها دون اي تردد أو شعور بالذنب » (ص ١٤) ـ فان شرابي يحاول تفسير هذا السلوك دون تبريره ، وهو يعترف بعجزه التام عن القيام بذلك . وهنا يضعنا وجها لوجه أمام طبيعة الموقع الفكري لطبقة أو فئة المثقفين في المجتمع ، ويلقي شيئا من الضوء على طبيعة وملابسات الدور الذي ينتظرهم او يناسبهم :

« ربما كوننا مثقفين ساعد على ذر الرماد في اعيننا ، فصرنا نرى الأشياء من زاوية الفكر المجرد وحده ، وهكذا بدت الدنيا لنا موضوعا لكلامنا وفكرنا ، لا مجالا لتحقيق افعالنا وأعمالنا » (ص ١٤) .

لقد اختار شرابي كطالب جامعي ان يدرس الفلسفة تبعا لرغبة كانت تدفعه بالحاح « في ان اتخلص من حالة القلق النفسي والضياع الفكري التي كنت فيها » (ص ٢٧) . وقد يضيق بنا مجال هذه المراجعة لو شئنا التوقف عند القليل فحسب من تفاصيل المراحل التي مر بها تطوره في حقل دراسة الفلسفة ، والاشخاص والمفكرين الذين يأتي على ذكرهم معترفا بفضلهم ومشيرا الى التأثير الذي مارسوه والوقع الذي تركوه في نفسه .

كما انه لا يسعنا التوقف عند الناحية التي تشغل القسم الأكبر من الجمر والرماد ، الا وهي انضمام هشام شرابي الى الحزب السوري القومي الاجتماعي في ١٩ حزيران ١٩٤٦* ، بعد ان سبق له الالتحاق بجمعية سرية تهدف الى تحرير الوطن العربي وتوحيده . فالجو الفكري والعاطفي الذي انتقل اليه صاحب المذكرات ـ لدى « انتقالي فكريا من مركز القومية العربية الى نقيضها القومية السورية » لم يتميز كثيرا عن الجو الذي كان فيه . والتحول الجذري الذي مر به تفكير شرابي وموقفه بعد مرور ما ينيف على العشرين عاما منذ انتقاله بين القوميتين يتجلى على افضل وجه في الفقرة التالية التي من شأنها اثارة الانتقادات الشديدة ، اذ يقول :

« فالموضوعات التي كانت تمثل لي في تلك الحين صلب الحقيقة لم تعد الآن تعني لي الكثير . موضوع الأمة ، ماذا يعني لي اليوم ؟ وتاريخ الأمة او حضارتها ، عربية كانت او سورية . ما أهميته ؟ الافكار المصاحبة لهذه النظرة او تلك ، لم تعد لها قيمة متميزة بالنسبة لي . ما يهمني اليوم هو حياة هذا الشعب المعذب ومصير هذه الجماهير المستغلة المستعبدة . جميع الأفكار والقيم والأهداف التي تدور حول حياة الشعب ومصير الجماهير لم تعد تمسني او تعني لي شيئا » (ص ٧٢) .

وتكتمل الدائرة حين تعود بنا الذاكرة الى مقدمة

---

* يريدنا شرابي في مذكراته ان نخرج بانطباع مؤداه ان المثقف الملتزم بموقف حزبي قد تخلى نهائيا عن التزامه غداة اعدام مؤسس الحزب وفي اعقاب عودته الى اميركا هربا من الاعتقال والمطاردة . بيد ان المقالة التي نشرها شرابي في العدد السنوي الممتاز (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) من المجلة (السنة الثانية) بعنوان « فلسفة جديدة » تنبىء باستمرارية في السير على خط التفكير الحزبي وفي تقديم المزيد من الشروحات لفلسفة العقيدة القومية الاجتماعية وصفاتها البارزة . [انظر مجلة فكر ، العدد ٢٥ ، ٢٦ ، السنة الرابعة ، ايلول ـ تشرين الثاني ١٩٧٨ ، ص ١٤٥ ـ ١٥٥] . ولا بد من التساؤل عن الدوافع التي حدت كاتب المذكرات الى اغفال هذه الناحية او تجاهلها لانها تمد بحياته الحزبية وتبقي على الاتصال والاستمرار في خط تفكيره الحزبي ضمن اطار العقيدة القومية الاجتماعية ومنطلقاتها الفكرية والفلسفية . فهل جاء الاقصاء متعمدا ام انه اغفل سهوا ؟ ولا غرو فان الانقطاع البارز في المذكرات يشكل هوة زمنية وفكرية ليس من السهل القفز فوقها واسقاط التحول على هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ .

المذكرات . لكي تضعنا امام المثقف العربي الذي قرر العودة الى وطنه بعد ان طال اغترابه واوغل بعيدا في تغربه . ففي السطر الأول من المقدمة يطالعنا قرار شرابي بالعودة نهائيا الى الوطن العربي سنة ١٩٧٤ . وعندما اكتشف هذا المثقف العائد لخدمة وطنه « ان الشعب والوطن لا يأبهان به وبأحلامه ، وان الواقع يناقض الرؤيا . »(ص ٨) ، قرر من جديد الرجوع الى منفاه « كالجندي المهزوم » . ومما لا ريب فيه ان منكرات الجمر والرماد هي محاولة يعمد شرابي من خلالها وعبرها الى مراجعة الماظي ومواكبة المسار الذي اجتازه وعيه الفكري والفلسفي والاجتماعي والقومي ــ الوطني :

« هذا الكتاب حصيلة تلك الفترة القلقة . بدأت في كتابته صيف ١٩٧٥ لاسجل فيه نهاية مرحلة من حياتي ظننتها انتهت . وبداية مرحلة جديدة ظننتها بدأت أو على وشك ان تبدأ . الا ان المرحلة الجديدة لم تتحقق والمرحلة السابقة ما زالت مستمرة »(ص ٩).

ان هذا التواصل بين المرحلتين السابقة واللاحقة يسهم الى حد ما في الاحساس المتفائل الذي يغمر شرابي ابان تقديمه للمنكرات ، فيضع حدا لتردده بين العودة من جديد الى الوطن او تمضية ما تبقى لي من العمر هنا في هذه البلاد الغريبة » ، مؤكدا عجزه عن التخلي عن وطنه : « سأعود يوماً » وحين يستقل شرابي الطائرة في صيف العام ١٩٤٩ عائدا الى اميركا يطالعنا السطر الأخير من جمره ورماده بنغمة متشائمة تشوبها المرارة والخيبة ــ على غرار فقرات المقدمة التي اشرنا اليها . فهو يهمس لنفسه متمتما : « لقد نبذتني يا وطني ... لن ارجع اليك ... لن أرجع ابداً ... » (ص٢٢٨) .

وليس من قبيل المبالغة ان صاحب المنكرات يمارس ضربا من التعري الفكري على صعيد سيرة الوعي واللاوعي وفي مسار المفارقة الزمنية . فالقارىء مدعو الى متابعته من خلال الجمر والرماد في ايراده لذلك السيل المستمر والحشد الغفير من الاسماء والوجوه التي اكتشف الوعي ذاته من خلالها وتمرأى فيها ، فتحول الى وعي شقي واحيانا الىّ وعي منفصم . ومن الفقرات التي تسترعي الانتباه تلك التي يتحدث فيها شرابي عن رصد وعيه الذاتي لموت الآخرين لا سيما الاصدقاء (الفصل الثالث من الجمر والرماد . الفقرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) فهو يقول : « لامس الموت حياتي في فترات مختلفة .. وكنت اشعر انه سيخطفني باكراً. فالمذكرات التي كتبها هشام شرابي لها نكهة خاصة ــ وان جاءت متأخرة ومجتزأة بعض الشيء . ولقد اشفقت احيانا على القارىء من سيل الاسماء والاشخاص والوجوه الذي لا ينقطع . كما فاجأتني كلمة الغلاف التي وقعها ادونيس : « نادرا ما قرأت نتاجا عربيا حديثا هزني ، فتمنيت لو انني كنت صاحبه » . وما على الشاعر ادونيس الا ان يحقق امنيته ويتحفنا بكتاب يضم بين دفتيه مذكرات تثيرنا وتأسرنا ، دون ان تهزنا ، وتضعنا في الجو الماثل ولا تستفزنا كقراء . ولشد ما بلغت بي الدهشة والاستغراب عندما وجدت ان عبارة ادونيس التي اتخذتها الترجمة العربية لكتاب شرابي «المثقفون العرب والغرب»،(١٩٧١) جاءت بديلا لكلمة نيتشه التي تتصدر الغلاف الداخلي للنص الانكليزي الاصلي ، حيث استبعدت عبارة نيتشه «عليكم ان تكفروا امام ابنائكم عن ذنب تحدركم من ابائكم ، وبغير هذه الكفارة لن تتقنوا الماضي » (هكذا تكلم زارادشت : هذه هي الوصية الجديدة اعلق لوحها فوق رؤوسكم ــ « الوصايا القديمة والوصايا الجديدة») ، وحلت محلها وايقنت عندما صرت في الثلاثين ان حياتي قد قاربت على النهاية (١٩٥٧) . وفي الخامسة والثلاثين اعتقدت اعتقادا راسخا بان ما تبقى من عمري لا يتعدى السنوات (١٩٦٢) وتأكدت ان الموت لا مفر منه لما اصبحت في الاربعين ، في الحقبة التي توفي فيها كيركيغارد (٤٢) وسعاده (٤٥) وكامو (٤٧) . لكن الموت لم يأت ... وها هي الخمسينات اصبحت على الابواب (١٩٧٧) . اصبحت مؤمنا ان الموت قد غض الطرف عني » (ص ١٤٨) .

جملة ادونيس التالية : «ان اوروبا لم تعد ، بالنسبة لنا نحن هذه الشعوب « المتخلفة » ، « الجاهلة » ، « الفقيرة » اكثر من جيفة متعفنة » . نتوقف هنا تاركين للقارىء مجالا للتأمل والتروي قبل اصدار الحكم النقدي الموزون ودون اغفال الحيثيات التي رافقت ذلك التحول الجذري البارز .

شهريات

اسرائيليات

العلاقات الاسرائيلية المصرية

« من التطبيع الى الصداقة »

منذ الزيارة الاولى التي قام بها رئيس الحكومة الاسرائيلية للقاهرة في ١٩٧٩/٤/٢ بدعوة من الرئيس المصري انور السادات ، كان واضحا ان كلا منهما مستعد للقيام بقفزة واسعة الى الامام، في اتجاه تطبيق بنود معاهدة السلام المنفردة بين مصر واسرائيل، وخاصة المتعلقة منها بخلق علاقات طبيعية بين البلدين . وقد اتضح ذلك من النتائج التي تمخضت عنها هذه الزيارة في المؤتمر الصحفي الذي عقداه في ختام مباحثاتهما ، والذي سارع مناحيم بيغن للاعلان فيه عن اتفاقه مع الرئيس المصري،لفتح الحدود بين البلدين غداة الانسحاب الاسرائيلي من مدينة العريش والاحتفال بتسليمها للسلطات المصرية في ١٩٧٩/٥/٢٧ وبحضور كل منهما : وذلك بتقديم موعد الانسحاب بشهر واحد عن الفترة المنصوص عليها في بنود المعاهدة ، وبالمقابل تقديم موعد فتح الحدود الذي كان مرهونا باقامة علاقات دبلوماسية على مستوى السفراء بين البلدين،بعد ٩ اشهر من اتمام المرحلة الاولى من الانسحاب . وكما اتضح ذلك ايضا من التقرير الذي قدمه مناحيم بيغن للكنيست الاسرائيلي في ١٩٧٩/٤/٤ عن نتائج هذه الزيارة (انظر شؤون فلسطينية ، العدد ٩٠ ، ص ١٦١) .

وعلى الرغم من التخوف الذي ابداه مساعدو الرئيس السادات ومستشاروه ، من النتائج المترتبة على هذا الاندفاع في خلق العلاقات مع اسرائيل بالنسبة للعالم العربي ، اذ كان في رأيهم ان مصر « اصبحت معزولة بما فيه الكفاية في العالم العربي وليس من حاجة الى شد الحبل اكثر » ولا بد من « التقدم بخطوات بطيئة نحو الهدف » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٨) ، فقد سارت عملية تطبيع العلاقات بخطى حثيثة . وتم ذلك ايضا على الرغم من كل المحاولات التي بذلها هؤلاء المساعدون والمستشارون ، وعلى الاخص رئيس الحكومة المصرية مصطفى خليل ، ووزير الخارجية بالوكالة بطرس غالي ، اللذان « وقفا مذهولين امام هذه الديناميكية في سير العملية ، لاعاقتها وابطائها وتأجيلها » (المصدر نفسه) . وكان ما حصل في لقاء السادات – بيغن في مدينة العريش بمناسبة تسليمها للمصريين في ١٩٧٩/٥/٢٧ ، هو ما اعلن عنه بالفعل مناحيم بيغن ، في ختام زيارته الاولى للقاهرة ، وهو عكس ما كان يسعى اليه مصطفى خليل وبطرس غالي تماما ، فـ « لا اعاقة ولا ابطاء ولا تأجيل » (المصدر نفسه) ، في عملية « تطبيع العلاقات » بين الدولتين ، بل تعميقها في كل جوانبها السياسية والعسكرية والثقافية .

العلاقات السياسية

لكي توضع تلك الاتفاقات موضع التنفيذ الفعلي ، اتفق الطرفان الاسرائيلي والمصري ، علاوة على فتح الحدود بين الدولتين ، على قيام الزعماء الاسرائيليين بسلسلة من الزيارات المتلاحقة لمصر ابتداء بوزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان ، الذي توجه الى

القاهرة في ٤/٥/١٩٧٩ ، لاجراء « محادثات مع رئيس الحكومة المصري مصطفى خليل ، ووزير الدولة للشؤون الخارجية بطرس غالي ، بشأن الترجمة الفعلية لهذه القرارات » (هآرتس ومعاريف ، ٢٨/٥/١٩٧٩) . ومن بينها تلك المتعلقةبقرارفتح الحدود،الذي كان قداعلن عنه بيغن بحضور السادات في العريش ، انسجاما مع ما كان قد صرح به السادات للصحافيين الذين رافقوه في رحلته الجوية الى بئر السبع بأن « وزراء من الدولتين هم الذين سيتفاوضون على تفاصيل تطبيع العلاقات المعجلة » ، وانه « يترتب على هؤلاء الوزراء الآن ان يضعوا الترتيبات الاخرى لذلك » بعد ان « اتفقنا، بيغن وانا ، بالنسبة للمبادىء باننا كلما استطعنا ان نعطي دفعة جديدة لعملية السلام فاننا سنفعل ذلك » (المصدر نفسه) .

وكانت الزيارة التي قام بها موشي دايان الى القاهرة في ٤/٦/١٩٧٩ ، والتي التقى خلالها انور السادات ، بالاضافة الى مصطفى خليل وبطرس غالي ، قد تمخضت عن الاعلان في بيان مشترك له ولرئيس الحكومة المصري عن « فتح المجال الجوي بين اسرائيل ومصر ، وعن اعطاء الحق لمواطني البلدين في التزاور » (ر.ا.ا. ، ٦/٦/١٩٧٩ ، ومعاريف ، ٧/٦/١٩٧٩) . واضاف خليل بان المحادثات حول المسائل المتعلقة بالعريش « لم تنته خلال هذه الزيارة التي قام بها دايان » ، وان معالجة هذا الموضوع ستتم « من قبل حاكم العريش مع زميله في اللجنة الاسرائيلية ــ المصرية المشتركة . » اما عن العبور بين الدولتين برا ، فقد اوضح خليل ان « هذا الموضوع ومواضيع اخرى مشتركة ستجري مناقشتها في اللقاء الذي سيتم بين دايان وبطرس غالي في بئر السبع » . وانه سيكون هناك،« اعتبارا من الآن ، اتصال مباشر بين وزارتي خارجية البلدين » (المصدر نفسه) .

اما موشي دايان فكان قد صرح في مطار اللد ، لدى عودته من هذه الزيارة في ٦/٦/١٩٧٩ : « انني اعود الى البيت ولدي شعور بانني حصلت هناك على اكثر مما توقعته » (ر.ا.ا. ، ٦/٦/١٩٧٩ ومعاريف ، ٧/٦/١٩٧٩) . وعلى الرغم من ان الوزير دايان لم يتحدث سوى عن « الانجازات في مسار تطبيع العلاقات ، فقد المح الى ان ثمة « مواضيع اخرى تتعلق بالعلاقات بين الدولتين قد طرحت » في المحادثات التي وصفت بانها « خاصة » (المصدر نفسه) . وليس من المستبعد ان يكون موضوع تبادل السفراء بين مصر اسرائيل ، من بين المواضيع التي طرحت في هذه المحادثات « الخاصة » ، اذ تسربت اخبار عن لقاء العريش بين السادات وبيغن تفيد بانهما « اتفقا على تبادل السفراء بين البلدين بعد وقت اقصر بكثير من ذلك الذي اتفق عليه بين الدولتين » (هآرتس ، ٢٨/٥/١٩٧٩) . وقد لخص موشي دايان كنه محادثاته في معرض رده على السؤال عما اذا كان موضوع الحكم الذاتي قد طرح بطريقة ما اثناء محادثاته مع القادة المصريين قائلا . « استطيع القول بانه خلال كل هذه المحادثات ، لم تطرح ، وبأي طريقة كانت ، مسالة الحكم الذاتي ، ولم يلمحوا [المصريون] الى اي شيء ، ولم يسألوا عن المستوطنات ولا عن اية مواضيع اخرى ، لا الرئيس السادات ولا رئيس الحكومة مصطفى خليل ، ولا بطرس غالي » (ر.ا.ا. ، ٦/٦/١٩٧٩ ، ومعاريف وهآرتس ، ٧/٦/١٩٧٩) . واضاف دايان مؤكدا : « لقد ناقشنا بصورة عملية طريقة تطبيق اتفاق السلام الاسرائيلي ــ المصري ، وما استطيع قوله هو اننا ناقشنا في الايام الثلاثة التي قضيناها هناك وباكثر الصور عملية مسائل تطبيق اتفاق السلام ، ولم يربط المصريون ذلك باي شكل من الاشكال ، ولا بأي شرط يتعلق بموضوع الحكم الذاتي » (المصدر نفسه).

اما بالنسبة للاتفاق الذي تم بين البلدين على « فتح الحدود » ، فقد قال دايان : « ستكون هناك زيارات حرة بين الدولتين لجميع المواطنين : اي ان المواطنين الاسرائيليين يستطيعون السفر الى مصر وبالعكس ، وباستطاعتهم تقديم الطلبات للحصول على تأشيرات السفر ، وستكون الاستجابة لهذه الطلبات خاضعة للقوانين العادية لكل من الدولتين » ، ثم اضاف معقبا : « هذا هو البند الاساسي ، وهذا هو التغيير الاساسي في الوضع الذي كان سائدا حتى الآن » (المصدر نفسه) .

وكانت مسالة فتح الحدود بين الدولتين ، قد تحولت منذ التوقيع على معاهدة كمب ديفيد ، الى هدف رئيسي بالنسبة لاسرائيل في علاقاتها مع مصر ، حتى بدا كان شعار « الحدود المفتوحة » الذي رفعه بيغن قد ورث شعار « الحدود الآمنة » ؛ الذي ما

انفكت اسرائيل تلوح به طيلة الوقت . وكان مناحيم بيغن بالذات قد اصر عند التوقيع على معاهدة كمب ديفيد في واشنطن ، على الاعـلان عن « حـدود مفتوحة » بين مصر واسرائيل ، ثم اصر على ذلك اثناء زيارته الاولى للقاهرة في شهر نيسان الفائت بقوله ، وبحضور السادات ، بان « الحدود ستفتح بـين الدولتين » يوم تسليم العريش للسيادة المصرية . ثم اتبع اعلانيه هذين باعلان ثالث ، وبحضور السادات ايضا ، في حفل تسليم العريش مفاده بان « الحدود مفتوحة بين البلدين ابتداء من اليوم » (هآرتس ودافار ومعاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٨) .

ومع ان هذا الاعلان لا يجلب معه تدفقا من الاسرائيليين والمصريين الى كل من مصر واسرائيل ، ولا يغير من مجرى زيارات الوفود المضبوطة لكل من الدولتين في الوقت الحاضر — حتى ولا بعد الاتفاق الاخير الذي اسفرت عنـه محادثـات دايـان في القاهرة — الا انه ذو معنى كبير بحد ذاته : اذ كان قد « تريد على خلفية صراع داخل القمة المصرية » ، وبالتحديد بين « وزارة الخارجية التي كانت تحاول تأجيل ذلك الى ما بعد انتهاء المرحلة الاولى من الانسحاب ، بعد تسعة اشهر ، وبـين الـرئيس السادات » (المصدر نفسه) . وهـذا ما يفسر الحقيقة التي تسترعي الانتباه ، والتي زافقت هذه المسألة ، وهي مناحيم بيغن هو الذي اعلن بنفسه في المناسبات الثلاث — في واشنطن والقاهرة وبئـر السبع — عن « فتح الحدود » بحضور السادات ، وليس السادات نفسه ! ويكاد يبدو وكأن السادات اوكل مسألة الحسم العلني في هذا الجدال المصري الداخلي لمناحيم بيغن ، وهذا بالفعل ما قد حصل . وكان السادات نفسه قد كشف النقاب عن هذا الصراع ، في رده على السؤال حول التصريحات المتناقضة التي ترددت على السنة مسؤولين مصريين في هذا الشأن ، قائلا : « ان وزارة خارجيتـي تعارض الفكرة ، ولكنني كنت قد وعدت بيغـن [بذلك] عندما التقينا في القاهـرة في نيسـان الماضي ... وعندما سئل وزير خارجيتي بالنسبة لذلك ، فانه عرض موقف وزارته .. ولكنني كنت وعدت بيغن » (المصدر نفسـه) . ثم اضـاف السادات ، مقللا من هذا الصراع الداخلي : « لم يكن بيننا اي تناقض او سوء فهم : لقد اجرينا حوارا طويلا جدا في مصر قبل وصولي الى هنا [العريش] .

لقد كان الخيار واضحا : امـا ان اقنعهـم او يقنعوني ، وهكذا ، ولحسن الحظ اقنعتهم انا ... » (المصدر نفسه) .

وكان بطرس غالي قد صرح عقب محادثاته مع وزير الخارجية الاسرائيلية موشي دايان ، في العريش اثناء الاحتفال بتسليمها في ١٩٧٩/٥/٢٣ ، اي قبل يومين من الاعلان عن « الحدود المفتوحـة » ان « الحدود بين اسرائيل ومصر ستفتح فقط بعد ثمانية اشهر » (هآرتس ودافـار ، ١٩٧٩/٥/٢٤) . وليس بعد اسبوع كما كان قد اعلن في حينه . وحين سئل غالي في المؤتمر الصحافي الذي عقده مع نظيره الاسرائيلي ، عن هذا التحول في موقف مصر اجاب : « لا يوجد اي تغيير . الرئيس السادات تكلم عن المبدأ العام ، ونحن نتكلم عن تجسيد هذا المبدأ » (المصدر نفسه) . اما عن السؤال «ما معنى حدود مفتوحة اذن ؟ » ، فقد اجاب غالي بقوله ان المعنى هو « رمزي : ويترجـم في ان قادة الدولتـين يستطيعون الالتقاء والاجتماع » . واضاف موضحا « ان التجسيد العملي في الحياة اليومية سيكون بعد الفترة الانتقالية » (المصدر نفسه) .

وعلى الرغم من تحقيق ما كانت تسعى اليه اسرائيل بالنسبة لفتح الحدود بينها وبين مصر ، والاعلان عن ذلك رسميا في البيان المصري الاسرائيلي المشترك في ختام زيارة موشي دايان للقاهـرة ، تعرضت مسألة تأجيل فتح الحدود البرية واقتصار ذلك على الحدود الجوية والبحرية فقـط في هذه المرحلة ، للنقد الشديد في الصحف الاسرائيليـة المعدودة على الائتلاف الحاكم ، حتى قبل قيام موشي دايان بهذه الزيارة ، وذلك لحمل مصر على فتحها ، بعد ان اصبح واضحا ان الحدود البرية قد استثنيت من قرار فتح الحدود . وقد تعدت صحيفة معاريف ، في انتقادها ، مسألة فتح الحدود الى التشكيك في نوايا السادات نفسه : فكتبت تحت عنوان « الحدود المفتوحة التي بقيت مغلقة » انه « في اليوم الذي اعلن فيه رئيس الحكومة مناحيم بيغن ، في العريش عن « الحدود المفتوحة » بين اسرائيل ومصر ، عمـل المصريون على اغلاق الطريق الوحيد بين الدولتين لفترة غير محددة » . واضافت الصحيفة موضحة بان الحكم المصري الذي عاد الى مدينة العريش ، قد « هدم القاعدة الطبيعية الوحيدة التي كانت قائمة لبداية فورية من التعايش الاسرائيلي المصري في

العريش » ، وان ذلك لم « يكن لاسباب امنية » ، وانما « بسبب الخط الواضح الذي ينتهجه انور السادات نفسه ، لعزل شمال سيناء عن كل اتصال مع اسرائيل ، ولمدة غير محـددة » (معريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) .

على اية حال ، على الرغم من اصرار مناحيم بيغن على التعجيل في « تطبيع » العلاقات مع مصر ، فقد اخذ يتبلور في حكومة اسرائيل اتجاه يدعو « لتهدئة مناحيم بيغن في موضوع تطبيع العلاقات » ، وترك العملية لتتطور « من تلقاء نفسها » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . ولا سيما وان معظم اعضاء الحكومة الاسرائيلية قد قاموا حتى الان بزيارة مصر ، سواء اولئك الذين يشاركون في مفاوضات الحكم الذاتي منهم ، او الذين تلقوا الدعوة من الرئيس السادات نفسه للقيام بمثل هذه الزيارات بمن فيهم رئيس الحكومة الاسرائيلية ، مناحيم بيغن ، ونائبه يغئال يادين .

وعلى الرغم من اجواء الوفاق التي حرص الطرفان الاسرائيلي والمصري على ابرازها ، الا ان ثمة « خلافات عائلية » عابرة كانت قد عكرت صفو هذه الاجواء : كان احدها على اثر التصريح الذي ادلى به وزير « الدفاع » الاسرائيلي ، عيزر وايزمان ، في مؤتمر حيروت الرابع عشر ، والذي قال فيه انه في « حالة انهيار السلام ، فان جيش « الدفـاع » الاسرائيلي سوف يحتل سيناء للمرة » (معاريف ، ١٩٧٩/٦/١٢) . ممـا دعـا رئيس الحكومـة المصرية ، مصطفى خليل ، لان « يشن هجوما علنيا عليه » الامر الذي اثار بدوره حفيظة عيزر وايزمان ودعاه للرد على هذا الهجوم ، مغتنما فرصة التقائه بمصطفى خليل في ١٩٧٩/٦/١١ . وفي الحديث الشخصي الذي دار بينهما « تصرف وايزمان حسب القاعدة القائلة : ان خير وسيلة للدفاع هي الهجوم » (المصدر نفسه) . وادعى انه خلال اشهر طويلة « تحاشى الرد على الكثير من التصريحات المحرجة التي ادلى بها وزراء مصريون مختلفون ، بمن فيهم خليل نفسه وبطرس غالي » كما تطرق وايزمان الى تصريح نائب رئيس الحكومة المصرية محمد حسن التهامي « بشأن » مسيرة المليون مسلم للقدس » ، الا انه فضل « الاحتفاظ بها لنفسه وعدم الـرد عليها » . ولكنه عندما يدلي هو بتصريح واحد ، فان اولئك انفسهم « يهاجمونه علنا وامام المراسلين الاجانب » ثم تساءل وايزمان غاضبا : « اهذا ما تسمونه صداقة ؟ » (المصدر نفسه) .

ولكن هذا الخلاف الذي « شـكل موضوعـا للتوضيح » ما كاد « ينتهي بالمصالحة بين الرجلين » (معاريف ، ١٩٧٩/٦/١٢) . حتى ثار خلاف اخر حول ما جاء في مقال « لموسى صبري » في صحيفة الاخبار ، والذي « شبه فيه مناحيم بيغن بالافعى » (المصدر نفسه) . الامر الـذي حدا برجال الاعلام والمسؤولين الاسرائيليين بمن فيهم وزير الداخلية ، يوسف بورغ ، « لاثارة ضجـة حوله » (المصدر نفسه) . الى حد ان وزير الزراعة الاسرائيلي ارئيل شارون الذي كان يقوم بزيارة للقاهرة ، « تحدث الى رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن واقترح عليه ان يؤخر خروج الوفد الاسرائيلي الى محادثات الحكم الذاتي في الاسكندرية احتجاجا على نشر المقال في جريـدة الاخبـار » (المصدر نفسه) . الا ان مناحيم بيغن ، الذي « تعامل بشدة مع مضمون المقال رفض الاقتراح بتأخير الوفد » لكنه كلف وزير الداخلية يوسـف بورغ بأن « يطرح هذا الموضوع امام السلطات المصرية بحدة ، وهكذا حصل » (المصدر نفسه) . غير ان مناحيم بيغن لم يكتف في الواقع بذلك واصدر بيانا عاما ، تطرق فيه الى هذا الموضوع رمزا ، حيث جاء فيه : « في الايام الاخيرة تشن حملة تحريض بواسطة اوساط معينة ضد حكومة اسرائيل وضدي بشكل شخصي ، وهي نفس الاوساط التي اشادت قبل شهور بجهود اسرائيل التي ادت الى توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ... » (المصدر نفسه) . كمـا واشـار نائـب رئيس الحكومـة الاسرائيلية ، يغئال يادين ، هذا الموضـوع مع الرئيس السادات اثناء زيارته للقاهرة موضحا ان مقال موسى صبري « لا يساعد على تحسين العلاقات بين الدولتين » (دافار ، ١٩٧٩/٦/٢٢) . فاجابه السادات الذي كان قد « استقبله استقبالا حارا » ، بانه « آسف ، ولكنه لا يرى في مقال صبري اية نية للمس بشخص رئيس الحكومة » ، وطلب اليه ان ينقل الى بيغن بانه « لن يكون بعد الان اي مساس شخصي من جانب اي طرف » (المصدر نفسه) .

ويبدو ان اثارة « الخلافات » ، واضفاء اجواء من « التوتر » على سير العلاقات بين مصر واسرائيل عشية اية زيارة يقوم بها مناحيم بيغن بالذات ، قد

اصبحت تقليدا محببا لدى الطرفين ، بل كما لو انها قد اصبحت احد الشروط الضرورية لعملية « تطبيع » العلاقات بين الدولتين ، وجزء مهما من الديكور المعد سلفا لنجاح هذه الزيارات وما يدور خلالها من محادثات بين الطرفين ، لا سيما المتعلقة منها بيغن والسادات ، وما ينجم عنها من بيانات مشتركة في المؤتمرات الصحفية التي يعقدانها في اختتام هذه الزيارات . وهكذا ، وكما جرت العادة إذن ، كانت الاجواء اللازمة لقيام مناحيم بيغن بزيارته الاخيرة للاسكندرية في ١٩٧٩/٧/٩ مهيأة تماما . ولهذا فقد انتهت وكما كان متوقعا « بنجاح كبير » بل و « شكلت مدماكا مهما في بناء تطبيع العلاقات والسلام بين الدولتين » (هتسوفية ودافار ومعاريف ، ١٩٧٩/٧/١٣) . كما صرح مناحيم بيغن نفسه . وكان مناحيم بيغن والسادات اللذان التقيا في الاسكندرية قد « تحدثا بصراحة تامة سواء في المشاكل المتفق عليها بينهما كالحاجة في تعجيل عملية تطبيع العلاقات والحكم الذاتي ، والحفاظ على وحدة لبنان » ، وكذلك في المواضيع التي « بقيت موضوع خلاف بينهما ، مثل موضوع المستوطنات » (هستوفية ، ١٩٧٩/٧/١٣) . كما نستدل من الكلمتين اللتين القياها في مؤتمرهما الصحفي المشترك في ختام محادثاتهما في ١٩٧٩/٧/١٢ ، وقد حاول الاثنان « اخفاء الاختلافات في الرأي فيما بينهما في موضوع الاستيطان » (عل همشمار ، ١٩٧٩/٧/١٣) . اما في موضوع جنوب لبنان ، الذي ارتأى السادات ان يذكره في مستهل المؤتمر الصحفي المشترك ، كموضوع خلاف ثان بينهما ، بدا وكأنه مفتعل ، اذ ان مناحيم بيغن اعلن حالا انه « لا يرى نفسه شريكا للسادات في الرأي بالنسبة لضرورة الحفاظ على وحدة لبنان الاقليمية » (معاريف ، ١٩٧٩/٧/١٣) . ولهذا اعتبر المراقبون السياسيون ان السادات ربما كان « يعني بذلك سوريا اكثر مما يعني اسرائيل » (المصدر نفسه) . ويبدو انه كان قد اعرب خلال محادثاته مع بيغن ، عن « عدم ارتياحه فقط ، من القصف الاسرائيلي لجنوب لبنان » كما يستدل من تعليلات مناحيم بيغن : لماذا « ترى اسرائيل انه من واجبها القيام بعمليات القصف هذه » (عل همشمار ، ١٩٧٩/٧/١٣) . اما بالنسبة لموضوع الحكم الذاتي فقد صرح السادات ان « التقدم في المحادثات غير كاف بعد » الا انه في المحادثات المغلقة بينه وبين مناحيم بيغن كان قد « اعرب عن ارتياحه » كمناحيم بيغن نفسه من « مجرى المحادثات ومن القرار في تشكيل مجموعات عمل » (المصدر نفسه) . ومن الواضح انه « لم يكن ثمة اتفاق كامل بينهما في الموضوع الفلسطيني » الا انهما « اختارا ان لا يكشف عن هذا الاختلاف في الرأي بينهما » (المصدر نفسه) . على اية حال فقد « تكللت محادثات الاسكندرية بالنجاح » كما وضعها مناحيم بيغن ، الذي « يجد صعوبة في اخفاء فرحه بنجاح هذه المحادثات » (معاريف ، ١٩٧٩/٧/١٣) . ومجرد ان السادات يعتقد ، بانه « ليس من طريق للعودة بعد الآن ، بل امامنا طريق واحد فقط – ان نتقدم » يدل ربما على ان محك عملية السلام بين مصر واسرائيل سوف « يكون في المصالح المشتركة للدولتين وتعميق العلاقات بينهما على اساس من التبادلية » (معاريف ، ١٩٧٩/٧/١٢) . رغم المستوطنات والقرى ، بل ورغم الموضوع الفلسطيني برمته . فالزيارة التي قام بها مناحيم بيغن للاسكندرية كانت على حد تعبير السادات نفسه في المؤتمر الصحفي المذكور : « مهمة جدا » ، اما بالنسبة للمباحثات التي اجرياها فقد قال : « كان لنا تبادل آراء جيدة جدا .. انني اتفق مع السيد بيغن على ان مباحثاتنا كانت من اكثر المباحثات اهمية » (عل همشمار ، ١٩٧٩/٧/١٣) . الا أن ايا منهما لم يوضح لماذا كانت هذه المباحثات على هذا المستوى من الاهمية ؟ . اللهم الا ما كان السادات قد تطرق اليه تلميحا حيث اضاف قائلا : « لقد استعرضنا الوضع بمجمله » (هتسوفيه ، ١٩٧٩/٧/١٣) .

واذا اخذنا ما قاله نائب الرئيس المصري ، حسني مبارك ، عندما ودع مناحيم بيغن في مطار الاسكندرية لدى ختام زيارته ، بأن « المباحثات بين مصر واسرائيل تسير في الطريق الصحيح » ثم اضاف : « اننا نأمل باننا سوف نتوصل ، بعد هذه اللقاءات والاتصالات ، الى تقدم آخر » . وان كل شيء يجري وفقا لما جاء في بنود معاهدة السلام » (هتسوفيه ، ١٩٧٩/٧/١٣) . فلو اخذنا ذلك كله ، بالاضافة الى النتيجة العملية الوحيدة التي اعلن عنها في هذه المحادثات ، وهي الاعلان عن زيارة السادات القريبة لمدينة حيفا في نهاية شهر آب » (عل همشمار ، ١٩٧٩/٧/١٣) . والتي

المح اليها بيغن في كلمته التي القاها في احتفالات تسليم العريش في ٢٧/٦/١٩٧٩ ، حيث قال معقبا على الدعوة التي وجهها له السادات لزيارة الاسكندرية بان « الاسكندرية جميلة ، ولكن حيفا جميلة ايضا »(ر.ا ، ٢٧/٧/١٩٧٩ ، ومعاريف ، ٢٧/٧/١٩٧٩) لوجدنا ان هذه الاهمية في مباحثات الثنائي الاسكندراني هي فيما كان قد المح اليه السادات تلميحا حذرا ، بالنسبة لبحث « الوضع بمجمله » . وما يؤكد هذا الاعتقاد هو ما كان الناطق الرسمي باسم رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ، دان فتير ، قد صرح به للصحفيين من ان احد المواضيع المهمة التي طرحت في المباحثات « يتعلق بجولة افق منطقية » (هتسوفيه وعل همشمار ، ١٣/٧/١٩٧٩) . اي بـ « الابعاد الاستراتيجية والاقتصادية للتحركات الاخيرة في تكتل القوى في منطقة الشرق الاوسط » (المصدر نفسه) . بما في ذلك « مشكلة النفط والمسائل الامنية » ، كما افاد مراسل ، يو.ن ، في القاهرة . والتي « تناولت شؤون السعودية وايران وليبيا » (المصدر نفسه) . وهذا ما يعززه ايضا ما كان قد صرح به مناحيم بيغن لدى عودته من زيارته للاسكندرية من ان « السلام مع مصر قد انتقل الى مرحلة الصداقة والتفاهم » (عل همشمار ، ١٣/٧/١٩٧٩) .

واذا كنا نعلم ان الخطط الاستراتيجية للسادات وطاقم مساعديه الدائمين ، « تهدف الى تقسيم سياسي مجدد لمنطقة الشرق الاوسط » والذي يجب ان « يرتكز على مصر وليبيا والسودان والسعودية » (معاريف ، ١٣/٧/١٩٧٩) . فقد نستطيع ربما استنباط كنه « الحوار الاستراتيجي » الذي اجراه مناحيم بيغن مع السادات في محادثاته المنفردة الطويلة ، فيما « يتعلق بالتطورات المتوقعة في المنطقة ، وامكانيات التعاون بهذا الخصوص بين اسرائيل ومصر » (المصدر نفسه) والتي قد تكون محادثات الحكم الذاتي التي تنفرد فيها مصر واسرائيل تحت اشراف الاخ الاميركي الاكبر ، احد بنود هذا « الحوار الاستراتيجي » ، الذي يصب في النهاية في هذه المخططات الساداتية الآيلة الى مخططات ساداتية ــ بيغينية . وهذا ما يفسر الاحتمال في ان « تسير اسرائيل على الطريق الصحيحة في المراحل المقبلة وتوجه الدفة الى ما يطمح اليه المصريون في المستقبل القريب » ، اي الى « خلق نوع من الحلف غير المكتوب مع اسرائيل » ، على الاقل « في مواضيع معينة في الوقت الحاضر ضد العناصر المتآمرة والمعادية في المنطقة » (المصدر نفسه) . وربما يفسر هذا ايضا الزيارة التي قام بها ضابط « الموساد » السابق ، روبرت داسا ، للاسكندرية ، « كسائح اسرائيلي حر » بعد ٢٥ عاما من الحكم عليه بالسجن مدى الحياة في مصر ، عندما « القي » القبض عليه ضمن الشبكة التخريبية التابعة للمخابرات الاسرائيلية » ، هذه الزيارة التي « ترمز هي الاخرى الى التغيير الكبير الذي طرأ على العلاقات بين اسرائيل ومصر » (المصدر نفسه) . والتي قد يكون لزيارات رئيس « الموساد » السابق مئير عميت لمصر » والشائعات الرائجة حول تعيينه السفير الاول لاسرائيل في القاهرة ، علاقة وثيقة بدفع هذا التطور نحو الحلف المنشود . اما بوادر هذا الحلف فقد برزت في التصريحات التي اكدت اكثر من مرة ان « ثمة مصلحة مشتركة بين مصر واسرائيل » في ان « تنسقا فيما بينهما وتحاربا ضد الارهاب الفلسطيني » » (معاريف ، ١٣/٧/١٩٧٩) . كما وان ثمة تلميحات وبوادر الى ان محادثات رأس التين الاخيرة بين السادات وبيغن ، قد « تؤدي الى تفاهم مشابه بالنسبة لاخطار اخرى ايضا كتدخل سوريا في لبنان » (المصدر نفسه) . وهذا معناه ان اسرائيل ومصر سوف « تكفان من اعتبار الواحدة منهما عدوة للاخرى » ، وربما « انقلبتا الى حليفتين خلف الكواليس » (المصدر نفسه) .

العلاقات العسكرية

ولهذا بالذات قد نرى ان العلاقات العسكرية تبدو وكأنها الوحيدة المتفق عليها اكثر من غيرها ، والتي يسعى الطرفان الاسرائيلي والمصري الى تعميقها وتوثيقها ، والتقدم بها نحو ما تتسم بها اية علاقات عسكرية بين بلدين صديقين ، من خلال التنسيق المتكامل بين المصريين والاسرائيليين في اللجنة العسكرية المشتركة المكلفة « بتطبيع » هذه العلاقات من كلا الجانبين . فالبرنامج الزمني قد نفذ بحذافيره دون اية عقبات او تصريحات تعكر « مزاج » الطرفين ، وجيش الاحتلال الاسرائيلي «اعاد لمصر في المرحلة الاولى من الانسحاب حوالي ٣٠٠٠ كم٢ ، بما في ذلك بحيرة البردويل وبستان الخضار الذي ادى الى بعض «التوتر » (هآرتس ،

٢٧/٥/١٩٧٩) . بل وقام الجيش المصري بتقديم بادرة حسن نية تجاه جيش الاحتلال الصديق بـ « ابقائه مصبغة شيئوت سيناي في المنطقة الفاصلة بين الخطين ، ودون ان تكون حتى تحت اشراف قوات الطوارىء الدولية » (المصدر نفسه) . بعد ان كانت وفقا لبرنامج الانسحاب داخلة في المنطقة التي سيسيطر عليها الجيش المصري .

وكانت اسرائيل قد اقترحت في المحادثات العسكرية التي اجراها وزير « الدفاع » الاسرائيلي عيزر وايزمان في القاهرة ، « ادخال بعض التعديلات على خط الحدود الجديد في المنطقة : من اجل ضم المصبغة في السنوات الثلاث المقبلة للمنطقة الاسرائيلية » ، وكبديل لهذا الاقتراح الذي رفضه المصريون ، طلب الاسرائيليون ان « تبقى المصبغة في المنطقة العازلة » ، الا ان المصريين « رفضوا هذا الطلب ايضا » وهكذا اتفق الطرفان في حينه على ان « تبقى المصبغة في المنطقة المصرية » بينما يستطيع العاملون فيها المرور» بعد ابراز بطاقة خاصة دونما تفتيش او تأخير » (هآرتس ، ومعاريف ، ودافار ، ٢٧/٥/١٩٧٩) ، الا ان المصريين في اللجنة العسكرية المشتركة اقترحوا في الجلسة الاخيرة فجأة ان « يعودوا للاقتراح الاسرائيلي الاول بأن تكون المصبغة في المنطقة العازلة » (المصدر نفسه).

كما وقام جيش الاحتلال الاسرائيلي بتسليم مدينة العريش الى الجيش المصري قبل ايام من اخلاء المدينة نهائيا ، ودون اية اشكالات او عقبات ، دون حضور اي من وزيري دفاع البلدين ، او رئيسي اركانهما ، وانما « تم التسليم بحضور العميد ، دان شومرون ، قائد المنطقة الجنوبية عن الجانب الاسرائيلي ، والعميد عبد الحميد حمدي ، مساعد وزير الدفاع المصري عن الجانب المصري » (المصدر نفسه). وقد عقب وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر وايزمان على هذا التطور في العلاقات العسكرية بين البلدين ، في مقابلة صحفية له قائلا : « في الايام التي سبقت اخلاء العريش حدث ثمة تجديد صغير ، ربما لم يسترع انتباه احد : لقد تم تسليم هذه المدينة بمطارها وما فيها ، بين اسرائيليين ومصريين ، بين عميد وعميد ، وبين عقيد وعقيد ، وبدون اي عنصر ومقدم ، او وسيط » (معاريف ، ٣١/٥/١٩٧٩) . واضاف وايزمان : « لم تكن ثمة حاجة لوقف اطلاق نار ، او لفصل قوات واتفاقات مؤقتة . اننا نقف اليوم في العريش حاجزا مقابل حاجز . مصريون واسرائيليون ، وهذا بحد ذاته شيء حسن » (المصدر نفسه) .

اما ما يدل على مدى ما وصلت اليه العلاقات العسكرية بين الجيش المصري والجيش الاسرائيلي الذي لا يزال يحتل الجزء الاكبر من سيناء فهو « مرور السفن الحربية الاسرائيلية الثلاث ، اخزيف واشكلون واشدور ، في قناة السويس » (وا ا ، ٣٠/٥/١٩٧٩ . وهآرتس ، ٣١/٥/١٩٧٩) في اليوم الثاني من تسليم العريش ، وتأدية التحية العسكرية للرئيس السادات الذي وقف في شرفة بيته في الاسماعيلية«ببزته البيضاء(بزة القائد الاعلى لقوات البحرية المصرية) مؤديا التحية العسكرية بدوره للسفن الحربية الاسرائيلية » (المصدر نفسه) الامر الذي لا يحدث الا بين الدول التي تربطها اكثر من مجرد علاقات سلمية او حسن جوار ، وليس كما هو الحال بالنسبة لدولتين لا تزال قوات احداهما تحتل جزءا من ارض الاخرى ، ولا تزالان تبحثان كيفية تنظيم العلاقات السياحية بينهما . وان دل ذلك على شيء ، فانما يدل بالفعل على ما تسعى اليه قيادة الدولتين الاسرائيلية والمصرية من انشاء حلف عسكري في المستقبل القريب ، وهو النتيجة الطبيعية والحتمية « للحلف الاستراتيجي » الذي لا بد وان يكون قد بحث في محادثات الاسكندرية بين السادات وبيغن « الاستراتيجية للوضع بمجمله » (معاريف ، ١٣/٧/١٩٧٩) . الامر الذي دعا وزير « الدفاع » الاسرائيلي عيزر وايزمان لان يعقب على ذلك بقوله : « واذا كانت تمر اليوم ٣ سفن حربية تابعة لسلاح البحرية الاسرائيلية في قناة السويس ، وفي مصر يتحمسون لها اكثر مما في اسرائيل : فهذا يعني اننا لا ندرك عظمة الساعة » . ثم اضاف وهو لا يستطيع اخفاء فرحته : « امل ان يقف منا من يقول : ها نحن قد وصلنا الى تطبيع العلاقات » (معاريف ، ٣١/٥/١٩٧٩) . وكان عيزر وايزمان يعني بذلك « الاستقبال الحار الذي اعده المصريون لطواقم السفن الحربية الاسرائيلية ، وما استقبلت به من تصفيق وباقات ورود من قبل ضباط وجنود مصريين على شرف طواقم السفن عند وصولها الى ميناء السويس » (هآرتس ، ١٠/٥/١٩٧٩) . هذا في الوقت الذي كان فيه الفريق كمال حسين علي

وزير الدفاع المصري « يولي اهتماما خاصا بتطور الصناعة الحربيــة الاسرائيليــة » (معاريــف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . بعد ان « سمع » على حد قوله : بان اسرائيل قد « استطاعت وبنجاح كبير تحويل المدافع في الدبابات الروسية التي غنمتها في حرب يوم الغفران» (المصدر نفسه) . وقد قال الفريق علي في هذه المناسبة : « اننا مستعدون لشراء هذا المدفع من اسرائيل شريطة ان تساعدنا على تصنيع ذخيرته » (المصدر نفسه) . ومجرد هذا القول يدل على اتجاه التفكير في قمة الجيش المصري نحو توحيد السلاح في المستقبل .

اما على صعيد الخطوات المقبلة لتنفيذ بنــود المعاهدة فيما يختص الجانب العسكري ، فقــد « جددت اللجنة العسكرية الاسرائيلية ــ المصرية المشتركة مفاوضاتها في بئر السبع في ١٩٧٩/٦/١٩ (راا ، ١٩٧٩/٦/١٩) . وكان اعضاء اللجنة المصرية والتي تضم ١٨ عضوا ، برئاسة العميد صفي الدين ، قد « وصلوا على متن طائرة تابعة لسلاح الجو الاسرائيلي » (المصدر نفسه) مما جعل العميد ثاني دوف تسيون رئيس اللجنة العسكرية الاسرائيلية ، يعقب على ذلك بانهم« دشنوا الخــط الجوي بين القاهرة وبئر السبع ، بعد اول طلعة للرئيس السادات ورئيس الحكومة بيغن » . واضــاف دوف تسيون ، ان « لقاءات اللجنــة العسكريــة المشتركة تحولت الى عادة دائمة » معلنا : « لقد انهينا المرحلة الاولى من الملحق (أ) لاتفاقية السلام ، وقد اعدنا المنطقة الاولى » (راا ، ١٩٧٩/٦/١٩) . وعن سير تطبيق هذه المرحلة الاولى . قال دوف تسيون : « لقد كانت عملية معقدة لانها الاولى ، وكانت تشمل على مواضيع متعــددة ومختلفــة ، سياسية وعسكرية ومدنية . كان علينا ان نحدد سياسة وادارة الموضوع ، وقد كان هناك عدة نقاط غير واضحة مثل : ما اذا كانت قوات الطوارىء الدولية سوف تشترك في تحديد الخطوط وتسليم المناطق ، ثم نقل وتسليم انظمة الحكم ، او نقل وتسليم المنشآت العسكرية بما في ذلك المطارات .. كل هذا في اقل من شهر ، وهو امر معقول ومقبول » (المصدر نفسه) . اما رئيس اللجنة العسكرية المصرية صفي الديــن فقــد قال ان « اللجنتــين ستنقسمان الى عدة لجان فرعية ، لبحث المشاكل والقضايا العالقة والمطروحة » ذاكرا انه من بين هذه المواضيع « انسحاب قوات الجيش الاسرائيلي من المنطقة (ب) » (المصدر نفسه) .

وعلى الرغم من كل ما تبدو عليه هذه العلاقات العسكرية من تقدم سريع بين الدولتين ، الا ان ثمة مخاوف لا تزال تساور قادة الجيش الاسرائيلي ، مما يخبئه المستقبل بالنسبة لهذه العلاقات من « مفاجــآت وتحــولات سلبيــة » (معاريــف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . كما جاء على لسان وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر وايزمان نفسه : والذي صرح في مقابلة صحفية اجرتها معه صحيفة « معاريف » الاسرائيليــة في يوم ١٩٧٩/٥/٣١ ، قائـــلا : « ... ارى لزاما علي ان اؤكد على انني مع كل امالي وطموحاتي ، والى حد كبير ثقتي ، ان عملية السلام سوف تتقدم ، واننا نقف على اعقاب عهد جديد ، بكل ايجابياته وسلبياته ، الا انه يتوجب علينا ان نكون جاهزين ايضا للتحول وبدون تفصيل للاحتمالات » (معاريــف ، ١٩٧٩/٥/٢١) . واضــاف عيزر وايزمان، بان ليس لديه من شك في ان « جيش الدفاع الاسرائيلي سيكون على اهبة الاستعــداد في خط العريش ــ راس محمد (خط الانسحاب في المرحلة الاولى) ، وما احراه ان يكون كذلك في خطوط الحدود الدولية الجديدة » (المصدر نفسه) . كما واستطرد وايزمان مطمئنا : « ... ما دمنا غير واثقــين من حياتنا المشتركة ، فسوف تكون ثمة قوة ضخمة من جيش الدفاع الاسرائيلي وبكل قطاعاته في حالة استنفار دائم ــ خشية ان يكون ثمة خروج على معاهدة السلام . ولكني ثقة وامل بان وزراء الدفاع وقادة الاركان في المستقبل ، سيعرفون كيف يتخذون الاجراءات العسكرية الضرورية على ضوء التطورات السلبية . وهذا بالطبع يتعلق بالقرار السياسي ، كما كان عليه الحال قبل حرب عام ١٩٦٧ ، عندما اغلق ناصر مضائق تيران ، والقرارات التي كانت قبل ذلك نفذت بحذافيها » (المصدر نفسه) . الا ان عيزر وايزمان لم يشرح ما اذا كانت هذه التحولات التي ستطرأ هي عسكرية ام سياسية ؟ ولماذا كان يلمح في حديثه الى احتمال اغلاق قناة السويس في وجه الملاحة الاسرائيلية في المستقبل اذا ما اضطرت مصر لذلك تحت ظروف سياسية سواء كانت عربية ام داخلية ، كما يستشف من ذكره لقرار الــرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، باغلاق مضائق تيران . ومهما يكن الامر ، الا ان ثمة رائحة تهديد ما ، تفوح

من هذه التصريحات التي مهدت لتصريحه ـ التهديد ابان مؤتمر حيروت الاخير ، والذي قال فيه بأن « جيش الدفاع الاسرائيلي سيحتل سيناء مرة رابعة في حالة انهيار السلام » (معاريف ، ١٩٧٩/٦/١٢) . ولا ندري ما اذا كانت هذه التهديدات الوقائية التي اطلقها عيزر وايزمان موجهة لبعض معين في قمة الحكم السياسية في مصر ، ام لبعض آخر في القمة العسكرية ، ممن يعارضون معاهدة السلام الاسرائيلية المصرية المنفردة ، ونهج السادات السياسي ، وهذا هو الارجح ، نظرا لما قد تردد في المدة الاخيرة في كثير من تعليقات المراقبين ، بل وفي احد التصريحات التي ادلى بها عراب معاهدة السلام الاول ، هنري كيسنجر ، من ان ثمة حالة من التذمر تسود شريحة لا بأس بها من الجيش المصري من معاهدة السلام الاسرائيلية المصرية المنفردة ، بل ربما يكون عيزر وايزمان قد ارتأى اطلاق مثل هذه التصريحات التهديدات ، بناء على قراراته المباشرة لما يدور داخل الجيش المصري ، لا سيما وانه قد اصبح من « اهل البيت » المقربين جدا لدى الرئيس المصري ، ومن اجدر منه في الحفاظ على هذا البيت وسلامة ربه . لا سيما وانها جاءت على حين غرة ، ودون اي موجب او معرض رد على تصريحات معينة من الجانب المصري ، من يدري ، فربما كانت هذه التصريحات ـ التهديدات موجهة للاستهلاك المحلي ، ولاغراض اسرائيلية داخلية ، لمواجهة ما تمر به اسرائيل من ازمة اقتصادية حادة ، قد تعصف بحكومة بيغن وما تقوله هذه الحكومة على المعاهدة السلمية المنفردة مع مصر من رخاء اقتصادي ، يتدفق على الاسرائيليين منا وسلوى من سيناء ، عبر الحدود المفتوحة مع مصر .

العلاقات الاقتصادية

فالحدود المفتوحة التى اعلن عنها مع مصر ، سوف « تفتح الطريق الجديد الذي تكلم عنه السادات عدة مرات ، وهو ما يشبه مشروع مارشال ، اميركي للترميم الاقتصادي في الشرق الاوسط » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٨) . واذا كانت اسرائيل قد سعت في الاتفاقات السابقة المؤقتة مع مصر ، المتعلقة منها بفصل القوات عام ١٩٧٥ ، لتأمين التواجد العسكري الاميركي بينهما ، سواء بمحطات الانذار المبكر ، ورحلات الاستطلاع الجوية لموق الخطوط الفاصلة بين الجيشين المصري والاسرائيلي ، فالاتفاق الآن بينهما يختلف . انه الآن معاهدة سلام دائمة ، ومن المفروض ان « يحل التواجد الاقتصادي بدلا من التواجد العسكري » وليس « نقطة من المساعدات الاقتصادية كما كان في الماضي (!) » وانما « بزخم هذه المرة من اجل تغيير ثوري في المنطقة » (المصدر نفسه) . ففي التفاهم الاسرائيلي المصري في هذا الشأن « يوجد المفتاح لفتح ابواب الرأي العام الاميركي » الذي سيضطر الى « توظيف كل امكانياته اللازمة لبداية مشروع مارشال ، شرق اوسطي » (المصدر نفسه) . ولهذا يرى الاقتصاديون الاسرائيليون ، انه من المستحسن « بحث هذا الموضوع مع المصريين الآن بدلا من الاستمرار في النقاش حول تفسيرات كمب ديفيد » (المصدر نفسه) .

ونظرا لذلك ، فان مجموعة من « الرجال المركزيين في الاقتصاد الاسرائيلي ، سوف ينضمون الى مجموعة من الشخصيات اليهودية المعروفة التي ستقابل الرئيس السادات في القاهرة وبعض رجال الاقتصاد المصريين » (دافار ، ١٩٧٩/٧/١١) . وسوف يكون رجال الاقتصاد الاسرائيليين هؤلاء في عداد « مجموعة مصغرة من اعضاء المجلس الاقتصادي المنبثق عن الكونغرس اليهودي العالمي » ، الذي سيقوم بـ « زيارة عمل لمصر في بداية شهر ايلول من هذا العام » (المصدر نفسه) . ومن بين الشخصيات الاسرائيلية في هذه المجموعة ، « رئيس مجلس المدراء العامين لبنك العمال الاسرائيلي ، يعقوب ليفنسون ، ومدير عام الشركة للتوظيفات التابعة لبنك ديسكونت ، دان تولكوفسكي ، ومدير عام شركة كور ، نفتالي بلومنتال » (المصدر نفسه) . اما من بين الشخصيات اليهودية المعروفة بنشاطها الاقتصادي ، والاعضاء في هذا المجلس فسينضم « البارون جي.دي. روتشلد ، من فرنسا ، واللورد واينفيلد من بريطانيا ، وسام برونفمان من كندا ، وآخرون غيرهم » (المصدر نفسه) . وقد « قام رئيس الكونغرس اليهودي العالمي ، فيليب كلوتسينك ، بزيارة مصر منذ مدة قصيرة ، وانهى تفاصيل هذه الزيارة مع شخصيات مصرية رفيعة المستوى » ، اذ ان الهدف من هذه الزيارة لمصر هو « دراسة الوسائل اللازمة للتعاون الاقتصادي المشترك ، والاطلاع عن قرب على احتياجات

الاقتصاد المصري في السنوات المقبلة » (المصدر نفسه) .

وعلى الصعيد نفسه فقد بدأت شركة كور نشاطهـا في مصر حيث « اقامت الشركة الفرعية المنبثقة عنها ، كور للتجارة ، فرعا لها في القاهرة ، بالاشتراك مع شركة تجارية مصرية ، التي ستقيم هي الاخرى فرعا لها في اسرائيل » (هتسوفيه ، ١١/٧/١٩٧٩) . وكان مندوبو شركة كور للتجارة ، قد « قاموا في اوائل شهر حزيران الماضي ، وبدعوة من شركات تجارية مصرية بزيارة مصر ومكثوا فيها سبعة ايام » (المصدر نفسه) . ولقد كانت الاتصالات التي اجراها مندوبو هذه الشركة على « مستوى حكومي ، ومع شركات حكومية واوساط تسويقية وتجارية خاصة ، مغطين بذلك بذلك مواضيع زراعية وصناعية وتجارية » حيث تم التوقيع في نهاية هذه الاتصالات على « مذكرة بين الطرفين للتعاون بينهما ، وعلى مبدأ النشاط المتبادل في الاتجاهين » (المصدر نفسه) ، عاد على اثرها مندوبو الشركة الاسرائيلية بـ « سلة من الطلبات لعرض الاسعار ، ومعطيات لاعداد مشاريع ومعلومات عن وكالات تجارية محلية في مجالات مختلفة » ومن بين هذه المجالات « انشاء مزرعة وامدادها بوسائل الانتاج ، والمبيدات والاسمدة والمعدات لحظائر الدواجن ، وشبكة ري .. الخ » (المصدر نفسه) . وكان المصريون قد « اظهروا اطلاعا واسعا على قدرات اسرائيل وانجازاتها الزراعية » ، واعربوا عن املهم دون تحفظ في ان « تكون ثمة اوساط اسرائيلية مستعدة لمنح مصر من خبرتها تجاربها في هذا المجال » (المصدر نفسه) . كما وشكلت صناعة الاغذية بكل متنوعاتها المختلفة ، والصناعة المرافقة لها ، كالتغليف والتعليب هي الاخرى « موضوعا مهما في محادثات التعاون المشترك » اما المواضيع الاخرى التي يرى فيها الجانبان المصري والاسرائيلي مكانا للتعاون ، هي « مواد البناء ، والتجهيزات الطبية وقطع الغيار المختلفة » (المصدر نفسه) . وكاستمرار طبيعي في مجال تحسين الزراعة مما جرى الاتفاق بشأنه بين الطرفين ، تندرج « مصانع في مجال تصنيع المواد الغذائية : تصفية الزيت والمعلبات والتغليف واجهزة التسويق والخ » ، كما واظهر المصريون « اهتماما كبيرا في مجال الطاقة المازوتية » واعربوا عن رغبتهم في « اقامة مصنع مشترك » ، كما وهناك « طلبات كبيرة في مجال المعدات الالكترونية والمعدات المختبرية » (المصدر نفسه) .

اما بالنسبة لمحادثات النفط بين اسرائيل ومصر ، ولكل ما يتعلق بتسليم حقل النفط في الطور ، وهو ما يسميه الاسرائيليون بـ « علما » ــ في خليج السويس لمصر في شهر تشرين الثاني من هذا العام ، وفقا لاتفاقات كمب ديفيد ، وموضوع التوظيفات ، وبيع المعدات لمصر ، كما تعهد الرئيس السادات ، فقد « وصلت هذه المحادثات الى طريق مسدود » (دافار ، ١١/٧/١٩٧٩) . وكانت هذه المفاوضات التي « دارت في اللقا الرابع بين الوفدين المصري والاسرائيلي في حقل النفط المصري « ابو رديس » في ١٩٧٩/٧/٩ » (المصدر نفسه) . وكان الطرفان قد توصلا في اللقاءات الثلاثة السابقة ، التي بحثت فيها الامور التقنية المتعلقة بصيانة الحقل وتطويره الى « تفاهم كامل بكل ما يتعلق بالحاجة للحفاظ على الحقل » ، وكذلك بالنسبة « للحاجة في تطويره » . ولكن عندما عبرت المفاوضات الى الامور الجوهرية اكثر بالنسبة « للتعاون بكل ما يتعلق باعمال الحقل قبل اعادته الى مصر » فقد « وصلت المحادثات الى طريق مسدود » (المصدر نفسه) . والموضوع الاخر الذي طرحته اسرائيل في هذه المفاوضات كان « موضوع بيع المعدات التي اشترتها اسرائيل لتطوير حقل (علما) وضخ النفط فيه » ، وتقدر اسرائيل هذه التوظيفات في المعدات بـ « ٢٥ ــ ٤٠ مليون دولار على الاقل » . وفي هذا الموضوع ايضا « لم يعط المصريون جوابا ايجابيا » ، كما لم « يتلق الطرفان بعد على موضوع تزويد اسرائيل بالنفط بعد تسليم حقل (علما) للمصريين » (المصدر نفسه) . وكانت مصر قد وافقت على تزويد اسرائيل بالنفط بكمية توازي الكمية التي كانت تنتجها من حقل (علما) » ، اذا لم يكن اكثر من ذلك ، كما وتطالب اسرائيل بـ « تعويض مالي على التوظيفات الاسرائيلية في تطوير الحقل » (المصدر نفسه) .

وفي مجال السياحة دشنت السفينة السياحية الاسرائيلية ، جبرييلا ، التي « عادت من رحلتها الاولى من مصر الى اسرائيل وعلى متنها ١٥ سائحا اسرائيليا في ١٢/٦/١٩٧٩ » خط السياحة بين

البلدين (هآرتس ، ١٣/٦/١٩٧٩ ، ومعاريف ، ١٥/٦/١٩٧٩) . وقد نظمت هذه الرحلة بين مصر واسرائيل شركة « و.ي.ف » التي افاد مديرها يئير كرمون بان الرحلات « سوف تنظم منذ الآن مرتين في الاسبوع » وان ثمة « اتصالات قد جرت في هذا الشأن ، اولا ، فتح خط سياحي مقابل ينقل سياحا من مصر الى اسرائيل ، وثانيا : استئجار ٣ سفن سياحية اضافية تستخدمها الشركة في هذا الخط » (المصدر نفسه) . واضاف كرمون ان وزارة الخارجية الاسرائيلية كانت قد « احاطته علما بأن الحكومة سوف تنشر اليوم ــ ١٢/٦/١٩٧٩ التعليمات اللازمة للحصول على تأشيرات دخول مصرية للمواطنين الاسرائيليين » وانه باستطاعة اي من اصحاب الجوازات الاسرائيلية « الحصول على تأشيرة دخول لمصر من اية قنصلية مصرية في الخارج » (المصدر نفسه) . وقد « صادقت السلطات المصرية بالفعل على تأشيرات دخول لـ ٢٥ اسرائيليا » (دافار ، ١/٧/١٩٧٩) . ومن بين اولئك الذين صادقت مصر على طلباتهم « مدراء وكالات سفريات ، وموظفون كبار في اتحادات السفريات في اسرائيل » كما ويوجد الآن « حوالى ٢٠٠ طلب » كانت قد قدمت بواسطة اتحاد وكالات السفريات في اسرائيل ، وعشرات اخرى من الطلبات قدمت لوزارة الخارجية مباشرة في « انتظار التصديق عليها »[٣] (المصدر نفسه) . وسوف تتم هذه الرحلات بواسطة « شركات طيران اجنبية عن طريق مطار اجنبي ، اثينا عادة » ، لانه « لايوجد حتى الان اية شركة اجنبية مستعدة لنقل السياح الاسرائيليين في خط مباشر بين اسرائيل ومصر » (المصدر نفسه) .

الا ان رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن اعرب عن رأيه لدى عودته من زيارته الاخيرة للاسكندرية في ١٢/٧/١٩٧٩ بان « المئات من الاسرائيليين سيزورون مصر ، والمئات من المصريين سيزورون اسرائيل قريبا جدا » (هتسوفيه ومعاريف وهآرتس ، ١٣/٠/١٩٧٩) . وذلك بناء على حديثه مع الرئيس المصري في موضوع الحدود المفتوحة و « تنشيط الحركة السياحية والزيارات المتبادلة بين البلدين » . واكثر من ذلك ، فقد صرح مناحيم بيغن بانه قد توصل مع السادات الى « اتفاق لاستئناف العمل على الخط الحديدي القديم بين القاهرة واللد » ، وذكر في هذا الخصوص ان « ثمة اقتراحات للصناعي الاسرائيلي يوسف شيدلومنسكي ولشركة كناديان فينزيتشا لتنفيذ عملية تجديد الخط » . ثم اضاف مؤكدا : « وخلال وقت قصير ، سوف ندعو هذين المبادرين لاستشارات اولية ، وبذلك يكون خطوة مهمة لبناء السلام ايضا ، واستطرد بيغن موضحا : « ففي القطار يستطيع الناس السفر بين مصر واسرائيل ، ويمكن شحن البضائع به بين الدولتين » (المصدر نفسه) .

العلاقات الثقافية

ويبدو ان مناحم بيغن وبعقليته الاستعمارية الاستيطانية الاوروبية ، يعول الكثير على « تجديد » تشغيل الخط الحديدي ، او بالاحرى ربط فلسطين المحتلة بشبكة خطوط حديدية مع مصر ، لاستكمال دائرة الغزو السلمي هذه المرة (لمصر) بشحن « الثقافة » الاسرائيلية و « العقل » اليهودي ، نقطتي الضعف الساداتيتين ، وتصديرهما مع السياحة والبضائع الاسرائيلية ، « للمستعمرة الحليفة » وشعبها المصري .

ولكن اذا كانت العلاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية تتقدم بشكل او بآخر ، رغم كل ما يكتنفها من العراقيل والصعوبات التي من شأنها ان تنشأ بين اي دولتين ، حتى وان كانتا لا تنتقلان من حالة الحرب الى حالة السلام : الا ان محاولة الطرفين اسرائيل والنظام المصري خلق علاقات ثقافية بينهما والسير بها نحو علاقات طبيعية كما يريد الاسرائيليون ويسعون اليه بكل جهدهم ، بشكل يكاد يتخذ شكل الغزو الثقافي الناجم عن عقدة « الشعب المتحضر » في هذه المنطقة ، تصطدم باكثر العقبات في مسيرة « تطبيع » العلاقات صعوبة واستعصاء ، لكونها غير خاضعة بطبيعتها لقرارات السادات وبيغن او الوزارات المعنية ، الى حد كبير ، كما هو عليه الحال بالنسبة للعلاقات الاخرى ، ولما في ذلك من استحالة لسلخ الشعب المصري عن تراثه ومناخه الحضاري العربي ، لطبيعة تركيبته العضوية المتفاعلة المتحررة من القرارات والاجراءات الرسمية والسلطوية ، رغم وجود بعض الدعاة الى ذلك ، من الشريحة المثقفة المصرية بزعامة الكاتب توفيق الحكيم .

ولان الاسرائيليين يعون هذه الحقيقة جيدا ، فقد « اقامت وزارة الخارجية الاسرائيلية لجنة منبثقة عنها لمعالجة العلاقات مع مصر » ومن بين الامور التي خصت بها هذه اللجنة « تبادل الثقافة والعلم بين اسرائيل ومصر » (ر.ا ، ١٩٧٩/٤/٢٧) . بل وارسلت اسرائيل « وفدا من اساتذة الجامعات الذين شاركوا في ندوة نظمها معهد الدراسات الاستراتيجية التابع لصحيفة الاهرام » (ر.ا ، ١٩٧٩/٥/٢٢) ، وقد بحث هذا الوفد مع المصريين « امكانيات التعاون في المجالات الاكاديمية » ، كما « التقى الوفد بجهات رسمية وببعض كبار الموظفين في مصر » (المصدر نفسه) . الا ان الانطباع الذي عاد به اعضاء الوفد الذي ضم البروفسور شمعون شمير ، والبروفسور جبرئيل كوهين من جامعة تل ابيب ، والبروفسور جبرئيل فاربورغ من جامعة حيفا ، هو ان المصريين « يعانون من ضائقة شديدة وكآبة » وانهم « يعانون من الضغط » على حد تعبير البروفسور فاربورغ الذي اضاف : « نظرا لان لقاءنا كان في اساسه مع ممثلين غير رسميين ، رغم ان بعضهم على الاقل له موقع رسمي ، فانني اؤكد صحة هذا الانطباع » (المصدر نفسه) . واستطرد شارحا : « اي ان هناك ضيقا صريحا في اوساط المثقفين ، اعتقد انه ضيق شديد بشكل خاص ... وتقديري هو ، بالذات استنادا على التجول في القاهرة نفسها ، انه من المحتمل ان يصل هذا الضيق بمرور الزمن ، الى شرائح اوسع ، ولا شك لدي انه ضيق موضوعي يتعلق بمباشرة بالاتفاق » . ثم اضاف ان « ثمة مستوى آخر من الضيق ، مرتبط بالاتفاق نفسه » (المصدر نفسه) .

كما واكد هذا الانطباع وزير الخارجية المصرية بالوكالة بطرس غالي نفسه ، وهو الاستاذ الجامعي السابق ، والمطلع جيدا على المناخ الثقافي في مصر ، حين صرح لبعض الشخصيات الغربية التي قابلته ، ردا على سؤال حول تحفظه على « تعجيل عملية التطبيع » اذ قال : « عندما تحسس الحكم في مصر لدى الكثير من المثقفين الكبار مدى استعدادهم لزيارة اسرائيل والمشاركة في مشاريع بحث مشترك مع مثقفين اسرائيليين وجه الحكم بتحفظاتهم الشديدة » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . اذ ليس هذا سرا بانه في « النخبة المثقفة المصرية ثمة تحفظ ، بل وعداء بعض الاحيان لمبادرة السلام التي عزلت هؤلاء المثقفين عن المجال الحضاري لهم » (دافار ، ١٩٧٩/٧/١٣) . صحيح انهم « يشكلون القلة ولا يقررون شيئا» ، الا ان « تاثيرهم المتراكم سوف يمتع اي زعيم مصري آخر ، اقل تاسيسا وصلاحية من السادات ، من ان يستمر في سياسة السلام ، ما دام في الواقع سلاما منفردا » (المصدر نفسه) .

على اية حال ، فان اسرائيل والنظام المصري مصممان على « تطبيع » المثقفين المصريين على « تطبيع العلاقات » مع الشريحة المثقفة الاسرائيلية ، ولهذا فقد ابلغ السادات يغئال يادين بانه « اعطى تعليماته لتسهيل دخول الوفود ، وخاصة الاكاديمية منها الى مصر » (دافار ، ١٩٧٩/٧/٢٢) . وكان نائب رئيس الحكومة الاسرائيلية ، قد قام بزيارة اثرية لمصر ،بدعوة من الرئيس السادات ، برفقة عدد من علماء الآثار الآخرين منهم يوسف ابيرام مدير معهد الاثار في الجامعة العبرية والمستشرق موشي عوز ، دامت ستة ايام ، وقد « تجول يغئال يادين كعالم آثار في آثار مصر القديمة » ، وفي اللقاء الذي « تم بين يادين وبين رؤساء قسم الاثار في جامعة القاهرة والذي شارك فيه سكرتير الشركة لبحث ارض اسرائيل يوسف ابراهم » دار الحديث حول « جولات متبادلة لباحثين مصريين واسرائيليين » وحول « جولة لشركة بحث ارض اسرائيل واثارها في مصر » ، وحول « معرض اثري مصري يعرض في اسرائيل » (المصدر نفسه) . وكان يادين قد « اتفق مع وزير التربية المصري دكتور حسن ابراهيم على ان يجتمع علماء الاثار الاسرائيليين الذين عملوا في سيناء في الـ « ١٢ سنة الاخيرة (سنوات الاحتلال) ، مع علماء آثار مصريين ليطلعوهم على عملياتهم الحفرية » (المصدر نفسه) . كما وسيقوم د. شحادة آدم ، رئيس قسم الاثار المصرية ، الذي « رافق يغئال يادين في جولاته الاثرية بزيارة اسرائيل قريبا » (المصدر نفسه) .

اما في المجال الفني ، فقد توجه مدير المهرجان الفني السنوي الاسرائيلي يعقوب بسترسكي بدعوة الى « الملحن المصري عبد الجميل رحيم ، لحضور كونسرت الفرقة الفلهار مونية الاسرائيلية لدى عزفها مقطوعاته الموسيقية لاول مرة في بداية شهر تموز في اطار المهرجان الاسرائيلي » (معاريف ، ١٩٧٩/٧/١٢) . ليشكل ذلك « العلاقة الثقافية

الاولى بين الدولتين بعد التوقيع على معاهدة السلام » (المصدر نفسه) . وكان بسترسكي قد تسلم في ١٩٧٩/٧/١١ كتابا جوابيا وديا من الملحن عبد الجميل رحيم « يستجيب فيه للدعوة » ويعلن فيه انه « سيأتي في بداية شهر يوليو(تموز) الى اسرائيل » (المصدر نفسه) .

وعلى الصعيد الجامعي ، فقد «قبل الطالب كامل عبد الملك » ، من مواليد الاسكندرية « للدراسة في الجامعة العبرية في القدس » (المصدر نفسه) كما « واشترك مندوب المنظمة الدولية للطلاب اليهود في مؤتمر الشباب الذي انعقد في القاهرة » (راا ، ١٩٧٩/٤/١١) . في شهر نيسان (ابريل) الماضي .

وعلى صعيد التعاون الاذاعي في المجال الثقافي ، قام مدير هيئة الاذاعة الاسرائيلية الذي رافق مناحيم بيغن في زيارته الاخيرة للقاهرة بـ « الاتصال مع مديرة التلفزيون المصري «تماضر توفيق ، للبحث في امكانية وضع برامج مشتركة » (دافار ، ١٩٧٩/٧/١٠) . وكان هذا الاقتراح لانشاء هذه البرامج قد «طرحه المعهد لبحث الانسان في كاليفورنيا قبل عام » ، ومنذئذ والاتصالات « تجري بين هيئتي الاذاعة للدولتين لبث حوار يهدف الى تقريب الشعبين وحل المشاكل ، كنوع من العلاج التلفزيوني الجماعي » (المصدر نفسه) .

توفيق فياض

قضايا دولية

قمة فيينا والدور الأوروبي

على الرغم من أن الحديث عن « مبادرة أوروبية غربية » بشأن الشرق الأوسط لم يبدأ فجأة على اثر قمة فيينا الثلاثية، التي ضمت الأخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وبرونو كرايسكي مستشار النمسا وفيلي برانت رئيس منظمة « الدولية الاشتراكية » (٧ — ١٩٧٩/٧/٨) ... فان هذه القمة قد أحدثت انفجارا اعلاميلا مدويا حول « المبادرة الاوروبية » لم يهدأ حتى بعد مرور أكثر من شهر ونصف على قمة فيينا الثلاثية .

وعلى الرغم من أن الحديث عن « حوار فلسطيني — اميركي » أو عن « اعتراف اميركي بمنظمة التحرير الفلسطينية » ليس بأي حال وليد أزمة اندرو يونغ مندوب الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، الذي أجبر على الاستقالة بعد اجتماعه بمراقب منظمة التحرير لدى الأمم المتحدة (١٩٧٩/٨/١٢) ، الا ان هذه « الأزمة » قد أحدثت بدورها انفجارا اعلاميا مدويا ، لا يزال ايضا مستمر الأصداء ، والهزات .

وفيما بين هذين الحدثين الرئيسيين اللذين احاطا بالمسالة الفلسطينية على الصعيد الدولي، تبرز علامات جديدة دالة على الوقع الذي تحتله القضية ، وتحتله الثورة، او تحتله منظمة التحرير الفلسطينية في الوقت الحاضر على خريطة الصراعات الدولية . ودالة ايضا على طبيعة القوى التي تقف مع هذه القضية وتلك التي تعارضها ، وتلك التي لا تزال تمارس التهرب من اتخاذ موقف حاسم تحت ضغوط مختلفة موضوعية أو ذاتية .

وطبيعي ان تتكشف من خلال « علاقات » كل من اوروبا الغربية والولايات المتحدة مع القضية الفلسطينية، مؤشرات عديدة مهمة على المسار الدولي لهذه القضية ، خاصة اذا لاحظنا ان القضية الفلسطينية استطاعت ان تحتل مكانا بين ثوابت السياسات الخارجية للقوى الدولية الأخرى : حركة عدم الانحياز ، ومجموعة الدول الاشتراكية . في حين ان القضية الفلسطينية لا تزال — من خلال نضالها السياسي المرتكز على نضالها المسلح وعلى علاقاتها العربية والدولية الأخرى — تقطع طريقا وعرة الى اعتراف اوروبي واميركي كامل بمركزية وضعها في الشرق الأوسط . وبقدرتها على ممارسة التاثير الايجابي والسلبي بالنسبة للمصالح الدولية في هذه المنطقة .

ويلاحظ ان الحدثين : قمة فيينا الثلاثية ، وأزمة يونغ قد اثارا من حولها ردود فعل متباينة الاتجاهات والظلال من كافة الأطراف المعنية. .كما يلاحظ أن بعض ردود الفعل هذه ربط بين الحدثين، من خلال تفسيرات معقدة عن طبيعة العلاقات

الاميركية ــ الأوروبية وعــن طبيعــة السياســة الاميركية ــ والاوروبية ذاتها . وكذلك عن طبيعة سياسة منظمة التحرير الفلسطينية واتصالاتهــا وحدود حركتها .

ردود الفعل المتباينة هذه انعكست في تساؤلات رئيسية .

☐ هل تقوم اوروبا الغربية بدور حصان طروادة لاميركا ولسياسة « كامب ديفيد » لاقتحام الموقف العربي .. وجره بالتالي الى هذه السياسة نفسها ؟

☐ هل تسعى اوروبا الغربية لكسب العرب على حساب حليفتها الكبرى الولايات المتحدة بسبب الحاجز الى النفط العربي ، ولأسباب اخرى اقل اهمية تتعلق بالمنافسة على الاسواق في المنطقــة العربية ؟

☐ هل تصب نتائج هذه الاتصالات (سواء كما تتبــدى في لقــاء فيينــا الثلاثــي ــ عرفات/كرايسكي/برانــت ، أو لقــاء يونــغ ــ الطرزي) في مجرى سياسة « كامب ديفيد » أو « عملية السلام » الاميركية بشكل عام في الشرق الأوسط .. ام انها هي نتيجة فشل حقيقي لسياسة « كامب ديفيد » وتسليم عالمي ــ اوروبي واميركي اساسا ــ بهذا الفشل وبالحاجة الملحة الى بديل لهذه السياسة ؟ .

☐ هل ثمة دور للقوى التي تؤيد ــ ضمن ثوابت سياساتها الخارجية القضية الفلسطينية ــ ومنظمة التحريــر الفلسطينيــة وشرعيتهـــا وأساليبهـــا النضالية ــ في هذه الاتصالات (خاصة التي بلغت ذروتها السياسية الاعلامية في لقاء فيينا) . بمعنى هل ثمة دور للاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية (أوروبا الشرقية خاصة) ودول عدم الانحيــاز (خاصة الأعضاء في الدوليــة الاشتراكيــة) في المبادرات الجديدة ، وما مغزى هذا الدور ــ أو التأييد على أقل تقدير ــ إن وجد ؟

☐ هل التغير المشاهد في مواقف اوروبا الغربية (سواء في اطار السوق الاوروبية المشتركة ، او في اطار الدولية الاشتراكية) تجاه اسرائيل ، اقترابا نحو مزيد من التفهم للقضية الفلسطينية ولدور منظمة التحرير الفلسطينية ، هو تغير حقيقي أم انه من قبيل المناورة على الفلسطينيين والعرب عموما ؟

☐ هل تختلف ملامح السياسة الاميركية الحالية تجــاه اسرائيــل ــ وبالتــالي تجــاه القضيـــة الفلسطينية ــ اختلافــا حقيقيــا عن السياســة الأميركية التقليدية ؟ ..ومتى ينعكس ذلك عمليا على مواقف الولايات المتحدة ؟

والواقع أن الامر شديد التعقيد حقا بحيث لا يمكن الانتهاء الى اجابات مغلقة (بنعم او بلا) على أي من هذه التساؤلات . لان كلا منها يجد له في تسلسل الاحداث وفي نصــوص البيانــات والتصريحــات الصادرة عن كافة الأطراف ــ رسمية وغير رسمية ــ ما يعزز الطبيعة الشكلية الكامنة في كل من هذه الأسئلة . ولعل هذه طبيعة الحالة الانتقالية التي تمر بها المواقف الأوروبية.مواقف السياسة الامريكية تجاه القضية الفلسطينية ، تحت تأثيرات كثيرة :

☐ صمود الثورة الفلسطينية الاكيد في وجه كل تيارات الضغط العسكري والسيــاسي ضدهــا ، وخاصة في وجه كل محاولات التصفية التي تعرضت لها ، ومحاولات ارغامها على الدخول في الطريق الى « السلام الأميركي » الذي دخل فيه اولا رئيس النظام المصري أنور السادات . وهنا فالصمــود العسكري هو اقوى اشكال هذا الصمود وأهمها تأثيرا في الأطراف الدولية ، مهما بدا اهتمامها بغير ذلك .

☐ الحد الأدنى من المقاومة العربية الذي أبدته الدول العربية ازاء سياسة « كامب ديفيد » ونتيجتها المتمثلة في « معاهدة السلام » بين النظام المصري واسرائيل . وهو الحد الذي وان لم ينسف « كامب ديفيد » و « المعاهدة » كلية .. إلا أنه برهن على خطأ حسابات هذه السياسة التي بنيت على أساس ان حجم مصر ــ العسكري السياسي والسكاني والثقافي .. الخ ــ كفيل بجر أطراف عربية اخرى الى طريق«كامب ديفيد» بصورة او بأخرى . وقد مضت الشهور منذ توقيع اتفاقيات « كامب ديفيد » . ثم منذ توقيع « المعاهدة » دون ان تبدو في الأفق امكانية يعول عليها لانضمام طرف عربي معين مباشرة الى عملية السلام الاميركية .

☐ الفشل الكامل الــذي أصــاب المحــاولات الاميركية والمصرية معا لجذب اطراف فلسطينية ــ حتى ولو كانت من نوع « اي اطراف فلسطينية كانت » ــ الى الفصول التالية لمعاهدة « السلام » بين مصر واسرائيل التي تحمل عنوان « الحــكم الذاتي » ، في الوقت الذي بدأت المواعيد المحددة للجدول الزمني لتطبيق اتفاقات « كامب ديفيد » تضيق مجال المناورة امام الأطراف الثلاثة المشتركة فيها . الولايات المتحدة ــ اسرائيل ــ مصر .

☐ التلويح غير الصريح باستخدام سلاح النفط للضغط عالميا لصالح القضية الفلسطينية . وهو تلويح قابل ولو نظريا ــ للتحول الى تهديد صريح ومباشر ،لاعتبارات قوميــة ولاعتبــارات تتعلــق بأوضاع النظم العربية في مواجهة أحوالها الداخلية والخارجية معا . وتوقيت التهديد بالنفط ــ وان يكن هذا التهديد لم يتخذ طابع الجدية الكاملة ــ بعد ــ جعل له تأثيرا اكبر في تناسبه،مما كان يمكن ان يحدثــه ، لولا ظروف موضوعيــة خارج الارادة العربية، وخارج الارادة الدولية ايضا ــ اولها ظروف الثورة الايرانية ــ التي ادت الى نقص موجع في الطاقــة في الولايات المتحدة بشكل خاص . فضـــلا عن « التهديد » الآخر بالارتفاع المستمر لاسعار النفط ، وهو بدوره قابل لأن يربط بتطورات قضية الشرق الأوسط . ومركزها المسألة الفلسطينية .

على انه كان من الواضح بالنسبة للقاء فيينا

الثلاثي انه على الرغم من اختلاف المواقف ازاء هذه القمة، أن الاهتمام بها كان منصبا على مدى علاقة هذا الحدث بالدور الاميركي اكثر من اي جانب اخر . واما فيما يتعلق بأهمية الحدث فان اي طرف من الأطراف لم يحاول التقليل من اهميته ، وخاصة الطرف الـذي وقـف ضده بكل حدة ـ وحتـى هستيرية ـ وهو الطـرف الاسرائيلي . وانصـب الاهتمام بالدور الاميركي على محاولة تفسير لقاء فيينا في احد اتجاهين : إما تفسيره بانه ثغـرة فلسطينية ـ بمساعدة اوروبية ـ في جدار سياسة « كامب ديفيد » الاميركية : وإما تفسيره بانه ثغرة اميركية ـ بمساعدة اوروبية ـ في جدار المعارضة العربية لسياسة « كامب ديفيد » .

وكان من ابرز الاعتبارات التي حلها التفسير الأول، هو الذهاب الى ان تغييرا جذريا قد طرأ على موقف دول اوروبا الغربية ، وخاصة دول منظمة « الدولية الاشتراكية » تجاه القضية الفلسطينية، ابتعد بها عن التأييد الكامل غير المشروط لاسرائيل وسياساتها . فالدولية الاشتراكية التي اعتبرت في العام ١٩٧٥ « ان الصهيونية هي حركة التحرر القومية للشعب اليهودي » هي التي قالت على لسان برونو كرايسكي في لقاء فيينا الثلاثي : ان « الرئيس عرفات » هو المتحدث الشرعي الحقيقـي باسـم الفلسطينيين . وان كل الفلسطينيـين ملتزمـون بمنظمة التحرير الفلسطينية . وان هناك امرا واقعا هو ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الآن مثلما كانت الجزائر قبل الاستقلال . فضلا عن ان التغيير في سياسة « الدولية الاشتراكية » هو أشمل من موقفها من فلسطين والصراع العربي ـ الاسرائيلي .

اما ابرز الاعتبارات التي حملها التفسير الثاني فهو القول بأن ماضي « الدولية الاشتراكية » ينطوي على صفحات ، بل فصول بأكملها ، من التأييد الشامل لاسرائيل والتبعية شبه المطلقة للولايـات المتحدة ، مما يصعب معه التصديق بقيـام هذه المنظمة بدور في قضية تقدمية تحريرية كقضيـة الشعب الفلسطيني .

على ذلك فانه فوق كل الاختلافات في تقييم حدث قمة فيينا الثلاثية بين عرفات وكرايسكي وبرانت، لابد ان نلاحظ ان النقطة المحورية التي كانت الموضوع الأساسي لهذه القمة ، وللدوي الاعلامي الذي انفجر نتيجة لمجرد انعقادها ،كانت هذه نقطـة الدولـة الفلسطينية . وان هذه النقطة قد اكتسبت اهتماما على الصعيد الدولي ذا حجم لم يسبق ان اكتسبته قبل هذا اللقاء .

□ الحديث عن اعتراف اوروبي غربي (جماعي او افرادي) بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني يصب في مجرى الدولة الفلسطينية .

□ الحديث عن تعديل قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ او عن قرار بديل جديد يحول « تناول القضية من « اللاجئيـن الفلسطينيـين » الى « الشعـب الفلسطيني » يصـب بدوره في مجـرى الدولـة الفلسطينية .

□ الحديث بعد ذلك عن مبادرة اوروبية جديدة لكسر الجمود الذي انتهت اليه الموقف بعد « كامب ديفيد » وبعد المعاهـدة المصريـة ـ الاسرائيليـة بالضرورة في مجرى الدولة الفلسطينية .

واذا تتبعنا صوت قمة فيينا الثلاثية من بداية ، وكذلك ردود الفعل التي احدثها والتفسيرات المتباينة التي قيلت فيه فاننا نخرج الى النتيجة نفسها ، وهي ان مسألة الدولة الفلسطينية قد فرضت نفسها على الساحة الدوليـة باعتبارهـا ـ مهمـا اختلفـت التصورات حول طبيعتها وحدودها وشروطهـا ـ المدخل الوحيد الممكن الى الخروج من ازمة الشرق الأوسط وتحاشي كافة أشكال العواقب التي يمكن ان تنتج عن بقائها وتفاقمها .

وصل ياسر عرفات الى فيينا في اول زيارة له الى احدى دول الغرب،منذ خطابه في الأمم المتحدة عام ١٩٧٤ (٦/٨) لاجراء محادثات مع برونو كرايسكي وفيلي برانت . ولوحظ على الفور ان كرايسـكي مستشار النمسا (اي رئيس حكومتها) كان في استقباله في المطار . ولوحظ بعد ذلك ان عرفات استقبل وعومل وذكر اسمه طوال فترة المحادثات وفي المؤتمر الصحفي الذي انهى الزيارة ،بوصفه «رئيس دولة » . وهي ملحوظة لها دلالتها السياسية ـ لا البروتوكولية فقط ـ بالنسبة لموقف النمسا والدولية الاشتراكية على الاقـل تجـاه منظمـة التحريـر الفلسطينية . ويتضح من بيان أصدرته وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » (٧/٧) ان كرايسكي بعث الى عرفات يدعوه الى النمسا للبحث في امكانية مساهمة الدولية الاشتراكية ـ ومن خلالها الدول الاوروبية التسع (اعضاء السوق الاوروبية المشتركة) في التسوية في الشرق الأوسط . وقد عرضـت هذه الرسالة على اللجنة التنفيذيـة لمنظمـة التحريـر الفلسطينية،حيث تمت دراسة موسعة للدور الأوروبي، المعبر عنه في البيانـات الصـادرة عن الدوليـة الاشتراكية وعن دول السوق المشتكة ، وقد لاحظت اللجنة التنفيذية ان المواقف الجديدة الاوروبية تسمح بالزيارة ، لاجراء حوار صريح ومفتوح حول الدور الأوروبي المطلوب للتوصل الى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط .

في اليوم نفسه (٧/٧) صرح كرايسـكي بان اجتماعه في ذلك اليوم مع عرفات « لذا اعتقادي بانه بالصبر والادراك السليم سيكون من الممكن التوصل الى حل سلمي في تلك المنطقة من العالم ، وبأنه سيتيح التوصل الى حلول لمسألة الشرق الأوسط شرط الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني .

في اليوم التالي (٧/٨) شنت اسرائيل حملة هجومية شديدة ضد كرايسكي بسبب استقباله ياسر عرفات ، واستدعت القائم بأعمال السفارة النمساوية في اسرائيل الى مقر وزارة الخارجية الاسرائيلية في القدس ،حيث سلمت اليه « مذكرة احتجاج شديدة اللهجة » على دعوة عرفات الى فيينا والاستقبال الذي لقيه هناك . وأبلغ الدبلوماسي النمساوي بان اسرائيل « تشعر بالقلق العميق » . وقررت اسرائيل في الوقت نفسه استدعاء سفيرها من فيينا احتجاجا على استقبال كرايسكي لعرفات، واعتبرت ذلك خطوة معادية لاسرائيل من الشعب اليهودي .

وفي ١٩٧٩/٧/٨ عقد اطراف قمة فيينا الثلاثة عرفات كرايسكي وبرانت مؤتمرا صحفيا في العاصمة النمساوية في ختام محادثاتهم التي امتدت جلساتها لنحو١٢ ساعة . كما صدر بيان مشترك عنها .

في المؤتمر الصحفي قال كرايسكي ان المحادثات مع عرفات كانت « استطلاعية الى حد بعيد » لكنها « مفيدة جدا جدا . وعن احتمال حدوث تغيير في موقف منظمة التحرير ازاء « حق اسرائيل في الوجود » قال كرايسكي « ان نيات منظمة التحرير الفلسطينية ازاء هذه المسألة قد اسيء تفسيرها . وعلى اي حال فان التسليح المتاز لدى اسرائيل يفقد هذه النيات اي اساس واقعي » . وقال برانت بالنسبة للنقطة ــ نفسها انه خرج من محادثاته مع عرفات بالاستنتاج انه « يجب عدم الخلط بين حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير والرغبة في تدمير دولة اسرائيل » . ورد برانت على الحملة الاسرائيلية قائلا : « لا يحق لأي شخص التشكيك في اخلاصي أو اخلاص المستشار كرايسكي لاصدقائنا الاسرائيليين » .

وكان مما قال كرايسكي في المؤتمر الصحفي ايضا : « لقد كانت النمسا مختفية من الخارطة ، لكن النمساويين كانوا موجودين » ، وذلك في مقارنة واضحة الدلالة بين دولة النمسا ودولة فلسطين . كما قال ان « الرئيس عرفات هو المتحدث الشرعي الحقيقي باسم الفلسطينيين،وان كل الفلسطينيين ملتزمون بمنظمة التحرير الفلسطينية ... يوجد هنا أمر واقع ، وانا أعتبر منظمة التحرير كما كانت الجزائر سابقا (أي قبل الاستقلال) .

اما البيان الثلاثي المشترك (٧/٨) فقد ذكر ان الزعماء الثلاثة « توصلوا الى اتفاق اجماعي حول نقاط مهمة عدة ... واظهروا اقصى درجة من القلق حيال بناء المستوطنات الاسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة ... وهي عقبة خطيرة في وجه السلام » .

واكد البيان « ان كل المشكلة الفلسطينية هو حجر الزاوية في حرج الشرق الأوسط ، وما لم تحل المشكلة الفلسطينية حلا عادلا ومرضيا فان السلام والحل الشامل في الشرق الاوسط لن يتحققا » .

وقال البيان ان عرفات اكد في المحادثات اهمية انشاء دولة فلسطينية ذات سيادة ، كما اكد على الدور البناء الذي يقوم به الرئيس كرايسكي والرئيس برانت داخل الدولية الاشتراكية وخارجها، من مساهمة لايجاد سلام عادل في الشرق الأوسط ، والاهتمام الذي تظهره الدولية الاشتراكية حيال القضية الفلسطينية ونزاع الشرق الأوسط .

وأكد كرايسكي وبرانت من جانبهما ــ في البيان ــ « ضرورة التوصل الى حل شامل لمشكلة الشرق الاوسط يكون أساسه قرار مجلس الأمن ٢٤٢ للعام ١٩٦٧ و٣٣٨ للعام١٩٧٣، والى احقاق الحقوق الوطنية الفلسطينية وحق تقرير المصير كما هو مؤكد بين امور اخرى في بيان الدول التسع ، اعضاء المجموعة الاقتصادية الاوربية ، الخاص بالشرق الأوسط .

واختتم البيان مؤكدا ان «الرئيس برانت سيقدم تقريرا مفصلا عن هذه المحادثات الى الأممية الاشتراكية ، ويوحي باستمرار الاتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية » .

بعد صدور هذا البيان المشترك عن قمة فيينا اتسعت وازدادت حدةرد الفعل الاسرائيلي ضدلقاء فيينا ، وانتقل من الحكومة المكرمة الاسرائيلة الى المعارضة . حيث قال شمعون بيرس زعيم حزب العمال المعارض الذي يتمتع بعضوية الدولية الاشتراكية ــ ان لقاءات فيينا تعطي عرفات مزيداً من التفوق فيما يستمر في اعماله الارهابية ، ونحن نعتبر ان هذا النفوذ لا يفيد السلام الاسرائيلي » .

كما أوضح انه لا خلافات بين حزبه وحكومة بيغن عندما يتعلق الأمر بمنظمة التحرير الفلسطينية . « ان حزبي كان ولا يزال معارضا لاي اتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية . ان مثل هذه الخطوة لا يمكن ان تؤدي الى شيء . لقد قلت ذلك لفيلي برانت الذي لم يبلغني عزمه على لقاء ياسر عرفات الا في اللحظة الاخيرة .

وبلغ رد الفعل الاسرائيلي ذروته بعقد جلسة خاصة للكنيست (٧/٩) اتفقت فيها الحكومة والمعارضة باكثرية ٨٢ صوتا ضده وامتناع نائبين عن التصويت على قرار « يندد بشدة » بالدعوة والاستقبال الرسمي الذي اقامه كرايسكي لعرفات في النمسا . وقال القرار : « ان الكنيست يعتبر ان الهدف المعلن لعصابة القتلة التي يطلق عليها اسم منظمة التحرير الفلسطينية هو تدمير دولة اسرائيل . وان خطة عملها تقضي بقتل المدنيين اليهود من رجال ونساء وأطفال » .

وذكرت اذاعة اسرائيل ان قرار الكنيست كان يتضمن ثغرة تنديد ببرانت . الا ان هذه الثغرة حذفت

بناء على طلب بيرس .

ولكن الهجوم الاشد من جانب اسرائيل على لقاء النمسا تمثل في بيان مناحم بيغن رئيس وزرائها أمام الكنيست . بالنسبة لبرانت قال : « أخشى الا تؤدي قمة فيينا سوى الى ركوع برانت مرة أخرى أمام قتال يقام لحرقة اخرى (لليهود) ويطلب السماح من اليهود كما فعل في وارسو » . وبالنسبة لكرايسكي قال : « لا أستطيع أن استخدم في وصفه سوى كلمات صدرت عن تيودور هيرتزيل قبل ٨٢ عاما لوصف يهودي خائن تجرأ على مهاجمة الصهيونية . ان كرايسكي قال عني انني يهودي من الشرق مع كل ما تتضمنه هذه العبارة من حقد ، وازدراء في المانيا ما قبل هتلر . عند اليهود الصهاينة ، اولاد أرض اسرائيل المتحررين من كل عقدة ، سنكمل طريقنا من دون توقف او تردد . سنقاوم وسنتجاوز امثال عرفات وجميع الذين يشبهونه » .

وحده ناحوم غولدمان الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي الحالي قال في حديث للاذاعة الاسرائيلية تليفونيا من سويسرا (٧/٩) « ان خطوة كبيرة الى الامام قد تمت بفضل لقاء كرايسكي ــ عرفات ، وان كنا نجهل النتائج حتى الآن » .

وبطبيعة الحال فان ردود الفعل التالية ــ بخلاف رد الفعل الاسرائيلي ــ قد أثارت بدورها تكهنات وتفسيرات حول طبيعة « المبادرة الاوروبية » المنتظرة بعد قمة فيينا . وخاصة ردود الفعل التي صدرت ــ بالتأييد او المعارضة ــ عن أطراف دولية .

وقد اعتبر رد الفعل الايجابي الذي صدر عن الاتحاد السوفياتي ــ في مقال لصحيفة « برافدا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي (٧/١٣) مؤشرا الى ان موسكو كانت على علم مسبق ــ على الاقل ــ بقمة فيينا الثلاثية ، ان لم تكن مشاركة في الاعداد لمبادرة اوروبية . بل ذهب البعض الى حد القول بان قمة فيينا الثلاثية كانت وليدة اتفاق لقمة فيينا الثنائية التي سبقتها . اي ان لقاء عرفات ــ كرايسكي ــ برانت هو نتيجة اتفاق تم في قمة كارتر ــ بريجنيف التي عقدت في فيينا أيضا قبل شهر (في ٦/١٨) والتي تم فيها التوقيع على المعاهدة الثانية للحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت ــ ٢) .

وكان كل ما قالته صحيفة « برافدا » في مقالها الذي اشرنا اليه ــ ان اجتماع عرفات ــ كرايسكي ــ برانت « عادي ومفيد » . كما قالت « ان دول الشرق الأوسط ليست هي وحدها التي لا ترتاح الى اتفاقات كامب ديفيد ، بل ايضا الدوائر السياسية في العديد من الدول الغربية » .

وفي الاتجاه نفسه نشرت صحيفة « سرفيتسكايا روسيا » (أي روسيا السوفياتية) تعليقا قالت فيه ان ياسر عرفات « لقد لقي في فيينا الاحترام الذي يستحقه،وفي جو سياسي يتناسب مع القواعد الدولية المتعارف عليها » . وأشارت الى ان لقاء فيينا يظهر ان سياسة « كامب ديفيد » التي تهدف الى اخفاء الصيغة الشرعية على العدوان الاسرائيلي وتبرير التورط العسكري الاميركي في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وتكليف مصر واسرائيل بدور الشرطي في هذا الجزء من العالم لا مستقبل لها » .

وانتهت الصحيفة السوفياتية الى ان لقاء عرفات وكرايسكي وبرانت « يفتح ثغرة في السلام على الطريقة الأميركية في الشرق الأوسط . ويدشن نزاعا حادا بين الواقعية والنزعة الى المغامرة ازاء مسألة الشرق الاوسط » .

أما على الجانب الاميركي من ردود الفعل فانه لا وجود لرد فعل رسمي من أي نوع . انما يمكن الملاحظة بوجه عام بأن لقاء فيينا الثلاثي لم يحظ باهتمام اعلامي يتناسب على الأقل مع الاهتمام الذي حظي به خارج الولايات المتحدة. وبشكل عام كانت معالجة الصحف الاميركية للحدث سلبية . وكانت اول افتتاحية ضد اللقاء تلك التي نشرتها صحيفة « انترناشيونال هيرالد تريبيون » (٧/١٠) والتي رددت الدعاوي الاسرائيلية ذاتها ضد منظمة التحرير الفلسطينية ، وتحدثت عن الارهاب والارهابيين .. الخ .

ثم قالت صحيفة « كريستيان ساينس مونيتور » (٧/١١) الاميركية ــ في تعليق لها على اللقاء ــ « ان اوروبا الغربية والاوروبيين الغربيين بدأوا في تأكيد قيامهم بدور أعظم أهمية بكثير من السابق ، في عملية اقرار السلام في الشرق الأوسط . ذلك على الاقل هو أمل المعتدلين العرب الذين يرغبون في رؤية اوروبا الغربية توفر بديلا لاطاري عمل كامب ديفيد اللذين صاغهما الرئيس كارتر . وقد كشف دبلوماسي من اوروبا الغربية النقاب عن ان هناك اجتماعا متناميا في صفوف زملائه ، على انه اذا لم تستطع الولايات المتحدة تحقيق تقدم جوهري في المحادثات الخاصة بالحكم الذاتي الفلسطيني ، فمن الممكن ان يتقدم الاوروبيون ببديل في مرحلة ما » .

واختتمت « كريستيان ساينس مونيتور » تعليقها بقولها . « بلا ريب أن الولايات المتحدة لا يجب ان تصبح رهينة النفط العربي الى حد القيام باعمال مجردة من المبادىء . ولكنها كذلك يجب ان لا تصبح رهينة التصلب الاسرائيلي حول ماله للأمة بحاجات اسرائيل الامنية العتيقة بحيث لا تستطيع أن تضع سياسة خارجية خاصة بها » .

زادت صحيفة «نيويورك تايمز» الامر ايضاحا فيما يتعلق بما يمكن ان تكون عليه مبادرة اوروبية غربية من علاقة للولايات المتحدة حين قالت في مقال افتتاحي لها (٧/٢٤) :

« يقول المسؤولون الاميركيون انهم بعد ان ساروا في الطريق الذي يسيرون فيه حاليا ،فان الشيء الوحيد

الذي يمكن ان يفعلوه هو اختبار هذا الطريق ، لماذا لم تثبت صلاحيته يعاد النظر فيه، ولكن هذا الاسلوب يتجاهل الاحتمال القائم بان الامور قد تصبح أشد سوءا . وفي الوقت الذي تكتشف فيه انك مضطر للعودة من طريق مظلم تسير فيه ، يكون السلام قد أصبح أصعب منالا من أي وقت مضى . فهل هناك من يمد العون للولايات المتحدة ويسهل لها العودة للسير على أسس سليمة ؟ » .

واختتمت « نيويورك تايمز » بقولها . « ينبغي على طرف ما ان يتقدم بمشروع سلام . يعده بمشاورة الولايات المتحدة والزعماء العرب ـ وربما كانت الدول الاوروبية هي المرشح الوحيد لهذا العمل » .

ولعل السؤال بعد هذا الاعتراف الاميركي ـ غير الرسمي ـ بفشل الطريق الذي قطعته واشنطن قبل ذلك . وبعد طلبه المساعدة الذي حصرته « نيويورك تايمز » . في اوروبا الغربية ـ يصبح السؤال . هل اثبتت الولايات المتحدة قدرتها على مراجعة موقفها من الطريق الذي سارت فيه،وهل هي بصدد مساعدة اوروبا الغربية على ان تساعدها للخروج من هذا المأزق ؟

استقالة يونغ

ينقلنا هذا السؤال الى وقائع أزمة اندرو يونغ ، فهي ترد ـ في المرحلة الراهنة على الاقل ـ على السؤال . لأنه ينصب مباشرة على طبيعة العلاقات الاميركية ـ العربية (بما فيها الفلسطينية) وطبيعة العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية (بما فيها الصهيونية العالمية وخاصة داخل الولايات المتحدة) .

لقد بدأت وقائع ازمة اندرو يونغ بنبأ صغير نشر في مجلة « نيوزويك » الأميركية (٨/١٣) يفيد ان سفير الولايات المتحدة لدى الامم المتحدة، التقى بممثل منظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة زهدي الطرزي . وقد تم الاجتماع في منزل سفير الكويت في الامم المتحدة عبد الله بشارة ، الذي دعا السفير الاميركي لزيارته . وقد غادر السفير مكان الاجتماع بعد خمس عشرة دقيقة من وصوله . واحاط يونغ واشنطن علما بانه لم يتحدث في السياسة مع المراقب الفلسطيني .

وعلى الفور بدأت سلسلة الانفجارات الاعلامية المتتالية من حول هذه الدقائق الخمس عشرة التي جمعت بين يونغ والطرزي . أصدرت وزارة الخارجية الاميركية بيانا (٨/١٣) وصفت فيه الاجتماع بانه تم « بالصدفة » . وصدر هذا البيان اثر احتجاج رسمي اسرائيلي على لقاء يونغ ـ الطرزي الذي تم في ٢٦ تموز (يوليو) الماضي . وقالت الخارجية الاميركية انه فيما كان يونغ ينتظر بشارة « بحث مع السيد الطرزي في موضوع تأجيل التصويت على مشروع القرار الكديشي في مجلس الامن والذي كان متوقعا ان يتم في ٣١ تموز الماضي . ان اجراء المحادثات مع السيد الطرزي جاء بمبادرة شخصية من السفير يونغ ودون اي تكليف . وقد شرح السفير يونغ هذا الوضع ليهودا بلوم مندوب اسرائيل في الامم المتحدة » .

وخلص بيان الخارجية الاميركية امام القول « ان هذا التطور لا يبدل شيئا في سياستنا حيال منظمة التحرير الفلسطينية . وقد أبلغنا ذلك الى الحكومة الاسرائيلية . واننا نأسف لما أعلناه امس باعتباره لم يكن صحيحا » (وتشير هذه الفقرة الى تصريح قاله الناطق باسم الخارجية الاميركية بأن يونغ والطرزي « لم يتطرقا الى مواضيع سياسية ») .

وفي رد فعل يكاد يتجاوز رد الفعل ازاء لقاء فيينا الثلاثي أعلنت اسرائيل (٨/١٤) ـ بلسان بيغال يارين نائب رئيس وزرائها ـ انه اذا اعترف بعض الأطراف الآخرين بمنظمة التحرير الفلسطينية شريكا في المفاوضات فان اسرائيل ستخرج من اللعبة ... وعلى كل طرف ان يفكر مليا في ما يريد . هل يريد التفاوض مع اسرائيل ام مع منظمة التحرير الفلسطينية ؟ » .

وفي الوقت نفسه أعلن ناطق باسم الخارجية الاسرائيلية ان موشي دايان وزير الخارجية بعث بتعليماته الى سفير اسرائيل لدى الولايات المتحدة، بتقديم اجتماع لدى وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس والاعراب عن اسف اسرائيل العميق، ودهشتها لاجتماع يونغ والطرزي والتحدث اليه . واوضح المتحدث ان ذلك « يتعارض مع تعهدات متكررة وواضحة ـ شفهية وخطية ـ من الولايات المتحدة لاسرائيل بعدم اجراء اية محادثات مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ما لم تعترف المنظمة بحق اسرائيل في الوجود وتقبل قراري مجلس الامن ٢٤٢ ، ٣٣٨ .

في اليوم التالي مباشرة (٨/١٥) قدم اندرو يونغ استقالته من منصبه . رغم انه سبق ان تعرض لانتقادات في مواقف كثيرة بدا فيها ان « احرج » الادارة الاميركية والرئيس الاميركي .وكان في كل مرة يبقى في منصبه ويتمتع بدعم الرئيس كارتر واشادته بكفاءته وبالصداقة التي تربط بينهما .

. قالت وكالة « يونايتد برس » الاميركية ان يونغ قدم استقالته في اجواء مشابهة لتلك التي استقبل بها عندما استلم وظيفته،اي وسط اجوا معادية بسبب افكاره ودفاعه عن رؤيته لكيفية تنفيذ السياسة الاميركية على النطاق العالمي .

وعقد يونغ مؤتمرا صحفيا في مقر البعثة الاميركية في الامم المتحدة (٨/١٦) اعلن فيه انه سيستقبل زهدي الطرزي ممثل منظمة التحرير الفلسطينية اذا

طلب منه ذلك بوصفه رئيسا لمجلس الامن للشهر الحالي (اب ـ أغسطس) . وقال يونغ ان للزعماء السود في الولايات المتحدة مصلحة ثابتة في تحقيق تسوية في الشرق الاوسط لكن ذلك يجب الا يعتبر في اية صورة عداء لليهود . « وقد يكون ذلك تأييدا للفلسطينيين بطريقة لم تكن موجودة في السابق ، وفي هذه الحال تقع على الطائفة اليهودية مسؤولية ايجاد طريقة تفهم أسباب ذلك دون ان تكون معادية للسود » .

وأكد يونغ مرات كثيرة في مؤتمره الصحفي انه لا يشعر باي ندم ، كما انه ليس مستعدا لتقديم اية اعتذارات بسبب لقائه مع ممثل منظمة التحرير الفلسطينية .

وبطبيعة الحال فان حجة انتخابات الرئاسة واصوات اليهود ومؤيديهم وجدت طريقها سريعا الى تفسير ازاحة يونغ ارضاء لاسرائيل . خاصة وان شعبية كارتر بين الناخبين الاميركيين قد تدنت الى ادنى مستوى ، كما تؤكد استطلاعات الرأي الأميركية . لكن يبقى الأساس في تفسير هذا الحدث هو حجم تأثير ارتباط المصالح الاميركية بالدولة اليهودية . ويأتي بعد ذلك نقل دور « اللوبي » الصهيوني داخل الولايات المتحدة .

وقد عقبت وكالة « تاس » السوفياتية الرسمية على « استقالة » يونغ بأنها جاءت « بضغط من اسرائيل » وان قبولها يعتبر اهانة للولايات المتحدة ، كما وصفتها بانها تشكل فضيحة سياسية . وقالت ان لقاء يونغ والطرزي انما هو « لقاء روتيني ... وان اتصالات من هذا النوع مسالة عادية في حياة الدبلوماسيين » .

اما الجزء الباقي من الازمة فقد حولته اجهزة الاعلام الاميركية والغربية عموما باقتدار الى مشكلة بين « السود » (زنوج اميركا الذين كان يمثلهم يونغ في ادارة كارتر باعتباره يحتل اعلى منصب يمثله زنجي في هذه الادارة) و « اليهود » (صهاينة الولايات المتحدة الذين يشكلون السند الرئيسي العالمي لاسرائيل في الخارج والذين يشكلون داخل الولايات المتحدة دولة فوق الدولة ، وليس مجرد دولة داخل الدولة) .

س . ك

قضايا عسكرية

حرب الاستنزاف الاسرائيلية ـ الفلسطينية

ما زالت حرب الاستنزاف التي تشنها اسرائيل ضد الثورة الفلسطينية ، والقوى الوطنية اللبنانية ، مستمرة في جنوب لبنان بدون انقطاع تقريبا منذ ٢٣/٤/ ٧٩ ، اثر عملية « نهاريا » الفدائية . فالقصف المدفعي ، سواء من جانب قوات « سعد حداد » الانعزالية أو من جانب اسرائيل مباشرة ، مستمر بصورة شبه يومية لمدن وقرى الجنوب . والتحليق الجوي الاسرائيلي ، الذي يتخلله أحيانا قصف جوي ، مستمر هو الآخر يوميا تقريبا . والقصف البحري لقرى ومدن الجنوب اللبناني ، الذي تتخلله أو تصاحبه احيانا اغارات « كوماندوس » بحري ، مستمر أيضا بواسطة الزوارق المسلحة الاسرائيلية (من طراز « ساعر » على الأرجح) .

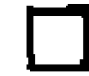
وكانت أبرز العمليات الاسرائيلية خلال الفترة الأخيرة، الاغارة البرية التي قامت بها قوة من المشاة تقدر بنحو ٤٠ جنديا تسللت عند منتصف ليلة ٣/٨/٧٩ في منطقة « العرقوب » ، تحت غطاء قصف مدفعي عنيف تم من مواقع للمدفعية الاسرائيلية في « الرويسات » و « العباسية » وتلال « العرقوب » ، شاركت فيه مدفعية الميليشيات في « مرجعيون » وغيرها من المواقع . وهاجمت القوة الاسرائيلية المذكورة موقعا للقوات المشتركة اللبنانية في تلال « قليا ـ برغز » واشتبكت معه لمدة نصف ساعة . واسفرت المعركة عن استشهاد ٥ مقاتلين من القوات المشتركة واصابة بعض المهاجمين . كما هاجمت وحدة اسرائيلية أخرى في الليلة ذاتها موقعا اخر في تلال « كوكبا » خلال الليلة ذاتها ، وانسحبت القوتان تحت غطاء القصف المدفعي العنيف ، الذي استمر حتى الرابعة والربع من فجر ٣/٨ ، وردت عليه القوات المشتركة بقصف للمستعمرات الاسرائيلية القريبة من الحدود

اللبنانية ، ولمواقع الميليشيات في « مرجعيون » و« القليعة » .

وفي ليلة ١٤ ـ ٨/١٥ أنزلت الزوارق المسلحة الاسرائيلية قوة من الكومانـدوس البحريـين الى الشاطىء اللبناني عند قرية « عدلون » ، جنوب « صيدا » ، وذلك بواسطة قوارب مطاطية ، حيث تسللت القوة إلى الطريق الساحلي العام وكمنت قرب مفترق « النصارية » ، ثم أطلقـت قذائـف الـ « انيرغا » على سيارتي جيب تابعتـين لاحـدى تنظيمات القوات المشتركة واصابتهما بأضرار مادية وبعض الجرحى من ركابهما .

وعلـق الجنـرال « ايتـان » ، رئيس الاركان الاسرائيلي ، على العملية بانها تدخل ضمن سياسة جديدة ، اعتمدتها اسرائيـل ، « تقضي بتسديـد ضربات وقائية الى المواقع الفلسطينية عوضاً عن الاعمال الانتقامية التي تجـري بعـد هجمـات محدودة » .

وفي ليلة ٨/١٦ تسللـت قوة من المشـاة الميكانيكية الاسرائيلية الى قرية « شقرا » اللبنانية ، التي تبعد نحو ٨ كلم عن الحدود في القطاع الأوسط بجنوب لبنان ، تحت غطاء قصف مدفعي ، وقامت بنسف منزلين لمواطنين لبنانيين ، يزعم انهما كانا يستخدما كمقر قيادة للقوات المشتركة في القرية . وما زال مسلسل حرب « الاستنزاف » الاسرائيلية مستمراً ، في وجـه الصمـود وعمليـات الثـورة الفلسطينية المستمرة ايضاً في قلب الأرض المحتلة في فلسطين .



قالـت مصـادر الاستخبـارات الاميركيـة في « واشنطن » يوم ٧٩/٨/١٥ أن الاتحاد السوفياتي زود سوريا خلال تموز (يوليو) ٧٩ بما يراوح بين ٥٠ و ٦٠ دبابة من طراز « ت ـ ٧٢ » ، التي تعد أحدث دبابة ينتجها حاليا . وأكدت المصادر ذاتها أن الدبابات المذكورة ، التي وصلت بحراً الى ميناء اللاذقية ، موجودة حالياً في قواعد في وسط سوريا بعيداً عن مناطق يمكن أن تشملها مواجهة محتملة مع اسرائيل . وأن هذه الدبابات متفوقة على الدبابات « م ـ ٦٠ » ، التي زودت بها الولايات المتحدة اسرائيل . كما أوضحت هذه المصادر انه يستحيل معرفة ما إذا كانت هذه الدبابات تشكل بداية عملية هدفها تعزيز سلاح المدرعات السوري ، أم أنها مجرد شحنة منفردة .

هذا وكانت موسوعة جينز البريطانية الخاصة بنظم التسليح ، الصادرة مؤخراً عن عام ٧٩ ـ ١٩٨٠ ، قد ذكرت أن دبابات « ت ـ ٧٢ » قد دخلت الخدمة العملية في كل من الجيشـين السـوري والليبي . وهو نبأ رددته من قبل مصادر صحفية غربية، في أواخر تشرين الأول (اكتوبر) وأوائل تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٧٨ . ولذلك فان تقديرنا الخاص أن الدفعة الأخيرة (أي الـ ٥٠ ـ ٦٠ دبابة) من دبابات « ت ـ ٧٢ » ، التي تقول الاستخبارات الاميركية أنها وصلت الى سوريا في الشهر الماضي ، ليست هي الدفعة الأولى التي سلمها اليها الاتحاد السوفييتي ، وانما هي دفعة ثانية أو ثالثة مكملة للدفعات التي دخلت الخدمة العملية في الجيش السوري في أواخر العام الماضي ، والتي تقدر في رأينا بنحو ١٠٠ دبابة (عدا الدفعة الأخيرة) . ذلك لأن عبارة دخول هذه الدبابات الخدمة العملية تعني تشكيل لواء مدرع على الأقل منها ، يكون قد اتم التدريب عليهـا ، أي استوعبهـا بالتعبـير العسكري .

وتعد الدبابة « ت ـ ٧٢ » أحدث وأقوى دبابة عاملة في جيوش العالم حاليا ، باستثناء الدبابة السوفياتية الجديدة التي ما زالت في طور الاختبارات الأخيرة والمسماة « ت ـ ٨٠ » ، وذلك كما توضح المواصفات الفنية الأولى التي عرفت عنها حتـى الآن .

فهي تزن نحو ٤١ طناً ومزودة بمحرك تبلغ قوته ٧٠٠ حصان ، وفقا لما تقوله المصادر السوفياتية ، وتصل سرعتها القصوى على الطرق الى ١٠٠ كلم/ساعة ، ويبلغ مدى عملها بدون تزود جديد بالوقود ٥٠٠ كلم . ويشك الخبراء الغربيون في أن تكون قوة المحرك ٧٠٠ حصان فقط ، لأن قوة دفع كهذه ضمن هكذا وزن لا تحقق سرعة ١٠٠ كلم/ ساعة . ولذلك فهم يرجحون أن تكون الدبابة « ت ـ ٧٢ » مزودة بمحرك آخر أكثر قوة ، وأن تراوح سرعتها القصوى بين ٦٠ و ٨٠ كلم/ ساعة . وعلى أي حال فانه من الواضح أن الـ « ت ـ ٧٢ » تتمتع ، مثلها مثل معظم الدبابات السوفييتية في الماضي والحاضر ،

بقدرات حركية كبيرة ، من حيث المستوى العملياتي (السرعة ، ومدى العمل ، وقدرات اجتياز الموانع المائية ، ومدى الحاجة إلى صيانة سريعة في وقت قصير الخ) أو المستوى التكتيكي (القدرة على التقدم في ساحة المعركة بسهولة ومرونة ، وقدرة المناورة القتالية ، وقدرة التسارع في السير ، وسرعة تحويل اتجاه الدبابة ، ومدى ثباتها وهي تطلق النار ، وقدرتها على اجتياز الخنادق والموانع الراسية ، وقدرتها على السير فوق منحدرات الخ .) .

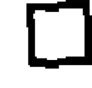
وتتميز ايضا بانخفاض هيكلها وبرجها بصفة عامة ، وزيادة درجة انحدار دروع هيكلها الأمامية ، الامر الذي يزيد من قوة احتمال دروعها ، ويقلل من نسبة اصابتها من مسافة بعيدة نسبيا .

وهي مسلحة بمدفع ذو جوف أملس ، من نوع مدفع الـ « ت ــ ٦٢ » ولكنه من عيار ١٢٥ مم بدلا من ١١٥ مم ، ويختلف عنه في وجود جزء محلزن من السبطانة، ليساعد على دوران القذيفة حول محورها لضمان زيادة دقة الاصابة ، وذلك قبل أن تندفع كالسهم من الجزء الثاني والأخير من السبطانة ، أي الجزء الأملس . وبذلك يكون مدفع الـ « ت ــ ٧٢ » قد جمع بين مزايا مدفع الـ « ت ــ ٦٢ » ، الذي ستجاريه مدافع الدبابات الغربية الجديدة التي ما زالت في طور الاختبار ، مثل الدبابة الالمانية « ليوبارد ــ ٢ » المسلحة بمدفع عيار ١٢٠ مم والدبابة الاميركية « اكس ام ــ ١ » .

ويستخدم مدفع الـ « ت ــ ٧٢ » ثلاثة أنواع مختلفة من القذائف . اولها القذائف الخارقة للدروع نابذة الكعب ذات الزعانف «APFSDS» ، التي يقدر المدى الفعال لها في خرق الدروع نحو ٤٠٠٠ متر . وثانيها طراز جديد من القذائف شديدة الانفجار المضادة للدروع « HEAT » ، التي تطلق عادة في صليات ويقدر مداها الفعال ضد الدروع بنحو ٥٠٠٠ متر . وثالثها قذائف شديدة الانفجار العادية « HE » ، التي تستخدم ضد الأهداف غير المدرعة . والجدير بالذكر أن المدفع المذكور مزود بجهاز تلقيم آلي له خزاني تلقيم ، مما يسمح باستخدام نوعين من القذائف في توال سريع ، الأمر الذي يوفر مرونة وسرعة أكبر في التعامل مع الدبابات المعادية . كما أن جهاز التلقيم قادر على استيعاب ٢٨ قذيفة من جملة الـ ٤٠ قذيفة التي تحملها الدبابة ، وهذا يعني أن المدفع يستطيع اطلاق ٢٨ قذيفة في نحو ٣,٥ دقائق، بحكم أن معدل الرمي ٨ قذائف في الدقيقة ، وبذلك تستطيع الدبابة تكثيف قوة نيرانها الفعالة ضد عدة أهداف في وقت سريع للغاية . خاصة وأن المدفع مزود بجهاز أشعة ليزر لتقدير المدى وبجهاز تحكم بالنيران متطور ، وبنظام تثبيت آلي للنيران في مختلف الأوضاع ، الأمر الذي يتيح دقة رمي واصابة من الثبات أو الحركة ، وسرعة رد فعل على النيران المعادية بصورة محكمة ، ومن ثم قدرة أفضل على الاصابة من القذيفة الأولى من المسافات القصيرة التي يتم الاشتباك ضمنها عادة وهي تراوح بين ٣٠٠ و ٨٠٠ متر (كما أثبتت خبرة حرب ٧٣) . وبالاضافة الى ذلك فان المدفع ، مثله مثل بقية مدافع الدبابات الحديثة ، مزود بأجهزة رؤية وتصويب ليلية . ونتيجة لتجهيز الدبابة بجهاز التلقيم الآلي المذكور فقد انقص طاقم الدبابة الى ثلاثة افراد فقط ، وهم القائد والرامي والسائق ، واختصر الفرد الرابع وهو الملقم بالذخيرة ، كما هو الحال في سائر الدبابات الأخرى (عدا الدبابة السويدية الحديثة سترف ١٠٣) ، وهذا يعني توفيرا في العناصر البشرية اللازمة للدبابات ، وانقاصا نسبيا له قيمته في خسائر أطقمها .

ولا شك في أن دخول الدبابة « ت ــ ٧٢ » الخدمة في الجيش السوري ، وغيره من الجيوش العربية التي تتزود بأسلحة سوفييتية مثل الجيش الليبي والعراقي ، يعتبر قفزة نوعية كبرى في سلاحها المدرع تقنيا وتكتيكيا ، ويوفر لها نقطة تفوق هامة على المدرعات الاسرائيلية ، شرط حسن استيعابها فنيا واستخدامها ضمن أطر تكتيكية وعملياتية ملائمة . ذلك لأنها متفوقة على دبابات « م ــ ٦٠ » الاميركية و « سنتوريون » البريطانية و « مركافا » الاسرائيلية التي يتالف منها سلاح المدرعات الاسرائيلي . سواء من حيث قوة النيران أو القدرة الحركية أو التدريع . ولا يجوز مقارنتها بالدبابة « م ــ ٦٠ » لأن الدبابة « ت ــ ٦٢ » ، الموجود منها عدة مئات لدى الجيش السوري والعراقي والليبي ، تفوق الدبابة المذكورة في كافة القدرات المذكورة . إذ أن الدبابة « م ــ ٦٠ » تبلغ سرعتها على الطرق ٤٨ كلم/ ساعة ، وهي مسلحة بمدفع عيار ١٠٥ مم مداه الفعال ضد الدروع بالقذائف الخارقة للدروع يبلغ نحو ١٨٠٠ متر ونحو ٣٠٠٠ متر بالقذائف شديدة الانفجار المضادة للدروع .

وليست مزودة بجهاز تلقيم الي او بمقدر مدى بأشعة « ليزر » ولا تتمتع دروعها بمزايا التدريع الموجودة في كل من الدبابتين « ت ــ ٦٢ » و « ت ــ ٧٢ » .



اعلنت وزارة الدفاع الاميركية في ٢٣/٧/٧٩ انها ستزود مصر باسلحة بقيمة ١,٣ مليار دولار ، بموجب القرض العسكري المقرر نتيجة لاتفاقية « السلام » بينها وبين اسرائيل ، والذي ستحصل اسرائيل بمقتضاه على اسلحة بقيمة ٢٢٠٠ مليون دولار ، فضلا عن ٨٠٠ مليون دولار كمساعدة عسكرية لبناء قواعد جوية في النقب بدلا من القواعد الجوية التي ستخليها في سيناء .

وبموجب الوثائق التي قدمت إلى « الكونغرس » ، ستزود الولايات المتحدة مصر بنحو ٧٥٠ ناقلة جنود مدرعة (من طراز م ــ ١١٣ غالبا) و ١٢ بطارية صواريخ « هوك » المضادة (البطارية تتألف من ٦ منصات اطلاق ثلاثية ، أي ١٨ صاروخا معدا للاطلاق) ، وتقدر قيمة هذه الصفقة بـ ٦٩٤,٥ مليون دولار .

أما اسرائيل فستحصل على ٨٠٠ ناقلة جنود مدرعة و ٢٠٠ دبابة « م ــ ٦٠ » و ٢٠٠ مدفع عيار ١٥٥ مم (ذاتية الحركة على الأرجح ، قيمتها الاجمالية ٥٨٠ مليون دولار .

والملاحظة الأولى على هذه الصفقات العسكرية هو خلوها من الدبابات ومدافع الهاوتزر بالنسبة لمصر ، التي تركزت صفقتها اساسا على الصواريخ الدفاعية المضادة للطائرات ، من طراز « هوك » ، وفي الوقت ذاته فان عدد هذه البطاريات لا يشكل بديلا حقيقيا عن عدد بطاريات الصواريخ السوفياتية المضادة للطائرات الموجودة حاليا لدى قيادة الدفاع الجوي المصري ، الذي عرف بقوة وكثافة شبكة صواريخه خلال حربي الاستنزاف و ١٩٧٣ . والذي يقدر معهد الدراسات الاستراتيجية الدولي عدد قوانف صواريخه بنحو ٣٦٠ « سام ــ ٢ » و ٢٠٠ سام ــ ٣ و ٦٠ « سام ــ ٦ » ، فضلا عن عدد من صواريخ « كروتال » الفرنسية .

ومن جهة أخرى فان لدى الجيش المصري نحو ٢٧٠٠ ناقلة جنود مدرعة سوفييتية الصنع ، معظمها من انواع أكثر قوة وتطورا من ناقلات الجنود المدرعة « م ــ ١١٣ » الاميركية التي لا يزيد عددها عن ٧٥٠ ناقلة . وهذا معناه انقاص تدريجي للقدرة الحركية ، أي الهجومية لتشكيلات المشاة المصرية ، نظرا للتزايد المتوقع في تعطل ناقلات الجنود السوفييتية الصنع بسبب نقص قطع الغيار ، وعدم حلول كميات مماثلة لها من الناقلات الاميركية . في حين أن لدى الجيش الاسرائيلي حاليا نحو ٤٥٠٠ ناقلة جنود مدرعة ، من بينها ٢٥٠٠ ناقلة من طراز « م ــ ١١٣ » ، و ١٠٠٠ ناقلة نصف مجنزرة « م ــ ٣ وايت » ، و ٢٠٠ عربة مشاة قتالية « م ــ ١١٤ » ، و ٨٠٠ ناقلة من غنائم الحروب العربية . وسوف يحصل الجيش المذكور على ٨٠٠ ناقلة جنود جديدة ، قد تحل محل الناقلات القديمة (من مخلفات الحرب العالمية الثانية) من طراز « م ــ ٣ وايت » ، أو تحل بدلا من الـ ٨٠٠ ناقلة السوفييتية الصنع اذا كانت الاخيرة تعاني من مشكلات نقص قطع الغيار . وفي أي الحالات ستحافظ المشاة الميكانيكية الاسرائيلية على قدرتها الهجومية الكبيرة المتوفرة لها حاليا ، إن لم تكن ستزيد منها نتيجة لحصولها على الناقلات الجديدة وتمكن أجهزة الصيانة الاسرائيلية من الاستمرار في توفير قطع الغيار والصيانة للناقلات « م ــ ٣ » والناقلات السوفييتية ، كما هو حادث بالنسبة لغنائم الدبابات ت ٥٤/٥٥ و « ت ــ ٦٢ » .

هذا وكانت وزارة الدفاع الاميركية قد أبلغت « الكونغرس » يوم ٦/٧/٧٩ نيتها سحب ٣٥ طائرة من طراز « ف ــ ٤ فانتوم » من السلاح الجوي الاميركي لبيعها لمصر ، بعد إجراء عمرة شاملة لها ، بمبلغ ٥٩٤ مليون دولار . واوضحت أن الطائرات الـ ١٦ الأولى منها سترسل الى مصر في ٦ تشرين الأول (اكتوبر) المقبل كدفعة أولى تمول قيمتها من القرض العسكري المقرر لمصر وقدره مليار و ٥٠٠ مليون دولار ، المشار إليه سابقا .

وأشارت مصادر وزارة الدفاع المذكورة إلى أن مصر ستشتري من الولايات المتحدة ، في اطار القرض المشار اليه ، ٤٢٠ صاروخا جو ــ جو لطائرات الفانتوم « من طرازي « سبارو » و « سيدوندر » ، بالاضافة إلى ٥٠٠ صاروخ جو ــ ارض من طراز « مافريك » .

ويرى مسؤولو « البنتاغون » أن هذه الاسلحة

« ستوفر لمصر دفاعا جويا مقبولا كحد ادنى ، وكذلك طاقة دعم ارضية مناسبة » .

وفي اليوم ذاته ، اي ٧٩/٧/٦ ، قال مسؤولو وزارة الخارجية الاميركية أن السعودية ترفض حاليا تغطية تكاليف صفقة الـ ٥٠ طائرة « ف ـ ٥ » البالغة ٥٢٥ مليون دولار ، والتي كانت قد وافقت عليهـا لحسـاب مصر من قبـل ، وأن شركة « نورثروب » التي تصنع هذه الطائرات ، ابلغت أن تسعى الى ايجاد زبائن آخرين للصفقة المذكورة . وقالت مجلة « ايرانتـر ناشيونـال » البريطانيـة والمتخصصة في شؤون الطيران ، في عددها الصادر في أول آب (اغسطس) ٧٩ ، أن ١٦ من طياري السلاح الجوي المصري قد وصلوا الى الولايات المتحدة الاميركية في أول حزيران (يونيو) الماضي للتدرب على طائرات « ف ـ ٤ فانتوم » ، وانهم امضوا ٧ اسابيع في دراسة اللغـة الانجليزيـة والمصطلحات الخاصة بتدريبهم في احدى قواعـد السلاح الجوي الاميركي في « لاكلاند » ، وانهم سوف يبدأون التدريب العملي على استخدام الطائرات المذكورة في أوائل آب (اغسطس) الجاري في قاعدة « جورج كاليف » . وسوف يعود ١٢ طياراً منهم الى مصر من اجل قيادة طائراتهم فوق القاهرة خلال عرض عسكري سيقام هنـاك بمناسبـة ذكرى اكتوبر . أما الأربعة طيارين الآخرين فسيبقون في الولايات المتحدة ليتلقوا « دورة معلمين » تبدأ في ١٩٧٩/١٠/١٥ . وذكرت المجلة ايضا أن ٤٠ من الفنيين التابعين للسـلاح الجـوي المصري ، قد انضموا الى الطيارين المصريين الذين يتدربون في الولايات المتحدة ، ليتدربوا على أعمال الصيانة التي سيقومون بها مستقبلا لطائرات الفانتوم في مصر .

هذا وقد ذكرت مجلة « فلايت انتر ناشيونال » ، البريطانية المتخصصة في شؤون الطيران (تصدر اسبوعيـا ، في عدد ٧٩/٧/٢٨ ، أن الـ ٤٢٠ صاروخا جو ـ جو التـي ستشتريهـا مصر من الولايات المتحدة لتسليح طائرات « الفانتـوم » ، تضم ٧٠ صاروخا من طراز « سبارو » (البعيد المدى) و ٣٥٠ صاروخا من طراز « سايدوندر » ، بالاضافة الى ٥٠٠ صاروخ جو ـ جو من طراز « مافريك » . واستطردت قائلة أن الدفعة الأولى من هذه الطائرات ، البالغ عددها ١٢ طائرة ، سيقودها إلى مصر طيارون مصريون ابتداء من ٧٩/٩/١٥ .

والجديـر بالـذكر أن الصـاروخ جو ـ جو « سبارو » يبلغ طوله ٣,٦٥ أمتار ، وقطره ٢٠٠ مم ، ووزنه عند الاطلاق ٢٢٨ كلغ ، من ضمنها رأسه الحربي البالغ ٤٠ كلغ من المواد الشديدة الانفجار . وهو يوجه بطريق الرادار ، وتبلغ سرعته القصوى ٤ ماك ، ومداه الاقصى ٢٥ كلم ، وارتفاعه الاقصى ١٨,٣٠٠ متر .

أما الصاروخ « سايدوندر » فهو صاروخ جو ـ جو قصير المدى يبلغ طوله ٢,٨٥ متر ، وقطره ١٢٠ مم ، ووزنه عند الاطلاق ٨٤,٥ كلـغ ، ويوجـه بالاشعة تحت الحمراء ، ورأسه الحربي يزيد ١١,٥ كلغ ، وسرعته القصوى ٢,٥ ماك ، ومداه الاقصى ١٠ كلم ، وارتفاعه الاقصى ١٨,٣٠٠ متر .

والمعروف أن طائرات « الفانتوم » تسلح ، كحد اقصى ، بأربع صواريخ « سبارو » وأربع صواريخ « سايدوندر » في حالة استخدامها في مهام المطاردة والاعتراض الجوي .

أما الصاروخ « مافريك » فهو صاروخ موجه جو ـ ارض يبلغ طوله ٢,٤٩ متر ، وقطره ٣٠٠ مم ، ووزنه عند الاطلاق ٢١٠ كلغ ، ويوجه بطريقة الكهرو ـ بصرية بواسطة كاميرا تلفزيونية ، وهي طريقة يصعب التشويش عليها . ويبلغ وزن رأسه الحربي ١٣٥ كلغ حين يكون من النوع الشديد الانفجار التناثري ، أو ٥٩ كلغ حين يكون من نوع الحشوة الجوفاء المضادة للدروع . وتبلغ سرعته القصوى ٠,٨ ـ ٠,٩ ماك ، ومده الأقصى ٢٢,٥ كلم . وهو سلاح تكتيكي مخصص لمهمات الهجوم الارضي ، وفعـال بشـكل خاص ضد المدرعـات ومرابض المدفعية والمواقع المحصنة . وقد استخدمه الطيران الاسرائيلي خلال حرب ١٩٧٣ .

وهكذا يتضح لنا أن السلاح الجوي المصري سيحصل على ٣٥ طائرة « فانتوم » فقط من الولايات المتحدة ، ضمن سياسة تنويع السلاح واستبدال طائراته السوفييتية الصنع بطائرات غربية ، وأن الـ ١٢ طائرة التي ذكر من قبل أن مصر ستحصل عليها قبل احتفالات ٦ اكتوبر السنوية ، انما تشكل الدفعة الأولى . وعند اكتمال الصفقة (أي الـ ٣٥ طائرة) ، سيشكل سربان على الارجح ، من هذه الطائرات ، منها ١٦ طائرة ، وغالبا ما ستظـل الطائرات الثلاث المتبقية للتدريب أو لاحتياطيـاتـي السربين .

ويتضح لنا ايضا ان سعر الطائرة الواحدة (غير معروف ما اذا كانت تكلفة الصفقة ، وهي ٥٩٤ مليون دولار تشمل الصواريخ المذكورة أم لا) يبلغ نحو ١٦,٩٧ مليون دولار ، وهو سعر مرتفع للغاية بالنسبة لطائرة مستعملة ، وسبق لاسرائيل أن ادخلت مثيلاتها الأولى في العام ١٩٦٩ ، وتعد أقل تطورا من طائرات « الميغ ــ ٢٣ » التي حصلت عليها مصر منذ العام ١٩٧٤ ، والتي يقدر سعر الواحدة منها بنحو ٥ ملايين دولار . والجدير بالذكر أن اسرائيل لديها حاليا نحو ٢٥٠ طائرة « فانتوم » ، فضلا عن ٢٥ طائرة « ف ــ ١٥ » ، وسوف تحصل على ١٥ طائرة أخرى « ف ــ ١٥ » بالاضافة إلى ٧٥ طائرة « ف ــ ١٦ » في السنوات القليلة المقبلة (فضلا عن ما لديها من طائرات أخرى تضم ٢٧٥ طائرة « سكاي هوك » و ١٠٠ طائرة « كفير سي ــ ٢ ») . ومن ثم فان الـ ٣٥ طائرة « فانتوم » المباعة لمصر لن يكون لها أي تاثير فعال على ميزان القوى العسكري بينها وبين اسرائيل ، وهو ما تحرص عليه الولايات المتحدة في سياستها تجاه تسليح مصر ، رغم وجود معاهدة « السلام » المصرية ــ الاسرائيلية .

محمود عزمي

Palestine Affairs

No. 94 September, 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

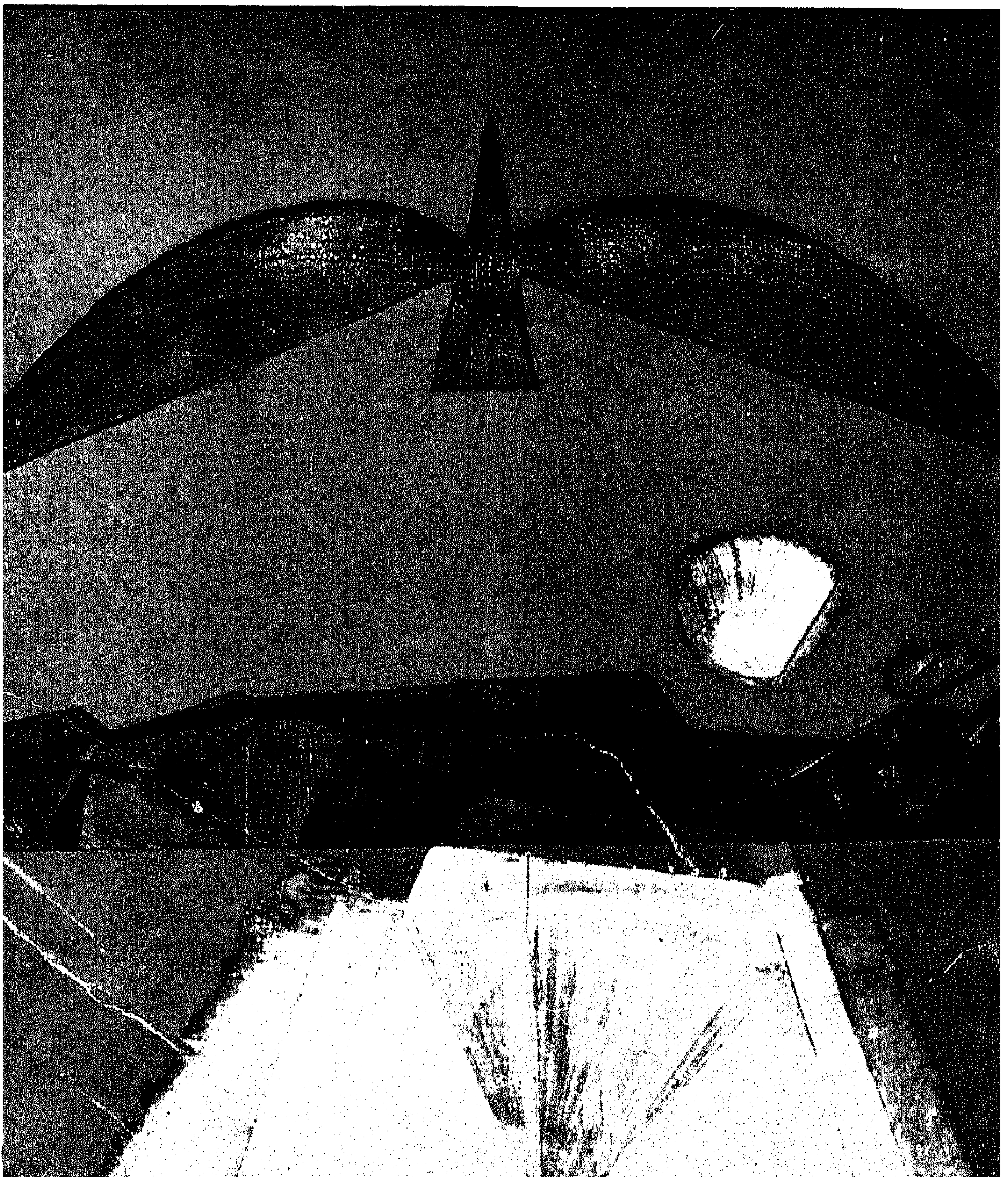
Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعر: ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهماً في ج.ع.ل.

شؤون فلسطينية

٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٩٥ **تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٩**

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني

(متفرع من الساادات) ، رأس بيروت ــ لبنان ، ص . ب ١٦٩١

تلفون · التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠

برقيا : مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) · ٦٠ ل . ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل . ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل . ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل . ل . في جميع الدول غير العربية .

الغلاف للعالمي
ماكس ارنست

المحتويات

الصفحة

سميح فرسون

قضية اندرو يونغ والمسألة الفلسطينية في الولايات المتحدة

واخيرا « وصلت » قضية فلسطين الى الولايات المتحدة . فبادرة اندرو يونغ وما ترتب عليها من نيول وانعكاسات ، طرحت ، بصورة درامانيكية ، قضية سياسية خارجية رئيسية ، في معمعة السياسة الداخلية في الولايات المتحدة . ولربما تحطم الى الابد الاجماع الظاهر في اميركا على المواقف المناصرة لاسرائيل .

على اننا ينبغي ان نوضح بكل جلاء ، ومنذ البدء ، ان لهذه الدراما وجهين اثنين : اولهما جانب شعبي حقيقي يحمل مضامين مهمة على المديين القصير والطويل ، ومن المحتمل ان يكون ذا نفع لقضية فلسطين . وثانيهما الجانب الحكومي الذي ربما كان قد قام بمناورة « مرتبة » ، بغية انقاذ « جهود السلام » باحتواء الحركة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية . وهذه الخطوة ليست معزولة ابدا عن التحرك الدولي الكثيف والدراماتيكي على صعيد قضية فلسطين .

الاجماع المناصر للصهيونية

كان احد الشروط الاساسية لتوفير اجماع مؤيد لاسرائيل في الولايات المتحدة ، قدرة انصار الصهيونية على ابقاء قضية فلسطين بمنأى عن اية صلة بالقضايا الاميركية الداخلية ، وبمعزل عن القوى السياسية المحلية . وبهذا فان المصالح الصهيونية المنظمة والحكومة الاميركية ، تمتعا لأمد طويل باحتكار الجدل السياسي ، ورسم السياسات المتعلقة بقضية فلسطين . وهذا الجدل كان محصورا في الغالب بالمؤسسات الحكومية الرسمية : الخارجية ، والبيت الابيض ، والكونغرس . وكان يدعم هذا الاحتكار السياسي اجماع مناصر للصهيونية جرت عملية صياغته وتكوينه على امتداد السنين في جميع المؤسسات العامة والخاصة تقريبا في الولايات المتحدة ، بواسطة وسائط اعلام متحيزة (الاذاعة والتليفزيون والصحافة) . ومن نافل القول ، انه في ظل اوضاع كهذه ، لم يتح لقضية فلسطين ان تصل الى الاسماع ، ناهيك عن ا ن تنال اي دعم سياسي داخل الولايات المتحدة .

ولقد امكن الحفاظ على هذا الاجماع المناصر للصهيونية عبر نشاط قوتين داخليتين اجتماعيتين ــ سياسيتين منظمتين ومتشابكتين اولاهما المنظمات الصهيونية (واساسا

المنظمات اليهودية التي تمت صهينتها خلال وبعيد الحرب العالمية الثانية) والتي كان لها تاريخ طويل يحفل بمساندة القضايا الليبرالية كالحقوق المدنية ، والبر والاحسان ، وبرامج الانعاش الحكومية ، والنقابات المهنية ، ومعاداة الشيوعية . وكان هذا هو الاتجاه السياسي المهيمن في الولايات المتحدة منذ « الركود العظيم » في الثلاثينات ، والذي تعزز في الحزب الديموقراطي من قبل فرانكلين وروزفلت . وكانت القاعدة الاجتماعية التي قام عليها هذا الاتجاه السياسي : المجتمع اليهودي ، والمجتمع الاسود ، والتجمعات العرقية والاقليات الاخرى ، والنقابات المهنية الكبيرة . وكان هذا اساسا تحالفا لطبقات عاملة وليبراليين من طبقات اخرى . ومع ذلك فان الحزب الديموقراطي كان فيه جناح يميني محافظ وقوي : المؤسسة الجنوبية . ولقد مثل الرباط اليهودي — الاسود الحلقة الاقوى في هذا التحالف . وان كلا من هاتين المجموعتين عانت كثيرا من التمييز ، وناضلت طويلا من اجل الحقوق المدنية .

اما القوة الاجتماعية — السياسية الثانية ، التي ساعدت في الحفاظ على الاجماع وراء الصهيونية ، فتمثلت في التيار القوي المعادي للشيوعية ، والمحبذ للحرب الباردة ، والذي كان له وجود حقيقي في كلا الحزبين (الديموقراطي والجمهوري) وفي كل مؤسسات الولايات المتحدة تقريبا . هذه القوة السياسية بلغ رعبها من الشيوعية حدا جعلها تشن حملة هستيرية لمكافحة الشيوعية ، وبلغت مستوى من القمع قريبا من الفاشية (المكارثية) في داخل الولايات المتحدة .

هذا الاتجاه السياسي عبر عن نفسه ، في السياسة الخارجية للولايات المتحدة ،وبالعداء الشديد والمجابهة للمعسكر الاشتراكي والقوى الوطنية الناشئة وغير المنحازة في افريقيا واسيا واميركا اللاتينية . وفي هذا الاطار ، وعلى سبيل المثال ، رأى هذا الاتجاه الاميركي ، على المستوى الحكومي الرسمي وعلى الاصعد الشعبية ، في القومية العربية والناصرية ، تهديدا حقيقيا للولايات المتحدة . وهذا هو الاتجاه الذي سعى الى التحالف مع اسرائيل ضد القومية العربية. وهكذا فان كلا الايديولوجيتين السياسيتين المهيمنتين في الولايات المتحدة (الليبرالية ومعاداة الشيوعية) تضافرتا على دعم اسرائيل ، وعلى محاربة اعدائها من الوطنيين العرب والفلسطينيين .

التحالفات الداخلية

ولقد لعبت شبكة التحالفات السياسية الداخلية في الولايات المتحدة دورا حاسما في تغذية الموقف الاميركي المساند لاسرائيل وتثبيته والحفاظ عليه . واعني بهذه التحالفات الداخلية : اليهود الصهيونيين مع السود (وسواهم من الاقليات) ، وكذلك الصهيونيين مع النقابات ، وايضا النقابات مع السود (والاقليات الاخرى) . لقد كان هذا تحالفا متداخلا متشابكا يتبادل اطرافه الدعم والمساندة . وبالمثل كان هناك لقاء في نقطة تقاطع مع القوى المعادية للشيوعية ، وبالاخص مع القوى المحافظة في الجنوب . ولقد نشط هذا التحالف بين الليبراليين وبين اعداء الشيوعية على المستويات المحلية والاقليمية والقومية في الولايات المتحدة ، معطيا بذلك صلابة اقوى للتحالف الاكبر ، وزخما اشد لايديولوجيته . وفي حين تجسدت هذه الحقائق بصورة جلية في الحزب الديموقراطي ، فان الحزب الجمهوري كان يخطو وراءه غير بعيد

وساعيا باستمرار الى محاولة التغلب على الديموقراطيين في ميدان السياسة الخارجية . وهكذا غدت السياسة المناصرة للصهيونية والمساندة لاسرائيل، حجر الزاوية في سياسة الولايات المتحدة الخارجية .

ولم يكن هناك ما يهدد هذا التحالف قبل الستينات . والواقع ان القدرات اليهودية ، وضمنها الصهيونية ، من مال وبراعة وصلات سياسية ، ساعدت في عملية تحطيم قوانين التمييز العنصري التي ــ منذ العقد الاخير في القرن الماضي ــ أبقت على قمع السود في نسخة اميركية من سياسة العزل العرقي . ولقد أرسى الانتصار القضائي على قوانين التمييز العنصري في العام ١٩٥٤ ، دعائم تحالف وطيد بين السود من ناحية ، وبين الصهيونيين واليهود ، اقوى واشد من اي وقت مضى . ولدى تصعيد الكفاح من اجل الحقوق المدنية ، تلقت المنظمات السوداء دعما ماليا كثيفا من المصادر الليبرالية (وضمنها خصوصا من الليبراليين اليهود الصهيونيين) . والحقيقة ان القائد الاسود الكبير مارتن لوثر كنغ ، كان نصيرا قويا ومتحمسا لاسرائيل والصهيونية . وظل الحال على هذا المنوال حتى تشوب الاضطرابات التي أثارها السود في المدن الأمريكية الشمالية الرئيسية في الستينات ، عندما بدأت بالظهور بواكير النزاع والانقسام بين السودواليهود وبينهم الصهيونيين . فخلال اكثر من صيف ساخن واحد في الستينات تفجرت مشاعر الاحباط والخيبة والغضب ، المكظومة والحبيسة في الغيتو الأسود ، لتصب جام سخطها على المحلات والمخازن اليهودية داخل الغيتو الأسود وفي الحزام المحيط به . بل ان بعض السود استشعر شيئا من العداء للسامية .

الانقسامات بين السود وبين اليهود الصهيونيين

وتزايد الانقسام بين السود وبين اليهود الصهيونيين خلال عملية التجذير التي شهدها المجتمع الاسود ، اثناء الحركة المعادية للحرب في فيتنام . وازدادت حدة الانقسام مرة اخرى خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ عندما قطعت غالبية الدول الأفريقية علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل من ناحية ، ونتيجة لافتضاح العلاقات الثنائية الحميمة بين اسرائيل وجنوب افريقيا . وان الفكرة والتيار السياسي اللذين انطلقا في اوساط الأمريكيين السود في خضم عملية التجذير (مع تزايد شعور السود بانهم مستعمرة داخلية) ، هذا التيار وهذه الفكرة الداعيان الى التضامن بين دول العالم الثالث ، عبرا بجلاء كلي عن الانسلاخ عن اليهود الصهيونيين . ولكن ، على الرغم من التضامن الشعبي الواسع والقوي في اوساط السود مع شعوب العالم الثالث ، بقيت المنظمات السوداء الكبرى على ولائها لاسرائيل . ويقي زعماء هذه المنظمات يلعبون دور محامي الدفاع عن اسرائيل ومواقفها ، في الكونغرس وفي خارجه . ولم يعلن المساندة لفلسطين ولمنظمة التحرير الفلسطينية سوى المنظمات السوداء الجذرية والماركسية والماوية . ثم ان المسلمين السود اعلنوا تأييدهم لقضية فلسطين . وبهذا المنظور ، شهد المجتمع الاسود حتى ١٩٧٥ انقساما حول المسألة الفلسطينية : ففي حين كان الفقراء وابناء الطبقات العاملة يزدادون دعما للعرب وللشعب الفلسطيني ، كان ابناء الطبقات الوسطى ، وبالأخص من اولئك الذين يتولون قيادة المنظمات السوداء الكبيرة والمؤثرة ، على تأييدهم المعهود لاسرائيل . ويقي التحالف بين المنظمات السوداء وبين المنظمات اليهودية الصهيونية على قوته .

لكن هذا التحالف تضعضع بسبب ثلاث قضايا على الأقل ، جعلت السود يقفون مواقف

معادية لليهود الصهيونيين : واول هذه القضايا، النزاع الذي نشب حول مسألة دور المجتمع الاسود ومدى الاشراف على المدارس ، وبرامج الخدمة الاجتماعية ، ومشروعات التدريب وسواها من المشروعات الاتحادية . فهذه المعركة التي استعرت ، خصوصا في نيويورك ، بين انصار المركزية وبين انصار اللامركزية ، وقف فيها اليهود (والصهيونيون) في صف المركزية ، فيما وقف السود في الجانب المضاد ، في صف اللامركزية . وكانت المعركة قاسية ومريرة ، بحيث أن اصداءها وذيولها لم تخفت ابدا ، وكان لها تأثير خطير ليس على السياسات المحلية الضيقة فحسب ، بل وعلى المستوى الاتحادي ايضا .

والقضية الثانية التي انكت الخلاف بين السود (وسواهم من الأقليات) وبين اليهود الصهيونيين كان يتعلق بالصراعات في اتحاد النقابات ، وهو الصراع النموذجي بين القاعدة والقمة ، بين جماهير العمال من ناحية ، وبين القيادة الأوليغاركية من ناحية اخرى . وتحول هذا النزاع بين القواعد العمالية وبين قياداتها ، في العديد من المناسبات ، الى صراع بين السود (والأقليات الاخرى) الذين يمثلون القواعد، وبين اليهود (الذين يمثلون الزعامة الاوليغاركية للنقابات).ونشأ هذا الوضع في الستينات لأن تركيب القوة العاملة وتركيب النقابات تغيرا ، فيما غادر اليهود المتقلبون اجتماعيا مواقعهم في المهن الطبقية العاملة وتركوها للوافدين اليها من السود واللاتينيين .

اما الموضوع الداخلي الثالث الذي باعد فيما بين السود واليهود الصهيونيين ، فهو «قضية باكي». و«باكي» هذا طالب طب اقام دعوى قانونية ضد جامعة جنوبية في كاليفورنيا بحجة « التمييز العنصري العكسي » : رفض قبوله في كلية الطب على الرغم من اهليته ، وذلك بسبب وجود نظام كوتا معين (التوزيع الى انصبة او حصص محددة) يحتفظ بعدد معين من المقاعد للسود وسواهم من الأقليات . وغدت قضية « باكي » قضية قانونية مشهورة ، واصبحت مثارا للجدل السياسي الواسع ، حيث وقف السود ومنظماتهم في جانب الدفاع عن الكوتا ، في حين وقف اليهود الصهيونيون ومنظمات ليبرالية اخرى ضد نظام الكوتا . وبعد معركة طويلة ومريرة ، كسب « باكي » الدعوى ، واصيبت مكاسب السود من الحقوق المدنية بنكسة سريعة .

وكانت القضية الاخيرة ، وربما الأشد عنفا ، النزاع بين السود واليهود الصهيونيين بشأن جنوب افريقيا . فلقد ناضل السود بكل قوة ، وعلى جميع المستويات ، من اجل سياسة امريكية اكثر تشددا ضد نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا . وفي هذه المسألة كان موقف اليهود الصهيونيين ومنظماتهم مختلفا ، بسبب العلاقات الوثيقة والمتداخلة بين المصالح الاسرائيلية وصهاينة جنوب أفريقيا وبين نظام جنوب افريقيا . ولقد أدى هذا الخلاف الى مقالات ومشادات حادة عمقت الانقسام الموجود . وهكذا ، فحين تفجرت قضية أندرو يونغ ، كان الانقسام قد تحول كما يبدو الى صدع خطير ونزاع مكشوف .

ردة فعل الزعامة السوداء

السرعة التي تفاقم بها النزاع بين السود واليهود الصهيونيين حول قضية يونغ ، كانت شديدة وتقطع الأنفاس . ولعل مما ساعد في ذلك التفاقم ان قضية يونغ جاءت في وقتها تماما ،

أي في وقت انعقاد الاجتماع السنوي لمؤتمر الزعامة الجنوبية المسيحية (SCLC) ، وهي المنظمة التي أنشأها مارتن لوثر كنغ ، والتي يحتفظ فيها أندرو يونغ نفسه بموقع قيادي . وكانت جميع قيادات المنظمات السوداء الرئيسية موجودة تقريبا في المؤتمر الذي طغى عليه الغضب والفزع . ومما زاد الطين بلة ، وأضاف الاهانة الى الخسارة ، تصريحات « الأستذة » التي « تفضل » بها يهودا بلوم ، سفير « إسرائيل » في الأمم المتحدة ، التي نصح فيها السود « بألا يزجوا بأنفسهم في ميادين سياسية لا يعرفون فيها غير القليل » . وكان هذا مما زاد في حنق جميع القيادات السوداء وشعورها بالخسارة والاهانة . وفي اجتماع مشترك إنعقد في نيويورك ، ضم رؤساء المنظمات السوداء ، ورؤساء البلديات السود ، وأعضاء الكونغرس السود ، أكد الناطق على استقلالية السود (عن اليهود الصهيونيين) ، كما أكد حقهم في التعبير عن ، والكفاح في سبيل مواقف تتعلق بجميع الموضوعات ، من داخلية وخارجية . وسارع البعض الى إعلان العزم على عقد محادثات مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية . ونقول بايجاز ما قاله أندرو يونغ نفسه ، من ان الفلسطينيين كسبوا فجأة جمهورا إنتخابيا في الولايات المتحدة . أو نقول مع ماريون بيري عمدة واشنطن دي . سي . من ان منظمة التحرير الفلسطينية : « لم تكن حتى معروفة في أوساط القطاعات الأشد فقرا في المجتمع الأسود ، والآن أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية موضوع اهتمام ومتابعة في هذه الأوساط » .

على هذا الشكل السريع ، تداعى وتصدع التحالف العضوي القديم والمتين بين السود واليهود الصهيونيين ، واصبحت فلسطين قضية امريكية داخلية . على أننا نسارع الى القول ، مخافة ان نفرط ونغالي في تفاؤلنا ، ان التحالف الأسود – اليهودي الصهيوني قد تصدع ، لكنه لم يمت . فأندرو يونغ ، طبقا لما اوردته الصحف اليومية الرئيسية كافة ، سعى الى تطويق الخلاف الأسود – اليهودي الصهيوني حول استقالته ، وذلك بالاتصال هاتفيا برؤساء البلديات السود والتشفع إليهم لتليين مواقفهم وبياناتهم ، ولاصلاح الجسور مع قيادات اليهود الصهيونيين ومنظماتهم . بل إن يونغ نفسه سعى لدى كارتر لكي يتدخل شخصيا لدعوة السود واليهود (الصهيونيين) الى تسوية خلافاتهم . وان المنظمات السوداء ، مثل « الاتحاد القومي لتقدم الشعب الملون » NAACP ومثل « عصبة المدينة » ، معروفة جيدا باعتمادها شبه الكلي على التمويل من المصادر اليهودية الصهيونية الليبرالية . ولقد اتخذت قيادات هذه المنظمات موقفا لينا للغاية بشأن قضية يونغ ، في حين اتخذ الأب جوزف لوري زعيم SCLC والأب جيسي جاكسون زعيم PUSH « الشعب المتحد لانقاذ الانسانية » مواقف أكثر شدة وحسما . ولعل الأب جيسي جاكسون قدم أفضل تشخيص لحالة التحالف الأسود – اليهودي الصهيوني عندما قال إن السود سوف يتعاونون مع اليهود (الصهيونين) في بعض المسائل ، وسوف يختلفون معهم في مسائل اخرى . إنها بداية النهاية للتحالف بين السود وبين اليهود الصهيونيين .

فالمنظمات السوداء والسود عموما ، على الرغم من عددهم الأكبر (زهاء ٢٦ مليونا) يحتاجون المزيد من الوقت والمزيد من الموارد لكي يتمكنوا من إنهاء موقعهم كشريك صغير مع اليهود الصهيونيين . فالمجتمع اليهودي في الولايات المتحدة هو الأفضل تمويلا ، والأرقى تنظيما ، والأعظم قوة ، بين المجتمعات العرقية والأقليات كافة . وفي مجال الموارد المالية

والعلاقات والصلات ، لا يوجد اي تجمع آخر في الولايات المتحدة ، ربما باستثناء حليفهم اتحاد النقابات ، في وسعه أن يضاهي اليهـود الصهيونيين ، الذين يمتلكون منظمات اجتماعية ـ سياسية كبيرة وفعالة ومؤثرة وجيدة التمويل . كما يمتلكون قوة انتخابية تتمثل في نسبة اقتراع عالية ، وأسطورة التصويت كمعسكر واحد . ويتمتع اليهود الصهيونيون كذلك بنفوذ على المرشحين السياسيين عبر التبرعات المالية ، وبنفوذ على الحزبين الكبيرين من خلال الحركية النشطة والتبرعات المالية كذلك . وان لهم وجودا محسوسا في المؤسسات الرئيسية العامة والخاصة كافة . لهذه الأسباب جميعا ، يمتلك اليهود الصهيونيون قوة ضاغطة (لوبي) فعالة للغاية وجيدة التنظيم والتمويل على السواء، في الكونغرس . وتتجسد محصلة هذه كله في حضور سياسي قوي في الولايات المتحدة . وبما أن معظم المجتمع اليهودي المنظم (وليس كله) يدعم اسرائيل ، فان المجابهة الداخلية لمثل هذه القوة السياسية الهائلة هي أمر صعب بالتأكيد .

أما المجتمع الأسود ، فيمتلك شيئا من القوة الانتخابية (إنما بنسبة اقتراع متدنية) ويمتلك بعض القوة في المنظمات الخ ... ومع ذلك فانه يفتقر الى القوة المالية والى الحضور الشامل والمؤثر في المؤسسات . والواقع انه كان يعتمد ماليا على الموارد الليبرالية واليهودية الصهيونية . ومن العسير على المنظمات السوداء أن تتمكن من تحمل نتائج قطيعة كاملة ومجابهة مع المنظمات الليبرالية واليهودية الصهيونية . وهنا ينفتح الباب أمام تسوية قلقة ، وأمام توفيق في المواقف يأخذ كل هذه الامور بعين الاعتبار .

اندرو يونغ

الموقف التوفيقي الذي يتخذه أندرو يونغ حاليا ، فيما يختص بقضية فلسطين ، قد يكون مضرا الى أبعد الحدود . وعلى عكس الصورة التي ارتسمت ليونغ هنا في العالم العربي ، باعتباره بطلا عظيما للمقهورين ، وللفلسطينيين بينهم ، فان اندرو يونغ ، في الحقيقة ، أداة ذكية موظفة في خدمة المؤسسة الأمريكية الحاكمة . وإن أهميته وشعبيته تعودان بالضبط الى تقبله واستيعابه في المؤسسة الامريكية الحاكمة . ويصف أندرو يونغ الكفاح الفلسطيني السلح بأنه أرهاب مساو للارهاب الاسرائيلي في جنوب لبنان . وفي مقابل دعوته الحكومة الأمريكية للحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية ، فانه يدعو الدول الأفريقية لاستئناف علاقاتها الدبلوماسية التي قطعتها سابقا مع اسرائيل . واذا حدث هذا ، فانه لن يؤدي إلا الى إنهاء العزلة التي تعانيها اسرائيل على الصعيد العالمي . واذا قدر للزعماء السود الآخرين أن يتبنوا هذه « الموضوعية » أو « التوفيقية » التي ينتهجها يونغ ، فان الأمر لن يؤدي الـى تآكل المكاسب التي حققها الشعب الفلسطيني على الصعيد الدولي في افريقيا ، وبالمثل فان جهود يونغ النشيطة لاعادة تأسيس الوفاق الأسود ــ اليهودي الصهيوني والتضامن الداخلي ، قد تهز المكاسب السياسية التي حققها الفلسطينيون في داخل الولايات المتحدة نفسها . وخلاصة القول إن طرح يونغ الجديد الذي يساوي فيه بين الضحية (الشعب الفلسطيني) وبين الجلاد (اسرائيل) ، هو توجه خطر على مستقبل الطرح الفلسطيني في الولايات المتحدة واوروبا وافريقيا ، وهو بهذا يلعب دور حصان طروادة في مجال قضية فلسطين .

هناك فرضية مطروحة في الولايات المتحدة الان تقول ان قضية يونغ تنم عن قمة جبل جليدي مخفي يتشكل من سلسلة من المناورات الأمريكية التي جل مبتغاها تصليب وتعزيز اتفاقيات كمب ديفيد ، واختراق المقاومة العربية للاتفاقيات بحركات إلهاء ، ونصب الشرك لمنظمة التحرير الفلسطينية ، أو لأنصارها ، في الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد يكون هذا جزءا من المجهود الأميركي « لانقاذ اسرائيل على الرغم منها » ، ولتخليص الولايات المتحدة من القيود التي الزمها بها كيسينجر . فالولايات المتحدة تسعى لتحقيق تسوية شاملة في الشرق الاوسط ، ولكن وفق شروطها بالطبع . انه سلم اميركي يقوم على الامساك بالمنطقة سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا : النفط العربي ، ودولارات النفط ، والأسواق والاستثمارات .

وتبقى الثورة الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية عقبة كاداء امام تحقيق هذه الغايات الأمريكية . فاذا ما استعصت تصفية الثورة جسديا وماديا ، فلا أقل من تدجينها وترويضها ، طبقا لتصريح ناطق رسمي في الخارجية الأمريكية . وعندئذ فقط تأتي امكانية التبادل والتعاطي مع منظمة التحرير الفلسطينية ، اي بعد خضوع المنظمة للشروط الأمريكية . أما ما هو الثمن الذي يتوجب على منظمة التحرير الفلسطينية والشعب الفلسطيني دفعه مقابل هذا،فغيرواضح حتى الآن . وما هو الثمن الذي سيتكلفه الشعب الفلسطيني في عملية الترويض والتدجين المذكورة ، فغير واضح كذلك .

وفي الختام نقول ان قضية أندرو يونغ والتطورات المثيرة في السياسات الأمريكية الداخلية تشبه سيفا ذا حدين : انه يمكن أن يقطع بكلا الحدين . إنها حقيقة جديدة قد تشكل القاعدة الملائمة لتصعيد الكفاح الفلسطيني في الميدان الأمريكي . لكنها من الجهة المقابلة ، قد تكون مجرد قناة لتمرير مناورات أمريكية جديدة وكثيرة ومعقدة بهدف إقامة « السلام » على حساب الشعب الفلسطيني ، وممثله الشرعي الوحيد ، منظمة التحرير الفلسطينية . لكن أيا كان المسار ، فان الانقسام الأسود ــ اليهودي ــ الصهيوني في الولايات المتحدة ، يشكل على المدى القصير على الأقل ، كسبا صافيا لفلسطين .

نـزيـه قـوره

شبح الصهيونية الديموغرافي

اشتهر عن غولده مئير ، رئيسة وزراء اسرائيل السابقة ، قولها : « أريد أن أنام دون ان افكر كم طفلا عربيا ولد الليلة » . ونريد من ايراد هذه العبارة استخلاص أمور أخرى ، غير عنصرية الحركة الصهيونية -فالجدل السياسي الصهيوني يحفل باستعمال تعبير ، يكاد استعماله يقتصر على الحركة الصهيونية ، وهو تعبير « الشبح الديموغرافي . وسواء كان الجدل يتعلق بمسألة الضفة الغربية وقطاع غزة ، أو بالجليل والمثلث أو بالنقب ، فأن هذا « الشبح » يكاد يهيمن على عقل وتفكير قيادة الجيش الاسرائيلي ، ومسؤولي دائرة الاستيطان في الوكالة اليهودية ، اضافة الى المسؤولين عن ادارة الاقتصاد الاسرائيلي .

ان أهمية هذه المسألة تنبع ، في جوهرها ، من حقيقة أن تجسيد المشروع الصهيوني هو ، في الأساس ، عملية استبدال سكان بسكان : اخراج السكان العرب واحلال سكان يهود محلهم . ومن هنا كانت الفكرة الأساسية المسيطرة على العقل الصهيوني ، منذ بداية احتلال الانجليز لفلسطين عام ١٩١٧ ، هي فكرة الوصول الى اغلبية يهودية ، وتحويل العرب الى اقلية في بلادهم . غير ان هذا الهدف لم يكن تحقيقه مرتبطا فقط بقدرة السلطة البريطانية الانتدابية على كسر مقاومة العرب للمشروع الصهيوني ، بل كان العامل الحاسم في تحقيقه هو القدرة على استجلاب اعداد كافية من المهاجرين اليهود لتحقيق هذه الاغلبية . وحتى يومنا هذا لم تعان الحركة الصهيونية من الاحساس بالمرارة والفزع والشعور بالخيبة العميقة الا عندما كانت تقف في مواجهة طائفة يهودية ترفض الهجرة الى فلسطين ، رغم عدم وجود ما يعيق هجرتها تلك .

في عام ١٩١٧ كان عدد اليهود في فلسطين يقدر بنحو ٥٠ الفا ، مقابل ٦٥٠ الف عربي . وفي الاعوام التي تلت الاحتلال الانجليزي مباشرة ، وحتى عام ١٩٢٣ ، لم يكن عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين يتجاوز ٩٠٠٠ مهاجر سنويا : وهذا الرقم كان يعني ان الصهيونية تحتاج لأكثر من مئة عام لكي تهجر مليون يهودي الى فلسطين . غير ان « مصادفة سعيدة » ،

وما أكثر المصادفات السعيدة في التاريخ الصهيوني ، حدثت في عام ١٩٢١ ، وحدثت مصادفة سعيدة أخرى عام ١٩٢٤ .

ففي عام ١٩٢١ أقر الكونغرس الاميركي قانونا للهجرة يقضي بتقليص عدد المهاجرين من أوروبا الشرقية الى الولايات المتحدة . وكانت النتيجة ان تقلص عدد المهاجرين اليهود من اوروبا الشرقية الى الولايات المتحدة من ١١٩,٠٣٦ عام ١٩٢١ الى ٥٣,٥٢٤ مهاجرا عام ١٩٢٢ . وفي عام ١٩٢٤ جرى تعديل قانون الهجرة المشار اليه ، ونتج عن التعديل أن تقلص عدد المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية الى الولايات المتحدة ، من ٤٩,٩٨٩ مهاجرا عام ١٩٢٤ ، الى ١٠,٢٩٢ مهاجرا عام ١٩٢٥ . وفي نفس الفترة قفز عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين من ١٦,٢٩٧ مهاجرا عام ١٩٢٤ الى ٣٦,٩٢٣ مهاجرا عام ١٩٢٥ .
غير ان هذا الازدهار المفاجيء في الهجرة اليهودية الى فلسطين لم يدم . ففي السنوات الواقعة بين عامي ١٩٢٧ ــ ١٩٣٢ كانت أعداد اليهود المهاجرين الى فلسطين ومنها ، على الوجه التالي :

السنة	المهاجرون	النازحون[٢]	الهجرة الصافية
١٩٢٧	٣٤٥٠	٥٠٧١	ـ ١٦٢١
١٩٢٨	٢٠٠١	٢١٦٨	ـ ١٦٧
١٩٢٩	٥٢٤٩	١٧٤٦	٣٥٠٣
١٩٣٠	٤٩٤٤	١٦٧٩	٣٢٦٥
١٩٣١	٤٠٧٥	٦٦٦	٣٤٠٩
١٩٣٢	٩٥٥٣	؟	؟

إن من الواضح أن مثل هذه الارقام لا تستحق جهود حركة كالحركة الصهيونية . اذ ان تجميع مليون يهودي في فلسطين ، بهذه المعدلات يتطلب اكثر من ثلاثمائة سنة . غير أن « المصادفة السعيدة » لم تتأخر عن نجدة الحركة الصهيونية في اللحظات التي رأى فيها الصهيونيون مشروعهم ينهار أمام اعينهم . فقد استلم النازيون الحكم في المانيا مع مطلع عام ١٩٣٣ ، وسارعوا فور تسلمهم الحكم الى تطبيق مبادىء السياسة المعروفة باللاسامية . وكانت النتيجة ان هاجر الى فلسطين في السنوات الاربع الاولى التي تلت تسلمهم للحكم ، أي بين عامي ١٩٣٣ ــ ١٩٣٦ ، نحو ١٦٤,٠٠٠ مهاجر يهودي[٣] . وترافقت هذه الهجرة الكبيرة الى فلسطين مع فرض اشد قيود فرضتها الولايات المتحدة الاميركية على دخول اليهود اليها منذ اكثر من خمسين سنة . ففي العام ١٩٣٣ لم تمنح تأشيرات الهجرة الى الولايات المتحدة لأكثر من ٢٣٧٢ يهوديا ، وفي عام ١٩٣٦ لم يزد هذا الرقم عن ٦٢٥٢ مهاجرا يهوديا[٤] .

لقد كانت الأعوام الثلاثون التي حكمت فيها بريطانيا فلسطين ، بين ١٩١٧ ــ ١٩٤٨ ، أعوام صراع دموي ، استهدف تكوين أغلبية يهودية ، والغاء الاغلبية العربية . ولم تكن فلسطين وحدها هي ساحة هذا الصراع ، بل ان ترتيب الساحة الفلسطينية كان آخر الساحات . لقد كان على الصهيونية ان تكسر المقاومة اليهودية للمشروع الصهيوني ، وأن تجبر اليهود ، غير الراغبين في ترك أوطانهم والهجرة الى فلسطين ، على فعل ما لا يرغبون . أي أن

نجاح الصهيونية في فلسطين كان متوقفا ، بصورة حاسمة ، على نجاحها في رومانيا وبولونيا وروسيا وبقية مناطق شرقي أوروبا .

وفي بداية عام ١٩٤٨ كان الميزان الديموغرافي في فلسطين على الوجه التالي : ٦٥٠ الف يهودي مقابل ما يقرب من ١,٤ مليون عربي ، أي أن مجموع سكان فلسطين عام ١٩٤٨ كان قد وصل الى نحو مليوني نسمة . ويبدو أن الصهيونية توصلت الى الاستنتاج بأن مرور الزمن لن يضمن تحسنا في الميزان الديموغرافي لصالحها ، وأن هناك مخاطر حقيقية من حدوث تحولات عكسية في هذا الميزان لصالح السكان العرب ، نتيجة للمعدلات المرتفعة للتكاثر الطبيعي عند العرب من ناحية ، ونتيجة لبداية حركة نزوح يهودية من فلسطين . ولذلك بدأت الصهيونية حربها ، بعد أن كانت قد استعدت لها طويلا ، مستهدفة طرد اكبر عدد ممكن من الفلسطينيين من بلادهم . ونتج عن الحرب اخراج نحو ٨٠٠ الف فلسطيني من المناطق التي وقعت تحت السيطرة الصهيونية .

لم يكن اخراج الفلسطينيين من بلادهم ، والسيطرة على اموالهم واملاكهم ، هي الفائدة الوحيدة التي جنتها الصهيونية من هذه الحرب . فقد كانت هناك فائدة أخرى لا تقل أهمية عن الفائدة الأولى.بل يمكننا ان نقول هنا ايضا ان الصهيونية لم تكسب الحرب ضد الفلسطينيين فقط ، بل كسبتها ضد يهود البلدان العربية ايضا . وفي الحقيقة لم يكن لكسب الحرب الاولى أي معنى لو لم يتم كسب الحرب الثانية . فالطوائف اليهودية التي كانت تعيش في البلدان العربية رفضت أن تهاجر الى فلسطين في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩١٨ ــ ١٩٤٨ . غير أن النتائج التي اسفرت عنها حرب عام ١٩٤٨ ادت الى تفعيل مزيج من التآمر والجهل نتج عنه تهجير ما يزيد عن ٣٠٠ الف يهودي من البلدان العربية والبلدان الاسلامية المتضامنة معها ، وذلك خلال أقل من ثلاث سنوات على نهاية الحرب الفلسطينية الأولى . ان افراغ الارض الفلسطينية من الفلسطينيين لم يكن ليكون له اية نتيجة عملية لولا الاسراع في تهجير عدد من الطوائف اليهودية من البلدان العربية ، بحجة ان حكام هذه البلدان « ينتقمون » لأخوانهم الفلسطينيين من اليهود ، ونخص بالذكر حاكم اليمن الأمام أحمد حميد الدين الذي قام بتهجير نحو ٥٠ الف يهودي يمني خلال عام ١٩٤٩ ، وحاكم العراق ، نوري السعيد ، الذي قامت حكومته بتهجير نحو ١٢٥ الف يهودي عراقي خلال عامي ١٩٥٠ ــ ١٩٥١ .

وبحلول نهاية عام ١٩٦٥ كان قد تم افراغ البلدان العربية افراغا شبه تام من الطوائف اليهودية العربية وتهجيرها الى اسرائيل . وأصبح بالامكان القول ان نضال الحكومات العربية ضد الصهيونية قد نتج عنه ، خلال السنوات العشرين التي تلت اقامة اسرائيل ، تزويدها بما يتراوح بين ٧٠٠ ــ ٨٠٠ الف مهاجر يهودي ، يزيد عددهم اليوم ، مع نسلهم ، عن مليوني نسمة .

في المصطلحات الصهيونية يطلق على هجرة يهود البلدان العربية « هجرة يهود الضائقة » ، أي هجرة هؤلاء اليهود الذين تخضع طوائفهم لسياسات حكومية « اقتلاعية » ، وغالبا ما تتميز تلك الطوائف بتدني مستوى الثقافة والدخل . ويعد هجرة هؤلاء اليهود الى اسرائيل ، تجد الصهيونية فيهم ثلاث صفات يتميزون بها عن يهود البلدان الميسورة أو شبه

الميسورة ، وكل هذه الصفات نابعة عن فقرهم وافتقارهم للثقافة: الاولى هي قابليتهم للتوزيع الجغرافي ، الأمر الذي يتيح للصهيونية اسكانهم في اطراف البلاد وفي المناطق الحدودية بصورة خاصة ؛ والثانيةهي قابليتهم لما يسمى بالتحويل المهني ، أي سد احتياجات القطاعات الانتاجية التي تتطلب الاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة والبناء وغيرها ؛ والثالثة هي معدلات التوالد المرتفعة لديهم ، الأمر الذي يعوض المعدلات المنخفضة لدى اليهود الاوروبيين والنزوح . ورغم تذمر اليهود الاوروبيين من ازدياد نسبة اليهود الشرقيين ، واعرابهم عن تخوفهم من امكانية تحول اسرائيل الى دولة مشرقية ، الأمر الذي يحمل خطر خيانة اليهود الشرقيين للصهيونية ، الا انه يمكن التأكيد أنه بدون هجرة يهود البلدان العربية ، لم يكن بامكان الدولة اليهودية أن تعمر أكثر من بضع سنوات . وقد اثبتت تجارب الصهيونية مع اليهود الاوروبيين والأميركيين أن تهجير هؤلاء لا يتم الا تحت وطأة ظروف بالغة في قسوتها ، وان بقاءهم في اسرائيل أمر غير مضمون ، وأنه ، في حالة غياب الظروف الشاذة ، لا يقدم هؤلاء اليهود للصهيونية جمهورا وقاعدة اجتماعية ، بل خبراء وحكاما .

ان وجود الصهيونية ومصيرها لم يكونا في يوم من الايام مرتبطين بقوة حججها أو بقوة اعلامها أو حتى بحجم الدعم الخارجي الذي تحصل عليه ، والذي يتجسد اساسا في تقديم المال والسلاح . ان وجودها ومصيرها مرهونان بقدرتها على **خلق الوقائع** . والعنصر الحاسم في خلق الوقائع هو توفر العنصر البشري ، بالكمية والنوعية اللازمتين . وبمقدار ما يتوفر للصهيونية من عنصر بشري ، تجري مصادرة الارض وطرد اصحابها واقامة المستوطنات عليها . ولكن حيث لا يتوفر العنصر البشري ، تصبح مصادرة الارض وطرد اصحابها اعمالا عبثية لا طائل من ورائها .

في الجليل والمثلث يعيش الآن نحو نصف مليون عربي . وقد عاش هؤلاء تحت الحكم العسكري الاسرائيلي طيلة ثمانية عشر عاما . واذا بحثنا عن سر بقائهم وتكاثرهم ، بالاضافة الى تشبثهم بالبقاء على أرضهم ، فلن نجد ذلك السر في خوف الصهيونية من الرأي العام العالمي أو أي « رأي عام » آخر . ان التفسير البسيط لبقاء هؤلاء العرب يكمن في عدم وجود ما يكفي من اليهود للحلول محلهم .

يقول الكاتب الاسرائيلي ، رؤوبين مروز ، في مقالة له نشرتها صحيفة عل همشمار ، الناطقة بلسان حزب مبام ، الصهيوني الاشتراكي : « ان من ينظر الى خارطة التقسيم لعام ١٩٤٧ يدرك على الفور ان شيئا لم يتغير ، بصورة ذات مغزى ، من ناحية موقع عرب اسرائيل الجغرافي وتفوقهم السكاني في المناطق التي عاشوا فيها قبل عام ١٩٤٨ . فبعد ان كان عدد من بقي منهم في حدود الدولة ١٣٠ الفا اصبح الآن ٥٠٠ الف ، وسيصل في العام ١٩٨٥ الى ٧٧٠ الفا ، سيستمرون في العيش في تجمعات الجليل والجليل الاسفل والمثلث . الوضع اسوأ في المثلث اذ تكاد لا توجد فيه مستوطنات يهودية » . يتضح على الاقل ان عدم احراز تفوق سكاني لليهود في الجليل والمثلث ، وعدم وجود مستوطنات يهودية في المثلث ليس ناتجا عن افتقاد السلطات الصهيونية لادوات القهر اللازمة لانتزاع الارض وتهجير السكان العرب ، أو عن امتناع هذه السلطات عن استعمال هذه الادوات .

ونستطيع مشاهدة نفس ظاهرة انعدام النمو السكاني اليهودي في النقب . فهذا الجزء من فلسطين أمكن امداده بالسكان اليهود نتيجة للهجرة اليهودية الجماعية من البلدان العربية وخاصة من بلدان شمال افريقيا . وبدأ السياسيون الاسرائيليون يتحدثون الآن عن توقف تطوير النقب . الأموال متوفرة والمخططات معدة وجاهزة ، ولا ينقص سوى شيء واحد فقط هو المهاجرون.يقول البروفيسور يهودا غرادوس ، رئيس دائرة الجغرافيا في جامعة بن-غوريون (النقب) : « ان النمو في النقب قد فقد اندفاعه منذ منتصف الستينات . واذا كان هناك نمو في عدد السكان في النقب ، فان ذلك عائد الى معدل الولادات المرتفع لدى البدو والذي يبلغ ٥٪ سنويا ، ويساوي أربعة اضعاف معدل الولادات لدى اليهود »(٦) .

اذا كان النقص السكاني (الناتج عن تقلص الهجرة وانخفاض معدل المواليد) هو الذي يوقف عملية التهويد ، ملغيا بذلك المبررات المعلنة لمصادرة الارض ، فان القيادة الصهيونية لا تستطيع ان تقف متفرجة على عملية تآكل البناء الصهيوني . ان الأمر لا يقتصر بالطبع على تقلص في الهجرة وانخفاض في معدل المواليد ، بل يترافق مع شكلين من اشكال النزوح هما : النزوح الداخلي من الاطراف الى التجمع المديني في الوسط ، والنزوح الى خارج البلاد . والنتيجة المترتبة على هذه التحولات ، ان الصهيونية تفقد المبررات الاقتصادية والسكانية لمصادرة اراض جديدة ، كما تفقد في الآن ذاته مبررات الاحتفاظ بقسم متزايد من الاراضي التي تمت مصادرتها في أوقات سابقة .

لكن القيادة الصهيونية لا تتوقف عن المصادرات الجديدة للارض ، لا في الجليل ولا في المثلث ولا في النقب . وغني عن القول ان عدم وجود يهود للعمل في زراعة الارض ، لا يشكل مبررا يدفع الصهيونية لارجاع الارض التي تمت مصادرتها ، الى اصحابها ، الذين يعملون ، في احيان كثيرة ، كأجراء في الارض التي تعود ملكيتها القانونية لهم .

كان من المفروض ان يقود هذا الوضع ، على الاقل ، الى امتناع القيادة الصهيونية عن مصادرة الاراضي في المناطق المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، أي في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان . ومع ذلك لم تثر قضية من الجدل السياسي ، على النطاق العالمي ، مثل الجدل الذي ثار بسبب اقامة المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية ، بصورة خاصة ، وفي بقية المناطق بصورة عامة . غير ان كل ذلك الجدل ظل يدور حول مشروعية أو عدم مشروعية اقامة المستوطنات . وقد كلف الرئيس الاميركي نفسه ، عدة مرات ، عناء الاعلان عن « عدم مشروعية اقامة المستوطنات في الضفة الغربية » . ويجب أن نتوقع ، بين الحين والحين ، صدور تصريح عن مسؤول اميركي يعلن فيه « عدم مشروعية ... الخ » ، مرضيا بذلك شهوات الذين يبحثون عن دلائل التحول في الموقف الأميركي .

لا بد لنا من التكرار بأن النشاط الصهيوني ينطلق من مبدأ « خلق الوقائع » . ونجاح المشروع الصهيوني وفشله لا يعتمدان ابدا على كسب المشروعية أو خسارتها . والذي يشغل بال القائد الصهيوني ، في المقام الاول ، ليس رضى او عدم رضى « الرأي العام » عن اعماله ، بل توفر اليهود أو عدم توفرهم ، بالاضافة الى فعالية أو عدم فعالية المقاومة التي تلقاها الصهيونية على الارض وليس على الاثير .

الصحافي الاسرائيلي ، دافيد كريفين ، المعلق في صحيفة « جيروزاليم بوست » الصادرة باللغة الانجليزية ، يقدم لنا نموذجا عن الطريقة التي ينظر بها الصهيونيون الى عملية اقامة المستوطنات : « الحقيقة المتواضعة هي أن معسكر قدّوم يتألف من بضع عشرات من العائلات المتجمعة داخل نطاق معسكر للجيش ... سوف لا يستوطن اليهود يهودا والسامرة (الضفة الغربية) ، ... والسبب المحزن للفشل الذريع لجماعة غوش إمونيم هو سبب بسيط : ليس هناك يهود . إن الهجرة من الغرب لم تأت . ولوكان هناك مئات الألوف من المهاجرين الجدد كل عام ، كما حدث في بداية الخمسينات ، يتدفقون الى المناطق الخالية ، ويحتلون كل زاوية يمكن تصورها ، لكان الأمر مختلفا .

لقد كان من شأن اليهود ان يمتلكوا الحق في جعل الضفة الغربية ملكا لهم (كما جعلوا القدس ملكا لهم) بواسطة الحقيقة الديموغرافية الحاسمة غير القابلة للجدل ، وهي حقيقة التفوق العددي على العرب . وان هذا لم يحدث ــ وسوف يتم اعتصار اسرائيل واخراجها من المنطقة بسبب فشلها هي ، وهو فشل ذو ابعاد تاريخية . ان حكم العالم لا يزيد عن كونه اعترافا بهذه الحقيقة الصلبة .

ان تلك المجموعة ، المثيرة للشفقة ، من الأكواخ في قدّوم ، لا يمكن ببساطة ، أن تشكل عاملا في الصراع الاستراتيجي للقوى . واذا كان لها من دور ، فهو ابراز الغياب المؤلم لأي وجود يهودي في المنطقة المتنازع عليها »[٧] .

قلما نشاهد في وسائل الاعلام الصهيونية ، داخل فلسطين أو خارجها ، مثل هذه الاعترافات الفاجعة . على انه يجب أن لا نستنتج ان الذين يرون ما يراه هذا الصحفي ومسؤولو دائرة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية ــ يرون اكثر مما يرى أي صحفي ــ يتبنون فكرة ترك الضفة الغربية وقطاع غزة لأهلهما . فكل من له علاقة بالحركة الصهيونية يبني حساباته على ان اليهود سيأتون بمئات الألوف في النهاية . وعندما يأتون سيختارون السكن في مستوطنات تقام لهم في الضفة الغربية . وسوف يتحول التاجر والاكاديمي والاداري والصحفي والفنان الى عمال زراعيين وعمال بناء وعمال صناعة . وهؤلاء الصهيونيون لا يعطون وزنا كبيرا لتصريح رئيس امريكي يصف فيه المستوطنات بأنها « غير شرعية » ، لأنهم يعرفون أن الرئيس الامريكي ، لم يكن ليطلق تلك التصريحات ، لوكان يرى أمامه مستوطنات حقيقية ومستوطنين حقيقيين ، وليس مجرد قوات عسكرية تقوم بتسييج أراضي القرى والاعلان عن مصادرتها . ان الحملة العالمية من اجل « حقوق الانسان » ، سوف تتوقف في اللحظة التي يدرك فيها المسؤولون الامريكيون أن الجهد المبذول من أجل الدفاع عن حقوق الانسان ، لا يعطي مردودا كافيا متمثلا في عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين .

ان اشد ما يثير حس الاكتئاب لدى المسؤولين الصهيونيين هو ان الغبار الذي تثيره قضية الاستيطان لا يتناسب مع عدد خيول الاستيطان . ونحن نميل الى القبول بأن الصهيونية تعتمد اثارة الغبار لكي توحي انها لا زالت تتمتع بكل فحولة الصبا . غير أنه لا يمكن تغييب الحقيقة تغييبا كليا . فقد نشرت صحيفة الجيروزاليم بوست تصريحا لوزير الاسكان السابق في عهد حكومة رابين ، عوفر ، يتعلق بمستوطنة كريات أربع المقامة قرب مدينة الخليل في الضفة

الغربية ، بين فيه ان السبب الرئيسي لعدم تطور هذه المستوطنة لا يعود لأي سبب خارجي ، أو لأي سبب يتعلق بتوفير الأمكانات : « لقد اعطى عوفر التفصيلات التالية عن التسهيلات السكنية في كريات اربع :

شقق مؤجرة لعائلات ٢٥٤
شقق مباعة ٢٤
شقق محولة للاستخدامات العامة
كالمكتبات ودور الحضانة ٣٤
شقق خالية ٨٩

وقال عوفر : «في العام الماضي أعلنا أننا نملك ٢٠٠ شقة أخرى في المراحل النهائية للبناء . وحتى هذا التاريخ لم نتمكن من بيع اكثر من شقة واحدة من الشقق المئتين .. يبدو ان المشكلة تكمن ، ببساطة ، في أن اليهود ليسوا معنيين بالاستيطان في كريات اربع »[٨] .

لقد صدر هذا التصريح بعد ثماني سنوات من اقامة هذه المستوطنة التي اثارت ولا تزال تثير الكثير من الجدل والضجيج . فاذا عرفنا أن شروط بيع الشقق للمستوطنين تجعل من عملية البيع عملية اشبه بالهبة ، فان العجز عن بيع اكثر من ٢٤ شقة من مجموع مئات الشقق خلال ثماني سنوات (١٩٦٨ ــ ١٩٧٦) ، يشير بوضوح الى ان الاستيطان ليس مدفوعا بدوافع ذاتية داخلية مرتبطة بالحاجات الاجتماعية والاقتصادية . ان قول وزير الاسكان السابق « ان المشكلة تكمن في ان اليهود ليسوا معنيين بالاستيطان في كريات أربع » ، ومعرفتنا بأنهم ليسوا معنيين بالاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما انهم ليسوا معنيين بالاستيطان في الجليل والنقب ، يدفعنا الى التساؤل عن الجهة المعنية بهذا الاستيطان ، وعن اغراض هذه الجهة .

لقد نقلت صحيفة دافار ، في نهاية عام ١٩٧٧ ، المعلومات التالية عن التحولات الديموغرافية داخل فلسطين ، وذلك نقلا عن المكتب المركزي للأحصاء : « بلغ عدد المواليد العرب في قضاء عكا عام ١٩٧٦ ، ٦١٠٠ مقابل ٢٠٣٢ مولودا يهوديا ... وقد أصبح اليهود اقلية في قضاء عكا ، حيث يبلغ العدد الكلي للسكان ٢٢٧,٠٠٠ نسمة منهم ١٤٤ الفا من العرب و٨٣ الفا من اليهود ... ان تغييرات ديموغرافية سريعة تجري في المنطقة الشمالية كلها ، وقد بلغ عدد سكان المنطقة في نهاية عام ١٩٧٦ نحو ٥٥٠ الف نسمة منهم ٢٨٥,٠٠٠ نسمة من اليهود أي ما نسبته ٥٢,٣٪ والباقي من العرب ونسبتهم ٤٧,٧٪ . وان الزيادة في السنة الماضية بلغت عند العرب ضعفها عند اليهود في المنطقة الشمالية ، حيث بلغت الزيادة عند العرب ٩٤٠٠ شخص مقابل ٤٧٠٠ عند اليهود ... وهناك رأي يقول بأن اليهود سوف يفقدون اغلبيتهم الصغيرة في المنطقة الشمالية خلال سنة أو سنتين »[٩] .

ان الصورة السكانية التي تتكون لدينا لا يمكن تبسيطها الى أكثرية واقلية على نطاق فلسطين كلها . فالقيادة الصهيونية ليست معنية فقط بامتلاك اغلبية على نطاق البلاد كلها ، بل هي معنية بامتلاك اغلبية في كل منطقة من مناطق فلسطين . ذلك ان عدم امتلاكها للاغلبية في

منطقة واحدة يضع السيطرة الصهيونية في تلك المنطقة موضع التساؤل الدائم . ومن المفهوم ان الحركة الصهيونية ، بالأساس ، ليست حركة فكرية ، ينضم اليها من يقبل بمجموعة من الافكار والمعتقدات ، بل هي حركة تعتمد مفهوم العرق المغلق ، الذي تتوجب صيانته باستمرار من التلوث بالاعراق الأخرى .

ان العجز عن تكوين كتلة سكانية يهودية ذات وزن في الضفة الغربية أو في قطاع غزة ، والعجز عن الاحتفاظ بتفوق سكاني في الجليل والمثلث والنقب ، يعني ان هذه المناطق ، بالترتيب الذي وردت فيه ، معرضة للاقتطاع من « دولة اليهود » . وقد اثبتت التجارب الماضية ان غير اليهود لا يمكن ان يكون لهم نصيب في دولة اليهود ، سواء على المستوى السياسي او الاقتصادي او الثقافي او الاجتماعي .

ان جهود نحو مئة عام ، بدأت بالهجرة اليهودية الاولى عام ١٨٨٢ ، لم تؤد الى خلق أغلبية يهودية مضمونة الا في منطقة واحدة من فلسطين ، وهي المنطقة الساحلية الممتدة من حيفا شمالا الى تل ابيب جنوبا . وهذه المنطقة لا تزيد مساحتها عن ٢٠٠٠ كم٢ . ورغم الجهود الكبيرة التي بذلتها الوكالة اليهودية والسلطات الحكومية الاسرائيلية لتوزيع السكان من أجل خلق أغلبيات في كافة المناطق الأخرى ، الا ان هذه الجهود لم تنجح . وعلى العكس من ذلك يشكو موظفو الوكالة اليهودية وموظفو وزارة الاستيعاب من أن المهاجرين الجدد لا يرغبون في ان يكونوا « طلائعيين » ، ويميلون الى الاقامة في التجمع المديني الساحلي . والمسألة لا يمكن ان تقف عند عدم النمو . فعدم النمو ذاته آلية خاصة به تدفع بالطلائعيين القدامى الذين ارسلوا سابقا الى مستوطنات الجليل والنقب الى النزوح باستمرار نحو الوسط . ولذلك من المتوقع ان تتزايد سرعة نمو الأغلبية العربية في الجليل والنقب . ومن شأن هذا التطور أن يؤدي الى خلق مركز سكاني مديني في وسط البلاد يتكون أساسا من اليهود ، والى خلق طوق سكاني عربي يبدأ بغزة ويمر بالنقب والضفة الغربية وصولا الى المثلث والجليل . ومن شأن هذا التطور ان يصل الى وضع ينشأ فيه اتصال سكاني مباشر بين الطوق الفلسطيني السكاني الداخلي وبين التجمعات السكانية العربية في البلدان العربية المحيطة .

من اجل منع الوصول الى هذه النتيجة تبنت القيادة الصهيونية استراتيجية تعتمد اقامة احزمة امنية سكانية : في البداية اقامة حزام امني يتألف من مستوطنات يهودية على طول الحدود اللبنانية والسورية والاردنية وحدود قطاع غزة . وبعد عام ١٩٦٧ جرى اقامة حزام امني عرف باسم مشارف رفح لكي يكون حاجزا بين سكان قطاع غزة ومصر ، كما جرى اقامة حزام من المستوطنات على طول هضبة الجولان وغور الاردن ووادي عربة . واعتمدت سياسة تهويد القدس على اقامة طوق سكاني يحيط بالمدينة . كما جرى وضع خطة لاقامة سلسلة من المستوطنات بين القدس وأريحا ، بحيث تشكل حاجزا سكانيا بين جنوب الضفة الغربية (التي يسمونها يهودا) وشمال الضفة الغربية (التي يسمونها السامرة) . وليس عبثا اطلاق الاسم المركب — يهودا والسامرة — على منطقة جغرافية واحدة هي الضفة الغربية .

غير ان تبني الاستراتيجية الصحيحة ، ووضع الخطط المحكمة ، واقرار السياسات الصحيحة ، لا يعني ضمان تحقيق النتائج المطلوبة . يبقى سؤال لا يجد له جوابا : من أين

يؤتى بالمواد الأولية أي من أين يؤتى باليهود ؟ لا يمكن للقيادة الصهيونية ان تعتمد على هجرة يهود الاتحاد السوفياتي لزمن طويل وذلك لسببين : الاول هو انه كلما زاد عدد المهاجرين السوفيات كلما زادت نسبة التساقط في فيينا وقلت نسبة الذين يتابعون طريقهم نحو اسرائيل . ومن المتوقع ان تبلغ نسبة التساقط من بين المهاجرين اليهود السوفيات في عام ١٩٧٩ نحو ٧٠٪ ، وذلك من بين ٥٠ الف مهاجر سيسمح لهم الاتحاد السوفياتي بمغادرة اراضيه في العالم الحالي . أي أن عدد الذين سيصلون الى اسرائيل في هذا العام من الاتحاد السوفياتي لن يتجاوز الخمسة عشر الفا . وهؤلاء الذين سيصلون لن يكون بالأمكان وضع نسبة مهمة منهم في المستوطنات ، سواء منها الحديثة أو القديمة . السبب الثاني هو احتمال ان يوقف الاتحاد السوفياتي الهجرة اليهودية لأسباب مختلفة من بينها تقديم خدمة حقيقية للقضية الفلسطينية .

اذا استثنينا هجرة اليهود السوفيات ، فأننا لا نجد ان الصهيونية قد نجحت خلال السنوات الخمسة عشر الماضية في جلب اعداد ذات قيمة من المهاجرين اليهود الى اسرائيل . ويبقى بعد ذلك الاعتماد على الزيادة الطبيعية للسكان . وفي هذا المجال يعرف موظفو مكتب الاحصاء المركزي الاسرائيلي كما يعرف السياسيون الاسرائيليون أن السباق في هذا الميدان محكوم عليه بالخسارة سلفا .

الجدول التالي[١٠] يبين مجموع المواليد العرب في الضفة الغربية وغزة والجليل والمثلث :

السنة	المواليد اليهود	المواليد العرب
١٩٧٠	٦١,٢٠٩	٦٢,٠٧٤
١٩٧١	٦٥,٤٦٣	٦٦,٢٠٤
١٩٧٢	٦٤,٤٩٠	٦٨,٢٥٤
١٩٧٣	٦٦,٧٨٦	٧٠,١٥٩
١٩٧٤	٧٠,٥٤٥	٧٣,٤٢١
١٩٧٥	٧٣,٢٤٨	٧٣,٦٨٠
١٩٧٦	٧٥,٠٦٦	٧٦,٩٩٧
١٩٧٧	٧١,٨٠٩	٧٦,٢٠٦
١٩٧٨	٦٩,٠٧٦	٧٧,٠٠٠ (مقدر)
	٦١٧,٦٩٢	٦٤٣,٩٩٥

يتضح من هذا الجدول أن هناك تفوقا في عدد المواليد العرب في كل سنة من السنوات التسع المذكورة . أي أن هناك جيلا ينمو ، يفتقد فيه اليهود الى الاغلبية . سوف يظل اليهود ، بالطبع ، يتمتعون بالاغلبية السكانية في فلسطين كلها لزمن طويل ، اذا افترضنا ثبات الشروط الحالية . غير ان الاغلبية اليهودية ، سوف تتركز بصورة متزايدة في فئات العمر العليا أي في الفئتين ٤٥ ــ ٦٤ و ٦٥ فما فوق . وهذه الفئات هي فئات متقاعدة أو تتجه للتقاعد . بينما سنجد في فئات العمر الدنيا ، أي الفئات التي يقل عمرها عن ٢٠ سنة ، أن هناك ميلا

لتشكل اغلبية عربية واضحة . وبما ان هذه الفئات هي التي تقف على عتبة الدخول الى النشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي ، فأن وزن وفعالية التجمعات السكانية العربية يتزايدان باستمرار ، ويصبح التحكم بها أصعب فأصعب سنة بعد سنة . هذا ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هناك هجرة سنوية ، تتركز في عنصر الشباب من الضفة الغربية وقطاع غزة ، تقدر بما لا يقل عن عشرة آلاف شاب . غير ان هناك بالمقابل نزوحا يهوديا من البلاد يتركز في عنصر الشباب ايضا ، ويتجاوز العشرة آلاف .

ان من المفيد متابعة هذه التطورات التي تجري في الصورة السكانية لفلسطين . فاستعمال عبارة « الشبح الديموغرافي » من قبل المسؤولين الصهيونيين ليس أمرا عبثيا . فهؤلاء المسؤولون ، من مختلف الوقائع ، قادرون على لمس النتائج يوميا : سواء عند حساب احتياجات المؤسسة العسكرية ، أو عند حساب احتياجات الاقتصاد ، أو عند اتخاذ قرار باقامة حزام سكاني أمني ، أو عند حساب ميزانيات المجالس المحلية العربية ، والخدمات التي تطلبها تلك المجالس .

ان الاشباح تبعث القلق في النفس ، وتثير الاكتئاب والخوف من المستقبل ، ولكنها لا تقاتل ، ولا تعلن الاضراب ، ولا تشل الاقتصاد والخدمات . لكن تنظيم القوى ، وتحديد الهدف ، والدخول في حلبة الصراع ، هو الذي يفعل ذلك ، ويوصل الى النتائج .

---

(1) Ruppin Arthur: *The Jewish Fate and Future*, London 1940 P46

(2) Georgaphical Hand book Series, Naval Intelligence Division, *Palestine and Transjordan;* London, 1943, P.183

(3) Rupping, *op, C.t*

(4) *Ibid.*

(٥) عل همشمار ١٩٧٤/١٢/٢٧ . .

(٦) جيروزاليم بوست ، ١٩٧٨/٦/٢٢ .

(٧) جيروزاليم بوست ، ١٩٧٦/٣/٢٩ .

(٨) جيروزاليم بوست ، ١٩٧٦/٩/١٥ .

(٩) دافار ، ١٩٧٧/١١/٢٥ .

(١٠) الارقام مأخوذة من كتب الاحصاء السنوي الاسرائيلي للسنوات المذكورة ، اضافة الى النشرات الاحصائية الشهرية الصادرة عن المكتب المركزي للاحصاء في القدس .

صبري جريس

تأسيس "الوطن القومي اليهودي" في فلسطين (١٩١٧-١٩٢٣)

١ - في ظل الحكم العسكري البريطاني "كانون الأول ١٩١٧ - حزيران ١٩٢٠"

أسفرت الحرب العالمية الأولى ، مع انتهائها بانتصار الحلفاء سنة ١٩١٨ ، وما أعقبها من اتفاقيات للسلام ، عن خريطة جديدة للعالم ، وظهور عدة دول جديدة ، بعضها حصل على استقلاله وبعضها أخضع للسيطرة الامبريالية ، بشكل او بآخر . ورجح ميزان القوى العالمي ، عموما ، لصالح الحلفاء بعد ان استطاع بعضهم بسط نفوذه على أراض واسعة وشعوب عديدة في آسيا وافريقيا ، كانت من بينها بلدان المشرق العربي التي كانت خاضعة للحكم العثماني . وفي اطار تحقيق مطامع دول الحلفاء ارسيت أيضا أسس « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين . واستغرقت هذه العملية نحو ٦ سنوات ، بدأت يوم ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، عندما أصدر وزير الخارجية البريطاني تصريحه المعروف بأسم « وعد بلفور » ، معلنا فيه ان بريطانيا تنظر بعين العطف الى اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين . أما نهايتها فكانت يوم ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣ ، عندما سرى ، بشكل رسمي ونهائي ، مفعول صك الانتداب البريطاني على فلسطين ، وهو الصك الذي تمت صياغته بصورة يظهر معها بوضوح ان الهدف الأساسي منه هو تسهيل اقامة الوطن المذكور .

الحلفاء يخدعون العرب

حاولت دول الحلفاء الرئيسية ، لاسيما بريطانيا ، خلال الحرب العالمية الأولى استمالة العرب الى جانبها ، لحملهم على مشاركتها القتال ضد الامبراطورية العثمانية ، التي كانت تسيطر آنذاك على معظم بلدان المشرق العربي . وقد تم لها ذلك في الاتفاق الذي تضمنته مراسلات حسين — مكماهون ، القاضية بأن يعلن عرب المشرق الثورة على العثمانيين ، لقاء مساعدة بريطانيا لهم في أثناء الحرب ، والاعتراف باستقلالهم عند انتهائها . الا ان بريطانيا نفسها تعهدت ، في الوقت نفسه ، لحليفتها فرنسا ، بالعمل على تقسيم بلدان المشرق العربي الى مناطق نفوذ فيما بينها ، وتم توقيع اتفاقية سايكس — بيكو في هذا الشأن . وفي الوقت نفسه أصدرت بريطانيا وعد بلفور الشهير .

ويبدو أن هذه الاتفاقيات والالتزامات المختلفة والمتناقضة ، لم تقلق بال الزعماء البريطانيين أو بال حلفائهم الفرنسيين كثيراً ، عندما كانت جهودهم منصبة على تحقيق النصر في الحرب . إلا أن شكوك العرب في حقيقة الموقفين البريطاني والفرنسي راحت تثور ، تدريجيا ، مع بداية السنة الأخيرة من الحرب ؛ أي منذ أواخر سنة ١٩١٧ . وكان أحد الأسباب الرئيسية لذلك افشاء البلشفيين بعد انتصار ثورة اكتوبر ، مضمون اتفاقية سايكس ــ بيكو ، التي كان الحكم القيصري أيضا طرفاً فيها . كما ساهم اصدار وعد بلفور في تقوية هذه الشكوك . وأثار نشر هذه الوثائق ، بما تكشفه من مواقف تمس بحقوق العرب ، سخطاً كبيراً في دوائر عربية عدة . ولكن بريطانيا وفرنسا ، اللتين كانتا تستعدان آنذاك لخوض المعركة الأخيرة الحاسمة من الحرب العالمية ، لم تكونا في وضع يسمح لهما باثارة سخط العرب عليهما وعداوتهم ، في تلك المرحلة . ولذلك عمدتا ، منفردتين او متحدتين ، الى اصدار سلسلة من التصريحات والوعود الهادفة الى ازالة شكوك العرب وحملهم على الالتزام بالهدوء ، الى أن تنتهي الحرب على الأقل .

وهكذا ثابرت الدولتان على اغداق الوعود على العرب خلال سنة ١٩١٨ بأكملها ؛ أي حتى انتهاء الحرب . ففي ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ، زار الكوماندر هوغارث ، احد العاملين في « المكتب العربي » البريطاني في القاهرة ، الشريف حسين ، الذي كان قد أعلن نفسه ملكاً على الحجاز ، في جدة ، وأبلغه رسالة من السلطات البريطانية ، مفادها « أن دول الحلفاء مصممة على أن تتاح للشعب العربي فرصة كاملة لاستعادة كيانه كأمة في العالم . وأن هذا لا يتيسر تحقيقه إلا بواسطة اتحاد العرب أنفسهم . وستتبع بريطانيا العظمى وحلفاؤها سياسة ترمي الى تحقيق هذه الوحدة »(١) . أما فيما يتعلق بفلسطين ، فقد أكدت الرسالة تصميم الحكومة البريطانية « على ألا يكون شعبها خاضعا لغيره »(٢) . ولكن على الرغم من ذلك ، حصرت الرسالة القضية الفلسطينية في النواحي الدينية فقط ، فــ « بالنظر الى أن في فلسطين معابد وأوقافا وأماكن مقدسة ... ذات أهمية لكثير من الناس خارج فلسطين وبلاد العرب ، لا بد من أن يكون هناك نظام خاص بهذه الاماكن يوافق عليه العالم . أما فيما يتعلق بمسجد عمر ، فانه سيعتبر أمرا يعني المسلمين وحدهم ، ولن يكون خاضعا ... لأية سلطة غير اسلامية »(٣) . ولم تتنكر الرسالة للوعود التي قطعتها بريطانيا على نفسها للصهيونيين ، بل على العكس من ذلك ، أوضحت انه « لما كان الرأي العام اليهودي في العالم يميل الى عودة اليهود الى فلسطين ... ولما كانت حكومة جلالته تنظر بعين الرضى الى تحقيق هذا الأمل ، فانها ... مصممة على الحؤول دون وضع عقبة في سبيل تحقيقه ... ، بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الأهالي الموجودين ، من الوجهتين الاقتصادية والسياسية »(٤) . ولم ينس كاتبو الرسالة أن يسدوا ، في نهايتها ، النصح للملك بأن « تأييد اليهودية العالمية لقضية العرب ، معادلة لتأييد كل الدول التي لليهود فيها نفوذ سياسي . وأن زعماء الحركة اليهودية مصممون على انجاح الصهيونية بالصداقة والتعاون مع العرب . ومثل هذا العرض ليس مما يطرح جانبا باستخفاف »(٥) .

وبعد تسليم هذه الرسالة ، بنحو شهر ، الى الشريف حسين ، زاره الكولونيل باسيت ، المفوض البريطاني بالوكالة في جدة ، وأبلغه رسالة ثانية من وزير الخارجية البريطاني بلفور ، أكد فيها التعهدات السابقة بشأن تحرير الشعوب العربية ، ولكن بلفور امتنع في رسالته عن التعليق على اتفاقية سايكس ــ بيكو والوعد الذي قدمه للصهيونيين ، وما قد يعنيانه بالنسبة

للعرب[٦] . وجاءت هذه الرسالة أساسا لتبديد المخاوف التي اثارتها رسالة مؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٧ ، كان جمال باشا ، قائد القوات التركية في سوريا ، قد ارسلها الى الأمير فيصل ، مع رسالة مماثلة الى جعفر العسكري ، قائد القوات العربية ، وذلك على أثر انفضاح أمر اتفاقية سايكس ــ بيكو . وكان جمال باشا قد أشار في رسالتيه هاتين الى أن الحلفاء قد خدعوا العرب ، عندما حرضوهم على الثورة ضد تركيا ، وانهم ينوون ، عند انتهاء الحرب ، السيطرة على المشرق العربي وتقسيمه الى مناطق نفوذ بينهم ، بموجب اتفاقية سايكس ــ بيكو[٧] . واكتفى الشريف حسين ، في هذه المرحلة ، بالتطمين الوارد في رسالة بلفور ، التي نقلها باسيت ، إلا أنه عاد فاحتج رسميا لدى الحكومة البريطانية ، في ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٨ ، على الاتفاقية المذكورة . وردت السلطات البريطانية على هذا الاحتجاج ، محاولة التنصل من الاتفاقية وتبعاتها ، موضحة ان نشوب الثورة العربية وانسحاب روسيا من الحرب ، اثر تغيير الحكم فيها ، خلقا « وضعا مختلفا كليا »[٨] عما كانت عليه الحال في السابق .

وفي السادس عشر من حزيران ١٩١٨ ، اصدرت السلطات البريطانية بيانا عرف باسم « التصريح للسبعة » ، جاء رداً على مذكرة كان قد تقدم بها سبعة من زعماء حزب الاتحاد السوري ، الذي شكل في القاهرة سنة ١٩١٨ ، بعد خلاف بين زعمائه وبين الشريف حسين . وكان اولئك الزعماء قد طالبوا بريطانيا ، في مذكرتهم ، بتوضيح حقيقة نواياها بشأن مستقبل المناطق العربية السياسي . وجاء « التصريح للسبعة » اكثر وضوحا مما سبقه من بيانات : اذ اكدت السلطات البريطانية فيه انه « فيما يتعلق [بالعرب في الأراضي التي كانت حرة ومستقلة قبل قيام الحرب ، او الأراضي التي حررت بعمل العرب انفسهم في اثناء الحرب الحاضرة] ، تعترف حكومة جلالته بالاستقلال التام والسيادة للعرب الذين يقطنون هذه الأراضي وتؤيدهم في جهادهم في سبيل الحرية . وفيما يتعلق بالأراضي التي تحتلها قوات الحلفاء ... ترغب حكومة جلالته في ان تكون حكومة هذه الأقاليم قائمة على ارضاء المحكومين ، وهذه السياسة ستظل مؤيدة من قبل حكومة جلالته . اما فيما يتعلق بالأراضي [التي لا تزال تحت السيطرة التركية] ، فان من رغبات حكومة جلالته ان تفوز الشعوب المظلومة في هذه الأراضي بالحرية والاستقلال ، وهي لا تزال ... تعمل على تحقيق هذه الغاية »[٩] . وكان هذا البيان قد صيغ بمساعدة الحكومة الفرنسية ، ونشر آنذاك في الصحافة العربية على أوسع نطاق ، بناء على أوامر البريطانيين .

ولكن على الرغم من هذه البيانات ، لم تبدد كليا شكوك دوائر عربية مختلفة في نوايا الحلفاء ، بشأن مستقبل المشرق العربي . ولهذا عمدت بريطانيا وفرنسا الى اصدار تصريح مشترك ، في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ ، فاق ، في وضوحه وتأكيده نية الدولتين المحافظة على حقوق العرب واحترام استقلالهم ، كل ما صدر من بيانات حتى تلك الوقت . وقد جاء في هذا التصريح « ان الغرض الذي ترمي اليه فرنسا وبريطانيا العظمى من نهجهما في الشرق ، في الحرب التي اثارتها اطماع المانيا ، هو التحرير التام النهائي للشعوب التي طال اضطهاد الترك لها ، واقامة حكومات وادارات قومية تستمد سلطتها من الاختيار الحر والارادة المستقلة للأهالي الوطنيين . ولتحقيق هذا الغرض اتفقت فرنسا وبريطانيا العظمى على تشجيع اقامة

الحكومات والادارات الوطنية ومساعدتها ، في سوريا والعراق اللتين حررهما الحلفاء ، وفي الأراضي التي تعملان على تحريرها ، وستعترفان بها بمجرد حصول ذلك »(١٠) كما ان الدولتين لا تنويان « ان تفرضا على أهالي هذه البلاد أي نظام معين ، وانما تريدان ، بتأييدهما وبالمساعدة الكافية ، ان تكفلا حسن سير الحكومات والادارات التي يختارها الاهالي اختيارا حرا . والسياسة التي تؤيدها الحكومتان المتحالفتان في البلاد المحررة ، هي ضمان المساواة والعدل النزيه للجميع ، وتيسير التقدم الاقتصادي للبلاد ، بتشجيع النشاط المحلي ونشر التعليم والقضاء على الخلافات والمنازعات التي طالمـــا انتفعت بها واستخدمتها السياسة التركية »(١١) .

ما ان مضت ٤ ايام على اصدار هذا التصريح ، حتى انتهت الحرب العالمية الأولى ، فخضعت تلك الوعود لموازين القوى الجديدة التي سادت آنذاك . وراح الحلفاء المنتصرون يستعدون لتقسيم الأسلاب فيما بينهم ، والعمل على التعويض عما لحق بهم من خسائر في اثناء الحرب ، بوسائل مختلفة ، كان من بينها بسط نفوذهم على مناطق جديدة في العالم ، بما في ذلك المشرق العربي . وكانت اتفاقية سايكس ــ بيكو هي الأساس الذي استندت اليه بريطانيا وفرنسا في رسم سياستهما في المنطقة ، من خلال التنافس فيما بينهما ، ومحاولة كل منهما تحسين مواقعها وضم مساحة اكبر من الأراضي الى منطقة نفوذها على حساب حليفتها وحساب شعوب تلك البلدان . وبينما كانت فرنسا « الأكثر شراسة » في متابعة طلباتها واصرارها على تلبيتها ، كانت بريطانيا « الأكثر ثقة » بنفسها ، وذلك ــ كما يبدو ــ لوجود حليفين معنيين بنجاح سياستها في المنطقة : العرب ، بزعامة الشريف حسين وابنائه من جهة ؛ والصهيونيون من جهة أخرى . وكانت السياسة البريطانية قد سجلت انتصارا في أول « مبارزة » مع فرنسا على مصير المنطقة ، قبل أن يمر اسبوعان على انتهاء الحرب ، وذلك عندما زار رئيس وزراء فرنسا كليمنصو ، لندن ، في أواخر تشرين الثاني ١٩١٨ ، ووافق على طلبات رئيس حكومة بريطانيا لويد جورج ، بضم منطقة الموصل الى العراق ، والاعتراف بالسيطرة الفعلية البريطانية على فلسطين ، « من دان الى بئر السبع » ، لقاء حصول فرنسا على ٢٥٪ من أرباح النفط الذي يحتمل اكتشافه في منطقة الموصل . وصادق كليمنصو على موافقته هذه في رسالة للحكومة البريطانية ، مؤرخة في ٥ شباط (فبراير) ١٩١٩ ، احتوت ايضا على سجل بالمصالح الفرنسية في سوريا(١٢) . وبعمله هذا ، أقر كليمنصو أول تعديل في اتفاقية سايكس ــ بيكو في مصلحة البريطانيين ، اذ كان من المفروض ، بموجب تلك الاتفاقية ، أن تكون الموصل تابعة لمنطقة النفوذ الفرنسية في سوريا ، وأن تكون فلسطين خاضعة لادارة دولية ، تكون فرنسا إحدى الدول المشتركة فيها .

على الرغم من هذه النتائج الأولية ، لم تحل مشكلة السيطرة البريطانية المنفردة على فلسطين ، التي كان لا بد لمؤتمر الصلح العتيد من ان يعترف بها . ولهذا اجتمعت لجنة الشرق التابعة لمجلس الحرب البريطاني ، في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ ، لبحث الموقف الذي ينبغي أن تتخذه بريطانيا بشأن فلسطين ، في مؤتمر الصلح . وقدم الى اللجنة ، عند اجتماعها ، تقرير من قبل وزارة الخارجية البريطانية ، شدد على « ان مشكلة فلسطين لا يمكن أن تحل كليا بموجب مبادىء حق تقرير المصير : لأن هناك عنصرا معينا من السكان ــ وهم

اليهود ــ يستحق ، لأسباب تاريخية ودينية ، تأثيراً أكثر من ذلك الذي يمكن ان يحصل عليه ، لو كانت الأرقام هي المقياس الوحيد . ولهذا ، فان من الضروري ... ايجاد نوع من الحكم ، يحافظ على مصالح العرب من جهة ، ويضع الاماني القومية للعرق اليهودي موضع التطبيق ، من جهة ثانية »(١٣) . كما أعرب رئيس الحكومة ، لويد جورج ، عن رأيه امام اللجنة ، بـ « ان كلا من العرب والصهيونيين في فلسطين يريدوننا »(١٤) هناك ، وان السيطرة البريطانية على فلسطين ضرورة استراتيجية للدفاع عن قناة السويس(١٥) . كذلك اعلن جنرال من أعضاء اللجنة ، انه اذا لم يحصل اليهود على فلسطين « فان معظمهم سيصبح بولشفيا ، وسيساعد البولشفيين في كافة انحاء العالم ، كما [حدث] في روسيا »(١٦) . وفي ختام مداولاتها ، اتخذت اللجنة سلسلة من التوصيات ، كان على الوفد البريطاني الى مؤتمر الصلح أن يعمل بموجبها ، فأعلنت انها تعارض أي نوع من الادارة الدولية في فلسطين ، وتفضل ، بدلا من ذلك ، اختيار دولة كبرى معينة ، من قبل عصبة الأمم ، لادارة البلد . ولكن « هذه الدولة ينبغي ألا تكون فرنسا أو ايطاليا ، بل يجب ان تكون الولايات المتحدة الاميركية أو بريطانيا العظمى . واذا كنا لا نعارض مستقبلا اختيار الولايات المتحدة ، فاننا لا ينبغي ان نتردد اذا وقع الاختيار علينا »(١٧) .

البعثة الصهيونية الى فلسطين

في أواخر سنة ١٩١٧ ، احتلت القوات البريطانية ، منطلقة من قواعدها في سيناء ، الجزء الجنوبي من فلسطين (حتى خط يصل بين القدس ويافا) . وفي ١١ كانون الأول (ديسمبر) من السنة نفسها ، اي بعد مرور ٤٠ يوماً على اصدار وعد بلفور ، دخل الجنرال اللنبي ، قائد تلك القوات ، الى القدس . ثم توقف القتال على هذه الجبهة نحو ١٠ أشهر . وبعد ذلك ، وابتداء من ١٩ ايلول ١٩١٨ على وجه التحديد ، قامت القوات البريطانية المتمركزة في جنوب فلسطين ، بالاشتراك مع القوات العربية المرابطة شرقي نهر الاردن ، بشن هجوم شامل على القوات التركية ، أسفر عن احتلال حيفا في الثالث والعشرين من الشهر نفسه ، ثم دمشق في الثلاثين منه . وفي السادس والعشرين من الشهر التالي ، احتلت حلب ، وفي الحادي والثلاثين منه استسلمت تركيا .

فرض البريطانيون ، عند دخولهم فلسطين ، الحكم العسكري على المناطق التي احتلوها . ومع انتهاء القتال ، باحتلال سوريا الكبرى ، قسمت المنطقة بأسرها الى ٣ ادارات عسكرية ، عرفت كل منها بأسم « ادارة مناطق العدو المحتلة » (Occupied Enemy Territory Administration) . وقد ضمت الادارة الجنوبية (O.E.T.A., South) كامل فلسطين تقريباً ، واخضعت لضابط بريطاني مقره القدس . اما منطقة الادارة الشمالية ، التي ضمت الاجزاء الساحلية من لبنان وسوريا ، فقد سلمت لضابط فرنسي مقره بيروت ، بينما وضعت الادارة الشرقية ، التي ضمت المناطق الباقية من سوريا وشرق الاردن ، تحت أمرة ضابط عربي مقره دمشق .

غير ان البريطانيين كانوا ، على الرغم من هذا التقسيم ، يسعون آنذاك للتملص ، قدر الامكان ، مما تعهدوا به لفرنسا في اتفاقية سايكس ــ بيكو ، ويسعون لضمان انفرادهم

بالسيطرة على أكبر مساحة ممكنة في المشرق العربي(١٨) . وبالتالي كان رئيس وزراء بريطانيا ، لويد جورج ، قد وطن النفس على استغلال الصهيونيين ومطالبتهم باقامة وطن قومي يهودي في البلد ، لضمان انفراد بلاده بالسيطرة على فلسطين ايضا ، بعد منع قيام أية ادارة دولية فيها بموجب اتفاقية سايكس ــ بيكو(١٩) (وكان هذا الهدف واحدا من الأسباب المهمة التي حملت بريطانيا على اصدار وعد بلفور ، في تلك الوقت) . ولذلك شجع البريطانيون الصهيونيين على التقدم بمطاليبهم ، وراحوا يشاركونهم وضع الخطط الأولية لتنفيذها ، في اطار اتفاق واضح وصريح بين الطرفين ، يقوم على تمسك الصهيونيين بطلب اقامة الوطن القومي في فلسطين في ظل الانتداب البريطاني .

باشر البريطانيون والصهيونيون تنفيذ خططهم تلك ، قبل انتهاء الحرب العالمية . اذ لم يمض اكثر من بضعة اسابيع على احتلال القوات البريطانية الجزء الجنوبي من فلسطين ، حتى قررت وزارة الخارجية البريطانية ارسال بعثة صهيونية (Zionist Commission ــ « فاعاد هاتسيريم ») الى فلسطين ، « لاستطلاع اوضاعها واعداد خطط مستوحاة من وعد بلفور »(٢٠) . وقد شكلت البعثة برئاسة الدكتور حاييم وايزمان ، وعضوية كل من يوسف كووين مدير بنك الاستيطان اليهودي (الصهيوني) والمؤسسة المصرفية التابعة له (الشركة الانكليزية ــ الفلسطينية)(٢١) ، والدكتور دافيد ايدر وكيل المنظمة اليهودية الاقليمية (غير الصهيونية) ، وليون سيمون ممثلا يهود بريطانيا ، وسيلفين ليفي وانجيلو بيانكيني كممثلين ليهود فرنسا وايطاليا . وكان من المقرر ايضا ان ينضم للبعثة ممثلون عن يهود الولايات المتحدة وروسيا . غير أن الولايات المتحدة ، التي لم تكن آنذاك في حالة حرب مع تركيا ، لم تر من المناسب ان تسمح لممثل عن اليهود فيها بالانضمام الى البعثة (ولكن ممثلا عن الصهيونيين الاميركيين التحق بها ، على اية حال ، سنة ١٩١٩) ، بينما لم يتمكن ممثل عن اليهود في روسيا من الانضمام اليها ، بسبب الأوضاع التي سادت البلد على اثر نشوب الثورة البولشفية هناك . كذلك الحق الميجور وليام اورمبسي ــ غور بالبعثة ، بصفة ضابط اتصال بينها وبين السلطات البريطانية ، وعين مساعداً له جايمس روتشيلد ، وهو مواطن بريطاني إبن للبارون روتشيلد اليهودي الفرنسي ، « المتبرع المعروف » للمشاريع الصهيونية »(٢٢) . ولم تكتف السلطات البريطانية بتشكيل هذه البعثة ، وضم ممثلين اليها عن اليهود في الدول المتحالفة معها ــ وكان معظمها ، على اية حال ، قد وافق بصورة او بأخرى على اصدار وعد بلفور ــ وذلك في محاولة لاضفاء طابع دولي على مشاريعها في فلسطين ، بل عملت ايضا على الاعلاء من شأن تلك البعثة . فقد نظمت ، عشية سفرها ، زيارة قام بها وايزمان لملك بريطانيا آنذاك جورج الخامس(٢٣) ، تعبيراً عن مدى الأهمية التي تعلقها السلطات البريطانية على البعثة وعملها ..

وصلت البعثة الصهيونية الى فلسطين ، مارة بمصر ، في منتصف نيسان (ابريل) من سنة ١٩١٨ ، حيث تولت الاشراف على المكتب الفلسطيني(٢٤) الذي كانت المنظمة الصهيونية قد أنشأته في يافا سنة ١٩٠٨ ، وفي تشرين الثاني من سنة ١٩١٨ ، دمج المكتب فيها(٢٥) . ومارست البعثة مهامها ، باعتبارها ممثلا للمنظمة الصهيونية في فلسطين ، حتى سنة ١٩٢١ ، عندما قرر المؤتمر الصهيوني الثاني عشر استبدالها باللجنة التنفيذية الصهيونية في

فلسطين (Palestine Zionist Executive) وتتألف من اعضاء اللجنة التنفيذية الذين يقطنون فلسطين ، ومقرها القدس . وتعاقب على رئاسة البعثة الصهيونية ، في اثناء عملها في فلسطين اشخاص عدة من ذوي الاتجاهات المختلفة ، وكان من بين ابرز من مارس مهاما من قبلها فلاديمير (زئيف) جابوتينسكي ، الذي عمل فترة كضابط اتصال سياسي بينها وبين السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين ، ومناحم اوسيشكين ، الذي تراسها فعليا منذ تشرين الأول من سنة ١٩١٩ ؛ والرجلان معروفان بمواقفهما المتصلبة تجاه العرب .

وبناء على اقتراح لجنة الشرق التابعة لها ، منحت الحكومة البريطانية ، البعثة الصهيونية صلاحيات واسعة ، عندما قررت ارسالها الى فلسطين في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ . فقد خولت البعثة العمل « حلقة وصل بين السلطات البريطانية والسكان اليهود في فلسطين ، [والمساهمة في] أعمال الاغاثة ... وتطوير المستوطنات اليهودية ... وتنظيم السكان اليهود عموما ... وجمع المعلومات وتقديم التقارير بشأن ... مستقبل التطور اليهودي في فلسطين »(٢٦) في ضوء وعد بلفور . كذلك طلب من البعثة « المساعدة على اقامة علاقات صداقة بين اليهود ... والعرب »(٢٧) . وقد حاول الصهيونيون ، خلال فترة نشاط البعثة ، حمل الحكـــومة البريطانية على توسيع صلاحياتها ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل(٢٨) .

غير أن البعثة الصهيونية لقيت ، مع وصولها الى فلسطين ، استقبالا فاترا من قبل السلطات العسكرية البريطانية ، على الرغم من رسائل التوصية ، التي كان وايزمان قد حملها معه الى الجنرال اللنبي ، قائد القوات البريطانية من لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية ، وارثور بلفور وزير خارجيتها ،(٢٩) وقد نجم هذا الفتور عن اسباب عدة ، فعند وصول البعثة الى فلسطين ، كانت الحرب في اوروبا على اشدها ، مما اضطر بريطانيا الى سحب جزء لا بأس به من القوات التي كانت تحت امرة اللنبي ، لدعم القوات المقاتلة في اوروبا ، الأمر الذي جعل استتباب الأمن في فلسطين ، الى حد ما ، رهنا برضى سكانها العرب . كذلك اكتشف وايزمان ، عند وصوله الى فلسطين ، « ان المحرضين العرب لم يضيعوا وقتا في اعلان ان البريطانيين ارسلوا اليهود للاستيلاء على البلد »(٣٠) ، كما اكتشف ان كبار الضباط في قيادة اللنبي لم يسمعوا بوعد بلفور . وكانت المواقف التي اتخذتها البعثة سببا آخر في فتور العلاقات بينها وبين السلطات البريطانية ، اذ اصر اعضاؤها على « اشراكهم حالا في الادارة العسكرية ، واقامة لجنة اراض يشترك فيها خبراء من المنظمات اليهودية ... ومنحهم حق اختيار المرشحين اليهود للشرطة ، وتعديل رواتبهم . كما طالبوا ، حتى انهم بدأوا ، بتدريب كتائب دفاع عسكرية خاصة بهم ، واصروا على الاعتراف بالعبرية لغة رسمية »(٣١) . ونتيجة الاوضاع التي سادت فلسطين والمناطق المجاورة لها آنذاك من جهة ، ومواقف البعثة الصهيونية من جهة اخرى ، رفضت السلطات العسكرية البريطانية « الاعتراف » بالبعثة ، وانتهجت بدلا من ذلك سياسة تهدف ، عموما ، الى المحافظة على الاوضاع الراهنة في البلد ، ما دامت تخضع للاحتلال العسكري ، وفقا للقانون والعرف الدوليين ، الى ان يبت بمصيرها سياسيا . وبقيت السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين عند موقفها هذا ، حتى نهاية حكمها العسكري في فلسطين ،

في منتصف سنة ١٩٢٠ ، رغم المشاحنات التي نشبت بينها وبين البعثة والقيادة الصهيونية[٣٢] .

وكما فشلت في اقامة علاقات وثيقة مع السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين ، وما نتج عن ذلك من عراقيل عدة جابهتها ، لم تفلح البعثة الصهيونية في احراز انجازات تذكر بين المستوطنين اليهود في البلد ، خلال مرحلة نشاطها الأولى على الأقل . فبعد وصولها الى فلسطين ، قامت بزيارات للمستوطنات والتجمعات اليهودية في المناطق التي كانت بريطانيا قد احتلتها حتى ذلك الوقت ، للاطلاع على اوضاع سكانها وتوزيع المساعدات عليهم ، والعمل على توحيدهم . غير ان محاولات التوحيد هذه باءت بالفشل ، بسبب الخلافات المبدئية التي كانت قائمة بين اليهود من ابناء اليشوف القديم ، أهل « الحلوكاه » الذين كانوا يعيشون على الصدقات وبين المستوطنين الجدد من ابناء الهجرة الثانية واحزابها المختلفة ، وشكوك كل من الفريقين في نوايا الفريق الآخر ومواقفه[٣٣] ، بحيث لم تستطع البعثة ، في نهاية الأمر ، حتى توحيد جمعيات دفن الموتى[٣٤] . وحاول وايزمان في اثناء وجوده في فلسطين كرئيس للبعثة ، شراء حائط المبكي (البراق) ، الا ان محاولته باءت بالفشل[٣٥] . ولكنه نجح ، بدلا من ذلك ، في ارساء الحجر الأساسي للجامعة العبرية ، على جبل سكوبس في القدس ، في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩١٨[٣٦] . الا ان وايزمان اقتنع ، في اثناء وجوده في فلسطين ، بأنه لن يستطيع تحقيق مآرب الصهيونيين هناك ، ما لم تتبلور سياسة بريطانية واضحة في هذا الصدد[٣٧] . ولذلك قفل عائدا الى لندن ، في تشرين الأول ١٩١٨ ، قبيل انتهاء الحرب بقليل .

اليهود في فلسطين ينظمون انفسهم

رغم فشل البعثة الصهيونية في إقامة تنظيم يوحد المستوطنين اليهود في فلسطين ويمثلهم ، استمرت المحاولات في هذا الاتجاه ، الى ان نجح المستوطنون انفسهم في تحقيق ما عجز عنه وايزمان وصحبه . وكانت المحاولة الأولى لتنظيم اليهود في فلسطين قد جرت سنة ١٩٠٣ ، عندما زار اوسيشكين البلد ، غير انها فشلت ، اذ تفكك التنظيم الذي اقيم آنذاك بعد فترة قصيرة من تأسيسه[٣٨] . ومنذ ذلك الوقت ، توقفت المحاولات ثم استؤنفت ، باصرار وعزم كبيرين ، بعد احتلال البريطانيين القسم الجنوبي من فلسطين . فلم يمض الا يومان على دخول القوات البريطانية الى يافا ، حتى اجتمعت في « ام المستوطنات » بيتح تكفا ، في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٧ ، مجموعة من زعماء المستوطنين ، بدعوة من بتساليل يافيه ، رئيس لجنة يهود تل – ابيب وعضو اللجنة التنفيذية الصهيونية سابقا ، واعلنت تأسيس لجنة تنظيمية موقتة ، للعمل على اقامة تنظيم موحد لليهود في فلسطين . واصدرت اللجنة نداء الى المستوطنات اليهودية المختلفة ، حثتهم فيه على ارسال مندوبين عنهم لاجتماع يعقد لهذه الغاية في اقرب فرصة ممكنة ، « لاننا نقف في هذه الساعة على ... ابواب نظام حكم [بريطاني] جديد ... ينبغي الا يجد هنا تشتتا يهوديا ، من دول مختلفة ، او يهودا مستوعبين بين خليط من سكان المدن والفلاحين في البلد ، بل ييشوفا* قوميا موحدا ، عبريا ومنظما ذا ثقافة ومؤسسات

---

* ييشوف – كلمة عبرية تعني « مستوطنة » او « استيطان » . وكان هذا التعبير يطلق ، مجازا ، على المستوطنين الصهيونيين في فلسطين ، قبل قيام اسرائيل ، بأسرهم ، وعلى كافة مؤسساتهم وتنظيماتهم .

مستقلة وممثلين خاصين به ، مبعوثي تنظيمه ، الذين يعبرون عن حاجاته وطلباته امام نظام الحكم الجديد ، بحيث تتفاوض الحكومة معنا بواسطتهم »(٣٩) .

وبعد مرور أقل من شهرين على اصدار هذا النداء ، اجتمع في يافا ، في ٢ كانون الثاني ١٩١٨ ، ممثلون عن معظم المستوطنات والتجمعات اليهودية الموجودة في الجزء الجنوبي من فلسطين ، المحتل آنذاك من قبل القوات البريطانية ، وقرروا اقامة « لجنة مؤقتة ليهود ارض ـ اسرائيل » ، كلفت باجراء الانتخابات لـ « جمعية تأسيسية »(٤٠) . واجتمعت هذه اللجنة ثانية ، في ٧ تموز (يوليو) ١٩١٨ ، بحضور وايزمان ، وباشتراك مندوبين عن يهود القدس ، الذين استطاعوا تنظيم انفسهم حتى ذلك الوقت ، ولكنها لم تحقق تقدما يذكر على أثر خلافات سيطرت عليها بسبب معارضة اليهود المتدينين منح المرأة حق الانتخاب(٤١) . ولهذا عادت اللجنة فاجتمعت ، مرة ثالثة ، في ١٨ كانون الأول ١٩١٨ ، بحضور ١١٤ مندوبا يمثلون اليهود في كافة انحاء فلسطين ، بعد ان اكملت بريطانيا احتلال الجزء الشمالي من البلد . وقرر المجتمعون تشكيل لجنة جديدة ، مؤلفة من ٣٢ عضوا ، وكلفوها بمهمة وحيدة : اجراء انتخابات للجمعية التأسيسية ، بعد ان ايدت الأكثرية منح المرأة حق الانتخاب(٤٢) . وقد مارست هذه اللجنة ، على الرغم من كونها غير منتخبة ، مهام تمثيل اليهود في فلسطين امام سلطات الاحتلال البريطاني ، حتى اجريت ، في ١٩ نيسان ١٩٢٠ ، انتخابات للجمعية التأسيسية الأولى ، التي اطلق عليها اسم « اسيفات هانفحاريم » (جمعية النواب) ، وهي الهيئة الأساسية في التنظيم الطائفي اليهودي في فلسطين ، « كنيست يسرائيل » (جمعية اليهود) ، المعروفة ايضا باسم المجلس الملي اليهودي . وكان قد اشترك في الانتخابات لجمعية النواب الأولى نحو ٢٢,٢٠٠ يهودي ، يمثلون نحو ٧٧٪ ممن يحق لهم الانتخاب ، وانتخبوا ٣١٤ مندوبا ، ينتمون الى ٢٠ قائمة انتخابية ، حزبية ومحلية ومهنية وطائفية (سفاراديم واشكناز) وغير ذلك(٤٣) . أما الناخبون المتدينون (نحو ٢,٠٤٠) فقد حلوا مشكلة معارضتهم منح المرأة حق التصويت ـ هذه المرة ـ باقامة صناديق اقتراع خاصة بهم ، منعت النساء من التصويت فيها . وكانت معارضة منح المرأة حق الانتخابات سببا من الأسباب الرئيسية التي قسمت التنظيم الطائفي اليهودي في فلسطين الى شطرين ، عند الاعتراف به من قبل سلطات الانتداب .

وقد اجتمعت جمعية النواب ، لأول مرة بعد انتخابها ، في ٧ تشرين الأول ١٩٢٠ ، بعد فرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، وانتخبت من بين اعضائها لجنة تنفيذية (« فاعاد ليئومي » ـ لجنة قومية) مؤلفة من ٣٨ عضوا ، انتخبوا بدورهم ، من بينهم ، ادارة (او لجنة تنفيذية مصغرة) مؤلفة من ١١ عضوا (وفي عام ١٩٢٧ اعترفت السلطات البريطانية رسميا بهذا التنظيم) .

لم يكتف المستوطنون الصهيونيون في فلسطين ، حتى قبل انتهاء الحرب ، باقامة تنظيم يمثلهم ويدافع عنهم امام السلطات الجديدة في البلد ، بل اتجهوا ايضا الى تشكيل قوة يهودية مسلحة ، بالاشتراك مع الصهيونيين في خارج فلسطين ، تحت ستار المساهمة مع بريطانيا في الحرب ، آملين ان تبقى تلك القوات تحت تصرفهم ، بعد انتهاء القتال ، مما يعزز من مواقعهم

وامكاناتهم . وكان اكثر من زعيم صهيوني قد دعا ، بعد نشوب الحرب العالمية ، الى اقامة كتائب يهودية تشترك في الحرب الى جانب الحلفاء ، لاسيما البريطانيين ، وتساعدهم على احتلال فلسطين من أيدي الاتراك . واسفرت هذه المحاولات في حينه ، عن اقامة كتيبة سائقي البغال الصهيونية (Zion Mule Corps) (٤٤) ، من بين المستوطنين اليهود الذين كانوا قد تركوا فلسطين ، على اثر نشوب الحرب ، واتجهوا الى مصر . وقد اشتركت هذه الكتيبة في الحملة التي شنتها القوات البريطانية على غاليبولي ، ثم سرحت في اوائل سنة ١٩١٦ ، بعد رجوعها الى مصر ، على اثر فشل الحملة . غير ان نحو ١٢٠ جنديا منها عادوا فانضموا الى الجيش البريطاني ، في نهاية السنة ، فنقلوا الى لندن ، ليشكلوا فيما بعد نواة الفيلق اليهودي (Jewish Legion) .

كان من ابرز المبادرين لاقامة كتيبة سائقي البغال الصهيونية ، زئيف جابوتينسكي ويوسف ترومبلدور ، ولكن الأول رفض الانضمام للكتيبة عند اقامتها ، لأن السلطات البريطانية لم تعهد اليها بمهام قتالية ، بينما وافق الثاني . ولهذا ترك جابوتينسكي مصر ، وكان قد وصل اليها بوصفه صحافيا ، بعد انشاء الكتيبة ، واتجه الى اوروبا ، عن طريق روما وباريس ، للترويج لفكرته الداعية الى تأسيس كتائب يهودية مقاتلة ، تحارب الى جانب الجيش البريطاني لاحتلال فلسطين ، ثم وصل اخيرا الى لندن . وفي بريطانيا ، جوبه جابوتينسكي بمعارضة اكثرية الزعماء الصهيونيين في البلد لخطته ، خشية ان يؤدي تنفيذها الى اعمال انتقامية من قبل الأتراك ضد المستوطنين اليهود في فلسطين ، ولكنه حظي بتأييد وايزمان لمشروعه ، وتعاون بشكل خاص مع المهندس بنحاس روطنبرغ(١٨٧٩ ــ ١٩٤٢) (صاحب امتياز توليد الكهرباء في فلسطين ، فيما بعد) . وكان روطنبرغ ، وهو من مواليد اوكرانيا عضوا ، في ايام شبابه ، في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي . ثم انضم الى الحزب الاشتراكي الثوري واشترك في ثورة ١٩٠٥ في ورسيا ، واضطر على اثر فشلها الى مغادرة البلد ، خصوصا بعد ان نظم عملية اغتيال غابون ، احد كبار عملاء القيصر السريين في حزبه . واخيرا أنتقل للعيش في ايطاليا ، وتقرب هناك من الصهيونيين ، ثم انضم اليهم . وعندما قابله جابوتينسكي ، في اثناء مروره في روما ، سنة ١٩١٦ ، اكتشف انه يشارك الايمان بالفكرة نفسها ، بشأن اقامة كتائب يهودية مسلحة .

ثابر جابوتينسكي ، رغم العراقيل التي جابهته ، على الترويج لفكرته ، فتطوع في الجيش البريطاني ، وقدم بالاشتراك مع ترمبلدور ، الذي لحق به الى بريطانيا ، طلبا للسلطات لاقامة كتائب يهودية(٤٥) . وقد استجابت السلطات البريطانية لهذه المحاولات في نهاية الأمر (بعد ان تم وضع الخطط النهائية لمهاجمة فلسطين واحتلالها بواسطة القوات البريطانية الموجودة في مصر) فاعلنت في اواخر آب (اغسطس) ١٩١٧ ، موافقتها على اقامة كتيبة يهوديـــة فـــي الجيش البريطانـــي ، اسمتها الكتيبـــة ٣٨ من حملة البنادق الملكييـــن (38th Battalion, Royal Fusiliers) بقيـــادة الكولونيـــل باترسون ، وعين جابوتينسكي ملازمـــا فيها(٤٦) . ونقلت هذه الكتيبة الى فلسطين ، في حزيران (يونيو) ١٩١٨ ، حيث انضمت اليها في ايلول الكتيبة ٣٩ ، التي شكلت من متطوعين يهود في الولايات المتحدة وكندا(٤٧) . كان من بينهم دافيد بن ــ غوريون ويتسحاق بن ــ تسفي ، اللذين كان جمال

باشا قد طردهما من فلسطين ، مع آخرين ، خلال الحرب[٤٨] وكان الزعماء الصهيونيون في اميركا ، بمن فيهم زعماء حزب بوعالي تسيون (عمال صهيون) قد رفضوا ، في البداية ، فكرة اقامة الكتائب اليهودية ، الا انهم غيروا موقفهم هذا بعد اصدار وعد بلفور ، معلنين ان من واجبهم المساهمة في اخراج الاتراك من فلسطين . وقد اشترك جنود الكتيبة ٣٨ في القتال لاحتلال الجزء الشمالي من فلسطين ، في اواخر سنة ١٩١٧ ، واحتلوا مواقع تركية شرقي نهر الاردن ، إلا أن الكتيبة ٣٩ لم تقم بأي نشاط في هذا المجال ، اذ ان معظم جنودها وصلوا الى فلسطين بعد انتهاء الحرب .

والى جانب النشاط الذي بذل لتجنيد كتائب يهودية في بريطانيا والولايات المتحدة ، جرت محاولات مماثلة بين اليهود في فلسطين ، بعد احتلال الجزء الجنوبي منها . ففي منتصف شباط ١٩١٨ ، عقد في يافا « مؤتمر متطوعين » ، دام يومين ، وحضره ٤٢ مندوبا ، لصياغة شروط التطوع في الجيش البريطاني وشعاراته . وأثارت هذه الخطوة نقاشا حادا بين المستوطنين اليهود . فبينما ايدها حزب بوعالي تسيون ، عارضها الحزب المناوىء ، هابوعيل هاتسعير (العامل الشاب) بقوة ، معلنا ان مثل هذا العمل قد يعرض المستوطنات اليهودية في الجليل ، التي كانت لا تزال تحت حكم الأتراك ، لمخاطر كبيرة . واستمر هذا النقاش فترة غير قصيرة ، الى ان حسم عندما اعلنت السلطات العسكرية البريطانية ، في ١٨ حزيران ١٩١٨ ، موافقتها على قبول متطوعين من اليهود في فلسطين . وباشرت السلطات على الأثر في نقل اولئك المتطوعين الى مصر لتدريبهم ، وأقامت كتيبة خاصة بهم ، هي الكتيبة ٤٠ ، التي وصل عدد افرادها ، في خريف سنة ١٩١٨ ، الى نحو ١١٠٠ جندي[٤٩] . ولكن هذه الكتيبة لم تتمكن ، شأنها شأن الكتيبة ٣٩ ، من الاشتراك في القتال لاحتلال الجزء الشمالي من فلسطني ، اذ قبل ان ينتهي تدريبها كانت الحرب قد انتهت .

وبعد توقف القتال مع تركيا ، نقل جنود الكتيبة ٤٠ من مصر الى فلسطين ، وانضموا الى جنود الكتيبتين الاخريين ، مشكلين بذلك ، مع مطلع سنة ١٩١٩ ، قوة يهودية في فلسطين ، مؤلفة من نحو ٥ آلاف جندي . غير أن هذا العدد سرعان ما راح يتضاءل ، عندما أصر المتطوعون من يهود الولايات المتحدة وبريطانيا على العودة الى بلديهم ، مما أثر في المتطوعين من يهود فلسطين ، ودفع اعدادا منهم الى ترك تلك الكتائب والعودة الى مستوطناتهم وبيوتهم . ولكن على الرغم من ذلك ، اصرت القيادة الصهيونية على الاحتفاظ بمن تبقى من جنود تلك الكتائب ، ثم حملت السلطات العسكرية البريطانية على اعادة تنظيمهم ، آملة في ان تستطيع تجنيد متطوعين جدد من بين اليهود في فلسطين ، للانضمام اليهم ، فيشكلوا جزءاً من الحاميات المكلفة بحفظ الأمن في البلد بصورة دائمة . ونتيجة لهذه الجهود ، اعيد تنظيم من تبقى من المتطوعين في كتيبة واحدة ، منحت في أواخر سنة ١٩١٩ اسما جديدا : « الكتيبة اليهودية الأولى » (First Judeans) ، التي اختارت شعارا يهوديا لها : شمعدانا ذا سبعة اعمدة ، تحته كلمة « كديماه » (الى الامام) . غير ان أيام الكتيبة كانت معدودة ، على الرغم من عملية اعادة التنظيم هذه ، اذ أثار وجودها توترا ملحوظا بين العرب ، بينما اشترك بعض جنودها في اكثر من حادثة شغب في فلسطين ، خلال الأشهر الاولى من سنة ١٩٢٠ ، مما حدا بالسلطات البريطانية الى اصدار أمر بتسريحها ، في اواخر آذار (مارس) من السنة نفسها .

وتأجل تنفيذ هذا الأمر ، نتيجة لجهود وايزمان ، حتى أواخر تموز ، عندما سرح جنود الكتيبة بأسرهم(٥٠) .

تاسيس حزب احدوت هعفوداه

كان للكتائب اليهودية ، على الرغم من النهاية التي آلت اليها ، فوائدها على المدى الطويل بالنسبة للوطن القومي اليهودي في فلسطين . فبين جنودها تبلورت فكرة توحيد المجموعات العمالية الصهيونية في فلسطين ، وهي آنذاك القوى الرئيسية النشيطة بين المستوطنين الصهيونيين في البلد . وقد لعب بعض ضباط تلك الكتائب وجنودها دورا ملحوظا في عملية الوحدة تلك .

بدأ العمال الصهيونيون في فلسطين مساعيهم الهادفة الى توحيد صفوفهم ، وتهيئة انفسهم لأداء الدور الذي رأوا ان عليهم القيام به للنجاح في اقامة الوطن القومي ، في مرحلة مبكرة . فما ان مضى نحو ٣ أشهر على احتلال البريطانيين الجزء الجنوبي من فلسطين ، حتى عقدت المنظمة الزراعية في يهودا(٥١) مؤتمرها السابع في رحوفوت ، بين ٢٥ و ٢٧ شباط ١٩١٨ . وكان هدف المؤتمر توضيح موقف العمال الزراعيين اليهود من مستقبل النشاط الصهيوني في فلسطين ، الا انه لم يتطرق الى معالجة هذه الناحية بسبب استمرار الحرب . ولذلك تركز البحث في الشؤون التي تهم العمال الزراعيين ، حيث اتخذ المؤتمر سلسلة من القرارات اعلن فيها انه يرى « ان مركز الثقل في النشاط الصهيوني في الفترة القريبة هو العمل الفعال الواسع لتحرير الأرض وتأميمها ، وخلق ظروف سياسية واستيطانية واقتصادية وثقافية تسمح بهجرة شعبية واسعة »(٥٢) . كما اعلن ان الأراضي التي يتم استملاكها في فلسطين ، من قبل الصهيونيين ، يجب ان توضع تحت تصرف شركة الكيرن كاييمت(٥٣) ، لتكون « ملكا دائما للأمة العبرية » ، وأن تخصص « لبناء ييشوف عامل وحر عليها »(٥٤) . وطالب المؤتمر المنظمة الصهيونية بانشاء « مؤسسة مالية خاصة ، يكون هدفها استصلاح الأراضي ومنح القروض الزراعية »(٥٥) للمستوطنين اليهود .

غير أن عددا من اعضاء المؤتمر ، وفي مقدمتهم ليفي شكولنيك (اشكول) (صار فيما بعد رئيسا لحكومة اسرائيل ، ١٩٦٣ ــ ١٩٦٩) ، تشكى من ظواهر سلبية ، لها تأثيرها الضار على العمال الزراعيين وغيرهم على اختلاف فئاتهم . ومن أبرز تلك الظواهر التنافس الحزبي ، الذي سيطر على المنظمة وكاد يشل نشاطها ، خصوصا بعد ان راحت كل فئة حزبية تعمل من خلال مصالحها التنظيمية ، دون الاهتمام بمصلحة المجموع(٥٦) . وكان التناحر الحزبي بين اعضاء منظمتي ــ حزبي بوعالي تسيون وهابوعيل هاتسعير ، قد وصل آنذاك الى اشده ، مما نفر غير الحزبيين ودفعهم الى التكتل ، فنشأت تدريجيا فئة ثالثة : « حزب اللاحزبيين » . ولم يستطع المؤتمر اتخاذ اي اجراء يخفف من حدة التنافس بين تلك الفئات المتصارعة .

رغم انفضاض مؤتمر المنظمة الزراعية في يهودا دون اتخاذ اي قرار بشأن المسألة الرئيسية التي عقد من أجلها ، أي توضيح رؤيته لمستقبل النشاط الصهيوني في فلسطين ، استمر النقاش بين الفئات الصهيونية العمالية المختلفة حول ذلك . وساهم في استمراره بعض

الأحداث التي وقعت خلال سنة ١٩١٨ ، وأهمها وصول البعثة الصهيونية الى فلسطين في نيسان ، واتخاذ قرار بالتطوع للكتائب اليهودية في الصيف ، واحتلال بريطانيا القسم الشمالي من البلد في الخريف . ومع بداية سنة ١٩١٩ ، خصوصا اثر انعقاد مؤتمر الصلح ، الذي انعش آمال الصهيونيين بقرب فرض الانتداب البريطاني على فلسطين واقامة وطن قومي يهودي فيها ، احتدم النقاش ، وظهر ان من الضروري حسمه ، استعدادا لمهام المستقبل . وكان هذا النقاش قد تبلور حتى ذلك الوقت ، وانحصر في ثلاثة أمور رئيسية : أولها ، دور العمال في بناء الكيان الصهيوني في فلسطين ؛ ثانيها ، « جوهر العلاقات بين ارض ــ اسرائيل والمهجر عموما ، وبين الحركة العمالية في البلد والمهجر خصوصا »(٥٧) ؛ وثالثها ، « طريقة تنظيم العمال ، وهل يتم ذلك على أساس سياسي ــ حزبي أم تنظيم طبقي شامل غير حزبي ؟ »(٥٨) .

ولم يكن من السهل مباشرة العمل على حسم المواقف من هذه الأمور ، بسبب التنافس الحزبي الشديد الذي بقي مستعرا حتى ذلك الوقت . لذلك رفعت مجموعة من اللاحزبيين ، من جنود الكتائب اليهودية الذين كانوا قد عادوا آنذاك الى فلسطين ، شعار الغاء الأحزاب السياسية ، واستبدالها بتنظيم شامل ، يوحد العمال على اسس طبقية . وكان بين مجموعة اللاحزبيين بيرل كاتسنلسون ، ويتسحاق طابنكين ، ودافيد ريمز ، وشموئيل يفنيئيلي ، وغيرهم ، ممن اصبحوا فيما بعد بين كبار زعماء الجناح العمالي الصهيوني في فلسطين .

وجدت مجموعة اللاحزبيين هذه استجابة لدعواتها لدى فئات عديدة من بوعالي تسيون . وكان اعضاء فرع الحزب في فلسطين ، منذ تأسيسه سنة ١٩٠٦ ، قد ابتعدوا تدريجيا عن المواقف النظرية « المتصلبة » التي اتخذها الحزب ــ الام في روسيا ، ويلائمون بين نظرتهم وعقيدتهم والواقع الجديد في فلسطين(٥٩) . وحتى سنة ١٩١٣ ، كان اعضاء بوعالي تسيون في فلسطين قد تخلوا ، بصورة شبه نهائية ، عن الأسس العقائدية لبوعالي تسيون في روسيا ، المستندة الى الماركسية بتفسيرها البروخوفي ، واستبدلوها بنظريات اخرى ، اساسها ما سموه « الاشتراكية البناءة » . وانطلاقا من هذه المواقف ، تحفظ حزب بوعالي تسيون تجاه نظرية صراع الطبقات بمفهومها المتعارف عليه ، وان لم يتخل عنها نهائيا وشدد ، بدلا من ذلك ، على دور البناء الفعال الذي ينبغي ان يلعبه العمال الصهيونيون لاقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، في ضوء الاوضاع الخاصة للوجود اليهودي في البلد ، مؤكدا ان هدفه هو اقامة مجتمع يهودي هناك ، لا الانهماك في تطبيق نظرية صراع الطبقات على مجتمع غير قائم . « فالاشتراكية ليست نظرية هدم فقط . واذا لم يكن في ارض ــ اسرائيل ما يمكن هدمه ، فان فيها مجالا واسعا للخلق ... [كما] اننا قد اسسنا في البلد ــ على حد تعبير بن ــ غوريون ــ مشروعا لم يخطر في بال رفيقنا بروخوف ، المقيم في الخارج ... واتضح لنا انه لا يكفي ان نستولي على السلطة لكي نقلب النظام الاجتماعي ، ولا يكفي أيضا ان نهدم النظام ، بل علينا ان نسعى الى بناء اقتصاد قومي جديد »(٦٠) . ولذلك كان حزب بوعالي تسيون من اوائل المستجيبين لدعوات اللاحزبيين بشأن ضرورة توحيد الاحزاب الصهيونية العمالية في فلسطين . ولكن الحزب الآخر ، هابوعيل هاتسعير ، اتخذ موقفا مغايرا ، برفضه الدعوة الى الوحدة ، واقترح بدلا من ذلك اقامة « اتحاد فدرالي »(٦١) بين الأحزاب ، الا ان اقتراحه رفض .

في ضوء هذه المواقف ، استأنف دعاة التوحيد نشاطهم ، فشكلوا لجنة عمل سداسية ، تألفت من بن ــ غوريون ، وبن ــ تسفي عن بوعالي تسيون ، وطابنكين وكاتسنلسون وريمز ويفنيئيلي عن اللاحزبيين . ودعت الى مؤتمر عام للعمال الزراعيين ، عقد في بيتح تكفا ، في ٢٦ آذار ١٩١٩ . وبعد ان ناقش المؤتمر ، على مدى يومين ، مشاريع الوحدة المقترحة ، انتخب اعضاؤه ، وقدر عددهم بنحو ١٥٠٠ شخص ، ٥٨ مندوبا عنهم للبت في تلك المشاريع . ولما كانت اكثرية اولئك المندوبين من مؤيدي الوحدة (٢٨ من اللاحزبيين و ١٩ من بوعالي تسيون ، مقابل ١١ من هابوعيل هاتسعير) فقد تقرر ، خلافا لرأي هابوعيل هاستعير ، اقامة الحزب الموحد . وعلى الأثر ، عقد في اليوم الثالث مؤتمر عام لممثلي العمال ، ضم غير الزراعيين منهم ايضا ، بالاضافة الى اعضاء النقابات المهنية وبعض المثقفين ، واشترك فيه ٨١ مندوبا (منهم ٤٧ عن العمال الزراعيين و ١٥ عن عمال المدن و ١٩ عن المتطوعين في الكتائب اليهودية) يمثلون ١٨٧١ عاملا . وقرر المؤتمر اقامة « الاتحاد الصهيوني ــ الاشتراكي لعمال ارض ــ اسرائيل ، احدوت هعفوداه » (وحدة العمل) ، الذي حل مكان بوعالي تسيون في فلسطين ، وسرعان ما تحول الى حزب ضم أكثرية العمال اليهود في البلد ، رغم احجام هابوعيل هاستعير واقلية صغيرة ، يسارية ، من بوعالي تسيون عن الانضمام اليه(٦٢) .

اعتبر احدوت هعفوداه ، منذ تأسيسه ، انه ليس مجرد حزب جديد في فلسطين ، هدفه العمل السياسي أو الاستيلاء على الحكم فحسب ، بل هو تنظيم طلائعي شامل ، يسعى الى توحيد كل القوى العالمية الصهيونية ، واقامة مجتمع عمالي يهودي في فلسطين ، بكل مقوماته . ولذلك اعلن في دستوره انه يعتبر « حركة العمل [الصهيونية] في ارض ــ اسرائيل فرعا من حركة العمل الاشتراكية في العالم ، الساعية الى تحرير الانسان تحريرا شاملا من نير النظام القائم ، الذي يحكم رأس المال الخاص في مصير الأمة ، ونتاجها الاقتصادي والثقافي ، وعلاقات الشعوب والدول »(٦٣) . ولتنفيذ عملية التحرير هذه لا بد من اقامة مجتمع يعيش على العمل ، بعد « تحويل المصادر الأولية والاملاك ، التي جمعت على مر الأجيال ، من ملكية الفرد الى سلطة المجموع ، وتنظيم كل شؤون العمل والملك بواسطة المجتمع العامل »(٦٤) . كما اعلن الحزب انه يعتبر « حركة العمل في ارض ــ اسرائيل فرعا من الحركة الصهيونية بين اليهود ، الساعية الى انقاذهم من المهجر . وهدفها : بعث اليهود العائدين بجماهيرهم الى بلدهم ليستوطنوا فيه ... ويتحولوا الى شعب حر يحكم بلده ويتحدث بلغته العبرية ينظم حياته وفق مشيئته ، ويخلق قيمه المادية والروحية ويطورها »(٦٥) .

وانطلاقا من مواقفه هذه ، اعلن احدوت هعفوداه نه يقبل بين صفوفه كل من يعتاش على جهده ، دون استغلال عمل غيره ، حتى لو كان من غير طبقة العمال المأجورين . واوضح الحزب ايضا ان بناءه التنظيمي سيستند الى النقابات المهنية المستقلة ، بحيث يكون اعضاء تلك النقابات اعضاء فيه . وفي ختام برنامجه ، اعلن احدوت هعفوداه انه سينضم ، بصفة منظمة قطرية مستقلة ، الى المنظمة الصهيونية العالمية والأممية الاشتراكية(٦٦) .

ومع مرور الوقت ، صار أحدوت هعفوداه اكبر حزب صهيوني في فلسطين (وفي سنة ١٩٣٠ ، اتحد مع هابوعيل هاتسعير ، واسس معه حزب مباي ، المعروف منذ سنة ١٩٦٨ ، عندما أتحد مع فئات عمالية ، باسم حزب العمل الاسرائيلي) . وبحكم موقعه هذا ، تصدر

الحزب ، بأسمائه المختلفة ، النشاط الصهيوني في فلسطين ، ثم تسلم مقاليد الحكم في اسرائيل مدة طويلة .

محاولات دفع العرب للموافقة على مطاليب الصهيونيين

ما ان مضت عشرة ايام على استسلام تركيا ، في ٣١ تشرين الأول ١٩١٨ ، حتى استسلمت المانيا ، ثم اعلنت الهدنة في الحادي عشر من تشرين الثاني ، وانتهت بذلك الحرب العالمية الأولى . وبعد أقل من شهرين ، عقد في فرساي ، بالقرب من باريس ، في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ ، مؤتمر الصلح لحل المشاكل الناجمة عن الحرب ، وايجاد صيغ جديدة ، للعلاقات بين الشعوب . وكان الحلفاء المنتصرون هم اصحاب الكلمة العليا في ذلك المؤتمر ، اذ ان الهيئة الرئيسية فيه ، التي سميت « مجلس العشرة » ، كانت مشكلة من مندوبين عن كل من دول الحلفاء الرئيسية الخمس : بريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة واليابان . وفيما يتعلق بالمشرق العربي ، كانت بريطانيا وفرنسا هما صاحبتا القرار الاخير ، خصوصا ان الأولى كانت تسيطر ، مع حلفائها العرب ، على معظم اراضيه .

واستعدادا لعقد مؤتمر الصلح ، راحت بريطانيا تتخذ الاجراءات التي تكفل اصدار قرارات عنه متجانسة مع مصالحها . وكان من بين تلك الاجراءات ، كما أشرنا ، محاولة تشجيع الصهيونيين واستغلال نفوذهم . ولكن قبل الشروع في ذلك ، كان لا بد من محاولة التوفيق فيما بينهم وبين العرب ، لمنع تقديم طلبات متعارضة من قبل اي من الفريقين ، الى المؤتمر ، ثم تقوية الجبهة المعارضة للنفوذ الفرنسي في المشرق ، واخيرا تضييق هذا النفوذ قدر الامكان .

بدأت المحاولات البريطانية للتوفيق بين الصهيونيين والعرب ، عمليا ، في وقت مبكر . ففي اواخر آذار ١٩١٨ ، عندما وصل وايزمان الى مصر على رأس البعثة الصهيونية ، وهي في طريقها الى فلسطين ، اقترح المندوب السامي البريطاني في مصر ، على اعضاء البعثة ، مقابلة بعض الزعماء العرب هناك ، ممن كانوا علـى علاقة بشؤون سوريا ، لازالة ما تكون لديهم من شكـوك حيال المخططات الصهيونية في فلسطين . واستجاب وايزمان للاقتراح وعمل بموجبه[٦٧] . بوصول البعثة الصهيونية الى فلسطين اجتمع وايزمان ، بتأييد من اورمبسي ــ غور ، ضابط الاتصال البريطاني الملحق بالبعثة ، مع عدد من الوجهاء العرب في البلد ، لهذه الغاية ، الا ان القضايا السياسية لم تبحث في تلك الاجتماعات[٦٨] . واستؤنفت هذه المحاولات ،بعد بضعة اشهر ، ذلك عندما قام وايزمان ، بناء على نصيحة الجنرال اللنبي ، بمقابلة الامير فيصل في ٤ حزيران ١٩١٨ ، في مقر قيادته الى الشمال من العقبة ، واجاب عن اسئلته « المتعلقة بالبرنامج الصهيوني »[٦٩] ، بينما اعرب فيصل عن رغبته في ان « يرى العرب واليهود ينسقون فيما بينهم خلال مؤتمر الصلح المقبل »[٧٠] غير أن الرجلين لم يتوصلا الى أي اتفاق .

تجددت محاولات الصهيونيين ، بمساعدة البريطانيين ، الاجتماع بفيصل والتوصل الى اتفاق معه ، بعد وصوله الى باريس في اواخر سنة ١٩١٨ ، لحضور مؤتمر الصلح ، وهو يعاني

وضعا حرجا . فعند وصول فيصل الى ميناء مارسيل الفرنسي ، وذهابه بعد ذلك الى لندن ثم عودته الى فرنسا لحضور مؤتمر الصلح ، رحبت به الحكومة الفرنسية فعلا ، ولكنها اوضحت له انها تفعل ذلك باعتباره مجرد زائر ، لا يتمتع بأية صفة رسمية ولا يمثل احدا(٧١) . كذلك عارضت الحكومة الفرنسية منح بعثة الحجاز مقعدا في مؤتمر الصلح ، ولم تتخل عن معارضتها هذه الا تحت ضغط شديد من بريطانيا . وكان تصرف فرنسا هذا ، نذيرا بالموقف الذي ستتخذه من طلبات العرب بشأن الاعتراف باستقلالهم ، وبالصعوبات التي ستضعها في طريقهم ، خصوصا ان الفرنسيين كانوا قد احضروا الى المؤتمر بعثتين عربيتين من سوريا ولبنان ، لكي تطالبا بمنح فرنسا حق الانتداب على هذين البلدين . ومن خلال ما نجم عن تلك الصعوبات من نقاط ضعف ، حاول الصهيونيون والبريطانيون الوصول الى فيصل ، موحين له بأن الصهيونيين ، باستخدامهم نفوذهم في دول عدة ، قد يساعدونه في الحصول على استقلال العرب اذا وافق على « التضحية » بفلسطين « والتنازل » عنها ، في سبيل الحصول على استقلال المناطق العربية الاخرى . ويبدو ان فيصل قد اوحي اليه ، بشكل او بآخر ، بأن البريطانيين سيكونون على استعداد لرفض المطاليب الفرنسية للسيطرة على اجزاء من المشرق العربي ، بموجب اتفاقية سايكس ــ بيكو في حال الموافقة على وعد بلفور . ومن ناحية اخرى ، لـم يكن فيصل في وضع يسمح له بتجاهل طلبات البريطانيين ، الذين كانوا يمولون نشاطه . وقد شدد الصهيونيون من مطاردتهم اياه خلال المؤتمر ، وحاولوا التقرب منه بشتى الطرق(٧٢) ، ونجحوا في ترتيب لقاء بينه وبين الرئيس الاميركي ولسون . وقد اثمرت هذه الجهود اخيرا ، اذ وقع فيصل اتفاقا مع وايزمان في ٣ كانون الثاني ١٩١٩ . وصاغ ذلك الاتفاق ، باللغة الانكليزية ، مرافق فيصل ومستشاره البريطاني لورنس ، « صاحب الشخصية الفذة ــ على حد تعبير وايزمان ــ الذي ينبغي ان نشكره على الخدمات ... التي قدمها لقضيتنا »(٧٣) .

تنص اتفاقية فيصل ــ وايزمان(٧٤) ، فيما تنص عليه (بعد المقدمة التي تشيد بالقرابة العرقية والصلات القديمة القائمة بين العرب واليهود) على قيام دولتين في المشرق العربي ، احداهما فلسطين ، وثانيهما الدولة العربية المجاورة لها . « وتحدد ، بعد اتمام مشاورات مؤتمر [الصلح] مباشرة ، الحدود النهائية بين الدولة العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق عل تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين »(٧٥) . كما تنص الاتفاقية على أن « تتخذ ، عند انشاء دستور ادارة فلسطين ، جميع الاجراءات الكفيلة بتقديم اوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ باليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧ [اي وعد بلفور] . ويجب ان تتخذ جميع الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين على مدى واسع ، والحث عليها بأقصى ما يمكن من السرعة ، تسهيلا لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الاسكان الواسع والزراعة الكثيفة . وينبغي ، لدى اتخاذ مثل هذه الاجراءات ، ان تحفظ حقوق الفلاحين والمزراعين المستأجرين العرب ، وان يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي »(٧٦) . كذلك جاء في احدى المواد ، ان « الفريقين المتعاقدين » يتعهدان بالعمل المشترك من خلال « الاتفاق والتفاهم التامين في جميع الأمور التي شملتها هذه الاتفاقية ، لدى مؤتمر الصلح »(٧٧) وهذا بيت القصيد . غير ان فيصل اضاف تحفظاته على هذه الاتفاقية ، بخط يده ، موضحا انه « يجب علي ان اوافق على المواد المذكورة اعلاه ، بشرط ان يحصل العرب على استقلالهم ، كما

طلبت بمذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر [كانون الثاني] يناير المرسلة الى وزارة خارجية حكومة بريطانيا العظمى . ولكن اذا وقع اقل تعديل او تحوير [في المطاليب الواردة في المذكرة] ، يجب الا اكون عندها مقيدا بأية كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة ، لا شأن ولا قيمة قانونية لها ، ويجب ألا اكـــون مسؤولا بأي شكل من الأشكال » (٧٨) .

إلا أن تحفظات فيصل هذه لم يكن لها ، عمليا ، اية قيمة ، اذ كان الهدف الاساسي من وراء هذه الاتفاقية ، هو اقناع مؤتمر الصلح ان العرب لا يعارضون المخطط الصهيوني في فلسطين . وقد أدت الاتفاقية هذا الدور ، خصوصا بعد ان تصرف فيصل بما يتفق معها ، في خطابه امام المؤتمر . ففي أواخر الشهر الذي وقعت فيه الاتفاقية ، قرر مؤتمر الصلح ان المناطق العربية المحتلة في المشرق لن تعاد الى الحكم العثماني . وبعد هذا القرار بأربعة ايام ، اي في ٣ شباط ١٩١٩ ، تقدم الصهيونيون بطلباتهم الى المؤتمر ، في مذكرة(٧٩) شارك هربرت صموئيل في وضعها ، بموافقة وزارة الخارجية البريطانية . وركز الصهيونيون في مذكرتهم تلك على ضرورة الاعتراف بالعلاقة التاريخية بين اليهود وفلسطين ، واعلان البلد وطنا قوميا لليهود ، ومنح بريطانيا حق الانتداب عليه(٨٠) . كما ارفق الصهيونيون مذكرتهم بخريطة تحدد المنطقة التي يطالبون بأن يقام عليها الوطن القومي اليهودي . وتضم هذه المنطقة كامل فلسطين ، بحدودها ايام الانتداب البريطاني ، مع جنوب لبنان حتى شمال نهر الليطاني ، ومنطقة الجولان في جنوب سوريا ، وكل القسم المأهول من شرق الأردن ، حتى الخط الحجازي(٨١) . وبعد ٣ أيام من تقديم الصهيونيين طلباتهم ، تحدث فيصل ، في ٦ شباط ١٩١٩ ، امام مؤتمر الصلح ، فطالب بمنح كل بلدان المشرق العربي استقلالها ، عدا فلسطين ، التي ينبغي ان يبت في مصيرها من قبل كافة الأطراف المعنية ، نظرا لـ« طابعها الدولي »(٨٢) ، ثم طالب بارسال لجنة تحقيق من قبل مؤتمر الصلح ، الى المشرق العربي ، لاستطلاع راي سكانه قبل البت في مصيرهم ، وأيده في طلبه هذا الدكتور هوارد بلس رئيس الجامعة الاميركية في بيروت ، في اثناء ادلائه بشهادته امام المؤتمر .

وفي ٢٧ شباط ١٩١٩ ، استمع مؤتمر الصلح الى شهادات الوفد الصهيوني الذي مثل امامه برئاسة سوكولوف ووايزمان . وكرر سوكولوف امام المؤتمر ما جاء في المذكرة التي كان الصهيونيون قد تقدموا بها في مطلع الشهر،بينما أسهب وايزمان في تعداد الخطوات التي ينبغي اتخاذها لانشاء « فلسطين يهودية »(٨٣) . وعندما سأله روبرت لانسينغ ، وزير الخارجية الاميركية ، عما يعنيه،باستعماله هذه العبارة ، اجاب وايزمان انه يعني خلق ظروف يمكن معها ، عن طريق الهجرة اليهودية ، « ان تصبح ... فلسطين يهودية ، كما ان انكلترا انكليزية »(٨٤) ، ضاربا مثلا على ذلك ، النجاح الذي حققه الفرنسيون في تونس(٨٥) .

ويبدو ان كشف الصهيونيين عن نواياهم بالنسبة لفلسطين ، على هذه الصورة ، اثار شكوك فيصل وغضبه ، اذ نشرت احدى الصحف الباريسة على الأثر مقابلة معه ، تضمنت عبارات معادية جداً للصهيونية . وعلى الأثر استأنف الصهيونيون وحلفاؤهم الضغوط عليه ، فقام بكتابة رسالة(٨٦) مؤرخة في ٣ آذار ١٩١٩ الى فيلكس فرانكفورتر ، بصفته عضوا في الوفد

الصهيوني الاميركي ، لازالة الانطباع السلبي الذي خلفته المقابلة . وفي مطلع هذه الرسالة يكرر فيصل العبارات المألوفة عن علاقات القربى بين العرب واليهود ، « ابناء العم » ، ويعلن « [اننا] نحن العرب ، لاسيما المثقفين منا ، ننظر بتعاطف عميق الى الحركة الصهيونية . ان بعثتنا هنا في باريس مطلعة تماما على الاقتراحات التي قدمتها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر [الصلح] ، ونعتقد انها معتدلة ومناسبة . وسنقوم بكل ما في وسعنا ، بقدر ما يتعلق ذلك بنا ، بالعمل على قبولها . اننا نرحب من اعماق قلوبنا بعودة اليهود الى ديارهم »(٨٧) . وعلى الرغم من أن مصير فلسطين حسم في نهاية الأمر ، من قبل مؤتمر الصلح ، بناء على موازين القوى والمصالح الامبريالية التي كانت قائمة آنذاك ، مما يجعل اتفاقية وايزمان مع فيصل ، ورسالة هذا الاخير الى فرانكفورتر ، تتسمان بأهمية هامشية ، من حيث تأثيرهما في تقرير مصير فلسطين وشعبها ، فان وايزمان يؤكد في سيرة حياته مرتين ان هاتين الوثيقتين اتسمتا بـ « اهمية كبرى » ، و « ساعدتا كثيرا على خلق موقف ايجابي من التطلعات الصهيونية ، لدى الدول الاربع الكبرى »(٨٨) .

نظام الانتداب

امتنع مؤتمر الصلح ، بعد الفراغ من سماع الطلبات والشهادات بشأن بلدان المشرق العربي – خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩١٩ ، عن اتخاذ أي قرار بشأن مصير تلك البلدان ، نتيجة الخلافات التي استحكمت بين دول الحلفاء الكبرى ، ولم يتمكن المؤتمر من حلها آنذاك ، فيما يتعلق بمطامعها في المنطقة . كما ان تركيا لم تكن حتى ذلك الوقت ، قد « تنازلت عن حقوقها » في تلك البلدان ، التي كانت تحكمها قبل ان تحتلها دول الحلفاء ، مما أخر عملية البت في مصيرها . ولهذا قرر المؤتمر ، بدلا من ذلك ، ونتيجة للاقتراحات المتضاربة التي قدمت له ، قبول اقتراح الرئيس الاميركي ولسون بارسال لجنة تحقيق من قبله الى المشرق ، للوقوف على آراء سكانه في مسألة تقرير مصيرهم وطريقة حكمهم . وكان من المفترض ، بحسب الاقتراح ، ان تشكل لجنة التحقيق من مندوبين عن كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة . غير ان الدول الثلاث الأولى امتنعت ، بصورة أو بأخرى ، عن ارسال مندوبين عنها ، فاضطرت اللجنة اخيرا الى الاتجاه للمشرق ، في ٢٩ أيار (مايو) ١٩١٩ ، وهي مؤلفة من مندوبين اميركيين فقط هما هنري كينغ وشارل كراين (وكانت هذه اللجنة الأولى في مجموعة من لجان التحقيق ، على اختلاف انواعها ، التي قدر لها ان تبحث في القضية الفلسطينية ، حتى نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٤٨) .

أمضت لجنة كينغ –كراين عدة أسابيع في المنطقة ، زارت خلالها أماكن مختلفة ، وقابلت وفوداً عديدة ، كان من بينها وفد يمثل السكان اليهود في فلسطين ، تعهد لها بأن يحصل العرب على حقوق اقلية قومية في البلد ، عندما ينتقل الحكم فيه الى ايدي اليهود كذلك قدمت اللجنة مئات العرائض من قبل السكان على اختلاف فئاتهم(٨٩) .

عادت اللجنة الى اوروبا وقدمت تقريرها الى الدول الممثلة في مؤتمر الصلح ، ١٩١٩ . وقد جاء في التقرير ان اللجنة اكتشفت « ان الشعور العدائي نحو الصهيونية ليس قاصرا على فلسطين فحسب ، بل يشمل سكان سوريا بوجه عام ، فان ٧٢ في المائة من مجموع العراض

التي تناولتها اللجنة في سوريا مضادة للصهيونية . ولم ينل مطلب نسبة اكبر من هذه النسبة سوى الوحدة السورية والاستقلال »(٩٠) . وقالت اللجنة ايضا ان اغلبية السكان تؤيد ، بحسب رأيها ، منح الانتداب ـ اذا لم يكن بد من فرضه ـ للولايات المتحدة الاميركية بالدرجة الأولى ، وتليها بريطانيا في الدرجة الثانية ، بينما رفضت الوصاية الفرنسية من قبل الأكثرية . أما سبب تفضيل الانتداب الاميركي على غيره ، فهو ان الرئيس ولسون كان قد اعلن ، في ٨ كانون الثاني ١٩١٨ ، ما اسماه « النقاط الاربع عشرة » لتسوية المشاكل الناجمة عن الحرب بعد انتهائها . وقد نصت النقطة الخامسة من تلك النقاط على وجوب تسوية أية مشكلة استعمارية بما يتلاءم مع مصالح الشعوب المستعمرة ، لا وفقا لارادة القوى الاستعمارية فحسب . أما النقطة الثانية عشرة فقد أشارت الى امكانية منح الشعوب غير التركية ، ومن ضمنها العرب ، في الامبراطورية العثمانية ، حكما ذاتيا ، وهي مواقف كانت دول الحلفاء الأخرى ، خصوصا بريطانيا وفرنسا ، بعيدة عنها .

غير ان الرئيس ولسون لم يحرك ساكنا ، على الرغم مما اوردته لجنة كينغ ـ كراين بشأن مطالبة العرب بالاستقلال وحقهم في تقرير مصيرهم بانفسهم ، وهو الشعار الذي رفعته الولايات المتحدة عاليا ، وبالتالي امتنع ولسون حتى عن نشر تقرير اللجنة (الذي لم ينشر الا بعد ان تم اقرار الانتداب البريطاني على فلسطين) . ويبدو ان ولسون ، بموقفه هذا ، اراد عدم احراج الفرنسيين نظرا لمشاعر العداء لهم ، التي اوضحها التقرير ، ونتيجة الضغوط الصهيونية عليه ، خصوصا من قبل صديقه برانديس ، بسبب العداء للصهيونيين الذي اشار اليه التقرير ايضا . ولكن ، من ناحية ثانية ، كان ثمة مجال للشك في فعالية أية خطوة ، كان يمكن للرئيس ولسون ان يتخذها استنادا الى ذلك التقرير . ففي ذلك الوقت ازدادت في اميركا قوة التيار السياسي الداعي الى الاحجام عن زج البلد في مشاكل غير اميركية عموما ، وفي المشاكل الأوروبية خصوصا ، لدرجة ان الكونغرس رفض في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٩ اتفاقية فرساي عندما عرضت عليه وكرر رفضه اياها بعد ان عرضت عليه مرة ثانية في ١٩ آذار ١٩٢٠ . ونتيجة هذا الموقف فقدت الولايات المتحدة ، عمليا ، كل تأثير فعال على مؤتمر الصلح ، وامتنعت ايضا عن الانضمام الى عصبة الأمم ، التي باشرت عملها في مطلع سنة ١٩٢٠ . ومتابعة لهذه السياسة ، قامت الولايات المتحدة ، خلال سنتي ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ، بعقد اتفاقات صلح منفردة مع الدول التي كانت في حالة حرب معها ، ومن ضمنها تركيا ـ ثم انطوت على نفسها لفترة غير قصيرة . وكانت اليابان ايضا قد حملت على اتخاذ موقف مماثل . وبذلك فتح المجال امام بريطانيا وفرنسا وايطاليا للتحكم في مؤتمر الصلح ومباحثاته وتأمين مصالحهما على الوجه الأكمل .

وعلى أية حال ، وحتى قبل وقوع هذه التطورات ، كانت دول الحلفاء الكبرى قد اتخذت قرارها بشأن مصير البلدان التي كانت خاضعة لحكم اجنبي ، ومن ضمنها بلدان المشرق العربي . ففي ٢٨ حزيران ١٩١٩ ، أي قبل تقديم لجنة كينغ ـ كراين تقريرها بشهرين تماما ، وقعت اتفاقية فرساي (وميثاق عصبة الأمم) . وفي التاسع من الشهر التالي صادقت المانيا على الاتفاقية ، على ان يبدأ سريان مفعولها في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٠ . و « اخترعت » عصبة الأمم نظام حكم جديداً ، ضمنته ميثاقها ، لتطبيقه على شعوب الدول

المستعمرة سابقا ، اطلق عليه اسم الانتداب ، بعد ان اصبح واضحا أن من غير المستحسن اخضاع تلك البلدان لحكم استعماري مباشر . ويسري نظام الحكم هذا ، بموجب ميثاق عصبة الأمم (المادة ٢٢) على « المستعمرات والبلاد التي زالت عنها صفة التبعية للدول التي كانت تحكمها سابقا نتيجة للحرب الاخيرة ، والتي يقطنها اقوام لا يستطيعون النهوض وحدهم حسب مقتضيات العالم الحديث النشطة ، ويجب ان يطبق عليها المبدأ القائل بأن رفاهية مثل هذه الشعوب وتقدمها يعدان وديعة مقدسة في عنق المدنية ، وان الضمانات للقيام بما تتطلبه هذه الوديعة يجب ان يشتمل عليها هذا الميثاق » . وقررت دول الحلفاء ايضا ان « احسن وسيلة » ، للمحافظة على تلك « الوديعة المقدسة » ــ على حد تعبير الميثاق ــ هي « ان يعهد بالوصاية على مثل هذه الشعوب للأمم المتقدمة ، والتي تستطيع ، بسبب مواردها وخبرتها او موقعها الجغرافي ، ان تأخذ على عاتقها هذه المسؤولية على احسن وجه وتتقبلها ، ويجب عليها ان تمارس هذه الوصاية بوصفها دولا منتدبة بالنيابة عن عصبة الأمم » . كذلك اقرت انواع مختلفة من الانتداب ، كان « ارقاها » ذاك الذي فرض على « شعوب معينة [من بينها العرب] كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية ... وصلت الى درجة من التقدم يمكن معها الاعتراف مؤقتا بكيانها كأمم مستقلة ، خاضعة لقبول الارشاد الاداري والمساعدة من قبل الدول المنتدبة ، حتى ذلك الوقت الذي تصبح فيه هذ الشعوب قادرة على النهوض وحدها . ويجب ان يكون لرغبات هذه الشعوب المقام الأول في اختيار الدولة المنتدبة » . وبلغة اخرى ، كان الهدف من فرض انتداب واحدة من « الأمم المتقدمة » ــ على حد تعبير ميثاق عصبة الأمم ــ على بلد ما وتكليفها بحكمه وتنظيم ادارته لفترة معينة ، تختلف باختلاف درجة الرقي التي وصل اليها سكان ذلك البلد ، هو مساعدة اولئك السكان على التقدم وتحسين احوالهم ، حتى يصلوا الى درجة يستطيعون معها الحصول على استقلالهم واقامة حكمهم الوطني . وهذا ما حدث فعلا ، في نهاية الأمر ، في بلدان كثيرة ، منها سوريا ولبنان والعراق ، ودول افريقية عدة . غير ان هذه لم تكن هي الحال بالنسبة لفلسطين ، التي صيغ صك الانتداب عليها بشكل يهدف اساسا الى تسهيل اقامة الوطن القومي اليهودي فيها ، كما سنرى .

المعارضة العربية

عندما كانت دول الحلفاء ماضية في تنفيذ خططها بالنسبة للمشرق العربي ، وغيره من المناطق ، محاولة الاتفاق فيما بينها على اقتسام الاسلاب ، كان العرب في المشرق يعربون عن معارضتهم ، بمختلف الأشكال ، فرض أية وصاية عليهم عموما ، أو منح الصهيونيين أية حقوق استثنائية في فلسطين خصوصا . وكانت معارضة عرب فلسطين للصهيونيين ، التي تبلورت اساسا خلال السنوات الخمس التي سبقت الحرب العالمية الأولى ، قد تجددت بعد دخول البريطانيين الى البلد بفترة وجيزة . وفي منتصف سنة ١٩١٨ ، وجدت هذه المعارضة تعبيرا عنها في قيام جمعيات اسلامية ــ مسيحية في مدن واماكن عدة في فلسطين ، كان أحد الأهداف الرئيسية التي توحدها معارضتها للصهيونية (ويقال ان بعض تلك الجمعيات اقيمت بايحاء من ضباط بريطانيين متعاطفين مع العرب) . كذلك شكلت عدة جمعيات اخرى ، سياسية وثقافية(٩١) ، هدفها المحافظة على طابع فلسطين العربي . وعند حلول الذكرى الأولى لوعد بلفور ، في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ ، قامت مسيرة احتجاج في القدس ، اصطدمت

بالشرطة ، فحكم على عربيين بالسجن ، مما ادى الى قيام اول تظاهرة عربية بقيادة موسى كاظم الحسيني ، رئيس بلدية القدس ، الذي قدم احتجاجا خطيا الى الحكومة . كما ارسل احتجاج مماثل الى الحكومة الاميركية(٩٢) . كما قام وفد من الوجهاء العرب ، في القدس ويافا ، بتقديم احتجاج رسمي الى السلطات العسكرية البريطانية ضد اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين(٩٣) .وفي مستهل سنة١٩١٩ ،كان جابوتينسكي يبلغ البعثة الصهيونية ، استنادا الى معلومات وصلته من وحدة تابعة للبعثة ، انشأها هو وسماهـا وحدة المعلومات للبعثة عن قيام منظمات فلسطينية مسلحة ، منها « الاخاء والعفاف » و « الفدائية » تستعد لمحاربة اليهود ، ولذلك « عملت على جمع السلاح والتدرب عليه ، وحضرت قوائم باسماء وجهاء اليهود واماكن سكنهم ، وتقوم بالتحريض بين البدو في النقب وشرق الأردن ، وتنظيم رجال شرطة وضباط ، والتجسس ضد اليهود . وهناك تنظيمات مماثلة في القدس ويافا وغزة ونابلس وطولكرم وحيفا ومدن واماكن اخرى »(٩٤). وخلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩١٩ ، عندما كان مؤتمر الصلح يبحث ، فيما يبحث من قضايا معروضة عليه ، مسألة البت في مصير فلسطين ، ارسل الفلسطينيون ، الذين تفاهم الاتراك من البلد ، واعضاء الجمعيات الاسلامية واعيان طولكرم ، اكثر من احتجاج الـى المؤتمر ، على سلخ فلسطين عن سوريا وجعلها وطنا قوميا يهوديا ، والسماح بهجرة اليهود اليها(٩٥) . كذلك ارسل المندوبون الى المؤتمر العربي الفلسطيني الأول ، في ٣ شباط ١٩١٩ ، برقية الـى مؤتمر الصلح سجلوا فيها « احتجاجهم الشديد بسبب ما سمعوه من أن الصهيونيين نالوا وعدا بجعل بلدنا وطنا قوميا لهم ، وانهم ينوون الهجرة الى هذا البلد واستعماره . وعليه فاننا نحن المسلمين والمسيحيين المجتمعين بصفة مندوبين لأمة عربية حية من الأمم الضعيفة ... جئنا بهذا رافضين رفضا باتا كل قرار يتخذ بهذا الصدد قبل اخذ رأينا ... ورغباتنا واماننا التي سنعرضها »(٩٦) .

وكان المؤتمر العربي الفلسطيني الأول قد انعقد في الفترة الواقعة بين ٢٧ كانون الثاني و ١٠ شباط ١٩١٩ ، من مندوبين عن الجمعيات الاسلامية والمسيحية في مختلف انحاء فلسطين ، للبحث في عرض مطاليب الفلسطينيين على مؤتمر الصلح . وقد اتخذ المؤتمر ، بالاضافة الى البرقية التي ارسلها الى مؤتمر الصلح ، سلسلة من القرارات ، اعلن بموجبها انه يعتبر « فلسطين جزءاً من سوريا العربية ، اذ لم يحصل قط أن انفصلت عنها في أي وقت من الاوقات . ونحن مرتبطون بها بروابط قومية ودينية ولغوية وطبيعية واقتصادية وجغرافية » . ولهذا « نعرب عن رغبتنا بأن لا تنفصل سوريا الجنوبية او فلسطين عن حكومة سوريا العربية المستقلة ، وان تكون متحررة من جميع انواع النفوذ والحماية الاجنبيتين»(٩٧). كذلك اعلن المؤتمرون ان حكـومة البلد ستطلب كل مساعدة تحتاجها ، من « صديقتها بريطانيا العظمى ... شريطة ان لا ينتقص ذلك من استقلالها او يؤثر في الوحدة العربية بأي شكل من الأشكال ، كما انها ستبقى على علاقات طيبة مع الدول الحليفة »(٩٨) .

ولتأكيد رغبته في « ان لا تنفصل سوريا الجنوبية أو فلسطين عن حكومة سوريا العربية المستقلة » ، نشط المؤتمر العربي الفلسطيني الأول في ارسال مندوبين من فلسطين لحضور المؤتمر السوري العام ، المنعقد في مطلع تموز ١٩١٩ ، في دمشق . وكان ذلك المؤتمر قد قرر « الاعتراف باستقلال سوريا ، بما في ذلك فلسطين ، دولة ذات سيادة ، على رأسها ... فيصل

ملكا ، والاعتراف باستقلال العراق »(٩٩) . كذلك طالب « بالغاء اتفاقية سايكس ــ بيكو ووعد بلفور وأي مشروع لتقسيم سوريا ، او انشاء دولة يهودية في فلسطين » ، واعلن رفضه « الوصاية السياسية التي تتضمنها النظم الانتدابية المقترحة ، وقبول المعونة الاجنبية لفترة محدودة ، شرط الا تتعارض مع الاستقلال الوطني والوحدة القومية . وتفضل المعونة التي تقدمها اميركا ، فان لم تتيسر فالمعونة البريطانية »(١٠٠) . وشدد المؤتمر ايضا على « رفض المعونة الفرنسية في أي شكل جاءت »(١٠١) .

وثابر عرب فلسطين ، بعد انعقاد هذين المؤتمرين (مع مجيء لجنة كينغ ــ كراين الى البلد ، وبعد هذا الوقت ، في النصف الثاني من سنة ١٩١٩) على ارسال مذكرات الاحتجاج الى السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين ، او غيرها من المراجع الدولية ، معلنين رفضهم فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين والسماح لليهود بالهجرة اليها او فصلها عن سوريا(١٠٢) .

غير ان هذه المؤتمرات والمقررات والاحتجاجات لم تجد نفعا ، اذ كان لبريطانيا وفرنسا رأي آخر . فبعد ان فشل مؤتمر الصلح ، خلال جلساته المنعقدة في باريس ، في مطلع سنة ١٩١٩ ، في الوصول الى اتفاق بين بريطانيا وفرنسا ، يضمن مصالحهما الاستعمارية في المشرق العربي ، استؤنفت المفاوضات الثنائية بين البلدين حول ذلك . وانتهت هذه المفاوضات ، التي استمرت فترة غير قصيرة ، بتوقيع اتفاقية بين البلدين ، في ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ ، في باريس ، تعهدت بريطانيا بموجبها بسحب قواتها من سوريا قبل الأول من تشرين الثاني من السنة نفسها ، تمهيدا لوضع البلد تحت الحكم الفرنسي . واتفق البلدان ايضا على ان تستبدل ، خلال الفترة ذاتها ، الحاميات العربية في مدن دمشق وحمص وحماه وحلب ، بجنود فرنسيين(١٠٣) . وبعد توقيع هذه الاتفاقية ببضعة ايام ، ابلغ فيصل ، الذي كان قد دعي الى زيارة بريطانيا ، بمضمونها ، فقدم احتجاجه . ولكن الحكومة البريطانية اقنعته بضرورة الذهاب الى باريس ، لمفاوضة الحكومة الفرنسية ومحاولة الوصول الى اتفاق معها . ولم يكن لدى فيصل خيار ، ازاء تخلي بريطانيا عنه ، الا الأخذ بهذه النصيحة والتصرف بموجبها ، فوصل الى باريس في نهاية تشرين الثاني ١٩١٩ ، وأجرى محادثات مع كليمنصو ، اسفرت عن عقد اتفاقية موقتة بين الطرفين ، اعترف فيصل بموجبها بحق الفرنسيين في السيطرة على المناطق الساحلية من سوريا ولبنان . وفي منتصف كانون الثاني ١٩٢٠ ، عاد فيصل الى سوريا ، وحاول حمل زعمائها على تفهم ابعاد الوضع الذي نشأ على أثر الاتفاق البريطاني الفرنسي بشأن مصيرها ، ودعا الى تشكيل وفد للذهاب معه الى باريس واستئناف المفاوضات مع الحكومة الفرنسية . غير ان هذه الدعوات قوبلت بالبرود ، فلم ينجح فيصل في تشكيل أي وفد ، ثم قامت تظاهرات في بعض المدن السورية تطالب بالوحدة والاستقلال . ولم يتردد زعماء الحركة القومية العربية في استنتاج النتائج المترتبة على موقفهم الرافض للسيطرة الاجنبية على سوريا . ففي ٨ آذار ١٩٢٠ ، اجتمع المؤتمر السوري العام في دمشق ، واعلن استقلال سوريا (بما في ذلك لبنان وفلسطين) كدولة ملكية دستورية ، ونصب فيصل ملكا عليها . وفي الوقت نفسه ، عقد مؤتمر مماثل في العراق ، واختير الامير عبد الله ، شقيق فيصل ملكا عليه . ولكن بريطانيا وفرنسا اعلنتا عدم اعترافهما بهذه الاجراءات ، ودعي فيصل الى

اوروبا لاستئناف المفاوضات(١٠٤) ، بينما كانت الدولتان تعملان على اضفاء الشرعية من قبل مؤتمر الصلح (الذي عاد الى الانعقاد في مدينة سان ريمو بايطاليا في اوائل سنة ١٩٢٠ ، وذلك بوصفه مجلسا لعصبة الامم ، التي كان الحلفاء قد اتفقوا على انشائها حتى ذلك الوقت) على اتفاقيات تقسيم المشرق العربي الى مناطق نفوذ فيما بينهما استكمالا لاتفاقية سايكس ـ بيكو .

اوضاع اليهود في العالم والنشاط الصهيوني بينهم بعد الحرب

لم تتأثر عملية اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين فقط بالتطورات التي وقعت في المشرق العربي ، بعد انتهاء الحرب، او بمواقف الحلفاء ومخططاتهم ، بل تأثرت ايضا بأوضاع اخرى تمثلت فيما طرأ من تغيرات على اوضاع اليهود في العالم آنذاك ، اضافة الى النشاط الصهيوني بينهم وانعكاساته على الوجود اليهودي في فلسطين .

لقد نجمت عن الحرب العالمية الأولى تغيرات سياسية مهمة في روسيا واوروبا الشرقية ، من حيث اقامة انظمة حكم أو دول جديدة في تلك المناطق ، أثرت بشكل ملحوظ في اوضاع نحو سبعة ملايين يهودي كانوا يسكنونها ، ويشكلون اكثر من نصف عدد اليهود في العالم آنذاك . ومع انجاز عملية اعادة رسم الخرائط لمناطق عديدة في العالم ، بتأثير نتائج الحرب ، بعد ان سويت المشاكل الناجمة عنها بشكل او بآخر ، وجد اليهود انفسهم في روسيا واوروبا الشرقية ، حيث كان يتركز النشاط الصهيوني في ذلك الوقت ، في اوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية تختلف بصورة واضحة عن تلك التي كانت قائمة قبل الحرب . وقد أثرت هذه الاوضاع في مواقف اليهود في تلك البلدان واتجاهاتهم ، ومن ثم على النشاط الصهيوني بينهم ، خصوصا خلال السنوات التي تلت انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة .

كانت اولى التغيرات التي طرأت على اوضاع اليهود نتيجة للحرب ، وأهمها ، تلك التي وقعت خلال مرحلة القتال الأولى بين القوى المتصارعة ، في بولونيا وروسيا الشرقية ، حيث كان يسكن آنذاك نحو خمسة ملايين يهودي ، هم مركز نشاط الصهيونية ومستودع قواها البشرية الرئيسي . فبعد مرور بضعة اشهر على نشوب الحرب سنة ١٩١٤ ، شن الألمان ، في آذار ١٩١٥ ، هجوما واسعا على المناطق الشرقية من روسيا القيصرية ، اسفر مع نهايته في تشرين الأول من السنة نفسها ، عن احتلال المانيا معظم اراضي بولونيا والمناطق الواقعة الى الشمال منها ، حتى بحر البلطيق . ونتيجة هذا الاحتلال ، وقع تحت حكم السلطات الالمانية نحو ثلاثة ملايين يهودي ، كانوا يقطنون في تلك المناطق المحتلة ، وبقي تحت الحكم القيصري في روسيا نحو مليونين منهم .

انتهجت السلطات الألمانية ، في المناطق التي سيطرت عليها في بولونيا وجوارها ، سياسة احتلال ليبرالية ، كان الهدف منها كسب ود السكان فيها ، بما يضمن لالمانيا الهدوء والاستقرار ويساعدهاعند استئناف الحرب مع روسيا ، من جهة ، كما يساعدها على خلق دول مستقلة في تلك البلدان ، تكون حاجزا بينها وبين روسيا في المستقبل ، من جهة ثانية . وكان لليهود ، في تلك المناطق ، نصيبهم من هذه السياسة الليبرالية ، التي باشرت السلطات الالمانية تنفيذها . فما ان استقرت الاوضاع في بولونيا المحتلة ، وبعد مرور وقت قصير على احتلال

العاصمة وارسو ، حتى اعلن الالمان اقامة حكم مدني في البلد . وبعد انجاز تلك الترتيبات بفترة قصيرة اصدرت القيادة الالمانية امرا بشأن اقامة ادارة ذاتية في بولونيا ، دون ان تنكر ايا من الاجراءات الاستثنائية التي كانت تطبق آنذاك على اليهود هناك[١٠٥] ، فألغت بذلك ، ضمنا وبدون ضجة كبيرة ، كل ما كان الحكم الروسي القيصري قد فرضه عليهم من قيود ، في مختلف مجالات الحياة ، خلال عشرات السنين[١٠٦] . وفي تشرين الثاني ١٩١٦ ، عندما اعلنت المانيا اقامة مملكة بولونية مستقلة ، اصدرت قانونا بشأن تنظيم الطائفة اليهودية في البلد ، اعترف بالمساواة بين اليهود وباقي المواطنين ، وسمح بتنظيم الطائفة اليهودية على أسس دينية ، ومنح الحاخامين مركزا مرموقا وسلطات واسعة لادارة شؤون الطائفة[١٠٧] . وبعد اصدار هذا القانون ببضعة اشهر ، اعترفت سلطات الاحتلال الالماني ، في نيسان ١٩١٧ ، بشرعية المنظمة الصهيونية في بولونيا[١٠٨] وسمحت لها بممارسة نشاطها علنا ، بعد ان كان ذلك محظورا خلال العهد القيصري .

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى ، طرأت ايضا تغيرات ملحوظة اخرى على اوضاع اليهود في بولونيا واوروبا الشرقية ، نتيجة اتفاقيات عقدت مع دول عدة في تلك المنطقة ، في اطار اتفاقيات السلم.فقد ظهرت في مؤتمر الصلح،عند انعقاده في فرساي سنة١٩١٩، مع نهاية القتال ، بعثات يهودية من دول عدة ، هدفها حث القوى العالمية المشاركة في المؤتمر على الاعتراف بحقوق اقليات قومية لليهود ، وايجاد الوسائل الكفيلة بضمانها ، خصوصا في دول اوروبا الشرقية . وكانت دوائر صهيونية معينة قد نشطت في هذا المجال على اثر نشوب الحرب العالمية مباشرة . ففي مطلع سنة ١٩١٥ ، مثلا ، طلب الدكتور روبين ، مدير المكتب الفلسطيني الصهيوني في يافا الى القاضي برانديس ، الزعيم الصهيوني الاميركي ، العمل على توحيد اليهود في اميركا ، ليستطيعوا التأثير في مؤتمر السلام ، عند انعقاده ، وحمله على الاعتراف بطلبات الصهيونيين واليهود . ومع نهاية سنة ١٩١٦ ، استطاع الصهيونيون في الولايات المتحدة الاميركية تشكيل لجنة لهذا الغرض ، ضمت زعماء يهودا غير صهيونيين ، وسيطروا عليها[١٠٩] . وخلال سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩ ، اقيمت في مناطق عدة من النمسا وهنغاريا والمانيا وروسيا ، « مجالس قومية » من قبل ابناء عدد من الأقليات القومية التي كانت تقطن في تلك المناطق آنذاك ، بهدف حمل مؤتمر الصلح على الاعتراف بحقوق تلك القوميات ، قبيل رسم الحدود الجديدة لبلدان تلك المناطق والاعتراف باستقلالها . وقد اسس اليهود ، في تلك المناطق ، عددا من تلك المجالس[١١٠] . وفي نهاية سنة ١٩١٨ ، طالب المكتب الصهيوني في كوبنهاغن ، وهو مقر القيادة الصهيونية الرسمية « المحايدة » خلال الحرب ، مؤتمر الصلح بالاعتراف بطلبات ثلاثة للصهيونيين : اولها اعلان فلسطين وطنا قوميا لليهود ، وخلق الظروف الضرورية لانشاء هذا الوطن ؛ وثانيها الاعتراف بمساواة اليهود في الحقوق في كل البلدان ؛ وثالثها منح ادارة قومية ذاتية لليهود ، في المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية ، في البلدان التي تسكنها اقلية يهودية كبيرة ، او لأية اقلية يهودية ، في اي بلد ، قد تطالب بهذه الحقوق[١١١] . وكان زعماء اليهود في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ايضا قد طالبوا حكوماتهم ، خلال الحرب ، بوضع المسألة اليهودية على جدول اعمال مؤتمر الصلح ، عند انعقاده .

وعلى الرغم من هذا النشاط ، لم تدع اية هيئة يهودية لحضور مؤتمر الصلح . الا ان بعثات يهودية ، من دول عدة ، حضرت الى مكان انعقاده في فرساي . وظهر خلال المؤتمر خلاف في الراي بين تلك البعثات . فبينما اصرت بعثتا يهود بريطانيا وفرنسا على مطالبة المؤتمر بالاعتراف بمساواة اليهود في الحقوق المدنية مع الآخرين ، اصرت البعثات الأخرى ، القادمة من الولايات المتحدة وروسيا واوروبا الشرقية (التي اقامت مع الصهيونيين هيئة مشتركة ، اطلقت عليها اسم « لجنة البعثات اليهودية لدى مؤتمر الصلح » ، لتمثلها امام المؤتمر) على المطالبة ، بالاضافة الى ذلك ، بمنح اليهود حق ادارة قومية ذاتية ، في اية منطقة او بلد تقطنه اقلية يهودية(١١٢) . واستمرت المفاوضات بشأن هذه الطلبات وقتا غير قصير ، الى ان احرزت البعثات اليهودية اول انتصار لها ، عند توقيع اتفاقية الصلح بين المانيا وبولونيا . فقد اصرت المانيا ، عند توقيع تلك الاتفاقية ، على ادخال مادة في المعاهدة (عرفت فيما بعد باسم « مادة الاقليات ») ، تعهدت بولونيا بموجبها بالاعتراف بحقوق الاقليات العرقية أو الدينية فيها ، ومن ضمنها اليهود ، بما في ذلك حقهم في ادارة مؤسساتهم الثقافية والاجتماعية ادارة ذاتية(١١٣) . كما تعهدت بولونيا ايضا بادخال نصوص مماثلة لهذه المادة في الاتفاقيات التي ستوقعها مع الدول الاخرى المشتركة في المؤتمر . واصبحت « مادة الاقليات » هذه النموذج الذي صيغت بموجبه الضمانات التي منحت للاقليات في دول اوروبية عدة . وحتى سنة ١٩٢٣ ، عندما انجزت هذه العملية ، كانت ٤ دول من تلك التي حصلت على استقلالها بعد الحرب ، وهي تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا واليونان ، قد وقعت اتفاقيات مماثلة لتلك التي وقعتها بولونيا . كذلك حملت ٤ من الدول التي هزمت في الحرب ، وهي النمسا وهنغاريا وبلغاريا وتركيا ، على توقيع تلك المواد ، بينما تعهدت ، علنا ، كل من لتوانيا ولاتفيا واستونيا والبانيا وسلطات بعض المناطق الاخرى ، بالاعتراف بالحقوق التي نصت عليها « مادة الاقليات » . وكان عدد اليهود من سكان هذه الدول ، الذين تنطبق عليهم هذه المادة ، قد بلغ آنذاك نحو خمسة ملايين وثلاثة ارباع المليون نسمة (منهم نحو ٣ ملايين في بولونيا ، و٣٥٠ الفا في تشيكوسلوفاكيا ، ومليون في رومانيا ، و ٧٠ الفا في يوغوسلافيا ، و ٧٥ الفا في اليونان ، و ١٥٠ الفا في النمسا ، و ٤٥٠ الفا في هنغاريا ، و ٥٠ الفا في بلغاريا ، و ١٥٠ الفا في البانيا ، و ٩٠ الفا في لتوانيا ، و ١٥٠ الفا في لاتفيا ، و ٤ آلاف في استونيا ، و ١٥٠ الفا في تركيا)(١١٤) .

كذلك عهد الى مجلس عصبة الأمم بمراقبة تنفيذ تلك الاتفاقات ، وسمح للأقليات المعنية بتقديم المذكرات والشكاوى اليه ، بحق الدول التي تتنكر لحقوقها . ولكن سرعان ما اتضح ان هذا الاجراء كان عديم الفائدة ، اذ كانت عصبة الأمم تفتقر الى الصلاحيات والاجهزة الكفيلة بفرض الالتزام بتلك الاتفاقيات ، عند التنكر لها من قبل اية دولة(١١٥) . ولكن على الرغم من ذلك ، تمتعت الاقليات اليهودية ، في عدد من الدول الاوروبية ، بالحقوق التي نصت عليها تلك الاتفاقات ، مما سهل ممارسة النشاط الصهيوني بينها .

كذلك تغيرت اوضاع اليهود في روسيا ، نحو الأحسن . إذ لم يمض الا ١٨ يوما على تنحية القيصر عن العرش ، حتى اصدرت الحكومة الروسية الجديدة ، قانونا جديداً ، تم وضعه بالتشاور مع حقوقيين يهود ، ونشر في ٢٢ آذار ١٩١٧ ، يقضي بمساواة اليهود في

الحقوق مع باقي المواطنين في الدولة . كما أعلن الغاء نحو ١٥٠ قانونا ، كان الحكم القيصري قد أصدرها في السابق ، وفرض بموجبها قيوداً مختلفة على اليهود (١١٦) . وفور اصدار هذا القانون ،تجدد النشاط الصهيوني العلني في روسيا . ولكن لم يمض الا أقل من سنة حتى استلم البولشفيون السلطة ، فحظروا النشاط الصهيوني عموما في البلد منذ بداية ١٩١٨ (عدا ذلك الذي كانت تمارسه منظمة هيحالوتس ــ انظر ادناه) .

أما في الولايات المتحدة ، التي ضمت التجمع اليهودي السكاني الثاني في العالم مع نهاية الحرب العالمية (نحو ٣,٩ ملايين نسمة) ، منذ نشأت ، خلال سني الحرب ، حركة صهيونية نشيطة ، لعبت دورا ملحوظا في النشاط الصهيوني خلال السنوات الاخيرة من الحرب وبعدها مباشرة . الا ان زعماءها سرعان ما اختلفوا مع الدكتور وايزمان وصحبه ، مما أثر في التعاون بينهم ، ولم تعد الأمور الى نصابها الا في اواخر العشرينات .

ونتيجة الاوضاع التي اشرنا اليها ، بقي النشاط الصهيوني خلال العشرينات مركزا بين يهود الدول التي احتضنت الصهيونية أساساً ، اي روسيا وبولونيا ودول اوروبا الشرقية ، حيث تكيف هذا النشاط مع التغيرات التي طرأت على الأوضاع السياسية في تلك البلدان .

هجرة هيحالوتس

كان للتغيرات التي طرأت على اوضاع اليهود في بلدان مختلفة ، كما اشرنا ، تأثيرها في نشاط كافة الأحزاب والمنظمات الصهيونية ، لا في فلسطين فحسب ، بل خارجها أيضا .فتحت تأثير الاحداث التي وقعت خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها ، راحت كافة التنظيمات الصهيونية تعيد النظر في مواقفها ، وفي عقيدتها احيانا ، ثم في بنائها التنظيمي . وأسفرت هذه العملية ، مع انتهائها بعد مرور بضع سنوات على نهاية الحرب ، عن توحيد عدد من الاحزاب والتنظيمات الصهيونية من ناحية ، وانشقاق البعض على نفسه من ناحية ثانية . كذلك اقيمت ، خلال الفترة نفسها ، احزاب ومنظمات صهيونية جديدة ، لعبت دوراً مهما في اقامة الوطن القومي اليهودي . وكان سعي تلك الهيئات لأن تتلاءم مع الواقع الجديد ومتطلباته ، وفقا لتوقعاتها ، احد الأسباب الرئيسية وراء تلك التغيرات .

لقد كان لعمليات التغيير والتجديد الصهيونية تلك تأثيرها الواضح في بناء الكيان الصهيوني في فلسطين ، فيما بعد . الا ان واحدة منها فقط أثرت بصورة ملحوظة في الوطن القومي خلال السنوات التي تلت الحرب مباشرة ، وهي منظمة هيحالوتس (الطلائعي) .

كانت هيحالوتس عبارة عن مجموعات من الشباب ، هدفها تدريب اعضائها على القيام بكافة انواع العمل اليدوي ، لاسيما العمل الزراعي ، تمهيدا لهجرتهم الى فلسطين . وكانت اولى مجموعات هيحالوتس قد ظهرت في منتصف سنة ١٩١٦ ، بين يهود مدن القرم ، ثم انتشرت في مختلف انحاء روسيا ، دون ان تربطها علاقات تنظيمية متينة ، ومع ازدياد عدد هذه الجمعيات ، قرر المؤتمر الثاني لمنظمة ــ حزب تساعيري تسيون ، المنعقد في أيار ١٩١٧ في بتروغراد ، بسط حمايته عليها ومساعدتها . وعند اعلان وعد بلفور ، اصدرت تساعيري

تسيون بيانا حثت فيه اعضاءها على الانضمام الى هيحالوتس والاستعداد للهجرة الى فلسطين ، لأن « البلد لن يكون لنا ، ما لم يكن العمل فيه تحت سيطرتنا »(١١٧) ، مما ادى الى تزايد اعضاء هيحالوتس وجمعياتهم بشكل ملحوظ . وفي منتصف كانون الثاني ١٩١٨ ، بادرت تساعيري تسيون الى عقد اجتماع لرؤساء جمعيات هيحالوتس ، في خاركوف ، تقرر فيه اعتبار « هيحالوتس طليعة الكادحين ، الذين يهاجرون الى ارض ـ اسرائيل لحل مشكلة الاستيطان . وهدف هيحالوتس هو تهيئة البلد ، من اجل الشعب ، بواسطة توحيد وتركيز كافة القوى المستعدة للعمل في سبيل هذا الهدف ... »(١١٨) .

غير أن هيحالوتس لم تقتصر على هذا الهدف ، ولا على الوضع التنظيمي الذي اشرنا اليه ، اذ سرعان ما ازداد عدد اعضائها بانضمام اعداد كبيرة من غير الحزبيين اليها ، فتحررت من سيطرة تساعيري تسيون وراحت تتصرف كمنظمة مستقلة . وساهم يوسف ترومبلدور ، الذي كرس معظم وقته لخدمة هيحالوتس ، خصوصا خلال سنة ١٩١٨ ، في بلورة هذا الاتجاه(١١٩) . وفي الوقت نفسه ، تشعبت فروع هيحالوتس وانتشرت بين الشباب اليهود في كافة دول اوروبا الشرقية ، حيث كان لكل منها طابعه الخاص به ، وان وحدها جميعا هدف واحد هو تهيئة اعضائها لتعاطي جميع انواع العمل اليدوي استعدادا لهجرتهم الى فلسطين(١٢٠) .

ولكن على الرغم من انتشار فروع هيحالوتس على هذا الشكل ، بقي فرع المنظمة في روسيا الأكثر عددا والاوسع نشاطا بين سائر الفروع . وكانت هيحالوتس الروسية قد عقدت اول مؤتمر لها في بتروغراد ، في كانون الثاني ١٩١٩ ، وعدلت فيه اهدافها ، معلنة انها تعتبر نفسها « منظمة كادحة فوق ـ حزبية لاعضاء قرروا الهجرة الى ارض ـ اسرائيل ، للعيش فيها حياة عمل مستقلة دون استغلال للغير » ، وان هيحالوتس « توحدهم وتدربهم وتنقلهم وتوطنهم في البلد »(١٢١) . والهدف من ذلك هو انشاء مركز [يهودي] اقليمي قومي في ارض ـ اسرائيل ، يتفق مع مصالح الكادحين القومية والاجتماعية ـ العامة المطلقة »(١٢٢) . واعلنت المنظمة ايضا التزامها بقرارات المؤتمرات الصهيونية وتعليماتها ، واعترافها بالعبرية لغة قومية ، وطالبت بتأميم الأراضي في فلسطين(١٢٣) . وعلى أثر انفضاض هذا المؤتمر ، عمدت هيحالوتس في روسيا الى رص صفوفها وتوسيع نشاطها ، فأنشأت عشرات الفروع الجديدة التابعة لها ، خصوصا في منطقتي القرم واوكرانيا خلال سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٢ .

لم تستطع منظمة هيحالوتس تحقيق هذه الانجازات بفضل نشاطها فقط ، بل تم ذلك ايضا بفضل موقف السلطات السوفييتية ، التي اعترفت بتلك المنظمة وتعاونت معها ، وذلك على عكس موقفها من المنظمات الصهيونية الأخرى . فخلال الفترة الأولى من الحكم السوفييتي ، خصوصا خلال مرحلة « السياسة الاقتصادية الجديدة » ، كان النظام الجديد بحاجة ماسة الى تنشيط الزراعة وتوسيع الانتاج الزراعي ، بحيث وجد نفسه مضطرا الى التعامل مع اية فئة تعمل في هذا المجال . وكانت هيحالوتس ، من ناحيتها ، قد استطاعت ايضا حمل عدد من المنظمات اليهودية ، خصوصا منظمتي اورط وجوينت وشركة يكا(١٢٤) على مساعدتها بالماكينات الزراعية وغيرها ، مما كان الاتحاد السوفييتي بحاجة له ايضا . ولذلك

اعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ، سنة ١٩٢٠ ، عدم معارضتها نشاط هيحالوتس ، ما دام ذلك غير متعارض مع القانون ، رغم ان المنظمة تعمل على « جنب الكادحين ، الذين يحتاجهم الاتحاد السوفييتي ، الى فلسطين »(١٢٥) . ثم اعترفت السلطات بالمنظمة ، رسميا ، سنة ١٩٢٣ ، رغم معارضة « الشعبة اليهودية » في مفوضية الشعوب السوفييتية لذلك(١٢٦) .

بقيت هيحالوتس تعمل ، بشكل علني ، في الاتحاد السوفييتي حتى اواخر العشرينات ، عندما صفيت خلال ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ ، مع باقي المنظمات الصهيونية التي صفيت آنذاك . ولكن حتى ذلك الوقت كانت المنظمة قد قدمت خدمات كبيرة للكيان الصهيوني في فلسطين ، تفوق تلك التي قدمها اي تنظيم صهيوني آخر ؛ اذ جاءت من بين صفوفها اكثرية المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين بعد نهاية الحرب .

وكانت فترة الحرب العالمية الأولى والسنوات التي تلتها قد شهدت ايضا ولادة منظمة صهيونية جديدة اخرى ، هي هاشومير هاتسعير (الحارس الشاب) ، ونشأت اساسا خلال السنوات ١٩١١ ـ ١٩١٣ على شكل جمعيات كشافة وشباب يهود ، وقعت تحت تأثير الشباب الالماني الحر ، اذ كان معظم اعضائها من ابناء العائلات اليهودية الميسورة في مقاطعة غاليسيا ، الخاضعة آنذاك لحكم المانيا(١٢٧) . وفي منتصف سنة ١٩١٦ ، اتحد عدد من هذه الجمعيات واطلق على نفسه اسم هاشومير (تحت تأثير المنظمة التي كانت تحمل هذا الاسم في فلسطين) ثم غير اسمه ، سنة ١٩١٩ ، الى هاشومير هاتسعير(١٢٨) . وحتى ذلك الوقت ، كانت تلك المجموعات قد ابتعدت عن طابعها الأصلي ووقعت تحت تأثير هيحالوتس ، وراحت تطالب باقامة مستوطنات خاصة بها في فلسطين ، بعد ان وصلت طلائع مهاجريها الى البلد خلال سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠(١٢٩) . وفي الوقت نفسه ، اعلنت هاشومير هاتسعير التزامها بالبرنامج الصهيوني ، ولكنها تحفظت من الحزبية المسيطرة على النشاط من اجل تنفيذه(١٣٠) (ومن هاشومير هاتسعير انبثق ، في مطلع سنة ١٩٤٨ ، حزب العمال الموحد ـ مبام) .

وبالاضافة الى التنظيمات العمالية التي ذكرناها ، نشطت في فلسطين ايضا ، خلال الفترة نفسها ، منظمات صهيونية او يهودية اخرى ، غير عمالية . فبعد احتلال بريطانيا للقسم الجنوبي من فلسطين في اواخر سنة ١٩١٧ ، افتتحت منظمة مزراحي المتدينة ، التي اسست سنة ١٩٠٢(١٣١) ، فرعا لها في فلسطين . وفي مطلع ايلول ١٩١٨ ، عقد هذا الفرع اول مؤتمراته في يافا(١٣٢) . وقد انضمت منظمة مزراحي الى اللجنة التنفيذية الصهيونية التي انتخبها المؤتمر الصهيوني الثاني عشر سنة ١٩٢١ ، الا انها انسحبت منها بعد سنتين وانضمت الى المعارضة (ومن مزراحي انبثق ، في مطلع الخمسينات ، الحزب الديني القومي ـ مفدال) .

تبديل القيادة الصهيونية

طرأت تغيرات ملحوظة على الاوضاع التنظيمية داخل المنظمة الصهيونية العالمية أيضا ، أثر انتهاء الحرب العالمية ، نتيجة انتقال مراكز القوى داخلها ، ادى بدوره الى تبديل في

قياداتها . فقد تدهور مركز مجموعة الصهيونيين الألمان ، التي كانت تسيطر على الحركة منذ ظهور هرتسل (وزادت هزيمة المانيا في الحرب من ذلك) ، فتخلى زعيمهم ، البروفسور اوتو واربرغ ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية حتى ذلك الوقت ، عن منصبه تلقائيا . وفي المقابل ، انتقلت قيادة الحركة الصهيونية ، عمليا ، على اثر صدور وعد بلفور ، الى الدكتور حاييم وايزمان وتلك المجموعة من الصهيونيين البريطانيين التي كانت تلتف حوله ، نتيجة الدور الذي لعبوه في الحصول على ذلك الوعد ، او علاقتهم به .

لم يعقد لواء زعامة الحركة الصهيونية لوايزمان بسهولة ، او بواسطة جهوده فقط ، اذ ساهم البريطانيون في ذلك . وبقدر ما كان وايزمان بحاجة الى قبول البريطانيين بزعامته ، كان اولئك ، كما يبدو ، « مستعدين للوقوع تحت سحره »[١٣٣] ، ودعمه لتسلم مقاليد الزعامة الصهيونية ، ربما لشعورهم بأن من الممكن « الاعتماد » عليه ، بسبب « ثقته » بهم وتبعيته شبه المطلقة لهم . وكشف البريطانيون عن تفضيلهم وايزمان على غيره في مرحلة مبكرة ، اذ عينوه ، مثلا ، رئيسا للبعثة اليهودية الى فلسطين ، دون استشارة أية هيئة صهيونية او موافقتها[١٣٤] . ومع عودته من فلسطين الى بريطانيا ، في اواخر سنة ١٩١٨ ، كان وايزمان الزعيم الأول والأكثر نفوذا في الحركة الصهيونية . وبذلك مهدت الطريق أمامه لتطبيق نظريته بشأن « الصهيونية المركبة »[١٣٥] ، لبناء الكيان الصهيوني في فلسطين ، وهي نظرية تقضي ، باتباع سياسة معتدلة ، وبتجميع كافة القوى الصهيونية ، او غير الصهيونية ، المستعدة للعمل في بناء الوطن القومي ، ومن ثم رعايته تدريجيا « كما تنمو الشجرة »[١٣٦] اذا حظيت بالعناية اللائقة .

كانت الخطوة الأولى التي اتخذها وايزمان وصحبه ، على طريق تنفيذ صهيونيتهم « المركبة » ، دعوتهم الى عقد اجتماع صهيوني في لندن ، في شباط ١٩١٩ ، اي بعد مرور نحو ٣ أشهر على انتهاء الحرب ، حضره مندوبون من دول عدة . وفي هذا الاجتماع ، الذي كان اول لقاء صهيوني شبه شامل تقريبا منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الحادي عشر ، انتخبت مؤسسات موقتة للمنظمة الصهيونية العالمية : لجنة تنفيذية صهيونية جديدة ، ضم وايزمان اليها[١٣٧] ، ومكتب مركزي للمنظمة في لندن ، ومكتب كوبنهاغن في الدانمارك الذي حول الى مكتب هجرة مركزي[١٣٨] ، وكان مقرا رسميا للقيادة الصهيونية خلال سني الحرب ، كما انشىء ايضا مكتب للمنظمة في فلسطين ، وأسست دوائر للهجرة والاستيطان والمال . وظهر خلال المؤتمر تياران مختلفان بشأن الموقف من الاستيطان في فلسطين ، دعا اولهما الى التركيز على اجراء ابحاث منهجية ، وعلى شراء اكبر مساحة ممكنة من الأراضي ، قبل بدء الاستيطان فعلا ، بينما طالب الثاني بمباشرة النشاط الاستيطاني فورا . ولكن المؤتمر لم يتخذ اي قرار في هذا الصدد[١٣٩] .

وباشرت المؤسسات التي اقامها هذا الاجتماع ، فور انفضاضه ، في وضع الخطط الضرورية لبناء الكيان الصهيوني في فلسطين ، خصوصا في مجالي الاستيطان وجمع الأموال . وارتأت اللجنة التنفيذية الصهيونية عدم التسرع في بدء أي نشاط في فلسطين ، ريثما تستكمل وضع خططها وتجمع الأموال الضرورية لتنفيذها . ولذلك اصدرت ، في تموز ١٩١٩ ، تعميما

الى المنظمات الصهيونية في كافة دول اوروبا ، حثتهم فيه على الامتناع عن ارسال المهاجرين الى البلد قبل اكمال الاستعدادات لاستيعابهم(١٤٠) .

ولم تمر الا بضعة اشهر حتى اكتشفت الزعامة الصهيونية ان المشاريع والخطط التي وضعتها ، بحاجة الى كثير من الأموال لتنفيذها ، ولم يكن بالامكان جمع اكثر من جزء يسير منها . ولذلك دعت الى اجتماع ثان ، عقد في لندن ، في شباط ١٩٢٠ . وحرصت الزعامة الصهيونية على تمثيل الصهيونيين الاميركيين ، بقيادة برانديس ، بشكل لائق في هذا الاجتماع ، آملة في ان يحلوا مكان الصهيونيين الروس ، الذين انقطعت الاتصالات بهم ، في جمع الأموال الضرورية لتنفيذ المشاريع الصهيونية . غير أن هذه الآمال سرعان ما خابت ، اذ نشبت ، خلال الاجتماع ، خلافات حادة بين وايزمان وبرانديس ، حول مفهوم كل منهما لمهام المنظمة الصهيونية . فقد اعلن برانديس ومؤيدوه ان مهام المنظمة السياسية تنتهي فور المصادقة على اقرار الانتداب(١٤١) ، ولذلك ينبغي عليها تحويل جهودها ، ابتداء من ذلك الوقت ، الى بناء الوطن القومي اقتصاديا ، على ان يتم ذلك بواسطة تشجيع توظيف رؤوس الأموال اليهودية وغيرها في فلسطين ، على اساس المبادرة الفردية ، دون اللجوء الى جمع التبرعات او المساعدات المالية ، من هنا وهناك . وعارض برانديس ايضا منح المستوطنين في فلسطين أية مساعدات مالية من صناديق المنظمة الصهيونية ، اذ أن عليهـم تدبر شؤونهم بأنفسهم ، كما يفعل ، مثلا ، المهاجرون الى اميركا .

ولم يحظ هذا الاتجاه بتأييد وايزمان وجماعته ، لاعتقادهم انه لا يمكن بناء الكيان الصهيوني في فلسطين الا بواسطة « صناديق قومية » ، تمول اي مشروع يعتقد ان من الضروري دعمه ، دون ان تقيم وزنا لحسابات الربح والخسارة ؛ فالهدف هو بناء وطن قومي ، بكل نواحيه وحاجاته ، ولا يمكن ان تقوم المبادرة الشخصية او رأس المال الخاص بذلك(١٤٢) . وأيد وايزمان ، في موقفه هذا ، حزبا احدوت هعفوداه وهابوعيل هاتسعير في فلسطين ، وهما يمثلان القوى الصهيونية الرئيسية العاملة في البلد آنذاك ، وكذلك الاتحاد العالمي لبوعالي تسيون . وكانت الفئات العمالية قد ازدادت تمسكا بموقفها هذا على اثر فشل صندوقين ، هما « كيرن هاهافاناه » (صندوق الاعداد) ، و « كيرن هاغيئولاه » (صندوق الانقاذ) ، كانا قد اقيما خلال سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩ ، في جمع الأموال اللازمة لتمويل مشاريعها الاستيطانية(١٤٣) . ولذلك راحت تطالب باقامة صندوق عمومي ، تشرف عليه المنظمة الصهيونية بأسرها ، لدعم المشاريع الصهيونية في فلسطين . وكان الجناح العمالي الصهيوني قد بلور موقفه ، حتى ذلك الوقت ، من طريقة بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، فقرر ان يتم ذلك بواسطة « [هجرة] طلائعية ، واستيطان عمالي على ارض قومية [بمساعدة] رأسمال قومي »(١٤٤) .

أما مباحثات اجتماع شباط ١٩٢٠ الصهيوني في لندن فلم تسفر عن نتيجة تذكر ، نظرا للخلافات بين وايزمان وبرانديس . وبعد انتهاء الاجتماع ، بذل وايزمان ومؤيدوه جهودا كبيرة لتسوية هذا النزاع ، اذ كانوا معنيين بالابقاء على التعاون مع الصهيونيين الاميركيين ، خصوصا انهم كانوا بحاجة ماسة الى اموالهم لدعم المشاريع الصهيونية والمساهمة في بناء

الوطن القومي . ولكن هؤلاء لم يتركوا مجالا للوفاق ، اذ استقال مؤيدوهم ، في آذار ١٩٢٠ ، من اللجنة التنفيذية الصهيونية ، فعين وايزمان اشخاصا من مناصريه مكانهم . وعلى الأثر ، قرر براندیس وجماعته الامتناع عن تحويل الأموال ، التي كانت تجمعها المنظمة الصهيونية في اميركا ، الخاضعة لسيطرتهم ، الى مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية ، وراحوا يرسلونها الى البعثة الطبية الصهيونية الاميركية ، التي كانت تعمل في فلسطين منذ سنة ١٩١٨ (واندمجت هذه البعثة ، فيما بعد في منظمة هاداساه الاميركية للخدمات الطبية ، التي اصرت على الاحتفاظ باستقلالها داخل المنظمة الصهيونية العالمية) .

وفي الوقت نفسه ، حاولت الزعامة الصهيونية ، سنة ١٩١٩ ، العمل على اكثر من صعيد لتحقيق مخططاتها في فلسطين ، باقامة مشاريع مختلفة هناك ، الا انها لم تحظ بتأييد السلطات العسكرية في البلد ، او باهتمام الحكومة البريطانية نفسها(١٤٥) . وعزز ذلك لدى الصهيونيين .. الشعور بأن من الافضل التركيز على مسألة حسم مصير فلسطين السياسي قبل أية مسألة أخرى .

اضطرابات ١٩٢٠ واقرار الانتداب

اثارت محاولات بريطانيا وفرنسا فرض سيطرتهما على بلدان المشرق العربي ، سلسلة من الاضطرابات والصدامات المسلحة المعادية لهم . وبدأت هذه الصدامات جنوبي سوريا ، ثم امتدت الى شمال فلسطين وانتشرت بعد ذلك في اماكن مختلفة منها ، وذلك خلال النصف الأول من سنة ١٩٢٠ . ثم انتقلت الى العراق ، خلال النصف الثاني من السنة نفسها . وكانت قد نشبت ، في الوقت ذاته ، اضطرابات مماثلة في مصر ، دامت طوال سنة ١٩١٩ والأشهر الأولى من سنة ١٩٢٠ ، احتجاجا على رفض بريطانيا الاعتراف باستقلال البلد .

نشبت الاضطرابات في سوريا ، على شكل صدامات مسلحة بين السكان العرب والجنود الفرنسيين ، في اواخر سنة ١٩١٩ واوائل سنة ١٩٢٠ ، في محاولات لمنع القوات الفرنسية من الدخول الى البلد والسيطرة عليه ، على اثر انسحاب القوات البريطانية منه ، بعد توقيع الاتفاقية البريطانية الفرنسية في اواخر سنة ١٩١٩ . وتمثلت هذه الصدامات في عمليات هجومية يشنها المسلحون العرب ضد الحاميات الفرنسية ، هنا وهناك ، ليقابلوا بهجمات مضادة من قبل الفرنسيين ، على هذه القرية او تلك ، تنتهي عادة باحراقها او تدميرها .

وفي بداية سنة ١٩٢٠ ، ومع ازدياد الحديث عن قرب عودة مؤتمر الصلح الى الانعقاد ، وامكانية فرض الانتداب البريطاني على فلسطين والاعلان الرسمي بشأن اقامة وطن قومي لليهود فيها ، توجهت الاضطرابات ضد اليهود ايضا . ففي ٢٧ شباط ١٩٢٠ قامت تظاهرات عربية في القدس، بترخيص من السلطات العسكرية ، وفي اماكن اخرى من فلسطين ، احتجاجا على ما جاء في مقابلة صحافية مع الجنرال بولز ، رئيس الادارة العسكرية البريطانية في فلسطين ، بشأن موافقة دول الحلفاء على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وذلك رغم تأكيده ان هذه الموافقة لا تعني انشاء دولة يهودية في البلد(١٤٦) . وبعد مرور ٣ أيام على هذه التظاهرات ، شنت مجموعات من الفلسطينيين المسلحين ، في ١ آذار ١٩٢٠ ، هجوما على

المستوطنات اليهودية في شمال فلسطين ، اسفر عن تدمير تل حاي ، وهي مستوطنة صغيرة ، اقيمت سنة ١٩١٨ الى الجنوب من المطلة ، بينما اضطر سكان مستوطنة كفار غلعادي المجاورة الى تركها . وقد قتل خلال الهجوم على تل حاي ستة من اليهود المدافعين عنها ، كان بينهم يوسف ترومبلدور(١٤٧) ، احد مؤسسي الفيلق اليهودي ، الذي اتجه الى تل حاي للمساهمة في الدفاع عنها ، على اثر عودته لتوه من روسيا . ولم يفاجأ سكان تلك المستوطنات بذلك الهجوم ، اذ كانوا قد توقعوا حدوثه قبل فترة غير قصيرة ، على اثر اضطراب الاوضاع الامنية في المنطقة ، وأبلغوا قياداتهم في تل ابيب بذلك . وجرى تحت وطأة توقع الهجوم نقاش واسع بين قادة المستوطنين حول الاجراءات التي ينبغي اتخاذها لمجابهة هذا الوضع ، وانقسمت الآراء ، اذ طالب البعض بالدفاع عن تلك المستوطنات ، بأي ثمن ، بينما دعا آخرون الى اخلائها موقتا ، ثم العودة اليها عندما تستقر الاوضاع . وكانت الغلبة في نهاية الأمر للرأي الأول الداعي الى الدفاع عن المستوطنات ، لأنه « اذا سقطنا هناك ، في الشمال ــ فسنستمر في سقوطنا حتى نصل الى الصحراء . اننا نحتاج الى شجاعة لكي نترك تل حاي وكفار غلعادي ، لأن هذا هو الانسحاب الأول ... واذا هربنا خوفا من لصوص ، فسنضطر ، قياسا على ذلك ، لا لترك الجليل الاعلى فقط ، بل لترك ارض ــ اسرائيل بكاملها ... ان مكانا احتليناه ــ لن نتركه . وخائن من يتركه ! »(١٤٨) . كذلك قرر قادة المستوطنين ارسال قوات ، من مناطق اخرى ، للدفاع عن تلك المستوطنات . الا ان تلك القوات لم تتمكن من الوصول الى المنطقة قبل وقوع الهجوم عليها .

بقيت مستوطنتا تل حاي وكفار غلعادي مهجورتين ، على اثر الهجوم عليهما ، نحو نصف سنة ، الى ان اعيد استيطانهما في اواخر سنة ١٩٢٠ . ولكن من ناحية ثانية ، كان لهذا الهجوم ، وهو الأول من نوعه ، فوائد ايضا بالنسبة للصهيونيين ، على المدى الطويل ، اذ استغلوا وجود المستوطنات اليهودية في تلك المنطقة ، بعدما لفتت انظار البريطانيين والفرنسيين على اثر القتال الذي دار حولها ، في المطالبة بتوسيع حدود فلسطين ، لتضم تلك المستوطنات والأراضي المجاورة لها ، التي تحتوي على جزء من مصادر مياه نهر الاردن ، ونجحوا في مسعاهم هذا ، رغم معارضة الفرنسيين لذلك في الماضي . وتعلم الصهيونيون من هذه التجربة درسا ، لا تزال اكثريتهم متشبثة به حتى اليوم ، مفاده ان المنطقة التي يستوطنونها مرشحة لأن تبقى تحت سيطرتهم بشكل دائم . كما نسجت الاساطير عن « بطولة المدافعين عن المستوطنات » ، وقد ضحوا بارواحهم « دفاعا عن ارض الوطن » ، خصوصا ترومبلدور ، الذي عرضت سيرته كأنها مثال ينبغي على الشباب الاقتداء به (وقد اسس الصهيونيون الاصلاحيون اليمينيون ، في مرحلة لاحقة ، منظمة شباب حملت اسمه) . وأثرت نتائج هذا الهجوم ايضا في النقاش الذي كان مستعرا بشأن طريقة تنظيم الهاغاناه ، التي كانت تمر آنذاك في مراحل تأسيسها الأولية ، فتقرر اتباع طريقة الدفاع الشعبي الميداني ، على مستوى قطري ، وذلك باقامة خلايا هاغاناه ، في كل مكان ، بين المستوطنين المقيمين فيه ، ورفض الاسلوب الآخر ، الذي دعا جابوتينسكي الى اتباعه ، وهو اسلوب يقضي بتأسيس كتائب دفاع محترفة ، تتولى المحافظة على أمن المستوطنين من خلال اجهزة مركزية(١٤٩) .

وبعد مرور اسبوع على مهاجمة مستوطنتي تل حاي وكفار غلعادي ، تجددت التظاهرات

العربية في فلسطين ، بمناسبة اعلان استقلال سوريا وتنصيب فيصل ملكا عليها . وعادت التظاهرات والاضطرابات فتجددت مرة اخرى ، بعد نحو ثلاثة اسابيع ، على نطاق واسع . ففي الاسبوع الأول من نيسان ١٩٢٠ ، مع حلول ذكرى النبي موسى لدى المسلمين ، الذي صادف ايضا عيد الفصح لدى اليهود والمسيحيين ، اتجهت الى القدس ، كالعادة ، مسيرات من القرى المجاورة للاشتراك في الاحتفالات التي تقام في تلك المناسبة . وقد توقف وفد اهالي الخليل ، عند وصوله الى القدس في الرابع من الشهر نفسه ، مرات عدة للاستماع الى خطب القاها رئيس بلدية القدس موسى كاظم الحسيني ، وعارف العارف ، والحاج امين الحسيني . وقد حث الخطباء المستمعين على المطالبة باستقلال سوريا (ومن ضمنها فلسطين) ووحدتها ، والدفاع عن استقلال بلادهم ومعارضة تحويلها الى وطن قومي لليهود . وعند وصول المسيرة الى بوابة يافا ، حدث الانفجار ، وراح العرب يقذفون الحوانيت اليهودية المجاورة بالحجارة ويشتبكون باليهود ، الذين راحوا بدورهم يهاجمون العرب ، باشراف هاغاناه القدس ، التي كان جابوتينسكي قد تولى تنظيمها[١٥٠] . واستمرت هذه الاشتباكات ، على الرغم من اعلان الاحكام العرفية ، نحو اسبوع ، وأسفرت عن مقتل ٥ من اليهود و ٤ من العرب ، وجرح ٢١١ يهوديا و ٢١ عربيا[١٥١] ، عدا الدمار الذي لحق بالممتلكات .

ترتبت على اضطرابات نيسان في القدس ، نتائج مهمة ، على صعد عدة . فقد قامت السلطات البريطانية على اثر هذه الاحداث ، بعزل موسى كاظم الحسيني من منصبه كرئيس لبلدية القدس ، بعد اتهامه بالاشتراك في تحريض العرب ضد اليهود ، وعينت بدلا منه راغب النشاشيبي ، ابن العائلة المناوئة لآل الحسيني ، بعد ان حصلت على تعهد خطي مسبق منه ، يعلن بموجبه استعداده لقبول المنصب اذا عرض عليه[١٥٢] . وبعملها هذا ، عمقت السلطات البريطانية الخلاف العائلي ـ السياسي ، الذي كان قائما بين آل الحسيني وآل النشاشيبي ، واستغلته اكثر من مرة فيما بعد ، مما أثر بشكل واضح في مواقف عرب فلسطين السياسية ، وشجع على تفريقهم . اما موسى كاظم الحسيني فقد انتقل ، على اثر عزله عن منصبه ، الى صف المعارضة العلنية ، وتزعم الحركة الوطنية الفلسطينية حتى وفاته سنة ١٩٣٤ .

وكانت السلطات البريطانية قد القت القبض ايضا ، اثر وقوع تلك الاضطرابات على عدد من العرب واليهود ، وقدمتهم الى المحاكمة بتهمة التحريض على اعمال الشغب ، فصدرت احكام بالسجن على جابوتينسكي وجماعته من زعماء هاغاناه القدس من جهة ، وعلى مجموعة من العرب ، كان بينهم الحاج امين الحسيني وعارف العارف ، من جهة اخرى . غير ان الاخيرين اختفيا ولم تتمكن السلطات من القاء القبض عليهما . وكان لهذه الاحكام نتائجها ايضا ، على المدى الطويل . فقد اتهم جابوتينسكي (الذي وجد نفسه زعيما للهاغاناه في القدس رغما عنه ، الى حد ما ، وهو الذي كان يطالب باقامة قوة عسكرية شرعية ، بدلا من الهاغاناه ، للدفاع عن المستوطنين اليهود) القيادة الصهيونية بـ « التخلي » عنه بعد سجنه . وكان هذا الاتهام بداية شرخ بينه وبين تلك القيادة راح يتسع مع مرور الوقت ، وأدى في نهاية الأمر الى استلام جابوتينسكي زعامة المعارضة اليمينية الصهيونية ، التي راحت تناوىء بشدة تحالف وايزمان وجماعته مع الجناح العمالي الصهيوني ـ وبقيت اصداء هذه المعارضة تتردد طويلا داخل الكيان الصهيوني . اما من الناحية الاخرى ، فقد اسهم الحكم بالسجن على

الحاج امين الحسيني في بروز اسمه ، وجاء بمثابة خطوة اولى على طريق ، لم تكن طويلة ، اوصلته الى زعامة الحركة الوطنية الفلسطينية . كذلك اثارت تلك الاضطرابات هلع اليهود ، فراحوا يتركون تدريجا الاحياء السكنية العربية ــ اليهودية المختلطة ، وينتقلون للعيش في احياء منفصلة خاصة بهم(١٥٣) . واستمرت عملية التنقل هذه ، وهي تشتد ، على وجه التحديد ، بعد وقوع الاضطرابات هنا او هناك ، حتى كانت اكثرية اليهود في فلسطين تعيش ، مع نهاية الانتداب البريطاني على البلد ، في مدن او مستوطنات او احياء يهودية منفصلة خاصة بهم ، في المدن العربية . وساعد ذلك على تحصين المناطق التي سكنها اليهود ، وسهل ادارتها ، وكانت له ابعاده في حرب ١٩٤٨ .

وكان لأحداث نيسان ١٩٢٠ في القدس تأثيرها على الصعيد الدولي ايضا ، اذ استغلها الصهيونيون في الضغط على مجلس عصبة الأمم في سان ريمو، وحمله على اقرار الانتداب البريطاني على فلسطين من جهة ، واقناع الحكومة البريطانية باستبدال الادارة العسكرية في فلسطين بسلطات مدنية من جهة اخرى . وكانت الادارة العسكرية البريطانية في فلسطين قد جوبهت ، منذ خطواتها الأولى ، بعداء الصهيونيين ، بعد ان رفضت الاستجابة للامتيازات والطلبات الاستثنائية المختلفة ، التي كانوا يتقدمون بها من حين الى آخر ، وأصرت على الالتزام بسياسة المحافظة على الوضع الراهن في البلد ، الى ان يبت بمصيره سياسيا . وأدت هذه المعارضة حتى الى استبدال بعض الضباط في الادارة العسكرية ، خصوصا على اثر زيارة برانديس لفلسطين ، في صيف ١٩١٩ ، والضغوط التي مارسها على بلفور ، لحمله على تعيين ضباط يسهل على الصهيونيين التعامل معهم ، واصدار تعليمات واضحة لهم(١٥٤) . وبعد وقوع الاضطرابات في القدس ، شكلت الادارة لجنة تحقيق عسكرية (لجنة بالين) ، للبحث في اسباب تلك الاحداث . وجاء في التقرير الذي قدمته اللجنة ، على اثر انهاء التحقيق ، ان اسباب الاضطرابات تعود الى « خيبة امل العرب نتيجة الاخلال بوعود الاستقلال التي منحوها [واعتقادهم] ان وعد بلفور يتضمن تنكرا لحقهم في تقرير المصير ، وخوفهم من ان تأسيس الوطن القومي سيعني ازديادا كبيرا في الهجرة اليهودية ، ويؤدي الى اخضاعهم سياسيا واقتصاديا لليهود »(١٥٥) . كذلك اعلنت اللجنة ، في تقريرها ، ان تلك المخاوف زادت حدة بسبب نشاط البعثة الصهيونية في فلسطين .

غير ان الصهيونيين ، على الرغم مما جاء في تقرير لجنة التحقيق ، جعلوا من تلك الاضطرابات قميص عثمان ، للدلالة على فشل الادارة العسكرية في فلسطين ، وعدم قدرتها على حكم البلد وفرض الامن والاستقرار في ربوعه ، وكرروا طلباتهم السابقة بشأن ضرورة استبدال العسكريين بادارة مدنية . وشدد الصهيونيون ضغوطهم ايضا على مجلس عصبة الأمم ، الذي كان مجتمعا في سان ريمو ، عند وقوع الاضطرابات في القدس ، واستنجدوا ببلفور وصموئيل ، اللذين حملا على الحضور الى مكان انعقاد المؤتمر(١٥٦) ، للمساهمة في حملة الاقناع الهادفة الى الاسراع في اتخاذ قرار بشأن فلسطين . وقد نجح الصهيونيون في مساعيهم هذه ، اذ قرر مجلس عصبة الأمم ، في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ ، قبل انفضاضه بيوم واحد ، فرض الانتداب البريطاني على فلسطين (وشرق الاردن) والعراق ، والانتداب الفرنسي على سوريا (ولبنان) فنفذت بذلك معظم بنود اتفاقية سايكس ــ بيكو . وفي اليوم نفسه ، شن مسلحون فلسطينيون

هجوما على كتيبة هندية ، تابعة للقوات البريطانية ، كانت تتمركز في بلدة سمخ ، بالقرب من نهر الاردن ، وبعد ذلك بثلاثة ايام ، في السابع والعشرين من الشهر نفسه ، شن هجوم أخر على مستوطنة ايليت هاشاحار ، الواقعة في الجليل الأعلى[١٥٧] . ولكن هذه الاحداث الجديدة لم تغير ، بالطبع ، من طبيعة القرارات التي اتخذت . ففي اليوم الذي وقع فيه الهجوم على ايليت هاشاحار ، ابلغت الادارة العسكرية البريطانية في فلسطين قرارات مؤتمر سان ريمو للوجهاء العرب ، ونشرت لأول مرة ، رسميا ، نص وعد بلفور . كذلك اعلنت الحكومة البريطانية نيتها الغاء الحكم العسكري في فلسطين ، واستبداله بادارة مدنية ، ابتداء من اول تموز ١٩٢٠ (اما فرنسا فقد قامت ، في السابع من الشهر نفسه ، بتوجيه انذار الى فيصل ، أنتهى بطرده من دمشق وسيطرة الفرنسيين عليها) .

وفي اواخر حزيران ١٩٢٠ ، وصل البريطاني هربرت صموئيل الى فلسطين ، مندوبا ساميا اول عليها .

---

(١) Great Britain. Parliamentary Papers, end. 5694, *Statements made on behalf of His Majisty's Government during the year 1918 in regard to the Future Status of certain parts of the Ottoman Empire.* (London: H.M.S.O., 1939), Miscellaneous No. 4 (1939), P. 3.

وانظر ايضا الترجمة العربية في ملف وثائق فلسطين ، القاهرة : وزارة الارشاد القومي ، الهيئة العامة للاستعلامات ، ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، ص ٢٢٩ .

(٢) Statements made on behalf of His Majisty's Government..., *Ibid.*, P. 3.

(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه .

(٦) Robert John and Sami Hadawi, *The Palestine Diary* (Beirut: The Palestine Research Center, 1970), Vol. 1, 1914-1945, P.P. 100-101.

(٧) المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

(٨) ملف وثائق فلسطين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣٣ .

(٩) Statements made on behalf of His Majisty's Government..., *Op. Cit.*, P.P. 5-6.

(١٠) ملف وثائق فلسطين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣٧ .

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) David Lloyd George, *Memoirs of the Peace Conferance* (New Haven: Yale University Press, 1939), Vol. 2, P. 673.

(١٣) David Lloyd George, *The Truth About the Peace Treaties* (London: Victor Gallancz Ltd., 1939), Vol. 2, P. 1151.

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١١٤٧ .
(١٥) المصدر نفسه ، ص ١١٤٨ .
(١٦) المصدر نفسه ، ص ١١٥٠ .
(١٧) المصدر نفسه ، ص ١١٥٤ ـ ١١٥٥ .

(١٨) انظر الياتار فرايزل ، « هامدينوت هاتسيونيت لأحار تسهارات بلفور ، ١٩١٧ ـ

١٩٢٢ » (السياسة الصهيونية بعد وعد بلفور) ، تل ــ ابيب : جامعة تل ابيب وهاكيبوتس هامينوحاد ، ١٩٧٧ ، ص ٥٨ والمصادر المثبتة هناك (بالعبرية) .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

(٢٠) Chaim Weizmann, *Trial and Error* (London: East and West Library, 1950), P. 266.

(٢١) انظر أيضا صبري جريس ، تاريخ الصهيونية (بيروت : مركز الأبحاث ، م.ت.ف. ، ١٩٧٧) ، الجزء الأول ، ص ١٦١ ــ ١٦٢ .

(٢٢) *Report of the Executive of the Zionist Organization to XII Zionist Congress* (London, 1921), I. Political Report, P P. 74-83.

(٢٣) Weizmann, *op. cit.*, P P. 267-269.

(٢٤) جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١١ .

(٢٥) Report... to XII Zionist Congress, *op. cit.*, II. Palestine Report, P. 48.

(٢٦) فرايزل ، مصدر سبق ذكـــره ، ص ٤١٩ ــ ٤٢٠ .

وانظر ايضا ، للمقارنة ، يوسف اوليتسكي ، « ميزوراه ــ لمديناه » (من تشتت ــ الى دولة) ، القدس : أحيآساف ، ١٩٥٩ ، الجزء الأول ، ض ١٦١ (بالعبرية) .

(٢٧) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤١٩ .

(٢٨) انظر الوثائق في المصدر نفسه ، ص ٤٢٠ ــ ٤٢٢ .

(٢٩) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٢ .

(٣٠) Weizmann, *op. cit.*, P. 272.

(٣١) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٦ .

(٣٢) Nevill Barbour, *Nisi Dominus* (Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1969), P P. 96-97.

(٣٣) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٤ ــ ٦٥ و ٢٣٦ ــ ٢٣٧ و ٢٩٣ ــ ٢٩٤ .

(٣٤) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٤ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ ــ ١٧٨ .

(٣٦) Weizmann, *op. cit.*, P. 295.

(٣٧) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٦ .

(٣٨) جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠١ .

(٣٩) « سيفر هاتعودوت شل هافاعاد هليئومي شل كنيست يسرائيل بايرتس ــ يسرائيل » (كتاب الوثائق للجنة القومية لكنيست يسرائيل في ارض ــ اسرائيل) ، القدس : مطبعة رفائيل حاييم هاكوهين م.ض. ، ١٩٦٣ ، ص ١ (بالعبرية) .

(٤٠) انظر موشي أطياس في المصدر نفسه ، ص ي ــ ي أ (١٠ ــ ١١) من المقدمة وص ٣ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ي أ (١١) .

(٤٢) المصدر نفسه .

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ي ج ــ ي د (١٣ ــ ١٤) و ٤٣٠ ــ ٤٣٣ .

(٤٤) انظر جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ .

(٤٥) للاطلاع على نشاط جابوتينسكي في هذا المجال ، انظر .

Joseph B. Schechtman, Rebel and Statesman; The Vladinmir Jabotinsky Story, The Early Years (New York: Thomas Yoseloff, 1956), P P.442-491.

(٤٦) انظر ، للتفاصيل ، « سيفر تولدوت هاهاغاناه » (كتاب تاريخ الهاغاناه) ، (رئيس التحرير : بن ــ تسيون دينور) ، تل ــ ابيب : معرخوت والمكتبة الصهيونية ، ١٩٥٦ ، الجزء الاول ، الكتاب الثاني ، ص ٤٤٩ ــ ٤٦٨ (بالعبرية) .

(٤٧) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه ، ص ٤٨٩ ــ ٤٩٦ .

(٤٨) جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩٣ .

(٤٩) كتاب تاريخ الهاغاناه ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٩٩ ــ ٥١١ .

(٥٠) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه ، ص ٥١٦ ــ ٥٣٢ .

(٥١) انظر ايضا جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٤٤ .

(٥٢) موشي براسلافسكـــي ، « تنوعات هابوعاليم هايرتس ــ يسرائيليت » (حركـــة العمال في ارض ــ اسرائيل) ، تل ــ ابيب : هاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٦٦ ، الجزء الاول ، ص ١٤٩ (بالعبرية).

(٥٣) انظر ايضا جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٢ ــ ١٦٣ .

(٥٤) براسلافسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٩ .

(٥٥) تسفي ابن ــ شوشان ، « تولدوت تنوعات هابوعاليم بايرتس ــ يسرائيل » (تاريخ حركة العمال في ارض ــ اسرائيل) ، تل ــ ابيب : عام عوفيد ، ١٩٦٣ ، الجزء الاول ، ص ٢٩٢ (بالعبرية) .

(٥٦) المصدر نفسه .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ .

(٥٨) المصدر نفسه .

(٥٩) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ .

(٦٠) يوسف غورني ، « احدوت هعفوداه ، ١٩١٩ ــ ١٩٣٠ : « هايسودوت هارعيونييم فيها شبطاه هامدينيت » (احدوت هعفوداه ، ١٩١٩ ــ ١٩٣٠ : الاسس العقائدية والأسلوب السياسي) ، تل ابيب : جامعة تل ــ ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧٣ ، ص ٢٣ (بالعبرية) .

(٦١) المصدر نفسه ، ص ٢٣ و ٢٦ .

(٦٢) ابن ــ شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٣١٥ .

(٦٣) من دستور احدوت هعفوداه ، كما اورده ح. مرحفياه ، « عام فيموليدت » (شعب ووطن) ، القدس : هليفي ، ١٩٤٧ ، ص ٥١٧ ــ ٥١٨ (بالعبرية) .

(٦٤) النص في براسلافسكي ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الأول ، ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠ .

(٦٥) المصدر نفسه .

(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٣٦٠ ــ ٣٦١ .

(٦٧) انظر ، للتفاصيل ، مقالة يوسف لونتس ، « الاتصالات الدبلوماسية بين الحركة الصهيونية والحركة القومية العربية مع نهاية الحرب العالمية الاولى » ، هامزراح هيحاداش ، ١٩٦٢ ، العدد ٢ ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ (بالعبرية) .

(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

(٦٩) Weizmann, *op. cit.*, P 293.

(٧٠) المصدر نفسه .

(٧١) John and Hadawi, *op. cit.*, P. 113.

(٧٢) انظر ايضا ، للتفاصيل ، المصدر نفسه ، ص ١١٤ ــ ١١٥ .

(٧٣) Weizmann, *op. cit.*, P. 294.

(٧٤) انظر نص الاتفاقية في ملف وثائق فلسطين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ .

(٧٥) المصدر نفسه .

(٧٦) المصدر نفسه .

(٧٧) المصدر نفسه .

(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ .

(٧٩) انظر نص المذكرة في Report... to XII Zionist Congress, *op. cit.*, I. Political Report, P P. 74-83.

(٨٠) المصدر نفسه .

(٨١) انظر الخريطة في جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ ــ ٥٥ .

(٨٢) John and Hadawi, *op. cit.*, P. 128.

(٨٣) Weizmann, *op. cit.*, P. 305

(٨٤) المصدر نفسه .

(٨٥) انظر ايضا نص تقرير وايزمان عن شهادته

امام مؤتمر الصلح في « **هابروتوكوليم شل هافاعاد هابوعيل هاتسيوني** » (محاضر جلسات اللجنة التنفيذية الصهيونية) ، تل ـ ابيب : جامعة تل ـ ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧٥ ، الجزء الأول ، شباط (فبراير) ١٩١٩ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ ، ص ٥٢ ـ ٥٦ (بالعبرية) .

(٨٦) Weizmann, *op. cit.*, pp. 307-308; Report... to XII Zionist Congress, *Op. Cit.*, I. Political Report, pp. 23-24.

(٨٧) **المصدر نفسه** .

(٨٨) Weizmann, *op. cit.*, p. 294-308.

(٨٩) Neil Caplan, *Palestine Jewry and the Arab Question* ((London: Frank Cass, 1978), p. 37.

(٩٠) ملف وثائق فلسطين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥٩ .

وراجع أيضا نص تقرير اللجنة بكامله في

George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 1961), pp. 443-458.

(٩١) عبد الوهاب الكيالي ، **تاريخ فلسطين الحديث** ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ١١٦ . وانظر ايضا اوليتسكي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٧٢ .

(٩٢) الكيالي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١١٩ .

(٩٣) اوليتسكي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٧٥ .

(٩٤) كتاب تاريخ الهاغاناه ، **مصدر سبق ذكره** ، الكتاب الأول ، الجزء الثاني ، ص ٥٥٧ .

(٩٥) انظر نصوص العرائض في **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية** (١٩١٨ ـ ١٩٣٩) ، (جمع وتصنيف : عبد الوهاب الكيالي) ، بيروت وبغداد : مؤسسة الدراسات الفلسطينية وجمعية صندوق فلسطين ، ١٩٦٨ ، ص ١ ـ ٣ و ٥ ـ ٩ .

(٩٦) **المصدر نفسه** ، ص ٤ .

(٩٧) الكيالي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٩٨) **المصدر نفسه** . وانظر أيضا محمد عزة دروزه ، **حول الحركة العربية الحديثة** ، صيدا وبيروت : منشورات المكتبة العصرية ، ١٩٥٩ ، الجزء الثالث ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٩٩) ملف وثائق فلسطين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥٥ .

(١٠٠) **المصدر نفسه** .

(١٠١) **المصدر نفسه** .

(١٠٢) انظر بعض نصوص هذه المذكرات في وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ... ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٠ ـ ١٤ .

(١٠٣) John and Hadawi, *op. cit.*, p. 154.

(١٠٤) **المصدر نفسه** ، ص ١٥٤ ـ ١٥٦ .

(١٠٥) اسحاق غرينباوم ، « **هاتنوعاه هاتسيونيت** » (الحركة الصهيونية) ، القدس : المنظمة الصهيونية العالمية ، ١٩٥٤ ، الجزء الرابع ، ص ٧٥ (بالعبرية) .

(١٠٦) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٠ ـ ٣٦ .

(١٠٧) غرينباوم ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٨ ـ ٨٤ .

(١٠٨) **المصدر نفسه** ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(١٠٩) انظر ، للتفاصيل ، **المصدر نفسه** ، ص ٥٩ ـ ٦٨ .

(١١٠) شموئيل اطينغر ، « **هيستوريا شل عام يسرائيل بعيت هيماداشاه** » (**تاريخ اليهود في العصر الحديث**) ، تل ـ ابيب : دفير ، ١٩٦٩ ، ص ٢٢٣ (بالعبرية) .

(١١١) شمشون كيرشنباوم ، « **تولدوت عام يسرائيل بيدورينو** » (تاريخ اليهود في عصرنا) ، تل ـ ابيب : امنوت ، ١٩٦٥ ، **الجزء الأول** ، ص ٤٠ (بالعبرية) .

(١١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٣٧ ـ ٤١ .

(١١٣) **المصدر نفسه** ، ص ٤١ .

(١١٤) شمعون دوفنوف ، « **هيستوريا شل عام عولام** » (تاريخ اليهود) ، تل ــ ابيب : دفير ، ١٩٦٥ ، ص ٧٣٢ ــ ٧٣٤ (بالعبرية) . وانظر ايضا اطينغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٣٤ .

(١١٥) انظر ايضا اطينغر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٣٣ ــ ٢٣٥ .

(١١٦) اسحاق ميئور ، « **هاتنوعاه هاتسيونيت بروسيا** » (الحركة الصهيونية في روسيا) ، القدس : المكتبة الصهيونية ، ١٩٧٤ ، ص ٤٢٩ ــ ٤٣١ (بالعبرية) .

(١١٧) **المصدر نفسه** ، ص ٤٨٤ .

(١١٨) **المصدر نفسه** ، ص ٤٨٦ .

(١١٩) **المصدر نفسه** ، ص ٤٨٦ ــ ٤٨٧ .

(١٢٠) « **سيفر هاعلياه هاشليشيت** » (كتاب الهجرة الثالثة) ، (رئيس التحرير . يهودا ايرز) ، تل ــ ابيب ، عام عوفيد ، ١٩٦٤ ، الجزء الأول ، ص ١٣ ــ ١٧ (بالعبرية) .

(١٢١) **المصدر نفسه** ، ص ١٢ .

(١٢٢) **المصدر نفسه** .

(١٢٣) ميئور ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٨٧ .

(١٢٤) كيرشنباوم ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الأول ، ص ١١٧ . وانظر ايضا ميئور ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٢٨ .

(١٢٥) كيرشنباوم ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الأول ، ص ١٢٢ .

(١٢٦) **المصدر نفسه** ، ص ١٢٣ ، وميئور ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٢٩ .

(١٢٧) كتاب الهجرة الثالثة ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الأول ، ص ٢٤ .

(١٢٨) انظر ، للتفاصيل ، « **سيفر هاشومير هاتسعير** » (كتاب هاشومير هاتسعير) ، (رئيسا التحرير : ليفي درور ويسرائيل روزنتسفايغ) ، مرحفياه : سفريات بوعاليم ، ١٩٥٦ ، الجزء الأول ، ص ١٩ ــ ٦٠ .

(١٢٩) **المصدر نفسه** ، ص ٦٣ ــ ٦٤ و ٧٣ ــ ٧٥ و ٨١ ــ ٨٣ .

(١٣٠) انظر ، للتفاصيل ، الكنه مرغليت ، « هاشومير هاتسعير ــ معيدات نعوريم لماركسيزم مهبنجاني ، ١٩١٣ ــ ١٩٣٦ » (هاشومير هاتسعير ــ من مجموعات شباب الى ماركسية ثورية ، ١٩١٣ ــ ١٩٣٦) ، (تل ــ ابيب : جامعة تل ــ ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧١) ، ص ١٧ ــ ٥٢ (بالعبرية) .

(١٣١) انظر جريس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٨١ ــ ١٨٢ .

(١٣٢) موشي اوسطروفسكي ، « **تولدوت همزراحي بايرتس ــ يسرائيل** » (تاريخ المزراحي في ارض ــ اسرائيل) ، القدس : رؤوفين ماس ، ١٩٤٣ ، ص ١١ ــ ٢٠ (بالعبرية) .

(١٣٣) فرايزل ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٢ .

(١٣٤) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩ .

(١٣٥) انظر جريس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٧٨ و ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .

(١٣٦) Weizmann, *op. cit.*, P. 63.

(١٣٧) محاضر جلسات اللجنة التنفيذية الصهيونية ... ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٣ .

(١٣٨) **المصدر نفسه** ، ص ٤٣ ــ ٤٤ .

(١٣٩) يهودا سلوتسكي في كتاب الهجرة الثالثة ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الأول ، ص ٥٠ .

(١٤٠) محاضر جلسات اللجنة التنفيذية الصهيونية ... ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٠٦ و ١٢٧ و ١٣٢ و ٢٢٦ ــ ٢٢٧ .

(١٤١) يهودا سلوتسكي في كتاب الهجرة الثالثة ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الأول ، ص ٥١ .

(١٤٢) انظر ، التفاصيل ، مقالة يوناثان شابيرا ، « الخلاف بين حاييم وايزمان ولويس برانديس ، ١٩١٩ ــ ١٩٢١ » ، في « **هاتسيونوت : ميئاسيف لتولدوت هاتنوعاه هاتسيونيت: فيها بيشوف هايهودي بايرتس ــ يسرائيل** » (الصهيونية : مجموعة لتاريخ الحركة الصهيونية والييشوف اليهودي في ارض ــ اسرائيل) ، تل ــ ابيب : جامعة تل ــ ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ،

١٩٧٣ ، الجزء الثالث ، ص ٢٢٩ ـ ٢٤٦ (بالعبرية) .

(١٤٣) ابن ـ شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الأول ، ص ٣٥٣ .

(١٤٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥١ .

(١٤٥) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٢ ـ ١٠٥ .

(١٤٦) كتاب تاريخ الهاغاناه ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، ص ٦٠٢ ـ ٦٠٤ ، واوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٦ .

(١٤٧) انظر ، للتفاصيل ، كتاب تاريخ الهاغاناه ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الأول ، الجزء الثاني ، ص ٥٦٧ ـ ٥٨٥ .

(١٤٨) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(١٤٩) انظر ايضا كتاب تاريخ الهاغاناه ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الأول ، الجزء الثاني ، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥ .

(١٥١) *A Survey of Palestine* (Jerusalem: Government Printer, 1964), Vol. 1, P. 17.

(١٥٢) Ronald Storrs, *Orientations* (London: Ivor Nicholson and Watson, 1937), PP. 390-391.

(١٥٣) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٥ .

(١٥٤) John and Hadawi, *op. cit.*, PP. 149-154.

(١٥٥) A Survey of Palestine, *op. cit.*, P. 17.

(١٥٦) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ .

(١٥٧) انظر ، للتفاصيل ، كتاب تاريخ الهاغاناه ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الأول ، جـ ٢ ، ص ٥٨٩ ـ ٥٩٤ .

حنة شاهين

التضخم المالي في اسرائيل :
اسبابه وتأثيراته الاقتصادية والاجتماعية

ان دلت الازمة الاقتصادية المتفاقمة حاليا في اسرائيل على شيء ، فانما تدل ، في الاساس على فشل سياسة حكومة ليكود ، في المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، بعد مضي سنتين من توليها الحكم . فالانقلاب الاقتصادي الذي حدث في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٧ ، بعد انتقال السلطة الى ليكود ببضعة اشهر ، وكان تعبيرا عن الاسلوب الذي ستعتمده الحكومة الجديدة في ادارة الاقتصاد ، قد اثبتت الازمة الحالية ، عدم ملاءمته للواقع على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي ، وبالتالي لم ينجح ، في تحقيق الاهداف التي علقها عليه المسؤولون . فتوحيد قيمة صرف الليرة الاسرائيلية ، والغاء الرقابة على العملة الصعبة بصورة كاملة تقريبا الاساسان الرئيسيان اللذان ارتكزت عليهما السياسة الاقتصادية الجديدة ـ كانا يهدفان ، في الاساس ، الى حل مشكلات اسرائيل الاقتصادية ، عن طريق جذب رؤوس الأموال اليهودية والاجنبية ، ثم تحقيق الاستقلال الاقتصادي ، وتحويل اسرائيل الى مركز مالي عالمي في المنطقة على غرار سويسرا في الغرب .

هذا ما اعلنه رئيس الحكومة بيغن بعد انتهاء جلسة الحكومة التي اقرت خلالها السياسة الجديدة ، بقوله « ان هذه السياسة خطوة ايجابية وحاسمة في علاج اقتصاد الدولة القومي » . معتبرا « ان تقليص الثغرة في ميزان المدفوعات بات ممكنا ، اضافة الى زيادة الصادرات وتقليص الاستيراد » . وبالتالي تقليص اعتماد اسرائيل على المساعدات الخارجية » . وزاد بيغن : « لقد اصبح في استطاعة كل مواطن الآن اعادة امواله الى اسرائيل واستثمارها في مختلف المشاريع . وان من شأن هذه السياسة ان تؤدي بالضرورة الى زيادة الاستثمارات كما يليق بدولة تنتهج نظام الاقتصاد الحر »(١) . وكان وزير المال سيمحا ارليخ قد اعلن ايضا ، في معرض اشادته بالنظام الجديد الذي يرتكز على قواعد الاقتصاد الحر ، وعدم تدخل الحكومة في المجال الاقتصادي كأساس لحل مشكلات اسرائيل الاقتصادية ، «لأن النظام القديم كان متخلفا وغير عادل وغير مشرف ، بسبب اعتماد (اسرائيل) على صدقات الآخرين وعلى جمع التبرعات . اننا نريد ان نعمل وننتج بشرف كشعب خلاق ، وفي وسعنا تحسين وضعنا بحيث نكف عن الاعتماد على الغير ... »(٢) .

واذا نحن لخصنا جميع التصريحات والبيانات التي صدرت حين اقرار سياسة الاقتصاد الحر استطعنا القول بأن الاهداف الاساسية التي رسمتها الحكومة الجديدة ضمن سياستها الاقتصادية قد تمثلت في جذب الاستثمارات اليهودية والاجنبية في ظل سياسة الانفتاح الكلي ، وازالة الرقابة على العملة الصعبة ، وفي الاجراءات الاخرى التي كانت تشكل رادعا امام المستثمرين . وكان هذا كفيلا ، في نظر الحكومة الجديدة ، باعادة تحريك النمو الاقتصادي المتوقف ، والقضاء على البطالة . اما الهدف الثاني فكان تقليص العجز في ميزان المدفوعات في اسرائيل ـ وقد بلغ حتى نهاية سنة ١٩٧٧ ، ٢,٦ مليار دولار ـ بواسطة زيادة الصادرات وخفض الواردات . والهدف الثالث والاهم كان تحقيق الاستقلال الاقتصادي بتقليص الاعتماد على المصادر الخارجية .

كما كان من اهداف السياسة الجديدة كبح سرعة التضخم المالي ، وهي المشكلة التي بدأت تبرز في مطلع السبعينات ، واشتدت بعد حرب ١٩٧٣ مع ما رافقها من نفقات عسكرية في اسرائيل .

هذه هي اهم الاهداف التي اعلنها ، في حينه ، المسؤولون الاقتصاديون الجدد في اسرائيل ، وعلى رأسهم وزير المال ارليخ ، زعيم حزب الاحرار (الشريك الرئيسي في كتلة ليكود) في معرض اعلانهم سياسة « الاقتصاد الحر » وفقا لمفاهيمهم الاقتصادية والاجتماعية التي اعتبرت جديدة على الواقع الاسرائيلي ذي الاقتصاد الموجه ، والهيكل الاجتماعي والاقتصادي الخاص الذي تكون خلال ثلاثين سنة من حكم المعراخ . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : في ظل الأزمة الراهنة ، هو : هل تحقق شيء من هذه الاهداف بعد مضي سنتين من حكم ليكود ؟ ثم ما هي حقيقة الازمة الحالية ؟ هل هي نتيجة عدم التوافق بين السياسة الجديدة وبين الواقع الاسرائيلي ، ام هي امتداد للازمات الاقتصادية السابقة منذ عهد المعراخ ؟ وأخيرا : ما هي ابعاد هذه الازمة بالنسبة لاسرائيل .وهل كان بالامكان تجنبها بانتهاج سياسة مختلفة ؟

يمكننا الاجابة على هذه الاسئلة ، من خلال النظر الى ابرز نتائج السياسة الاقتصادية خلال السنتين الماضيتين، منذ تولي ليكود السلطة . فحالة الفوضى الاقتصادية التي تشهدها اسرائيل حاليا ، تنبع ، في الاساس ، من مجمل هذه النتائج ومن مدى انعكاساتها على الاسرائيليين جماعات وافرادا .

الاسرائيليون يعيشون وضعا يفوق طاقتهم

تشير التقارير والاحصاءات ، خصوصا تلك التي ينشرها بنك اسرائيل ومكتب الاحصاء المركزي ، الى ان النتائج الاقتصادية ، خلال السنة الماضية والنصف الأول من السنة الحالية ، كانت بعيدة كل البعد عن الاهداف المرجوة اعتمادا على السياسة الرسمية .

اولى هذه النتائج العجز الكبير في ميزان المدفوعات الاسرائيلي ، الذي ارتفع من ٢,٥٦٣ مليار دولار في نهاية سنة ١٩٧٧ ، الى نحو ٣,٤ مليارات دولار في نهاية ١٩٧٨ : منها ٣٠٩ ملايين دولار ارتفاعا في العجز المدني ، باستثناء نفقات الأمن . « واذا ما استمرت الاتجاهات الحالية ، انطلاقا من الاتجاهات التي سادت في سنة ١٩٧٨ ... فان العجز سيرتفع ، بحسب تقدير أولي ، بـ ١,١ مليار دولار ؛ أي من ٣,٤ مليارات في نهاية ١٩٧٨ الى ٤,٥ مليارات في نهاية ١٩٧٩ ؛ أي ما يوازي ٢٥ مليار ليرة اسرائيلية وفق الاسعار الحالية »(٣) . والسؤال المطروح هو : كيف ستغطي اسرائيل هذا العجز ، خصوصا ان مجمل وارداتها يتزايد شهرا بعد آخر ، في مقابل تراجع مستمر في مجمل الصادرات ؟ ففي سنة ١٩٧٨ مثلا بلغت نسبة الارتفاع في الواردات ١٠٪ ، بينما لم ترتفع نسبة الصادرات الى أكثر من ٣٪ ، في مقابل ١٣ ــ ١٤٪ في السنتين السابقتين(٤) . وتشير الاحصاءات الأخيرة كذلك الى ان فائض واردات البضائع بالنسبة للصادرات (الحساب بالدولار ، وبالاسعار التجارية) بلغ ٧٥٩ مليون دولار في مقابل ٤٧٧ مليون دولار في الفترة المقابلة لها من السنة الماضية ، أي أنه ارتفع بنسبة ٥٩٪ .(٥) فما الذي يعنيه ذلك ؟

ان تشجيع فرع الصادرات بواسطة توحيد قيمة صرف الليرة ، وما رافق ذلك من خفض كبير في قيمتها ، ثم الغاء حوافز التصدير التي كانت متبعة في عهد المعراخ ، كل ذلك ثبت فشله . اذ ان المصدرين كانوا أول المتضررين من جراء هذه السياسة ، خصوصا ان تكاليف الانتاج قد ازدادت ايضا مع ارتفاع الاجور والاسعار خلال السنة الاخيرة .

ان سد العجز في ميزان المدفوعات الاسرائيلي بواسطة تحسين وضع الصادرات ، لا يمكن ان يتحقق في المدى القصير . كما يبدو خفض الواردات أمرا مستحيلا في هذه الفترة مع بدء أعمال البناء في النقب ، ومع ازمة الطاقة المتوقعة في اسرائيل بعد تسليم آبار النفط في سيناء .

لذلك ، فان المخرج الوحيد لتمويل العجز في ميزان المدفوعات هو في الحصول على المزيد من القروض بالعملة الصعبة من البنوك التجارية والمؤسسات المالية الدولية ، خصوصا أن قيمة التبرعات والجبايات والتعويضات الشخصية التي تحصل عليها اسرائيل والتي كان بالامكان تمويل هذا العجز بواسطتها ، لا تعادل سوى جزء

منه . اما المساعدات الاميركية الخاصة التي ستحصل عليها خلال السنوات الثلاث المقبلة فستخصص بكاملها لبناء المطارات العسكرية في النقب .

ان المزيد من القروض بالعملة الصعبة سيزيد بالطبع من ديون اسرائيل الخارجية ، التي وصلت حتى الآن الى حد ان معظم احتياطي العملة الصعبة يصرف في تسديد المبالغ المستحقة منها سنويا . « ففي مقابل احتياطي قيمته ٢,٢ مليار دولار في أواخر سنة ١٩٧٨ ، بلغت الديون الخارجية في تلك الفترة اضافة الى الفوائد المترتبة عليها ، (وهذه ينبغي تسديدها خلال سنة واحدة) ٢,٠٤ مليار دولار بحسب احصاءات بنك اسرائيل »[٦] .
وتشير هذه الاحصاءات ايضا الى انه في مقابل ارتفاع احتياطي العملة الصعبة من ١,٣٦ مليار دولار في نهاية سنة ١٩٧٧ الى ٢,٢ مليار دولار في نهاية ١٩٧٨ ، أي بزيادة ٨٤٠ مليون دولار ، ارتفع مجمل الديون الخارجية من ١٠,٧ مليارات دولار الى ١٢,٢ مليار دولار في الفترة نفسها ، وهذا يعني ان الارتفاع في الديون بلغ ضعف مجمل الاحتياطي[٧] .

واضافة الى الديون الخارجية ثمة ديون داخلية مستحقة للاسرائيليين ، توازي الديون الخارجية ، الا انها ديون بالعملة المحلية . وتبلغ قيمة الديون الخارجية والداخلية ، معا ، نحو ٧٠٠ مليار ليرة اسرائيلية[٨] : نصفها بالعملة الصعبة كما ذكرنا سابقا .

ان الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من الارقام السابقة ، المتعلقة بالديون والعجز التجاري المتزايد ، هو ان الاسرائيليين ودولة اسرائيل « يعيشون وضعا يفوق طاقتهم ،وانهم يطمحون الى تحسين مستوى معيشتهم» — على حد تعبير الخبير الاقتصادي الدكتور يوحنان بدر[٩] — على حساب زيادة الديون الخارجية ، والمساعدات الاميركية ، والجبايات ، والتبرعات . وقد انعكس هذا الأمر على الوجه الآخر من الأزمة الاقتصادية التي تفاقمت حاليا الى درجة لم تكن متوقعة من قبل ، سواء على الصعيد الرسمي أو الصعيد الشعبي : نعني بذلك مشكلة التضخم المالي .

مشكلة التضخم وتأثيراتها على الاقتصاد الاسرائيلي

ان مشكلة التضخم المالي المتسارع ، التي يعانيها الاقتصاد الاسرائيلي حاليا ، ليست جديدة . فهي قائمة منذ مطلع السبعينات — كما ذكرنا سابقا — وقد اشتدت بعد حرب ١٩٧٣ ، حيث تراوحت معدلاتها بين ٣٠ — ٥٠٪ سنويا . فمثلا وصل معدل التضخم المالي في سنة ١٩٧٦ الى ٣٦٪ : وفي سنة ١٩٧٧ الى ٤٣٪ : ووصل سنة ١٩٧٨ الى ٤٨٪ . ان ما هو جديد في هذه الظاهرة هو الانتقال في سنة ١٩٧٩ الى معدلات سريعة من التضخم شهريا بلغت في النصف الأول من هذه السنة ٣٣,٨٪ ، ويتوقع ان تصل في نهايتها الى ١٠٠٪[١٠] . ولادراك مدى خطورة هذه الظاهرة بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي ، في ظل السياسة الراهنة ، يكفي ان نذكر ان مجمل ارتفاعات الاسعار خلال سنتين من حكم ليكود — أي حتى شهر حزيران (يونيو) الماضي — قد وصل الى نسبة ١٥٦٪ ، ويتوقع ان ترتفع هذه النسبة خلال الفترة المقبلة ارتفاعا كبيرا نظرا للفوضى شبه الكاملة في قطاعي الاسعار والأجور .

لقد خالف هذا الارتفاع في معدلات التضخم جميع التوقعات التي اعلنها المسؤولون الاقتصاديون في اسرائيل ، خلال السنتين الماضيتين ، تلك التوقعات التي رأت ان السياسة الجديدة ستؤدي الى « كبح سرعة التضخم المالي بنسبة ١٥٪ سنويا بهدف الوصول الى نسبة غلاء لا تتجاوز ١٠٪ سنويا » ، كما جاء في برنامج ليكود الانتخابي[١١] . والغريب ان تصريحات المسؤولين ، لا سيما وزير المال سيمحا ارليخ ، كانت بعيدة كل البعد عن الواقع حتى بعد مرور سنتين من توليهم الحكم . « فحتى في ذروة التطورات الاقتصادية السلبية كان وزير المال لا يزال يتنبأ في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٧٨ ... بالا تتجاوز نسبة الغلاء ، على امتداد السنة المالية ، ٢٥٪ (عمليا بلغت النسبة في سنة ١٩٧٨ ، ٤٨٪) ... وفي ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ اعلن وزير المال ان معدل التضخم سيصل الى ٣٧٪ في سنة ١٩٧٩ . وان الحكومة ستنجح خلال اربع سنوات في خفض سرعة التضخم ، بحيث لا تتجاوز ال ١٥٪ سنويا »[١٢] .

ان الاختلاف بين توقعات الوزير ، وبين الارقام والوقائع الفعلية ، يبدو بعيداً الى درجة يمكن الاستنتاج معها

ان التطورات السلبية التي حدثت في الاقتصاد الاسرائيلي نتيجة تطبيق السياسة الجديدة ، لم تدرس بصورة وافية من قبل المسؤولين الجدد في وزارة المالية الاسرائيلية ، وبالتالي لم ينظر الى مدى تأثيراتها جديا .

ان تطبيق السياسة الجديدة كان يحتم فتح ابواب كثيرة مغلقة منذ عهد المعراخ ، انطلاقا من مبدأ سياسة الاقتصاد الحر القاضي بعدم التدخل في النشاط الاقتصادي ، كبديل لسياسة التدخل والتوجيه التي اتبعت في عهد المعراخ ، وأدت الى اتباع اجراءات انكماشية في السنوات ١٩٧٤ ــ ١٩٧٦ ، حيث جمد الدخل الفردي ، وانخفض معدل الاستثمار ، مما ادى الى تجميد النمو الاقتصادي . خلافا لهذه السياسة اعلنت حكومة ليكود ، بسياستها الجديدة ، انها ستعمل على تجديد النمو وتشجيع الاستثمارات ، وهذا ما تم بالفعل وبشكل غير مخطط ، مما ادى الى زيادة الطلب والاستهلاكين العام والخاص ، وخلق بالتالي ضغوطا تضخمية تشهدها اسرائيل حاليا وبشكل لا مثيل له في الماضي . ويصف محافظ بنك اسرائيل ارنون جفني الوضع الذي خلقته السياسة الاقتصادية الجديدة بقوله : « ان هناك الكثير من الصنابير المفتوحة في الاقتصاد ومنها تتدفق كميات هائلة من الأموال ، في حين لا توجد مضخات كافية لامتصاص الفائض في الطلب »(١٢) . وانطلاقا من هذا الوضع يمكننا تحديد اهم العوامل التي ادت الى أزمة التضخم الحالية ، والتطرق الى سياسة الحكومة تجاهها ، ومدى تأثيرها على اسرائيل حكومة ومحكومين .

النمو الاقتصادي والتضخم :

يشير تقرير بنك اسرائيل لسنة ١٩٧٨ الى ان الانتاج القومي القائم قد ارتفع في السنة المذكورة بنسبة ٥٪ . وبالرغم من ان هذه النسبة لا تقارن بمعدل النمو في سنوات الانتعاش (أكثر من ١٠٪) فهي تشكل نقطة تحول مقارنة بالسنوات الثلاث الأخيرة التي ارتفع فيها معدل الانتاج بنسبة ٢٪ فقط. رغم ذلك فان تأثير هذا النمو كان سلبيا من الناحية الاقتصادية ، لأن زيادة الاستهلاكين العام والخاص قد امتصت الجزء الأكبر منه ، بينما تم توظيف جزء صغير جدا فقط في اغراض مفيدة كالاستثمار والصادرات . اي ان الزيادة في النمو حدثت في معظمها بواسطة الاستهلاك المتزايد(١٣) . وللدلالة على ذلك يكفي ان نذكر ان معدل ارتفاع الاستهلاك العام في سنة ١٩٧٨ قد بلغ نحو ١١٪ وبلغ معدل ارتفاع الاستهلاك الخاص نحو ٨٪(١٤) (وليس المقصود هنا ما تستهلكه طبقة العمال والفقراء) الأمر الذي انعكس سلبا على الاسعار .

كيف حدث ذلك ؟ يمكننا من خلال التطرق الى المجالات التي وظفت فيها أموال الاستثمارات الضخمة التي تدفقت على الاقتصاد الاسرائيلي خلال السنة الماضية ، بفضل تشجيع الاوساط الرسمية ، ان نتبين نتيجة الزيادة في النمو وتأثيرها السلبي .

تشجيع البناء الخاص

بلغ معدل الزيادة في الاستثمارات في سنة ١٩٧٨ نحو ٤٪ (بحسب تقرير بنك اسرائيل) ، حيث وزعت بين فرع البناء وفروع اخرى . ففي قطاع البناء تركز الاستثمار ــ بتشجيع من الحكومة ــ في البناء الخاص ، وفي مقابل ذلك انخفض الاستثمار في البناء العام تدريجيا بنسبة ٢٥٪(١٥) . لقد ادى هذا الأمر الى تأزيم المشكلة الاجتماعية القائمة في مجال الاسكان ، وقد بدأت بوادرها تبرز علنا في اوساط العائلات من الطبقة العاملة والفقيرة . خلافا للسياسة القديمة التي اتبعت في عهد المعراخ ، وشجعت بناء المساكن المعدة للبيع لهذه العائلات بواسطة قروض ملائمة ذات فوائد زهيدة ، فان سياسة ليكود شجعت البناء الخاص المعد للتأجير مع الاستمرار في بناء المساكن العامة للمهاجرين الجدد فقط . وقد ادى تدني العرض في سوق المساكن من جهة ، وارتفاع الطلب عليها من جهة اخرى خلال السنتين الماضيتين ، الى ارتفاع اسعارها الى درجة خيالية لا تحلم معها اية عائلة متوسطة في اسرائيل بامكانية شراء مسكن . (مثلا ، شقة صغيرة مؤلفة من ثلاث غرف في وسط اسرائيل ارتفع ثمنها الى اكثر من مليون ليرة) . وقد ازداد الأمر سوءا بعد تعديل السياسة القديمة المتعلقة بالتسليف في فرع الاسكان ، الذي بدأ سريان مفعوله في اول تموز (يوليو) الماضي . وبموجب التعديل المقر ، سيرتبط الجزء الأكبر من القروض الممنوحة للعائلات المستحقة لشراء المساكن ، بجدول ارتفاع الاسعار للمستهلك ، وهذا يعني ، في ظل التضخم المالي السريع ، ان المبالغ المخصصة لتسديد هذه القروض بالمستقبل ستصل الى درجات

خيالية(مثلا : نحو ١٤ الف ليرة شهريا في السنة الثامنة بالنسبة لعائلة متوسطة حصلت على قرض يتراوح بين ٣٠٠ و ٧٠٠ الف ليرة لشراء مسكن في وسط اسرائيل)(١٦) . ويبدو ان الحكومة بدات تشعر بخطورة هذه المشكلة ، خصوصا ان سياسة التسليف الجديدة لن تفيد ما دام العرض متوقفا في هذا القطاع ، وتشير الاحصاءات الى نقص في المساكن يقدر بعشرات الالاف . لذلك اقرت الحكومة بناء ٢٠ الف مسكن في المدن ونحو ٣ الاف مسكن في المستوطنات(١٧) ، وفي مقابل ذلك لم تتخل عن سياستها الخاصة بتشجيع البناء الخاص المعد للتاجير . إلا ان الاستثمار في البناء الخاص لم يقتصر على هذا الغرض فقط ، بل اتسع ليشمل المساكن الفخمة والفيلات التي لا تعود بالفائدة الا على اصحابها ، وتؤدي بالتالي الى تعميق الهوة الاجتماعية القائمة في هذا المجال لصالح المستثمرين في سوق المساكن . فشراء مسكن أو بنائه أصبح استثمارا مربحا بالنسبة لاصحاب رؤوس الأموال من بين الاسرائيليين . أما بالنسبة لمحدودي الامكانات (العمال وسكان الاحياء الفقيرة) ، فان امكانية ايجاد حلول لمشكلاتهم السكنية قد تضاءلت ، رغم الوعود الكثيرة التي قطعتها لهم حكومة ليكود في بداية عهدها . لذلك يتوقع استمرار تفاعل هذه الأزمة ، خصوصا في ضوء تحويل الجهد في قطاع البناء الى النقب خلال الفترة المقبلة .

الاستثمارات المربحـــة

اذا كان الاستثمار في فرع البناء قد ساعد على ارتفاع اسعار المساكن ، ولم يؤد الى حل مشكلة السكن ، فان الاستثمارات في الفروع الاخرى لم تؤد بدورها الى تقدم خصوصا في الإنتاج ، وأول دليل على ذلك استيعاب ٢٧٥٠٠ عامل في قطاع الخدمات العامة في سنة ١٩٧٨ ، وهو ما يشكل نصف طاقة العمل في هذه السنة(١٨) . اما الدليل الآخر ، فهو التراجع في فرع الصادرات كما ذكرنا سابقا . ان جزءا من الاستثمارات لم يستغل في توسيع الانتاج ، بل استغل في تحقيق ارباح مالية بفضل معدلات التضخم ، وتشجيع حكومي ايضا عن طريق «قانون تشجيع الاستثمارات المالية » ، والقروض الباهظة (التسليف المدعوم) التي يمكن الحصول عليها بواسطته . وبموجب هذا القانون يستطيع المستثمرون من اصحاب المشاريع المختلفة ، خاصة في فرعي الصناعة والصادرات ، الحصول على قروض بفائدة معينة قليلة نسبيا ، غير مرتبطة بجدول غلاء الاسعار . ففي السنة الماضية خصصت الحكومة ٢٥ مليار ليرة (نحو ١٠٪ من ميزانيتها) لهذا الغرض . « وقد حقق المستثمرون ارباحهم بفضل القروض التي حصلوا عليها بفائدة تتراوح بين ٢٧ و ٣٢٪ ، بينما وصلت نسبة الغلاء في تلك السنة الى ٤٨٪ »(١٩) .

ويصف محافظ بنك اسرائيل جفني حجم الارباح التي يحصل عليها هؤلاء المستثمرون بقوله : « في معدلات التضخم الحالية نسبة ٦٠٪ (توقع غير دقيق اذا ما اخذنا في الاعتبار المعدلات الشهرية للغلاء ، والتي بلغت ٣٢,٨٪ في النصف الأول من هذه السنة كما ذكرنا سابقا) فان (صاحب) المشروع الذي حصل على ١٠ ملايين ليرة في السنة الماضية يدفع فائدة بنسبة ٣٥٪ وفق الشروط الحالية . ان الفرق بين نسبة الفائدة هذه وبين نسبة التضخم يحقق لمن يحصل على القرض (ربحا) بقيمة ٢,٥ مليون ليرة . لقد حصل على هذا الربح بسبب الفائدة المنخفضة التي دفعها ، لا بفضل الربح الجاري لمشروعه ... لذلك فان المستثمرين سيبذلون كل جهد للحصول على قروض حكومية بالشروط الحالية ، وهذا من شأنه ان يؤثر سلبا في (مسألة) توزيع الدخل في الاقتصاد الاسرائيلي ، لأن الذين يحصلون على قروض الانماء يتحولون من مستثمرين الى اصحاب ملايين »(٢٠) . وقد أوصى جفني بالغاء هذا الدعم الذي يكلف الخزينة الاسرائيلية غاليا ، ويعود على المستثمرين بالارباح الطائلة . ويقول جفني : « صحيح ، هناك من يحق له الحصول على الدعم والتسهيلات . اذن ليدفع (فائدة) كاملة في مقابل القرض ، أو لتدفع له مساعدات مجانية . هكذا نعرف على الأقل من يحصل على المال ونعرف المبالغ التي يحصل عليها . وبالنسبة لدعم فرع الاسكان ، فانني اقترح الشيء نفسه . لقد اقترحت على الحكومة ربط جميع القروض كاملة (بجدول الغلاء) ومنح مساعدات لمن يستحق ذلك بقرار منها . ان القروض ذات الفائدة الصغيرة التي تمنح بشكل عام للاغنياء ، تؤدي عمليا الى (انتقال الاموال) من محدودي الامكانات الى اصحاب الاموال . ان من يحصل على القرض لا يستغله عادة للغرض الذي منحه من اجله »(٢١) .

لقد استجابت الحكومة الاسرائيلية لطلب جفني فألغت ، بالفعل ، الدعم لرؤوس الأموال الذي كلفها غاليا ،

وأدى الى ازدياد التضخم ، وتعميق الهوة الاجتماعية بفعل الأرباح الطائلة التي حققها المستثمرون على حساب الخزينة ، وحساب ميزان المدفوعات ، فقررت بتاريخ ٢٩/٥/١٩٧٩ فرض « ربط » كامل بين قروض الانماء وجدول الاسعار للمستهلك (على غرار قروض الاسكان) ضمن اجراءاتها الأخيرة لمحاربة التضخم . وقد أثار هذا القرار استياءا شديدا لدى اتحاد الصناعيين الذي هدد ـ بلسان رئيسه ابراهام شفيط ـ بالغاء الاستثمارات وتأزيم الوضع الاقتصادي[٢٢] . كذلك أثار هذا القرار استياء سكرتير عام الهستدروت ، يروحام ميشيل ، الذي حذر من احتمال ان يؤدي خفض الاستثمارات ، نتيجة قرار الحكومة ، الى الحاق الضرر بالعمالة[٢٣] . الا ان هذا القرار بحد ذاته خلق ارتياحا لدى المسؤولين في وزارة المال وبنك اسرائيل ، اذ اعتبروه خطوة اساسية وضرورية للحد من سرعة التضخم المالي . ويبدو الآن ان الحكومة غير جادة في تطبيقه كليا : اذ بدأت تسرب الاخبار حول مشاريع الانماء المستحقة ، كمخرج لاعادة منح القروض .

قروض بالعملة الصعبة

على اية حال فان تأثير هذا القرار على المستثمرين الاسرائيليين يبقى تأثيرا جزئيا ،لان الخزينة الاسرائيلية ليست الجهة الوحيدة التي تمولهم . فسياسة رفع الرقابة عن العملة الصعبة قد دفعت قسما كبيرا من هؤلاء للحصول على قروض بالدولار كان الهدف الاساسي منها تحويلها الى عملة اسرائيلية ، وتجاوز تعليمات السيولة التي يصدرها بنك اسرائيل بصدد التسليف الداخلي . فتيار القروض بالعملة الصعبة الذي تدفق على الاقتصاد في سنة ١٩٧٨ ، اثر الالغاء الكامل للرقابة على هذه العملة ، قد شل الى حد كبير سياسة بنك اسرائيل المالية ، وادى الى وصول اموال كثيرة الى يد الجمهور ، انفقت في معظمها في تنشيط عمليات الاستهلاك ، الأمر الذي سرع من عملية التضخم بصورة اكبر[٢٤] . أما لماذا لم تستغل هذه القروض في تقوية الانتاج ، فالجواب واضح ، ويتعلق بحجم الارباح التي يمكن تحقيقها بواسطة عمليات المضاربة في السوق المالية ، في حين تسود قطاع الانتاج حالة من عدم الثقة بسبب ارتفاع الاسعار والاجور من جهة ، وعدم ربحية الصادرات من جهة اخرى .

وبناء على هذه المعطيات يمكننا استنتاج ان النمو الاقتصادي الذي تحقق بفضل سياسة حكومة الليكود الاقتصادية ، لم يعد بالفائدة على الاقتصاد الاسرائيلي كما كان متوقعا ، بل ادى الى تحقيق مكاسب مالية طائلة لدى طبقة معينة من الاسرائيليين ، فكان سببا مباشرا في تأزم الوضع الاقتصادي نتيجة الضغوط التي خلقها هؤلاء من حيث الاستهلاك والطلب ، الأمر الذي انعكس على مجمل الاسعار ، فقوي التضخم ، في الوقت الذي لم يطرأ فيه أي تحسن على ميزان المدفوعات .

ان سياسة تجديد النمو الاقتصادي كانت سياسة متسرعة ، لم يخطط لها بصورة كافية ، وقد استغلتها فئات معينة لمصالحها الخاصة ، فعادت بأضرار بالغة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي . الا ان هناك وجها آخر للعملة يتعلق بدور الحكومة في تأزيم مشكلة التضخم ، عن طريق نفقاتها المتزايدة .

نفقات الحكومة المتزايدة

اذا كان النمو الاقتصادي قد ادى الى دفع عجلة التضخم بسبب سلوك المستثمرين في الأساس ، فان الحكومة ايضا تعمل من خلال ميزانيتها العامة الموسعة على تنشيط التضخم ، اذ ان الاموال المعتمدة تصل الى الجمهور عن طريق العجز في الميزانية الذي بلغ في السنة الماضية ، بحسب احصاءات محافظ بنك اسرائيل ، ١٥ مليار ليرة ، ويتوقع ان يصل هذه السنة الى ٢٠ مليارا من اصل ٣٠٤ مليارات ، وهي ميزانية السنة الحالية[٢٥] . فما معنى العجز ؟ : « ان الحكومة تشتري وتنفق اموالا تفوق ايراداتها . وهي تمول هذا العجز بواسطة طباعة الاوراق النقدية التي تنتقل من المطبعة الى جيوب مزودي البضائع والخدمات أو الحاصلين على مبالغ الدعم المالي الحكومي على اختلافهم »[٢٦] . ان فائض الطلب الحكومي يخلق تيارا مماثلا من فائض الطلب لدى الافراد ، وذلك بسبب الارتفاع المستمر في الاسعار ، الذي يؤدي الى تقليص التوفير وزيادة النفقات ومشتريات مختلف البضائع . فالمال يفقد قيمته بين ليلة واخرى ، لذلك يفضل الاسرائيليون انفاقه ، او البحث عن وسيلة يمكن معها المحافظة على قيمته ، كما سنرى لاحقا .

ان الميزانيات الموسعة ، سواء في مجال الامن او غيره من المجالات ، هي من أهم العوامل التي ادت الى تنشيط

التضخم ، خصوصا في النصف الاول من هذه السنة . والحل المتبع في مثل هذه الحالة هو اما الاقتطاع من الميزانيات او فرض ضرائب جديدة ، ويبدو ان الحكومة الاسرائيلية اختارت الطريق الاول حتى الآن ، لتجنب المواجهة مع العمال وغيرهم ، خصوصا ان نسبة الضرائب المفروضة على الاسرائيليين هي من اعلى النسب بالمقارنة مع ضرائب البلدان الاخرى . اما الاقتطاع من الميزانيات فيبقي المواجهة داخل الحكومة وبين اعضائها . وقد اتخذت الحكومة بالفعل قرارا ، ضمن سياستها الجارية لمحاربة التضخم ، باقتطاع ٦,٩ مليارات ليرة من ميزانيتها السنوية . ١,٥ مليار من ميزانية الدفاع و ٣٪ من ميزانية كل وزارة باستثناء وزارة التعليم حيث اقتطع مبلغ ٨٠٠ مليون ليرة فقط(٢٧) .

أتخذ هذا القرار ضمن خطة خمسية تتعلق بتنظيم تطور الاقتصاد في اسرائيل حتى سنة ١٩٨٣ ، ووضعتها هيئة التخطيط الاقتصادي التابعة لوزارة المال برئاسة الاستاذ اساف رزين ــ الذي اقاله وزير المال فيما بعد ــ واقرتها الحكومة بالاجماع بعد ادخال بعض التعديلات عليها . اما الاسس التي ترتكز عليها هذه الخطة فهي كبح سرعة التضخم ، وتوفير عمالة كاملة ، واستمرار النمو الاقتصادي ، والعمل على تحسين الحساب الجاري في ميزان المدفوعات . وبموجب هذه الخطة سيصل معدل التضخم الى ٤٠٪ بعد سنتين او ثلاث ، والى ٢٥٪ في السنة الخامسة ، اي سنة ١٩٨٣ . وهذا الهدف يقتضي اتخاذ تدابير حازمة ، خصوصا في مجال نفقات الحكومة والخدمات العامة . وتتحدث الخطة عن تجميد كامل للاستهلاك العام وخفض كبير للاستثمارات في القطاع العام وتقليص للاعمال المرتبطة بفرع البناء ثم فرض ربط كامل بين قروض الانماء وجدول غلاء الاسعار ــ وهذا ما اقرته الحكومة فعلا كما رأينا سابقا ــ وزيادة الضرائب غير المباشرة لان تحقيق اهداف الخطة يقتضي جباية ٣مليارات ليرة زيادة على الضرائب التي تتم جبايتها حاليا . ويبدو من خلال ملاحظة ارقام العجز في الميزان التجاري ، ومبلغ الديون وفائض العملة الصعبة وغيرها ، ان كبح التضخم ــ الهدف الاساسي في الخطة ــ سيكون على حساب هذه الامور . ففائض الواردات غير الامنية ، سيحافظ على مستواه ، بحيث يصل الى ١٨٩٠ مليون دولار في سنة ١٩٨٣ . اما مبلغ الديون الخارجية فسيرتفع الى ٢١,٦ مليار دولار في تلك السنة ، في مقابل ١٢,٢ مليارا في نهاية ١٩٧٨ . وسيبقى فائض العملة الصعبة ثابتا بمبلغ ٢,٢ مليار دولار . اما الدخل القومي القائم فسيرتفع بمعدل ٥,٥٪ سنويا . كذلك يتوقع زيادة الاستهلاك الفردي بنسبة ٢٪ ، اما الزيادة في الاجور فستأتي وفق الزيادة في الانتاج الذي يتوقع ارتفاعه بنسبة ٣٪(٢٨) .

ان الخطة الخمسية ، رغم تأييد الحكومة ، لم تخلق ارتياحا بين الوزراء ، خصوصا ان اهدافها تعتبر بعيدة المدى ، وما يتطلبه الاقتصاد الاسرائيلي هو اجراءات فورية للحد من تفاقم مشكلاته على المدى القصير . فالاقتطاع من الميزانيات وخفض الاستثمارات وغير ذلك من الاجراءات لم تعد كافية للحد من معدلات التضخم الآخذة في الارتفاع شهرا بعد آخر . لذلك اتجهت الانظار في وزارة المال نحو الدعم الحكومي المخصص للمواد الاستهلاكية الاساسية وللمواصلات . وكان واضحا ان الغاء هذا الدعم يتطلب قرارا حكوميا حاسما ، نظرا للتأثير الكبير الذي يعكسه على مجمل الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اسرائيل . فالغاء الدعم على الخبز مثلا يعني ارتفاع سعر الرغيف الواحد (الافرنجي) من ٢,٥ ليرة الى ٦,٥ ليرات ، أي بنسبة ١٦٠٪ .

اما ليتر الحليب فسيرتفع سعره من ٥,١٠ ليرات الى ١١,٣٠ ليرة وسيرتفع سعر الكيلو من لحم الطيور المثلجة مثلا من ٤٠ ليرة الى نحو ٧١ ليرة(٢٩) . وقد اتفق بيغن مع وزرائه الاقتصاديين على تبديل اسلوب الدعم : فبدلا من دعم المواد الاستهلاكية ، يجري تحويل هذا الدعم الى المحتاجين ــ أو « للمعيلين المستحقين » بحسب تعبير بيغن ــ كما اتفق معهم على تجميد الاسعار ، الى ان تعد خطة كاملة بهذا الصدد .

وفي الجلسة الخاصة التي عقدتها الحكومة في تاريخ ١٩٧٩/٧/١٧ ليلا للبحث في مسألة الغاء الدعم ،

وفي حين كان الاسرائيليون يتوقعون صدور قرار حاسم ، بين لحظة وأخرى ، بشأن ارتفاع اسعار المواد الاستهلاكية فوجئوا بعدول الحكومة عن اتخاذ أي قرار بهذا الشأن ، نظرا لان رئيس الحكومة ومعظم الوزراء فوجئوا بالارتفاع الكبير الذي سيحدث في الاسعار نتيجة الغاء الدعم دفعة واحدة(٣٠) . وقد علم فيما بعد ان وزير المال ارليخ تراجع ، في اللحظة الاخيرة ، عن تقديم مشروعه الخاص بالغاء الدعم ، واستبداله بشرح واف للوضع الاقتصادي ، تاركا للحكومة حرية اتخاذ القرار في هذا الشأن . ومما اعلنه ارليخ امام الحكومة ان استمرار

الدعم معناه انفاق ٢٠ مليار ليرة خلال السنة الحالية ، و٣٠ مليارا في السنة المقبلة . والمصدر الوحيد لهذه الاموال هو طباعتها ، وبكلمة اخرى : تضخم مالي سريع . كذلك اعلن ان الغاء الدعم سيؤدي الى ارتفاع اسعار المواد الاساسية بنسبة ٦٠ ـ ٧٠٪ ، وسيؤدي الى ارتفاع جدول غلاء الاسعار للمستهلك بنسبة ٧,١٪ . واقترح ارليخ نظاما خاصا بالتعويض على العائلات المستحقة بواسطة زيادة مخصصات الاولاد ودفع علاوة غلاء لجميع الاجراء(٣١) . الا ان اقتراحاته رفضت ، واتفق على الغاء الدعم بصورة تدريجية ، وهذا معناه ارتفاع تدريجي في اسعار المواد الاساسية كل شهر أو شهرين ، مع التركيز على المواد التي يؤدي دعمها الى ضرر اقتصادي وتبذير كبير ، كاللحوم المجلدة والبنزين .

على اية حال ، اذا كانت الحكومة الاسرائيلية قد تجنبت مواجهة حامية مع الهستدروت والعمال ، نتيجة قرارها هذا حول عدم الغاء الدعم دفعة واحدة ، فانها ، في المقابل ، اثارت ردود فعل عنيفة في مختلف الاوساط التي اعتبرت الحكومة عاجزة عن الاهتمام بالوضع الاقتصادي واتخاذ القرارات المناسبة للحد من مشكلة التضخم . فبدلا من الغاء الدعم دفعة واحدة ، فان الالغاء التدريجي ـ في رأي هذه الأوساط ـ سيخلق حالة من التوتر المستمر في الوضع الاقتصادي « فكل بضعة ايام يبشر الجمهور باجراء اقتصادي جديد يجر وراءه سلسلة من موجات الغلاء »(٣٢) .

ان النقطة التي تنطلق منها هذه الاوساط ، في معارضتها قرار الحكومة ، هي ان الالغاء التدريجي للدعم لن يؤدي الى رفع اسعار المواد الاساسية فقط ، بل سينعكس تأثيره عمليا على مجمل الاسعار والاجور ، اي ان الوضع الراهن سيستمر بكل سيئاته . الا ان هناك من امتدح هذا القرار « لانه جنب اسرائيل فوضى اجتماعية واقتصادية كبيرة » على حد قول محافظ بنك اسرائيل السابق ، موشي زنبار . فالعمال كانوا سيشعرون بالظلم نتيجة تحويلهم الى « محتاجين » ، والفرق بين الحد الادنى للأجور وبين قيمة الاعانات سيأخذ بالتلاشي ، الامر الذي كان من شأنه ان يحدث ضغطا لرفع عام للاجور . « ان قرار الحكومة ... قد خفف من حدة المشكلة ، وينبغي البحث عن وسيلة لامتصاص المال في مجالات اخرى »(٣٣) . وعلى اية حال ، يبدو ان مشكلة التضخم ستزداد تفاقما بفعل قرار الحكومة القاضي بخفض تدريجي للدعم : فالغلاء سيستمر شهرا بعد آخر، علما بأن الاقتصاد الاسرائيلي على عتبة انفاق واسع ، مع البدء في ورشة البناء في النقب .

البناء في النقب والتضخم

اذا كان النمو الاقتصادي السريع من جهة ، ونفقات الحكومة المتزايدة من جهة اخرى ، قد اديا الى تفاقم مشكلة التضخم ، خصوصا في النصف الأول من السنة الحالية ، فان ورشة البناء في النقب ، التي ستشمل بناء المطارات العسكرية ومعسكرات الجيش وعشرات المستوطنات الجديدة ، ستكون عاملا كبيرا في زيادة معدلات التضخم خلال الفترة المقبلة . وهذا ما اعلنه وزير المال ارليخ ، مشيرا الى ان اتفاق السلام مع مصر سيؤدي بالضرورة ـ بسبب ورشة البناء في النقب ـ الى زيادة التضخم بنسبة ٢٠٪ . « فالسلام عزيز (على اسرائيل) إلا انه سيكلفها غاليا ، لأنها ستضطر خلال السنوات الخمس المقبلة الى تجنيد نحو ٣٥ مليار ليرة من مصادرها ... (وفي السنة الحالية) ستبلغ الاستثمارات في النقب اكثر من ٢١ مليار ليرة، حيث ستحصل اسرائيل من اصل هذا المبلغ على ٤٠٠ مليون دولار لبناء المطارات الجديدة ، والباقي ستضطر الى تمويله من ميزانيتها . أي أن تقليص نفقات الحكومة بمبلغ ٩ مليارات ليرة (ضمن اجراءات الحكومة الأخيرة كما رأينا سابقا) ... سينفق في تطوير النقب »(٣٤) . والجدير بالذكر ان اسرائيل ستحصل على ٣ مليارات دولار من الولايات المتحدة خلال ٣ سنوات ، كمساعدة خاصة وفق اتفاق السلام بينها وبين مصر ، لبناء مطارين عسكريين في النقب . الا ان التمويل الاميركي لن يكفي ، كما يبدو ، لبناء معسكرات لوحدات الجيش الاسرائيلي المنسحبة من سيناء ، والمستوطنات الجديدة لاستيعاب مستوطني سيناء ايضا . لذلك ستتحمل الخزينة الاسرائيلية نفقات كبيرة خلال السنوات الثلاث المقبلة ، الامر الذي سينعكس على الوضع الاقتصادي الذي هو احوج ما يكون ، في وضعه الحالي ، الى بعض الهدوء والاستقرار . ففي حديث بين خبراء اقتصاديين في اسرائيل حول تأثير عملية البناء في النقب ، اعلن مساعد محافظ بنك اسرائيل تسفي زوسمان ، ان البناء في النقب لم يأت ، من الناحية الاقتصادية ، في الوقت المناسب . « فالسلام (الذي تحقق) لم يقلل من احتمالات الحرب ، لذلك لا يمكن الاستفادة من خفض عبء نفقات الامن . فاضافة الى النفقات الجارية في هذا المجال ومشروع تعاظم الجيش الاسرائيلي ، هناك اعمال البناء الكبيرة في الجنوب . اضف الى ذلك ان هذه الاعمال تتطلب تحويل جزء كبير من قدرة الانتاج في فرع البناء ان

فترة السنوات الثلاث (المحددة للبناء) قصيرة جدا بحيث لا تكفي لعبور هذا المجرى دون ازمات ، بينما لا تكفي المساعدة التي سنحصل عليها من حكومة الولايات المتحدة لهذا الغرض لتمويل النفقات الامنية بالعملة الصعبة ، التي سيضطر الاقتصاد الاسرائيلي الى تمويلها في السنوات المقبلة »(٣٥) . ويرى زوسمان ان التحويل الكبير لطاقة العمل الى فرع البناء ، خلال الفترة المقبلة ، سيؤدي الى تغيير في الهيكل الاقتصادي مناقض لاهداف السياسة الحكومية في تفضيل تطوير فروع الانتاج المعد للتصدير . « ان نصف الزيادة في طاقة العمل من بين الرجال ستحول الى فرع البناء نظرا لحاجاته الكثيرة ، رغم ان المشاريع الكبيرة الخاصة ببناء المطارات سينفذها الاميركيون ، أي بجهود غير محلية »(٣٦) .

إلا أن الاستاذ ميخا ميخائيلي ، من الجامعة العبرية ، يرى ان استيراد طاقة العمل المطلوبة لعملية البناء في النقب يمكن ان يعود بالفائدة على الاقتصاد الاسرائيلي . فمثلا « تعبيد الطرق بواسطة عمال مصريين يعتبر امرا ايجابيا من الناحية الاقتصادية ، لأنه سيحافظ على بقاء العمال اليهود في فروع الانتاج من جهة ، ومن جهة اخرى لن تكون هناك حاجة بعد ثلاث سنوات الى ايجاد اماكن عمل بديلة لهؤلاء العمال ، لانهم ليسوا مواطنين في اسرائيل »(٣٧) . وعلى اية حال ، فان الأمر الأساسي الذي تخشاه الدوائر الاقتصادية في اسرائيل هو ان تؤدي نفقات الحكومة الباهظة في ورشة البناء في النقب ، الى ضغوط تضخمية كبيرة تزيد الوضع سوءا ، خصوصا ان « جهد البناء المحلي الشامل لسنة ١٩٨٠ يتراوح بين ٦ و ٨ مليارات ليرة فقط »(٣٨) ، وأية زيادة على ذلك ستكون اما على حساب تقليص نشاط الوزارات المختلفة ، وتحديدا في مجالات التعليم والشؤون الاجتماعية وغيرها ، أو في تنشيط مجرى طباعة الأوراق النقدية خلال السنوات المقبلة .

ان عملية البناء في النقب – التي بدأت تنكد الاسرائيليين ، بسبب نفقاتها الواسعة ونتائجها الاقتصادية المتوقعة من تبذير للمصادر وإثراء وتضخم ، بعملية بناء خط بار – ليف في سيناء بعد حرب ١٩٦٧ – يمكن ان تفشل اية سياسة أو اجراء قد تتخذه الحكومة في المستقبل للحد من المشكلات الاقتصادية كالتضخم والعجز التجاري . لذلك ، فان المتوقع ، بصورة حتمية ، ان تستمر هذه المشكلات في المستقبل ، والسؤال المطروح الآن هو كيف سيؤثر ذلك على الوضع الاسرائيلي حاضرا ومستقبلا ، وما هي الوسائل التي يعتمدها الاسرائيليون لتجنب اضرارها ؟

مخاطر التضخم

يلاحظ ان الحديث عن مخاطر التضخم ، وبالتالي التحذير منها ، لم يعد يقتصر على الخبراء الاقتصاديين ورجال المعارضة فقط ، بل اتسع ليشمل المسؤولين ايضا من الوزراء وكبار الموظفين في وزارة المال ، وبنك اسرائيل ، وغيرهم . فللتضخم اضراره ، وبالذات على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي ، وقد بدأت هذه تنعكس على مختلف القطاعات ، لا سيما قطاعي العمل والانتاج ، ثم على مسألة اعادة توزيع المداخيل وما تلحق من ضرر اجتماعي يتمثل في تعميق الفوارق الطبقية في اسرائيل .

ان التضخم يعتبر عاملا سلبيا بالنسبة للعمل والانتاج . فاحتمال جني الارباح ، بواسطة بذل الجهد والعمل ، هو اقل كثيرا من احتمال الربح بواسطة التجارة والمضاربة في السوق المالية . وبالطبع فان هذا الأمر يؤثر على انتاجية العمل والاستثمارات ، ويرى محافظ بنك اسرائيل جفني ، أن « التضخم يأكل أسس الدولة . فهو يقوض الاستقرار والعمالة والانتاج والمستقبل . اننا نأكل رأس المال ، وهذا يؤدي الى تعلقنا بالمساعدات الخارجية . وفي هذه الاثناء لا زلنا بعيدين عن البطالة ، ونحافظ ، في الحقيقة ، على وضع من العمالة الكاملة ، ولكن اذا ما انقطعت عنا المساعدات ذات يوم ... فستحدث البطالة »(٣٩) .

اضافة الى ذلك ، فان التضخم بمعدلاته الحالية يقوض كل احتمال للاستقرار في علاقات العمل . فالتآكل السريع في قيمة العملة يجر وراءه مطالب غير منقطعة لرفع الأجور ، حتى انه قبل الانتهاء من المفاوضات مع احدى فئات العاملين تبرز مطالب فئة اخرى . وهنا تكمن الخلافات الاساسية مع الهستدروت التي بدأت تطالب بدفع علاوة غلاء معيشة كل شهرين ، مما يعني تيارا غير منقطع من الاموال التي تصل الى أيدي الجمهور ، في مقابل كل ارتفاع في الاسعار .

رغم ذلك فان الجمهور يعيش حالة من الارتباك . اذ لا يستطيع الفرد تخطيط اية عملية شراء بسبب سرعة تبدل الاسعار ، حتى ان القيمين على مراكز التسويق الكبيرة ، وعلى محلات البيع ، يعملون على اعادة ترقيم الاسعار باستمرار . ويفضل معظم الاسرائيليين تركيز مشترياتهم في مطلع كل شهر، اذ يوفرون بذلك على انفسهم الغلاء الذي سيتنامى حتى نهايته .

ان الاقبال على الشراء نشيط جدا ، لان الاحتفاظ بالعملة لا فائدة منه ، ما دامت الليرة تخسر جزءا من قيمتها باستمرار . وهنا يكمن ضرر اساسي ، يتمثل في انعدام الثقة بالعملة الاسرائيلية ، وقد بدأ ذلك ينعكس على المشاريع الكبيرة والمتوسطة وعمليات بيع وشراء العقارات ، حيث يجري تداول الدولار بشكل واسع .

التضخم والفوارق الاجتماعية

إضافة الى هذه الاضرار ، هنالك الضرر الاجتماعي الذي توضحه احصاءات تطور الاجور والمداخيل في اسرائيل ، خلال الفترة السابقة . فالتضخم يؤدي في الأساس الى تعميق اللامساواة في المجتمع الاسرائيلي لمصلحة اصحاب رؤوس الأموال من تجار ومستثمرين واصحاب مهن حرة . فهذا ما تثبته مثلا معطيات المكتب المركزي للاحصاء ، المتعلقة بتطور الاجر الاسمي والحقيقي لسنة ١٩٧٨ ، حيث تشير الى ان ارتفاع الاجر الحقيقي في تلك السنة لم يبلغ ٤٪ ــ كما جاء في التوقعات اثناء عرض الميزانية الجديدة في آذار (مارس) ١٩٧٩ ــ بل وصل الى نسبة ١,٦٪ فقط ، وان هذا الارتفاع لم يحدث لدى جميع فئات العاملين . اضافة الى ذلك يتضح من المعطيات نفسها ان ارتفاع الاستهلاك الفردي لم يقل عن ٥,٧٪ (وقد بلغ ٨٪ بحسب بعض الاحصاءات الأخرى) ، مما يثبت ان الاستهلاك الفردي لم يتوزع بشكل متساو بين الاجراء وذوي المهن الحرة واصحاب رؤوس الاموال . فارتفاع الاجر الحقيقي لدى الاجراء الذين يشكلون ٨٠٪ من طاقة العمل المدنية في اسرائيل ، قد مكنهم من رفع استهلاكهم بنسبة ١,٦٪ فقط للفرد ، زيادة عن نسبته في ١٩٧٧ . اما ارتفاع الاستهلاك بنسبة ٥,٧٪ فيعود الى زيادة الاستهلاك الكبيرة لدى الاغنياء واصحاب المهن الحرة الذين يشكلون ٢٠٪ من طاقة العمل المدنية ، حيث تمكنوا من زيادة استهلاكهم خلال السنة الماضية بنسبة ٢٢٪ للفرد[٤٠] . وهكذا يبرز التغيير الكبير في مستوى المعيشة لمصلحة هؤلاء ، خصوصا ان وضعهم كان الافضل حتى في الماضي .

ان التضخم بطبيعته يعيد توزيع المداخيل لمصلحة هذه الطبقات الغنية بسبب الارباح الطائلة التي تحققها . ويبدو ان الحكومة ، او بمعنى أصح ، زعماء حزب الأحرار الذين يشرفون الآن على الملف الاقتصادي في اسرائيل ، يتغاضون عمدا عن هذا الوضع « بدافع قرارهم تفضيل ناخبيهم الممثلين الذين كانوا دائما من الطبقات الميسورة من تجار ومنتجين رأسماليين ، وقد منحتهم السياسة الليبرالية امتيازات كثيرة جدا . فمعطيات سنة ١٩٧٨ بشأن توزيع الدخل القومي ... تبرز بوضوح ان التغيير كان لمصلحتهم بالمقارنة مع الاجراء »[٤١] . ويبدو ان سياسة الحكومة الراهنة المتمثلة في مختلف اجراءاتها للحد من مشكلة التضخم ، والتي تعتمد اساسا على الاقتطاع من الميزانيات الخاصة بالخدمات الاجتماعية والتعليم والصحة والاسكان وغيرها ، ثم بدء الالغاء التدريجي لدعم المواد الاستهلاكية الاساسية ــ كما ذكرنا سابقا ــ والتي تمس في الاساس مستوى معيشة العمال ، هذه السياسة ما هي الا تعبير عن اهتمام المسؤولين الاقتصاديين في اسرائيل بعدم المس بمصالح الطبقات الميسورة ، مما يربك باستمرار اعضاء حيروت داخل الحكومة ، وعلى رأسهم بيغن . لقد تسلم بيغن السلطة بفضل تاييد سكان الاحياء الفقيرة في اسرائيل الذين وعدهم بتحسين ظروف معيشتهم ، لذلك نراه يرفض، رفضا قاطعا ــ كما رأينا سابقا ــ مسالة الغاء الدعم الحكومي للمواد الغذائية ا لاساسية ، لأن ارتفاع اسعار هذه المواد سيؤثر سلبا على هؤلاء ، بينما لن يؤثر في مستوى معيشة الاغنياء ، المرتكز على الكماليات المستوردة بصورة اساسية . وقد وافق بيغن على مسالة الالغاء التدريجي للدعم الحكومي ، شرط ان يتم التعويض الكامل على المحتاجين ــ « المعيلين المستحقين » كما يسميهم هو ــ وفق خطة مدروسة .

الا ان تعويض الغلاء ، وان يكن كاملا ، لا يمكن ان يحسن في وضع هذه العائلات المحتاجة من اليهود الشرقيين ، خصوصا ان الهوة الاجتماعية لا تقوم بينها وبين طبقة الاغنياء فحسب ، اذ ان هناك هوة ايضا بينها وبين العائلات المتوسطة ذات الاصل الغربي . وهذا ما تشير اليه دراسة اعدها مكتب الاحصاء المركزي في هذا الخصوص ، حيث يتضح ان مداخيل عائلات الاجراء ذوي الاصل الاوروبي او الاميركي تزيد بنسبة ٢٥٪ عن

مداخيل عائلات الاجراء نوي الاصل الآسيوي أو الافريقي . كما تشير الدراسة الى ان دخل الفرد في عائلة من اصل اوروبي او اميركي يزيد بنسبة ٨٥٪ عن دخل الفرد في عائلة من اصل اسيوي او افريقي ، نظرا للثغرة القائمة بين عدد افراد العائلة ذات الاصل الشرقي ، وتلك التي من أصل غربي . والنقطة الأهم في الدراسة هي أن متوسط دخل العائلة الاسرائيلية المتوسطة في سنة ١٩٧٨ قد بلغ ٨٧٥٠ ليرة شهريا[٤٢] (اي حوالى ٣٤٠ دولارا على اساس ان سعر الدولار يزيد قليلا عن٢٦ليرة) وليس المهم هنا قيمة المبلغ في ذاتها ، بل قوتها الشرائية . فباستثناء المواد الاستهلاكية الاساسية والمواصلات التي لا زالت اسعارها معتدلة بفضل الدعم الحكومي ، فان جميع المواد الاستهلاكية الاخرى ، من دون استثناء ، تعتبر ذات اثمان باهظة ـ لا سيما المستوردة منها ـ بالمقارنة مع الدخل . فمثلا وصل سعر لتر البنزين في اسرائيل ، قبل تاريخ ١٩/٧/١٩٧٩ ، الى ١٦,٩٠ ليرة ، وسعر طن المازوت ٣٠٩٠ ليرة.والامر نفسه ينطبق على المواد الغذائية . فقد وصل ثمن الكيلو من لحم البقر المجلد الى ٨٤ ليرة : وثمن كيلو الجبنة الصفراء الى ٩٠ ليرة ، بينما ارتفع سعر رغيف الخبز الاسود ـ بسبب بدء الغاء « الدعم » بصورة تدريجية بنسبة ٤٠ ـ ٦٠٪ في المرحلة الاولى ـ الى ٣,٥ ليرات والرغيف الأبيض الى ٤,٥ ليرات . ويلاحظ ان سعر لتر البنزين في اسرائيل يزيد على ضعفي سعر لتر الحليب الذي بلغ ، حتى موجة الغلاء الاخيرة ، ٧,٦٠ ليرات[٤٣] .

ان الارتفاع في الاسعار لا يستثني مادة استهلاكية دون اخرى : فكل ارتفاع في سعر البنزين مثلا يجر وراءه ارتفاعا في اسعار المواصلات والمياه والكهرباء ، مما يدفع الى رفع اسعار السلع الأخرى ، وهكذا يمضي مسلسل الغلاء دون توقف .

كيف يحافظ الاسرائيليون على قيمة اموالهم في وضع التضخم ؟

بالرغم من هذا الغلاء الفاحش في اسرائيل ، يبدو ان الاسرائيلي العادي ، او بشكل ادق كل طبقة من الاسرائيليين تعيش مستوى معيشة متوسطا وما فوق ، لا تشعر بالضرورة بأية خطورة على وضعها . اذ انها ، رغما عن ارتفاع الاسعار المستمر ، تحافظ على مستوى معيشتها واستهلاكها واحيانا تبدله بمستوى افضل . والسؤال هو : كيف تستطيع ذلك ؟

لقد نجح الاسرائيليون بواسطة نظام «الربط» المتبع عندهم ـ وهو يعني ارتباط الأجور والمداخيل والتوفير بعلاوة غلاء المعيشة للمستهلك في تأمين انفسهم ضد اضرار الغلاء .فالأجور مرتبطة بجدول الغلاء بواسطة الاتفاق القائم بين الهستدروت من جهة وبين الحكومة وارباب العمل من جهة اخرى ، وهو اتفاق يقضي بدفع علاوة غلاء معيشة بنسبة ٧٠٪ من جدول الغلاء كل ثلاثة اشهر . الا ان هذه العلاوة لم تعد كافية في ظل معدلات التضخم الحالية . حتى ان المسؤولين الاقتصاديين يؤيدون رفعها . ولذلك فان المطاليب العمالية تتمثل الآن في دفع علاوة كاملة كل شهرين . واذا ما تحقق ذلك فسيكون مكسبا لهم في ظل الوضع الراهن ، لأن المهم بالنسبة اليهم هو كمية المال الضرورية للمحافظة على مستوى الاستهلاك ، بحيث تزيد هذه الكمية تبعا لأية زيادة في الاسعار ، فلا يبقى اي تأثير لانخفاض قوة المال الشرائية .

اما طبقات الاسرائيليين الذين تفوق مداخيلهم مستويات استهلاكهم ، فان الطريقة المفضلة الآن للمحافظة على قيمة اموالها هي شراء سندات الدين الحكومية المرتبطة بجدول الغلاء . ويلاحظ ان هناك اقبالا شديدا على شرائها ، حيث فاق حجم المبيعات في شهر تموز وحده اربعة مليارات ليرة . ويلاحظ ان الحكومة مهتمة بتنشيط عمليات البيع رغم الخسارة التي تتحملها بسبب الارتفاع المستمر في جدول الغلاء ، اذ تعتبر سندات الدين مصدرا مهما لتمويل ميزانيتها وامتصاص الأموال من الجمهور كي لا تنفق في عمليات الاستهلاك . اما على المدى البعيد فان سندات الدين لا تعود على خزينة اسرائيل بغير الضرر . وبحسب ما تشير اليه الاحصاءات ، بلغ حجم الدين الحكومي « المربوط » بجدول الغلاء نحو ٢٠٠ مليار ليرة ، وفي تضخم بمعدل ٦٠٪ سنويا يرتفع هذا المبلغ حتى دون زيادة حجم الاصدار ، بقيمة ١٨٠ مليار ليرة في السنة . وبالطبع فان مبلغا كبيرا كهذا من شأنه ان يؤثر سلبا في كل ميزانية التخطيط للمستقبل. فالحاجة الى دفع فارق « الربط » على سندات الدين ، مع كل ارتفاع في جدول الغلاء ، يحيد بمدى كبير تأثير اية خطوات اقتصادية للحد من التضخم ، مثل زيادة اسعار بعض المنتوجات أو رفع قيمة الضريبة الاضافية ، أو ضرائب أخرى غير مباشرة[٤٤] .

ان اقبال الاسرائيليين الشديد على شراء سندات الدين عائد الى مدى ربحيتها بالنسبة لهم . « فعندما كان

معدل التضخم يصل الى واحد أو اثنين في المائة شهريا ، كان الجمهور يشتري سندات « مرتبطة » كاستثمار للمدى البعيد أو المتوسط . فالعمولة التي كان ينبغي دفعها في عمليات البيع والشراء واحتمال هبوط طفيف في سعر السندات اثناء بيعها ، قللا من جدوى شرائها لفترة قصيرة ... اما اليوم ، ومع ارتفاع معدل التضخم من ٥ ـ ٦٪ شهريا ، فقد اصبحت عملية شراء السندات حتى لبضعة اسابيع امرا مربحا »(٤٥) . وبموجب دراسة اعدها بنك اسرائيل مؤخرا حول تجارة سندات الدين ، يلاحظ ان السندات « المرتبطة » بنسبة ١٠٠٪ أو ٩٠٪ قد حققت ارباحا تتراوح بين ٩٣ و ٩٥٪ في فترة ارتفع فيها معدل جدول الغلاء للمستهلك بنسبة ٧٥,٤٪(٤٦) .

الا انه رغم هذه الارباح ، ورغم توفر السبل المختلفة لدى الاسرائيليين للمحافظة على قيمة اموالهم في ظل التضخم الحالي ، يتملكهم ، كما يبدو ، شعور عام بعدم الاطمئنان بالنسبة للمستقبل . فالتيار المالي غير المنقطع الذي يتدفق يوميا من الخزينة الاسرائيلية الى جيوب الاسرائيليين بواسطة زيادة العجز في الميزانية وزيادة الديون الخارجية ما هو الا وسيلة ـ على حد قول النائب جاد يعقوبي ، رئيس اللجنة المالية في الكنيست ـ « لاهمال المستقبل على حساب متطلبات الحاضر ، واهمال قضايا الدولة والسكان عموما لمصلحة الفرد الواحد »(٤٧) .

التضخم في ظل الصراع الداخلي

يتضمن هذا القول ، الذي جاء على لسان احد نواب المعارضة ، اتهاما مباشرا للحكومة بالتسبب في المشكلات الاقتصادية القائمة . الا ان هذا الاتهام يبقى مبالغا فيه اذا ما اخذنا في الاعتبار الخلفية السياسية الداخلية التي تطورت هذه المشكلات بالتلازم معها ، حتى وصلت الى وضعها الراهن ، لا سيما مشكلة التضخم . فالسياسة الاقتصادية التي نفذتها الحكومة لم تعمل منذ البداية في فراغ ، ولم تطبق على اقتصاد خام. وما يعانية الاقتصاد الاسرائيلي اليوم لم يبدأ مع مجيء ليكود الى الحكم ، بل بدأ في مطلع السبعينات ، واشتد بعد حرب ١٩٧٣ . والمشكلات ، وان لم تصل في خطورتها الى ما وصلت اليه اليوم ، كانت قائمة فعلا .

ان ازدياد المشاكل الاقتصادية والاجتماعية خلال الفترة الماضية ، يبرهن في الاساس على ان سياسة الاقتصاد الحر التي اعتمدتها حكومة ليكود لم تؤد الى حل مشكلات الاقتصاد الاسرائيلي كما كان يؤمل منها ، بل ادت الى تعميقها ، حتى وصلت الى ما هي عليه . ويبقى السؤال المطروح : لماذا حدث هذا الفشل ؟ هل ان النمو السريع والاستثمارات المالية الواسعة التي لم تستخدم في توسيع قطاعات الانتاج ، ونفقات الحكومة الواسعة ، ثم تصرف الاسرائيليين واستغلالهم الثغرات الكثيرة التي حدثت نتيجة تطبيق السياسة الجديدة ، لتحقيق ارباح طائلة . هل هذه هي الأمور الوحيدة التي ادت الى التضخم الحالي ؟ .

صحيح ان هذه الامور كانت عوامل اساسية في دفع معدلات التضخم ، خصوصا ان الاقتصاد كان في حاجة الى وضع من الهدوء والاستقرار في مختلف القطاعات ، للتغلب على انعكاسات حرب ١٩٧٣ ، وأزمة النفط الأولى التي اعقبت تلك الحرب ـ على حد قول البعض ـ الا أنها لم تكن العوامل الوحيدة : لقد كانت ولا زالت هناك عوامل مساعدة كان لعدم توفرها دور كبير في تعقيد الوضع ، ويعتبر توفرها الآن بالنسبة للاسرائيليين احد شروط الحل للمشاكل الراهنة على المدى القصير والبعيد . واهم هذه العوامل عدم توفر اجماع عام اسرائيلي ، خصوصا من جانب القطاعات الاقتصادية الرئيسية في البلد ، على سياسة الاقتصاد الحر . فهذه السياسة اعتبرت منذ البداية نقيضا لسياسة الاقتصاد الموجه التي نما الاقتصاد الاسرائيلي بموجبها منذ نشأته ، ولم يكن بالامكان في أي حال من الاحوال ، ان تكسب سياسة الاقتصاد الحر تأييد قطاعات واسعة داخل اسرائيل كيفت نفسها وطورت مصالحها وفق النظام القديم . فالصناعيون مثلا كانوا بمثابة الابن المدلل لدى النظام القديم ، فيما يحصلون عليه من دعم وقروض وتوفير شروط ملائمة لتطوير صناعاتهم المعدة للتصدير . أما العمال ، فصحيح انه كانت لديهم مطاليب في عهد المعراخ ، الا ان « نضـــال » الهستدروت في ذلك الوقت لم يتعد اطار السياسة الاقتصادية والاجتماعية القائمة كما هو اليوم . ان الهستدروت بصفتها الممثلة للاغلبية الساحقة من العمال في اسرائيل ، قد اعلنت رفضها سياسة الاقتصاد الحر منذ اعلانها ، ولا زالت عند موقفها . وقد اثبت تطور الوضع الاقتصادي خلال الفترة الماضية ، ان رفض الهستدروت كان ذا أثر كبير فيما وصل اليه هذا الوضع من تدهور . ان يروحام ميشيل ، سكرتير عام الهستدروت ، واحد زعماء المعراخ ، الذي اعلن في الماضي ان سياسة الاقتصاد الحر موجهة في الاساس ضد العمال ، وانها لن تعود بالفائدة الا على اصحاب رؤوس الأموال الذين تمثلهم الحكومة ، لا زال يردد بعد سنتين من بدء تنفيذ هذه السياسة ، ان « اساس الخطأ وسبب الدمار هو الانقلاب

الاقتصـادي ،وأن ارليخ هو المسؤول عنه وعن التضخم المالي ... وان ثمة حاجة للتراجع عنه واعادة النظر في سلم الافضليات الاقتصادي »[١٨] . أي أن هناك إصراراً على افشال السياسة الحالية من جانب أكبر هيئة للعمال والمعارضـة .

لقد أخطأت الحكومة الاسرائيلية ، منذ البداية ، في تقييم مدى تاثير هذا الرفض . فسياسة الاجور والاسعار والضرائب وغيرها لا يمكن اقرارها من دون موافقة العمال ، والا ادى الأمر الى غليان اجتماعي لا يمكن تهدئته . لذلك فان مطالبة الهستدروت الآن باقرار سياسة شاملة توافق عليها جميع القطاعات ، بدأت تلقى اذانا صاغية حتى من قبل المسؤولين داخل الحكومة .

ولكي ندرك أهمية هذه المطالبة، نذكر ان ما يميز اسرائيل هو مستوى التنظيم العالي للمركبات الاساسية في المجالين السياسي والاقتصادي ، فالهستدروت تمثل الاغلبية الساحقة من العمال كما ذكرنا ، والحكومة بدورها ــ بما في ذلك الحكم المحلي ــ هي أكبر رب عمل في اسرائيل . اما فرعا الصناعة والزراعة فلهماتنظيمات قوية وثابتة : اتحاد الصناعيين ، هيئة العاملين ، اتحاد الصناعة الكيبوتسية والمركز الزراعي . وفي مجتمع كهذا لا يمكن ان يكون حل المشكلات الاقتصادية عن طريق السياسة المالية فقط ، وفق « انظمة السوق الحرة » ، بل يجب ان يتوفر حد ادنى من الاتفاق السياسي الداخلي حول القضايا الداخلية ، وهو العنصر الغائب منذ تولى ليكود السلطة .

لذلك يبدو ان حل المشكلات الاقتصادية في اسرائيل ، لا سيما مشكلة التضخم ، ليس امرا مستحيلا ، رغم الضجة التي يثيرها الاسرائيليون بالذات حول هذه القضية . فاتفاق سياسي بين مختلف الهيئات هنالك ، من حكومة ومعارضة ، على اهم المسائل ، مثل سياسة الاجور والغلاء والضرائب والمداخيل وغيرها ، يمكن ان يكون منفذا نحو بداية خروج من الازمة الاقتصادية في رأي معظم الخبراء الاقتصاديين من مسؤولين وغيرهم . لكن يبدو ان اتفاقا كهذا لا يمكن ان يتحقق في ظل الحكومة الحالية ، التي كثر معارضوها ، ليس بسبب سياستها الاقتصادية فحسب ، وانما بسبب سياستها الخارجية ايضا ، والخلافات المستمرة بين اعضائها ، لذلك يسوء الوضع الداخلي يوما بعد آخر . فوزير المال عاجز عن اتخاذ القرارات الاقتصادية ، خصوصا ان الاعتراض عليها ليس موجها من المعارضة وحدها ، بل اتسع ليشمل الوزراء ، حتى أولئك الذين هم اعضاء في حزب وزير المال ، الذين بدأوا يطالبونه بالاستقالة ، محملين اياه مسؤولية « تدهـور » الوضع الاقتصادي . إلا أن استقالة ارليخ ، وان كانت مرفوضة حتى الآن من قبل بيغن ، لن تغير شيئا في مركبات الازمة الحالية الا في حالة واحدة . اذا استطاع البديل ايجاد لغة مشتركة مع مختلف القطاعات الاخرى ، والهستدروت والصناعيين بخاصة ، وهو ما لم يتحقق حتى الآن .

---

(١) هارتس ، ١٩٧٧/١٠/٣٠
(٢) المصدر نفسه .
(٣) ابراهام طال ، هارتس ، ١٩٧٩/٥/٩ .
(٤) يهوشواع رابينوفيتش ، وزير المالية السابق ، يديعوت احرنوت ، ١٩٧٩/٥/٢٥ .
(٥) هارتس ، ١٩٧٩/٥/٦ .
(٦) أ. طال ، مصدر سبق ذكره .
(٧) المصدر نفسـه .
(٨) بحسب ما أورده النائب غاد يعقوبي ، رئيس اللجنة الاقتصادية في الكنيست ، يديعوت احرنوت ، ١٩٧٩/٥/٢٣ .
(٩) معاريف ، ١٩٧٩/٧/٢٠ .
(١٠) دافار ، ١٩٧٩/٧/١٦ .
(١١) يعقوبي ، المصدر رقم (٨) .
(١٢) من مقابلة مع ارنون جفني ، محافظ بنك اسرائيل ، يديعوت احرنوت ، ١٩٧٩/٥/٣١
(١٣) أ. طال ، مصدر الحاشية رقم (٣) .
(١٤) رابينوفيتش ، مصدر الحاشية رقم (٤) .
(١٥) أ. طال ، مصدر الحاشية رقم (٣) .
(١٦) اسحق ديش ، معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣٠ .
(١٧) المصدر نفسه .

(١٨) كما أورده محافظ بنك اسرائيل ، أ. جفني في مقابلة معه ، معاريف ، ١٩٧٩/٥/٤ .

(١٩) تدي برويس ، دافار ، ١٩٧٩/٦/٤ .

(٢٠) من حديث مع جفني ، دافار ، ١٩٧٩/٥/٢٢ .

(٢١) جفني ، المصدر رقم (١٢) .

(٢٢) معاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٠ .

(٢٣) برويس ، مصدر الحاشية رقم (١٩) .

(٢٤) رابينوفيتش ، مصدر الحاشية رقم (٤) .

(٢٥) جفني ، مصدر الحاشية رقم (١٢) .

(٢٦) المصدر نفسه .

(٢٧) معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣٠ .

(٢٨) هارتس ، ١٩٧٩/٥/١٠ .

(٢٩) هارتس ، ١٩٧٩/٧/١٨ .

(٣٠) المصدر نفسه .

(٣١) يديعوت احرنوت ، ١٩٧٩/٧/١٨ .

(٣٢) د يفيد ليفكين ، دافار ، ١٩٧٩/٧/١٩ .

(٣٣) موتي زتيار ، معاريف ، ١٩٧٩/٧/٢٠ .

(٣٤) معاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٠ .

(٣٥) دافار ، ١٩٧٩/٥/٣ .

(٣٦) المصدر نفسه .

(٣٧) المصدر نفسه .

(٣٨) دافار ، ١٩٧٩/٧/١٣ .

(٣٩) جفني ، مصدر الحاشية رقم (١٢) .

(٤٠) معطيات مكتب الاحصاء المركزي حول الاجور والاستهلاك ، نقلا عن يعقوب أرنون ، دافار ، ١٩٧٩/٥/١٥ .

(٤١) يعقوب أرنون ، دافار ، ١٩٧٩/٧/١٧ .

(٤٢) يديعوت احرنوت ، ١٩٧٩/٥/٢٥ .

(٤٣) راجع قائمة الاسعار الجديدة للمواد الاستهلاكية الاساسية بعد بدء الغاء الدعم ، دافار ، ١٩٧٩/٨/١٢ .

(٤٤) اسحق ديش ، معاريف ، ١٩٧٩/٧/٢٧ .

(٤٥) المصدر نفسه .

(٤٦) ملحق « يديعوت احرنوت » الاقتصادي ، ١٩٧٩/٨/١٠ .

(٤٧) غاد يعقوبي ، يديعوت احرنوت ، ١٩٧٩/٥/٢٣ .

(٤٨) من مقابلة مع يروحام ميشيل ، دافار ، ١٩٧٩/٧/١٣ .

صابر موسى

نظام ملكية الأراضي في فلسطين في أواخر العهد العثماني

سعت الحركة الصهيونية ، منذ بداية نشاطها المنظم في فلسطين ، خلال الربع الأخير من القرن الماضي ، الى امتلاك اكبر مساحة ممكنة من الاراضي ، باعتبار ذلك احدى الركائز الضرورية لاقامة دولة يهودية هناك . وقد أستغل الصهيونيون ، لتحقيق مأربهم تلك ، الاوضاع السياسية ـ الاجتماعية ، التي كانت سائدة في فلسطين آنذاك . واستطاعوا امتلاك مساحات معينة من الاراضي ، في مناطق مختلفة . وقد ساعد نظام ملكية الاراضي الذي كان سائدا في فلسطين (ومناطق اخرى من الامبراطورية العثمانية) آنذاك ، الصهيونيين على تحقيق بعض مخططاتهم في امتلاك الاراضي . وموضوع هذه الدراسة هو تتبع التطورات التي شهدتها ملكية الاراضي في فلسطين ، خلال الفترة التي بدأ فيها الاستعمار الاوروبي ، والصهيونيون ، بالتوجه الى هذه المنطقة من العالم ، وذلك بالتركيز على القوانين والانظمة الخاصة بملكية الاراضي ، والتي ساعدت في عملية التسلل الصهيوني الى فلسطين بصورة او بأخرى . ولذلك لا بد من العودة الى قوانين وانظمة الاراضي العثمانية التي كانت سائدة في حينه .

تأسست الدولة العثمانية في مطلع القرن الرابع عشر ، وراحت تنمو وتزدهر الى ان وصلت اوج عظمتها في القرن السادس عشر ، ومن ثم اخذت بالانحسار والتراجع ، الى ان انهارت في بداية القرن العشرين مع نهاية الحرب العالمية الاولى .

الاسس التاريخية لنظام ملكية الاراضي العثماني

امتازت الحقبة الاولى من تاريخ الامبراطورية العثمانية ، وهي فترة التأسيس والفتوحات المستمرة ، بعدم شمولية السلطة وبساطة مفاهيمها ، بالرغم من مركزيتها الشديدة . فقد كان للدولة آنذاك وظائف محدودة لا تتعداها ، تنحصر بالدفاع عن الولايات ، او توسيع رقعة السلطنة العثمانية . وعلى الصعيد الداخلي ، اقتصرت مهامها على حفظ النظام العام ، وتحصيل الضرائب وتوزيعها على وجوهها المختلفة ، والفصل في الخصومات التي انيطت بالنظام القضائي في الدولة . وكانت هذه المهام جميعها تقع على عاتق الجيش ، مما صبغ الدولة في تلك الفترة بالصبغة العسكرية ، حيث كان الجيش عماد الحكم واداة الحرب ، في الوقت ذاته(١) . ولما كانت هذه هي صبغة الدولة ، فقد كان لا بد لها من توفير وتأمين موارد العيش لهذا الجيش ، ومن ثم لموظفيها ، ايضا ، ولذلك اتجهت الى اعتبار الارض ، التي كانت تحتلها القوات العسكرية ، ملكية عامة تخصص رقبتها لبيت مال المسلمين ، اي خزينة الدولة ، وجعلها وقفا على الامة الاسلامية ، واخذ العثمانيون بهذا المبدأ من الشريعة الاسلامية ، معتمدين في ذلك على الفقه .

استمد نظام الاراضي العثماني اسسه ، في هذه الفترة ، مما كان قد اتبعه العرب عند افتتاحهم لبلاد الشام وغيرها من الممالك ، فكانوا اذا ما اتموا فتح البلاد بدون حرب ، تجري شروط الصلح على الاراضي فتبقى بأيدي سكانها المحليين ، بعد ان يفرض عليها الخراج ، وتعتبر مملوكة لهم . ولكن اذا ما تم الفتح بالقوة ، تعتبر الاراضي المفتوحة غنيمة للفاتحين ، ، يوزعها الوالي بين جنوده بعد فرز الخمس لبيت المال ، غير ان الوالي ، في بعض الاحيان ، كان يبقي على هذه الاراضي بيد السكان المحليين ، بشرط ان تبقى رقبتها لبيت مال المسلمين ، وان يوضع خراج معين عليها . ولذلك قسمت الاراضي الى قسمين : اراض مملوكة واراض غير مملوكة . اما الاراضي المملوكة ، فقد قسمت بدورها الى اربعة اقسام هي : ١ ــ عشرية : اي المفتوحة ا و الممنوحة للفاتحين المسلمين ، او الداخلين الى الاسلام . ٢ ــ خراجية : وهي تلك المفتوحة دون حرب ، والمتروكة بيد السكان المحليين مع فرض الخراج عليها . ٣ ــ المقاطعة : اي الاراضي التي يمنحها الوالي للمسلمين من غير الفاتحين بشرط دفع المقاطعة (اي دفع الرسوم والاعشار ، الخ) . ٤ ــ الاراضي المتممة للسكن : اي الاراضي المحيطة بالسكن ومثلها حدائق المنازل وما شابه[٢] . واما الاراضي غير المملوكة فهي تلك الباقية بعد التوزيع على الفاتحين ، او الاراضي الخراجية ، وهذه ــ كما ذكرنا ــ تعود رقبتها لبيت مال المسلمين ، وتعرف باراضي بيت المال او اراضي الدولة[٣] ، وهي ما عرفت فيما بعد بالميري ، او الاراضي الاميرية .

عندما دخل العرب فلسطين ، كما بقية سوريا ، لم يقوموا بطرد السكان الاصليين او الفلاحين من اراضيهم واماكن تواجدهم ، بل اعتبروا رقبة الاراضي ملكا لبيت المال ، وسمحوا للمشتغلين (المتصرفين) فيها باستغلالها ، شرط دفع ضريبة معينة ؛ حددت بنوعين وهما : الاعشار والخراج[٤] ، والاعشار هي نسبة الضريبة المفروضة على المحصول الناتج من الارض ، وتساوي عشره ، وذلك بالنسبة لأصحاب الارض الذين دخلوا الاسلام ، او كانوا من المسلمين ، دون اعفائهم من الجندية . واما الخراج فهو نسبة الضرائب المفروضة على الاراضي التي بحوزة غير المسلمين ، والتي كانت قسمت بدورها الى قسمين : ١ ــ خراج المقاسمة ، وتتراوح ضريبته بين العشر والنصف من المحصول الناتج من الارض ، وذلك بحسب طبيعتها وجودتها . ٢ ــ الخراج الموظف ، وهو ضريبة محدودة تفرض على الارض ، سواء زرعت ام لم تزرع ، (وهو ما يشبه عملية الايجار في هذه الايام) . وكان الجباة ، او عمال بيت المال ، هم الذين يقومون بمهمة جمع الاعشار والخراج .

استمر الحال على هذا النحو في العهد العثماني حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر (عهد محمد الفاتح) حيث كانت ادارة المالية تقوم بجمع الضرائب مباشرة . ولما كان لهذا النظام عيوبه ، اضطرت الدولة الى العمل بنظام الالتزام حتى تضمن لنفسها حقها في الضرائب المترتبة للدولة[٥] . وبذلك بدات مرحلة جديدة ،وقد اعتمد نظام الاراضي العثماني خلالها على ثلاث ركائز رئيسية ، وهي الدولة والموظفين (من مدنيين وعسكريين) والفلاحين [٦] .

فالدولة ، وهي الركيزة الأولى ، اعتبرت نفسها صاحبة الارض ومالكتها الحقيقية ، وصاحبة الحق في حصيلة الضرائب والرسوم والاعشار المفروضة على جميع املاك الامبراطورية التي وصلت حدودها الى اواسط اوروبا في الشمال ، وعدن والخليج العربي في الجنوب ، وبلاد فارس في الشرق ، والمغرب العربي والسودان غربا . وفي هذه الفترة ، لجأت الدولة الى دفع رواتب موظفيها بقطاع بعض الاراضي الزراعية لهم ، وذلك مقابل ما يقدمونه من خدمات لها . ولم يكن ذلك يعني ، على كل حال ، المفهوم الغربي للاقطاع . اذ ان الموظفين العثمانيين لم يمنحوا حق التملك الشخصي للارض ، بل انيط بهم حق جباية الاعشار والرسوم المترتبة عليها ، من الفلاحين ، المتصرفين الحقيقيين في الارض ، والذين اعترف بتصرفهم ما داموا يدفعون ما عليهم من ضرائب الى صاحب الاقطاع او وكيله[٧] .

اما الركيزة الثانية لنظام الاراضي العثماني في تلك الفترة ، وهم موظفو الدولة (الاقطاعيون) سواء اكانوا مدنيين او عسكريين ، فقد اختلفت اقطاعاتهم باختلاف المنصب الذي كانوا يشغلونه . ولما كان العثمانيون قد وجدوا عند احتلالهم لبلاد الشام (١٥١٧ م) بعض الاقطاعيات الطائفية والعنصرية ، فقد ابقـوا على بعض اشكالها واقروها ، وبذلك اصبح هنالك نوعان من الاقطاع : الطائفي او العنصري ، والحكومي .

فالاقطاعيات الطائفية ، وهي تلك التي كانت من نصيب بعض الجماعات الاقطاعية المذهبية او العنصرية المتوارثة من عهد المماليك ، فقد بقيت على ما كانت عليه . ويمثل هذه الاقطاعيات بعض المجموعات الاثنية مثل الاكراد والتركمان والعرب.واما الجماعات المذهبية فقد مثلتها طوائف مثل الاسماعيلية والدروز والموارنة ، وظهرت اكثر ما يكون في لبنان(٨) . والواقع ان كل العائلات والأسر الاستقراطية والاقطاعية ، التي وجدت فيما بعد في سوريا الكبرى ، وتمتعت بنفوذ ملموس في عهد المماليك ، كانت تدين بوضعها الممتاز ، ومحافظتها عليه ، لكون افرادها وكلاء ارثيين ، او امناء على اوقاف مهمة . ومثل هؤلاء آل البرقوقي في مصر ، والنشاشيبي في القدس ، والتميمي في الخليل(٩) . وكان آل الحسيني وآل الرفاعي ، المتحدرون من سلالة الحسين بن علي ، قد التزموا بعض المناطق في اواخر القرن الثالث عشر ، والتي اصبحت فيما بعد ملكا لهم ومحل اقامتهم ، وبقوا يتمتعون باعتبارهم ورثة نقيب الاشراف في القدس ، بامتيازاتهم التي حصلوا عليها خلال عهد المماليك ، رغم ان الحكم العثماني الغى وسميا تلك الامتيازات(١٠) . وكانت جبال نابلس ، مثلا ، مقسمة ايضا بين مشايخ عديدين ، ينتخبون من وقت لآخر رئيسا لهم ، ويديرون شؤونهن ككتلة واحدة ، ومن بين عائلات هذه المنطقة ، التي كانت ذات نفوذ منذ عهد المماليك ، آل الجيوسي في منطقة طولكرم (منطقة بني صعب) ، وعبد الهادي وجرار الذين اقتسموا المناطق في قطاع الشعراوية وجنين ، وآل طوقان الذين اعتبروا سادة مدينة نابلس(١١) .

اما **الاقطاع الحكومي** : فقد كان مقصورا في البداية على العسكريين فقط ، ثم دخلته عناصر مدنية فيما بعد . واختلفت اقطاعيات هذا النوع ، باختلاف اهمية المنصب الذي كان الموظف يشغله . كما قسمت هذه الاقطاعيات ، حسب اهميتها ، الى ثلاث : ١ ــ الاقطاعيات الصغيرة ، وهي تلك التي يقل واردمنتوجها عن ٢٠ الف اقجة (وهي عملة عثمانية قديمة ، وتساوي كل ثلاث منها درهما) اي ما يقارب ٦٠٠٠ درهم ، وعرف هذا النوع بـ « التيمار » . ٢ ــ الاقطاعيات المتوسطة ، التي تراوح ايراها بين ٢٠ ــ ١٠٠ الف اقجة ، اي من ٦ ــ ٢٠ الف درهم ، وعرفت بـ « الزعامت » . ٣ ــ الاقطاعيات الكبيرة ، والتي كانت قيمة منتوجها تزيد عن ١٠٠ الف اقجة ، وعرفت بـ « الخاص »(١٢) وكانت هذه الاقطاعيات الكبيرة تمنح عادة للوزراء وكبار القادة ومن شابههم . وبلغ عدد الاقطاعيات الكبيرة هذه في فترة من الفترات (لم يكن عدد الاقطاعيات في اجزاء الامبراطورية ثابتا او محددا) نحو ٥١٧ اقطاعية في فلسطين (في مراكز القدس ، نابلس ، غزة ، صفد ، واللجون) وكذلك حوالي ٦٦ اقطاعية في شرق الاردن (في مركزعجلون) ، ونحو ١٠٠ اقطاعية في لبنان (في مركزطرابلس)(١٣) .

وقد اعتاد هؤلاء الاقطاعيون ، على ان يسلموا الارض للفلاحين لزراعتها ؛ على ان يدفع هؤلاء الضرائب والاعشار والرسوم للاقطاعي ، وذلك تعويضا له عن الخدمات التي يقدمها للدولة . وكان يطلب من الاقطاعي ، في مقابل ذلك ، ان يكون على استعداد دائم للحرب من اجل الامبراطورية ، وذلك بالقيام بتجهيز عدد من الفرسان من بين الفلاحين ، يتناسب وايرادات اقطاعيته . وكانت النسبة المتبعة هي فارس لكل خمس آلاف اقجة(١٤) . وهكذا شكل هؤلاء الاقطاعيون ، في حينه ، قوة مهمة في الدولة العثمانية ، اذ ان السلاطين العثمانيين رحبوا بهذا النظام ، لانهم ضمنوا بموجبه زراعة الارض من جهة ، والحصول في اوقات الحرب على القوات اللازمة دون تكاليف تذكر من جهة اخرى . فقد كان على الاقطاعي ان يخوض الحروب ومعه قواته . وعدا عن ذلك ، فان هذا النظام اغنى الدولة عن دفع مرتبات الجنود في اوقات السلم ، والذين توقفت ترقياتهم على مهارتهم وقدرتهم على خوض الحروب(١٥) .

اما الركيزة الثالثة في نظام الاراضي ذلك ، فقد جسدها الفلاحون ، الذين اطلق النظــام عليهم اسم « الرعية » . وهؤلاء هم الذين يتولون زراعة الاراضي نظير التزامات معينة تجاه صاحب الاقطاع ، من بينها دفع ما يفرض عليهم من رسوم واعشار وضرائب . وقد اطلق على حق انتفاع الفلاحين بالارض « تصرف »(١٦) . وطالما كان الفلاحون يدفعون ما عليهم ، ومستمرين في زراعة الارض التي سلمت لهم ، يثبت حقهم في التصرف ، الذي ينتقل بدوره الى ورثتهم القانونيين من بعدهم ، اما اذا لم يكن للفلاح من وريث قانوني ، فيعود التصرف الى بيت المال ، وللاقطاعي حينئذ الحق في منح هذا التصرف لآخرين مقابل مبلغ من المال ، كرسوم ، اطلق عليه عند العثمانيين اسم « طابو »(١٧) . وفي هذه الحالة ــ انعدام وجود ورثة للمتصرف بالارض ــ يحق لأي من سكان القرية الحصول على التصرف ، ما دام على استعداد لدفع بدله . ولا بد من الاشارة هنا بان القرية كانت تشكل في

تلك الفترة قلب المجتمع الزراعي ، والحياة فيها قائمة على اساس العمل الجماعي ، لمجموع اسرة الفلاح « الرعية » . أي ان الفلاح ، بمعنى آخر ، كان يشترك مع اسرته في زرع الارض والعناية بها ، ويتمتع من جراء وضعه هذا بحقوق ، لم يكن من السهل على الاقطاعي انكارها او تجاوزها في أسوأ الحالات . ولذلك اصبح من حق الابناء ، مهما بلغ عددهم ، وراثة حق التصرف عن ابيهم جملة فيما بينهم . كما كان من حق الاخوة ان يمنعوا احدهم اذا اراد التنازل عن حصته في حق التصرف الى شخص آخر خارج اطار الاسرة ، وبالتالي خارج القرية ، وان يطالبوه بتحويل الحصة لأحدهم او كلهم كذلك فقد اشترك الفلاحون في الحقوق التقليدية لموارد قراهم ، المتعلقة عادة بالاراضي المجاورة والتابعة للدولة ، مثل حقوق الرعي ، وتجميع الاخشاب ، او المياه او غير ذلك من موارد(١٨) .

بقي نظام الاقطاع قائماً في الدولة العثمانية على هذا الشكل ، وبصورة مقبولة(١٩) ، وبالتالي لم يؤد في حينه الى حدوث كثير من الاضرار بالفلاحين المتصرفين بالارض ، حتى بداية القرن الثامن عشر ، عندما بدأت العلاقات بين الاقطاعيين والفلاحين تدخل في اطوار جديدة ، سمتها الاساسية استبداد الاقطاعيين بالاراضي والفلاحين على السواء ، بالاضافة الى تحول معظم الاراضي التي يديرونها الى اقطاعيات ، اعتبرت في حكم الاملاك الشخصية للاقطاعيين(٢٠) .

ومع تدهور مركز الجيش وانحطاط قوته ، وتضعضع المراكز العديدة للنظام الاقطاعي العثماني ، درج الاقطاعيون الكبار على عادة « بيع » حق وهبة اقطاعيين صغار . وكانت هذه الصلاحيات منوطة في الاصل بالسلطان فقط ، ثم انتقلت فيما بعد الى حكام المقاطعات والولايات . اما هؤلاء الاقطاعيون الجدد ، فقد درجوا من جهتهم على اعتبار انفسهم اصحاب الارض ومالكيها . بينما بدأ منح الاقطاعيات في الفترة نفسها يشمل ايضا المدنيين ، واناس ليس لهم علاقة بالجيش ، من الذين اعطوا لانفسهم الحق بمنح الاقطاعيات ايضا خاصة في عهد السلطان مراد الثالث (القرن الثامن عشر) وحصل هذا في وقت كان فيه المهدور حقه غير قادر على الشكوى ضد الاقطاعيين او الحكم ، او القيام باستئناف قانوني ضد مثل هذه التجاوزات ، بعد ان بلغ الفساد والظلم اشدهما .

وكانت ادارة الاقليم وزراعته ، في سوريا وفلسطين ، في تلك الفترة ، في عهدة الحاكم العام او الوالي ، الذي كان ملزما بأن يدفع للخزينة في العاصمة (الاستانة) ضريبة سنوية ، علاوة على مصاريف الشؤون الادارية المترتبة على اقطاعيته . اما ما كان يتبقى من تلك المداخيل فكان يضاف الى ثروته الخاصة(٢١) . ونجم عن ذلك زيادة في الضرائب ، الكثيرة في الاصل ، والتي كانت تقع كلها على كاهل الفلاحين ، من اجل سد احتياجات جيوش الاقطاعيين والملتزمين والجباة . ونتيجة لذلك وصل الفلاحون الى درجة كبيرة من الفقر المدقع ، حيث اضطروا الى دفع ضرائبهم ليس فقط بالمال ، لعدم توافره بين ايديهم ، بل وايفائها عينيا كذلك ، من المحاصيل والمنتوجات ، وفي احيان كثيرة ، كان الفلاحون ، والحالة هذه ، عاجزين عن تأمين طعامهم وطعام عائلاتهم ، الأمر الذي عرضهم الى المجاعات . واضافة الى ذلك ، تضامن حتى شيوخ القرى ، وفي احيان كثيرة ، مع جامعي الضرائب ، بدلا أمن ان يدافعوا عن السكان ، وذلك بتفضيلهم الصمت ، والسماح للملتزمين بان يفعلوا ما يريدون ، لقاء ، منحة او مشاركة في ربح او غنيمة . وقد سارت هذه الاوضاع في معظم منطقة الشرق العربي ، بما فيها فلسطين(٢٢) .

نبه تردي الاوضاع هذه وفساد الادارة ، وانحطاط المؤسسة العسكرية ، بعض السلاطين اللاحقين الى ضرورة اصلاح الاوضاع وكان اولهم السلطان مصطفى الثالث (١٧٣٤ م ـ ١٧٥٧ م) ، الذي بدأ اصلاحاته في الناحية العسكرية ، وذلك بتحسين اوضاع المدفعية والبحرية ، بواسطة الاستعانة بعدد من الضباط والخبراء الاوروبيين ، ولكنه لم يستطع التغلب على مشاكل العسكر بأسرها ، او ضبط الانكشارية . وجيش الانكشارية كان قد شكله السلطان اورخان (١٣٢٦ م ـ ١٣٥٩ م) ، من الاسرى المسيحيين ، على شكل جنود دائمين ، تم اعدادهم اعداداً خاصاً حتى اصبحوا عماد الدولة في فترة قوتها . وكانت الغاية من انشائه عسكرية دينية . ولكن مع بداية القرن السابع عشر ، سمح للفلاحين والحرفيين وباقي افراد العامة ، بالانضمام للجيش الانكشاري ، بعد ان كان محظورا عليهم في السابق(٢٣) . ولذلك لم تتناول الاصلاحات جيش الانكشارية(٢٤) . وتبع السلطان

مصطفى الثالث ، السلطان عبد الحميد الاول (١٧٧٤ م ــ ١٧٨٩م) . في محاولات الاصلاح ، ثم السلاطين سليم الثالث (١٧٨٩ م ــ ١٨٠٧ م) . ومصطفى الرابع (١٨٠٧ م ــ ١٨٠٨ م) ــ ومحمود الثاني (١٨٠٨ م ــ ١٨٣٩ م) . وكان الاخير هو علم الاصلاح العثماني .

ولقد حاول اولئك السلاطين ، اصلاح الاوضاع الفاسدة في الامبراطورية العثمانية بشتى الطرق ، الا انهم لم يحرزوا نجاحا كبيراً ، وزاد الطين بلة الحروب الكثيرة التي خاضتها الدولة في تلك الفترة ، خاصة مع روسيا القيصرية ، ومحاولات اسكات الثورات الداخلية في الامبراطورية ، سواء في منطقة اوروبا الشرقية ، او في البلاد الشامية ، وكان اكبر المشاكل في المشرق العربي تلك التي نجمت عن حركة الوهابيين في الجزيرة العربية ، وحملة محمد علي لاحتلال بلاد الشام . ولكن على الرغم من ذلك لم تتوقف ، عجلة الاصلاح ، ومحاولة الاخذ عن الغرب النظم والقوانين السائدة فيه ، وتحديث اجهزة الحكم والدولة في الامبراطورية العثمانية . وكان احد الاهداف الرئيسية من وراء ذلك زيادة مدخول الدولة ، الامر الذي ادى الى رفع الضرائب وزيادتها ، وخاصة ، الاعشار ، بالاضافة الى اتباع سياسة ضرائب جديدة ، وصلت حدا لا يطاق مثل ، الجزية ، رسوم المواشي ، الجمارك ، رسوم فتح محلات تجارية (« بندر ») ، او بناء حمام عمومي ، ضريبة زواج ، عيدية ، رسوم ولادة « قدوم غلمانية »[٢٥] . وغيرها الكثير ، مما اساء الى الفلاحين عموما اكثر فاكثر .

عصر التنظيمات (١٨٣٩ م ــ ١٩١٤)

مع مطلع القرن التاسع عشر ، وصل التدهور العثماني حدا لا يطاق ، اطلق معه على الدولة العثمانية اسم « الرجل المريض » وقد ادى ذلك ايضا الى ازدياد تغلغل النفوذ الاستعماري في مجريات امور الامبراطورية ، الى الحد الذي بدت فيه اوضاعها اشبه ما تكون بالفوضى المنظمة ، التي تضرب اطنابها في جميع المقاطعات ، حيث الثورات الداخلية ، والتداخلات الخارجية ، والمآسي ، والفتن ، والانقلابات ، الخ . ولكن على هذه الخلفية وقع في العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣١ م ــ ١٨٣٩ م) تحول هام بالنسبة لنظام الارض والزراعة في سوريا الكبرى (فلسطين والاردن ، لبنان وسوريا الحالية) ، بعد ان احتلها محمد علي ، اذ استطاعت ادارته ان تدخل تحسينات عديدة على الاوضاع السائدة آنذاك ، وقد عملت تلك الادارة على انهاء الاقطاع كنظام . وذلك بحل الجيوش العسكرية الاقطاعية في ولاية سوريا (١٨٣٢ م ــ ١٨٣٥ م) . وبتجريد السكان من السلاح بالقوة ، دون تمييز بين الاشراف والاعيان او عامة الشعب ، وادخال نظام التجنيد الاجباري العسكري[٢٦] . وشهدت الزراعة السورية ، في عهد تلك الادارة ، تنظيما متقدما ، اذا ما قورن بالانظمة العثمانية المتبعة في السابق ، حيث اعلنت المساواة بين جميع الطوائف والعناصر ، وحرر الفلاحون ، وتم استصلاح بعض الاراضي الزراعية[٢٧] . وبالرغم من فرض الضرائب الكثيرة ، والتجنيد الاجباري الذي افقد الزراعة العناصر العاملة الشابة وبالرغم من احتكار بعض المحصولات الزراعية ، وحيوانات النقل المستخدمة في نقل المؤن والعتاد للجيش المصري ، كانت لتلك الاجراءات ، في المقابل ، آثارها الحسنة في مجال تحسين الزراعة ، واستصلاح الاراضي ، خلال فترة الادارة المصرية[٢٨] .

وبعد انسحاب المصريين من سوريا ، بقيت آثار سياستهم نافذة المفعول ، بل اصبحت عاملا من عوامل الاصلاح الجديد في الدولة العثمانية ، وهو الاتجاه المعروف بالتنظيمات العثمانية . وكان السلطان محمود الثاني هو الذي افتتح عصر التنظيمات . وذلك باصداره « خط كلخانة » (التنظيمات) يوم ٢٦ شعبان ١٢٥٥ هــ . (٣ تشرين الثاني ١٨٣٩ م) . باحتفال رسمي حضره السفراء والقناصل الاوروبيون ، اعلن فيه : « ... لقد علم الجميع انه لما كانت حصلت الرعاية التامة للاحكام الجليلة القرآنية ، والقوانين الشرعية ، منذ بداية ظهور دولتنا العلية ، وصلت قوة واستحكامات سلطتنا السنية وجميع تبعتها الى اعلى مرتبة من الرفاه والمعمورية . ولكن بحسب ما وقع منذ مئة وخمسين سنة من عدم الانقياد للشرع الشريف ، والامتثال للقانون المنيف. بداعي الغوائل المتعاقبة والاسباب المتنوعة ، قد تبدلت تلك القوة الاولى والعمار ، بما هو عكس ذلك من الضعف والافتقار . ولما كان من الامور الواضحة عدم امكان ثبات الممالك التي لا تكون ادارتها تحت قوانين شرعية ... ولو ان ممالكنا المحروسة تخلصوا لله الحمد قبل الآن من بلوى اليد الواحدة التي كانت متسلطة على الايرادات الوهمية . لكن اصول الالتزامات المضرة والمعتبرة من ضمن اسباب الخراب التي لم يظهر منها ثمرة نافعة في اي حال لم تزل

جارية للان ، وهذا يعد كتسليم مصالح المملكة السياسية وادارتها المالية لرجل واحد وبالاحرى ، ان نقول بوضعها تحت قهره وجبره ، فانه ان لم يكن رجلا امينا ، لا شك انه ينظر الى فائدته الشخصية . وتكون كل حركاته وسكناته عبارة عن غدر وظلم . فيلزم بعد الان تعيين خراج مناسب على قدر اقتدار واملاك كل فرد من افراد اهالي المملكة ولا يؤخذ شيء زيادة عن المقرر من احد ما ... »(٢٩) .

وهكذا نرى بانه قد الغيت في هذا التنظيم احكام نظام الالتزام في الامبراطورية العثمانية . كما نجد ان التنظيم الجديد قد وعد باصلاح الزراعة بواسطة تجنيد نسبة معينة فقط من اهالي كل بلدة ، عكس ما كان عليه النظام السابق (نظام الالتزام) الذي كان يأخذ من القرى في بعض الاحيان ، بعضا من اهلها المشتغلين بالزراعة وامورها ، مما اوجد خللا في شؤون الزراعة والتجارة معا ، وكان ذلك النظام قد ادى الى استخدام الذين يجندون للخدمة العسكرية طيلة حياتهم ، الامر الذي يعني قطع النسل والملل ، ولذلك وضعت نظم جديدة للخدمة العسكرية ، حددت فيها سنوات الخدمة من اربع الى خمس سنوات ، ونص فيها على المناوبة بين اهل القرية على هذا الصعيد . وبهذا يكون مرسوم التنظيمات لسنة ١٨٣٩ (خط كلخانة) قد الغى البدع ، والضرائب غير الرسمية التي كانت شائعة في سوريا وغيرها من الولايات العثمانية في القرنين السابع والثامن عشر .

واما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد نظمت الضرائب بفضل القوانين والانظمة التي اصدرتها الدولة في دور الاصلاح والتجديد ، فاصبحت ضرائب الاعشار والويركو والبدل العسكري ، ورسم الاغنام من الايرادات الرئيسية للامبراطورية في ولاية سوريا ، بالاضافة الى بعض الايرادات الثانوية مثل رسم الطابو والمحاكم والحاصلات المتفرقة وغيرها(٣٠) . كما باشرت الدولة بجباية الضرائب المترتبة على الفلاحين بواسطة موظفين معينين من قبلها ، حلوا محل الملتزمين والاقطاعيين . وكانت نظارة المالية مرجع هؤلاء جميعا ، على ان يتم التحصيل بواسطة دفتردار الولاية ومدراء المال فيها . ولكن الدولة لم تداوم طويلا على اتباع ذلك النهج ، لعدم وجود مأمورين قادرين على تحصيل الايرادات باهلية وامانة ، مما ادى الى اعادة نظام الالتزام ، وان تم الحد من اضراره(٣١) .

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، اذ سرعان ما راحت الدولة تصدر القوانين والانظمة والتعليمات المختلفة لاصلاح الاوضاع ، وكان من بين هذه القوانين التنظيمات الخيرية لاصلاح الادارة ، التي اتبعت بقانون الاراضي العثماني المؤقت في ٧ رمضان ١٢٧٤ هـ (١٨٥٨ م) ، والذي تلته ، في ٧ شعبان ١٢٧٦ هـ . (١٨٥٩ م) لائحة تعليمات بحق سندات الطابو ، ومن ثم تعريف نظام الطابو الصادر في (١٥ شعبان ١٢٧٦ هـ) (١٨٥٩ م) ، واعلان قانون الطابو في (٢٦ صفر ١٢٧٨ هـ) (١٨٦١ م) ، وملحق نظام الطابو في ١٧ محرم ١٢٨٤ هـ . (١٨٦٧ م) . ونظام تملك الاجانب في ٢٢ شوال ١٢٨٥ هـ ، (١٨٦٩ م) . وبموجب هذه القوانين جميعا ، حددت الملكية ، وفرض نظام الطابو (تسجيل الاراضي باسماء اصحابها) ، ومنح الاجانب حق التملك بعد ان كان محظورا عليهم ، في فلسطين كما في غيرها من اراضي الدولة العثمانية .

قانون الاراضي العثماني لسنة ١٨٥٨

كان عماد القوانين المذكورة جميعا ، قانون الاراضي العثماني المؤقت لسنة ١٨٥٨ م (٧ رمضان ، ١٢٧٤ هـ .) (والذي ــ رغم كونه مؤقتا ــ بقي ساري المفعول ، في فلسطين على الاقل ، لمدة تزيد على قرن من الزمن .) وقد قسمت الاراضي في الدولة العثمانية ، بموجب هذا القانون الى خمسة انواع عامة ، هي : ١ ــ الاراضي المملوكة ، او المحلات الحاصل بها التصرف على وجه التملك ، ٢ ــ الاراضي الاميرية (الميري) ، ٣ ــ الاراضي المتروكة . ٤ ــ الاراضي الموات . ٥ ــ الاراضي الموقوفة(٣٢) . وسنفصل فيما يلي لكل نوع من هذه الاراضي :

١ ــ الاراضي المملوكة ، « الملك » : وهذه جرى تقسيمها الى اربع :

أ ــ الاراضي الموجودة داخل القرى والاحياء ، وما يوجد في محيطها وخصصت للسكن وتعتبر مكملة له ، على ان لا تزيد مساحة كل منها على نصف دونم (٥٠٠ م٢) (واقتصرت على هذه المساحة ، وذلك من اجل منع البعض

من استغلال مساحة اكبر من الارض بجانب السكن ، على انها متممة له ، كونها معفية من الضرائب) ، او اللازمة لسد احتياجات هذا السكن مثل حفر بئر ، اماكن تخزين (المؤونة ، الحطب ، الخ) . اما الاراضي الاميرية التي تنشأ عليها محلات للسكن ، او تشاد عليها المدن والقرى ، فتبقى رقبتها لبيت المال ، بالرغم من أن الاحكام العثمانية السابقة ، كانت تعتبر الاراضي الاميرية التي يقام عليها بناء بحكم الملك[٣٣] .

ب ــ الاراضي الاميرية التي تحولت الى ملك ، وامتلكت تملكاً صحيحاً عن طريق الفرز ، شرط ان يحصل بها التصرف ، بناء على المصاغ الشرعي . وكان السلطان العثماني هو السلطة الوحيدة المخولة تمليك الاراضي الاميرية ، لقاء مبلغ من المال يدفع للخزينة ، وذلك بالقيمة الحقيقية للارض[٣٤] .

جـ ــ الاراضي العشرية ، التي جرى تملكها وتوزيعها عند الفتح الاسلامي لها ، او تلك التي بقيت في أيدي اصحابها الاصليين (في الحجاز والبصرة مثلا) .

د ــ الاراضي الخراجية ، وهي التي تقرر ابقاؤها في يد اهليها الاصليين من غير المسلمين ، على ان يدفعوا بدل الاعشار . وهذا ما سمي بالخراج وقسم بدوره الى قسمين : الاول ، خراج مقاسمة ، وهو الضريبة التي تحصل من حاصلات الارض ، وتتراوح بين عشر ونصف قيمة الحاصلات ، بحسب جودة الارض ونوعيتها ، والثاني الخراج الموظف ، وهو عبارة عن مبلغ معين من المال ، يؤخذ بوجه القطع على قطعة معينة من الارض ، سواء زرعت ام لم تزرع[٣] .

وبموجب قانون الاراضي العثماني اصبحت رقبة الاراضي المملوكة كافة ، اي ذاتها وملكيتها ، عائدة الى الشخص الذي هو صاحبها ومالكها ، ويسري عليها حق الارث والوقف والرهن ، مثل باقي الاموال المنقولة وغير المنقولة . (ولكن في حالة وفاة المالك من غير وارث شرعي ، فان هذه الاراضي تعود رأسا الى بيت المال ، وتجري عليها احكام الاراضي الاميرية الآتي ذكرها) . ولصاحب الملك ان يمارس كامل حقوقه الملكية بارضه ، وفعل ما يراه مناسبا بشأنها ، دون ان يحق لاحد ان يعترض او يتدخل في شؤونه ، الا اذا نجم عن تصرفه ما قد يسبب العطل والضرر لاموال الآخرين[٣٦] . كما ان له حق التصرف بتخصيص هذا الملك للوقف بالصورة التي يراها ، وبحسب الشريعة الاسلامية[٣٧] .

وكانت معظم الاراضي المملوكة في سوريا ، بما فيها فلسطين ، حتى تلك الفترة من النوع الاول ، وهي تلك الارض الواقعة داخل القرى والاحياء والمدن والمحيطة باماكن السكن . كما كانت هنالك ساحات من هذا النوع من الاراضي المفصولة من اراضي السلطان (التاج) ، والمأخوذة اصلا من الاراضي الاميرية لتصبح ملكاً والتي كان يدفع ثمنها لبيت المال في الاوقات السابقة ، عندما كانت الخزينة بحاجة ماسة الى المال . وكان صاحب الارض الميري الذي باستطاعته ان يدفع قيمة الارض في تلك الفترة لبيت المال ، يحصل على الملكية ، وعلى شهادة « قوشان » او « حجة » ، تثبت ذلك[٣٨] .

٢ ــ الاراضي الاميرية : وهي تلك النوع من الاراضي الذي تعود ملكيته لبيت مال المسلمين ، من الاراضي الزراعية ، والمراعي والغابات وامثال ذلك ، التي كان يحصل بها التصرف مقدما ، عند وقوع الفراغ والمحلول ، وذلك باذن وتفويض اصحاب الاقطاع (الزعامات والتجار) ، الذين كانوا يعتبرون اصحابا للاراضي ، وفي بعض الاحيان بالاذن والتفويض من الملتزمين والمحصلين . وبما ان هذا الحق قد الغي ، اصبح التصرف بهذه الارض هو للدولة ، فتبيع منها ما تريد ، وذلك بموجب سند طابو[٣٩] . واوضح قانون الاراضي المشار اليه سابقا ، كيفية التصرف بهذه الاراضي ، حيث منع احالة كامل الاراضي في القرية او القصبة وتفويضها الى هيئة جماعية دفعة واحدة ، « قلما واحداً » ، او الى شخص او اثنين منها ، بل تحال الاراضي لكل شخص من الاهالي على حدة ، وتعطى سندات طابو لكل شخص منهم مبينا فيها كيفية التصرف بهذه الارض[٤٠] . ولصاحب الميري (مالكها) الحق باستعمالها على الوجه الذي يراه مناسبا في معظم الحالات ، من زراعة وحراثة ، ولكن يحرم عليه في بعض الاحيان زراعتها كروما ، او تخصيصها للوقف دون اذن الدولة او ممثلها (المأمور)[٤١] . كما كان بالامكان ابطال مثل هذه الحيازة عمليا لعدة اسباب : اولها التقاعس عن زراعة تلك الارض لمدة من الزمن (عادة ثلاث

سنوات) ، او عدم تسديد الضرائب والرسوم عنها(٤٢) ، كما منع الاجانب من تملك هذه الارض ، او زراعة الاشجار فيها او تطعيمها ، خاصة اذا كانت في تصرف شخص معين ، واذا حصل وزرع الاجنبي الارض او عمل على تطعيمها ، فلصاحب الارض ، وبواسطة المامور ان يقطع تلك الاشجار(٤٣) . وهكذا فانه يمكن التفريق بين الاراضي الملك والاراضي الميري ، فالاولى تتحول الى محلول وتعاد الى بيت المال في حالة واحدة وهي ، وفاة المالك (دون ورثة ؛ حيث تبقى في نظر القانون ملكا تحول الى السلطة . اما الثانية فانها تتحول الى محلول للدولة ، او بيت المال ، وذلك اما بتركها مدة ثلاث سنوات متوالية ، او ان المالك توفي دون ان يترك وريثا ذا علاقة مباشرة به . هذا وينبغي الاشارة الى ان اراضي فلسطين اعتبرت اميرية ، بموجب الارادة السنية الصادرة في ١٨٦١ (١٨ رجب ١٢٧٨ هـ) . والمتعلقة بولاية الشام(٤٤) ، والتي خصصت لكل قرية قسما من اراضيها واحالت الباقي للمزاد العلني .

٣ ـ الاراضي المتروكة : وهذه تقسم الى قسمين : الاراضي المتروكة المحمية وهو ما لا يجوز تملكه ، مثل الطريق العام او ما شابه ذلك ، والاراضي المتروكة المباحة ، وهي المخصصة لمجموع اهالي احدى القرى ، او مجموعة من القرى ، مثل اراضي الأحراش ، والمراعي والساحات والاسواق العمومية او الموسمية ، او المساجد والبيادر وما شابه ، مما هو للنفع العام . ولقد فصل القانون كيفية استعمالها والاستفادة منها ، كما نص على انه لا يجوز الاخذ بمرور الزمن في الدعاوى المتعلقة بهذا النوع ، والتي تركت وتخصصت منذ القديم للأهالي(٤٥) . ولقد كان هذا النوع من الاراضي في الاصل « ميري » ، تحول الى متروك من اجل الفائدة العامة ، ولما كانت كذلك فللعامة الحق في الاستفادة منها فقط دون استعمالها لغايات اخرى كاغراض الزراعة او السكن فيها(٤٦) .

٤ ـ الاراضي الموات : وهي الاراضي الخالية والبعيدة عن العمران كالجبال ، والنقار ، والمراعي ، والتي لم تكن في تصرف احد بالطابو ، ولم تخصص من القديم لاهالي القرى والاحياء ، والتي تبعد عنها بدرجة لا تسمع بها صيحة الرجل الجهير . وهذه الاراضي مشاع للجميع ، ويستطيع السكان الانتفاع بها بأذن المامور في المنطقة . وكانت الدولة تمنح هذه الاراضي بلا مقابل للاهالي شرط استثمارها ، دون ملكيتها ، الا بالاذن السلطاني(٤٧) .

٥ ـ الاراضي الوقف : نظرا لما للاوقاف من علاقة مباشرة بنظام الارض والزراعة ، ولكونه لعب دورا كبيرا خلال الفترات السابقة بالنسبة لنظم الارض ، فلا بد لنا من القاء نظرة مفصلة بعض الشيء عن الاوقاف بصورة عامة .

ففي بداية العصر الاسلامي ، جرت العادة بتوجيه ريع املاك الوقف الى المؤسسات الدينية في مكة والمدينة ، وكذلك الاشراف على تلك الاملاك ، من قبل المسؤولين عن حماية هذه الاماكن في المدينتين(٤٨) . وكانت الاوقاف تدار ، حتى سنة ١٠٢٠ هـ . (١٦١٠ م) من خلال الاعتماد على احكام الفقه ، ولها قانون ينظمها سمي « قانون الايجارتين » واعتمد قدر الامكان على الشريعة الاسلامية(٤٩) . وقد تكونت معظم املاك الوقف في القرن السادس عشر ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، الذي اقر شرعية تحويل اراضي الدولة (الميري) الى الاوقاف . وقد تشكل هذا النوع من الملكية (الاوقاف) في البداية ، من الاراضي التي حددها السلطان سليمان ، والسلاطين والحكام الذين تبعوه ، او تلك التي خصصها بعض الاغنياء للوقف من وقت لآخر ، او الفلاحين فيما بعد ، من اجل الهروب من دفع الضرائب والرسوم ، ومن اجل الحماية . وكان الهدف من ايجاد مؤسسات الوقف هو الانفاق على الاماكن الدينية ، او التـي تخدم اغراضا دينية كالمدارس او الاماكن المقدسة ، وكذلك الانفاق على الفقراء ، او على شؤون دينية اجتماعية قومية ، مثل تمويل عمليات الدفاع عن ساحل البحر المتوسط اثناء الغزو الصليبي ، ودفع الفدية عن الأسرى من المسلمين ، او جر المياه او بناء المستشفيات او المساجد والمدارس(٥٠) .

ولكن ، مثلما دب الفساد ، وتسرب الى معظم اجهزة الدولة ومصالحها ، فقد اصاب ايضا الاوقاف ، لا سيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حيث تسلم ادارة الاوقاف اشخاص غير مؤهلين ، ولوضع حد له في هذا المجال ، عملت الدولة على منع نقل ملكية الاوقاف ، الا بموافقة السلطان او من كان يمثله ، وخولت الدولة حق الاشراف المباشر على الاراضي الوقفية . ولكن الفساد المستشري حال دون تطبيق مثل هذا الاصلاح ، حيث تسلم

الاشراف على الأوقاف قادة (سباهية) الجيش ، او بعض الاسر الغنية التي كانت تتنافس فيما بينها على ادارة الوقف باللجوء الى كل الاساليب الممكنة من تحايل ورشة وغيرها(٥١) ،، لما في ذلك من مكاسب شخصية قد يجنيها مثل هؤلاء الذين يتولون الاشراف على املاك الوقف . وهذا ما زاد في تفشي الفوضى في ادارة الاوقاف ، خاصة في نهاية القرن الثامن عشر ، حيث اهمل نظار الاوقاف مباشرة سلطتهم ، وانصرفوا الى عمليات الاختلاس ، وتحويل املاك الوقف الى املاك شبه خاصة ، وذلك عن طريق القوة والخديعة او الرشوة(٥٢) .

وازاء الفساد المستمر ، حاولت الدولة العثمانية اعادة النظر في وضع الاراضي الوقفية ، وذلك من خلال قانون الاراضي العثماني ، فقسمتها الى قسمين ، اولهما الاراضي التي كانت أساساً من تلك المملوكة ملكاً صحيحاً ، واوقفت الى الشرع الشريف . وتكون رقبة مثل هذه الاراضي الموقوفة وجميع حقوق التصرف بها عائدة الى الوقف ، ولكون المعاملات القانونية لا تجري عليها ، ينبغي ان تعامل بموجب شرط الواقف مهما كان . وليس من اختصاص القانون العام البحث في هذا النوع من الأراضي الموقوفة(٥٣) ، اما القسم الثاني فهو الأراضي المفرزة اصلا من الاراضي الاميرية التي اوقفها السلاطين بالذات ، او آخرون ، بالاذن السلطاني . ووقفية هذه الاراضي ، هي عبارة عن تخصيص منافع قطعة مفرزة من الاراضي الاميرية ، مثل اعشارها ورسوماتها لجهة ما (مسجد ، مدرسة ، الخ) من طرف السلطنة العثمانية ، وعليه لا تعتبر هذه الاراضي من الاوقاف الصحيحة ، اي تلك التي للوقف كامل الحق فيها ، اذ يقتصر ذلك على الاعشار والرسوم والضرائب ، ولقد كانت معظم الاراضي الموقوفة في الدولة العثمانية من هذا النوع ولما كانت هذه الاراضي موقوفة من اجل تخصيصات معينة فقط ورقبتها عائدة لبيت المال ، يجري عليها حسب القانون الجديد ما يسري على الارض الاميرية ، من رسم فراغ وانتقال او بدل محلول(٥٤) ، ولزيادة التنظيم ، اصدرت الدولة ، مجموعة اخرى من القوانين من أجل ادارة الاوقاف واصلاحها(٥٥) .

قانون تسجيل الاراضي (الطابو) في فلسطين

مع بداية تأسيس الدولة العثمانية ، كان حق التصرف بالارض يثبت باوراق او سندات ، او بواسطة حجج شرعية مصدقة من القضاة . ولم يكن على كل حال ، لهذه الحجج او السندات اي قيمة فعلية ، فاذا ضاعت من يد المالك لا يحفل بها كثيراً لأن المهم آنذاك هو وضع اليد على الارض واستغلالها ، واذا حدث خلاف ما ، كان اهم دليل على الملكية (وضع اليد ، التعرف) شهادات الشهود من القرية او المزرعة(٥٦) . وكانت الأراضي الاميرية تمنح ، من قبل المتصرفين ، او اصحاب الاقطاعيات (الزعامت والتيمار) ، حتى سنة ١٢٥٥ هـ . (١٨٣٩ م). عندما الغي نظام الاقطاعيات ، واصبحت السندات تعطى من قبل الملتزمين والمحصلين . والملتزمون هم متعهدو الاعشار بالاراضي الاميرية ، اما المحصلون فهم المخولون ، من قبل المتصرفين بالاراضي ، لجمع الضرائب وملاحظة ما من شأنه ، ان يمس بمصالح الخزينة العامة على الاراضي الاميرية(٥٧) . اما بعد العام ١٨٥٨ م ، وهي السنة التي صدر فيها قانون الاراضي ، فقد انحصر حق اعطاء السندات بمأموري بيت المال ، ومن ثم ، وبعد ان اسست دوائر الطابو ، اصبحت معاملات التصرف والتملك جميعها محصورة بها وحدها ، وليس لغيرها الحق باعطاء مثل تلك السندات الموشحة بتوقيع « الطغراي الهمايوني » اي الختم السلطاني .

وكان الهدف من صدور قانون الاراضي العثماني المؤقت لسنة ١٨٥٨ م ، احكام سيطرة الدولة على اراضيها ، ووضع حد للفساد الذي كان سائداً قبل صدور ذلك القانون . ولذلك نص قانون الاراضي على تقسيم الارض في الدولة العثمانية ، وتصنيف كل نوع منها وتعريفه . ومن اجل دعم هذا الاتجاه ، واحكام سيطرة الدولة على الاراضي والتاكد من جباية الضرائب عنها ، تتابعت القوانين والتعليمات المكملة لذلك القانون والمفصلة له ، والمتعلقة بالاراضي وعملية تمليكها . ففي العام ١٨٥٩ م ، اصدرت الدولة انظمة بحق سندات الطابو ، وهي عبارة عن بعض التعليمات الداعية الى تسجيل الاراضي ، واعطاء السندات ، والصكوك الرسمية لمريدي تملك الاراضي واصحابها . كما نصت تلك التعليمات على « حفظ حق المالك والمتصرف » . وقطع هذا القانون بانه لا يمكن لاحد ان يتصرف باراض اميرية ، بغير سند ، على اي صورة من الصور(٥٨) . كما حدد القانون بدل مثل هذه السندات بما قيمته اربعة قروش (ثلاثة قروش ثمن سند وقرش بدل قلمية)(٥٩) . كما شدد القانون على ان ما سماه الاراضي المكتومة (وهي تلك التي لم يعلن عنها اثناء التسجيل ومن اجله) ، لاكثر من ستة اشهر من وصول

السندات الى اماكن توزيعها بغير عذر شرعي ومقبول رسميا ، ستحال من مالكها او المتصرف فيها الى المزاد(٦٠) . وقد نص القانون ايضا على انه اذا كان انسان ما يزرع ارضا اميرية او موقوفة ويتصرف بها لمدة عشر سنين بدون منازع ، يكون حق قراره ثابتا له ، سواء كان بيده سند معمول به او لم يوجد ، ولا ينظر الى تلك الارض بنظر المحلول ، بل يلزم ان يعطي ليده سند تملك(٦١) . اما من كان حق ملكيته ثابتا بارض ما ، ولم يوجد بيده سند ، فيؤخذ منه خمس قروش عن كل مائة قرش من قيمة الارض ، ويعطى له السند بناء على ذلك . اما اذا زادت فترة التسجيل عن ستة اشهر ، فان رسم الخرج يضاعف الى عشرة(٦٢) . كما تضمن القانون ايضا بعض التعليمات المتعلقة بالجفالك (الاراضي المدورة) ، وهي عبارة عن مجموع الابنية والحيوانات والفدن والبساتين ، وباقي الاملاك والاراضي الاميرية المزروعة والتابعة للسلطان ، التي يحدد خرجها ايضا بخمسة قروش لكل مائة قرش من قيمة الارض ، اذا كانت خالية من المزروعات الشجرية ، واما اذا كانت مشجرة فيؤخذ زيادة على ما ذكر ، قيمة ما تساويه في الحالة التي تكون عليها(٦٣) . كذلك حاول القانون تشجيع السكان على استغلال الاراضي البعل (البور) والبعيدة عن العمران ، وذلك باعطائها مجانا لمن يطلبها(٦٤) .

واعقب هذا القانون ، وبعد اسبوع فقط من صدوره ، بآخر اكثر تفصيلا ، للغاية ذاتها . وعلى اي حال ، فقد كانت هذه القوانين بمثابة تمهيد لعملية اعلان قانون نظام الطابو الذي اصدرته الدولة في ١٨٦١ م (٢٦ صفر ١٢٧٨ هـ) ، وذلك من اجل ضبط وتعيين حدود الاراضي وتسجيلها باسم اصحابها . واعتبر هذا القانون مأموري المال (الدفتردارية) ومديري الاقضية والمالية بحكم اصحاب الارض ، وخولهم صلاحية تسجيل الاراضي واحالتها لطالبيها . كما نظم عمليات نقل الملكية من شخص لآخر ، وحدد رسوم التسجيل بالنسبة للارض المنوي تسجيلها ونوعها .

وتتابعت بعد ذلك ملاحق نظام الطابو ، بصورة تكاد تكون دراماتيكية ، حيث صدر نظام توسيع انتقالات الاراضي الاميرية والموقوفة عام ١٨٦٨ م ، (١٧ محرم ١٢٨٤ هـ) وذيله في العام ١٨٧٣ م (٢٩ ربيع الثاني ١٢٨٩ هـ)، وكذلك قانون توسيع المسقفات والمستغلات عام ١٨٦٩ م (٢ ذي القعدة ١٢٨٥ هـ) . وقد اوضحت هذه القوانين ، حق الورثة في الاراضي والمساكن والعقارات ، وكذلك الاراضي الاميرية والموقوفة ، الحاصل بها التصرف ، وحددت مرتبات الارث في ذلك(٦٥) . ومن ثم صدر نظام تملك الاجانب عام ١٨٦٩ (٢٢ شوال ١٢٨٥ هـ) . والذي سنوضحه فيما بعد .

وعلى اي حال ، ان ما يهمنا في هذه الدراسة ، ليس القوانين العثمانية بحد ذاتها ، بقدر ما كان لهذه القوانين من نتائج ـ سلبا ام ايجابا ـ على حقوق الملكية في ارض فلسطين ، موضوع دراستنا ، وما هي الظروف والوسائل التـــي تم بها تطبيق تلك القوانين ، وبالتالي ما هو اثرها على الفلاحين في فلسطين وملكيتهم للارض .

وكما هو معلوم ، كانت الامبراطورية العثمانية ، بحسب قانون الولايات العام ١٨٦٤ م مقسمة اداريا الى ولايات ، وعلى رأس كل ولاية حاكم يدعى الوالي . وكانت كل ولاية مقسمة بدورها الى مناطق يطلق عليها اسم سناجق ، وعلى رأس كل سنجق منها متصرف . وكانت السناجق ايضا مقسمة الى اقضية وعلى رأس كل منها قائمقام ، والاقضية بدورها الى نواحي يديرها ما سمي بمدير ناحية . وكانت فلسطين ، في تلك الفترة ، مقسمة الى ثلاث سناجق ، هي : ١ ـ سنجق عكا ويشمل اقضية عكا وحيفا وصفد والناصرة وطبريا . ٢ ـ سنجق نابلس ، الذي عرف بأسم سنجق البلقاء حتى العام ١٨٨٨ م ، ويتبع منطقة البلقاء في شرق الاردن ، وبقي على حاله الى ان استقل واتبعت به اقضية نابلس وجنين وطولكرم . ٣ ـ سنجق القدس ، ويشمل اقضية القدس ويافا وغزة والخليل وبئر السبع . وكانت هذه السناجق ، في البداية ، تتبع ولاية دمشق حتى ١٨٨٧ حين استقلت بيروت كولاية لتتبع العاصمة (الآستانة) مباشرة ، والحق بها كل من سنجقي عكا ونابلس في العام ١٨٨٨ م . اما سنجق القدس فقد حصل هو ايضا على استقلاله ثم تبع العاصمة (الآستانة) مباشرة ، بحسب فرمان اصدره السلطان عبد الحميد الثاني ، في العام ١٨٨٧ م(٦٦) .

على اية حال ، عندما بدىء بتسجيل الاراضي بواسطة دوائر تسجيل الاراضي ، التي اطلق عليها اسم « الدفتر خاقاني » ، كانت فلسطين تتبع دائرة تسجيل دمشق ، التي لم يكن يوجد غيرها في بلاد الشام (ولايتي بيروت

والشام) » . واستمر الوضع كذلك حتى العام ١٨٩١ م . ولكن بناء على معلومات يوردها غرانوت فانه لم تبق هناك اراض عامة في منطقة دمشق ، وكذلك في عدة مناطق في سوريا وفلسطين(٦٧) ، حين انشأت دائرة تسجيل مستقلة في بيروت ، تتبع دفتر خاقاني العاصمة مباشرة(٦٨) . فكانت النتيجة ان تحول تسجيل الاراضي في كل من سنجقي عكا ونابلس الى دائرة تسجيل اراضي بيروت .

ولكن تسجيل الأراضي (تطويبها) في فلسطين لم يبدأ عمليا الا بين الاعوام ١٨٦٨ ـ ١٨٧٣ م(٦٩) . اي بعد صدور نظام الطابو باكثر من سبع سنوات . واستمرت عمليات التسجيل حتى نهاية العهد العثماني ، دون أن يتم تسجيل كافة الاراضي ، بعد ان اقتصرت تلك العمليات على مناطق دون اخرى وبمساحات محدودة . واذا ما حصلت عملية التسجيل فأن المسجل لم يكن يسجل او يؤكد ، في اي فترة ، على وحدة اقليمية متكاملة أو حتى في حدود قرية كاملة. وكانت النتيجة ، ان دفاتر الطابو لم تشر الى حالة ملكية الارض تماما(٧٠) ، كان التسجيل يتم عادة بذكر الارض المسجلة ضمن حدود معينة ، تعتبر ملكا للمالك المسجل ، حيث كانت الارض تسجل ، وتحدد ، على سبيل المثال ، اما ضمن طريق عام ، او جبل ، او تلة وما شابه ذلك(٧١) .

وهذا النقص في التسجيل العام ، الخاص بملكية الفلاحين ، دفع هؤلاء الى وضع لم يركزوا معه انتباههم الى ضرورة الحصول على التاكيدات الرسمية باثبات حقوقهم بسندات ، فاهملوا عمليةَ التسجيل . فكان البدوي عندما يقال له ، على سبيل المثال ، انه بالطابو يؤيد حقه في الارض ، يشير الى سيفه ويقول « بهذا لا بغيره يؤيد الحق »(٧٢) ، وهذا راجع اما الى جهل الفلاحين بالقوانين من جهة وعدم الاهتمام بالتسجيل من قبل الدوائر الرسمية نفسها ، من جهة اخرى ، واما الى شكوك الفلاحين ، في التسجيلات الرسمية ، بعامة . كما وجد الفلاحين في مثل هذا القانون والامتناع عن تسجيل اراضيهم بموجبه عذرا من اجل الامتناع عن دفع الضرائب والمدفوعات الجديدة للدولة ، مما دفع بالكثيرين منهم الى انكار حقوق ملكيتهم للارض ، ليتجنبوا دفع الضرائب والرسوم التي يفرضها القانون الجديد .

ومع تشدد التنظيمات العثمانية الخاصة بتسجيل الأراضي ، ازداد التردي في اوضاع الفلاحين ، اذ اعتبرت الدولة مالكة لرقبة الاراضي الزراعية ، التي يقتضي تسجيلها فرض رسوم وضرائب جديدة عليها ، عدا عن ثمن البدل والاعشار ، التي كانت تستوفى عينا ، كذلك وضعت السلطات قيوداً على بعض الاراضي ، ومنعت انتقالها بالوراثة او التوصية بها لأحد ، « مما حدى بالكثير من القرى للتنازل عن املاكها لاصحاب النفوذ من أجل حمايتهم من الظلم اللاحق بهم ، نتيجة بطش الحكام والمرابين ، واخذوا ثمنها بضع عباءات وغلايين ، او قفة من البن او رطلا من الدخان او اقة من البقلاوة »(٧٣). واتبع بعض الفلاحين اسلوبا آخر ، وذلك بالتقليل من مساحة اراضيهم المزروعة عند تسجيلها ، وذلك تهربا مما قد يترتب على مسجلي المساحات الواسعة من ضرائب ، وخوفا من ان يكون التسجيل بمثابة مقدمة للرديف (نظام روماني ؛ كان يفرض الضرائب الكثيرة على اصحاب المساحات الواسعة ،) وذلك بفرض ضرائب مالية باهظة على اصحاب الاراضي ، وما يتبع ذلك من التزامات مالية وعسكرية نحو الدولة(٧٤) .

ومن سيئات هذا القانون ايضا ، انه اوكل الى المتصرفين في الالوية والسناجق تشكيل لجان خاصة للقيام بعملية المسح والتطويب . وكان من ضمن اعضاء تلك اللجان مخاتير القرى او المتنفذين فيها ، والذين كانوا يكلفون بوضع لوائح باسماء سكان القرية واراضيها . ولسنا بحاجة الى الاطالة ، في كيفية عمل هذه اللجان ، والتي غالبا ما كانت تقوم بتسجيل الاراضي اعتباطيا او نظريا ، وفي احيان كثيرة بعيداً عن الارض المنوي تسجيلها . واذا حصل وحضرت هذه اللجان الى مكان التسجيل فيكون تقدير الارض بالنظر ، بالعين المجردة ، من قبل اللجنة . واذا اختلفت التقديرات بشأنها فتتم التسوية ، اما بترجيح رأي الاغلبية فيها ، او تكون الخطوة والحبل هي الوسيلة للقياس والتسجيل ، او تعلق العملية كلية(٧٥) . وعليه فان نسبة قليلة فقط من السكان قامت بتسجيل اراضيها ، وكانت اغلبية هؤلاء من الذين لا يخضعون لقانون الخدمة العسكرية ، حيث سجلت الارض اما باسم رجل ميت ، او على اسم شخص وهمي ، او تجار محليين او نساء ، او المشايخ الذين كلفتهم الدولة جمع الضرائب(٧٦) .

وكان الفلاح الفلسطيني ، في تلك الفترة ، يئن من العجز المالي نتيجة تراكمات الضرائب والرسوم والديون .

ومع صدور هذا القانون ، وفي حالات كثيرة ، دفع عدم مقدرة الفلاح على دفع بدل التسجيل الذي بلغ ٥٪ من قيمة الارض ، الحكومة العثمانية الى عرض هذه الاراضي للبيع بالمزاد من اجل استيفاء ديونها . ولذلك فاننا لو نظرنا الى عمليات تسجيل الارض ، سنجد انها اتصفت بالخلل الفاحش ، عدا عن التلاعب وعدم الضبط والتنظيم . ولقد كانت الغاية الرئيسية المعلنة لهذه القوانين ، هي «تقدم الزراعة ونجاح البلاد ، وغنى الخزينة » . ولكن الحقيقة هي غير ذلك ، فقد كانت الغاية الحقيقية لهذا القانون ولغيره من القوانين اللاحقة تحديد ملكية الارض للأفراد ، من اجل جمع اكبر قدر ممكن من المال لصالح الخزينة ، مما ادى الى ارهاق الفلاحين زيادة على ما هم فيه من بؤس ، نتيجة البدل والضرائب والرسوم المترتبة على عملية التملك والتسجيل . ولذلك لم تكن عملية التطويب هذه ، في حقيقة الامر ، الا غطاءا مباشرا لتحصيل المال تحت كل الظروف ، حتى لو اضطر الفلاحون الى بيع اراضيهم . وهكذا فقد كانت الدولة هي الرابح الاكبر ، اذ ان ما يلفت النظر في هذا المجال هو وجود ظاهرة غريبة ومتناقضة مع تسجيل الاراضي ، ونعني بها توجه الدولة الى شراء الاراضي الزراعية على نطاق واسع ، والحاقها بالاملاك السلطانية . فقد اشترت الدولة الارض بثمن بخس جداً يقل في معظم الاحيان عن قرشين للدونم الواحد(٧٧) . والامثلة على ذلك كثيرة ، ففي فلسطين ملك السلطان مساحات شاسعة ، من اجود المناطق الزراعية واخصبها ، منها على سبيل المثال ، مناطق بيسان والحولة والبحر الميت ، ومن ثم منحها لضباط عسكريين من اجل الاشراف عليها(٧٨) .

نشوء الملكيات الكبيرة

حتى بداية تاريخ تسجيل الاراضي في فلسطين ، في الستينات من القرن التاسع عشر ، كان هناك قلة من الناس تملك ارضا خاصة . وكانت هذه الملكيات غالبا قريبة من المدن ، ومعظمها اعتبر مكملا للسكن . واعتبرت اراضي فلسطين ، اراض اميرية ، تملك الدولة رقبتها ، بحسب نص الارادة السنية الصادرة في ١٨٦١ م (١٨ رجب ١٢٧٨ هـ) ، والمتعلقة باراضي سوريا وفلسطين والتي ملخص نصها : « لما كانت ولاية الشام في الأصل من الأراضي الخراجية التي انقرض معظم اصحابها على مرور الزمن دخلت قانونا في عداد الأراضي الاميرية ، ومع انه كان من الواجب اجراء احكام القانون المذكور [قانون الاراضي] ونظام الطابو بحقها الا ان ايالة الشام ، لم تباشر بتطبيق النظامات المذكورة ، مما سبب اختلافا وتنوعا في طرق زراعتها . وحيث ان لكل قرية اراض تزيد كثيرا عما كان بامكان اهلها زراعته ، اصبح من اللازم اعطاء مقدار كاف ، لأهاليها من الاراضي التابعة لها ، ووضع الزائد بالمزاد العلني ، واحالته للطالبين المحليين او المجاورين ، وذلك مما يؤدي الى تقدم الزراعة ونجاح البلاد وغنى الخزينة »(٧٩) .

وعليه فان ملكية الاراضي الكبيرة في فلسطين كانت متاخرة في تطورها ، إذ تبلورت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقط ، وذلك بعد صدور قوانين الاراضي ونظام الطابو . وحتى ذلك التاريخ ، لم تكن تسجل الاراضي في العادة ، كما لم يكن بحوزة المالكين سندات رسمية تثبت ملكيتهم . وظل حق ملكية الأفراد للأرض قائما فقط على ملكية الارض بزراعتها ، بينما اعتاد الفلاحون ، الذين كانوا يزرعون الارض ، على عدم الحاجة الى صكوك ملكية ، كدليل شرعي على حقهم في الارض ، التي عاش فيها اسلافهم وسكنوها لأجيال عديدة ، والتي ورثوها عنهم دون الحاجة الماسة للرجوع الى مثل تلك السندات ، وذلك عدا عن ان الارض كانت «موجودة بكثرة ، ولكل من يرغب في زراعتها .

وعلى اية حال ، فحتى صدور قانون الاراضي العثماني ونظام الطابو ، اللذين الغيا ما قبلهما ، كان ساريا في اغلبية اراضي فلسطين ، ما يسمى بنظام المشاع ، وهو عبارة عن ملكية جماعية لعدد من السكان المتعاونين فيما بينهم على الانتفاع بتلك الاراضي . وكان هؤلاء السكان ينتمون في العادة الى قرية معينة ، وفي بعض الاحيان كانت تلك المساحات تقسم بينهم ويعاد تقسيمها كل فترة زمنية معينة(٨٠) . ولقد تطورت صيغة ملكية الجماعة للأراضي المشاع على نحو قسمت فيه الأراضي المشاع لقرية معينة الى عدد من الاسهم ، يحصل كل من في القرية من الرجال على واحد منها او اكثر ، وكانت القسمة تجري احيانا على يد شيخ القرية (كبيرها) او كبير كل عائلة فيها . وفي حالة موت احد حاملي الاسهم ، فان السهم تلقائيا ينتقل الى ورثته . وبهذه الطريقة كانت تعاد قسمة الاسهم في الاجيال المتلاحقة . ونظرا لموت بعض حاملي الاسهم دون ورثة ، او زيادة عدد الورثة في حالات كثيرة ، فقد كان

يطرأ على عملية القسمة هذه بعض الخلل ، مما يوجب اعادتها(٨١) . اما لجهة الورثة من النساء ، فغالبا تحول اسهمهن اما الى الاخوة الذكور ، او الى الازواج الذين قد يكونون اغرابا في بعض الاحيان . وهكذا كان الحال في كل قرية او عشيرة ، او مجموعة من العشائر ومن خلال هذا الترتيب وفي ظل نظام الملكية الجماعية هذا ، يظهر بوضوح ان كمية الاسهم متغيرة بشكل دائم تقريبا ، وبالتالي تظهر استحالة بيع الاسهم خارج حدود تلك القرى . ويضاف الى ذلك الكثير من الفوائد الاخرى ، الناجمة عن عدم الثبات في الملكية الشخصية ، الذي يحد من امكانات تشكيل الملكيات الكبيرة ، وذلك عدا عن الاذلال من الظلم اللاحق بالفلاحين نتيجة ذلك .

ومع صدور الانظمة الجديدة التي شددت على تسجيل الارض باسم اشخاص معينين ، سجل معظم سكان القرى في فلسطين اراضيهم اما باسمائهم او باسماء التجار والمرابين وجامعي الضرائب ، او باسماء المتنفذين من القرى . ونجد ، مثلا ، ان اكثر من قرية قد سجلت اراضيها باسماء ثلاثة الى اربعة اشخاص فيها، الامر الذي ساعد ، الى جانب مجموعة من العوامل الاخرى ، السياسية ، والاقتصادية ، على تشكل الملكيات الكبيرة في فلسطين . فمثلا ، منذ نهاية القرن الرابع عشر ، سيطر العرب الافندية ، الاغنياء في الرملة ، بحجة حقهم كأول ساكنين ، على الاراضي المجاورة للبلدة ، حيث كروم الزيتون ذات القيمة الرئيسية ومصدر غنى البلدة (٨٢) . ولم يشكك احد بهذا الادعاء طوال العهد العثماني الذي اعتمد اقطاعياتهم هذه من اجل جمع الضرائب والرسوم . وقد جاء قانون الطابو الجديد ورسخ ملكياتهم تلك ، الى جانب ملكيات العائلات التي تعود ملكياتها الى عهد المماليك او ما قبله .

وقد كان هؤلاء في الأصل اما اصحاب اقطاع لجمع الضرائب والاعشار المترتبة على مناطقهم من الفلاحين ، واما مسؤولون عن الاشراف على اموال الوقف الاسلامي .

ومثل اولئك كان حال معظم عائلات فلسطين البارزة ، والتي ملكت مساحات كبيرة من الارض من امثال آل النشاشيبي والحسيني والرافعي في القدس ، والتميمي في الخليل ، والجيوسي في طولكرم ، وعبد الهادي وجرار في منطقة نابلس وجنين ، وكذلك طوقان في نابلس والتاجي الفاروقي في الرملة ، والشوا في غزة ، وأبو خضرة في يافا وغزة . وقد ملكت هذه العائلات المساحات الشاسعة ، التي تم توكيدها بقانون الطابو الصادر فيما بعد . فوضع اليد بصفة دائما على بعض المناطق باسم جمع الضرائب والاعشار ، او حماية الاوقاف ، ادى في نهاية الامر الى تملك هذه العائلات ، مساحات تراوحت بين ٥٠ ـ ١٠٠ الف دونم لكل منها(٨٣) . ومع صدور قانون التملك (الطابو) جاءت الفرصة المناسبة لهذه العائلات من اجل تأكيد شرعية وضع اليد على الاراضي ، وذلك بتسجيل ما كانت قد وضعت يدها عليه باسمها . ومن ناحية ثانية ، ساهمت عوامل اخرى في نشوء الملكيات الكبيرة في فلسطين اقلها الرشوة وفساد الادارة ، وجهل الفلاحين بما يجري او عدم اكتراثهم به ، ما داموا مطمئنين لوجودهم في الارض وتصرفهم فيها . ونتيجة لكل تلك الاسباب مجتمعة ، اخذ نظام ملكية الارض في فلسطين ، بعد صدور نظام الطابو ، طابعا مميزا حيث سيطرت عائلات محدودة على مساحات واسعة من الاراضي . فقد تملك حوالي ٢٥٠ فقط ما يقرب من اربعة ملايين دونم من الارض ، بما فيهم رؤساء العشائر والحمائل ، والذين هم في الغالب زعماء لاحزاب سياسية(٨٤) . وفوق ذلك ، فلقد برزت خلال الحكم العثماني ، وجوه اقطاعية او عشائرية او متنفذين جدد ، زيادة على ما ذكر ، حاولوا هم ايضا زيادة مكتسباتهم بالحصول على بعض الاقطاعيات حيث الرشوة والمال وفساد الادارة ، قادرة على عمل اي شيء ، كما ان الفترة السابقة لصدور قانون الاراضي ، وقانون الطابو التي اتصفت بالفوضى التي لا حدود لها ، واختلال النظم والقوانين ، والظلم والتخريب الذي لا حد له ، جعلت من الفلاحين فريسة لتلك الاوضاع ، وادت بهم اما الى ترك الارض او الى تسليمها لاحد المتنفذين القادرين ، ونجاتهم من ظلم الملتزمين وجامعي الضرائب وغارات البدو ، او تنازلهم الكلي عن الارض مقابل بقائهم فيها واستغلالها لقاء قسم من المحصول .

ومع ان قسما كبيرا من الاراضي الاميرية ، التي انكر اصحابها حق ملكيتهم لها للاسباب السالفة الذكر ، قد انتقلت الى ملكية الدولة ، التي اشترت أيضا قسما من الاراضي المزروعة كما حصل في بيسان والحولة والبحر الميت واماكن اخرى كثيرة ، فلقد بقي هناك الكثير من الارض المعروضة للمزاد لسبب من الاسباب : اما لتخلي اصحابها عنها ، او عدم مقدرتهم على دفع البدل والرسوم وما شابه . وقد استغلت هذا الوضع مجموعة من

التجار ، خاصة سكان المدن (بيروت ، والشام) ، والذين شعروا على الارجح بقيمة هذه الارض ، خاصة بعد صدور قانون تملك الاجانب عام ١٨٦٩ واشتروا مساحات لا بأس بها من تلك الاراضي . ولقد استغل كل اولئك اوضاع الفلاحين في فلسطين لحيازة اكبر قدر من الارض المعروضة للبيع باثمان بخسة جدا . ومما جعل عمليات البيع اكثر سهولة، التبعية الادارية التي كانت تربط كل من سنجقي عكا ونابلس بولاية بيروت ، والتي تم بها الجزء الاكبر من مشتريات الاراضي في فلسطين . وبهذه الطريقة تملكت عائلات شامية وبيروتية مساحات شاسعة من الاراضي في مختلف مناطق فلسطين عامة وفي سنجقي نابلس وعكا خاصة ، مثل اراضي سهل عكا ، وادي الحوارث ، السهل الساحلي ، سهل الحولة ومرج بن عامر ، الخ . وقد تملكت العائلات الشامية ما يقرب من ٥٧,٠٠٠ دونم ، وكان اشهرها عائلات العمري ، وورثة الامير الجزائري ، العكراوي ، فاعور ، شامان ،فضل ، سالوم ، بازو ، والقباني . وهذا عدا عن اللبنانيين الذين وصل مجموع ما امتلكوه الى حوالي٥٠٠,٠٠٠ دونم . وكان اشهر من تملك من بين هؤلاء ارضا في فلسطين ، تسربت منه فيما بعد ، التاجر والصيرفي سرسق ، الذي تملك وحده مساحات شاسعة في مرج ابن عامر (حوالي ٢٤٠ الف دونم) والحولة (حوالي ٦٠ الف دونم) ، ومناطق اخرى . وكان بين العائلات اللبنانية التي تملكت اراض في فلسطين ، رمضان ، جمال ، ملكي ، غلمية ، شهاب ، فرنسيس ، دبكي ، شام ، فرحا ، فرحات ، ماردينى ، بانه ، الاسعد ، سلام ، دكروب ، العويني ، طيان ، وغيرهم . والى جانب هؤلاء تملك بعض الافراد من تابعية الدولة العثمانية . سواء اكانوا ايرانيين مثل بهائي ايراني ، او مصريين مثل شديد وغيرهم(٨٥) ، مساحات اخرى . ولقد كانت طبقة هؤلاء الملاكين الكبار ، او الذين برزوا فيما بعد ، ذات قاعدة مدينية في الغالب ، ولم تكن قوتهم الحقيقية مستمدة من قوة عسكرية ، او نفوذ سياسي ، بل اما لكونهم دائنين للنقود ، او جامعي ضرائب ، او ذوي قوة قبليةعشائرية(٨٦) .

لقد صدر قانون الاراضي العثماني ، كما أشرنا ، في ظل اوضاع اتصفت بالفساد الكلي . وجاء هذا القانون ، اسميا على الاقل ، من أجل تحرير الفلاحين من سيطرة الاقطاع والمتنفذين ، الذين ساموهم الالآم طيلة فترة زمنية غير قليلة . ولكن الحقيقة هي ان هذا القانون ، بدل ان يحقق الغاية التي جاء من اجلها ، ادى الى العكس تماما ، حيث رسخ سلطة الاقطاعيين والمتنفذين وكبار التجار ، باعطائهم المسوغات اللازمة لامتلاك الارض . بصورة شرعية وبسندات رسمية غير قابلة للطعن بها . وهذا على الرغم من ان نظام ملكية الاراضي قبل صدور هذه القوانين ، لم يكن يعترف لمثل هؤلاء ، مع كل فسادهم وظلمهم واحباطهم المستمر للفلاحين ، بحقهم في ملكيةالارض ، اذ كان الفلاح يعتبر هو المتصرف بالارض ومالكها الحقيقي . ولم تقف العملية عند هذا الحد ، بل زاد القانون الاخير وجعل الارض سلعة تجارية يتعامل بها الصيارفة والتجار ، من اجل زيادة الربح ، في فترة كثر فيها الطلب على الارض لبناء المشروع الاستيطاني ، الاستعماري – الصهيوني ، وذلك دون اي اعتبار للحالة التي سيؤول اليها الفلاح حال تركه الارض . ومع ان معظم القوانين الاخرى كانت تمنع قيام مثل هذا المشروع على ارض فلسطين ، الا ان صدور نظام استملاك التبعة الاجنبية للاملاك لسنة ١٨٦٩ م ، كان المدخل الحقيقي للقائمين على المشروع الصهيوني للعمل على بناء اللبنات الاولى ، وذلك بشرائهم الاراضي ، قطعة تلو اخرى ، الى ان اصبح في حوزتهم مساحات لا بأس بها منها .

نظام استملاك التبعة الاجنبية للاملاك ، وبداية تسرب الاراضي

حتى صدور قانون تملك الاجانب في الدولة العثمانية ، في العام ١٨٦٩ ، لم يكن يحق للاجنبي استملاك الاراضي الامبراطورية العثمانية لأي سبب من الاسباب، واكثر ما كان يتمتع به الاجانب هو الامتيازات التجارية ومن ثم الحماية . ولكن مع الضغوطات المستمرة من قبل الدول الاوروبية ، ذات المطامع والنفوذ في الامبراطورية العثمانية ، توقف هذا المنع مع صدور قانون ١٨٦٩ ، م ، الذي سمح بتمليك الاجانب ، سواء كانوا افرادا او مؤسسات او شركات ، وذلك بالاستفادة من حقوق التصرف بالاملاك ، بما فيها الاراضي ، في جميع اجزاء الامبراطورية عدا الحجاز ، سواء في داخل المدن او خارجها(٨٧) . كما سمح القانون لهم باستحقاق الوصية والهبة في املاكهم ، واجاز لهم حرية انتقال الأرض بالوصية والهبة ايضا . واما الاراضي المتروكة فحقهم فيها مثل حق افراد ورعايا الدولة ، من وصية وهبة وغيره . وكان المستفيد من هذا القانون اتباع كل الدول الاجنبية الموافقة على نصوص قانون التملك . كما اعفى القانون مساكن رعايا تلك الدول من المداخلة او التعرض لهم ، وذلك بمنع

دخول أحد من مأموري الشرطة او الدرك (الضابطة) الى مساكنهم الا بحضور قنصل الدولة التي ينتمي اليها صاحب الدار ، او من ينوب عنه ؛

ومن ناحيةأخرى ـ وهذا هو بيت القصيد ـ ظهرت البدايات الاولى للمشروع الصهيوني في تلك الفترة ، التي استقر فيها نظام ملكية الاراضي في فلسطين على الشكل الذي أوضحناه ، مما سهل على المؤسسات والجمعيات الصهيونية عمليات شراء الاراضي ، من العائلات الاقطاعية اوغيرها . كما نشطت ، في الوقت نفسه ، المؤسسات والشركات الاجنبية المختلفة في مجال شراء الاراضي . وما ان صدر قانون تملك الاجانب (نظام استملاك التبعة الاجنبية للاملاك) ، حتى راح اولئك ، سواءكانوا يهودا ، او غيرهم ، يتجهون الى تملك الارض وحيازتها ، من اجل بناء المستوطنات الزراعية عليها ، بعد ان رفع ايضا الحظر على اقامتها منذ ذلك التاريخ . ولم يمض الا عشرون عاما على صدور القانون ، اى حتى العام ١٨٨٩ ، الا وكان هناك حوالي ٣٢ مستوطنة زراعية في فلسطين ، اقيمت على مساحة من الارض قدرت بحوالي ٣٠٠ الف دونم ، ويقيم فيها ما يقرب من خمسة الاف مستوطن(٨٨). ولو نظرنا الى هذه المستوطنات لوجدنا ان معظمها اقيم على اراض كان قد اشتراها اجانب، واستملكوها لهذا الهدف المحدد في الغالب .وتبين الوقائع التالية جانبا من الوضع الذي الت اليه ملكية الاراضي في فلسطين ، منذ ان سمح للاجانب ، ومن بينهم اليهود ، بتملك الارض وحيازتها والتصرف بها :

ففي عام ١٨٧٠ : قامت جمعية الاليانس الاسرائيلية ومؤسسها وزير العدل الفرنسي كريميو شاولنرنتر ، باقامة مستوطنة مكفيه اسرائيل ، على مساحة من الارض قدرت بـ ٢٦٠٠ دونم ، استؤجرت من الحكومة العثمانية لفترة زمنية طويلة (٩٩ عاما) من اراضي قرية يازور العربية في منطقة يافا(٨٩) .

وفي عام ١٨٧٣ ، اقيمت مستوطنة بيتح تكفا على مساحة من الارض قدرت بـ ١٣٠ دونما ، ومساحة للزراعة تابعة للمستوطنة قدرت بـ ٢٦٠٠ دونم ، استملكت بواسطة قنصل المانيا في يافا(٩٠) .

وفي عام ١٨٧٨ ، اشترى يوئيل سلومون (نمساوي) ٣,٢٧٥ دونما من اراضي قرية ملبس قرب يافا من التاجر قصار ، وقد عقد صك الشراء امام القنصل النمساوي في يافا ، وكانت الغاية من ذلك اقامة مستوطنة(٩١) .

في عام ١٨٧٩ ، تم شراء ١٠,٠٠٠ دونم من التاجر طيان من اجل اعادة تعمير وتوسيع مستعمرة بيتح تكفا(٩٢) .

في عام ١٨٨١ ، اقيمت مستوطنة ريشيون لتسيون ، على اراضي قرية ، عيون قاره ، على مساحة من الارض بلغت ٣٣٤٠ دونما ، اشتراها الحاخام افرليينغ قنصل بريطانيا في يافا ، بعد ان حجزت من قبل الحكومة(٩٣) .

وفي عام ١٨٨٢ ، تم شراء نصف اراضي قرية الجاعون حوالي (٤٠٠٠ دونم) من قبل يهود صفد ، الذين باعوا منها ٢٧٠٠ دونم لحساب جمعية اليعازر روكاح اليهودية ،من اجل توسيعمستعمرة ريشيون لتسيون ، وباقي الارض اشتراها يهود من روسيا قدرت بـ ١٣٠٠ دونم ، حيث بنيت عليها مستوطنة روش بينا(٩٤) .

وفي عام ١٨٨٢ ، اقيمت مستوطنة زخرون يعقوب ، على مساحة من ارض قرية زمارين جنوب حيفا بلغت ٦٠٠٠ دونم ، والتي كانت ملكا لمواطن فرنسي واشتراها منه اليهودي اميل فرانك (يهودي فرنسي عمل كوكيل لشركات السفن البريطانية في الموانىء السورية)(٩٥) .

وفي عام ١٨٨٣ ، تم انشاء مستوطنة يسود هامعله ، قرب بحيرة طبريا على مساحة من الارض بلغت ٢٥٠٠ دونم ، والتي كانت تخص يعقوب عبو قنصل فرنسا في عكا(٩٦) .

وفي عام ١٨٨٣ ، تم انشاء مستوطنة عكرون بواسطة الحاخام موهيليفر على مساحة ٣٧٥٠ دونما ، وذلك جنوب الرملة على حساب البارون روتشيلد(٩٧) .

وفي عام ١٨٨٣ ، تم اقامة مستوطنة نحلات روؤفين (فيما بعد نس تسيونه) في وادي حنين ، على مساحة ٢٠٠٠ دونم ، بعد أن تم استبدال اراضيها من مالكها الالماني لقاء قطعة ارض مساوية لها في المساحة في مدينة اوديسا في روسيا(٩٨) .

وفي عام ١٨٨٤، تم اقامة مستوطنة غديره على مساحة من الارض جنوب غرب مستوطنة عكرون ، والتي كانت ملكا لابن نائب قنصل فرنسا في يافا(٩٩) .

لقد تم انشاء هذه المستوطنات بالطريقة ذاتها التي نشات فيها مستعمرات أخرى مثل رحبوت ، في الجنوب ، وكذلك الخضيرة بين حيفا ويافا ، اللتين بنيتا في العام ١٨٩١ م ، وكذلك مستوطنة شمارهايادن ، بقرب جسر بنات يعقوب ، او عين زيتيم ، بقرب صفد ، في العام ١٨٩٠ م(١٠٠) . وغيرها .

وواضح ، مما قدمنا ، ان نظام ملكية الاراضي في فلسطين قد سهل على الصهيونيين التسلل الى البلاد واقامة مستوطناتهم الاولى فيها .

---

(١) محمد انيس ، الدولة العثمانية والمشرق العربي (١٥١٤ – ١٩١٤) ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، بدون تاريخ نشر ، ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٢) دعيبس المر ، احكام الاراضي المتبعة في البلاد المنفصلة عن السلطة العثمانية ، القدس ، مطبعة بيت المقدس ، ١٩٢٣ ، ص ٣ .

(٣) المصدر نفسه .

(4) Said Himadeh, *Economic Organization in Palestine,* Beirut, A.U.B, 1934, *p.* 75.

(٥) انيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٥ .

(٦) عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ – ١٩١٤ ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، ص ٢٢٢ .

(٧) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ ، الطبعة الثانية ، ص ٦٩ .

(٨) عوض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٤٤ .

(٩) ا.ن. بولياك ، الاقطاعية في مصر ، سوريا ، فلسطين ولبنان ، (ترجمة عاطف كرم) ، بيروت ، منشورات دار المكشوف ، ١٩٤٨ ، الطبعة الثانية ، ص ١١١ – ١١٢ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١١٢ – ١١٣ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ١٦٢ – ١٦٣ .

(12) Gibb, H.A.R. and Harold Bowen, *Islamic Society and the West,* Oxford, Oxford University press, 1950, Vol. 1, *p.* 42.

(١٣) بولياك ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٢ .

(14) Bowen, *Op. Cit., p.* 50.

(١٥) انيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(١٧) المصدر نفسه .

(١٨) جون رودي ، تهويد فلسطين (اعداد وتحرير ابراهيم ابو لغد ، ترجمه د. اسعد رزوق ، بيروت ، م.ت.ف. ، مركز الابحاث ، ١٩٧٢ ، ص ١٣٧ .

(١٩) انيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٧ .

(٢٠) عوض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٧ .

(٢١) بولياك ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٤ .

(22) A. Granott, *The Land System in Palestine,* London, Eyre and Spottiswoode, 1952, *p.* 58.

(٢٣) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٧ ، ص ٤٠٦ .

(٢٤) الحصري ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٦ .

(٢٥) عوض ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٢٦) بولياك ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠١ .

(٢٧) اسد رستم ، بيان بوثائق الشام ، وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير ، بيروت ، المطبعة الامريكانية ، ١٩٤٢ ، المجلد الثالث ، ص ١٣٨ .

(٢٨) عوض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٩ .

(٢٩) من مقدمة قانون الاراضي العثماني المؤقت لسنة ١٨٥٨ في الدستور [العثماني] ، (ترجمة نوفل نعمة الله نوفل) ، بيروت ، طبع برخصة نظارة المعارف الجليلة في المطبعة الادبية ، ١٣٠١هـ ، المجلد الأول ، ص ٢ ـ ٤ .

(٣٠) عوض ، مصدر سبق ذكره ، الفصل السادس ، ص ١٦٤ ـ ١٩٦ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

(٣٢) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤ .

(٣٣) المر ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الأول ، ص ١٠ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٣٥) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الأول ، ص ١٤.

(36) Said Himadeh, *Economic Organization of Syria*, Beirut, A.U.B., 1938, *p.* 52.

(37) *A Survey of Palestine;* Prepared in 1945-1946 for the Information of the Anglo-American Committee of Inquiry, Jerusalem, Government Printer, Vol. 1, *p.* 227.

(38) Himadeh, *Op. Cit.*, *p.* 52.

(٣٩) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، المادة الثالثة ، ص ١٥ .

(٤٠) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، المادة الثامنة ، ص ١٦ .

(41) Himadeh, *Op. Cit.*, *p.* 53.

(٤٢) رودي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٥ .

(٤٣) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، مادة ٢٧ ، ص ١٩ .

(٤٤) انظر المر ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ٢ ـ ٣ .

(٤٥) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، المواد ٩١ ـ ١٠٢ ، ص ٢٤ ـ ٣٦ .

(46) A. Granott, *Op. Cit.*, *p.* 91.

(٤٧) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، المواد ١٠٣ ـ ١٠٥ ، ص ٣٧ .

(48) Granott, *Op. Cit.*, *p.* 45.

(49) Omer Hilmi Effendi, *The Laws of Eugaf*, (Translated by Sir C. Tysor and Demetriads), Nicosia, Government Printing Press, 1922, 2nd Ed., Introduction.

(50) A. Granott, *Op. Cit.*, *p.* 129.

(٥١) عوض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٥٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٢٨ ، المجلد الخامس ، ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .

(٥٣) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، المادة ٤ ، ص ١٥ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ص ١٥ ـ ١٦ .

(٥٥) الدستور [العثماني] ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثاني ، ص ١٢٤ ـ ١٥٥ .

(٥٦) عوض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣٣ .

(٥٧) المر ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الأول ، ص ٨٩ .

(٥٨) الدستور [العثماني] ، مصدر سبق ذكره ، البند الأول ، ص ٥٢ .

(٥٩) المصدر نفسه ؛ البند الثالث ، ص ٥٢ .

(٦٠) المصدر نفسه ، البند الرابع ، ص ٥٢ ـ ٥٤ .

(٦١) قانون الاراضي العثماني ، مصدر سبق ذكره ، مادة ٧٨ ، ص ٣١ .

(٦٢) الدستور [العثماني] ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ـ ٥١ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٦٣ ـ ٧٢ .

(٦٦) حسان علي حلاق ، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩٠٩) ، بيروت ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٨ ، ص ٦٨ .

(67) A. Granott, *Op. Cit., p.* 177.

(٦٨) عوض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣٥ .

(69) A Survey of Palestine, *Op. Cit., p.* 309.

(70) A. Granott, *Op. Cit., p.* 74.

(71) A. Survey of Palestine, *Op. Cit., p.* 308.

(٧٢) عارف العارف ، تاريخ بئر السبع وقبائلها ، القدس ، مطبعة بيت المقدس ، ١٩٣٤ ، ص ٢٧٣ .

(٧٣) علي ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ١٥٢ .

(٧٤) بولياك ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(75) Himadeh, *Op. Cit., p.* 60.

(76) Simha Flapan, *Zionism and the Palestinians,* London and New York, Croom Helm and Barnes and Noble Books, 1979, *p.* 210.

(٧٧) عوض ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣٩ .

(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(٧٩) المر ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ٢ ـ ٣ .

(80) Himadeh, *Op. Cit., p.* 91.

(81) *Ibid, pp.* 91-92.

(82) A. Granott, *Op. Cit., p.* 54.

(٨٣) عنان العامري ، التطور الزراعي والصناعي في فلسطين ١٩٠٠ ـ ١٩٧٠ ، بيروت ، مركز الابحاث ، م.ت.ف. ، ١٩٧٤ ، ص٦١ .

(84) Flapan, *Op. Cit., p.* 210.

(85) Sami Hadawi, *Village Statistics 1945,* P.L.O., Research Center, Beirut, 1970, *p.* 28.

(86) Flapan, *Op. Cit., p.* 211.

(٨٧) الدستور [العثماني] ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٨ ـ ٧٢ .

(88) Isaiah Friedman, *Germany, Turkey and Zionism 1897-1918,* Oxford, Oxford University Press, 1977, *p.* 38.

(٨٩) صبري جريس ، تاريخ الصهيونية ، بيروت ، مركز الابحاث ، م.ت.ف. ، ١٩٧٧ ، الجزء الاول ، ص ٦٧ .

(٩٠) المصدر نفسه، ص ١٠٥ .

(٩١) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

(٩٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

(٩٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

(٩٤) المصدر نفسه .

(٩٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .

(٩٧) المصدر نفسه .

(٩٨) المصدب نفسه .

(٩٩) المصدر نفسه .

(100) Friedman, *Op. Cit., p.* 46.

زيارة فيينا
من البداية الى النهاية

في شهر حزيران الماضي قام الأخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بأول زيارة له لعاصمة اوروبية غربية . والتقى في فيينا بعدد من قادة الأممية الاشتراكية بينهم مستشار النمسا ورئيس الحزب الاشتراكي الحاكم فيها ، برونو كرايسكي ، والمستشار السابق لألمانيا الفيدرالية ورئيس الحزب الالماني الاشتراكي الديمقراطي الحاكم فيها ، فيلي برانت .

واثار لقاء فيينا هذا ردود فعل واسعة ، ومتعارضة : اتسمت في الجانب الصهيوني والاسرائيلي بالحدة في لوم قادة الاممية الاشتراكية الذين إستقبلوا ياسر عرفات ووفد منظمة التحرير الفلسطينية وتباحثوا معه . وفي الجانب الاوروبي الرأسمالي بالتنبيه الى اهمية اللقاء ومدلولاته . وتركزت في الجانب الاوروبي الشيوعي على تقييم ايجابية اللقاء ، بما هو دليل على ان السياسة الاميركية ، التي من بين اهدافها عزل وتجاهل منظمة التحرير ومطالبها الوطنية ، تفتقر الى التأييد حتى من قبل حلفاء الولايات المتحدة الذين من بينهم الحزبان الحاكمان في النمسا والمانيا الغربية .

فيما يلي ، يروي الأخ عصام سرطاوي عضو المجلس الوطني الفلسطيني ، مسيرة العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية والأممية الاشتراكية التي نشأت على خلفيتها زيارة فيينا ، لأن للدكتور سرطاوي دوراً خاصاً في حقل هذه العلاقات وغيرها من الاتصالات الدولية .

س : كيف انبثقت فكرة الاتصال بالأممية الاشتراكية وعلى اية اسس ؟

ج : ابتدأت الاتصالات نتيجة التقاء توجهين :

الاول من الأممية الاشتراكية نحو الشرق الأوسط ابتدأ بعد حرب ١٩٦٧ ، واشتد بعد حرب ١٩٧٣ في ظل ازمة النفط التي اقترنت بتلك الحرب ، وفي ظل اهتمام اوروبا الغربية بها بعد الاضرار التي تعرضت لها من جرائها . وقد تبلور هذا التوجه على ساحة الاممية الاشتراكية في تشكيل « لجنة تقصي الحقائق » التي انبثقت عن مؤتمر الاممية الاشتراكية في اواخر العام ١٩٧٣ ، وفي جولات الاستقصاء التي قامت بها اللجنة برئاسة المستشار كرايسكي الى الشرق الاوسط منذ بداية العام ١٩٧٤ ، والتي انتهت بتقرير ختامي وضعته اللجنة وقدمته لمؤتمر

مدريد في حزيران ١٩٧٧ . ومن المعلوم ان اللجنة خلال جولاتها التقت بالاخ ياسر عرفات .

والثاني من منظمة التحرير نحو الأحزاب الاشتراكية في اوروبا الغربية ، من كان منها في الحكم او كان خارجه ، وبالتالي نحو الاممية الاشتراكية كمؤسسة .

س : متى ابتدأ هذا التوجه في منظمة التحرير ؟

ج : في سياق النشاطات الخارجية للمنظمة تكونت لها صلات وعلاقات مع احزاب اشتراكية في اوروبا الغربية وغيرها من مناطق العالم ، تكونت بالجهد الذي بذلته تنظيماتنا في الخارج وممثلو الثورة المعتمدون في مناطق العالم المتعددة . وكان جزء من النشاط الذي تقوم به كوادرنا في اي دولة ، ينصب على الاتصال بالأحزاب السياسية فيها ، ومن بينها بطبيعة الحال الاحزاب الاشتراكية . وتولدت بهذا الشكل بدايات العلاقات مع تلك الاحزاب ، مع الحزب الاشتراكي السويدي ، وعلى سبيل المثال بدأت العلاقات من خلال ممثلنا وعبر الوفود الفلسطينية التي زارت السويد أو التقت وفودا سويدية في مؤتمرات ولقاءات دولية ... الى ان وافق الحزب الاشتراكي السويدي الحاكم على فتح مكتب للمنظمة في السويد . وجرت اتصالاتنا في ايطاليا على المنوال ذاته . عندما كان يمثلنا في روما الشهيد وائل زعيتر ، ثم اتمها خلفه نمر حماد . وابتدأت علاقاتنا مع الحزب الاشتراكي النمساوي الحاكم منذ سنوات بمضي الوقت .

ان الاتصالات الثنائية بين مؤسسات الثورة والاحزاب الاشتراكية ، اخذت تقيم سلسلة من العلاقات بين منظمة التحرير وبين عدد من الاحزاب الاشتراكية . وهنا اشير الى مسألة لا بد من ذكرها وهي ان الحزب الاشتراكي السنغالي (الذي حمل هذا الأسم منذ العام ١٩٧٧ وكان قبله يحمل اسما اخر) ربطته علاقة جيدة ووثيقة بمنظمة التحرير ... علاقة عميقة جدا . ولعب الرئيس السنغالي سنغور دورا متميزا في هذا المجال ، وفي مجال الدفع نحو تطور علاقاتنا باحزاب الاممية الاشتراكية الاخرى وبها كمؤسسه . ولا بد من الاشارة ايضا الى الجهد الذي قام به الاخ فاروق القدومي رئيس الدائرة السياسية للمنظمة ، عبر اتصالاته المباشرة بالاحزاب الاشتراكية الاوروبية ، ومنها خصوصا السويدي والفنلندي والايطالي والاسباني .

كل تلك الاتصالات اوجدت خلفية ، او لنقل ارضية لتفهم افضل من قبل تلك الاحزاب لقضيتنا الفلسطينية .

س : تقصد من هذا العرض ان علاقات الثورة الفلسطينية ظلت حتى العام ١٩٧٤ تقوم مع احزاب اشتراكية وليس مع الاممية الأشتراكية كمؤسسة ؟

ج : مع احزاب وليس مع المؤسسة حتى ذلك التاريخ . والمرة الاولى التي جرى فيها اتصال مع الأممية الأشتراكية كمؤسسة كانت اللقاء بين لجنة تقصي الحقائق في زيارتها الاولى للمنطقة ، عندما اخذ المستشار كرايسكي على عاتقه وبمبادرة منه مهمة الاجتماع مع الاخ ياسر عرفات . واود هنا ان اسجل باشادة كبيرة بهذا الدور الرائد والمتميز الذي لعبه المستشار كرايسكي . فهو الذي اقنع اللجنة ، بعد ان حضرت الى القاهرة في اوائل العام ١٩٧٤ ، بالالتقاء مع قادة المنظمة ، في حين كان لدى اعضاء اللجنة تخوف من مغبة هذا اللقاء ومن حمل مسؤولياته ازاء المؤسسة وازاء احزابهم . وبهذا اتخذ كرايسكي مبادرة شجاعة . وتم اللقاء وحضره من الجانب الفلسطيني الاخوة ياسر عرفات ، وفاروق القدومي ، وهايل عبد الحميد . وكان اللقاء ايجابيا ، وحقق بداية الاتصال مع الاممية الاشتراكية .

س : ما هي الموضوعات التي تطرق اليها الحديث في ذلك اللقاء الاول ؟

ج : طبقا لمعلوماتي ، كان اللقاء بمثابة جولة استطلاعية ، تم خلالها استعراض شامل للموضوعات ذات الاهتمام المشترك . اراد كرايسكي ومرافقوه ، كما روى لي هو شخصيا فيما بعد ، ان يتعرفوا بصورة اوثق على عمل الثورة الفلسطينية وطروحاتها . كما اراد هو ان يسجل قفزة فوق « الحرمان السياسي » المفروض على اللقاء مع المنظمة . كان خطهم ، واذا استخدم تعابير كرايسكي : « لنسمع ما لديهم ما دمنا لسنا ملزمين بشيء . نحن لجنة تقصي حقائق فلنتقص حقيقة منظمة التحرير ولنسمع ما تقول ونر ماذا تفعل » .

وطرح الجانب الفلسطيني في اللقاء وجهة النظر الفلسطينية حول معاناة الشعب الفلسطيني والمشاكل التي يواجهها ، وهو يتجه نحو تحقيق اهدافه الوطنية .

كان اذن لقاء تعارف وتبادل آراء .

س : هل دار في ذلك اللقاء حديث حول مؤتمر جنيف للسلام ، الذي كان قيد البحث ، وعن احتمال مشاركة المنظمة فيه ؟

ج : لا اعرف . ربما جرى حديث كهذا وربما لم يجر .

س : كيف جرت الامور بعد هذا اللقاء ؟

ج : تابعت لجنة تقصي الحقائق جولتها في البلاد العربية . والتقى كرايسكي في الكويت بقائد فلسطيني آخر ، تم لقاؤه به بعد تدخل من وزير الخارجية الكويتية ، واستمع منه الى مزيد من الشرح خلال ساعة ونصف . وذكر لي كرايسكي ان انطباعه عن ذلك اللقاء كان الآخر ايجابيا .

كانت تلك اذن هي بداية اللقاءات مع الاممية الاشتراكية .

وفي سنة ١٩٧٥ تعرفت انا شخصيا على كرايسكي .

س : في اية ظروف تم تعارفكما ؟

ج . عبر اصدقاء مشتركين ، وانتظمت منذ ذلك الوقت زياراتي ولقاءاتي معه . وبالطبع انصبت احاديثنا على القضية الفلسطينية ، وكنت اعرض تصوراتنا لما يمكن أن يكون عليه الحل المطلوب لهذه القضية .

س : هل استقبلك كرايسكي في سياق عمل لجنة تقصي الحقائق التي يراسها ، ام ان لقاءاتكم اتخذت منحى آخر ، شخصيا مثلا ؟

ج : التحديد في هذا المجال صعب .عندماالتقيبه لم اكن اسأله بأية صفة يستقبلني . من الممكن ان يكون بواحدة من ثلاث : بصفته الشخصية ، او بصفته مستشارا للنمسا ، او بصفته نائبا لرئيس الأممية الأشتراكية ورئيسا للجنة تقصي الحقائق . الحقيقه انه لم يحدث في اي من لقاءاتنا ان حددنا الصفة التي كنا نلتقي على ساسها .

س : من تحصيل الحاصل ان نقول ، فيما يخصك ، ان لقاءاتك به تمت في سياق انشطة الثورة الفلسطينية .

ج . بغير شك . وعندما قدمني اليه اصدقاء مشتركون لأول مرة ، وصفوني باني احد العاملين في حقل الثورة الفلسطينية .

وفي مطلع العام ١٩٧٧ التقينا ، هو وأنا ، لقاءات استغرقت وقتا اطول من المألوف ، وقد تبسطت في الحديث ، فطلب كرايسكي ان الخص ما قلته خطيا في رسالة تتضمن جوهر ما تحدثت به ، فلم اتردد وكتبت ، بغير تدبير مسبق ، الرسالة التي ثار حولها لغط لاحق في المجلس الوطني الفلسطيني وفي الصحافة وكان تاريخ الرسالة ١٩٧٧/١/٢٧ .

س : ما الذي يمكن ان نعرفه عن مضمون تلك الرسالة ؟

ج : ركزت الرسالة على مسألة السلام في الشرق الاوسط ومضاعفات الحرب على أوروبا . حيث ستتعرض مصالحها لأخطار كبيرة ، ومنها احتمال انقطاع النفط عنها ، وان مصالح اوروبا تحتم عليها ان تتدخل وتلعب دورا ، وان السلام لا يمكن ان يقوم الا من خلال تحقيق الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني . وان منظمة التحرير ، في تقديري الشخصي ، ستكون على استعداد للمساهمة في ارساء السلام شريطه ان تعود الضفة

الغربية وقطاع غزة ، الحمة والعوجا،فورا الى السيادة الفلسطينية وتقوم عليها دولة فلسطينية مستقلة .

وذكرت في الرسالة ان منظمة التحرير ، وفق تقديري الشخصي ايضا ، مستعدة لأن تلعب دورا في ارساء السلام الكامل شريطة ان يتوفر حق العودة للفلسطينيين وان تتوفر حقوق أخرى نصت عليها قرارات الامم المتحدة .

لم تكن تلك الرسالة وثيقة من منظمة التحرير كما ذكرت الصحف ، وانما كانت كما ذكرت ، رسالة شخصية مني ، كتبت بغير تدبير مسبق لتلخص نقاشات بيني وبين كرايسكي دارت على مدى عدة ساعات .

س : انما يمكن القول انك ، في رؤيتك للحل ، كنت تستلهم ما يدور في اوساط المنظمة .

ج : يستمد المرء رؤاه من الجو السائد ، ومن خلال تصوره الشخصي للموقف السياسي . ولكل منا اجتهاداته في هذا المجال ، في اطار تصوره للموقف العام .

س : هل كنت ترمي الى دفع كرايسكي للتوسط من اجل حل تقبله منظمة التحرير على اساس الشروط التي ذكرتها ؟

ج : بالرغم من ان كلاما كهذا قيل في حينه ، فان امر الوساطة لم يكن واردا على الاطلاق ، ولم تكن هناك اية جهة ترمي الى توسيط كرايسكي او غيره .

بعد اسبوعين من تسليم الرسالة نشرتها في ١٣/٢/١٩٧٧ الجريدة المركزية للحزب الاشتراكي النمساوي . وتناولت الصحافة هذه الرسالة وشوهت مضمونها واضافت اليه . وقيل ان منظمة التحرير قدمت خريطة للتسوية ، وتعرضت لهجوم شديد وصدرت بيانات تهاجم ما سمي بوثيقة كرايسكي .

والحقيقة كما بينت ان المنظمة لم تسلم لا وثيقة ولا خرائط . لأنني كتبت الرسالة باسمي الشخصي ، وعلى ورق الفندق الذي كنت اقيم فيه ، وكانت تلخيصا لرؤيتي لما يمكن ان تقبله المنظمة في اطار حل عادل لمشكلة الشرق الاوسط .

على الصعيد الآخر تعرض كرايسكي نفسه للهجوم . هاجمته المعارضة في بلاده ، وإسرائيل والحركة الصهيونية . وساهم في الهجوم بعض الفرقاء الفلسطينيون ممن بنوا مواقفهم على المعومات الخاطئة التي روجها الاعلام الغربي . وقد شعر هو بالامتعاض ، واشتكى بسبب سوء الفهم من قبل بعض الفلسطينيين ، خاصة وان بيانات صدرت تنفي موضوع الرسالة من اساسه ، مما عرضه لتهمة التزوير .

س : هل دفعه ذلك الى التراجع عن مساعيه التي كان قد بداها ؟

ج : تألم ، لكنه لم يتراجع كان يطلع على كل ما يقال ويكتب ، وكانت المعارضة عنده تستغل ذلك ، ووجد نفسه طرفا في صراع ، امام بيانات صدرت تنفي وجود رسالة كهذه اصلا ، وسربت جهات نمساوية رسمية الرسالة الى صحيفة بريطانية اكدت ان استلام كرايسكي للرسالة ... شكل من الدفاع عن النفس ضد اتهامه بالتزوير ...

ثم اثير موضوع الرسالة في المجلس الوطني ، على النحو المعروف . فاوضح الاخ ياسر عرفات انها رسالة شخصية من عصام السرطاوي ، وكان لهذا الأيضاح ، الذي تضمن اقرارا فلسطينيا من اعلى مستوى بوجود الرسالة ، صدى طيب عند كرايسكي نفى عنه تهمة التزوير ... ومرت الازمة .

وقد قال لي فيما بعد : ان تلك الرسالة كانت سلاحا بيده يواجه به القيادة الاسرائيلية . وخاصة حزب العمل الذي كان حاكما في اسرائيل ، وهو عضو في الأممية الأشتراكية . وكان الحزب يعلل رفضه لحقوق الشعب الفلسطيني بان هذا الشعب ضد السلام ، فأستند كرايسكي الى رسالة، من شخص لا تنكر فلسطينيته ولا ينكر انتماؤه لمنظمة التحرير ، تتحدث عن استعداد المنظمة للمساهمة في صنع السلام ، وفق شروط محددة تنسجم مع قرارات الأمم المتحدة .

س : عندما اعددت تلك الرسالة هل كان مفهوما لديك انها ستلعب هذا الدور ؟

ج : كتبت الرسالة بناءا على طلبه ، ولم اكن اعرف ان الصحيفة النمساوية ستنشرها وقد واوضح لي كرايسكي فيما بعد انه نشرها ، للغرض الذي اوضحته انفا .

س : لو كان كرايسكي طلب منك ان تنشر الرسالة هل كنت ستفعل ؟

ج : انه لم يطلب مني ، وانتم تضعونني في موضع تكهن عن مرحلة مضت ، هل كنت سأفعل ؟ لا اعرف الاجابة على ذلك اليوم .

س : وضعت الرسالة بعد ان كان المجلس الوطني ، وانت عضو فيه ، قد اقر البرنامج الوطني المرحلي ، برنامج النقاط العشر ، في دورته الثانية عشرة ، وهو برنامج حدد سياسة جديدة للمنظمة ، فهل جاء وضع الرسالة في سياق هذه السياسة الجديدة ؟

ج . لنقل انها جاءت في اطار النقاط العشر ، وكانت مستمدة منها . وقد اجتهدت فاستبقت قرار المجلس الوطني اللاحق الذي طالب بدولة فلسطينية في حين نص البرنامج على سلطة وطنية ، لأني افهم السلطة الوطنية على انها الدولة الوطنية .وكنت متحفضا في الرسالة : فقرنت مطلب الدولة بالمساهمة في ارساء السلام . اما السلام الكامل فله شروط أخرى من بينها حق العودة ...

س : هل تعرضت الرسالة لمسالة الاعتراف باسرائيل من قبل المنظمة ؟

ج : كلا ...

س : لا تصريحا وتلميحا ؟

ج : لا هذا ولا ذاك ..

س : في لقاءاتك العديدة مع كرايسكي (اكثر من ٢٠٠ لقاء) هل اثيرت هذه النقطة ؟

ج : هذه المسألة مثارة باستمرار . كل من يعمل منا في حقل العلاقات الخارجية الدولية ، يعرف ان هناك سؤالين يطرحان على الدوام : هل تريدون تدمير اسرائيل ؟ وهل تريدون الاعتراف باسرائيل ؟ والذي يقول انه يتحرك في الخارج ويجتمع باجانب ولا يواجه بهذين السؤالين ولا يضطر للتعامل معهما فهو لا يقول الحقيقة . اما الرسالة تلك فانها لم تتعرض لأي من هذين السؤالين .

س : نعود لسياق الوقائع ، ما الذي تم بشان الرسالة بعد نشرها ؟

ج : وزع كرايسكي نسخا من الرسالة على رؤساء الأحزاب الأشتراكية المشاركة في لجنة تقصي الحقائق ، واحزاب الأممية االأشتراكية الأخرى الصديقة ...

س : الصديقة لمن ؟

ج : الصديقة لفيينا ، لكرايسكي ، والمتعاطفة مع القضية الفلسطينية ، وعلى الأخص التي شاركت في لجنة تقصي الحقائق .

س : طبقا لمعلوماتك : هل ارسل نسخة منها الى حزب العمل الاسرائيلي الذي كان حاكما ، باعتباره عضوا بالأممية الأشتراكية تربطه علاقات طيبة بحزب كرايسكي ؟

ج : لا اعرف . وعندما قدمت اللجنة تقريرها المهم ، وهو سري الى مؤتمر الأممية الأشتراكية ، حصلت على نسخة منه ، فوجدت انه اضيف الى التقرير ملحقات : نص رسالتي ونص قرار التقسيم ، واذن فان حزب العمل لا بد ان يكون قد اطلع عليها .

فيما بعد قال كرايسكي ان تلك الرسالة كانت بالنسبة له وثيقة مهمة بالغة الاهمية ، لأنها ساعدته على

بلورة تفكيره وتركيز قناعاته ، واعطته سلاحا يتحرك به . واتصلت اللقاءات مع كرايسكي . وكنت حريصـا في تلك المرحلة على ان احقق اتصالا بين الاخ ياسر عرفات وبينه ، وكان دوري متواضعا ركزت فيه على شرح الموقف الفلسطيني على حقيقته من غير ان ازيد عليه او ان اخفف منه : على طريقة هذا ما يمكن ان نقدمه . وهذا ما لا يمكن . وكان هو حريصا على ان يتعرف على افكار الاخ ياسر عرفات .

س : هل تمت مراسلات خطية في سياق تلك الاتصالات ؟

ج : خطية وغير خطية . كانت كلها مفيدة جدا . ومنذ اواخر العام ١٩٧٧ اخذت رسائل الاخ ياسر عرفات تشرح حقيقة الموقف الفلسطيني وتشرح له مجريات الاحداث وما يتعرض له شعبنا بصورة منتظمة .

س : هل تقدر ان كرايسكي كان يطلع اخرين على مراسلاته مع الاخ ياسر عرفات ؟

ج : في تقديري انه كان يفعل ذلك .

وكان واضحا لنا ما الذي نريده في تلك المرحلة . كنا نريد دفع العلاقات باتجاه اعتراف الاممية الاشتراكية بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، وكان علينا ان نجتاز عقبة اخرى هي الوصول الى فيلي برانت رئيس الاممية الاشتراكية ، ذلك انه هو رئيس الحزب الحاكم في المانيا الغربية ايضا . وقد امكن ، بعد جهود حثيثة بذلها كرايسكي ان التقي مع برانت . جرت المقابلة الاولى كما اذكر في اواخر العام ١٩٧٧ . وقد استقبلني رسميا في مقر حزبه في بون ، وحضر اللقاء وزير الدولة بشنفسكي ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في الحزب واثنان آخران ...

س : ما الذي تعنيه بالاستقبال الرسمي ؟ هل استقبلت بصفتك مبعوث المنظمة ؟

ج : الاستقبال الرسمي كان مفهوما من وقائع الاستقبال ومن وقوعه في مقر الحزب وبحضور عدد من المسؤولين فيه ، لكن انا لم اكن احمل صفة رسمية ، ولم ادع ، ان قلت انني استقبلت كمواطن فلسطيني فهذا جائز ، او كعضو في المجلس الوطني فهذا جائز ايضاً . فالذين استقبلوني لم يركزوا على هذا .

س : ربما استقبلت بوصفك على صلة بالاخ ياسر عرفات ، وانهم كانوا ياخذون ذلك بعين الاعتبار . ويعرفون انه يعتمد عليك في مثل هذه المهام .

ج : قد يكون . على كل يفترض ضمنا انني امثل المنظمة من غير ادعاء مني بذلك. استغرق اللقاء الاول ساعتين . كان الجو وديا للغاية ، وتناول الحديث القاء نظرة عامة على مواقف المنظمة . ما الذي تريده وما الذي لا تريده . وكنا آنذاك مسلحين بقرارات الدورة الثانية عشرة للمجلس ، دورة ١٩٧٧ ، التي صاغت مطلب دولة فلسطينية مستقلة ، ودار الحديث بصفة خاصة حول هذا المطلب .

اريد ان اشير هنا ، رغم كل التقولات ، الى انني في محادثاتي كلها مع الاجانب ، اتحدث في اطار الالتزام بقرارات المجالس الوطنية ، افعل ذلك لأسباب عديدة : فهناك الالتزام ، وهناك تجنب وضع نفسي في موضع من لا يصدقونه ، واذن فقد كنت اطرح موقف المنظمة في اطار قراراتها وبرامجها .

س : ما الذي طرحه برانت انذاك ؟

ج : تكلم بدبلوماسية ، وايجابية . اهم ما طرحه انه لا سلام في الشرق الاوسط من غير معالجة مشكلة الشعب الفلسطيني .

س : هل كان مستعدا لاعلان هذا الراي ؟

ج : كان هذا رأيه ، كان هناك تثبيت ان لا حل لمشكلة الشرق الاوسط الا من خلال حل مشكلة الشعب الفلسطيني ، وتقديرا للمعاناة التي يعانيها هذا الشعب من اجل تحقيق اهدافه المعقولة . وفي اطار رؤية برانت كان هناك حديث عن القرار ٢٤٢ ، المسألة التي يطرحها الكل ، وكان جوابنا التقليدي : اننا لا نعترف بالقرار لأنه يتعامل مع قضية شعبنا كقضية لاجئين .

صدر بيان رسمي بعد اللقاء .

س : تقصد بلاغا عنه ، باي صفة وصفوك فيه ؟

ج : لا أذكر ، نشرت الصحافة البلاغ في تشرين . وانفجرت ضجة كبيرة في المانيا ... ضجة ذات شقين هوجمت انا كارهابي مطلوب القبض علي ، وهوجمت بصفتي امثل المنظمة ، وهوجم برانت لانه اجتمع مع ارهابي يمثل ارهابيين .

س : قبل التقائك برانت تمت عملية في ميونيخ ضد وفد رياضي اسرائيلي واثير ان لك علاقة بها ، هل تطرق الحديث لهذه العملية ، وهل اثرت على جو اللقاء ؟

ج : لم يطرحوا من جانبهم اية مسألة تتعلق بدور لي في عملية ميونيخ ، وانما ظل جو الحديث دبلوماسيا . اما المعارضة ، والأوساط الصهيونية ، فقد اثاروا هذه المسألة في الصحافة ،واستغلوها لمهاجمة اللقاء وللضغط على برانت تم انتقل الهجوم الى البرلمان الالماني ، ووصل حد المطالبة بسحب الثقة من حكومة الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وبعد مناقشات دامت ثلاثة ايام نجح الحزب بصعوبة في تجاوز الازمة في البرلمان .

وهنا اريد ان اقول ان الاتصالات الدولية التي نجريها تخيف اسرائيل بشكل لا يتصور . عندنا من يقولون عن كل لقاء انه خطوة في طريق الاستسلام والتنازل عن الحقوق الوطنية ، وفي اسرائيل يرون خلاف ذلك . يرون فيها خطرا كبيرا يهددهم، فيحاربونها بكل الوسائل .

س : هل حصلت على وعد من برانت بان يساند وجهة نظر كرايسكي بشان علاقة المنظمة مع الاممية الاشتراكية ؟

ج : كان هذا احد المواضيع الاساسية التي تحادثنا حولها ، تحدثت من جانبي عن ضرورة تطوير العلاقة باتجاه الاعتراف بالمنظمة ، وباتجاه اعتراف المانيا الغربية بها . ولا تنسوا ان برانت هو رئيس هذه الاممية ورئيس الحزب الحاكم في بلده . وما اتفقنا عليه في ذلك اللقاء الاول ، وهو ضرورة عقد لقاءات اخرى ، ثم وقعت الضجة التي تحدثت عنها ، ومع ذلك فقد استمرت اللقاءات بشكل او بأخر .

ثم دخلت اتصالاتنا مع الأممية الاشتراكية في طور جديد . اريد ان اشرح كيف تم ذلك .

في ١٩٧٨/٧/٧ تم في فيينا لقاء حضره كرايسكي وبرانت ، وحضره انور السادات وشمعون بيرس رئيس حزب العمل الأسرائيلي ، وصدر عن لقاء الاربعة بيان مشترك . وكنت أنذاك بالصدفة امر بفيينا . وكنت قد اتصلت بكرايسكي كعادتي فور وصولي فعرفت بالبيان ، واعترضت على مضمونه . وكانوا يستعدون لمؤتمر صحفي يتلون فيه البيان ، وكان قد وزع مسبقا على الصحافة بحيث لا يمكن تعديله .

ورد في البيان حديث عن ضرورة السلام من خلال ممثلين منتخبين للضفة والقطاع . وقد جاء كما تعلمون بعد اشهر من زيارة السادات للقدس ، وبعد ان تبدل الحكم في اسرائيل واصبح الليكود في السلطة وحزب العمل في المعارضة ، وكأنما ارادت به الاممية الاشتراكية ان تقدم دعما لعضوها في حزب العمل . واذن فقد صدر البيان برغم اعتراضنا . اما انا فقد توليت شرح خطورة مثل هذا البيان للمستشار كرايسكي ، فشرحت ذلك بالتفصيل ... وبينت أثاره ومخاطره على قضية شعب فلسطين ، مما هو معروف لدى جمهورنا . ثم عدت الى بيروت ، ومن بيروت ارسلنا رسالة خطية الى كرايسكي تضمنت كل انتقاداتنا للبيان . وتقرر عندنا انه لا بد من تحرك . واضافة للاتصال مع كرايسكي وبرانت تقرر ان نتصل بكل من يمكن الاتصال بهم من اعضاء الأممية الأشتراكية ، لحفز اصدقائنا من بينهم على الوقوف ضد مضمون ذلك البيان .

س : في ذلك الوقت كانت واشنطن تشن حملة لجمع المؤيدين لسياستها في دفع مفاوضات السادات مع بيغن الى الامام ، فهل تظن ان توقيع كرايسكي على بيان يتعارض ، كما يدل حديثك ، مع قناعاته الشخصية السابقة ، قد جرى استجابة لمطلب اميركي ؟

ج : لا اظن ذلك، بل انني اعده غير صحيح . وهذه مسالة اريد ان اتوقف عندها. فهي من الاخطاء التي وقع فيها المحللون والمعلقون ، كان توقيع ذلك البيان خطوة من الاممية الاشتراكية ارادت من ورائها ابراز دورها كقوة فاعلة . لا اريد ان اصفها بانها خطوة تناقضت مع الموقف الاميركي ، غير انها تميزت عنه ، لان واشنطن كانت تتعامل مع بيغن ، ولم تحسب حسابا لحزب العمل المعارض ، وارادت الاممية الاشتراكية ان تتضامن مع حزبها وان تعيد الامور الى نصابها، اي دائرتها .

س : هل يعني تحليلك هذا ان الاممية الاشتراكية كانت على قناعة بان اميركا وقفت خلف صعود الليكود برئاسة بيغن وهزيمة حزب العمل ؟ لقد قيلت في حينه اراء كهذه .

ج : حتى تتوضح الصورة : هناك روح تضامن في اطار الاممية الاشتراكية بين احزابها ، وقد تضامنوا مع حزبهم الاسرائيلي ، وعلى سبيل المثال فان حزب العمل عقد مؤتمره في شهر آذار ١٩٧٧ على ابواب المعركة الانتخابية ، في اسرائيل ، فذهب قادة الاممية الاشتراكية اليه كنوع من التضامن لاعطاء دعم لحزب العمل .

من هنا اقول ان بيان الاربعة المشار اليه عكس ، بالرغم من كل شيء ، موقفا متميزا او انطلق من موقف متميز .

اجرينا ، اذن ، بعد صدور البيان اتصالات واسعة وناشطة ، تكون من اجلها فريق عمل فلسطيني وشرحنا موقفنا ضد البيان ، واتصلت انا من جهتي بالاشتراكيين الفرنسيين .

اما بيغن فقد شعر من ناحيته ان البيان الرباعي كان ضربة له ، بما اعطى من اهمية لحزب العمل المعارض ، وبما هو تجاوز على صلاحياته كرئيس حكومة . واما بيرس فقد اعتبره بطبيعة الحال انتصارا لحزبه . واخذا يقتتلان على المغانم ، ومن خلال جدلهما تضخمت المسالة ، وفضحا بعضهما بعضا .

باختصار استفدنا من نتائج ذلك ، وكان فيها ادلة دعمت تحركنا ، وقد اتضح ان حزب العمل خدع زملاءه في الاممية الاشتراكية ، وهذا ما بيناه لهم .

واتجه عملنا نحو اسقاط مضمون بيان فيينا الرباعي ، وتثبيت ما هو لصالحنا في بيان بديل ، يصدر عن مؤتمر الاممية الذي كان يجري التحضير لعقده في باريس . والى محاولة للحصول على اعتراف بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا .

انعقد مؤتمر الاممية الاشتراكية في باريس ، واحتدم الجدل بين احزابها شمعون بيرس جاء وفي نيته ان يصدر عن المؤتمر بيان يعيد نقاط بيان لقاء فيينا الرباعي . كرايسكي وسنغور وبرانت اسقطوا مشروع بيرس . ثم اثيرت مسالة الصيغة البديلة ، التي نريدها نحن ، فاعطيت جهودنا ثمارا جزئية ، ولم نتمكن من الحصول على بيان ينص على ان المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد ، لكن عبارة ممثلي الضفة والقطاع سقطت ، وحل محلها نص على ممثلي الشعب الفلسطيني من غير اشارة الى المنظمة ، وبذا تثبتت وحدة الشعب الفلسطيني ، على الاقل .

وتلا ذلك اقتراح من الحزب الاشتراكي الاسباني بقبول منظمة التحرير عضوا مراقبا ، فوقف بيرس مناورا ، وطالب بطرح الاقتراح على التصويت ، لو طرح آنذاك لسقط . وكان بيرس اعلن انه يرفض الاقتراح لان المنظمة ارهابية ، وهدفها المعلن في ميثاقها هو تدمير اسرائيل . ورد كرايسكي بانه لا يرى ان هذا هو هدف المنظمة ، فالمنظمة تريد اقامة دولة للفلسطينيين . فلنتاكد من هذه المسالة . هذا يعني انه لا بد ان نستفسر من منظمة التحرير ايضا . واقترح على ضوء ذلك ان يفوض رئيس الاممية الاشتراكية باجراء اتصال مع المنظمة .

وافق المؤتمر على اقتراح كرايسكي ، وكان ذلك نصرا لنا بأكثر مما نتصور .

س : نصر باي معنى ؟

ج : بمعنى اننا اسقطنا بيان فيينا الرباعي . واستبدل بوثيقة ثانية ، ان لم تتضمن مطالبنا كلها فهي لصالحنا . وغابت مقولة ان الشعب الفلسطيني هو سكان الضفة والقطاع . وتقرر الاتصال بمنظمة التحرير ، وهذا اعتراف ضمني بانها قائدة الشعب .

اريد ان اقول هنا ان كرايسكي رجل جريء وشجاع ، سياسي مقتدر . كان هو اول زعيم اوروبي غربي قابل جمال عبد الناصر ، وهو اول زعيم طرح قضية الشعب الفلسطيني وحقوقه . انه رجل متميز .

س : تلك اذن هي الخلفية التي مهدت للقاء الاخ ياسر عرفات مع قيادة الاممية الاشتراكية فيما تظن .

ج . بالنسبة للزيارة الى فيينا ... هذه مسالة بالغة الاهمية لها خلفية ولها عوامل ومقومات ، اريد ان احدد الظروف العامة والخاصة التي اوجدتها .

الحديث الذي ذكرناه آنفا كان جزءا من الخلفية العامة التي مهدت للقاء فيينا ، كان هذا عاملا واحدا . وبتقديري ان الذي فتح الطريق الى فيينا . وقبله الطريق الى الامم المتحدة ، كان دم الشهداء . شهداء الكفاح المسلح الذين وضعوا فلسطين على الخارطة السياسية في العالم ، هم اولا وقبل كل شيء اصحاب الفضل . هناك قافلة ثانية من الشهداء عبدت الطريق ، هي قافلة شهداء الكفاح المسلح السياسي . ومن حقي ان اقول انه بدون دماء سعيد حمامي وعز الدين القلق ربما كان الطريق ما يزال وعرا ... شهداء الكفاح المسلح والسياسي لعبوا دورا ، بنضالهم في حياتهم . وبعبرة استشهادهم كرسوا اسم فلسطين .

وهناك تغير المزاج السياسي ، والخطر الذي يحسه العالم من جراء فشل المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية في تحقيق الاستقرار . عامل اخر مهد للقاء فيينا واعطاه مغزاه . العالم يتعامل على ضوء مصالحه . وفي اوروبا الغربية يدرك كثيرون ان حربا جديدة في الشرق الاوسط تعرض المصالح الاوروبية للخطر بسبب تهديدها لتدفق البترول . وقد تبين ان المعاهدة بدل ان تكون حربا عربية اسرائيلية خامسة . فهي مسالة تثير اوروبا الغربية ، وعلى ضوئها يفهم الموقف المتميز لاوروبا الغربية هذه . هناك مصلحة اوروبية ومصلحة اميركية تلتقيان بنسبة ٩٠ بالمئة ولكنهما تتمايزان فيما عدا ذلك . نقطة التمايز مسالة علينا ان نعيها . عامل ثالث يمكن ان اشير اليه وهو شعور اوروبا الغربية بضعف القيادة الاميركية . قيادة كارتر قيادة ضعيفة مهزوزة اهتزازا كبيرا ، وواضح انه عاجز عن ان يقود هذا العملاق المسمى الولايات المتحدة في الدور المرسوم له . والجزء من القرار السياسي الذي كان حلفاء اميركا الغربيون يتركون لها صاروا يواجهونه مباشرة ، بسبب ضعف الثقة بمقدرة القيادة الاميركية .

س : كيف بدأ التخطيط للقاء فيينا ؟

ج : طرحت فكرة اللقاء في أواخر ايلول ١٩٧٨ ، والحقيقة ان كرايسكي طرحها بعد مفاوضات كمب ديفيد .

س : من الذي طرح الفكرة اولا ؟ من جانبنا ام جانبهم ؟ هل طرح الاخ ياسر عرفات الفكرة ؟

ج : لم يكن ابو عمار آنذاك على علم بالامر . فالعامل مثلي في الحقل السياسي يجد فرصة فيغتنمها . لم اطرحها باسم ابو عمار ، وانما جاءتني الفكرة فسالت كرايسكي : ما رايكم ؟ . قابلت كرايسكي في باريس ، ثم في فيينا بعد ايام . واستعرضنا نتائج مفاوضات كمب ديفيد ، وشرحت له مساوئها من وجهة نظرنا . فكانت نتائج في منتهى السوء بحيث يمكن ان نحقق سلاما او استقرارا . اجتهدت ، لان النتائج كانت قد اعلنت للتو . بينت ان الشعب الفلسطيني يرفض الوصاية ، وصاية اي طرف عليه ، كيف عليه ان يقبل سلاما يسقط دور الشعب الفلسطيني . ويسقط دور سوريا وبقية الامة العربية ، وقلت ان المعاهدة ستنتهي الى طريق مسدود ، وبعض الجهات تتهمني . انا اقول لكم : لو قال الاسرائيليون رأيهم للتاريخ فسيقولون ان من يوصفون بالاعتدال على الساحة الفلسطينية هم المتطرفون .

س : هذه قصة اخرى ... ما الدافع الى عرض اقتراح اللقاء بعد كمب ديفيد مباشرة ؟

ج : ادركنا ان علينا ان نواجه كمب ديفيد ، ولا بد من فتح ثغرة في جداره . الثغرة كانت في خلق بديل ، من خلال تكريس دور اوروبا الغربية وتقديره . في ذلك اللقاء اقترحت على كرايسكي ان يتم لقاء بينه وبين الاخ ياسر عرفات .. وفي هذا بحد ذاته تكريس للدور الفلسطيني ايضا . الفلسطينيون موجودون على الساحة . اراد كمب ديفيد ان يمسحهم لكنهم موجودون .

س : هل اقترحت ان يتم اللقاء في فيينا ؟

ج . اقترحت لقاء ولم احدد المكان .

س : مع كرايسكي ، ام مع الاممية الاشتراكية ؟

ج : كنت انذاك اتحدث مع كرايسكي عن لقاء معه ، فوافق . وكان الاخ ابو عمار وقتها في زيارة لموسكو ، وينوي التوجه لحضور قمة بغداد العربية . ابلغته الاقتراح فوافق ، وتحدد موعد اللقاء في شهر تشرين الثاني ١٩٧٨ .

س : هل كان كرايسكي يتعجل اللقاء ؟

ج : عندما طرحت عليه الفكرة قال : كلما كان اللقاء اقرب كان ذلك افضل .

س : الم يبد تحفظات او تخوفات من ردود فعل ضده ؟

ج : سبق له ان اجتمع مع الاخ ياسر عرفات مرتين ، ومع غيره من القادة ، اجتماعات علنية ، لم يكن الامر جديدا ، ولم يبد تحفظات .

ثم جاءت ظروف لم تسمح بأن ينعقد اللقاء في تشرين الأول : من ناحية كرايسكي تعرفون ان المعارضة عنده ، تستغل اتصالاتنا معه لمهاجمته ، وكذلك موقفه من الهجرة اليهودية . تلك احدى نقاط ضعفه الداخلية ، وكانت هناك قضية داخلية مثارة حول مصنع للطاقة النووية يقام بتكاليف باهظة،فشل في الحصول على الموافقة على اقامته . فهناك اذن ظروف داخلية ادت من جانبه الى تأجيل اللقاء .

ومن الجانب الاخر كانت هناك ظروف طرأت جعلت الاخ ياسر عرفات مشغولا .

ودخلنا في العام ١٩٧٩ ،فتقرر اجراء انتخابات في النمسا تسبق موعدها العادي . ولو تم اللقاء قبل الانتخابات لاستخدمته المعارضة . في اذار تم توقيع المعاهدة المصرية – الاسرائيلية وبدأت عمليات في اوروبا نسبت للفلسطينيين ، نسف معبد يهودي في النمسا في اواخر نيسان ، وصدر بيان يقول ان المنظمة هي المسؤولة ، وفي المانيا الغربية اعتقل فلسطينيون يحملون كمية كبيرة من المتفجرات ، كانوا في طريقهم الى هامبورغ ، فانقلب الجو وصار من المناسب تأجيل الزيارة .

س : كيف اعتدل الجو بعد ذلك ؟

ج : فاز حزب كرايسكي فوزا ساحقا في الانتخابات ، وخرج قويا الى درجة كبيرة . كنت في فيينا وكنت ارقب نتيجة الانتخابات . لو فشل لكانت خسارة كبيرة لنا . بدأنا نرتب لموعد جديد . اثيرت تقولات . احد الاخوان اعضاء اللجنة التنفيذية قال ان لقاء فيينا له صلة بقمة كارتر وبريجنيف التي انعقدت للتوقيع على اتفاقية سالت ٢ . قيل ايضا انه تم على ضوء اميركي ، آخرون قالوا . بموافقة اميركية .

ليس هذا صحيحا ، هذا ما اريد قوله ، عندما جرى التخطيط لقمة فيينا ، بين كارتر وبريجنيف ، كان البحث في ترتيب زيارة الاخ ياسر عرفات قد مضت عليه تسعة شهور .

س : قالت انباء صحفية ان كرايسكي ابلغ كارتر وبريجنيف عن عزمه على اللقاء مع رئيس اللجنة التنفيذية ، فهل هذا صحيح ؟

ج : ليس هذا صحيحا .

س : الخبر اعطته للصحافة مصادر فلسطينية ؟

ج : لا اعرف التفاصيل . اعرف ان هذا ليس صحيحا .

س : نبقى في السياق ونسأل : كيف انتقلت الفكرة من لقاء مع كرايسكي الى لقاء مع قيادة الاممية الاشتراكية ؟

ج : اريد ان اؤكد النقطة السابقة . ليس صحيحا ما قيل ، ففكرة اللقاء انبثقت مباشرة بعد مفاوضات كمب ديفيد ، وكرد فعل عليها ، اي على السياسة الاميركية ايضا . دعا كرايسكي الاخ عرفات ليزور النمسا ، وهذا حق من حقوق السيادة النمساوية ان يدعو من يشاء ليتحدث فيما يشاء . واي تفسير غير هذا ليس صحيحا ، فالذين يطلقون تفسيرات مغايرة لا يعرفون الحقيقة . انني اعرف تفاصيل تفاصيلها . واعرفها موثقة بوثائقها الرسمية .

س : لنعد الى سؤالنا السابق .

ج : كان لدينا خطة عمل من اجل لقائين . واحد ثنائي مع كرايسكي ، والثاني مع قيادة الاممية الاشتراكية ، اي مع برانت بحضور كرايسكي وعدد آخر من القادة . دمجنا الفكرتين فيما بعد .

منذ اوائل ايار نوقشت عدة مواعيد للقاء ، ولم يمكن تحقيقها ، قمة سالت ٢ مثلا ادت لتأجيل الموعد . واخيرا تم تحديد الموعد الذي جرى فيه اللقاء بحضور برانت .

س : من الذي اقترح فيينا مكانا للقاء ؟

ج : الحقيقة : ان. كرايسكي رحب ، في البداية ، ومرت مراحل ناقشنا فيها: متى واين؟. بعد الانتخابات النمساوية اصبح اللقاء ممكنا في فيينا . حضرنا من جانبنا للقاء بشكل جيد ، واجرينا مشاورات مسبقة مع الطرف الآخر ، ووضعنا على ضوء ذلك مسودة بيان مشترك .

س : ما هي المواضيع التي دار حولها الحديث ؟

ج : لا بد من الاشارة الى ان اللقاء كان سريا ومغلقا . بامكاني ان اقول ان حديث الاخ ياسر عرفات لجريدة « السفير » (نشرت السفير الحديث في ١٩٧٩/٧/٢٣) كان شافيا .

لقد بسط الاخ ياسر عرفات في اللقاء الموقف الفلسطيني على ارضية قرارات المجلس الوطني الفلسطيني ، وهو الذي قال : انتخبني المجلس الوطني رئيسا لمنظمة التحرير باسلوب ديمقراطي ، وائتمنني على قراراته ، فانا حاميها والمدافع عنها . وكان في عرضه للموقف الفلسطيني سالكا قمة المقدرة على الاقناع . « لقد أسر قلبي وعقلي الزعيمين الاوروبيين الكبيرين . ارادهما ان يفهما حقيقة الموقف الفلسطيني بدءا بقرار الدولة الديمقراطية مرورا بقرار السلطة الوطنية وانتهاءا بقرار الدولة الفلسطينية » ، وقد شرح هذه القرارات ومغزاها على اوضح صورة .

اما هم من جانبهم فقد بسطوا رأيهم ، وعرضوا موقفهم من القرار ٢٤٢ وسألوا عن الموقف الفلسطيني منه ، وكان جواب الاخ عرفات ان القرار مرفوض رسميا وعاطفيا ، لانه يتعامل معنا كلاجئين ويسقط حقوقنا الوطنية من حسابه . وقال اننا اعلنا تأييدنا للبيان السوفياتي الاميركي المشترك . ونحن لسنا عقبة في وجه السلام . وقبلنا قرارات مؤتمر قمة بغداد العربية ، التي اعلنت ان هدف الامة العربية هو النضال من اجل سلام دائم وعادل يقوم على اساس الانسحاب الكامل من الاراضي العربية التي احتلتها قوات العدوان العام ١٩٦٧ ومن ضمنها القدس ، وتثبيت الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني ، ومن ضمنها الدولة الفلسطينية وحق العودة . واثاروا من جانبهم ما يتردد من ان الميثاق الوطني الفلسطيني ينص على تدمير اسرائيل . وكان هذا بيت القصيد كما يقولون .

سألهم الاخ عرفات : عن اي شيء تتحدثون ؟ هل قرأ احد منكم الميثاق؟ وكان الجواب بالنفي، فقال : لو كنت اعرف ذلك لاحضرت لكم نسخة مترجمة عنه . الميثاق لا يذكر كلمة اسرائيل . هذه الكلمة غير موجودة في الميثاق . وتوجه الى برانت وقال له : دستور دولتكم يتحدث عن توحيد شطري المانيا ،فهل يعني ذلك انك تريد تدمير جمهورية المانيا الديمقراطية ، الدولة المعترف بها ؟ فضحك برانت . وقال الاخ ابو عمار ان ميثاقنا يتحدث عن تحرير وطننا . وبين لهم ان الميثاق الوطني ينص على ان فلسطين هي وطن الشعب الفلسطيني . وتحريرها واجب وطني وقومي وانساني .

فعلق كرايسكي : من المفهوم ان تقولوا ذلك .

سألوا عن الدولة الفلسطينية كيف نتصور حدودها ، فاجاب الاخ ياسر عرفات . انا لا اعطي حدودا .

وسألوا فيما اذا كانت الارض كافية.وكان الجواب هذا من شأننا .

س : هل تطرق الحديث لمناقشة اي مشروعات محددة حول التسوية ؟

ج : لم يخرج الحديث عن الاطر التي تحدثت عنها ، ولم يكن هناك مشاريع من اي نوع،بل مجرد افكار عامة ، واستطلاع مواقف ، ولم ينته الحديث الى صياغة اي مشاريع .

س : قيل ان كرايسكي وبرانت يلعبان ، او ينويان ان يلعبا ، دور وسيط من اجل تسوية تشترك فيها منظمة التحرير ؟

ج : لم يدر اي حديث لا عن وساطة ولا عن وسطاء .

س : هل وعد الجانب الاوروبي الغربي ، سواء كاحزاب حاكمة ، او كممثلين للاممية الاشتراكية بالاعتراف اعترافا رسميا بمنظمة التحرير وبصفتها ممثلة شرعية للشعب الفلسطيني على غرار ما نص عليه قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٢٣٦ في دورتها التاسعة والعشرين ؟

ج : التقوا برئيس منظمة التحرير والوفد الممثل لها وتباحثوا معه حول مستقبل قضية فلسطين . فقالوا : من واجبنا ان نعمل لنطور هذا الاعتراف الواقعي الى اعتراف رسمي وهذا ما ننوي القيام به .

س : سؤال اخير . هل كان ثمة وعد بقبول المنظمة عضوا مراقبا في اجتماعات الاممية الاشتراكية .

ج : سيكون ذلك من مصلحتنا لو تم ، وسوف نواصل السعي من اجل تحقيقه .

[أجرى الحوار : فيصل حوراني]

مـراجعات

يهوشافاط هركابي :
« الاستراتيجيات العربية وردود الفعل الاسرائيليـة »
ترجمة احمد الشهابـي ، دار القـدس ،
بيروت ، ١٩٧٩ .

يضفي اسم المؤلف اهميـة زائـدة على هذا الكتاب ، لقد شغل مؤلفه عدة مناصب حساسة في الدولة الصهيونية . فهو اشترك كقائد عسكري في حرب ١٩٤٨ ، واصبح سكرتيرا لوزير الخارجية عام ١٩٤٩ ، وعين ، بعد ذلك ، مديـرا للمخابـرات الاسرائيلية برتبة ميجـور جنـرال خلال الفتـرة ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩ ، وعمل استاذا للعلاقات الدولية ودراسات الشرق الاوسط بالجامعـة العبريـة في القدس ، وفي شتاء ١٩٧٧ عين مستشارا لشؤون الامن لدى رئيس مجلس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين .

وهركابي الذي يصنف نفسه من مدرسة « حمائم الصقور » (كما يسميها) في اسرائيل ، يعبر ، بشكل اصيل ، عن السلوك السياسي الصهيوني الرسمي الذي يحاول ان يطرح أمام الخصم والراي العام سياسته وشروطه بطريقة تبدو معها معتدلة ومعقولة ، وبينما هي في الجوهر تعجيزية ، بحيث لا يسع الخصم الا رفضها . وفي هذه الحالة يبدو الخصم هو المتطرف وغير المعقول ، سيما اذا لم يستسلم لهذه السياسة والشروط .

ان النموذج الذي يمثله هركابي المتستر برداء العلم والنظرة الاكاديمية الموضوعية يواجهنا بطرح سؤال محوري : هل يمكن للعلم والفكر السياسي ان يكون موضوعيا وامينا محايدا ، خاصة اذا كان يسعـى لخدمـة مصالـح وسياسـات عدوانيـة واستغلالية ؟ .

وهذا النموذج الذي يطرحه هركابي هو نفسه النموذج الذي يمثله المثقفون « والمستشـارون » الذين يعملون في مؤسسات النظم الاستغلالية ، حيث يقتصر دورهم على تقديـم التبريـر « العلمـي » والاخلاقي البرجماتي والغطاء الديماغوجي الدعائي للسياسات المتبعة .

فما دام الكاتب السياسي في اسرائيل ملتزم بما تمثله الصهيونية ، فان فكره لا بد ان يكتسب الكثير من السمات الصهيونية وبما تمثله من تضليـل ومراوغة وعدم امانة ، ومهما تستر فكر هذا الكاتب برداء النظرة « العلمية » .

الا ان دراسة هذا الفكر السياسي ، كجزء من عملية فهم طبيعة ومواقف العدو ، يكتسب اهمية حاسمة . ولم تكن اجـراءات المنـع والتحريـم السابقة ، التي كانت تمارسها الانظمة العربيـة للحيلولة دون الاطلاع على كل ما يمت بصلة للكيان الصهيوني ، لم تكن تخدم ، في النتيجة ، سوى الدور الذي تلعبه الصهيونية في المنطقة . ومهما تذرعت هذه الانظمة بمشاعر العداء الوطنية الشعبية المشروعة لتغطية سياسة التجهيل التـي كانـت تمارسها .

والواقع ان ما يعطي بعض القوة والتماسـك الشكلي للفكر السياسي الصهيوني الـذي يمثلـه هركابي هو نوع ما يواجهه من استراتيجيـات وتكتيكات متبعة من الانظمة . فهو فكر يقتات على

تهافت وتناقض ولفظية فكر وسياسة الانظمة العربية ، محاولا ان يظهر للراي العام داخل اسرئيل وخارجها ان هناك مبررا ومشروعية لبقاء واستمرار الصهيونية .

ينقسم الكتاب الى قسمين : القسم الاول يعرض ويناقش ما يسميه المؤلف « الاستراتيجيات العربية » ابتداء من الخمسينات والستينات وحتى نهاية ١٩٧٥ . والقسم الثاني يعرض فيه للسياسة الاسرائيلية في مواجهة الاستراتيجيات والمواقف العربية .

١ ـ الاستراتيجيات العربية .

ففي القسم الاول يرى الكاتب ان التفكير العربي بشأن النزاع العربي ـ الاسرائيلي اهتم في الخمسينات «بالهدف» بينما يتركز التفكير العربي في الوقت الراهن حول خيارات البرنامج » . (ص ١٥) . وكان التعبير عن الهدف بانه « تدمير « اسرائيل » جسديا اي تدمير دولة اسرائيل ، وكان يتم ذلك بوضوح وبدون اية تعميات كلامية » (نفس الموضع) .

ويرى المؤلف ان هدف تدمير اسرائيل لا يستند الى مجرد الحقد ، بل انه يعكس ، من حيث المبدأ ، فلسفة تقول ان تدمير اسرائيل تصحيح لخطأ وقع ضد العرب ، وبذلك يمكن « اعادة البلاد الى اهلها » (ص ١٦) .

وقد اصطدم هذا النوع من التفكير العربي بصدد النزاع بعقبتين اساسيتين : « الاولى اخلاقية سياسية وهي تبرير ابادة الدولة ، والثانية عملية ، وهي المقدرة على تنفيذ هذا الهدف .. وان استمرار التمسك بابادة « اسرائيل » كهدف صاحبه دائما صعوبة تبنيه من الغير . وهكذا حل مكان شعار ابادة « اسرائيل » شعارات عامة غير مباشرة مثل شعار « تحرير فلسطين » وشعار « عودة الفلسطينيين » » ، وفيما بعد شعار اقامة «دولة ديمقراطية» . ان مثل هذه الشعارات ، رغم مظهرها الايجابي ، تخفي جميعها النية لابادة « اسرائيل » (ص ١٦ ، ١٧) .

ويرى المؤلف ان انحسار شعار ازالة الدول في العصر الحديث والخوف من التدخل الغربي ومن قوة « اسرائيل » ووعي العرب على ضعفهم انتج ارهاصات وشكوكا مؤلمة عن مدى القدرة العملية لتنفيذ شعار تدمير «اسرائيل» وبذلك اصبح الوضع العربي مستحيلا «فهو مشطور بين الايمان بضرورة تحقيق الهدف ، والشك بالقدرة على تحقيقه .. وهكذا تم استبدال البرنامج بالخطب والكلام ومن الجائز ان غياب اي برنامج جدي يخفي وراءه الوعي على احتمال كشف الصعوبات التي تقف في طريق تحقيق الهدف وبالتالي ، سحب الثقة من احتمال تنفيذه » . (ص ١٨) .

وكان « المظهر الآخر للموقف العربي في الخمسينات هو عدم ايكال اي دور في النضال ضد « اسرائيل » الى الفلسطينيين ، فقد اكتفى العرب ببساطة بوضعهم في ركن بعيد ، وهذا يعود جزئيا الى تبعثرهم وضعفهم ، ولكن اكثر من ذلك يعود الى عدم رغبة الدول العربية في السماح لهم بتنظيم انفسهم » . (ص ١٩) .

ان الكاتب في عرضه الوصفي ، يلجأ الى التحليل والتفسير في المواضيع التي تخدم ايديولوجيته ، ولكنه لا يفسر ابدا سبب هذه الهوة المستمرة بين الهدف المعلن من قبل الانظمة العربية لابادة اسرائيل وبين غياب البرنامج العملي لتحقيق ذلك ؟ الا تعكس هذه الهوة المستمرة في غياب وجود استراتيجية فعلية لدى هذه الانظمة . فقد فصلت هذه الانظمة ، بدرجات متفاوتة ، بين المعركة مع اسرائيل وبين المعركة مع الامبريالية ، وعدد اخر من الانظمة العربية استثمر دعاويا العداء للكيان الصهيوني من اجل تشديد واحكام قبضة القمع الداخلية بحجة « لا صوت يعلو فوق صوت المعركة » ، المعركة المؤجلة دائما لضرورات « الاستعداد وحشد القوى » وتحقيق المزيد من « وحدة الصف » الخ ...

اليست اشكال الحكم العسكرية الموجهة ضد الشعب وحيث لا معركة جدية ضد العدو الصهيوني هي التتمة المنطقية للدور الامبريالي المناط بالكيان الصهيوني في المنطقة ؟ الم يقدم عدد من الانظمة العربية بعد حرب ١٩٤٨ ، على تصدير مئات الالاف من اليهود العرب الى الكيان الصهيوني بحجة تأجج العداء « الشعبي » ضد اليهود .. مثل هذه المئات من الالاف لم تستطع الحركة الصهيونية وبمساعدة القوى الامبريالية على مدار ثلاثين عاما احضارها الى اسرائيل . فمن المعروف ان عدد يهود البلاد العربية

الذين اجبروا للجوء الى اسرائيل بعد ١٩٤٨ لا يقل عن ٦٠٪ من عدد سكان اسرائيل !

ثم ما هي دلالة « المظهر الآخر للموقف العربي في مرحلة الستينات » ، وهو عدم اعطاء اي دور للفلسطينيين في النضال ضد اسرائيل ؟ هذا في الوقت الذي كانت تتذرع فيه هذه الانظمة بفلسطين والمعركة وبضرورة ابادة وتصفية الكيان الصهيوني . ان منع الفلسطينيين من الحركة النضالية المستقلة ، ومصادرة ما تبقى من كيانهم السياسي في الضفة الغربية وغزة ، ليس مجرد « مظهر » بسيط للموقف العربي الرسمي ، انه يحمل كل الدلالة التي تؤكد عدم جدية هذه الانظمة في التصدي المنسجم للامبريالية على مختلف الصعد ، وبشكل خاص لما تمثله اسرائيل من دور عدواني استنزافي في المنطقة . ان الاهداف والشعارات العامة لا تعني وجود استراتيجية ، فالاستراتيجية تعني بتحديد طبيعة المرحلة التاريخية السياسية المحدودة وبكيفية حشد القوى السياسية القادرة على تجاوز المرحلة ، ثم اية استراتيجية هذه لدى مثل هذه الانظمة حين كانت تفصل باشكال مختلفة بين اسرائيل والامبريالية ؟ .

ويتابع هركابي عرضه شارحا مفهوم « الحرب الشاملة » ، كما كان يراها الرئيس عبد الناصر ، وهو مفهوم يرتكز على ضرورة تحقيق تفوق عربي ساحق من شأنه ان يدمر اسرائيل باقصى سرعة ، وهو تفوق عسكري لا بد ان يرتكز الى اصلاحات داخلية سياسية واقتصادية واجتماعية وحشد وتعبئة القوى والطاقات العربية (ص ٢١) ويرى المؤلف ان موقف عبد الناصر اصبح « خليطا من التطرف حين يطرح فكرة الحرب الشاملة ، ومن التريث حيث يطرح ضرورة تأجيل تنفيذها . ولذلك كان هذا الموقف بحد ذاته يشكل كسبا « لاسرائيل » ، لانه يثبت عدم امكانية تنفيذ مضمون الشعار العربي بابادة « اسرائيل » على الاقل في المستقبل المنظور ، والتأجيل يمكن ان يكون الخطوة الاولى للتراجع عن الهدف والاتجاه نحو الحرب » . (ص ٢٢) .

وهركابي يتهرب من معالجة وتفسير مسالة لماذا يسعى « العرب » لابادة وتدمير اسرائيل ، هل هذا راجع بسبب دافع « الثأر » مما حدث لاهل فلسطين ، ام نتيجة الرغبة في اقتلاع هذا الجسم « الغريب » في المنطقة لمجرد كونه غريبا ؟ . وبصرف النظر عن طريقة الانظمة في التعامل مع هذا الشعار والاهداف السياسية الداخلية التي تتوخاها من جراء ذلك ، اضافة الى عدم قدرتها وجديتها في الاستعداد لتنفيذ ما تدعيه من شعارات بهذا الصدد : فان الدور الامبريالي العدواني الاستنزافي هو المطلوب تصفيته مجسدا في المؤسسة العسكرية والدول الصهيونية . فهذا الدور موجه ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية الاخرى وتقدمها وتطورها ، وضد اليهود انفسهم في فلسطين الذين يتم استخدامهم كاداة وضحية . فالضرر الذي يلحقه هذا الدور الامبريالي هو الذي يبرز لدى الجماهير العربية مثل هذه الشعارات ، وذلك بعيدا عن طريقة الانظمة في التعامل مع هذه الشعارات . وقد شهدنا كيف لعبت اسرائيل لصالح الولايات المتحدة الاميركية دورا مميزا في القضاء على التجربة الناصرية الوطنية البرجوازية ووضعها في مأزق واقعي لتسهيل تقديم التنازلات امام الامبريالية واسرائيل .

يربط هركابي بين فشل مفهوم « الحرب الشاملة » وبين بروز مفهوم « حرب العصابات » التي باشرها الشعب الفلسطيني .

وحرب العصابات لن تكون حدثا خاطفا ، بل هي حرب استنزاف طويلة المدى من دون حاجة « لانتظار الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية اللازمة لخوض الحرب الخاطفة الشاملة » . واتباع هذا الاسلوب في العمل من وجهة نظر المؤلف « يشكل اتجاها نحو المرحلية ، ولكن باسلوب عنيف .. وقد تم تبنيه تقليدا لانتصارات حروب العصابات في كل من الصين وكوبا والجزائر وبعد ذلك في الفيتنام » (ص ٢٣) . وهو يرى ان هذا الاسلوب غير مجد . في حالة اسرائيل ، لانه يقطن فيها « يهود لا يتجاوبون مع المقاتلين الفدائيين ، وبذلك لا يتسنى للسمكة العربية ان تنتشر في هذه المياه » . (ص ٢٤) وهركابي يختزل اتباع اسلوب حرب العصابات الى مسالة منعزلة بذاتها ، وليس بارتباطها العضوي بوجود قوى شعبية ديمقراطية محيطة بفلسطين ، علاوة على ان التطور الحقيقي لاتباع اسلوب حرب العصابات لا بد ان يتحول الى مواجهات واسعة في المستقبل حين يتم توفر شروط سياسية عربية موائمة ، وهو اسلوب عنف شعبي يستمد شرعية من الطبيعة العدوانية ، للكيان الصهيوني والتي لا تزول من تلقاء نفسها ، الا عبر توجيه الضربات القاصمة لها ، مع استخدام كافة

اشكال النضال الاخرى الملائمة والمساندة .

يختزل هركابي مسألة حرب العصابات التي تتبعها الثورة الفلسطينية الى مجرد رد فعل مشكوك في جدواه وفعاليته لحسم الصراع . وهو يرى ان النقلة الحقيقية في الفكر العربي الجديد ، تمت اثر هزيمة ١٩٦٧ . فهو لا يفسر اسباب فشل الفكر القديم « تصفية اسرائيل » ، الا بالفشل والعجز نفسها ، وكرد فعل على ذلك « انتقل الفكر السياسي العربي من الاكتفاء بالحديث عن الهدف .. الى فكر يتصف بالعملية والى وضع برنامج واستراتيجية عمل .. وعندما تطور فكرهم (العرب) باتجـاه وضع البرنامج ، اغتنت مفاهيمهم واصبحت اكثر تنوعا ، وتدريجيا تحولت ثلاثة مفاهيم اساسية الى ثلاث مدارس فكرية .. (١) مدرسـة التـآكل والاضمحلال (٢) مدرسة اعادة « اسرائيل » الى ابعادهـا الطبيعيـة ، (٣) مدرسـة الكفـاح المستمر . (ص ٢٧ ، ٢٨) . وما يجمع بين هذه المدارس ان جميعها « لجأت الى سياسة المراحل مع اختلاف فيما بينها لتبرير مفهومها للمرحلية » . (ص ٢٨) .

ان هركابي يتحدث عن العرب كتكوين سياسي شبه متجانس ، فهو لا يربط المفاهيم والسياسات المتبعة بنوع الانظمة الطبقية السائدة . علاوة على كونه يبرز « جدة » التفكير العربي وعلميته وعمليته « ومرحليته » كنتاج لهزيمة ١٩٦٧ .

ان المرحلية في النضال تفترض وجود برنامج استراتيجي وفي ضوئه يتم رسم المواقف والتكتيكات الملائمة تبعا لموازين القوى القائمة .. فالمرحليـة كفكرة بذاتها لا تساوي النظرة العلمية ، وان كان ثمة مرحلية حقيقية لدى الانظمة العربية قبل ١٩٦٧ هو عدم جديتها في وضع برنامج مواجهة عملية ضد اسرائيل . وهذا نوع من المرحلية السلبية . ولا يمكن بالمقابل ، عزو كل أيجابية الى المرحلية اللاحقة على ارض هزيمة ١٩٦٧ ، فهي مرحلية تقديم التنازلات والمساومات على نطاق واسع ، كنتيجـة حتميـة لاستمرار نفس الانظمة في التصدي للامبريالية ، ولكن ضمن ظروف سياسية صعبة وجديدة . انها ليست مرحلية المواجهة العلمية الثورية،وهي مرحلية ضرورية ومن دونها لا يمكن احراز اي تقدم في الصراع مع الامبريالية ، ومصيبة هركابي في فهمه لنوع « مرحلية » الانظمة ، انه لا يرى فيها تنازلات تتم على ارض الهزيمة وكنتيجة لافلاس تاريخي وسياسي . بل يرى فيها اتجاها برجماتيا معتدلا في الاسلوب والوسائل المتبعة فقط . لان « العقيـدة العربية الدائمة هي ابـادة اسرائيـل » . (ص ٣٢) . فحسب وجهة نظره ، اضطر « العرب » للقبول بالمرحلية واصبح لديهم حس عملي برجماتي ويطرحون برامج محددة ، بعد ان فشلوا في تحقيق هدفهم في ابادة اسرائيل دفعة واحدة « فالعرب الآن يطرحون مطالبه على « اسرائيل » على انها محور الصراع ، وكأن التسوية فقط تنحصر في تحقيق هذه المطالب » . (ص٣٣)

هناك محاولة مكشوفة . لدى هركابي لمغازلة واسترخاء واثارة الاتجاهات الليبرالية والعقلانية لدى الرأي العام العالمي حين يلجأ في سياق تحليله الى تصوير العرب ، ضمنا ، بالجهلة والعقول المتعصبة المتحجرة التي تصر على تصفية وابادة اسرائيـل (التي تساوي نزعة معاداة الساميـة وتصفيـة « الجنس » اليهودي لدى هركابي) لا لسبب ، الا لكون اسرائيل « جسم غريب » ، او بدافع « الثأر » بكل ما يعنيه من مفاهيم متخلفة .. ويصل التضليل الى منتهاه حين يذكر هركابي بالحرف الواحد « ان فكرة تدمير الدولة مستندة الى فكرة ابادة الجنس ، وكل منهما مرتبط بالآخر بشكل عضوي » . (ص ٣٧) .

ولنعد الى مصيبة هركابي الذي يرى التغير في المواقف العربية من اسرائيل مجرد وسائل جديدة او خطوات تدريجية في اتجاه ابادة اسرائيل . فالمطالب العربية المحددة بعد ١٩٦٧ وهي (١) انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة ، (٢) حل المسألة الفلسطينية ، اي استعادة لحقوق المشروعة للفلسطينيين وحقهم في تقرير المصير ، انما هي صيغ وتعابير جديدة مخفضة من اجل تصفية دولة اسرائيل. «والمطلب الثاني هو ملحق المطلب الاول،وقد يكون مضمونه شريرا ، لانه اذا حدث وانسحبت اسرائيل الى حدود ما قبل ١٩٦٧ ، تتواجد ارض يمكن اقامة دولة فلسطينية عليها . (ص ٢٥ ، ٢٦) وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني على كامـل ارضـه ، « واصطلاح » الدولة الديمقراطية العلمانية ، وكذلك شعار عودة الفلسطينيين الى ارضهم ، انما هي شعارات « تخفي معنى ابادة اسرائيل » . (ص ٤٠) .

فحين تتم « المطالبة » بضرورة انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة وحل المسألة الفلسطينية عن طريق حق تقرير المصير للفلسطينيين وحقهم في العودة ، فانما يعنون بذلك نسف اسرائيل بطرق مختلفة . لان « الاعتدال العربي ما زال نسبيا ، ويستمر ضمن اطار التطرف » . (ص ٤٥) « وعودة الفلسطينيين ليس هدفا واضحا ، بل لها دلالة برنامج عملي كوسيلة لنسف « اسرائيل » من الداخل حيث تؤدي عودتهم الى كارثة والى تغيير في التوازن السكاني » (ص ٤١) . وهو يرى ان الميثاق الوطني الفلسطيني حين يتحدث عن حق تقرير المصير للفلسطينيين على كامل ترابهم انما « يحرم اليهود من حقهم بانشاء دولة لهم فهو (الميثاق) لا يشير الى الاسرائيليين » . (ص ٤٢) .

ولا ينسى هركابي ان يبتذل شعار عودة الشعب الفلسطيني الى ارض وطنه ، الى مسألة تقنية عملية ، فهو يقول : « احيط مطلب عودة جميع الفلسطينيين بجو دافىء انساني حين يتكرر الحديث عن عودتهم الى منازلهم ، رغم انه لم يعد لها في الوقت الراهن اي وجود » . (ص ٤١) . وكان عودة الفلسطينيين الى المنازل التي تركوها في ارض وطنهم ، وليس الى وطنهم نفسه ، ويمكن حل هذه المسألة تبعا لمنطق هركابي بايجاد منازل لهم في مكان اخر من بلاد العرب الواسعة !

وجميع المدارس الفكرية العربية الجديدة الثلاث التي صنفها هركابي ، انما تستهدف تدمير دولة اسرائيل باشكال مختلفة .

فمدرسة « التآكل والاضمحلال » هدفها زوال اسرائيل ليس بواسطة الاسلحة ، وانما عن طريق التطور المحلي ضمن المجتمع الاسرائيلي ، ودور العرب في هذه العملية هو استعمال الضغط الخارجي على اسرائيل بمختلف الوسائل ، من اجل ارغام اسرائيل على التراجع الى حدودها السابقة .. وهكذا يبدو « ان ارغام«اسرائيل»على التراجع ليس عملا عدوانيا لا مبرر له ، ولكنه مسألة عدالة » (ص ٤٧) . وتقبل هذه المدرسة قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ « على اساس تكتيكي لاجبار اسرائيل على الانسحاب » (ص ٤٨) . « وهذه المدرسة الفكرية لا تعارض الاتفاقيات المؤقتة ولا الاتفاقيات السياسية ، وسيان كان موقفها واقعيا او ميكافيليا فلا تعتبر مثل هذه الاتفاقيات التزامات نهائية كما لا تعتبرها عائقا امام استمرار الكفاح وديمومة الضغط على اسرائيل » . (ص ٤٨) . ويعبر عن هذا الاتجاه المفكر الياس مرقص . وهو اتجاه يرى « ان اي اتفاقية سياسية تؤدي الى جر « اسرائيل » الى الانسحاب هي اتفاقية محبذة ، فهي تضعف من « اسرائيل » ، كما تهيء للعمل الفلسطيني والعربي اسباب تحركه .. وكل ضغط خارجي سيؤدي الى ازمات سياسية واجتماعية تفجر التناقضات والحقد الكامن في الحركة الصهيونية .. ومن الناحية التاريخية ، فان منهجية البحث لدى هذه المدرسة الفكرية هو نسخة جديدة لاقتراح الحبيب بورقيبة لعام ١٩٦٥ الذي نادى بنظرية الخطوة خطوة في استرداد العرب حقوقهم ، والتي اطلق عليها اسلوب المراحل .. وقد تبنت هذه المدرسة مفاهيم المرونة والتدرج التي اصبحت سائدة في التفكير الاستراتيجي الحديث ، وافكارها تبهر المثقفين العرب .. هذا الاعتدال بالطرح ينطلق من ايمان تفاؤلي بان التاريخ الى جانب العرب وان النصر العربي والانهيار الاسرائيلي كل منهما مسألة قدرية » . (ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١) .

ويعتبر هركابي مدرسة « اعادة اسرائيل الى ابعادها الحقيقية » اهم المدارس الثلاث نظرا للدعم الذي تلقاه من بعض الدول العربية وخاصة مصر . ومنطلق هذه المدرسة « ان اسرائيل لا يمكن القضاء عليها عسكريا ، وهي تنادي صراحة بالعودة الى العمل السياسي معلنة ان تمسك العرب بشعار ابادة اسرائيل انزل الضرر بالقضية العربية ، فقد تنطح العرب لتنفيذ مسألة تتجاوز طاقاتهم ، كما انها تتناقض مع النظام السائد في عالم اليوم » (ص ٥٢) .

وتبدي هذه المدرسة ميلا للتعايش مع اسرائيل ضمن حدود ٤٩ ــ ٦٧ ، ونجد لهذه المدرسة اصداء لدى اهم كتاب مصر مثل نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ولويس عوض .. فهم « يعتبرون ان النزاع اداة تدميرية بسبب تبديده الجهود وللتبرير الذي يوفر الحكام لكبت الحريات ، وهمومهم محصورة في المجتمع المصري ومستقبله » (ص ٥٥) .

الا ان باب الانتقال من هذه المدرسة الى المدرسة الاولى (التآكل والاضمحلال) يظل مفتوحا . الا ان « الميزة الاساسية لمفاهيم المدرسة الثانية انها اختارت ان لا يكون لها موقفا نهائيا في ما يتعلق

بالمستقبل،فبينما تستبعد فكرة تدمير «اسرائيل» فهي تبقي احتمال العودة اليها مستقبلا... (ص ٥٨). والخلاف بين هذه المدرسة والمدرستين الاخيرتين « مسالة تكتيكية » (ص ٦٤). كما يراها هركابي . وهو يقول « انه حتى لو وجد فرق جوهري بين المدرسة الاولى والمدرسة الثانية وحتى لو كان القادة المصريون الحاليون قد تنازلوا جذريا عن سياسة تدمير الدولة . فان فعاليات الوضع الداخلي العربي ستعرض على القادة الحاليين او على خلفائهم العودة الى مفاهيم وممارسات المدرسة الاولى .. فتطور الظروف السياسية في المستقبل هو الذي يقرر فيما اذا تمسكت المدرسة الثانية بمواقفها او تحولت لتتبنى سياسات المدرسة الاولى او المدرسة الثالثة » . (ص ٦٥) .

ان مواقف اصحاب هذه المدارس كما يصنفها هركابي ، لا ينطلق من وجود قاعدة واحدة ولكنها تتباين فقط في الاساليب . كما يتم الانتقال بسهولة من مدرسة الى اخرى ، ولكن هذا الانتقال لا يتعلق بصعوبة الظروف السياسية . كما يعتقد هركابي ، بل بالخيارات الطبيعية الموجهة لهذه المواقف . فمسيرة النظام الساداتي وصلته الوطيدة باسرائيل واميركا ، لا يمكن ان تتغير من دون النضال للاطاحة باسس النظام نفسه . فالخيارات السياسية المطروحة امام الحكام العرب ، ليست خيارات فكرية مجردة ، بل خيارات يوجهها مضمون طبقي مادي ، وهو مضمون لا يوصل الى القوة ، بل الى العجز والتخاذل ..

اما المدرسة الثالثة والاخيرة التي يصنفها هركابي في الفكر العربي ، فهي **مدرسة الكفاح المستمر** ، وهي لا تدعو الى « اية تسويات سياسية مؤقتة حتى لو كانت انتقالية ، وهذه المدرسة متصلبة في رفضها لاية تسوية سياسية على اساس القرار ٢٤٢ ولاشتراكها في مؤتمر جنيف ومعادية لجميع جهود الولايات المتحدة في التوسط » . (ص ٦٦ ، ٦٧) وهنا يبرز التشويه المتعمد لافكار هذه المدرسة . فثمة تيارات متعددة داخل هذه المدرسة الواحدة . بعضها يتخذ موقفا دوجماتيكيا تجاه التطورات الجارية ، وبعضها الآخر يتخذ موقفا ذو طابع براجماتي انتهازي ، والبعض الاخير يتخذ موقفا واقعيا ثوريا متزنا . وغالبا ما تشترك هذه التيارات نفسها في مواقف كثيرة . الا ان المطلوب تصحيحه هو عدم رفض هذه المدرسة لاية تسوية مؤقتة اذا كان ميزان القوى يسمح بذلك ، ومن دون ان يكون على حساب الاهداف الاستراتيجية .

ويخلط هركابي ، بين حملة راية الكفاح المستمر من الانظمة وبين حملته من القوى الشعبية الوطنية (خاصة الفلسطينيين) ، فهو يعتبر « ان اللاءات الثلاث المشهورة في قمة الخرطوم : لا سلام ، لا اعتراف ، لا تفاوض ، تلخص موقف هذه المدرسة ويكررها دائما المتحدثون باسمها » (ص ٦٩) .

ويرى المؤلف ان هذه المدرسة تحاول « تسفيه العمل السياسي كوسيلة توضع بين ايدي العرب ضد اسرائيل ، فهي تعتقد ان الدبلوماسية وهدف القضاء على اسرائيل ضدان لا ينسجمان ، وهو موقف عبد الناصر المبدئي » (ص ٧٠) . ولكن ما قول الكاتب بالنشاط السياسي والديبلوماسي الواسع النطاق الذي تقوم به (م.ت.ف) في كل مكان،وهو يعتبر مكسبا في اتجاه خدمة الكفاح المسلح كوسيلة اساسية للقضاء على الآلة العسكرية للكيان الصهيوني العدواني ، كما ان عبد الناصر نفسه كان لا يضع تعارضا بين الديبلوماسية والسعي لاضعاف اسرائيل بمختلف الوسائل . وهنا تبرز عدم الامانة الواقعية للكاتب ، الا اذا كان يحدد العمل الدبلوماسي بالاقتصار على الحوار المباشر مع اسرائيل !

ويواصل هركابي خلطه بين الدول والقوى الشعبية : « ان من يتبنى مفهوم مدرسة الكفاح المستمر هي الدول العربية التي يسمونها متطرفة مثل العراق وليبيا والجزائر وفي كثير من التصاريح السورية وفي منظمات الفدائيين ومنظمة التحرير الفلسطينية ، كما انها متضمنة في مقررات المجالس الوطنية الفلسطينية .. وما يطلق عليه اسم جبهة الرفض .. **كما ان الحديث عن كفاح مستمر طويل الامد تصر عليه دائما مجلة منظمة التحرير « شؤون فلسطينية » ..** » (ص ٧٥) .

وهنا يخلط هركابي مجددا بين من يدعو الى الكفاح المستمر اعلاميا وبين من يدعو له ويمارسه في ارض الواقع . فمن الوجهة العملية لا يمارس مفهوم الكفاح المستمر (وعلى رأسه الكفاح المسلح) سوى (م.ت.ف) .

٢ ـ السياسة الاسرائيلية .

يعتبر هركابي القسم الثاني من كتابه ، وهو بعنوان « السياسة الاسرائيلية » ، ذو طابع « تنظيري تقريري » ، بينما كان القسم الاول وصفيا تحليليا ، ويرى ان « المصداقية الاكبر » هي للقسم الاول ، لكونه « يقف على ارض اصلب » (ص ٨٠) . وبهذه الطريقة يتهرب هركابي من تعيين ملامح واضحة وراسخة للسياسة الاسرائيلية ، فهو يترك هذه السياسة عرضة للاحتمالات المختلفة ، بينما هي ليست كذلك في الواقع . يقول هركابي : « يمكننا بصورة عامة ومطلقة ، القول ان السياسة الاسرائيلية كانت حلال مراحل النزاع جميعا تلخص بانها سياسة ردود الفعل . فكانت تحاول الاثبات قولا وعملا ان ابادة دولة « اسرائيل » هي غير مبررة ، كما انها غير ممكنة » (ص ٨٣ ، ٨٤) .

فهل كانت حقا السياسة الاسرائيلية طوال تاريخ الصراع (وليس النزاع) مجرد سياسة ردود الفعل على السياسات العربية ؟

الم تقم السياسة الصهيونية المرتبطة عضويا بالامبريالية بدورها العدواني ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية الاخرى ، خدمة للمصالح الاستراتيجية الامبريالية في هذه المنطقة . ان هركابي ، هنا ، يصور سياسة رد الفعل الفلسطيني والعربي على الدور العدواني الامبريالي ، بانه الاصل والسبب ، بينما السياسة الاسرائيلية نتيجة . وهذا قلب معكوس لابسط الحقائق .

فدولة اسرائيل لم تقم نتيجة لتطور طبيعي ، بل بفعل عمل استعماري مصطنع ، وهو عمل موجه ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية الاخرى ، ووقوده وضحيته اليهود المضللين الذين تمكنت القوى الامبريالية والصهيونية من استغلال اوضاعهم الصعبة ، وبالتالي وضعهم امام ظروف وخيارات محددة بحيث لم يجدوا مخرجا لهم سوى القبول بالمجيء الى فلسطين .

وهركابي يريد ، هنا ، ان يخفي الطبيعة العدوانية للعدو الصهيوني ، مصورا اياه بالضحية التي يحيط بها الاعداء المتربصون . وهكذا يتحول الذئب الى حمل وديع مضطر دائما ان يرتدي ثياب الاسد للدفاع المشروع عن النفس !

والواقع ان اسرائيل استطاعت ان تكسب تأييد الراي العام العالمي في مرحلة الخمسينات بفعل ضعف حركات التحرر الوطني والتضليل الاعلامي الامبريالي الصهيوني الواسع النطاق . وقد استخدمت اسرائيل ، حسب تعبير هركابي نفسه ، الكثير من الوسائل التضليلة لكسب الرأي العام العالمي . فقد « استثمرت نقاط الضعف العربية .. والظواهر القبيحة في الموقف العربي وهي الشتائم الكثيرة المتشعبة والتشهير واللاسامية ، من اجل الضغط عليهم ، وكان يجب عليها ، ايضا ، ان تبرز الارتباط العضوي بين ابادة الدولة وابادة الجنس وتحقير الاسرائيليين واليهود » (ص ٨٨) .

والواقع ان اسرائيل والقوى الامبريالية نجحت اعلاميا في وضع علامة مساواة بين ابادة الدولة وابادة اليهود ، مستغلة في ذلك بعض المواقف الايديولوجية الرجعية العربية والتصريحات الديماغوجية لبعض القادة والحكام العرب .

ان اصالة الموقف الصهيوني في فكر هركابي لا حدود لها ، بل هي التي توجهه نحو اتخاذ مواقف المرونة الظاهرية ازاء التغيرات والضغوط المختلفة التي تتعرض لها اسرائيل . فهو ليس ضد مبدأ تقديم التنازلات خطوة خطوة شرط ان تقترن بمكاسب امنية وسياسية واقعية مضمونة ومن شأنها ان تقوي اسرائيل . ودور اسرائيل « وامنها » هو ما يشغل هركابي الذي يعتقد ان الحوافز الدينية والصهيونية هي عوامل قوية ، في الحقيقة ، ومع ذلك ، فانها ثانوية اذا ما قورنت بمسألة البحث عن الامن ، اضافة الى انها منبثقة منها » (ص ٩٢) .

ويوجه هركابي اللوم للسياسة الاسرائيلية لانها شغلت نفسها بعد حرب ١٩٦٧ بالمطالب الاقليمية التوسعية بينما كان ينبغي ربط هذه المطالب بالمسألة الامنية لانها « الاساس » (ص ٩٢) .

فلم يكن ينبغي التمسك بالمناطق المحتلة عام ١٩٦٧ مهما كان لبعضها وقع ديني توراتي ، الا من خلال التشديد على المسألة الامنية . « لقد وقعت اسرائيل في فخ تناقض شديد . فبينما كان سلوكها ومطالبها الاقليمية مدفوعا بالوعي للتهديدات العربية ، لجأت الدبلوماسية الاسرائيلية الى اسقاط عامل هذه التهديدات » . (ص ٩٣) . وقد اضعف اسرائيل امام الرأي العام العالمي عدم ربطها للمسألة

الامنية (باعتبارها الاساس) بالتمسك بالاراضي العربية المحتلة ، فكان ينبغي من وجهة نظر هركابي ، التركيز على المسالة الامنية في ما يتعلق بسياسة التمسك بالاراضي المحتلة .

والخطأ الآخر الذي ارتكبته الديبلوماسية الاسرائيلية هو انشغال اسرائيل المبالغ فيه بعرب الضفة الغربية عبر سياسة الجسور المفتوحة . « فعرب الضفة الغربية لم يكونوا عنصرا سياسيا ذاتيا يستطيع ان يبرم اتفاقيات سياسية دون موافقة الدول العربية ، وعلى الخصوص منظمة التحرير الفلسطينية .. ان انشغال اسرائيل في اوهام تسوية سياسية تعقد مع عرب الضفة الغربية كان لها اثر تدميري ، حيث حجبت عن اسرائيل طريق الاتجاه الى ضرورة الامساك بتلابيب حقيقة المسالة الفلسطينية ، الا وهي منظمة التحرير الفلسطينية » (ص ٩٤ ، ٩٥) . وقد لعب تجاهل « وتسفيه » اسرائيل للتحركات العربية المعتدلة دورا كبيرا في التجاء العرب عام ١٩٧٣ « للتفكير بتغيير نتائج الحرب بواسطة حرب جديدة .. وراوحت السياسة الاسرائيلية مكانها ، متعثرة فوق ازدواجيتها . كان الوعي بالتهديد العربي يفرض المطالبة بتوسع جغرافي ، وكان توقها للسلم يستدعي التصغير من شأن عدوانية الرفض العربي .. واستطاع هذا النقص في التماسك ان يؤدي خدمة للعرب في محاولاتهم طرح انفسهم على انهم معتدلون . ومحاولاتهم في تقديم النموذج الاسرائيلي الى الرأي العام العالمي على انه متعنت في رفضه ، توسعي ، ملحق اراضي الغير بدون حق ، اناني ، واخيرا عالة على مآسي والام الاخرين . واستطاع العرب ان يحولوا انفسهم الى مدع عام ، وتقلص الموقف الاسرائيلي ليصبح متهما . واستطاع العرب ان ينتصروا على مستوى الرأي العام العالمي ، وبكل سخرية بمعونة ودعم الاسرائيليين الذين اخطأوا مرتين : مرة بالعجز حين فشلوا في عرض المواقف المتطرفة العربية وشرحها ، ومرة اخرى بالتنطع حين تبرعوا في ابتداع الاعتدال العربي » (ص ٩٥ ، ٩٦) .

ويدعو هركابي الى اتباع سياسة الخطوة خطوة في جميع التسويات باتجاه تحقيق « التسوية الحقيقية » وحتى يحدث « التغير الجذري » في موقف العرب من اسرائيل . فمن الصعب ان تقدم اسرائيل « تنازلات دون ضمانات » . (ص ١٠١) .

وبصدد **الموقف من الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة** عام ١٩٦٧ ، فان التكتيك المناسب ، كما يقترح هركابي ، هو ان تعلن اسرائيل عن استعدادها لتقديم « تنازلات » لكسب الرأي العام .. وان « تكرر قبولها للقرار ٢٤٢ بما في ذلك القرار من الغاء المستعمرات التي اقامتها في المناطق التي ستنسحب منها كجزء من اتفاقية سلام . ثم يتحول الحوار بعد ذلك من مجرد مبدأ الانسحاب ، قبوله او رفضه ، الى شروط الامن التي يجب الوصول اليها مقابل الانسحاب . ولا يستطيع العرب ان يطالبوا بمجرد اعادة هذه الاراضي اليهم دون التزام من جانبهم .. وافضل تفسير لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، من وجهة نظر اسرائيلية انها يجب ان تنسحب الى خطوط جديدة افضل وضعا من خطوط ١٩٤٩ ــ ١٩٦٧ ولكنها اسوأ من الخطوط الحالية .. واعادة الاراضي يمكن انجازه فقط في حالة اثبات العرب ان اسباب الحاقها لم تعد موجودة .. ومن حيث المبدأ فان التصريحات (العربية) الشفهية عن استعداد حقيقي لقبول سلام ينهي حالة النزاع وقبول « اسرائيل » كعضو دائم في منطقة الشرق الاوسط امور ليس لها اية قيمة . ان الاعلانات الشفهية يجب ان تلحق بمضمون محسوس من الاجراءات مثل نزع السلاح وتحديد القوات وتشكيل هيئات عربية اسرائيلية مشتركة للرقابة ، يرافق هذا انسحاب تدريجي على مدى السنين ، ويقابله قرار داخلي لانهاء النزاع ، قرار سياسي واجتماعي وثقافي . صحيح ان التسوية لا يمكن ان تبدأ الا من خلال ارضية سياسية ، ولكن لا بد من دعمها داخليا ، ولكن اذا استمرت الامور في داخل البلاد العربية على ما هي من تثقيف للطلاب في المدارس وفي مؤسسات الاعلام ، واصفة اسرائيل بانها ذلك الكيان الوحشي ، فان الاجراءات السياسية مقضي عليها وستنسف من اسفلها . وتغيير في الرأي من هذا النوع لن يحدث بين ليلة وضحاها » .. (ص ١٠٧ ، ١٠٨) . ونلاحظ ، بالطبع ، ان مثل هذه الشروط تم املاؤها على نظام السادات فيما بعد .

اما **مسالة الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني** ، فان الموقف الاسرائيلي ، كما يقترح هركابي ، ينبغي ان يكون من حيث الشكل

« مرنا » كالتالي : « على « اسرائيل » ان تعلن استعدادها للاعتراف بالمصالح المشروعة او بحقوق الفلسطينيين وان تفاوض منظمة التحرير الفلسطينية شرط ان يعترف الفلسطينيون بالمقابل بشرعية « اسرائيل » .. ولا يستطيع الانسان ان يتحمس ابدا بان يحلم لبرى الفلسطينيين مستعدين للاقدام على تغيير من هذا النوع في صلب عقائدهم الوطنية .. ان عدم الاعتراف وعدم قبول اسرائيل هو امر مقدس لدى منظمة التحرير الفلسطينية وليس مغامرة دبلوماسية . انها القيمة المركزية في ايديولوجية وليست طرحا هامشيا يمكن التنازل عنه بسهولة .. وما دام هدف منظمة التحرير الفلسطينية المركزي هو ابادة « اسرائيل » ، فان « اسرائيل » تبقى في موقف اخلاقي لا يمكن التخلي عنه ، يفرض عليها ان لا تعترف بمنظمة التحرير او تتفاوض معها ، لان اي تفاوض من هذا النوع لن يكون سوى خطوة على طريق زوال « اسرائيل » .. فاسرائيل تستطيع ان تنجح على المستوى الدولي عندما تعبر عن استعدادها للاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، حتى لو اقتصر ذلك على انه اجراء تكتيكي ، ان تصريحا يحيد عن الخط العام الاسرائيلي ، بأنها مستعدة للاعتراف بمنظمة التحرير والتفاوض معها ، قد يحدث توترات عميقة داخلية وانقسامات ضمن منظمة التحرير » (ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠) .

ان هركابي يقترح على السياسة الاسرائيلية اتباع طريق المناورة والتضليل بصورة اكثر فعالية عن طريق طرح شروط تعجيزية غير قابلة للتطبيق من قبل الخصم ، لان القبول بها يعني الالغاء التاريخي والسياسي لوجود الخصم نفسه .

وهكذا يتبدى هركابي كداعية لسلوك طريق المرونة والمناورات الديبلوماسية والاعلامية ، من حيث الشكل فقط ، ويهدف تقوية دور اسرائيل وتنفيس الضغوط المختلفة التي تتعرض لها . وهو يقدم للسياسة الاسرائيلية الذرائع البرجماتية السياسية والاخلاقية المتعددة لخدمة جوهر سياستها العدوانية الامبريالية . لهذا هو الرجل الاكاديمي استاذ العلاقات الدولية ودراسات الشرق الاوسط في الجامعة العبرية بالقدس ، فهل يمكن « لعلمه » ان يكون موضوعيا ما دام يلتزم بالايديولوجية الصهيونية ويدافع عن الدور الامبريالي الذي تقوم به الدولة الصهيونية في المنطقة ؟ يقول هركابي : « يجب ان نعي بدقة ان الكارثة الاخلاقية التي ستنتج عن دمار اسرائيل ستحطم الحضارة الغربية .. ان افضل سياسة لاسرائيل هو ان تعلن عن استعدادها لجعل التنازلات قابلة للتعداد والتسمية » .. (ص ١٢١) .

اما مدارس الفكر الاسرائيلية الثلاث ، كما يصنفها هركابي ، فهي تستند على تشخيص كل مدرسة للموقف العربي ورد الفعل الاسرائيلي تجاهه .

١ ــ تنطلق مدرسة « حمائم الحمائم » من فرضية ان الموقف العربي اصبح اكثر لينا .. وان هناك رغبة للعيش بسلام مع اسرائيل ، وتعي هذه المدرسة اخطار استمرار الصراع ، وهي « تضخم » وزن الاصوات المعتدلة العربية (ص ١٢٣ ، ١٢٤) . وينتقد هركابي هذه المدرسة بعنف لكون « التنبؤ بحمائمية عربية ، حقيقية كانت او كامنة ، تدفع هذه المدرسة الى طرح تنازلاتها بطلاقة دون اي اهتمام واضح بالاجراءات الامنية ، الى حد التنازل من جانب واحد . وتميل الى التقليل من اهمية العامل الاقليمي في التفكير الاستراتيجي الاسرائيلي . وبذلك فهي تعتبر ابرام اتفاقيات سلام عملا بسيطا ، وتقف موقفا لينا من مسألة كيفية تأمين أمن اسرائيل .. والفكرة المركزية لهذه المدرسة ان مفتاح السلام تملكه اسرائيل من خلال تغيير سياستها ، وبذلك فان اللوم باستمرار النزاع وغياب السلام يقع على عاتق « اسرائيل » .. ان الاتهام المباشر او المداور بان اسرائيل تتمكن من انجاز السلام ولكنها تمتنع عنه بسبب مطالبها الاقليمية ينسف الاسس الاخلاقية لدولة اسرائيل وحكومتها .. ولهذه المدرسة تأثير على تحطيم المعنويات في الداخل حينما تدعي ان الاطماع الاقليمية للقادة اصبحت خطرا على حياة الاجيال الجديدة .. وتميل مدرسة الحمائم الى القبول الكامل بادعاء الفلسطينيين انهم يشكلون شعبا .. وهكذا يجب ان يحصل الفلسطينيون على دولة خاصة بهم تتويجا لشخصيتهم .. وعلى اسرائيل ان تساعدهم على اقامتها مما يؤدي الى عيش الفلسطينيين بسلام مع اسرائيل » . (ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦) .

ومن المعروف ان اصحاب هذه المدرسة يقفون ضد استمرار سياسة العدوان والتوسع الصهيونية واقامة المزيد من المستوطنات . الا ان هركابي يصف

اتباع هذه المدرسة بالسذاجة والمزاج « المثالي » لانهم « يميلون الى الاتجاه الليبرالي السياسي ، تقدميون ، مؤمنون بالامم المتحدة ودورها ومؤيدون لسياسة الوفاق . ومن رأيهم ان جميع النزاعات الدولية قابلة للحل اذا ابدت الجماهير من كلا الجانبين حسن نيتها باتجاه التوصل الى تسوية » . (ص ١٢٧) .

ويتوقع هركابي الفشل لاصحاب هذه المدرسة « نظرا لزيف التقدير البريء بتوفر حمائمية لدى الجانب العربي .. ولن تتمكن هذه المدرسة من ان تصبح مقنعة للاسرائيليين وتستمر محكومة بان تبقى اقلية » . (ص ١٢٧ ، ١٢٨) .

٢ ــ مدرسة « صقور الصقور » ، وهي تتمسك بالرأي القائل « ان الموقف العربي في الظروف الراهنة هو موقف صقري غير قابل للتغيير ، وتستنتج ان على « اسرائيل » ان تتبنى موقفا صقريا فتحتفظ بالمناطق المحتلة وخاصة الضفة الغربية ومرتفعات الجولان لان الانسحاب منها ، والذي يضعف الموقف الاستراتيجي الاسرائيلي ، سيغري العرب بالهجوم ، وجميع التطمينات لا يمكن الا ان تكون هشة مقابل العداء العربي المركزي لمجرد وجود الدولة الاسرائيلية .. وانطلاقا من الوضع الراهن ، فان الانسحاب هو انتحار » (ص ١٢٨) . يعتقد هركابي ان « الحماسة الوطنية لهذه المدرسة اجبرتها على طرح موقف ذاتي » .. (ص ١٢٩) .

وهو يعتبرها « صهيونية ثأرية » ، وهي تتحدى « اصالة الظاهرة الفلسطينية ، حتى اسم الفلسطينيين تعتبره مزيفا .. فالبريطانيون فقط من ابتدع فلسطين .. وهم يعارضون بعنف اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية لاعتبارات تاريخية وامنية ، ومن وجهة نظرهم ، فان هذه الدولة الفلسطينية ، بسبب ضعفها ، قد تكون مصدرا لعدم الاستقرار ، وقد تصبح قاعدة سوفييتية ..

وتحاور هذه المدرسة باصرار ان احسن امكانية لمنع الحرب· تنحصر بالوقوف على الحدود الاستراتيجية الحالية التي تثبط عزائم العرب عن شن العدوان.... ان اسرائيل اصغر هي ايضا مسفوك دمها في اعين العرب كاسرائيل اكبر تماما » . (ص ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣) . والواقع ان هذه المدرسة تعبر عن الموقف الصهيوني الاصيل ولكن بصورة دوجماتيكية ، ويجد هركابي ان الضعف الرئيسي لهذه المدرسة عدم مرونتها فقط . وهو يرى ان هناك « تناغم داخلي في معادلة هذه المدرسه ، اي الانسجام بين التشخيص والعلاج » (ص ١٣٣) .

ولكنه تساءل « هل تستطيع اسرائيل ان تتمسك بموقف صقري دون ان تقدم على الانسحاب الى الحد الذي تطالب به اكثر الدول في العالم بما فيها الولايات المتحدة ؟ ان عقيدة هذه المدرسة باهمية « اسرائيل » الاستراتيجية لصالح الولايات المتحدة في سياستها العالمية تغشي بصرها لدرجة لا تتمكن معه من رؤية هذه الصعوبة . وعلى ذلك فان هذه المدرسة ، مثل مدرسة حمائم الحمائم تمارس ميلا متطوعا لمحاولة رؤية الواقع الدولي كما تهوى ان تراه » (ص ١٣٤) .

٣ ــ مدرسة « حمائم الصقور » ، وهي المدرسة التي يؤمن ويدعو لها هركابي ويعتبرها ليست مدرسة بالمعنى الدقيق للكلمة « بسبب عدم سندها بحزب سياسي » ولكن يمكن « ان نطلق عليها اسم مفهوم » (ص ١٣٥) .

وهي مدرسة تجمع بين « معرفتها بصلابة الموقف العربي (!) ولمتطلبات الواقعية الدولية » ، وهي مدرسة تفتقد الى « التناغم الداخلي » ، مدرسة برجماتية ذرائعية غايتها تقديم بعض التنازلات الجزئية مقابل الدفاع عن المصالح الحيوية للصهيونية . فبينما « تركز المدرستان الاولى والثانية على الاستراتيجية والاهداف الكبرى ، تتعامل المدرسة الثالثة بالتكتيكات ، فهي مرنة .. اذا وافق العرب على التحرك باتجاه انهاء الصراع .. وتتمتع المدرسة الثالثة بفضيلة اخرى وهي مواقفها النسبية من خلال اتجاهها التوفيقي » .. (ص ١٣٦) .

ولكنه يرى ان العامل الحاسم « الذي يثبت ان تغيرا حدث في موقف العرب وعواطفهم يكمن في استعدادهم للموافقة على مضمون حساسيات اسرائيل الخاصة بالامن الاقليمي ».. (ص ١٣٨) .

والهدف المركزي لمدرسة « حمائم الصقور » هو السعي « لتحسين موقف اسرائيل الدولي ، وتزيين دبلوماسية اسرائيل بشكل ذكي ، وهكذا تعيد لاسرائيل عدم التوازن .. بين ابداعها العسكري

وجدارتها السياسية . فهذه المدرسة لا تتوهم بان سياسة اسرائيلية لينة ستحرز السلام ، ونقدها ينصب على ان السياسة الاسرائيلية يساء فهمها ، فهي لا تدين اسرائيل بسبب لا اخلاقيتها ، بل لافتقادها الى الكياسة والى الواقعية في عدم قدرتها على عرض موقفها .. وهناك امور متشابهة بين المدرستين الثانية والثالثة (صقور الصقور وحمائم الصقور) خاصة في نقاط انطلاقهما وفي اهدافهما ، فهما تقتسمان القناعة بان حل النزاع ليس ظاهرا في الافق ، وكلاهما تهدفان الى تعزيز قوة اسرائيل لمواجهة تحديات المستقبل ، وتختلفان على كيفية انجاز ذلك .. (ص ١٤٢ ، ١٤٣) ان نصائح هركابي ، بصدد ضرورة تحريك دبلوماسية نشطة ومرنة وتقديم بعض التنازلات الجزئية السياسية او الاقليمية ، موجهة اصلا الى اصحاب مدرسة « صقور الصقور » المسيطرين على الآلة العسكرية الصهيونية ، والذين يلتقي معهم بالمنطلقات والاهداف . وهي نصائح تستهدف حماية وتعزيز قوة ودور اسرائيل ، فهركابي صقر يرتدي ريش الحمامة . وهو يدرك كصهيوني ان التطورات لا تسير ، من الوجهة التاريخية لصالح اسرائيل.لذا ، عليها ان تنوع اساليبها وتكتيكاتها في عالم يتحرر ويتغير ولم يعد هو نفسه العالم السابق ابان مرحلة الخمسينات والستينات . وهو يصور الازمة الراهنة التي تعاني منها اسرائيل بشكل خاطىء ، اذ يعتبر حل الازمة يرتبط بتطور الاساليب والتكتيكات المتبعة . فهو يقول : « ان الازمة الحالية في اسرائيل لا تنطلق من نفاذ الصبر انتظارا لحل النزاع ، بل من شعور بعدم الرضى وعدم ملاءمة الاسلوب الذي يستخدمه المجتمع الاسرائيلي لمجابهة تحدياته .. وعلى الاسرائيليين ان يؤمنوا بان حكومتهم تفعل ما بوسعها لانهاء النزاع ، ولكن اذا استمر هذا النزاع فمسؤوليته ليست اسرائيلية ، واي موقف توفيقي يتخذ من الخصم ، سيعطي اسرائيل قوة اخلاقية تعينها في مجابهة مضاعفات النزاع » (ص ١٥٥ ، ١٥٦) .

الا ان الازمة الحقيقية التي تعانيها اسرائيل اليوم ، لا تقتصر على المأزق السياسي الراهن والعزلة الدولية المتزايدة ، بل انها تشهد بداية أزمة تاريخية ، ازمة تطال اسس استمرار الظاهرة الصهيونية . فالصهيونية كظاهرة استعمارية ارتبطت عضويا بالمعسكر الامبريالي ، ومؤخرا بالولايات المتحدة الاميركية بشكل خاص ، وهذا المعسكر يعاني ، اليوم ، من انحسار واسع على النطاق العالمي ، بفعل تنامي قوة المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر الوطني .

فالاستعمار المباشر وحركات الاستيطان الاستعماري واشكال الحكم العنصرية المختلفة جميعها تندحر وتجري ادانتها وعزلها . واسرائيل كشكل مميز من اشكال الاستيطان الامبريالي القائم على العدوان والتوسع ، ليست بعيدة عن المأزق العام الذي تعاني منه الامبريالية والنظم التابعة .

وما يعطي اسرائيل القوة والدعم السياسي اليوم ، هو خيانة البرجوازية العربية واستسلامها للامبريالية ، وحيث انتقلت قضية النضال الوطني التحرري الجذري الى محور الطبقة العاملة والطبقات الشعبية . والنضال الوطني الشعبي الذي ستواجهه اسرائيل في المرحلة القادمة لن يسمح بسياسة العدوان والغطرسة .

هـ.م.

المقاومة الفلسطينية

تعزيز الوحدة الوطنية

اتصلت اجتماعات اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، وكذلك الاجتماعات التي يعقدها قادة المنظمات الفدائية واعضاء اللجنة التنفيذية ، والتي تتولى في العادة مناقشة القضايا المهمة ، واخصها قضية تعزيز الوحدة الوطنية الفلسطينية . وفي ١٨ آب عقدت قيادة المقاومة اجتماعها الثالث في سياق هذه الاجتماعات المتكررة التي اتصلت منذ آخر دورة عقدها المجلس المركزي في تموز ١٩٧٩ . وجرى فيه استعراض الوضع الدولي بصورته العامة ، على ضوء موقف الولايات المتحدة بعد استقالة اندرو يونغ ، مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة . وفيه تم الاتفاق على خطة التحرك الفلسطيني في مؤتمر الدول غير المنحازة ، وتقرر تشكيل الوفد الفلسطيني برئاسة ياسر عرفات ، وعضوية عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية .

وتركز البحث بصفة خاصة على المسائل المتصلة بقضية تعزيز الوحدة الوطنية . وكان البحث في هذه المسائل قد استغرق الوقت الاكبر في اجتماعات القيادة في المرتين السابقتين .وفيها تم الاتفاق على تمثيل « جبهة التحرير الفلسطينية » و « جبهة النضال الشعبي » وبعضوين لكل منهما في المجلس المركزي ، من غير ان تتمثلا في اللجنة التنفيذية . وتقرر أيضا مبدأ تمثيل « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » في اللجنة التنفيذية ، بينما لم يتقرر شيء بالنسبة لاسلوب اختيار ممثلها فيها . (السفير ، ٧٩/٨/١٥) . وقد اصرت الجبهة الشعبية على أن يتم اختيار ممثلها من قبل المجلس الوطني بالذات ، مما يقتضي دعوة المجلس للانعقاد ، في حين برز اقتراح يدعو للاتفاق على تسمية عضو من الجبهة في اللجنة ، الى ان تتوفر ظروف دعوة المجلس بصورة عادية . وقد بذلت جهود مكثفة لاقناع الجبهة الشعبية بالموافقة على هذا الاقتراح ، لكنها بقيت متمسكة بموقفها . وتكررت مناقشة هذه المسالة في الاجتماع الثالث ، في ١٩ آب ، وما زالت موضع أخذ ورد . أما الاجتماع الرابع الذي عقدته قيادة المقاومة ، بعد عودة وفد المنظمة من هافانا ، فقد خصص لمناقشة نتائج مؤتمر دول عدم الانحياز . وظلت المسألة الأخرى المتعلقة بزيادة عدد ممثلي « فتح » في اللجنة التنفيذية معلقة هي بدورها . والمعروف أن « فتح » تطالب بزيادة عدد ممثليها ، وان وجهات نظر الفرقاء كافة ، على ما بينها من اختلاف ، قد أقرت مبدأ الزيادة ، وان الخلاف دار حول عدد الاعضاء الذين يمكن اضافتهم . ويبدو أن أوفر الاقتراحات حظا في القبول هو الاقتراح الداعي لزيادة عضوين آخرين . أما الأمور التي تم الاتفاق عليها فقد تمثلت في قرارات دعت الى المباشرة في توحيد عدد من المؤسسات المتماثلة ، تمهيدا للمضي في توحيد عدد آخر منها في المستقبل . (السفير ، ٨/١٩) .

جنوب لبنان

في سياق الاهتمام بالوضع في جنوب لبنان ، ترأس الأخ ياسر عرفات ، القائد العام لقوات الثورة

الفلسطينيـة ، اجتماعـين « للمجلس العسـكري الفلسطيني الموسع » ، الذي يحضره ممثلو القيادات العسكرية في فصائل المقاومة كافة . انعقد الاجتماع الاول في ٧٩/٨/١٦ ، وتدارس نتائج الاعتداءات الصهيونية الانعزالية على جنوب لبنان ، واتخذ عدة قرارات تنفيذية بهدف تعزيز صمود مواطني الجنوب أمام هذه الاعتداءات . وانعقد الثاني في ٧٩/٩/١٢ بعد عودة ياسر عرفات من هافانا (وفا ، ٨/١٨) . وفي السياق ذاته التقى خليل الوزير (أبو جهاد) ، ويصحبته عدد من ضباط القيادة الفلسطينية ، مع عدد من ضباط قوات الطوارىء الدولية في الجنوب ، في ٨/٢٠ ، وبحثوا الموقف العام فيـه (وفـا ، ٨/٢٠) . وقد برز تطور سياسي هام في سياق الاهتمام الفلسطيني بما يجري في الجنوب ، تمثل في دعوة فلسطينية لعقد لقاء فلسطيني ـ لبناني ـ سوري على أعلى مستوى . وقد التقى صلاح خلف (ابو أياد) ، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ، وعضو المجلس المركزي لمنظمة التحرير ، مع الرئيس اللبناني الياس سركيس في ٧٩/٩/٨ لدراسة هذا الاقتراح . وصرح أبو اياد للصحفيين اثر اللقاء بقوله : ان الوضع يستلزم لقاءا لبنانيا سوريـا فلسطينيا على أعلى المستويات للنظر فيما نصنعه نحن بانفسنا من خلال رؤيتنا لما يجري ويحاك ضدنا . وعبر عن الامل بأن يخرج العرب عن صمتهم حيث لم يعد هناك مبرر للصمت . وطالبهم بأن يترجموا مواقفهم الى اقصى درجات الدعم المادي والمعنوي للقوى الوطنية التي تقف الآن في وجه هذه المؤامرة الامبريالية الشرسة على جنوب لبنان ، التي تستهدف الامة العربية جميعها . وقال : ان العدوان الوحشي الذي يتعرض له الجنوب هو تأكيد على مدى ضراوة وشراسة المؤامرة التي تحيكهـا الدوائـر الاميركية والصهيونية ضد الشعبين الفلسطينـي واللبناني ، وهو أثر مبـاشر لمعاهـدة الخيانـة والاستسلام ومؤامرة الحكم الذاتي التي يحيـك خيوطها اطراف كامب ديفيد . وندد بالصمت العربي والدولي ازاء ما يحدث في الجنوب . (وفا ، ٩/٩) .

والتقى صلاح خلف في ٩/١٠ برئيس الوزراء اللبناني سليم الحص للغرض ذاته ، وأعلن تجاوب المقاومة الفلسطينية مع اقتراحات بناءة عرضها عليه رئيس الوزراء . وقالت مصادر الرئيس الحص ان لبنان يرى ان بحث وضع الجنوب في أية قمة عربية ، موسعة او مصغرة ، او ثلاثية يجب توفير النجاح له باتفاق لبناني ـ فلسطيني يسبق المؤتمر ، وان القمة اللبنانية الفلسطينية جوهرية ، بالنسبة لأي قمة عربية اخرى . واشارت الى ان الحص يحضر للقاء ثنائي لبناني فلسطيني ، انطلاقا من الجو الايجابي الذي ساد لقاءه مع ياسر عرفات في هافانا (السفير ٩/١١) .

الحوار الفلسطيني ـ الأردني

لقاء القمة الثالث بين منظمة التحرير الفلسطينية والمملكة الأردنية الهاشمية تم في الحادي والعشرين من شهر آب المنصرم . جرى اللقاء في قاعدة المفرق العسكرية (السابق جرى في القاعدة ذاتها والاسبق في بلدة الرمثا على الحدود السورية ـ الأردنية) . ضم الوفد الفلسطيني الذي ترأسه ياسر عرفات خمسة من اعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة هم ياسر عبد ربه وحامد ابو ستة وطلال ناجي وعبد المحسن ابو ميزر وعبد الرحيم احمد ، كما ضم العميد عبد الرزاق اليحي مدير عام الدائرة السياسية وممثل اللجنة التنفيذيةفي الأردن . وضم الوفد الاردني ، الذي ترأسه الملك حسين ، رئيس الـوزراء مضر بدران ، ووزير الخارجية حسن ابراهيم ، ووزير الاعلام عدنان ابو عودة ، ووزير الداخلية سلمان عرار ، ورئيس الديوان الملكي عبد الحميد شرف ، والقائد العام للقوات الاردنية المسلحةزيد بن شاكر .

وانعقدت في اطار اللقاء جلستان : واحدة حضرها اعضاء الوفدين كافة ، والثانية حضرها ياسر عرفات والملك حسين وحدهما .

وقد بين تصريح أدلى به ياسر عرفات للصحافة بعد ارفضاض القمة ان المحادثات في جانبها السياسي تركزت على تحديد طرق واساليب مواجهة المتغيرات التي طرأت بعد اتفاق كامب ديفيد ، وتناولت الموقف المتصاعد في الجنوب اللبناني ومجمـل الموقـف العربي . كما تركزت حول مصالح الفلسطينيين في الأرض المحتلة والموقف البطولي للجماهير ضد مؤامرة الحكم الذاتي . (وفا ، ٨/٢٢) .

وأكد بيان صحفي مشتـرك ، لخص نتائـج اللقاء ، تصميم الجانبين على مواصلة الكفاح ضد الاحتلال والممارسات الاسرائيلية العنصريـة فـي الاراضي الفلسطينية والعربية المحتلة . كمـا أكد عزمهما على التصـدي للمحـاولات الصهيونيـة والاستعمارية التي تستهدف المساس بوحدة الشعب

الفلسطيني ، ووحدة تمثيله بقيادة منظمة التحرير ممثله الشرعي الوحيد . واعلن البيان اتفاق الجانبين على الخطوات العملية التي من شانها تعزيز التنسيق بينهما على جميع المستويات في كافة القضايا . كما أعلن تصميمهما على دعم مسيرة التضامن العربي التي تجسدت في مؤتمر القمة التاسع في بغداد وقراراته والعمل المشترك من أجل حماية هذه القرارات ووضعها موضع التنفيذ . (وفا ٨/٢٢) .

وقدمت مصادر صحفية تفاصيل أخرى تتصل بالجانب الذي تناول المسائل المعلقة بين الجانبين ، والمعروف ان هذه المسائل ما تزال موضع أخذ ورد منذ استؤنفت الاتصالات على نطاق واسع بين المنظمة والأردن في أعقاب مؤتمر قمة بغداد . ولبعض هذه المسائل من وجهة النظر الفلسطينية أهمية خاصة ، بما هي مؤشرات على النوايا الفعلية للسلطات الأردنية تجاه ثورة الشعب العربي الفلسطيني ، وخاصة منها تلك التي تتعلق بتنفيذ الوعود التي اعطيت بالافراج عن المعتقلين الفلسطينيين في سجون الأردن ، وبالغاء القوائم السوداء التي تحظر على آلاف من الفلسطينيين ، وبعضهم فلسطينيون يحملون جوازات سفر اردنية ، دخول الأردن ، وبالغاء القيود المفروضة على منح جوازات سفر أو تجديدها لكل فلسطيني تعتقد السلطات الاردنية ان له صلة بالثورة الفلسطينية .

وقد اظهرت الانباء الصحفية ، غير الرسمية ، ان نجاح المحادثات في الوصول لحلول لهذه المسائل كان أقل من النجاح في الاتفاق على المسائل السياسية كما عكسه البيان الرسمي المشترك . وهكذا كرر الجانب الاردني وعوده بدراسة حالات المعتقلين واطلاق سراح من لم يقوموا من بينهم باعمال مخلة بالأمن (الحرية ، ٣ أيلول) (من غير ان يلتزم باطلاق سراحهم جميعا) وباصدار التعليمات للسلطات المعنية من أجل تسهيل تجديد جوازات السفر .

واشنطن ومنظمة التحرير

في ١٥/٨/٧٩استقال اندرو يونغ مندوب الولايات المتحدة الاميركية في الأمم المتحدة بسبب الانتقادات التي وجهت اليه عندما التقى في الشهر الماضي بزهدي الطرزي المراقب الدائم لمنظمة التحرير الفلسطينية لدى الأمم المتحدة . وهي انتقادات اشترك في توجيهها مسؤولون كبار في الادارة الاميركية ، مما جعله مكرهـا على الاستقالة . وجاء هذا الحادث الذي اثار انتباها واسعا على نطاق عالمي ، مؤشرا على تمسك الادارة الاميركية ، (والرئيس كارتر بالذات باعتبار ان يونغ يعد من المقربين اليه) بموقفها التقليدي في رفض الاقرار بالحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني ، ورفض الاعتراف بالدور الذي حققته منظمة التحرير كقيادة معترف بها لهذا الشعب وممثلة له .

على الجانب الفلسطيني اثار الحادث أوسع الاهتمام ، ودفع الى تركيز الانتباه على مجمل الموقف الاميركي الرسمي المعادي للمصالح الوطنية الفلسطينية ، من جهة ، وعلى بوادر التحول في بعض أوساط الراي العام الاميركي لصالح مزيدٍ من التفهم لهذه المصالح من جهة أخرى .

وتطرق ياسر عرفات (في خطابه أمام المهرجان الذي أقيم في بيروت بمناسبة يوم فلسطين في ١٧/٨/٧٩) الى هذا الموضوع فقال : يستطيع كارتر أن يطرد اندرو يونغ ، لكن ، هناك شيء واحد اثبتته هذه العملية ، عندما كنا نقول : ان من يحاربنا في الجنوب هي اميركا حاول الكثيرون الالتفاف على هذه الحقيقة ، وظنوا اننا نبالغ ، وخاصة عرب اميركا ، الذين كانوا يقولون : خفف يا ابا عمار قليلا عن اميركا لأنها تساعدنا . وبعث في اليوم نفسه برقيته الى « المؤتمر الفلسطيني الأول » (الذي عقده في واشنطن ممثلون عن الفلسطينيين المقيمين في أميركا) قال فيها : كشفت الأيام الأخيرة بجلاء تام الموقف المتعنت والمنحاز تماما الى جانب المعتدين الاسرائيليين ، والذي اتخذته وتتخذه الادارة الاميركية الحالية ، استمرارا لسياسة الادارات الاميركية السابقة . وحث اعضاء المؤتمر على ان يقوموا بما يلزم لايصال الحقيقة للمواطن الأميركي ، والتي تكسب لنا المزيد من الاصدقاء (وفا ، ١٧ و ٨/١٨) . وقال في خطاب القاه في دمشق في ٨/٢٠ عندما رعى حفلا لتخريج ثلاث دورات لكوادر فتح : كارتر يقول وبكل وقاحة انه لا يوافق على دولة فلسطينية وانا أسأله : من قال لك يا كارتر اننا ننتظر الدولة من خلال الخيانة . (وفا ، ٩/٢٠) . وقال بعد ثلاثة ايام في خطاب القاه في لبنان في معسكر الطلبة العرب بسوق الغرب : لن تخدعنا واشنطن بحديثها عن اللوبي الصهيوني ، فهذه اللعبة نحن

نعرفها ونعرف ابعادها واغراضها ، ولهذا قلنا في مؤتمر بغداد ان اميركا هي رأس الافعى ، ويجب ان تفرض العقوبات عليها لانها العدو الأول لأمتنا العربية . (وفا ، ٨/٢٤) .

ووصف « مصدر رسمي اعلامي في الثورة الفلسطينية » موقف يونغ بأنه مبدئي وشجاع . وقال : إن دفعه للاستقالة يمثل ابشع مظاهر الارهاب الفكري . ودعا كل الشرفاء في اميركا والعالم ، وفي مقدمتهم القوى السوداء في الولايات المتحدة ، كي يروا كيف تغتال الديمقراطية والمواقف النزيهة امام الضغوط والارهاب والابتزاز في اميركا . واعرب عن الأمل بأن يأتي قريبا الوقت الذي يصحو فيه المواطن الاميركي على هذه الحقيقة . (وفا ، ٨/١٦) .

ورأى محمد زهدي النشاشيبي ، امين سر اللجنة التنفيذية ، أن دفع يونغ الى الاستقالة يقدم الدليل القاطع على زيف الادعاءات الاميركية بالحرص على اجراء حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية . وقال : إن الرئيس كارتر سيكون أكبر الخاسرين نتيجة هذه السياسة التي تعتبر ليس فقط معادية للعرب بل لملايين الناخبين الاميركيين الذين يمثلهم يونغ . (وفا ، ٨/١٦) .

وطالب المؤتمر الفلسطيني الأول في واشنطن دول النفط العربية باتخاذ اجراءات عاجلة للرد على تصرفات كارتر . ودعا القوى السوداء في الولايات المتحدة الى التحالف مع م.ت.ف. لمواجهة النفوذ الصهيوني ، ولنصرة الحقوق الفلسطينية . (وفا ، ٨/١٩) . وفي نيويورك نشطت بعثة م.ت.ف. لدى الأمم المتحدة في اجراء الاتصالات مع زعماء القوى السوداء ، منذ استقالة يونغ . واستقبلت العديد من ممثليها . سبب التوجه الى القوى هو كون يونغ واحدا من زعماء هذه القوى وهو الذي لعب دورا في صب اصوات الاميركيين السود لصالح كارتر في انتخابات الرئاسة .

مسألة يونغ هذه وما اثاره من ردود فعل اقترنت بمسألة أخرى ، تتصل باجتماع مجلس الأمن الدولي من أجل مناقشة قضية فلسطين . ولقاء يونغ بالطرزي كان سببه اساسا أن الأول يرأس مجلس الأمن الدولي بينما كان المجلس يتهيأ للمناقشة . وقد ترددت انباء صحفية اشارت الى ان الولايات المتحدة صارت ميالة لاجراء مناقشة جديدة ، ينجم عنها قرار جديد من المجلس يجيء بمثابة تجاوز للقرار ٢٤٢ الذي سبق ان اصدره المجلس في العام ١٩٦٧ ، ويشير الى الحقوق الفلسطينية التي تجاهلها القرار ٢٤٢ . واقترن ذلك بتجدد الحديث عن امكانية اجراء حوار ما بين م.ت.ف. والولايات المتحدة ، على أساس أن تعلن المنظمة قبولها بالقرار ٢٤٢ أي بالاعتراف باسرائيل . وقد نوقش هذا الأمر في الاجتماع الذي عقده المجلس المركزي الفلسطيني في دمشق وقال ياسر عبد ربه رئيس دائرة الاعلام في المنظمة ان معظم المتعلمين في الاجتماع اجمعوا على أن ما يقال حول الحوار بين اميركا وم.ت.ف. ليس الا مناورات لتمييع الموقف العربي وخاصة قرارات قمة بغداد ، ولزرع الانقسام ما بين الفلسطينيين انفسهم ، وما بينهم وبين الدول العربية . وأضاف ، أنه تقرر أن م.ت.ف. سترفض مثل هذا الحوار ، مادامت واشنطن ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير وبحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة . وذكر ان المجلس أكد رفضه لأي قرار يصدر عن مجلس الأمن الدولي ، لا ينص صراحة على اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، وعلى حق العودة وتقرير المصير . وعلى أن المنظمة هي الممثل الشرعي والوحيد لشعب فلسطين . ووصف الانباء التي تتحدث عن تغير في الموقف الاميركي من المنظمة بأنها تهدف الى تهدئة العرب المعادين لاتفاقات كامب ديفيد (الحرية ، ٨/٢٠) .

ولم تلبث الملابسات التي احاطت باستقالة يونغ أن أكدت وجهة نظر منظمة التحرير في استمرار موقف اميركا المناهض للحقوق الوطنية الفلسطينية . ثم جاء التأكيد الجديد من خلال الضغوط التي مارستها واشنطن لمنع مجلس الأمن الدولي من اتخاذ قرار حول هذه الحقوق واعلانها واستعدادها لاستخدام حق النقض ضد قرار كهذا ، مما ادى ، أمام انحسار الأمل بتبدل الموقف الاميركي ، الى تعطيل المناقشة في مجلس الامن حول القضية الفلسطينية ، وارجائها لوقت آخر من غير الوصول الى اي قرار .

فلسطين في مؤتمر هافانا

افتتح مؤتمر القمة السادس للدول غير المنحازة في العاصمة الكوبية هافانا كما كان مقررا له في الثالث من ايلول ١٩٧٩ . (راجع التفاصيل في قضايا

دولية من شهريات هذا العدد) . وقد تجلى الوزن الكبير لمنظمة التحرير الفلسطينية في حركة الدول غير المنحازة منذ بداية المؤتمر الذي اختار ياسر عرفات نائبا لرئيس المؤتمر الى جانب الرئيس الكوبي فيديل كاسترو الذي اختير رئيسا . واسهم الوفد الفلسطيني (الذي ضم ايضا من اعضاء اللجنة التنفيذية فاروق القدومي وعبد المحسن ابو ميزر وياسر عبد ربه ، ومن مدراء مكاتب المنظمة شفيق الحوت وزهدي الطرزي وعصام كامل ونعيم خضر) بنشاط بارز ، سواء من خلال مناقشاته في اجتماعات مؤتمر وزراء الخارجية الذي سبق القمة أو اجتماعات القمة ذاتها ، أو من خلال الاتصالات الثنائية العديدة التي عقدها مع الوفود الأخرى خلال ايام المؤتمر .

وتبلورت مطالب الوفد الفلسطيني في المؤتمر في ثلاثة : اعادة تاكيد موقف الدول غير المنحازة والمؤيدة للحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني ، وادانة اتفاقيتي كامب ديفيد واتفاقية السلام المصرية – الاسرائيلية التي انبثقت عنهما ، بوصفها اتفاقات جزئية منفردة تتنكر لهذه الحقوق ولمصالح الأمة العربية في تحرير الأرض العربية المحتلة وتشكل خروجا على روح مقررات ومبادىء دول عدم الانحياز ونصوصها ، وفرض العقوبات على النظام المصري الذي وقع على هذه الاتفاقيات .

وقد استقطبت المطالب الفلسطينية ، المؤيدة من وفود غالبية الدول العربية والمنسقة معها ، أوسع الاهتمام في المؤتمر . ولم يثر أي اعتراض ضد المطلب الأول ، كما ان غالبية الوفود أيدت المطلب الثاني ، وأثير الجدل الطويل حول المطلب الثالث . وأوضح ياسر عرفات في أول مداخلاته في الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر ، التي تلت جلسة الافتتاح موقف منظمة التحرير الفلسطينية من النظام المصري . وقال وهو يرد على تصريحات ادلى بها ممثل النظام المصري في المؤتمر : بدلا من ان تكون مصر القوة الضاربة ، القوة المساعدة ، القوة الحامية لكل ما هو حر وطني ، لحركات التحرر ، كما كان دورها ايام البطل الشهيد عبد الناصر ، نفاجأ بدورها الآن : محاولة تفجير ، محاولة اثارة الزوبعة في مؤتمرنا هذا في الوقت الذي يذهب فيه السادات ... ويختار ثوب الغدر (مشيرا الى زيارة السادات لحيفا التي تمت اثناء انعقاد المؤتمر) لموعد انعقاد مؤتمرنا لزيارة صديقه وحليفه بيغن متحديا مشاعر المؤتمر وارادة الأمة العربية ، وتحديا للشعب الفلسطيني ، وتحديا لحركة عدم الانحياز التي كان الشهيد الراحل عبد الناصر مؤسسا فيها . وأشار الى ان نظام السادات يقوم بمحاولة بيع شعب مصر ، قضية ووطنا ، ثم اكد أنه ليس بمقدور أحد ان يبيع شعب مصر (وفا ، ٩/٤) . وعندما القى كلمة فلسطين في المؤتمر حمل عرفات على الولايات المتحدة وسياستها الثابتة في عدائها للشعب العربي الفلسطيني ودحض مزاعمها حول رغبتها في احلال السلام في الشرق الأوسط وبين كيف أنها تعهدت لفرقاء كامب ديفيد بان تمون جماعتها في المنطقة بما قيمته خمسة مليارات دولار من الاسلحة في سنة واحدة يذهب معظمها لاسرائيل . ووصف موقف النظام المصري بانه خروج على الاجماع العربي وتجاهل كامل لمقررات القمة العربية وانحياز لاسرائيل حليفة عنصريي جنوب افريقيا وروديسيا والشاه الايراني المخلوع . وغيرهم من اعداء الشعوب ، وخروج على قرارات قمة عدم الانحياز في كافة مؤتمراتها . وقدم تحليلا شاملا لاخطار المعاهدة العربية – الاسرائيلية على قضية فلسطين – (وفا ، ٩/٤) .

وقد استجاب المؤتمر للمطلب الفلسطيني الأول فصدر عنه قرار اجماعي اكد من جديد اعتراف حركة عدم الانحياز بحقوق شعب فلسطين الثابتة وغير القابلة للتصرف وهي حقوقه في العودة واقامة دولته المستقلة ذات السيادة في فلسطين وتقرير المصير دون اي تدخل خارجي . وطالب بأن تدعى منظمة التحرير ، وهي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، مع الاطراف الاخرى على قدم المساواة للمشاركة في جميع المساعي والمناقشات والمؤتمرات بشأن قضية فلسطين والوضع في الشرق الأوسط .

وأقر المؤتمر ايضا وجهة النظر الفلسطينية في اتفاقات كامب ديفيد ووصفها بأنها تتعارض مع حقوق العودة وتقرير المصير واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ، وتنتهك بذلك قواعد القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة ومبادىء وأهداف وسياسات حركة عدم الانحياز . وقال انها تجزىء الشعب الفلسطيني وتنفي وجود ودور ومسؤولية منظمة التحرير في المساعي من أجل اقامة السلام . وابدى قلقه تجاه المحاولات الجارية لفرض ما يسمى بالحكم الذاتي على الشعب الفلسطيني المقيم في

المناطق الفلسطينية المحتلة . كما اعرب عن قلقه لان مجلس الامن الدولي لم ينظر ولم يقرر حتى الآن شيئا بشأن تمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه الثابتة، على صورة قرار الجمعية العامة رقم٣٢٢٣٦ لسنة ١٩٧٤ ، واستنكر اعلان حكومة الولايات المتحدة قرارها باستعمال حق النقض ضد كل مشروع يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني .

وادان، على ضوء ما تقدم ، اسرائيل ، والصهيونية . وحث مجلس الأمن على مناقشة توصيات الجمعية العامة المتصلة بحقوق الشعب الفلسطيني ، وطالب بعقد دورة استثنائية للجمعية العامة ، في حال فشل المجلس في الوصول الى قرار (وفا ، ٩/٨) .

وصدر عن المؤتمر ايضاح بين ان اعضاءه تدارسوا اقتراحا بتعليق عضوية مصر ... وقرر ان يوكل الى مكتب التنسيق كلجنة خاصة لدراسة الاضرار الناجمة عنها على البلاد العربية ، وخصوصا على الشعب العربي الفلسطيني ، كنتيجة لتوقيع اتفاقات كامب ديفيد ، ومعاهدة السلام العربية الاسرائيلية ، وطلب من هذه اللجنة الخاصة ان تقدم حول هذا الموضوع تقريرا الى الاجتماع الوزاري القادم في نيودلهي ، وخولها بان تتخذ اي نوع من القرارات حول المركز القانوني لوضع مصر في الحركة . (وفا ، ٩/٩) .

وجاءت نتائج المؤتمر السادس فيما يتصل بقضية فلسطين والشرق الأوسط لتؤكد من جديد المكاسب السياسية التي حققتها منظمة التحرير ، وتشير الى رسوخ وتزايد وزنها الدولي . واجمعت المصادر الفلسطينية على الاشادة بهذه النتائج . وفي ٩/١١ ترأس ياسر عرفات بعد عودته لبيروت اجتماعا للقيادة الفلسطينية اطلعها على نتائج المؤتمر . وقرر الاجتماع خطة فلسطينية للتحرك في اطار دول عدم الانحياز والمؤسسات الدولية لتأخذ هذه المقررات طريقها الى التنفيذ (وفا ، ٩/١٢) .

عرفات في اسبانيا

لبى الاخ ياسر عرفات دعوة الحكومة الاسبانية لزيارة اسبانيا . ووصل الى مدريد يوم ٩/١٣ على رأس وفد يضم عبد المحسن أبو ميزر وأحمد صدقي الدجاني والتقى فور وصوله مع رئيس الوزراء ادولفو سواريز مفتتحا جولة من المحادثات مع المسؤولين في الحكومة الاسبانية ومع عدد من قادة الاحزاب السياسية والشخصيات الوطنية الاخرى دامت على مدى ايام الزيارة الثلاثة . واستقبل عرفات في اليوم الاول للزيارة سانتياغو كاريللو السكرتير العام للحزب الشيوعي الاسباني الذي فسر توجيه الدعوة لوفد منظمة التحرير من قبل الحكومة بأنه يعد اعترافا رسميا بالمنظمة الى حد ما . واستقبل عرفات كذلك توليب غونزاليز السكرتير العام للحزب الاشتراكي الذي اعلن موقف حزبه القائم على تأييد حق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة ، « وحق اسرائيل في الوجود داخل حدود آمنة وثابتة » .

وفي اليوم الثاني قام ياسر عرفات بزيارة مكتب المنظمة في مدريد . وجرى احتفال حضره سفير اسبانيا في بيروت ، وحضره مطران القدس المنفي هيلاريون كبوجي الذي قدم خصيصا من روما ليلتقي بالوفد الفلسطيني ، وحضره حشد من الطلبة الفلسطينيين والعرب في اسبانيا . وتم في الاحتفال رفع علم فلسطين على المكتب . تحدث عرفات في مؤتمر صحفي عقده قبل مغادرته مدريد وصف فيه زيارة الوفد الفلسطيني بانها مثمرة، وقال ان شعب اسبانيا صديق للثورة الفلسطينية، واعلن ان المستقبل سيبين مدى نجاح هذه الزيارة وان الاحداث ستتكلم عن نفسها .

وقال بيان اعلامي أصدرته وزارة الخارجية الاسبانية أن اسبانيا أعربت لعرفات عن رغبتها في الاستمرار في تنمية علاقات الصداقة والتعاون القائمة بين اسبانيا والعالم العربي والحفاظ عليها . واعلن انها ستستمر في تأييد القضايا العادلة للعالم العربي ، وهي على اقتناع بأنه لا يمكن اقرار السلام المأمول في الشرق الأوسط دون حل شامل وعادل ودائم يستند الى مبادىء وقرارات الأمم المتحدة والى ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الوطنية الراسخة . واوضح بيان الخارجية الاسبانية ان رئيس الوزراء ادولفو سواريز ووزير الخارجية مارسيلينو اوريخا استقبلا ياسر عرفات في اطار الاتصالات التي تجريها منظمة التحرير الفلسطينية مع المسؤولين في اوروبا وفي دول اخرى .

ووصف وزير الاعلام الاسباني الزيارة بانها شيء ايجابي . ثم قال ان هذا لا يعني ان اسبانيا تعترف بصورة دبلوماسية قاطعة بمنظمة التحرير

الفلسطينية . واعتبرها فاتحة لاقامة علاقات مفتوحة . وأكد ان اسبانيا لن تقيم اية علاقات دبلوماسية مع اسرائيل ما لم تعترف هذه بالشعب الفلسطيني (السفير ، ٩/١٦) .

يجدر التذكير بأن هذه الزيارة هي الثانية التي يقوم بها ياسر عرفات لدولة من دول اوروبا الغربية ، الأولى كانت زيارته في تموز الماضي للنمسا بناء على دعوة من المستشار كرايسكي .

فيصل حوراني

المناطق المحتلة

برزت ، في سياق مجهودات المسؤولين الاسرائيليين لاقناع فلسطينيي المناطق المحتلة بخطة الحكم الذاتي ، الاتصالات التي اجراها وزير الخارجية موشي ديان مع عدد من زعماء الضفة الغربية وقطاع غزة ، والضجة التي رافقت التصريحات التي نسبت لرئيس بلدية غزة المعين رشاد الشوا وتكذيبه لها . وفي غضون ذلك استمرت اسرائيل في تنفيذ سياستها الثابتة بتسريع وتيرة الاستيطان والتهويد ، مع محاولتها لخلق موضوع وهمي هدفه صرف نظر المواطنين العرب عن النتائج الفعلية لهذه السياسة ، وذلك من خلال التركيز على خلاف مع غوش ايمونيم التي تشكو من نقص الأراضي المخصصة للاستيطان ، ومن خلال الحديث المبكر عن الانتخابات البلدية في المناطق المحتلة التي ستجري في نيسان ١٩٨٠ ، والتهويل بخطر الشيوعيين الفلسطينيين في تلك الانتخابات .

النشاط الاستيطاني

سار النشاط الاستيطاني في اتجاهات ثلاثة : (١) حملة غوش ايمونيم ضد ما اسمته بحالة « الاختناق » التي تلم بها نتيجة « النقص » في الأراضي ، (٢) استيلاء السلطات على مساحات واسعة من الاراضي في الضفة الغربية ، (٣) اقامة مستوطنات جديدة في الاراضي الفلسطينية والسورية مع اعداد خطط مستقبلية لتهويدها .

يتميز نشاط غوش ايمونيم بالحملة المركزة والمدروسة الرامية لدفع سلطات الاحتلال للاسراع في عملية الاستيلاء على مزيد من الأراضي العربية . فقد اتسمت هذه الحملة بالضرب على وتيرة « الضائقة » او حالة « الاختناق » التي تلم بالحركة نتيجة النقص في الأراضي ، في الوقت الذي تنادي فيه « ارض ــ اسرائيل » ابناءها لانقاذها .

ومع ترديد هذه النغمة والترويج لها طالبت الحركة الحكومية بوضع يدها فورا على ٥٠ الف دونم في الضفة الغربية لصالح ١٨ مستوطنة تخصها ، وذلك لانقاذها من حالة « الاختناق » التي تعاني منها . وقد وعدت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ببذل الجهود لايجاد طريقة للاستيلاء على « مناطق واسعة » في الضفة الغربية ، كما بعثت لجنة كريات اربع بمذكرة احتجاج الى وزير الدفاع عيزر وايزمان ضد ما اسمته بحالة « الاختناق » التي تعيشها المستوطنة ، بعد رفض جهاز الحكم العسكري توسيعها ، مدعية ، « ان الضاحية اليهودية في الخليل آخذة بالاختناق ، في الوقت الذي ينشط فيه العرب باحاطتها بالبناء ، بمساعدة م . ت . ف . وبمؤازرة الحكم العسكري » (انظر دافار ، ٧٩/٨/٢٢) .

وفعلت مستوطنات غور الاردن الشيء نفسه ، حيث طالبت بتوسيع نطاق المستوطنات ليشمل الاراضي الواقعة على امتداد نهر الاردن ، والاستيلاء على عشرة آلاف دونم خصبة ، اما مستوطنو « قدوم » فلم يكتفوا بالمطالبة ، بل قاموا بمحاولة توسعية ، استولوا خلالها على مساحة من الاراضي خارج نطاق المستوطنة ، ولم يعودوا الا بعد تدخل قوات المظلات الاسرائيلية ؛ ليعلنوا بعد حدوث

« الضجـة » عن تذمرهـم من « الضائقـة » في الاراضي ، « فمن دون مناطق اخرى ، لن يكون بوسعنا ان نضم الينا العائلات الكثيرة الاخرى التي تقـوم بقـرع ابوابنـا » ، (معاريـف ، ٧٩/٨/٢٢) . وشارك مستوطنو عفرة القريبة من « بيت ال » بالحملة ضد « النقص » في الاراضي ، باعلان احد المسؤولين هناك في حديث صحفي عن حاجة المستوطنة للاراضي : « قبل كل شيء تنقصنا الارض . توجد هنا اراض صخرية كثيرة مهجورة ، وهي تنادي لنقلها الى ايدينا ، ليد شعب اسرائيل صاحب البلاد الشرعي .

بحوزتنا اليوم ٢٧٠ دونما فقط ، نصطف بداخلها لدرجة الاختناق .... هذا غير معقول . ان المستوطنة لا تبنى في الهواء ، اعطونا اراضي ، اراض غير ضرورية لانسان ، فقط لنا » (يديعوت احرونوت ، ٧٩/٨/٢٠) .

وادلت مستوطنات غوش عتسيون الواقعة بين الخليل والقدس هي الأخرى بدلوها ، حيث قام مندوبون عن مستوطنات كفار عتسيون ، الـون شابوت ، روش تسوريم ، اليعيزر ، مغدال عوز ، تكوع ، بتظاهرة امام منزل وزير الدفاع عيـزر وايزمان ، حاملين شجرتين مقتلعتين ، زاعمين ان عربا اقتلعوا ٨٠٠ شجرة تخص مستوطناتهم ، وطالبوا بملاحقة العرب في منطقة جبل الخليل ، وكذلك « دراسة موضوع اقامة مستوطنات اخرى في المنطقة ، وتخصيص اراض اخرى للاستيطان ، وذلك لخلق ترابط امني يحول دون وقوع حوادث شبيهة » واذا لم يتحقق ذلك ، فانهم « سيتخذون اجراءات تدل على خطورة الوضع » (هآرتس ، ٧٩/٨/١٧) .

كان من نتيجة حملة غوش ايمونيم المدروسة ، والمتفق عليها مع رئيس اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ارئيل شارون ، والتي حظيت ايضـا بتعاطف رئيس الحكومة مناحيم بيغن ان ابدى عدد من المسؤولين الاسرائيليين « تفهما » لمطالب غوش ايمونيم . واخذ الحديث يدور حول ضرورة سن تشريع يسمح بمصادرة الممتلكات الخاصة الواقعة بالقرب من المستوطنات ، الأمر الذي اثار تحفظات ومعارضة لدى بعض وسائل الاعلام الاسرائيلية مثل صحيفـة « هآرتس » من منطلـق الحـرص على « الممتلكات الخاصة » ، التـي ذكرت في مقـال افتتاحي لها (٧٩/٨/٢١) ، ان « على الحكومة احترام حق الملكية الفردية حتى عندما يتعلق الامر بعرب المناطق المحتفظ بها . ان ذلك يعتبر احد الحقوق الأساسية لبني البشر ، ولا يمكن الحفاظ عليه داخل الخط الأخضر ، اذا كانوا ينشطون في خارجه ، وكأن في استصدار تشريع رسمي ما يكفي لانتهاك هذا الحـق باسـم المصلحـة القوميـة المزعومة » . اما معاريف فقد عالجت هي الأخرى في مقال افتتاحي (٧٩/٨/٢٠) ، ما اسمتـه بـ « ضائقة الاراضي » التي تعاني منها المستوطنات في المناطق المحتلة ، وقالـت « ان ضائقـة الأراضي بالنسبة لمعظم المستوطنات الجديدة التي اقيمت في يهودا والسامرة هي حقيقة قائمة ... بيد ان الحل لا يكمن في الاستيلاء التظاهري على اراضي الجيران العرب الذين لا دخـل لهـم بتقصير السياسـة الاستيطانية... » .وبعد ان اتهمت الحكومة بزرع المستوطنات هنا وهناك دون توفير الاراضي اللازمة لها ، قالت « على الحكومة التصرف بشدة ضد اولئك الذين يتعدون الحدود ، ويستولون على اراض ليست لهم ، وعليها ايضا الاعتراف بالواقع الذي خلقته هي ، ويجب عليها ايجاد حل لها » .

وفي غمـرة الحديـث عن « الاختنـاق » و « الضائقة » كشف النقاب عن واقع مغاير تماما للضائقة المزعومة ، وذلك عندما اضطرت سلطات الاحتلال الى تغريم مستوطنتين في غور الاردن مبالغ مالية لتجاوزهما « قانون الاستيطان الزراعي » بتأجيرهما اراض ومياها للعرب. فقد تم تغريـم مستوطنة « محولاه » لتاجيرهـا ٥٠٠ دونم بغرامة مقدارها ٥٠ الـف لـيرة ، وتغريـم مستوطنـة « ارجمان » لتاجيرها ١٥٠ دونما بمبلغ ٤٠ الف ليرة (انظر معاريف ، ٧٩/٧/٢٦) .

مصادرة الاراضي

لقد استهدفت هذه الحملة التمهيـد لاعمـال المصادرة والاستيلاء على مساحات واسعـة من الأراضي العربية من جانب السلطة « الرسمية » . فعند منتصف آب الماضي ، قررت اللجنة الوزارية لشؤون القدس « وبشكل نهائي » مصادرة « بضعة آلاف » من اراضي المنطقة الواقعة بـين « نفيـه يعقوب » والتلة الفرنسية الى الشرق من الطريق المؤدي الى رام الله ، لخلق تواصل يهودي بـين الضاحيتين ، باقامة ضاحية يهودية . ومن الجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال كانت تعتزم عند بداية السبعينات مصادرة اربعـة آلاف دونـم في هذه

المنطقة ، بيد انها تراجعت عن تحقيق ذلك الى ان قررت مؤخرا مصادرتها ، ويتطلب قرار المصادرة ليس فقط اقامة مساكن لليهود بل ايضا هدم جميع المباني العربية القائمة (انظر هآرتس ، ١٧/٨/٧٩) .

ومن الملفت للنظر الحملة المرافقة لقرار المصادرة ضد البناء العربي « غير المرخص » وتواجد اعداد من سكان الضفة الغربية في المدينة ، ومن بين قادة هذه الحملة دانئيل بلوخ (دافار ٣/٩/٧٩) الذي حذر من خطر البناء العربي على المشروع الصهيوني بقوله : « ان حجم البناء غير الشرعي في القدس الشرقية يثير الدهشة ، فمن مجموع ١٢٠٠ منزل جديد اقيمت بين حزيران ١٩٦٨ وكانون الثاني ١٩٧٦ ، صدرت تصاريح قانونية لـ ١٣٦ منزلا فقط . واذا ما اضفنا الى ذلك وجود ٣٥٠٠ من سكان يهودا والسامرة يعيشون بشكل دائم في القدس ، فاننا ندرك التخوف الجدي لانتهاك الميزان الديمغرافي في المدينة ، ويجب ان تثير هذه المعطيات القلق سواء بالنسبة لعمل الحكومة ، او بالنسبة لتحديد مكانة القدس كعاصمة وكمدينة موحدة » .

الى جانب النشاط الرامي لتهويد مدينة القدس ، استولت سلطات الاحتلال على قطعة ارض مساحتها ٥٠٠ دونم تخص فلاحين عربا من قرية نعالين في قضاء رام الله ، بغرض اقامة مستوطنة اسرائيلية هناك تحمل اسم « متتياهو » . وتوجه المزارعون العرب الى محكمة « العدل » العليا في اسرائيل لاستعادة ممتلكاتهم ، مدعومين من بعض الاوساط اليهودية ، وعلى رأسها العميد احتياط متتياهو بيلد الذي اكد ان الاستيلاء على تلك الاراضي لم يكن لاسباب امنية ، بيد ان محكمة « العدل » اجازت الاستيلاء بفتوى جديدة في القاموس الصهيوني الامني تنص على « ان البرمجة العسكرية يجب ان تأخذ بعين الحسبان ليس فقط المخاطر القائمة ، وانما ايضا المخاطر التي قد تتكون نتيجة تطور ديناميكي في المنطقة » (معاريف ، ٢٦/٨/٧٩) .

ومن الجدير بالذكر ان محكمة « العدل » العليا اصدرت مؤخرا حكمها بتخفيف العقوبة على المستوطن الفيجدور ارسكين من سكان كريات اربع من سبعة شهور الى مئة يوم بعد ان جرمته محكمة اسرائيلية باقتحام منزلين عربيين مع رفيقين له وضرب ساكنيهما وتحطيم الاثاث . وقد اخذت محكمة « العدل » باقوال الدفاع الذي امتدح تاريخ المتهم في الاتحاد السوفياتي حيث « قام هناك بأمور عظيمة لخدمة الفكرة الصهيونية » (هآرتس ٣/٩/٧٩) .

وخلال الجزء الأول من شهر ايلول الماضي استولى الجيش الاسرائيلي على مساحات من اراضي قرية بيت قاد ، في منطقة جنين بالذريعة المعهودة « دواعي الامن » ولم يشفع للسكان العرب احتجاجهم على كون الاستيلاء يشمل اراضي مزروعة ، وفي الوقت نفسه استولى الجيش الاسرائيلي ايضا على مساحة اخرى من الارض تقدر بـ ١٦٠٠ دونم تخص قرية دير شيا في منطقة طولكرم بنفس الحجة .

ويبدو ان النهم الاسرائيلي لم يقتصر على الارض فقط ، وانما يشمل المواشي التي تخص فلاحين عربا ، فقد صادر رجال « الداورية الخضراء » المكلفة بحراسة المزارع اليهودية والمعروفة باعمالها الهمجية ضد سكان عرب النقب ، قطيعا من الماعز ــ يتكون من ٣٠٦ رؤوس ماعز و٢٥ حملا ــ يخص اهالي قرية جابا في منطقة حلحول . وعند مطالبة الاهالي باستعادة مواشيهم ، اتضح ان قطيع الماعز قد ذبح (دافار ١٠/٩/٧٩) .

وفي هذه الاثناء استمرت شركة هيمنوتا التابعة للوكالة اليهودية في استملاك مزيد من الاراضي العربية دون التورع عن استخدام اساليب الغش والخداع وحتى « الاغراء » كما حدث للشيخ الطاعن في السن سالم الحمامرة البالغ من العمر ثمانين عاما ونيفا . فقد اقنع سماسرة الشركة الشيخ العجوز بالانتقال من قرية حوسان بالقرب من بيت لحم الى ضواحي تل ابيب للعيش هناك برفقة امرأة يهودية ! وهناك وقع للسماسرة على انتقال ارضه ــ ٤٠٠ دونم ــ الى شركة همنوتا ، مما حدا بابنائه الى تقديم شكوى للمحاكم الاسرائيلية ضد عملية الغش هذه . ومن الجدير بالذكر ان المحاكم الاسرائيلية تشهد مؤخرا كما يقول يهودا اليطاني (هآرتس ، ٢/٩/٧٩) ، « شكاوى غير قليلة » حول اعمال الغش ، التي تنتقل بواسطتها ملكية اراضي عربية الى شركات يهودية عن طريق السماسرة .

اقامة مستوطنات جديدة

وسط اعمال مصادرة الاراضي والاستيلاء عليها ، نشطت سلطات الاحتلال في اقامة وقائع جديدة في المناطق الفلسطينية والسورية المحتلة ، مع اعداد خطط استيطانية لادخال تلك المناطق في طور التهويد ، ففي قطاع غزة اقيمت عند نهاية آب الماضي مستوطنة جديدة تحمل اسم « جاني طال » وحرص

وزير الدفاع عيزروايزمان على طمانة المستوطنين في هذه المناسبة بالبقاء الى الابد في القطاع ، بقوله « واصلوا بناء مستقبلكم بنفس مطمئنة . لقد سبق للحكومة الاسرائيلية ان اتخذت قرارا وستحافظ عليه . اننا سنطور المنطقة وفق البرامج التي اعددناها لانفسنا » (عل همشمار ، ٧٩/٨/٢٦) ، ومن المقرر ان تستوعب المستوطنة في المرحلة الأولى ٣٥ عائلة . اما في الضفة الغربية فان اعمال التمهيد تجري على قدم وساق في منطقة القدس لاقامة مستوطنة « ادوميم ب » في الوقت الذي اتخذت فيه اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان عند اواخر آب الماضي قراراً باقامة اربع مستوطنات جديدة في الضفة الغربية ، مستوطنتان في منطقة اريحا والاخريان في منطقة نابلس .

واقرت سلطات الاحتلال ، استكمالا لسعيها لاحاطة الخليل بسوار من الاستيطان الاسرائيلي ، اقامة ضاحية يهودية جديدة فوق تلة تقع بالقرب من المدينة على الطريق المؤدي الى حلحول ، اطلق عليها اسم « غفعات حارسينا » تحتل مساحة ٨٠٠ دونم . ومن المقرر ان تحتل المباني اليهودية في المرحلة الأولى ثلث هذه المساحة ، لوجود مبان عربية في المنطقة ، يبدو ان الوقت « غير مناسب » لازالتها . وقد بدأ مستوطنو كريات اربع بشن حملة ضد المباني العربية مطالبين بهدمها فورا ، بحجة افتقارها الى رخص بناء ، و ازالة البساتين ايضا بحجة ان العرب غرسوها بطريقة « غير شرعية » (ر.إ.إ ، ٧٩/٨/٢٦) . علاوة على مطالبتهم باقامة ضاحية ثالثة في تلة «الجعابرة» لتصبح مدينة الخليل مطوقة بالاستيطان اليهودي .

وفيما يتعلق بالمشاريع المستقبلية ، فقد اماط رئيس دائرة الاستيطان في الوكالة اليهودية متتياهو دروبلس ، اثناء جولة له في مستوطنات الضفة الغربية ، اللثام عن ان هدف دائرته الاساسي خلال الاعوام الخمس القادمة هو اقامة مستوطنات جديدة ليصبح عدد المستوطنين في الضفة ١٢٠ الف مستوطن . كما واكد ان دائرته تعتزم تطويق نابلس باربع كتل استيطانية ، اطلق عليها كتلة ترتسيه ، وكتلة شافي شومرون وكتلة قدوميم وكتلة ايلون موريه ، بهدف « غلق نابلس من الجهات الاربع » (معاريف ٧٩/٧/٢٦) .

وفي هضبة الجولان السورية المحتلة جرى مؤخرا تحديد اماكن لثلاث مستوطنات جديدة ، من مجموع خمس مستوطنات اقرت سلطات الاحتلال اقامتها ، وهي « سخاخ » في شمال الجولان ، و « عيشية » في الوسط ، و « دبوسية » في الجنوب .

ومن ناحية اخرى كشف النقاب عن خطة « المرحلة الثانية » التابعة للهستدروت الصهيونية العالمية ، تعتمد على تركيز النشاط الاستيطاني في المنطقة الوسطى . اذ سيتم انشاء ١٢ مستوطنة في هذه المنطقة لغلق « الثغرة » الاستيطانية لأن في ذلك « ضرورة وطنية وقومية » ويتطلب تحقيق الخطة الاستيلاء على مزيد من الاراضي تقدر بـ ٢٤ الف دونم (ر . أ . أ . ٧٩/٩/٥) ، وغني عن القول ان هذه الخطة ليست استيطانية فحسب بل عملية تهويد ايضا . اذ سيتم في حال تحقيقها حتى العام ١٩٨٥ تغيير الواقع الديمغرافي في الجولان رأسا على عقب . ففي الجولان اليوم قرابة ١٣ الفا من المواطنين العرب السوريين مقابل خمسة الاف مستوطن يهودي ، وسيصبح فيه وفق الخطة الاسرائيلية عام ٤٤،١٩٩٥ الف مستوطن ، يتخذون من مدينة كتسرين عاصمة لهم .

وتأتي هذه المشاريع الاستيطانية في اجواء التأكيد على مواصلة الاحتلال « الى الابد» . ففي اجتماع عقد في قرية مسعده حضره مستوطنون و« وجهاء » عرب اكد الوزير الاسرائيلي ارئيل شارون على « اننا لن ننسحب من هضبة الجولان حتى لو توصلنا الى اتفاق مع سوريا . هذا هو قرار حكومة اسرائيل .... ان اسرائيل لن تنسحب من الجولان » (عل همشمار ، ٧٩/٨/٢٤) ، وقد استغل محسن عبد الصالح احد وجهاء القرية المناسبة وطالب الوزير بمنح السكان السوريين في الهضة الجنسية الاسرائيلية ، ووعده الوزير بالاستجابة لطلبه .

تحركات سياسية

في الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات بين مصر واسرائيل حول الحكم الذاتي جرت سلسلة من اللقاءات بين وزير الخارجية موشي دايان وبين عدد من شخصيات الضفة الغربية وقطاع غزة ، مصاحبة بتصريحات نسبتها وسائل الاعلام الاسرائيلية الى رئيس بلدية غزة تدعم مبادرة السادات ، وقام الشوا بنفيها متهما وسائل الاعلام بتحريف اقواله ، ومشفوعة ايضا بحديث مبكر مقصود عن الانتخابات البلدية في نيسان المقبل ، والتهويل بـ « خطر » الشيوعيين .

لقاءات دايان : خلال النصف الأخير من آب واوائل ايلول عقد وزير خارجية اسرائيل موشي دايان سلسلة من اللقاءات مع تسع شخصيات من الضفة الغربية وقطاع غزة ، جرى البعض منها في بيت الوزير في ضاحية « تسهالا » بالقرب من تل ابيب ، والبعض الآخر في المناطق المحتلة ، ومن بينها لقاءات مع حكمت المصري ، رئيس البرلمان الاردني سابقاً وعزيز المصري رئيس بلدية نابلس سابقاً ، وحيدر عبد الشافي رئيس مؤسسة الهلال الفلسطيني في قطاع غزة والدكتور احمد حمزة نتشه من الخليل ، عضو المجلس الوطني الفلسطيني.وقد اجتمع دايان في غزة مع د . حيدر عبد الشافي في التاسع والعشرين من آب ، يرافقه يوسف هداس المسؤول في وزارة الخارجية الاسرائيلية عن تحقيق اتفاقيات كامب ديفيد ، واجتمع مع د . احمد حمزة النتشه في الثالث من ايلول في مدينة الخليل ، وحاول دايان في سلسلة لقاءاته ولا سيما مع الشافي ونتشه احاطة الحديث بالسرية والكتمان ، وصرح اكثر من مرة امـام الصحفيين ان الحديث « ليس للنشر » .

كان من نتيجة صمت دايان ، وواقع اجتماعه بشخصيتين فلسطينيتين من اقرب العناصر الوطنية الى م . ت . ف . ان صدرت ردود فعل متفاوتة داخل الأوساط السياسية الاسرائيلية ، على لقاءات دايان ، حيث ايدها نفر بسيط ، وتحفظ عليها البعض ، وعارضتها بشدة اوساط كبيرة . وتمحور تحفـظ ومعارضة التيارات الاسرائيلية حول مسألة مبدأ الاجتماع بانصار م . ت . ف . وخصوصاً الشافي والدكتور نتشه ، وازاء تسعير منتقديه لهذه القضية اوضح دايان ان « المسألة التي تواجه اسرائيل ليست اجراء الحوار مع ممثل م . ت . ف . لان ذلك الآن مرفوض من الجميع . انما المقصود ، العرب الذين يعيشون هنا منذ القدم ، ويقومون احياناً بمهمات رسمية ، ولكنهم لا يخفون في الوقت ذاته تأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ويعتبرونها زعامة معترفاً بها لدى الفلسطينيين » (ر . ا . ١ . ٧٩/٩/٥) ، دون ان يكشف النقاب عن جوهر مباحثاته مع الشخصيات الفلسطينية ، ولكنه كشف امام ضغط الصحفيين عن انطباعاته عن اللقاءات بقوله انه « لم يلحظ استعـداداً من جانـب الفلسطينيـين للانخراط في مباحثات الحكم الذاتي » واضاف : انه بدون الفلسطينيين لن يتحقق الحكم الذاتي حتى لو اتفقت كل من اسرائيل ومصر حول شكله وجوهره (انظر هآرتس ، ٧٩/٨/٣١) .

وكشف يهودا ليطاني (هآرتس ، ٧٩/٩/٢) ، النقاب عن ان دايان ألمح للشافي عن اعتزام اسرائيل في نهاية الامر ، بالتنسيق مع مصر ، انهاء ادارتها في قطاع غزة وحينذاك « سيقف سكان القطاع امام مشكلة كيفية ملء هذا الفراغ » .

لم يدم صمت الشافي طويلاً ، فقد كشف بعد مدة بسيطة عما دار في الاجتماع بينه وبين الوزير ، وذكر ان دايان ابدى اهتماماً خاصاً حول استعـدادات رجالات قطاع غزة للاشتراك في مباحثات الحكم الذاتي ، موضحاً ان مصر معنية بتحقيق الحكم الذاتي في بداية الامر في قطاع غزة . واجابه الشافي انه لا يوجد في القطاع اي شخص معروف على استعداد للاشتراك في هذه المباحثات ذلك ان « قطاع غزة اعلن عن رفضه التام لاتفاقات كامب ديفيد » كما اوضح انه لم يلاحظ تغييراً في موقف دايان تجاه م . ت . ف . ، ولم يطلب منه نقل رسالة الى اية جهة (انظر هآرتس ، ٧٩/٨/٣١) .

تصريحات منسوبـة لرئيس بلديـة غزة : بمناسبة تسلم العميد يتسحاق سيغف ، في السادس والعشرين من آب الماضي منصب قائد قطاع غزة خلفاً للعميد يوسف قسطل ، القى رئيس بلدية غزة رشاد الشوا كلمة اعرب فيها عن « تمنياته الطيبة » للقائد الجديد بعد ان امتدح القائد السابق « وتقديم شكرنا على ما قدمه من خدمات للقطاع » وقال « وبالاضافة الى الترحيب بالحاكم العسكري العام الجديد مع تمنياتنا الطيبة له في عمله القادم ، ارى لزاماً علي ان اؤكد حقيقة سياسية للجنرالين ، المحتفى بوداعه والمحتفى بقدومه ، هي ان لسكان هذه المنطقة العرب حقوقاً سياسية اساسية يجب الاعتراف بها والمبادرة لايجاد الحل العادل الملائم لها . هذا بالاضافة الى متطلبات المواطنين المعيشية اليومية التي يجـب تأمينها ريثما يتم التوصل الى الحل السياسي العادل الذي يكفل لهذه المنطقة السلام الدائم والاستقرار المصحوب بالرخاء والازدهار لجميع السكان . كما وارجو ان ينقل الجنرالان المحتفى بهما مشاعر المواطنين وتطلعاتهم ، الى المسؤولين في حكومـة اسرائيل ، فالشعب العربي في هذه المنطقة ينتظر من الحكومة الاسرائيلية اعترافاً بوجوده .. » (انظر ر . ا . ا . ٧٩/٨/٢٧) .

ومن الجدير بالذكر ان العميد يوسف قسطل

اجاب في مجال حديثه عن فترة « ولايته » لقطاع غزة عن سؤال حول موقف الزعامة المحلية من مشروع الحكم الذاتي بقوله « في اعقاب احاديث شخصية مع الزعامة المحليـة ، بامكانـي القـول ، وبكامـل المسؤولية ، ان هنالك رغبة لقبول الحكم الذاتي . انك لن تسمع كلاما من هذا النوع علنا ، فتهديدات م . ت . ف ، تردعهم من الاسهام في المفاوضات السياسية . انهم يحرصون على التزام حبل الصمت وعدم الجهر بارائهم الى ان يطرأ تغيير في شبكة القوى العاملـة في المنطقـة .. » (عـل همشمـــار ، ٧٩/٨/٢٧) .

ومن ناحية اخرى نقلت اذاعة اسرائيل حديثا منسوبـا الى الشـوا في صحيفـة « الانبـــاء » الاسرائيلية ، امتدح فيه مبادرة السادات لانهـا « ساعدت في حل المشكلة الفلسطينية وعززت موقف م . ت . ف » ونقلت عنه ايضا انه « يرفض فكرة الحكم الذاتي ويطالب باقامة دولة فلسطينيـة . تحافظ في حال قيامها على اتصالات وطيدة بالاردن » (ر . ا . أ . ٥/٩/٧٩) ، ثم عادت الاذاعة مرة ثانية (ر . ا . أ . ٧/٩/٧٩) ، وذكرت ان الشوا اتهم وسائل الاعلام الاسرائيلية بتحريف اقواله حول مبادرة السادات ، مؤكداً على انه يرفض اتفاقات كامب ديفيد والحكم الذاتي ، وانه يرى ان م . ت . ف . هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني .

وفي اليوم نفسه الذي نشرت فيه اذاعة اسرائيل تكذيب الشوا ، نشرت وكالة الانباء الفلسطينيـة « وفا » (٧/٩/٧٩) تصريحا للشوا وردها من المناطق المحتلة ، تحدث فيه عن « تحريف كبـير ومحاولة لتشويه موقفي الواضح » من قبل وسائل الاعلام الاسرائيلية ، مؤكدا على انه يرفض بشكل كامل اتفاقيات كامب ديفيد ، « وعبرت عن موقفي الواضح ضد مشروع الحكم الذاتي الذي ارفضه ويرفضه كل الشعب الفلسطيني . ولقد اكدت دائما على ان م . ت . ف ، هي الممثل الوحيد لشعبنا ، وان اي حل لا يشتمل على الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة وحق تقرير المصير واقامة الدولة الفلسطينية ، وعودة القدس هو حل مرفوض . ان هدف اسرائيـل واضـح في تحريـف موقفـــي وتشويهه .... » .

محاولة لشق الصف الوطني : في غضون ذلك انهمكت بعض وسائل الاعلام الاسرائيلية في التحدث حول استعدادات « مبكرة » للانتخابات البلدية التي من المقرر ان تجري في نيسان من العام القادم .

ومن اللافت للنظر في معالجة المعلقين الاسرائيليين لهذه الانتخابات التهويل من « خطـر » الحـزب الشيوعي الفلسطيني وانصاره ، تماما كما كانت الحملة الاسرائيلية تهول في السابق من « خطر » انصار م . ت . ف . ومن بينهم الشيوعيون في منافستهم لانصار النظام الهاشمي .

واذا تجاوزنا الفصل التعسفي المقصود بـين الشيوعيين وانصـار م . ت . ف . في التحليلات الاسرائيلية نجد ان هذه التحليلات تتحدث عن صراع سيدور هذه المرة ، ليس بين الحركة الوطنية التقدمية (التي تضم الشيوعيين والوطنيين الآخرين) المؤيدة لمنظمة التحريـر الفلسطينيـة وبـين « الوجاهـة التقليدية » بل بين انصار م . ت . ف . والنظام الاردني وبين الشيوعيين الفلسطينيين !

فقد ركزت على ان الحزب الشيوعي سيدخـل الانتخابات بقوائم مستقلة سعيا منه للسيطرة على المدن في الضفة الغربية .وذكرت انه رشح لرئاسة بلدية نابلس خلدون عبد الحق ، ويشغل اليوم منصب عضو في البلدية . وكان في السابق قد مكث في الاعتقال الاداري لفترة ابعد على اثرها الى الخارج ثم سمح له بالعودة ، ورشح لرئاسة بلدية رام الله بشير البرغوثي رئيس تحرير صحيفة « الطليعة » . وكان قد امضى وقتا في الاعتقال الاداري ، ورشح لبلدية الخليل الدكتور احمد حمزة نتشه ، عضو المجلس الوطني الفلسطيني ، وكان قد ابعد قبيل الانتخابات السابقة ثم سمح له بالعودة . ورشح في بيت لحم جورج حزبون ، ويشغل منصب مساعـد رئيس البلدية ، وسبق له ان زار المعتقلات ، ورشح في بيت ساحور عطا الله رشماوي ، عضو البلدية وخريج المعتقلات .

وتخرج التحليلات الاسرائيلية من ذلك كله ، بان الصراع في الانتخابات القادمة سيدور بين انصار م . ت . ف . والنظام الهاشمي من جهة وبين انصار الحزب الشيوعي من جهة اخرى ، وامعانا منها في احداث فصل غير قائم بين الفصائل الوطنية المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينيـة تؤكد على التحالـف المستقبلي بين انصار الملك وانصار المنظمة بقولها « ان اولئك الذين وقفوا في السابق على جانبـي المتراس ، يدرسون امكانية التعـاون استعـدادا للانتخابات القادمة ، فقد قام مؤخراً مندوب م . ت . ف . في عمان حامد ابو ستة بدراسة هذا الموضوع

مع مندوبين عن الحكومة الاردنية » (يديعوت احرونوت ، ٧٩/٨/٢٦) .

وقد شاركت صحيفة « القدس » الناطقة بالعربية ، في هذه الحملة ، بترويجها للخطر « الشيوعي » المقبل في نيسان .(ابريل)من العام القادم .

وقد اتسمت ردود فعل العناصر الوطنية (انظر وكالة وفا ، ٧٩/٨/٢٢) ، على محاولة شق وحدة الصف الوطني ، بالادانة لها مع الحرص على تعميق العلاقات فيما بينها ، فقد نفى الشيوعيون اعتزامهم دخول الانتخابات بقوائم منفصلة ، كما اكد رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة على ان جريدة « القدس » «ممعنة في ضرب الوحدة الوطنية وهذا امر طبيعي ، وان النشر بهذه الصورة هو قضية رخيصة الهدف منها ضرب الحركة الوطنية » واقترح على الجريدة تحويل اسمها الى « اورشليم القدس » .

ورد خلدون عبد الحق عضو المجلس البلدي في نابلس بقوله : ان ما نشرته الصحيفة هو « محض افتراء واختلاق ، ويدل على الاماني الحقيقية لهذه الجريدة والدوائر التي تدير سياستها ... وان اي حديث عن الانتخابات في هذا الوقت ليس خارجا عن دائرة ما يدبر ضد الشعب الفلسطيني من مؤامرات ، وهو يقصد صرف نظره عن قضية التآمر ضده والادارة الذاتية والاستيلاء على الاراضي ... » .

ورد القس عوده الرنتيسي رئيس بلدية رام الله بالوكالة شاجبا عملية النشر معتبرا اياها« مدسوسة لاشغال افكار المواطنين بقصد ابعادهم عما يدور ويحاك ضد قضيتهم الاساسية ، ولكي تبعدهم عن التفكير بالخلاص مما يعانونه .. » .

كما شجب عدد آخر من اعضاء ورؤساء البلديات محاولة شق الصف الوطني ، من بينهم المحامي جميل طريفي ، وابراهيم الطويل ، والدكتور عزمي الشعيبي ، والدكتور نيقولا عوض ، والدكتور موسى ابو غوشه ، مطالبين بتعميق الوحدة الوطنية بين فصائل الحركة الوطنية المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية في المناطق المحتلة .

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

مفاوضات الحكم الذاتي :
لا اتفاق على المسائل الجوهرية

لم تحقق مفاوضات الحكم الذاتي بين اسرائيل ومصر والولايات المتحدة اي اتفاق حتى الآن حول المسائل الجوهرية . فقد انتهت يوم ١٩٧٩/٨/٧ الجولة الاخيرة حتى الان ، من هذه المفاوضات في مدينة حيفا ، واقتصرت مكاسبها على انجاز « ورقة عمل حول المسائل التي ستناقش في المستقبل ، والمتعلقة بطريقة الانتخابات للحكم الذاتي ... وقد تنازل المصريون [مؤقتا] عن ثلاث نقاط ، وهي الاقتراحات بشأن رقابة دولية على الانتخابات ، والمنطقة الجغرافية التي سيشملها الحكم الذاتي ، وحق الانتخاب للفلسطينيين من غير سكان الضفة الغربية . وهي النقاط التي استثنيت من المبادىء الاساسية للتفاوض وفق ما اتفق عليه بين الاطراف . الا انه لا يمكن الاستنتاج من ذلك بان الوفد المصري لن يطرح هذه النقاط للنقاش في المستقبل » (ر . أ . ، العدد ١٨٤٣ ، ٧ ـ ١٩٧٩/٨/٨ ص ٢) .

ولخص الدكتور يوسف بورغ ، رئيس الوفد الاسرائيلي لمفاوضات الحكم الذاتي « الانجازات » التي تم التوصل اليها في محادثات حيفا بقوله : « لقد تم التوصل الى « دليل » للانتخابات وفق المبادىء الاساسية السبعة التي اتفق عليها ، والتي ينبغي على الاطراف اعطاؤها مضمونها ، وهي : الدوائر الانتخابية ، ادارة الدعاية الانتخابية ، اساليب الانتخابات ، حق الانتخاب ، حق الترشيح ، تنظيم الانتخابات وقوائم اصحاب حق الانتخاب وطريقة الاشراف على الانتخابات ... وهذه مبادىء اساسية لم يتم بعد الاتفاق على مضمونها ومغزاها السياسي » (المصدر نفسه ، ص ٥) . اي انه لم يتحقق اي اتفاق حتى الان حول القضايا الخمسة الهامة التي طرحها رئيس الحكومة المصري مصطفى خليل في

محادثات الحكم الذاتي ، وهي مسألة الاراضي التي سيسري عليها الحكم الذاتي . وواضح هنا ان الهدف هو ضم القدس الشرقية الى منطقة الحكم الذاتي ، ثم مسألة الرقابة الدولية التي ينبغي ان تفرض على الانتخابات وحق المطرودين من المناطق المحتلة في المشاركة فيها،ثم مسألة حريتها وهدفها (ر . أ . أ . العدد ١٨٤٢ ، ٦ ، ١٩٧٩/٨/٧ ، ص ٣) . والرأي السائد لدى الدوائر الاسرائيلية الرسمية هو ان هدف المصريين من وراء تأجيل الحسم في هذه المسائل ، تجنب اي صدام عنيف مع الاسرائيليين خلال المباحثات ، في وقت يجري فيه تنفيذ المعاهدة الاسرائيلية ــ المصرية ، ويستعد الطرفان لتطبيع العلاقات بصورة كاملة .

لم ترفض اسرائيل المقترحات المصرية فقط بشأن المسائل الجوهرية ، وانما رفضت ايضا المقترحات الاميركية ، كما قدمها رئيس الوفد الاميركي المفاوض جيمس ليونارد في محادثات الاسكندرية . فقد كشف بيغن ان الوفد الاميركي تقدم باربعة مقترحات (احدها خاص بالاميركيين والثلاثة الأخرى هي مقترحات مصرية في الأصل لقيت دعما من جانب الاميركيين) ، تتمثل في فرض رقابة دولية في الضفة الغربية اثناء الانتخابات ، « وهو ما لم يرد ابداً في اتفاقات كامب ديفيد » ، ثم تأييد الموقف المصري القائل بوجوب ضم القدس الشرقية الى منطقة الحكم الذاتي ، ومنح صلاحيات تشريعية للمجلس الاداري وحق التصويت للفلسطينيين الذين يعيشون خارج الضفة الغربية (من حديث لبيغن امام كتلة ليكــود ، هآرتس ، ١٩٧٩/٨/٢١) . الا ان المبعوث الاميركي الخاص لمحادثات الحكم الذاتي روبرت شتراوس ، نفى ان يكون على علم بهذه المقترحات اثر الضجة التي اثيرت ضدها في اسرائيل .

الاختلاف في الموقفين الاميركي والاسرائيلي

لم تسفر محادثات الحكم الذاتي ، المستمرة منذ بضعة شهور ، عن تغيير يذكر في الموقف الاسرائيلي . فبيغن يواصل قوله « ان الحكم الذاتي يسري على السكان فقط، وبما انه ليس [هنالك]سوى «مجلس اداري » فانه لا يمكن ، في اي حال من الاحوال منحه سلطات تشريعية . ويسري الحكم الذاتي على سكان [الضفة الغربية] وقطاع غزة ، ولذلك لا يحق للفلسطينيين خارج [الاراضي المحتلة] المشاركة في الانتخابات لمؤسساته » (نقلا عن يوسف حاريف ، معاريف ، ١٩٧٩/٨/٣١) . اما وزير الخارجية دايان فيعلن ان « جنود الجيش الاسرائيلي هم فقط الذين سيرابطون على ضفاف الاردن ، ولن يتحركوا من هنالك سنتيمترا واحداً طوال ٦ سنوات ... حتى نجري المفاوضات حول السلام مع الاردن وليس مع م . ت . ف . اننا « اصحاب البيت » هناك [اي في المناطق المحتلة] ونحن الحكــــام ونحن اصحاب القرار ... انني انظر بقلق الى التشدد الذي بدأ يظهر في مواقف المصريين وحديثهم حول الدولة الفلسطينية ... بامكــــانهم ان يتحدثوا كيفما شاؤوا . لن تكون ، ولن تقوم ، ولن يحصلوا على خطوة صغيرة واحدة تؤدي نحو امكانية كهذه . ان اسرائيل لم تكن مرة في موقف قوي وصلب كما هي عليه الآن في معارضتها للدولة الفلسطينية . لدينا اتفاق ، وثيقة رسمية ، موقع من الرئيسين كارتر والسادات ،ينص على مرابطة الجيش الاسرائيلي على ضفة الاردن لمدة ٦ سنوات . لدينا اتفاقات كامب ديفيد ، لم ترد فيها عبارة « القدس » فيما يتعلق بالحكم الذاتي ، ولم يرد فيها اي ذكر حول وقف بناء المستوطنات او تقليصها . [كذلك] ليس في الاتفاقات اي وضع مختلف لقطاع غزة » (من مقابلة مع دايان ــ هآرتس ، ٧٩/٨/٨) .

ان الأمر المؤكد حتى الان ، هو ان اسرائيل ، بنظامها السياسي الحالي ، لن تتزحزح عن مواقفها هذه ، واكبر دليل على ذلك هو اقدام بيغن على ايداع موضوع المفاوضات حول الحكم الذاتي لدى الحزب الديني القومي (المفدال) برئاسة وزير الداخلية يوسف بورغ ، المعروف بتطرفه السياسي .

وهكذا وجدت الادارة الاميركية نفسها ، في وضع صعب . فالموقف الاسرائيلي يعني انه ليس هناك اي مضمون لمــا ورد في اتفاقات كامب ديفيد حول « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ، و « تمكــين الفلسطينيين من المشاركـــة في تحديد مستقبلهم » . وقد ادركت الادارة الاميركية « ان تنفيذ اتفاق كامب ديفيد بنصه الحرفي [حسب الموقف الاسرائيلي] معناه جمود ازلي ، في محادثات الحكم الذاتي ، وان ما تم ليس سوى اتفاق منفصل اسرائيلي ــ مصري ، هذا اذا كان سيكتب له الاستمرار في الوجود في حال عدم تحقيق اتفاق حول [الضفة الغربية] وقطاع غزة . [وحتى] اذا كتب له

البقاء فسيكون عبئا ثقيلا على الولايات المتحدة وليس مكسبا » (يوسف حاريف ، معاريف ، ٧٩/٨/٣١) .

ان تحقيق الحكم الذاتي يلزمه مشاركة سكان الضفة الغربية والقطاع ، في الانتخابات لمؤسساته والا سيبقى حبراً على ورق . والولايات المتحدة تدرك على لسان رئيس وفدها المفاوض ليونارد، ان مشاركة السكان « تتوقف على الشروط التي تعرضها عليهم والطريقة التي نتقدم بها باتجاه هذا الهدف . وعندئذ سيفهم سكان الضفة والقطاع باننا نعد لهم مشروعا للحكم الذاتي الكامل ... وبعدما يصبح الامر واضحا لهم فانهم بالتاكيد سيتوصلون الى استنتاجات صحيحة » (ر . أ . أ . العدد ١٨٤٣ ، ٧ ، ٨/٨/١٩٧٩ ، ص ٦) . اي ان التوصل الى اتفاق ملائم حول الحكم الذاتي يحظى برضى سكان المناطق المحتلة ، هو شرط اساسي لاستمالتهم ، في نظر الادارة الاميركية . الا ان هذا الشرط غير كاف ، فهؤلاء السكان يرفضون حتى المشاركة في المفاوضات ،معلنين ان منظمة التحرير هي ممثلهم الوحيد ، ولذلك يتركز النشاط الاميركي على توفير شروط ترضي المنظمة فتدفعها للسماح لسكان المناطق المحتلة بالمشاركة في المفاوضات الدائرة . ومن هنا برزت فكرة تعديل قرار مجلس الامن ٢٤٢ . والافتراض الاميركي،هو انه اذا استطاعت الولايات المتحدة تحقيق ذلك « فانها ستقتلع الشوكة من المعسكر العربي الراديكالي فتتحرر السعودية من خوف تاييد مصر ، وحتى الاردن لن يخشى [عندئذ] التعاون مع واشنطن » . (يوسف حاريف ، معاريف ، ٧٩/٨/٣١) .

اسرائيل والموقف الاميركي في مباحثات مجلس الامن

اثارت الانباء حول النشاط الاميركي الرامي الى تعديل القرار ٢٤٢ اثناء مباحثات مجلس الامن ، في شهر آب (اغسطس) الماضي ، ردود فعل عنيفة في اسرائيل ، خاصة على الصعيد الرسمي . وكان المبعوث الاميركي لمفاوضات الحكم الذاتي روبرت شتراوس قد حمل في زيارته الى اسرائيل ، في تاريخ ٧٩/٨/١٧ ، مقترحات اميركية حول « استصدار قرار في مجلس الامن الى جانب القرار ٢٤٢ » يمكن الفلسطينيين من المشاركة في عملية المفاوضات الدائرة . وبعد اجتماعه ببيغن ، اعلن شتراوس ان الحكومة الاسرائيلية ترفض رفضا قاطعا المقترحات الاميركية ، في هذا الشان (ر . أ . أ . العدد ١٨٥٢ ، ١٧ ـ ٧٩/٨/١٨ ، ص ٣) . وعلم فيما بعد ـ نقلا عن مصادر عربية في نيويورك ـ ان شتراوس حمل معه الى اسرائيل مشروع قرار اميركي حول الموضوع الفلسطيني الى مجلس الامن ، اعده هارولد ساوندرز مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط ، والسفير الاميركي لدى الامم المتحدة (المستقيل) اندرو يونغ ، ومساعد مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي الدكتور روبرت هانتر . ويعتمد مشروع القرار هذا على القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ وعلى تصريحات الرئيس كارتر حول الموضوع الفلسطيني ، ويشمل ثلاثة بنود جديدة هي : المتطلبات العادلة للشعب الفلسطيني ، الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وحق الفلسطينيين في المشاركة في تقرير مستقبلهم (هآرتس ، ٧٩/٨/١٩) .

وصدر رد الفعل الاسرائيلي الرسمي على مشروع القرار الاميركي في جلسة الحكومة الاسرائيلية بتاريخ ٧٩/٨/١٩ حيث اعلن سكرتير مجلس الوزراء اريبه ناؤور انه «تم ابلاغ السفير شتروس، بان اسرائيل ترفض دون تحفظ الاقتراح الاميركي الذي يتناقض والتزامات الولايات المتحدة تجاه دولة اسرائيل في اول ايلول ١٩٧٥ ، والتي تم تاكيدها من جديد في ١٦ آذار ١٩٧٩ واتفاقيات كامب ديفيد في ١٧ ايلول ١٩٧٨ » (ر . أ . أ . ، العدد ١٨٥٣ ، ٧٩/٨/٢٠ ، ص ٣) .

وكان رئيس الحكومة بيغن قد اكد ، في نقاش سياسي سابق اجرته الحكومة الاسرائيلية في ١٩٧٩/٨/١٢ ، ان « اسرائيل تعارض اي تغيير في القرار ٢٤٢ واي اشتراك لـ م . ت . ف . في مجرى تحقيق تسوية في الشرق الاوسط . ان اسرائيل لا توافق على قرار جديد في مجلس الامن حول الموضوع الفلسطيني،يتركز على بعض العبارات المأخوذة من اتفاقات كامب ديفيد » (هآرتس ، ٧٩/٨/١٣) .

ورغم التفسيرات المتلاحقة من جانب الادارة الاميركية بان مشروع القرار المقترح لا يخرج عن مضمون اتفاقات كامب ديفيد ، لم تهدأ الضجة في اسرائيل سواء على صعيد الائتلاف الحاكم او على صعيد المعارضة،حيث بدا وكان الجميع يتنافسون في توجيه التهم المبالغ بها الى الولايات المتحدة « بسبب تغيير سياستها لغير صالح اسرائيل وانحيازها الى

العرب والفلسطينيين بسبب النفط » فوزير الخارجية دايان اعتبر ان ما حدث ليس تقويضا في السياسة الاميركية فحسب ، بل انه تحول ، « فالولايات المتحدة قلقة ازاء وضعها الاقتصادي ومشاكلها العصبية،واخطرها مشكلة الطاقة ، سواء كان الامر متعلقا بالنقص في كمية النفط المطلوبة او باسعاره المرتفعة . ان الولايات المتحدة ترغب في الوصول الى تفاهم كامل مع السعودية ــ وهذه بدورها تربط تحقيق ذلك بالقضية الفلسطينية . ان الولايات المتحدة تعتبر ان المفتاح لحل مشاكلها هو في تحقيق تفاهم مع السعودية ، حتى يأتيها الخلاص بواسطة الانتاج الذاتي [للطاقة] . والسعودية لا تخاف الولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي ، وانما تخاف م . ت . ف . فقط ، لانه يتوقع منها خطر انقلاب داخلي » (من مقابلة مع دايان ، هآرتس ، ٧٩/٨/٩) . واعلن دايان في حديث آخر امام كتلة ليكود ، ان حديث الاميركيين حول تقرير المصير للفلسطينيين ، وحقهم في وطن خاص بهم،وما شابه ذلك يقصد منه دولة فلسطينية . فهم ــ اي الاميركيون ــ يعملون على دفع الفلسطينيين الى المفاوضات بينما يعلن هؤلاء ان م . ت . ف . هي ممثلهم . لذلك فانهم يبحثون عن وسيلة لاستمالة م . ت . ف . ومن هنا محاولاتهم لتغيير القرار ٢٤٢ . (هآرتس ، ٧٩/٨/١٤) .

وعلق زعيم حزب العمل شمعون بيرس على النشاط الاميركــــي بقوله ان « القرار ٢٤٢ من الناحية الاسرائيلية هو الحد الاقصى الذي نقبل به . فهو القرار الذي يسمح بتعديل الحدود بموجب الفقرة الشهيرة المتعلقة بموضوع مناطق والمناطق ، اي انه علينا الانسحاب من مناطق وليس من المناطق . ان التغيير الذي يراد ادخاله على القرار ٢٤٢ يشكل قاعدة لاقامة دولة فلسطينية . واذا اضيف اليه حق الاستقلال وقانون العودة الى الارض فأن ذلك يعني انه تقرر اقامة دولة فلسطينية » (ر . ا . أ . العدد ١٨٤٢ ، ٦ ــ ٧٩/٨/٧ ، ص ٦) . وسئل بيرس اذا كان حزب العمل يؤيد موقف الحكومة الرافض لأي تعديل للقرار ٢٤٢ ، فاجاب : « نعم .... بالنسبة لموضوع القرار ٢٤٢ واحترام اتفاقات كامب ديفيد ، وتطبيقها ، فاننا سنؤيد كل موقف اسرائيلي واضح وثابت وقاطع » (المصدر نفسه ، ص ٧) .

وشاركت وسائل الاعلام الاسرائيلية في الحملة ضد المشروع الاميركــي ، مركـــزة على نقطتين اساسيتين : اولا ، ان الولايات المتحدة تخرق التزاماتها تجاه اسرائيل حول عدم الحوار مع م . ت . ف . طالما لا تعترف هذه بالقرار ٢٤٢ . ثانيا : ان مشروع القرار بحد ذاته يعتبر خروجا عن اتفاقات كامب ديفيد ، وبالتالي « سيفجر في مسار السلام » . « ان كل تغيير في القرار ٢٤٢ يحمل بين طياته الخطر،اذ انه سيؤدي الى تقوية م.ت.ف. وجبهة الرفض بدلا من اقناعهما بان فشل مفاوضات الحكم الذاتي سيبقي عرب المناطق تحت الحكم العسكري الاسرائيلي » (مـــن افتتاحيـــة هآرتس ، ١٩٧٩/٨/١٩) .

وأمام موجة الاحتجاج الاسرائيلية العارمة هذه وضغط « اللوبي » الصهيوني في الولايات المتحدة ، والمفاجأة التي تمثلت في عدم حماس النظام المصري للمقترحات ، تراجعت الادارة الاميركية كالعادة عن مقترحاتها واعدة اسرائيل باستخدام حق « الفيتو » ضد اي مشروع قرار حول الموضوع الفلسطيني قد يطرح في مجلس الامن . ولتهدئة موجة الاحتجاج الاسرائيلية هذه ، اجتمع الرئيس كارتر مع السفير الاسرائيلي في الولايات المتحدة عفرون في البيت الابيض ، مقدما له بعض الالتزامات حول عدد من المواضيع ، ذكرتها المصادر الاسرائيلية على النحو التالي : « اولا ، وعد الرئيس كارتر بتنسيق اكبر مع اسرائيل ، في ضوء ادعاء الحكومة الاسرائيلية ان الولايات المتحدة تعمل في مجالات ذات علاقة مباشرة باسرائيل ــ ابتداءاً من القرار حول بيع ٣٠٠ دبابة حديثة الى الاردن وحتى الاتصالات غير المباشرة مع م . ت . ف . ــ دون استشارة [اسرائيل] ، او الاعلان لها سلفا حول نياتها . وقد وعد الرئيس بان تحاول الولايات المتحدة عدم مفاجأة اسرائيل بحقائق واقعة . ثانيا ، وعد الرئيس كارتر بالا تبادر الولايات المتحدة الى تقديم قرار في مجلس الامن فيما يتعلق بقضية القرار ٢٤٢ ، وستعمل على ان ينتهي النقاش في المجلس من غير اتخاذ اي قرار ، او ان يؤجل البحث الى تاريخ غير محدد . ثالثا اعلن كارتر ان الولايات المتحدة تحافظ على التزامها بتشكيل قوةمتعددة الجنسيات [للمرابطة في سيناء] ولكن قبل ذلك ينبغي البحث في بدائل اخرى . رابعا ، عاد كارتر واكد انه ليس هناك اي تغيير في موقف حكومته من م . ت . ف ، رغم انه اكد على اهمية حل المشكلة الفلسطينية من اجل ضمان سلام دائم . وقال ايضا ان اسرائيل يجب ان تمكن الحكومة الاميركية من

استخدام الحيل لتحقيق هذا الهدف (وتدعي اوساط في الحكومة الاميركية انه ينبغي تشجيع الاوساط المعتدلة في م . ت . ف . بهدف شق هذه المنظمة ، وتسهيل مشاركة الفلسطينيين في المفاوضات حول الحكم الذاتي) . خامسا ، عاد كارتر واكد ان حكومته لا ترغب سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة في قيام دولة فلسطينية . سادسا ، عاد واكد التزام الولايات المتحدة بمساعدة اسرائيل في المجالين العسكري والاقتصادي » (هآرتس ، ٧٩/٨/١٠) .

الا انه رغم هذه الالتزامات والوعود من رئيس الولايات المتحدة ، واصلت المصادر الحكومية في القدس التشكيك بالنوايا الاميركية المتعلقة بالرغبة في اشراك الفلسطينيين في مجرى تحقيق السلام في الشرق الاوسط . « فالرئيس كارتر امتنع عن الالتزام — وفق التقرير الذي ارسله السفير الاسرائيلي الى حكومته حول اجتماعه به — بان تعارض الولايات المتحدة اتخاذ قرار جديد في مجلس الامن يسعى الى منح الفلسطينيين مكانة دولية جديدة . ورغم ان كارتر كرر الموقف التقليدي حول عدم رغبة واشنطن في قيام دولة فلسطينية ، فقد شككت مصادر في القدس في مصداقية هذا الاعلان . وعلى اي حال ، فالحكم الاميركي لديه نوايا بالعمل في الموضوع الفلسطيني بصورة متناقضة مع المصلحة الاسرائيلية . وقد وصفت هذه المصادر اقوال كارتر على انها بمثابة « حبوب مسكنة » فقط » (المصدر نفسه) .

غير انه على الرغم من ذلك ، نجحت اسرائيل في منع الولايات المتحدة من تقديم مشروع قرار يتعلق بالقضية الفلسطينية الى مجلس الامن في جلسته التي عقدت بتاريخ ١٩٧٩/٨/٢٤ . وحسب المعلومات الاسرائيلية فقد قبل كارتر اخيرا بتوصية قدمها اليه المبعوث الاميركي الخاص شتراوس ، حول استخدام الفيتو ضد كل مشروع قرار يقدم الى مجلس الامن بشأن الموضوع الفلسطيني ، الأمر الذي كانت ترغب به اسرائيل اشد الرغبة ، « فقد نجح شتراوس ، كما يبدو ، في اقناع الادارة الاميركية بامكانية التوصل الى نتائج مقبولة عن طريق مفاوضات الحكم الذاتي،اكثر من تلك التي يمكن التوصل اليها عبر مناقشات الامم المتحدة ، والتي قد تدفع اسرائيل الى اتخاذ مواقف متطرفة ... الا ان شتراوس يقول [في الوقت نفسه] ان عدم المبادرة في مجلس الامن ليس عقدا ابديا » (ر . ا . أ ، العدد ١٨٥٦ ، ٢٢ — ١٩٧٩/٨/٢٧ ص ١٨). وهذا ما بات يقلق اسرائيل الان . فنتائج مباحثات مجلس الامن قد لاقت ارتياحا حذرا لدى الاسرائيليين ، اذ حذرت مصادر حكومية — في معرض تعليقها على نتائج المباحثات في المجلس — « من الاوهام بصدد خطورة الصراع السياسي الذي تخوضه اسرائيل » (هآرتس ، ٧٩/٨/٢٦) . وذكرت هذه المصادر انه « ثمة شعور بالارتياح على المدى القصير ازاء حقيقة قيام الولايات المتحدة باحترام التزامها تجاه اسرائيل . اذ بسبب تهديدها استخدام حق الفيتو ، تم منع تقديم مشروع الى مجلس الامن ... مع ذلك فان اسرائيل تتوقع صراعا صعبا حول الموضوع الفلسطيني ، وستتمكن في اطاره من التعرف على مدى احترام الولايات المتحدة لالتزاماتها » (المصدر نفسه) . كذلك علق وزير الخارجية الاسرائيلي على انتهاء مباحثات مجلس الامن بقوله ان « الصراع حول م . ت . ف . لم ينته مع انتهاء المباحثات دون قرار ، ويتوقع استمرار القضية وتصعيدها » (دافار ، ٧٩/٨/٢٧) . والسؤال المطروح هو على ماذا يراهن المسؤولون الاسرائيليون لكسب « الصراع في المستقبل » ؟.ان نجاحهم في المستقبل يتوقف على التقدم في محادثات الحكم الذاتي ، وهو الاحتمال البعيد على اي حال في ظل موقفهم الحالي . « فالحكم الذاتي بصيغة المقدال — مع استيطان واسع ، ومع افراغ مؤسساته الادارية من الصلاحيات — لن يقوم . اما دايان فيعتقد ان اسرائيل ، لم تكن في يوم ما قوية كما هي اليوم ، وتستطيع الصمود امام محاولة تكبيل يديها . ان مناعة وزير الدفاع كامنة في الجيش ، بينما يمكن ان تكون الوسائل التي تستخدم لاقناع اسرائيل بعدم جدوى الحكم الذاتي حسب صيغة بيغن — هامر — بروكمان ، غير عسكرية ، وانما اقتصادية ودبلوماسية ... » (أ . شفايتسر ، هآرتس ، ٧٩/٨/١٠) . الا ان هذا القول يبقى مبالغا به نظرا الى ان العام المقبل هو عام انتخابات في الولايات المتحدة ، والضغوط الاقتصادية والدبلوماسية على اسرائيل لا تتلاءم مع كسب اصوات اليهود هناك . وربما كان هذا ما تراهن عليه اسرائيل الآن ، رغم مبالغتها في الحديث حول « التغيير » في السياسة الاميركية لصالح الفلسطينيين تحت تاثير ازمة النفط .

الموقف الاسرائيلي من قضية يونغ

رافق موجة الاحتجاج الاسرائيلية والصهيونية ضد النشاط الاميركي الاخير بصدد احتمال تعديل القرار ٢٤٢ ، حدث آخر تمثل في لقاء السفير الاميركي لدى الامم المتحدة اندرو يونغ ، بمندوب م . ت . ف . في المنظمة الدولية ، مما اثار موجة احتجاج اسرائيلية مماثلة ، ادت اخيرا الى استقالة السفير يونغ من منصبه .

تزعم اسرائيل في معرض تعليقها على قضية يونغ انها ليست هي السبب في استقالته ، وان كل ما فعلته هو الاحتجاج فقط على مسالة لقائه مع مندوب م . ت . ف . الأمر الذي يعني خرق الولايات المتحدة لأحد التزاماتها تجاه اسرائيل . « لقد اضطر يونغ الى الاستقالة ليس بسبب لقائه مع الطرزي وانما لاخفائه قضية اللقاء عن المسؤولين عنه » (يوئيل ماركوس ، هآرتس ، ٧٩/٨/٣١) . اما النقطة الثانية والاكثر اهمية التي تعلق عليها اسرائيل فهي ان يونغ كان يمثل خطا سياسيا في الادارة الاميركية ، واستقالته لا تعني زواله . « ان مبلوري هذا الخط ليسوا من السود او آخرين من ذوي الوجوه السمراء ، وانما هم بوجه خاص اشخاص محسوبون على المؤسسة البيضاء بينهم ليبراليون بارزون ... وهناك تأثير كبير ايضا لاشخاص بعيدين كل البعد عن الراديكالية ، ويمكن وصفهم بالمحافظين المعتدلين ... ان هؤلاء يؤمنون بان الحركـــات الثورية على انواعها تعبر عن اتجاه التاريخ ، وانه ينبغي على الولايات المتحدة اخذها بعين الاعتبار حتى وان كانت [اي هذه الحركات] تتميز بطابع الارهاب ، اذ بهذه الوسيلة فقط يمكن التخفيف من حدة نشاطها وتوجيهه في مسارات الجهد السياسي التي يمكنها بواسطته تحقيق اهدافها الايديولوجية ، ومع ذلك يضعها امام تحد بناء ... ومن هنا الركض الاميركي وراء م . ت . ف . بشكل عام ، ووراء عرفات بوجه خاص... »

« ويدعي اصحاب هذا الخط ان المسؤولية الرسمية بحد ذاتها ستقضي على غريزة العداء تجاه اسرائيل . ان دولة عربية فلسطينية لن تضطر فقط للعيش بسلام مع اسرائيل ، حيث سيتملكها الخوف من قوتها العسكرية ، وانما ستكون راغبة في ذلك . واذا حاولت بعض الفصائل العسكريه ، معارضة ذلك فان الاكثرية ستنتصر عليها » (هـواص ، هآرتس ، ٧٩/٨/١٧) .

ويبدو ان اكثر ما يضايق اسرائيل هو قيام الرئيس كارتر بامتداح يونغ اثر تقديم استقالته « بفضل الكفاءة التي اظهرها في الامم المتحدة في التعبير عن سياسة البيـــت الابيض ، بدلا من التنديد به بسبب خرقه التعليمات الواضحة الخاصة بالبعثات الديبلوماسية الاميركية » (المصدر نفسه) .

وعلى اي حال ، فاسرائيل لا تقلل ابدا من خطورة الاثر الذي تركته استقالة يونغ خاصة على صعيد الرأي العام الاميركي « فمنذ وقوع الحادثة والقصة تتكرر في مئات التصريحات والمقالات والاخبار . اي ، ان يونغ استقال بسبب لقائه مع ممـثل م . ت . ف ، وانه دفع ثمنا باهظا لانه تصرف وفق ما يمليه عليه ضميره ... وطبيعي ان النقاش العام ينتقل الى المسالة حول ما اذا كان ثمة ما يبرر مقاطعة م . ت . ف . ، وهل ان اسرائيل هي التي تملي على الولايات المتحدة مع من تلتقي وكيف تصوت في مجلس الامن ، وامور اخرى غيرها ؟ ان يونغ نفسه ساهم في تحويله الى قديس معذب ، سقط شهيدا على مذبح الضغط اليهودي ... [ولكنه] في الحقيقة موظف فاسد كان يستحق الاقالة الفورية . ولكن حقيقة سكوت البيـــت الابيض ، وسماحه باشاعة القول ان يونغ استقال بسبب اللقاء وليس بدافع الكذب ، هي التي تعزز الافتراض الاساسي ان المشكلة تتمثل في اسرائيل وليس في يونغ . ان هذا السكوت اصبح مثيرا للدهشة ، بعد اقواله في مجلس الامن وسخريته من قرار مقاطعة م . ت . ف ، حيث لم تقابل اقواله هذه باية ردة فعل [رسمية] » (يوئيل ماركوس ، هآرتس ، ٩٧٩/٨/٣١) .

وكذلك ادت قضية يونغ الى توتر العلاقات بين اليهود والسود في الولايات المتحدة بشكل لم يسبق له مثيل في المـاضي . فقد اعلن ، مثلا ، الحاخام الاصلاحي لجالية واشنطن ، يهوشواع هابرمان ، في مقابلة صحفيـــة مع (دافـار، ٧٩/٨/٢٤)، ان اسباب التوتر الحالي في العلاقات بين الجاليتين اليهودية والسوداء تعود الى الاختلاف الكامل في حاجياتهما . « فالسود بحاجة اليوم الى زعيم كريزمي يملأ الفراغ الذي تركه وراءه الدكتور مارتين لوثر كينغ . لقد كان يونغ مرشحا ، اما استقالته وما رافقها من غضب ، فقد منحاه مجد الزعامة . ان حقيقة كونه قد اهين ، تسهل على السود التماثل معه ، لانهم في النهاية ليسوا سوى اقلية قاست الاضطهاد » . ويضيف هابرمان انه قبل عشرين

سنة كان الزعماء السود يركـزون على المشاكل الاساسية مثل ايجاد اماكن عمل او الحصول على حق القبول في الجامعات ... ولكنهم رغم ذلك حققوا مكاسب اقتصادية ، واليوم يطالبون بمراكز عالية تعبر عن احترامهم وقوتهم والاعتراف بهم . لذلك يتهمون اليهود الآن « بانهم نجحوا بفعل نفوذهم في ابعاد زعيم اسود كبير واهانته واهانتهم جميعا . وبلهجـة عنصرية [يقولون] نحن ٣٠ مليون من مواطني اميركا،هزمنا من جانب اقلية لا يتجاوز عددها ٦ ملايين ...» (المصدر نفسه) .

وتحاول اسرائيل ايضا تجيير الخلاف ما بين اليهود والسود الى حقيقة التماثل المتزايد لجزء كبير من الزعامة السوداء الشابة مع الفلسطينيين و م . ت . ف . في اطار اتجاههما نحو العالم الثالث (افتتاحية دافار ، ٧٩/٨/٢٣) . « فمنذ زمن بعيد يعتبر الكثير من زعماء السود في الولايات المتحدة انفسهم ، جزءا من العالم الثالث ، من الناحية العاطفية وليس الجغرافية . ان العالم الثالث هو الى درجة كبيرة ، عالم من الملونين ، يقاسي من الفقر ، ومن الاضطهاد السياسي والانساني خلال قرون . لقد استغله الانسان الابيض ، فقط والآن،وصل الى عتبة الحرية والمساواة السياسية . وجميع هذه العبارات تتلاءم مع [واقع] الاقلية السوداء في الولايات المتحدة .

اضافة الى ذلك فان الجاليتين اليهودية والسوداء على خلاف أيضا حول مجالات هامة في السياسة القومية الاميركية . فاليهود يؤيدون سياسة الدفاع ، بسبب المساعدات التي تمنح في اطارها الى اسرائيل ، بينما تزداد معارضة السود لزيادة الميزانية العسكرية من اجل تمويل مصادر اكبر للمجالات الداخلية والاجتماعية (المصدر نفسه) .

وعلى اي حال فالخلاف قائم ، والشعور السائد في اسرائيل هو ان م . ت . ف . استطاعت استغلال الوضع بواسطة دعاية ذكية من جانبها ، لكسب عطف السود . وكما هي العادة دائما لدى الاسرائيليين ، فالتقصير في المجال الاعلامي هو السبب في نظرهم ، وحملة اعلامية مركزة من شأنها أن تعيد الوضع الى نصابه. الا ان هذه الحملة التي انتدب نائب رئيس الحكومة يادين للقيام بها في الولايات المتحدة لم تحقق هدفها ، على ما يبدو ، خاصة وانها جاءت في الوقت الذي كانت فيه وسائل الاعلام الاميركية ، تبث التقارير والصور حول

عمليات القصف الاسرائيلية لجنوب لبنان

النشاط العسكري الاسرائيلي في جنوب لبنان

ادت عمليات القصف الاسرائيلي الكثيف لجنوب لبنان في شهر آب (اغسطس) الماضي الى ردود فعل عنيفة على الصعيد الاسرائيلي الداخلي وفي الخارج ايضا ، خاصة في الولايات المتحدة ودول اوروبا الغربية . وذلك نظرا للخسائر الفادحة التي احدثتها في الارواح والممتلكات ، في قرى الجنوب ومدنه .

ففي اسرائيل ، اثارت العمليات العسكرية في الجنوب انتقادات واسعة ظهرت ، اولا ، داخل الحكومة ، حيث اعلن وزير الخارجية دايان ان « عمليات الجيش الاسرائيلي في لبنان تثقل جداً على مركـز اسرائيل السياسي ، وتضفي عليها مظهراً بشعا في وسائط الاعلام في العالم ... فمحطات التلفزيون تنشر صورا في انحاء العالم حول الاصابات التي يحدثها الجيش الاسرائيلي وحول هرب اللاجئين في جنوب لبنان . وعلى اثر ذلك تنسى عمليات التخريب التي تنفذها م . ت . ف ، في اسرائيل ، والتي من اجل منعها ينفذ الجيش الاسرائيلي عملياته في لبنان » (هآرتس ، ٧٩/٨/٢٧) . واضاف دايان « انه يحتمل ان تكون هناك حاجة لاعادة النظر والبحث في سياسة عسكرية جديدة في لبنان ، تنجح في منع حدوث اصابات بين السكان المدنيين . واكد ان العالم لا يتفهم سياسة الجيش الاسرائيلي هذه.ومن الافضل اعادة بحثها من جديد ... فالعالم يعتبر ان نشاطات الرائد حداد تتم بتنسيق كامل مع اسرائيل ، وهذه علاقة غير بسيطة وينبغي على الحكومة ان تقوم ببحثها » (المصدر نفسه) .

اثارت اقوال دايان هذه ردود فعل عنيفة داخل الحكومة رغم تأييد بعض الوزراء لها خاصة وزير الزراعة اريئيل شارون . وقد فسرت على انها نتيجة للتقارير التي تلقتها وزارة الخارجية الاسرائيلية من سفاراتها في الخارج حول الحملة الاعلامية النشطة ضد اسرائيل ، فيما يتعلق بالحرب في الجنوب اللبناني . وقد اعلن وايزمان رداً على دايان ، وبعد اجتماعه الى بيغن ، ان الحكومة الاسرائيلية لن تبدل سياستها في المنطقة واضاف امام لجنة الخارجية والامن انه « عندما تتوقف م . ت . ف . عن قصف الجيب المسيحي في الجنوب ، سنتوقف نحن عن ضرب تجمعات [الفدائيين] ، الا ان الجيش

الاسرائيلي سيواصل عملياته المخططة لاحباط عملياتهم » .... وتساءل وايزمان « هل يجب علينا ترك الرائد حداد ورجاله ينهارون في الوقت الذي يمنعون به بطاريات مدفعية م . ت . ف . من الاقتراب من الحدود الاسرائيلية » (دافار ، ٧٩/٨/٢٩) . وقد دارت في لجنة الخارجية والامن هذه مناقشات حامية حول اساليب العمليات العسكرية والهدف منها ، حيث اعلن النواب ، يوسي ساريد ، وحاييم بار ـ ليف ومئير تلمي من المعراخ ،ان العمليات ضد الفدائيين غير مراقبة وتحتاج الى اعادة نظر . وقد رد عليهم وايزمان زاعماً ان الحكومة الحالية تبذل كل ما في وسعها حتى لا تلحق الاذى بالمواطنين ، « بيد انه من المعروف ان بعض حكومات المعراخ اعتمدت سياسة واضحة تستهدف ضرب الاماكن المدنية » . وضرب وايزمان مثلا على ذلك السياسة التي اتبعت اثناء حرب الاستنزاف في قناة السويس وغور الاردن عندما كان بار ـ ليف رئيسا للاركان (ر . أ . أ . العدد ١٨٥٨ ، ٢٨ و ٧٩/٨/٢٩ ، ص ٤) . ورغم الانتقادات التي وجهت في لجنة الخارجية والامن ، فقد ايدت هذه أخيراً السياسة العسكرية في جنوب لبنان بفضل الاكثرية التي تؤيد الحكومة من بين اعضائها . واعلن رئيس اللجنة النائب موشي ارنس ان « سياسة الحكومة قد حظيت بدعم كبير ... اذ لا مناص من العمل ضد [الفدائيين] حتى ولو داخل الاحياء المأهولة بالمدنيين في بعض اللاحيان » (ر . أ . أ . العدد ١٨٥٨ ، ٢٨ و ٧٩/٨/٢٩ ، ص ٣) .

على صعيد آخر قادت المعارضة في اسرائيل ـ المعراخ والاحزاب الصغيرة الاخرى ـ وبعض وسائل الاعلام ، حملةالنقد الموجهة ضد سياسة الحكومةالعسكرية في جنوب لبنان . واهم النقاط التي ركـز عليها المنتقدون هي : اولا ، الضرر السياسي والاعلامي الذي لحق باسرائيل نتيجة عمليات القصف الكثيف . فقد هاجم زعيم حزب العمل بيرس هذه العمليات بقوله : « يتهموننا في العالم ان م . ت . ف . ليست وحدها التي تقتل النساء والأطفال ، وانما تقوم اسرائيل بذلك ايضا . ويعرضون على شاشات التلفزيون في العالم كل مساء المنازل المهدمة والمصابين من النساء والاطفال ... ففي قتالنا مع [الفدائيين] يجب ان نحرص على الحفاظ على اسم اسرائيل وسمعتها » (ر . أ . أ . العدد ١٨٥٧ ، ٢٧ و ٧٩/٨/٢٨ ، ص ٣) .

اما النقطة الثانية ، التي انتقدتها المعارضة ، فهي عدم وجود سياسة حكومية مراقبة تجاه جنوب لبنان ، « وان حكومة اسرائيل تسلم سلفا بسياسة تملى عليها في هذه المنطقة من قبل الجيش الاسرائيلي والرائد حداد ، وهي سياسة محلية تتجاهل مشاكل اسرائيل الدولية » (حاييم هرتسوغ ، دافار ، ٧٩/٩/٣). كذلك يسود الانطباع ان هذه الحرب هي « حرب خاصة لرئيس الاركان وقائد المنطقة الشمالية ، وهناك من يعتقد ان اسرائيل جرت جراً وراء الرائد حداد ووراء اولئك الاسرائيليين الذين يقررون عمليا خطواته » (أ . شفايتسر ، هآرتس ، ٧٩/٨/٢٣) . وفي هذا المجال يتساءل النائب حاييم بار ـ ليف ، فيما اذا كانت اسرائيل مضطرة الى تنفيذ جميع رغبات حداد وزملائه بشكل اوتوماتيكي . « ان مشكلتنا في لبنان هي عدم وجود سلطة ذات سيادة هنالك تستطيع تنفيذ ما نضغط لاجله ، ولذا علينا تركيز القتال ضد [الفدائيين] انفسهم ، ولكن هذه الحرب يجب ان تدار بحكمة ، اي باختيار الاساليب والتوقيت والوسائل الملائمة لذلك » (ر . أ . أ ، العدد ١٨٥٨ ، ٢٨ و ٧٩/٨/٢٩ ، ص ٦) .

وثمة من يعتبر ان حرب الجنوب ليست سوى « نموذج جديد لعمليات الانتقام التي كانت تنفذ في الخمسينات ، اي اعمال عقاب واستنزاف ، لا تشكل ردا على المشكلة الاساسية » (أ . شفايتسر ، هارتس ، ٧٩/٨/٢٣) .

وتكتشف هذه المصادر ان هنالك هدفا آخر لحرب الجنوب لا يقل اهمية عن ضرب الفدائيين في نظر الاسرائيليين ، يتمثل في ان التدخل الاسرائيلي في لبنان قد يؤدي الى شل القوات السورية هناك ، ومنع تجمعها ، وبذلك يقل خطر قيام هذه القوات بأية عمليات في الجولان . « بعبارة اخرى فان اسرائيل تصدر الى لبنان حربا تدور في ظروف عسكرية سهلة نسبيا من اجل منع حدوثها ، في ظروف اقل سهولة ، في الجولان » (المصدر نفسه) .

وعلى اي حال ، تعتبر « الفائدة » العسكرية التي تحققها اسرائيل من وراء عمليات الجنوب ، في نظر الكثير من الاسرائيليين قليلة جدا ، اذا ما قيست بالثمن الباهظ الذي تدفعه اسرائيل على الصعيدين السياسي والاعلامي في الخارج . وحسب قول دايان فان اكثر المصاعب في هذين المجالين ، تأتي من

بلدان اوروبا الغربية ، خاصة من تلك التي ترابط قوات منها في جنوب لبنان (ر . ا . ا . العدد ١٨٤٨ ، ١٣ و ٧٩/٨/١٤ ، ص ٦) .

وبالنسبة للضغط الاميركي يبدو ان هناك ضغطا اعلاميا اكثر منه سياسيا . وقد كشف دايان عن موقف الولايات المتحدة ازاء السياسة العسكرية الاسرائيلية في جنوب لبنان بقوله : « ان هناك سياسة مقبولة لدى الولايات المتحدة تتيح لنا ضرب قواعد [الفدائيين] دون اصابة المــدنيين ودون استعمال الاسلحة الاميركية » (المصدر نفسه) . الا انه رغم هذا القبول بالسياسة الاسرائيلية ذكرت بعض المصادر الاسرائيلية ان هناك تحفظات اميركية اساسية حيال التدخل الاسرائيلي في لبنان لعدة اسباب ، « اولا ، رغبة الولايات المتحدة في منع تدهور عسكري يمكن ان يؤدي الى تأزيم الوضع في الشرق الاوسط ويحدث مواجهة مع سوريا .ثانيا ، الرغبة الاميركية في عدم المس بالحكم الضعيف في بيروت . ثالثا ، الخوف الاميركــي من ان يؤدي اشتداد العمليات في الجنوب اللبناني الى تشويش مجرى المفاوضات حول الحكم الذاتي . لذلك يقيد الاميركيون الجيش الاسرائيلي في عملياته العسكرية في لبنان ويصعدون تهجمهم ضد اسرائيل،سواء علنا من على منصة الامم المتحدة ، وفي حديث الرسميين ، او سرا بواسطة توجيه وسائل الاعلام في الولايات المتحدة ضد اسرائيل » (يعقوب ايرز ، معاريف ، ٧٩/٨/٣١) .

وقد نددت الولايات المتحدة في جلسة مجلس الامن ، التي عقدت في اواخر آب (اغسطس) الماضي لبحث الوضع في جنوب لبنان ، بلسان مندوبها اندرو يونغ ، بالعمليات العسكـــرية الاسرائيلية في الجنوب . فبعدما ندد يونغ بالعمليات الفدائية داخل اسرائيل اعلن ان بلاده تندد بشدة بسياسة القصف المدفعي والهجمات الوقائية ضد مدن وقرى ومخيمات اللاجئين في لبنان التي تنفذها خلال الاشهر الاخيرة، من قبل اسرائيل ومجموعات لبنانية مسيحية تحظى بتأييدها » (دافار ، ٧٩/٨/٣٠) . وتشير المصادر الاسرائيلية انه رغم التنديد في مجلس الامن،لم ترسل الحكومة الاميركية تنديداً رسميا بالطرق الديبلوماسية الى اسرائيل . وتضيف هذه المصادر ايضا الى ان بيانات الحكومة المختلفة والتقارير الكثيرة في وسائل الاعلام ، خاصة التلفزيون تخلق صورة سيئة لاسرائيل . « فصور الاطفال الجرحى والنساء الغاضبات والشيوخ الذين لا حول لهم ، ثم القنابل الضخمة التي لم تنفجر ، تنشر بصورة متواصلة . والانطباع السائد هو انه بينما يقاتل رجال م . ت . ف من خلال المخاطرة الشخصية في عمليات تسللهم الى اسرائيل ، فان هذه تتبع اسهل الطرق المتمثلة في القصف الجوي دون تمييز » (يوئيل ماركـــوس ، هآرتس ، ٧٩/٨/٣١) .

وعلى اي حال ورغم توقف القصف الاسرئيلي للجنوب ، لا تزال التهديدات الاسرائيلية مستمرة . ففي الوقت الذي يعلن دايان ان الفدائيين ينفذون كل يوم عملية داخل اسرائيل (ر . ا . ا . العدد ١٨٧١ ، ١٢ و ٧٩/٩/١٣ ص ٤) مبررا بذلك استمرار السياسة الاسرائيلية تجاه الجنوب ، يهدد وزير الدفاع وايزمان ، من الولايات المتحدة نفسها ، بالقيام بعملية عسكرية عنيفة في حال عودة م . ت . ف ، للعمل من لبنان ، وان اسرائيل ستستخدم اشد الوسائل التي تملكها ضد الفدائيين هناك . كما لمح وايزمان امام هارولد ساوندرز مساعد وزير الخارجية الاميركية للشرق الاوسط ان اسرائيل لن تكتفي باستخدام القصف ، بل قد تدخل مرة ثانية عن طريق البر (ر . ا . ا . العدد ١٨٧٤ ، ١٦ و ٧٩/٩/١٧ ، ص ١٠) .

ولذلك يبدو ان الهدوء الحالي في جنوب لبنان ليس سوى هدنة ، بفعل الضغوط الدولية على اسرائيل ، وستستخدم اسرائيل اي ذريعة في المستقبل لتجديد عملياتها العسكرية في الجنوب . ومن المعروف ان مستوطناتها الشمالية بدات تعاني مشاكل كثيرة بسبب قصف الفدائيين لها . فقد علم مثلا من تحقيق اجرته احدى الصحف الاسرائيلية (يديعوت احرونوت ٧٩/٨/٣١) ، في مستوطنة كريات شمونة ، ان عددا كبيرا من سكانها قد هجرها،ومن بقي حتى الان لا يملك الامكانات المادية لتدبير امره في الانتقال الى مكان آخر . وينبغي الا يستهان بهذه الظاهرة في ضوء المخططات الاسرائيلية والنشاطات الواسعة الرامية الى تهويد الجليل .

العلاقات الاسرائيلية ـ المصرية في ضوء زيارة السادات الى حيفا

تميزت العلاقات الاسرائيلية ـ المصرية خلال الفترة المنصرمة بتقدم آخر على صعيد العلاقات وحل المشاكل الثنائية بين البلدين ، خاصة مشكلتي تزويد

اسرائيل بالنفط المصري وقضية الرقابة العسكرية في منطقة الفصل ، مع بدء انسحاب اسرائيل من سيناء ومن حقول النفط هناك . وقد تحققت هذه « الانجازات » اثناءزيارة السادات الى مدينة حيفا يوم ١٩٧٩/٩/٤ ، وهي زيارته الثالثة الى اسرائيل بعد القدس وبئر السبع .

اقتصرت نتائج المباحثات التي اجراها السادات مع المسؤولين الاسرائيليين في حيفا على الوصول الى حل بالنسبة للمشاكل الثنائية العالقة بين كل من مصر واسرائيل ، بينما بقي الخلاف على حاله في وجهات النظر بالنسبة للموضوع الفلسطيني ، خاصة فيما يتعلق بالحكم الذاتي والقدس . وقد برز هذا الخلاف واضحا في المؤتمر الصحفي الذي عقده السادات وبيغن بعد انتهاء المحادثات بينهما ، حيث اعلن السادات ان « هناك مواضيع بحثناها وتوصلنا الى اتفاق حولها [واخرى] لم نتفق بشانها وبقي الخلاف قائما حولها » (ر . أ . أ . العدد ١٨٦٥ ، ٥ و ٧٩/٩/٦ ، ص ٤ .) . وذكـر السادات موضوع الاتفاق المؤقت حول الرقابة في منطقة الفصل قائلا : « لقد كان هناك موضوع قوات الامم المتحدة او قوات المراقبة التي اثارها الاتحاد السوفياتي . فقد قررنا انا وبيغن متابعة الموضوع سويا في اتفاق مؤقت الى ان نجتمع مع [الرئيس كارتر] ونتوصل الى تسوية شاملة ودائمة لهـذه المشكلة . ان الفيتو الرسوي لن يوقفنا ابدا ولن ينهي عملية السلام ... بل سيعززها ويدفعهـا نحـو الامام » (المصدر نفسه) .

كذلك ذكر بيغن انه تم التوصل الى اتفاق مبدئي حول موضوع النفط بالنسبة للكمية التي ستزود بها اسرائيل . كذلك تطرق الى موافقة اسرائيل على تسليم منطقة سانت كاترين الى مصر قبل ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) « وذلك بسبب الاهمية الرمزية لهذا التاريخ المتعلق بزيارة السادات الى القدس ، اي قبل سنتين تقريبا . كما قررنا ايضا ان تكون جميع الترتيبات التي حددت سلفا في اطار تطبيع العلاقات نافذة المفعول ، وتستمر السياحة في الاسابيع المقبلة ، ويشمل ذلك استخدام المطارات في المنطقة وفي البر ايضا ... » (المصدر نفسه ، ص ٥) .

ولخصت المصادر الاسرائيلية المواضيع التي اتفق عليها خلال الزيارة كالاتي : « اولا ، النفط : تقوم مصر بتزويد اسرائيل بمليوني طن من النفط سنويا ، ويبدأ التزويد حالا بعد تسليم حقول علمة الى مصر . أما سعر النفط فلم يحدد . وقد اعرب السادات عن تفهمه لرغبة اسرائيل في الحصول على النفط المصري باسعار رخيصة ، الا انه قال ان هذا الامر سيفتح المجال امام طلبات مماثلة من جانب زبائن آخرين . ثانيا ، الرقابة في منطقة الفصل : تقوم مصر واسرائيل بتسيير دوريات مشتركة في منطقة الفصل ، بالاضافة الى ترتيبات الرقابة المشتركة القائمة عمليا بين الجيشين الاسرائيلي والمصري في المناطق التي تم اخلاؤها حتى الان . ويبدأ سريان مفعول هذا الاتفاق ، اذا اتضح ان الولايات المتحدة لا تصر على التزامها بتشكيل قوة متعددة الجنسيات . ثالثا : تطبيع العلاقات في شمال سيناء : تقوم اسرائيل بتسليم منطقة سانت كاترين الى مصر قبل التاريخ المحدد ، وفي المقابل يسمح للاسرائيليين بزيارة منطقة شمال سيناء بشكل دائم (هآرتس ، ١٩٧٩/٩/٥) .

غير انه رغم الاتفاق حول المشاكل الثنائية ورغم جو التفاؤل الذي ساد الزيارة والمباحثات، اتسمت ردود الفعل داخل اسرائيل حول نتائج الزيارة بنوع من عدم الارتياح غير الظاهر ، خاصة فيما يتعلق بالمـوضوع الفلسطيني . فقد علق البروفيسور شمعون شامير احد خبراء الشرق الاوسط في اسرائيل ، على نتائج الزيارة بقوله : صحيح اننا نعيش في عهد الدبلوماسية السرية وغير معروف لنا كل شيء ، لكن القضايا الاساسية التي تشكل العقبات امام مسار السلام ، وهي المـوضوع الفلسطيني ، ومشكلة القدس ، لم يتم التوصل الى اتفاق بشانها ، بل حتى لم تناقش بعمق وبصورة منهجية . وعمليا يستند الاتفاق الى تأجيل المشكلات والعقبات حتى مرحلة متأخرة ، ولا يمكننا الاستهتار بهذا » (ر . أ . أ . العدد ١٨٦٦ ، ٦ و ٧ / ٩ / ٧٩ ص ٣) . ويضيف شامير ان « الاجواء الحسنة التي رافقت الزيارة هي سياسة موجهة ومقصودة ، وهي خطوة سياسية بحد ذاتها ، بل واستطيع القول ان ابراز هذا التفاؤل والايجابية يتناسب اضطرادا مع عمق الشكوك والقلق في هذا المسار . فهناك قيمة سياسية لابراز هذا التفاؤل [وهو] ان مصر تظهر للعالم العربي ان طريقها واضح امامها ، وانها تتقدم بثقة ولا تنظر الى الخلف .

« لقد قال المصريون في مرحلة مبكرة ان هذه الجبهة العربية الموحدة ضدهم لن تستطيع الصمود، وستتفكك بسبب التناقضات الداخلية . وسمعت ذلك

بنفسي في القاهرة ... الا انه ليس كل انشقاق في العالم العربي يؤدي بالضرورة الى اقتراب من الموقف المصري » (المصدر نفسه) .

ويبدو كذلك ان حديث السادات وتلميحه الى احتمال انضمام الاردن الى المفاوضات ازعج الاسرائيليين . فقد علق وزير الطاقة الاسرائيلي اسحاق موداعي حول هذه المسألة بقوله : « ان البديل الفلسطيني حتى لو كان من مؤيدي م . ت . ف . افضل من المفاوضات مع الاردن » (ر . أ . أ . العدد ١٩٦٧ ، ٧ و٧٩/٩/٨ ، ص ٣) . ويبدو ان راي موداعي هذا يحظى بتأييد في الحكومة الحالية ، اذ ان دخول الاردن المفاوضات له ثمن « نعرفه ، عمليا ، وغير ملزمين به » — على حد قوله . وربما تكون لقاءات وزير الخارجية دايان في هذا الوقت بالذات مع بعض مؤيدي م . ت . ف . في المناطق قد جاءت على خلفية طرح الاحتمال الاردني ، اضافة الى الضغط الاميركي في وجوب احراز تقدم في مفاوضات الحكم الذاتي كبديل للاقتراحات بشأن تعديل القرار ٢٤٢ .

وحسب قول رئيس الوزراء السابق اسحاق رابين « علينا ان نقرا جيداً ما قاله الرئيس السادات . لقد قال ان الاردن سينضم الى المفاوضات في حال حصول تقدم في مواضيع الحكم الذاتي . وعندما يتحدث السادات عن تقدم ... فهو يقصد ان نقبل بمواقفه في كل ما يتعلق بطابع سلطة الحكم الذاتي او الحكم الاداري ، وكل ما يتعلق بضم سكان القدس الشرقية الى الانتخابات ... » (المصدر نفسه ، ص ٥) .

ان اسرائيل غير معنية بدفع هذا الثمن ، وحسب قول رئيس لجنة الخارجية والامن موشي ارنس فأن ما لدى اسرائيل اقتراحه على الملك حسين بشأن الضفة الغربية هو السلام « وهو ليس بالامر الهين ، فالرئيس السادات يؤكد اهمية السلام والتعاون الذي يتيحه ، وهو ليس هدية تقدمها لنا مصر والدول العربية الاخرى ، بل نحن الذين نقدمها لهم » (المصدر نفسه — ص ٦) .

على اي حال ، يبدو الآن احتمال انضمام الاردن الى المفاوضات بعيداً في ظل المواقف السياسية الحالية في اسرائيل ، وهذا ما كررت المصادر الاردنية نفسها تأكيده مؤخرا .

ح . ش .

قضايا دولية

فلسطين .. اسبانيا .. اوروبا

لم يبلغ الحديث عن « استقلالية » اوروبا الغربية عن الولايات المتحدة ابدا الحد الذي بلغه نتيجة لزيارة ياسر عرفات لاسبانيا (١٣ — ٩/١٥) ، ومحادثاته مع رئيس وزرائها ماريو سواريز ، ومع زعماء اكبر احزابها السياسية بعد الحزب الحاكم .

والملاحظة الملفتة اكثر من هذا ، ان اكثر المتحدثين عن الاستقلالية الأوروبية هذه عن الولايات المتحدة كانوا هم الاميركيون بالتحديد .

وبامكاننا أن نضيف ملاحظة ثالثة هي أن تغطية الاعلام الغربي وخاصة الأميركي لزيارة ياسر عرفات لاسبانيا ، كانت اكثر سخاء واهتماما في مساحاتها وتعدد زواياها حتى من قمة فيينا الثلاثية التي جمعت بين رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وبرونو كرايسكي مستشار النمسا ، وفيلي برانت الرئيس الحالي للمنظمة الدولية الاشتراكية ... على ما كان لهذه القمة من اهمية ، وما لقيته من اهتمام .

واذا اردنا ان ننتقل مباشرة من هذه الاحصاءات العامة الى رؤية على الجانب الآخر من هذه الزيارة ، أي رؤية من زاوية النظر الغربية اليها ... تستوقفنا على الفور معالجات من نوع ما كتبته مجلة « نيوزويك » الأميركية . في عددها الذي يحمل تاريخ ٢٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩ قالت « نيوزويك » :

« بعد أكثر من عقدين من الزمن على لعب الدور الثانوي وراء السياسة الأميركية الشرق اوسطية ، بدأت أوروبا الغربية تلعب ألحانها الخاصة . وكانت

كامب ديفيد هي نقطة التحول . فمن وقتها تحرك زعماء اوروبيون للتنصل مما رأى فيه كثير منهم سياسة اميركية مشكوكـا فيها ، لا بل محفوفة بالمخاطر بشأن الحقوق الفلسطينية . وهم يأملون في خلال هذه العملية أن يعفوا أوروبا من اي خطر نفطي او تخفيضات نفطية تسببها سياسات واشنطن الشرق أوسطية ، وأن يزيدوا من مبيعاتهم من الاسلحة في المنطقة .

« ويقول دبلوماسي الماني غربي : ان الابواب التي اغلقتها خطة الرئيس كارتر للسلام تريد من يفتحها . والأمر اشبه بالنقاط البقايا وسط طعام امبراطورية .

« لقد صعد الزعماء الأوروبيون جهودهم لفتح الأبواب في العالم العربي خلال الأسبوع الماضي . ويقول دبلوماسي أوروبي في باريس : لقد فقدت كل دول الخليج (العربي) ايمانها بالولايات المتحدة . انهم ينظرون الى أوروبا ويجعلوننا نعرف ذلك . وهانز ديتريش غينشر وزير خارجية المانيا الغربية شجعته زيارته في تموز (يوليو) الماضي للبلدان المنتجة للنفط في الشرق الأوسط حيث جال مؤخرا في دول خط المواجهة العربية ــ فجلب لنفسه سريعا انتقادات اسرائيل . ولم ترتدع دول المجموعـة الاقتصادية الأوروبية ، فاجتمع وزراء خارجيتها في دبلن في الأسبوع الماضي ، وصاغوا بيانا مؤيدا للحقوق الفلسطينية . وفي الوقت نفسه تقريبا وصل ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية الى اسبانيا في أول زيارة رسمية له لبلد أوروبي غربي ...

« ان اجتماع عرفات وسواريز ، والشائعات عن رحلتين له الى فرنسا وايطاليا في المستقبل القريب ، انما هي مؤشرات الى ان معظم الأوروبيين قد طرحوا جانبا التحريمات التي كانت قائمة حول الاتصالات مع الفلسطينيين ...

« ... وليس من المحتمل ان تتخلى الحكومات الأوروبية سريعا عن خطها الاستقلالي المتزايد باطراد في الشرق الأوسط » .

هذه الفقرة من تحليل « نيوزويك » الاميركية ، تعليقا على زيارة ياسر عرفات لاسبانيا ، لا تحمل فقط فكرة الاستقلالية الأوروبية عن السياسة الشرق اوسطية لأدارة الرئيس كارتر ، انما تحمل ايضا عددا من الاخطار الاخرى :

ــ ان أوروبا الغربية ترى انها لا تستطيع ان تضمن نفطا عربيا دون التخلي عن « التحريمات » التي تحيط بالاتصالات مع الفلسطينيين ، وهي تحريمات تفرضها التبعية للسياسة الاميركية .

ــ ان أوروبا الغربية تعي ان تأييد « الحقوق الفلسطينية » طريق الى مصالحها في الشرق الأوسط ، بما في ذلك تجارتها (وخاصة تجارة الأسلحة) .

ــ ان أوروبا الغربية وصلت الى قناعة بفشل سياسة « كامب ديفيد » ، بعضهم الى حد « التشكك فيها » وبعضهم الى حد التحذير من « خطورتها » . المهم انهم لا يريدون ان يربطوا انفسهم بعجلتها . والمعنى الضمني في هذه الفكرة هو ان أوروبا الغربية لا يعنيها ان تصلح الولايات المتحدة سياستها تجاه الشرق الأوسط ، وخاصة تجاه « الحقوق الفلسطينية » ، انما يعنيها بالدرجة الأولى أن تميز نفسها أمام العرب عن السياسة الأميركية . بل لعل أوروبا الغربية (من وجهة النظر الأميركية التي تعبر عنها « نيوزويك ») تؤثر ان تظل الولايات المتحدة موغلة في سياستها الخطرة ، لأن ذلك وحده يميز وضع أوروبا الغربية لدى العرب . ويقوي مركزها التنافسي في مواجهة الولايات المتحدة .

بخلاف هذا هناك ملاحظة أعـم هي أن زيارة ياسر عرفات لاسبانيا عوجلـت من « نيوزويك » وغيرها ــ على أنها « موقف أوروبي » وليس مجرد موقف اسباني ، ولهذا وضعت في اطار أوسع منها ، يضم بالاضافة الى زيارة مدريد ، اجتماع فيينا الثلاثي ، كما يضم بيان وزارة خارجية دول السوق الاوروبية المشتركة في دبلن (في ٩/١١) ومحادثات جورغين مولیمان ، عضو الحزب الديمقراطي الحر في المانيا الغربية مع ياسر عرفات، وتأكيدات الأول بتأييد السوق الأوروبية المشتركة للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني .

وقد اكد الجانب الاسباني نفسه النظرة «الأوروبية» الأشمل للزيارة ، وذلك حين حرص مارسيلينو اوريخا وزير خارجية اسبانيا (في الجلسة الرسمية الثانية من المحادثات بين الوفدين الفلسطيني والاسباني في ٩/١٤) على الحديث عن الحوار العربي ــ الأوروبي . وأعرب أوريخـا عن رغبة بلاده في دفع الحوار العربي الأوروبي الى الأمام ، وأعرب عن استعداد اسبانيا للقيام بجهد تطوير المـوقف الأوروبي من القضية الفلسطينية . ثم اكـدت اسبانيا على زاوية استقلالية الموقف الذي تتخذه من

منظمة التحرير، في تصريح أدلى به وزير الدولة للاعلام حوريه مينيا بعد صدور البيان المشترك الفلسطيني ــ الاسباني (٩/١٦) اذ قال : . ان اسبانيا لم تشاور لا الولايات المتحدة ولا اي دولة أخرى قبل توجيه الدعوة لياسر عرفات .

ولعله لم يكن من قبيل المصادفات البحتة ان وصل الى مدريد في اليوم نفسه الذي انتهت فيه زيارة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية لها خوسيه لاو سفير اسبانيا في واشنطن ، وصرح لدى وصوله بأن أعضاء الاتحاد الاميركي للجمعيات اليهودية قاموا بزيارته في واشنطن واعربوا عن اسفهم لزيارة عرفات لاسبانيا ، وعن املهم في أن تعترف اسبانيا باسرائيل .

هذا الرأي نفسه الذي عبر عنه يهود اميركا ، عبر عنه ايضا يهود اسبانيا . فقد صرح أحد زعمائهم موريشيد هانشويل توليدانو في اليوم الأول للزيارة بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي « أداة روسية » وحذر الاسبان من اعتبارها حركة تحرير وطني حقيقية . وحث ماريو سواريز رئيس الحكـــومة الاسبانية على ان ينهي سياسة عدم الاعتراف باسرائيل .

اما اليمين السياسي الاسباني ، فعلى الرغم من كل ما رددته أجهزة الاعلام الصهيونية من أن سياسة مدريد الحالية في عدم الاعتراف باسرائيل هي امتداد امين لسياسة الجنرال فرانكو.. فان هذا اليمين أبدى قلقه من استقبال عرفات والمحادثات معه من جانب حكـــومة سواريز وزعيمي الحزبين ، الاشتراكـــي (فيليب غونزاليس) والشيوعي (سانتياغو كاريللو) ، معتبرا هذه خطوة جديدة على طريق يتجه اتجاها يساريا بل ثوريا ، وقد سبقتها عليه بخطوات من نوع استقبال فيديــل كاسترو رئيس كوبا ، ومن نوع دعم علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية .

والصحافة اليمينية في اوروبا ــ خارج اسبانيا ــ أبدت موقفا أكثر واقعية من هذا . فنجد صحيفة « فاينانشيال تايمز » البريطانية تقول من مدريد (٩/١٧) : يحتمل على المدى القصير ان ترفع اسبانيا وفد منظمة التحرير الفلسطينية هنا الى المستوى الدبلوماسي . وقالت صحيفة « ليزيكو » الفرنسية الاقتصادية (٩/١٦) : لقد أحرز عرفات في مدريد انتصارا دبلوماسيا ... واذ تمنح اسبانيا شهادة بمرتبة شرف الى الزعـيم الفلسطيني فانها لم تخاطر بشيء، الا انها وفقا للتقاليد الفرانكوية الأمينة عليها لا تعترف باسرائيل» .

أما صحيفة « لوموند » الفرنسية الاقرب الى الاعتدال فقد كتبت مقالا افتتاحيا (٩/١٦) في صفحتها الأولى تحت عنوان « نجاح عرفات في اوروبا » قالت فيه :

« لقد استقبلت مدريد السيد ياسر عرفات استقبالا رسميا كرئيس دولة ،وعقد فور وصوله نهار الخميس الماضي محادثات أولية استغرقت ساعتين مع رئيس الحكـــومة قبل الاجتماع مع زعماء المعارضة ... ان هذا الاستقبال الحار الذي لقيه عرفات في دولة لم تعترف حتى الآن باسرائيل ولم تقم معها علاقات دبلوماسية لم يكن مستغربا . ولكن أهمية هذه الزيارة تكمن في انها جزء من حركة أوروبية آخذة بالتوسع تدعو الى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ... ان دول السوق الأوروبية التسع اعلنت في بيان اصدرته يوم ١٨ حزيران (يونيو) المـــاضي تأييدها للحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني ، بما فيه حقه في انشاء دولة فلسطينية . ان اغلب دول أوروبا الغربية سمحت الواحدة تلو الأخرى لمنظمة التحرير الفلسطينية بفتح مكاتب لها في عواصمها . ففي انقرة وغدا في اثينا سيتمتع ممثلا عرفات بالحصانة الدبلوماسية . وفي باريس حيث يتمتع ممثل المنظمة بصفة رسمية عقد فاروق القدومي ، رئيس الدائرة السياسية في المنظمة ، اجتماعا وديا مع رئيس الدبلوماسية الفرنسية جان فرانسوا بونسيه . وفي روما اتفقت جميع الأحزاب الايطالية وفي طليعتها الحزب الديمقراطي المسيحي على استقبال قدومي وادارة مناقشة حول مشكلة الشرق الأوسط . وهناك احتمال بأن توجه بعثة برلمانية بريطانية تزور الشرق الأوسط دعـوة الى قدومي ، لزيارة لندن ... ان أهم حدث ذي معنى وقع خلال الأشهر الأخيرة هو اللقاء الذي تم بين عرفات والمستشار الالماني السابق فيلي برانت ومستشار النمسا برونو كرايسكي. ان اسباب هذا التطور كثيرة ، والخوف من أزمة جديدة في الشرق الأوسط يؤدي الى اعادة النظر في تزويد أوروبا بالبترول . لكن المحيط القديم والمحيط الجديد (المقصود اوروبا واميركا) اصبحا يتفهمان واقعا لهما اساسياوهو ان منظمة التحرير الفلسطينية تحظى بتأييد جميع الفلسطينيين ، وان لا شيء يمكن ان يتم وبشكل دائم

بدونها . ومن هنا يأتي الخطر على اتفاقيات كامب ديفيد ويتزايد العـزل بوجه اسرائيل » .

وزراء خارجية
السوق المشتركة

بدأ اجتماع وزراء خارجية دول السوق الأوروبية المشتركة في دبلن (عاصمة ايرلندا الجنوبية) في ٩/١١ قبل يومين اثنين من بدء زيارة ياسر عرفات لاسبانيا ، وبعد يومين اثنين من صدور البيان الختامي لمؤتمر قمة عدم الانحياز في هافانا . ومن المؤكد ان وقوع اجتماع دبلن بين هذين الحدثين كان له علاقة تأثير وتأثر بهما ، خاصة وان اجتماع دبلن كان مكرسا لبحث سياسة المجموعة الاقتصادية الأوروبية تجاه ازمة الشرق الأوسط ، وبصورة أكثر تحديدا تجاه منظمة التحرير الفلسطينية .

وبطبيعة الحال فان اجتماع دبلن هو أهم لقاء اوروبي غربي بشأن الشرق الأوسط منذ انعقاد قمة فيينا الثلاثية (عرفات ــ كرايسكي ــ برانت) في ٧، ١٩٧٩/٧/٨ بل انه أهم لقاء أوروبي غربي في هذا الاطار منذ بدأ يتردد الحديث عن « مبادرة اوروبية » بشأن الشرق الأوسط .

وقد عقد الاجتماع وسط اجواء التأكيد بأن « معظم حكومات السوق الأوروبية المشتركة مستعد لاتخاذ خطوة نحو الاعتراف الرسمي بمنظمة التحرير الفلسطينية » . (الغارديان البريطانية من دبلن في ٩/١١) . ورشح من داخل الاجتماع ان فرنسا تقود طلب الاعتراف بالمنظمة بصورة من الصور ، وأنها تؤكد انه اصبح مسألة وقت « قبل ان يجبر الاميركيون والاسرائيليون انفسهم على الوصول الى هذه النتيجة » .

وذكرت الصحافة البريطانية « أن هناك تحولا في المـوقف البريطاني لصالح تشجيع اسرائيل على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، منذ مجيء حكومة المحافظين الى السلطة ... وهذه هي وجهة نظر معظم حكومات السوق الأوروبية المشتركة . (الغارديان ــ ٩/١١) .

وكتبت « الأوبزرفر » البريطانية في مقال افتتاحي لها (٩/١٦) تعليقا على اجتماع دبلن :

« لقد حان الوقت لتعترف الحكومة الاسرائيلية بأنها خسرت معركتها الطويلة للحيلولة دون الاعتراف الدبلوماسي بمنظمة التحرير الفلسطينية . كما أن الحكومة الاسرائيلية لا تستطيع أن تعيق لفترة أطول الاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم . وبرفض قبول اسرائيل هذين الحدثين ، فانها تضع نفسها في خطر عزل نفسها كليا عن جميع اصدقائها في الغرب . وقد اقتربت اسرائيل خطوة أخرى من هذا الخطر في الاسبوع الماضي ، عندما اتفق وزراء خارجية السوق الأوروبية المشتركة على اشراك منظمة التحرير الفلسطينية أو الممثلين الفعليين للفلسطينيين ــ كما تقترح بريطانيا ــ في المفاوضات التي تهدف الى تحقيـق تسويـة سلمية ... واذا كان من المستحيل حقا مواصلة انكار قيام المنظمة بدور كامل في مفاوضات سلام الشرق الأوسط ، فمن المؤكـد أن من الأفضل لاسرائيل ان تبدأ في تكييف سياستها لمواجهة هذا التغيير ، بدلا من ان تواجه الاحتمال شبه الاكيد ، بأنها ستكون وحيدة في نهاية الامر في موقفها من هذه القضية، عندما تجتمع الجمعية العامة للأمم المتحدة في وقت لاحق من هذا الشهر . ولن يكون هناك شيء يضر بالروح المعنوية الاسرائيلية أو بموقفها الدبلوماسي أكثر من أن يهجرها في هذه القضية الحيوية حلفاؤها الوحيدون . ومن المؤكد ان من الافضل جدا أن تقبل اسرائيل بالواقع بدلا من ان تواصل المقاومة في قضية لا يمكن ان تكسبها » .

كذلك رشح عن اجتماع دبلن أن الحكومة الهولندية ــ وهي الوحيدة بين حكومات دول السوق المشتركة التي وافقت على وضع سفارتها في اسرائيل في القدس وليس في تل أبيب ، والتي تعد تقليديا من أشد المعارضين داخل السوق الأوروبية للاعتراف بمنظمة التحرير ــ أصبحت أميل الى اتخاذ موقف مغاير لموقفها التقليدي هذا في ضـوء مواقف الدول الأوروبية الأخرى . وفي ضـوء استياء هولندي واضح ازاء الخطر الذي تتعرض له الوحدات الهولندية المشاركة في القوة الدولية في جنوب لبنان من جراء هجمات الطائرات والمدفعية الاسرائيلية ضد مخيمات الفلسطينيين وقرى اللبنانيين في الجنوب اللبناني .

وعندما انتهى اجتماع وزراء خارجية السوق الأوروبية المشتركة في دبلن (٩/١١)كان واضحا ان اتفاقهم هو على الاتجاه نحو الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وقد اتفقوا على أن تعلن دول السوق موقفها المحدد من مسألة الشرق الأوسط برمتها، في خطاب يلقيه مايكل أوكيندي وزير خارجية ايرلندا الجنوبية ورئيس المجموعة، أمام الجمعية

العامة للأمم المتحدة نيابة عن دول السوق المشتركة ككل يوم ٢٦ ايلول (سبتمبر) .

وقالت صحيفة « الفاريان » البريطانية (٩/١٢) ان وزراء الخارجية الأوروبيين قرروا الاحتفاظ بسرية المدى الذي وصلت اليه دولهم في التحرك نحو الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وأن هذه السرية موجهة الى الحكومة الاسرائيلية أكثر من غيرها . وأضافت أن حكومتي هولندا والمانيا الغربية ابديتا تخوفا من ان الاعلان عن الاعتراف بالمنظمة في الوقت الحاضر من شأنه أن يزيد سوءا علاقاتهما مع اسرائيل التي اصبحت مشحونة بالخلافات فعلا .

في الوقت نفسه صرح وزير الدولة البريطاني دوغلاس هيرد ـ الذي ناب عن وزير الخارجية لورد كارنغتون في هذا الاجتماع ـ بانه تم احراز تقدم نحو موقف مشترك بين الدول الأوروبية التسع بشأن الشرق الأوسط .

وصرح وزير أوروبي لم يشأ ان يذكر اسمه في هذا الصدد،ان وزراء الخارجية رأوا عدم اذاعة تفصيلات قرارهم بشأن المسألة الفلسطينية تجنبا للاثارة الصحافية . ولكن الاعتقاد كان سائدا في نهاية الاجتماع بين دبلوماسيي السوق الأوروبية المشتركة ، بانه عندما يلقي أوكيندي رئيس اللجنة التنفيذية للسوق خطابه امام الجمعية العامة للأمم المتحدة فانه « لن يترك مجالا لأي شك في ان المجموعة الأوروبية تعتقد بأنه يتعين على اسرائيل الآن ان تكون مستعدة للتحدث الى منظمة التحرير الفلسطينية عن تسوية فلسطينية (الفاريان ٩/١٢) .

كما توفرت مؤشرات (وفقا لما نشرته الفاريان) تدل على ان الدول الأوروبية التسع تتوقع هجوما دبلوماسيا واسعا ، وفي اللحظة الأخيرة تشنه اسرائيل لعرقلة اي شيء ينطوي على اشارة الى منظمة التحرير الفلسطينية في خطاب اوكيندي الى الأمم المتحدة (...) .

وليس خافيا ان هذه الهجمة الدبلوماسية الاسرائيلية التي تتوقعها دول السوق المشتركة للتأثير على موقفها من منظمة التحرير الفلسطينية ، ومن ازمة الشرق الأوسط بشكل عام ، من شأنها أن تعمق نفور الدول الأوروبية من سلوك اسرائيل على الساحة الدولية ، وخاصة ازاء « حلفائها التقليديين » .

وقد كانت الأزمة التي وقعت اثناء زيارة موشي دايان وزير الخارجية الاسرائيلي لبون (٩ ـ ٩/١١) مثالا على شعور الدول الأوروبية بأن اسرائيل تدفع الأمور في عكس الاتجاه الذي يفترض ان تعمل له في علاقاتها مع دول أوروبا الغربية ، اذ اجمع الاعلام الغربي في نهاية تلك الزيارة على انها دفعت العلاقات الالمانية ـ الاسرائيلية نحو الاسوأ. وقد بلغت هذه الازمة ذروتها عندما اعلنت وزارة الخارجية الالمانية الغربية رفضها الانتقادات التي وجهها دايان اثناء مؤتمر صحفي عقده في بون (٩/١١) الى مطالبة المانيا الغربية بحق تقرير المصير للفلسطينيين . وقد القى دايان باللوم في هذا المؤتمر الصحفي على هانز ديتريش غينشر وزير الخارجية الالماني الغربي محملا اياه مسؤولية « تدهور العلاقات » بسبب استخدام عبارة « حق تقرير المصير » . ووصف هذا بانه تجاوز للموقف الذي سبق ان اعلنته السوق الأوروبية المشتركة في حزيران (يونيو) ١٩٧٧ .

وقد عمدت دوائر الخارجية الالمانية ، في الليلة نفسها ، الى الاعلان عن أن حكومة بون تعتبر حق تقرير المصير نصرا بالغ الأهمية في السياسة الالمانية . ذلك انه اذا كانت عملية اعادة توحيد المانيا لا يمكن ان تتم الا على اساس مبدأ حق تقرير المصير ، فانه لا يمكن انكار هذا الحق على اي شعب آخر

وهكذا يمكن القول بأنه اذا كانت سياسة « كامب ديفيد » الاميركية قد اثارت مخاوف أوروبا الغربية من ردود الفعل الفلسطينية العربية ضدها ، وبالتالي دفعت أوروبا الغربية باتجاه سياسة أكثر استقلالية تجاه قضية الشعب الفلسطيني ومسألة الشرق الأوسط برمتها .. فان سياسة اسرائيل تسهم في دفع أوروبا الغربية أكثر في اتجاه مواقف مؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، باصرارها على التعامل مع المواقف الراهنة، بتجاهل كامل لمصالح الدول الأخرى .. بما فيها مصالح دول مكن اسهامها في بناء اسرائيل نفسها وحتى في بقائها حتى الآن حيث هي .

والسؤال الآن ليس هل تعترف أوروبا الغربية بمنظمة التحرير الفلسطينية ، انما متى تعترف . لا بل ان السؤال : الى متى تستطيع الولايات المتحدة أن تتخلف عن اوروبا الغربية في تشكيل سياسة واقعية لها تجاه القضية الفلسطينية ؟

قمة عدم الانحياز ...

لم يكن مجرد انعقاد مؤتمر القمة لدول عدم الانحياز في العاصمة الكوبية « هافانا » (٣ ـ ١٩٧٩/٩/٩) ، امرا يمكن ان تظيفه كل دول المعسكر الامبريالي، وخاصة الولايات المتحدة الاميركية اكثر من غيرها .

هذا هو الانطباع الاكيد الذي يخرج به المرء من متابعة كل تحليلات الغرب ، ومواقفه ازاء هذا المؤتمر .

والمحاولات التي بدأتها دول كثيرة ـ حتى من داخل حركة عدم الانحياز ـ لمنع انعقاد المؤتمر في عاصمة كوبا فور موافقة غالبية دول الحركة على عقده فيها ... وجدت امتدادا لها في مواقف عديدة ناصبت كوبا ، وكل الدول الاشتراكية (باستثناء يوغوسلافيا) العداء : فيما غفلت عن حقيقة وجود دول كثيرة لا يمكن وصف علاقتها بالعالم الراسمالي الغربي باقل من كونها علاقة تحالف غير رسمي .

ولكن كان لا بد للدول الغربية ان يكون لها بطل غير مدان بالتحالف غير الرسمي مع الغرب داخل الحركة ، وكان لا بد ان يكون هذا البطل من اصحاب الوزن الثقيل في التاثير على حركة عدم الانحياز ... فاختارت هذه الدول ان تتحلق حول الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، المؤسس الوحيد الباقي على قيد الحياة من مؤسسي الحركة الرئيسية : جمال عبد الناصر ، نهرو ، سوكارنو ، نكروما ، ومكاريوس .

وهكذا بدأ الغرب حملته على مؤتمر قمة عدم الانحياز لتقسيم صفوفه ـ على الاقل الى معسكرين ـ بهدف افشاله على الاقل ، وتحطيم الحركة كلية على الاكثر . وعكس الاعلام الغربي في معالجته للمؤتمر قبل وقت طويل من بدايته رغبة في تبني مواقف وآراء واتجاهات تنسب الى الرئيس اليوغوسلافي تيتو ... وتصور على انها تتناقض الى حد التطاحن مع مواقف وآراء واتجاهات الرئيس الكوبي فيديل كاسترو .

وقبل نحو شهرين من انعقاد قمة هافانا كتبت صحيفة « ديلي تلغراف » البريطانية وهي واحدة من اعتى الصحف الغربية رجعية ، وخضوعا لتوجيهات الامبريالية الاميركية ، تقول (٧٩/٧/١٧) « يستضيف الدكتور فيديل كاسترو في العاصمة الكوبية هافانا في ايلول القادم المؤتمر السادس لرؤساء دول وحكومات عدم الانحياز . وتبدو هذه العملية كأنها فرحة كئيبة ... وربما يكون للمؤتمر « تاثير تعليمي » هام لو استطاع ان يلقي ضوءا واضحا على الخلافات العميقة بين ما يسمى بمعسكر عدم الانحياز حيال تفسير كلمة عدم الانحياز ... ونظرا لأن كوبا لا تعتبر حقيقة من دول عدم الانحياز ... اليس من الضروري محاسبة موسكو مباشرة واعتبارها مسؤولة عن دعم كاسترو العالمي للارهاب والثورات العنيفة ... وتبدو الآن المبادىء الاساسية لفكرة عدم الانحياز اشبه بالمبادىء المبتذلة في وقت وافقت فيه دول الحركة على حضور المؤتمر في هافانا » .

هذا التناول لم يقتصر بطبيعة الحال على صحيفة بريطانية ، انما شمل الاعلام الغربي كله ، ولم يكن يعكس مجرد « اماني » الغرب ، ، بل خططه بالنسبة لهذه القمة . الامر الذي اكدته الحقيقة التي كشفها الرئيس كاسترو في خطابه الافتتاحي امام المؤتمر (٩/٣) من ان الحكومة الاميركية استطاعت ان تحصل على نسخة من مسودة مشروع البيان الختامي لقمة هافانا ، وهي المسودة التي وضعتها كوبا ـ باعتبارها الدولة المضيفة ووفقا للعرف المتبع ـ وقامت بحملة اتصالات دبلوماسية محمومة لتعديلها .

وهكذا نجد ان الحضور الاميركي كان ماثلا بصورة خطيرة منذ البداية ، ربما اكثر مما كان في أي من المؤتمرات الخمسة السابقة لقمة عدم الانحياز . وبطبيعة الحال لم يكن مجرد انعقاد المؤتمر في هافانا ـ وما يمثله ذلك من دعم للنظام الثوري الاشتراكي الكوبي بزعامة فيديل كاسترو ، هو كل ما يثير الولايات المتحدة ضد المؤتمر والحركة . انما تتعدى المسالة هذا النطاق الى طبيعة القضايا المعروضة ، وتوقيت عرضها على قمة هافانا .

فالولايات المتحدة تعرف منذ البداية ، وقبلها ، ان سياساتها على نطاق عالمي ستوضع على مشرحة مؤتمر عدم الانحياز ... وان في مقدمة هذه السياسات سياستها في الشرق الاوسط التي اصبحت ترتبط باسم « كمب ديفيد » والاتفاقات التي تمخضت عنها ، والمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية وما تسببت فيه في هذه المنطقة . وهذا بالفعل ما حدث . لقد تحولت قمة هافانا الى قمة من اجل مناقشة القضية الفلسطينية ودعم هذه القضية والتكتل وراءها من جانب ٩٤ دولة تمثل اكثر بكثير من ثلثي اعضاء الجمعية العامة للامم المتحدة .

وبالتالي تحولت الى قمة مناهضة لسياسة « كامب ديفيد » واطرافها المخططين والمنفذين .

ومنذ البداية كان هدف السياسة الاميركية شق صفوف الحركة حتى لا يصبح بامكانها اتخاذ قرارات اجماعية او شبه اجماعية ، تبدو في النهاية كقرارات للامم المتحدة ، بل وتمهد لقرارات من المنظمة الدولية . خاصة وان الفاصل الزمني بين نهاية قمة هافانا وبداية اجتماعات الجمعية العامة للامم المتحدة لا يتجاوز عشرة ايام . وكانت سياسة « التقسيم » واضحة المعالم للغاية امام المؤتمر ... وبعبارات واضحة بالمثل وصفها الرئيس كاسترو في خطابه الافتتاحي بانها « مخطط قذر » من جانب الامبريالية والصهيونية لاقناع اعضاء المؤتمر بانه يريد تحويل حركة عدم الانحياز الى « اداة للسياسة السوفياتية » وقد رد على هذا المخطط بامرين اثنين : اولا تعهد بان يكون طوال فترة رئاسته للحركة التي تمتد خلال السنوات الثلاث القادمة « صبوراً ، دؤوبا ، مرنا ورصينا » ثانيا امتدح الاتحاد السوفياتي لتاييده للنضالات الثورية مؤكداً ان كوبا بلد يتمتع باستقلاله الكامل .

وقد ذكر ريودان رويت – وهو خبير اميركي بشؤون اميركا اللاتينية – (نيوزويك ٩/١٧) : « ان هافانا ستكون بمثابة الصلية الاولى في نيران معركة تشن في الامم المتحدة هذا الخريف وفي الاجتماعات التالية التي ستعقد في خلال السنوات القليلة التالية .

بالمقابل عالج الاعلام الغربي بروح احتفالية واضحة كلمات الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، الذي صوره من البداية بانه يقاوم محاولات دفع حركة عدم الانحياز بعيداً عن المبادىء الاساسية التي قامت عليها في الاصل . وتجاهل الاعلام الغربي في ذلك حقيقة ان الهجوم الذي شنه على كاسترو اثناء قمة هافانا كان يشن مثله على زعماء عدم الانحياز المؤسسين وعلى مبادئه عند قيام الحركة (.....) .

وفيما يتعلق بسياسة « كامب ديفيد » على وجه التحديد ذكرت دوائر دبلوماسية في واشنطن قبل وقت كاف من انعقاد قمة هافانا (فرانس برس ٨/١٤) ان الحكومة الاميركية ستشترك وللمرة الاولى في المفاوضات التمهيدية لمؤتمر قمة عدم الانحياز ... ويعتقد ان الهدف من هذه المشاركة الاميركية هو محاولة التخفيف من الهجوم الذي ستتعرض له « معاهدة السلام » المصرية – الاسرائيلية في المؤتمر ، ... هذا فضلا عن اثارة عدد اخر من الموضوعات مثل مسالة كمبوديا والدور الفيتنامي فيها ، والدور الكوبي في افريقيا . واشارت الوكالة نفسها الى ان الولايات المتحدة التي كانت غير مبالية حتى بحركة عدم الانحياز تستخدم نفوذها لدى بعض دول العالم للحيلولة دون تطور التيار الذي تطلق عليه واشنطن وصف التيار « الموالي للسوفيات » .

وذهب الغرب الى حد الادعاء بمعرفة نوايا هذين الطرفين الرئيسيين اللذين افتعلت القسمة بينهما اصلا اجهزة دعائية : تيتو وكاسترو . فنجد صحيفة « فرانكفورتر الجيماتيه » الالمانية الغربية ترسم « سيناريو » مسبقا لما سيدور فتقول (٩/١) : « سوف يدخل الرئيس تيتو العجوز الذي لا يزال يحتفظ بحيويته في هافانا مع فيديل كاسترو الذي يعتبر الشريك المناوىء ، في جدال حول كل بند ورد حول الاستقلال الكامل لكتلة دول عدم الانحياز ، والاعتدال تجاه الكتلتين الشرقية او الغربية . وذلك كما ورد في ميثاق تاسيس كتلة عدم الانحياز .وسيدافع الرئيس تيتو ضد كل المحاولات التي تقوم بها كوبا للتقرب من الاتحاد السوفياتي ، نظراً لأن السياسة اليوغوسلافية تنتهج موقفا محايداً بين المعسكرين الشرقي والغربي . » .

لكن الصحيفة الالمانية الغربية لا تلبث ان تقع في التناقض حين تنتقل الى النقطة التالية من السيناريو السابق لانعقاد المؤتمر ... فنجدها تقول في الفقرة التالية مباشرة من مقالها نفسه : "يقول الدبلوماسيون اليوغوسلاف لزملائهم الغربيين في المباحثات التي تجري بينهم ، ان الرئيس تيتو سيكافح في هافانا من اجل الغرب ايضا » . ثم هي تختتم مقالها بتوجيه الى الرئيس تيتو ينبغي عليه ان يفعله : « اليوم يجب على الزعيم اليوغوسلافي جوزيب بروز تيتو ان يحاول من طرف واحد تجنب انهيار سياسته القديمة التي لم تعد يوغوسلافيا في شيء ولا تعتبر ضرورية بهذا الشكل لاستقلال بلاده . ولذلك فسيعمد للكفاح في هافانا بالدرجة الاولى من اجل نفسه » .

فما الذي حدث في المؤتمر نفسه ؟

بداية ، فان اول انتقاد للسياسة الاميركية – ولو كان بشكل غير مباشر – جاء من كورت فالدهايم الامين العام للأمم المتحدة ، وجاء منصبا بشكل خاص على السياسة الاميركية في الشرق الاوسط . فقد اعلن فالدهايم في خطابه امام قمة هافانا

(٩/٣) « ان حلا شاملا يتناول مختلف جوانب قضية الشرق الاوسط غير القابلة للتصرف ، وحده قد يضمن اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط . في النهاية ينبغي لجميع الاطراف المعنية الاشتراك في حل هذه المشكلة . واذا تحلينا بالخيال والصبر فان الامم المتحدة توفر امكانات استثنائية في هذا الصدد ، امكانات لم يفد منها بعد الافادة كاملة » .

واقترح فالدهايم « عقد مؤتمر دولي في شأن الشرق الاوسط » وقال ان هذا المؤتمر « اذا اعد له قد يوفر سبيلا للخروج من الوضع الخطر الذي نحن فيه اليوم » .

من جانبه لم يدخر كاسترو وسعا في شن اعنف هجوم على الولايات المتحدة ، وكان في اشد عنفوانه الثوري في هجومه على اسرائيل والولايات المتحدة والنظام المصري. ولم يتردد في ان يصف حملات اميركا على الشعب الفلسطيني بانها « لا تجاريها غير النازية ... ان اتفاق كامب ديفيد هو خيانة فاضحة للقضية العربية وانه لخيانة لجميع الشعوب العربية بما فيها الشعب المصري ... وان السلام الحقيقي لا يمكن بناؤه على مثل هذا الظلم » .

وعندما جاء دور تيتو في اليوم التالي لبدء المؤتمر (٩/٤) لم يكن ثمة اختلاف اساسي بين ما قاله وما سبقه اليه كاسترو . فبالنسبة للشرق الاوسط انتقد تيتو بشدة اتفاقيتي « كامب ديفيد » واكد « ان المسألة الفلسطينية هي جوهر ازمة الشرق الاوسط ، وان اي حل شامل وعادل يتطلب اشتراك جميع الاطراف المعنية على قدم المساواة بما في ذلك منظمة التحرير الفسطينيـة، وذلك في اطار الامم المتحدة». وقال تيتو ان حلا عادلا في الشرق الاوسط « يجب ان يؤمن انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية المحتلة وتحقيق حقوق الشعب العربي الفلسطيني في اقامة دولته »

فيما عدا ذلك فان كل الاجتهادات عن اختلاف اساسي مع موقف كاسترو انما كانت من قبيل التأويلات .. فحين قال تيتو – مثلا – « اننا لن نوافق ابدا على ان نكون اداة او قوة احتياطية لأي طرف كان، لأن ذلك يتعارض مع جوهر سياسة عدم الانحياز » سارع الاعلام الغربي الى اعتبار هذه العبارة موجهة ضد الاتحاد السوفياتي ... لا غيره (...) ومقصود بها معارضة ما توقعته اجهزة الاعلام الغربي نفسها من ان يطالب كاسترو قمة عدم الانحياز بالاعلان عن ان الاتحاد السوفياتي هو « الحليف الطبيعي » للحركة . وهو تعبير لم يستخدمه كاسترو ولم يستخدمه غيره طوال انعقاد المؤتمر .

والذي حدث بعد، ان الموقف من سياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط – اي من سياسة « كامب ديفيد » وقد تمثل في الاقتراح العربي الذي قدم الى المؤتمر بتعليق عضوية مصر– قد ساد المناقشات وادى الى اطالة امد المؤتمر بصورة عكست بالفعل الجهود المستميتة التي بذلتها الولايات المتحدة مع اصدقائها داخل الحركة للحيلولة دون اتخاذ مثل هذا القرار . وقد استغلت في ذلك ضرورة الحصول على الاجماع ليمكن اتخاذ مثل هذا القرار وتنفيذه . وقد لعب بعض الدول الافريقية بصفة خاصة، الدور الرئيسي في التصدي لاقتراح تعليق عضوية مصر بسبب المعاهدة مع اسرائيل . وكان هذا البعض من اقرب الدول انتماء للسياسة الاميركية بل وصداقة مع الدولة الصهيونية ... ومنها على سبيل المثال السنغال وساحل العاج ومالاوي والغابون وزائير .

كانت هذه الدول الافريقية الخمس – ذات الانظمة المرتبطة بالكامل بعجلة الامبريالية الاميركية او حتى بالنظام العنصري في جنوب افريقيا (حليف اسرائيل) – هي وحدها التي وقفت ضد قرار ادانة النظام المصري بسبب توقيعه على المعاهدة مع اسرائيل . اما يوغوسلافيا التي علقت عليها الولايات المتحدة آمالا كبارا فانها كانت من بين الدول التي اقرت هذه الادانة . وشاركت في تقديم مشروع القرار الخاص بها .

لقد صدر البيان الختامي لقمة هافانا (٩/٩) بادانة صريحة واضحة لسياسة كامب ديفيد واتفاقاتها ، وادانة الدول المشاركة في هذه الاتفاقات . وحتى بالنسبة لتعليق عضوية مصر فان المؤتمر ابقى سيفه مسلطا ، خصوصا ان دولا افريقية عدة اعلنت انها ستعيد النظر في موقفها قبل انعقاد المؤتمر الوزاري المقبل للحركة في نيودلهي في العام القادم .

ولعل من اول ردود الفعل العالمية التي تدافعت بعد انتهاء قمة هافانا ما صرح به الرئيس تيتو نفسه فور عودته الى بلغراد (٩/١٠) من ان القمة السادسة لعدم الانحياز قد تكللت بالنجاح ، وقال « نحن مرتاحون الى نتائج المؤتمر » .

اما الولايات المتحدة « فقد توجت محاولاتها الفاشلة لتفجير مؤتمر عدم الانحياز بتصريح ادلى به

هودنغ كارتر الناطق باسم وزارة الخارجية الاميركية (٩/١٠) وقال فيه : « نحن على خلاف تام مع بعض المواقف التي اتخذت ، واعرب عن خيبة الامل الاميركية من جراء ادانة عملية السلام الاميركية – الاسرائيلية – المصرية في الشرق الاوسط .

وقالت مجلة « نيوزويك » (٩/١٧) – معبرة عن خيبة الامل ذاتها – « لقد نجح كاسترو في تجميع اتفاق في الراي ضد مبادرات السلام الاميركية في الشرق الاوسط والجنوب الافريقي ، وهذا هو بالتحديد ما كان الدبلوماسيون الاميركيون يحاولون تفاديه طوال شهرين متواصلين من العمل في الكواليس مع وزراء خارجية غير منحازين في جميع انحاء العالم . واخفاق هذه الجهود هو نبأ سيء بشكل خاص نظرا لأن قمة عدم الانحياز ترقى الى مستوى مجمع للعالم الثالث عشية الدورة القادمة للجمعية العامة للأمم المتحدة . ولهذا ينتظر ان تواجه مبادرات السلام الاميركية في الشرق الاوسط والجنوب الافريقي معارضة قوية امام المنظمة الدولية » .

وشهدت صحيفة يمينية بريطانية هي الـ « فاينانشيال تايمز » (٩/١٠) بان « حركة عدم الانحياز – رغم الانقسامات العميقة فيها ، ظلت سليمة . وقد تم الحفاظ على الوحدة لأن اغلبية الدول الاعضاء الاربع والتسعين اصرت على اجراء تعديلات رئيسية في كل من الجزاين السياسي والاقتصادي للوثيقة النهائية للمؤتمر » .

اما مجلة « يو . اس . نيوز اند وورلد ريبورت » الاميركية فكانت اصرح في التعبير عن حقيقة النتائج التي اسفر عنها الصراع الحاد بين الولايات المتحدة من ناحية وحركة عدم الانحياز في هذا المؤتمر من ناحية اخرى . فقد قالت بوضوح وايجاز (٩/١٧) « اذا كانت الولايات المتحدة هي الخاسر الاكبر في قمة هافانا ، فقد كان كاسترو هو الرابح الاكبر فسوف يكتسب كزعيم لحركة عدم الانحياز خلال السنوات الثلاث التالية مكانة زائدة في الامم المتحدة . فان جزءا من مهمته كرئيس لحركة عدم الانحياز هو تقديم تقرير عن منجزات القمة الى الجمعية العامة هذا الخريف . وكذلك فانه كزعيم لمنظمة تمثل ما مجموعه حوالي مليار ونصف مليار نسمة ، يستطيع ان يطلب من الدول الاعضاء مساعدة حركات التحرير . وليس مما يقع خارج نطاق صلاحيته ان يمهد لمواجهات جديدة في الشرق الاوسط وفي افريقيا ، اوبورتوريكو، وبمساندة من دول عدم الانحياز ضد الوجود البحري الاميركي في قاعدة غوانتانامو » .

وانتهت المجلة الاميركية الى ان « صانعي السياسة الاميركية تنتظرهم الآن قرارات صعبة اذا ارادت ان تتجنب مواجهات مع العالم الثالث . والمسؤولون الاميركيون يسائلون انفسهم :

■ كيف تستطيع واشنطن ارضاء مطالب العالم الثالث بان تعيد اسرائيل الاراضي المحتلة الى العرب وان يصبح للفلسطينيين دولة مستقلة ؟

■ هل هناك طريقة تستطيع بها الولايات المتحدة اجبار الحكومة الجديدة في روديسيا ، على تلبية الشروط التي تطلبها الجبهة الوطنية ؟

■ هل سيوافق كارتر اطلاقا على الجلاء عن القاعدة الاميركية في « غوانتانامو » (كوبا) وعلى وقف الحظر الاقتصادي المفروض على كوبا ؟

■ اي تغييرات في النظام الاقتصادي الدولي تستطيع الولايات المتحدة ان تقبلها ؟

وقد ربط بعض المراقبين ما اعلن في الولايات المتحدة عن « اكتشاف » قوة مقاتلة سوفياتية في اراضي كوبا قوامها حوالي ٣٠٠٠ جندي برغبة الولايات المتحدة في التشويش على كوبا قبيل ايام من بدء اجتماعات قمة هافانا . والدافع ان توقيت اثارة هذا الموضوع ، الذي بدا وكانه سيكرر ازمة الصواريخ الكوبية الشهيرة التي نشبت بين الدولتين الاكبر في العام ١٩٦٢ ، هو الذي اوحى بهذا الربط لانه سبق اجتماعات هافانا باقل من اسبوع واحد .

ومع ذلك فان ثمة تفسيرا آخر لا بد من اخذه بالاعتبار ، وهو علاقته بمعركة انتخابات الرئاسة الاميركية ، خاصة وان اول من اثار امر وجود القوة السوفياتية كان هو السناتور فرانك تشرتش، رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الاميركي . واشارت مجلة « نيوزويك » (٩/١٠) الى ان تشيرتش المعروف بانه من « حمائم » زعماء الكونغرس ، يواجه تحديا خطيرا من اليمينيين في ولايته « أيراهو » وهي اشارة قد تفيد انه معني بتغيير صورته امام ناخبيه . فضلا عن وضع الرئيس كارتر امام اختبار جديد يسبق انتخابات الرئاسة .

وكان ثمة تفسير ثالث يفيد بان اثارة امر وجود هذه الوحدات « القتالية » السوفياتية في كوبا انما يتعلق بالمناقشة الجارية في مجلس الشيوخ الاميركي

بشأن التصديق على المعاهدة الثانيــة للحــد من الاسلحة الاستراتيجية (سالت ــ ٢) بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وقد ادت اثارة هذا الموضوع ــ والمناقشة قد دخلت مراحلها النهائية ــ الى تقوية حجج مناهضي هذه المعاهدة في مجلس الشيوخ واحراج مؤيديها .

وايا كانت التفسيرات التــي قدمــت لاثــارة الموضوع ، والتفسيرات التي قدمت من الاعــلام الاميركي للدوافع السوفياتية لوضــع قوة قتالية في اراضي كوبا ، فان حالة توتر جديدة قد نشأت في العلاقات السوفياتية ــ الاميركية ، حتى على الرغم مما تكشف مع الوقت عن وجود هذه القوة من وقت سابق يرجع الى بداية ولاية الرئيس كارتر في العام ١٩٧٦ . وتجدر الملاحظة هنا بان ادارة كارتر ابدت حرصا على ان يتحول امر هذه القوة السوفياتية في كوبا الى ازمة كبيرة مع الاتحاد السوفياتي . وقد صرح هودينغ كارتر الناطق باسم وزارة الخارجية الاميركية (٩/٢) بان هذه القوة « لا تشكل في الوقت الحاضر خطراً على امن الولايات المتحدة » « ولكننا قلقين جديا بالنسبة لهذا الوجود واثرنا مع السوفيات مسألة العلاقات الاميركية ــ الكوبية ، ولا زلنا نتابع هذه القضية معهم » . واضاف الناطق قائلا : ان هذا الوجود العسكري السوفياتي في كوبا لا يشكل خرقا للاتفاقات المعقودة بين خروشوف وكيندي عام ١٩٦٢ ، على اثر ازمة الصواريخ، فان المراكز الارضية ليست موجودة في الاتفاقات الثنائية المعقودة مع السوفيات .

سمير كرم

فيصـــل دراج

الفلسطيني بين الواقع والوهم الـروائي
"في روايـة جـبرا ابراهيم جـبرا"

والارض تبدأ من نسيج الجرح ــ اشبهها
وامشي فوق راس الرمح ــ تشبهني
وامشي في لهيب القمح .

محمود درويش

اللاجئون مثل شارع طويل . طوله عشرون سنة ....
ولكن هل تعرفون من الذي يمشي فوق هذا الطريق ؟ .

غسان كنفاني

يقول جبرا ابراهيم جبرا في روايته « السفينة » : « من عادة كافكا في مذكراته ان يصف تجربة ما ، ثم يعود فيصفها على نحو أخر ، ثم يكرر الوصف على نحو ثالث ، ويستمر في ذلك أحيانا لأربع أو خمس مرات . لعله يحاول كل مرة أن يوجد لتجربته الوصف الأفضل ، الذي يعتقد أنه لن يحققه بمحاولة واحدة ، فيكررها . ولكنه يبدأ كل مرة على نحو جديد ، وما يسهبه من تفصيل في المحاولة الواحدة يوجزه في المحاولة الأخرى مسهبا في ناحية أخرى ، وهكذا . وبذلك تصبح المحاولة الواحدة لا تغني عن الاخريات ، بل تكملها . ص : ٢١٨ » .

يقتفي جبرا في تجربته الروائية آثار كافكا ، ويستعيد في رواياته ــ مذكراته موضوعة واحدة وشخصية واحدة ويطلقهما في فضاء روائي تتجدد مياهه باستمرار . يتجدد الوصف والمقاربة ويبقى « الأصل » واحداً . يغتني الأصل فنيا دون أن يبارح مهده ومقامه الخاص . وفي هذه الاستعادة المتجددة تكمن قيمة جبرا ابراهيم جبرا الفنية وتكمن أيضا مأساته وحدوده . فعندما يستعيد « الأصل » يمارس فنه الروائي ويجدده ويدفع حدوده الفكرية والفنية الى آفاقها الممكنة ، وعندما يستعيد « الأصل » يعبر عن ثبات البداية لديه وغربته عن التطور الحقيقي لمسار الشعب الفلسطيني . تمكث مأساة جبرا وأوهامه في شكل البداية الثابتة التي تدور حول نفسها و « تنسى » حركة المجتمع والتاريخ ، وبداية جبرا ونهايته هي « الأنا المطلقة » التي لا تعرف إلا نفسها وهما ، وفي معرفتها الواهمة تقارب المسار الفلسطيني فتضل الطريق رغم عشقها للوطن ومجاهدتها للحديث به .

يدخلنا جبرا في تجربته الروائية الأصيلة الى عالم المتعة الجمالية ، ثم يجنح به الخيال فيحاول أن يعيدنا الى أرض الوطن . فينجح في محاولته الأولى ويسقط في محاولته الثانية . يسقط وينجح وتبقى المتعة الجمالية عاجزة عن إنكار ايديولوجيتها ، وفي اللحظة الاخيرة وفي

شكل النهاية يتراجع البعد الجمالي ، ويطفو على السطح المقال الأيدولوجي الذي يعرف البداية ويتيه في آلية التحويل الفني ليعطي في النهاية « فلسطينيا » نقرأ عنه ولا نعرفه لأننا لا نصادفه في حياتنا اليومية .

صراخ في ليل طويل ـ تحقق الأنا

« صراخ في ليل طويل » هي رواية الذات.أو الأنا التي يحكم تطورها تطور الرواية . فمن البداية إلى النهاية يتزايل الزمان والمكان ولا يبقى في مساحة القراءة إلا « **الأنا** » التي تكتشف وتعيد اكتشاف ذاتها . قد تشي السطور أحياناً بملامح الزمان دون أن تصل إلى المكان الذي يبقى مغيبا . و« البطل » هو البداية والنهاية وما خلاه صدى واه يشير إليه وينير حركته ، ومع ظل « البطل » تغيب جميع العلاقات الأخرى بما فيها الزمان والمكان .

تتحدد الذات في كل سطر ويتصاعد التحديد حتى يغيب المجتمع والتاريخ وتنطمس الحركة الاجتماعية ، فنقرأ المجتمع والتاريخ في مملكة الفرد ولا نصل لا إلى المجتمع ولا إلى التاريخ . يخترق « البطل » زمانه كشعاع لا يعرف الانتشار ، يبدأ من ذاته ويعود إليها حتى نتساءل في حيرة عن سمة المجتمع الذي ينتمي إليه هذا « البطل » ثم يكف السؤال حين يعلمنا « المقال الروائي » أن « بطله » في خصوصيته لا ينتمي إلى مكان ولا يخضع في عليائه إلى الحركة التاريخية .

البطل هو « أمين » ، صوت ريفي ، من القرية جاء ، وفي المدينة عاش تجربته وارتقى ، فبلغ أبواب « البرجوازية » ، وتابع ارتقاءه صعداً فبلغ قلب القصور الارستقراطية ، وبعد معاناة المدينة التقى بنفسه من جديد لقاء بلا فراق لأنه لم يغادر ذاته أبداً .

ذات تدور حول ذاتها ، وفي دورتها الذاتية تلغي دلالة التجربة على الرغم من حضور التجربة . لا تعيد التجربة إنتاج الذات بل تكشف عن قدراتها الكامنة . أن التجربة ذات دلالة للانسان من حيث هو **علاقة اجتماعية** أما عندما يكون هذا الانسان « **جوهراً يتحدد بذاته** » فـان التجربة تفقد معناها وتستحيل إلى فضاء محايد تقيس فيه الذات ظهلا ، و« أمين » يقترب من الجوهر في سماته : « ها هو ذا أمين سماع قادما يحمل وجهاكوجه المسيح .ص: ٣٠ » . وبهذا الوجه الملائكي ينتقل الأديب والصحفي « أمين » من مرتبة إلى أخرى ، و« ينشق عبير الثروة . ص : ١٣ » ويصعد « مدرجاً مرمريا أنيقاً » . تحبه « سمية » البنت « الموسرة » ، وتدعوه الارستقراطية « عنايت هانم » كي يكتب تاريخ أسرتها المنقرضة ، وأخيرا تقترب منه فتاة العصر « ركزان » فيصدها بعد أن طرد « سمية » أيضا . بعد عثار الجريمة يستعيد جوهره ويذهب في طريق الاستقرار « لم يكن من العسير علي ، حين حدقت في عيونهم ، أن أدرك أن الكثيرين منهم كانوا هائمين على وجوههم ، كما كنت هائما لسنتين مريرتين ، يبحثون عن نهاية لليل طويل وبداية لحياة جديدة . ص : ٩٥ » .

السؤال هنا هو كيف يهيم الجوهر ، وكيف يضيع هذا الوجه الملائكي ؟ في الحقيقة ، الجوهر لا يضيع وإنما يعيد تحققه في التجربة ، أي أن التجربة لا تعبر إلا عن خصوصية الذات وتفوقها القائم منذ البداية . إن المنطق الداخلي للمقال الروائي يحدد سمة البطل المنتصر منذ

السطور الأولى بحيث يقتصر دور السطور التالية على البرهنة على الامكانية المجردة الحاضرة في البطل أبداً . معنى ذلك وببساطة أن « أمين » يحمل في قدره سمة الانسان الكامل ، والتجربة في حياة هذا « البطل » لا تشير إلا إلى كماله . لننظر عن كثب إلى مصير هذا الريفي الذي وصل المدينة معدما :

فعلى المستوى الموضوعي يجاوز « البطل » حدوده : «ما أسرعما وجدتني جزءاً من طبقة اجتماعية جديدة . ص : ٤٦ » / « بعد أن قضيت سنوات المراهقة أعالج الكلمات ، اكتب كل يوم شيئا مهما هزل شأنه ، كتبت كتابين ، فحدثت المعجزة . وإذا انا بين عشية وضحاها موضوع الكلام والنقاش . ص : ٤١ » .

أما على المستوى الذاتي فـان هذا القروي يحتضن الجمال بأسره : « وتتفجر الشمس أحيانا بألوان مترفة من بين الغيوم بعد همي من الغيث ، فتنصب خلال النافذة المزدوجة على الكنبة حيث استلقت سمية فتانة في شبه عريها ، ونهداها سافران ، والموسيقى تنطلق من الغراموفون كسيل من خيالات العشاق . ص : ٢٨ » .

إن أيدولوجيا « الانا » لا تحكم مضمون « صراخ في ليل طويل » فحسب بل تحكم أيضا حركة الرواية ونهايتها ، فالحركة تتم بين شخصيات صماء مبهمة تحاور « البطل » أو تتيح له محاورة ذاته ، وهذه الشخصيات مبهمة بالضرورة لان دورها الوظيفي هو إنارة شخصية البطل وإيضاح أبعاده الفكرية والنفسية لكن هذه الأيدولوجيا « الأناوية » . « لا تأخذ كل مداها وأثره في الفعل الروائي إلا في النهاية . ففي نهاية الرواية تعود « سمية » إلى أمين بعد غياب طويل وبلا سبب ، فيطردها أمين رغم شقائه في انتظارها ، وفي النهاية أيضا تدمر « ركزان » قصرها وتأتي إلى أمين الذي يرفض ربط مصيره بمصيرها . إن شكل النهاية هنا لم يتحدد بالتطور الموضوعي للفعل الروائي بل تحدد بأيدولوجيا إرادوية مهووسة بتأكيد الانا وانتصار الذات ، وعلى هذا فان شكل النهاية لا يشير إلى طبقة انقرضت أو إلى حب بعث من جديد بل يشير فقط إلى انتصار « البطل » وتجاوزه للوسط الذي يتحرك فيه .

يبقى هناك بعض الأسئلة ، أما كان في مكنة الكاتب رغم أيدولوجيته « الاناوية » أن يحدد ملامح الزمان والمكان ؟. إذ أن غياب هذا التحديد جعل الرواية تفقد خصوصيتها وهويتها . شيء أخر : أما كان جديراً بالكاتب أن يشير إلى الحركة الاجتماعية في فلسطين في زمان الفعل الروائي ؟ . فكما أعلم ، والكل يعلم ، أن فلسطين عرفت شيئا اسمه الاحتلال البريطاني ، وعرفت أيضا ومنذ بداية هذا القرن شيئا اسمه المشروع الصهيوني ، وعرفت بالتالي سلسلة من النضالات البطولية لشعبنا . إن الايدولوجيا القائمة على الانا ، على ما يبدو ، كثيفة وقائمة ، وفي كثافتها ومناخها تعجز عن رؤية التاريخ والحركة الاجتماعية والنضال الوطني !!

صيادون في شارع ضيق ــ الفلسطيني المندمج/الرؤية الاستشراقية

يصل جبرا ابراهيم جبرا في روايته الثانية « صيادون في شارع ضيق » الى مرحلة جديدة ، ينتقل من اللاتحديد إلى التحديد : المكان « بغداد » ، والزمان زمان النكبـة

(١٩٤٩) ، والمجتمع محكوم بصراع بين « الشعب » وسلطة تجنح إلى السقوط . وعلى ضفاف المجتمع وفي قلب طبقه منه يقف الفلسطيني « جميل فران » . في البدء يقف جميل على تخوم الدائرة ، وبعد حين ينقله وضعه الاجتماعي « أستاذ جامعة » إلى مدار « طبقة جديدة » ، ينسج معها العلاقات ، ويمارس الحب ، ويعيش تجربة الحب والتحدي وينتصر ....

تسير الرواية في حمولتها الثقافية الخاصة ، وتتطور في قدر الفلسطيني الباحث عن « مكان تحت الشمس » وفي ديالكتيك الانا والثقافة المغتربة يحاور المقال الروائي العالم : يسائل المكان والزمان ، ويرسم رجل المدينة ورجل البادية ، يحاور « خلاصة القوم » ورعاع الشارع ، يقابل الغرب بالشرق ، ويناظر بين ثقافتين « لا تلتقيان » ، ويحاول مناجاة الكون والتاريخ ورصد « الكون الانساني » الصغير .

تفرض كثافة الرواية « صيادون ..... » قراءة موائمة لها ، تضاعف القراءة وتدفعها إلى قرار النص لتعرف ما يقول ، تدفعها من الصريح إلى المضمر ، ومن الظاهر إلى القاع . وقد تضاعف القراءة من جديد كي تكون قادرة على تملك كل مستويات الرواية . إن قراءة الصريح لا تظهر إلا العارض ، ولا تجلي إلا حركة الحدث الروائي في تطوره الخطي : « جميل فران » مثقف فلسطيني غادر أرضه بعد أن دفن فيها الانسان الذي أحب « ليلى » ، وجاء إلى العراق ليعمل استاذ جامعة حيث التقى بـ « سلافة » العراقية وأحبها ، ورغم التحديات والفروق الاجتماعية والدينية فان جميل يحظى بـ « سلافة » التي تعوضه عن حبه المفقود وتشكل امتداداً له .

لا تقول هذه القراءة شيئا ، لأن قراءة المقال الروائي لا تبدأ من الفعل الروائي بل من الشكل الأيدولوجي الذي يحكم هذا الفعل في حركته ودلالته وتكونه الفني ، أو بمعنى آخر : تحت أي شكل أيدولوجي قام الفعل الروائي في فنيته ، وما هو أثر هذا الشكل على التطور البنياني العام للرواية ؟. لا يفصح هذا الشكل الأيدولوجي عن ذاته في مقال الرواية المباشر بل في الآثار الأيدولوجية التي تنتجها الرواية وتقدمها كأثر أيدولوجي إيجابي .

إذا وضعنا الصريح جانبا ، وحاولنا قراءة رواية جبرا في مستوياتها المتعددة ، فاننا نبدأ من حيث يبدأ الكاتب . والكاتب يبدأ من مقولة الأنا ، من « جميل فران » . إن « جميل » في القراءة الروائية لا يتقدم « إنسانا » أو « ذاتا » أو « فلسطينيا » فحسب بل يتقدم أيضا كعلاقة أيدولوجية ــ فنية . وهذا الانسان ــ العلاقة لا يحمل في حركته أيدولوجيا واحدة بل سلسلة من الأيدولوجيات : أيدولوجيا الانا (الذات فوق التحديد الاجتماعي) ، أيدولوجيا دينية ، أيدولوجيا أوربية كولونيالية ، وهذه الأيدولوجيات الثلاث تترابط وتتداخل في إطار تصور مثالي للعالم ، أي أن تصور البطل للعالم هو تصور مثالي ذو ثلاث مركبات متداخلة :

ــ أيدولوجيا الأنا تحدد حركة « جميل » في المجتمع وتقدمه ونجاحه إنطلاقا من جوهر البطل هذا وسماته الخاصة .

ــ الأيدولوجيا الدينية تحكم حركة البطل كرسول أخلاقي أو كنبي صغير « ينير أرواح الآخرين » : عدنان ، حسين ، توفيق ... » ، وينقذ « سلافة » من سجنها واضطهادها .

أيدولوجيا كولونيالية تحكم موقف البطل من الشرق والغرب وتجعله مدافعا عن الثقافة الأوربية في شكلها الكولونيالي .

تحدد هذه الأيدولوجيا علاقة البطل بواقعه الاجتماعي وبأرضه فلسطين كعلاقة وهمية . وهم موضوعي لا إرادي ، فـ « جميل » يعتقد صادقا أنه يرتبط بوطنه وبقضيته وعروبته ، لكن هذا الصدق المحدد بثقافة مغتربة وبأيدولوجيا فردية يغرق الصدق في الوهم ، ويحيل « البطل » إلى ذات تبحث عن مصيرها الفردي ، ويجعل منها مبشرا للأفكار الغربية وآثارها المهدمة .

والآن ، كيف نبرهن على ما نقول ، وكيف تأخذ الأيدولوجيا السابقة تحديداتها المادية ؟. تكمن الاجابة في سطور الرواية . لنرجع إذن إلى الرواية .

لم يلغ التحديد المكاني والزماني للفعل الروائي خصوصية « جميل » في تفرده وعلوه ، وهو في تفرده يتابع سمات « أمين » بطل « صراخ في ليل طويل » بشكل جديد واكثر تحققا ، وفي متاهة الذات المتحققة تضيع جميع الدلالات الاخرى .

تلازم صورة الوطن مسار « جميل » كندب جرح قديم ، كطيف أو ذكرى أو كحلم تولى . وطن ــ ذكرى أو وطن ــ ذاكرة مسكون بالجمال والروعة : « مدينة واحدة أذكرها ، اذكرها طيلة الوقت . تركت جزءاً من حياتي مدفونا تحت أنقاضها . ص : ١٥ » . ما هي هذه المدينة التي تصبو إليها ذاكرة البطل ؟ : إنها القدس أو صورة معينة للقدس : « قدس الفضة ، يا قدس الذهب ، قدس الزمرد والبنفسج ...... يا قدسا سماؤها ياقوتة لا تنتهي . ص : ١٠٣ » ، « وراحت شوارع القدس تنسرح كلها أمامي ،...... ، وتسكب وهج الفضة والذهب . ص : ١٠٤ » .

إن « قدس جميل » هي قدس الذهب والفضة والزمرد والبنفسج والياقوت . والذهب والفضة والمعادن الثمينة الأخرى عملات كونية، والكوني لا يتحدد بمكان أو زمان بل يتحقق بمعزل عنهما . وفي إطار الكونية والاستبدال يتوارى طيف « ليلى » التي دفنت تحت الأنقاض ويأخذ واقع « سلافة » مكان الطيف ، والطيف ظلال أثيرية والواقع حاضر محدد القسمات . ويستبدل « جميل » أخيراً ذهبا بذهب وتدخل « ليلى » في « عباءة » سلا فة : « تلك الليلة حلمت أنني رأيت ليلى مرتدية عباءة سوداء كبنات بغداد . ص : ٤٢ » ، « وتابعتني عينا سلافة مثلما كانت تتبعني يد ليلى الميتة . ص : ١٢٤» . يستمر جميل في صدقه ووهمه ، وهمه هو التعلق بتراب الوطن ، وصدقة هو أحلامه الفردية . يمزج الوهم بالصدق ولا يدري . لكن شكل علاقاته يعيد ترتيب العلاقات ، يتضاءل الصدق ويطفو الوهم ساطعا . الوطن ومأساته بداية الحياة والرواية ، وبعد البداية يدخل زمن آخر يلغي الزمن الأول . لذلك تنتهي حكاية الوطن في الصفحة « ٢٨ » . ينتهي الوطن وتبدأ حياة البطل الجديدة : « بعد الظهر أدرت المروحة ونمت . ص : ٢٨ » . تطرد المروحة وهج الظهيرة وصهد الذاكرة ، قد تطفو يد « ليلى » المهشمة أمام العين ، لكن الطيف لا يحرف المسار الذي يعرف نهايته :

ــ « أريد أن أتعرف على شعرائكم ، وصحفييكم ، وسياسييكم ورساميكم . ص : ٣٩ » .

ـ « قلت لنفسي إنه لا وقت عندي لغير عملي وجهدي من أجل إعادة بناء وجودي ، وإعادة التكامل لحياتي . ص : ٨٦ » .

يبدأ « جميل » مساره من أجل استرجاع التكامل المفقود ، وهذا المسار لا يحجب عنه صورة الوطن وأصداء الماضي وبؤس شعبه :

ـ « انتشرت أصابع ليلى الصفراء كالحاجز أما عيني . ص ٥٣ » .

ـ « هناك في وطني مليون من الناس يملأون مخيمات اللاجئين ويساورهم القلق على رغيف الخبز . ص : ١٩٩ » .

لا يشير هذا التناقض الى نزوع « البطل » إلى مصالحة الفردي والوطني بل يشير إلى آلية الوهم الذاتي الذي يحاول أن يعطي العلاقة الحقيقية ، لأن هذه العلاقة في شكلها الحقيقي تتحدد في علاقات « جميل » الاجتماعية لا في تصوراته الأثيرية :

« ودارت بي سلمى لتعرفني بضيوفها الآخريـن : انكليزيين اثنين ، وأمريكي من سفارة الولايات المتحدة مع زوجته ، وفتاتين شديدتي الحماس عادتا للتو من الدراسة في إحدى الجامعات الأمريكية . ص : ١٠١ » . وتصبح الصورة أكثر وضوحاً عندما نعـرف الشخصيات الاخرى التي تحدد الحقل الاجتماعي لحركة « جميل » : « سلمى » زوجة رجل إقطاعي ، إمرأة « متأنية » لا تتحدث إلا بالانكليزية ، أحمد الربيضي رجعي يدافع عن العلاقات القبلية والنظام الملكي ، « عماد النفري » إقطاعي آخر ، يدافع عن كل التقاليد البالية ، « برايان » انكليزي باحث عن حمامات الشرق وسحره ....بالاضافة إلى شخصيات لا ينتجها النص الأدبي إلا كشخصيات فولكلورية تضيء قامة البطل من ناحية وتنطق باسم « التخلف والغياب الحضاري » من ناحية ثانية (حسين ، عدنـان ، توفيـق ، عبـد القادر ..) .

يتحرك « جميل » بين المركز والتخوم ، بين الصفوة و« الصعاليك » دون أن يقارب الجسم الحقيقي للمجتمع . يندمج في المركز ويتكامل ، ويرضي في التخوم رؤيته الاستشراقية و« فضوله الحضاري » . لكن حركته الأساسية تبقى محكومة بالمركز : « ذهبت مرتين أو ثلاثا ، ولكنها لم ترق لي . كل أولئك الناس من كبار الموظفين ورجال النفط والوزراء والدبلوماسيين ، ومن لف لفهم ، واللغة الانجليزية هي لغة الحديث . ص : ٧٦ » .

يدخل « جميل » في تحدده الثقافي والنفسي إلى وسط اجتماعي موافق ، يرى نفسه فيه ويحقق ذاته في حقله . فالوسط الجديد هو مرآته التي يرى فيها مستقبله وحاضره بشكل صاف ، وخاصة انه يملك الامكانية و« الكمون » للانتقال إلى هذا الوسط والتوائم مع لغته وآفاقه . إن هذه العلاقة بين « البطل » وشرطه الاجتماعي الجديد ليست علاقة اكتشاف وتعرف بل علاقة توائم وتوافق وتجاذب متبادل .

ينزع « البطل » إلى عالمه الجديد مدفوعا بثقافته وتطلعاته ، لكنه ينزع إليه بسرعة أكبر بسبب أيدولوجيا المقال الروائي التي تجعل انتصار الذات قائما فيها منذ البداية وقبل الممارسة دون اعتبار لأي تحديد اجتماعي وظرفي ودون نظر إلى شكل البداية : « عندما وصلت إلى بغداد

كان لدي ستة عشر ديناراً . ص : ٩ » . تبدأ الرواية بهذه الجملة ، وبعد حين تنتقل الـ « ستة عشر ديناراً » إلى فضاء « الدبلوماسيين ورجال النفط والوزراء وكبار الموظفين » تدخل عتبة الاندماج وتسلك الطريق الذي يلغي البداية ، ولكي يكون الدخول متكاملا يصل « البطل » إلى سلافة التي ترمز إلى صفوة القوم وأجنحة النظام الملكي : « لقد رأيت الفقيرات يفضن زرافات من أحيائهن الشعثاء ويجلسن على الأرض وأكوام الروث . أما أمثال سلافة فلربما تجمعن في حدائق بيوتهن لسماع الراديو أو ربما لعزف اسطوانات التانغو والباسو دوبلي القادمة من أمريكا اللاتينية . ص ٢٠٤ » .

تقدم الأيديولوجيا الارادوية التي تحايث الرواية مسار « جميل » كتتويج لانتصار « روح الذات المقدسة » لكن القراءة النصية تهتك قناع أو أقنعة الوهم الأيديولوجي وتنقل البطل إلى مستوى آخر . إن « جميل فران » هو نموذج الفردية الانتهازية المتزلفة التي تتاجر بثقافتها وتقدم الخدمات وتتوسل الاعتاب الارستقراطية وتلغي دلالة الوطن . بل يمكن أن نقول إن **القيمة الفنية** لشخصية « جميل » تكمن في قدرتها على رسم الوهم الفردي والتبرير الذاتي واغتصاب المعايير الذاتية البحتة لمقام القيم الموضوعية وعلاقاتها بالواقع وحركته .

يقول مقال الراوية ما لا يقوله الراوي ، تشي علاقات النص بفكر المؤلف فتتلاشى النوايا الصادقة ويبقى الأثر الأيديولوجي الذي يسخر في تحدده المادي من فلسطينية « جميل فران » ويشير إلى الوضع الأيديولوجي للراوي . إن الوضع الأيديولوجي للراوي لا يحدد فقط فكر شخصياته (مضمون النص) بل ينعكس بالضرورة في التسجيل الفني لهذه الشخصيات . يرسم موقع هذه الشخصيات في الراوية والواقع ويحدد موضوعيتها ووظيفتها الروائية . وعلى هذا فان شخصية « جميل فران » لا ترسم علاقة اللاجىء بأرضه ، ولا حنينه إلى القدس « ذات التربة الحمراء » بل ترسم فردية فقدت تميزها الوطني واندمجت في وسط اجتماعي يدخلها إلى عالم « الحياة اللذيذة » . كذلك فان الشخصيات الأخرى (عدنان وحسين وبرايان وتوفيق ...) لا تأخذ دورها إلا كصدى للبطل أو كمرآة يرى فيها ذاته ويحاور هذه الذات . فـ « عدنان » مثلا شخصية ضرورية لابراز ظل البطل ودوره كمنقذ ، خاصة إذا عرفنا أن عدنان هو ابن عم سلافة ، وكان عاشقاً لها ، وتوفيق بدوره ابن عائلة غنية وذات سطوة يود الزواج بـ « سلافة » أيضا . وهذا يعني أن جميل قد هزم هاتين العلاقتين الاجتماعيتين ومهد طريق الدخول الكامل إلى المجتمع الجديد ، لكن هذه الهزيمة لا تنتج العداء بل تتم في إطار الحوار والمصالحة ، وهنا تظهر من جديد السمة النبوية لـ « جميل فران » .

أما « برايان » الانجليزي المولع بسحر الشرق فهو ضرورة للبطل كي يقيم معه الحوار والتواصل الفكري والثقافي ، فبين « برايان » و « جميل » علاقات تداخل وتشابه في المفاهيم وتصور العالم ، يرى كل منهما امتداده في الآخر ، فيتحاوران ويحاوران مجتمعا غريبا لا يثير فيهما إلا الغرابة والاندهاش والتعالي والاحتقار والتعاطف الأخلاقي . ثقافة تحاور أخرى وتطردها كنقيض ينتمي إلى زمن آخر . تعبر الرؤيا الاستشراقية التي يحملها جميل / برايان عن ذاتها في الطريق التي ترى بها المجتمع وتلتقط تفاصيله :

ـ « كان ثمة رجل عاري الجذع يتدلى ثدياه السمينان كأثداء الزنجيات الغضينات الجلد . ص : ٣٢ » .

ـ « مررنا حين دخلنا برجل مستدير الكرش . ٣٦ » .

ـ « كان قد خلع ملابسه ويقول شيئاً بالانكليزية لخادم ذي كرش ضخم . ص : ٤٧ » .

تبدأ الرؤيا الاستشراقية بالانسان في شكله الخارجي الذي يخدش « عين الحضارة » ، وبعد أن تستهجن الانسان وشكله تنفذ إلى فكره وثقافته ، فتتحدث بحضارة « الجوامع ومراكز الشرطة . ص : ١١٩ » . ثم تصل إلى المدينة فتكشف زيفها ومراوحتها في « التقاليد القبلية الشريرة . ص: ٥٨ » .

في الاندماج يضيع « جميل » أصوله الفلسطينية وفي « الاستشراق » يضيع أصوله العربية ، ويعيش واقعه الاجتماعي مثل « سائح بين العرب » لا يلتفت إلا لما يرضي ذاكرة أوربية كولونيالية قرأت عن « الشرق » في كتب تاريخها ثم جاءت إليه لتتأكد من صحة معلوماتها فعادت مرتاحة الخاطر والضمير . يرى « جميل فران » « عجائب الشرق » في أشكالها اللامتناهية ، يرى المرأة الجميلة المسجونة في قفصها الذهبي (ص : ٢١٥) ، و« الشراقوة بعماماتهم الملوثة وقمصانهم الملطخة بالعرق (ص : ١٦٢) ، و« ندب مقتل الحسين وجماهير النساء والرجال التي تمزق الشعر وتلطم الصدور . ص : ٦٣ » . والشاب الذي يقتل أخته دفاعاً عن شرفه (ص : ٥٦) ، والعبد المحروم الذي يحاول اغتصاب سيدته (ص : ٢٢٠) وأجواء الحمامات وبيوت البغاء وخدم الفنادق ذوي الأقدام الجميلة ....

يرسم « جميل » المجتمع من وجهة نظر السائح الأوربي المتحضر ويتمادى في وصفه حتى نتساءل أيهما « جميل » الفلسطيني وأيهما « برايان » الانجليزي ، ويعلو صوت الاحتقار حتى نتذكر صفحات الرحالة الأوربيين التي تمتهن كل ماله علاقة بالشرق : « شظية رخامية لامعة تؤرخ بالخط المسماري غزواً دموياً : إلا أن الشظية ملقاة على الدرب ، والكتابة مغطاة بروث الحمير ... شيء مخيف . ص : ١٣٤ » . في إطار الاستشراق وتصادم الحضارات تتحدد شخصيتا الانجليزي والبدوي ، « برايان » و« توفيق » ، الأول وعد الحضارة والعقلانية والثاني وعيد التخلف والاظلامية . مقالان ينفي أحدهما الآخر . إن الفكر المغترب الذي يحكم البنيان الروائي هو الذي فرض شخصية « توفيق » البدوي كي يجعل منها شخصية ـ مناسبة ، تنطق باسم التخلف أمام الحضارة ، تخلف وحضارة وجسر بينهما ، التخلف هو توفيق ، والحضارة هي « برايان » ، والجسر هو « جميل » الذي يفهم لغة الانجليزي ولا يفهم لغة البدوي .

« توفيق » شخصية ـ مناسبة ، تخرج من كلية الحقوق وغاب من جديد في صحرائه : كيف يصف جبرا هذا البدوي ؟

يقول توفيق « القصص والرسم والموسيقى ، ليست إلا من اختلاق المدنية » و« كل فنان ، كل كاتب قصة ، كل روائي ، إنما يطعن بخنجره المسموم جسم الحياة السليم لأنه

يخدم قضية « المدنية » . وما المدنية ؟ إنها كما يدل اشتقاق الكلمة ، حياة المدن . والمدن تنتعش على حساب الريف ، بعيداً عن المصادر الحقيقية للطاقة الانسانية . ص ٩٦ » ، وبعد أن يحدد « البدوي » موقفه من مصادر الفن يطالب بالعودة إلى .. الشجاعة والشرف . ص ٩٨ » ، ويهاجم مفهوم الزمان لانه غربي وله علاقة بالانتاج والعربي لا يهتم لا بالزمان ولا بالانتاج « أما أنت فتحمل جرثومة مرض غربي : الخوف من الساعة ... ولم ينتج عن ذلك إلا التأكيد الكريه على العمل ، الانتاج ، التحصيل . ص : ٢٠٦ » .

وفي حوار طويل تقابل حضارة الفن والروح نقيضها التي تزدري الفن ولا تعرف الروح ، ويتمثل الشرق / العرب في شخصية هذا الجامعي البدوي الذي يلبس عباءة ويجهل معاناة الروح ، ويشتري المرأة ، و« يشرب كأس الماء دفعة واحدة » ، ويكره الحب لانه « مرض قادم من الغرب . ص : ٢٠٨ » ، « اذهب وقل لسلافة إن توفيق رجل شريف . إنه يريد من زوجته أن تكون مستديرة الوجه ، ضخمة العجيزة ، ولا خيالات عندها عن الحب . ص : ٢٢٩ » .

لا يخفي المقال الروائي هويته ، فهو يتماثل بـ « برايان » الذي يمثل شخصية ـ مقالا ، ويترك آثاره الثقافية صريحة ـ مصخرة في كل سطور الرواية . فالمقال الروائي منذ البدء حتى النهاية محكوم بشكل ثقافي مغترب يحدد الفكر واللغة والاسلوب :

ـ تأملت قدمي شابو وتذكرت تماثيل **ميكيلانجلو** .

ـ شاهدت مشهداً كان **سونيبرن** حريا بدفع المال لرؤيته .

ـ تصور أن يكون هناك أناس يرغبون في سماع محاضرة عن **بايرون** بالعربية :

ـ فتات تشبه **اليزابت باريت** ، بل انها مثلها شاعرة أيضا .

ـ « لقد تصورتها فتاة تشبه **إميليا فيفياني** ، مسجونة « كالطير في قفص » .

تقوم رواية « صيادون في شارع ضيق » ، إذن ، على موضوعتين : الفلسطيني المندمج والتصور الاستشراقي للواقع ، وهي لا تتضمن هاتين الموضوعتين فحسب بل انتجتهما في شكلهما الفني . إن الأيدولوجيا الثلاثية الأبعاد التي تحكم الرواية استطاعت أن تنتج معادلها الفني وأن تقدم نموذجا حقيقيا للثقافة المغتربة . ولكن أين أخفقت الرواية ؟. أخفقت الرواية في تقديم صورة حقيقية عن الحركة الاجتماعية ونضالها ضد السلطة الملكية ، فهي لم ترسم هذه الحركة إلا من الخارج وبشكل سطحي وساذج (انظر شخصية عدنان مثلا) . إن عجز المقال الروائي عن رسم الواقع الاجتماعي قائم في الأيدولوجيا التي تحدد حركته ، فأيدولوجيا الأنا المغتربة تستطيع أن ترسم حركة الأنا وتصادم الشرق والغرب لكنها لا تستطيع أن تعبر عن الواقع الاجتماعي الحقيقي المحدد بمركباته الحية والمشخصة لأن علاقتها به لا تتحدد إلا كعلاقة فراق .

السفينة ـ الفلسطيني والذوبان في الكون

في « السفينة » يقود جبرا فلسطينيته في رحلة تأملية تنفتح على المطلق ، فيطل علينا « وديع عساف » من عالمه الرؤيوي ملفعا بالسحاب ووشاح المغامرة ، وتحدق العين في

السحاب والوشاح باحثة عن مساحة الوجود الفلسطيني فلا تعثر إلا على ترجيع الموج وألق البحر وجمالية الكون . يبتعد الفلسطيني في لا تناهي الكون ويتزايل في دوائر « الحب ، والشبق ، والغيرة ، والعبث ، والايمان » . وفي دوائر الظلال وعبق الفلسفة تبحث القراءة عن سمات « وديع عساف » وتنظر تائهة إلى جراح « فايز عطا الله » الشهيد . وبعد أن تجوب القراءة أرجاء السفينة برموزها الكونية تتخلى عن بحثها التقليدي وتدرك أنها في حضرة فلسطيني من نموذج خاص .

يخلق جبرا فضاءه الروائي ، وفي عملية الخلق يبني واقعا اجتماعيا وذاتا فلسطينية ، يبني واقعا يتمايز عن الواقع . وبين الواقع وصورته الفنية مسافة يحكمها الخيال وتبنيها الكتابة ويرشح فيها الوهم أيضا . وفي هذا الواقع المرسوم فنيا نحاول البحث عن **الفلسطيني العادي** . لكن البحث عنه يرتطم بمزاج الخيال وقدسية الكتابة ورؤيا الكاتب وتصوره للعالم ، يرتد البحث حسيراً ويتنازل عن فلسطيني الواقع ويقف أمام **فلسطيني الكتابة** .

كتابة جبرا رحلة مبرقشة وبحث متناء ، تنطلق من الحبر والورق وخيال الراوي ، تذرع كهوف النفس والماضي ، وتجوب مواطن الجمال وطقوس الحروف ، إلى أن تصل إلى نهايتها أو إلى أن تصل إلى النهاية المكتوبة في بدايتها ، كتابة تبدأ وكتابة تنتهي ، وفي دائرية الكتابة الملونة لا يتحقق الواقع في صورته الفنية بل يتحقق صرح الكتابة الذي يخلق واقعه المغترب عن الواقع المعاش . والكتابة هنا حركة متناغمة لا تعرف إلا تناقضها ، فتنفي أي تناقض آخر وتنساب في علاقاتها الفنية . كتابة يتناءى فيها الواقع أو يتعالى.أي يزول ليحل مكانه واقع الكتابة الوهمي .

تقف « القراءة الواقعية » أمام ملكوت الكتابة متسائلة ، ثم ما تلبث أن تكف عن التساؤل وتضع الواقع بين قوسين في انتظار النهاية . تبحر القراءة مع « السفينة » كي ترى ما هو مقال الرحالة . يقول جبرا في سطور روايته : « وفي النهاية يكتب الرحالة كتابه وينشره ، ونقرأه نحن بلغته الأجنبية لنعرف شيئا جديداً عن أنفسنا ، لنعلم اين بعضنا منا : ص : ٨٦ » . سنستعير هذا القول الجميل من جبرا ونعيد صياغته فنقول : إن رواية « السفينة » كتبت بأحرف نعرفها وبلغة لا نعرفها ، لغة أجنبية لا نرى فيها ذاتنا بل نرى ذات الآخر ، وبعد أن ننظر إلى ذاته وذاتنا ندرك مسافة الاختلاف . فنحن نعرف حروف جبرا الفلسطينية لكننا لا نعرف لغته لأنها لغة رحالة ، نعرف الحروف فنشاركه أشواقه والحنين إلى الوطن وبعد الحنين وبسببه نفترق عنه لاختلاف الهموم والرؤيا . فمن أين يبدأ الرحالة ؟

في دائرية الرؤيا تنعدم البداية عند جبرا كما تنعدم النهاية ، فكل نقطة هي بداية ونهاية ، وهل يعرف الجوهر معنى البداية والنهاية ؟ . وفلسطيني جبرا هو جوهر متوحد يدور حول ذاته ويعيش عالمه الذي ينفي عالم الحركة . ذات لها منطق خاص تحن إلى الوطن وهي على ظهر سفينة تمارس اللذة . هذه إحدى لحظات الفلسطيني وديع عساف :

« أقيمت حفلة الرقص . كانت جاكلين بين ذراعي في خفة الريح ، وعندما اشتدت الموسيقى الحاحا ووحشية ، ارتمت على صدري كأنها تبغي أن تندس بين عظامي . ذكرت فايز . ذكرت الصخور . ذكرت الموت والميلاد . وفمي يمسد شعرها القصير ، ويتحسس إذنها

الصغيرة . وإذا هي تسحب إذنها عن شفتي وتهمس ضاحكة « أوه ، إنك تثيرني . هل حقا تفكر بي ؟ » . ص : ٧٥ .

تتحدد في هذا الفضاء علاقة **الذكرى بالوطن** ، وتتجلى صورة الوطن ــ الذكرى متناثرة في عالم : جاكلين / الرقص / الموسيقى / الصدر / الفم / التحسس / الأذن والشعر و« الأوه » .

تشكل هذه الصورة صورة ــ مفتاح لشكل علاقة الفلسطيني بالوطن ولكن أين الوطن ومن هو وليد عساف ؟. لنعود إلى البداية .

يتحقق الفعل الروائي في سفينة تمخر المتوسط غربا ، سفينة تنأى عن الشرق وتتجه إلى نابولي ومرسيليا ولندن ... وفوق هذه السفينة يحمل « وديع » ذكرى الوطن ويستعيد صورته تحت زذاذ القمر : « القدس أجمل مدن الدنيا على الاطلاق ، قيل انها بنيت على سبع تلال . لست ادري إن كانت تلالها سبعة ، ولكنني ارتقيت كل ما فيها من تلال ، وهبطت كل ما فيها من منحدرات . ص : ٢١ » ، « لذلك فان الليالي قد تأتيني بذكريات من القدس فأحزن ، واغضب ، وابكي . ص : ٢٢ » ، « ولكن بربك من يستطيع أن يصوغ كلاما هو خبرة ثلاثين سنة في مدينة هي أجمل مدن الله ؟ محاولاتنا الابداعية ليست إلا مسكنات مؤقتة . هي نوع من البكاء . ولكن لا شيء في الحياة يعوض عن الدموع الساخنة . ص : ٢٢ » . ولما كان المكان دلالة فان « وديع » لا يذكر الوطن إلا ويذكر معه صديق الطفولة « فايز عطا الله » الذي استشهد بين يديه ، فصورة « فايز » تسكن « وديع » وتلازمه وتتحدد كحضور مستمر فيه : « لقد قتل صديقي وأنا عند رأسه أعجز من امرأة ، أعجز من طفل . وغابت الشمس غير حافلة بالمدينة الجريحة ..... ثم انطبقت الشفتان على خيط من الدم يسيل من زاوية الفم ، وبقيت العينان تحدقان في أسوار القدس كحجرين متلألئين . ص : ٧١ » .

يرسم الفعل الروائي ، إذن ، علاقة المنفي بوطنه وحضور هذا الوطن بأصدائه المتعددة في ذات المنفي . وكي نعرف شكل هذه العلاقة ودلالاتها وتميزها علينا أن نحدد الوسط الاجتماعي الذي تمور فيه هذه العلاقة وعلينا أن نعرف أيضا خصائص الذات المتذكرة التي لا تكف ذاكرتها عن الهجرة إلى الوطن ــ الماضي :

ــ « قد يبالغ المرء في بعض مشاعره بفعل الظروف المحيطة بما يرى : بفعل الليل والبحر والقمر والويسكي واستسلام النفس في السفينة . ص : ١٠٠ » .

ــ « كان في الجنون القمري شيء من كآبة ، ولوعة ، وهول ــ وشيء من حب مبهم مشترك بيننا . لقد انجذبنا جميعا إلى ركننا القصي ، ... ونحن نتحدث عن الجزر الاغريقية ، وعن لعب الورق ، وعن الانتحار ... ص : ٩٨ » .

من هم أصدقاء وديع عساف الذين يعيشون عالمه والذي يعيش عالمهم ؟ هم الدكتور فالح المنتمي إلى ارستقراطية منقرضة وزوجته لمى ، الفرنسية جاكلين ، والايطالية إميليا فرنيزي ، والاسباني فرناندو ، وعصام السلمان .

إذا سألنا عن شكل الثقافة التي يحملها هؤلاء والخط الذي يحكم حوارهم واهتماماتهم ، فان الجواب لا يتباطأ بل يأتي سريعا ليزيد اللوحة إنارة ووضوحا :

ــ « أتعرف صورة القديس يوحنا المعمدان التي رسمها بوتيشلي ؟ قلت من ؟ . بوتيشلي . رسام إيطالي من رسامي النهضة . ص : ٥٦ » .

ــ « وقال : لا، أية طريقة منطقية ؟ »

طريقة توما الاكويني ... كنت أظن أن الايمانين متشابهان . طبعاً ، يتوقف ذلك على فهمك للفلسفة . برغسون مثلا يضع الحدس الشعري فوق البرهان العقلي . ص :٩٤ » .

ــ « وإذا لمى ، التي كانت في الصبح تتحدث عن توما الأكويني ، والتي كانت أسماء دستويفسكي وابن العربي والبوت تتطاير من حديثها رغم الضحك .... ص : ٩٩ » .

ــ « وتجادلني في آرائك الماركسية حول الصلة بين مادة البناء وتطور الأسلوب من فيدياس إلى كريستوفرزن إلى لي كوربوزيه وبازل سبنس . ص : ١٦٦ » .

يتمحور الحديث إذن حول هموم الروح وينأى عن اليومي المباشر و« المبتذل » ويقذف بنفسه في عالم أزرق مسكون باللوعة والانتحار وتعالي الفن ، يتراجع اليومي في قتامه ويطفو على سطح العين والذاكرة قول الفن والايمان والايمان الشعري ، يظهر النحت اليوناني وموسيقى باخ الكنائسية ومقال روسو عن الدولة ، بل يمتد الحديث الى التطور الخلاق عند برغسون وبرهان الايمان عند توما الأكويني . وفي هذه الصورة الثقافية المتعالية أو هذه الصورة الثقافية الكولونيالية يجد وديع عساف مكانه ، فهو جزء من اللوحة والايمان الشعـري، ويظهر اللوحة الميتافيزيائية جزء منه ، لذلك فلا يمكن أن يكون إلا انعكاسا لــ « سفينته » وعلاقة كاملة فيها . علاقة تتحدث بالمطلق وتنأى عن أشياء الحياة اليومية أي علاقة متعالية يتداخل فيها النحت بالموسيقى والرسم بالجمال والكتابة بالعشق والرحلة بالتجارة ، فمن هو « وديع عساف » ؟ وهل هو فلسطيني كالآخرين ؟ :

ــ « لقد ذكرني بالكثير من الطلاب الفلسطينيين الذين عرفتهم في انكلترا : ص١٩ » .

ــ « هل قلت أن الفلسطينيين كلهم شعراء ؟ إنهم في الواقع تجار . لقد اقفلوا قلوبهم على الشعر ، وانصرفوا إلى التجارة ، في كل مكان . وأنا ، كما ترى ، واحد منهم . أسعى في سبيل القرش ألف ميل . ولكنني ادوسه بقدمي في النهاية . المال على كندرتك . ص : ٢٣ » .

ــ « غير انني لا أفلح دائما في الابتعاد عن « الشر » . الشر ، إذا كان معناه مزيداً من الحياة ، يجتذبني أحيانا كالمغناطيس . ربما لأنني أكثر من مرة حييت الموت عن قرب ، فحياني وفات عني . ص ٤٩ » .

ــ « سأبحث عن امرأة عرف عنها أنها منجبة . أرملة ما ، ربما . سأزرع ولو الفجل . وسأرسم . سأرسم كثيرا . سأرسم صخورنا وأشجار الزيتون ، وجدران الحـواكير ، وقروياتنا بفساتينهن الزرقاء والبرتقالية و« حطاتهن » البيضاء الصافية ... تعالى زرني هناك ، والبس حذاء ضخما ، لأني سأمشي بك في الوعر ، والطين . طبعا سأزود نفسي بألف اسطوانة موسيقية . فيفالدي وباخ وتلمان وجو سكان دوبري ، وبرامز ، وسيبيلوس ، وسترافنسكي، وموسيقى إلكترونية حديثة . ص ٨٩ » .

ــ « كنت أراني أقول ، يمشي نحو فوهات البنادق ، والمدافع ، وتعجز كلها عن إصابته . ص : ١٠٥ » .

يتحدد الفلسطيني في زمن اللجوء ، إذن ، بالشعر والرسم والتجارة ، والحنين إلى أرض خصبة جميلة يعيش فوقها « اكتشافاته » و« ثقافته المعاصرة » .ونتساءل هنا هل وديع عساف فلسطيني أم انه شأن صديقه عصام السلمان يشبه « لورداً انكليزيا متنكرا في زي اعرابي . ص ٤٦ » . إن هذا « التنكر » والتماثل بالثقافة الكولونيالية لا يلغي فلسطينية وديع

عساف ولا يحل الفلسطيني في اللورد لكنه يقدم فلسطينيا خاصا يحب الأرض حسب منطقة ويتوق إليها وفقا لرؤيا معينة تتوافق مع شرطه الاجتماعي وتصوره الفلسفي للعالم .

إن « وديع عساف » في تحدده الثقافي والاجتماعي لا يعيش غربته في المستوى اليومي المباشر ، بل يعيشها على مستوى الوعي ، فهو ليس الفلسطيني اللاهث وراء الرغيف لكنه ذاك الذي يساوي بين المال والحذاء ، لذلك فان فلسطينيته لا يمكن إلا أن تكون انعكاسا لوضعه الاجتماعي والثقافي ، أي أنه يعيش مسألة الأرض في وعيه وتأملاته . **يصبح الوطن قضية فلسفية** . لقد حقق « وديع » ذاته في كل حقول الحياة ولم يبق أمامه إلا محاورة المطلق والنزوع إلى الكمال الانساني الذي يتجلى في عناق الفن والفلسفة ، وفي هذا العناق المتعالي يصبح الوطن لحنا وتصبح الأرض منبع إلهام للرسم ويتحول الماضي الى ذكرى تطرح مسألتها في حقل الزمان والذاكرة .

ينزع وديع إلى المغامرة الكونية ، إلى احتضان العالم وتمثل تجارب الوجود ، وتجارب الوجود زاخرة ومنها تجربة الوطن والغربة . والوطن تجربة عبرت وعلى الوعي أن يعيد صياغتها ووضعها في حقول تجاربه كي تصبح مصدر تفلسف وإثراء للوعي : « بعض التجارب يحملها المرء طي إهابه كالمرض. كفرصة لا تميت ولا تندمل . ص : ١٥ » . يرجع هذا المنطق المتسق مع ذاته « مسألة الوطن » إلى تجربة ذاتية ، وبين الوطن ــ القضية والوطن ــ التجربة مسافة شاسعة لا يعرفها ، ولا يستطيع أن يعرفها ، فلسطيني من نموذج وديع عساف .

يتضمن الوطن / التجربة الفردية نفيا للآخرين وقطعا معهم ، فالشعب الفلسطيني يعيش مسألة سياسية ونضالية ، أما « وديع » الفرد المطلق فيعيش مسألة فلسفية ــ نفسية لذلك فهو يحل « عصابة » في السفر والترحال : « أين يهرب الانسان ؟ فقلت إلى الموج . ص ٩٦ » . يدور الفرد حول تجربته ، والتجربة هي الماضي ، وبين الحاضر والماضي تقف الذاكرة التي تعيد تنضيد العلاقات .

تسكن صورة الوطن وعي « وديع » ، وفي هذا الوعي المغترب عن واقع شعبه تأخذ الصورة تحولاتها ، فهي حاضرة ــ غائبة لكن حضورها غياب لأنها لا تحضر ــ كما قلنا ــ إلا على مستوى الوعي . **فالوطن حاضر ابدأ كذكرى** ومجال للتامل ، والحضور الذكرى بغير ملامح الصورة حتى التلاشي : « إنما الشيء الحقيقي هو ذكراي له . الذكرى تتحول إلى ما يشبه الموسيقى . تبتعد الوقائع عنك في دهاليز الزمن ، وتخلف أمواج النغم في ذهنك . ص : ٢٤ » ، الوطن ــ الذكرى علاقة فكرانية تبدأ وتنتهي في محارب الأناء وتستمر وتتطاول دون أن تلمس الواقع أو تقترب منه : « قبل سنين كثيرة كتبت شيئا عن أجراس الذاكرة وهي تجلجل في كهوف جوفية ، صامتة صمت الزمن السحيق الذي يلف تاريخ الانسان .... هذا المساء ، والشمس على وشك المغيب ، عبرت بي أحدى تلك التجارب الرؤوية التي يكاد يكون الكلام عنها مستحيلا . ص : ٨٣ » . يذوب الوطن في الوعي وفي حدود التأمل ، لا بل يصبح هما كونيا يضاف إلى الهموم الكونية الأخرى : الموت ، الزمان ، الانتحار ... وهذا يعني أن الوطن بتحديده التاريخي والجغرافي يتزايل وتحل مكانه صورة الوطن كمفهوم فلسفي ــ اخلاقي . والمسألة الفلسفية الميتافيزيقية لا تجد حلها في الواقع بل في حقل الوعي والمقولات الفلسفية .

تتمحور الفردية المطلقة حول ذاتها ، تكتفي بذاتها ، تجمع العالم فيها وتقصي هذا العالم ، ترمز الوطن وتلقيه وراء ستائر الغيب والضباب ، أي يصبح وطنها قائما فيها ، بل

يجمع بها الوهم والوعي المغترب فتماثل ذاتها بالوطن : « طفولتك ترافقك ، ولكنها ما عادت جزءاً منك ، إنها هناك بعيدة عنك ، مع ذلك الموج في اقصى الأفق ، في الجزيرة التي تراها في بحر أحلامك . ص : ٢٠ » .

في ملكوت الموسيقى والبحر والثقافة المغتربة تختلف دلالة الأشياء ، يخضع هذا « الملكوت المغترب » الوطن والأرض إلى عملية تحويل مستمرة تلغي الدلالة الحقيقية لهما وتقصيهما عن مسرح التاريخ لتقذف بهما في فضاء الكونية والمطلق . ما معنى هذا ؟ معنى هذا ان خصوصية الفلسطيني تتلاشى ويتلاشى معه في ذات الوقت الوطن وقضية الوطن ، يتحول الكل إلى حزمة مقولات ومفاهيم ومشاعر تبحث عن تحققها في الكون لا في النضال اليومي من أجل الوطن . ورواية « السفينة » زاخرة بالهموم الكونية إن لم تكن هي ذاتها رمزاً كونياً : « هذه الزرقة هي الشيء الوحيد الذي يلطف من غربتي . ص : ٢٧ » ، « بعد ان يزعم المرء ما شاء له الزعيم ، يبقى الوهم امرا لا محيد له عني ، كأنه يقول : ارفع الوهم ، تسدل الظلام . ص : ٨٤ » ، ينوب الوطن في زرقة الكون وينفتح الوعي ليرمي بنثاره في فضاء السديم ،، يتماهي الانسان بالكون ويجر في إيمانه الشعري الخالص ، إيمانه نقي لا يؤمن إلا بطرفين هما الذات والكون : « أكثر الفلسطينيين مهووسون بالبراءة التي فقدوها . ص : ١٠٨ » ، « إيمانها ، كايمان وديع ، شعري بحت . ص : ٩٢ » .

من الوطن كعلاقة موسيقية نصل إلى الفلسطيني المفجوع ببراءته ، ومن الايمان الشعري الأزرق نصل إلى التصوف في الوطن ، أو إلى الوطن كسحر غامض يساكن الألغاز السحرية الأخرى ، المهم أن المقال الروائي في السفينة لا يتعامل إلا مع المجرد والغامض والسحري والخفي ، وكيف لا وفلسطيني السفينة فلسطيني لا نراه ، فلسطيني يتدثر بلغته الأجنبية ويتلفع بالاشارات والرموز إلى أن تشظى في مدارات التصوف والوهم والحلول : « العالم الذي ننسحب إليه ، في نظري ، ربما كان أعمق حقيقة من عالم الواقع . ص : ٧٨ » ، « المسيح يلازمني ، حافيا ، كبير القدمين ، تقطر أصابعه الطويلة بالمعجزات ، وهو يكاد لا ينطق . ص : ٨٤ » .

نعود الآن إلى البدء ، وفي البدء تكمن النهاية ، والبدء فرد مطلق لا يتحدد إلا بجذره ، والفرد المطلق جوهر يتعامل مع جواهر أخرى ، والوطن جوهر آخر وعلاقة فلسفية . لكن المنطق لا يشب عن طوقه ، فهو يساير مجراه منسقاً وخاصة عندما ترسمه ذات مثقلة بالفن والثقافة كحال جبرا . إذا كانت البداية في الفرد والوطن محددة برؤيا فلسفية ـ مثالية فان هذه الرؤيا لا تكتمل إلا بوجهها الضروري الآخر : الرؤية الاخلاقية التي ترجع « فساد العالم » إلى صراع الخير والشر ، والخير هو « وديع » والشر طرف آخر ، و« وديع » مسكون بالمسيح والآخر مسكون بالابالسة . لهذا فان مأساة « وديع » تتضمن سلسلة من الترابطات الاخلاقية أولها اللعنة وآخرها الحب . لنر ماذا يقول المقال الروائي :

ــ « لعنة واحدة هي أوجع اللعنات : لعنة الغربة عن أرضك . ص : ٢٧ » .

ــ « لماذا لا أرى إلا مجازر بشرية أكافح لكي أنجو منها . فلا أنجو إلا إلى أماكن كلها خرائب وقانورات ؟ . ص : ٨٢ » .

ــ « بطل الصراع أن يكون سياسيا . إنه شيء آخر ، والتسمية السياسية برقع مفضوح . ولن تؤدي إلا إلى المزيد من العذاب والبراقع المفضوحة . ص : ١٤٦ » .

يبدأ القول باللعنة ، وكلمة « لعنة » في مقالها الديني ترتبط بالخطيئة الأصلية . ولكن ما علاقة ضياع الوطن بالخطيئة الأصلية ؟ وهل يرجع الوطن بالصلاح واستئصال الشر ؟. مع ذلك فالذات الأخلاقية لا تخطيء سبيلها فهي لا تنجو من مجزرة إلا وتصل من جديد إلى مساحة القذارة و« الديدان » . أليس هناك كلمة أخرى غائبة في هذا المقال ؟. على أية حال من يبدأ بالموج ينتهي إلى التيه ، ومن يبدأ باللعنة يصل إلى الرجس والطهارة ، وفي تحديدات الرجس والطهارة تصبح السياسة شراً و« برقعا مفضوحا » ومصدراً للعذاب . ولكن كيف يود « وديع » أن يرجع إلى الأرض « التي تسكنه » ؟ .

المقال الأخلاقي هو مقال الذات الباحثة عن حل فردي وسبيل الذات المتفردة . وكيف لا يكون « وديع عساف » فريداً ومتوحداً ؟ وكيف لا يتعاطف مع الدكتور فالح المنتمي إلى ارستقراطية بائدة ؟. لكن الجواب لا يتلكأ فهو حاضر في تفرد « وديع » وخصوصيته اللامتناهية التي تجعله دائما « خارج القطيع » : « في الصميم نحن وحيدون . ص : ٢٧ » . في الصميم نحن وحيدون ، بهذه الجملة يلخص « وديع » وضعه وينتهي ، وينتهي معه الكثير من الأسئلة ، على أية حال فنحن نقرؤه ولا نراه ، ولا يمكن أن نراه لأن حضوره لا يجاوز جدران وهم خالقه . يبقى سؤال أخير . كيف يؤمن بالسلاح من كان في قراره وحيداً ومزدريا للسياسة وتفسخ العالم ؟. « لقد خيل إلي ، رغم تكتمه ، إنه يشارك في نشاط خاص يعمل على تحشيد فدائيين منتخبين وتدريبهم للتوغل وراء حدود الصهاينة . ص : ١٠٥ » . ألا يتنافى العمل الفدائي مع مفهوم الخطيئة ؟. أما أنا فلا يصد عني الام الخطيئة شيء . ص ٤٧ » .

« وديع عساف » « بطل » أضاع وجهه وتميزه الوطني وعوضهما بتميز فردية جامحة ، لكن هذا التميز الفردي في وهمه يضيع في كونية زائفة ، والكونية الزائفة ليست إلا الوجه الآخر للتبعية أو التماثل الواهم بالحضارة الغربية ، تماثل من أضاع ذاته ويحث عنها في فضاء الغير فأضاعها من جديد .

عندما ندرس القول الأيدولوجي في رواية « السفينة » فـانما ندرس الاثر الأيدولوجي الناتج عن علاقاتها الفنية ، وهذا يعني بالضرورة التمييز بين العلاقة الفنية وأثرها الأيدولوجي . و« السفينة » عمل فني هام من حيث هي كل متجانس ومتناغم من العلاقات المتداخلة التي تحاول تجسيد فكرة الجمال والبحث عن تحقق الذات الانسانية ، وعلاقات هذه الرواية غنية خصبة ، يضاعف كل منها الأخر ، أي أنها علاقات تلد من علاقة ــ فكرة : الجمال : فالسفينة علاقة ، والبحر علاقة ، والموسيقى علاقة ، وكذلك حال الوطن والفلسطيني . فالفلسطيني يحايث الموج والموسيقى الوطن ، والسفينة والزمان ... وجملة هذه العلاقات الفنية تتحدد فيما بينها بأثر متبادل محكوم بالفكرة ــ المفتاح : الجمال . لذلك ووفقا لمنطق الرواية الداخلي لا يمكن للفلسطيني إلا أن يكون جميلا ولا يمكن لمعاناته إلا أن تكون على مستوى السفينة والقمر واللوحة .

« السفينة » كل مغلق من العلاقات ، وفضاء جمالي مكثف بذاته ، وعندما نقول كلا مغلقا نعني بذلك أننا ندرس الرواية ونقومها وفقا لاتساقها الداخلي وترابط علاقاتها دون أن نقارن بينها وبين نموذج واقع خارجها ، لأنها في ذاتها موضوعا أنتجه الخيال الروائي .

وخيال جبرا في غناه ورحابته قادر على صنع الموضوع الجمالي وإنتاجه . لكن هذا الفضاء الجمالي المغلق الذي أنتجه الخيال الروائي يهتز عندما نقارنه بنموذج خارجه ، عندما نشده باتجاه الواقع ، وعندئذ يحتاج الخيال الروائي إلى كلمة أخرى تلحق به دون أن تلغيه وهي : الوهم الروائي . وفي ديالكتيك الوهم والخيال نتذوق المتعة الجمالية في « السفينة » ونبحث عن الفلسطيني الواقعي دون أن نجده لأن فلسطيني « السفينة » هو علاقة فنية في علاقات فنية أخرى .

البحث عن وليد مسعود ـ المطلق وبطل الذاكرة المثقوبة

يستعير جبرا في روايته الأخيرة أبطاله السابقين : « أمين » و« جميل » و« وديع » ، يستعيرهم ويمزج بينهم فيخلق بطلا ذهنيا ـ تركيبيا جديداً اسمه « وليد مسعود » . يتابع جبرا موضوعة رواياته فيعيد بناء ما بنى ، ويدفع البناء الى الاتقان والابهار ، يستعيد « سفينة وديع عساف » ويرسو بها في حديقة وارفة الظلال ، حديقة ـ مثال ، تجسد واقع طبقة وفكرها ، وتشخص واقع الطبقة في أوهامها وحقائقها وحدودها الممكنة والمجردة .

« البحث عن وليد مسعود » بحث طبقة عن هويتها الضائعة وانتمائها المفقود ، فتعثر عليه في السديم ، ثم يتطاول عجزها فيستبدل فكرها الواقع بالسديم ، ويقيم فيه مملكة البطولة المفقودة والنقاء المستحيل . ويمتد الصوت الفلسطيني ويعلو ويمارس البطولة في زمن نسي معنى البطولة ، يمتد الصوت ويعلو ويهتك صمت الواقع وعجزه ، ويظهر العجز عارياً . وفي حقول البطولة والعجز والعراء تطلق الطبقات الساقطة خيالها في السديم باحثة عن بطولة مستحيلة . في « البحث عن وليد مسعود » يبدو الزمان واضحاً ثم يغترب لأنه يجهل طبيعة عصره فيتيه في « عوالم النفس البشرية » ، ويفصح المكان عن هويته ثم يتزايل في سيولة الذاكرة . يجهل السديم دلالة الزمان والمكان ولا يعرف إلا البطل المطلق .

« في البحث عن وليد مسعود » نعيش عالم « بطل فلسطيني » صنعته الذاكرة في حركتها الانسيابية المتدفقة التي تتبع زمانها الخاص وتكسر منطق الزمان الفيزيائي . « وليد مسعود » بطل ضيعته الذاكرة في حركتها الدائرية التي ترفض مفهوم البداية والنهاية ، تبدأ من حيث تشاء وتنتهي حيثما تشاء ، تحج إلى الماضي في زرقته الصوفية ، وتحوم قليلا في الحاضر لتلقي نفسها بعد قليل في أحضان « الغيب » والمستقبل . وفي النهاية يتحدد « وليد » في لعبة الذاكرة وهوسها ببناء العلاقات الفنية التي تقترب من الواقع تارة وتنفيه تارة أخرى . ومهما اقترب « وليد » في حركته من الواقع فانه يظل رهينة للعبة الذاكرة لأنه ليس بطلا واقعيا بل تركيبيا ذهنيا . تصنعه الذاكرة وتتوق إليه النفس دون أن تصله لأنه البطل ـ الحلم .

بطل فلسطيني الأصول ، يتحدى زمانه ويتعملق فيجاوز المعقول ويصبح رمزا . إنه المطلق الذي يختفي دون أن ينتهي والذي ينتهي دون أن يختفي لأنه دائم الحضور . إنه الكلي والشامل الذي عرف جماع المعرفة والفن والفلسفة والتجربة الحسية . مطلق متعال لأنه لا يعرف إلا الجمال فكيف يتحدد هذا الصوفي الغامض ؟. كيف يتحدد وليد مسعود ؟.
نقول : إنه الكامل الذي يتحرك في مملكة الجمال ، والمثال الذي يعيش في « كهف » لا ترقى إليه

الذات الانسانية . وقبل أن نصل إلى دلالة « البطل » سنحاول أن نرى ما يقوله الراوي في حقل البطل الجمالي وصفاته الكلية .

مملكة الجمال : في عالم المثال الصوفي يختفي القبيح ويشرق الجمال مشيرا الى طريق الشمس والأبدية :

« ربما استطاع أن يتحدث عن إمكانية إيجاد التوازن في الفن ، في الدين ، في **التوحد بالجمال** ـ على طريقة بعض قدامى المتصوفين (ص : ١٤)/ **فان الجمال** ، في النهاية ، هو الأهم ، كان يقول . التأمل فيه ، كتأمل الصوفي في ذات الله . ص : ١٤/ مازالتا تلهجان **بذكر جماله** أيام طفولته ص : ٥٤/ كانت ماجدة من أبرز بنات دورتها **لجمالها** . ص : ٥٧/ سوسن عبد الهادي . اعطني امرأة بهذا **الجمال** الهادىء . ص : ٧٢/ فالتفتت ريمة إلى وليد ، تألقت عيناها تألقا غريبا وقلت لنفسي : ما هذا **الجمال** الرهيب . ص : ٧٥/ وانطفأ الألق في عينيها ، وهي أمامنا ، **أشبه بمريم المجدلية** . ص : ٧٦/ وبانت ريمة في ثوب عرسها ، أشبه بملاك من ملائكة فجر عيد الميلاد . ص : ١١٠/ كانت جنان صديقة حميمة لامرأة أخرى **جميلة** . ص ١٤٠/ وفي حوزتها (مريم الصغار) كل ما تتمناه المرأة من أسلحة : **جمال** الوجه والجسد . ص : ١٤٦/ ولكنني جعلت أحب أن ، لبساطتها **وجمالها** . ص : ٢٠٩/ هذه المرأة (وصال) الممشوقة الجسد ، المرسلة الشعر على الكتفين **كستارة من ذهب** . ص : ٢٥٧/ .

يتحرك وليد في عالم من الجمال الخالص الذي لا يعرف البشاعة أو القبح أو البؤس ، لهذا فانه لا يمكن أن يكون إلا علاقة جمالية في سلسلة علاقات جمالية أخرى : جمال المال والثقافة والجاه و ..... فما هي تلك العلاقات الجميلة الأخرى التي كان يعيش فيها « وليد مسعود » ؟ . من **مملكة الجمال** ننتقل إلى ممالك اخرى :

« وهكذا يسترسل الحديث في ليلة حارة من ليالي الصيف إلى ساعة متأخرة ، في الحديقة الكبيرة الهافة بالنسمات ، والماء يثرثر على مهل من عدة نوافير منتشرة حولنا ، مع الكونياك ، والجميلات (من زوجات وغيرهن) ، وموسيقى الباروك ، الصادرة عن الستيريو الياباني ، تقضي على الفروق الشكلانية والزمانية بين بغداد وحواضر الدنيا ، قديمها وحديثها . ص : ٢٠٣ » ، « الحضارات كلها هنا ، على هذه المائدة في نسائنا هؤلاء، في كلامك انت ، وانت ، في أصوات الفلوت والهاربسيكورد ، في المقام العراقي ، في لوحات جواد سليم وفائق حسن المعلقة على الجدران . أليس رائعا اننا نستطيع أن نتذوق كل ذلك دفعة واحدة ... ص : ٢٠٤ » .

طبقة ثرثارة مترهلة تعيش على هامش مجتمعها وعلى هامش المجتمع الأوروبي الذي تصبو إليه وتبحث عن قيم أضاعتها منذ زمن أو تبحث عن قيم تقرأ عنها ولا تعرفها ، طبقة مصابة بالخصاء تثرثر عن « الغياب الحضاري » وعن « مسرح الحضور » وعن « مقاييس العقل . ص : ٢٠٤ » ، تثرثر وتحلم بثقافة كونية لم تساهم فيها وببطولة لم تمارس إلا نقيضها ، وتبحث في انحطاطها عن تحديد إيجابي للذات بعد أن حددهاالتاريخ سلبا فلا تعثر إلا على لعبة الخيال . وفي النهاية تخلق وهما بطلها الهائل كي يغطي بظله المديد مساحة عجزها اللامتناهي .

والآن ، ما هي اللغة الثقافية التي ترسم « البطل الفلسطيني ــ الحلم » ؟ لا يبخل علينا المقال الروائي بالجواب . فلنر :

ما كدت أتخرج من « كلية بيروت للبنات » (التي بقيت ظلما تسمى على السنة الكثيرين ، جونيور كوليج/ أرسل (هشام) في بعثة إلى جامعة مانجستر/كنا نطلب الحكم أحيانا من سميرة ، أخت كاظم ، بعد عودتها من الدراسة في الولايات المتحدة/ ثم نسافر (جواد) إلى أمريكا لكي أدرس للدكتوراة/جاءتني الأخبار يومئذ وأنا في أوستن ، تكساس/ كانت ريمة قد درست عند الراهبات / وأنا أعلم أنها التحقت بجامعة ساسيكس بانكلترا للدراسة / ...

السؤال البسيط الان هو التالي : ما هو شكل البطل الذي تنتجه هذه الذاكرة الاجتماعية المترفة والمغتربة ؟ وهل بامكان هذا البطل أن يكون واقعيا ؟ وإن كان كذلك فهل في إمكانه أن يكون فلسطينيا فعلا ؟. إن الذاكرة المغتربة تخاف الواقع لأنه يشي بغربتها ، ودرءا للوشاية تخاطب الواقع من وراء أقنعة ، وقد تتضاعف الأقنعة حتى يصبح البطل لغزاً : « قال البعض انه هاجر إلى كندا ، أو استراليا . قيل انه قتل . قيل انه عاد إلى فلسطين سراً . المهم انه اختفى . ص : ١٦ » .

يقوم إشكال هذا الطبقة المغتربة في مقاربتها لسؤال لا تعرف جوابه أو في طرحها لسؤال تجهل معناه . كيف تقارب المسألةالوطنية وهي تائهه في سديم«الغياب الحضاري »و« مسرح الحضور ». لذلك سنرى أنها أساءت طرح السؤال وعجزت عن معرفة الجواب . أطلقت « وليد مسعود » ثم عجزت عن تحديد سماته ومعرفة مصيره . إن الوطنية بالنسبة لهذه الطبقةلغز،لهذا جاءبطل ذاكرتها ملغزا أيضا . لكنها في وهمها الموضوعي لا تعرف حدود السؤال والاحجية ، ولا حدود الكمال والنقص ، ولا حدود الجمال والقباحة .

البطل المطلق :

كما يطلق البائس خياله في السماء الزرقاء باحثا عن فردوسه الأرضي ، يطلق العاجز عقال ذاكرته باحثا في ربوع الخيال عن بطولته الأرضية المفقودة ، وكلما زاد البؤس تضاعف حجم الفردوس وتطاولت قامة البطل . والفردوس كما البطل الذهني لا ترى كلاهما كيانان مجردان يتحددان في عالم التجريد ويفارقان معايير العالم الأرضي . كلما أصبح الواقع فقيراً زادت خصوبة الخيال وغناه ، لهذا فان الطبقة العاجزة لا تستطيع أن تصنع بطلها إلا بحجم عجزها اليومي المعاش :

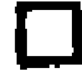
هذا الغريب القادم من وديان مجهولة / أقل الناس أنانية واكثرهم عشقا / التراب يتحول إلى ذهب بين يديه / لكلامه سيولة الهذيان / كانوا يتصورونه داهية من دهاة المال / جذوره الحقيقية في جبال ووديان تغنيه سرا / كان يريد لهذا المجتمع أن يحقق ذاته عن طريق العقل والحرية والابدا ع / كان مدفوعا بنزعة الابدا ع الغامضة / يكتب بحرارة أهل اللاهوت / خيل إلي أن المطر نفسه كان من تدبيره / أمس رأيته عائدا من دار وليد وكأنه عائد من زيارة ولي ، أو بطل اسطوري / اصالته في دخيلة ذهنه ، في خلايا دماغه / أراد أن يقتحم كل شيء /

التصميم واليأس ومجابهة الموت مع معانقة الجمال والروعة ـ أخلط هذه كلها معا ، تتكامل صورة وليد / كأنه وهج حديد مصهور في بوتقة ذكاء ونفاذ بصيرة واتزان/ فـمة العريض يوحي بالعناد والقوة والاغراء / طويلا ، عملاقا ، وعيناه لاتملآن وجهة فحسب ، بل الفرقة كلها ، الدنيا كلها / كل امرأة اتصل بها أصيبت بالجنون ، أو الهستيريا / رجلا عبر الماء ولم يغرق ، عبر النار ولم يحترق ....

إن دراسة صفات « وليد سعود » ترفعه إلى مقام الألوهية وترمز به الى مستوى الكلية ، كلـية المعـرفة ، وكلية الموهبة والقـدرة الحسية والجمـال الجسـدي ، كلية الشجاعـة والغموض والكر م ... ومهما تفرعت الصفات وتنوعت فـان هذاالبطل لا يفارق مستوى الكلية ، أي لا يفارق مستوى التجريد الفكري المستحيل التحقيق في الواقع ، ومع استحالة التحقق الواقعي تصبح نهاية البطل لغزا ، فالالهي لا يموت ، والمطلق لا يعرف الفناء . غامض في بدايته ونهايته ، لهذا ينتقل اختفاؤه من الشرح إلى التأويل : البعض يقول انه مات عشقا ، والبعض الآخر يعتقد أنه ذهب إلى المناطق المحتلة ، ويميل طرف ثالث إلى القول بأنه قتل على أيدي أعداء الشعب الفلسطيني ، ورابع يظن أنه انتحر ... لا نهائية التأويل توازي لا نهائية البطل . وفي النهاية ينجلي الوهم ،فـ« وليد مسعود » لم يغادر الذاكرة التي خلقته : « حتى التخرصات والأوهام حول رجل ما لها أهميتها : وإلا فلماذا اختلفت ، ومن أين جاءت ؟ هل الوقائع دائما مادية ومحسوسة ومعلقة ؟ ص : ٣٧٨ » . فالبطل هو الذاكرة التي تحاول أن نقنع ذاتها بأن مخلوقاتها الاثيرية مادية الحضور : « أعظم السحرة هوذاك الذي يكون مستعدا لان يرقى نفسه بالسحر إلى حد يعتبر عنده مخلوقات خياله أطيافا لها إرادتها الذاتية . ص : ٣٧٢ » . وإذا كان الواقع يبدد الوهم فان الطبقة العاجزة التي خلقت « وليد مسعود » سحراً أعجز من أن تتعرف على حدود وهمها ، فهي على ما يبدو تمارس السحر وترقى إلى مستوى « أعظم السحرة » حين تجعل لـ« وليد » ولداً فدائيا اسمه « مروان » . وهنا لا يظهر فقط السحر المقلوب لهذه الطبقة ، بل يظهر أيضا التراجع الفني عند جبرا ابراهيم جبرا . فالمقال الروائي في « البحث عن وليد سعود » ينهض كله على لعبة الخيال واحتيال الذاكرة ، أي أنه يشكل فضاء مغلقا من العلاقات الفنية التي يحكمها الاتساق . والاتساق هو فضاء المتخيل ، لذلك فانّ خلق شخصية « مروان » كسر هذا الاتساق الفني ونقل التجريد إلى التحديد ، والرمزي إلى الواقعي ، والسماوي إلى الأرضي ، والمطلق إلى المتناهي . وإذا رجعنا إلى رواية جبرا فاننا نجد أن الفصل المعلق بـ« مروان » : « مروان وليد يقتحم أم العين مع رفاقه » هو أضعف فصول الرواية ، ويعود ضعف هذا الفصل إلى خروجه عن المنطق العام للرواية ، عن منطق الحكم وعلاقة الخيال بالمتخيل . يخرج هذا الفصل من فضاء الرواية الحالم ويدخل الى العالم الأرضي فيتنزل كفكرة ويتنزل معه الأسلوب وتضعف اللغة ، تفقد فيه لغة جبرا جمالها وزخرفها وحمولتهاالشعرية . يطرح هذا الفصل في علاقته الروائية أسئلة نسألها أو سؤالا نسأله : لماذا تثقب ذاكرة الفنان في اللحظة التي تثقب فيها ذاكرة الطبقة التي يكتب عنها ؟ . ويصبح هذا السؤال مدخلا لقراءة علاقة الكاتب بنصه وعلاقته بالطبقة التي يكتب عنها .

يوحد السرد الروائي في منطقه الداخلي بين الراوي وموضوعه ، تنعدم بينهما المسافة ،

ويتماهى الراوي بالطبقة التي يكتب عنها ، يتماهى ويخلق فضاءاً روائيا محكوما بفكرتي الجمال والبطولة يتسامى فيه مع طبقته ويحققان رغبات مستحيلة التحقيق . يكتب الراوي حلمه أو يحلم في كتابته فيخلق « وليد مسعود » ، ثم يتمادى الحلم فيولد أحلامه الأخرى ، يأخذ الحلم شكل الواقع وينتج أحلامه الجديدة فيخلق « مروان وليد مسعود » . ومضاعفة الحلم هي كتابة فوق الكتابة أي طمس للكتابة الأولى وإضاعة للحلم الأول ، لذلك تحقق الرغبة الفنية ذاتها في شخص « وليد » وتفقد ذاتها في شخص ولده .



يطرح علينا ، أخيرا ، عالم جبرا الروائي ، سؤاله الضروري : أين تكمن الحدود والفواصل بين الخيال الروائي والوهم الروائي ؟. لا يتحدد الجواب هنا في فضاء جبرا الروائي بل في الواقع الذي يقرأ هذا الفضاء ، فجبرا في كتابته لا يكتب وهماً بل يرسم عالما روائيا ذا قيمة جمالية ومعرفية . يصف طبقة تعشق الوطن وفقا لمنطقها وثقافتها ووضعها الاجتماعي ، وفي هذا الرسم والوصف يطلق جبرا خياله الروائي وينتج جسما فنيا متماسكا ومتميزاً . وعندما يقترب هذا الخيال من الواقع أو يحاول الواقع قراءة ذاته فيه يتحول الخيال عندئذ إلى وهم . فالوهمُ لا يقوم في الخيال الروائي من حيث كل من العلاقات الفنية بل يقوم في شكل العلاقة التي تربط هذا الخيال بالواقع الفلسطيني العام.و يتضاعف الوهم عندما يتماثل الراوي بشخصياته ويرسمها بشكل إيجابي يغوي القارىء بالتماثل معها أيضا ، والتعامل معها على أنها شخصيات واقعية . ورغم الغواية يقوم القارىء بقراءة النص والواقع من جديد ويكتشف الفراق بينهما .

ينتج الفضاء الروائي عند جبرا بكل مركباته الأيدولوجية وتحولاته الفنية شخصيات ثنائية الدلالة . دلالة بالنسبة لجبرا لأنه يتماثل بشخصياته، ودلالة، بالنسبة للقارىء والواقع . دلالتان لا تتواءمان ، لأن أحداهما تنزع إلى الاقتراب من الواقع دون أن تصل إليه، تصل إلى فلسطيني الوهم دون أن تصل إلى الفلسطيني أبدا .

هَاني منــدس

موت حبقــة الصيف

الى أمي

العنيدة الصلدة كالصخر ،
الحنونة كحبق الصيف ،
المتأهبة دوما بابتسامتها
ممددة ، الآن ، على السرير
لا يعنيها ما يدور حولها
وعيناها مغلقتان
محاطتان بهالة من تعب ثقيل .

لأول مرة تقفين على الحياد ،
لا تقومين لاستقبال الضيوف والمعزين ،
لا تستقبلين أبناءك
لا تقومين « بالواجب » .

قتلك الواجب ،
والشيب وتجاعيد الهم
انهكامقاومتك الباسلة .

ايتها العنيدة الصلدة كالصخر ،
الحنونة كحبق الصيف ،
لن يسكت صراخ احزاني عليك
الا انفراج اساريرك بابتسامة ما !

لكن الوجه ساكن وتعب ،
الجبين بارد كعتبة البيت
اليدان مسبلتان لا تتحركان
والثوب الأبيض يغطيك
أيتها العروس الكهلة .

لم أتعودك هكذا
ساكنة باردة ...

أنت فحم البيت ،
زيت الالفة والحنان ،
خمرة القلب ،
« جمل المحامل » ،

لا تشبهين احدا ،
لا تشبهين أي شيء ،
نسيج وحدك أنت ،
ورداء فريد مات صانعه .

أهذه جنازتك ؟
انهم يجلدون ،
يشسوون الروح ،
ويدعون الصلاة عليك .
يحملونك بعيدا ،

يختطفونك كطائر نبيل
اطبقت عليه شباك الصيادين .
الى أين ؟
وانت في القلب ،
في العروق والهواجس ،
في كل الأشياء تسكنين .

أنظر وجهك للمرة الأخيرة .
لم يتغير سوى سكونه المفاجي .
الملامح الأصيلة نفسها
منكفئة على نفسها
مستغرقة في تفكير داخلي عميق ،
في حلم بارد جدي وطويل .

انهم لا يدفنونك وحدك
بل يوارون جزءا حيا مني .

لماذا يتهافت المعزون
وجنازتك لم تبدأ بعد !

انك تحيين وتمتدين في الذاكرة
كخيوط العنكبوت
وتحاصرينني بعبقك يا حبقة الصيف المحترقة

يا حنانا لن يطاله موت .

فواحة أنت في القلب ،
عصية على النسيان .

أشتاق وجهك
وتكبر لهفتي عليك كل يوم
اتذكرك في المنافي
في لحظات الحزن القاسية ،
وفي الليل تصعدين كقمر باهت
يطارد بنوره الخافت
المشاعر وصور الذاكرة .

لن أجرؤ أن أراك ميتة ،
لن اصدق موتك .
ما زلت حية ،
وكثيرة انت يا أمي !

صدر حديثا

عن مركز الابحاث

منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي ـ الاوروبي

تاليف

احمد صدقي الدجاني

« رصد إذاعة إسرائيل »

نشرة استماع يومية للاذاعة الاسرائيلية باللغة العبرية .

عادت نشرة « رصد اذاعة إسرائيل » الى الصدور ، مجدداً ، عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية . وقد أضيف الى موادها ما تبثه إذاعة الجيش والتلفزيون الاسرائيلي أيضاً .

ترسل النشرة الى المشتركين فقط

الاشتراك السنوي

٥٠٠ ل.ل. ، عدا أجور البريد .

ترسل الاشتراكات الى :

قسم التوزيع ، مركز الابحاث ، م . ت . ف . ، ص.ب. ١٦٩١ ، بيروت ـ لبنان .

صدر حديثا
عن مركز الابحاث

قطاع غزة
١٩٤٨ ـ ١٩٦٧

تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية
تاليف
حسين أبو النمل

يطلب من التوزيع : ص . ب ١٦٩١ ، ومن جميع المكتبات

يصدر قريبا
عن مركز الابحاث

التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني
الجزء الثاني
١٩٤٨ ـ ١٩٦٧

تاليف
نبيل أيوب بدران

Palestine Affairs

No. 95 October, 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعر: ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهماً في ج.ع.ل.
٧,٥٠ درهم في المغرب

شؤون فلسطينية

٩٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

٩٦ — تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

المدير العام : صبري جريس
رئيس التحرير : محمود درويش

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ، ص . ب ١٦٩١
تلفون . التحرير والتوزيع ٢٥١٢٦٠
برقيا : مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) ٦٠ ل . ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل . ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل . ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) ٦٥ ل . ل . في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

الغلاف للعالمي فرانسيس بيكابيا

٣

فيصل حوراني

أبعد من الصمود

تقف منظمة التحرير الفلسطينية الآن على ارض سياسية صلبة ، حتى ليصح القول : انها لم تحظ في اي وقت ، خلال السنوات التي انقضت منذ انشائها ، بالمقدار من التأييد الذي تحظى به الآن . وليس في الأمر ، بعد ، اية مفاجأة ، ذلك ان الموقف الراهن للمنظمة ، صنعته نضالات اتصلت على مدى خمسة عشر عاما منذ تأسيسها ، شهدت عبر تجارب الخطأ والصواب والاخفاقات والنجاحات خطا تقدم بثبات في مجالات النضال كافة ، العسكرية والسياسية ، وعلى الصعد كافة ، الفلسطينية والعربية والدولية ، كما شهدت غنى متزايدا في الخبرة وفي الاداء ، وفي تخطي المصاعب ، وفي التلاؤم مع الظروف غير المؤاتية ، بحيث امكن في ظل مثل هذه الظروف الاحتفاظ بما كان قد تحقق من نجاحات ، وابقاء الأبواب مفتوحة امام نجاحات جديدة .

ولا شك في ان اصعب ما جابهته المنظمة ، منذ ما بعد ايلول ١٩٧٠ وهو ذاته اصعب ما جابهه الشعب الفلسطيني منذ ١٩٤٨ ، تمثل في انفراد النظام المصري بابرام تسوية مع اسرائيل ، وفي طبيعة هذه التسوية ، التي ادت ليس فقط الى اخراج مصر من جبهة المواجهة مع اسرائيل ، بل ، ايضا ، الى وقوفها في الجبهة التي تعادي ، بحكم طبيعة التسوية ، وصول منظمة التحرير الى تحقيق المطالب الوطنية الفلسطينية ، كما صاغها البرنامج الوطني المرحلي للمنظمة في العام ١٩٧٤ ، وكان هذا البرنامج صيغ في حينه على ضوء اعتبارين ، يكمل احدهما الآخر : حاجة مصر ومعها انذاك سوريا الى برنامج فلسطيني يتضمن النوع من المطالب التي يمكن تحقيقها في اطار التسوية الشاملة ، وحاجة المنظمة التي رات ان مصر ماضية نحو ابرام تسوية كهذه ، الى تأييدها ، فضلا عن تأييد سوريا ، للمطالب الفلسطينية .

ثم وقع ما وقع وابرم النظام المصري تسويته الخاصة به من وراء ظهر كل من المنظمة وسوريا . واندفع في اتجاه العداء معهما واوغل فيه . وكان من شأن هذا ، في تصور النظام المصري وفريقي كامب ديفيد الآخرين ، ان يؤدي ، فيما يؤدي اليه ، الى اضعاف موقف المنظمة ، ثم الى اخراجها من الحلبة نهائيا او ادخالها اليها ضعيفة مستخذية وراضية بأن

تصير شاهد الزور على عقابيل تسوية كامب ديفيد ، التي لا تعطي للفلسطينيين من وليمة الاستسلام الا ما هو اقل من الفتات . وتكاثفت الضغوط المنصبة على المنظمة ، ضغوط من أنواع ومستويات جديدة، استهدفت الاثقال عليها . وتجلت في مقابل ذلك ، فعالية المنظمة في أن تحتفظ بمقدرتها على الحركة الحرة والمجابهة ، في ميدانيها العسكري والسياسي ، وتسهم في تطويق آثار كامب ديفيد ، وتضع تسويته كلها في المأزق الذي تلج فيه الآن . وهو المأزق ، الذي يهدد مصير هذه التسوية من اساسه ، ويدفع الوالجين فيه الى البحث عن وسائل أخرى تنقذ ما يمكن انقاذه منها .

فكيف تسنى للمنظمة ، التي كانت في حساب كامب ديفيد اضعف الفرقاء والمرشح الأول من بينهم للانهيار ، ان تلعب هذا الدور في مواجهة تسوية من هذا النوع ؟ ان الاسباب التي ترد في معرض الاجابة على هذا السؤال عديدة ، ومتداولة . وبينها الحقيقة التي تأكدت بمضي السنين ، حقيقة ان الشعب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة وخارجها كرس منظمة التحرير بوصفها الممثل الشرعي الوحيد له ، والمعبرة عن طموحاته الوطنية والمسؤولة عن تحقيق مطالبه فضلا عن صياغتها ، وان هذا الشعب يزداد ، بدوافع مفهومة تماما ، تمسكا بهذه الحقيقة كلما راى ان مصيره الوطني بالذات معرض للخطر ، فيزداد التفافه حول المنظمة وتتراجع ، الى الدرجات التالية من الاهتمام ، الخلافات الداخلية والانتقادات وحتى الشكاوى ، لتفسح المجال امام مزيد من التماسك الوطني الشامل حول برامج المنظمة ومواقفها ، اي حول ما هو مشترك في طروحات القوى الفلسطينية كافة .

وتجلى هنا ، تأثير التحالفات التي بنتها المنظمة مع القوى والانظمة العربية التي لها ، بهذا المقدار او ذاك ، مصلحة في دعم المطالب الوطنية الفلسطينية ، وتجلى ايضا ، وزيادة على هذا وذاك ، تأثير التحالفات الدولية التي اقامتها المنظمة مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاخرى والعديد من الدول ، ومع الاحزاب والهيئات والقوى ذات النفوذ في بلدان العالم كافة . وصار لهذا كله ، اذن ، تأثير في اسناد مواقف المنظمة وهي تخوض في السنتين الماضيتين واحدة من اشد واقسى المجابهات التي فرضت عليها منذ تأسيسها : وفي حمايتها من الانهيار امام الضغوط السياسية والعسكرية المتكاثفة ، المنصبة ضدها من اسرائيل والولايات المتحدة واصدقائها والموالين لها في البلاد العربية .

واستطاعت المنظمة بفضل الرصيد المتكون لها فلسطينيا وعربيا ودوليا ان تجد المقدرة الكافية على ان تقول : لا لكامب ديفيد جملة وتفصيلا . اي ان تقول : لا للسياسة الاميركية ، وهي في ذروة هجومها على المنطقة ، ولا لاسرائيل ، وهي في ذروة زهوها بغنيمتها في مصر ، ولا لمؤيدي كامب ديفيد صراحة من العرب ، ولا لمؤيديه المقنعين ، ولا للذين ايدوا الاستسلام الساداتي وترووا لكي يرقبوا استسلاما فلسطينيا لاتقا ، يحررهم من الحرج أمام شعوبهم التي ستحاسبهم بمقياس ادعاءاتهم ذاتها حول تمسكهم بعروبة فلسطين وقداستها ، ولا للمتخوفين من المجابهة تحت شتى الذرائع ، ولا للمتآمرين الذين يظهرون غير ما يبطنون ، ويسلكون على نحو مغاير لما يعلنون من اقوال . وبرز الصمود شعارا حققته المنظمة من جانبها بالفعل في ظل شتى انواع الضغوط المباشرة وغير المباشرة ، المقنعة وغير المقنعة ، ووسط المخاوف التي روجها المبشرون بعصر الهيمنة الاميركية على الشرق الاوسط .

وكان تحقيق الصمود ، حتى في تصور الوطنيين المتفائلين ، انجازا كبيرا لعبت المنظمة دورا بارزا في صنعه ، يسجل لها حتى لو لم تنجز اكثر منه .

الا ان فعالية المنظمة دفعتها الى ما هو ابعد من الصمود بما هو حالة دفاع ضد خطر داهم . واستطاعت ان تصير مبادرة في اكثر من ميدان جديد . استفادت من رصيدها المتحقق قبل كامب ديفيد ، وعززته ، وشرعت تشن هجمات مضادة . فارتفعت وتيرة العمليات الفدائية داخل الأراضي المحتلة ، وتحسنت كفاءة المجابهة العسكرية ضد الغزو الاسرائيلي للجنوب اللبناني ، وتطور التنسيق السوري الفلسطيني وارسيت اسس ذات نفع مشترك للتعاون مع الاردن ، وتقدم مستوى التعاون والتنسيق مع الاتحاد السوفياتي ، وانفتحت نوافذ جديدة تماما داخل الدول الاوروبية الغربية ، دخلتها المنظمة وهي تدرك ان هذه النوافذ ، وان كانت اطرها من صنع مصالح التحالف الغربي ذاته ، المرتبط بالولايات المتحدة والمؤيد تقليديا لاسرائيل ، فانها تطل على قطاعات واسعة من الرأي العام في بلدان اوروبا الغربية ، حان الوقت الذي يتوجب فيه على الصوت الفلسطيني ان يخترقها .

واخيرا نشطت الحملة الموجهة نحو الرأي العام الاميركي . وجرت اولى الاتصالات المباشرة مع الأطر التي يمكن الاطلال عليه من خلالها . ويتركز كثير من الاهتمام الفلسطيني ، وكذلك العربي والدولي ، على هذه الحملة . وبالرغم من ان الانشطة الابرز فيها تجلت في الاتصال مع ممثلي القوى السوداء ، التي الف الراي العام عندنا ان ينظر لها كقوى تتعارض مصالحها مع مصالح الادارة الاميركية ، فان الاتصال بها بما هو اتصال باميركيين آثار جملة من التساؤلات ، وحتى الشكوك ، اطلقتها صراحة او ضمنا اطراف فلسطينية وعربية . واستندت هذه الشكوك ، فضلا عن الحذر المتأصل تجاه كل ما هو أميركي ، الى بعض مواقف الوفدين اللذين استضافتهما قيادة المنظمة في الاسابيع الاخيرة ، واللذين اطلقا جملة من التصريحات اشتملت من جانب على دعوة الادارة الاميركية للاعتراف بمنظمة التحرير والاقرار بوصفها كممثلة للشعب الفلسطيني ، ومن الجانب الآخر ، على تأييد وجود اسرائيل ومطالبتها بما تصفه بأمنها ، وصاغت اقتراحات طالبت المنظمة بوقف انشطتها العنيفة ضد اسرائيل ،مقابل دعوة اسرائيل لوقف الاعمال العسكرية ضد الجنوب اللبناني ، والاقرار بمطالب عادلة للفلسطينيين . ووصلت الشكوك حدا جعل بعض القادة الفلسطينيين يدرجون المقترحات في سياق سياسة الادارة الاميركية ذاتها ، وينظرون الى الزعماء السود الذين حملوها بوصفهم مبعوثين غير رسميين لهذه الادارة يتصدون لمهمة جر المنظمة الى تسوية لا تبتعد كثيراً عن الآفاق التي رسمها كامب ديفيد. في حين املت غالبية القيادة ان تجد في الاتصالات التي تجريها مع الزعماء السود مدخلا لمخاطبة الراي العام الاميركي وايصال الصوت الفلسطيني اليه ، ووسيلة لاطلاعه على الحقائق المتصلة بالوضع الفلسطيني ، والسياسة الفلسطينية وعدالة مطالبها الوطنية ، واختراق الحصار الذي يضربه الاعلام المعادي في الولايات المتحدة .

واذا امكن ان نقف بعيدا عن التفاصيل ، التي تحفز الآمال والأخرى التي تستثير الشكوك ، فاننا سنكتفي في هذا العدد بالذات بالايضاحات الرصينة التي قدمها بلاغ المنظمة حول زيارة الوفد الذي رئسه القس جاكسون ، حين بين ان هدف الاتصالات الجارية هو تنمية العلاقات وتطوير الحوار وتعميق الصداقة مع كافة القوى الديمقراطية والشريفة في الولايات

المتحدة ومساعدتها على الاطلاع على منجزات الشعب الفلسطيني وعلى نتائج العدوان الاسرائيلي واثار المساندة الاميركية لهذا العدوان ، مع تأكيده على المواقف المبدئية للمنظمة التي عبرت عنها مقررات مجالسها الوطنية . لننبه بعد هذا الى ما لاحظه البلاغ بسداد من وجود تحول في مواقف اوساط الرأي العام الاميركي ما يزال في بدايته ، والى اهمية المساهمة الايجابية في دفع هذا التحول الى الأمام . وهنا ينبغي القول ان هذه العملية ليست سهلة على الاطلاق ، والصعوبات التي تجابه المنظمة في الميدان الاميركي بالذات ، تفوق ما جابهته في اي ميدان مماثل . واذا صحت المقارنة مع الانجازات التي حققتها في بلدان اوروبا الغربية ، فلا يصح ان نتجاهل الفروق الكبيرة في حجوم القوات اليسارية والديمقراطية عموما ، بين هذه البلدان والولايات المتحدة ، وأن الدخول الفلسطيني الى اوساط الرأي العام الواسعة في اوروبا الغربية تم بمعونة كافية من قوى فيها ، ذات حجوم واوزان تفوق ، احيانا بما لا يقاس ، مثيلاتها في الولايات المتحدة . يضاف الى هذا ان القوى التي تناهض المطالب الفلسطينية في بلدان اوروبا الغربية ، على نقيض القوى المؤيدة ، لا تملك الوزن ذاته الذي للادارة الاميركية ، ولا تملك في البلدان العربية قوة التأثير والنفوذ التي لهذه الادارة . هذا اذا اخرجنا من المقارنة الفرق الكبير الذي يتصل بالنفوذ الصهيوني وبدور اسرائيل في خدمة مصالح الفريق الاميركي والفريق الاوروبي الغربي ، وفي التأثير فيها .

ولا نظن ان هناك بين الفلسطينين من يجادل حول صعوبة العملية التي شرعت فيها المنظمة وهي تتجه نحو الرأي العام الاميركي ، او يقلل من المصاعب التي تواجهها ومن جملة المخاطر التي تكتنفها . فاذا امكن ان نقول ان هناك اجماعا على اهميتها ، من غير ان نغفل اية تحفظات تحول دون الخلط بين مستلزمات التوجه للرأي العام الاميركي ومستلزمات التوجه للادارة ، صار من الواجب ان نتفق على ان اختراق اوساط الرأي العام ، الذي تسيطر عليه مصالح اعداء الشعب الفلسطيني وادواتها الهائلة ، يفترض توفر درجة عالية من المرونة الى جانب الدرجة العالية من الحذر ، حتى لا تقع المنظمة في اي من الدوغمائية التي تسد النوافذ او التفريط الذي يضيع الحقوق . وفي تقديرنا ان المرونة والحذر كليهما متوفران في مواقف وممارسات المنظمة ، واذا كان ثمة شيء مطلوب فهو المساعدة على استمرارهما.

وهنا تبرز ، باكثر مما برزت في اي مجال اخر ، اهمية وحدة الموقف الفلسطيني ، وتبرز في مقابلها مخاطر الانقسام.فمن المتعذر تماما ان تجري بنجاح عملية ضخمة كهذه ، اذا كانت الشكوك ستعرقل عمل القائمين عليها ، واذا لم تتكاتف الجهود كافة لانجاحها . نضيف الى ذلك ان وحدة الموقف ، التي هي في الوقت ذاته تعبير عن الثقة الاجماعية بالقيادة الشرعية للمنظمة ، تشكل الوسيلة المجربة لابقاء ادارة العملية بكاملها في يد هذه القيادة ، وتوفر الضوابط اللازمة من الجميع ولدى الجميع ، لكي تمضي العملية في السياق الذي يخدم ، اول الأمر وآخره ، هدف تحقيق المطالب الوطنية للشعب الفلسطيني ، حين تنطلق من التمييز بين ما تفرضه الحاجة للحصول على تفهم الرأي العام من مسلتزمات ، وبين المستلزمات التي تجهد الادارة الاميركية لفرضها على منظمة التحرير من خلال الضغوط التي تنصب عليها ، وترمي الى دفعها للتخلي عن الاسس التي صنعت قوة موقفها ومقدرتها على المجابهة .

وهنا ايضا ينبغي التمييز بين نوعين من الشكوك التي تكتنف هذه العملية : الشكوك التي

تطال عددا من المستجيبين للرغبة الفلسطينية في الاتصال بالراي العام الاميركي من الاميركيين انفسهم ، والشكوك التي تتطاول على الفريق الفلسطيني الذي يدير العملية .

النوع الأول من الشكوك وارد على ان يقترن التنبيه له لشرطين : الأول ، ان لا يصير عقدة تذكر بالعقد التي طالما سدت سبل الاتصال مع الاطراف الخارجية حين لم تتطابق مواقف تلك الأطراف كلية مع الموقف الفلسطيني . وهي عقدة تجاوزها العمل الفلسطيني منذ سنوات ، اي منذ اتجه للبحث عن الهوامش المشتركة ولم يضع التطابق الكامل شرطا للشروع في بناء علاقات الصداقة والتعاون مع الآخرين . والثاني ، ان لا تدفع المصاعب او الشكوك الى اليأس الكامل من العملية من أساسها ، وان يصبح سلاح الحذر هو البديل من التهيب الذي يسوغ العقود .

اما النوع الثاني من الشكوك فما أوهاها حين نأخذ بعين الاعتبار التجربة التي بينت ان المعنيين بها تعرضوا لمثلها عند كل مبادرة سياسية اقدموا عليها ، ثم اتضح في كل مرة ان المبادرة اعطت ثمارها الايجابية لصالح الجميع . وحين نتذكر ان الفرقاء الفلسطينيين كافة لا يلتقون على شيء بمقدار ما يلتقون على رفض السياسة الاميركية ، وان الاشد نشاطا من بينهم في مجابهة هذه السياسة هم الاكثر مبادرة في تكسير الاطواق التي حاولت الولايات المتحدة وجماعاتها ان تقيد المنظمة بها ، اذا اتفقنا على ان مقياس النشاط هو الاعمال المنجزة ، وليست الصيغ اللفظية والاقوال وحدها .

محمد عبد الرحمن

الاستيطان خلال سنتين من حكم الليكود

يشكل الاستيطان اليهودي في الاراضي العربية المحتلة ، إحدى الركائز الاساسية لتثبيت الاحتلال الاسرائيلي ، واجهاض المقاومة الفلسطينية في الارض المحتلة ، اضافة الى محاولة تثبيت الامر الواقع امام الراي العام العالمي المناهض لسياسة الاحتلال ، وضم الأراضي عن طريق القوة .

ولقد اتبعت الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة ، بعد حرب ١٩٦٧ ، سياسة استيطانية تعبر عن نفسها وفق مفهوم الاسرائيليين للأمن « والحدود الآمنة التي يمكن الدفاع عنها » ، وخاصة على الحدود الشرقية ، نظراً للعوامل الطبوغرافية والديمغرافية التي تتحكم في تلك الجبهة . وقد تركزت جهود بناء المستوطنات طوال السنوات العشر (١٩٦٧ ــ ١٩٧٧) على طول وادي الأردن ، ومداخل القدس ، ومناطق التماس على حدود الخط الأخضر (حدود الهدنة لعام ١٩٤٩) وفق ما يسمى بمشروع الون للحل الاقليمي الوسط مع الأردن .

ومع صعود الليكود الى الحكم باسرائيل في ١٧ أيار (مايو) ١٩٧٧ ، شهدت الأراضي العربية المحتلة (الضفة الغربية وقطاع غزة تحديداً) نشاطا استيطانيا متواصلا . وطرحت مخططات ومشاريع عديدة ، تعكس جميعها نظرة الليكود لمستقبل الأراضي المحتلة ، خاصة الضفة الغربية ، التي يعتبرها « جزءاً من ارض اسرائيل الكاملة » يجب استيطانها والبقاء فيها .

وسنعرض فيما يلي ، للنشاط الاستيطاني لحكومة الليكود خلال سنتين من الحكم ، مع ربط هذا الموضوع بالتطورات السياسية في المنطقة ، ابتداء من زيارة السادات لاسرائيل في ١٩ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ ، مرورا بمؤتمر كامب ديفيد ، وانتهاء بالتوقيع على معاهدة السلم المصرية ــ الاسرائيلية في ٢٦ آذار (مارس) ١٩٧٩ ، حيث يلاحظ زحمة المشاريع والمخططات الاستيطانية مع كل مرحلة من مراحل مسيرة التسوية ، بما يتلاءم مع تصور الحكومة الاسرائيلية لمستقبل الأراضي الفلسطينية المحتلة ، في اطار الحكم الاداري الذاتي المقترح .

برنامج ليكود الاستيطاني

دخلت كتلة الليكود الانتخابات الاسرائيلية في أيار (مايو) ١٩٧٧ ، وهي تطرح جملة برامج ونظريات تتحدث عن « حق الشعب اليهودي في أرض اسرائيل » ، وهو حق « أبدي غير قابل للطعن ، ومتماثل مع الحق في الأمن والسلام » . أما الضفة الغربية فانها « لن تسلم الى أي حكم أجنبي ، وبين البحر وبين الأردن ستكون السيادة الاسرائيلية فقط » . واعتبر برنامج الليكود الضفة الغربية جزءاً من « أرض اسرائيل الغربية » معلنا ان الطعن في حق اسرائيل بهذه الأرض يؤدي « بصورة غير مستبعدة الى إقامة دولة فلسطينية تشكل خطراً على أمن السكان المدنيين ، وعلى وجود اسرائيل ، وتحبط كل امكانية للسلام »(١) .

ونصت اتفاقيات الائتلاف الحكومي ، التي وقعتها كتلة الليكود مع اطراف الائتلاف الأخرى ، على تصورات مشتركة لمستقبل الاستيطان اليهودي في الأراضي المحتلة . وأكد الاتفاق المشترك بين الليكود والمفدال على ضرورة « إقامة المستوطنات بناء على قرار صادر من الحكومة فقط ، وفق معايير صهيونية وأمنية »(٢) . كما عرضت الليكود على الحـركة الديمقراطية للتغيير (داش) ، أثناء المفاوضات لدخول داش الى حكومة بيغن ، صيغة بشأن مستقبل الأراضي المحتلة جاء فيها « يخول الكنيست الحكومة ، بموجب قانون ، تطبيق قضاء دولة اسرائيل ، وأنظمتها ، وادارتها على أرض ـ اسرائيل بكاملها في مرسوم يحدد ذلك ، ولن يتم تطبيقها ما دامت هناك مفاوضات على معاهدات سلام بين اسرائيل والدول العربية . وسيكون الأمر مرتبطا باختيار التوقيت الملائم ، وباعتبارات الحكومة السياسية ، وبمناقشة كاملة في الكنيست وباقرار منه »(٣) . وبعد النقاش الذي جرى بين الليكود وداش ، تمهيداً للاتفاق الائتلافي توصل الطرفان الى اتفاق محدد بشأن الاستيطان وراء الخط الأخضر « وفق قرارات الحكومة فقط »(٤) . وأكد أحد اعضاء قيادة داش أثناء المفاوضات « ان مواقف الليكود كانت متصلبة في القضايا التالية : الاستيطان ومسألة تطبيق القانون الاسرائيلي في المناطق المحتلة ومؤتمر جنيف ، والحدود السياسية والحدود الأمنية »(٥) .

وبغض النظر عن الاعتبارات الكثيرة التي أبعدت التجمع (المعراخ) العمالي عن السلطة في اسرائيل ، وساهمت في صعود الليكود ، فان مواقف الليكود المتصلبة بالنسبة للاستيطان في الأراضي العربية ، كانت أحد العوامل التي أدت الى ارتفاع الأصوات التي حصلت عليها في الانتخابات ، في اماكن الاستيطان الجديدة بنسبة ٨٪(٦) .

المعراخ والليكود : لا خلاف على الاستيطان

يحدد شمعون بيرس زعيم حزب العمل ، أكبر الشركاء في المعراخ ، الفرق بين نظرة حزبه ، ونظرة الليكود للاستيطان بقوله « بالنسبة لنا ، فان الخطة الاستيطانية موجودة ، ولكن ما هو موجود لدى الليكود هي خطة بالنسبة ليهودا والسامرة وهذا هو أساس الجدل . ففي الليكود ينادون بضرورة تطبيق القانون الاسرائيلي على يهودا والسامرة وضمها [الى اسرائيل] ... هذا هو أساس الجدل بيننا وبين الليكود . والاعتقاد السائد هو أن الجدل يدور بين خطتين استيطانيتين ، وهذا أمر غير صحيح ، فالجدل هو بين خطتين سياسيتين »(٧) . ونظرا لأن الاستيطان هو « هدف قومي » يجب أن تلتقي عليه جميع الأطراف والتيارات السياسية ،

ينادي يسرائيل غليلي ، الرئيس السابق للجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ، بعدم معارضة الليكود في مجال الاستيطان ، ويدعو حزب العمل ، لأن يكون عاملا ايجابيا بالنسبة للاستطيان . والا يكون في المعارضة في هذا المجال . والمهم بالنسبة له هو « كيف يمكن التأثير بالنسبة للاستيطان ، أوعدم الاستيطان في الأماكن حسب ما يتفق عليه مع حزب العمل »(٨) .

وكان غليلي ، قد عرض أمام الجلسة الاخيرة لحكومة حزب العمل ، في ١٩/٤/١٩٧٧ ، « فلسفة وانجازات » حكومة المعراخ في المجال الاستيطاني ، فأوضح أن حكومة المعراخ اتبعت سياسة استيطانية مبرمجة منذ عام ١٩٧٤ ، وفق تصورها العام لحل مشكلة الأراضي المحتلة ، على أساس مشروع آلون ، المستند على الحل الوسط الاقليمي . وايجاد حدود يمكن الدفاع عنها،مع مراعاة عدم اثارةاي ضجة سياسية حول الموضوع.ويتـرف غليلي،ان الاستيطان نفذ في مناطق « لم يعترف بها قانونيا على انها جزء من دولة اسرائيل ، ولذا لم يطبق عليها القانون الاسرائيلي ، وأصبحت هذه المستوطنات في نطاق الصراع لتأمين حدود يمكن الدفاع عنها »(٩) . ولخص غليلي نتائج نشاط الحكومات السابقة في ميدان الاستيطان منذ حرب الأيام الستة بما مجموعه ٧٦ مستوطنة خارج الخط الأخضر ، و١٢ مستوطنة داخله .

الليكود ، وغوش ايمونيم

فور اعلان نتائج الانتخابات العامة في اسرائيل سنة ١٩٧٧ ، وفوز الليكود فيها . أعربت جماعة غوش ايمونيم الاستيطانية عن سرورها لهذه النتيجة ، واعلنت انه « لن يكون استيطان دون موافقة الحكومة ، وبدون التنسيق الكامل معها »(١٠) ، على اعتبار أن مفاهيم الجماعة تلتقي مع مفاهيم الليكود حول « أرض ـ اسرائيل الكاملة » ، وضرورة الاستيطان اليهودي الواسع في جميع أرجائها . وعشية إعلان النتائج ، اجتمع ممثلو الجماعة من كل انحاء اسرائيل ، وأجروا تقييما للنشاطات القادمة على ضوء التغيير السياسي الذي حصل . وتقرر في الاجتماع توسيع حركة الاستيطان . ولكن ، هذه المرة ، بالتنسيق غير المتحفظ مع الحكومة الجديدة برئاسة الليكود ، والبدء بالعمل في مجالات اخرى اضافية مثل مدن التطوير ، واقامة نوى يستطيع اعضاء غوش‌ايمونيم الانضمام اليها ، تمهيدا لاستيطانهم في مكان ما ، وتقرر كذلك ، التوجه الى خارج اسرائيل ، وخاصة الولايات المتحدة ، لحث الشباب اليهودي على الهجرة والاقامة في مستوطنات الضفة الغربية أومدن التطوير . على ان يحضروا الى « المناطق التي يوجد فيها تحد فقط، حيث ان الاقامة بدون تحد في الولايات المتحدة ، اسهل بكثير للحياة »(١١) .

ووجهت غوش ايمونيم نقدها الشديد لحكومة المعراخ السابقة ، لـ« تقصيرها » في موضوع الاستيطان في الضفة الغربية . ولكن الآن « وبعد نجاح الليكود في الانتخابات ، فاننا مقتنعون بأن مشكلة الاستيطان قد حلت ، وأن المسألة الوحيدة القائمة الآن ، هي تحديد من يستوطن ، ومتى وأين »(١٢) .

وربطت غوش ايمونيم مسؤوليـة استيطان الضفة الغربيـة بالحكومة الجديدة ذاتها . لأن هذا هو الوضع الطبيعي . ودعت كذلك الى تنفيذ استيطان سريع في الضفة الغربية لاسباب سياسية « لأن السرعة في الاستيطان ، يقوي موقفنا في مسألة المساومة »(١٣) .

واقترحت على الحكومة خطة تفصيلية جاهزة للتنفيذ.فعلى الأراضي القريبة من الرملة تقام مستوطنات ، بيت ــ ايل وشيلا والون موريه بالقرب من نابلس ، حيث تدعم المستوطنات الواقعة على أطراف السامرة . وستقام مستوطنة حواره جنوب نابلس ، وكذلك مسحه بالقرب من جنين ، وعلى بعد ١٢ كلم جنوبي دوتان .

وسارع ممثلو مستوطنات غوش ايمونيم (كفارعتسيون ، وكريات أربع ، وعين توريم ، وعين عارود) الى منزل بيغن لعقد اجتماع معه . وتقدموا باقتراح لخطة استيطانية في مواقع مؤقتة في الضفة الغربية لصيف ١٩٧٧ . وأحضروا معهم مشروعا من ثمانية فصول وخارطة للضفة الغربية ثبت عليها ١٦ موقعا استيطانيا ، تمتد من اريحا حتى بيتح تكفا ، ومن الخليل حتى جنين . وفي نفس اللقاء ، عبر الحاخام ليفنجر لرئيس الوزراء عن رغبة جماعته في نقل مهمة الاستيطان في الضفة الغربية الى الحكومة ، لأن قوى غوش ايمونيم الضعيفة لا تستطيع تحمل هذا العبء وحدها . واجابه بيغن « انني مستعد منذ الآن ، لقبول هذه المهمة ، وانني اتطلع الى الاستيطان بايجابية مطلقة ، وباطار واسع في الضفة الغربية . وان الوزارة برئاستي ستبذل جهوداً كبيرة في هذا الاتجاه . وسوف نقيم مستوطنات وقرى ، ومدناً في كل أرجاء أرض ــ اسرائيل بشكل عام ، وفي الضفة الغربية بشكل خاص »(١٣) . وفي الاطار ذاته أبلغ عيزر وايزمان وزير الدفاع الاسرائيلي البروفسور اوري اليتسور ، احد الناطقين باسم غوش ايمونيم ، انه ينظر بايجابية كبيرة « سواء للاستيطان في الضفة الغربية أو لأهمية التنفيذ بسرعة »(١٤) . وهكذا تفاءلت غوش ايمونيم بقرب تحقيق احلامها الاستيطانية الواسعة . ولكن بمساعدة ودعم الحكومة هذه المرة .

الحكومة الجديدة ، ومشاريع الاستيطان

ومع تشكيل الحكومة الجديدة بزعامة مناحيم بيغن ، وفي ظل الجمود الذي كان يحيط بأزمة الشرق الأوسط ، وتنفيذاً لالتزامات الليكود امام الناخبين ، أعلن بيغن ان حكومته « ستواصل إقامة المستوطنات في الضفة الغربية . وبالرغم من ذلك ، لن يبعد أي عربي عن أرضه ، ولن نتملك أي أرض ، واذا استطعنا ابتياع أراض نحتاجها لغرض الاستيطان فسوف نبتاعها . وانني أؤيد دمج اقتصاد اسرائيل باقتصاد الضفة الغربية من أجل التوصل الى مزيد من التفاهم »(١٥) . وأوضح بيغن ايضا ، أنه لا يرى اي تناقض بين اصرار اسرائيل على حقها في « أرض ــ اسرائيل » وبين الوثائق الدولية ، بما في ذلك القرار ٢٤٢ .

وحدد موشي دايان وزير الخارجية ، أمام موظفي وزارته ، النظرة الاسرائيلية لمستقبل الأراضي المحتلة بقوله ، إن اتفاق السلام مع الدول العربية لن يتحقق بواسطة التقسيم الجغرافي للضفة الغربية « بل بايجاد نهج حياة مشتركة في الضفة الغربية ، دون ان تطبق عليها السيادة الاسرائيلية من جهة ، وبدون ضم اي جزء منها ، أو من قطاع غزة الى الأردن من جهة اخرى »(١٦) وطالب دايان ، ان يكون الاستيطان الذي سينفذ في المستقبل حقيقياً وليس تظاهرياً ، لأن الضفة الغربية « وطننا القديم وأود بقدر ما يتعلق الأمر بنا ، ألا نعتبر غرباء هناك . ويجب على اليهود امتلاك الأراضي في تلك المناطق ، واقامة منازل ومستوطنات فيها ، بتخطيط وتوجيه من الحكومة »(١٧) . وحتى لا يشعر دايان بالغربة في « وطنه » ، فانه يدعو الى

حل الصراع مع الفلسطينيين « بالعيش معهم وبالقرب منهم » ، أي بمعنى أخر ، استيطان ونهب الأراضي العربية المحتلة وضمها الى اسرائيل .

ولدى تسلم شارون وزير الزراعة ، مسؤولية اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ، بدا واضحا أن الحكومة الاسرائيلية تنوي القيام بنشاط استيطاني واسع . وحرص شارون على التأكيد على أن سياسة أي حكومة في اسرائيل ، مهما اختلفت اتجاهاتها الحزبية ، تأتي مكملة لعمل الحكومات السابقة . وأعلن شارون أمام اجتماع الوكالة اليهودية في القدس « ان الحكومة ستنفذ مخططات الاستيطان التي بلورتها الحكومة السابقة . وسوف تضيف اليها مخططات خاصة بها ، تعطي دفعة واسعة جدا لعمليات الاستيطان »(١٨) . ووعد شارون ، أنه سيطرح أمام اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان في اجتماعها الأول ، مشاريع للاستيطان ، يذاع بعضها على الملأ « ويبقى البعض الآخر سرا » وأكد أن المستوطنات الجديدة ، سوف تساهم في تشكيل حدود المستقبل وستقوم الحكومة الجديدة « بتنفيذ مخططات الاستيطان التي سبقت المصادقة عليها »(١٩) .

وفي لقائها الأول ، ناقشت اللجنة الوزارية للاستيطان (المكونة من شارون رئيسا ، وعضوية عيزر وايزمان ، وممثلين عن وزارات الحكومة ذات الصلة بموضوع الاستيطان ، وممثلين عن الوكالة اليهودية ، والمنظمات الصهيونية . ويبلغ عدد أعضائها ١٤ نصفهم من اللجنة السابقة) الخطط والقرارات التي صادقت عليها اللجنة السابقة ، وكان مشروع غوش ايمونيم الاستيطاني(٢٠) ، أول مشروع يطرح للنقاش امام اللجنة ويتضمن إقامة ١٦ نقطة استيطانية في الضفة الغربية ، تهيأ للسكن حتى نهاية الصيف . اضافة لأربع نقاط قائمة ، هي معاليه ادوميم وعوفره، والون موريه وباريم . واقترح مشروع غوش ايمونيم أيضا ، تطوير مناطق الضفة الغربية ، باقامة تجمعات من المستوطنات المترابطة والمتقاربة ، حيث تقام حول مركز مديني كبير ، ونقل القوى البشرية اليهودية المتجمعة على الساحل للاستيطان في الضفة الغربية . ودعا المشروع الى اتباع شكل جديد للاستيطان ، سمي بالاستيطان « القروي الجماعي » وهو من اعداد « الحركة الاستيطانية المدينية الجديدة » التي كانت قد نشطت في وقت ما ، وتوقفت عن نشاطها « بعد أن أغلقت أبوابها الحكومة السابقة » . ويعتمد بناء هذه المستوطنات على الطابع القروي من الناحية الاجتماعية والشكلية ، والمديني من الناحية الاقتصادية والعملية . وتحل مشكلة السكن في هذا الشكل من المستوطنات ، عن طريق احدى الخيارات التالية» أ ــ منازل للايجار وهي ذات ملكية عامة . ب ــ منازل ملكية خاصة . جـ ــ تقديم قطع من الأرض للبناء الخاص .

اما بالنسبة للعمل ، فمن الممكن أن يعمل المستوطن داخل المستوطنة أو خارجها . وبامكانه أن يكون صاحب مصنع ، أو أجيرا في مصنع . ويمكن ان ينتظم بعض المستوطنين في عمل جماعي ، مع التشديد على ضرورة أن يجد المستوطن مصدر رزقه في مكان اقامته .

وتعبيرا عن الجو المتطرف الذي خلقه صعود الليكود الى الحكم ، فقد طرحت في هذه الفترة مشاريع استيطانية عديدة ، شاركت فيها كل الأطراف العاملة في مجال الاستيطان ، التقت جميعها على ضرورة توسيع الاستيطان ، ليشمل كل أرجاء الاراضي المحتلة . واعادة توزيع السكان اليهود ، مع ربط هذه المستوطنات ، وبالتالي الاراضي المحتلة باسرائيل .

مشروع رعنان فايتس

يدعو رعنان فايتس (رئيس شعبة الاستيطان في الوكالة اليهودية) الى استيطان من نوع جديد ، يعتمد على المستوطنات الصناعية الزراعية المختلطة . وأطلق على هـذه المستوطنات اسم « العقد » وقسم فايتس مشروعه الى ثلاث مراحل :[21] ١ ــ المشروع الشمالي يبدأ من الناصرة جنوبا ، وحتى الحدود اللبنانية شمالا . وستقام هناك ٥٠ مستوطنة زراعية تضم ١٢ الف عائلة (٥٥ الف نسمة) يعملون في المشاريع الصناعية ، والانتاج الزراعي التصديري . ٢ ــ المشروع الجنوبي ، وهو يشمل مثلثا رأس زاويته الحدود الجنوبية لقطاع غزة ؛ وقاعدته منطقة حالوتسا في الجنوب ، وبئر السبع في الشرق ، حيث يقام فيه عدد من المستوطنات تستوعب ٢٠ الف عائلة (١٥٠ الف نسمة) ، والهدف تكوين سلسلة من المستوطنات بين مشارف رفح وبئر السبع . ٣ ــ الاستيطان على الخط الشرقي ، وهو الخط الممتد من الجولان شمالا حتى طريق غور الأردن . ومن غوش عتسيون حتى عربه والنقب ، وسيبنى هناك ٥٢ قرية جديدة تدمج فيها الأعمال الزراعية مع المشاريع الصناعية ، بحيث يكفي الانتاج للاستهلاك المحلي والتصدير .

ويتطابق مشروع فايتس في تصوره لاحتمالات التسوية ، مع مشروع آلون . فهو يعـــارض اقامة المستوطنات داخل المناطق الآهلة بالسكان العرب في الضفة الغربية (موقف حزب العمل) ويؤيد الاستيطان في المناطق التي لا يوجد فيها قرى عربية على خط الحدود الشرقي ، من الجولان شمالا وحتى ايلات جنوبا ، لتصبح جزءا لا يتجزأ من اسرائيل .

مشروع العمود الفقري المزدوج لشارون

ينطلق مشروع شارون الاستيطاني[22] من فرضيات أساسية هي ، أ ــ ان اسرائيل قائمة من أجل جمع الشعب اليهودي ، لذلك فان كل خطة للمدى الطويل ، يجب ان تأخذ بالاعتبار السكان الذين سيبلغ عددهم من ٦ ــ ٨ مليون يهودي كحد أدنى حتى نهاية القرن . ب ــ تحتاج اسرائيل لانتشار مادي واسع ، ليس للأسباب الدفاعية الحالية فقط ، وانما من أجل التطورات على المدى البعيد . ج ــ يجب وضع الشباب اليهودي امام التحديات بعيدة الأثر ، لتزويده بالدافع للنشاط القومي « كيلا يتفوق علينا الفلسطينيون في هذا المجال وخلال وقت قصير نسبيا »[23] .

ويهدف مشروع شارون (العمود الفقري المزدوج) الى نشر الاستيطان على خطين متقابلين ، لهما وصلات طولية ، ووصلات عرضية ، وهما الشريط الساحلي ، والشريط الشرقي ويشتمل المخطط التفصيلي للمشروع على ما يلي[24] : ١ ــ اقامة ثلاثة مراكز مدينية على مدخل القدس هي ، جفعون ، معاليه أدوميم ، افرات (بين الخليل وبيت لحم) حيث تشكل هذه المراكز دفاعا مدنيا ثابتا عن القدس . ٢ ــ يوجد اليوم في منطقة « المثلث الصغير » على حدود الضفة الغربية ، الذي يبدأ في وادي عاره ، وينتهي بكفر قاسم بالقرب من بيتح تكفا ، سكان عرب يقدر عددهم بـ ٦٥ الف نسمة ، وهذا ناتج عن الغاء حدود الخط الأخضر بعد حرب ١٩٦٧ . ولمنع استمرار هذا الاتصال العربي ، تقرر استيطان قطاع يمتد عدة كيلومترات في المنطقة التي تضم اقلية عربية . وسيقام هناك تشكيل كثيف من المستوطنات الاسرائيلية ، لربط الساحل المأهول بالسكان اليهود مع القطاع الجديد . ٣ ــ في وادي الأردن ، سيشق

طريق عريض يطلق عليه اسم طريق « حوتسيه شومرون » ، ويمر عبر السامرة . ٤ ــ نظراً لان نهر الاردن ، يشكل الحدود الاسرائيلية الآمنة شرقا (كما جاء في المشروع) ، لذلك سيشق طريق يربط منطقة تل ــ ابيب بوادي الأردن حيث تقام عليه معسكرات للجيش ، ومشاريع صناعية ، ومستوطنات ذات أحجام مختلفة ، وستقام مجموعة مستوطنات تربط مع كريات اربع ، والى الشمال من الخليل سيبنى مركز مديني كبير في افرات لاكمال سلسلة المستوطنات اليهودية على مداخل القدس . ٥ ــ وسيبنى في المنطقة الشمالية للضفة الغربية ، مركزان مدينيان . أحدهما في سهل دوتان ، أقصى الشمال من حارس بالقرب من السامرة ، وتنتهي سلسلة المراكز المدينية هذه في جفعون .

ومن الواضح أن تنفيذ هذا المشروع يتطلب أعداداً كبيرة من المستوطنين ، ويمكن تلخيص اهداف شارون الاستيطانية من هذا المشروع بتوسيع المستوطنات اليهودية على مداخل القدس ، واقامة شبكة من المستوطنات في المنطقة الممتدة غربي خط جنين ــ نابلس ــ الرملة ، للفصل بين عرب الضفة الغربية وعرب ١٩٤٨ . وكذلك ربط الضفة الغربية مع اسرائيل بشبكة من الطرق تمتد من البحر غربا وحتى غور الأردن شرقا .

مشروع الليكود

أعد المشروع طاقم من اعضاء الليكود في الكنيست برئاسة يغئال كوهين . ويهدف المشروع لاقامة مدن وقرى وراء الخط الأخضر . وكان قد طرح للنقاش في وزارة الزراعة في شهر تموز (يوليو) ١٩٧٧ . وحسب المشروع(٢٥) ستقام في السامرة ثلاث مدن ، الأولى بمنطقة مسحه شرقي بيتح تكفا ، والثانية في منطقة بيت شيرا ، على الخط شمالي القدس ــ تل ابيب ، وتقع الثالثة في منطقة الى الشرق من الطيبة على طريق طولكرم ــ قلقيلية ، بحيث تستوعب كل مدينة ٣٠,٠٠٠ نسمة ، اضافة لذلك ستقام في السامرة ثلاث مستوطنات زراعية جماعية ، تستوعب كل واحدة ثلاثة آلاف نسمة .

وستقام في يهودا ثلاث مدن هي جفعون وتكواع ومعاليه ادوميم ، تستوعب كل مدينة ١٥,٠٠٠ نسمة . بالاضافة الى ثلاث مستوطنات هي ، عوفره والون شافوت ، وواحدة في منطقة معاليه أدوميم . وتعزز كريات اربع بـ ٥٠,٠٠٠ وحدة سكنية لكي تستوعب ١٥٠,٠٠٠ نسمة . ويعترف مخططو المشروع ، أن مصادر الرزق غير متوفرة في نفس مكان الاقامة لسكان المستوطنات الجديدة ، وسوف يستمر المستوطنون بالعمل في نفس الاماكن الحالية ، حتى يتم قيام صناعة جديدة في المنطقة . كما يتحدث المشروع عن إقامة شبكة من الطرق تربط المستوطنات والمدن الجديدة مع اسرائيل .

وعندما حاولت بعض الأوساط الحكومية تأجيل مناقشة الحكومة للمشروع ، حتى عودة بيغن من زيارة واشنطن (تموز ــ يوليو ــ ١٩٧٧) رد كوهين على ذلك معارضا، لأن مساعي الليكود في الاستيطان واضحة ومعروفة « ولا داعي لتجاهل حقيقة أن الليكود أخذ اصواتا كثيرة من الناخبين بعد انجازاته السياسية والامنية ، ونظريته في استيطان كل أرض اسرائيل »(٢٦) .

وفي مجال التنفيذ العملي لمشاريع الاستيطان ، اتخذت اللجنة الوزارية المختصة(٢٧) برئاسة شارون في آب (اغسطس) ١٩٧٧ ، قراراً باقامة مستوطنة مدينية في معاليه ادوميم ، ستبنيها وزارة الاسكان . وستتطور الون موريه ، وعوفره الى قرى صناعية تشرف عليها دائرة الاستيطان في المنظمة الصهيونية .

واعطي الضوء الأخضر ، في الجلسة الثانية للجنة الوزارية للاستيطان ، لاقامة ثلاث مستوطنات وراء الخط الاخضر ، كانت الحكومة السابقة قد صادقت عليها في ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٧ ، وهذه المستوطنات هي :(٢٨)

١ ــ تسورناتان ب ، وتقع على طريق بيتح تكفا ــ قلقيلية . ٢ ــ ياتيــر ، وتقع جنوبي الخليل (على طريق بئر السبع) وستقيم فيها نواة تابعة لغوش ايمونيم . وذكرت سكرتاريا الجماعة ، ان موقع هذه المستوطنة موجود في مشروعها المقدم للحكومة . ٣ ــ مغوا حورون أ ، وهي قريبة من اللطرون . و ستقيم فيها نواة من حزب عمال اغودات يسرائيل . ووافقت اللجنة كذلك على إقامة مستوطنة ، تلمي يوسف في مشارف رفح (ضمن اطار المشروع الجنوبي لاقامة ١٢٠ مستوطنة زراعية في النقب حتى نهاية القرن) .

واستكمالا لخطوات الحكومة الاسرائيلية في سياسة الضم والالحاق للأراضي المحتلة ، فقد اتخذت قراراً بتاريخ ١٩٧٧/٨/١٦ ، يقضي بمساواة الخدمات العامة في الضفة الغربية وغزة مع مثيلاتها في اسرائيل . وأوضح مردخاي تسيبوري نائب وزير الدفاع اسباب اتخاذ هذا القرار بقوله ، ان الحكومة الاسرائيلية « سوف تتبع سياسة جديدة ، وفي نيتها البقاء في المناطق لفترة طويلة . لذلك فانها معنية بحقيقة تحسين مستوى الخدمات للسكان »(٢٩) . وقد ربطت الأوساط الاسرائيلية هذا القرار ، بخلفية التحركات السياسية في تلك الوقت ، والتي بدأتها واشنطن لايجاد حل لمسألة الوطن الفلسطيني . حيث كان هدف الحكومة الاسرائيلية ابلاغ الادارة الامريكية ، انه فيما يخص « مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، فان اسرائيل ستكون عنصراً فاعلا ، ولا يمكن حل مشاكل هذه المناطق دون موافقتها »(٣٠) .

لعبة « الاستغماية » في استيطان معسكرات الجيش

بعد عودة بيغن رئيس الوزراء من زيارته لواشنطن في تموز (يوليو) ١٩٧٧ ، وعلى اثر نشر قرارات اللجنة الوزارية للاستيطان بشأن اقامة عدة مستوطنات في الضفة الغربية ، أثارت الادارة الامريكية ضجة حول هذا الموضوع ، بدعوى ان اقامة المستوطنات تشكل عائقاً أمام السلام . وكشف أبا ايبن ، وزير الخارجية الاسرائيلي السابق ، مدى هامشية هذا الموضوع « لأن الحكومات السابقة ، لم تأخذ الخط الأخضر كخط مقدس ولقد اقمنا نحن ايضا (يقصد حكومة حزب العمل) عدداً من المستوطنات وراء هذا الخط »(٣١) .

ورغم أن بيغن أعلن في مستوطنة الون موريه ، رداً على الانتقادات الامريكية لحكومته ، أنه « سيكون في المستقبل كثير من الون موريه »(٣٢) ، إلا أنه عاد وأبدى بعض المرونة . وللتخلص من هذا الوضع سارت الحكومة في طريق «لعبة الاستغماية» من أجل« تهدئة جماعة غوش ايمونيم من جهة ، ومنع المواجهة مع واشنطن من جهة ثانية »(٣٣) . وفي اطار هذه اللعبة ، تقرر أن تستوطن نوى غوش ايمونيم داخل معسكرات الجيش . وحاولت جماعة

ايمونيم ، وحركة ارض ـ اسرائيل الكاملة معارضة القرار ، إلا أن بيغن جمع ممثليهم (حنان بورات ، تسفي سلونيم ، غرشون شافت) بحضور ارئيل شارون ، وبين اليسار مدير مكتب رئيس الوزراء ، وابلغهم بصورة حازمة ، انه « لن يكون استيطان في هذه الايام ، وهذه ليست الساعة المناسبة لذلك »(٣٤) . وتراجعت غوش ايمونيم عن موقفها ، واعلنت انها توافق على تعريف الاستيطان المؤقت بأنه استيطان « امني » وستقام المستوطنات في معسكرات الجيش الاردني المهجورة ، ومعسكرات الجيش الاسرائيلي . وقد فهم اعضاء سكرتارية غوش ايمونيم من ذلك ، أن الحكومة أعطتهم « الضوء الأخضر لاقامة ١١ مستوطنة جديدة »(٣٥) ، وهذه المستوطنات هي(٣٦) : ١ ـ دوتان ، تقع على طريق جنين ـ نابلس . وهي تشكل محوراً استراتيجيا هاما . وسوف تقيم فيها ٣٠ عائلة ، عدد افرادها ١٢٠ نسمة . ٢ ـ جنوب دوتان ، حيث يوجد معسكر للمركبات في منطقة سبسطية ، وستقام هناك مستوطنة شومرون ، في نقطة تقاطع طريق نابلس ـ جنين مع طريق نابلس ـ طولكرم . ومعظم اعضاء النواة من سكان ناتانيا ، ويبلغ عددهم ١٥٠ نسمة . ٣ ـ كرني شومرون ، وتقع بين مسحه والون موريه على طريق قلقيلية ـ نابلس ، وهي تسيطر على جميع المنطقة بين ناتانيا وبيتح تكفا ، وعدد اعضائها ٣٥٠ نسمة . ٤ ـ وستقام حارس الى الجنوب من كرني شومرون ، يقيم فيها نواة من عمال الصناعات العسكرية . ٥ ـ الى الشرق من محور الرملة ـ نابلس ، والى الشمال من القدس بـ ٤٠ كلم ، ستقام شيلا ويبلغ عدد اعضاء نواتها ٨٠ نسمة . ٦ ـ النبي صالح ، وتبعد ١٢ كلم غربي طريق نابلس ـ القدس ، ويبلغ عدد النواة ٢٠٠ نسمة . ٧ ـ بيت ـ ايل ، معظم اعضاء النواة من القدس ، يبلغ عددهم ٢٠٠ نسمة ، وسيقام فيها مركز تعليم ديني ومصانع متطورة . ٨ ـ بيت حورون ، وهي موقع تاريخي واستراتيجي تبعد ١٧ كلم عن القدس ، و٣٠ كلم عن مطار اللد . وقريبة من الطريق الرئيسية بين اللد والقدس ، ويبلغ عدد اعضائها ٢٠٠ نسمة . ٩ ـ جفعون ، وتبعد ٥ كلم عن طريق القدس ـ نابلس ، و١٢ كلم عن القدس . ومعظم اعضائها علمانيون من القدس . ويبلغ عدد اعضاء نواتها ٤٠٠ نسمة وستقام فيها مشاريع صناعية . ١٠ ـ يريحوا (اي اريحا) ويبلغ عدد اعضاء نواتها ٢٠٠ نسمة ، سيعملون بالزراعة والسياحة على طول ساحل البحر الميت . وستكون مركزاً للمستوطنات التي ستقام الى جانبها ، ١١ ـ ترتساه ، وتقع شرقي نابلس . لكن النواة المخصصة لها لم تتكون بعد .

وحقيقة الامر ، ان المشكلة في إقامة المستوطنات في تلك الفترة ، ارتبطت مع محاولة البحث عن مخرج للطريق المسدود الذي وصلت اليه ازمة الشرق الاوسط . ومحاولة بيغن اظهار نفسه وكانه اقل تطرفا من الحكومة السابقة . وقد حدد سالونيم « المتحدث الرسمي » باسم غوش ايمونيم ، ان عنصر الخلاف مع بيغن بالنسبة للاستيطان هو « من ناحية التوقيت فقط »(٣٧) . والتقى هذا الاعلان مع تصريح لموظف بارز مقرب من رئيس الوزراء الذي قال « ان حكومة بيغن ، وغوش ايمونيم على اقتناع مشترك ، ان المشكلة هي في التوقيت وليس المبدأ ، وفي الأساس فان غوش ايمونيم ، ورئيس الوزراء متفقان على انه يجب استيطان الضفة الغربية ، سواء في مناطقها الماهولة بالسكان او الخالية منهم »(٣٨) والامر الذي طمان غوش ايمونيم هو ان مستوطنتي كريات اربع ، والون موريه ، اقيمتا ايضا في معسكرات الجيش ولكنهما اصبحتا بعد ذلك من المستوطنات الدائمة .

وفي هذا السياق ، خصصت وزارة الدفاع بعض معسكرات الجيش في الضفة الغربية ، لاقامة نوى غوش ايمونيم فيها بشكل مؤقت ، ريثما يتم تحويلها الى مستوطنات دائمة . وقد عدد مردخاي تسيبوري نائب وزير الدفاع المعسكرات التالية لاقامة المستوطنات داخلها وهي[٣٩] : أ ـ معسكر يوسف ، بالقرب من عين باره . ب ـ معسكر سانور ، على طريق جنين ـ سبسطية ج ـ معسكر النبي صالح ، غربي الرملة . د ـ معسكر جفعون . هـ ـ معسكر بيت ـ ايل . و ـ معسكر حورون .

واكد تسيبوري ، ان هذه المواقع ستتحول الى مستوطنات دائمة ، بعد أن يخليها الجيش الاسرائيلي . وان اللجنة الوزارية للاستيطان ستطلب ميزانية اضافية بقيمة ١٠٠ مليون ليرة لتنشيط مشروع الاستيطان .

وقد فضحت النقاشات التي جرت حول هذا الموضوع حقيقة المعاني السياسية وراء هذا القرار (قرار الاستيطان داخل معسكرات الجيش) فقد ذكر اللواء احتياط يشيعياهو غافيش ، ان العادة جرت على قيام شباب الناحال العسكرية بعمليات الاستيطان ، وهي جزء من الجيش ، ولكن هذه هي المرة الأولى التي « أسمع فيها عن اقامة مستوطنات ناحال بواسطة اشخاص ليست لهم علاقة بالجيش ، ولا بالناحال ، ولا يشكلون مجموعة سياسية متجانسة »[٤٠] . وتساءل غافيش اخيرا ، عن الحال الذي سيكون فيه الانضباط العسكري مع « مجموعة من النساء والاطفال » .

أما موشي ادنس ، رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست (ليكود) ، فقد اعترف بحقيقة الظروف السياسية الخارجية التي فرضت استيطان غوش ايمونيم داخل معسكرات الجيش ، تلك الظروف « المتعلقة بمؤتمر جنيف والقضايا الأخرى »[٤١] .

والنتيجة ، ان لعبة الاستيطان داخل معسكرات الجيش ، سوف تتم على حساب الأراضي العربية المحتلة . لأن الجيش الاسرائيلي حسب رأي تسيبوري « يجب أن يبحث عن أماكن جديدة في الضفة الغربية . وان الاماكن الملائمة لمعسكرات الجيش هي الأراضي الحكومية ، ويجب ان تصادر الاراضي من السكان العرب »[٤٢] . كما أن هذا الاسلوب الاستيطاني كان ملائما لواشنطن من اجل تحركها السياسي ، في ذلك الوقت ، وهي لم تثر أي ضجة مفتعلة ، كما هي العادة ، لأنها حسب ما ذكره مصدر حكومي اسرائيلي ، كانت تعلم « ان اسرائيل تنوي اقامة مستوطنات داخل معسكرات الجيش وان الادارة الامريكية موافقة على ذلك »[٤٣] .

الاستيطان وزيارة السادات

مع زيارة السادات لاسرائيل في ١٩٧٧/١١/١٩ ، وما تبعها من جهود سياسية متواصلة ، لعقد معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية ، دخل النشاط الاستيطاني في الأراضي المحتلة سباقا مع الزمن ، لتثبيت الأمر الواقع من خلال زرع المستوطنات اليهودية فيها . وتجسد هذا النشاط في المشاريع الاستيطانية العديدة التي بدأت تطرح لتلائم مستقبل التسوية المحتملة ، واكد مشروع السلام الذي طرحته حكومة بيغن أمام الكنيست في ١٩٧٧/١٢/٢٨ النوايا الاسرائيلية الحقيقية في الحفاظ على الوجود اليهودي الاستيطاني داخل الأراضي العربية . ويرى دايان ان اسرائيل لن تتخلى عن المستوطنات « ولقد اتخذنا كل الوسائل

الواضحة لكي نضمن ، ليس فقط بقاء المستوطنات . وانما المحافظة عليها ، وربطها مع اسرائيل ، وسيبقى الجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية الى الأبد »[٤٤] .

وفي جلسة مجلس الوزراء الاسرائيلي ، التي عقدت بعد عودة بيغن من زيارته للاسماعيلية في ١٩٧٧/١٢/٢٦ ، طالب شارون بالبدء في تنفيذ استيطان واسع ، ولخص خطته في ثلاثة قرارات :[٤٥] ١ ــ بناء ثلاث مستوطنات في الضفة الغربية خلال ثلاثة اشهر هي ، حارس ، تبوح ، سيلات أ . واقترح اقامة مستوطنة في شيلا ، (لكن الاقتراح رفض بعد ان قرر المستشار القانوني للحكومة ، انه لا توجد في شيلا اراض كافية ، وجرى الاحتيال على هذا الموضوع باقامة معسكر للحفريات الاثرية لتغطية الاستيطان هناك) . ٢ ــ تقرر الاحتفاظ بالمستوطنات في مشارف رفح وتوسيع الأراضي للعمل ، وزيادة السكان. ٣ ــ اقامة ستة ابراج للحفر في سيناء ، وهذا مشروط بموافقة المصريين .

كما أن الحكومة عادت وأكدت على هذه القرارات في جلستها بتاريخ ١٩٧٨/١/١٨ ، بتعديل بسيط ، فيما يخص مستوطنات مشارف رفح ، حيث عارض وايزمان هذا القرار من أجل عدم اغضاب المصريين ، ولكنه أوضح فيما يتعلق بالضفة الغربية « انه لا يوجد في الحكومة من يخالف حقنا على هذا القطاع ، ومعارضتنا إقامة دولة فلسطينية ، ويجب اقامة المستوطنات فيها ، وعدم الاهتمام بالضغوطات من اي جانب »[٤٦] . وانتقد وايزمان الاستيطان التظاهري ، مطالبا ببناء المستوطنات « بصورة منظمة ، واقامة استيطان حكومي ، لضمان قاعدة ملائمة للمستوطنين الجدد والسكان العرب ايضا ، وعدم الاكتفاء بمواقع متفرقة ، والتي تنقصها القوى البشرية »[٤٧] .

السلام حافز مهم لزيادة مشاريع الاستيطان

على ارضية مشروع السلام الاسرائيلي ، المتضمن وضع الأراضي المحتلة تحت سلطة ادارة ذاتية برعاية اسرائيلية كاملة ، طرحت مشاريع ومخططات استيطانية عديدة . وعالجت تلك المشاريع مشاكل وازمات الاستيطان واسباب فشله ، وطرق واساليب العمل مستقبلا ، كي يحقق الاستيطان الصهيوني في الأراضي المحتلة أهدافه كاملة . وانطلقت مشاريع الاستيطان في تلك الفترة من فرضيات اساسية هي ، ان مسيرة السلام التي بدأها السادات بزيارته لاسرائيل ، ستتوصل الى حل وسط يرتبط بمبدأين : ١ ــ ان المصريين لن يتنازلوا عن حقوق الفلسطينيين . ٢ ــ ان اسرائيل لن تتنازل عن التجريد الكامل والمضمون للمناطق التي يتم الجلاء عنها . وهذا التجريد لن يكون قابلا ومضمونا بشكل كامل بالضفة الغربية وقطاع غزة « الا عن طريق استيطان يهودي ، دائم ، وكثيف على امتداد غور الأردن ، ومنطقة مشارف رفح »[٤٨] .

كما تنطلق تلك المشاريع ، من خلال التوقعات ، ان الحل السياسي لمشكلة الأراضي المحتلة خلال السنوات الانتقالية الخمس التالية يكون وفق احد الاحتمالات التالية : ١ ــ اتفاق مع حكومة الأردن . ٢ ــ دولة فلسطينية غربي الأردن . ٣ ــ نظام جمهوري فدرالي مع اسرائيل .

وتربط هذه المشاريع مستقبل الأراضي المحتلة ، باقامة علاقات اقتصادية مع اسرائيل ، وتبادل المنتوجات والخدمات ، وربط شبكات المياه والكهرباء بين اسرائيل والضفة والقطاع . كما ستكون السنوات الخمس القادمة حاسمة في « تشكيل حدود اسرائيل » من خلال حسم موضوع مستقبل الحكم الذاتي . وفيما يلي عرض لأهم المشاريع الاستيطانية التي طرحت لتتلائم مع مشروع السلام الاسرائيلي .

١ ــ مشروع رعنان فايتس : جاء مشروع فايتس ليكمل (حسب قوله) تصوره لمستقبل الأراضي المحتلة وفق مشروع الحكم الذاتي ، والمقرر تنفيذه خلال خمس سنوات . وهذا يستلزم وضع « مشروع رئيسي للاستيطان الريفي ، والمديني »(٤٩) .

يدعو فايتس ، الى تجديد فكرة الاستيطان ، والتعامل مع المعطيات القائمة (الأرض ، المياه ، المناخ) . وهذا يتطلب التخلي عن إقامة مستوطنات ريفية متفرقة ، بل جمعها في مجموعات ، تشكل كل واحدة منها منطقة اقليمية . ويمكن اعتبار المناطق التالية ذات اولوية : أ ــ غور الأردن ، يجب ان تحظى هذه المنطقة بالأولوية ، لأن كل تسوية سياسية يجب ان تستند الى وجود منطقة « استيطانية عازلة » في هذا القطاع الذي يشكل « جزءاً لا يتجزأ من اسرائيل » . ويفضل اقامة هذه المنطقة العازلة نستطيع الموافقة بقدر معين من الطمأنينة على مبدأ حق سكان الضفة الغربية في تقرير المصير . ب ــ قطاع يميت : وتشبه مهمة المستوطنات في هذا القطاع مهمة مستوطنات غور الأردن ، من أجل منع ايجاد اتصال بري بين مصر وقطاع غزة . ح ــ الجليل الجبلي ، يجب المحافظة على اكثرية يهودية ساحقة في هذه المنطقة ، مع الأخذ بالاعتبار ، نوايا سوريا البعيدة من جهة ، ومطامح العرب في اسرائيل « المعروفة والمفهومة » من جهة اخرى . « وقد وضعت منطقة الجليل في المرتبة الثالثة خلال فترة السنوات الخمس ، نظراً لضغط الوقت ، وضرورة انهاء هذه المهمة [الاستيطان] في غور الأردن ، وقطاع يميت خلال هذه الفترة ويجب ان يتخذ تهويد الجليل منذ اليوم زخماً خاصاً . وأن يتصدر سلم الاولويات بعد انتهاء فترة السنوات الخمس »(٥٠) . د ــ تكثيف الاستيطان داخل الخط الأخضر ، وهذا سيتم خلال الفترة الانتقالية للحكم الذاتي . وسيقوم هذا الاستيطان بدور الفاصل الدائم بين سكان اسرائيل وسكان المناطق .

ويميز فايتس بين الاستيطان الريفي ، والاستيطان المديني . ففي حين أن الاستيطان المديني مفتوح ، حيث يوجه كل فرد حياته كما يشاء ، فان الاستيطان الريفي يقوم على المبدأ التعاوني . وينبغي ان يصل عدد سكان المستوطنة المدينية الى عدد معين . فالعامل المقيد بالنسبة للمستوطنات المدينية اذن ، هو الطاقة البشرية . ويقترح حلاً لهذه المسألة عن طريق اعادة توزيع السكان اليهود الذين يتجمعون على الساحل وفي وسط البلاد . ويحدد المشروع سلم اولويات للاستيطان المديني يشمل ١ ــ تهويد الجليل ، والمهمة الأساسية هنا زيادة السكان في المدن الصغيرة مثل ، صفد ، كرمئيل ، شلوحي ، حتسور ، كريات شمونه ، الناصرة . ٢ ــ تطوير القدس ، وبذل الجهود لاقامة توازن بين السكان اليهود والعرب ضمن حدود المدينة . وايجاد ترابط ، وامتداد اقليمي بين اجزاء المدينة ، وتطويرها من خلال تدعيم المنشآت الاساسية فيها . ٣ ــ المدن الحدودية ، وهي المدن التي أقيمت في مناطق الحدود ، وتشكل مراكز اقليمية (كاتسرين في مرتفعات الجولان ومعاليه افرايم في غور الأردن والون شافوت في

غوش عتسيون يميت في مشارف رفح ، ومركز سابير في العربة) من الضروري تطويرها الى مستوطنات مدينية من جميع النواحي . ٤ ــ تعزيز مدن الاعمار . ويوجد منها ثلاثون مدينة ، وقد فشلت هذه التجربة لاسباب عديدة ، اقتصادية واجتماعية ، ويرتبط مستقبل هذه المدن مع « توفير الطاقة البشرية المطلوبة خلال السنوات الخمس القادمة »(٥١) .

ويتوصل فايتس الى استنتاجات محددة هي ، ان قوى الاستيطان لا تكفي حتى للمشروعات التي تتصدر سلم الاولويات . على الرغم من عدم الوصول الى الحجم المطلوب في المراكز المدينية للحفاظ على تطورها العادي . وان سياسة الحكومة الخاصة بتوزيع السكان غير كافية ، ويتعذر تنفيذها ، وهي بحاجة الى اعادة نظر واستخدام وسائل اكثر فاعلية وعملية .

ويتضمن المشروع العملي لفايتس ، اقامة المستوطنات التالية(٥٢) خلال السنوات الخمس القادمة . في المرحلة الأولى ، ستقام ٢٠ مستوطنة كل سنة ابتداء من عام ١٩٧٩ ، وحتى نهاية الخمس سنوات . تكون الأفضلية فيها لـ ١٧ مستوطنة اضافية في غور الأردن (اضافة للمستوطنات القائمة الآن وعددها ٢١) و١٤ في قطاع يميت ، و٢٠ في الجليل ، و١٦ على طول الخط الأخضر وخاصة في منطقة وادي عارة ، والمثلث الصغير الممتد حتى جبل الخليل ، لتقوية الاستيطان اليهودي في هذه المناطق .

وفي المرحلة الثانية ، ستقام ١١ مستوطنة في الجولان ، و١٠ في اطار المشروع الجنوبي ، و٨ في منطقة عربه ، و٦ في النقب ، وتبلغ مجموع الاستثمارات المطلوبة لهذا المشروع ١٣,٣ مليار ليرة .

٢ ــ مشروع وزارة الدفاع أو « مشروع وايزمان » : تقدم بالمشروع اللواء ابراهام شامير ، رئيس شعبة التخطيط في الأركان العامة ، الى لجنة الاستيطان المشتركة بين الحكومة والمنظمة الصهيونية . وهو يستند الى فكرتين رئيسيتين: أ ــ تكثيف الاستيطان حول القدس ، لتكريس الطابع اليهودي لها . ب ــ تقليص التداخلات مع السكان العرب بواسطة شق خطوط اتصال ، تربط المراكز المدينية المقترحة في منطقة السهل مع السامرة . وتربط القدس مع المراكز المدينية الثلاث التي ستقام في منطقتها .

وطبقا لما جاء في المشروع(٥٣) ، ستقام في الضفة الغربية ستة مراكز مدينية ، ثلاثة في يهودا (جفعون ، معاليه ادوميم ، افرات) مخصصة لحاجات الاستيطان في منطقة القدس . وستقام المراكز الثلاثة الاخرى في السامرة (حارس ، كرني شومرون ، النبي صالح) ، تحدد مواقعها الى الغرب من السامرة « لاتاحة امكانية المفاوضة » على مستقبل المنطقة الواقعة شرقي السامرة .

ورغم ان هذه المستوطنات قائمة فعلا (ما عدا افرات) على شكل نقاط استيطانية مؤقتة تابعة لغوش ايمونيم ، فان المشروع يهدف الى توسيعها ، واجراء تغييرات هامة عليها لتتحول الى مراكز مدينية ، لأن امكانيات غوش ايمونيم ضعيفة « ولا تستطيع توفير عدد كبير من الأفراد . وان مستوطناتهم صغيرة وبعيدة عن مراكز السكان في اسرائيل ، وهي لذلك تعاني من مشاكل الحصول على مصدر رزقها »(٥٤) .

٣ ـ مشروع (العشرة آلاف) : عرض هذا المشروع على رئيس الحكومة مجلس مستوطنات الجولان . وهو يقترح استيطان الجولان ، خلال سنتين بنحو ١٠,٠٠٠ مستوطن يهودي (مقابل ٤٠٠٠ اليوم) ، وزيادة الانتاج الزراعي من ٢٧٣ مليون ليرة عام ١٩٧٨ الى ٦٠٠ مليون ليرة عام ١٩٨٠ . كما يهدف المشروع الى تكثيف المستوطنات على طول المرتفعات ، وزيادة الأراضي الزراعية من ٦٧,٠٠٠ دونم الى ١١٥,٠٠٠ دونم خلال نفس الفترة .

٤ ـ مشاريع اخرى : ومن بين المشاريع الأخرى التي طرحت في تلك الفترة ، خطة " اقامة ١٤ مستوطنة(٥٥) في منطقة الجليل ، وعربه في النقب الجنوبي ، خلال عام ١٩٧٨ ، تشترك في تنفيذها الحكومة مع المنظمة الصهيونية .

وأعلنت غوش ايمونيم ، أنها بصدد وضع خطة للاستيطان في الضفة الغربية ، لزيادة السكان اليهود « ليصل الى مليون نسمة خلال ٢٥ سنة »(٥٦) ، والهدف من ذلك الوصول الى تفوق في نسبة السكان اليهود على العرب ، بالاعتماد على هجرة العرب من الضفة الغربية (تقدر المصادر الاسرائيلية عدد المهاجرين من الضفة الغربية بـ ٢٠,٠٠٠ نسمة سنويا) ، وهجرة يهودية معاكسة الى المنطقة .

والواضح من كل المشاريع السابقة ، ان النشاط الاستيطاني ، دخل مع التحركات السلمية بعد زيارة السادات لاسرائيل ، طوراً جديداً. ومهما اختلفت أو تعارضت بعض الآراء والمشاريع ، فان جميع المهتمين بشؤون الاستيطان في اسرائيل يلتقون على ضرورة استيطان الأراضي المحتلة بشكل عام ، والضفة الغربية وقطاع غزة بشكل خاص سواء لمنع عودتها (حسب صيغة شارون) أو سواء لمنع عودة معظم اراضيها (حسب صيغة وايزمان) .

الاستيطان وكامب ديفيد

في الوقت الذي كانت تجري فيه الاستعدادات ، لعقد مؤتمر كامب ديفيد في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ ، اعلنت اسرائيل عن إقامة خمس مستوطنات في غور الأردن ، واعتبرت الادارة الامريكية هذا الاعلان بمثابة عرقلة للمفاوضات الجارية بشأن السلام . والواقع ، أن الحكومة الاسرائيلية كانت تريد من وراء اعلانها عن إقامة المستوطنات ، التأكيد على حقها في الاستمرار باستيطان الضفة الغربية ، وانها « ليست عقبة في طريق السلام » . وان تلك المستوطنات براي بيغن ، هي جزء « من مشروع السلام الاسرائيلي ، ولا تشكل عائقا أمام السلام »(٥٧) . وقد حسمت الحكومة الاسرائيلية موضوع المستوطنات الخمس ، باعلانها أن قرار اقامتها هو قرار نابع عن ضروروات أمنية .

وعلى اثر أزمة إقامة المستوطنات الخمس في غور الأردن ، ونظرا للتطورات السياسية المتعلقة بمؤتمر كامب ديفيـــد ، تولدت الحاجة عند الاسرائيليين لاعادة توضيح وتأكيد مواقفهم بالنسبة للاستيطان في الأراضي العربية المحتلة . وتم عقد لقاء لكتلة الليكود في الكنيست لمطالبة الحكومة « اتخاذ قرار حاسم بخصوص مشاريع الاستيطان في الضفة الغربية »(٥٨) . وبعد نقاشات عديدة طرحت فيها آراء متعددة تلتقي جميعها على ضرورة وضع برنامج حكومي للاستيطان ، يستجيب لمتطلبات المراحل المختلفة ، لخص بيغن موقف الحكومة ، والذي سيحمله الى لقاء كامب ديفيد ، بأنه سيرد بـ « لا » قاطعة ، إذا طلب من

اسرائيل اخلاء المستوطنات ، لأن هذا « ضد مصالحنا الحيوية ... ولن نعتبر مثل هذا الأمر فشلا لنا ، ولكنني آمل أن لا يحصل شيء كهذا »(٥٩) .

تجميد الاستيطان : بعد التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد في ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ ، أعلن بيغن في واشنطن عن تجميد الاستيطان لمدة ثلاثة اشهر ، وهي فترة المفاوضات مع مصر للتوقيع على اتفاقية السلام . وكذب الانباء التي ذكرت أن اسرائيل وافقت على اخلاء الضفة الغربية وقطاع غزة بعد فترة السنوات الخمس ، وأكد على استمرار « وجود الجيش الاسرائيلي في تلك المناطق لضمان الامن، ولن يكون هناك اي جيش آخر ، وستبقى القدس موحدة ، وعاصمة لاسرائيل »(٦٠) .

وبينما كان الاسرائيليون يعلنون عن أن فترة التجميد هي ثلاثة اشهر فقط ، اصر الشريكان الآخران في كامب ديفيد على أن فترة التجميد المتفق عليها هي خمس سنوات . ولكن دايان كشف حقيقة انه لا توجد مطالب مصرية وامريكية لاخلاء المستوطنات في الضفة وقطاع غزة ، وهناك موافقة على « تكثيف الاستيطان ، حيث يستطيع المستوطنون الاسرائيليون بشكل فردي (وليس بصورة منظمة) امتلاك الأراضي ، وبناء المنازل في تلك المناطق »(٦١) . وبرأي دايان أن ما يثار من قبل الادارة الامريكية حول موضوع الاستيطان يهدف الى « مساعدة وزير الخارجية الامريكي أثناء جولته في المنطقة »(٦٢) .
ورغم التزام الحكومة الاسرائيلية العلني بتجميد الاستيطان لفترة ثلاثة اشهر، فانها لم تتوقف لحظة واحدة عن متابعة النشاط الاستيطاني بصورة أو بأخرى . ولكن هذه المرة تحت اسم جديد هو « تكثيف الاستيطان » .

تكثيف الاستيطان : من المعروف ، أن بناء المستوطنة الاسرائيلية يمر في مراحل متلاحقة . فبعد دراسة واختيار المكان ، يجري اختيار « النواة » الاستيطانية التي ستقيم هناك . ومن ثم تقام المساكن المؤقتة ، وبعض التجهيزات الضرورية . واذا ثبت في المستقبل حسن اختيار الموقع ، تبدأ الأعمال الفعلية لتحويلها الى مستوطنة دائمة ، ويضاف اليها مستوطنون جدد ، الخ .

إذن يمكن القول ، إن تكثيف الاستيطان ، هو عمليا تحويل المستوطنات المؤقتة الى دائمة وترسيخها في الموقع . ومع أن الحكومة الاسرائيلية لا تحتاج الى الحجج المقنعة لاستيطان المناطق المحتلة ، فان عامل كسب الوقت في تلك الفترة كان عنصرا هاما قبل الحكم الذاتي ولو أدى ذلك الى عرقلة المفاوضات ، لاننا لسنا ممثلين لسياسات مصر »(٦٣) . وكذلك لان تقوية الاستيطان وتكثيفه ، يمنع « تحويل الادارة الذاتية الى دولة فلسطينية »(٦٤) .

وقد نشطت الدوائر الاستيطانية (الحكومية ، وغير الحكومية) لانجاز أكبر قدر ممكن من مشاريع تطوير وتعزيز المستوطنات ، وفق اطار خطط التكثيف التالية : ١ ــ خصصت الحكومة مبلغ ٣٠٠ مليون ليرة(٦٥) للاسراع بتحويل مستوطنات الجولان المؤقتة الى دائمة ، واقامة مئات المنازل في مستوطنات الضفة الغربية (٥٠٠ منزل في حارس جنوب السامرة ، ١٠٠ في كرني شومرون ، ١٠٠ في الون موريه) وستشق طريق عريضة تربط بين مستوطنات يهودا ، ومستوطنات الخط الأخضر . وسيجري توسيع المركز الاقليمي في الون شافوت ، الواقع في

غوش عتسيون، ب ـ وافقت لجنة المالية بالكنيست على مشروع التكثيف المقدم من دائرة الاستيطان بالوكالة اليهودية[٦٦] ، وصادقت على مبلغ ٧٤١ مليون ليرة ، يوزع منه على الجولان مبلغ ٧٧ مليون لبناء ١١٢ وحدة سكنية ، وعلى السامرة ٥٢١ مليون ليرة لبناء ١٥٠ وحدة سكنية ، وغوش كاتيف ١٠,٢ مليون ليرة ، وخصص مبلغ ٦٠ مليون ليرة لطريق يمر عبر السامرة .

ومن الواضح ان ثلثي الميزانية ، كانت من نصيب مستوطنات الضفة الغربية ، قطاع غزة ، مما يعكس النوايا الاسرائيلية في فرض الأمر الواقع من خلال المفاوضات على مستقبل هذه المناطق ، وفق اطار اتفاقيات كامب ديفيد مع المصريين . وفي هذا السياق فقد اتهم عضو الكنيست أري رون (مبام) الحكومة في نقاش جرى بعد التصويت على ميزانية التكثيف ، انها تصنع ترتيبات السلام مع غوش ايمونيم بدلا من مصر ، وان الحكومة « تفضل وضع الاستثمارات في الضفة الغربية وقطاع غزة بدلا من الاهتمام في تعزيز المناطق الامنية في مرتفعات الجولان وسيناء »[٦٧] .

استئناف الاستيطان بعد فترة التجميد : مع أن النشاط الاستيطاني لم يتوقف خلال فترة التجميد فقد استؤنفت عمليات الاستيطان بعد الأشهر الثلاثة وفقا لما أعلنه بيغن ، بأنه « لن يمر يوم واحد بعد الأشهر الثلاثة دون استيطان »[٦٨] .

ففي منطقة القدس ، اتخذت اللجنة الوزارية للاستيطان قرارا في ١٩٧٨/١٢/٢١ باقامة مستوطنة قروية جماعية بالقرب من مستوطنة عين شيمش . وأجرت وزارة الدفاع تنسيقا مع غوش ايمونيم ، للبحث عن مكان ملائم لاستيطان نواة الون موريه قرب نابلس .. وذكرت اوساط جماعة ايمونيم[٦٩] ، ان الحكومة وعدتهم ببدء الاعمال لبناء المستوطنة خلال اسبوع . وحسب تخطيط الحكومة ، فان الهدف هو تحويل الون موريه الى مركز مديني مثل كريات اربع (القريبة من الخليل) لتصبح « نابلس العبرية » . وكشف رئيس الأركان الاسرائيلي الهدف الحقيقي من وراء اقامة الون موريه بهذا الحجم ، بقوله ان منطقة نابلس حيوية للأمن ، ويمر عبرها « محاور الحركة ، وتساهم مستوطنة الون موريه مع قاعدة التدريب الموجودة جنوب مدينة نابلس في السيطرة على المنطقة »[٧٠] . وقد صادق بيغن قبل سفره الى واشنطن في شباط (فبراير) ١٩٧٩ ، على ميزانية تبلغ ٥٠٠ مليون ليرة لبناء الون موريه في « منطقة نابلس التي لم يكن بها حتى ذلك التاريخ مستوطنات يهودية »[٧١] .

وقررت اللجنة الوزارية لشؤون الأمن في ١٩٧٩/١/٥ إقامة عشر مستوطنات ناحال[٧٢] . ثلاث منها في غور الأردن ، وسبعة في صحراء النقب ، ضمن اطار اعادة توزيع الجيش بعد الانسحاب من سيناء .

كما خصص قسم الاستيطان التابع للمنظمة الصهيونية مبلغ ٨٥٠ مليون ليرة لاقامة مستوطنات وراء الخط الأخضر[٧٣] ، يحمل ٢٥٪ من المبلغ الى ميزانية عام ١٩٨٠ ، ويوزع الباقي الى ١٠٪ لمرتفعات الجولان ، ٢٥٪ لمستوطنات الغور ، ٢٥٪ للضفة الغربية ، ١٥٪ ليميت وقطاع غزة .

وطالبت دائرة الاستيطان في الوكالة اليهودية(٧٤) بمبلغ مليار و٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية كميزانية للاستيطان لعام ١٩٧٩ . ومع ان وزارة المالية رفضت المصادقة الا على نصف المبلغ ، فقد تدخل بيغن وحسم الخلاف بالموافقة على صرف مبلغ مليار و١٠٠ مليون ليرة (يصل هذا المبلغ الى ضعف ميزانية العام الماضي التي بلغت ٥٦٠ مليون ليرة فقط).

ولخص شارون اهداف الحكومة الاسرائيلية من وراء هذه النشاطات « انجاز ٥٧ مستوطنة حتى نهاية عام ١٩٧٩(٧٥) ، وأكد شارون ان العادة كانت سابقا ، اقامة ١٠ مستوطنات كل سنة ، لكن خلال السنة والنصف الماضية (أي فترة حكم الليكود) اقيمت ٢٥ مستوطنة جديده ونحن الآن بصدد اقامة ٣٢ مستوطنة اخرى ، منها ١٢ في الجليل »(٧٦) .

الاستيطان بعد التوقيع على اتفاقية السلام المصرية ـ الاسرائيلية

في رسالة وجهها بيغن الى زعماء المفدال تعهد فيها « بتنفيذ استيطان واسع في الضفة الغربية ، بعد التوقيع على اتفاقية السلام »(٧٧) . وفور اعلان الوفود المتفاوضة في كامب ديفيد في آذار (مارس) ١٩٧٩ عن انها توصلت الى الاتفاق النهائي ، جرت اعمال تسييج ٣٠٠ دونم لاقامة مستوطنة افرات ، بالقرب من غوش عتسيون. كما أعلن الاتحاد الزراعي عن اقامة ثلاث مستوطنات هي ، كوخاف هاشاحر ، واخرى بالقرب من اريحا ، والثالثة في قطاع غزة ، تبلغ تكاليف إقامتها ٢٠ مليون ليرة .

ومن أجل مواجهة مرحلة ما بعد التوقيع على اتفاق السلام ، واستعدادا لمفاوضات الحكم الذاتي ، وتقرير مصير الأراضي المحتلة، وتنفيذا لوعود بيغن القاطعة بشأن القيام بنشاط استيطاني واسع بعد التوقيع على الاتفاقية ، طرحت مشاريع ، ومخططات استيطانية من قبل جميع الدوائر المعنية . وهي تلتقي جميعها حول هدف ربط مصير الضفة الغربية وقطاع غزة باسرائيل ، ومنـع اقامة أي شكل من أشكال الكيان الفلسطيني . وتميزت المشاريـع الاستيطانية في هذه الفترة بسرعة التنفيذ من خلال تخصيص الميزانيات المطلوبة لاقامة المستوطنات التي تقترحها تلك المشاريع .

وكانت أهم هذه المشاريع هي : ١ ـ مشروع شارون ، يستند المشروع(٧٨) على فرضية اساسية ، هي اعتبار الاستيطان في الضفة الغربية ذي أهمية حيوية للأمن ، نظراً لوجود الجبهة الشرقية من جهة ، ووجود الشريط الساحلي الضيق ، من جهة اخرى . ويدعو شارون الى السيطرة على أراض استراتيجية هامة في منطقة السامرة . وسيتم توطين مليون يهودي في منطقة القدس خلال ١٥ ــ ٢٠ سنة . وسيتمتع السكان العرب بحرية كاملة في مواضيع ، الصحة ، والضرائب ، والزراعة والبناء ، والشرطة المحلية ، ولكن هذا لن يؤدي الى إقامة « دولة فلسطينية » في الضفة الغربية .

أما المستوطنات التي يقترح شارون إقامتها فهي، أ ــ الون موريه ب ــ على مسافة ٥ كلم من نابلس ، وبالقرب من قرية روجيب . ب ــ النبي صالح ب وتقع بالقرب من النبي صالح أ ، شمال غرب الرملة . حـ كرني شومرون ب وتقع بين نابلس وطولكرم ، د ــ معاليه أدوميم ب .

وقد خصصت وزارة المالية مبلغ مليار و٦٠٠ مليون ليرة ، وضعت تحت تصرف الوزير شارون ، « لاقامة المستوطنات وراء الخط الاخضر »(٧٩) .

٢ ـ مشاريع الوكالة اليهودية

أ ـ مشروع رعنان فايتس: ستتركز جهود الاستيطان ، حسب المشروع(٨٠) ، في مرتفعات الجولان ، والجليل ، والنقب ، وغور الأردن. وهو يقترح خطة عمل للأشهر الستة المقبلة تتلخص في ١ ـ مد خط أنابيب لنقل المياه من بحيرة طبريا الى غور الاردن ، لتزويد المنطقة بالمياه الضرورية لاقامة المستوطنات . ٢ ـ اضافة ١٦ مستوطنة جديدة في غور الأردن ، تشكل مع المستوطنات القائمة حاليا منطقة عازلة ودائمة . ٣ ـ تحويل مستوطنة معالية افرايم الى مدينة .

وقد وجه شارون انتقاده لمشروع فايتس ، لأن الاستيطان في منطقة غور الأردن فقط معناه « الحكم بالموت على مستوطنات الضفة الغربية وقطاع غزة ، وتسليمها للعرب »(٨١) . واعترف فايتس وهو في معرض دفاعه عن المشروع ، ان اسرائيل « تعاني نقصا في القوى البشرية ، والموارد المالية. لذلك ، فاذا زرعنا المستوطنات في كل المناطق ، فلن نحقق أي هدف استيطاني ، لا في الضفة الغربية ، ولا في غور الاردن ، أو مرتفعات الجولان ، والجليل »(٨٢) .

ب ـ مشروع متتياهو دروبلس : يركز المشروع(٨٣) على استيطان الضفة الغربية للأسباب التالية : ١ ـ للتأكيد على ان الحكم الذاتي لن يطبق على الأرض ، بل على السكان ، وبسبب ذلك يجب السيطرة فوراً على الأراضي في الضفة الغربية . والطريقة الافضل لذلك هي ، الاستيطان السريع على هذه الأراضي . ٢ ـ لمواجهة خطر الجبهة الشرقية ، يجب تقوية المرتفعات المسيطرة على وادي الأردن بواسطة مجموعة من المستوطنات تقام عليها . ٣ ـ يجب استيطان المناطق المزدحمة بالسكان العرب في الضفة الغربية ، لتقليص خطر اقامة دولة فلسطينية . ٤ ـ وسيقنع الاستيطان العرب ، أننا عازمون على الاحتفاظ الى الأبد ، وبكل وسيلة ، بالضفة الغربية .

ويتضمن المشروع ، اقامة ٥٠ مستوطنة جديدة في الضفة الغربية خلال السنوات الخمس القادمة ، اضافة الى ٣٢ مستوطنة قائمة الآن . وفي العام القادم ، يجب اقامة ١٥ مستوطنة في الضفة الغربية ، و٥ في غور الأردن ، و١٠ في الجولان و١٥ في الجنوب وهذا يحتاج لميزانية سبعة مليارات و٢٠٠ مليون ليرة . وسوف تستوعب هذه المستوطنات ١٠٠,٠٠٠ يهودي ، « فاذا استوطن اليهود في الضفة الغربية تكون لنا ، واذا لا فلن تكون لنا »(٨٤) .

وذكرت اوساط حكومية ، (٨٥) ان نهاية العام ١٩٨٠ ستشهد إقامة ١٢ مستوطنة في الضفة الغربية هي، مي عميغ، بركاي، تبوح، حلميش، شفي شومرون، كرني شومرون ب ، النبي صالح ب ، معاليه ادوميم ب ، يتير ، شيكف ، متسبيه يريحوا ، بيت حورون . وسيقام في غور الأردن وحتى نهاية ١٩٨٠ ستة مستوطنات دائمة جديدة هي ، روعي ريمونيم ، كوخاف هاشاحار ، الموغ ب ، محولاه ب ، ونوعيمه .

ومن أجل توفير الاراضي اللازمة للاستيطان ، فقد اصدرت محكمة العدل العليا في شهر نيسان (ابريل) ١٩٧٩ ، قراراً ينص على ان « الاستيطان المدني هو جزء من جهاز الأمن الاسرائيلي »(٨٦) . وأجابت المحكمة بالايجاب على السؤالين التاليين : ١ ـ هل توجد مبررات

عسكرية وأمنية كافية للسيطرة على الأراضي التي تقدم اصحابها العرب شكاوى ضد الحكم العسكري ؟ ٢ . ـ هل يسمح باقامة مستوطنات يهودية مدنية على أراض تمت السيطرة عليها لأغراض عسكرية ؟

ويعني مضمون قرار المحكمة العليا ، ان جميع الأراضي العربية هي رهن لرغبات السلطات الاسرائيلية ، بمجرد اعلانها ان هذه القطعة من الأرض او تلك ، هي ضرورية لحاجات الأمن .

وأن حقيقة ما تكشفه هذه المشاريع ، والخطوات العملية الأخرى (السيطرة على المياه ، مصادرة الأراضي) ، أن السلطات الاسرائيلية تهيىء الضفة الغربية ، وقطـاع غزة ، لتحويلهما الى مقاطعة ملحقة باسرائيل ، يجري تهويدها مع مرور الزمن . وعبر بيغن عن ذلك بقوله « إن قرار هذه الحكومة ، سيكون عكس قرار الحكومة السابقة ، وسوف توافق على ملء السامرة باليهود قدر الامكان »(٨٧) . وطبعا سيتحول السكان العرب في هذه المقاطعة ، الى عمال اجراء عند المستثمرين اليهود .نستوطن ونسيج لأن الادارة الذاتية ستقوم غدا .

إذا كانت حكومات حزب العمل قد اتبعت اسلوبا استيطانيا واضحا ، ومحددا وفق اطار النظرة الى غور الأردن كحدود آمنة ، وربط الضفة الغربية ، بحل اقليمي وسط مع الأردن ، فان الاستيطان في عهد الليكود ، ربما بدا في بعض الأحيان غير محدد المعالم ، إلا أن مشروع الادارة الذاتية الذي تقدم به بيغن في أواخر عام ١٩٧٧ ، عبر بشكل واضح عن اتجاه سياسات الاستيطان ، ومكانة هذه المستوطنات عند تطبيق هذا المشروع . وحدد شارون مستقبل مستوطنات الضفة الغربية ، إذا تحقق الحكم الذاتي بانها « لن تخضع لأي سلطة عربية من اي نوع ، وستكون اسرائيل مسؤولة عن الأمن لمنع المنظمات المعادية من العمل لالحاق الأذى باسرائيل ، ولمنع الاضرار بمصادر المياه في الضفة الغربية التي تتدفق ، سواء لحاجات المزارعين العرب أو لاسرائيل ، ويجب مصادرة الأراضي الحيوية للاستيطان»(٨٨) .

أما قيام دولة فلسطينية ، فلا يوجد في اسرائيل من يوافق على قيامها ، وحتى تضمن اسرائيل عدم وجود اساس مادي « فانها مضطرة اليوم وقبل غد »(٨٩) ، لتحويل الاستيطان في كل انحاء البلاد الى هدف قومي مركزي ، وتقوية الاستيطان ، وتوسيعه في غور الأردن ، ومرتفعات الجولان ، والضفة الغربية ، ومنطقة القدس ، وقطاع غزة .

وفي سياق الاستعداد لقيام الحكم الذاتي الذي تعده السلطات الاسرائيلية ، تشكلت في الضفة الغربية ، وبقرار من الحكومة ، أربع مجالس اقليمية للمستوطنات ، ومجلس خامس في قطاع غزة . وأصدرت وزارة الداخلية انظمة مفصلة تحدد صلاحيات هذه المجالس ، وتنظم عملها . وهذه المجالس هي : ١ ـ مجلس عتسيون، ويشمل المستوطنات الثمانية في غوش عتسيون ، والمناطق المجاورة . ٢ ـ المجلس الاقليمي لغور الأردن ، ويضم تحت سلطته عشرين مستوطنة . ٣ ـ مجلس بيت ـ ايل . ٤ ـ مجلس السامرة . ٥ ـ مجلس قطاع غزة(٩٠).

وسيكون لكل مجلس ، وضع قانوني يسمح له بشراء الأراضي وامتلاكها . وستمنح هذه المجالس للمستوطنات وضعا بلديا مستقلا ، حيث يحررها ذلك من « اشكالات الحكم الذاتي ، وستحظى المستوطنات بطابع الاستقلال الاقليمي »(٩١) .

وتجسد هذه الدائرة ، (التي تبدأ بنشاطات الاستيطان على صيغة ، نستوطن ونسيج لأن الحكم الذاتي سيقام غداً (٩٢) ، وتنتهي بمشروع بيغن ،على أساس أن مصدر الصلاحيات في المناطق هو القانون الاسرائيلي) ، سياسات ضم المناطق ، واخضاعها لحكم اداري ذاتي داخل الحكم الاداري الاسرائيلي ، أو الحكم الاسرائيلي داخل الحكم الذاتي . وقد حرص بيغن على تأكيد ذلك ، بعد الضجة التي اثيرت حول الاستمرار في بناء المستوطنات بعد التوقيع على اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل في ١٩٧٩/٣/٢٦ ، بقوله « ان أي حدود لن تمر في أرض اسرائيل الغربية ، وان الخط الأخضر اختفى ولم يعد له وجود ، وهو موجود فقط في اذهان أشخاص معنيين »(٩٣) .

كما شكل موضوع السيطرة على المياه في الأراضي المحتلة ، وربطها مع شبكات المياه في اسرائيل ، أحد اساليب الحكومة الاسرائيلية في اعطاء الادارة الذاتية المقترحة مضمونها الاسرائيلي المطلوب ، حيث تدعي حكومة اسرائيل ، ان مصادر المياه الجوفية في الضفة الغربية واسرائيل واحدة . لذلك فان الاستخدام غير الصحيح للمياه الجوفية سيؤدي الى ازدياد نسبة الملوحة في هذه المياه ، وهذا يستدعي سيطرة اسرائيل على هذه الآبار لضمان « استخدامها الصحيح » . وفي نفس الوقت اتخذت الحكومة الاسرائيلية قراراً في ١٩٧٩/٢/١٨ بمد خط لانابيب المياه من بحيرة طبريا الى مستوطنات غور الأردن(٩٤) . وتتلخص الأهداف الحقيقية لهذه القرارات ، ايضا في الموقف الرسمي والثابت لحكومة اسرائيل ، من موضوع مستقبل المناطق المحتلة ولتأمين تغذية المستوطنات الاسرائيلية بالمياه ، ومنع قيام « وضع يكون فيه عرب الضفة الغربية في موقع السيطرة على مياه المستوطنات »(٩٥) . إضافة الى الآمال التي تراود الاسرائيليين بزيادة عدد مستوطنات الغور ليصل الى ما بين ٤٠ و٥٠ مستوطنة .

الاستيطان بين الخطط الموضوعة والواقع العملي

مع أن الاستيطان اليهودي لعب دوراً بارزاً في المراحل الأولى لقيام اسرائيل ، محققاً اهداف الايديولوجية الصهيونية في استيطان الأرض ، وتثبيت الحدود ، وانتاج الحاجات الحياتية . إلا انه سرعان ما بدأت وتيرته بالهبوط في أوائل الستينات ، نظراً لمحدودية الوسائل (الأرض ، المياه ، القوى البشرية ، الخ) وبهتان الدافع الايديولوجي عند غالبية اليهود ، اضافة الى عامل رفض الوجود الاسرائيلي ذاته من قبل شعوب المنطقة .

ومع أن تحولا ايجابيا طرأ على النشاط الاستيطاني بعد حرب ١٩٦٧ ، إلا أن هذا بقي محدوداً ايضا بالنسبة للمشاريع والآمال التي كانت معقودة على الاستيطان . وتشير الدراسات الاسرائيلية(٩٦) الى انه على مدى ثلاثين عاما من قيام الدولة (١٩٤٨ ــ ١٩٧٨) فان مجموع المستوطنات التي اقيمت في اسرائيل والأراضي المحتلة تبلغ ٥٨٧ مستوطنة ، يقيم فيها ١٨٠,٠٠٠ نسمة فقط . وهي تتجمع اساسا في المناطق الرئيسية في اسرائيل (منطقة تل ابيب ، ممر القدس ، النقب الشمالي) .

اما الاستيطان في الأراضي المحتلة ، فانه يواجه اليوم صعوبات وعقبات متعددة ، أهمها مقاومة المواطنين العرب للاحتلال ورفضهم لواقعه ، وهم ليسوا على استعداد « لمغادرة اي موقع من خلال ارادتهم الحرة »(٩٧) . كما يشكل عامل التركيب الديمغرافي في الضفة الغربية عقبة

رئيسية اخرى . ففي حين يبلغ عدد السكان العرب في الضفة ٧٠٠,٠٠٠ نسمة (ما عدا سكان القدس الشرقية) يبلغ عدد المستوطنين اليهود فيها ٨٥٠٠ نسمة ، وهو يمثل ١٪ من مجموع السكان(٩٨) . وتصل الزيادة الطبيعية عند العرب الى ٢٠,٠٠٠ نسمة سنويا .

وعلى الرغم من الوضع الاقتصادي المتدهور في اسرائيل فان شارون يحول ميزانيات تطوير الجليل والنقب ومرتفعات الجولان الى الضفة الغربية لأنها حسب تعبيره « أرض ــ اسرائيل الجميلة » وان أفضل الحالات التي يمكن لشارون أن يتوصل اليها ، هي « تحويل نسبة الـ ١٪ الى ٢ أو ٢ $\frac{١}{٢}$ فقط»(٩٩) .

ومن جهة اخرى ، تعاني المستوطنات الاسرائيلية ذاتها مشاكل يومية عديدة ، دفعت ببعض المستوطنات الى حافة الانهيار وتتركز هذه المشاكل اساسا ، بعدم وجود فرص للعمل في نفس موقع المستوطنة ، (نظرا لأن اختيار موقع المستوطنة يتم وفق اعتبارات أمنية غالبا) مما يضطر المستوطن « للسفر يوميا للعمل في مكان عمله السابق وسط البلاد »(١٠٠) . وان استعراض وضع بعض المستوطنات يعطي صورة واضحة عن مدى المشاكل التي تعانيها .

في مستوطنة يميت ، اشتكى سكان المستوطنة ، الى كل من شارون ، وزعنان فايتس أثناء زيارتهما لها في شهر كانون ثاني (يناير) ١٩٧٨ ، واخبروهما بأن مشاكلهم تتعلق بعدم وجود فرص للعمل « واذا لم تبادر الحكومة لاقامة مشاريع تستوعب قوة العمل ، فان حجم المستوطنة لن يزداد »(١٠١) .

أما مستوطنة ارغمان في غور الأردن ، فقد بلغت ديونها ١٦ مليون ليرة ، وترك كثير من اعضائها المكان ، للعمل خارج المستوطنة « من اجل حل أزمتهم المعيشية »(١٠٢) .

وتتعرض مستوطنة دوتان ، التابعة لغوش ايمونيم لخطر الانهيار ، لأن تسع عائلات تنوي مغادرة المستوطنة بسبب خلاف بين « عائلتين على افضلية المكان »(١٠٣) .

ورغم ان كريات اربع هي من أكبر المستوطنات التي اقيمت بعد حرب ١٩٦٧ ، فقد ذكرت ادارة المستوطنة ، انها تعاني من أزمات كثيرة ، وان ١٥ عائلة قد غادرتها « لأن المشكلة الاساسية للمستوطنين الجدد ،والقدامى ،هي ايجاد مصدر رزقهم »(١٠٤) .

ويحصل معظم مستوطني كريات أربع على رزقهم من العمل خارج المستوطنة وخاصة في منطقة القدس .ويعمل البعض الآخر في الحراسة الليلية بالمستوطنة (تبلغ اجرة الحارس ٥٠ ليرة كل يوم) . ورغم ان المستوطنة قائمة منذ ١٠ سنوات فانها لا تزال قليلة السكان . أمّا المهن واعمال البناء التي تحتاجها القرية « فان العرب من سكان الخليل وجوارها يعملون فيها »(١٠٥) .

والأمر الذي يدعو للتساؤل هنا ، انه بينما يتحدث المستوطن عن عدم وجود فرص العمل ، فانهم يعتمدون على العمال العرب في جميع المهن داخل المستوطنات . وان دل هذا على شيء فانه يشير الى عزوف المستوطنين اليهود عن العمل في المهن اليدوية وتحولهم لأصحاب اعمال ، ومستثمرين . فمستوطنات مشارف رفح مثلا تعتمد في الزراعة على العمال العرب « الذين طردوا من المكان عام ١٩٧١ ، بسبب ظروف أمنية ، وهم يعودون اليوم كعاملين بالأجرة عند

اليهود »(١٠٦) . وان مستوطنات المنطقة ، والطرق التي تؤدي اليها ، والأبنية الموجودة فيها ، والمزارع ، كلها اقيمت « برأس المال اليهودي ، والعلم اليهودي ، والعمل العربي »(١٠٧) .

وتبقى مسألة اخيرة تتصل بمشكلة الاستيطان الأساسية وهي ، كيف ستوفر السلطات الاسرائيلية ، الطاقة البشرية اللازمة لانجاز المشاريع الاستيطانية التي تتحدث عن اسكان نحو مليون يهودي في الأراضي المحتلة خلال ٢٥ سنة .

في حقيقة الأمر ، حاولت الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة حل هذه المسألة بوسيلتين : الأولى عن طريق اعادة توزيع السكان بانشاء ما يسمى بمدن التطوير ، وغيرها من المشاريع . واصيبت هذه المشاريع بفشل ذريع ، لأن جميع اليهود يفضلون الاقامة في وسط البلاد ، حيث زالت الدوافع الايديولوجية التي كانت تستخدمها السلطة في توجيه السكان حسب الخطط الموضوعة . أما جماعات الاستيطان التي لا زالت بقايا الافكار الصهيونية تحركها مثل غوش ايمونيم فانهم « لا يتجاوزون الـ ٥٠٠ رجل فقط ، يتنقلون من مكان لآخر ، يقيمون مستوطنات متشابهة »(١٠٨) .

والوسيلة الثانية ، التي تعتمد عليها اسرائيل في زيادة سكان المستوطنات ، هي الهجرة من الخارج من مهاجرين جدد (وخاصة الاتحاد السوفييتي) . والواقع ان الآمال التي كانت معقودة في اوائل السبعينات على المهاجرين اليهود السوفييت اخذت بالانحسار تدريجيا . ومن استعراض لأرقام التساقط عند المهاجرين السوفييت في السنوات الأخيرة ، يتبين لنا التصاعد الملحوظ في نسبة التساقط كل عام ، كما يلي :(١٠٩)

عام ١٩٧٥	وصل الى فينا	١٣,٠٠٠	تساقط	٥,٠٠٠	بنسبة ٣٧٪
عام ١٩٧٦	وصل الى فينا	١٤,٠٠٠	تساقط	٧,٠٠٠	بنسبة ٥٠٪
عام ١٩٧٧	وصل الى فينا	١٧,٠٠٠	تساقط	٨٥٠٠	بنسبة ٥٠٪
عام ١٩٧٨	وصل الى فينا	٢٩,٠٠٠	تساقط	١٧,٠٠٠	بنسبة ٥٧٪

وقد حذر رئيس دائرة الوكالة اليهودية من المستوى الذي وصل اليه التساقط حيث وصل « مؤخراً الى ٧٠٪ وهي مصيبة حقيقية »(١١٠) . وفي آخر احصائية نشرت في آذار (مارس) ١٩٧٩ وصلت نسبة التساقط الى ٧٦٪(١١١) . وحتى هؤلاء القادمين الى اسرائيل ، الحالمين بسعادة الحياة الغربية ، فان نسبة صغيرة جداً منهم تذهب للاستيطان بينما غالبيتهم « لا تريد ان تسمع عن الاستيطان او العمل اليدوي بشكل عام »(١١٢) .

خاتمة

من الواضح ، ان الاستيطان الصهيوني في الأراضي المحتلة دخل في عهد الليكود ، واتفاقات كامب ديفيد ، مرحلة جديدة تتميز بطابع كولونيالي ، استغلالي على حساب الأرض والسكان العرب . ليشكل ركيزة اساسية لضم هذه الأراضي العربية الى اسرائيل تحت صيغ ومشاريع مختلفة . وان جميع الخطط الاستيطانية المطروحة تلتقي على ضرورة الاستيطان

الواسع لجميع الاراضي المحتلة ، مع تحقيق وجود سكاني يهودي كثيف ضمن مراكز مدينية كبيرة وتحويل المستوطنات الى مراكز صناعية تستغل الايدي العاملة العربية .

ورغم ان ما نفذ حتى الآن ، هو أقل بكثير مما جرى الحديث عنه ، نظراً لعدم توفر العامل البشري اساسا ، فان هذا لا يلغي امكانية نجاح الدولة العبرية في ايجاد حلول لهذه المشكلة بوسائل مختلفة ، مثل النجاح في اعادة توزيع السكان ، وجلب المهاجرين باعداد كبيرة من خلال تقديم اغراءات كبيرة الخ . خاصة ان كل الحلول السياسية الاسرائيلية المطروحة لمستقبل الاراضي المحتلة ومن ضمنها مشروع الادارة الذاتية ، تربط مصير هذه الأراضي ، والسكان العرب ، بشكل أو بأخر بالمخططات الاسرائيلية لاقامة مشاريع ، وعلاقات اقتصادية مشتركة .

وأن دعم نضال عرب الأرض المحتلة ، وتعزيز صمودهم يؤدي بشكل قاطع الى افشال مشاريع الاستيطان الصهيونية ، التي يخطط لها أن تكون الركيزة الاساسية لتنفيذ مشروع الادارة الذاتية الذي تريد أطراف كامب ديفيد تطبيقه في الضفة الغربية وقطاع غزة .

---

(١) حنه شاهين ، شؤون فلسطينية ، العدد ٦٧ حزيران ، ١٩٧٧ ، ص ٢٤٣ .
(٢) معاريف ، ١٩٧٧/٥/٢٥ .
(٣) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٧/٥/٢٥ .
(٤) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٧/٥/٢٥ .
(٥) معاريف ، ١٩٧٧/٦/٣ .
(٦) ر . ١ . العدد ١٢٠٠ ، ١٩٧٧/٥/١٩ .
(٧) ر . ١ . العدد ١٢٧٩ ، ١٩٧٧/٨/٢٦ .
(٨) المصدر نفسه .
(٩) ر . ١ ، ١ ، العدد ١٢٢٣ ، ١٩٧٧/٦/٢٠ .
(١٠) مناحيم ميكسون ، يديعوت احرونوت ، ١٩٧٧/٦/١٠ .
(١١) المصدر نفسه ، نقلا عن لسان بوسي ارتسيال احد الناطقين الرسميين باسم غوش ايمونيم .
(١٢) المصدر نفسه .
(١٣) اهارون دولان ، معاريف ، ١٩٧٧/٧/١ .
(١٤) المصدر نفسه .
(١٥) ر . ١ ، ١ العدد ١٢٠١ ، ١٩٧٧/٥/٢٣ .
(١٦) عل همشمار ، ١٩٧٧/٦/٢٣ .
(١٧) مصدر الحاشية ١٣ .
(١٨) ر . ١ ، ١ ، العدد ١٢٢١ ، ١٩٧٧/٦/٢٩ .
(١٩) المصدر نفسه .
(٢٠) مصدر الحاشية ١٣ .
(٢١) عرض رعنان فايتس تفاصيل مشروعه الاستيطاني في مقابلة اجرتها معه يديعوت احرونوت ١٩٧٧/٩/٢٠ .
(٢٢) اهارون باكر ، يديعوت احرونوت ، ١٩٧٧/٩/٢٣ .
(٢٣) المصدر نفسه .
(٢٤) معاريف ، ١٩٧٧/٩/١ .
(٢٥) نشرت تفاصيل المشروع صحيفة معاريف ١٩٧٧/٧/٣ .
(٢٦) المصدر نفسه .
(٢٧) معاريف ، ١٩٧٧/٨/٣ .
(٢٨) معاريف ١٩٧٧/٨/١٨ .
(٢٩) ورد نص تصريح تسيبوري في هارتس ، ١٩٧٧/٨/١٩ .
(٣٠) شموئيل سيغف ، معاريف ، ١٩٧٧/٨/١٩ .
(٣١) تصريح لابا ايبان اثناء توقفه في مطار لندن ، وهو في طريقه لواشنطن ، معاريف ، ١٩٧٧/٧/٢٩ .
(٣٢) معاريف ، ١٩٧٧/٨/٢١ .
(٣٣) امنون روبنشتاين ، هارتس ، ١٩٧٧/٩/٣٠ .
(٣٤) معاريف ، ١٩٧٧/٩/٣٠ .
(٣٥) المصدر نفسه .

(٣٦) مناحيم ميكلسون ، يديعوت احرونوت ، ١٩٧٧/٩/٢٥ .
(٣٧) يهودا ليطاني ، هارتس ، ١٩٧٧/٩/٣٠ .
(٣٨) المصدر نفسه .
(٣٩) ابن حاييم ، دافار ١٩٧٧/١٠/٢٦ .
(٤٠) ر ، ١ ، أ ، العدد ١٣٠٥ ، ١٩٧٧/٩/٢٩ .
(٤١) المصدر نفسه .
(٤٢) مصدر الحاشية ٣٩ .
(٤٣) المصدر نفسه .
(٤٤) من مقابلة لدايان مع التلفزيون الاسرائيلي ، هارتس ، ١٩٧٨/١/١ .
(٤٥) عوزي بنزيمان ، هارتس ، ١٩٧٨/٢/٢٤ .
(٤٦) المصدر نفسه .
(٤٧) المصدر نفسه .
(٤٨) كما جاء في مشروع رعنان فايتس ، دافار ، ١٩٧٨/٨/٢٥ .
(٤٩) تفاصيل المشروع في المصدر (٤٨) .
(٥٠) المصدر نفسه .
(٥١) المصدر نفسه .
(٥٢) معاريف ، ١٩٧٨/٨/٢٥ .
(٥٣) نشرت تفاصيل المشروع هارتس ، ١٩٧٨/٥/١٩ .
(٥٤) عيزر وايزمان ، نقلا عن يهودا ليطاني هارتس ، ١٩٧٨/٥/٢٢ .
(٥٥) دافار ، ١٩٧٨/٤/١٩ .
(٥٦) المصدر نفسه .
(٥٧) من مقابلة بيغن مع صحيفة نيوزويك ، نقلا عن هارتس ، ١٩٧٨/٨/٢١ .
(٥٨) دافار ، ١٩٧٨/٨/٢١ .
(٥٩) معاريف ، ١٩٧٨/٨/٢٤ .
(٦٠) دافار ، ١٩٧٨/٩/٩ .
(٦١) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٨/٩/٢٢ .
(٦٢) هارتس ، ١٩٧٨/٩/٢١ .
(٦٣) تصريح لدايان عشية توجهه الى واشنطن في ١٩٧٨/١٠/٢٥ ، يديعوت احرونوت ١٩٧٨/١٠/٢٦ .
(٦٤) يوسف حاريف ، معاريف ١٩٧٨/٩/٢٩ .
(٦٥) مصدر الحاشية ٦٣ .
(٦٦) دافار ١٩٧٩/١/١٨ .
(٦٧) معاريف ١٩٧٩/١/١٨ .
(٦٨) من مقابلة بيغن للسفير الامريكي في اسرائيل نقله يوسف حاريف ، معاريف ١٩٧٨/٩/٢٩ .
(٦٩) دافار ، ١٩٧٩/١/١٠ .
(٧٠) هارتس ، ١٩٧٩/٦/٢١ .
(٧١) دافار ، ١٩٧٩/٣/٤ .
(٧٢) هارتس ، ١٩٧٩/١/١٦ .
(٧٣) دافار ، ١٩٧٩/٢/٢٧ .
(٧٤) يوسف تسوريال ، معاريف ١٩٧٩/٣/٥ .
(٧٥) من حديث لشارون امام كتلة المفدال بالكنيست ، نشرته معاريف ، ١٩٧٩/١/٢٢ .
(٧٦) المصدر نفسه .
(٧٧) معاريف ١٩٧٩/٣/٢٢ .
(٧٨) شرح شارون تفاصيل مشروعه امام نادي الهندسة بتل - ابيب ونشرته هارتس ، ١٩٧٩/٣/٢٥ .
(٧٩) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٥/٣ .
(٨٠) عرض رعنان فايتس تفاصيل هذا المشروع امام الصحافيين في القدس،نقلا عن ر ، ١ ، أ العدد ١٧٧٢ ، ١٩٧٩/٥/١٥ .
(٨١) معاريف ، ١٩٧٩/٥/١٧ .
(٨٢) ر ، ١ ، أ ، العدد ١٨٠٠ ، ١٩٧٩/٦/١٩ .
(٨٣) طرح متتياهو دروبلس تفاصيل مشروعه امام الصحافيين بالقدس ونشرته يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٥/٢٠ .
(٨٤) هارتس ، ١٩٧٩/٥/٢٠ .
(٨٥) المصدر نفسه .
(٨٦) بروفسور ناتان فينبرغ ، هارتس ، ١٩٧٩/٤/١٥ .
(٨٧) ر . ١ . أ ، العدد ١٧٠٧ ١٩٧٩/٤/٢٤ .
(٨٨) من مقابلة مع شارون ، معاريف ١٩٧٩/٣/٢٣ .
(٨٩) المصدر نفسه .
(٩٠) ر . ا . أ العدد ١٧٣٥ ، ١٩٧٩/٣/٢٧ .
(٩١) المصدر نفسه .
(٩٢) يهودا ليطاني ، هارتس ، ١٩٧٩/٥/١٨ .
(٩٣) من خطاب لبيغن امام مركز حيروت في تل ابيب دافار ، ١٩٧٩/٤/٣٠ .
(٩٤) يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٥/١٩ .
(٩٥) المصدر نفسه .
(٩٦) ملحق دافار ١٩٧٩/٤/٢٥ .
(٩٧) يوفال البيستور ،معاريف ، ١٩٧٩/٦/٩ .
(٩٨) يهودا ليطاني ، هارتس ، ١٩٧٩/٢/٢٥ .
(٩٩) المصدر نفسه .
(١٠٠) معاريف ، ١٩٧٩/٨/١٨ .

(١٠١) المصدر نفسه .
(١٠٢) ر.I.I العدد ١٨٥٣ ، ١٩٧٩/٨/٢٠ .
(١٠٣) معاريف ١٩٧٨/١٢/٢٢ .
(١٠٤) يهودا ليطاني ، هارتس ، ١٩٧٨/٤/١٤ .
(١٠٥) المصدر هنفسه .
(١٠٦) دان بابلي ، دافار ، ١٩٧٨/٥/٢٩ .
(١٠٧) المصدر نفسه .
(١٠٨) من بيان لحزب العمل ، معاريف ، ١٩٧٩/١/١ .
(١٠٩) هارتس ، ١٩٧٩/٣/٢١ .
(١١٠) معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٧ .
(١١١) هارتس ، ١٩٧٩/٣/٢٠ .
(١١٢) تادي بروس ، دافار ، ١٩٧٧/٩/٩ .

صبري جريس

تأسيس "الوطن القومي اليهودي" في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٢٣

٢ - نظام الانتداب وأطره "تموز ١٩٢٠ - ايلول ١٩٢٣"

كانت السنوات الثلاث التي تلت انتهاء الحكم العسكري البريطاني ، وبداية الادارة المدنية في فلسطين اعتبارا من ١ تموز (يوليو) ١٩٢٠ ، فترة تبلور نظام الانتداب البريطاني على البلد . وقد تأثر هذا النظام ، بصيغته النهائية ، بمواقف الاطراف المختلفة منه ، في ضوء مصالح كل منهم : سواء كان اولئك هم الحلفاء او بريطانيا او الصهيونيون او العرب الفلسطينيون . وكانت المصالح المتضاربة او ، احيانا ، غير المتطابقة لتلك الأطراف المتصارعة ، وما نجم عنها من ضغوط ، هي التي اطالت امد تلك الفترة ، نسبيا .

هربرت صموئيل : اول مندوب سام بريطاني في فلسطين

اعلنت بريطانيا ، بعد اختيارها دولة منتدبة على فلسطين في ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ ، من قبل مجلس عصبة الأمم المنعقد في سان ريمو ، نيتها الغاء الحكم العسكري في البلد ، واستبداله بادارة مدنية ، ابتداء من اول تموز (يوليو) في السنة ذاتها . وفي الوقت نفسه ، اعلن زعماء بريطانيا ، الذين مثلوها في المؤتمر ، اختيار هربرت صموئيل مندوبا ساميا بريطانيا اول في فلسطين . ولم يكن ثمة افضل من هذا الاختيار لتنفيذ مشروع الوطن القومي : اذ كان صموئيل ، وهو اول وزير يهودي في الحكومة البريطانية ، من اركان تلك المجموعة من الزعماء البريطانيين الذين نشطوا منذ نشوب الحرب العالمية الأولى ، لحمل حكومتهم على تبني ذلك المشروع وما استلزمه من سياسة ادت الى وعد بلفور[1] . وقد قبل صموئيل منصبه هذا ، بعد استشارة وايزمن وسوكولوف وموافقتهما : اذ كان الثلاثة قد حضروا اجتماعات عصبة الأمم التي عقدت في سان ريمو ، بناء على دعوة من رئيس حكومة بريطانيا لويد جورج[2] . ولم يكتف الصهيونيون بذلك ، بل عمدوا ايضا ، فيما بعد ، الى تعيين عدد من مؤيديهم في المراكز الادارية الحساسة في فلسطين ، كان من ابرزهم نورمان بينتويش ، الذي عين مستشارا قضائيا لحكومة فلسطين ، وبصفته هذه كان مسؤولا ايضا عن وضع نص القوانين التي تصدرها حكومة الانتداب ؛ والبرت حايمسون ، الذي عين رئيسا لدائرة الهجرة . ونقل ماكس نوروك من عمله في المنظمة الصهيونية ، وعين في مركز المساعد الأول للسكرتير الرئيسي لحكومة الانتداب.[3]

تتمة للمادة المنشورة في العدد السابق من شؤون فلسطينية ، العدد ٩٥ ، ص ـ ٢ ـ

وصل صموئيل الى فلسطين في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٢٠ ، وباشر فوراً اقامة الادارة المدنية وتهيئة أوضاع البلد لارساء اسس الوطن القومي اليهودي : فأعلن في حفل تنصيبه ، في ٨ تموز (يوليو) ١٩٢٠ ، اعادة فتح مكاتب تسجيل الاراضي (الطابو) ، التي اغلقت منذ نشوب الحرب العالمية الاولى ، وازال بذلك عقبة رئيسية من طريق مؤسسات شراء الأراضي الصهيونية ، كادت تشل نشاطها : إذ أن نقل ملكية الارض يتم رسميا في مكاتب الطابو فقط . واستكمالا لذلك ، انشئت ، فيما بعد ، محاكم لتسوية نزاعات ملكية الأراضي ، وقسم للمساحة (٤) . وكان صموئيل قد اعلن أيضا ، في المناسبة نفسها ، توسيع مجال الأشغال العامة ، كشق الطرق واقامة المنشآت وغير ذلك مما كانت الحكومة تموله . وكان عدد لا بأس به من المهاجرين اليهود الجدد يعتاشون ، على اثر قدومهم الى فلسطين ، من عملهم في تلك الورش . ووعد صموئيل أيضا بانشاء ادارة مدنية للاشراف على السكك الحديدية ، وتعهد ببذل جهود لاقامة محطات توليد للكهرباء ، وانشاء اجهزة اتصال تلغرافية ، ولتجفيف المستنقعات وتحسين الأوضاع الصحية والثقافية ، وغيرها(٥) . وفي آب (اغسطس) ١٩٢٠ ، استؤنفت الهجرة الى فلسطين(٦) على اثر صدور قانون خاص بذلك ، سمح بموجبه بدخول ١٦,٥٠٠ مهاجر يهودي الى فلسطين ، خلال سنة . أما في تشرين الأول (اكتوبر) من السنة نفسها ، فقد أصدر صموئيل أمرا اعتبرت العبرية بموجبه لغة رسمية في فلسطين ، (بالاضافة الى العربية والانكليزية) ، قبل أن يقر ذلك بموجب صك الانتداب ، وان لم تستعمل العبرية في الاقضية التي يقل فيها عدد السكان اليهود عن الخمس(٧) .

وفي الوقت نفسه ، صدرت أوامر بالعفو عن المحكومين بسبب اضطرابات نيسان ، من عرب ويهود ، ومن بينهم أمين الحسيني وعارف العارف وزئيف جابوتينسكي ، فيما بدا خطوة أولى على طريق سياسة « المحافظة على التوازن » بين العرب واليهود . أما فيما يتعلق بنظام الحكم في فلسطين ، فقد أعلن صموئيل نيته في تشكيل مجلس استشاري ، لاسداء النصح للمندوب السامي بشأن ادارة البلد . وتقرر ان يرئس المندوب السامي نفسه هذا المجلس ، المكون من عشرين عضوا ، نصفهم من الموظفين البريطانيين ، والنصف الآخر من الفلسطينيين ، بينهم سبعة من العرب (أربعة مسلمين وثلاثة مسيحيين) ، وثلاثة من اليهود(٨) . وفي مقابل ذلك ، أقيمت تدريجيا ادارات مختلفة ، على شكل دوائر ، كانت أكثرية كبار الموظفين فيها (بما في ذلك جهازا القضاء والاعداء العام) من البريطانيين(٩) .

صك الانتداب ومضمونه

كان مجلس عصبة الأمم ، المنعقد في سان ريمو ، قد قام أيضا ، قبيل اتخاذ قراره بفرض الانتدابين البريطاني والفرنسي على بلدان المشرق العربي ، بمناقشة مشروع صك الانتداب على فلسطين ، الذي قدمته بريطانيا ، ولكنه لم يصادق عليه نهائيا . وقد تأجلت المصادقة لفترة غير قصيرة ، لأسباب عديدة ، منها أن ايطاليا علقت موافقتها على القرار ، الى ان يستجاب لطلباتها المتعلقة بمناطق تركيا الآسيوية (١٠) . كذلك رفضت تركيا « التنازل عن حقوقها » في المشرق العربي ، ولم يتم ذلك الا عند توقيع اتفاقية سيفر ، في ١٠ آب (اغسطس) ١٩٢٠ . الا ان تلك الاتفاقية لم تحظ بالمصادقة النهائية من قبل السلطات التركية ، على اثر تسلم أتاتورك الحكم في البلد . كذلك حرصت بريطانيا ، من ناحيتها ، على حمل الولايات المتحدة ،

التي احجمت عن الانضمام الى عصبة الامم ، على الاعتراف بمشروع اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين . ولم يتم ذلك الا في ٣٠ حزيران ١٩٢٢ ، عندما اتخذ الكونغرس الأميركي ، نتيجة جهود بذلها الصهيونيون والبريطانيون ، قرارا يعلن فيه ان الولايات المتحدة « تحبذ انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين »(١١) . ولم تكتف بريطانيا بذلك ، بل حملت الولايات المتحدة ، عند توقيع المعاهدة البريطانية ـ الاميركية سنة ١٩٢٤ ، على ادخال نص وعد بلفور في مقدمتها ، بشكل تفوح منه رائحة الموافقة على الانتداب البريطاني في فلسطين ، وذلك لقاء منح مواطني الولايات المتحدة تسهيلات تجارية في البلد ، والسماح لشركة اميركية بالتنقيب عن النفط في منطقة النقب ، في جنوب فلسطين(١٢) . وبعملها هذا ، ضمنت بريطانيا موافقة كل الدول الكبرى على مشروع اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين (وكانت فرنسا وايطاليا قد اعلنتا موافقتهما على ذلك سنة ١٩١٨) . كذلك ساهمت معارضة العرب الفلسطينيين ، التي تبنتها دوائر نافذة في بريطانيا ، من جهة ، واعادة النظر في مصير شرق الأردن ، من قبل بريطانيا ، من جهة اخرى ، في تأخير المصادقة النهائية على صك الانتداب ، من قبل عصبة الأمم . ولم يتم ذلك الا في ٢٤ تموز ١٩٢٢ .

ولكن على الرغم من هذا التأخير ، كانت نصوص الانتداب هي الأساس القانوني ، الذي استند اليه الحكم المدني البريطاني في فلسطين ، منذ بدايته في الأول من تموز ١٩٢٠ . ولم يكن من المستغرب ، والحال هذه ، ان يبذل الصهيونيون جهودا كبيرة لصوغ صك الانتداب بالشكل الذي يخدم مصالحهم . وكانت المفاوضات بين الحكومة البريطانية والحركة الصهيونية من جهة ، وبين المجموعات الصهيونية المختلفة مع بعضها البعض من جهة اخرى ، بشأن اقرار الصيغة النهائية لصك الانتداب ، قد استمرت لاكثر من سنة ؛ اذ بدأت في مطلع سنة ١٩١٩ ولم تنته الا خلال الأشهر الأخيرة من السنة التالية . وقدمت ، خلال هذه الفترة ، مشاريع عدة من قبل الحركة الصهيونية ، وتبودلت بينها وبين الحكومة البريطانية نحو ١٠ صيغ وصيغ مضادة(١٣) ، قبل الاتفاق على نص صك الانتداب النهائي واقراره(١٤) .

بدأت المحاولات لصياغة صك الانتداب في آذار (مارس) ١٩١٩ ، عندما قدم الزعيم الصهيوني الاميركي فرانكفورتر مسودة نص خاصة به ، في محاولة للتوفيق بين وجهات النظر الصهيونية المختلفة في هذا الصدد . وفي الشهر نفسه ، بدأت المرحلة الأولى من المحادثات بشأن النص بين الصهيونيين والسلطات البريطانية ، واستمرت حتى منتصف تموز من السنة نفسها ،حيث تم وضع مشروع الصك الأول . وفي ايلول (سبتمبر) بدأت جولة جديدة من المحادثات فيما يتعلق بهذا المشروع ، استناداً الى ملاحظات كان بلفور قد قدمها ، في حينه ، على اقتراحات الصهيونيين لمؤتمر الصلح . وانتهت هذه المرحلة في منتصف كانون الأول (ديسمبر) من السنة نفسها ، باقرار « نص موقت متفق عليه »(١٥) بين الصهيونيين والبريطانيين . ولكن مع اقرار الانتداب البريطاني على فلسطين ، في نيسان ١٩٢٠ ، راحت السلطات البريطانية تعيد النظر في الصك لعرضه على مجلس عصبة الأمم للمصادقة عليه . وانتهت هذه المرحلة في حزيران من السنة نفسها . ولكن الفرنسيين والايطاليين فوجئوا بهذا النص بسبب « لهجته اليهودية »(١٦) ، فاضطر البريطانيون الى اعادة النظر فيه ، مرة أخرى ، محاولين التخفيف من تلك اللهجة . الا ان الصهيونيين علموا بالأمر ، فبذلوا كل ما في وسعهم لمنع ذلك ، ونجحوا

في مساعيهم تلك ، إذ أمنت مصالحهم ، بموجب النص النهائي الذي انتهى اعداده في منتصف كانون الأول ١٩٢٠ (وهو النص الذي وافق عليه مجلس عصبة الأمم أخيراً) كما يشتهون ، وذلك على حساب حقوق العرب الفلسطينيين ومصالحهم(١٧) . فقد كان الهدف الأساسي من اقرار نصوص صك الانتداب ، بالشكل الذي تم فيه ذلك ، العمل على اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، مساعدة سكان البلد للحصول على استقلالهم ، كما كان الهدف من تبني نظام الانتداب عموماً . وهناك من يدعي ان فرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، بسبب نواقصه تلك ونتيجة لتعارضه مع نصوص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم وروحها ، وهي المادة التي تشكل الاساس القانوني لنظام الانتداب بأسره ، كان عملا غير شرعي(١٨) . غير أن ذلك لم يمنع بريطانيا ، على اية حال ، من حكم فلسطين بموجبه .

ويظهر حرص واضعي صك الانتداب على تحويله الى اداة لتحقيق الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، في بنود عدة منه ، بما في ذلك مقدمته ، التي ضمنت نص تصريح وعد بلفور . وكان الصهيونيون قد شطبوا من مشروع الصك الذي قدموه ، حتى تلك الفقرة ، من وعد بلفور ، القاضية بالمحافظة على الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين ، الا ان الفقرة اعيدت اليه ، بسبب اصرار مندوب فرنسا على ذلك في مؤتمر سان ريمو ، وبعد ان تنازل عن تحفظاته من بنود اخرى في الصك(١٩) . غير ان الصهيونيين نجحوا ، في مقابل ذلك ، في ادخال فقرة اخرى الى المقدمة ، كانوا قد فشلوا في ادخالها الى نص وعد بلفور في حينه ، تنص على ان فرض الانتداب البريطاني على فلسطين وتنفيذ وعد بلفور ، يعدان « اعترافا بالصلة التاريخية التي تصل الشعب اليهودي بفلسطين ، والدوافع التي تبعث على اعادة انشاء وطنهم القومي في تلك البلاد » . وتجد مقدمة صك الانتداب هذه تعبيرا عنها في عدد من مواده ، التي تفسرها وتضع الشروط والادوات الكفيلة بتنفيذها : فالمادة الثانية من الصك تنص ، مثلا ، على ان « تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي ... وتطوير انظمة الحكم الذاتي ، وضمان الحقوق المدنية والدينية [لا السياسية] لجميع سكان فلسطين ، بصرف النظر عن الاجناس والاديان » . اما المادة الرابعة ، فتدعو حكومة الانتداب الى الاعتراف « بوكالة يهودية ... كهيئة عمومية تشير وتعاون في ادارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك مما يؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ، وتساعد وتشترك في تطوير البلاد ، تحت اشراف حكومتها الدائم، ويعترف بأن المنظمة الصهيونية العالمية هي هذه الوكالة ... ما دامت الدولة المنتدبة ترى ان نظامها وتشكيلها يجعلانها صالحة وملائمة لهذا الغرض » . كذلك يسدى صك الانتداب النصح للمنظمة الصهيونية العالمية بأن « تتخذ ما يلزم من التدابير ، بعد استشارة الحكومة البريطانية ، للحصول على معونة [اليهود غير الصهيونيين] الذين يرغبون في المساعدة في انشاء الوطن القومي اليهودي » . وفرضت المادة السادسة من الصك، على حكومة الانتداب « ان تسهل هجرة اليهود الى فلسطين في ظروف ملائمة، وتنشط ، بالاتفاق مع الوكالة اليهودية .. استيطان اليهود في الأراضي الزراعية ، بما فيها الأراضي المدورة والأراضي البور غير المطلوبة للاعمال العمومية » . وجاء في المادة السابعة ان « على حكومة فلسطين ان تسن قانونا للجنسية يتضمن نصوصا بتسهيل حصول اليهود ، الذين يتخذون فلسطين مقاما دائما ، على الجنسية الفلسطينية » . وسمحت المادة الحادية عشرة لحكومة فلسطين بأن « تتفق مع الوكالة اليهودية .. على ان تدير او تستثمر ، بشروط

الانصاف والعدل ، الاعمال والمصالح العمومية ، وتطور مرافق البلاد الطبيعية ، بحيث لا تتولى الحكومة بنفسها هذه الامور مباشرة » . واخيرا ، اعترفت المادة الثانية والعشرون باللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين ،باعلانــها ان « تكون الانكليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية في فلسطين »(٢٠) . وكانت الادارة العسكرية البريطانية في فلسطين قد احجمت ، في حينه ، عن اتخاذ مثل هذه الخطوة .

رسم حدود فلسطين الشمالية

كانت القضية الثانية التي بحثها مجلس عصبة الامم في سان ريمو ، فيما يتعلق بفلسطين ، هي قضية حدود البلد ، رغم انه لم يتخذ ، آنذاك ، قرارا نهائيا بشأنها . وكانت مسألة الحدود هذه موضع خلاف بين بريطانيا وفرنسا ، اللتين استمرت المفاوضات بينهما بهذا الشأن فترة غير قصيرة . وقد انحصر الخلاف بين الدولتين في مسألة حدود فلسطين الشمالية والشمالية ــ الشرقية فقط : فالحدود الغربية هي البحر ، والجنوبية ، بين فلسطين ومصر ، كانت تلك التي فرضتها بريطانيا على تركيا سنة ١٩٠٦، ثم بقيت على حالها بعد اقرار الانتداب البريطاني على فلسطين ، بينما خضع تعيين الحدود الشرقية لمشيئة بريطانيا وحدها ، التي كانت تسيطر على فلسطين (وشرق الاردن) والعراق . ووفقا لاتفاقية سايكس ــ بيكو ، كانت حدود فلسطين الشمالية تقع على خط مستقيم يمتد من شمال مدينة عكا الى شمال بحيرة طبريا . لكن هذه الحدود لم تحظ برضى البريطانيين والصهيونيين ، الذين وحدوا جهودهم للعمل على توسيعها ، لتضم ــ على حد تعبير لويد جورج ــ « فلسطين التوراتية » ، « من دان [في الشمال] الى بئر السبع [في الجنوب] » ، بحيث تقع ضمنها مصادر المياه في الشمال ، كنهري الليطاني وبانياس وبحيرة الحولة وغيرها(٢١) . وكانت لجنة الشرق التابعة لمجلس الحرب البريطاني ، التي اجتمعت في كانون الأول سنة ١٩١٨ ، للبحث في طلبات بريطانيا بشأن فلسطين ، في مؤتمر الصلح ، قد اوصت ايضا بـ « بذل كل جهد ... لتأمين تعديل عادل لحدود فلسطين ، في الشمال والشرق والجنوب »(٢٢) .

واثناء انعقاد مؤتمر الصلح ، في اوائل سنة ١٩١٩ ، اثيرت مسألة حدود فلسطين الشمالية ، ودار نقاش واسع بشأنها ، استمر وقتا غير قصير . فقد طالبت بريطانيا بتوسيع تلك الحدود نحو الشمال . لتضم مصادر المياه في المنطقة ، او ــ في حال عدم الاستجابة لطلبها هذا ــ حمل فرنسا على الالتزام بعدم تحويل مجاري نهر الاردن ، اذا وقعت في المنطقة الخاضعة لانتدابها ، حتى لا تحرم فلسطين من المياه الضرورية لها . ولدعم هذه الطلبات ، اعلن لويد جورج امام المؤتمر « ان بريطانيا ستوافق فقط على قبول انتداب على فلسطين حقيقية ، فلسطين التاريخ القديم ، التي يجب الا تقتصر على صخور يهودا الجرداء ، التي يمكن ان تحول ، في اية لحظة ، الى صحراء بقطع المياه عنها ... »(٢٣) . الا ان المندوب الفرنسي رفض الاستجابة للطلبات البريطانية ، موضحا ان المياه في الشمال ضرورية ايضا لري الأراضي التي تمر فيها . وحاول الصهيونيون الضغط على المؤتمر ، اثناء انعقاده : فقام برانديس ، بايعاز منهم ، بارسال برقية الى لويد جورج ، في ١٦ شباط (فبراير) ١٩١٩ ، طالبا منه العمل على توسيع حدود فلسطين الشمالية ، لتضم نهر الليطاني ومصاب المياه في جبل الشيخ ، وكذلك سهل الجولان وحوران . غير ان المندوب الفرنسي رفض هذا الطلب ايضا ، وعلق على البرقية بقوله

انها تدل على ان لدى برانديس شعورا مبالغا فيه ، بأهمية شخصه[٢٤] . ولقد انفض مؤتمر الصلح دون اتخاذ قرار بشأن الحدود .

غير ان البريطانيين لم يتوقفوا عن مساعيهم الهادفة الى تعديل حدود فلسطين الشمالية ، واستمرت ضغوطهم على الحكومة الفرنسية ، الى ان تكللت اخيرا بالنجاح . فخلال المفاوضات بشأن الاتفاقية البريطانية ــ الفرنسية ، التي وقعت في منتصف ايلول ١٩١٩ واعترفت بريطانيا بموجبها بالنفوذ الفرنسي في سوريا ، استطاع البريطانيون اقناع الفرنسيين بالموافقة على توسيع الحدود : فاستبدل خط الحدود الشمالية ، الذي كان قد رسم بموجب اتفاقية سايكس ــ بيكو ، بخط اخر ، شبه مستقيم ، يمتد من الناقورة الى شمال بحيرة الحولة . ولكن حتى هذه الحدود الجديدة لم تحظ برضى البريطانيين والصهيونيين : اذ بقيت مصادر المياه الرئيسية في الشمال خارجها ، فجددوا ضغوطهم على فرنسا . ومنذ منتصف سنة ١٩٢٠ ، بدات جولة جديدة من المفاوضات بين البريطانيين والفرنسيين ، لتسوية المشاكل المتعلقة بالحدود وغيرها ، الناجمة عن فرض الانتدابين البريطاني والفرنسي على بلدان المشرق العربي . وانتهت تلك المفاوضات باتفاقية بين الطرفين ، وقعت في كانون الأول ١٩٢٠[٢٥] . وقد نصت تلك الاتفاقية ، فيما نصت عليه ، على توسيع حدود فلسطين الشمالية ، مرة اخرى ، بشكل يضم ذلك المستطيل من الأراضي (« الاصبع ») ، الواقع الى الشمال من طبريا ، مع المستوطنات اليهودية الموجودة فيه ، وهي المطلة وتل حاي وكفار غلعادي وغيرها ، التي كانت قد تعرضت لهجوم العرب عليها في آذار ١٩٢٠[٢٦] . وفي مقابل ذلك تم الاتفاق على السماح لسلطات الانتداب البريطاني باستغلال فائض مياه نهري اليرموك والاردن لري اراضي فلسطين[٢٧] . كما نصت الاتفاقية على ضرورة تعيين لجنة من قبل الدولتين ، لرسم الحدود على الطبيعة . وقد باشرت هذه اللجنة ــ بعد تعيينها ــ عملها في مطلع سنة ١٩٢٢ ، ورسمت الحدود من البحر المتوسط حتى الحمة ، بشكل ضمت معه بحيرتا طبريا والحولة وجزء من مصادر مياه نهر الاردن الى فلسطين . وفي السنة التالية ، وقعت اتفاقية جديدة بين بريطانيا وفرنسا بشأن الحدود ، اعتمدت تقرير لجنة الحدود تلك ، الذي رفع الى عصبة الأمم ايضا[٢٨] . ولكن على الرغم من ذلك ، بقيت مسألة الحدود بين بانياس والمطلة معلقة ، ثم سويت في مطلع السنة التالية ، ١٩٢٤[٢٩] . وخلال السنوات التالية ، طرات تعديلات اخرى طفيفة على الحدود الشمالية بين فلسطين ولبنان وسوريا ، الى ان رسمت نهائيا سنة ١٩٣١[٣٠] .

المؤتمر الفلسطيني العربي الثالث (١٩٢٠)

في اثناء تطبيق هذه الاجراءات وقبلها ، استمر عرب فلسطين في ابداء معارضتهم اياها ، ومعارضتهم الوطن القومي اليهودي عموما . فبعد صدور قرارات مؤتمر سان ريمو بشأن فرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، دعي المؤتمر الفلسطيني العربي الثاني للانعقاد ، خلال ايار (مايو) ١٩٢٠ ، للبحث في السياسة التي ينبغي انتهاجها بعد التطورات الجديدة . الا ان السلطات العسكرية البريطانية منعت عقد المؤتمر ، وفرضت ايضا ، بدعوى الحفاظ على سياسة « التوازن » ، حظرا على عقد دورة لجمعية النواب في المجلس الملي اليهودي (كنيست يسرائيل) ، كان من المقرر عقدها في الشهر نفسه[٣١] . ومع قدوم هربرت صموئيل الى

فلسطين ، انهمك الزعماء العرب في متابعة نشاطه ، للوقوف على سياسته ، بينما وقعوا ، في الوقت نفسه ، وتحت تأثير خيبة الأمل التي اصابتهم بعد سقوط حكم فيصل في دمشق ، في تموز ١٩٢٠ ، وتأثير ذلك على مستقبل فلسطين . ولذلك لم يعقد المؤتمر الفلسطيني العربي الثالث الا في نهاية السنة .

جابهت المؤتمر الثالث ، الذي انعقد في حيفا ، في ١٢ كانون الأول ١٩٢٠ ، مشاكل صعبة . اذ وجد نفسه ملزما بوضع اسس استراتيجية فلسطينية جديدة ، في ضوء فرض الانتداب البريطاني على فلسطين من جهة ، ومن جهة اخرى سيطرة الفرنسيين على سوريا (خصوصا ان الزعماء الفلسطينيين كانوا يصرون ، حتى ذلك الوقت ، على اعتبار فلسطين جزءا منها ويطالبون باقامة حكومة واحدة للمنطقة بأكملها) . وبعد مداولات استمرت خمسة ايام ، اتخذت قرارات يشتم منها السكوت على الواقع الجديد ، في كل من فلسطين وسوريا . فقد طالب المؤتمر بريطانيا بـ « المبادرة الى تشكيل حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي ينتخب اعضاءه الشعب المتكلم باللغة العربية القاطن في فلسطين »(٣٢) ، دون ان تصدر عنه اية طعون في شرعية الانتداب البريطاني او اي تلميح الى الوحدة مع سوريا . والواضح ان السكوت عن المطالبة بهذه الوحدة يعود الى سيطرة الفرنسيين على سوريا ، رغم وجود من يزعم ان ذلك تم ايضا « نكاية » بفيصل الذي « تخلى » عن فلسطين في مؤتمر الصلح . ومهما كانت الدوافع التي حدت بالمؤتمر الى اتخاذ هذا الموقف ، فقد كانت قراراته بداية مرحلة جديدة ، نشطت فيها الحركة الوطنية الفلسطينية منفردة ، دون الاهتمام ، عموما ، بما يجري في الدول المجاورة ، التي انتهجت الحركات الوطنية العربية فيها ، بدورها ، النهج نفسه فأعرضت عن الاهتمام بما يجري داخل فلسطين . واستمرت هذه المرحلة نحو ١٦ عاما ، حتى سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، حين وجهت الدول العربية انظارها الى ما يجري في فلسطين ، بعد نشوب الثورة الكبرى في البلد آنذاك ، وبعد ان كان الوطن القومي اليهودي قد نما بشكل ملحوظ .

وقد اتصفت القرارات الاخرى ، التي اتخذها المؤتمر الفلسطيني العربي الثالث ، بالاعتدال ايضا : اذ اكتفى باعلان ان « الشعب غير راض عن شكل الادارة الحالية ، لانها مخالفة لرغائبه وحقوقه »(٣٣) ، لاسباب عدة ، منها : ١ ـ اتخاذ [الادارة البريطانية] صلاحية سن القوانين لنفسها ، اي بدون مجلس تشريعي نيابي منتخب ، وقبل صدور قرار عصبة الامم النهائي : ٢ ـ اعترافها بالمنظمة الصهيونية كهيئة رسمية : ٣ ـ شروعها بتنفيذ المآرب الصهيونية ، بادخالها المهاجرين الصهيونيين ، واستعمالها العبرية لغة رسمية ، وسكوتها على وجود راية صهيونية : ٤ ـ تأليفها مجلسا استشاريا عينته تعيينا ، لتوهم ان في فلسطين مجلسا تشريعيا يمثل السكان : ٥ ـ وجود زعماء صهيونيين في اعلى مراكزها ، مع ان فلسطين هذه هي البلاد المقدسة للعالمين النصراني والاسلامي ولا يجوز وصول امرها الى ايد غير اسلامية او نصرانية ...(٣٤) ولكن على الرغم من ذلك ، « فان هذا المؤتمر يرفع لبريطانيا العظمى شكره [لأنه] على يقين تام من ان طلبه [تشكيل حكومة وطنية] مصادف خير قبول واسرع تلبية ، وان التردد في اجابته استدامة لما لا ضرورة له وما يمكن تجنبه من استياء الشعب العربي ، وتحميل الشعب البريطاني نفقات باهظة في سبيل الراحة الداخلية والخارجية »(٣٥) .

رغم هذه القرارات المعتدلة ، من حيث موقف المؤتمر من الحكومة البريطانية ، ورغم انتخاب لجنة تنفيذية من الوجهاء الفلسطينيين المعتدلين ، برئاسة موسى كاظم الحسيني ، اعلن المندوب السامي رفضه الاعتراف بالمؤتمر ، مدعيا انه لا يمثل الشعب الفلسطيني . فشنت على الاثر حملة من التحريض ، اقترنت باصدار البيانات والنشرات وعقد الاجتماعات العامة في اماكن مختلفة ، تأييدا للمؤتمر ، مما اضطر صموئيل الى اعادة النظر في قراره ، فاتجه الى فتح حوار مع اولئك الزعماء ، وابلغهم انه على استعداد للاعتراف بأية هيئة من العرب ، تمثل قطاعا مهما من الشعب ، شرط الا تصدر عنها اية قرارات او اقتراحات تتناقض مع شروط الانتداب . وقد امتنع الزعماء الفلسطينيون عن الموافقة على هذه المقترحات ، ولكنهم استجابوا لامكانات اقامة علاقات شخصية ودية مع المندوب السامي(٣٦) (اما المجلس الملي اليهودي فقد وافق على تلك الشروط ، فأعترف هربرت صموئيل به) .

واستمر صموئيل في سياسته الهادفة الى تقديم تنازلات طفيفة للزعماء الفلسطينيين ، و والسعي الى كسب ود بعضهم ، في محاولة للحفاظ على الهدوء في البلد ، ما دام ذلك لا يتعارض مع اسس الانتداب ولا يثير معارضة الصهيونيين من جهة ، ويكفل المصالح البريطانية من جهة اخرى . ولم يمر الا نحو شهرين على انعقاد المؤتمر الفلسطيني الثالث ، حتى سنحت لصموئيل فرصة تطبيق تلك السياسة مرة اخرى . ففي اذار ١٩٢١ ، توفي مفتي القدس ، كامل الحسيني ، فاتجهت الانظار الى انتخاب خلف له . وكان منصب الافتاء يعادل آنذاك في اهميته منصب رئاسة البلدية . وبما ان المنصب الاخير كان من نصيب آل النشاشيبي ، بعد ان تم تعيين راغب النشاشيبي رئيسا لبلدية القدس ، بعد اقالة موسى كاظم الحسيني ، كان لا بد ، حفاظا على « التوازن » من ان يكون الافتاء من نصيب آل الحسيني . ووقع الاختيار على الحاج امين الحسيني لشغل المنصب ، واضطرت السلطات الى اجراء مناورات لتأمين انتخابه ، بعد ان كان صموئيل قد اجتمع به(٣٧) واتفق معه . ففي الجولة الأولى من الانتخابات ، جاء الحاج امين الحسيني رابعا في القائمة ، خصوصا بعد ان رشح آل النشاشيبي منافسا قويا له ، هو الشيخ حسام الدين جارالله . وكان المرشح لرئاسة الافتاء ينتخب من بين الفائزين الثلاثة الأوائل فقط . ولهذا سارعت السلطات الى تقديم اغراءات للشيخ جارالله ، حملته على سحب ترشيحه ، بحيث بقي ثلاثة مرشحين فقط ، فعين من بينهم الحاج امين مفتيا ، رغم ان هذا التعيين لم يثبت في اية وثيقة رسمية(٣٨) .

وهناك تفسيرات مختلفة للدوافع التي حدت بصموئيل الى اختيار الحاج امين الحسيني ، دون غيره ، لمنصب الافتاء ، عدا عن الرغبة في المحافظة على التوازن بين آل الحسيني وآل النشاشيبي ، ومن ثم استغلال التنافس التقليدي بين العائلتين لشق صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية . فقد كانت عائلة الحسيني تتوارث هذا المنصب ، اساسا ,. وكانت في الوقت نفسه ، ممثلة بشخص زعيمها موسى كاظم الحسيني ، تلعب دورا مهما في قيادة الحركة الوطنية ، ولذلك كان البريطانيون مهتمين بارضائها وكسبها . كما كان الحاج امين الحسيني نفسه قد لعب دورا بارزا في احداث ١٩٢٠ في القدس . وكان تعيينه في وظيفة مرموقة كفيلا بدفعه للانضمام الى حلفاء السلطة أو ، على الأقل ، تقييده .

حدود فلسطين الشرقية

فيما كان هربرت صموئيل يخطو خطواته الأولى في فلسطين ، كانت الحكومة البريطانية قد قررت اعادة النظر في سياستها المتعلقة بالمشرق العربي عموما ، وبتلك المناطق التي خضعت لانتدابها (فلسطين وشرق الاردن والعراق خاصة) . ولهذه الغاية عقد في القاهرة ، في مطلع آذار ١٩٢١ ، مؤتمر للمسؤولين البريطانيين في المنطقة ، من سياسيين وعسكريين واداريين ، برئاسة ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني آنذاك ، لوضع أسس السيـاسـة البريطانية الجديدة . وقرر المؤتمر ، فيما قرره ، ان ينصب فيصل ، الذي كان الفرنسيون قد طردوه من سوريا ، ملكا على العراق الخاضع للانتداب البريطاني . وأثناء انعقاد المؤتمر ، كان الامير عبد الله ، شقيق فيصل ، قد وصل من الحجاز الى عمان في شرق الاردن ، على رأس قوة من اتباعه ، لمهاجمة الفرنسيين في سوريا ، مما دفع البريطانيين الى التدخل للسيطرة على الوضع . ولذلك اجتمع تشرشل ، في اواخر الشهر نفسه ، عند قدومه الى القدس ، بالامير عبد الله واتفق معه على « ادارة شرق الاردن تحت الاشراف العام للمنـدوب السامـي في فلسطين »(٣٩) . ثم راحت تتوثق علاقات عبد الله بالبريطانيين ، الذين وافقوا على تزويده بالمستشارين وبالمساعدات الاقتصادية . وفي سنة ١٩٢٢ زار الامير لندن ، وتوصل الى اتفاق مع البريطانيين ، اعترف اولئك بموجبه بوجود « حكومة مستقلة »(٤٠) برئاسته في شرق الاردن . واستكمالا لهذا الاتفاق ، تقرر ألا تسري على شرق الاردن البنود المتعلقة باقامة الوطن القومي اليهودي من بنود صك الانتداب على فلسطين . وفي مرحلة لاحقة . ادخلت السلطات البريطانية مادة خاصة بهذا الشأن في صك الانتداب (المادة ٢٥) ، وحصلت على موافقة مجلس عصبة الامم عليها(٤١) . وقبل ان يقر نص صك الانتداب البريطاني على فلسطين من قبل عصبة الامم ، في ٢٤ ايلول ١٩٢٢ ، اصدرت السلطات البريطانية ، في الأول من الشهر نفسه ، ما سمته مرسوم تعيين حدود فلسطين لسنة ١٩٢٢ ، وفصلت بموجبه شرق الاردن عن فلسطين ، ورسمت الحدود بينهما بموجب « خط يمتد من نقطة تبعد ميلين غربي مدينة العقبة ، الواقعة على خليج العقبة ، الى وسط وادي عرابة والبحر الميت ونهر الاردن عند ملتقى هذا النهر بنهر اليرموك ، ومن ثم تمتد الى وسط نهر اليرموك فالحدود السورية »(٤٢) . وبذلك مهدت الطريق لاقامة امارة شرق الاردن ، وتعيين عبد الله اميرا عليها . وحاول الصهيونيون الاحتجاج على هذه الاجراءات ، مدعين ان شرق الاردن ليس الا « ارض ـ اسرائيل الشرقية » ويجب ان يكون مشمولا في المنطقة المخصصة لاقامة الوطن القومي اليهودي ، على الرغم من ان وعد بلفور او صك الانتداب لا يشيران الى أية حدود ، الا ان اعتراضاتهم رفضت(٤٣) . ويدعي البعض ان الهدف من تأسيس امارة شرق الاردن على هذا الشكل ، وعزلها عن المنطقة المخصصة لاقامة الوطن القومي ، كان ايجاد مأوى للعرب الفلسطينيين الذين سيضطرون الى ترك ديارهم بسبب تنفيذ المشروع الصهيوني . ومهما كانت هذه الادعاءات صحيحة ، فمن الواضح ان السلطات البريطانية أصرت بحزم ، يكاد يكون قاطعا ، على منع اي تسلل صهيوني الى الشرق من نهر الاردن ، خلال فترة الانتداب بأكملها(٤٤) ، على الرغم من أن عددا من المشايخ والامراء في شرق الاردن ، ابدوا استعدادهم ، اكثر من مرة ، « للتعاون » مع الصهيونيين والسماح لهم حتى باقامة مستوطنات على اراض كانوا يسيطرون عليهـا هناك(٤٥) .

واكمالا لتنفيذ السياسة التي أقرها مؤتمر المسؤولين البريطانيين الذي عقد في القاهرة برئاسة تشرشل ، اصدرت الحكومة البريطانية ، في حزيران ١٩٢١ ، كتابا ابيض يحدد موقفها من العراق . وعلى الاثر ، وصل الامير فيصل الى بغداد كمرشح للعرش ، حيث جرى استفتاء ، توج فيصل على اثره ، في ٢٣ آب ١٩٢١ ، ملكا على العراق .

اضطرابات ايار ١٩٢١

أثناء وجود تشرشل في القاهرة ، قررت اللجنة التنفيذية المنتخبة من قبل المؤتمر الفلسطيني العربي الثالث ، تشكيل وفد للسفر الى هناك وعرض مطاليب الفلسطينيين عليه . وقد قابل تشرشل الوفد على مضض ، وامتنع عن بحث القضايا السياسية معه ، موضحا انه سيستقبل اعضاء الوفد في القدس ، عند وصوله اليها في اواخر آذار . في اجتماعه بهم هناك طلب الزعماء الفلسطينيون منه العمل على الغاء وعد بلفور ، وايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وتسهيل اقامة حكومة وطنية منتخبة في البلد . فأجاب تشرشل بأن الغاء وعد بلفور ، وايقاف الهجرة اليهودية ليسا « ضمن صلاحياته » ولا يتفقان «مع رغباته»(٤٦) ، ولكنه اضاف ان مصالح العرب الفلسطينيين ستصان ، وان انشاء الوطن القومي لا يعني « قيام حكومة يهودية تسيطر على العرب »(٤٧) .

لم يحظ موقف تشرشل هذا برضى العرب الفلسطينيين ، الذين سرعان ما وجدوا مناسبة للتعبير عن غضبهم . ففي اواخر نيسان ١٩٢١ ، اي بعد مرور شهر على اجتماع تشرشل بالوفد الفلسطيني ، وزع حزب العمال الاشتراكي اليهودي (الموبسي) ، ذو الميول الشيوعية ، نشرات باللغات العبرية والايديش والعربية في تل ابيب ويافا ، تدعو العمال اليهود والعرب الى الامتناع عن العمل والتظاهر بمناسبة عيد العمال ، وتحثهم ايضا على اقامة سوفييت فلسطيني(٤٨) . وفي الأول من ايار نظم الحزب تظاهرة غير مرخصة ، انطلقت من تل ابيب الى يافا ، واصدمت بتظاهرة اخرى قادها حزب احدوت هعفوداه . وعندما حاولت الشرطة تفريق تظاهرة الموبسي ، لجأ اعضاؤه الى حي المنشية في يافا ، مما اثار شائعات عن قيام اليهود بمهاجمة العرب ، فقاموا بهجوم على فندق مخصص لأستقبال المهاجرين اليهود الجدد ، وقتلوا عددا من نزلائه(٤٩) . وسرعان ما امتدت الاضطرابات الى مناطق اخرى من فلسطين ، واستمرت بضعة ايام ، هاجم العرب خلالها عددا من المستوطنات اليهودية ، منها بيتح تكفا ورحوفوت والخضيرة(٥٠) . وأسفرت هذه الاضطرابات ، عدا عن الاضرار بالممتلكات ، عن مقتل ٤٧ وجرح ١٤٦ يهوديا ، اصيب معظمهم من قبل العرب ، ومقتل ٤٨ وجرح ٧٣ عربيا(٥١) ، اصيب معظمهم من قبل الشرطة والجيش . واعلن الزعماء العرب ، بعد الاضطرابات ، مقاطعة اليهود(٥٢) ، غير ان هذا الاجراء لم يستمر طويلا .

ومع انتهاء الاضطرابات ، عينت السلطات البريطانية لجنة للتحقيق في اسبابها ، برئاسة قاضي القضاة في فلسطين السير توماس هايكرافت . وافادت لجنة هايكرافت ، في تقريرها الذي نشرته في تشرين الأول ١٩٢١ ، ان اسباب تلك الاضطرابات تكمن في الشعور « بعدم الرضى لدى العرب ، وعدائهم لليهود ، لاسباب سياسية واقتصادية تتعلق بالهجرة اليهودية ، وفهمهم للسياسة الصهيونية »(٥٣) . واكدت اللجنة ايضا « ان المشكلة تتعلق

بخوف العرب من الهجرة اليهودية المستمرة الى فلسطين ، التي قد تؤدي الى سيطرة اليهود عليهم »(٥٤) .

صموئيل يعيد النظر

لم تمر اضطرابات ايار ١٩٢١ دون ان تترك اثارها . وكان صموئيل نفسه من بين من اثرت فيهم . فقد دفعته الى النظر في سياسته الفلسطينية(٥٥) ، واسلوب حل المشاكل التي تواجهه ، ومن ثم العمل على اقناع لندن بوجهة نظره . وكان صموئيل ، من خلال ممارسته عمله كمندوب سام ، قد تكونت لديه قناعة باستحالة تنفيذ البرنامج الصهيوني بحده الاقصى ، او الاستجابة لكل طلبات الصهيونيين : نظرا لمعارضة العرب من ناحية ، وضعف الحركة الصهيونية وقلة امكاناتها المالية من ناحية ثانية . وكان من نتيجة ذلك ان عجزت المؤسسات الصهيونية في فلسطين حتى عن استيعاب تلك القلة من المهاجرين التي وصلت الى البلد حتى ذلك الوقت ، مما ساهم في تفاقم المشاكل الاقتصادية التي سيطرت عليه خلال سنتي ١٩٢١ – ١٩٢٢ ، وادى الى تقوية شعور لدى صموئيل بأن الصهيونيين لاسيما وايزمان ، قد « خدعوه » ، عندما حملوه على القبول بمنصب المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، بعد ان اوهموه بأنهم قوة يمكن الاعتماد عليها ، في البلد وخارجها(٥٦) . وجاءت اضطرابات ايار لتخلق مشاكل جديدة ، وتزيد تلك القناعات لدى صموئيل رسوخا ، ولتدفعه الى بلورة سياسة (انتهجها حتى نهاية ولايته سنة ١٩٢٥) تستند الى العمل اولا على تأمين المصالح البريطانية في فلسطين(٥٧) ، من خلال تحميل بريطانيا اقل مدى ممكن من الاعباء الاقتصادية والسياسية ، خصوصا ان اوضاعها الاقتصادية لم تكن على ما يرام ، في مطلع العشرينات ، كما كانت تعاني من اضطرابات سياسية في مستعمراتها . اما العرب فقد دعت تلك السياسة الى التساهل معهم(٥٨) وتقديم « التنازلات » لهم ، ما دام ذلك لا يمس أسس نظام الانتداب ، بواسطة تشجيع الزعماء المعتدلين بينهم ، ومحاولة استيعاب المتطرفين منهم باغداق المناصب والألقاب عليهم واقامة علاقات شخصية ودية معهم من جهة ، وضرب الطرفين ببعضهما البعض ، ومحاولة الهائهما بقضايا جانبية من جهة اخرى . اما الصهيونيون (الضلع الاخير في مثلث الصراع الفلسطيني – البريطاني – الصهيوني) فقد كان عليهم ان يحصلوا على التسهيلات الملائمة لحجمهم فقط ، دون الاهتمام باحاديثهم عن كبار الامور ، حتى لو ادى ذلك الى اغضابهم ، ومن ثم دفعهم الى اعتماد سياسة النفس الطويل اسلوبا لاقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين(٥٩) .

كانت اولى دلائل سياسة صموئيل هذه ، خطاب القاه يوم ٣ حزيران ١٩٢١ ، بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا ، قدم فيه تفسيرا جديدا لوعد بلفور ، انكر بموجبه ان يكون هدف بريطانيا من ذلك الوعد تمكين الغرباء من السيطرة على عرب فلسطين ، واماكنهم المقدسة واراضيهم ، بل السماح لعدد من اليهود ، يحدد وفق مصالح السكان الحاليين ، بالقدوم الى البلد والمساهمة في تطويرها ، بما يتلاءم مع مصلحة جميع سكانها(٦٠) . وفي نهاية خطابه ، قال صموئيل : « لو رأينا انفسنا في حاجة الى اتخاذ اية اجراءات لاقناع السكان المسلمين والمسيحيين بأن الحكومة ستراعي عمليا ، وفي تطبيقها ، هذه المبادىء وتحافظ على حقوقهم محافظة تامة ، فاننا لن نتوانى عن اتخاذها . وليس من المعقول ان تفرض الحكومة

البريطانية ، التي اصبحت وصية على سعادة اهل فلسطين بموجب انتدابها عليها ، اية سياسة ، يجدون ما يبرر لهم الظن في انها تتعارض مع دياناتهم ومع مصالحهم السياسية والاقتصادية »(٦١). وقد ساهم هذا الخطاب في تهدئة خواطر بعض الزعماء الفلسطينيين المعتدلين ، بينما قام وايزمن ، في اول فرصة سنحت له بتقديم احتجاج الى لويد جورج . غير ان تشرشل اعلن في البرلمان البريطاني في اثناء حديثه عن المشكلة الفلسطينية ، في ١٤ حزيران ١٩٢١ ، « انه يتتبع ، بثقة عظيمة جدا ، اعمال السير هربرت صموئيل ، ويعطيها كل ما هو ممكن من التأكيد »(٦٢) .

كما كان بين الاجراءات التي اتخذها صموئيل ايضا ، على اثر اضطرابات ايار ، ايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين موقتا . وبعد هدوء الاوضاع ، استؤنفت الهجرة الى البلد ، ولكن بموجب قانون اخر . فقد استبدل قانون الهجرة الاساسي بآخر جديد ، قسم المهاجرون الى فلسطين بموجبه الى اربع فئات ــ وقد شملت الفئة (أ) « كل شخص يملك في الواقع ويوجد تحت تصرفه المطلق رأس مال لا يقل عن الف جنيه » ، او ٥٠٠ جنيه اذا كان « ينتسب الى احدى المهن الحرة » ، او ٢٥٠ جنيها اذا كان « حاذقا في احدى الحرف او المهن او الصنائع » ، او اذا كان له « ايراد ثابت لا يقل عن اربعة جنيهات في الشهر ، ما عدا الايراد الذي يكسبه بنفسه »(٦٣) . اما الفئة (ب) ، فقد شملت « الاشخاص المؤمنة لهم اسباب المعيشة » ، مثل الايتام في مؤسسات الرعاية الاجتماعية وذوي الوظائف الدينية والطلبة ، بينما ضمت الفئة (جـ) « الاشخاص الذين لهم امل ثابت في الاستخدام في فلسطين » ، واخيرا الفئة (د) ، التي شملت اولئك « الذين يعيلهم احد المقيمين الدائمين او المهاجرين في فلسطين ، ممن ينتسبون الى [الفئات] السابقة »(٦٤) . ولم تفرض اية قيود على دخول المهاجرين من الفئات (أ) ، (ب) ، (د) ، بينما نظمت اجراءات دخول المهاجرين من الفئة (جـ) ، وهم العمال ، على شكل منح الصهيونيين حق التحكم في دخولهم الى فلسطين ، مع ما في الامر من اهمية : اذ كان العمال من « فئة » المهاجرين من اكبر فئات المهاجرين عددا . وبموجب هذا الترتيب ، منحت انظمة الهجرة اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية في فلسطين الحق في ابلاغ مدير الهجرة « بوجود آمال معقولة لاستخدام عدد من الاشخاص في فلسطين ، سواء بذكر اسمائهم او بدون ذكرها ، وان تطلب منه ان يأذنّ لهم بدخول [البلد] على ان ترفق كل طلب بكفالة لاعالة الشخص او الاشخاص الذين قدمت الطلبات بشأنهم لمدة لا تقل عن سنة واحدة »(٦٥) . ويقوم مدير الهجرة ، على الاثر ، باعداد « جداول [مهاجرين] عمال ، معتبرا في ذلك الاقتراحات التي تبديها اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بهذا الشأن »(٦٦) . ودرجت العادة على اعداد جدولين كل سنة ، ينشر الأول منهما في آخر ايلول ، والثاني في آخر آذار ، ويحددان « اقصى عدد من اصحاب الحرف والصناعات والمهن المختلفة »(٦٧) ، الذين يحق لهم الدخول كمهاجرين الى فلسطين خلال الفترة المعينة . ومع اقتران هذه الجداول بموافقة المندوب السامي ، تصدر اذونات هجرة وترسل « الى اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية في فلسطين لتوزع بمعرفتها »(٦٨) . وقد استغلت الوكالة اليهودية الصلاحيات التي منحتها ، في التأثير على تعيين اعداد المهاجرين ثم الاشراف على عملية توزيع اذونات الهجرة عليهم ، لادخال فئات معينة من المهاجرين اليهود الى فلسطين ، تتوافر فيهم الشروط الملائمة لاتجاهاتها السياسية او الاقتصادية ، وحجبت ، مثلا ، الاذونات عن الفئات

الصهيونية المناوئة لها ، مما عمق الخلافات داخل المعسكر الصهيوني .

بين صموئيل والفلسطينيين والصهيونيين

حاول صموئيل ، نتيجة القناعات التي تكونت لديه على أثر اضطرابات أيار ١٩٢١ ، العمل على تعديل السياسة البريطانية في فلسطين . فقد دخل ، أولا ، في حوار مع وايزمن لاقناعة بوجهة نظره ، إلا أن محاولاته باءت بالفشل . كذلك حاول حمل الحكومة البريطانية على اعادة النظر في سياستها الفلسطينية ، الا انه فشل في ذلك ايضا ، نتيجة تدخل وايزمن(٦٩) . وكانت الحكومة البريطانية قد عقدت جلسة ، في منتصف ١٩٢١ ، لبحث سياستها الفلسطينية ، الا ان ذلك لم يسفر إلا عن تحويل مسؤولية حكم فلسطين من وزارة الخارجية الى وزارة المستعمرات ، والتشديد مجددا على ضرورة الالتزام بوعد بلفور ، وظهر في مذكرة تقدم بها تشرشل ، لتبحث في تلك الجلسة ، انه راح يعيد النظر في موقفه(٧٠) . ولكن كان على صموئيل ان يعمل طوال سنة كاملة حتى يقنع الحكومة البريطانية بوجهة نظره ، ويحملها على تبنيها رسميا .

اما الزعماء الفلسطينيون ، فقد سارعوا ، على أثر اضطرابات ايار ، الى عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع في الشهر نفسه . وتبنى المؤتمر القرارات ذاتها ، التي كان قد أقرها المؤتمر الثالث ، ولكنه قرر أيضا ارسال وفد الى بريطانيا لشرح مطاليب الفلسطينيين لحكومتها . واجتمع الوفد ، خلال وجوده في بريطانيا ، بأكثر من زعيم بريطاني ، وقدم في ١٢ آب ١٩٢١ مذكرة الى الحكومة البريطانية ، « حليفة العرب » ، طالب فيها بحل المشكلة الفلسطينية على اساس « انشاء حكومة وطنية تكون مسؤولة أمـام مجلس نيابي (برلمان) منتخب من السكان الذين قطنوا فلسطين قبل الحرب ، من مسلمين ومسيحيين ويهود ... [و] الغاء فكرة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .. [و] ايقاف الهجرة اليهودية [اليها] بينما تؤلف حكومة وطنية ... [وحكمها] بموجب القانون العثماني الذي كان معمولا به قبل الحرب ، وان تلغى جميع الشرائع والقوانين التي سنت بعد الاحتلال البريطاني ، وان لا تسن قوانين الا بعدما تشكل حكومة وطنية »(٧١) ، وأخيراً – عودة الى مطلب قديم – « عدم فصل فلسطين عن اخواتها المقاطعات العربية المجاورة لها »(٧٢) . وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩٢١ ، قدم الوفد مذكرة ثانية الى وزير المستعمرات البريطاني ، طالبا تبليغها للحكومة البريطانية ، ومعرفة رأي وزارة المستعمرات فيها ، ومؤكدا « ان ٩٣ في المئة من سكان فلسطين يؤيدون القضية التي نعرضها لكم ... [و] ان استياء اهالي فلسطين المهم والمتزايد ناشيء عن اعتقادهم الأكيد بأن سياسة الحكومة البريطانية الحالية موجهة الى طردهم من بلادهم او جعلهم لا شيء فيها ، لكي تجعلها مملكة قومية للمهاجرين اليهود »(٧٣) . ولم تسفر هذه الاتصالات عن اية نتيجة ، عدا قيام صموئيل بدعوة عدد من الوجهاء الفلسطينيين ، في اثناء وجود الوفد في لندن ، وفي محاولة منه لضعضعة مركزه ، للتشاور معه بشأن مشروع دستور فلسطين المقترح . غير ان المدعوين رفضوا الدخول في نقاش بشأن تلك المسألة ، موضحين ان من السابق لاوانه القيام بذلك ، قبل البت في مصير الانتداب .

ومع حلول الذكرى الرابعة لوعد بلفور ، في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١ ، تجددت

الاضطرابات في فلسطين ، ولكن على نطاق ضيق هذه المرة ، اسفر عن مقتل خمسة من اليهود وثلاثة من العرب . وكانت الهاغاناه قد تعلمت درسا من اضطرابات ايار ، إذ اتخذت ما اعتبرته ضروريا من الاجراءات للدفاع عن اليهود(٧٤) . ومن ناحية ثانية ، ساهم بعض وجهاء المسلمين في تهدئة الخواطر والحد من انتشار الاضطرابات ، ولكن التوتر بقي على حاله .

المجلس الاسلامي الأعلى

على الرغم من ذلك التوتر ، وجد صموئيل ان الاوضاع في فلسطين ، في نهاية سنة ١٩٢١ ، كانت هادئة لدرجة تسمح له باجراء مناورات « توازن » جديدة ، وهذه المرة « لمساواة » المسلمين باليهود ، من حيث ادارة شؤونهم الدينية . وكان اليهود قد اجروا انتخابات ، في ١٩ نيسان ١٩٢٠ ، لاختيار اعضاء اول مجلس ملي يهودي ، من بين صلاحياته الاشراف على ادارة شؤونهم الدينية ايضا . وافتتح المجلس اولى دوراته في ٧ تشرين الأول ١٩٢٠ . وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه ، اعترف صموئيل « باللجنة القومية » (فاعاد ليئومي) (التنفيذية) المنبثقة عنه ، شرط اعترافها بالانتداب وتعليماته(٧٥) . ولذلك كان من الضروري اقامة مؤسسات مماثلة ، ترعى شؤون المسلمين والمسيحيين الدينية . ولكن ادارة شؤون المسيحيين كانت في أيدي رؤساء طوائفهم ، الذين فضلت حكومة الانتداب عدم التدخل في شؤونهم ، بحيث لم يبق إلا المسلمون. ولذلك اصدرت السلطات ، في آذار ١٩٢١ ، أمرا بتشكيل لجنة لمراقبة ادارة الاوقاف الاسلامية والمحاكم الشرعية(٧٦) ـــ فاضطرب الشيوخ والعلماء لأن احدا لم يستشرهم قبل اصدار هذا القرار ، الذي يحد ، بحسب رأيهم ، من صلاحياتهم . وسارعت السلطات الى تعديل موقفها ، فاصدرت في ٢٠ كانون الأول ١٩٢١ ، امرا بتشكيل المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى ، ومنحته صلاحيات شبه مطلقة للاشراف على ادارة شؤون المسلمين الدينية . وكان من بين هذه الصلاحيات تخويل المجلس صلاحية ترشيح قضاة المحاكم الشرعية مفتشيها ، وقضاة محكمة الاستئناف الشرعية ورئيسها ، ثم تعيينهم ، بعد موافقة الحكومة . واذا امتنعت الحكومة عن منح موافقتها، كان عليها ابلاغ المجلس بالاسباب التي دفعتها الى ذلك خلال ١٥ يوما . كما انيطت بالمجلس مسؤولية تعيين رجال الافتاء ، ومدير ومأموري الاوقاف ، وكل موظفي المحاكم الشرعية ، والاشراف على لجنة الاوقاف العامة وكل لجان الاوقاف الاخرى . ومنح المجلس ايضا صلاحية اقالة موظفي الاوقاف او المحاكم الشرعية او اية مؤسسة اخرى تمول من اموال الوقف . وكانت قد قدرت (سنة ١٩٣٠) مساحة الأراضي الخاضعة لادارة الاوقاف ، صنف الوقف الصحيح ، بنحو ١٠٠ ألف دونم ، يتراوح الدخل السنوي منها بين ١٠ و ٢٠ الف ليرة فلسطينية ، بالاضافة الى ٧٥ ـــ ١٠٠ قرية عربية ، تتراوح مساحة اراضيها بين ٧٥٠ ألف ومليون دونم ، معظمها من صنف الميري الموقوفة ، ويبلغ الدخل من اعشارها الذي يدفع للوقف ، نحو ٣٠ ألف ليرة سنويا(٧٧) . وهذان الدخلان شكلا ، في حينه ، نحو ثلاثة ارباع دخل ادارة الاوقاف السنوي(٧٨) .

كذلك سمح للمجلس الاسلامي الاعلى ، اضافة الى الصلاحيات التي أشرنا اليها ، بوضع ميزانيته السنوية الخاصة به ، وفق ما يرتئيه ، على ان يقوم فقط بابلاغ الحكومة بتلك بعد مصادقته عليها(٧٩) . وجرت الانتخابات لاختيار اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى الأول

سنة ١٩٢٢ ، وانتخب الحاج أمين الحسيني رئيسا له ، بالاضافة الى احتفاظه بمنصب المفتي .

تعميق الخلافات بين العرب

جاء اعلان سلطات الانتداب تشكيل المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى ــ ربما من حيث لا تدري ــ بمثابة صب الزيت على نار الانقسام بين مسلمي فلسطين ، الذين كانوا يشكلون آنذاك اكثر من ثلاثة أرباع سكان البلد . اثر ذلك ، بشكل واضح ، في قدرة عرب فلسطين على متابعة قضيتهم الوطنية ، خصوصا بعد ان تمكنت الفرقة من صفوفهم ، ولم يستطع أحد رأب الصدع . فقد صعدت الانتخابات للمجلس ، التي سمح لكل المسلمين الذكور الراشدين بالاشتراك فيها ، من حدة التنافس بين آل الحسيني وآل النشاشيبي ومناصري كل منهم ، بحيث « لم يلبث . على حد تعبير احد معاصري تلك الفترة ــ ان صارت الحسينية والنشاشيبية علما حزبيا لانصار كل من الاسرتين ومظهرا من مظاهر التنافس بينهم ومشغلة من مشاغلهم .... وكان حرمان العرب من الحكم دافعا لهم الى الاتجاه نحو المجلس والتلهي به وتعليق اوسع الامال عليه كاستجابة ايحائية الى تلك الرغبة ، فكان في ذلك مثار غيرة وحسد ومنافسة وسخط ورضاء وحرمان ونوال ومنح استغل اقوى استغلال من جانب السلطات والمعارضين معا ، حتى جاء وقت كاد المسلمون ينسون فيه الحكومة وملايينها ودوائرها والاف موظفيها وقوانينها ومدارسها ... لتنحصر انظارهم في المجلس ، يدققون في اعماله وتصرفاته ومشاريعه ، وينبشون عن كل صغيرة وكبيرة فيه ، وتحدق عيونهم في العشرات المحدودة من آلاف جنيهاته والعشرات المحدودة من موظفيه والساحة الضيقة التافهة من اعماله الانشائية والمادية ، ويقومون بالاسفار والرحلات ويعقدون الاجتماعات ويؤلفون الجبهات في صدد ذلك كله ، ويجدون في هذا تطمينا لرغبة الحكم وفشا لشهوة النقد ، اللذين حرموهما »(٨٠) . وكان من نتائج ذلك « ان قويت المهاترات والمناورات وانقسم المسلمون [وتبعهم المسيحيون.أيضا] الى معسكرين متعاديين »(٨١) هما : الـ « مجلسيون » ، اي انصار المجلس والحسينيون عامة . والـ « معارضون » للمجلس ، اي انصار النشاشيبيين عامة . واندمج الناس في هذين التيارين ، « بتأثير ما اعتادته فلسطين وما لم تنقطع صلتها به من حزبية القيسية واليمنية ، ونسوا او كادوا ينسون القضية الوطنية »(٨٢) .

ويتضح من تصرفات سلطات الانتداب انها كانت سعيدة جدا بهذا الصراع ، فقد بذلت كل ما في وسعها للابقاء عليه وتعميقه . ففي سنة ١٩٢٦ ، انتهت ولاية المجلس الأولى ، وجرت انتخابات لاختيار اعضاء جدد . غير ان المعارضة طعنت في شرعية تلك الانتخابات ونزاهتها ، فقضت المحكمة العليا ببطلانها . وعلى الأثر سارعت السلطات الى سن قانون خاص ، شكلت بموجبه مجلسا جديدا من المفتي وانصاره ، وعينت لجنة لدراسة التعديلات التي ينبغي ادخالها على نص قانون المجلس الأصلي . وقدمت اللجنة تقريرها في سنة ١٩٢٨ ، ونشر في السنة التالية على شكل مشروع قانون جديد(٨٣) . غير ان الاضطرابات التي نشبت في فلسطين ، في تلك السنة ، حالت دون اقراره : فبقي المفتي رئيسا معينا للمجلس ، ببركة سلطات الانتداب ، حتى سنة ١٩٣٧(٨٤) ، عندما اقيل من منصبه بسبب الدور الذي لعبه في الثورة العربية

الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩) . ولكن ، حتى ذلك الوقت ، كان المفتي قد استغل نفوذه وصلاحياته ، بموجب منصبيه ، لتجميع الانصار حوله بشكل جعله اقوى رجل في فلسطين ، مما ساهم في توسيع رقعة الخلاف مع المعارضة ومؤيديها ، وأدى الى فقدان أي أمل في التوفيق بين الطرفين . وانعكس هذا الخلاف الشديد سلبا على القضية الفلسطينية .

الكتاب الابيض سنة ١٩٢٢

على الرغم من انهماك الفلسطينيين ، في مطلع سنة ١٩٢٢ ، في الصراع على انتخابات المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى ، وجدت الزعامة الفلسطينية متسعا من الوقت لارسال وفد آخر من قبلها الى بريطانيا ، للتباحث مع حكومتها . ووصل الوفد الى هناك في الوقت الذي كانت وزارة المستعمرات تعمل فيه على تحديد أسس السياسة البريطانية بشأن فلسطين (وهي تلك التي تضمنها الكتاب الابيض الذي اصدره وزير المستعمرات تشرشل في ٣ حزيران ١٩٢٢) . وحال وصول الوفد الى لندن ، دخل في « المفاوضات » مع وزارة المستعمرات ، على شكل مذكرات متبادلة بين الطرفين ، كان هدف الوزارة منها حمل الوفد على القبول بأسس السياسة البريطانية المقترحة . واستمرت هذه المراسلات نحو ٣ أشهر(٨٥) ، رفض الوفد في نهايتها القبول بالمقترحات التي قدمت له من قبل الحكومة ، وفحواها القبول بوعد بلفور « مخففا » ، ودعا بريطانيا ، بدلا من ذلك ، الى العمل على تأمين مصالح سكان فلسطين المدنية والسياسية والاقتصادية ، وذلك باقامة حكومة وطنية فلسطينية مستقلة ، تتعهد بالحفاظ على الحقوق المشروعة للأجانب والاقليات والدولة المنتدبة(٨٦) . الا ان الحكومة رفضت طلب الوفد ، موضحة في مراسلاتها معه ، بعد ان حاولت الطعن في شرعية تمثيله عرب فلسطين ، انها لا تنوي « التراجع عن تعهدها ... امام الشعب اليهودي » (٨٧) ، وان اقامة حكومة وطنية في فلسطين « ستمنع تنفيذ ذلك التعهد »(٨٨) الذي نص عليه وعد بلفور . كما اعتبرت الحكومة البريطانية ان « مسألة الغاء وعد بلفور غير واردة اطلاقا .... ولا فائدة من بحث السياسة المترتبة على التعهدات »(٨٩) ، الواردة في ذلك الوعد . ولهذا نصحت الوفد بأن يتخذ « موقفا بناء » وان يركز جهوده في بحث « الضمانات »(٩٠) التي قد يحتاجها العرب الفلسطينيون في ظل تنفيذ مشروع الوطن القومي .

وفيما كانت المفاوضات بالمراسلات ، بين الحكومة البريطانية والوفد الفلسطيني ، تشرف على نهايتها ، وصل الى لندن ، في أيار ١٩٢٢ ، هربرت صموئيل ، وفي نيته حمل حكومته على اصدار بيان واضح بشأن سياستها في فلسطين ، بعد شعوره بأن من الضروري القيام بذلك « بعد تجربة سنتين »(٩١) في البلد . ولم يضع صموئيل وقتا طويلا لتحقيق هدفه : فحتى الرابع والعشرين من الشهر نفسه ، انهى وضع مسودة بيان ، وعرضه على تشرشل ، الذي وافق عليه بعد ثلاثة ايام ، بدون تعديل أو اضافات(٩٢) (وهو البيان نفسه التي صدر فيما بعد تحت اسم الكتاب الابيض) . وفي الثالث من الشهر التالي ، أرسلت الحكومة البريطانية نص البيان المقترح الى المنظمة الصهيونية ، طالبة منها تعهدا صريحا بقبوله والعمل بموجبه(٩٣) . كما أرسلت نسخة مماثلة الى الوفد الفلسطيني ، مرفقة بالطلب نفسه .

وفي رده ، تمسك الوفد الفلسطيني بموقفه السابق الرافض للمقترحات البريطانية(٩٤) ،

ويعث بمذكرة الى وزير المستعمرات ، بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٢٢ ، أوضح فيها انه يرى ان الهدف من الكتاب هو تمكين اليهود من السيطرة على فلسطين ، في نهاية الأمر . كما اعرب الوفد عن مخاوفه من ان يؤدي اصرار بريطانيا على اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، الى « اخضاع او ضياع السكان العرب في فلسطين وضياع لغتهم وثقافتهم »(٩٥) . أما الصهيونيون ، فقد حاولوا العمل على تعديل الكتاب الابيض لمصلحتهم ، الا انهم فشلوا(٩٦) . لذلك ، سرعان ما اعلنت اللجنة التنفيذية الصهيونية موافقتها على الطلبات البريطانية ، موضحة ، في رسالة بعث بها وايزمن الى وزارة المستعمرات بتاريخ ١٨ حزيران ١٩٢٢ ـ اي بعد يوم في ارسال الوفد الفلسطيني جوابه ـ أنها « تريد التأكيد لحكومة جلالته ان نشاط المنظمة الصهيونية سيدار بموجب السياسة المنصوص عليها »(٩٧) في الكتاب الابيض . ويبدو ان ذلك تم بعد أن أبلغ الصهيونيون « بوضوح ـ على حد تعبير وايزمن . ان اقرار الانتداب سيكون متعلقا » بقبولهم السياسة « التي نص عليها الكتاب الابيض » . ولذلك كان عليهم ـ وايزمن وزملائه ـ « القبول بها »(٩٨) . وحتى جابوتينسكي ، عضو اللجنة التنفيذية الصهيونية ، الذي اتخذ قيما بعدموقفامتصلبا من السياسة البريطانية في فلسطين ، وحمل لواء المعارضة لزعامة وايزمن وزملائه ، كان من بين اولئك الذين ابدوا موافقتهم على الكتاب الابيض في حينه ، « دون ان يثير اية معارضة جدية »(٩٩) ، لانه « شعر بأن واجبه الاخلاقي يدعوه الى تحمل عار الهزيمة مع زملائه »(١٠٠) .

كان كتاب تشرشل الابيض ١٩٢٢ ، اول وثيقة بريطانية تتحدث بوضوح عن السياسة التي قررت بريطانيا اتباعها في فلسطين . لكن على الرغم من اهمية هذه الوثيقة ، فقد صيغت بوحي ما لا تنوي الحكومة البريطانية فعله في فلسطين(١٠١) ، وتم تحديد حقوق العرب بموجبها من خلال فرض القيود على الصهيونيين(١٠٢) . فقد جاء في الكتاب الابيض انه وضع « بغية الوصول الى حل للمسائل المعلقة التي افسحت مجالا للغموض والقلق ... والتوتر الذي ساد فلسطين من حين الى آخر » ، بسبب « مخاوف اخذت تساور بعض طبقات من السكان العرب واليهود »(١٠٣) . ولذلك كان من الضروري ازالة تلك المخاوف ، بتوضيح حقوق كل من العرب واليهود ، من وجهة النظر البريطانية ، باعلان « التزام مزدوج »(١٠٤) تجاه الطرفين . فقد قدم الكتاب ، اولا ، تفسيرا جديدا لوعد بلفور ، باعلان ان الحكومة البريطانية « لم تفكر قط باخضاع او محو السكان العرب او القضاء على لغتهم وآدابهم في فلسطين .. وهي تلفت النظر الى ان عبارات [وعد بلفور] لا تشير الى تحويل فلسطين بجملتها وجعلهاوطنا قوميا لليهود ، بل تعني ان وطنا كهذا يؤسس في فلسطين »(١٠٥) . ثانيا ، وبالنسبة لليهود ، « فمتى سأل سائل ما هو معنى تطوير الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، يمكن ان يجاب على ذلك بأنه لا يعني فرض الجنسية اليهودية على اهالي فلسطين اجمالا ، بل زيادة رقي الطائفة اليهودية بمساعدة اليهود الموجودين في جميع انحاء العالم ، حتى تصبح مركزا يكون فيه للشعب اليهودي برمته اهتمام وفخر من الوجهتين الدينية والقومية . ولكن حتى يكون للطائفة اليهودية امل وطيد في تقدمها الحر ، ويفسح للشعب اليهودي مجال واف كي تظهر فيه مقدرته ، كان من الضروري ان يعلم بأن وجوده في فلسطين هو حق لا منة . وذلك هو السبب الذي جعل من الضروري ضمان انشاء الوطن القومي اليهودي دوليا ، والاعتراف رسميا بأنه يستند الى صلة تاريخية قديمة »(١٠٦) . وهذا هو ، اذن ، ما « تفسر به حكومة جلالته تصريح [بلفور] ... ، ويرى

وزير المستعمرات ان هذا التصريح ، اذا فهم على هذا لوجه ، لا يتضمن صراحة ، او ضمنا ، شيئا من شأنه ان يثير مخاوف عرب فلسطين او يسبب استياء اليهود »[١٠٧] .

وتطرق الكتاب الابيض الى الوسائل التي ستتبعها الحكومة البريطانية لتنفيذ تلك السياسة ، فاعلن ان « من الضروري ، لتطبيق هذه السياسة ، تمكين الطائفة اليهودية في فلسطين من زيادة عددها عن طريق الهجرة »[١٠٨] ، شرط ان يخضع ذلك « لقدرة البلاد الاقتصادية »[١٠٩] على استيعاب اولئك المهاجرين إذ ذاك . اما بشأن نظام الحكم ، « ففي عزم حكومة جلالته تأسيس حكومة ذاتية واسعة النطاق في فلسطين ، ولكنها ترتئي ، بالنظر للظروف الخاصة في تلك البلاد ، ان يتم ذلك تدريجيا لا طفرة »[١١٠] واعتبرت الحكومة البريطانية ان الخطوة الأولى على هذه الطريق قد اتخذت عند تأسيس المجلس الاستشاري ، و « ان النية تتجه الآن الى اتخاذ خطوة ثانية بتأليف مجلس تشريعي تختار اكثرية اعضائه على اساس انتخابي واسع »[١١١] . ولكن « في رأي وزير المستعمرات ان من الحكمة ان يمر وقت ما قبل توسيع الحكم الذاتي في فلسطين ، وقبل تخويل المجلس صلاحية المراقبة على السلطة التنفيذية ، وبعد بضع سنوات يعاد النظر في حالة البلاد . فاذا اسفر الاختيار في سير النظم الدستورية التي يراد تأسيسها بعد الآن عن نجاح ، تعطى صلاحية اوفر لنواب الشعب المنتخبين »[١١٢] .

ولقد بقيت السياسة التي اعلنت بموجب هذا الكتاب الابيض ، سارية المفعول ، على وجه العموم ، حتى سنة ١٩٣٩ ، عندما تغيرت بموجب كتاب ابيض آخر صدر آنذاك .

المجلس التشريعي

مع نشر كتاب تشرشل الابيض ، سارت الاجراءات الهادفة الى وضع الأسس الدستورية لنظام حكم الانتداب البريطاني في فلسطين ، بخطى حثيثة . ففي ٢٤ تموز ١٩٢٢ ، اقر مجلس عصبة الأمم نص صك الانتداب ، الذي عرضته عليه الحكومة البريطانية ، في ضوء التفسيرات التي تضمنها الكتاب الابيض . وما أن مر اسبوعان على ذلك ، حتى نشرت سلطات الانتداب في فلسطين ، في ١٠ آب ، ما اسمته مرسوم دستور فلسطين لسنة ١٩٢٢ . ومنح المندوب السامي البريطاني ، بموجب هذا المرسوم ، صلاحية حكم البلد باعتباره رأس السلطة التنفيذية فيها ، وذلك وفقا « للمراسيم والتعليمات التي قد يصدرها جلالة [ملك بريطانيا] .... من اجل تنفيذ صك الانتداب ... او للتعليمات التي تصدر اليه بواسطة احد وزرائه ، ووفقا لكافة التشاريع والقوانين المعمول بها الآن ، او التي سيعمل بها فيما بعد ، في فلسطين »[١١٣] ، وعلى ان يساعده في تأدية مهامه هذه « مجلس تنفيذي لاسداء المشورة »[١١٤] ، تعين اعضاءه الحكومة البريطانية . وضع المندوب السامي ايضا « جميع الحقوق في الأراضي العمومية ... والمناجم والمعادن والمياه »[١١٥] ، وسمح له بأن « يهب او يؤجر اية ارض من الأراضي العمومية او اي معدن او منجم ، وله بأن يأذن باشغال مثل هذه الأراضي بصفة موقتة وبالشروط والمدد التي يراها ملائمة »[١١٦] . كما منح المندوب صلاحية تعيين الموظفين واقالتهم ، ومنح العفو عن الجرائم .

ونص المرسوم ايضا على اقامة « سلطة تشريعية » ، على شكل مجلس تشريعي ، يؤلف

من اثنين وعشرين عضوا ، بالاضافة الى المندوب السامي ، ويكون « عشرة من هـؤلاء الاعضاء موظفين واثنا عشر منهم اعضاء غير موظفين »(١١٧) ، منهم ثمانية من المسلمين واثنان من المسيحيين واثنان من اليهود ، ينتخبون ، في انتخابات عامة ، من قبل جميع الفلسطينيين الذين تجاوزوا الخامسة والعشرين من اعمارهم . وكان مرسوم انتخاب المجلس التشريعي الفلسطيني لسنة ١٩٢٢(١١٨) ، الذي حدد اجراءات الانتخابات ، قد صدر في اليوم نفسه الذي اعلن فيه مرسوم دستور فلسطين ، أي ١٠ آب ١٩٢٢ . وخولت السلطات المجلس التشريعي « السلطة والصلاحية التامة في اصدار ما تدعو الضرورة اليه من القوانين ، من اجل السلام والنظام وحسن ادارة الحكم في فلسطين ، دون اخلال بالسلطات المنوطة بجلالته او المحتفظ له بها ... على ان تراعى في ذلك ، دائما ، جميع الشروط والقيود المقررة في اية تعليمات يصدرها جلالته ... ولا يجوز ان يصدر قانون يكون مناقضا او مخالفا لاحكام صك الانتداب بوجه من الوجوه »(١١٩) . ولكن ، من ناحية ثانية ، كانت صلاحيات المجلس محددة للغاية . اذ لا يعمل بأي قانون ما لم يوافق عليه المندوب السامي »(١٢٠) ، الذي يستطيع « ان يعلن موافقته او عدم موافقته على اي قانون بمحض ارادته »(١٢١) .

كذلك نص مرسوم دستور فلسطين على اقامة « سلطة قضائية » ، مؤلفة من محاكم مختلفة ، وأمر بأن « تنشر باللغات الانكليزية والعربية والعبرية ، كافة القوانين والاعلانات الرسمية والنماذج الرسمية التي تصدرها الحكومة »(١٢٢) .

وصدر بموجب هذا المرسوم ، في وقت لاحق ، منشور يقضي بتقسيم فلسطين ، اداريا ، الى ثلاثة الوية وثمانية عشر قضاء ، هي : (أ) لواء القدس ومركزه القدس ، ويشمل اقضية بيت لحم والخليل واريحا والقدس ورام الله : (ب) اللواء الشمالي ، ومركزه حيفا ، ويشمل اقضية عكا وبيسان وحيفا وجنين ونابلس والناصرة وصفد وطبريا وطولكرم : (جـ) اللواء الجنوبي ، ومركزه ، يافا ، ويشمل أقضية بئر السبع وغزة ويافا والرملة(١٢٣) (وأدخلت في مراحل لاحقة ، خلال السنوات ١٩٣٧ : ١٩٣٩ : ١٩٤٥ ، تعديلات على هذه التقسيمات الادارية ، لتوزيع عبء المسائل الادارية ، على أثر نمو الوطن القومي اليهودي وانتشار المستوطنات الصهيونية في فلسطين) .

وقد حاولت الحكومة البريطانية ، بعد اعلان السياسة التي اشرنا اليها ، الحصول على موافقة العرب واليهود عليها . وكان الطرفان قد اطلعا على تفاصيل تلك الوثائق الدستورية : اي مرسوم دستور فلسطين ، ومرسوم انتخابات المجلس التشريعي ، عندما عرض عليها الكتاب الابيض . وقد اعتبر الصهيونيون تلك السياسة بمثابة « خفض جدي في قيمة وعد بلفور »(١٢٤) ، لأنها فصلت « ارض ـ اسرائيل الشرقية » (اي شرق الاردن) عن المنطقة المخصصة لاقامة الوطن القومي اليهودي ، وأثارت قضية المجلس التشريعي ، الذي خشي الصهيونيون من تحوله الى اداة بأيدي الاكثرية العربية ، تستغلها لعرقلة النمو الصهيوني . كذلك تحفظ الصهيونيون من مسألة ربط الهجرة اليهودية الى فلسطين بقدرة البلد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين الجدد . وظهرت المعارضة قوية بين اليهود في فلسطين بشكل خاص : إلا ان القيادة الصهيونية ارغمتهم على تغيير موقفهم ، حتى لا يفشلوا صموئيل(١٢٥) .

أما فيما يتعلق بالعرب ، فقد اعلنت اللجنة التنفيذية الفلسطينية ، في بيان أصدرته يوم ٨

تموز ١٩٢٢ ، أنها من ، خلال رفضها للانتداب أساسا ، لا تستطيع الموافقة على اجراءات دستورية تستند اليه . ودعت اللجنة الى عقد مؤتمر فلسطيني جديد « كي يضع الخطط الجديدة التي تراها الأمة أضمن وأقرب للوصول الى الغاية الاساسية »(١٢٦) . وعقد المؤتمر الجديد ، وهو الخامس ، في ٢٠ آب ١٩٢٢ ، في نابلس ، واتخذ سلسلة من القرارات ، كان من أهمها « تأييد رفض نظام الانتداب باسم فلسطين ... [و] رفض دستور فلسطين الجديد ومقاطعته انتخابات المجلس التشريعي ... [و] مقاطعة اليهود في الشراء وبيع الأموال غير المنقولة ، على ان يعهد للجنة التنفيذية تعيين ميعاد وكيفية تطبيقها »(١٢٧) . كما أقر المؤتمر الخامس « ميثاقا وطنيا فلسطينيا » ، اعلن بموجبه الالتزام بتحقيق استقلال فلسطين والوحدة العربية ، ورفض الوطن القومي اليهودي والهجرة الصهيونية(١٢٨) .

ولم تعر سلطات الانتداب هذه المعارضة العربية أهمية كبرى ، بل سارت قدما في تنفيذ مشاريعها . ولذلك قامت ، خلال تشرين الأول ، باجراء احصاء عام للسكان في فلسطين ، كمقدمة لاجراء انتخابات المجلس التشريعي . وتبين نتيجة الاحصاء ان عدد سكان فلسطين بلغ آنذاك ٧٥٢,٠٤٨ نسمة ، منهم ٦٦٠,٦٤١ (اي ٨٧,٩٪) من العرب (ومن هؤلاء ٥٨٩,١٧٧ ، اي ٧٨,٣٪ ، من المسلمين و ٧١,٤٦٤ ، اي ٩,٦٪ ، من المسيحيين) و ٨٣,٧٩٠ (اي ١١,١٪) من اليهود . أما الباقون ، وعددهم ٧,٦١٧ نسمة (١٪) ، فينتمون الى اقليات من قوميات وجنسيات واديان مختلفة(١٢٩) . وفي اواخر شباط واوائل آذار ١٩٢٣ ، جرت انتخابات المجلس التشريعي ، إلا أن العرب أعلنوا مقاطعتها(١٣٠) . ولذلك لم ينتخب ، على الرغم من تمديد فترة الانتخاب ، الا ١٣٤ مرشحا من بين ٨٠٠ ممثل ، كان من المفترض ان يتم انتخابهم في الدوائر الانتخابية العربية(١٣١) (أما في الدوائر الانتخابية اليهودية ، فقد تم انتخاب كافة الممثلين اليهود ، وعددهم ٧٩)(١٣٢) . ووجهت ضغوط شديدة الى الذين انتخبوا من بين الاعضاء العرب في المجلس ، فاضطروا جميعا الى تقديم استقالاتهم .

وازاء افشال انتخابات المجلس التشريعي ، بواسطة مقاطعتها ، اصدرت الحكومة البريطانية ، في ٤ أيار ١٩٢٣ ، مرسوما جديداً ، اعلنت بموجبه أن « الانتخابات التي اجريت في فلسطين ... باطلة وملغاة »(١٣٣) . ولهذا « يكون للمندوب السامي [وحده] السلطة التامة في وضع القوانين الضرورية لتوطيد الأمن والنظام وانتظام الحكم في فلسطين »(١٣٤) ، وذلك حتى انتخاب مجلس تشريعي جديد(١٣٥) ، وهو ما لم يتم حتى نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٤٨ . وفي الوقت نفسه ، أحيت السلطات المجلس الاستشاري ، وزادت عدد اعضائه، من ١٠ الى ١٥ عضوا ، كلهم من موظفي الحكومة(١٣٦) ، لتجنب نفسها عناء مجابهة مقاطعة اي فئة من المعارضين لسياستها او رفضهم اياها .

وكان العرب سعداء للغاية بافشالهم مشاريع الحكومة الدستورية ، لاسيما انشاء المجلس التشريعي . غير ان اليهود كانوا اكثر سعادة : فقد اشتركوا في انتخابات المجلس على مضض ، وخشوا من ان ينجح في تأدية مهامه ، فيحصل تدريجيا على صلاحيات اوسع ، ويتحول الى برلمان حقيقي تقرر سياسته الاكثرية العددية العربية في البلد ، ويجمد الوطن القومي اليهودي . وظهر الموقف الصهيوني هذا واضحا في مطلع الثلاثينات ، عندما طرحت ، ثانية ، فكرة اعادة انشاء المجلس التشريعي ، ووافق عليها عدد من الزعماء العرب : فرفضها اليهود ،

الذين كانوا قد تحولوا حتى ذلك الوقت الى قوة لا بأس بها في فلسطين ، وكان لهم ما ارادوا .

اقتراح الوكالة العربية

عاد العرب ، بعد افشال المجلس التشريعي ، الى سياستهم السابقة ، بعقد المؤتمرات واصدار البيانات وارسال الوفود . فقد عقد في يافا ، خلال ١٦ ــ ٢٠ حزيران ١٩٢٣ ، المؤتمر العربي الفلسطيني السادس ، الذي اتخذ في ختام اعماله ، ٢٧ قرارا(١٣٧) ، كان معظمها تكرارا لقرارات اتخذت في المؤتمرات السابقة ، ولم تنفذ . وقرر المؤتمر ايضا ارسال وفد الى لندن ، غير ان عدوى الرفض كانت قد انتقلت الى بريطانيا ، فرفضت حكومتها استقبال الوفد او مفاوضته ، واصدر رئيسه بيانا جديدا ، دعا فيه الى « انشاء حكومة نيابية وطنية في فلسطين »(١٣٨) . ولم تكن الحكومة البريطانية ، من ناحيتها ، مستعدة لاستقبال الوفد آنذاك ، لأن وجوده في لندن ترافق مع عقد اتفاقية سلام في لوزان ، في ٢٤ تموز ١٩٢٣ ، مع تركيا ، جاءت مكملة لاتفاقية سيفر ، التي رفض آتاتورك المصادقة عليها ، فحصلت مكانها . وأزيلت بذلك آخر العقبات القانونية الشكلية على طريق اقرار الانتداب على فلسطين : فسرى مفعوله ، بشكل قاطع ونهائي ، مع سريان مفعول الاتفاقية ، في ٢٩ ايلول من السنة نفسها . لذلك لم تكن الحكومة البريطانية مستعدة لسماع الاحتجاجات على فرض نظام الانتداب على فلسطين او الطعن فيه ، من قبل العرب الفلسطينيين او غيرهم .

ولكن على الرغم من ذلك ، عادت الحكومة البريطانية فقدمت ، في اواخر سنة ١٩٢٣ اقتراحا جديدا للفلسطينيين ، يقضي بانشاء وكالة عربية ، « تشارك » في حكم فلسطين ، على غرار الوكالة اليهودية . ويبدو أن هذا الاقتراح جاء محاولة لوضع حد لحالة الأمن المضطربة في فلسطين ، وتحسين اوضاع البلد الاقتصادية ، مما يوفر على بريطانيا نفقات كثيرة(١٣٩) ، لم تكن قدرتها الاقتصادية آنذاك تسمح لها بتحملها . ففي ١١ تشرين الأول ١٩٢٣ ، استدعى المندوب السامي عددا من الوجهاء العرب ، من مختلف انحاء فلسطين ، الى اجتماع عقد في دار الحكومة في القدس ، لابلاغهم تعليمات جديدة وصلته من وزير المستعمرات البريطاني . وخلال الاجتماع ، ابلغ المندوب السامي الزعماء العرب ان الحكومة البريطانية قد اتخذت قراراتها السياسية بشأن فلسطين ، استنادا الى وعد بلفور ، والتزامها المزدوج تجاه العرب واليهود ، وأنها لا تنوي التراجع عن تلك السياسة(١٤٠) . ولكن الحكومة ترى ان الوضع في فلسطين غير مرض ، كما يتضح من تظلمات العرب العديدة ، خصوصا تلك المتعلقة منها بالوكالة اليهودية ، والتي يفهم منها ان وجود الوكالة قد يحمل السلطات على منح اليهود افضليات(١٤١) . ولاصلاح هذا الوضع ، تقترح الحكومة انشاء وكالة عربية ، تمنح المركز نفسه الذي تحتله الوكالة اليهودية ، على ان يعين اعضاؤها من قبل المندوب السامي ، ويكون لها حق ابداء الرأي بشأن الهجرة ، اسوة بالوكالة اليهودية(١٤٢) ، على ان يتم ذلك بموافقة الجميع . ولهذا فوض المندوب السامي بأجراء الاتصالات مع العرب ، بينما يتصل وزير المستعمرات بقيادة المنظمة الصهيونية في لندن ، وعلى ان يعمل بهذا الترتيب، اذا تم ، حتى انتخاب مجلس تشريعي جديد(١٤٣) . وفي نهاية الاجتماع ، أعطي المجتمعون وقتا للتشاور بشأن ردهم ، فرفضوا ، على لسان رئيس اللجنة التنفيذية الفلسطينية موسى كاظم الحسيني ، القبول بالاقتراح .

وبعد انفضاض الاجتماع ، اصدر رئيس اللجنة التنفيذية بيانا ، علل فيه رفضه ، موضحا ان « الاقتراح بأن يشترك العرب في ادارة بلادهم بواسطة وكالة عربية ، يتوقف تقريرها على مفاوضة عصبة الأمم لتوافق عليها ، لتكون لها صفة رسمية كالوكالة اليهودية ، واعتبار ... هذا الاقتراح خطوة كبرى نحو استيفاء رغائب الشعب العربي ، قد تلقته الامة بالاستغراب العظيم . اذ كيف يعقل ان يقبلوا بهذا المشروع ، بعد ان رفضوا مشروعي المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري ولهما صلاحية اوسع من صلاحية الوكالة . كيف يقبلون به ، وهو يجعل العرب ، اصحاب البلاد ، في مستوى واحد مع اليهود ، فضلا عن ان اسم الوكالة يجعلهم يشعرون انهم غرباء في بلادهم ايضا ؟ »(١٤٤) . وازاء هذا الموقف ، ابدت حكومة بريطانيا « تعبها » من موقف الفلسطينيين ، فأعلن وزير المستعمرات ، في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٣ ، « ان حكومته « وصلت الى نتيجة مفادها ان لا جدوى من جهود اضافية [نحو تعاون اوثق بين الجمهور العربي وحكومة فلسطين] ، ولذلك قررت عدم تكرار التجربة »(١٤٥) .

ومع اعلان هذا الموقف ، توقفت المفاوضات الجدية بين الحكومة البريطانية والزعماء الفلسطينيين . ومرت فلسطين في فترة من الركود ، استمرت خمس سنوات متتالية .

مثلث الصراع البريطاني ـ الفلسطيني ـ الصهيوني

مع نهاية المرحلة الأولى من الانتداب البريطاني على فلسطين ، في اواخر سنة ١٩٢٣ ، كانت مواقف الاطراف الثلاثة في الصراع على فلسطين (البريطانيين والفلسطينيين واليهود) قد تبلورت وازدادت تصلبا . وظل هؤلاء ملتزمين ، عموما ، بالمنطلقات الاساسية التي صيغت خلال هذه المرحلة حتى نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، على الأقل . فقد اعتبر البريطانيون ، وهم اقوى اطراف الصراع ، ان من حقهم حكم فلسطين باعتبارها منطقة نفوذ لهم ، اسوة بمناطق النفوذ الاخرى التي خصصت لهم ولحلفائهم ، بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى . ولذلك لم يكونوا على استعداد للاستجابة لطلبات الفلسطينيين بشأن منحهم الاستقلال والحكم الذاتي : بينما لم يدرك الفلسطينيون ، من ناحيتهم ، ان موازين القوى العالمية آنذاك لم تكن تسمح لهم ولا تساعدهم ، على تحقيق اي من تلك الطلبات . ومن هذا المنطلق ، اصر البريطانيون ايضا على تنفيذ سياسة وعد بلفور ، الهادفة الى تأمين مصالحهم عن طريق كسب ود اليهود والصهيونيين من جهة ، وحملهم على التمسك ببريطانيا للابقاء على سيطرتها في فلسطين من جهة اخرى ، لكي يستطيعوا اقامة الوطن القومي في كنفها . وكان اقصى ما وصلت اليه بريطانيا في هذا الصدد ، ازاء المعارضة العربية ، موافقتها على تقليص مفهوم الامتيازات التي منحت لليهود ، بموجب ذلك الوعد ، بالمقارنة مع تلك التي نسبت اليه ، أو فهمت ضمنا منه ، عند صدوره .

اما الزعماء الفلسطينيون من ابناء العائلات الكبيرة والوجهاء والتجار وبعض المثقفين ، فلم يقدروا ، كما يبدو ، عمق المتغيرات الدولية التي نشأت اثر انتهاء الحرب العالمية ، وراحوا يتحدثون عن حق تقرير المصير والاستقلال والوحدة العربية ، في وقت لم يكن فيه احد على استعداد لسماعهم من جهة ، ولم يكن لديهم ، ولو نزر يسير ، من القوة الضرورية لتحقيق هذه المطالب ، او بعضها ، من جهة اخرى . ومن ناحية ثانية ، لم يكن باستطاعة الشعب

الفلسطيني انذاك ، موضوعيا ، خلق قيادة اخرى ، خصوصا ، انه كان خاضعا لحكم التخلف العثماني مدة اربعة قرون متتالية ، انهك خلالها الفقر والمرض والجهل قواه (وحتى سنة ١٩٣١ ، مثلا ، كما اتضح من الاحصاء العام للسكان الذي اجرى انذاك ، بلغت نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة بين العرب الفلسطينيين ١٥,٢١٪ . ٤٧,٨٠٪ بين المسيحيين و ١٠,٩١٪ بين المسلمين مقابل ٧٢,٢١٪ بين اليهود . اي ان عدد اليهود الذين يجيدون القراءة والكتابة فاق عدد العرب ـ ١٢٦ الف يهودي في مقابل ١١٩ الف عربي ـ رغم ان نسبتهم من عدد السكان العام وصلت آنذاك الى ١٦,٩٠ (١٤٦) .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، اذ سرعان ما سيطر التنافس ، كما اشرنا ، على تلك الزعامة الفلسطينية فشطرتها الى قسمين ، عرف احدهمـا ، (« المجلسيـون » ، اي الحسينيون ومناصروهم) بأنه التيار الوطني ، بينما رفع الاخـر ، (النشاشيبيـون ومؤيدوهم) شعار المعارضة . وقد حرص التيار الوطني على عدم الالتزام بأي موقف علني ، تفهم منه الموافقة على وعد بلفور او الوطن القومي ، ولكن زعماؤه تعاونوا ، في الوقت نفسه ، مع البريطانيين ، منفذي تلك السياسة . اما المعارضة ، فقد كانت تبدي ، بين حين وآخر ، « مرونة » في مواقفها ، يفهم منها استعدادها ، ضمن شروط معينـة ، للتفاهـم مع البريطانيين ، وربما مع اليهود ، وكانت تتعرض ، بسبب ذلك ، الى حملات تجريح وتشكيك شعواء . وترتب على هذه الاوضاع نشوء « راي عام » فلسطيني ، راح يصر على ضرورة حصول الفلسطينيين على كل شيء او لا شيء ، فكان نصيبهم ، عموما : لا شيء .

اما الصهيونيون فقد كانوا اكثر الاطراف واقعية : اذ قدروا قوتهم وامكاناتهم حق قدرها . فاتبعوا سياسة خذ وطالب ، ونفذوها بمرونة فائقة . فكانوا يسارعون الى الانحناء ، واحيانا الاختفاء ، عندما تهب العاصفة ، ثم يعودون ، بعد مرورها ، الى مواصلة عملهم في بناء الوطن القومي تدريجيا ، لبنة بعد اخرى ، « دونم آخر وعنزة اخرى » . وتم ذلك ، الى حد كبير ، بفضل قيادة صهيونية ديناميكية وبراغماتية ، برزت خلال هذه الفترة ، في ضوء التغييرات التي طرأت على اوضاع الحركة الصهيونية في العالم ، عموما ، نتيجة للحرب .

---

(١) انظر ، للتفاصيل ، صبري جريس ، **تاريخ الصهيونية** ، بيروت : مركز الابحاث ، م.ت.ف.، ١٩٧٧ ، الجزء الاول ، ص ٢٧٤ و ٢٧٩ .

(٢) الياتـار فرايـزل ، « **هامدينيـوت هاتسيونيت لاحار هتسهارات بلفور ، ١٩١٧ ـ ١٩٢٢** » (السياسة الصهيونية بعد وعد بلفور ، ١٩١٧ ـ ١٩٢٢) ، تل ـ ابيب : جامعة تل ـ ابيب وهاكيبوتس هامينوحاد ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٠ و ١٣٤ (بالعبرية) .

(٣) انظر أيضا ، لمزيد من التفاصيل
Robert John and Sami Hadawi, *The Palestine Diary* (Beirut: The Palestine Research Center, 1970), Vol. 1, p. 167

(٤) Great Britain. Parliamentary Papers, cmd. 1499; *An Interim Report on the Civil Administration of Palestine during the period 1st July, 1920 - 30th June, 1921* (London: H. M.S.O., 1921), p. 16.

(٥) يوسف اوليتسكي ، « مبزوراه ـ لمديناه » (من تشتت ـ الى دولة) ، القدس : احياساف

١٩٥٩ ، الجزء الأول ، ص ٢٤٢ (بالعبرية) .

(٦) An Interim Report..., *op. cit.*, p. 18.

(٧) Great Britain. Colonial Office; *Palestine. Report of the High Commissioner on the Administration of Palestine, 1920 - 1925* (London: H.M.S.O., 1925), (Colonial No. 15), *p.* 38.

(٨) An Interim Report..., *op. cit.*, p. 10.

(٩) *Ibid.*, p. 9.

(١٠) David Lloyd George, *The Truth About the Peace Treaties* (London: Victor Gollancz Ltd , 1939), Vol. 2, p. 1175.

(١١) *A Survey of Palestine* (Jerusalem: Government Printer, 1946), Vol. 1, p. 21.

(١٢) Leonard Stein, *The Balfour Declaration* (London: Vallentine Mitchell, 1961), pp. 598-599.

(١٣) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢١ .

(١٤) Esco Foundation for Palestine, Inc. *Palestine: A Study of Jewish, Arab and British Politics* (New Haven: Yale University Press, 1947), Vol. 1, p p. 164 - 177; Chaim Weizmann, *Trial and Error* (London: East and West Library, 1950), pp 347 - 348.

(١٥) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٢ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(١٧) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ــ ١٢٥ و ١٨٦ ــ ١٩١ .

(١٨) انظر ، مثلا ، لمزيد من التفاصيل ،
W. F. Boustany, *The Palestine Mandate: Invalid and Impracticable* (Beirut: American Press, 1936) pp., 168

(١٩) Lloyd George, *op. cit.*, pp. 1163 1175, 1182 - 1190.

(٢٠) راجع النص الرسمي لصك الانتداب على فلسطين في
Great Britain. Parliamentary Papers, Cmd. 1785; League of Nations. *Mandate for Palestine, Togather with a Note by the Secretary - General Relating to its Application to the Territory known as Trans - Jordan* (London: H.M.S.O., 1922).

(٢١) Lloyd George, *op. cit.*, p. 1144.

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ١١٥٥ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ١١٧٧ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١١٧٧ و ١١٧٩ ــ ١١٨٠ .

(٢٥) Great Britain. Parliamentary Papers, Cmd. 1195; *Franco - British Convention for Syria and The Lebanon, Palestine and Mesopotamia* (London: H.M.S.O., 1921), (Miscellaneous No. 4, 1921).

(٢٦) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٦ .

(٢٧) Franco - British Convention ..., *op. cit.*, p. 3.

(٢٨) Great Britain. Parliamentary Papers, Cmd. 1910; *Agreement Between His Majesty's Government and the French Government respecting the Boundary Line between Syria and Palestine from the Mediterranean to El Hammé* (London: H.M.S.O., 1923), (Treaty Series No. 13, 1923).

(٢٩) *Ibid.*, p. 7; Palestine. Report of the High Commissioner ..., *op. cit.*, p. 55.

(٣٠) انظر ايضا ، لمزيد من التفاصيل ، فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩٦ ــ ٢٠٣ . وكذلك
Report of the Executive of the Zionist Organization to XII Zionist Congress (London, 1921), I. Political Report, pp. 33-39.

(٣١) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٤ .

(٣٢) ملف وثائق فلسطين ، القاهرة : وزارة الارشاد القومي ، الهيئة العامة للاستعلامات ، ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، ص ٢٧٧ .

(٣٣) المصدر نفسه .

(٣٤) المصدر نفسه .

(٣٥) المصدر نفسه .

(٣٦) عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين

الحديث ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ١٦٥ ــ ١٦٧ .

(٣٧) Elie Kedourie, «Sir Herbert Samuel and the Government of Palestine», *Middle Eastern Studies*, Vol. V, No. 1, January 1969, p. 51.

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

(٣٩) An Interim Report..., *op. cit.*, p. 21.

(٤٠) Palestine. Report of the High Commisioner..., *op. cit.*, p. 53.

(٤١) Mandate for Palestine..., *op. cit.*, pp. 10-11.

(٤٢) قوانين فلسطين (درايتون) ، القدس : حكومة فلسطين ، ١٩٣٤ ، الجزء الرابع ، ص ٢٣٦٠ .

(٤٣) انظر ايضا مقالة ابراهام السبرغ ، « تعيين الحدود الشرقية لارض ــ اسرئيل » في « هاتسيونوت : ميئاسيف لتولدوت هاتنوعاه هاتسيونيت فيهاييشوف هايهودي بايرتس ــ يسرائيل » (الصهيونية : مجموعة لتاريخ الحركة الصهيونية واليشوف اليهودي في ارض ــ اسرائيل) ، تل ــ ابيب : جامعة تل ــ ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧٣ ، الجزء الثالث ، ص ٢٢٩ ــ ٢٤٦ (بالعبرية) .

(٤٤) انظر ، للتفاصيل ، اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٢٧ ــ ٤٢٥ .

(٤٥) انظر ، مثلا ، للتفاصيل مقالة انيتا شابيرا ، « قضية حق الاولوية على اراضي الامير عبد الله في غور الكبد ــ بداية الاتصالات بين الادارة الصهيونية والامير عبد الله » في « الصهيونية » ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثالث ، ص ٢٩٥ ــ ٣٤٥ . وكذلك مقالة « مثقال باشا الفايز ومشروع شراء اراض في مواب » في الياهو ايلات ، « شيفات تسيون فيعراف » (عودة صهيون والعرب) ، تل ــ ابيب : دفير ، ١٩٧٤ ، ص ١٢٥ ــ ١٣٧ .

(٤٦) John and Hadawi, *op. cit.*, p. 169.

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) Great Britain. Parliamentary Papers, End. 1540; *Palestine. Disturbances in May 1921. Reports of the Commission of Inquiry with Correspondence Relating Thereto* ((London: H.M.S.O., 1921), pp. 19-22.

(٤٩) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه ، ص ٢٢ ــ ٢٦ . وانظر ايضا « سيفر تولدوت هاهاغاناه » (كتاب تاريخ الهاغاناه)، (رئيس التحرير . بن ــ تسيون دينور) ، تل ــ ابيب : معرخوت ، ١٩٥٦ ، الكتاب الثاني ، الجزء الأول ، ص ٧٧ ــ ٩١ .

(٥٠) Palestine. Disturbances in May 1921..., *op. cit.*, pp. 5-16, 36-43.

(٥١) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٥٢) « كتاب تاريخ الهاغاناه » ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، الجزء الأول ، ص ٩١ ــ ٩٢ .

(٥٣) Palestine. Disturbances in May 1921..., *op. cit.*, p. 59.

(٥٤) A Survey of Palesitne, *op.cit* Vol. 1, pp. 18-19.
وانظر ايضا « ملف وثائق فلسطين » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٣ ــ ٢٠٥ .

(٥٥) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٦ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ . وانظر ايضا اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٣ .

(٥٧) فرازيل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦٤ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٥٩) انظر ايضا ، لمزيد من التفاصيل ، حول سياسة صموئيل في فلسطين ودوافعها ، مقالة
Elie Kedourie, «Sir Herbert Samuel...», *op. cit.*, pp. 44-68.

(٦٠) John and Hadaw i. *op. cit.*, Vol. 1, p. 172.

(٦١) « ملف وثائق فلسطين » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠٧ .

(٦٢) وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨ ــ ١٩٣٩) ، (جمع وتصنيف . عبد الوهاب الكيالي) ، بيروت وبغداد : مؤسسة الدراسات الفلسطينية وجمعية صندوق فلسطين ، ١٩٦٨ ، ص ٣٥ .

(٦٣) « قوانين فلسطين » (درايتون) ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الرابع ، ص ٨٦١ ــ ٨٦٢ .

(٦٤) المصدر نفسه .

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٨٦٤ .

(٦٦) المصدر نفسه .

(٦٧) المصدر نفسه .

(٦٨) المصد نفسه .

(٦٩) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٠ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧١ .
(٧١) « وثائـــق المقاومـــة الفلسطينيـــة العربية .. » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦ — ٢٣ .
(٧٢) المصدر نفسه .
(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .
(٧٤) انظر ، للتفاصيـل ، « كتـاب تاريـخ الهاغاناه » ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، الجزء الاول ، ص ١٣٢ — ١٤٠ .

(٧٥) « سيفـر هاتعـودوت شل هافاعـاد هليئومـي شل كنيست يسرائيـل بايـرتس — يسرائيل » (كتاب الوثائق للجنة القومية لكنيست يسرائيل في ارض — اسرائيل) ، (رئيس التحرير : موشي اطياس) ، القدس : مطبعة رفائيل حاييم هاكوهين م.ض. ، ١٩٦٣ ، ص ٣٤ — ٣٥ .

(٧٦) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦٢ . وانظر ايضا .
An Interim Report..., *op. cit.*, p. 12.

(٧٧) Great Britain. Parliamentary Papers, End. 3686; *Palestine. Report on Immigration, Land Settlement and Development, by Sir John Hope Simpson* (London: H.M.S.O., 1930), p. 30.

(٧٨) يعقوب شمعوني ، « عـرفي ايـرتس — يسرائيل » (عرب ارض — اسرائيـل) ، تل — ابيـــب : عام عوفيـــد ، ١٩٤٦ ، ص ٩٠ (بالعبرية) .

(٧٩) A Survey of Palestine, *op. cit.*, Vol. 2, pp. 901 - 902.

(٨٠) محمد عزة دروزه ، حول الحركة العربية الحديثة ، صيدا — بيروت : منشورات المكتبـة العصرية ، ١٩٥٩ ، الجزء الثالـث ، ص ٥١ — ٥٢ .

(٨١) المصدر نفسه .
(٨٢) المصدر نفسه .
(٨٣) Survey of Palestine, *op. cit.*, Vol. 2, pp. 902 - 903.
(٨٤) المصدر نفسه .
(٨٥) انظر التفاصيل في
Great Britain. Parliamentary Papers, End. 1700; *Palestine. Correspondence with the Palestine Arab Delegation and the Zionist Organization* (London: H.M.S.O., 1922), pp. 2-17.

(٨٦) المصدر نفسه ، ص ٤ .
(٨٧) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٨٨) المصدر نفسه ، ص ٦ .
(٨٩) المصدر نفسه ، ص ١٦ .
(٩٠) المصدر نفسه .
(٩١) Palestine. Report of the High Commissioner.., *op. cit.*, p. 27.
(٩٢) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٢ .
(٩٣) Palestine. Correspondence..., *op. cit.*, p. 17.
(٩٤) انظر نص الرد في المصدر نفسه ، ص ٢١ — ٢٨ .
(٩٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .
(٩٦) فرايزل ، مصدر سبـق ذكـره ، ص ٢٠٥ .

(٩٧) Palestine. Correspondence..., *op. cit.*, p. 29.

(٩٨) Chaim Weizmenn, Trial and Error (London: East and West Library, 1950), p. 361.

(٩٩) المصدر نفسه .

(١٠٠) Joseph B. Schechtman, *Rebel and Stateman: The Vladimir Jobotinsky Story* (New York: Thomas Yoseloff, 1956), p. 422.

(١٠١) Palesitne. Report of the High Commissioner,..., *op. cit.*, p. 27.

(١٠٢) فرايزل ، مصدرسبق ذكره ، ص ٢٠٣ .

(١٠٣) نقلا عن نص الكتاب الابيض ، كما اورده دروزه ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٨ — ٢٦٢ . وانظـر ايضا Palestine. Correspondence..., *op. cit.*, pp. 17-21

(١٠٤) Palestine. Correspondence..., *op. cit.*, pp. 17-18.

(١٠٥) المصدر نفسه .
(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ١٨ .
(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٩ .
(١٠٨) المصدر نفسه .
(١٠٩) المصدر نفسه .
(١١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
(١١١) المصدر نفسه .
(١١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ — ٢١ .
(١١٣) مرسوم دستور فلسطين لسنة ١٩٢٢ ، « قوانين فلسطين » (درايتون) ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الرابع ، ص ٣٢٠٧ — ٣٣١٠ .
(١١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠٩ .
(١١٥) المصدر نفسه .
(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣١٠ .

(١١٧) المصدر نفسه ، ص ٣٢١١ .

(١١٨) انظر نص الرسوم في المصدر نفسه ، ص ٣٢٨٦ ـ ٣٣٩٤ .

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٢١١ .

(١٢٠) المصدر نفسه ، ص ٣٢١٢ .

(١٢١) المصدر نفسه .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢٢٨ .

(١٢٣) منشور التشكيلات الادارية ، المصدر نفسه ، ص ٣٢٣٧ .

(١٢٤) Chaim Weizmann, *op. cit.*, p. 361.

(١٢٥) انظر التفاصيل في
Neil Caplan, *Palestine* Jewry *and the Arab Question* (London: Frank Cass, 1978), pp. 151-157.

(١٢٦) « وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ... » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٧ .

(١٢٧) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(١٢٨) المصدر نفسه ، ص ٥٣ و ٥٥ .

(١٢٩) A Survey of Palestine..., *op. cit.,* Vol. 1, p. 142.

(١٣٠) انظر نصوص البيانات في « وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ... » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٧ ـ ٦٥ .

(١٣١) Great Britain, Parliamentary Papers, End. 1889; *Palestine. Papers relating to the Elections for the Palestine Legislative Council, 1923* (London: H.M.S.O., 1923), pp. 7-8.

(١٣٢) المصدر نفسه .

(١٣٣) المصدر نفسه ، ص ١١ . وانظر ايضا « قوانين فلسطين » (درايتون) ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الرابع ، ص ٣٢٣٢ ـ ٣٢٣٣ .

(١٣٤) المصدر نفسه .

(١٣٥) Palestine. Papers relating..., *op. cit.*, p. 12.

(١٣٦) « قوانين فلسطين » (درايتون) ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الرابع ، ص ٣٣٦٠ ـ ٣٣٦١ .

(١٣٧) انظر ، للتفاصيل ، « وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ... » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٣ ـ ٧٥ .

(١٣٨) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

(١٣٩) Great Britain. Parliamentary Papers. Cmd. 1989; *Palestine. Proposed Formation of an Arab Agency. Correspondence with the High Commissioner for Palestine* (London: H.M.S.O., 1923), p. 6.

محمد عبد الرؤوف سليم

الصناعة اليهودية في فلسطين في عهد الانتداب

نصت المادة الحادية عشرة من صك الانتداب على فلسطين على ان تتخذ الادارة الاجراءات اللازمة فيما يتعلق بتنمية البلاد مع تخويلها السلطة التامة في اصدار ما يلزم من التشريعات لتملك اي من موارد البلاد الطبيعية والمنافع العمومية بها . ثم خولت نفس المادة سلطات الانتداب الحق في الاتفاق مع الوكالة اليهودية على قيام الوكالة بانشاء او تسيير الاشغال العامة ما دامت الادارة تتولى هذه الامور مباشرة بنفسها(١) .

وينحصر التفسير الصهيوني لما جاء في هذه المادة في انها تستهدف تسخير موارد فلسطين الطبيعية للاستثمارات اليهودية التي تسيرها الوكالة اليهودية ، لتتمكن من السيطرة على اقتصاديات البلاد ، وفتح آفاق جديدة لاستيعاب اكبر عدد من المهاجرين اليهود .

توليد الطاقة واستخراج المعادن .

عمد هربرت صموئيل الى منح امتياز توليد الكهرباء في سبتمبر عام ١٩٢١ لاحد كبار رجال المال اليهود ، وهو بنحاس روتبنرج . وكانت القوى اليهودية في مجلس العموم البريطاني وراء عقد هذا الامتياز في وقت مبكر رغم ان منح الامتيازات في فلسطين كان مرتبطا بالمصادقة على معاهدة سيفر(٢) .

وكان تشرشل قد بحث مع هربرت صموئيل مسألة منح الامتيازات لتعمير فلسطين واقامة المشروعات الصناعية التي تقضي باستخدام العمال شريطة الا تتعارض الامتيازات الجديدة مع الامتيازات القديمة تطبيقا للمادة ٣١٤ من معاهدة سيفر(٣) .

وقد درست مسألة توليد الكهرباء من مياه بحيرة طبرية ونهر اليرموك في منطقة بالقرب من جسر المجامع لانتاج تيار كهربائي قوته ٩٨,٠٠٠ حصان.وارتؤي ان هذا التيار كفيل بالمساعدة على ادارة الصناعة في فلسطين كي تصير بلدا ذا شأن كبير في الشرق . فضلا عن ري الاراضي

الخصبة الواقعة في الضفة الشرقية من نهر الشريعة (الاردن) عن طريق انشاء خزان مائي في تلك المنطقة(٤) .

وقد جاب روتنبرج العديد من مراكز التجمع اليهودية في أوروبا والولايات المتحدة الاميركية سعيا وراء ضمان الاكتتاب بربع مليون جنيه فلسطيني لتنشيط اعمال شركته(٥) . وقد تساءل أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني(٦) عن رأس المال اللازم لمشروع روتنبرج وكيف أمكن توفيره ، وعما اذا كانت الحكومة البريطانية قد قدمت قرضا للمساهمة في المشروع . ورد وزير المستعمرات البريطاني بأن رأس مال الشركة بلغ مليونا من الجنيهات الاسترلينية(٧) بينما بدأت الشركة برأس مال قدره ٦٥٧,٩٥١ جنيها استرلينيا وان الحكومة البريطانية اتخذت خطوات لتقديم قرض قيمته ربع مليون جنيه استرليني من خلال التسهيلات التجارية(٨) .

وكانت حكومة فلسطين قد نشرت في الجريدة الرسمية قانون امتيازات الكهرباء لسنة ١٩٢٧ ، وكان القسم الاول يشمل الامتياز الممنوح في ٥ مارس ١٩٢٦ للشركة الكهربية الفلسطينية (روتنبرج) لاجل استخدام مياه نهر الاردن واليرموك لتوليد الطاقة الكهربائية في فلسطين . وقد نصت المادة الثالثة منه على ان يمنح المندوب السامي للشركة امتيازا مطلقا باستعمال مياه الاردن وحياضه ، ويشمل ذلك مياه نهر اليرموك وجميع روافد نهر الاردن التي تقرر استخدامها لفلسطين او شرق الاردن بموجب الاتفاق الانجليزي الفرنسي المعقود في ٢٣ ديسمبر عام ١٩٢٠ او بموجب اي اتفاق اخر لتوليد الكهرباء من تلك المياه وتوزيعها في منطقة الامتياز ، مع استخدام بحيرة طبرية حوضا لخزن المياه لهذه الغاية . وكانت مدة العقد سبعين عاما(٩) .

وقد قامت شركة كهرباء فلسطين ببناء محطات توليد الطاقة في القدس وتل ابيب وحيفا وطبرية(١٠) . على ان شروط الامتياز نصت على الا يجوز للشركة مباشرة اي حق يخل بأي من الامتيازات التالية :

(أ) الامتياز المؤرخ في سبتمبر ١٩٢١ الممنوح لبنحاس روتنبرج لاستعمال مياه نهر العوجا لتوليد الكهرباء والذي حول بعد ذلك لشركة يافا والمعروف بامتياز « العوجا » .

(ب) الامتياز الذي منحته بلدية القدس عام ١٩١٤ لتوليد الكهرباء .

(جـ) الامتياز الذي منحته الحكومة العثمانية في يونيو عام ١٩١٤ لمحمد افندي عمر وميشيل افندي سرسق بشأن اراضي الحولة .

(د) اي امتيازات تمنح بدلا من الامتيازين تحت بندي (ب) ، (ج) تنفيذا لاحكام البروتوكول الملحق بمعاهدة لوزان التي تقضي بأن تكون بعض الامتيازات الممنوحة من السلطة العثمانية موافقة للاحوال الاقتصادية الجديدة للمدة وللمدى الذي تكون فيه هذه الامتيازات سارية او قابلة للتنفيذ .

ويحق للمندوب السامي نزع الاراضي والمباني اللازمة بناء على طلب الشركة او في حالات تعذر الشراء بأتفاق متبادل لقاء دفع تعويض عادل .

وتنص بنود الامتياز على انه اذا انقطعت المياه عن صاحب أي أرض في منطقة الامتياز ،

يتعين على الشركة امداد الارض بالقدر الكافي من المياه ، كما ان الشركة مسؤولة عن دفع تعويضات لكل صاحب ارض لا يستطيع ان يزرع ارضه بسبب تقليل المياه في منطقة الامتياز ، أو تعرض زراعته للاتلاف .

وكان يحق للشركة ــ مراعاة لاحكام الامتياز ــ تحصيل مبالغ معينة لقاء انــارة الشوارع ، واستهلاك الكهرباء في الصناعة(١١) .

وقد هيأت التضاريس لمشروع روتنبرج موقعا طبيعيا بين نهرين كبيرين ،.وجعلت بينهما شبه خندق محاط من جهاته الثلاث الشرقية والجنوبية والغربية بحدود طبيعية مرتفعة ارتفاعا كافيا عن مستوى سطح الارض ، مع تزويده بمدخل طبيعي متسع اتساعا كافيا من الجهة الشمالية لتدخل منه مياه نهر اليرموك حيث تختزن في ذلك المستودع الطبيعي الذي تنحدر منه المياه لتشغيل مولدات الكهرباء .

وتبلغ مساحة هذا المستودع الطبيعي نحو الف دونم ويتسع لتخزين مليوني متر مكعب من المياه ، وكان من المقدر ان تحفر قناة(١٢) ، ويقام سد صناعي لحصر ماء اليرموك والاردن ، بحيث يكون في السد فتحات متحركة تعمل على تخفيف قوة ضغط الماء من المستودع اذا استدعت الضرورة ذلك(١٣) . وكان من المتوقع ان ينتهي العمل في السد والقنوات والجسور الخاصة بمشروع روتنبرج في غضون الشهور الستة الاولى من عام ١٩٢٩ ، على أساس تكوين بحيرة صناعية الى جانب بحيرة طبرية . وكانت الشركة قد عملت على انهاء العمل في سد اليرموك في يناير ١٩٢٩ ، بحيث تصل الكهرباء الى حيفا خلال الشهور الثمانية الاولى من العام نفسه(١٤) .

وقد حققت الشركة نجاحا كبيرا ، فقفز رأسمالها الى خمسة ملايين من الجنيهات الفلسطينية في عام ١٩٣٩ نتيجة زيادة ارباحها(١٥) .

وفضلا عن مشروع روتنبرج ، كان هناك مشروع استغلال أملاح البحر الميت ومعادنه . وكان المهندسان الفرنسيان كارش وغانديون قد تقدما في ١٩ فبراير عام ١٩٢٥ بطلب الى الحكومة البريطانية للمصادقة على منحهما امتيازا في هذا الشأن ، فأجابتهما بالموافقة ــ في بادىء الامر ــ ويحفظ الحق لهما فيه . وكان هذا المشروع موضع اهتمام أكاديمية العلوم في باريس ، على إثر الرسالة التي قدمها اليها عنه مسيواد وارد إمبو الاستاذ بمدرسة الكبارى والسدود الوطنية . ومما جاء في هذه الرسالة ان درجة ملوحة البحر الميت تصل الى ٢٤٠ جرام ملح في اللتر الواحد ، بينما كانت مياه بحيرة طبرية واعالي نهر الاردن مياها عذبة يمكن استخدامها في الري ، ورؤى انه اذا اقتضى الامر ، تستعمل الطلبات الكهربائية في رفع المياه ، وانه من المستحسن جعل بحيرة طبرية مستودعا للمتدفق من نهر الاردن وتنظيم باقي المياه عن طريق بناء سدود على النهر جنوبي بيسان ، وإقامة سدود أخرى في مواضع مناسبة على جوانب النهر ، وبذلك يمكن ري مساحة من الارض تتراوح بين سبعين الفا ومائة الف هكتار(١٦) .

غير ان الدوائر الرسمية البريطانية تراجعت عن موافقتها ، لتدرس منذ عام ١٩٢٧ مسألة منح الامتياز لشركة أخرى رأسمالها بريطاني امريكي مشترك . ذلك ان اليهوديين نوفومسكي

وتولوخ تقدما بطلب كوكيلين لتلك الشركة ، للقيام بمشروع البحر الميت ، الا ان بعض الاصوات نادت بتحريم منح امتيازات في فلسطين لليهود ، فتأخرت الموافقة البريطانية[١٧] . فقد وجهت اللجنة العربية والمجلس الاسلامي الأعلى اعتراضات الى وزارة المستعمرات البريطانية على اتجاه حكومة فلسطين نحو منح هذا الامتياز لليهود[١٨] ، منذ ان ترامت الى الاسماع نداءات يهودية تقول ان من واجب الوكالة اليهودية ان تجعل كل امتياز في فلسطين منسقا مع البرنامج الصهيوني ، تحقيقا لرفاهية الوطن القومي اليهودي[١٩] .

وقد عبر رئيس المجلس الاسلامي الأعلى بالقدس عن وجهة نظر عرب فلسطين في برقيته الى مجلس العموم البريطاني في ابريل عام ١٩٢٩ ، جاء فيها ان منح امتياز البحر الميت لنوفومسكي أو لغيره من الصهيونيين أمر من شأنه ان يستعمل سلاحا سياسيا يناقض حقوق العرب ومصالحهم ، ويزيد في البغضاء والطائفية ، ويدعو للارتياب . وعلى ذلك فقد اقترح رئيس المجلس الاسلامي الأعلى منح الامتياز لشركات صناعية ليست لها اغراض سياسية ، كما طالب بضرورة الوقوف على رأي العرب في شروط الامتياز قبل توقيع عقده[٢٠] .

وبدأت القوى الصهيونية في التنديد بالمعارضة العربية ومارست ضغوطها[٢١] حتى تم عقد الامتياز في إبريل عام ١٩٢٩ ـ استنادا الى قرار كان مجلس اللوردات قد اصدره في ٢٣ مايو ١٩٢٨ بمنح الامتياز الى مجموعة من الشركات البريطانية والامريكية التي ابدت استعدادها لامداد نوفومسكي وتولوخ بالمال اللازم لتنفيذ المشروع ، ونشر في الجريدة العمومية لحكومة فلسطين». وأعلن مجلس العموم البريطاني ان لورد لتون سوف يتولى رئاسة الشركة التي ستؤلف لاستثمار الاموال كما ان مجلس ادارة تلك الشركة سيكون من مديري الشركات البريطانية والامريكية التي تمول المشروع [٢٣] .

وقد نص العقد على ان تؤلف تلك الشركة خلال اثني عشر شهرا من التوقيع عليه برأس مال لا يقل عن مائة الف جنيه استرليني ، وأن تبدأ الشركة باستئجار أربعة كيلو مترات مربعة في المنطقة الشمالية الغربية من البحر وان تكون مدة الامتياز خمسة وسبعين عاما . وكان من المقدر ان تتولى الشركة انتاج كميات من كلوريد البوتاسيوم درجة نقائها ثمانين في المائة في حدود الف طن خلال السنة الثالثة من بدء عملها ، والف وخمسمائة طن خلال السنة الرابعة وثلاثة الاف وخمسمائة طن خلال السنة الخامسة (حيث يتم فتح الطريق بين البحر الميت والقدس) ، وعشرة الاف طن خلال العامين السادس والسابع ، وثلاثين الف طن خلال الاعوام الثلاث ثم خمسين الف طن خلال كل عام بعد ذلك[٢٤] .

وكانت الدراسات اليهودية قد حددت الامكانيات المعدنية في البحر الميت عام ١٩٤٦ في الوجه التالي [٢٥] ـ

المعدن	الوزن الصافي
كلوريد البوتاسيوم	٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠
بروميد الماغنسيوم	١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠
كلوريد الصوديوم	١١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

كلوريـــد الماغنسيوم	٢٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠
كلوريـــد الكالسيوم	٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

وقد انتهت تلك الدراسات الى ان حركة التعدين في البحر الميت كانت لا تزال حتى ذلك العام تمر بالمراحل الاحتمالية فقط ، وانها لم تكن قد بلغت مرحلة الانتاج الفعلي بعد ، اذ انه كان من الممكن تطويرها بحيث تفتح آفاقا صناعية جديدة في الوطن القومي اليهودي تحقق استيعابا اوسع مجالا للمهاجرين اليهود إلى فلسطين خاصة لو تحقق طلب نوفومسكي وتولوخ في خط أنابيب البترول من العراق الى حيفا . ذلك ان الدراسات اليهودية انتهت الى أن الحصول على البترول سواء بشكل مباشر (من فلسطين) أو بشكل غير مباشر ، من الممكن ان يشكل مصدرا رخيص التكاليف لتوليد الطاقة الكهربائية يفوق تلك الممكن توليدها عن طريق الفحم ، فضلا عن أن البترول يمكن ان يلعب دورا هاما في عدد من الصناعات الكيميائية. وقد اكدت تلك الدراسات انه باستثناء الثروة المعدنية للبحر الميت ، هناك مخزون من الفوسفات في التلال الواقعة الى الغرب من نفس البحر يمكن استغلالها في تسميد الارض فضلاً عن وجود المنغنيز والباريتا Baryta[٢٦] والفلسبار Felespar[٢٧] في جنوب فلسطين والكبريت في غزة . وهي في مجموعها أملاح يمكن استخدامها في الصناعات الكيمائية الى جانب الأسمنت والجير (الجص) الذي نجحت الوكالة اليهودية في صناعتها محليا[٢٨] .

وتبرز الوثائق البريطانية اهتمام حكومة لندن بالدراسة التي أعدها المعهد الملكي بلندن عن انتاج البوتاس في فلسطين ومكانته من انتاج نفس المعدن في بلدان معينة حددته تلك الدراسة في عام ١٩٣٢ على الوجه التالي : ـ

البلد	ألمانيا	فرنسا	الولايات المتحدة	إسبانيا	بولندا	روسيا	فلسطين	الاجمالي
حجم الانتاج بالطن	١,٠١٠,٠٠٠	٣٢١,٠٠٠	١٢٨,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٧٦,٠٠٠	٤٤,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١,٦٨٠,٠٠٠

وكانت الوثائق البريطانية تضع تأشيرات خاصة بمدلولات الانخفاض المستمر في انتاج تلك الدول من البوتاس مما يشير الى ضرورة الاهتمام بأنتاج فلسطين منه . ذلك ان حجم الانتاج بلغ في تلك الدول ٢,٣٨٠,٠٠٠ طن عام ١٩٢٩ ثم هبط الى ٢,٢١٠,٠٠٠ طن في العام التالي ثم الى ١,٥٥٠,٠٠٠ طن في عام ١٩٣١ ثم استمر الهبوط في الانتاج حتى بلغ ١,٣٦٠,٠٠٠ في عام ١٩٣٢ وتعلق الدوائر البريطانية اهمية على ارتفاع حجم الانتاج في عام ١٩٣٣ واحتمال وصوله الى ما يربو على مليوني طن في عام ١٩٣٤[٢٩]

وكان توزيع انتاج العالم من البوتاس خلال الفترة من ١٩٢١ الى ١٩٣٣ على النحو التالي[٣٠] : ـ

السنة	الانتاج بالطن المتري (٨٠٪)
١٩٢١	٢,١٨٦,٠٠٠
١٩٢٢	٣,٠٨٠,٠٠٠
١٩٢٣	٢,٣٧٨,٠٠٠
١٩٢٤	٢,٣٣٠,٠٠٠
١٩٢٥	٣,٨٩٨,٠٠٠
١٩٢٦	٣,٣٨٤,٠٠٠
١٩٢٧	٣,٩٦٤,٠٠٠
١٩٢٨	٤,٤٣٨,٠٠٠
١٩٢٩	٤,٩٤٠,٠٠٠
١٩٣٠	٤,٦٠٠,٠٠٠
١٩٣١	٢,٢٠٨,٠٠٠
١٩٣٢	٢,٧٠٤,٠٠٠
١٩٣٣	٢,٩٨٠,٠٠٠

وكانت الحكومة البريطانية تعلق آمالا على احتمالات زيادة انتاج البوتاس في فلسطين ، بينما كانت دوائر الوكالة اليهودية قد وضعت خططها على أساس استخدام ذلك المعدن وغيره من المنتج في فلسطين في انشاء عديد من الصناعات الكيماوية في المستقبل .

وكانت شركة بوتاس فلسطين تعد من الشركات التي تعمل كلية للسوق العالمية ، وكانت صادراتها خلال الفترة ١٩٢٥/١٩٢٨ بالشكل الآتي الذي يوضح مدى المكاسب التي حققتها تلك الشركة(٣١) : ـ

السنة	البوتاس		البرومين	
	الوزن بالطن	الثمن بالجنيه الفلسطيني	الوزن بالطن	بالجنيه الفلسطيني
١٩٢٥	١٨,١٢٤	٨٠,٢٣١	٤٠٢	١٨,٧٥١
١٩٢٦	١٩,٧٩٣	١٣٢,٨٥٧	٤٧٨	٣٥,٠٩٧
١٩٢٧	٢٩,١١٠	١٧٤,٦٧٢	٥٢٣	٤٢,٠٢٦
١٩٢٨	٤٧,٤٩٦	٢٨٤,٩٧٦	٤٨١	٣٧,٩٨٥

الصناعة اليهودية والاستيعاب

كانت مجالات الصناعة في فلسطين عامل إغراء للمستثمرين اليهود ، فتقدمت الصناعة

منذ بداية نشاط الوكالة اليهودية في عام ١٩٢٢، فبينما يوضح تقرير رسمي بريطاني ان عدد المعامل الصناعية اليهودية في فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى بلغ ١٠٢ معملا رأسمالها ٣٧٦,٠٠٠ جنيها فلسطنيا(٣٢) ، يبين احصاء اجرته الوكالة اليهودية في عام ١٩٢٦ أن عدد المنشئات الصناعية اليهودية في فلسطين في نوفمبر ١٩٢٣ بلغ ٢٩٣ منشأة ، وان اجمالي الاموال المستثمرة فيها بلغ ٩٦٦,٥٤٨ جنيها فلسطينيا ، استوعبت ٢,٢٣١ من الايدي العاملة . وقد ارتفع عدد المنشئات الصناعية في عام ١٩٢٦ الى ٥٩٢ منشأة أي ما يربو على الضعف ، كما ارتفع حجم الاستثمارات المستخدمة فيها الى ١,٨٤٩,٢٢٣ جنيها فلسطينيا استوعبت ٥,٧١١ عاملا يهوديا . وقد حدثت انتكاسة صناعية في أواخر عام ١٩٢٦ أغلقت بعض المنشئات الصناعية اليهودية في العام التالي ، وتناقص عددها الى ٥١٣ منشأة كما هبط رأس المال إلى ١.٥٠١,٥٥٠ جنيها فلسطينيا ، استوعبت ٤,٧٢٦ من العمال اليهود(٣٣) . ورغم احداث هبة البراق عام ١٩٢٩ ، يوضح احصاء أجرته الوكالة اليهودية في العام التالي أن عدد المنشآت الصناعية اليهودية ارتفع الى ٦١٧ منشأة استوعبت ٦,٧٧٧ عاملا يهوديا وعملت برأس مال قدره ١,٦٥٣,٠٠٠ جنيه فلسطيني(٣٤) .

وتوضح منكرة للوكالة اليهودية ان المراكز الرئيسية للتنمية الصناعية اليهودية كانت خلال تلك الفترة موجودة في تل ابيب وحيفا ، وان صناعة النسيج كانت تمثل مجالا صناعيا هاما حيث بلغ عدد مصانع النسيج اليهودية ٤٢ مصنعا في عام ١٩٢٥ ، وكانت الشركة التعاونية لصناعة النسيج تمتلك الجزء الاكبر منها(٣٥) . واستمر النمو الصناعي اليهودي في فلسطين وفقا للارقام التالية(٣٦) : ـ

التوزيع	١٩٣٣	١٩٣٧
عدد المنشئات	٣,٣٨٨	٥,٦٠٦
عدد العاملين	١٩,٥٩٥	٣٠,٠٤٠
الانتاج السنوي	٥,٣٥٢,٠٠٠	٩,١٠٩,٠٠٠
رأس المال	٥,٣٧١,٠٠٠	١١,٦٣٧,٠٠٠

وكانت الشركات الكبيرة تمثل عنصرا هاما في الصناعة فقد تزايد عدد الشركات المسجلة كل عام خلال الفترة ١٩٣١/ ١٩٣٤ من خمس وثلاثين شركة في عام ١٩٣١ إلى ثمان وسبعين شركة في العام التالي ثم الى أربع واربعين ومائة شركة في عام ١٩٣٣ ثم إلى مائتين وست شركات في عام ١٩٣٤ . ومن ثم ارتفع عدد الشركات الصناعية العاملة اليهودية في فلسطين من ثمان وستين وثلاثمائة شركة في عام ١٩٣١ الى احدى وثلاثين وثمانمائة شركة في عام ١٩٣٤(٣٧) . وقد ابان تقرير اللجنة الدائمة للانتدابات المرفوع الى مجلس عصبة الامم عام ١٩٣٦ ان الوضع الاقتصادي اليهودي في فلسطين تقدم كثيرا عام ١٩٣٥ اذ انشئت مصانع يهودية جديدة خلال العام متعددة المجالات الانتاجية(٣٨) . وتشهد الاحصائية التالية على تعدد مجالات الانتاج الصناعي اليهودي عام ١٩٣٧(٣٩) : ـ

مجالات الانتاج	عدد المنشئات	عدد العمال	قيمة الانتاج لعام كامل	راس المال
الصناعات الغذائية	٣٨٣	٣,٩٢٩	٢,٣٠٥,٠٠٠	١,٦٥١,٠٠٠
صناعة النسيج	١١٦	١,٥٧٦	٣٧٧,٠٠٠	٤٨٤,٠٠٠
صناعة الملابس	١,٢٠٧	٣,٤٥٠	٥٤٦,٠٠٠	٢٨٦,٠٠٠
الصناعات المعدنية	٦٠٠	٢,٧٦٥	٧٨٨,٠٠٠	٧١٠,٠٠٠
الآلات	٤٤٣	١,٤٧٦	٣٠١,٠٠٠	٢٥٥,٠٠٠
صناعة الاخشاب	٦٥٧	٣,٠١١	٨٠٦,٠٠٠	٤٨٢,٠٠٠
الصناعات الجلدية	٦٨٣	١,٨٣٠	٤٢٠,٠٠٠	١٩٩,٠٠٠
الورق والطباعة	٤٢٥	٢,٨٢١	٥٩٧,٠٠٠	٥٨٣,٠٠٠
الكيماويات	٩١	٢,٠٥٤	٨٨٨,٠٠٠	١,٦٠٠,٠٠٠
الاحجار والاسمنت	٢٥١	٣,٢٨٦	١,٠٦٩,٠٠٠	١,٣٢٢,٠٠٠
صناعات متنوعة	١٢٢	٥٣٩	١٤٤,٠٠٠	١١٥,٠٠٠
ورش صناعية غير متخصصة	٦٣٤	١,٨٧٩	٢٨٥,٠٠٠	٢٤٩,٠٠٠
الجملة	٥,٦٠٦	٢٨,٦١٦	٨,٥٢٦,٠٠٠	٧,٩٣٦,٠٠٠
محطات توليد الكهرباء	٤	١,٥٧٠	٥٨٣,٠٠٠	٣,٧٠١,٠٠٠
الاجمالي	٥,٦١٠	٣٠,١٨٦	٩,١٠٩,٠٠٠	١١,٦٣٧,٠٠٠

ويؤكد تقرير للوكالة اليهودية أن عام ١٩٣١ شهد عدم استقرار في قطاع الاقتصاد في نشاط الوكالة اليهودية بسبب أحداث الثورة الفلسطينية الكبرى ، فحدثت تحولات في البناء الاقتصادي الفلسطيني ككل . وبرغم ان الوكالة اليهودية استغلت ذلك النزاع الانجليزي الايطالي الذي برز نتيجة للحرب الايطالية في الحبشة في وقت كانت الصناعة اليهودية الناشئة في فلسطين تحبو على ارضيه اقتصادية غير مخطط لها ، فأن كثيرا من أرباب الصناعة اليهودية في فلسطين لم يكونوا على علم بالظروف الداخلية بالبلاد ، ومتطلبات الاستهلاك المحلي ، ونوعيات الانتاج الصناعي المطلوبة . وعلى ذلك لم توضع تلك الاعتبارات الجوهرية في الحسبان عند بناء المنشئات الصناعية الجديدة . فواجه كثير من الصناعات قصورا في رأس المال المستثمر فيها فضلا عن ان الاحتياطي المالي والقروض كانت أقل من الحد الادنى المطلوب ، كما جهل كثير من المستثمرين حقيقة أن فلسطين بلد مفتوح للاستيراد رغم ما لجأت اليه الحكومة البريطانية من إنشاء الحواجز الجمركية لحماية الانتاج المحلي(٤٠) .

وعلى الرغم من انه كان على الصناعة اليهودية في فلسطين أن تشق طريقها وسط ظروف صعبة في تلك الفترة ، فقد نشطت أدارة الصناعة والتجارة وادارة العمل التابعة للوكالة اليهودية ، وانشأت اجهزة جديدة لدفع الحركة الصناعية الى الامام في سبيل استيعاب مهاجرين جدد يضيفون دماء جديدة للوطن القومي اليهودي في فلسطين . فأنشىء مكتب التخطيط الاقتصادي ومؤسسة التجارة الخارجية للتغلب على العقبات التي كانت على الاقتصاد

اليهودي تخطيها . وقد اجرت إدارة الاحصاء بالاشتراك مع ادارة التجارة والصناعة وهما من الادارات التابعة للوكالة اليهودية احصاء في صيف عام ١٩٣٧ يخدم كنقطة انطلاق لتخطيط اقتصادي مرحلي يسهم في تثبيت أركان الصناعة اليهودية في فلسطين ، وكانت نتائج ذلك الاحصاء كما يلي(٤١) :

التوزيع	عدد المصانع	حجم القوة العاملة	الانتاج بالجنيه الفلسطيني	حجم الاستثمارات بالجنيه الفلسطيني
الصناعات البيوية	٪٧٢ = ٤,٠٥٠	٪٢٨ = ٧,٩٩٠	٪١٤ = ١,٢١٧٢٩٠	٪٨ = ٥٧٢,٣٣٠
الصناعات الصغيرة	٪١٨ = ١,٠١٦	٪٢٥ = ٧,١٤٠	٪٢١ = ١,٧٦٢,٥٣٠	٪١٥ = ١,٢١٩,٦٥٠
الصناعات الكبيرة	٪١٠ = ٥٣٦	٪٤٧ = ١٣,٥٤٠	٪٦٥ = ٥٤٥,٤١٠	٪٧٧ = ٦,١٤٣,٣٢٠
محطـــات توليـــد الطاقة الكهربائية	٤	١,٣٧٠	٥٨٢,٠٠٠	٣,٧٠١,٠٠٠
الاجمالي العام	٥,٦٠٦	٣٠,٠٤٠	٩,١٠٩,٢٣٠	١١,٦٣٧,٣٠٠

وتشير تلك الارقام الى ان عدد المنشئات الصناعية اليهودية في فلسطين ازداد في تلك الفترة بسنبة ستة وخمسين في المائة كما اتسع حجم القوة العاملة بها بنسبة ثلاثة وخمسين في المائة فزاد الانتاج بنسبة خمسة وسبعين في المائة وتأكدت الثقة في الاقتصاد اليهودي في فلسطين بدليل زيادة حجم رأس المال المستثمر في الصناعة بنسبة ١٠٨ في المائة .

وقد حدث هذا التقدم الصناعي على الرغم من ان الوكالة اليهودية تشير في تقريرلها الى ان حالة التبدد الاقتصادي حلت بفلسطين في اعقاب مرحلة التوسع السريع التي بلغت الذروة في عام ١٩٣٥ لاسباب خارجة عن ارادة الوكالة شخصتها في تحديد الهجرة وانعدام الثقة من مستقبل فلسطين الاقتصادي . وكان لذلك اثر كبير على الصناعة اليهودية في فلسطين ، وخاصة على المنشئات الصناعية التي كانت قد انشئت حديثا ، وكان من المحتم ان تغلق ابوابها او تنقل ملكيتها لملاك اخرين(٤٢) . وقد تزايد الاهتمام بأنشاء مصانع جديدة بصفة خاصة منذ خريف عام ١٩٣٨ . ذلك ان الاحداث السياسية في تشيكوسلوفاكيا والنسما أنئذ اضطرت عديدا من رجال الصناعة وخبرائها من اليهود هناك الى البحث عن مجال لنشاطهم الصناعي في فلسطين . ويشهد على ذلك أن ادارة الصناعة والتجارة التابعة للوكالة اليهودية تلقت في فترة تقل عن تسعة اشهر نحوا من الف طلب واقتراح تتعلق بأنشاء مصانع جديدة في فلسطين . وقد تمكن عدد من مقدمي تلك الطلبات من استثمار قدراتهم في فلسطين وعاد مجال الانتاج الصناعي الى التوسع(٤٣) .

الصناعة اليهودية خلال الحرب العالمية الثانية

مرت الصناعة اليهودية في فلسطين خلال الفترة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ في مرحلة تطوير الانتاج من اجل أن يفي بمتطلبات الظروف الراهنة اثناء الحرب العالمية الثانية .

وكانت مجالات نشاط الوكالة اليهودية بعد المؤتمر العالمي الصهيوني المنعقد في جنيف في أغسطس آب ١٩٣٩ حتى نهاية الحرب توجه لتحقيق الاهداف الاتية : ـ

أ ــ تحقيق الحد الاعلى من مشاركة فلسطين اليهودية في المجهود الحربي .
ب ــ استغلال مشكلة اليهود الاوروبيين بدعوى « الانقاذ » .
جـ ــ تثبيت اركان الوجود اليهودي في فلسطين .
د ــ استمرار التوسع في النشاط الاقتصادي اليهودي في فلسطين .
هـ ــ تهيئة الجو الملائم « لحل المشكلة اليهودية » بعد الحرب على ارض فلسطين .

وقد تطلب تحقيق هذه الاهداف الخمسة التي شكلت جزءا من النشاط ذى العلاقات بالسياسة التي تحددت في مؤتمر بلتيمور عام ١٩٤٢ كسياسة نهائية للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، تطلب اجراء العديد من البحوث الاقتصادية(٤٤) . وقد اتسع نطاق الصناعة في فلسطين للوفاء بمتطلبات الحرب . وكانت الصناعة اليهودية في فلسطين تشكل وقتئذ ما يعادل خمسة وثمانين في المائة من اجمالي حجم الصناعة في البلاد . وقد زاد الانتاج في القطاع الصناعي اليهودي اثناء الحرب بنسبة مائة في المائة . وكان المعدل الاكبر في التوسع الصناعي يتعلق بالصناعات الحربية او ما له صلة بالحرب . فقد تأسس ما يربو على ستمائة مشروع صناعي جديد خلال سنوات الحرب كما تم ادخال وسائل جديدة في مجالات الانتاج الصناعي بمساعدة خبراء علميين تمخضت عن ظهور منتجات صناعية جددة في فلسطين(٤٥) .

ومع تزايد حجم الانتاج الصناعي اليهودي المحلي اثناء الحرب تزايد حجم الصادرات عام ١٩٤٣ بنسبة ٢٥٧ في المائة بالمقارنة بارقام عام ١٩٢٨ ، بينما زاد حجم الاستهلاك العام اثناء الحرب بنسبة خمسة وثمانية في المائة . فقد استهلك الجيش البريطاني في فلسطين سنويا ما تقرب قيمته من خمسة ملايين من الجنيهات الفلسطينية باسعار فترة ما قبل الحرب كما ارتفع معدل الاستهلاك المحلي السنوي الى عشرة ملايين ونصف من الجنيهات الفلسطينية مقابل ثمانية ملايين ومائتي الف جنيه لعام ١٩٢٨ . وتزداد الصورة وضوحا لو وضع في الاعتبار أن هذا التوسع الطبيعي في الاستهلاك حدث في ظروف يحكمها الاكتفاء الذاتي مع ما يواكب ذلك من نمو حجم الاستيعاب الاقتصادي(٤٦) .

وتوضح ارقام الاحصائية التالية العلاقة المتبادلة بين نمو حجم الصادرات الصناعية اليهودية من فلسطين ونمو عدد السكان اليهود بها واتساع قاعدة الاستيعاب الاقتصادي منذ بداية نشاط الوكالة اليهودية في عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٤٣(٤٧) : ــ

الانتاج الصناعي باستثناء البوتاس والبرومين			
السنة	القيمة بالجنيه الفلسطيني	نسبة الزيادة	نسبة زيادة عدد السكان اليهود
١٩٢٢	٢٥٠,٠٠٠	١٠٠	١٠٠
١٩٣٠	٤٣٨,٠٠٠	١٧٥	٢٠١
١٩٣٨	٦٥٠,٠٠٠	٢٦٠	٥٢٠
١٩٣٤	*١,٠٢٠,٠٠٠	٤٠٨	٦٣٢
١٩٤٣	**١,٧٠٠,٠٠٠	٦٨٠	٧٣٤

* باستثناء المنتج من الماس . ** بما في ذلك المنتج من الماس .

ويتضح من تلك الارقام ، وجود علاقة تأثـر بين ازدياد عدد السكان اليهود ونمو حجم الانتاج الصناعي ، وخلق فرص عمل ناجمة عن توسيع قدرة البلاد على استيعاب مهاجرين جدد .

وخلال تلك المرحلة الهامة في بناء الوطن القومي اليهودي ، واجهت الوكالة اليهودية مسؤوليات تمثلت في عدة مسائل اهمها الامداد والتموين والبطالة والمجهود الحربي في المجال الاقتصادي مع استمرار حركة الاستيعاب . وقد حدثت تغيرات في مجال الامداد والتموين كنتيجة لآثار الحرب على التجارة العالمية ، منها صعوبة استيراد المواد الخام . كما تمثلت الآثار المباشرة للحرب في احداث ازمة في صناعة الحمضيات التي اعتمدت بصفة رئيسية على التجارة الخارجية ، فزاد حجم البطالة . كما عانت صناعة البناء من عدم الاستقرار وقد تسبب نقصان فرص العمل في هذين المجالين الحيويين في الحياة الاقتصادية في فلسطين في ايجاد مشكلة اقتصادية خطيرة . والى جانب ذلك كان لا بد من وضع الاقتصاد اليهودي في مركز يتفق مع متطلبات الحرب حتى يتمكن من ان يلعب دورا في مواجهة مشاكل الامداد والتموين في القطاعين العسكري والمدني ، فخططت اجهزة الوكالة اليهودية للتوسع في الانتاج الزراعي والصناعي للوفاء بمتطلبات الأغراض الحربية وقد وضعت اجهزة الوكالة في حسابها العمل على توسيع مجال الانتاج في سبيل استمرار حركة الاستيعاب . وحققت الوكالة اليهودية نتائج هامة من خلال نظام التسليف المتنوع فكونت ثلاث صناديق للتسليف بالتعاون مع البنك الانجليزي الفلسطيني ، حتى امكن استيراد مواد خام قيمتها اربعمائة الف جنيه فلسطيني في السنة الاولى للحرب .

وقد تمكنت الوكالة اليهودية من التغلب جزئيا على مشكلة البطالة في منتصف عام ١٩٤٠ ثم اصبحت البلاد ــ بسبب تجنيد عدد كبير من اليهود للمجهود الحربي ــ تعاني عجزا في العمالة وبصفة خاصة في المجال الزراعي . وقد صرفت الوكالة مائة وخمسين الف جنيه فلسطيني كاعانات للتغلب على مشكلة البطالة فأنفق نصف هذا المبلغ على انشاء مشروعات جديدة تستوعب الايدي العاملة العاطلة(٤٨) ..

وقد حققت الوكالة اليهودية نجاحا في التوسع في مجال الانتاج الصناعي بالمقارنة بالولايات المتحدة الامريكية وكندا كما يتضح من الارقام* التالية(٤٩) : ــ

---

* حجم الانتاج عام ١٩٣٩ = ١٠٠

السنة	كندا	فلسطين	الولايات المتحدة الامريكية
١٩٤٠	١٢١	١١٥	١١٢
١٩٤١	١٦٨	١٤٩	١٤٣
١٩٤٢	٢١٦	١٨٣	١٨٥
١٩٤٣	٢٥٩	٢١٩	٢٢٢
١٩٤٤	٢٥٣	٢١٦	٢١٣
النصف الاول من ١٩٤٥	٢٣١	٢٠٩	٢١٨
يونيو ١٩٤٥	٢٢٤	٢٠٢	٢١٠
سبتمبر ١٩٤٥	٢١٢	١٥٧	٢٠٦
ديسمبر ١٩٤٥	١٨٥	١٤٨	٢١٣
مارس ١٩٤٦	١٨٩	١٥٠	٢٠٥
يونيو ١٩٤٦	١٧٠	١٥٧	١٨٥
سبتمبر ١٩٤٦	١٦٤	١٦٩	٢٠١
ديسمبر ١٩٤٦	١٧١	١٦٤	٢٠٩

ويبدو واضحا امكان المقارنة بين حجم الانتاج الصناعي في فلسطين وقرينه في بلاد اخرى . وتسوق الوكالة اليهودية علاقة اخرى برهانا على التقدم في الانتاج الصناعي اليهودي في فلسطين ينعكس من المقارنة التي وضعتها حكومة الانتداب حول استيراد البضائع المصنعة واجمالي الواردات الى فلسطين فبينما تناقص حجم البضائع المصنعة المستوردة من اربعة وستين في المائة عام ١٩٣٩ الى ثمانية واربعين عام ١٩٤٦ ، تزايد حجم المستورد من المواد الخام من عشرة الى ستة عشرة في المائة مما يوضح تزايد الاعتماد على المنتج محليا ، رغم الارتفاع الملحوظ في مستوى المعيشة في فلسطين بين السكان العرب واليهود(٥٠) .

وبعد انتهاء الحرب بدأت مرحلة اعادة الصناعة الى ما كانت عليه قبل نشوب الحرب . فاتسع نطاق الاستيراد بسرعة وبخاصة في مجال المواد الخام اللازمة للصناعة . وقد وصلت قيمة الواردات الى فلسطين في العام التالي لانتهاء الحرب (عام ١٩٤٦) الى الحد الأعلى ؛ فبلغت قيمتها ٧٠,٤٣٢ جنيها فلسطينيا باستثناء منتجات البترول التي بلغت في ذلك العام ٥٧,٦٨٩ جنيها مقابل ١١,٣٥٧ جنيها في عام ١٩٣٨ . أما قيمة الواردات من الآلات الصناعية والزراعية فقد ارتفعت فجأة في العام التالي للحرب بالمقارنة باعوام الحرب نفسها كما يتضح من الارقام التالية(٥١) : ـ

السنة	١٩٣٩	١٩٤٠	١٩٤١	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤	١٩٤٥	١٩٤٦
قيمة الواردات من الآلات	٢,٩٠٨,٢٧٠٦٩٤,١٢١٨١٧,٤١٩٢٣٥,٣٨١٣٨٠,٢٢٣٢٨٢,٩٩٥٢٨٣,٢٨١٩٠٦,٢٨٢							

ومع وجوب تعديل هذه الارقام بالنظر الى ارتفاع الاسعار ، فأن تلك الاحصائية تشير الى متوسط الاستيراد خلال سنوات الحرب كان يعادل خمسين في المائة من استيراد عام ١٩٣٩ . وقد استلزم الامر اضافة استثمارات جديدة الى قطاع الصناعة اليهودية في سبيل خلق فرص عمل جديدة لهؤلاء الذين كانوا يعملون في نطاق المجهود الحربي سواء في الصناعات القائمة او في مجالات صناعية جديدة . وقد أجرت اجهزة الوكالة اليهودية مسحا شاملا للمشروعات الصناعية واحتمالات التمرد خلال الفترة اللاحقة لسنوات الحرب العالمية الثانية ، انعكست نتائجه في الارقام التالية : —

النوع	الاستثمارات في بناء المصانع والتجهيزات بالجنيه الفلسطيني	عدد العمال الاضافيين
النسيج	٣,٢٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠
المواد الغذائية	٢,٠٠٠,٠٠٠	٧٠٠
البناء	٢,٦٠٠,٠٠٠	١,١٠٠
الاستهلاك الكهربائي والمعدني	٧٥٠,٠٠٠	٨٠٠
الكيماويات	٦٨٠,٠٠٠	١٢٠
الصناعات الخشبية	١٥٩,٠٠٠	٢٦٠
صناعات متنوعة	٦٧٠,٠٠٠	٦٦٠
الاجمالي	١٠,٠٩٥,٠٠٠	٧,٣٤٠

وقد حدد المسح الشامل ايضا اجمالي ثمن الارض الممكن اضافتها للرقعة الزراعية اليهودية والاستثمار في الزراعة (الارض والبناء والتجهيزات بأستثناء رأس المال اللازم للتوسع) بعشرة ملايين وثلاثمائة الف جنيه فلسطيني(٥٢) .

وهكذا كانت الوكالة اليهودية تعمل على تثبيت قاعدة نظرية اقتصادية مفادها ان الصناعة اليهودية في فلسطين لا يجب ان ينظر اليها بأعتبارها كائنا نما مع نشوب الحرب ، يزول بزوالها ، وانما بناء نشأ وتحققت له خاصية الاستمرار قبل الحرب وليس ثمة من سبيل الى افتراض توقفه بعد انتهائها . وعلى ذلك كان على الوكالة ان تحدث تحولا تقنيا في الصناعة اليهودية في فلسطين ينقلها من حالة الحرب الى حالة السلام دون خلل . حقيقة ان متطلبات ظروف الحرب في قطاع الصناعة اليهودية تزايدت الى ثمانية ملايين من الجنيهات الفلسطينية خلال الفترة ما بين يناير ١٩٤٤ — مايو ١٩٤٥ وهي زيادة كان حريا ان يحسب حسابها لو وضعت الحرب او زارها وزالت ظروفها وحدثت ردة صناعية من جراء الانتقال من حالة الحرب الى حالة السلام الدائم . غير ان الوكالة اجتازت الاختبار دون ان تحدث بطالة كان من الممكن ان تشكل خطورة على المجتمع اليهودي في فلسطين . بل ان عدد ايام العمل بالنسبة للعمال الذكور العاملين في الصناعة اليهودية والفترة الاخيرة من الحرب تناقصت تناقصا ضئيلا نسبيا

حسب ما توضحه الارقام التالية(٥٣) على اعتبار ان عدد تلك الايام بالنسبة للفترة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ = ١٠٠ :

السنة	يناير	ابريل	يوليو	اكتوبر
١٩٤٤	٢١٨	١٨٥	٢١٦	٢١٦
١٩٤٥	٢١٤	٢١٣	١٩٢	١٩٦

أي ان اخطار الحرب لم تمتد الى الصناعة اليهودية في فلسطين ، كما ان انتهاء الحرب لم يكن ذا أثر في هذا المجال . ومن هنا لم يحدث ميل لميزان الاستيعاب في غير صالح البرنامج الصهيوني في فلسطين .

وتؤكد المصادر اليهودية ارتباط الاقتصاد اليهودي بفلسطين تماما بالمجهود الحربي خلال الحرب العالمية الثانية . ذلك ان خمسة وثلاثين في المائة من الصناعة اليهودية وضعت في خدمة القوات العسكرية البريطانية ، وقد تراوح اجمالي قيمة الامدادات الصناعية اليهودية للمجهود الحربي بين خمسة وثلاثين ، واربعين مليونا من الجنيهات الفلسطينية . بل أن الصناعة اليهودية توسعت في ظل مقتضيات الحرب توسعا امتد الى صناعات عديدة ، وعلى سبيل المثال تزايد عدد المغازل في صناعة النسيج الى خمسة أضعاف طوال فترة الحرب . ويلاحظ ان التوسع حدث في فلسطين في ظل اقتصاد ناشىء غير منظم ، بعكس الحال في عديد من البلاد الاوروبية . وقد سادت تلك الظروف منطقة الشرق الاوسط ، غير ان الصناعة في اي من بلدان الشرق الاوسط الاخرى لم تمثل هذا المركز الاستراتيجي في الحياة الاقتصادية بمثل ما حدث في فلسطين حيث أصبحت الصناعة مسؤولة عن ثلاثة وعشرين في المائة من اجمالي الدخل ، وحيث تعرضت الصناعة بشكل مباشر للمنافسة الاجنبية وقت نشوئها ، قبل قيام الحرب . وقد وجدت الوكالة في ذلك مبررا للقول بان الصناعة اليهودية في فلسطين لا تحدد بالحفاظ على توازنها الدقيق مع الحفاظ على مستوى ميعشة السكان ، بل أنها ديناميكية اقتصاد توسعي مرتبط بالهدف الواضح وهو استيعاب مهاجرين جدد . فخلال الفترة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ تم استيعاب واحد وثلاثين الفا من المهاجرين اليهود الى فلسطين ، وقد تم ذلك بنجاح جنبا الى جنب مع اعادة تشغيل ست وعشرين الف عامل يهودي سرحوا من القوات البريطانية في وقت اقل مما حدث في معظم البلاد الاخرى التي شاركت في الحرب . وقد تطلب ذلك تهيئة الاقتصاد الفلسطيني لتغطية هذا الحجم من الاستيعاب في ظروف سياسية صعبة ومضادة تتمثل في تحديد الهجرة ، والاحكام العسكرية والمقاطعة العربية(٥٤) .

وهكذا ، تعرضت الحياة الاقتصادية اليهودية في فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية لثلاثة اختبارات رئيسية هي : ـ

أ ـ عادة التجهيز والاستثمار ، ذلك ان آلة الانتاج الصناعي اصبحت مرهقة من جراء المجهود الحربي ، كما حدث استيعاب اضطراري للتطورات التكنولوجية الحديثة في الانتاج الصناعي التي كانت الوكالة اليهودية ترنو الى الاستعانة بها على توسيع قاعدة الاستيعاب

الاقتصادي ، كما تحددت حركة البناء ، وتحولت قوة الانسان الى العمل في المجالات الحربية . وبذلك اتجه ميزان الاهداف الديناميكية في الاقتصاد الفلسطيني الى الاستثمار في المشروعات الجديدة ، في وقت بدا فيه ان استيعاب المهاجرين بات ضربا من المستحيل ما لم يحدث توسع في قواعد استثمارية جديدة في اقتصاد فلسطين .

(ب) الانتاج ، فقد تضاءلت الاغراض العسكرية مع انتهاء الحرب ، ثم توقفت تماما بعدها واصبحت المشكلة الملحة تكمن فيما اذا كان من الممكن تحويل الانتاج بحيث يلائم الظروف الجديدة في نمو سريع .

(جـ) التوظيف والاستيعاب ، وكانت العلاقة بين توافر فرص العمل وحجم البطالة ترتبط بدرجة التوسع في قاعدة الاستيعاب الاقتصادي بشكل يفوق النمو الطبيعي في عدد سكان فلسطين ككل سواء أكانت زيادة سكانية طبيعية تتحدد عن طريق زيادة عدد المواليد على عدد الوفيات ام عن طريق الهجرة اليهودية الى البلاد مع ملاحظة التغييرات الديمغرافية في حركة السكان والنتوءات التي كانت تحدثها هجرة الشبان اليهود المستمرة في الهرم السكاني في فلسطين(٥٥) .

وعلى ذلك فرضت عوامل معينة نفسها ، وقت أن وضع في الاعتبار وجوب التخطيط لمستقبل الصناعة في فلسطين وكانت تتلخص فيما يأتي : ــ

أ ــ تحقيق اقتصاد ذي انتاج واسع النطاق عن طريق سوق ذات قوة شرائية اكبر مع دعم مركز الصناعة المحلية ازاء المنافسة الاجنبية .

(ب) تحقيق استهلاك محلي موسع يجعل من الممكن قيام صناعات جديدة تستطيع بلوغ المستوى التقني الأدنى .

ج ــ تغطية الانتاج للسوق المحلية ، وتعديها الى التزايد في حجم الصادرات وكان التصور ان مستقبل الصناعة ، في فلسطين يجب ان يسير في خطوط ثلاثة هي : ــ

أولا : اعتماد الانتاج على المواد الخام المتوفرة ليس في فلسطين وحدها وانما في البلاد المجاورة ايضا من ذلك منتجات البحر الميت والحمضيات والقطن المصري .

ثانيا : دعم الصناعة المبنية على المهارة العلمية ، حيث الاستيعاب اكثر احتمالا مع ضآلة تكاليف المواد الخام بالمقارنة بقيمة المنتج مثل الكيماويات والصيدليات والملابس الجاهزة وغيرها .

ثالثا : الاهتمام بالصناعات التي تعتمد على المواد الخام ذات الوزن الخفيف والحجم المتضائل كالفراء والماس وغيرها . ذلك ان مثل هذه الصناعات لا تتأثر بالمسافة بين مصدر المواد الخام ومراكز التصنيع(٥٦) .

وكان التخطيط يرمي الى تخطي الفجوة بين الانتقال بالاقتصاد من مرحلة الارتباط بالحرب الى آفاق حياة السلام بعد ان استوعبت متطلبات الحرب ثلث الانتاج الصناعي . ولتحقيق هذا الهدف ، حيث توسع في المصانع القائمة وانشئت صناعات جديدة تلائم الاتجاهات الاقتصادية

المشار اليها آنفا . من ذلك انشاء مصنع للمنتجات الكيميائية ، استثمر فيه نصف مليون جنيه فلسطيني ، ومصنع للطباعة ، واحداث تطورات في بعض الصناعات القائمة مثل صناعة الغزل وانتاج حامض الكبريتيك وغيرها تحقيقا للاكتفاء الذاتي المعتمد على المنتج محليا،وابرز مثل على النجاح في تحقيق هذا الهدف يتمثل في صناعة الغزل التي انتقلت الى مرحلة الانتاج الموسع فزاد عدد المغازل من ستة الاف مغزل عام ١٩٣٩ الى ثلاثين الف مغزل عام ١٩٤٦ وكان المستهدف زيادة هذا العدد الى خمسة وسبعين الف مغزل في عام ١٩٤٨ .

وكانت صناعة النسيج تحقق تقدما مشابها اذ ارتفع عدد انوال النسيج من ستمائة نول في عام ١٩٣٩ الى ثلاثة الاف نول في عام ١٩٤٦ كما حققت صناعة البناء تقدما ملحوظا حيث توضح الارقام نشوء حركة بناء سريعة تمتعت بنصيب كبير من اجمالي الاستثمار . فقد استثمرت عشرة ملايين جنيه في البناء عام ١٩٤٦ حققت انجازا تمثل في بناء ثمانية عشرة الف حجرة في القطاع اليهودي(٥٧) .

وبعد النجاح في الانتقال من حالة الحرب الى حالة السلم بدأ الاقتصاد اليهودي في فلسطين يمهد عمليا لبناء القاعدة الاقتصادية الطموحة للدولة الاسرائيلية التي اعلن عن قيامها في منتصف مايو عام ١٩٤٨ .

---

(1) *U. N. Document A-70.* Terms of League of Nations Mandates - Mandate for Palestine, *p.* 3.

(2) *Parliamentary Debates* Official Reports, House of Commons, Fifth Series - Serrion of July, 1, 1922. Vol. 148. *p.* 925.

(٣) المقطم في ١٩٢١/٤/٦ . ص ٤ .

(٤) المقطم في ١٩٢٧/٢/٢٤ . ص ٧ .

(٥) المقطم في ١٩٢٨/٦/١٤ . ص ٣ .

(6) Colonel Howard - Burry.

(٧) في عام ١٩٢٨ .

(8) *Parliamentary Debates Commons;* Vol. 218. *pp.* 607-608.

(٩) المقطم في ١٩٢٧/١٠/٢٥ . ص ٨ .

(10) The National Council (Vaàd Leumi) of the Jews of Palestine; *Memorendum submitted to the Permenent Mandates Commission of the League of Nations*, June, 1930. The Jewish Agency for Palestine, London, July, 1930. *p.* 15.

(١١) المقطم في ١٩٢٧/١٠/٢٥ . ص ٨ .

(١٢) طولها ٢٨٠ مترا وعمقها ٢٠ مترا .

(١٣) المقطم في ١٩٢٩/١/٢ . ص ٥ .

(14) *Jewish Chronicle*, London, 1-3-1929. *p.* 14.

(15) *The Palestine Post*, Jerusalem; 1-12-1939. *p.* 5.

(١٦) المقطم في ١٩٢٦/٢/١٩ . ص ٣ .

(17) *Jewish Chronicle;* 8-3-1929. *p.* 29.

(18) *Jewish Chronicle;* 29-3-1929. *p.* 26.

(19) *Jewish Chronicle;* 5-4-1929. *p.* 30.

(٢٠) المقطم في ١٩٢٩/٤/٥ . ص ٥ .

(21) *Jewish Chronicle;* 15-3-1929. *p.* 32.

(٢٢) حكومة فلسطين : الجريدة الرسمية ، العدد ٣٥ ، القدس ، ١٩٢٩/٥/١٦ . ص ٤٧٣ .

(23) *Parliamentary Debates* Commons; Vol. 227. *pp.* 1407-1408.

(24) *Jewish Chronicle;* 10-5-1929. *p.* 14.

(25) The Jewish Agency for Palestine; Jewish Economic Development: facts and prospects. *Memorandum submitted in March, 1946 to the Anglo - American Committee of Inquiry in Jerusalem.* Jerusalem, 1947. *p.* 30.

(٢٦) طينة مونوكسيد الباريوم .

(٢٧) نوع من المعادن المتبلورة .

(28) Jewish Agency; *Op. Cit., p.* 31.

(29) C.O. 733-273 (Reg. 15).

(30) C.O. 733/273 - O/ *Palestine* (12a), 19-2-1935.

(31) Zionist Organization, Reports of the Exectuives of the Zionist Organization and the Jewish Agency for Palestine. Submitted to the XXI Zionist Congress and the VI Sersion of the Council of the Jewish Agency for Palestine at Geneva, August, 1939. P. 410.

(32) *Report by His Majesty's Government* in the United Kingdom of Great Britain and Northern Irland to the Council of the league of Nations on the Administration of Palestine and Transjordan for the Year 1930. London, 1931. *P.* 34.

(33) The National Council; *Op. Cit., P.* 15.

(34) Report by His Majesty's Government; *Op. Cit., P.* 34.

(34) F. O. 317/115/2573. Memorandum by the Jewish Agency for Palestine, 2-7-1925.

(36) *The Jewish Agency for Palestine; Op. Cit., P.* 34.

(35

(36) *The Jewish Agency for Palestine; The Establishment in Palestine of the Jewish National Home:* Memorandum of the Development of the Jewish National Home 1432. Submitted by the Jewish Agency for Palestine to the Secretary General of the League of Nations for the Information of the Permanent Mandates Commission, June, 1933. *P.* 25.

(37) C.O. 733/270- 75044, 1935. No. OF/ 304/ 34. *Report by High Commissioner,* 16-2-1935. *P.* 7.

(38) League of Nations, Permanent Mandates Commission, Minutes of the Twenty - Ninth Session, Held at Geneva from May 27th to June 12th 1936, *including the Commission Report to the Council P.* 156.

(39) *The Jewish Agency; Establishment in Palestine of the Jewish National Home. P.* 24.

(40) Zionist Organization; *Reports of the Executives of the Zionist Organization and the Jewish Agency for Palestine.* Submitted to XX Zionist Congress, 1937. Jerusalem, 1938. *P.* 318.

(41) Zionist Organisation, *Report to XXII Congress. P.* 400.

(42) *Ibid. P.* 402.

(43) *Ibid. P.* 412.

(44) Jewish Agency for Palcstine, *Information Departiment;* Activities in Palestine during the War. London, 1943. *P.* 1.

(45) Zionist Organisation, *Report to XXII Congress. P.* 219.

(46) *Jewish Agency, Jewish Economic Development. PP.* 32-33.

(47) *Ibid. P.* 34.

(48) Jewish Agency, Inforamtion Department; *Op. Cit., PP.* 4-5.

(4) *The Jewish Agency for Palestine; Memorandum on Recoversion in Palestine,* Submitted to the United N Nations Special Committee on Palestine. Jerusalem, 1947. *P.* 11.

(50) *Ibid. PP.* 2-3.

(51) *Ibid. P.* 12.

(52) *Ibid. PP.* 6-7.

(53) *Jewish Agency; Jewish Economic.*

Development. jP. 28.

(54) *Jewish Agency; Memorandum* on Recoversion, *P.* 10.

(55) *Ibid. P.* 2.

(56) *Jewish Agency; Jewish Economic Development. PP.* 33-34.

(57) *Jewish Agency; Memorandum on Recoversion. P.* 7.

مكـرم يونـس

ملاحظات حَول استراتيجية الجَيش الاسرائيـلي

اذا كان الجيش الاسرائيلي قد حقق كسبا في معارك عسكرية في الحروب الاسرائيلية العربية ، كما حدث في الأعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، و ١٩٧٣ ، فان هذا الكسب وهذه الانتصارات تعود الى اتباعه استراتيجية عسكرية واضحة ، تنبع من أهداف واضحة ، للحروب التي يخططها ، ويبادر الى شنها ، في الزمان والمكان اللذين يحددهما هو ، بحسب ظروفه ، وامكاناته السياسية ، والعسكرية الملائمة .

ونحن ، في هذه الدراسة ، لسنا في صدد تقييم هذه المكاسب والانتصارات التي تجسدت في توسع العدو الصهيوني ، واحتلاله لأراض عربية أخرى ، اضافة الى استكماله لاحتلال جميع الأراضي الفلسطينية بحدودها الطبيعية ، بل نسعى الى القاء الضوء على ابر ز الخطوط الاستراتيجية ، وأبرز الأهداف التي يضعها الجيش الاسرائيلي نصب عينيه لتحقيقها ، من خلال حروبه .

المبادىء الاستراتيجية

ابرز الخطوط التي شكلت استراتيجية الجيش الاسرائيلي هي :

١ ــ الهجرة . فالهجرة احتياج أمني من الدرجة الأولى ، وبغيرها لا يمكن ان تكون هناك قوى بشرية ترفد القوة العسكرية التي تضمن في النهاية بقاء واستمرار اسرائيل .

٢ ــ الاستيطان . لقد علق واضعو الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية أهمية كبرى على الاستيطان ، وتوزيع هذه القوى البشرية الى مجموعات في مستوطنات موزعة على طول الحدود ، كي تشكل خط دفاع أول ، وعائقا لفترة زمنية قصيرة أمام أي هجوم عربي . وقد تجسد هذا في المقولة المشهورة لدافيد بن ــ غوريون : « اذا لم نذهب الى الحدود ، فالحدود ستأتي الينا »[١] .

٣ ــ الروح المعنوية التي تؤمن بالجيش وبقدرته على حماية الفرد والمجتمع والدولة ،

وهي بالتالي عنصر أساسي لتدعيم قدرة الجيش من جهة ، وتدعيم ثقة الشعب بالجيش من جهة أخرى .

إن أكثر الأمور التي تأثر بها واضعو الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية ،بخطوطها العريضة ، منذ تأسيس الدولة ، هي الفكرة التي روج لها بن ـ غوريون ، والقائلة : « ان بلادنا ليست سوى قطعة صغيرة ضمن مساحة شاسعة متصلة ، مليئة كلها بالشعوب الناطقة بالعربية ، واننا قلة وحتى ان تضاعف عددنا عدة مرات ، فسنبقى أقلية صغيرة ضمن هذا البحر العربي ، لذا هناك عدة أمور من شأنها تدعيم وتحصين أمن اسرائيل ، اضافة الى الجيش ، هناك الهجرة الجماعية ، والاستيطان وتوزيع السكان حسب نظرية خط الدفاع الأول ، ثم الاكتفاء الذاتي من حيث انتاج المواد الغذائية او السلاح ، وتطوير خطوط المواصلات البرية والبحرية ، والعمل على تحسين الصحة العامة ، وبشكل خاص لدى الشباب ، كما أن هناك عنصرا هاما في مجال الاستراتيجية ، وهو ادارة سياسية خارجية نشطة هدفها التوصل الى السلام »(٢) .

لقد انطلق واضعو الاستراتيجية العسكرية ، من فكرة الأقلية في وسط بحر عربي ممتد الأطراف . وليس من باب الصدفة أن توجهات بن ـ غوريون نحو الحرب قد سبقت التوجه نحو السلام ، الذي ورد في اشارة صغيرة جدا ، فهو يتحدث عن الهجرة كاحتياج امني ، وعن الاستيطان كمواقع عسكرية تغطي الحدود ، وعن انتاج الأسلحة ، ثم بعد ذلك عن سياسة نشطة هدفها التوصل الى السلام مع البلدان العربية .

ربما كانت هذه العبارة مؤشرا واضحا ذا مدلولات كبيرة ، وهي تشير الى جوهر الاستراتيجية ، التي ترتكز على أساس خلق قوة وحقائق ثابتة في نظر المخططين ، يمكن من خلالها فرض السلام على الطرف الآخر ، وجعله يعترف بشرعية اسرائيل .

استراتيجية الاستيطان والكثافة السكانية

ان مبدأ تكثيف السكان ، ونشر المستوطنات ، وبشكل خاص على الحدود ، كهدف استراتيجي ، نابع من كون هذه التجمعات البشرية الكثيفة والموزعة ، ذات مهام مختلفة ، فهي الى جانب كونها تشكل مستوطنات زراعية لاستغلال الأرض ، عنصر اقتصادي مهم ، إلا أنها تشكل أيضا عنصرا استراتيجيا ، وعاملا رئيسيا في هذا الاتجاه ومن ابرز مهامها :

١ ـ الاستيطان الحدودي يفرض سيطرة الدولة على كل الأراضي التي يتم استيطانها .

٢ ـ تشكل العين الساهرة والمراقبة للمناطق العربية المجاورة ، سواء كانت داخل الحدود أو خارجها .

٣ ـ أما النقطة الأهم ، فهي أنها تشكل موقعا عسكريا ، يمكنه اعطاء الانذار المبكر ، ومقاومة العديد من أنواع العمليات العسكرية ، سواء كانت من قبل جيش نظامي، أو قوات غير نظامية عبر الحدود ، ومقاومة أية عمليات عدائية تقوم بها مجموعات عربية داخل الحدود .

لقد وجد هذا الموضوع المتصل بالاستيطان الحدودي مصداقية له في المبادىء الاستراتيجية التي وضعها عدد من المخططين ، وعلى رأسهم بن ـ غوريون ، « الجيش بحاجه

الى قوة ضارية ، ونظرا للقوى البشرية المحدودة لدى اسرائيل ، فان هناك ضرورة ملحة لاستغلال الاطار الطبيعي للمستوطنات ، والاعتماد عليها في عمليات العرقلة والتثبيت ، على الأقل ، الى أن يتمكن الجيش من العمل دون مضايقات وبفاعلية ضد الجيوش العربية النظامية ، داخل وخارج الحدود »(٣) . كما أن هذه المستوطنات تشكل الاطار العملي لاستغلال الحد الأقصى من الطاقة البشرية لدى الفرد ، وبشكل خاص ، لأولئك الذين لا يمكن استغلالهم في المواقع الأمامية في العمليات العسكرية الهجومية أي، استغلال الشيوخ والنساء والشباب من ذوي اللياقة التي لا تؤهلهم لان يكونوا في صفوف القوات المهاجمة ، بل في صفوف القوات المدافعة .

النقاط الاستراتيجية

أما الاعتبار الاستراتيجي الذي وضعه جيل المؤسسين ، فقد كان مرتبطا ، بشكل جوهري ، بالفهم الأساسي لهوية الدولة الاسرائيلية . كان هذا الاعتبار طاغيا ، وقد أثر على تفكيرهم وتحليلهم بالنسبة لكل ما يتعلق بنظرية الامن ، وبناء القوات .

أما الاعتبار الثاني الذي حدد مسار الخط الاستراتيجي فهو ، « جملة المشاكل المتعلقة بفكرةالأقلية ضد الأغلبية »(٤) .

كان لهذا الاعتبار تأثير حاسم في وضع النظرية الأمنية والاستراتيجية العسكرية . فقد انصب تفكير جيل المؤسسين على كيفية استغلال القوى البشرية الضئيلة ، والموارد الضحلة لمواجهة الدول العربية . لهذا السبب ، تركز جهد رجال الاستراتيجية في مجال واحد ، وهو اقامة جيش يعتمد على القوى البشرية المتاحة ، وتأطيرها في جيشين، نظامي واحتياطي، وتجهيز هذا الجيش بأسلحة ذات قوة نيران غزيرة جدا تعوض النقص في القوى البشرية .

الاعتبار الثالث ، الذي أثر على الاستراتيجية العسكرية ، وعلى بناء القوة العسكرية الاسرائيلية بشكل خاص ، « هو ذلك الافتراض ، بعدم وجود امكانية للوصول الى حسم قومي شامل ونهائي عن طريق الحسم العسكري ، في حين يستطيع العرب حسم المعركة ضد اسرائيل ، ولديهم امكانية تحقيق النصر الكامل ، على الرغم من ان اسرائيل يمكنها الانتصار في بعض الحروب ، لكنها لا تستطيع حسم مصدر النزاع عن طريق الحرب وفرض ارادتها على العالم العربي الممتد من المحيط الى الخليج »(٥) .

الى جانب هذه الاعتبارات، وضعت فرضيتان اساسيتان متعلقتان باهداف الحرب :

الأولى ، تدمير القوات المعادية ، والثانية احتلال الأرض . وقد انعكس هذا التأثير ، لهاتين الفرضيتين ، بشكل واضح جدا في عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، وحرب السادس من تشرين الأول ١٩٧٣ . ففي الحرب الأولى ضربت الجيوش العربية ، وتم احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ، وسيناء والجولان ، اما في الحرب الثانية فقد توسعت اسرائيل أكثر، كي يكون هذا التوسع موازيا لتقدم القوات المصرية على ضفة قناة السويس ، ولهذا السبب ركز الجيش الاسرائيلي على احتلال ثغرة الدفرسوار غرب القناة .

لقد عالج هذا الموضوع عدد من رجال الاستراتيجية ، ومنهم العميد (احتياط) يسرائيل

تال ، حين قال : « واضح أن تدمير القوى المعادية يعطينا تفوقا مؤقتا ، لان موارد العالم العربي بالقوى البشرية ، وبالامكانات ، بالمقارنة مع مواردنا ، غير محدودة .... لهذا فان احتلال بعض المناطق يشكل بالنسبة لنا موقع تفوق استراتيجي ، وورقة مساومة في اطار المفاوضات حول الحدود واتفاقات السلام »(٦) .

ليست هذه العناصر والاعتبارات هي الوحيدة التي اثرت على وضع الخطوط العريضة للاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية ، فالمعطيات الجغرافية ، ونظرية بناء القوات ، لعبت هي الاخرى دورا بارزا في بلورة هذه الاستراتيجية .

ان انعدام العمق الاستراتيجي الزم اسرائيل بتبني الدفاع الصلب، وعدم التوجه نحو الدفاع المرن ، وقد ثبت هذا الرأي في العديد من الدراسات والمقالات لكبار الاستراتيجيين الاسرائيليين الذين خرجوا بهذه النتيجة ، « ففي عهد السلاح الشخصي ، وعندما كانت فرق المشاة هي التي تتحمل مسؤولية الهجوم البري ، كان واضحا انه ليس لدينا عمق استراتيجي ، لذا ليس لدينا خيار بين تبني الدفاع الصلب وتفضيله عن الدفاع المرن »(٧) .

ان انعدام العمق الاستراتيجي يهدد اسرائيل، ذلك لأن النجاحات الأولية، وتحقيق الأهداف العملياتية الفورية ، في حالة أي هجوم عربي ، معناه ، من وجهة نظر اسرائيل ، فقدان أهداف استراتيجية حيوية ، مثل مراكز التجمعات السكانية الاقتصادية والصناعية .

بناء القوات

ان أسس بناء الجيش الاسرائيلي ، كانت نتيجة للاستراتيجية التي وضعتها القيادة العسكرية والسياسية الاسرائيلية ومتأثرة بها . هذا اضافة الى أن ظروف اقامة الدولة الصهيونية وطرد الشعب الفلسطيني ، أجبر هذه القيادة على وضع أسس وأهداف لبناء القوة العسكرية ، بحيث تتلائم واحتياجات الدولة .

فمنذ الاعلان عن قيام اسرائيل ، انكب بن ـ غوريون ، وعدد من كبار الضباط على العمل لاقامة جيش يكون الاداة لخدمة الأهداف السياسية .

ففي العام ١٩٥٢ استطاع تنظيف الجيش من التبعية للتنظيمات العسكرية ، مثل الهاغاناه ، ايتسيل وليحي ، وحل جميع الوحدات الخاصة وأقر التجنيد الاجباري .

« الجيش نواة مهنية صغيرة غير مسيسة ، تتحلق حول هذه النواة اسلحة الاحتياط . على أن تشكل الأخيرة بفعل التجنيد العام للرجال والنساء ، الذين اتموا خدمتهم الاجبارية ، وتلقوا تدريبهم العسكري في سن ١٨ سنة »(٨) .

نظرية بناء القوات

واضح أن اسرائيل بقيادتها السياسية والعسكرية كانت تهدف الى تحقيق تفوق عسكري على الجيوش العربية . وهي بالتالي تدرك ان هذا التفوق لن يتحقق إلا إذا استند الى التفوق النوعي للمجتمع في جميع المجالات ، الأخلاقية ، الثقافية ، العلمية والتكنولوجية ، بحيث يكون هذا التفوق جوهريا، وليس بشكل سطحي ومظهري .

كذلك أدركت القيادة أن هذا التفوق يجب ان يتجسد في الروح المعنوية ، وفي الدوافع وفي اللياقة العلمية والعملياتية والتكنولوجية المهنية ، الى جانب تفكير عسكري اساسي بالنسبة لبناء القوة .

الأمر الذي طرح بدوره المبادىء التالية :

« استغلال جميع الموارد القومية في فترة الحرب ، واستغلال جميع الطاقات والكفاءات لاقامة جيش شعبي ، أي كل الشعب جيش »(٩) .

في حالات الهدوء يتحول هذا الجيش ، وخاصة الاحتياط ، الى العمل في مجالات التطوير : التعليم ، والبناء ، والصناعة ، والى جميع مجالات الانتاج وبناء المجتمع . أما في حالات الحرب فيتم استدعاء الجميع للعمل العسكري . وبهذا تكون اسرائيل قد خلقت أكبر جيش في العالم بالنسبة لعدد سكانها ، حيث تصل نسبة التجنيد الى ١٨٪ .

وفقا لهذا المبدأ ، فان جميع القوى والمركبات ، بما في ذلك الخيول ، وجميع وسائط النقل ، لها هدف مزدوج ، فهي في حالة الهدوء تشكل القاعدة المدنية لقطاع الاقتصاد ، وفي حالة الحرب تشكل القاعدة العسكرية .

على هذا النحو تبلور مبدأ بناء الجيش ومبدأ بناء وتشكيل قوات الاحتياط ، التي تعتبر العمود الفقري للجيش الاسرائيلي ، وهي التجسيد الفعلي للقوة الاسرائيلية الحاسمة في المعارك .

ومع أن قوات الاحتياط تشكل العمود الفقري للجيش ، وهي القوة الأكبر عددا وعدة ، الى جانب كونها القوة الضاربة فيه ، إلا أن قيادة هذه القوات تعود بشكل مباشر الى قيادةالأركان العامة ، التي تتبع بدورها الجيش النظامي.

أما الجيش النظامي فيشرف بدوره على تدريب وتوزيع وتحديد فترة الخدمة الدورية لقوات الاحتياط ، اضافة الى عمله طوال العام في اعداد مستلزمات قوات الاحتياط من الاسلحة وملابس ومخازن للطوارىء ، واعداد مشاريع المناورات والخطط الحربية . هذا ، اضافة الى عمله اليومي في معالجة الأمن .

لكن المهمة الأولى للقوات النظامية هي : صد أي هجوم معاد وعرقلة تقدمه ، الى أن يصار الى تجنيد قوات الاحتياط والزج بها في المعركة ، في فترة أقصاها ٧٢ ساعة .

تحدث عن هذا الموضوع اللواء (احتياط) حاييم بارليف ، رئيس الأركان العامة للجيش ، بعد حرب ١٩٦٧ ، وقائد الجبهة الجنوبية في تلك الحرب ، قائلا : « حجم القوات العاملة « الجيش النظامي » في كل الظروف ، يجب ان يمكنه من الصمود أمام أي هجوم فترة زمنية معينة ، الى أن يتم استدعاء قوات الاحتياط واشراكها في المعركة ، هذا أولا . ثانيا ، عملية انتشار وتوزيع هذه القوات النظامية يجب ان تكون متوازية ومتلائمة مع المعلومات الواردة عن قوات العدو ، ودرجة الطوارىء لديه . ثالثا ، توزيع وانتشار وحدات ومخازن الطوارىء ، يجب أن يأخذ بالاعتبار ، أمكانية حدوث مفاجأة ، وعليه فان هذه الوحدات ملزمة بتلبية احتياجات المجندين من قوات الاحتياط ، واعادة ترتيب أوضاع هذه الوحدات لمواجهة العمليات الميدانية »(١٠) .

اذا كان الهدف اقامة جيش شعبي ، أو بكلمات أكثر دقة ، جيش يستغل كل عناصر القوة لدى الشعب ، لمواجهة الجيوش العربية الكبيرة والنظامية، « فمن الضروري ان تكون اسلحة المخابرات والطيران والبحرية ، اسلحة نظامية وثابتة »(١١) .

سلاح المخابرات يجب أن يعطي الانذار المبكر الذي يتيح الفرصة لتجنيد قوات الاحتياط وتوزيعها على الجبهات الملائمة ، حسب أولويات المعركة . اما سلاح الطيران ، فان مهمته التغطية بالنيران على عملية تجنيد قوات الاحتياط وانتشارها ، كذلك مساعدة القوات النظامية في ايقاف تقدم العدو ، الى ان يتم حشد قوات الاحتياط كاملة . ثم أن هناك سببا آخر يقضي بان يكون سلاح الطيران سلاحا نظاميا ومتواجدا في جميع الحالات والظروف ، وهو كونه سلاحا مرنا وسريعا جدا ، يمكنه التدخل خلال دقائق معدودة على أية جبهة .

وعلى سلاح البحرية ، ان يتواجد بشكل دائم في ميدانه ، لان تحقيق السيادة في البحر موضوع دائم وغير مرتبط بحالات الحرب فقط . فهو موجود في الاساس لحماية الأسطول التجاري خاصة . وبحكم الظروف الموضوعية ، فاسرائيل لا تملك خطوط مواصلات دولية برية ، وهي تعتمد في موضوع التصدير والاستيراد والتجارة على الأسطول التجاري بشكل عام .

بالنسبة لحجم القوات الاسرائيلية ، بما في ذلك القوات الاحتياطية والنظامية ، ومن حيث العتاد والأسلحة ، « فالجيش الاسرائيلي يتكون من ٢٠ لواء مدرعا ، وتسعة الوية مكانيكية ، وتسعة الوية من المشاة ، وخمسة الوية من المظليين . أما الأسلحة فتتكون أساسا من ثلاثة آلاف دبابة متوسطة ، بما في ذلك ٤٠ دبابة من طراز « مركباه » ، وهي اسرائيلية الصنع ، وتستعمل لأول مرة في الجيش . ويملك سلاح البحرية ثلاث غواصات ، و ١٨ زورقا مزوداً بصواريخ غبريئيل ، ومن المنتظر ان يتسلم في المستقبل القريب أربع زوارق أخرى ، وسفينتين حربيتين كبيرتين . أما سلاح الطيران فلديه الآن ٥٤٣ طائرة مقاتلة ، ومن المتوقع ان يحصل على ١٥ طائرة من طراز « اف ــ ١٥ » ، و ٧٥ طائرة من طراز « اف ــ ١٦ » ، و٣٠ طائرة عمودية مسلحة ، من الولايات المتحدة »(١٢) .

سياسة الحرب الوقائية والضربة الأولى

منذ العــام ١٩٤٩ ، وحتى حزيران ١٩٦٧ ، كان الوضع العسكري الاسرائيلي في حالة صعبة ، فخطوط الهدنة كانت تحمل في طياتها مخاطر أمنية كبيرة ، وكانت المجموعات الفدائية ، وبشكل خاص في الأعوام ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، تجوب فلسطين بطولها وعرضها ، وكانت تشكل تهديدا مباشرا للمناطق ذات الكثافة السكانية ، وكان قطاع غزة بمثابة سيف مشرع على تجمعات السكان في الجنوب ، وعلى الساحل . أما الكنيست فقد كان في مرمى البندقية من مواقع الجيش الأردني . وفي حالة تقدم هذا الجيش مسافة ٥٠٠ متر فقط ، بامكانه ان يقطع عروق الحياة عن البرلمان الاسرائيلي ، ووجود الجيش الأردني في منطقتي قلقيلية وطولكرم في الضفة الغربية جعل باستطاعتة لسيطرة على منافذ تل أبيب ، وفصل اسرائيل الى شطرين شمالي وجنوبي ، في اتجاه مدينة نتانيا الساحلية التي تبعد عن الحدود ١٦ كيلو مترا فقط .

أما الجبهة السورية فقد كانت مصدر قلق دائم لمستوطنات الغور الشمالي .

وكانت الجبهة المصرية تتحكم بمضائق تيران على البحر الأحمر ، الذي يشكل عصب التجارة الاسرائيلية الى افريقيا ، اضافة الى ان النقب كان ايضا يخضع بكل ما يجري فيه لمراقبة المواقع العسكرية المصرية .

هذا الوضع أدى بالقيادة العسكرية والسياسية الاسرائيلية ، للخروج بالنتائج التالية ، والتي طبقت بعد ذلك على أرض الواقع ، وهي « في كل مرة تشعر فيها اسرائيل بخطر نشوب معارك عسكرية ، فانها لا تستطيع ترك زمام المبادرة في يد القوات العربية ، لأن معنى هذه المبادرة دمار أجزاء حيوية من اسرائيل ... اذن فان كل حالة تدهور قد تؤدي الى الحرب ، اجبرت القيادة الاسرائيلية ، وبشكل اتوماتيكي على التخطيط لشن حرب وقائية ، ذلك لان اسرائيل تفتقر الى العمق الاستراتيجي الذي يمكنها من الاستعداد في اطاره ، من هنا فان أي انتشار بهدف الحرب يجب ان يتم على أرض العدو »(١٣) .

لقد طرحت هذه النظرية بشكل ملح ، من قبل عدد من قادة اسرائيل ، لدى وضعهم لنظرية السياسة الدفاعية لاسرائيل .

فالحرب الوقائية ، والضربة الأولى المؤثرة ، تخرج الخصم من حالة التوازن في ميدان المعركة . والتوازن «اصطلاح استراتيجي فني ، يعني بان اي هدف للاستراتيجية في ادارة الحرب ، هو ، أولا وقبل كل شيء ، اخراج الخصم من حالة التوازن ، ومثال ذلك ما يقوله العميد (احتياط) يسرائيل تال :

« لقد دخلنا حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣ ، ونحن في حالة تدن من منظور التوازن العملي ، وفي مثل هذه الحالة لا يمكن لنا الوصول الى حسم عسكري وتحقيق الانتصار الكامل »(١٤) .

لقد طالب معظم قادة اسرائيل بتبني سياسة الضربة الأولى والحرب الوقائية ، ومن ابرزهم يسرائيل تال الذي شرح المعاني لهذه الحرب ، وقال : « معنى الحرب الوقائية هي ، ان شعبا يبادر بحرب من أجل احباط حرب معدة ومخططة سلفا ، ولا يمكنه تجنبها ، أو من أجل احباط تحركات ومشاريع عدوانية ... أما بالنسبة للضربة الأولى ، فالأمر يتعلق بادارة الحرب ، وليس بأن نبدأ الحرب . واذا كانت الحرب واردة ولا يمكن تجنبها ، فمن الأفضل دائما ان نستبق العدو ونكون الطرف الأول الذي ينزل به الضربة الأولى ، على غرار حرب الأيام الستة »(١٥) .

علينا ، نظريا ، ان نتمسك بنظرية الضربة الأولى كاستراتيجية ــ يقول تال ــ لانها تعطينا امكانية حسم المعركة بسرعة ، كما توفر من الخسائر المادية والبشرية ، و« انني اطالب بتبني سياسة الضربة الأولى والحرب الوقائية كاستراتيجية ثابتة لاسرائيل ، لان القوات العربية لا تتمثل فقط في قوات دول المواجهة ، فهناك الجيوش المرسلة من دول شمال افريقيا ، من السعودية ، الامارات ، والعراق ، وعليه فالحرب الدفاعية لا تمكننا من الحسم السريع، وحتى ان لم يتمكن العدو من اقتحام مواقعنا ، فان استمرار الحرب ــ في حالة اتباعنا حربا دفاعية ــ ستتحول الى منافسة لتدمير الموارد ، الأمر الذي لا تستطيع اسرائيل أن تصمد أمامه

لفترة طويلة ، وليس أمامنا خيار سوى تبني الحرب الهجومية وتفضيلها على الحرب الدفاعية »(١٦) .

معنى هذا ان اسرائيل اذا اضطرت الى حرب دفاعية ، فانها ستتبنى الهجوم . ففي تبني الهجوم من أجل الدفاع تفوق على الخصم .

ليس هذا فقط ، بل أن بعض الاستراتيجيين مثل البرفسور سعادية عاميئيل ، عمل بشدة على استراتيجية الدفاع وقال : « في غياب الخيارات الهجومية المحددة ، فان استراتيجية دفاعية سلبية أو ناجمة عن ردة فعل Reaective Defence » لا تستطيع الصمود أمام استراتيجية هجومية يمارسها خصم يملك قوة عسكرية هجومية كبيرة ومنظمة جدا »(١٧) .

اذا كان هذا الخصم مقتنعاً بأنه محصن من الضربات والهجمات ضده ، وعلى أرضه ، فانه يستطيع ان يحشد كل موارده للهجوم . أما اذا كان مقتنعا بأنه مكشوف أمام هجوم وقائي داخل عمقه ، فانه لن يتردد في تحويل جزء كبير من موارده وقواته من أرض المعركة الى الخطوط الخلفية ، والى المناطق البعيدة عن الجبهة ، الى حيث يتركز تهديد العدو .

على هذا النحو ، ولدى اتباع سياسة الضربة الأولى والحرب الوقائية ، يمكن اجبار الخصم على تشتيت موارده وقواته .

لقد اتبعت اسرائيل هذه السياسة فعليا خلال العامين ٦٩ ـ ١٩٧٠ ، اثناء حرب الاستنزاف التي شنها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على القوات الاسرائيلية في سيناء . فالغارة على نجع حمادي ، وغارات الطيران الاسرائيلي في العمق المصري ، على القاهرة ودهشور وحلوان والمنصورة ، كانت كلها تهدف الى عدم تمكين مصر من حشد قواتها العسكرية على الجبهة بهدف الهجوم ، هذا الى جانب استنزاف الاقتصاد المصري ، والضغط على مصر لايقاف حرب الاستنزاف .

وقد لوحظ هذا ايضا ، في حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، حيث فرزت مصر ٢٠ الفا من قواتها الجوية لحماية الأجواء والعمق المصريين. بهذا تكون اسرائيل بسياستها في الحرب الوقائية والضربة الأولى حالت دون ان يعمل الطيران المصري بكل قوته وبتركيز ضد الجبهة ، ومنعته من الحشد بشكل كامل ،ضد الأهداف العسكرية الاسرائيلية في سيناء .

في الوقت نفسه كانت اسرائيل على قناعة بأنها غير مهددة في عمقها، وبأن سماءها ستبقى نظيفة تماما خلال الحرب ، الأمر الذي مكنها من حشد كل قواتها على الجبهتين المصرية والسورية .

هذا الموضوع نفسه ـ عالجه دافيد بن ـ غوريون، الذي كان يشغل منصب رئيس الحكومة ووزير الدفاع في آن واحد ، قائلا : « حتى في حالات الدفاع لا يمكن دائما اتباع استراتيجية دفاعية بحتة ... فالطريقة الأفضل والأكثر فاعلية ، هي القيام بعمليات هجومية . واذا كان علينا أن ندافع فلن نجلس في بيوتنا وندافع ، بل علينا أن ننقل الحرب الى الجانب الآخر ، وان ندافع بقوات ضاربة مهاجمة ، خاصة أن هناك دفاعاً بوسائل هجومية بحتة »(١٨) .

اذا كان بن ـ غوريون لم يشر بشكل مباشر الى الحرب الوقائية والضربة الأولى في

حديثه ، فانه ركز عمليا ، على أن نظرية الدفاع يجب أن تتمثل في الهجوم ، ونقل المعركة الى أرض الطرف الآخر .

وهو موضوع عالجه يسرائيل تال فقال : « في بعض الحالات يمكن ان تكون الحرب الوقائية ، صمام أمان لعدم حدوث مفاجأة، كما يمكن ان تكون الرد الحاسم على الحرب العربية المخططة سلفا ، أي الرد على المفاجأة بمفاجأة ، شريطة ان تكون هناك قوات معدة ومجندة للقيام بمشروع الحرب الوقائية ، والى جانب هذا لا يجب الاعتماد بدرجة مبالغ فيها على استراتيجية الحرب الوقائية كرد على المفاجأة ، لانه ليس في جميع الحالات والأوضاع السياسية والعسكرية يمكن اللجوء الى خيار الحرب الوقائية »(١٩) .

وأبرز صور هذه الحرب وقع في الخامس من حزيران ١٩٦٧ . فكثافة الهجوم الاسرائيلي وضخامة المفاجأة ، حسمت مصير الحرب في الساعات الثلاث الأولى منها ،وذلك بعد تدمير الجزء الأكبر من اسلحة الطيران العربية . أما استمرار الحرب الى اليوم السادس ، فقد فرضته المسافة التي يتوجب على القوات الاسرائيلية قطعها ، وتطهير المواقع خلال سيرها السريع .

بعد حرب ١٩٦٧ ، والنتائج التي تمخضت عن هذه الحرب ، اختلف الوضع الاستراتيجي الاسرائيلي في عدة نقاط :

أ ــ حطمت القوة العسكرية لدى الجيشين المصري والسوري معنويا وماديا .

ب ــ افقدت العرب التفوق الاستراتيجي التكتيكي الذي كان لديهم بفضل خطوط الهدنة ، أي حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ .

ج ــ خلقت الحدود الجديدة التي تشكلت نتيجة لحرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، العمق الاستراتيجي الذي يتطلع اليه الاستراتيجيون الاسرائيليون لحماية اسرائيل ، وهذه الخطوط استندت الى موانع طبيعية ، تقيد العمل العسكري لقوات سلاح المشاة والدبابات لدى الجيوش العربية ، هذا اضافة الى كونها ابعدت آلة الحرب العربية عن الأهداف الحيوية في اسرائيل .

د ــ جعلت المساحة الواقعة بين هذه الخطوط الجديدة ، وبين أول مستوطنة اسرائيلية على خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧ ، تشكل منطقة دفاع سهلة للقوات الاسرائيلية .

هـ ــ رفعت الروح المعنوية لدى الجيش والشعب في اسرائيل ، وعززت الثقة المتبادلة بين الطرفين(٢٠) .

واضح تماما ، وبدون أي لبس ، أن أهم الاختلافات في الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية وقعت نتيجة لحصول اسرائيل ــ بعد حرب ١٩٦٧ ــ على العمق الاستراتيجي الطبيعي . فاسرائيل « الحزام » التي كانت مراكزها الحيوية وتجمعاتها السكانية في مرمى المدفعية المتوسطة والخفيفة المدى ، اختلف وضعها تماما . فباحتلال سيناء اصبحت هذه المراكز الحيوية بعيدة جدا ، وباتت المعارك لا تهدد المستوطنات والمدن الاسرائيلية ، بل القرى والمدن المصرية في سيناء .

أما الجبهة الشرقية ، التي كانت محاذية تماما لأهم التجمعات السكانية والمنشآت الاقتصادية والعسكرية الاسرائيلية ، فصارت بعيدة هي الأخرى ، بفضل احتلال الضفة الغربية كاملة . وقد أصبح لزاما على أية قوات عربية تخطط لمهاجمة اسرائيل ، أن تعد أولا مشروعا عسكريا شاملا لعبور نهر الأردن ، ثم لخوض معركة بين مدن وقرى الضفة الغربية ، والانتصار فيها كي تشكل بعد ذلك خطرا مباشرا على المراكز الحيوية والهامة لاسرائيل .

وبالنسبة للجبهة الشمالية ، فقد ابعدت فوهات المدفعية السورية عن التجمعات السكانية في الغور الشمالي والأوسط ، وغابت خلف موانع جغرافية تقف عقبة أمام تحرك المشاة والدبابات .

ربما تكون هذه الأسباب مجتمعة ، هي التي أحدثت التغيير ، وبشكل خاص في سياسة الضربة الأولى والحرب الوقائية . ان هذا العمق الاستراتيجي الكبير نسبيا ، واطمئنان اسرائيل بان القوات العربية تحتاج الى عشر ساعات على الأقل كي تخترق خطوط دفاعها الأولى والتقدم في اتجاه الأهداف الحيوية الهامة ، كل هذا أحدث قضما واسترخاء في نظرية الحرب الوقائية والضربة الأولى ، وهذان القضم والاسترخاء ، هما بعض الأسباب ، وربما كانا أهمها ، في حدوث المفاجأة في ٦ تشرين الأول عام ١٩٧٣ .

فاسرائيل لم تكن لتسمح بان يأخذ العرب زمام المبادرة في الحرب ، ولم تكن لتسمح في أية حرب بأن يكون العرب فيها هم أصحاب الضربة الأولى ، لو أنها بقيت داخل حزامها الضيق ، أي داخل حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ .

يثبت هذا القول تصريحات موشي دايان وعدد من كبار قادة الجيش الاسرائيلي ، التي كانت ترحب بدخول الجيش المصري الى سيناء ، لدفنه اثناء عملية عبور قناة السويس .

مكانة الحرب الوقائية في الاستراتيجية الاسرائيلية

لا شك أن الحرب الوقائية التي اعتمدتها اسرائيل في كل حروبها مع العرب ، باستثناء حرب ١٩٧٣ ، تحتل مكانة مرموقة في الاستراتيجية العسكرية ، بل تشكل العنصر الأساسي في التخطيط الاستراتيجي العسكري لدى اسرائيل . فالحرب الوقائية ، « تشكل حجر الأساس في التفكير والتخطيط الاستراتيجي (للجيش الاسرائيلي) منذ حرب الاستقلال »(٢١) .

لقد تطورت نظرية الحرب الوقائية نتيجة للقيود الأساسية في الوضع الاستراتيجي والجغرافي لاسرائيل ، وهي :

- انعدام العمق الاستراتيجي ، وقرب المراكز الحيوية ومراكز التجمعات السكانية للحدود .
- الهوة في ميزان القوى من حيث الكم ، والشعور بأن اسرائيل تخوض حرب الأقلية ضد الأغلبية .
- الادراك بأن دولا كبرى وقوات خارجة قد تتدخل ضد اسرائيل ، اذا حققت الأخيرة مكاسب عسكرية ، لذا يتوجب تحقيق هذه المكاسب بسرعة ، وتثبيت الأمر الواقع خلال المراحل الأولى للحرب(٢٢) .

القوة الرادعة

بالرغم من أن نقاط الضعف كثيرة ومتعددة في الجيش الاسرائيلي ، وتشكل اغراء للجيوش العربية لاستعمال قوتها ، وضرب نقاط ومواطن الضعف في اسرائيل ، الا أن هذا الاغراء ، وبمجرد دخوله الى دائرة اصحاب السيطرة والتخطيط في الجيوش العربية النظامية ، يسقط وكأنه غير موجود ، وكأن نقاط الضعف هي نقاط قوة يستحيل ضربها .

ان هذا يعود لكون اصحاب القرار يعتقدون بأن اسرائيل تملك قوة رادعة تستطيع الرد بسرعة وفاعلية . ولتعريف قوة الردع يمكن القول ، « أن قوة الردع هي السلاح غير المستخدم لكنه مستوعب لدى الجيش الذي يدافع عن نفسه الى منع نشوب حرب ضده ... قوة الردع هي القدرة الكامنة والحبيسة في الجيش وقد لا تستعمل الا في التدريبات ، والمناورات ، والمشاريع العسكرية الواسعة التي يجري الاعلان عنها ، هذا اضافة الى التفوق في العمليات العسكرية المحدودة التي تبرز طابع قوة الجيش ، الأمر الذي يحول دون نشوب حرب ... أي أن قوة الردع هي القوة الموجودة وغير المستعملة وبسببها يلغي أو يواصل الطرف الآخر مشاريعه »(٢٣) . ويتوجب ، من أجل الوصول الى تشكيل قوة ردع فعالة ، وجود جيش قوي ، يمكن من خلاله اقناع الطرف الآخر بأنه اذا حاول تحقيق بعض الأهداف بالقوة العسكرية ، فسوف يسحق ويدمر .

ففي اسرائيل احتلت استراتيجية الردع ، أو القوة الرادعة مساحة كبيرة من سياسة الأمن ، وخلاصة هذه القوة ، ان تنقل للطرف الآخر ، بأن أي هجوم أو أية مشاريع عدائية من جانبه ، هي بمثابة انتحار له .

لقد روجت اسرائيل ، عن طريق وسائط الاعلام في الداخل والخارج انها تملك ، اضافة الى ترسانتها العسكرية ، قنبلة ذرية ، وذلك لخلق قوة ردع حاسمة ، حتى وان كانت وهمية ، وحاولت ان تقنع الدول العربية بهذا الأمر الذي يوفر عليها تكاليف باهظة لتشكيل قوة ردع بالاسلحة التقليدية . وحتى ان قوة الردع التي تستند الى ترسانة اسلحة حديثة جدا ، وبكميات وافرة ، بقيت غير مقنعة تماما ، واثبتت فشلها في بعض المجالات « يكفي ان نستعرض ما حدث قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ . فقد كانت الحكومة الاسرائيلية مستعدة للمجازفة والتورط دوليا ، في سبيل اجراء العرض العسكري في القدس ، تمشيا مع مبدأ الردع ... وخلال العرض العسكري تلقى رئيس الأركان اللواءبتس حاق رابين، معلومات مفادها أن قوات الجيش المصري بدأت بالتحرك نحو سيناء »(٢٤) .

الأمر الذي يدلل على أن جمال عبد الناصر لم يخش ولم يأخذ بعين الاعتبار القوة الرادعة التي تحاول اسرائيل التلويح بها .

أما الضربة الأشد والأقسى لاستراتيجية الردع الاسرائيلية فقد جاءت ، بشكل مفاجيء ، في ٦ تشرين الأول ١٩٧٣ ، « حين كانت اسرائيل وفقا لكل الآراء ، في قمة سياستها الرادعة ، ومستندة الى حدود أمنية سهلة ومحصنة »(٢٥) .

ليس معنى هذا ان اسرائيل فشلت تماما في سياسة الردع التي اتبعتها بشكل منظم

ومدروس منذ العام ١٩٥٧ ، أي بعد انسحابها من سيناء وقطاع غزة ، فقد لقيت هذه السياسة بعض النجاح في العمليات العسكرية المحدودة . فالقصف الاسرائيلي بالطيران والمدفعية ، والاغارات على بعض الأهداف المدنية والعسكرية في بعض الدول العربية ، لم تعقبه أية ردود فعل عسكرية على المستوى القيادي العربي ، بل تمثل الرد ـ ان وجد ـ في مبادرات بعض الجنود والضباط الذين تحملوا مسؤولية الرد بشكل شخصي .

سياسة الردع والمقاومة الفلسطينية

منذ أن انطلقت المقاومة الفلسطينية في الفاتح من كانون الثاني عام ١٩٦٥ ، وبدأت بتنفيذ عملياتها العسكرية داخل فلسطين ، انكبت القيادة العسكرية والسياسة الاسرائيلية على وضع مشروعات لوأدها في المهد .

وأدركت هذه القيادة أن حجم المقاومة ، اذا ما قورن بالقوات النظامية ، وبشكل خاص في بداية الانطلاق المسلحة ، لا توازي كتيبة عسكرية ضمن جيش نظامي . وبالمقابل ، كانت تعرف تماما أن فاعلية قوى المقاومة أو أن كانت من حيث الكم لا تدخل في حسابات الجيش ، سوف تفرض نفسها على سياستها الأمنية .

وعلى الرغم من كل الاجراءات العسكرية ، وأهمها تكثيف عمليات المطاردة ، وزيادة الدوريات ، واستعمال الطيران على نطاق واسع ، واعتماد الاغارة المحدودة على بعض الأهداف العسكرية للمقاومة ، على الرغم من هذا ادركت اسرائيل ، أن كل هذه الاجراءات عقيمة ، واقصى ما يمكن أن تحققه من نتائج هي عرقلة بعض العمليات ، أو عدم تمكينها من تحقيق أهدافها .

لهذا اعتمدت اسرائيل اسلوبا جديدا في سياستها الأمنية ، توخت منه تحقيق عدة أهداف اهمها :

أ ـ الابادة الجسدية للعنصر الفلسطيني المقاتل .

ب ـ الحاق الضرر بالمدنيين ، بالأرواح والممتلكات كي يكفر هؤلاء بالمقاومة .

ج ـ ردع قيادة المقاومة عن تخطيط وتنفيذ عمليات عسكرية ضد اسرائيل ، تحت شعار ان الضرر والخسائر المادية والبشرية التي تلحق بالفلسطينيين ، أكبر من تلك التي تلحق باسرائيل .

هـ ـ انتهاك سيادة الدول التي تعمل المقاومة عبر أراضيها ، بحجة ان هذا الانتهاك لم يكن ليحدث لولا وجود المقاومة .

وفقا لكل هذه الأسباب مجتمعة ، قامت اسرائيل بالغارة المشهورة والأولى من نوعها على الكرامة في ١٩٦٨/٣/٢١ .

الكرامة اول اختبار لسياسة الردع

تقع عملية الكرامة ، من وجهة النظر الاسرائيلية ـ أول عملية بهذا المستوى ـ ضمن استراتيجية الحرب الوقائية : الضربة الأولى ، وسياسة الردع . فهي حرب وقائية لاحباط

مخططات المقاومة الفلسطينية ، وافشال مشاريعها العسكرية . اما فيما يتعلق بسياسة الضربة الأولى ، فهي بمثابة سحب المبادرة من المقاومة ، وانزال الضربة الأولى على أهم وأكبر قاعدة لها ، تشمل القيادة الرئيسية ، وأكبر عدد من العناصر والعتاد العسكري .

النقطة الثالثة ، وهي أن اسرائيل ارادت تحقيق عملية ردع كاملة للمقاومة . وعلى الرغم من أنها حشدت قوات ضخمة لهذه العملية ، تمثلت في « ثلاث سرايا مدرعة من اللواء السابع ، مهمتها السيطرة على جسر اللنبي وبعض المواقع المجاورة ، واربع سرايا من المظليين مع قوة استطلاع ، مهمتها السيطرة على جسر دامية والمواقع المجاورة له ، اضافة الى اكثر من كتيبتين من المظليين ، مدعمة بسرية وفصيل مدرع ، كانت مهمتها السيطرة على بلدة الكرامة ، وأسر (الفدائيين) . الى جانب ذلك قوة تقدر بسرية محمولة في عشر طائرات عمودية ، مهمتها اغلاق طرق الانسحاب من الجانب الشرقي للكرامة . اضافة الى كل هذه القوات ، كلف سلاح الطيران بالقيام بعمليات الحماية والتغطيةعلى نطاق واسع »(٢٦) .

بالرغم من هذا الحشد العسكري والأهداف المعدة سلفا لتحقيقها ، فقد منيت اسرائيل بهزيمة كبيرة ، ليس بالخسائر البشرية التي بلغت ٢٦ قتيلا و٨٠ جريحا وثلاثة مفقودين باعتراف اسرائيل ، وبعدد من الدبابات وناقلات الجنود والمجنزرات والشاحنات العسكرية ، بل تمثلت في فشل استراتيجية الردع ، والحرب الوقائية والضربة الأولى عندما طبقت ضد المقاومة ، لأن عمليات المقاومة لم تتوقف حتى من الكرامة نفسها ، هذا أولا . وثانيا ، لأن القواعد الفدائية لم تسحب من الكرامة ، بل وتمشيا مع مقتضيات الأمن وسرية العمل ، نقلت القيادة الرئيسية فيها . وثالثا ، لأن سياسة الضربة الأولى والتي كان من المفترض أن تقلل عدد الخسائر الاسرائيلية ، وتزيد من عدد الخسائر البشرية والمادية لدى المقاومة ، وتخلق حالة ارباك في صفوف المقاتلين ، فقدت قيمتها ، نتيجة لعدد القتلى في صفوف الجيش الاسرائيلي . هذا العـــدد أثار داخل اسرائيل موجة من النقد الشديد ضد العملية والمخططين لها ، على الصعيدين العسكري والسياسي .

أما الدليل الأقوى على فشل سياسة الردع الاسرائيلية في هذه العملية ، فقد تجسد في الاقبال الشديد من قبل الشعب الفلسطيني ، بشكل خاص ، والشعب العربي بشكل عام ، على التطوع في صفوف المقاومة الفلسطينية بعد عملية الكرامة بالذات .

خلاصة ذلك ، أن سياسة الردع التي بلورتها اسرائيل ، ومارستها ضد الجيوش العربية النظامية ، فشلت فشلا ذريعا لدى تطبيقها ضد المقاومة الفلسطينية . وان كانت قد اثرت في الضغط على الأردن ، الذي صار لديه سبب آخر للعمل من اجل وقف العمليات الفدائية من شرق الأردن وقد حاولت اسرائيل تعويض هذا الفشل في ظروف اخرى . وانعكس هذا في عدة عمليات واسعة نسبيا ، شنتها اسرائيل على جنوب لبنان ، وعلى مخيمات الفلسطينيين في بيروت وطرابلس . وحرب الجنوب التي بدأتها اسرائيل في ١٥/٣/١٩٧٨ ، وامتدت فترة ثمانية ايام . استخدمت فيها اسرائيل ٤٥ الف جندي ، بما في ذلك سلاح المدرعات والطيران والبحرية ، لم تردع المقاومة الفلسطينية عند الاستمرار في توجيه ضرباتها لاسرائيل ، سواء كانت على الحدود أو في قلب المدن الفلسطينية اثناء وبعد احتلال الجنوب ، وبعد الانسحاب منه . اضافة الى ذلك ، فالشريط الأمني الذي خلقته اسرائيل في الجنوب لم يحل دون ضرب المستوطنات في الشمال ،

مثل كريات شمونة ، والاغارة على مدينة نهاريا الواقعة على الساحل الشمالي لفلسطين . فالسياسة الردعية الاسرائيلية اصبحت بمثابة قفاز القي في وجه المقاومة الفلسطينية التي قبلت التحدي .

اما تأثير هذه السياسة في الضغط على لبنان ذاته ودفعه لمعاداة الفدائيين الفلسطينيين فقد كان تأثيرا متفاوتا ، ومختلفا عن ما وقع في الاردن، بالنظر لاختلاف الظروف ، واساسا بالنظر للتحالف القائم بين المقاومة الفلسطينية وفرقاء عديدين ونافذين في لبنان .

اهداف الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية

وضعت الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية ، في الأساس ، لتخدم الأهداف السياسية لاسرائيل ، لا لتتحكم فيها . فهي اداة تنفيذية طيعة ، ترمي الى تحقيق الغاية القومية . وتميزت هذه الاستراتيجية بارتباطها بتطور مسار المشروع الصهيوني في فلسطين ، المتمثل في الهجرة والاستيطان ، الأمر الذي أثر الى حد كبير على الأهداف الأساسية التي تسعى هذه الاستراتيجية لتحقيقها . فقد كان ظهور الاهداف خاضعا الى حد كبير لحالة المد والجزر التي رافقت مسار هذا المشروع ، وهذا يعني ان خاصية هامة وهي « انها لا تظهر من اهدافها ونواياها ، الا ما يحدده الهدف القريب وحده ، بحيث لا تبرز الأهداف والنوايا الأخرى التي تليه »(٢٧) .

فاسرائيل تحاول بهذه الطريقة ان تخدع الرأي العام العالمي . كما تحاول أن توحي لخصومها بأن مطامعها محددة ، وأهدافها محدودة أيضا ، الى جانب انها تحافظ على سرية الأهداف المستقبلية .

فالغاية القومية التي تسعى اسرائيل لتحقيقها عبر هذه الاستراتيجية ، تتلخص في التالي :

١ ــ ضمان أمن اسرائيل والعمل على تأكيد وجودها في المنطقة .

٢ ــ اعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة بأوضاعها التاريخية ، ثقافتها وحضارتها القديمة ، بحيث تكون مقر جميع يهود العالم .

٣ ــ حماية القاعدة الاقتصادية وانماؤها لتتمكن من استقطاب المهاجرين اليهود ، لترفد بهم آلتها العسكرية .

٤ ــ خلق مجتمع اسرائيلي مترابط ومتماسك ومغلق .

٥ ــ توسيع رقعة الأرض على حساب الدول العربية المجاورة ، لأن فلسطين بحدودها الطبيعية ، لا تستطيع استيعاب قرابة ١٤ مليون يهودي موزعين في دول العالم ، اضافة الى التزايد الطبيعي للسكان .

٦ ــ اقامة أكبر ترسانة سلاح وأكبر قوة في المنطقة ، حتى تبقى في خدمة تحالفات الدول الامبريالية ، التي تسعى لتأمين مصالحها في الوطن العربي .

هذه هي الأهداف الاستراتيجية الاسرائيلية التي تطفو على السطح في الظروف المواتية

لها ، أي في فترة التنفيذ وما بعده . وان كل من يدرس تاريخ الحركة الصهيونية ، يجد عمليا أن دولة اسرائيل بدأت تتأسس منذ عام ١٨٧٠ ، أي منذ أن بدأ الاستيطان الصهيوني لفلسطين ، متمثلا في اقامة المدرسة الزراعية الأولى في مكفي يسرائيل ، على اراضي بلده يازور ، بين تل أبيب واللد .

---

(١) ابراهام انيحاي ، دافيد بن - غوريون ، ميعاتسيف ها مديناه (دافيد - بن غوريون مهندس الدولة) ، القدس ، كيتر ، ١٩٧٤ ، ص ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٦

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

(٤) يسرائيل تال ، معرخوت، كانون الأول ١٩٧٦ ، عدد ٢٥٣ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) انيحاي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٦ .

(٩) معرخوت، العدد ٢٥٣ .

(١٠) يديعوت احرنوت ، ١٩٧٧/٩/٢١ .

(١١) حاييم بارليف ، معرخوت ، تشرين الأول ، الثاني ١٩٧٨ .

(١٢) التقرير السنوي ، ١٩٧٨ ، معهد الدراسات الاستراتيجية ، لندن .

(١٣) حاييم هرتسوغ ، ملحيمت يوم هدين ، (حرب يوم الحساب) ، القدس ، عيدانيم ، ١٩٧٥ ، ص ١٢ .

(١٤) يديعوت احرنوت ، ١٩٧٧/٩/٢١ .

(١٥) المصدر نفسه .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) معرخوت ، أيلول ١٩٧٨ ، عدد ٢٦٥ .

(١٨) انيحاي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٧ .

(١٩) يديعوت احرنوت ، ١٩٧٧/٩/٢١ .

(٢٠) دافيد دايان ، بطحون للوشالوم ، (امن بدون سلام) ، رمات جان ، مسادة ١٩٦٨ ، ص ٢٠٥ .

(٢١) ايتان هابر ، زئيف شيف ، ليكسيكون لبطحون يسرائيل ، (قاموس أمن اسرائيل) ، تل أبيب ، دافار ١٩٧٦ ، ص ٣٢٤ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢٥ .

(٢٣) دايان ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢٤) ي ، نورئيل ، هبطحون هلئومي شل يسرائيل ، (الأمن القومي لاسرائيل) ، تل أبيب - شافيم ، ١٩٧٤ ، ص ٦٩ .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

(٢٦) هابر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٧ .

(٢٧) هيثم الكيلاني ، المذهب العسكري الاسرائيلي ، بيروت م - ت - ف ، مركز الأبحاث ، ١٩٦٩ ، ص ٣٩٦ .

مقابلة مع الدكتور إقبال أحمد

الاستراتيجية السياسية والعسكرية للولايات المتحدة

الدكتور إقبال احمد باحث ومفكر باكستاني معروف في الولايات المتحدة ، ويعمل الآن كباحث في « مؤسسة الدراسات السياسية في واشنطن ، كما يعمل في مؤسسة اخرى مختصة بالدراسات الدولية تدعى « The Transnational Institute » ويشارك في تحرير مجلة Race and Class ومجلة Afriqe Asie وهي من المجلات المختصة بشؤون العالم الثالث . كما نشرت له عدة مقالات في جريدة « النيويورك تايمز» . ويعتبر خبيرا في دراسة استراتيجيات الدول الكبرى ، خاصة استراتيجية الولايات المتحدة تجاه العالم الثالث. يدمج في دراساته بين معرفته للتطورات في السياسة الاميركية وبين معرفته للمشاكل التي تواجه دول وثورات العالم الثالث .

وللدكتور احمد مؤلفان باللغة الانجليزية :

١ ــ « الرجعية والثورة في العالم الثالث »

٢ ــ قنابل موقوتة : دليل المواطنين الى سياسة الولايات المتحدة الخارجية في السبعينات .

وقد سبق ان نشرت « شؤون فلسطينية » مقتطفات من هذا الكتاب الأخير بعنوان « عودة الى العالم الذي تريده واشنطن » ، في عدد اذار ١٩٧٥ .

وفي هذا العدد تنشر المقابلة التي اجريت معه عندما زار لبنان مؤخرا برفقة وفد من الاميركيين الذين لعبوا دورا في مناهضة العدوان الاميركي على فيتنام .

س ــ بصفتك خبيرا في السياسة الاميركية تجاه العالم الثالث ، هناك عدة اسئلة نود ان نطرحها عليك حول طبيعة السياسة الاميركية في الشرق الاوسط وتجاه القضية الفلسطينية . وتتناول هذه الاسئلة ثلاثة مواضيع متشابكة : اولا : المخطط الاستراتيجي الاميركي العام والمبادىء التي تسيره ثانيا : الاستراتيجية العسكرية الاميركية في الشرق الاوسط ، وعلاقتها بالاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية . ثالثا : اهمية استقالة اندرو يونغ من منصبه وامكانيات حصول القضية الفلسطينية على دعم فعال في المجتمع الأميركي . باي من هذه الأسئلة تفضل ان تبدأ .

ج ــ إن استقالة اندرو يونغ هي حدث مثير للاهتمام ، لأنه يعكس انقساما وتوترا معينا داخل المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة ، حول بعض المسائل التكتيكية .

ويبدو لي إن استقالة اندرو يونغ اعتبرت في الشرق الأوسط ، وفي الصحف العربية ، كانعكاس إما لمواجهة بين فرد ذي ضمير حي (هوأندرو يونغ ولوبي منظم هو اللوبي اليهودي) ، او كمواجهة فعلية او محتملة بين الأميركيين السود واللوبي اليهودي . وفي اعتقادي ليس هناك من شك ، بان الاسلوب والاعتبارات الفردية والشخصية لأندرو يونغ اثرت في هذا الحدث ، يضاف الى ذلك ان هناك توترا معينا بين اللوبي الاسرائيلي (اي عدد كبير من اليهود والصهاينة في الولايات المتحدة) وحركة السود .

ولكنني اعتقد ان استقالة يونغ تعكس ايضا وجود خلاف داخل المؤسسة المخططة للسياسة الأميركية ، حول كيفية التعامل مع دولة اسرائيل ، اي حول مكانة دولة اسرائيـل في الاستراتيجية الاميركية ، وماذا يجب ان يكون دور اسرائيل ، في تلك الاستراتيجية .

اعتقد انها ستكون نقطة انطلاق جيدة لو بدانا بالاشارة الى ان احدى العوامل الرئيسية التي ادت الى نجاح الحركة الصهيونية منذ بدايتها ، كانت قدرتها على ربط السياسات الامبريالية باهدافها الخاصة .

ومن هذا المنطلق قام هرتسل بمحاولة ناجحة ، الى حد ما ، في ربط اهداف السياسة البريطانية باهداف الاستيطان اليهودي (في الواقع لم تكن محاولته ناجحة في أول الأمر ولكنها نجحت فيما بعد) . ثم استمر حاييم وايزمان في السياسة نفسها ، وحافظ على الصلة الخاصة بين الحركة الصهيونية والسياسة البريطانية .

ولكن الجدير بالاهتمام هو انه في حين نجحت الحركة الصهيونية بربط اهدافها بالأهداف الامبريالية فانها لم تنجح دائما في تحديد **طبيعة** الصلة بينهما . إن الأولويات الاستراتيجية للقوى الامبريالية هي التي حددت طبيعة تلك الصلة ، وليست الأولويات الاستراتيجية للحركة الصهيونية .

وشهدت هذه العلاقة المستمرة بين الحركة الصهيونية والقوى الامبريالية عدة توترات (لاحظ انني استعمل كلمة توتر وليس كلمة نزاع) وكانت تبدو اكثر حدة في بعض الفترات خاصة عندما كانت تعجز الحركة الصهيونية عن الاستفادة القصوى من صلتها مع القوة الامبريالية ، فمثلا بين العامين ١٩٤٥ و ١٩٤٧ نشب نزاع بين المنظمة الصهيونية والانتداب البريطاني ، اذ كانت المنظمة الصهيونية تريد ان يفتح لها نظام الانتداب ابواب الهجرة اليهودية كليا ، وبدون اية شروط ، وان يستخدم الانتداب جيشه وقواته لابادة السكان العرب، ولكن البريطانيين كانوا حريصين على تطبيق سياستهم واظهار دعمهم للحركة الصهيونية بشكل تدريجي ، وضمن حدود معينة . وهذا التفاوت في الأهداف ادى الى اشتباكات مسلحة بين الطرفين لبعض الوقت .

وهناك عدة امثلة اخرى تظهر وجود بعض التناقضات بين الأهداف الصهيونية والأهداف الامبريالية فلم يكن هناك دائما المستوى نفسه من العرض والطلب ، فما كان يطلبه الاسرائيليون لم يستجب له دائما ، والعكس صحيح .

واستمرت دولة اسرائيل منذ تأسيسها باستعمال اساليب الحركة الصهيونية نفسها وتظهر الابحاث التاريخية ان علاقة الولايات المتحدة بدولة اسرائيل قد مرت بثلاث مراحل :

اولا : من العام ١٩٤٥ الى العام ١٩٤٨ . دعمت الحكومة الأميركية قيام دولة اسرائيل دعما كاملا ، واثار ذلك بعض النقاش داخل الادارة الاميركية .

ثانيا : من العام ١٩٤٨ الى العام ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ (على وجه التقريب) ابدت الولايات المتحدة إهتماما ضئيلا بدولة اسرائيل ، واعتبرت ان دورها محدود في منطقة الشرق الأوسط ، في حين ان الفرنسيين والبريطانيين · (خاصة الفرنسيين) كانوا يريدون توسيع دور اسرائيل في المنطقة . وازداد اهتمام الفرنسيين باسرائيل بعد انطلاقة الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤ ، ولقد عبر الغزو الانكلو ــ فرنسي ــ الاسرائيلي للسويس عن ارادة فرنسا وبريطانيا واسرائيل بفرض اسرائيل « كقوة ضاربة » في المنطقة .

ولكن اصرار حكومة ايزنهاور على إنسحاب اسرائيل تحت اشراف الأمم المتحدة ، كان معبرا عن رفض اميركي للخضوع امام المحاولة الأنكلو ــ فرنسية لفرض اسرائيل « كقوة ضاربة » في المنطقة .

وفي الفترة نفسها (١٩٤٨ ــ ١٩٥٧) اهتمت الولايات التحدة بتقوية علاقاتها مع بلدان اخرى مثل الأردن ، العراق ، ايران ، باكستان ، ورشحتها كأعضاء لأول مشروع حلف في المنطقة ، اي في « منظمة معاهدة الشرق الأوسط » (Meto) التي فشلت من أساسها ، والتي كان مخططا لها ان تكون مساوية للحلف الأطلسي ثم لحلف بغداد . وفي كل من المشروعين (ميتو الفاشل وحلف بغداد) تم استبعاد اسرائيل .

وبحلول العام ١٩٥٦ ، عندما اصبح فشل حلف بغداد واضحا ، بدا الهجوم الثلاثي على السويس اكثر فاكثر كمحاولة اوروبية ــ اسرائيلية اكيدة لاعطاء اسرائيل دورا اكبر في المخططات الاستراتيجية الأميركية .

ثالثا : من العام ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ الى العام ١٩٦٧ . كانت ابحاثي تبين وجود خطين في السياسة الأميركية تجاه اسرائيل في تلك الفترة . الأول يعبر عنه البنتاغون والمخابرات المركزية الأميركية ، وهي من المؤسسات التي أعجبت اعجابا شديدا بالعرض العسكري الاسرائيلي في حرب السويس . وبسبب توجهات هذه المؤسسات العسكرية شجعت توسيع دور اسرائيل وجعلها « القوة الضاربة » في المنطقة .

اما الخط الثاني فكانت تعبر عنه المؤسسات ذات الوجه « المدني » مثل وزارة الخارجية الاميركية ولوبي شركات النفط ، التي كانت تعتقد بان اعطاء اسرائيل دورا اكبر في المنطقة سيدفع بالعرب المعتدلين الى التطرف ، وسوف تقوى مصر وليقوى عبد الناصر (الذي كان عدوهم الأكبر في تلك الفترة) بدلا من اضعافهما .

ونلاحظ ان البلدان الأوروبية هي التي كانت المصدر الاساسي للاسلحة العسكرية الى اسرائيل ، وكان الجيش الاسرائيلي يؤله الميراج الفرنسية ، وليس الفانتوم الأميركية في حرب ١٩٦٧ .

وازدادت المعونة الأميركية لاسرائيل ، كما ازداد الارتباط الأميركي بها ، ولكن بشكل تدريجي في تلك الفترة . ثم جاءت حرب ١٩٦٧ .

ان ابحاثي تقدر ان حرب ١٩٦٧ كانت الى حد كبير مبادرة اسرائيلية ، او اذا لجأنا الى تقديرات احصائية لوجدنا انها كانت ٦٠٪ مبادرة اسرائيلية و ٤٠٪ تشجيعا من الولايات المتحدة . توصلت الى هذه النسبة من خلال دراستي لهذه المسألة في تلك الحين . وكان من الواضح ان الاسرائيليين قد ادركوا ان اهتمام الولايات المتحدة بهم قد ازداد منذ العام ١٩٦٥ ، بسبب اختلال المعادلة الاستراتيجية بعد حرب الفيتنام . وكان من الواضح ايضا ان المصلحة الاستراتيجية للولايات المتحدة في تطوير القاعدة الاسرائيلية الى « قوة اقليمية » قد نمت في تلك الفترة .

وعندما ادرك الاسرائيليون ، وجود تحول في السياسة الاميركية ، عملوا على تشجيع هذا التحول لصالحهم (من العام ١٩٦٥ الى العام ١٩٦٧) وعندما توفرت لهم الفرصة لابراز كفاءتهم وفعاليتهم كقوة ضاربة (مثلما كان عليه الحال في العام ١٩٦٥) قرروا القيام بهجوم عام ١٩٦٧ ، وتم هذا بتشجيع من عناصر معينة في الادارة الاميركية .

س ــ عناصر معينة مثل من ؟

ج ــ أظن ان اهم العناصر كانت البنتاغون ، وتشمل في هذه الحالة سلاح البحرية وسلاح الجو والجيش . فكل هذه الأجهزة كانت مهتمة باستعمال القاعدة الاسرائيلية . ثم هناك المفكرون الاستراتيجيون التابعون للمؤسسة الحاكمة الاميركية ، البعض منهم داخل ادارة جونسون ، والبعض الآخر من خارجها . وكان من الداخل اشخاص مثل كلارك كليفورد ، ومن الخارج اشخاص مثل هنري كيسنجر ، الذين كانوا يفكرون منذ ذلك الحين بالاسلوب نفسه الذي ادى فيما بعد الى تطوير « مبدأ نيكسون » الذي كان يستند على انشاء مراكز قوة جديدة في كل منطقة .

ونلاحظ ان الاستراتيجية الأميركية لم تبدأ بتحويل اسرائيل من حليف محمي له دور محدود الى « المارشال » الرئيسي للسلام الأميركي في منطقتي البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي ، الا بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . [وقد كتب الدكتور اقبال احمد سلسلة من المقالات حول هذا الموضوع ونشرت في مجلة « فلسطين الحرة «Free Palestine في الولايات المتحدة عام ١٩٦٨ .]

ومنذ العام ١٩٦٨ التزمت الولايات المتحدة التزاما كليا بتحويل اسرائيل الى « القوة الاقليمية » الرئيسية في المنطقة المحاطة بالبحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي .

وتبلورت هذه السياسة في اطار « استراتيجية جنوبية » شاملة ، تهدف الى انشاء « تجمع قوى » جديد في هذه المناطق . وركزت الولايات المتحدة بشكل خاص على ايران في الجانب الشرقي ، واسرائيل في الجانب الغربي من منطقة الشرق الاوسط .

وامتد « تجمع القوى » من الشرق الأوسط الى جنوب افريقيا ، بحيث شمل مناطق شرقي البحر الابيض المتوسط ، وغربي المحيط الهندي . وضم التجمع اعضاء اخرين اقل اهمية مثل

اثيوبيا والبرتغال (التي عقدت معها ادارة كيسنجر اكبر اتفاقية عسكرية اميركية عرفت باتفاقية الأزور العسكرية) ، واليونان (في ظل المجلس العسكري الحاكم) وتركيا . وحسب الخطة الواردة في مذكرة دراسات الأمن الوطني الرقم ٣٩ ، التي اشرف كيسنجر على صياغتها ، كان على « تجمع القوى » الجديد ان يضم زائير وجنوب افريقيا . وعند نهاية العام ١٩٧٣ كان « تجمع القوى » الذي انشأه كيسنجر (علما بان ادارة جونسون خططت له من وقت سابق) قد بدأ ينهار لعدة اسباب ، منها : اولا : ظهور نزاع بين تركيا واليونان ، ثم سقوط المجلس العسكري الحاكم في اليونان ، ثانيا : انهيار النظام الفاشي في البرتغال ، وبروز حركات التحرر الثلاث ، ثم استيلاؤها على السلطة في انغولا وغينيا بيساو وموزامبيق . ثالثا : انهيار نظام هيلاسيلاسي في اثيوبيا في اواخر العام ١٩٧٣ . ثم جاءت حرب تشرين الاول (اكتوبر) لتلقي ظلالا من الشك حول فعالية اسرائيل كقوة ضاربة . فعندما واجه الجيش الاسرائيلي مقاومة مصرية وسورية « شبه جدية » ، تطلب امدادات ضخمة من الولايات المتحدة ليستمر في الحرب ضدها . وفي اليوم الثالث من حرب اكتوبر كانت الاسلحة الاسرائيلية مستنفدة الى حد خطير ، ولولا احدى اكبر عمليات الامداد العسكري التي تمت في التاريخ الحديث لما استطاع الجيش الاسرائيلي ان يصمد امام المواجهة العربية .

ادرك الاميركيون (بعد حرب اكتوبر) ان اسرائيل ، بدلا من ان تلعب دور « القوة الضاربة » ، قد تتحول الى عبء لوجيستي على الولايات المتحدة . كان هذا الدرس الأول الذي تلقته الولايات المتحدة . اما الدرس الثاني فكان إدراك المؤسسة المخططة للسياسة الأميركية ان استثناء بعض الدول العربية من « تجمع القوى » الذي انشيء كان خطأ سياسيا واستراتيجيا . فهناك دول مثل المملكة العربية السعودية والكويت وابو ظبي استثنيت ، كاعضاء من التجمع ، مع انها كانت تحت حمايته . كما ادركت الولايات المتحدة ان توسيع الدور الاسرائيلي اثر على ابعاد العرب المعتدلين عن المبادىء الاستراتيجية الاميركية ، الأمر الذي ادى الى المقاطعة النفطية . وكان هذا الاستثناء يحرج بعض الحلفاء المحميين مثل المملكة العربية السعودية . ولذلك ، بعد حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ، بدأ نقاش في المؤسسة الأميركية للبحث عن كيفية ادخال بعض الدول العربية كشركاء بدلا من حلفاء محميين في التحالفات والمخططات الاستراتيجية الأميركية . وكانت ديبلوماسية كيسنجر المكوكية التي ادت الى اتفاقيتي فك الارتباط الأولى والثانية في سيناء ، انعكاسا لتلك الرغبة بادخال الدول العربية في المخططات الاميركية (لدي ملاحظة هنا : فالعرب بدخولهم هذه المفاوضات خسروا احدى اوراقهم الرابحة . وكان بامكانهم الحصول على تسوية افضل لو انهم صمدوا . وهذا التقييم يرتكز على اساس التوازنات العسكرية والدبلوماسية في هذه الفترة . ولكنهم لم يصمدوا . هذه هي المشكلة وقد بحثت هذه النقطة بالتفصيل في دراسات اخرى) .

لقد ورثت ادارة كارتر سياسة هنري كيسنجر ، ولم تختلف عنها في القضايا الجوهرية . وفي الوقت الحاضر تتسم السياسة الأميركية بالمحافظة على اسرائيل كحليف رئيسي ، وكقوة اقليمية في الوقت نفسه ، الذي تحاول فيه كسب تاييد الحكومات العربية ، وهذه هي دلالة كامب ديفيد . وهناك بعض النقاش في ادارة كارتر ، كما سيستمر النقاش في اي ادارة اخرى حول المواقف الاميركية تجاه اسرائيل .

ومن الخطا ان نميز بين سياسات الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي . فالامبريالية الاميركية كالامبريالية في اي مكان آخر ترتكز على اجماع بين الحزبين او بين ثلاثة او اربعة احزاب في النظام المتعدد الأحزاب . ولذا فانني اتوقع ان توجد الخلافات نفسها في الادارة التالية مهما كانت طبيعتها . اما كيفية انعكاس هذه الخلافات ، فمن المحتمل ان تكون محدودة وصغيرة جداً .

النقطة التي اريد ان اظهرها بسيطة جدا . لقد تعود البعض النظر الى الامبريالية ككيان راكد ، مستقر وثابت ، ولكن الامبريالية ليست راكدة ولا مستقرة ولا ثابتة ، بل تستمر في الوجود عن طريق التكيف مع التغيرات الموضوعية . وهي ان لم تفعل ذلك انهارت ببساطة : فالامبريالية قوة « ديناميكية » وترتبط بخصومها بطريقة « ديناميكية». ولقد نجحت الصهيونية بالحفاظ على صلتها الخاصة مع الامبريالية في حين ان متطلبات الامبريالية هي التي حددت شكل وطبيعة الصلة .

س ــ الا تعتقد ان خروج ايران عن الخطة الاميركية في المنطقة زاد من الاهتمام الاستراتيجي الأميركي باسرائيل ؟خاصة بسبب الطبيعة المختلفة لكل من المجتمعين . ففي ايران ادى التسليح الثقيل لنظام الشاه الى عزله عن الشعب ، وذلك لأن ايران بلد متخلف تكنولوجيا (مثل معظم بلدان العالم الثالث) ، ولا يستطيع تحمل البنية العسكرية المتطورة ، في حين ان اسرائيل حالة مختلفة تماما،فتسليحها وتقويتها وتعزيز وجهها الصهيوني يزيد من متانة العلاقة بين القيادة والشعب ، لانها مجتمع عسكري مما يعني ان معظم مواطنيها يساهمون في العمل العسكري . وهي تستخدم تكنولوجيا متطورة ، غربية في قيمها . الا يعطيها ذلك دورا مميزا في الاستراتيجية ، الأميركية ؟

ج ــ اجل . اعتقد انه يمكن ان نطرح هذه الفرضية : مثلما وضعت حرب اكتوبر (١٩٧٣) الفائدة المستمرة في موضع شك ، ومهدت لظهور نقاش داخل الادارة الاميركية حول كيفية الحد من دور اسرائيل بشكل تدريجي ، فان الاحداث في ايران قد اثرت على هذا النقاش لصالح الفئة التي تريد استمرار اسرائيل كقوة اقليمية ، وكاداة رئيسية للامبريالية ، وذلك للأسباب المذكورة ، فهذه الفئة تعتقد انه لا يمكن ان تبني جيشا قويا وقوات مهيأة للتدخل وللحفاظ على امن المنطقة في مجتمعات متخلفة تكنولوجيا ، لأنها مجتمعات غير مستقرة ، ومن الصعب الاعتماد عليها .

س ــ الا يجعل ذلك إمكانية اعتبار مصر كقاعدة مساوية لاسرائيل في المخطط الاستراتيجي الاميركي امرا مستحيلا ؟

ج ــ بالضبط . ان مصر لا يمكن ان تتوقع الحصول على المكانة الاسرائيلية نفسها في المخططات الاستراتيجة الأميركية . واعتقد ان ثورة ايران قد عززت في بعض النواحي مركز اسرائيل في المنطقة .

س ــ كيف اثر النقاش الذي دار بين فئات مختلفة في الادارة الاميركية ، بعد حرب ١٩٧٣ ، على العلاقة الفعلية بين اسرائيل والولايات المتحدة ؟

ج ـ لقد ازداد حجم المعونة الأميركية لاسرائيل ، ولا اريد تفسير ما قلته على انه يعني انه كان هناك اعادة تقييم لدور اسرائيل . ثمة بعض التساؤل فقط حول ضرورة او عدم ضرورة اعادة تقييم دور اسرائيل في المنطقة . كما كانت هناك ضغوط من اجل اعادة التقييم ، الا انه لم يحدث شيء من هذا القبيل . والقرار الجديد الوحيد الذي يبدو انه اتخذ في هذه الفترة ، هو القرار بضرورة التعامل المباشر مع البلدان العربية .

وكان مخطط روجرز يعكس ايضا هذا الاهتمام بالتعامل مع الدول العربية ، الا ان الخطة اجهضت من قبل راسمي السياسة الاميركية ، مع ان الحكومة المصرية وافقت عليها .

ولم تكن خطة روجرز مختلفة جوهريا عن المبادرات الأميركية التالية المبنية على اساس الاقتراحات الغامضة الناتجة عن دبلوماسية كيسنجر المكوكية .

س ـ ما هو اعتقادك في احتمال عودة الولايات المتحدة الى مبدأ التدخل العسكري المباشر ، كما كان الحال في الستينات ؟

ج ـ انني اتوقع ان تكون السياسة الأميركية في الاعوام العشرة القادمة على هذا النحو : مشوشة ، عدوانية ومتقلبة . وسبب الارتباك والتقلب والعدوانية هو ان الولايات المتحدة ، او على الأقل مؤسساتها الحاكمة ، تشعر بعمق انها تواجه ازمة قوة اساسية .

ان الولايات المتحدة مصرة على البقاء كدولة متفوقة في المرتبة الاولى ، بموارد اقتصادية وعسكرية منخفضة ، ومن دون توفر اجماع وطني داخلي . فالولايات المتحدة بلد كبير جدا ، ومعقد جدا ، ويجب بذل جهود معقدة لدراسته .

هناك عدة عوامل كانت تحدد تفوق الولايات المتحدة ، وتجعلها اقوى دولة في العالم ، في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فمنذ العام ١٩٤٦ الى العام ١٩٦٦ حددت العوامل التالية التفوق الاميركي . اولا : تمتعت الولايات المتحدة في هذه الفترة بتفوق استراتيجي على اي دولة او مجموعة دول في العالم ، اعني بالتفوق الاستراتيجي تفوقا في المجال التكنولوجي (اسلحة نووية ـ طيران ـ فضاء) .

وهذا التفوق الاستراتيجي اعطى الولايات المتحدة القدرة على تامين مظلة امنية لاوروبا الغربية واليابان ، ومن خلال هذه المظلة الامنية استطاعت الولايات المتحدة ، بالتالي ، القيام بدور الشرطي في العالم . وبحلول العالم ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ توصل الاتحاد السوفياتي الى تكافؤ استراتيجي مع الولايات المتحدة ، مما جعل الولايات المتحدة تفقد تفوقها في هذا المجال . ثانيا : كانت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مهيمنة اقتصاديا واستراتيجيا على المراكز الامبريالية السابقة (اوروبا الغربية واليابان) ، وكانت هذه الهيمنة الأميركية واضحة من خلال تواجد القوات الاميركية في اوروبا (ولا تزال هذه القوات متواجدة هناك) ومن خلال استمرار تفوق الدولار كواسطة رئيسية للتبادل النقدي الدولي .

ونرى انه في منتصف الستينات استعاد الاقتصاد الاوروبي قدرته على التنافس مع

الراسمال الأميركي . كما تطور الاقتصاد الياباني الى درجة تسمح له بالتنافس مع الراسمال الاميركي في عدة قطاعات .

وبدات البلدان الاوروبية تظهر استقلاليتها عن الولايات المتحدة ، وافضل مثال على ذلك هو تفجير فرنسا للقنبلة الذرية ، وخروجها عن القيادة العسكرية للحلف الاطلسي . وانخفضت اهمية المظلة الامنية الاميركية في اوروبا بسبب التكافؤ النووي مع الاتحاد السوفياتي . وكل هذه العوامل ادت بالولايات المتحدة الى البحث عن ادوات ضغط جديدة على حلفائها . فوجدت ان الاسلوب الافضل للحفاظ على سيطرتها على حلفائها سيكون من خلال سيطرتها على المناطق الواقعة بين ألبحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي . ذلك لأن اوروبا واليابان ، سوية ، تستوردان حوالي ٨٠٪ الى ٩٠٪ من حاجاتهما للطاقة من منطقة الشرق الاوسط ونحو ٦٠٪ الى ٧٠٪ (في حال اوروبا) من حاجاتها من المعادن من جنوب افريقيا والشرق الاوسط .

وفي الوقت نفسه رات الولايات المتحدة ان سيطرتها على هذه المناطق ستحول دون توسع النفوذ السوفياتي في اهم مناطق العالم . ولهذين السببين شاهدنا في منتصف الستينات (وذلك اثناء الحرب الفيتنامية) انتقال مركزية الصراع من اجل القوة في العالم من منطقة المحيطين الاطلنطي والهادىء الى منطقتي البحر الايض المتوسط والمحيط الهندي .

ثالثا : كانت قدرة الولايات المتحدة على القيام بدور الشرطي في العالم ، وبالتدخل العسكري في عدة مناطق ، من العوامل التي حددت تفوق الولايات المتحدة . وبين العام ١٩٤٨ والعام ١٩٧٠ (او الى العام ١٩٦٨ اذا استثنينا التدخل في كمبوديا ولاوس) تدخلت الولايات المتحدة بقوات عسكرية ، او شبه عسكرية ، بمعدل مرة كل ١٨ شهرا في بلد من بلدان العالم الثالث . وشملت هذه التدخلات غواتيمالا ونيكاراغوا ولبنان وجمهورية الدومينيكان والكونغو وايران الخ ... ان معدل التدخل مرة كل ١٨ شهرا كان يعكس مدى اتساع الامبراطورية ، الاميركية . ولقد اقنعت هذه التدخلات حلفاء واعداء الولايات المتحدة معا بتفوق هذه الدولة ، التي كانت ترتكز في سياستها العسكرية على مبدا مريح نوعا ما ، وهو مبدا « الحروب المحدودة » وكانت هذه الحروب محدودة في نتائجها بالنسبة للدولة المتدخلة ، ولكنها لم تكن محدودة في نتائجها بالنسبة للذين وقع عليهم العدوان . وكانت هذه الحروب تعرف ايضا بالحروب « الخفية » فكانت « خفية » بالنسبة الى شعب الدولة المتدخلة . فمثلا عندما القت الولايات المتحدة ما يوازي ما القي في الحرب العالمية الثانية من اطنان القنابل على لاوس دون ان يعلم الشعب الاميركي بذلك ، كان اللاوسيون يشعرون جيدا بنتائج هذا القصف .

واخر الحروب « الخفية » تشن الآن في جنوب لبنان ، وشرقي تيمور .

من نتائج حرب فيتنام انها دمرت ووضعت موضع الشك التام قدرة اميركا على خوض حروب محدودة في بلدان العالم الثالث وابقائها « خفية » على الجمهور الاميركي . ان الحرب في فيتنام كلفت الولايات المتحدة حوالي ٥٠ الف قتيل و ٢٥٠ الف جريح و ٢٠٠ مليار دولار و ٢٠٠٠ طائرة محطمة . ولكن من اهم نتائجها انها مزقت المجتمع الاميركي ، وكان للحركة المناهضة لحرب فيتنام اثر هائل في ذلك . رابعا : هناك عامل اخر لعب دورا هاما في تحديد القوة الاميركية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، هو وجود اجماع وطني متين لسياسة خارجية عسكرية

نشطة ، وبذلك الاجماع تحطم ايضا بعد الحرب الفيتنامية. ان المؤسسة الحاكمة الاميركية تدرك الآن ان الشعب الاميركي لن يؤيد فيتنام اخرى ، اي انتشار الجنود الاميركيون في اراض غير اميركية .

والنقطة الاساسية التي اود ان اركز عليها هي ان العوامل التي حددت القوة الاميركية ، في الاعوام العشرين الاولى بعد الحرب العالمية الثانية ، بدات تزول في منتصف الستينات ، وأدى ذلك بالادارة الاميركية الى البحث عن اساليب جديدة للبقاء كقوة متفوقة ، ولكن بتكاليف مخفضة ، وبتواجد عسكري محدود في العالم .

وبدات الاستراتيجية الجديدة تتطور في ادارة جونسون ، واصبحت واضحة المعالم في ظل ادارة كيسنجر . وشملت الخطوط التالية :

اولا : من اجل التغلب على ضعفها الاستراتيجي غيرت الولايات المتحدة المبادىء الاساسية في استراتيجيتها النووية ، فبدلت مبدأ الردع النووي الشـــامــل بمبدأ « خيارات الاهداف المرنة » الذي يعني انخفاض مستوى استعمال الاسلحة النووية ، واحتمال خوض حرب نووية محدودة مع الاتحاد السوفياتي .

ثانيا : انطوت الاستراتيجية الجديدة على تخفيض حجم القوات الاميركية ، ولكن مع زيادة قدرتها على الحركة ، بحيث اصبح الجيش الاميركي اصغر حجما واكثر حركة ، وازدادت قدرته على التدخل ، بينما انخفضت حاجاته لقواعد عسكرية . ولذا سمي « جيش الحركة الجديدة » فهو مدعوم من الجو ، وقادر على الهجوم السريع والانسحاب الفوري . فاذا اضطرت الولايات المتحدة للتدخل سيكون ذلك لفترة قصيرة ، تهجم ثم تنسحب .

ثالثا : وجه آخر من الاستراتيجية الجديدة هو المبدأ المذكور سابقا ، اي مبدأ نيكسون الذي يهدف الى انشاء قوى اقليمية رئيسية مدعومة بقوى ثانوية . مثلا البرازيل في اميركا اللاتينية كقوة رئيسية مدعومة بالتشيلي والارجنتين وبوليفيا ونيكاراغوا . واندونيسيا في جنوب شرق اسيا مدعومة بتايلاند والفيليبين الخ ... ثم ايران على الجانب الشرقي واسرائيل على الجانب الغربي في منطقتي البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي ، اللتين احتوتا على اكبر تجمع من القواعد في العالم .

رابعا : قامت المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة بمحاولات غير اعتيادية لخلق اجماع وطني جديد حول سياستها الخارجية . وكان السؤال المطروح عليها هو : كيف يمكنها ان تخلق أجماعا بين شعب يميل الى الاعتقاد بان له قيما اخلاقية وليبرالية .

ان الاجماع الامبريالي تطلب دائما « شبحا » و « رسالة ». فالبريطانيون كانت لهم رسالتهم في « عبء الرجل الأبيض » والفرنسيون في « رسالتهم التمدينية » والاميركيون بالطبع « وقفوا حراسا على اسوار الحرية في العالم » (قول ج . ف . كندي) ، وكان لكل منهم خطر « اسود » و « اصفر » وفي حال الاميركيين خطر « احمر » ، يهدد المدنية الغربية .

وجاءت الحرب الفيتنامية ، اضافة الى الانقسام الداخلي في الكتلة الاشتراكية ، فحطمت الخطر « الاحمر » وتفتت الاجماع واختفى الشبح ، واصبحت الرسالة ايضا موضع شـك .

واثبت الواقع انه لا يمكن ان تستمر الولايات المتحدة ببناء قواعد عسكرية متطورة (مثل اسرائيل وايران) ، ومجالس عسكرية حاكمة (كما كان الحال في اليونان) ، وانظمة فاشية (كما كان الحال في البرتغال) مع الاحتفاظ باسطورة « الحارس على اسوار الحرية في العالم » ، فبذلت المؤسسة الحاكمة جهودا واضحة لايجاد « رسالات » جديدة ، و « اشباحا » جديدة ، تسمح لها باكتساب الدعم الشعبي الاميركي .

وكان نيكسون وكيسنجر لامعين في استعمال اللهجة الخطابية وشعارات الحركة المناهضة للحرب الفيتنامية . وادى بهما البحث الأول عن رسالة ، الى تبني رسالة « السلام » فتحدثوا عن « جيل سلام » و « بنية سلام » و « سلام قريب » و « سلام على راس القلم » و « سلام امام الاهرام » و « سلام على قناة السويس » ... سلام في كل مكان .

ثم جاء كارتر حاملا معه رسالة « حقوق الانسان » ، وكان ذلك اخر جهد مبذول للعثور على رسالة جديدة والمشكلة نفسها تنطبق على الاشباح : فالاتحاد السوفياتي هو الشبح الدائم ، وتتم تجربة بضعة اشباح اخرى من حين لآخر : شيوخ النفط وهميون يخنقون المدنية الغربية ، و « اوبيك » هي شبح محتمل من وقت لآخر .

إن النقطة الرئيسية بسيطة جدا . وهي ان الولايات المتحدة بلد يعاني في الوقت الحاضر من ازمة قوة ، وعدم رغبة بالاعتراف بالتغير الطارىء على العالم منذ الحرب العالمية الثانية ، وينظر الى الشرق الاوسط وجنوب افريقيا كمناطق نفوذ رئيسية في محاولة لاستعادة قوته المتناقصة ، وتتحدى الولايات المتحدة في هذه المحاولة القوى التالية .

اولا : الاتحاد السوفياتي : باعتباره القوة الرئيسية التي لها مصالح مختلفة عن مصالح الولايات المتحدة . وتحديه للولايات المتحدة ليس مغامرة ولكنه تحد ، وعلى حركات التحرر ان تحلل باي طريقة يمكنها ان تستغل التحدي السوفياتي الأميركي لصالحها . ومن الجنون عدم استعمال هذا التناقض . وقد اسقط السادات ورقة هامة من بين يديه عندما اخرج الاتحاد السوفياتي .

ثانيا : تشكل بلدان اوروبا الغربية واليابان تحديا آخر للولايات المتحدة ، فلا تنسجم مصالحهم مع مصالح الولايات المتحدة . ويجب على الدول العربية وعلى منظمة التحرير الفلسطينية ان تحلل باستمرار التناقضات الثلاثية وتستغلها ، لان مصلحتها تقتضي التنويع في العلاقات مع مراكز الامبريالية .

س ـ ماهي الأهمية التي تعطيها لهذه الاختلافات في المصالح بين الولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى ؟ والى اي مدى تستطيع اوروبا الغربية ان تنحرف عن الاستراتيجية الاميركية في الشرق الاوسط ؟

ج ـ هناك حدود لامكانيات اوروبا في الخروج عن الاستراتيجية الاميركية ، ولا بد ان نعرف دائما ان هناك حدودا . ولكنني اعتقد ان الدول العربية ، التي تتعامل مع الدول الاوروبية ، لها القدرة في التاثير على هذه الحدود . وطالما استمرت الدول العربية باعتبار الولايات المتحدة كمركز للقوة في العالم ، سيؤدي ذلك الى تعزيز قوة الولايات المتحدة كمركز . واذا ارادت البلدان

العربية تغيير هذا الوضع فعليها ان تعامل العملة الاوروبية بمثل معاملتها للدولار الاميركي .

سيكون ذلك مربحا للاقتصاد العربي من جهة ، وسيؤدي من جهة اخرى الى تغيير طبيعة العلاقات بين اوروبا والولايات المتحدة ، وسيعطي اوروبا واليابان وسيلة للضغط من شانها ان تغير من ميزان القوى ، حتى لو استمرت الولايات المتحدة في تفوقها النسبي .

يملك العرب في الوقت الحاضر شيئين :

١ ـ اهم مواد خام تحتاجها اوروبا واليابان .

٢ ـ اكبر قدر من العملة الفائضة .

واستعمال هذين العاملين الاقتصاديين قد يغيران طبيعة ميزان القوى الحالي . ومن الخطأ الظن بأنه لا يمكن تغيير مركزية الهيمنة الأميركية ، بل يمكن تغييرها من خلال المقاومة الشعبية ومن خلال استخدام تناقضاتها الداخلية .

ومن المهم النظر في ظروف الشعب الاميركي في الوقت الحاضر ، فلا يعلم الا الله اين سيذهب هذا الشعب في الاعوام العشرة القادمة . فقد يلح على حكومته القيام ببعض التغييرات ، ويتحدى بالتالي طبيعة الامبريالية . فانه شعب لم يمارس الا النجاح في تاريخه . والهزيمة الفيتنامية هي الصدمة الاولى التي واجهته . فكل الشعب الاميركي شعر بالهزيمة الفيتنامية وقد اثر ذلك على الوعي الاميركي وعلى نظرة الولايات المتحدة لنفسها .

ثانيا : انه شعب عاش عملية ارتقاء اقتصادي متواصل (مع فترة انقطاع قصيرة جدا من الكساد الاقتصادي) ولذلك تعتبر فترة الكساد الاقتصادي حدثا بارزا جدا في تاريخ الشعب الاميركي . وقد تحسنت اوضاع الشعب الاميركي بسرعة هائلة بعد الحرب العالمية الثانية وخلال عشرين عاما ارتفع دخل العائلة الاميركية ضعفين او ثلاثة اضعاف ، واصبح لكل فرد سيارة وللاكثرية منازل خاصة . وفي نفس الفترة اتسع نفوذ الولايات المتحدة على الصعيد العالمي .

واليوم ، انتهت عملية الارتقاء ويجد الشعب الاميركي صعوبة في الحفاظ على ما اكتسبه ، فهو يواجه ازمة اقتصادية خطيرة ، وقد بدات الاحوال الاقتصادية تزداد سوءا في السنوات الستة او السبعة الأخيرة .

س ـ كيف تعتقد انهم سيواجهون تلك الازمة ؟

ج ـ كأي شعب يواجه ازمة اقتصادية في اي مكان اخر ، اي انهم قد يصبحون اكثر راديكالية .

س ـ او اكثر عدوانية ؟

ج ـ قد تصبح الحكومة اكثر عدوانية ، بينما يصبح الشعب اكثر راديكالية .

س ـ وهل يمكن ان تؤدي هذه الازمة الى نمو اتجاهات فاشية في الولايات المتحدة ؟

ج ـ قد تنمو هذه الاتجاهات ولكن قد تنمو اتجاهات ثورية واشتراكية في نفس الوقت . فمواجهة اي ازمة قد تؤدي بشعب الى اتجاهات اكثر عدوانية او اكثر مسالمة ، الى اتجاهات

توسعية او انعزالية ، ولذلك فان دراسة وضع الشعب الاميركي عامل مهم جدا . وعلى اي حركة او جماعة ثورية ان تقيم علاقات مع القوى الاكثر تقدمية في المجتمعات الاخرى .

س ــ ما هو مدى اهمية « ازمة الطاقة » ؟

ج ــ ان ازمة الطاقة امر واقع،وهي في الولايات المتحدة اقل الحاحا من اوروبا واليابان . اذ ان الولايات المتحدة هي نفسها منتجة رئيسية للنفط . وهذه الأزمة ليس لها اي صلة بامدادات النفط العربي ، التي تزداد بشكل متواصل (البلدان المنتجة زادت من امداداتها للنفط). فالأزمة متعلقة بتبذير المستهلكين الغربيين بشكل عام والأميركيين بشكل خاص ، ويمكنهم ، اذا ارادوا تخفيض نسبة استهلاكهم . ولكن الحكام لا يجرؤون على تطبيق الاجراءات المطلوبة .

س ــ يبدو لي ان هناك علاقة وطيدة بين تدفق الاسلحة من الغرب الى العالم العربي وتدفق النفط من العالم العربي الى الغرب . ان الازمة الوحيدة التي نسمع عنها هي « ازمة الطاقة » بينما تواجه الولايات المتحدة ازمة اخرى في الواقع يمكن تعريفها « بازمة الصادرات » وقد انخفضت صادراتها في عدة مجالات بينما تشكل الاسلحة نسبة كبيرة من الصادرات .

ج ــ النقطة الاولى التي يجب ان نذكرها هي ان نسبة مبيعات الاسلحة الاميركية الى العالم الثالث ارتفعت في الاعوام العشرة الاخيرة ، (اي بين ١٩٦٩ و ١٩٧٩) . ويبلغ معدل الزيادة قمته بين عام ١٩٧٤ وعام ١٩٧٩ ، وارتفع المعدل السنوي من حوالي مليباري دولار الى ١٣ مليار دولار . هذا بالنسبة للولايات المتحدة وحدها . واذا اضفنا بريطانيا وفرنسا لوجدنا انها تجارة رهيبة .

النقطة الثانية هي ان هذه التجارة تركز مبيعاتها على الشرق الاوسط . ايران كانت اكبر مستورد . والآن تزداد مبيعات الاسلحة لبلدان مثل المملكة العربية السعودية ، كما تصدر الدول الغربية حجما كبيرا من المواد الاستهلاكية الى الشرق الاوسط (الذي تحولت مجتمعاته الى مجتمعات استهلاكية بينما بقي النشاط الانتاجي منخفضا) .

وهذه التجارة (اسلحة ومواد استهلاكية) هي اسلوب ملائم لهم لاستعادة (البترو دولارات) وبالفعل يتم استرجاع ما يدفعونه لشراء النفط . (ويزعمون في الوقت نفسه انهم يدفعون اسعارا عالية) .

والنقطة الثالثة هي ان الاسلحة التي تستوردها بعض البلدان العربية والتي كانت تستوردها ايران ، تتميز بثلاث صفات :

اولا : انها تتطلب في معظم الأحيان وجود خبراء اجانب (تابعين للدولة المصدرة) لبناء البنية التحتية ولصيانة الاسلحة المتطورة . ووجود الخبراء الاجانب هو اسلوب للتدخل العسكري المموه في تلك البلدان .ففي ايران مثلا كان يتواجد ٤٥ الف اميركي ، ١٥ الف من بينهم تابعون لوزارة الدفاع ــ ونجد نفس الظاهرة في المملكة العربية السعودية .

ثانيا : ان معظم هذه الاسلحة غير صالحة للدفاع ولا للهجوم ، وهي باهظة الثمن وصعبة الاستعمال ، ولا يمكن الحصول على قطع غيار لها الا من الدولة المصدرة . وللدولة المصدرة القدرة على منع الدولة المشترية من خوض اي حروب (هجومية او دفاعية) . فالاسلحة تبقى تحت اشراف الدولة المصدرة وخبرائها . وهذا الاسلوب يزيد من تبعية الدولة المشترية بدون ان يزيد من قدراتها العسكرية .

ثالثا : تبدو هذه الاسلحة وكانها مصممة للربح . ويبدو ان كثيرا من الحكومات العربية تستشير خبراء عسكريين غربيين فينصحونها بشراء اسلحة باهظة الثمن ، لأن هؤلاء الخبراء مرتبطون بالشركات الغربية ، ويحصلون على حصص اكبر كلما ارتفع ثمن الاسلحة المباعة وازدادت كميتها . اذن تتميز هذه الاسلحة بسعرها الباهظ اكثر مما تتميز بفعاليتها . لقد زرت لبنان ولا استطيع ان افهم عدة امور . فلا افهم كيف يشتري العالم العربي اسلحة بمليارات الدولارات بينما تستطيع السفن الاسرائيلية ان تعبر المياه اللبنانية وتستطيع الطائرات الاسرائيلية التحليق في الأجواء العربية بدون اي عقاب . انني اتساءل اين هذه الاسلحة ؟

س ــ هل هناك احتمال حدوث تدخل عسكري اميركي مباشر في الشرق الاوسط في المستقبل القريب ؟

ج ــ تعلمون جميعا ان الاستعدادات للتدخل قد ازدادت . فالجيش الاميركي كما ذكرت سابقا هو جيش تدخل سريع وانسحاب سريع . وبعد ثورة ايران ادرك الاميركيون امكانية سقوط انظمة اخرى في المنطقة - في المملكة العربية السعودية او في الكويت . هذه احتمالات قد تدفع بهم الى التدخل . والاستعدادات العسكرية تشمل انشاء اسطول خامس وتوسيع القاعدة الاميركية في دييغو غارسيا وتاسيس قواعد عسكرية وبحرية في اسرائيل ومصر (قواعد صغيرة ولكنها تصلح لخدمة سفنها البحرية) . ومن المرجح ان تشمل استعداداتهم محاولات تخريب في بعض البلدان العربية .

اعتقد انهم لن يتدخلوا مباشرة الا عند حدوث انقلاب عسكري او ثورة تهدد مصالح الولايات المتحدة وعلاقاتها في المنطقة .

وعلى الدول المنتجة للنفط (وهي المعرضة للتدخل) ان كان لها مصلحة في منع الاحتلال الاجنبي ، ان تتخذ بعض الاجراءات :

اولا : تخفيض نفقاتها العسكرية ، وشراء اسلحة قابلة للاستعمال ، خاصة للدفاع تستطيع ان تعترض السفن البحرية وتعرقل اي انزال اجنبي .

ثانيا : يجب ان تكون هذه الدول على استعداد كامل لتفجير انابيبها ومنشاتها النفطية ، ويجب ان تعلم الطرف المهاجم بهذا الاستعداد .

ثالثا : على الدول النفطية ان تنوع علاقاتها في التسويق والانتاج لان المعارضة الدولية للتدخل العسكري قد تزداد ، ان كان للدولة المنتجة علاقات مستقلة مع عدد مختلف من الدول .

(اجرت الحوار : نهى نادرس)

محي الـــدين صبحي .

حول المجموعة الشعريـة الكامـلة لمعين بسيسو
شعـــر الحقيقـة في عصر السقوط

هذا الديوان ، بالتأكيد ، لا يمثل التقليد المتوارث في الشعر العربي منذ زهير بن ابي سلمى (توفي حوالي ٥٥٥ م) الى أدونيس .

فالتقليد يفرض على الشاعر ان يحك شعره وينقي الفاظه ويصقل ديباجته ويكثف فكرته ويتخير استعارته ، حتى تأتي القصيدة مفرغة ملساء لا وهي في مبانيها ولا نقض في معانيها . كان الشاعر الجاهلي يمضي حولا كاملا في نحت قصيدته وتشذيبها ، وليس الشاعر العربي المعاصر بأقل عناية من سلفه . فالعرب امة الشعر . ولا ريب في أن الشعراء العرب يحبون شعرهم الى حد العبادة لكي يبذلوا كل هذا الجهد طواعية وعن طيب خاطر ، لمدة تزيد على ألف وخمسمائة عام من الشعر العربي المعروف لدينا ، ولا ريب في أن البدايات الاولى لهذا التقليد تضرب في مجاهل تاريخ سحيق يرتبط بشعائر دينية غامضة ، من بينها ان القصائد الجياد كانت تعلق في الكعبة حيث تقوم اصنام العرب وعباداتهم الوثنية .

ولد هذا التقليد في مضارب القبيلة حيث كان الشاعر يقوم بدور المتنبىء والمرشد والمربي في داخل القبيلة وبين ابنائها ، أما فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية بين القبيلة وغيرها من القبائل فكان دور الشاعر اشبه بدور اجهزة الاعلام الحديثة في فترة الحرب الباردة : كان الشاعر يشيد بمفاخر قبيلته ومآثرها ، فيعدد انتصاراتها وبنوه بكثرة عدد افرادها وشجاعتهم وكرمهم ، ليثني الخصوم عن الاعتداء عليها اذا لمسوا منها غرة او آنسوا تهاونا في استعدادها للدفاع عن املاكها ــ وفي حالات اخرى تكون قبيلة الشاعر هي المعتدية فيصبح افتخار الشاعر بقوتها وسيلة فعالة لصرف الخصوم عن اعمال انتقامية .

كان الشاعر العربي اذن فردا ملتزما بالقبيلة ومتميزا عنها في الوقت ذاته . ولكن ، كما ان لكل حالة استثناء ، فاننا نجد في تضامن الافراد مع القبيلة حالات استثنائية يخرج فيها الشعراء عن قبائلهم . فالشاعر الشنفرى (٥٠٠ م) قرر أن يترك قبيلته لاسباب لا نعرفها تماما ، لكنه نظم في هذا الموضوع قصيدة عرفت فيما بعد باسم « لامية العرب » وفيها يسجل شرعة الشعراء الذين يغادرون قبائلهم الى الصحراء ، والذين عرفوا باسم « الصعاليك » .

ان الشاعر الفلسطيني ـ معين بسيسو ـ يمكن ان يندرج في زمرة الشعراء الصعاليك الذين خرجوا على تقاليد قبيلتهم في الحياتين الاجتماعية والثقافية على حد سواء ، وهو في ذلك بدع بين الشعراء الفلسطينيين والعرب الذين ظلوا ، بالرغم من نكبتهم بوطنهم ، اوفياء للتقاليد الشعرية الاصيلة في الادب العربي .

اما معين بسيسو فقد انشق عن المؤسسة الشعرية وانضم الى زمرة قليلة من الشعراء الخارجين على القانون ـ الشعراء القراصنة الذين لا يتفقون مع مجتمعهم ، ولا يمتثلون للاعراف الشعرية ، يفضلون على جدار الكعبة حيث كانت المعلقات ، جريدة حائط . وكل ما لديهم نقمة على الواقع تمنحهم الشجاعة على مجابهة مجتمعهم بمثالبه ، وانتقاد عصرهم بمعايبه دون مهادنة .

عصر الكلاب

يقول شاعرنا عن بني قومه وحاله معهم :

نصبوا لي شمعة تحرسني
ومشوا في ضوئها ، وارتحلوا
فاذا دق بصدري نفس
قرعوا اجراسهم ، واعتزلوا ...

يعود تاريخ هذه الابيات الى عام ١٩٥٠ ، حين نشر ديوانه الاول . فالشمعة التي انارها اهله انما نصبوها لينيروا طريقهم حين يغادرونه . هذا المشهد بعناصره المؤلفة من الشاعر المخذول ، والاهل الغادرين ، والاجراس المجلجلة التي تعلن عن عمل لا يقوم به أحد ـ يستمر في شعر معين بسيسو لثلاثين عاما قادمة . فنقرأ من ديوان « فلسطين في القلب » عام ١٩٦٣ :

صمتا ، صمتا ، يا حملة أبواق
الخفاش الخشبي ،
يا آكلة قربان العجل الذهبي

هؤلاء ينقلبون الى اجراء في عام ١٩٦٦ :

قد باع غزة قبل أسدود
الاجير الى الاجير

والتجسيد الاخير لهذه الحالة يأتي في معركة « تل الزعتر » . وهو معقل للفدائيين الفلسطينيين في بيروت قاوم هجمات اليمينيين عدة شهور ، ثم سقط نتيجة مساومة بين قوى تكاتفت ضد الفدائيين عام ١٩٧٦ :

ما الذي يكتبه الشاعر في الارض الخراب

آه يا عصر الكلاب

كلما تحبل كفي بمناديل التراب

الجواسيس الكبار

سلموني للجواسيس الصغار

يا دمي المفتوح كالشباك في كل جدار .

« عصر الكلاب » اذن ، هو العصر الذي يتسلم فيه المساومون زمام السلطة ، فيقررون مصائر شعوبهم بعد أن يقمعوها بواسطة عملاء مأجورين :

لم تكن الاشجار في قاموسه ،

ولا الزهور

ولم تكن هناك في قاموسه طيور

فكل ما يعرفه ، ما علموه

ان يقتل الطيور أولا ،

فقتل الطيور .

أن يكره القمر

فكره القمر

وأن يكون قلبه حجر

فكان قلبه حجر

وأن يصيح :

« عاش اي شيء » .

« يسقط اي شيء »

« يموت اي شيء »

هذا الرجل المنزوع القلب والدماغ قادر على مطاردة النطفة في الرحم وزرع آلة تسجيل مكان القلب ، بل ان الشاعر ، في قصيدة « المطاردة » عام ١٩٧٠ ، يرسم صورة رائعة بقدر ما هي مريعة لجواسيس يتعقبون جواسيس ، وللظل يتعقب صاحبه ، ثم تغدو جوارح الانسان واعضاؤه جواسيس عليه :

.... والاذنان هما العينان على العينين

والعينان هما الاذنان على الاذنين

والقلب هو الاذن هو العين .

بعد الجواسيس ، يأتي دور المرتدين والبهلوانات من واضعي الاقنعة المزيفة :

أعترف ....

بأن وجهي الجديد كان من خزف

وحينما سقطت فوق الأرض

وجهي انكسر

عصر الكلاب هو عصر التعهير والتلوث . فأميرة الاحلام ، شهرزاد ، قد أصبحت مومسا في اسرة القواد والجنود :

تقول :

انها قد حملت على محفه

لخيمة الاسكندر المقدوني

وبعدها قد وهبت الى ملك

ثم الى أمير

ودارت دورة السرير

فحملت الى وزير

والقيت من بعده لآمر الجنود

ضاجعها ... ضاجعها ... ضاجعها

ثم رمى بها العسس

ثم الى العسس

ثم الى العسس

وهو عصر التزييف

فالكلب يدخن غليونا ...

هل هذا هو دور الكلب ؟

والذئب يؤلف موسيقى

هل هذا هو دور الذئب ؟

والفيل يهز البطن

هل هذا هو دور الفيل ؟

والذئب بمخلبه يبصم

هل هذا هو دوره ؟

تلك هي ملاحظات « الدب مراد » الذي قتل صاحبه بناء على طلب الحيوانات في السيرك ، التي نقمت على صاحب السيرك لانه أساء توزيع الادوار . وهي ايضا ملاحظات الاسد الذي تعرض لعملية تدجين ، حين خدروه وقطعوا حنجرته وبسوا في مكانها تسجيلا لصهيل جواد .

لقد ذكر معين بسيسو الجرس في القصيدة الاولى التي افتتحنا بها التعريف بعصر الكلاب . والجرس يقرع للانذار في العادة ، لكن قوم معين بسيسو يكتفون بقرع الجرس ولا يتلون الانذار بأي استعداد للحرب . وشيئا فشيئا يتبلور الجرس والطبل والطاحون رمزا لجعجعة بلا طحن . فنجد الشاعر يمجد « الذين يقاتلون ولا يعلقون الاجراس في جراحهم » ، كما يدعو الى مغادرة « جزيرة الشعارات القديمة » . ونرى الشاعر يقف أمام الطواحين التي عاشت :

على قمحك اجيالا طويلة

أطعمت كل جراد الارض

لم تعطك مثقال فتيله

الطاحونة والجرس ، يقعقعان بلا جدوى ، فيجدان تجسيدهما في الطبل . يقول الأسد في قصيدة « دفاع الاسد عنترة » ١٩٧٠ :

اكره صوت الطبل ولا حرب

ويتساءل الشاعر في « طيور المنافي » ١٩٦٩ :

أكل بطون الحبالى طبول ؟

تدق فلا صيحة أو نشيد

لميلاد طفل جديد

ثم يصل رمز الطبل الى تكثيفه الاقصى في قصيدة « الطبل » ١٩٦٩ ليصبح رمزا للمرحلة بعد هزيمة حزيران . وهكذا القول ان المساومة والجعجعة أهم ما يميز قوم الشاعر في هذه المرحلة . وهما ممثلتان في « الطبل » و« الى سائحه » ، بالاضافة الى فساد الضمير المجسد تمام التجسيد في قصيدتي « أ ، ب » ١٩٦٩ و« مقامه الى بديع الزمان الهمذاني » ١٩٦٦ . وسوف نتوقف عند هذه القصائد واشباهها لابراز اهم الخصائص التي تميز اسلوب الشاعر .

الاسلوب الخشن في قول الحقيقة

الاسلوب الادبي نوعان : مصقول وغير مصقول . ولمصطلح الاسلوب غير المصقول معنيان ، أولهما ما يتبادر الى الذهن من انه اسلوب غير محكم ولا منسق . المعنى الثاني هو

الاهم من الناحية النقدية ، فهو يحمل معنى « الاسلوب الخشن » أو الفج . فقد يكون جمال الرخام الصلد والبشرة الجذابة في ملامستهما ونعومة ملمسها . ولكن من قال ان السطوح الخشنة ، القاسية ، المتعرجة لا تحمل الينا احساسا بالجمال يعادل احساسنا بالملاسة والزلق ، وان كان يختلف عنه كليا ؟ ومن قال ان جهامة الجبل الشاهق المتكسر الصخور ، والبشرة المجعدة الملآى بالغضون ، والقصر الانيق المتهدم المتناثر الاجزاء ، لا يبث في النفس من الروعة ما يعادل جمال القطة الاليفة بالنسبة للسبع الضاري . فاذا كان للاسلوب المصقول تأثير الدعة فان للاسلوب الخشن تأثير الروعة — وهنا أنبه على سبيل الاحتياط — بأنني لا أعني بالاسلوب الخشن « UNCOUTH - STYLE » مقولة لونجينوس ، ومن بعده « كانت » في « السامي » « SUBLIME » ، وان كان الاسلوب الخشن يتصل بمفهوم الروعة « SUBLEMITY » عند « كانت » من حيث المظهر وليس من حيث التأثير . كذلك يختلف الاسلوب الخشن عن مفهوم جمال القبح كما قدمته الواقعية الطبيعية وبعض الرومانتيين قبلهم ، وان كان يتصل به أيضا من حيث الحرص على تقديم الواقع بفجاجته وبدون تزويق :

« لا فائدة الآن من الاحتجاج على أسنان الآلة الكاتبة أيها الحوت . كل هذه النخلة من الماء المسنون — هذه القامة الطويلة من الشبابيك — هذا القطار الذي كان يحمل جرائد الصباح وفنجان القهوة الى السفن — ها أنت الآن رسالة في زجاجة — ترفعها الصنارة من الماء الى أسنان المطبعة ... »

هذه هي السطور الاولى من المقدمة . كل شيء في هذا النص مدبب حاد ، متحرك ، متنافر لكنه متواصل في النهاية . انه اسلوب يقاوم مواضعات الحياة المألوفة ، يقاوم الدعة والاستسلام ، يتمرد ، يتشدد ثم يتمدد فينجر الى الواقع غصبا عنه . الاسلوب هنا جزء من الموقف : لا ينقله ولا يحاكيه ولا يوشيه ولا يتعالى عليه — الاسلوب موقف . فمثلما يتأبى الشاعر على الواقع ويستنكر ان يساق شعره الى المطبعة ، كذلك الاسلوب يقاوم ويصارع . لقد أحسن الشاعر صنعا في وضع هذه المقدمة النثرية ، فهي مدخل يهيء القارىء لملاقاة الشعر . فهذا الشعر غريب عن الجو المألوف والعرف الادبي السائد الذي يندرج فيه الشعر العربي بأكمله ، لا يشذ عنه الا هذا الديوان وقصائد أخرى لا تبلغ الى حجمه في الشعر العربي كله . ولعل الاسلوب الخشن في شعر معين بسيسو يقدم أفضل نموذج معروف في العربية لهذا الضرب من الكتابه ، في شعره ونثره على السواء . وأبرز خصائصه ان الصورة الخشنة تواكب اللفظ الخشن على نحو غير متوقع ولا مألوف ولا — حتى — مرغوب لان الاسلوب تصادمي . فهو لا يصادم الواقع ، بل ينقله بخبث وفجاجة ، على نحو يصدم ذوقنا ، يخدش حياءنا ، يعرينا أمام انفسنا . انه اسلوب مهين أكثر من الاسلوب الهجائي . لان شاعر الهجاء يضع نفسه موضع السارد ، المحايد ، المنتقد للآخرين ، فيما هو منزه عن عيوبهم . اما معين بسيسو فيقدم الشاعر والقارىء والعالم معا في نسق واحد وسياق واحد . فشعره صورة ابداعية مباشرة بشعة لحقيقة بشعة وواقع حقير ومعالجات فاشلة تافهة . انه شعر الحقيقة :

الارض ضاعت ،

لم يعد لنا في وتد لجام

والسيف ضاع لم تعد لنا طاحونة

ولا برج من ألحمام

لم يبق غير هذا الطبل

اوصيكم بالطبل اولا ،

وثانيا بالطبل ...

وثالثا بالطبل ...

وألف مرة اوصيكم بالطبل .

فالشاعر لا يكتفي بتقرير الحقيقة المرة بأن الارض ضاعت والمعركة خاسرة بعد هزيمة حزيران ، وانما يصل بالواقع الى اقصى حدوده . فما دام الواقع على هذه الدرجة من الانهيار ، دون ان يجرؤ احد على الاقرار بذلك فلا يبقى سوى الاستمرار في الجعجعة الفارغة ... وهنا يتطوع الشاعر فيقدم للمجتمع المهزوم نصيحته باستخدام الطبل والمحافظة عليه .

اما التقنية في قصيدة « الى سائحة » فأكثر تعقيدا . ان الشاعر لا يكتفي بتشجيع اللعبة الفاسدة ، بل ينكر تاريخها وينغمس في تفصيلاتها أو يغمرنا بتلك التفصيلات وهي في حالة الجريان :

معذرة سيدتي ان جئت الينا في يوم

تقطع فيه أيدي الشعراء

ماذا في الشرق يباع

بعنا لعجوز سائحة قبلك قبر صلاح الدين

وحطين

وحدائق بابل بعناها في أسواق العالم

أزهارا وبراعم

فالبيع هنا يشمل التاريخ ومفاخر الاجداد في انتصاراتهم وابداعاتهم . والشاعر مولع في الظهور بمظهر المغفل المندمج في اللعبة . لذلك يوردها بلا تعليق فيفسح المجال لتعليقات لا تنتهي في نفس القارىء .

يقول في قصيدة « أ ــ ب » :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا

متى اضع العمامة تعرفوني

زوبعة هبت وطارت العمامة

وصاح لاعقو حوافر الجواد

لم تكن سوى حمامه

طارت ، وصاح آخرون :

بل غمامه ....

اما الذي رأى فوق الذي رأوا ، فصاح :

لم تكن سوى علامة

وبعدها القيامة

لكنها هناك كانت العمامة

في سلة القمامه .

اما قصيدة « مقامة الى بديع الزمان » فهي صارخة الى حد الجمال الصارخ . انها حكاية فتوى يقدمها الفقيه الوأواء للسلطان الذي ضل طريقه الى مخدع جاريته ، وحين افاق وجد نفسه الى جانب غلامه ، يقول الفقيه :

ليس على مولانا السلطان جناح

فالقسمة غلبت ، والعبرة في النية .

لا اين تسير القدمان ...

شعراء عصر الكلاب

اذا كان الاسلوب ـ في طريقة معين بسيسو ـ هو الموقف ، فان الشعر هو الحقيقة . وبالتالي فان مسؤولية الشاعر ، والفنان عموما ، هي مسؤولية تجاه الحقيقة بالذات . فهو شاهد محايد تجاه العصر، يروى ما حدث بأمانة ، وبأقل الالفاظ توشية او تزويقا او تعمية . فلا يحق للشاهد ان يخفي مقاصده او يبهرج مشاهداته ، أو أن يزيد او ينقص او يقدم او يؤخر الا فيما يجلو غايته من ذكر الحقيقة وتقديمها ناصعة لا لبس فيها ولا التواء . لذلك كان افضل مجال لدراسة أسلوب معين بسيسو ، واستخراج مفهومه عن الاسلوب ، موجودا في قصائده عن الشعر والشعراء ، وتظهر أهمية هذا الجانب في عقيدته الشعرية اذا لاحظنا ان ما يقرب من ثلث قصائد الديوان تتحدث عن أحوال الشعراء ومواقفهم او تحادثهم وتجادل طرائقهم الخاطئة في قول الحقيقة . وبذلك فان معين بسيسو لا يكتفي باتباع نهج شعري خاص يقصر الشعر على قول الحقيقة ، وانما ينتقد الشعراء الذين يخالفونه انتقادا مرا قد يبلغ حد السخرية حينا والهجاء في حين اخر . فهو داعية مجتهد ومقاتل منذ نعومة أظفاره الشعرية . فنراه في ديوانه الثاني (المعركة) عام ١٩٥٢ لا يكتفي بالحديث عن معركة غزة ضد القمع والاحتلال ؟ بل يتحدث مرات عديدة عن معركة الشعر في غزة :

أقرأت أم ما زلت بكاء على الوطن المضاع ؟

أنشد أناشيد الكفاح وسر بقافلة الجياع

وفي مرة اخرى يكتشف مبكرا انه يؤدي رسالته الشعرية في قوله للحقيقة . ولكن هذه مهمة بعيدة عن السهولة :

انني اكتب الحقيقة لكن
ثورة الحق في بلادي كفر

قلمي في الحديد وفي ظلمة السجن ، طريح مكبل لا يصر ....

في عام ١٩٦٣ نقرا في ديوان « فلسطين في القلب » أولى معاركه الدعاوية مع الشعراء . « فالشاعر الذي مضى كغيمة وغاب ثم عاد » ، يشبه ان يكون طائرا من رماد يطعم الفراش للجراد ، والدر للخنزير والورود للكلاب » . اما « القمر ذو الوجوه السبعة » فقصيدة تتحدث عن تقلب الشاعر بحسب مصالحه :

رايته في كربلاء ، تحت راية الحسين

صهيل سيفه قصيدة منقوشة

في مدح قاتل الحسين

هذه الصورة للشاعر المتذبذب تتكرر في « قصيدة من فصل واحد » :

كان يصلي دائما خلف علي

ويسأل الطعام من يدي معاويه

خلف علي ، الصلاة مجزيه

صلوا وراءه وبعدها

خذوا الطعام والشراب من يدي معاويه

طريقة ظريفة للجمع بين الدين والدنيا ... وبقية القصيدة تظهر كيف ان هذه المداجاة أوصلتنا الى عصر الموافقة بالاجماع والهزائم المتتالية ، حيث « الرعب والكذب قد سكرا من الطرب » ، كما يقول الشاعر في « اربع قصائد على أوراق زهرة اصطناعية » وفي هذه القصيدة العجيبة يواجهنا الشاعر بالموقف الغريب التالي :

كان يريد أن يقول

كل ما في صدره

لكنها طويلة طويلة انياب هذا الغول

فادعى الجنون

وقال كل ما يريد ان يقول

وحينما أراد أن يعود عاقلا

اصيب بالجنون .

ان الجنون ذريعة لقول الحقيقة ، مثلما هو وقاية من عواقبها . فالشاعر الذي جن وقال الحقيقة لا بد وان يظل مجنونا فعلا حتى يفلت من العقاب ... ولعله جن حين فكر بأهوال فعلته . لان الكلمة الوحيدة التي تنجو من سوط الجلاد ، هي الكلمة المومس التي تقف « تحت المصابيح الزرقاء ، الكلمة ذات الثديين من المطاط » . وما اكثر الشعراء الانتهازيين الذين يسخرون اقلامهم لخدمة السلطة :

الله ... ثلاثة شعراء

الاول مات يدافع عن « سيف » الدولة

والثاني مات يدافع عن « طبل » الدولة

والثالث عاش يدافع عن « احذية » الدولة

وبالتأكيد هناك صنف رابع ، حدده معين بسيسو في آخر قصائد مجموعته الكاملة ، انهم « الشعراء الذين يغسلون ويكوون الملابس العسكرية » . بل ان عداء شاعرنا يضرب في اعماق التاريخ الى ما قبل الف عام ونيف ليلاحق الشاعر البحتري الذي وصفه النقاد بانه « متقلب الولاء » فيقول عنه :

كان يدرب القصائد

كيف تبيع رأسها على الوسائد

وكيف تحلب الثديين في نعلي أمير

لا ريب في أن « عصر الكلاب » الذي نعيش فيه لا بد أن يفرز شعراء انتهازيين مستخذين ، يبيعون ضمائرهم وقوافيهم في حفلة البيع الشاملة التي يقوم بها المجتمع وحكامه ومفكروه وفقهاؤه . ثمة شيء توغل في كلمة هذه الامة فامتص ماءها وأتى على لبها ونخر بذورها فلم يبق غير القشور الذابلة . هذه القشور يعيش الجميع ــ كل الطبقة الفوقية ــ بها وعليها . تتألف هذه القشور من الثقافة التافهة والشعر المدجن في زرائب السلطة ، والوعود الخلابة التي يبذلها الحكام للناس ثم ينكثون بها . فحين فقد المجتمع اي قوام يجعله يتماسك ، وقعت طليعته في دور فاسد من الكلام الفارغ على كل الاصعدة الايديولوجية والعملية والتنظيمية . لم تعد الكلمة تؤدي الى فعل او توجيه ، بل صارت الكلمة الفارغة تفضي الى كلمة جوفاء مثل سابقتها ، فكأن الدافع الى الانجاز والاحساس به قد فقدا عند أمة بأسرها :

هو الكلام

بضاعة رديئة يا سيدي

بضاعة الكلام

والورق الذي يضاجع الاقلام

والشاعر الذي رايته

في كل مخدع ينام

في هذه القصيدة ، يوافق الشاعر السلطان على ان « النصر كان قاب خطوتين .... لولا خيانة القصائد ... لولا تجسس القصائد ... » .

وتجرى محاكمة القصائد بوصفها « اسلحة فاسدة ، في المعركة » . بل كانت تكون السلاح الفاسد الوحيد ، مثلما ان الشعراء هم الفئة الفاسدة الوحيدة :

لم يخطيء شرطي واحد

وسياسي واحد

ما غش ، وما قال عن اللحم الاخضر

لحما اشقر

قواد واحد

اما الشعراء

ما أرخص لحم الشعراء

فلقد غشوا الرمل

وقد غشوا الماء

هذا هو اتهام السلطان للشعراء ، متضمنا دفاعه عن أركان مملكته . ولا يسع الشاعر الا ان يؤمن على ما قاله السلطان ويوافقه — ولكن مع تعديل طفيف — تعديل يقلب المشهد رأسا على عقب .

يقول الشاعر :

هو الكلام

بضاعة رديئة بضاعة الكلام

لكنه ، يا سيدي ، لولا بضاعة الكلام

ما كنت فينا اليوم صاحب الكلام

فاذا كان الجميع يتاجرون بكلام لا مضمون له ، فالشعراء اعذر الناس في هذه التجارة لان الكلام مادة عملهم . ولكن ما عذر القيادات والحكام في اقتصارهم على استخدام الكلام دون غيره ؟

هذه التقنية القائمة على قلب المشهد الشعري في البيت الاخير تشكل جزءا من السخرية بالاعراف السائدة في المخاطبة وقول الشعر . انها قلب للحوار بين الشاعر والسلطة لكي يقف هذا الحوار على قدميه فينتج الحقيقة ، بعد ان كان يلهو في اطار من الكلمات المنمقة يوجهها الشاعر الى السلطان والسلطان الى الشعب ، في حلقة مفرغة من اللوم المتبادل او الثناء الدوار ـ المهم ان « الكلام » هو وسيلة الجميع الى البقاء . وبالتالي فهو رمز وليس « الطاحونة » و« الطبل » و« المخبر » و(شاعر السلطة) ، هي الصور الوحيدة في هذا الزمن العربي الرديء « عصر الكلاب » . بل ثمة رمز اشمل ، يتسع لكل ما مضى ذكره وما لم يذكر بعد ، هو « الدائرة » . فهي بلا بداية ولا نهاية ، مثلما أنها تتلاشى حين ترتسم على صفحة الماء :

يحاولون رسم شيء ما ، فيرسمون شيئا

غير قابل للرسم

ان الماء تكسر الاحجار وجهه

دوائرا دوائرا

وبعدها تسترجع المياه وجهها

تسترجع الاحجار وجهها ، مربعا ،

مكعبا ، او مستطيلا ، ليس أي

وجه مستقيم ميزة ولا كتاب توصية

يصعب على المرء تخيل صورة لهلامية الانظمة العربية أصدق من تشبيهها بالدوائر التي تتشكل وتتلاشى على صفحة الماء دون ان تترك اثرا . كل شيء رخيص ومزيف :

في اخر انتخاب كان في بيروت ،

لانتخاب ملكة الهزيمة

فوجيء السياح في الفنادق التي

تؤجر الوطن

لليلة او ساعة بابخس الثمن

بأن تلك الوردة المسلوقة المقشرة

دجاجة مزورة

ان هذا النثر الصحافي الذي صيغ منه خبر انتخاب « ملكة الهزيمة » لا يصلح لنظم الشعر . ولكن ماذا تحتاج مثل هذه المناسبة البائسة أكثر من مجرد تقرير سردي بسيط ، خاصة وان هذه الملكة ليست أكثر من دجاجة ؟ وهل من العجيب بعد ذلك ان يفلت خيط السرد من يدي الشاعر ، فيقطع الخبر ليصبح متعجبا :

كيف استطعنا ان نعيش كل هذا العمر

نكتب الرسائل المزورة ؟

ساعي البريد لم يكن سوى مهرب

طوابع البريد كلها مزورة

اطفالنا مزورون ، كل نطفة مزورة

هذا هو الاسلوب حين يستحيل الى موقف ، او الموقف حين يستحيل الى اسلوب . هنا فقط ، كل شيء يجوز لان الحقيقة وحدة متجانسة ، فسواء استمر الشاعر في السرد او قطعة متدخلا ، فاننا لا نحس بتخلخل في بنية العمل الفني ـ ربما لان الحقيقة اكبر من تفصيلات الصنعة الفنية ، فيكون شعر معين بسيسو مشمولا برعاية الحقيقة التي لا يحتاج فنها الى غير بصيرة ثاقبة ترى في ملكة الهزيمة وردة مسلوقة مقشرة ... دجاجة مزورة .

الحقيقة ... وشعراؤها

هو التزييف الممتد خلال العصور يجب ان ينتهي بشكل من الاشكال . لا بد من رجال يتجرأون على قطع هذه الحلقة المفرغة بسيف الحقيقة وحدها ، الحقيقة الفجة ، العارية من اي مجاز هي اهم تقنيات الشعر الخشن :

أرخص من مياه تلك المستنقع النتن

أرخص من زجاجة العرق

دماؤنا

أرخص من منديل مومس ،

من قطعة الصابون

لحمنا ....

.... أذل من وتد

بيرقنا ....

فهذه الوقائع اشد ايحاء ، عندتقريرها ، عارية من أية بلاغة يقترحها مذهب ادبي ، فهي بلاغة العد التنازلي التي يتكون تأثيرها من اصطدام الواقع المتدهور بالوعي المتفتح المسائل : الى أين ؟ لكنه لا ينتظر الجواب من الآخرين بل يسرع مبادرا الى تحديد الوضع نفسه ، كما يراه هو :

الى اليمين سر

الى اليسار سر

للشرق سر

للغرب سر

الى الشمال والجنوب سر

وخطوة الى الامام

عشرون خطوة الى الوراء سر

وبالشراع والمجداف في بحيرة اليمين ،

بالطبول والبيارق الحمراء

في شوارع اليسار سر

سر

سر

خلفا در

خلفا در

خلفا در .

هذه المقطوعة لا بد من ايرادها كاملة ، فلا يمكن الاقتباس منها . وكل من يعرف اوضاع الانظمة العربية يكتشف ان هذه القصيدة ترسم افضل خريطة لمساراتها . وبالتالي فان وحدة القصيدة ــ اي بناءها العضوي ، اي فنيتها ــ لا تنبع من متانة البنية اللفظية ، ولا تتأتى عن حسن الحبكة البنائية . فنية القصيدة نتيجة عرضها الأمين والبصير للواقع العربي ، برشاقة وايجاز وايماءات بالغة التعبير . وليس امرا هينا ان تعرض مسار عشرات « الثورات » و« الانظمة الثورية » في حضارة متداعية ضائعة ، ضمن حيز ضيق كالذي تشغله القصيدة . خاصة وان هذه المسارات تمتد منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية الى اليوم . على أن معين بسيسو ليس وحيد اتجاه الحقيقة في تاريخ الشعر . بكل تأكيد ، يجد على جانبه شاعرنا القومي أبا الطيب المتنبي ، فيناجيه الشاعر مستنجدا :

يا أبا الطيب ، قم صح النواطير

وقم صح القياشر

دقت الاجراس للصيد :

ثعابين المحابر

بشمت من لحمنا ، هذي الثعالب

صار درع الفارس المقتول بيتا للعناكب

آه يا سيف المحارب

وأما بوشكين فله في قلب شاعرنا مكانة فريدة . ففي الديوان اشارات متعددة اليه ، وقصيدتان يشتكي اليه شاعرنا في احداها أن في عصرنا تركب الأرانب العرجاء الأفيال :

وترتمي العنقاء في قفص

وتكتب الاسماك والحيات

أجمل الاشعار والقصص

أما القصيدة الثانية فتكاد تكون من أروع شعره وأكثره سموا . فلا يغني عرضها عن قراءتها بتمعن . تتألف القصيدة من أربعةمقاطع. في الاول يتحدث شاعرنا عن استمرار القتلة في اصطياد الشعراء :

فالقاتل يرث القاتل

يهديه يا بوشكين القفاز ويهديه رصاصه

والشاعر يرث الشاعر

يهديه الطلقة بين العينين وخصلة شعر

في المقطع الثاني يروي شاعرنا ما رآه في دفتر بوشكين المحفوظ في المتحف وتأثير بوشكين ضد الفكر القيصري :

قطرة حبر صادقة واحدة تكفي

لتسمم تمساحا

وجميع الرقباء السريين

والعلنيين

والمقطع الثالث هوذروة القصيدة ، حيث يدافع الشاعر عن صوته فيصبح الموت هو الامل الرائع للانسان :

موتك كان دفاعا عن اصوات جميع الشعراء

لكن موتك علمنا ان الشعراء

عائلتان

عائلة تكتب بالحبر

والعائلة الاخرى تكتب بالدم

في الختام تأتي النتيجة المحزنة : « ما زال هنالك يا بوشكين الشاعر والقاتل » . ولا

يضاهي هذه القصيدة في الروعة الا قصيدة اخرى عن شاعر هنغاري يدعى « جوزيف اتيلا » انتحر تحت عجلات قطار عام ١٩٣٧ « مطاردا من البيروقراطية والبوليسية » . بطبيعة الحال ثمة قصائد لـــشعراء آخرين من بينهم رامبو ومایاكوفسكي . لكن قصيدة « الخروج » الموجهة الى محمود درويش ذات أهمية خاصة لانها تكثف كل محاوراته مع الشعراء العرب الذين يحترمهم معين بسيسو ، ولكنه يعترض على اسلوبهم المزوق في قول الحقيقة . لذلك سوف نراجع هذه القصيدة من خلال عدد كبير من القصائد التي تنطلق من ذات المنطلق بنغمات متفاوتة ، آملين ألا يشغلنا استقصاء الموضوعات عن فنية الاداء ، ولو باختصار شديد للناحيتين .

تبدأ القصيدة بحض الشاعر على الصمود . فالموقع عند معين بسيسو يتماثل مع الموقف :

كان رحيلي عن غزة

ورحيلك عن حيفا ، غدرا ...

كان رحيل المتنبي عن حلب غدرا ...

ها نحن الآن هنا ،

نبحث في حوصلة العصفور الميت

عن قافلة حبلى ...

وهو لا يكره شيئا قدر ما يكره الرحيل ، فهو يحمل اليه كل مأساة تشرده عن غزة وضياع فلسطين ، يقول الشاعر في « طيور المنافي » :

وحطت بنا الطائرة

وصاحت طيور المنافي هي القاهرة

طيور المنافي مناقيرها في العظام

طيور المنافي مناقيرها في فمي ...

مطار يسلمني لمطار

أبيح دمي

على جبهتي ألف تأشيرة

في بطن حوت جواز السفر

وارض الوطن ....

فمن معاني مغادرة الوطن عند معين بسيسو التنقل من منفى الى منفى ـ وكل بقاع الارض عنده مناف بعد فلسطين ـ . أما المعنى الثاني ، فهو الفرار من مشاق الكفاح الى حياة الهون والدعة . فحين استحالت بيروت الى جحيم ، ولم يبق فيها غيره وغير المقاتلين ، كان شاعرنا

يتعقب بالتهكم اولئك الفارين :

« الشاعر السعيد » في المطار

« والقارىء السعيد » في المطار

والطريق للمطار آمنة

والطائرة

لم تكن مواطنة

على ارتفاع ألف مترا كتبوا

بيروت تبتعد

على ارتفاع ألف مترا قرأوا

بيروت تبتعد

كتابة سعيدة

قراءة سعيدة

بيروت أصبحت بعيدة

بيروت اصبحت بعيدة

بطبيعة الحال ، يحق لنا ان نتساءل عن نموذج الشاعر المكافح الذي يراه معين بسيسو اهلا لاحترامه ؟ ولا بد ان يأتي الجواب : انه معين بسيسو نفسه .

في نهاية « قصيدة من فصل واحد » ـ وقد رجعنا اليها عدة مرات لاكتنازها ـ يخلق الشاعر منظرين في الاول :

وقع القمقم في الشبكة

وفتحت القمقم

أطلقت سراح المارد

فوهبني خمسة عيدان ثقاب

أشعلت العود الاول والثاني والثالث والرابع

ها انذا اشعل آخر عود

ظهري للحائط

وجهي للحائط

وانا أكتب بالعيدان المحترقة

فوق الحائط ،

لكي نفهم هذا المقطع بكامل ما يعني ينبغي تأويله على صورة ايمائية – MIMETIC – وفي الواقع لا بد من تأويل المواقف التي يخلقها الشاعر في قصائده على صورة ايمائيه لان معين بسيسو كاتب مسرحي وليس شاعرا فقط ، وهو أحد الاعمدة النادرة البارزة في المسرح الشعري الحديث . في التأويل الايمائي تظهر عيدان الثقاب الخمس على انها خمس أصابع يحرقها الشاعر كلها في لهيب الحياة . اما صورة « ظهري للحائط » فتعني انه ظل يحارب حتى حوصر ، وبالتالي فان صورة « وجهي للحائط » تعني انه أسر وسوف يعدم ـ لكنه ظل يكتب بأصابعه المتآكلة المحترقة فوق الحائط . ان هذه الصور حين تفهم على هذا النحو تكشف موقف الشاعر من الحياة ، مثلما تكشف تقنيته الفنية الشبيهة بتقنية الحلم الذي يستخدم التكثيف والازاحة للرمز بما يدل عليه الحلم . وبما ان المسرح والايماء يرجعان الى طقوس شعائر تضرب في اغوار الزمان ، فان تمثيلهما اللفظي في الشعر يلتقي معهما في نفس النقطة من اللاشعور . وهذا ما يجعل السرد مؤثرا في القارىء ، لانه سريع ويتم على مستويين :

ظاهري وباطني . والتفاوت بين المستويين يخلق منظورا هو البعد الثالث الذي يعمق القصيدة ويحول السرد من تصوير سطحي للواقع والحركات الواقعية الى حركات ايمائية سريعة ورمزية . وهذا المنظور بالذات هو الذي يقيم الفارق الهائل بين شعر الواقع وشعر الحقيقة . فكل شعر في هذا الديوان وفي غيره يقتصر على تصوير الواقع او اعطاء معناه هو شعر الواقع ، اي شعر ساقط فنيا . وكل شعر قادر على التكثيف الذي يخلق عدة مستويات للتبصر هو شعر الحقيقة ، اي هو الشعر . ولو تأملنا كل الامثلة التي أوردناها عما أسميناه « شعر الحقيقة » لوجدناه يحقق ذينك المقياسيين : التكثيف والازاحة ثم خلق المنظور بالتفاوت بين مستويات الرؤية . بهذا المنهج يمكن ان نفهم صورة شاعر الحقيقة عند معين بسيسو . انه الشاعر الذي يستهلك كل طاقاته وهو يكتب فوق الجدار الذي أقامته سلطات القمع في وجهه . وبالتالي فقد أصبح الجواب واضحا عن السؤال الذي يطرحه الشاعر في المنظر الاخير :

لن يبتلعك ، لن يلفظك

على الشاطىء حوت

« يونس » قد مات ومات الحوت

ووحيد انت على سطح المركب

والمركب يغرق

بقيت فوق المائدة زجاجة خمر

وزجاجة حبر

ماذا تفعل ؟

انني اسألك الآن

والمركب يغرق

ماذا تفعل ؟

هل تشرب ،

ام تكتب ؟

الحقيقة ان الخيار معدوم امام الشاعر ، لان الشاعر يلد والقاتل يرث القاتل ، كما رأينا في قصيدته عن بوشكين . وبالتالي « فالشاعر دمه مهدور في كل زمان » كما يقول في « قصيدة فوق الجدار » حيث يكتب الشاعر على الجدار قصيدة غضب « ضد لويس الاول ، ولويس الحادي والعشرين » ، فيقبض عليه العسس ويأمرونه :

« امسحها بيديك

أبيات قصيدتك الملعونة والمحفورة فوق الجدران » .

يمسح الشاعر الجدار فتذوب يده اليمنى ثم اليسرى ثم يذوب لسانه ووجنتاه :

راح الوجه يذوب

سقط الشاعر

سقط وبقيت فوق الجدران المفروشة

كالنطع الاسود كلمة « لا » .

مرة اخرى استطاع الشاعر ان يبني موقفا مسرحيا مأساويا . هذا الموقف قد يغري اي شاعر آخر بشتى التهويمات الشعرية عن البطولة والفداء ، ما عدا معين بسيسو ، فهو ينسى الشاعر وعذابه ويمضي في سبيله لابراز الرفض

« لا » للويس الاول ، ولويس الحادي والعشرين

« لا » للزنزانة ، لمقص رقيب السلطان ، وللسكين

فالشاعر الحق ، شاعر الحقيقة ، هو الذي يمضي مكافحا حتى آخر لحظة من حياته ، فالسؤال :

هل تشرب ،

أم تكتب ؟

مجرد طرح صوري لخيارين بين الرفاهية والتعب . أما الحقيقة التي يؤمن بها معين بسيسو فنجدها في الكتابة فقط ، والى الرمق الاخير .

على هذا النحو ، يمكن ان نتبين ان معين بسيسو منح صديقه محمود درويش اقصى صيغة من الثناء حين قال له :

أنا أعرف أنك ترفض يا محمود

رباط العنق

لكنك تقبل يا محمود الحبل على عنقك

ولقد رثى شاعرنا فيما بعد صديقا شاعرا قتله الصهاينة ، هو الشهيد كمال ناصر بقصيدة ايمائية ايضا عنوانها « كان يكتب ثم يشطب » :

حينما جاؤوا اليه كان يكتب

ثم يشطب

كان في دمه يلعب

كان ضد البطل الملفوف بالاوراق

والجرح المعلب

فالشاعر يرقى بفعل الكتابة في معارج الحقيقة حتى يصل الى سدة الشهادة ... وهو في حالتي الكتابة والشهادة انما يلعب بدمه لانه يقول الحقيقة ولا يزوقها بالاوهام .

نظم معين بسيسو قصيدة « الخروج » بعد خروج الشاعر « محمود درويش » من فلسطين المحتلة والاقامة في الاراضي العربية الحرة المستقلة . كان محمود درويش شاعرا مقاوما للاحتلال الصهيوني . فاذا غادر فلسطين وانضم الى المقاومة الفلسطينية في الاراضي العربية خارج الاحتلال ، فماذا سيفعل ؟ سوف يكتب ما يطلب منه . ان معين بسيسو يروي لصديقه قصة الشعر مع القوانين والانظمة والاجهزة :

قالوا : القدس

وكتبنا يا محمود عن القدس

وزهرة عباد الشمس

قالوا : يافا

وكتبنا عن يافا ... يافا ... يافا

والآن يقولون لنا : غزة ...

ماذا بعد ؟

كسر زجاج نوافذنا الرعد

لننتبه ، ونقرأ بحذر . فقد بلغنا منطقة ساخنة متفجرة جدا . نحن الآن في منطقة الصدام

بين معين بسيسو وبقية الشعراء العرب ــ او لنقل انها منطقة الصدام بين شعر الحقيقة وشعر التزويق ، شعر التوشية التي تسكن الالم بالاوهام . وتفصيل الامر ان مدرسة الصقل التي سادت الشعر العربي ما يقرب من الفي عام قد تجاوبت باخلاص شديد مع نكبة فلسطين ووضعت كل امكاناتها الشعرية تحت تصرف هذه القضية القومية التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية : شعب بأكمله طرد عن ارضه ، ولوحق في المنافي بكل ادوات القتل الحديثة لكي يحتل الصهاينة ارضه وبيوته ، فيشكلوا مخفرا متقدما وفعالا جدا في خدمة المصالح الامبريالية الامريكية ، ضد نضال شعوب الامة العربية في سبيل انشاء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد المصنع ، غير ان تقاليد مدرسة الصقل فرضت على الشعر ان يغني المأساة ، فأبدع الشعراء العرب اروع قصائد الحنين الى فلسطين ، وأعذب أنغام الحب لتلك الارض الطاهرة التي تنبت الانبياء والشعراء والزيتون والليمون . وبعملية « أدلجة – IDEOLOGYZATION – » عفوية ورسمية ، أصبحت خيمة اللاجئين رمزا للبؤس ، وثمار فلسطين رمزا لفردوس مفقود ، كما تحولت فلسطين ذاتها من وطن الى قضية ــ اي من ارض وماء وتراب وشعب الى رمز فكري مجرد ، يبتعد شيئا فشيئا نحو عالم المثل الافلاطونية في عالم يتعالى باستمرار عن كرتنا الارضية .

معين بسيسو هو الشاعر العربي الوحيد ــ فيما اعلم ــ الذي رفض عملية الترميز ــ SYMBOLIZATION – وشن على الشعراء العرب حربا شعواء . فقد رأى في هذا التجريد قتلا للوطن ، يشبه ما يحدث حين يقتل الفدائي فتطبع صورته بالالوان وتعلق على الحيطان ، وبالتالي فلم يعد للفدائي وجودا محسوسا بل أصبح صورة . اما معين بسيسو فيريد أن يظل الفدائي فدائيا ولا يغدو صورة او ملاكا في السحاب :

آه اعطيني قطرة حبر واتركيني

للسكاكين التي تعرف عنوان عيوني

....

أنا ما خبأت كفي بين أرواق كتاب

وأنا لم أدفن شهيدا في السحاب

وأنا الشاعر ... ديواني التراب

ان رفض الترميز ، واعتبار التجريد تزييفا ، واستنكار ان تتحول المأساة الى أغنية مطربة .. ثورة من أكبر الثورات في شعرنا العربي الحديث ، الذي يبتعد اكثر فأكثر عن المحسوس الواقعي والحقيقة الملموسة نحو الرمز فالتجريد فالاسطورة . هذه الثورة لم يدع اليها منظر من هؤلاء المنظرين الذين يسوقون قطعان الشعراء بسياط الايديولوجيا الرسمية ، ولم يلتفت اليها ناقد من نقادنا البنيويين او دعاة الحداثة وما بعد التحديث ، وبديهي ان الباحثين الاكاديميين معفون من الالتفات اليها لان ايديهم المخبأة بين اوراق الكتب لن تمتد الى جثث القتلى ولن تخط سطورها على التراب ــ كما يفعل الشاعر في الابيات السابقة .

وحده معين بسيسو يأنس بلزوجة الواقع وكثافته . وحده ، دون كل الشعراء العرب ، ينفر

من الصورة الملونة والرمز المجرد : « كل قرائي على الحيطان قد صاروا صور » . هذا ما يقرره شاعرنا بفزع . فهو يعرف الشبان الفدائيين معه خلف المتاريس ، اما اذا علقت صورتهم على الجدران فهم قتلى .

قد يحتاج المرء الى هذه التجربة بالذات لكي يكتشف الفرق بين الكائن الحي وصورته المطبوعة . وقصيدة « غزال صنين » فريدة في بابها من حيث تسجيلها المدهش للفارق الصارخ بين الانسان الحي المقاتل والصورة الصامتة الملصقة على الجدار . دع عنك مطلعها النادر المثال :

استشهد الماء ولم يزل يقاتل الندى

استشهد الصوت ولم يزل يقاتل الصدى

وانت بين الماء والندى

وانت بين الصوت والصدى

فراشة تطير حتى آخر المدى

فهذا المطلع نادر ليس لانه جميل ، فهو لو وقع لشاعر آخر من مدرسة الصقل لانساق وراء الغنائية والتجريد والصورة الرمزية حتى وضعنا في السماء السابعة . اما معين بسيسو فانه يبدأ من الرمز ليجر القصيدة وراء الشهيد الى القبر . فالمطلع تمجيد حزين لمقاتل ظلت بطولته بعده مستمرة ، مثلما يستمر الندى بعد جفاف الماء او يسترسل الصدى بعد زوال الصوت . على اعقاب المطلع تبدأ القصيدة :

يذهب للخندق

يترك دمه

ويعود الى الحائط ملصق

فالقصيدة تضفر حكايتين ، الاولى ذهاب المقاتل الى خندقه ومقاومته واستشهاده ثم نقله من الخندق الى المستشفى ووضعه في النعش وحمله على اكتاف رفاقه .. والحكاية الثانية هي حكاية صورته المعلقة في نافذة بيته وكيف مشت الى المطبعة وانتظرت عجينة الالوان ثم سارت مع الموكب ، فلما الحد الشهيد الصقت فوق الجدار ولكن سرعان ما غطتها صور اخرى لشهداء آخرين . انها قصيدة فريدة في باب الرثاء في الشعر العربي بأكمله ، قوامها المفارقة بين المقاتل الحي وصورته ، وهي مفارقة لا يمكن استنباطها بالفكر ولا بالخيال بل لا بد لك من ان ترفض كلا الفكر والخيال لتبصر الامر على حقيقته . وحقيقة الامر ، كما يراه معين بسيسو في القصيدة ، ان المقاتل الحي حقيقة واقعة وان الصورة الملصقة حقيقة اخرى اشد واقعية وامعن ايلاما في النفس . فهي تدل على القتل ، والقتل سلب للحياة مثلما ان الصورة سلب للأصل .

في كل الحالات لا توجد رموز بل وقائع ، اشياء ، موجودات ... سمها ما شئت ولكن اياك والتجريد فالتجريد يقتل الوطن ويحوله الى قضية :

والذي كان وطن ...

أصبح اليوم قضيه

لا تلوموا البندقية

حينما ماتت ولم تترك وصيه

فالبندقية لا تخلف غير بندقية مثلها ليست بحاجة الى وصية ، تحول بها تركتها من وارث الى وريث . فلماذا يتحول الوطن من تراب الى قضية لفظية ؟ هذه أول عملية تزييف ، يليها عرض القضية بأسلوب جميل .. ان شاعرنا لا يفهم كيف يمكن تجميل المأساة ، ولا يرضى بأن تصبح اختصاصا للشعر فيعيش الشعراء على حسابها . وهو يحمل عليهم أعنف الحملات ان هم زوروها . فهو يسخر منهم حين يناشدهم ان يتركوا الاتجار بفلسطين :

جمجمة فلسطين المحبرة

لنغمس اغصان الليمون

ولنكتب يا شعراء التين وشعراء الزيتون

وعلى أوراق الموز وفوق زجاج نوافذنا

أشعارا لفلسطين

وتبلغ السخرية حد الشتيمة حين يرفض شاعرنا كل الرموز الفلسطينية التي صنعها شعراء « النكبة ، الخيمة ،الليمون ، الموز ، التين ، والزيتون ... » . ويجر الشعراء من أيديهم الى سوق الامتعة البالية لكي يشتغلوا ببيع الامتعة الفلسطينية الحقيقية :

العن أحفادك يا جدي ...

واحمل كل جذورك وارحل يا شجر الزيتون

وتعالوا يا شعراء النكبة والخيمة والليمون

لموا خرق قصائدكم

وافترشوها تحت السور

مدوا أيديكم للقمر وللعصفور

بيعوا في اسواق الاقزام العور

شبكة صياد من يافا ،

حجرا من عكا ،

دالية في الكرمل

بيعوا عبد القادر

فوق صخور القسطل

اما بقية القصيدة فأشد نكالا . اذ يرى شاعرنا في بقية الشعراء المزيفين للنكبة والمتغنين بالمأساة مجرد سماسرة :

حملت جارية الشعر الشمعة

لتقود لمخدعها النخاس

والضفدع قد قفزت في قبعة الشاعر

واتم الساحر

لعبته ...

هذه الابيات الاخيرة تصور افضل تصوير حذر الشاعر من الانسياق في لعبة الشعر المصقول . اذ ان صورة الجارية وهي تحمل الشمعة لمخدعها ... صورة انيقة كلاسيكية (ولو ان مضمونها مقلوب راسا على عقب) لذلك عاجلها الشاعر بصورة اخرى من وضعه تحمل طريقته الايمائية الفجة في التعبير : الضفدع قد قفزت في قبعة الشاعر ــ فالشاعر المزخرف ليس فقط قوادا على الحقيقة وانما هو ايضا بهلوان وحاو ...

فمعين بسيسو ، مثل افلاطون ، يريد شعرا بلا اوهام ، فظا كالواقع الفظ . وهو يرى بحق ان هذه الطريقة الصادمة هي وسيلة الشعر الوحيدة لنقل الحقيقة . ولكي نرى الى اي حد يتشابه ، بل يتماثل موقف معين بسيسو مع موقف افلاطون من الشعراء الذين يخلقون الاوهام فيبتعدون عن شعر الحقيقة . لا بأس من مقارنة اشعار معين بسيسو وتفسيرنا لها ، ببعض نصوص افلاطون في « الجمهورية » فقد تكون فكرة المقارنة غريبة بعض الشيء ، لكن النتائج التي سنحصل عليها مدهشة الى حد انها تسوغ محاولتنا .

يقول افلاطون :

ــ « ولذلك ، فحين ياتي الينا اي من هؤلاء السادة الايمائيين ... ويقترح ان يعرض لنا نفسه وشعره فسوف نركع له ونسجد بوصفه كائنا حلوا مقدسا ولطيفا ، ولكن علينا ايضا ان نعلمه بأنه بوصفه كذلك فلن يؤذن له بالاقامة في دولتنا ، والقانون لا يجيز له . وبعد ان نطيبه بالمر ونكلل راسه بوشاح من الصوف نرسله بعيدا عنا الى مدينة اخرى . ذلك لاننا نقصد ان نستخدم لصحة أرواحنا شاعرا اوقصاصا اكثر خشونة وقسوة ، لا يقلد الا الاسلوب الفاضلَ فقط ، ويتبع النماذج التي اوصينا بها في البداية حين شرعنا بتثقيف جنودنا » ــ (الجمهورية ٣ ، ٣٩٨) .

(بقية البحث في العدد القادم)

ندوة روما
٢٤-٢٦ أيلول ١٩٧٩

الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني والسلام في الشرق الأوسط

انعقدت هذه الندوة بدعوة من الجمعية الايطالية للتضامن والصداقة مع شعب فلسطين ، التي تشكلت في روما منذ حوالي عامين وضمت ممثلين عن القوى السياسية الرئيسية في ايطاليا من ديمقراطيين مسيحيين وشيوعيين واشتراكيين واشتراكيين ديمقراطيين . وقد دعت الجمعية الى هذه الندوة القوى السياسية في دول مؤتمر هلسنكي للأمن والتعاون الاوروبي ، وبعض القوى السياسية الديمقراطية في الولايات المتحدة . كما دعت منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في افتتاح الندوة بكلمة رئيسية ، ودعت ايضا الجبهة العربية المشاركة والسفارات العربية في ايطاليا وبعض رؤساء البلديات في الضفة الغربية وقطاع غزة وبعض الاسرائيليين الذين يعترفون بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني . وتضمن برنامج الندوة بحث « **الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني والسلام في الشرق الاوسط** » ، وبحث « **كيفية احقاق هذه الحقوق** » ، وبحث « **ممارسات الاحتلال الاسرائيلي على شعب فلسطين وانتهاكاته حقوق الانسان** » .

جاءت هذه الندوة حلقة في سلسلة من الندوات التي تنظم في اوروبا الغربية بهدف تاييد الحق الفلسطيني . وكانت مدينة بروكسل قد شهدت عام ١٩٧٦ واحدة منها ، كان لها اثرها في استقطاب قوى جديدة في بلجيكا لدعم منظمة التحرير الفلسطينية . وتميزت ندوة روما بأنها انعقدت في ظروف تزايد فيها النفاذ الفلسطيني الى غرب اوروبا ، بعد زيارتي رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية لكل من فيينا ومدريد . كما تميزت بأن منظميها ارادوها ان تأتي في نطاق الحملة السياسية الاوروبية المؤيدة لحقوق الشعب الفلسطيني من اجل تأمين اكبر دعم لقضية فلسطين ، ومن اجل تحقيق اهداف محددة في هذا المجال في الساحة الايطالية . وكانت فكرة الندوة قد تطورت خلال العام الماضي . فبعد ان طرحت بداية تحت شعار « ندوة المطران كبوجي » الذي كان معتقلا في السجون الاسرائيلية لتثير قضية المعتقلين الفلسطينيين ، اتسعت لتشمل فضلا عن هذه القضية الهامة موضوع الحقوق الوطنية الفلسطينية بصورة عامة وكيفية احقاق هذه الحقوق ومجابهة الممارسات الاسرائيلية ضد شعب فلسطين .

اتسمت هذه الندوة من ثم بأهمية خاصة بسبب شمولها وتوقيتها ومكان انعقادها والمشاركين فيها . وقد اتخذت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قرارا بقبول الدعوة الموجهة اليها للمشاركة في افتتاح الندوة وشكلت وفدها من عدد من الاعضاء تمكن من الحضور منهم الى روما في الموعد المحدد أحمد صدقي الدجاني عضو اللجنة التنفيذية المسؤول عن الحوار العربي الأوروبي ، وماجد أبو شرار عضو المجلس المركزي المسؤول عن الاعلام الموحد ، والأب عياد عضو مجلس التخطيط ، وابراهيم الخطيب مدير مكتب المنظمة بيوغوسلافيا ، فضلا عن نمر حماد مدير مكتب المنظمة في ايطاليا .

انعقدت الندوة بحضور اكثر من مائة من ممثلي القوى السياسية الاوروبية ، جاءوا من مختلف بلدان اوروبا

الغربية ودول المجموعة الاشتراكية ، وحضور وفد اميركي يمثل حركتي السود والهنود ، وحضور السفراء العرب في ايطاليا وممثل عن مؤتمر الشعب العربي ، وحضور بعض اليهود التقدميين من بينهم فيليتسيالانجر ويوري افنيري ، وحضور الياس فريج رئيس بلدية بيت لحم وتوفيق طوبي نائب فلسطيني عام ١٩٤٨ وعضو قيادة حزب راكاح ، وأخيرا حضور عشرات من ممثلي القوى السياسية في ايطاليا .

افتتحت الندوة صباح يوم الاثنين ٢٤/٩/٧٩ بخطاب السيد كارلوا كانساني رئيس الجمعية الايطالية الداعية ونائب وزير التجارة الخارجية الايطالية . وقد اوضح فيه فكرة الندوة وهدف الجمعية ودعمها لحقوق شعب فلسطين ، وشرح اهمية مساهمة القوى الاوروبية في بلوغ حل عادل . كما رحب بمشاركة منظمة التحرير الفلسطينية واشار في ختام كلمته الى وجود اسرائيليين في الندوة يقرون بالحقوق الوطنية لشعب فلسطين ويسعون الى السلام العادل . وتلا ذلك القاء الدراسة الاولى الخاصة بالحقوق الوطنية . وقد جاءت هذه الدراسة مفصلة لهذه الحقوق مبرزة حق تقرير المصير وحق اقامة الدولة وناقدة لاتفاقيات كامب دافيد . وبعد الفراغ منها عقبت الاحزاب الايطالية الثلاثة الشيوعي والاشتراكي والديمقراطي المسيحي على الدراسة ، وناقش المتحدثون بأسمها الظروف الراهنة في المنطقة ودعوا جميعهم الى اعتراف اوروبا الغربية بمنظمة التحرير الفلسطينية .

جاءت كلمة منظمة التحرير الفلسطينية في ختام جلسة الافتتاح الصباحية لتوضح موقف المنظمة من موضوع الندوة والقضايا المطروحة عليها . وقد نقل رئيس وفد المنظمة في مستهل حديثه تحيات رئيس المنظمة واعضائها . وتضمنت كلمته اشادة بفكرة الندوة بالصداقة مع شعب فلسطين ، وشرحا للظروف الراهنة التي تشهد احتدام الصراع بعد مضي عام على توقيع اتفاقيات كامب دافيد التي ضاعفت التوتر في المنطقة وصعدت الحرب ، ومظاهر هذا الاحتدام في جنوب لبنان وفي فلسطين المحتلة وفي المنطقة عموما . ثم لخصت الكلمة افكار المنظمة حول موضوعات الندوة في تسع نقاط فشرحت الحاجة الى السلام في عالمنا ، وترابط السلام العالمي بحركة التحرير العالمية وموقف المنظمة التي تحمل البندقية في يد وغصن الزيتون في اليد الأخرى . واوضحت ان امن وسلام العالم وامن اوروبا مرتبط بأمن وسلام منطقتنا العربية وبقضية فلسطين خصوصا . ومن هنا لا بد من ايجاد حل عادل للقضية التي هي جوهر الصراع . وبين ان هذا الحل لا يمكن ان يتحقق الا بتحقيق الحقوق الوطنية لشعب فلسطين حقه في تقرير المصير وفي العودة وفي اقامة الدولة المستقلة . وشرحت النضال الفلسطيني لبلوغ هذه الاهداف والعدوان الاسرائيلي الصهيوني . وعرضت الكلمة لواقع التجمع الاسرائيلي بالتحليل وابرزت تطرف غالبية احزابه وبروز قوى تعيد النظر في التطرف الصهيوني . واوضحت موقف المنظمة من هذه القوى ومن اليهودية كدين . ثم ناقشت الكلمة تفصيلا الموقف الاوروبي والدور الاوروبي المنتظر . ودعت القوى السياسية في اوروبا للقيام بدورها . واختتمت الكلمة بدعوة للنضال وبالتعبير عن الثقة بالمستقبل .

لفت النظر في خطاب المنظمة الحديث عن الميثاق الوطني الفلسطيني بلغة الاعتزاز في مواجهة الحملة الاعلامية الصهيونية على الميثاق « اننا نعتز بميثاقنا الوطني الذي يتحدث عن تحرير وطن الشعب الفلسطيني وليس عن تدمير احد » كما لفت النظر ما جاء بشأن الموقف من الحوار مع الاسرائيليين ردا على بعض ما رددته وكالات الانباء بمناسبة الندوة « ان المجلس الوطني قد اقر الحوار مع القوى التقدمية اليهودية التي تؤيد حقوق الشعب الفلسطيني ، اما الحوار مع الحكومة الصهيونية الفاشية فقد اتخذت هي قرارا بشأنه حين قررت ابادة منظمة التحرير الفلسطينية فلا يمكن من ثم الحوار معها » . ولفت النظر في شرح الحقوق الوطنية ما جاء في الكلمة عن الحكم الذاتي الذي يتحدث« عن فرد بدون ارض وعن ارض بدون ماء ويسعى الى تفتيت شعب فلسطين الواحد والتعامل معه كأنه بشعوب ثلاثة.اننا نحكي عن حق تقرير المصير وحق العودة واقامة دولتنا المستقلة . والاسرائيليون يحكون عن الحدود الآمنة والحدود التاريخية والحدود المعترف بها والحدود الاقتصادية واخيرا حدود مصادر المياه »

شارك في الحوار الذي دار في الندوة عدد كبير من المتحدثين من بينهم كالاديو سينوريلا نائب امين عام الحزب الاشتراكي الايطالي ، وكارلو بايتا مسؤول العلاقات الخارجية في الحزب الشيوعي ، وسان باراه من قياديي الحزب الديمقراطي المسيحي ، وما سيمو نصاري وهو كاتب ايطالي مشهور ، جارالين عن الحزب الديمقراطي المسيحي ، وجميعهم من الايطاليين الذين طالبوا بموقف اوروبي حاسم يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية وبالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني . كما شارك ممثل الهنود الحمر ونائب يوغوسلافي وفرانسوا ليتين عن الحركة اليسارية الفرنسية وسكارات عن الحزب الشيوعي الاسباني وممثل عن الحزب الشيوعي الفرنسي ونائب

تركي ، وروبرت مور عن الاميركيين السود . وتحدث مايكل ادمز الصحفي البريطاني ، فقدم تقريرا مفصلا عن اوضـــاع الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال .كما تحدثت المحامية فيليتسيا لانجر عن الممارسات الصهيونية ضد المواطنين الفلسطينيين ، والياس فريج رئيس بلدية بيت لحم . وتحدث قبل ذلك في الجلسة المسائية في اليوم الاول توفيق طوبي ويوري افنيري وميكسيم كيلسن . كما تحدث الأب عياد ونمر حماد .

قام رئيس وفد المنظمة خلال اليوم الذي امضاه في روما بأجراء مباحثات مع عدد من الاحزاب الايطالية وممثلي القوى السياسية الاوروبية . كما قام بعقد مؤتمر صحفي حضره عدد كبير من الصحفيين تحدث خلاله عن العدوان على جـنوب لبنان وعن عدوان الطيران الاسرائيلي على سماء بيروت . كما شرح قرارات المجلس الوطني حول حقوق شعب فلسطين . واوضح في رده على سؤال حول الحل العادل « ان منظمة التحرير طرحت حلين متكاملين خلال السنوات العشر الماضية . جاء اولهما في مطلع عام ١٩٦٩ يقول بفلسطين الديمقراطية التي يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في سلام . والآخر في عام ١٩٧٧ يقول باقامة دولة فلسطينية على اي جزء من التراب الفلسطيني يتحرر كخطوة لحل كل المشكلات الباقية وممارسة حقوقنا الوطنية ومنها حقنا في العودة . وقد قاوم الصهاينة الحل الاول بحجة انه يعني تدمير اسرائيل .وجاءت حكومة بيغـن لتدعي السيادة على الضفة والقطاع ولتتمسك بفلسطين الواحدة التي تحكمها الفاشية الصهيونية وتمارس فيها العنصرية على شعب فلسطين ، فانظروا هذه المفارقة بين خيار ديمقراطي اساسه المساواة والعدل بين آخر فاشي عنصري يقوم على التسلط » .

اختتمت الندوة اعمالها باصدار وثيقة تؤكد التزام اللجنة الايطالية بالتضامن مع شعب فلسطين . واعلنت الوثيقة تثبيت الاقتراحات التي طرحت خلال النقاش كتوصيات لتتمكن اللجنة الايطالية من التحرك على اساسها والعمل على ما يلي :

اولا : القيام بمبادرة على الصعيد الاوروبي يجري التنسيق خلالها بين القوى المستعدة لذلك في البلدان الاوروبية .

ثانيا ــ التحرك اوروبيا من اجل حث مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة على تعديل القرار ٢٤٢ وحسب مقترحات الجمعية العمومية .

ثالثا ــ القيام بمبادرة من اجل لبنان ترتكز على الصعيد السياسي الاوروبي من اجل استقلال وسيادة هذا البلد ، وعلى صعيد التضامن لتوسيع الالتزامات بالمساعدة المالية للمصابين باضرار الحرب من ابناء هذا البلد .

رابعا ــ تكثيف الضغوط على الحكومة الايطالية بواسطة القوى السياسية من اجل اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية اذا ما تأخرت دول السوق الاوروبية المشتركة في التوصل الى ذلك .

خامسا ــ حث الحكومة الايطالية على دعوة الأخ ابو عمار الى زيارة ايطاليا .

سادسا ــ تقوم بهذه المبادرة لجنة التضامن الايطالية مع الشعب الفلسطيني بمشاركة الشخصيات الايطالية المرموقة التي تحدثت في هذه الندوة والذين تمنوا للجنة تحقيق الاهداف المذكورة .

كما وجهت الندوة تحية الى الأخ ابي عمار رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير والقائد العام لقوات الثورة اكدت فيها الاستمرار في دعم نضال شعب فلسطين بقيادة منظمة التحرير ممثله الشرعي . وكان الأخ ابو عمار قد وجه رسالة تحية للندوة جاء فيها « بأسم الشعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجده ، وباسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، احيي ندوتكم ، متأكدا من انها ستسهم في دعم نضال شعبنا العادل من اجل حقه في تقرير المصير والعودة وبناء الدولة المستقلة على ارض فلسطين لما فيه خدمة السلام والعدل في منطقتنا ، وفي حوض البحر الابيض المتوسط ، والعالم بأسره ، انتهز هذه المناسبة لاحيي القوى الديمقراطية الايطالية والشعب الايطالي الصديق ، واتطلع الى مزيد من التعاون لتعزيز هذه الصداقة .

كذلك وجهت الندوة برقية الى قداسة البابا يوحنا بولس الثاني ، دعته فيها ان يكون رسولا في الامم المتحدة للسلام العادل والدائم في الشرق الأوسط القائم على العدل من خلال اتفاقيات تبرم بين كافة الأطراف بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية وذلك على أساس الانسحاب الشامل للقوات الاسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة بما فيها مدينة القدس .

كانت النتائج التي اسفرت عنها هذه الندوة ايجابية . وقد ثمنتها اللجنة التنفيذية للمنظمة تثمينا ايجابيا . وسجلت الاوساط السياسية الاوروبية ان من اهم هذه النتائج توافر اجماع سياسي لدى القوى والاحزاب

الايطالية الحاكمة والمعارضة على ضرورة الاعتراف بمنظمة التحرير وبحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . وحقه في العودة وبناء دولته المستقلة ، ومطالبته الحكومة بدعوة رئيس منظمة التحرير لزيارة العاصمة الايطالية في أقرب وقت .

وقد لوحظ ان الندوة احيطت باعلام غربي مكثف حيث تجمع في روما حوالى مائة صحفي . كما رافقتها حملة تشويش اعلامية رتبتها بعض العناصر اليهودية الاوروبية . وتضمنت حملة التشويش هذه نشر اخبار عن اجتماع مغلق تم بين النائب الاسرائيلي يوري افنيري ووفد منظمة التحرير الفلسطينية ، وعن سؤال حول اعتراف المنظمة باسرائيل في المؤتمر الصحفي الذي عقده رئيس وفد المنظمة ، وعن مخاطبة اثناء الكلمات جرت بين افنيري ووفد المنظمة . وقد نفى مصدر اعلامي مسؤول في المنظمة هذه الأخبار التي لا اساس لها من الصحة . كما صرح رئيس وفد المنظمة انه لم يوجه له اي سؤال بشأن الاعتراف ومن ثم لم يحدث التطرق لهذا الموضوع ، وانه لم يتم اي اجتماع بين وفد المنظمة وبين النائب افنيري ، واستغرب خبر التخاطب لانه لم يكن حاضرا الجلسة التي تحدث فيها افنيري لانشغاله في اجتماعات خارج الندوة مع بعض القوى السياسية الايطالية . كذلك شنت اذاعة اسرائيل هجوما على رئيس وفد المنظمة ووصفته بأنه معاد للسلام وانه اشار الى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ . وقد لفت النظر ان بعض اجهزة الاعلام العربية رددت اخبار تلك الحملة كما هي ووقعت في اسارها . وفي تفسير هذه الحملة قرن البعض بينها وبين النجاح الذي تحققه المنظمة في اوروبا الغربية والذي حققته في الندوة . كما ربط البعض الاخر بين الحملة وبين توظيف حضور اسرائيلين تقدميين الندوة داخل الكيان الاسرائيلي في وجه الفريق الاسرائيلي المتصلب . وعلى كل حال فان ندوة روما تمثل حلقة هامة في سلسلة الندوات التي تشارك فيها منظمة التحرير الفلسطينية ضمن نضالها السياسي لاستقطاب قوى جديدة في عالمنا من اجل تأييد الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وعزل العدو الصهيوني .

د. احمد صدقي الدجاني

زيارة عرفات لأنقرة وبرلين

١

احتجت اسرائيل بشدة ، بل انها اقامت الدنيا ولم تقعدها على المستشار النمساوي برونو كرايسكي بسبب دعوته لياسر عرفات ، واستدعت سفيرها في النمسا . اما أمام الاعتراف التركي بمنظمة التحرير فان اسرائيل قد لاذت بالصمت .

في المرة الأولى كانت اسرائيل الصهيونية تستعمل سيف الارهاب الذي تلوح به في وجه يهود العالم اذا ما خرجوا عن سلطانها ، اما في المرة الثانية فان اسرائيل كانت تخشى ان يؤدي احتجاجها الى قطع الصلة بينها وبين تركيا ، ولذا لاذت بالصمت .

انه مؤشر الخطو الفلسطيني الواثق والشجاع في عملية الاختراق السياسية التي يقوم بها على الصعيد الاوروبي بل وفي عقر دار حلف الاطلسي ..

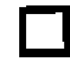
ففي الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة ١٩٧٩/١٠/٥ قام الاخ أبو عمار وعدد من اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ووسط حشد من الصحفيين الاتراك والأجانب وعدد ضئيل من الصحافيين العرب ، ووسط جمهور غفير من المواطنين الاتراك ، برفع العلم الفلسطيني على مبنى مقر مكتب منظمة التحرير الفلسطينية بمدينة انقره العاصمة التركية، معلنا افتتاح المكتب رسميا ، مضيفا الى دول الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية والشعب الفلسطيني دولة جديدة .

ما الذي يعنيه هذا الحدث على الصعيد الفلسطيني وما هي اهميته ، واين يقع في سلسلة الانجازات الدبلوماسية والسياسية التي حققتها المنظمة خلال السنوات الماضية ؟

اسئلة هامة يطرحها الاعتراف التركي بمنظمة التحرير الفلسطينية ، خصوصا ان تركيا هي الدولة الوحيدة في حلف الاطلسي او الناتو التي تتاخم الأرض العربية ، وهي الدولة الوحيدة الاسلامية في هذا الحلف ، اضافة الى كونها احدى الدول الاسلامية القليلة التي تعترف باسرائيل وتتبادل معها التمثيل الدبلوماسي .

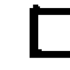
اذن فالحدث هام على الصعيد الفلسطيني حيث انه يشكل اختراقا بشكل أو بآخر في جيب من جيوب حلف الناتو ، وهو في الوقت نفسه يشكل تطويقا للاعتراف الاسلامي باسرائيل —رغم ان الاعتراف التركي بالمنظمة لم ينه الاعتراف باسرائيل . ان هذه المسألة الأخيرة تبرز عندما تثور مشكلة القدس وهو ما سيجري الحديث عنه في سطور قادمة من هذا التقرير .

والحدث ايضا يقع في المكان الابرز في سلسلة الانجازات الدبلوماسية الفلسطينية كونه يشير بما لا يقبل الشك الى ان النضال الفلسطيني قد بات حقيقة لا يمكن تجاوزها ، بل لا يمكن سوى الاقرار والاعتراف بها ، حتى من قبل دولة هي عضو هام في حلف الناتو . لكنها وبسبب طبيعة موقعها ومكانها في منطقة الشرق الأوسط لا تملك الا ان تنظر بعين الى مكانها في الحلف المذكور وبالعين الآخرى الى مكانها في المنطقة . وهذا يعني أن التغيير الذي تعنيه القوى الثورية في المنطقة ، والحقائق الجديدة التي تشكلها قد فرضت نفسها على الدولة التركية التي لها عين على المنطقة كما قلنا ، تدرك بها المتغيرات لا سيما تلك التي احدثتها ايران الثورة التي قوضت نظام الشاه ، التي تشكل مثالا بارزا ينبغي دراسته والتمعن في المقولات التي يطرحها .



عندما هبطت الطائرة الصغيرة ، وهي ليست طائرة حربية كما نقلت خطأ بعض المجلات ، في مطار انقرة الدولي ، حاملة الوفد الفلسطيني برئاسة الاخ ياسر عرفات . توقفت هذه الطائرة في ممر خاص على مقربة من طائرة هليوكبتر تركية انتقل اليها الوفد ، بعد ان استقبله في المطار نائب رئيس الوزراء التركي وعدد من مساعديه .

وحين هبطت طائرة الهليوكبتر في احد المطارات العسكرية القريبة من مقر اقامة رئيس الوزراء التركي أجاويد ، كان الرئيس في انتظار الطائرة ليستقبل رسميا رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والوفد الفلسطيني .



المباحثات الأولى بدأت على الفور في مقر رئيس الوزراء ، وبعد ان قام المصورون والصحافيون بالتقاط الصور الصحافية والتذكارية . بدأت الجلسة التي تحدث بها الاخ ابو عمار فعرض على مدى ساعتين الموقف السياسي الفلسطيني ، ورؤية الثورة الفلسطينية وافكارها الاستراتيجية بشأن الصراع الدائر في المنطقة وفي اماكن اخرى من العالم . كما عرض الوضع في جنوب لبنان ، ومعاهدة « السلام الامريكية الاسرائيلية المصرية » واتفاقية كامب ديفيد ، ودورها في تأجيج الصراع وليس في تحقيق السلام ، ونتائج مؤتمر هافانا ، ملاحظا تزايد التفهم والتأييد العالمي خصوصا بين دول العالم الثالث للنضال الفلسطيني ولمنظمة التحرير الفلسطينية ، ثم انتقل بعد ذلك الى عرض موقف الولايات المتحدة الامريكية من القضية الفلسطينية ، واستمرار محاولاتها القفز من فوق الحقوق الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك عرض الموقف الاوروبي والحوار الفلسطيني الاوروبي وضرورة التوقف عند هذا الحوار بالتحليل والدراسة ومتابعته وتنمية ظواهره الايجابية .

كما عرض رئيس اللجنة التنفيذية ايضا الموقف العربي وركز على الموقف الفلسطيني موضحا تكوين م . ت . ف . ومؤسساتها وميثاقها وبرامجها التي اقرها المجلس الوطني الفلسطيني .

وقد تضمنت كلمة رئيس اللجنة التنفيذية ايضا نظرة على عالمنا بابعاده ومشاكله وقضاياه في كافة المجالات .

وانتهت الجلسة الأولى عند حدود العرض الذي قدمه رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وعند عبارات محددة قالها أجاويد تعقيباً على العرض ، من بينها قوله .

كانت تحليلاتكم درسا تاريخيا وعلميا . ونحن نتفق مع ما جاء في هذه التحليلات تماما . لقد طرحتم قضية فلسطين بوضوح وقدمتم الحل الصحيح للمسألة الفلسطينية .

بعد ذلك دار حوار غني باشره الأخ ابو عمار وشارك فيه اعضاء الوفد ، انضج النقاط التي طرحت وأوصل الى رؤية مشتركة .



اما الجولة الثانية من المحادثات فكانت اثناء حفل العشاء الذي اقامه اجاويد للوفد الفلسطيني ، وكانت الجولة الثانية هي الاخيرة بسبب الموعد الذي ارتبط به ابو عمار مسبقا لزيارة المانيا الديمقراطية ، كضيف شرف يشارك في احتفالات مرور ثلاثين عاماً على تأسيس الدولة واقامة النظام الديمقراطي الاشتراكي فيها .
في الجولة الثانية تحدث رئيس الوزراء التركي بولاند أجاويد ، مركزاً في حديثه على ضرورة تحقيق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، ومؤكداً انه لا يمكن الوصول الى سلام عادل ودائم وشامل في منطقة الشرق الأوسط دون تحقيق هذه الحقوق .

واشار أجاويد ايضا الى القدس بصفة خاصة ، مؤكدا التزام تركيا بقرارات المؤتمر الاسلامي بشأنها .

واستغرق حديث رئيس الوزراء التركي ما يقرب من ٩٠ دقيقة عرض خلالها رؤية تركيا للاحداث في المنطقة وفي العالم ، وتطرق لجميع النقاط التي طرحها ابو عمار ، شارحاً ظروف تركيا وخصوصية سياستها .

كما عرض للعلاقة بين اوروبا وامريكا ، مؤكداً أن السياسة الاوروبية هي امتداد للسياسة الامريكية . وإن كان هناك هامش يفصل بينهما .

وتحدث عن العلاقات العربية التركية ، مشدداً على ضرورة تنمية هذه العلاقات .

وفي مجال العلاقة مع منظمة التحرير الفلسطينية اشار السيد اجاويد الى بعض المواقف التي تختلف عليها المنظمة مع تركيا خصوصا قضية قبرص . غير أنه اكد على ان هذا الخلاف لن يقلل من تصميم تركيا على تأييد الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني .
ولقد ساد المحادثات التي شارك فيها كامل الوفد الفلسطيني مع السيد اجاويد ونائبه وعدد من معاونيه ، جو ودي للغاية زادت حرارته كثيراً عن المألوف في مثل هذه اللقاءات والمحادثات الرسمية .

وقد عقد ابو عمار قبل مغادرته انقرة مؤتمراً صحفيا اكد فيه على انه لاسلام ولا أمن في المنطقة ولا في اوروبا طالما لم يستعد الشعب العربي الفلسطيني حقوقه الوطنية المشروعة .

أما حول محادثاته مع رئيس الوزراء التركي ، فقد اكد رئيس اللجنة التنفيذية على أنه تم بحث العلاقات الثنائية ومشكلات الطاقة والعلاقات التركية العربية والفلسطينية والموقف الدولي .

هذا وقد وصف الأخ أبو عمار زيارة القس جيسي جاكسون للبنان بأنها كانت بناءه وكللت بالنجاح .

واضاف الاخ ابو عمار بأن المنظمة تتمتع بمساندة قوية من قبل السود الامريكيين بالاضافة الى العناصر الصديقة في الكنيسة والكونغرس .

وعن جنوب لبنان تحدث ابو عمار عن خرق اسرائيل المتواصل لوقف اطلاق النار ، وقال انه رغم ذلك يجري تزويدها بأخر الاسلحة الامريكية وتحظى بدعم سياسي واقتصادي ودبلوماسي كامل في واشنطن .

وقال ابو عمار ان نظام حكم السادات واسرائيل والولايات المتحدة الامريكية يريدون الادعاء باقامة حكم ذاتي اقليمي ، واني اسألكم هل توجد دولة في العالم ليس لها حدود تاريخية ولا حدود دفاعية ولا حتى مصادر مياه .

على صعيد آخر لفت النظر الاستقبال الشعبي الضخم الذي لقيه الاخ ابو عمار اثناء افتتاحه مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في انقرة . وقد تم هذا الاستقبال اثناء مروره في الشوارع واثناء مغادرته المطار الى برلين

عاصمة جمهورية المانيا الديمقراطية ، بوصفه تعبيراً عن حقيقة عواطف الشعب التركي تجاه كفاح الشعب الفلسطيني .

لقد كان كل من الاستقبال والتوديع حاراً على الصعيد الرسمي ، وكان حماسيا وعارما على الصعيد الجماهيري ، وظلت الهتافات تسمع حتى اقفال باب الطائرة الخاصة التي قدمت من برلين لنقل رئيس اللجنة التنفيذية . والوفد المرافق ، وحتى تشغيل محركات الطائرة .

هذا وقد صدر في نهاية الزيارة البيان الصحفي التالي :

في ختام الزيارة صدر بيان صحفي وصف جو المحادثات بأنه كان وديا واخويا ومعبراً عن ايمان الطرفين بأن التعاون الوثيق والتضامن بين الدول العربية والدول الاسلامية في المنطقة سيساعد الى حد بعيد على حل قضاياها دون تدخل اجنبي . وعكس تقدير منظمة التحرير للتأييد التام الذي تقدمه حكومة تركيا وشعبها للشعب الفلسطيني في نضاله من أجل تحقيق انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة بما فيها القدس ، وتحقيق الحقوق الثابتة له ، بما فيها حقه . في اقامة دولته المستقلة بقيادة المنظمة .

من انقره اتجه أبو عمار والوفد الفلسطيني الى برلين ، ملبيا دعوة جمهورية المانيا الديمقراطية ليكون ضيف شرف في احتفالاتها بالذكرى الثلاثين لتأسيسها . وقد سبقت هذه الزيارة اتصالات جرت بين برلين وبيروت على مدى أسبوعين لاعداد ترتيبيات الزيارة بشكل يعكس اهميتها .

وفي برلين كان استقبال الوفد الفلسطيني من القادة الالمان يشع بالحرارة والدفء . وكان على رأس المستقبلين في المطار الرفيق غورينبرغ عضو المكاتب السياسي للحزب الاشتراكي الالماني الموحد ، الذي هو في الوقت نفسه صديق شخصي لرئيس اللجنة التنفيذية .

وعندما وصل ابو عمار الى قاعة الاحتفال كان في استقباله عضوان من اعضاء المكتب صحباه الى حيث جلس في المقعد المخصص له في الصف الاول على المنصة الرئيسية مع رؤساء الدول الاشتراكية والدول الصديقة الاخرى الذين شهدوا الاحتفال . فكان هذا تكريما لفت نظر المراقبين ، الذين عدوه تكريما لفلسطين في شخص رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة .

اما التكريم الثاني فكان عندما اتى عريف الحفلة ، وهو يعدد اسماء كبار الضيوف ، على ذكر اسم ياسر عرفات ، فنال تصفيقا مطولا من منصه الشرف و في االقاعة .

وكان واضحا بما لا يقبل الشك ذلك الاهتمام الذي حظي به ضيف الشرف الفلسطيني . وازداد الأمر وضوحا في حفل الاستقبال الذي اقامه الرفيق ارشي هونيكر . فقد اصطحب السكرتير العام للحزب الالماني الاشتراكي الموحد ضيفه ياسر عرفات ،وتولى بنفسه تقديمه الى القادة الاشتراكيين . فتبادل الاخ ابو عمار والرئيس الرفيق ليونيد بريجينيف العناق والقبلات، فيما تحادثا بعض الوقت قبل ان يتقبل التحيات من قادة الدول الاشتراكية الآخرين .

وشرب هونيكر نخب الصداقة الالمانية الديمقراطية مع الاتحاد السوفيتي ونخب وحدة القوى المحبة للسلام والمناضلة ضد العدوان الامبريالية . وبعد ذلك رفع كأسه عاليا وقال : لنشرب نخب صديقنا العزيز المناضل ياسر عرفات .

بعد انتهاء حفل الاستقبال قام الأخ ابو عمار والرئيس سيكوتوري بتكريم ابطال الجيش السوفييتي ، وقد سارا معا على وقع « لحن حزين » عزفته فرقة موسيقية على طول الطريق حتى المقبرة التي وارت خمسة الآف من الجنود الضباط والجنرالات السوفييت .

بعد ذلك عقد الأخ ابو عمار والرئيس سيكوتوري لقاء خاصا بحضور الوفد الفلسطيني ، وكان قبل ذلك قد استقبال السيد روميش شاندرا سكرتير مجلس السلم العالمي .

وفي صباح الأحد ١٩٧٩/١٠/٧ استقبل الاخ ابو عمار والوفد الفلسطيني في مقر منظمة التحرير الفلسطينية السفراء العرب المعتمدين لدى جمهورية المانيا الديمقراطية .

ومن هناك توجه الوفد الى مطار برلين حيث كان في وداعه عند الطائرة الخاصة الرفيق غرونبيرغ . كما كانت الفتيات الالمانيات يقفن في انتظار الاخ ابو عمار لمصافحته والوفد المرافق ولوداعه بباقات الزهور .

زياد عبد الفتاح

ردود الفعل الاسرائيلية على الثورة الايرانية

أجمعت المصادر الاسرائيلية، في تعليقاتها على انتصار الثورة الايرانية، على أن اسرائيل كانت، بنتيجته، من اكبر البلدان المتضررة، بسبب قضائه على العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بينها وبين نظام الشاه. فعلاقات اسرائيل مع ايران كانت متشعبة ومتنوعة منذ قيامها. وكما سمح الملك كورش في حينه لعزرا باعادة مهجري بابل الى القدس، سمح الشاه ليهود العراق بعبور بلده الى اسرائيل، بعد حرب ١٩٤٨ بوقت قصير. ومع الايام اقيمت علاقات دبلوماسية غير رسمية بين الدولتين، ولكن بعد سقوط الشاه، اصبح بالامكان القول بأن سفيرا اسرائيليا كان موجودا في طهران بصورة دائمة، وان هيئة تمثيل دبلوماسية ايرانية كانت موجودة في تل ابيب. اما آخر سفير اسرائيلي في طهران، فكان يوسف هارملين الذي يعمل حاليا سفيرا لاسرائيل في جنوب افريقيا. وقد سبقه في هذا المنصب الدكتور يوسف دورئييل ومئير عزرا واوري لوبراني — وكل من هؤلاء ساهم قدر طاقته في توطيد العلاقات الخاصة بهذه الدولة المهمة، في اطار سياسة ذات طموحات بعيدة، وضعها دافيد بن غوريون، ارتكزت على شق حلقة الحصار العربي، عن طريق اقامة علاقات مع الدول المحيطة به: ايران وتركيا واثيوبيا (شموئيل سيغن، معاريف، ٢١/٩/٧٩).

إلا ان هذه العلاقات الوثيقة لم تساعد الشاه، كما يبدو، في قمع الثورة ضده: اذ ان اسرائيل حذت حذو الولايات المتحدة في عدم مساعدته ، مدعية أن وقت قيامه بعمل مجد قد فات. لذلك رفض رئيس الحكومة مناحيم بيغن ووزير الخارجية موشي دايان، طلبا تقدم به الشاه الى اسرائيل، قبل سقوطه بأسابيع، يدعو فيه شخصية سياسية اسرائيلية لزيارته في طهران «لكي يتشاور معها بشأن الوضع» (اوري دان، معاريف ٢١/٢/٧٩). وقد جاء رفض بيغن رغم ان دايان اسرع، قبل سنة من هذا التاريخ، الى طهران، لكي يبحث مع الشاه في نتائج زيارة السادات الى القدس. وقد استقبل دايان هناك بحفاوة بالغة. وكان الموضوع الرئيسي في المحادثات بين الطرفين هو المفاوضات بين اسرائيل ومصر، وانعكاساتها على دول عربية اخرى، لا سيما الاردن. كما تركز البحث، في هذا اللقاء، على كيفية ضم الملك حسين الى المفاوضات.

«لقد اعتبر الشاه نفسه قيما على الملك حسين والمتحدث باسمه امام الاسرائيليين. وفي اكثر من مرة، عندما كان يشعر بضعف مركز حسين، لم يتوان عن حث اسرائيل على تقديم بعض التنازلات له.. .لقد ذهب الشاه القوي وبقي الحسين الضعيف» (المصدر نفسه). اما النفط الذي كان الشاه «يتظاهر بالقول بصورة دائمة في المقابلات والتصريحات المختلفة، بقطعه عن اسرائيل، إذا لم تنسحب من المناطق المحتلة.. فقد قطعه الخميني الذي قضى أيضا على جميع العلاقات المتشعبة والمثمرة التي تطورت خلال الـ٢٥ سنة الاخيرة. لقد تمثل طلب الشاه من اسرائيل طوال هذه المدة في ان تبقى العلاقات بين طهران والقدس سرية تماما، لانه بصفته زعيما لدولة اسلامية كايران، لا يمكن ان يسمح لنفسه، لاسباب داخلية وخارجية، باقامة علاقات علنية وصريحة مع اسرائيل. وتحت غطاء السرية تحولت ايران «الشاه» الى حليفة لاسرائيل بصورة عملية في مواضيع حيوية كثيرة.. تطورت الى مصالح مشتركة، ابتداء من تزويد النفط وحتى تحلية مياه البحر» (المصدر نفسه).

وبالنسبة للعلاقات العسكرية فان المدعو يعقوب نمرودي كان عمليا الملحق العسكري الاسرائيلي في طهران، «وقد كان معروفا لدى وزارة الخارجية الايرانية كممثل للجيش الاسرائيلي ووزارة الدفاع هناك. واستطاع احراز

تقدم كبير في العلاقات الخاصة بين البلدين بسبب علاقاته الاجتماعية مع كبار الشخصيات في الجيش وخارجه» (المصدر نفسه).

وتتحدث المصادر الاسرائيلية حول دوافع الشاه الهادفة الى تقوية العلاقات مع اسرائيل، اضافة الى كونه حليفا للغرب، بقولها: «إن الشاه الذي خاف من اغلبية الدول العربية المعادية لاسرائيل، قد ادهشته قوتها العسكرية. لقد كانت خشيته وكراهيته للناصرية، لا تقلان عن خشيته وكراهيته للخمينية في اواخر عهده. اما الولايات المتحدة فقد رحبت باقامة وتعزيز هذه العلاقات في أواخر الخمسينات ـ «مقابل الخطر السوفييتي» ـ بين اسرائيل وايران وتركيا واثيوبيا. ان البيت الكبير في ايران (الذي سلم الى منظمة التحرير) كان سفارة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، مع ملحقين اقتصاديين وغيرهم» (المصدر نفسه).

لذلك كان سقوط الشاه في ايران بمثابة صدمة قوية لاسرائيل، عبر عنها زعيم حزب العمل شمعون بيرس بقوله: ان «انتصار الخميني كان من التطورات الاكثر خطورة، والاكثر المًا، التي عرفتها اسرائيل منذ زمن بعيد (دافار، ٥/٢/٧٩). كذلك اعلن رئيس الحكومة الاسرائيلية السابق اسحاق رابين ان «التغيير في ايران هو ضربة قوية جدا» مضيفا انه في «هذه المرحلة ليست هنالك امكانية لاقامة «خط دفاع» غربي يرتكز على اسرائيل والسعودية ومصر» (دافار، ٣/٢/٧٩).

ومع التباكي على فقدان العلاقات الاستراتيجية مع إيران، لم ينس الاسرائيليون التشهير والذم بزعماء الثورة الايرانية، والخميني خاصة، الذي وصفوه «بالرجل المتعصب الذي يريد الغاء الدستور ونظام الحكم القائمين في بلده واقامة الجمهورية الاسلامية» (افتتاحية معاريف، ١/٢/٧٩). ورغم هذا القول فان اسرائيل لم تخف دهشتها امام نجاح الثورة بقيادة الخميني، إذ «كيف حدث هذا الأمر؟ ان رجل دين مسن، على بعد آلاف الأميال من بلده، ودون ان يتوفر لديه شيء من اجهزة الحكم، او حتى مدفع واحد، وفقط بقوة «همسات» كانت تسجل على«كسيتات»، استطاع اسقاط شاه عظيم وحاكم مطلق، حكم شعبه بقوة احد الجيوش الأكثر تجهيزا، وبشبكات متشعبة من اجهزة المخابرات والتجسس، وبقوة آلة حكم مركزية عديمة الرأفة.

«نقول هذا الكلام بعد حدوثه، اذ قبل ذلك لم يعتقد أبدا ان بامكانه ان يحدث الا ان ثورة كهذه، شبيهة بتلك التي نفذها فلاحون وعمال ورجال دين في الأجيال الغابرة، لم يعد حدوثها ممكنا في دولة حديثة. حتى ان الخبراء لا زالوا غير مدركين لمسار توجه هذه الثورة حتى الآن، فكم بالحري نحن عامة الشعب. ولكن من الواضح ان ما حدث يمثل انهزاما ساحقا «لحقوق الانسان» بكل معانيها كما وردت في ميثاق الامم المتحدة الذي وقع في القرن العشرين، على أساس التفكير الاجتماعي الغربي، الذي يتمثل في الديمقراطية البريطانية وما شابهها. لقد قضي على هذا الأمر قضاء مبرما. (حانوخ بارطون،معاريف ، ١٦/٢/٧٩).

ورغم إنتصار الثورة فان اسرائيل ما زالت تشك في قدرة قيادتها على التغلب على المشاكل الداخلية، معتبرة ان ما تم حتى الآن «ربما لن يكون نهاية المطاف، اذ بعد ما سيطرت على إيران العقيدة الدينية العمياء.. وندد بالغرب وبحضارته «الفاسدة»، فقد تسقط هذه الثمرة في يد الدب المرابط في الشمال على امتداد الفي كيلومتر من الحدود المشتركة» (المصدر نفسه). ويلاحظ ان الاسرائيليين ما زالوا مهتمين جدا بما يجري في ايران، اذ رغم «ان انتصار الثورة هناك، ليس سوى انتصارا «للديكتاتورية» ـ على حد تعبيرهم ـ «فاننا لا نستطيع بعدما حدث ان نخبيء رأسنا في الرمال. فالرمال في تلك المناطق مشبعة بالنفط كما هو معروف» (المصدر نفسه).

واهم ما تؤكد عليه المصادر الاسرائيلية انها لم تفاجأ أبدا بما حدث في ايران، فقد اعلن السفير الاسرائيلي في طهران في اواخر عهد الشاه، والمدعو يوسف لوبراني، «انه منذ مطلع نيسان ١٩٧٨ كان تقديره ان الأزمة الداخلية في ايران هي اكثر تعقيدا مما يمكن توقعه. وفي تقرير حول تقييمه للوضع، ارسل من قبله الى وزارة الخارجية في القدس في بداية الصيف مبعوثا من قبله،وقد عبر لوبراني عن رأيه بأنه يتوقع تغييرا في نظام الحكم في ايران. وقد بحث هذا التقييم مع حكومة الولايات المتحدة، فكان رأيهامخالفا ،وتمثل في ان: «بامكان الشاه التغلب على ما يحدث» (من حديث مع لوبراني في معاريف ٢١/٩/٧٩) . ويتحدث حول «عدم المفاجأة» باحداث ايران البروفيسور حاييم شيكد، احد الباحثين في معهد شيلداح للدراسات الشرقية ومدير كلية العلوم الاجتماعية في جامعة تل ابيب، فيقول

ان ثورة إيران لم تفاجئه ابدا «لأن هناك موجة اسلامية متطرفة ستعم دول الشرق الاوسط الواحدة تلو الاخرى» (من مقابلة مع بروفيسور حاييم شيكد، يديعوت احرونوت، ٧٩/٢/١٦). ويصف شيكد الزعيم الخميني بقوله: «ان اهم امرين بالنسبة له هو مركزه والجماعة التي يمثلها، «فهو يتمتع بمركز كبير بين رجال الدين الشيعة في ايران وذو شخصية كريزماتية، تتجاوز حدود المعتدل. انه يشع بالسلطة والقوة ومركزه كرجل دين يكسبه مركز قوة مهم جدا في ايران، البلد الشيعي الذي يتمتع فيه رجال الدين بمركز خاص». ويضيف شيكد كغيره من الكتاب الاسرائيليين الذين اعربوا عن ارائهم تجاه ما حدث ويحدث في ايران، ان «سيطرة الخميني على الحكم ليست نهاية المطاف، لأنه مضطر للبرهنة على مقدرته في ادارة الدولة بشكل منتظم.. وهذا هو الامتحان الأساسي الذي يواجهه» (المصدر نفسه).

وقبل ان ننتقل الى الانعكاسات التي احدثتها الثورة الايرانية بالنسبة لاسرائيل سياسيا واقتصاديا، لا بد ان نقول ان ردود الفعل الاسرائيلية الاولية على انتصار الثورة، قد تمثلت في تساؤلات عدة ربما عكست حالة الارتباك ازاء ما يحدث، «فهل ستتبع ايران طريق ليبيا «الثورية»، وتتجه نحو التعاون مع الاتحاد السوفييتي، رغم الاختلاف الجغرافي الكبير بينها وبين ليبيا؟ هل تعلن عن حيادها وتسير في طريق دول «العالم الثالث»؟ هل ستتبع الحذر في إحداث تغييرات دراماتيكية في مجال سياستها الخارجية، آخذة بعين الاعتبار ان مفاهيم قيادة الجيش لديها ليست فقط مبنية على الاسس الغربية، وانما جيشها مزود ايضا بكامله بالاسلحة الامريكية؟ وكيف ستكون سياستها النفطية؟.. إن انتصار «الثورة الاسلامية» في ايران هو صدمة عنيفة للغرب كله ولتطلعاته ـ واسرائيل شريكة في ذلك ايضا ـ بشأن حدوث استقرار في الشرق الأوسط. (من افتتاحية معاريف، ٧٩/٢/١٢).

كيف تأثرت اسرائيل بانتصار الثورة الايرانية

لقد ترتب على قطع العلاقات بين اسرائيل وايران، بعد انتصار الثورة نتائج كثيرة في مختلف الحقول ـ سياسيا وعسكريا واقتصاديا ـ الحق اضرارا كبيرة باسرائيل.

إقتصاديا، خسرت اسرائيل مصدرا اساسيا لتزويدها بالنفط. وقد كشف النائب يوسف تامير، احد اعضاء لجنة الخارجية والأمن في الكنيست ان «اسرائيل كانت تحصل على ثلثي النفط الذي تستهلكه من ايران. وحتى اذا حصلت على مصادر بديلة فانها ستكون غالية» (معاريف، ٧٩/٢/٨). واضاف تامير ان استخدام احتياطي النفط في اسرائيل، ثم الالتزام الامريكي بتزويدها بالنفط وقت الحاجة، امران يتعلقان فقط بحالة الطوارىء، «لذلك ينبغي عدم السكوت على مسألة انقطاع النفط من ايران». وعلى أي حال، فان اسرائيل قد حصلت على نفط سيناء خلال المفاوضات المتعلقة بتنفيذ اتفاقية السلام المنفردة بينها وبين مصر، الأمر الذي خفف كثيرا من الاثر «السلبي» الذي تركه انقطاع النفط من ايران.

إضافة الى انقطاع النفط، لحقت باسرائيل اضرار مادية كبيرة بعد انقطاع العلاقات التجارية بينها وبين ايران. وقد اتضح ان الصادرات الاسرائيلية لايران بلغت في السنة الماضية فقط، اي ١٩٧٨، ٢٢٥ مليون دولار. وتركزت الصادرات الاساسية الى ايران في فرعي البناء والزراعة، كذلك تم تصدير منتوجات مختلفة من الالبسة والمعدات الزراعية والمواد الكيماوية. إضافة الى ذلك فقد كانت شركة الطيران الاسرائيلية الـ «عال»، تقوم برحلات يومية في خط تل ابيب ـ طهران، وهو الخط الذي كان يعتبر من اكثر الخطوط المربحة للشركة (هارتس، ٧٩/٢/٢٣). وعلم ان بعض المصانع الاسرائيلية بدأت تغلق ابوابها نتيجة توقف صادراتها الى ايران، وعدم تمكنها من ايجاد سوق بديل، ومنها مصنع الألبسة «بيرستون» في العفولة الذي يستخدم ١٣٠ عاملا، والذي كان يصدر الى ايران الخيوط والاقمشة (معاريف، ٧٩/٣/١).

كذلك خسرت اسرائيل، من جراء قطع العلاقات مع ايران، على صعيد التعاون العسكري الذي كان قائما بين المؤسستين العسكريتين الاسرائيلية والايرانية، خاصة في حقلي التجسس والتدريب. واسرائيل لا تنكر علاقاتها بـ « السافاك » ، وقد « تكيفت جدا مع جو الفساد الشخصي الذي ميز اوساطا معينة في القيادة الايرانية في عهد الشاه » (من افتتاحية دافار ، ٧٩/٢/٢٠) .

على أي حال لا يمكن فصل النتائج والانعكاسات العسكرية لثورة ايران في المنطقة وفي اسرائيل بوجه خاص،

عن النتائج او الانعكاسات في المجال السياسي. فانتصار الثورة الايرانية قد اخل بميزان القوى ــ العسكري والسياسي ــ الذي كان في عهد الشاه قائما لمصلحة الغرب، خصوصا الولايات المتحدة، والذي كان مبنيا في الاساس على العلاقات بين اسرائيل وايران. ومن هنا تركزت اسرائيل في تحليلاتها للوضع بعد سقوط الشاه: على امور عديدة اهمها: كيف يمكنها ان تشغل الفراغ الذي حدث بعد انتصار الثورة الايرانية لمصلحتها، سواء فيما يتعلق بعلاقاتها مع الولايات المتحدة، او بالمفاوضات السياسية التي كانت دائرة بينها وبين مصر برعاية اميركية لتطبيق اتفاقات كامب ديفيد، او بتنمية قوتها العسكرية ومحاولة اخذ دور الشاه في المنطقة؟ ثم ما هو الدرس الذي يجب عليها ان تتعلمه من ثورة ايران، وكيف تنظر الى مستقبل هذه الثورة خاصة فيما يتعلق بالوضع الداخلي في هذا البلد؟

وللوقوف على رأي اسرائيل في هذه المواضيع نذكر اولا ما اورده البروفيسور الاسرائيلي عمانوئيل سيفان حول التقييم السياسي الذي اجرته الادارة الاميركية بعد انتصار الثورة الايرانية، والدور الذي رسم لاسرائيل في النظام العسكري السياسي الجديد الذي سيقوم في المنطقة نتيجة الوضع الجديد. وحسب قول سيفان، فان مستقبل الوضع في السعودية ومصر والخوف من تاثرهما باحداث ايران، محور البحث في الادار الاميركية، الذي تلخص اخيرا في البندين التاليين: اولا، تقوية نظام الحكم في السعودية عسكريا. ثانيا، محاولة تثبيت الوضع في الشرق الاوسط، وبخاصة ايجاد حل للنزاع الاسرائيلي ــ العربي، خوفا من ان يشكل ذلك خطرا على السعودية. «وبالنسبة للعوامل السائدة في مصر، فقد ادرك الجميع انها لا تختلف كثيرا عما ساد في ايران: جمود اقتصادي وزيادة كبيرة في عدد السكان، بروز طبقة جديدة من الاغنياء، طموحات متزايدة لم تتحقق بعد لدى الطبقة المتوسطة بعد حرب اكتوبر، كايجاد اماكن عمل واحراز تقدم في مستوى معيشة خريجي الجامعات، وتوفير مساكن للجماهير التي تتدفق من الريف الى المدن وما شابه ذلك... (اضافة الى ذلك) تجدد الانبعاث الاسلامي على خلفية الازمة في القيم وفشل الايديولوجيات القومية والاهداف المادية، الامر الذي تمثل بوجه خاص في سيطرة الاخوان المسلمين على التنظيمات الطلابية والضغط من اجل تطبيق احكام الشريعة الاسلامية في قضايا الاحوال الشخصية» (معاريف، ٩/٢/٧٩).

ويضيف سيفان قائلا ان «الحل المطلوب حسب رأي «مجموعة السياسة الخارجية» الاميركية، مزدوج: مشروع مارشال لانقاذ الاقتصاد (المصري)، بحيث يدمج ما بين استثمارات في القاعدة (الاقتصادية) واحداث تحسن في وضع المنتوجات الاستهلاكية، ثم توقيع اتفاق سلام مع اسرائيل.

«باختصار تمخض التقييم السياسي الجديد (في الولايات المتحدة) عن طرح مسألتين اساسيتين: اولا، ازدياد اهمية السعودية بعد سقوط العامود الفقري، ايران ثانيا،: وجوب الاسراع في تسوية النزاع الاسرائيلي ــ العربي، وقبل كل شيء الاسرائيلي ــ المصري، يليه بعد ذلك الموضوع الفلسطيني، وفي المستقبل غير البعيد السوري ايضا» (المصدر نفسه).

وما هو الدور الذي رسم لاسرائيل في عملية التقييم هذه؟ يقول الكاتب ان مركز اسرائيل لم يقو نتيجة الوضع الجديد في ايران، فهي شبيهة بمصر في ضعفها الاقتصادي، وقد ازداد تعلقها بالولايات المتحدة بعد توقف ضخ النفط الايراني لها. اما قوتها الاساسية فتكمن في ارتباطها مع قطاعات هامة في الراي العام في الولايات المتحدة، وفي قدرتها على الازعاج، وعلى إحداث ضرر بسبب قوتها العسكرية ونزاعها مع العرب. «وبما ان الحديث عن تدخل عسكري في الشرق الاوسط لم يعد جديا بعد حرب فيتنام (الا في الحالات الاستثنائية جدا والتي تبدو غير معقولة) فان وزن (اسرائيل) كقاعدة عسكرية لم يرتفع... اما قوة الجذب في الديمقراطية الاسرائيلية فقد انخفضت كثيرا بسبب سيطرتها على الضفة الغربية وقطاع غزة...» (المصدر نفسه).

وقد جاءت زيارة وزير الدفاع الاميركي هارولد براون الى بعض دول المنطقة، ومنها مصر واسرائيل والسعودية، في الاسبوع الاول من شهر شباط الماضي، لتسلط الضوء على خلفية هذا التقييم الجديد للسياسة الاميركية بعد انتصار ثورة ايران.

فعلى الرغم من ان موضوع التسليح كان الطاغي على المحادثات التي اجراها براون في المنطقة، خاصة في اسرائيل ومصر، فان الجانب السياسي ــ الاستراتيجي لم يغب عنها. وحسب ما ذكره احد المراسلين الاسرائيليين في

واشنطن فان براون قد طرح خلال زيارته الى الشرق الاوسط فكرة اقامة حلف غير رسمي يضم كلا من مصر والسعودية والاردن والسودان ودول الخليج واسرائيل. والى جانب ذلك فقد جاء وزير الدفاع الاميركي الى المنطقة لكي يتباحث مع ذوي الشأن في الثمن المطلوب الذي ستدفعه بلاده (من اسلحة واموال) من اجل انجاح المفاوضات بين مصر واسرائيل وعقد معاهدة السلام بينهما، والسعي للحصول على تاييد السعودية للاتفاق وانخراط الاردن في المفاوضات (مراسل صحيفة عل همشمار في واشنطن، زئيف بليتسر ــ عل همشمار، ٧٨/٢/٤)

وخلال زيارة براون الى المنطقة سارعت كل من مصر واسرائيل الى الاعراب عن رغبتهما واستعدادهما للحلول مكان ايران، من الناحية العسكرية الاستراتيجية. وعلم ان وزير الدفاع الاميركي يميل الى ترشيح مصر لهذه المهمة. إلا أن اسناد مهمة شرطي المنطقة الى مصر لم تقلق اسرائيل ابدا، بسبب ادراكها ان مكانتها محفوظة في (السياسة) الاستراتيجية العالمية. فعندما يتطلع (الاسرائيليون) الى ما حصلوا عليه في الولايات المتحدة، يدركون أن هؤلاء لا يتجاهلونهم ابدا. الا انه ينبغي عدم تجاهل الحقيقة المطلقة وهي انه، من الناحية الاستراتيجية الاقليمية، فان مصر هي ذات اهمية اكبر بالنسبة للمصالح الاميركية، والولايات المتحدة تنظر الى الامر من هذا المنطلق. واذا كانت هناك رغبة في واشنطن لتحويل مصر الى الحليف الاميركي الاول في الشرق الاوسط ــ فان هذا ممكن فقط بشرط تحقيق سلام بين القاهرة والقدس. والسادات يعرف ذلك، ويعرف ايضا ان الثمن الذي يتوجب عليه دفعه مقابل تحقيق هدفه في ان يصبح الحليف الاول للولايات المتحدة، هو السلام مع اسرائيل» (اريئيل غيناي، يديعوت احرونوت، ٧٩/٢/٩).

باختصار، ادركت اسرائيل بعد انتصار الثورة في ايران، ثلاثة امور اساسية: اولا، ان الولايات المتحدة باتت مهتمة جدا في تحقيق تقدم في المفاوضات السياسية بين مصر واسرائيل، وبالتالي توقيع معاهدة سلام بينهما، وذلك لتعزيز مواقعها في مصر والسعودية (حسب رايها). ثانيا، ان مصر ايضا تعمل جدة للوصول الى معاهدة سلام مع اسرائيل، «اذ ان عدم الهدوء في الجامعات وحالة الفقر المدقع في البلد، يسهلان دخول الخمينية بكامل قوتها حتى دون الحصول على إذن بالدخول» (يوئيل ماركوس ــ هارتس، ٧٩/٢/١٢). وكان تقدير الاسرائيليين ان توقيع السادات على السلام سيحوله الى بطل العالم العربي لا الى خائن. ولكي يحقق ذلك، عليه ان يهتم بتنفيذ الحكم الذاتي ــ اي وطن قومي ــ للفلسطينيين. اذ خلافا لذلك فان الخمينية ستجر الفلسطينيين، وتؤدي الى زعزعة الوضع في العالم العربي كله ــ في الكويت والسعودية وباقي الدول العربية التي يعمل فيها فلسطينيون» (المصدر نفسه).

اما المسألة الثالثة التي ادركتها اسرائيل فهي ان باستطاعتها ــ اذا ما اتبعت خط التطرف في المفاوضات السياسية الدائرة ــ تحقيق تنازلات سياسية هامة من جانب مصر، الامر الذي تحقق بصورة جلية وواضحة في معاهدة السلام بين البلدين. وفي هذا الشأن تفيد المصادر الاسرائيلية ان «ظل الخميني» كان يرفرف على المفاوضات النهائية التي سبقت توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل، خاصة اثناء زيارة الرئيس كارتر الى كل منهما، قبيل توقيع المعاهدة (المصدر نفسه).

كذلك ادركت اسرائيل ان باستطاعتها استغلال ضعف السياسة الاميركية بعد سقوط الشاه، لابتزاز الاموال والاسلحة الحديثة، خاصة وان السنة المقبلة، هي سنة انتخابات في الولايات المتحدة. وفي هذا السياق تفيد المصادر الاسرائيلية، ان ردة فعل الوزير براون على طلب اسرائيل المتمثل في الحصول على اسلحة بقيمة ٧,٥ مليار دولار خلال ٥ سنوات، والاسراع في تسليم طائرات ف ــ ١٦ الى سلاح الجو الاسرائيلي، انما تدل على أن فهم دور اسرائيل في الشرق الأوسط انما يطبق نظريا وعمليا (اريئيل غناي ــ يديعوت احرونوت، ٧٩/٢/٢٥).

الا ان دور اسرائيل في الشرق الأوسط، لا يتماثل مع دور ايران في عهد الشاه بسبب القيود المفروضة على استخدام قوتها العسكرية من جانب الولايات المتحدة. «فهي تستطيع استخدام هذه القوة للحفاظ على امنها ولمنع تدخل من الخارج. ويمكن استخدامها ايضا في حال مواجهة شاملة بين الغرب والشرق في المنطقة. الا انه لا يمكن استخدام هذه القوة في عمليات صغيرة نسبيا، الهدف منها منع التآمر في دولة هامة من الناحية الاقتصادية او الاستراتيجية في الشرق الاوسط، او منع غزو شامل من جانب احدى الدول المتطرفة لمناطق هذه الدولة. وهذه الحالة

ناتجة عن وضع اسرائيل الخاص في المنطقة وواضح ان هذه القيود لا تسري على مصر (المصدر نفسه). على اي حال فان الولايات المتحدة ما دامت تجد حاليا من يلعب «دور الشرطي» بين الدول العربية نفسها، فلماذا تلجأ الى اسرائيل، فتثير بذلك مشاكل مع بعض الانظمة العربية الموالية لها، والتي لا زالت تعتبر اسرائيل عدوة.

ويتمثل موقف اسرائيل حتى الآن في رفض تسليح مصر والسعودية بكميات ضخمة من الاسلحة الاميركية الحديثة، ويبدو ان هذا الموقف يتطابق نوعا ما مع الموقف الاميركي المتردد حيال تزويد هذين البلدين بالاسلحة الحديثة، خوفا من تكرار تجربة ايران، خصوصا وان الوضع الداخلي في مصر عائم جدا حسب ما تذكره المصادر الاسرائيلية والاميركية. وقد علم ان السادات طلب تزويده بنحو ٣٠٠ طائرة حربية من نوع ف ـ ١٦، ومئات الدبابات والصواريخ التكتيكية للمدى القصير، ومدافع ومئات الآليات المدرعة. «الا انه يبدو ان الاميركيين تعلموا شيئا من احداث ايران وليسوا متحمسين جدا للاستجابة لطلبات مصر المبالغ فيها. ومع ان مصر ستحصل على مزيد من السلاح الاميركي، فان الكميات التي ستحصل عليها من هذا السلاح تقل كثيرا عن الكميات التي طلبتها منه (المصدر نفسه).

يمكن القول إن التاثير الذي احدثته ثورة ايران في المنطقة، كان حافزا رئيسيا في المفاوضات التي سبقت توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل، وذلك من اجل ملء الفراغ الذي تركه سقوط الشاه، بالنسبة للسياسة الاميركية. وبالرغم من ان اسرائيل قد خسرت العلاقات الاستراتيجية مع ايران، إلا انها حققت احد الاهداف الرئيسية التي كانت ترتكز عليها هذه العلاقات، وهو شق الحصار العربي، بواسطة معاهدة سلام منفردة بينها وبين النظام المصري. وربما كان سقوط الشاه حافزا رئيسيا ـ كما ذكرنا ـ لتحقيق هذه المعاهدة.

القلق الاسرائيلي من علاقات ايران بالعرب

رغم هذا المكسب الاسرائيلي، فان اسرائيل لم تهدأ بعد. وستبقى نتائج الثورة الايرانية تقلقها الى المدى البعيد، ويبدو ان اول الامور التي تقلقها هي علاقات ايران بالثورة الفلسطينية. ويجري تركيز المصادر الاسرائيلية في هذا الشأن، على «التقصير الذي حصل من قبل المخابرات الاسرائيلية، بحيث انه لم يكن لدى اسرائيل تقييم صحيح حول اكثر الامور المتعلقة بها، الا وهو مدى تدخل م.ت.ف. في حركة الخميني». فاسرائيل لم تدرك تماما ـ حسب قول هذه المصادر ـ مدى عمق تغلغل م. ت. ف في صفوف المعارضة المتطرفة، «ويبدو ان العلاقات بينهما بدأت واستمرت زمنا طويلا قبل ان تتبين اسرائيل مدى اهميتها» (الياهو سلفطر، معاريف، ٢٣/٢/٧٩).

وتزعم المصادر الاسرائيلية ان تاكيد تماثل الخميني مع م. ت. ف كجزء من الثورة الاسلامية العالمية، يبرز بالطبع الكذب في حديث م. ت. ف حول دولة فلسطينية علمانية. «فمن اين جاءت هذه الكراهية العمياء لاسرائيل التي برزت في الشارع الايراني؟ وكيف حصلت م. ت. ف على هذا المركز المرموق جدا في نظر رجال الخميني؟... هنالك مصدران للعداء المتطرف تجاه اسرائيل، اولهما التعصب الاسلامي، وثانيهما دخول م. ت. ف الى بيت الخميني منذ بداية المرحلة الجديدة لبروزه» (المصدر نفسه).

كذلك تخشى اسرائيل من ان تؤدي العلاقات بين م. ت. ف وايران الى قيام هذه بارسال قوات لها الى الجبهة الشرقية. وقد كان هذا الامر احد التقييمات الهامة التي اعلنها «مصدر امني رفيع» في اسرائيل امام لجنة الخارجية والامن في الكنيست، بعد انتصار الثورة الايرانية بوقت قصير (دافار، ١٥/٢/٧٩).

لذلك فاسرائيل تبارك حالة عدم الاستقرار السائدة حاليا في ايران، خاصة فيما يتعلق بالصراع العسكري الدائر بين قوات الثورة وبين الاقليات المتمردة، وبخاصة الاكراد. «فهناك ٢ـ٣مليون كردي، ٥٠٠ الف تركماني، و٧ ملايين اذربيجاني ينتمون جميعا للمذهب السني، ولا يتماثلون بشكل واضح مع ايران الفارسية الاسلامية. وبسبب ذلك اضطرت حكومة مهدي بازركان الى منح حكم ذاتي صوري، ثقافي محدود للاكراد، وهي تواجه الآن مطالب التركمانيين للحصول على الحكم الذاتي ايضا. فأخوتهم في الطرف الآخر من الحدود السوفياتية يعيشون اليوم في جمهورية خاصة بهم... وينبغي عدم تجاهل الاشاعات السائدة في ايران اليوم والتي تقول بمساعدة هؤلاء للتركمانيين الايرانيين، الذين يناضلون اليوم للحصول على حقوقهم الوطنية، ضد الجيش الايراني الاسلامي، مطالبين بالحكم الذاتي... كذلك فان العرب في منطقة خوزستان الغنية بالنفط يطرحون مطالب مماثلة ايضا...

«ومن هذه الناحية فليس هنالك ثمة فرق بين وجهات نظر الشاه وبين وجهات نظر الخميني ورجاله. وما من شك في أن الخميني ليس فقط رجل دين متعصب، وانما هو قومي ايراني ايضا. فمطالب الاقليات للحصول على الحكم الذاتي، لا تتناسب ابدا مع آرائه حول الطابع القومي للجمهورية الاسلامية الايرانية... وفي ظروف كهذه يمكن القول بصورة جلية وواضحة ان ايران الجديدة ستواجه في المستقبل القريب والبعيد مشاكل كثيرة، تمنعها من المشاركة النشطة في مظاهرة التأييد مع الدول العربية ومع القومية العربية وحتى مع م. ت. ف» (دون ايفل، دافار، ٧٩/٢/٥).

وبالرغم من كل ذلك فان المصادر الاسرائيلية لا تخفي قلقها ازاء احتمال تأثير ثورة ايران في الخارج. وحسب قول «المصدر الامني الرفيع» امام لجنة الخارجية والامن – الذي سبق ذكره – فان تركيا هي المرشحة الاولى «لانتقال الخطر اليها. واذا لم يمد لها الغرب يد المساعدة، فربما تسقط امام الموجة الاسلامية المتعصبة. والتقدير هو ان الغرب لن يتدخل في هذا البلد، كما لم يتدخل في ايران» (دافار، ٧٩/٢/١٥).

وحسب رأي البروفيسور حاييم شيكد الباحث في معهد شيلواح، فان البلدان الاولى المرشحة لان تتأثر بأحداث ايران هي دول الامارات العربية والمملكة العربية السعودية، «وذلك بسبب مصادرها النفطية، وكون هذه المنطقة ركنا هاما في النظام الاستراتيجي الغربي بسبب الطاقة الحيوية جدا التي تزود بها بلدانه الولايات المتحدة واوروبا واليابان، والتي زادت اهميتها بعد انقطاع النفط الايراني (يديعوت احرونوت، ٧٩/٢/١٦).

وعلى اي حال فان اسرائيل تعلق في هذا الصدد اهمية كبرى على كيفية الرد الاميركي او الاوروبي في حال تعرض هذه البلدان او غيرها «لموجة الثورة الاسلامية» – على حد تعبير الاسرائيليين – مما يشكل خطرا على امدادات النفط الى الغرب.

حنه شاهين

ندوة في صوفيا للتضامن مع فلسطين

عقدت بين السابع والحادي عشر من تشرين الاول، في ضاحية بانكي قرب مدينة صوفيا عاصمة بلغاريا «الندوة الدولية لدعم الصحافيين الفلسطينيين وقضية الشعب الفلسطيني».. وذلك بالتعاون بين اطراف ثلاثة: منظمة الصحافيين العالمية (ioj)، واتحاد الصحافيين البلغار، والاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين. وانهت الندوة اعمالها بنجاح مساء يوم ١١ تشرين الأول.

وقد حضر الندوة ١٩ وفدا موزعين كالتالي:

– وفدان يمثلان منظمة الصحافيين العالمية واللجنة الاجتماعية في المنظمة.
– وفد يمثل اتحاد الصحافيين العرب.
– سبعة وفود عربية (فلسطين – الجزائر – العراق – سوريا – تونس – البحرين – لبنان).

– سبعة وفود اشتراكية (الاتحاد السوفياتي، تشيكوسلوفاكيا، المانيا الديمقراطية، هنغاريا، بولونيا، رومانيا، بلغاريا).
– وفدان يمثلان فنلندا واليونان.

بدأ عمل الندوة بحفل الافتتاح الذي القيت فيه أربع كلمات اساسية. الأولى القاها كارل نوردن سترنغ رئيس منظمة الصحافيين العالمية، والثانية القاها الدكتور هانز تريفكورن سكرتير المنظمة، والثالثة القاها ايفان دونيف عضو الوفد البلغاري والاخصائي بالحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية، والرابعة كانت كلمة الوفد الفلسطيني القاها ناجي علوش رئيس الوفد.

قدم الوفد الفلسطيني في كلمته استعراضا تاريخيا لمسار القضية الفلسطينية ، بدءا من الصدام مع بريطانيا وفرنسا وانتهاء بالصدام مع الامبريالية الاميركية ، مؤكدا على حيوية النضال الفلسطيني الدائمة ، واصطدامه الدائم كذلك بالقوى الاستعمارية وبالقوى الرجعية العربية ، ومبينا وعي النضال الفلسطيني المبكر للفارق النوعي بين اليهودية والصهيونية ، وتركيزه على ان معركته هي ضد الصهيونية فقط . واكدت كلمة الوفد الفلسطيني في ختامها على : منظمة التحرير الفلسطينية كقائد شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، وعلى خطورة اتفاقات كامب ديفيد وضرورة النضال لاحباطها ، وكذلك النضال لاحباط مخطط الحكم الذاتي المنبثق عنها ، مع التنبيه الى المخطط الذي يجري تنفيذه بواسطة اسرائيل في جنوب لبنان بهدف جر اطراف جديدة الى حلقة كامب ديفيد . انتهت كلمة الوفد الفلسطيني الى التأكيد على نقطتين : ان النضال الفلسطيني هو جزء لا يتجزأ من النضال التحرري العالمي وأن هذا الوضع يرتب على الجميع مسؤوليات متبادلة ، وأن هذا النضال يستند الى تحالف مع جبهة تقدمية وديمقراطية عريضة اساسها المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي .

وحظيت كلمة الوفد البلغاري التي قدمها ايفان دونيف باهتمام خاص في الندوة بسبب ما تضمنته من تحليل دقيق للحركة الصهيونية وطبيعتها . قال دونيف :

ان الصهيونية ، اكبر شرور العصر ، قد نشأت كتيار رجعي بورجوازي قومي ... ويحاول الصهاينة من خلال نظرياتهم القومية ان يثبتوا بأن اليهود ، رغم اختلاف اوطانهم ، فانهم يمثلون (أمة يهودية واحدة) داعين (للتآخي الطبقي) بين جميع اليهود ، محاولين ان يحرفوا نضال شغيلتهم عن المعارك الطبقية المشتركة للعمال من مختلف القوميات ضد البورجوازية .

.... ان الرأسمال الصهيوني الذي يغذي نشاط المنظمات الصهيونية داخل اسرائيل وخارجها انما يمثل اكثر العناصر رجعية وشوفينية وعدوانية ، ويقوم هذا الرأسمال بممارسة الضغط على البرجوازية الحاكمة في اكثر العناصر رجعية وشوفينية وعدوانية ، ويقوم هذا الرأسمال بممارسة الضغط على البورجوازية الحاكمة في اكثر من بلد رأسمالي ، وخاصة في الولايات المتحدة الاميركية ، ويخضع للوبي الصهيوني كل من الرئيس الاميركي الحالي (جيمي كارتر) وعدد من رجال الكونغرس .

وتحدث دونيف عن الدعم للقضية الفلسطينية فقال :

إن دعمنا للقضية العادلة للشعب الفلسطيني يقوم على نفس الاسس التي انشئت عليها هيئة الامم المتحدة ... وهو ينبع ايضا من تبني ودفاع أوسع الشرائح الاجتماعية في العالم عن هذه القضية ... اننا نرفض المبادىء التي يحاول قادة اسرائيل فرضها في العلاقات الدولية ، مبادىء (قم أنت لأجلس أنا) . ان دعاواهم التاريخية والتوراتية باطلة .

وقال دونيف :

إن حق الشعوب في تقرير المصير ، وحقها في اقامة دولها المستقلة ، هو أحد الحقوق الاساسية المتفق عليها في العلاقات الدولية .... ان صحافيي منظمة الصحافة العالمية يدعمون بصلابة وثبات حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره ، واقامة دولته المستقلة ، وحقه في ان يكون له وطن ، الأمر الذي يستتبع تلقائيا حق الفلسطينيين المطرودين من عصابات بيغن الارهابية اعوام ١٩٤٨ ، ١٨٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، بالعودة الى وطنهم .

وقال دونيف :

ان « الحكم الذاتي » الذي ابتدعه كارتر والسادات وبيغن للضفة الغربية وقطاع غزة ما هو الا خدعة قذرة ... ان اميركا واسرائيل ومصر يتلاعبون بأقدار الشعب الفلسطيني .

وفي اليوم الثاني (٨ تشرين الأول) ، انقسمت الندوة الى لجنتين سياسية ومهنية ، تراسهما عضوا الوفد الفلسطيني : خالد ابو خالد وبلال الحسن . ودار داخل كل منهما مناقشات اتسمت بالتفاهم الكامل ، سواء فيما يتعلق بالمواقف السياسية تجاه ازمة الشرق الاوسط ، والسياسة الصهيونية ، واتفاقات كامب ديفيد ، والدعم

الثابت لمنظمة التحرير الفلسطينية ، او فيما يتعلق بالقضايا المهنية التي تتناول وسائل الدعم الاعلامي للقضية الفلسطينية .

وكانت مادة التقريرين الصادرين عن اللجنتين اساس البيان النهائي الذي صدر عن الندوة ، والذي تلي على الوفود في اليوم التالي ، ونال موافقة اجماعية ، لم يشذ عنها سوى مندوب رومانيا (كراشون يونيسكو) ، الذي ابلغ رئاسة الندوة انه يتحفظ على البيان ، ولكنه لن يعلن تحفظه ولن يطالب بتسجيله في المحاضر الرسمية . ومع ان المندوب الروماني لم يشرح اسباب تحفظه ، الا انه كان من الواضح ان سبب ذلك يعود الى الادانة الواضحة التي وردت في البيان ضد اتفاقات كامب ديفيد . ومن المعلوم ان رومانيا لعبت دورا كبيرا في ترتيب زيارة انور السادات للقدس المحتلة ، وامتدحت اتفاقيات كامب ديفيد عند انجازها .

وقد تضمن البيان النهائي للندوة تأكيدا لدعم النضال الفلسطيني في مواجهة القوى الامبريالية والصهيونية والرجعية ، وادانة لاتفاقات كامب ديفيد وما نتج عنها من اتفاق مصري – اسرائيلي ، ومن سعي لفرض ما يسمى بـ « الحكم الذاتي » ، والذي يسمح بانتزاع حق تقرير المصير من الشعب الفلسطيني ، وتثبيت شرعية الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة .

وأدان البيان بشدة الاعتداءات الاسرائيلية على جنوب لبنان ، وحيا صمود الجماهير اللبنانية بقيادة الحركة الوطنية اللبنانية ، ومواجهتها للحملات الهادفة الى جر لبنان الى حلقة اتفاقات كامب ديفيد . ووجه البيان تحية الى الصحافة اللبنانية التقدمية ، والى شهدائها ، بسبب تصديها لسياسة التوسع الاسرائيلي ، ولمخططات القوى الانعزالية الرامية الى تقسيم لبنان .

ووجه البيان تحية تضامن الى المعتقلين السياسيين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية ، والى الصحافيين المصريين المضطهدين داخل مصر .

وناشد البيان كافة المؤسسات الصحافية في العالم ، ان تعمل على دعم الصحافيين الفلسطينيين والشعب الفلسطيني ، في نضاله من اجل تثبيت حقوقه المشروعة ، بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير ، وانشاء دولته المستقلة . تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني .

وشدد البيان على ان نضال الشعب الفلسطيني يحظى بدعم جميع القوى الديمقراطية والتقدمية في العالم ، وخاصة دعم الدول الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، الحليف الثابت للقوى التقدمية العربية .

وثبت البيان مجموعة من التوصيات ابرزها :

- تشكيل لجنة لمتابعة تنفيذ توصيات الندوة .
- عقد ندوات مماثلة في الدول الاشتراكية لدعم القضية الفلسطينية .
- توسيع نطاق عقد اتفاقيات التعاون بين اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين وبين الاتحادات العاملة في الـ(ioj).
- تنظيم مسابقة عالمية لأفضل اعمال صحافية حول القضية الفلسطينية ، ونشر مختارات منها .
- اعتبار يوم ١ كانون الاول ، يوم انطلاق الثورة الفلسطينية ، يوم فلسطين في الصحافة العالمية .

وقد انهت الندوة اعمالها يوم ١١ تشرين الأول ، بمؤتمر صحافي جرى فيه اعلان البيان الختامي ، والرد على اسئلة الصحافيين التي وجهت الى رئيس الوفد الفلسطيني . كما وجهت الندوة في ختام اعمالها برقيتي شكر وتأييد الى الرئيس البلغاري تيودور جيفكوف ، ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات .

بلال الحسن

المقاومة الفلسطينية

١
السود ، الجنوب ، اميركا

□ استضافت منظمة التحرير الفلسطينية وفدين يمثلان القوى السوداء في الولايات المتحدة الاميركية . الوفد الاول ، الذي وصل الى بيروت في ١٧/٩/١٩٧٩ ، هو وفد « مؤتمر الزعامة المسيحية في الجنوب » ورئيسه رئيس المؤتمر نفسه القس جوزيف لاوري . وقد ضم ١٧ عضوا بينهم وولتر مونتروي عضو مجلس الشيوخ عن ولاية كولومبيا . واعدت المنظمة للوفد برنامجا شمل عدة لقاءات مع الاخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية وآخرين من اعضاء القيادة ، وزيارات لمواقع لعمل والانتاج الفلسطيني وللمخيمات وللاماكن التي تعرضت للقصف الاسرائيلي في الجنوب اللبناني . وقابل الوفد ، اثناء وجوده في لبنان ، رئيس الجمهورية الاستاذ الياس سركيس ورئيس الوزراء الدكتور سليم الحص ، وعددا من الوزراء والشخصيات الرسمية اللبنانية ، كما عقد لقاءات مع قادة الحركة الوطنية اللبنانية ومجلسها السياسي المركزي ولقاءا مع الشيخ بيار الجميل رئيس حزب الكتائب .

واوضح رئيس الوفد منذ وصل مطار بيروت ان زيارتهم تتم بدعوة من ياسر عرفات وبترحيب من الحكومة اللبنانية ، وانهم يريدون ان يطلعوا على نتائج القصف الاسرائيلي التدميري لقرى الجنوب اللبناني ، ويطلعوا على الوضع فيه عن كثب ، وفي نيتهم ان يزودوا الرأي العام الاميركي بالمعلومات التي سينقلونها عن الطبيعة . (السفير ، ١٨/٩) . وقال بعد زيارة الوفد لمخيم برج البراجنة : اننا لا نبحث في مهمتنا في الحدود والقرارات ، ونترك هذا للديبلوماسيين المحترفين ، وما نبحث عنه هو وضع حد للآلام وانهاء القتل حتى يمكن لعملية السلام ان تستمر . ونناشد جميع اطراف النزاع وقف القتال مؤكدا ان الحل الوحيد الذي يراه هو في عيش الاسرائيليين والفلسطينيين بأمان في وطن لكل منهما وسلام مقرون بالعدل ، ومقترحا ان يجمع اطراف النزاع حول مائدة واحدة ، ويعملوا سويا لتسوية الصعوبات في جو من عدم العنف وبين أن زعماء الحقوق المدنية الاميركيين بدأوا محادثاتهم مع منظمة التحرير الفلسطينية على امل ان تفعل الحكومة الاميركية ذلك . (المصدر نفسه ، ١٩/٩) .

واكد رئيس الوفد الهدف ذاته أيضا في التصريح الذي ادلى به بعد التقائه برئيس الوزراء اللبناني د . سليم الحص ، حين قال للصحفيين : ان هدفنا هو ان تصبح المبادرة التي قمنا بها سياسة للشعب الاميركي وحكومته ، وأن تعترف وتتصل بمنظمة التحرير . وعن موقف وفده من اتفاقات كامب ديفيد قال : اننا ندعم بداية التقدم الذي حققته اتفاقات كامب ديفيد ، لكنها لا تستطيع ايجاد الحل لازمة الشرق الاوسط ، لانها لا تشمل ممثلي الشعب الفلسطيني ، مشددا على انه يجب توسيع كامب

ديفيد كي يضم ممثلي الشعب الفلسطيني كما يقررون هم ، وعندها فقط يشكل كامب ديفيد المبادرة الواقعية لحل ازمة الشرق الاوسط (المصدر نفسه ، ٩/٢٠) . وبعد زيارته للجنوب اتخذت تصريحات لاوري منحى آخر واعلن ان القوى التي يمثلها تؤيد وتدعم حقوق الانسان الفلسطيني في العودة وتقرير المصير ، والمحاولات الدولية من اجل مساعدة الشعب الفلسطيني على العودة في سلام الى وطنه . وقال : لقد شاهدنا بأم اعيننا خلال الايام الماضية عذاب الشعب الفلسطيني ، وطالبنا الحكومة الاميركية بوقف الغارات على جنوب لبنان ، مصرا على انه يجب الاعتراف بالمنظمة ممثلا شرعيا للشعب الفلسطيني وبحقها في ان تشارك في عملية السلام (فلسطين الثورة ، ٩/٢٠) .

ثم استقبل الوفد من قبل ياسر عرفات ، ودام لقاؤه معه اربع ساعات . وقد ندد رئيس اللجنة التنفيذية بسياسة اسرائيل التوسعية ، وبدعم الولايات المتحدة لهذه السياسة وتساءل : اي سلام هذا الذي يتحدثون عنه ؟ هل هو سلام حرب الابادة التي تشنها اسرائيل علينا يوميا بالاسلحة الاميركية ؟ ام سلام الولايات المتحدة الذي اعطى اسرائيل هذه السنة ٦٠٠ دبابة وعربة مدرعة ؟ وكيف يمكن ان نصدق انهم يريدون السلام ؟ وأوضح عرفات للوفد ان المنظمة اوقفت عملياتها من الاراضي اللبنانية،وان اسرائيل ، بالرغم من ذلك ، واصلت ضرب جنوب لبنان يوميا ، مشيرا الى ان دافعهم لذلك هو اعتقادهم بأنه الحلقة الاضعف ورغبتهم اخضاع لبنان والحاقه بكامب ديفيد . ورد بالنفي على سؤال صحافي بعد اللقاء حول ما اذا كان الوفد قد عرض على المنظمة ان تعترف باسرائيل مؤكداً : ان شيئا من هذا القبيل لم يعرض . اما لاوري فقد عبر عن ارتياحه للقاء وقال للصحافيين : ان الصهيونية تسيطر على الاعلام في اميركا ولذلك لم نعرف حقيقة المأساة التي نراها الان . وتساءل : لماذا هذا التسليح الكثيف لاسرائيل ، لماذا الـ اف ـ ١٥ ؟ ولماذا يدفع المواطن الاميركي ضرائب بقيمة ٥ مليارات دولار سنويا ثمنا للسلاح الذي يذبح به الشعب الفلسطيني (فلسطين الثورة ، ٩/٢١) .

ووصف لاوري مهمة وفده ، وهو يغادر مطار بيروت في ٩/٢١ ، عائدا الى بلاده ، (بعد ان الغى الزيارة المقررة لاسرائيل لان رئيس وزرائها بيغن اعلن انه لن يستقبل الوفد) بانها كانت ناجحة . وقال ان ياسر عرفات وعده بدراسة اقتراح عرضه الوفد يتعلق بالدعوة لوقف العنف من قبل جميع اطراف النزاع في الشرق الاوسط . وبين انه وجه دعوة لعرفات لزيارة الولايات المتحدة والقاء كلمة في حلقة من عشر حلقات بحث حول الشرق الاوسط ينوي مؤتمرهم ان يعقدها . واعلن ان منظمته ستسعى للالتقاء بالرئيس الاميركي كارتر وبوزير خارجيته سايروس فانس وبالامين العام للامم المتحدة كورت فالدهايم لاطلاعهم على نتائج الزيارة ، واعدا بأنه سيقدم تقريرا بهذا الخصوص الى مجلس النواب الاميركي . وأدان لاوري استخدام اسرائيل للاسلحة الاميركية ضد اهداف مدنية ، اذ ان هذا كان واضحا وقد لاحظه الوفد بغضب (السفير ، ٩/٢٢) .

الوفد الثاني الذي استضافته المنظمة ، هو الذي رئسه القس جيسي جاكسون عضو مجلس النواب الاميركي ورئيس الكنيسة المعمدانية للاميركيين السود . وهذا الوفد ، خلافا لسابقه ، ابتدأ جولته في الشرق الاوسط ، بزيارة اسرائيل ، على الرغم من ان رئيس وزرائها وغيره من المسؤولين فيها ، امتنعوا عن استقباله هو الآخر . وزار في اطار الجولة كلا من الاردن وسوريا ومصر والتقى بالمسؤولين فيها . وقد وصل وفدجاكسون بيروت في ٩/٢٨ ، بعد اسبوع من مغادرة لاوري ووفده . مسبوقا بالضجة التي رافقت زيارته لاسرائيل ولقاءاته مع الفلسطينيين في المناطق المحتلة . وقد اعدت المنظمة ايضا برنامجا حافلا للوفد ، اشتمل على الزيارات ذاتها التي قام بها الوفد السابق ، وعلى لقاءات مع ياسر عرفات واللجنة التنفيذية للمنظمة . وقال جاكسون في تصريحاته في اليوم الاول للزيارة : يجب ان تشترك المنظمة في اية تسوية للوصول الى سلام عادل في الشرق الاوسط ، بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . ووصف السياسة الحالية لبلاده بأنها خاطئة عندما تتمسك بمقاطعة الحوار مع المنظمة وتقف ضد حق تقرير المصير للفلسطينيين . مؤكدا الراي الذي كرره اكثر من مرة من انه ليس من مصلحة اميركا معاداة العرب ، مع كل ما يملكونه من نفط واموال . وندد بحكومة بلاده التي كانت مهتمة حتى الآن كثيرا بالامن الاسرائيلي ، على حد تعبيره ، من غير ان تهتم بشيء يذكر بالعدالة الفلسطينية . وحذر من ان اميركا قريبة جدا ، بشكل خطير ، من العودة الى « حرب فيتنام اخرى » . ولخص موقفه بقوله : نحن مهتمون بأمن اسرائيل ، لكننا ايضا مهتمون بتحقيق

العدالة للشعب الفلسطيني ، وندعمه في طلبه للعدالة والحماية وحقه في وطنه (السفير ، ٩/٢٩) .

في الجنوب كرر جاكسون ما سبــق ان قاله لاوري من ان الشعب الاميركي لا يملك فكرة واضحة عن الدمار الواسع ، مبينا ان الاميركيين يسيرون كالعميان وراء حليف لهم هو اسرائيل . ويجب على الولايات المتحدة ان لا تخلق اعداء لها بحجة المحافظة على صداقة اسرائيل ، وواعداً بأن تبذل حركته جهدها للضغط على الحكومة الاميركية كي تحافظ على سيادة لبنان ووحدته . واعرب عن شعوره شخصيا بالخجل عندما يرى ما فعلته امته في هذه المنطقة (النهار ، ٩/٣٠) .

وفي اللقاء مع عرفات رحب القائد العام بجاكسون وزملائه مؤكداً على انهم بين اصدقاء اعزاء هم الفلسطينيون . اما جاكسون ، فقد عبر عن ارتياحه بعد اللقاء ، وقال ان محادثاته تركزت على القضية الصعبة وهي امن اسرائيل والعدالة للفلسطينيين ، ولكنه اشار صراحة الى انه لا يملك أسبابا للاعتقاد بأنهم قريبون جداً من تحقيق تقدم حقيقي . واعلن انه على عتبة اقامة « رأس جسر » لحوار بين اميركا والمنظمة ، وانه يريد لمحادثاته ان تؤدي لفتح حوار ، والتوفيق بين مصالح اميركــا المختلفة في الشرق الاوسط (النهار ، ٩/٣٠) .

وقال ، في مطار القاهرة ، عندما وصلها في ٩/٣٠ قادما من بيروت : ان سياسة واشنطن برفض التباحث مع المنظمة ليست في صالح اميركا الوطني ولا في صالح اسرائيل ولا في صالح اصدقاء اميركا من العرب ايضا . وامل في ان تسهم مهمته في تعميق الوعي الذي بدأ يظهر في الولايات المتحدة حول اختلال التوازن في سياستها الشرق اوسطية ، وفي ان ينعقد في النهاية مؤتمر حول الشرق الاوسط لتعميق وعي الرأي العام حول هذه المسألة . وقال : كما تحدينا بلادنا لتتحرك بعيداً عن تورطها اللا اخلاقي في فيتنام ، فكذلك الحال بالنسبة للشرق الاوسط .

وفي دمشق ، التي وصلها في ١٠/٢ قادما من القاهرة ، اعلن جاكسون بعد التقائه بالرئيس السوري حافظ الاسد انه يؤيد منظمة التحرير ونضالها العادل ، باعتبارها منظمة تحرير تشبه حكومة في المنفى ولها نشاطاتها المختلفة وليست منظمة ارهابية . وانه يؤمن بضرورة ممارسة الشعب الفلسطيني حقه الشرعي كاملا في تقرير مصيره واقامة دولته على ارض وطنه ، بقيادة ممثله الشرعي والوحيد م . ت . ف (السفير ، ١٠/٤) .

وبعد لقائه الثاني مع عرفات في بيروت ومع اللجنة التنفيذية للمنظمة اعلن جاكسون ، في مؤتمر صحفي ، انه توصل في محادثاته الى نتائج حول النقاط التالية : ١ ــ وقف اطلاق النار ، ٢ ــ توضيحات من المنظمة حول ما يقال من انها تريد رمي اليهود في البحر او ابادتهم والتاكيد على ان هدف المنظمة هو اقامة دولة مستقلة . وهذا ما دفعه لان يحث الكونغرس على ان يتبع قاعدة وقف المساعدات العسكرية التي تستخدم لاهداف عدوانية ، ويدعو الى ان لا تسقط القذائف الاميركية بعد الان والا تخرق الطائرات الاسرائيلية اجواء لبنان ، مؤكداً ان على واشنطن ان تتصرف ،كما ترى منظمة التحرير ، بشكل يحفظ سيادة واستقلال لبنان . ودعا الى ان تحصل المنظمة على فرصة ، متعادلة مع اسرائيل ، للاتصال والتحرك في الولايات المتحدة ، واعداً بأنه ينقل الى الراي العام الاميركي حقيقة ان المنظمة تمثل الشعب الفلسطيني ، وان قيادتها قادرة على ان تتخذ القرار المستقل ، ومفصحا عن امله في ان يتمكن ايضا من نقل نتائج زيارته عبر الاجتماعات التي سيعقدها مع الرئيس كارتر والكونغرس ومع الشعب الاميركــي في الندوات والمحاضرات والصحافة (السفير ، ١٠/٥) .

اما منظمة التحرير فقد اذاعت ، من جانبها ، بيانا صحافيا رسميا عن الزيارة ، وفي هذا البيان حددت دوافعها لتنمية العلاقات وتطوير الحوار وتعميق الصداقة مع كافة القوى الديمقراطية والشريفة في الولايات المتحدة ، وعلى رأسها القوى السوداء والقوى الديمقراطية وبعض رجال الكونغرس وعدد من رجال الكنيسة ، آخذة بعين الاعتبار بداية التحول في الرأي العام الاميركي . وفي البيان اشارة واضحة الى ان الدعوات وجهت لوفود القوى السوداء لتمكينها من الاطلاع على المنجزات الاجتماعية والثقافية والعلمية للمنظمة ، وعلى همجية العدوان الاسرائيلي . وفيه ايضا تأكيد على ان رئيس اللجنة التنفيذية شرح في لقائه مع جاكسون وزملائه موقف م . ت . ف . من مؤامرة كامب ديفيد وخطورتها على الشعب الفلسطيني والأمة العربية ، ومهزلة ما يسمى بالادارة الذاتية التي يرفضها الشعب الفلسطيني ويعتبرها عبودية . وقد حرص بيان المنظمة على التنديد بالموقف الاميركــي المتجاهل

لحقوق الشعب الفلسطيني ووجوده بما في ذلك حقوقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة ، ويأثر هذا الموقف على ازدياد غطرسة العدو الصهيوني وعربدته العسكرية . كما حرص على اظهار رأيه بتمسك المنظمة بقرارها بوقف اطلاق النار في الجنوب اللبناني جاء انطلاقا من حرصها على امن وسلامة واستقرار لبنان ، وعلى تأكيد المـــواقف المبدئية للمنظمة وقراراتها التي تنص على حق الشعب الفلسطيني باقامة دولته المستقلة على اي جزء من التراب الوطني يتم الانسحاب عنه او يتم تحريره ، وموقفها المبدئي من اليهودية كدين . وكذلك المعاني العظيمة التي يقوم عليها ميثاقها الوطني وتجسيدها قرارات مجالسها الوطنية ، التي تدعو جميعها الى الديمقراطية ، والتآخي والمساواة بين المسلمين واليهود والمسيحية ، كي يعيشوا في وطننا فلسطين باخاء وعدالة وسلام (وفا ، ١٠/٥) .

هاتان الزيارتان اثارتا اهتماما واسعا في الاوساط الفلسطينية . تجلى من جانب ، في الرعاية الكاملة التي احيط بها الوفدان ، وفي الجهد الذي يبذل من اجل ايضاح المواقف الفلسطينية لهما ، وهو جهد ساهم فيه قادة المنظمة وكوادرها المعنية . وتجلى في الجانب الآخر في عدد من التحفظات عبر عنها عبد الجواد صالح عضو اللجنة التنفيذية الذي ابلغ الصحفيين بأن مقترحات جاكسون تفتح الطريق لشق الصف الفلسطيني والعربي . وطلال ناجي عضو اللجنة التنفيذية الذي عبر عن اعتقاده بأن جاكسون متعلق بمهمة رسمية من الادارة الاميركية لخدمة رئيسه كارتر في الانتخابات المقبلة ، وارتيابه بحقيقة نواياه (السفير ، ١٠/٦) . كما عبر عنها تصريح لناطق اعلامي رسمي باسم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، وصف جاكسون بأنه تحول عمليا الى وسيط مدعوم من الادارة الاميركية . وقال ان التنازلات التي طلبها لعبت مباشرة في اطار الخطة الاميركية ، وطالب بانتهاج سياسة جازمة تجاه الضغوط الاميركية مهما كان مصدرها (الحرية ، ١٠/١٥) .

وترددت انباء صحافية كثيرة عن مقترحات حملها جاكسون . غير ان بيان المنظمة الذي اشرنا اليه آنفا تضمن اجابة قاطعة على هذه الانباء ، حين ركز على الميثاق الوطني الفلسطيني ومقررات المجالس الوطنية . ومثله فعل عبد المحسن ابو ميزر الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية حين اشار الى ان الحوار مع اميركا ليس هدفا في حد ذاته ، والى ان الحوار ، كي يكون معبراً عن ارادة الشعب الفلسطيني ، لا بد ان يسبقه اعتراف من اميركا بالحقوق الثابتة لهذا الشعب ، وبالمنظمة كممثل شرعي وحيد له . وقد ميز الناطق الرسمي بين الحوار مع الادارة الاميركية والحوار على الصعيد الشعبي وصعيد الرأي العام الاميركي ، مشيراً الى ايمان المنظمة بضرورة تكثيف الجهود والاتصالات مع القوى الاجتماعية المختلفة في الولايات المتحدة من اجل توفير وعي افضل وتأييد اقوى لكفاح الشعب الفلسطيني العادل وحقوقه الوطنية (فلسطين الثورة ، ١٠/٤) .

ووصف الدكتور جورج حبش ، الامين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، السود في الولايات المتحدة بانهم جزء من القوى الديمقراطية فيها . وعبر عن ايمانه بأنه ستنشأ في يوم من الايام حركة شعبية فيها ، على غرار تلك التي نشأت في اثناء الحرب الفيتنامية . ودعا في مقابلة مع مجلة « نيوزويك » الاميركية ، نشرتها « الهدف » ، الى القيام بحملة لتوضيح قضية فلسطين ، وان تقوي المنظمة تحالفاتها مع السود ومع جميع القوى الديمقراطية والتقدمية في الولايات المتحدة (الهدف ، ٩/١٥) .

وشكلت هموم الجنوب اللبناني ، والمسائل العسكـــرية والسياسية المنبثة عنها ، محور استقطاب لجملة من النشاطات التي اسهمت فيها منظمة التحرير بقسط كبير . فعلى صعيد مواجهة الاعتداءات الاسرائيلية وآثارها درست « اللجنة الامنية الموسعة للثورة الفلسطينية » الشؤون الامنية في الجنوب ، في اجتماع عقدته برئاسة الاخ صلاح خلف (ابو اياد) ، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح بوصفه رئيسا لجهاز « امن الثورة الموحد » وذلك في ٩/١٧ ، على ضوء استمرار الاعتداءات الاسرائيلية والانعزالية (وفا ، ٩/١٧) .

وعقدت القيادة المشتركـــة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ، اجتماعا رئسه ياسر عرفات في ٩/١٨ الذي اكد على ضرورة مضاعفة الجهد للتصدي لمؤامرة كامب ديفيد على ضوء التصعيد العسكـــري لاسرائيل والميليشيات الانعزالية في الجنوب (فلسطين الثورة ، ٩/١٩) . والموضوع ذاته تم بحثه في الاجتماع الذي عقدته ، برئاسة

عرفات ، اللجنة التنفيذية في ٩/٢١ ، الى جانب المواضيع الاخرى المتصلة بقمة هافانا ، وبزيارة عرفات لاسبانيا وجولته في كل من الجزائر والمغرب وتونس (وفا ، ٩/١٩) . وكذلك في الاجتماع التالي للجنة الذي انعقد في ٩/٢٧ وبحث الوضع في الجنوب (وفا ، ٩/٢١) . وفي الاجتماع الذي عقدته القيادة المشتركة برئاسة عرفات في ٩/١٣ (وفا ، ٩/٢٤) .

وعلى صعيد آخر تم في ٩/٢٤ لقاء القمة المرتقب بين عرفات ورئيس الجمهورية اللبنانية الاستاذ الياس سركيس . هذا اللقاء سبقه لقاء بين رئيس اللجنة التنفيذية مع د . سليم الحص في ٩/٢١ استعرضا فيه مسألة دخول الجيش اللبناني الى الجنوب . وتم فيه الاتفاق على ان يعقد الجانبان الفلسطيني واللبناني اجتماعات على المستوى العسكري للبحث في تفاصيل خطة دخول الجيش وانتشاره . وفيه ابدى عرفات استعداد المنظمة لتسهيل دخول الجيش والقيام بما يلزم باتجاه ضبط الاوضاع في الجنوب . وابلغ صلاح خلف ، الذي حضر الاجتماع ، رئيس الحكـــومة اللبنانية ان الاجراءات المـــطلوبة قد ابتدأتها المقاومة بالفعل (السفير ، ٩/٢٢) . ثم جاء لقاء القمة بين عرفات وسركيس فعزز امكانات التفاهم الفلسطيني اللبناني بين يدي مؤتمر القمة العربي الموسع الذي سينعقد في النصف الثاني من تشرين الثاني لدراسة الوضع في الجنوب وملابساته . وكان هذا اللقاء من اكثر اللقاءات ايجابية بين الطرفين . وفيه ناقش الطرفان الوضع في الجنوب والمخاطر التي تتهدده وانعكاسات التطورات الخارجية عليه . واكد عرفات من جديد ان المنظمة مستعدة لاية تدابير تريح الوضع في الجنوب ولتسهيل ما يريح لبنان . وبحث الجانبان ما يتعلق بالقمة العربية ، واتفقا على ضرورة انجاحها بتنسيق فلسطيني – لبناني – سوري مشترك ، واتفقا على عقد لقاءات لاحقة قد يكون من بينها عقد قمة ثلاثية يشترك فيها الرئيس السوري حافظ الاسد . وابلغ عرفات الصحيفة بعد اللقاء ان المقاومة تتمسك باستراتيجيتها العسكرية ضد اسرائيل وتحرص في الوقت نفسه على توفير الاستقرار في الجنوب ، وهي مستعدة للتعاون مع الشرعية اللبنانية لتوفير هذا الاستقرار . واوضح ان الجانبين متفقان على أن تكـــون اتفاقية القاهرة هي ورقة العمل المقبولة فلسطينيا ولبنانيا ، وان سوريا تتفق مع هذا الرأي . كما اوضح ان الرئيس سركيس راغب في تعزيز الثقة بين الجانبين وفي ان تساعد المنظمة على عودة الشرعية الى الجنوب . ووصف لقاء القمة بانه ناجح وايجابي ومثمر ، وقال : ان نتائجه الملموسة ستظهر ليس فقط على صعيد الوضع في الجنوب بل في كل ما تحتاج اليه العلاقات من عمل مشترك وايجابي (السفير ، ٩/٢٥) .

بعد القمة اتصلت لقاءات المسؤولين في المنظمة مع المسؤولين اللبنانيين للغرض ذاته ، فكان من بينها اللقاء الذي عقده كل من صلاح خلف ود . سليم الحص والفريق محمد الشاعر سفير المملكة العربية السعودية في ١٠/١ ، حيث تناول البحث فيه الاعتداءات الاسرائيلية ، والتنسيق اللبناني الفلسطيني وتكثيف الجهود من اجل عقد مؤتمر القمة العربي . ثم اللقاء الذي عقده عرفات ، وبصحبة خلف ، مع د . سليم الحص في ١٠/٣ . واللقاء الذي عقده عرفات وخلف ، وخليل الوزير (ابو جهاد) مع الاستاذ كامل الاسعد رئيس مجلس النواب اللبناني في ١٠/٤ ، وغيرها من اللقاءات التي تمت على مستويات مختلفة سياسية وعسكرية .

وبين يدي هذه اللقاءات عرضت الولايات المتحدة الاميركية من جانبها مشروع خطة لمعالجة الوضع . انباء هذه الخطة تسربت الى الصحافة غير مفصلة ، على غرار ما نقلته اليونايتدبرس الاميركية في ٩/٢٦ ، التي قالت : ان هناك خطة اميركية بعيدة المدى من اجل السلام في لبنان ، تهدف الى عقد مؤتمر تشترك فيه الاطراف المتحاربة كافة والاطراف المعنية الاخرى ، وتشمل منظمة التحرير الفلسطينية ، كما تهدف لاخراج بعض القوات السورية العاملة في اطار قوات الردع في لبنان ، والى تحويل وقف اطلاق النار الى هدنة دائمة ، ودفع الفلسطينيين للانسحاب من بعض المدن والقرى والمناطق الجنوبية ، وانتشار الجيش اللبناني وقوات الطوارىء الدولية بصورة اوسع ، ووقف الدعم الاسرائيلي لقوات سعد حداد ومنعها من التقدم شمالا . على هذه الانباء عقبت مصادر فلسطينية عليا فور سماعها بقولها: ان ما يجري عرضه هو مشروع كامب ديفيد لبناني (السفير ، ٩/٢٧) . وفي اليوم التالي حمل عرفات ، في خطاب القاه في الاحتفال الذي اقيم تحية للذكرى الثلاثين لتأسيس جمهورية المانيا الديمقراطية على المشروع الاميركـــي مؤكـــدا استعداد الثورة

الفلسطينية على مقاتلة الطابور الامبريالي الذي يطل كل يوم يقوم بمشروع جديد اويمؤامرة جديدة ، وقال متحديا . ليخرجوا بمشروع او مناورة او مؤامرة ، وليفهموا شيئا واحدا ان مصير هذه المنطقة يقرره حامل البندقية اللبنانية الفلسطينية في جنوب لبنان . وحمل على اطراف كامب ديفيد ، الذين اعدوا كامب ديفيد اللبناني هذا ، مجددا الثقة بأن البندقية الفلسطينية والارادة العربية الشريفة هي التي ستنتصر (فلسطين الثورة ، ٢٨/٩) .

وترأس عرفات سلسلة من الاجتماعات الاخرى للقيادات العسكرية بهدف مواجهة التطورات في الجنوب اللبناني وشرح المواقف الفلسطينية على الصعد المحلية والعربية والدولية . فانعقد ، برئاسته ، اجتماع المجلس العسكري الفلسطيني الموسع في ٣/١٠ والمجلس العسكري الاعلى في ١١/١٠ . وفي هذا اليوم الاخير قام القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية بجولة على مواقع القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة في الجنوب ، عقد اجتماعا لكوادر هذه القوات اشاد فيه بصمود وتلاحم المقاتل اللبناني والفلسطيني (وفا ، ١٢/١٠) .

ف • ح

٢

القمة العربية ، المغرب ، الاردن

منذ مؤتمر القمة لدول عدم الانحياز الذي انعقد في هافانا في مطلع الشهر المنصرم ، وقضية عقد مؤتمر قمة عربي من اجل جنوب لبنان تتفاعل في الاوساط العربية . وبدأت اجهزة الاعلام تتناقل انباء الجهود المبذولة من اجل الاعداد له ، ومواقف وردود فعل الدول العربية عليها . ولكن بالاجمال وافق معظم الرؤساء العرب ، بعضهم بتحفظ ، وبعضهم واضعا بعض الشروط .

وفي الوقت الذي طالب فيه لبنان بأن يقتصر عمل المؤتمر على بحث قضية لبنان ، فان ردود معظم الدول العربية افصحت عن عدم قبولهابهذا التحديد ، شارحة الاسباب بانه من الصعب عقد قمتين في فترة متقاربة ، خاصة وان قمة عربية مقررة في تشرين الثاني المقبل ، وذلك منذ مؤتمر قمة بغداد في العام الماضي . ولكن بالامكان وضع قضية الجنوب اللبناني على قائمة الاوليات في المؤتمر المنوى عقده .

لقد واجه موضوع القمة ثلاث عقبات من اجل انعقاده ، وهي موعد القمة ، ومكان انعقادها ، والخطة اللبنانية من اجل القمة وما الذي يراه لبنان لانجاحها .

اما عن موعد القمة ، فقد حاول لبنان جاهدا تقريب موعدها ما امكن بعدما فشل في عقد قمة خاصة ، وذلك لكون قضية الجنوب ملحة جدا ، ولان الهدوء النسبي يسمح بالبحث في شؤونه بحثا موضوعيا دقيقا بعيدا عن التوتر والاعتداءات ، وقد تم التفاهم على ان ينعقد المؤتمر في النصف الاخير من تشرين الثاني (الارجح في العشرين منه) .

اما عن مكانها ، فتمنى لبنان وايده بعض الدول العربية ان تكون الرياض هي المكان المختار حيث قام الرئيس سليم الحص من اجل هذه الغاية بزيارة للعاصمة السعودية استغرقت يومين اجرى خلالها المباحثات مع المسؤولين السعوديين . وذكرت بعض المصادر ان المحادثات لم تكن فاشلة ولكنها لم تكن ايجابية بالقدر المطلوب ، خاصة لجهة انعقاد القمة في الرياض ، حيث اوضحت هذه المصادر ان السعودية اعربت عن اعتقادها بأن انعقاد قمة عربية في هذا الظرف لن يؤدي الى نتيجة ملموسة ، خصوصا على صعيد الجنوب ، ولذلك فهي لا تريد ان تتحمل اية مسؤولية مباشرة في هذا الموضوع ، الامر الذي يفرض عليها السعي لعقد قمة في أي بلد آخر وان كانت تفضل تونس لكونها مقر الجامعة العربية (النهار ٩/١٠) .

وفي الاطار نفسه اكد المسؤولون السعوديون مواقفهم التي تدعوا لبنان الى التفاهم مع الفلسطينيين بدعم سوري . واكدوا ان حل قضية الجنوب يأتي عبر القمة العربية ، ولكن من خلال تفاهم لبناني . سوري — فلسطيني (النهار — ٩/١٠) •

اما على الصعيد الفلسطيني فقد اقترح صلاح خلف (ابو اياد) عضو اللجنة المركزية لحركة « فتح » من مقابلة مع جريدة « موندي مورننغ » Monday Morning البنانية في ٩/١٧ ، ان ينعقد لقاء فلسطيني ـ سوري ـ لبناني على مستوى القمة من اجل حل الكثير من المشاكل المطروحة ، مؤكدا على اهمية التفاهم بين المقاومة الفلسطينية والسلطة اللبنانية والسوريين . لانه في حال عدم حصول ذلك سيكون هناك ـ في القمة العربية ـ مشكلة ان « يكون الناس مع لبنان او مع الفلسطينيين ، بينما قضيتنا واحدة ، فلماذا الاختلاف ؟ (السفير ٩/١٧) .

وعن قضية الجنوب فقد قال انها تحل بقيام وفاق سياسي بين اللبنانيين والفلسطينيين . ويجب تقديم صيغة تفاهم بين الحركة الوطنية والاطراف الاخرى مع السلطة اللبنانية في اطار تفاهم مع السوريين واشراك اهل الجنوب في هذه الاتصالات ، وبانه « اذا تفاهم اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون فيمكنهم ان يقولوا للعرب تحركـــوا من اجل الجنوب » ، وطالب خلف الاقطار العربية باستخدام النفط للضغط على العالم ومن ثم الضغط على اسرائيل لوقف اعتداآتها على جنوب لبنان قائلا « لا نريد ان يستعملوا النفط من اجل القضية الفلسطينية ، فليستعملوه من اجل الجنوب » لان امن الجنوب يمس امن سوريا كما يمس امن الثورة الفلسطينية (السفير ٩/١٧) .

ومن اجل هذه الغاية اجتمع الاخ ابو عمار في ٩/٢١ برئيس الحكومة الدكتور سليم الحص ، وحضر الاجتماع ابو اياد عضو اللجنة المركزية لحركة « فتح » ، والتقى بعدها بالرئيس اللبناني الاستاذ الياس سركيس (راجع اعلاه : المقاومة الفلسطينية ـ ١) وذكـــرت الاوساط في القصر الجمهوري اللبناني ، ان عرفات اكد في سياق وجهة نظره حول الوضع في الجنوب على نقطتين وهما : عدم تخلي المقاومة الفلسطينية عن استراتيجيتها العسكرية ضد اسرائيل ، وكذلك عدم التفريط في الوقت نفسه بالاستقرار في الجنوب . وان عرفات ابدى كذلك استعدادا للتعاون مع الشرعية اللبنانية في عودتها الى المنطقة . واضافت تلك المصادر ان سركيس طالب عرفات بضرورة الحرص من الجانبين اللبناني ـ الفلسطيني على ثلاث نقاط رئيسية تتلخص في (١) تعزيز الثقة بين المقاومة الفلسطينية والسلطة اللبنانية ، (٢) مساعدة المقاومة للبنان في عودة شرعيته وسيادته الى الجنوب ، و (٣) وقوف لبنان والمقاومة موقفا موحدا في القمة العربية المنتظرة (السفير ٩/٢٥) .

اما على صعيد الموقف الموحد في القمة العربية ، فقد اشارت المصادر ، الى ان اتفاق القاهرة سيكون مرتجعية ورقة العمل المقبولة لبنانيا وسوريا وفلسطينيا ، وعلى هذا الاساس يمكن ان تكون القمة اللبنانية ـ السورية ـ الفلسطينية حاجة ملحة (المصدر نفسه) .

وفي اثناء زيارته للبنان (٩/٢٨) ، قام الامين العام لجامعة الدول العربية ، السيد الشاذلي القليبي، باجراء الاتصالات بالمسؤولين اللبنانيين والفلسطينيين ، حيث تم التشاور حول الامور المتعلقة بمؤتمر القمة ومكان وموعدانعقاده ، وكذلك في الرؤية اللبنانية عن نتائج القمة في حال انعقاده . كما بحثت تلك القضايا مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، الذي شمل البحث معه الخطوط العريضة للتفاهم اللبناني ـ الفلسطيني . وابرز هذه الخطوط من اجل هذا التفاهم هي(١)وقف العمليات الفدائية من لبنان وعبره ، (٢) عدم الاعلان من لبنان عن العمليات العسكرية التي ينفذها الفدائيون الفلسطينيون من داخل الارض المحتلة ، (٣) تسهيل وجود السلطة الشرعية في الجنوب بوجهيها المدني والعسكري . وذكرت المصادر المطلعة ان الامين العام لجامعة الدول العربية وجد من عرفات تفهما كاملا بالنسبة للوضع في الجنوب والتفاهم مع السلطة حول تلك المواضيع (النهار ٩/٣٠) .

على اي حال ، لا زالت الاتصالات والمشاورات حول هذه المواضيع قائمة ، ولم يحدد رسميا مكان وموعد القمة المنوي عقدها ، والاحتمالات كثيرة بتأجيلها او تأخير موعد انعقادها .

جولة عرفات في المغرب العربي

بعد زيارته لمدريد ، التي استغرقت يومين ، قام الاخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بزيارة لدول المغرب العربي (المغرب ، الجزائر ، تونس) . وقد يفهم بان موضوع الزيارة هو التوسط في قضية الصحراء المتنازع عليها من قبل الجزائر والمغرب ، حيث اجاب عرفات في مؤتمره الصحفي الذي عقده في مدريد قبل مغادرته عن سؤال حول دور المنظمة في قضية الصحراء بان المسألة تهمنا كامة عربية نظرا الى موقعها داخل الامة العربية ، ونعمل ما في وسعنا

لخير امتنا . وقد بحثنا الموضوع في مونروفيا وهافانا وما نزال نتابعه من موقع مسؤولياتنا داخل الامة العربية » (وفا١٦/ ٩) .

لقد بدأت زيارة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية اولا للجزائر (٩/١٥) ، حيث اجتمع بالرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد ، غادر بعدها متوجها الى المغرب حيث اجتمع بالملك الحسن الثاني في ايفران . وقضى يومين من المباحثات مع المسؤولين المغاربة ، تندرج في اطار المشاورات التي تجريها منظمة التحرير الفلسطينية مع الدول العربية في اطار الموقف الراهن في العالم العربي (وفا١٦/ ٩) . وقال عرفات لدى وصوله ان ترتيبات زيارته تمت عندما اجتمع الى رئيس وزراء المغرب المعطي بو عبيد خلال مؤتمر قمة عدم الانحياز في هافانا .

ونسبت الوكـــالة المغربية للانباء الى مصادر فلسطينية في الرباط قولها ان زيارة عرفات للمغرب تاتي ضمن نطاق الوساطة التي تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية بين المغرب والجزائر لايجاد حل للتوتر القائم في شمال غرب افريقيا (السفير ٩/١٧) .

وفي ختام زيارته اكد بأن هناك مؤامرة تحاك ضد الامة العربية منذ اتفاقيتي كامب ديفيد ، موجهة بشكل خاص ضد الشعب الفلسطيني . اما الجانب المغربي فلم يصدر عنه اي تصريح او تعليق رسمي . على اي حال بعثت الزيارة املا في تهدئة الصراع المغربي ــ الجزائري حول الصحراء ، حيث قدمت منظمة التحرير الفلسطينية مساعيها الحميدة في هذه القضية منذ شهرين (الوطن ٩/١٨) كما علقت وكالات الانباء العالميةحول الزيارة لكل من المغرب والجزائر بان منظمة التحرير الفلسطينية تقدم مساعيها منذ شهرين ، وكما تدل هذه الزيارة على ان عرفات يبذل ما في وسعه لتفادي تأجيج نيران التوتر في هذه المنطقة من العالم العربي (وفا١٧/ ٩) .

بعد ذلك توجه عرفات الى تونس حيث مر بالجزائر بعد عودته من المغرب ، واجتمع بالرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد مرة اخرى وقالت وكالة الانباء الجزائرية « انهما بحثا في الاقتراح الذي تقدمت به بعض الدول العربية لعقد مؤتمر قمة لبحث تطورات الوضع في المشرق العربي » . (السفير ٩/١٨) .

بعد وصوله تونس نفى عرفات أنه قام بوساطة بين المغرب والجزائر بشأن الصحراء ، ولكنه قال بأن كل ما يتعلق بالبلدين الشقيقين ينعكس حتما على القضية العربية باسرها ، واضاف « بان هذه الجولة تجيء اثر حدوث تطورات اخيرة للنزاع في الشرق الاوسط ، وبصفة خاصة بعد اتفاقات كامب ديفيد التي قال انها تستهدف اضعاف الامة العربية » .

اما عن محادثاته في تونس مع كل من الحبيب بورقيبه ورئيس الوزراء التونسي الهادي نويره « بحثت مع المسؤولين التونسيين هذه التطورات وكذلك الموقف السائد في الجنوب وهو الموقف الناشيء عن الاعتداءات الاسرائيلية (السفير ٩/١٨) .

وجدير بالــذكر ان الرئيس الحبيب بورقيبه كان قد قدم اقتراحا من اجل عقد قمة جزائري ــ مغربي للبحث في نزاع الصحراء ، حيث قبلته المغرب ، ورفضته الجزائر لان النزاع القائم ، هو بين المغرب وجبهة البوليزاريو . ومن جهة اخرى اوردت وكالة الصحافة الفرنسية تحليلا من الرباط قالت فيه ان ما عرضته مصر مؤخرا بشأن تزويد المغرب بالرجال والعتاد الحربي قد ادى الى ازدياد قلق القادة الفلسطينيين . حيث يدرك هؤلاء انه في حالة وقوع حرب سافرة بين المغرب والجزائر فان ليبيا التي ابرمت مع الجزائر اتفاقية دفاع مشترك ستقف الى جانب الجزائر مما سيسفر حتما عن رد فعل مصري ، ولهذا يبذل القادة الفلسطينيين سرا جهودا مضاعفة للوساطة بين المغرب والجزائر (السفير ٩/١٧) .

زيارة الاردن كثرت الانباء في الفترة الاخيرة ، من ان الاردن يروج لمشروع المملكة المتحدة ، وان منظمة التحرير الفلسطينية منحت الاردن حق التفاوض باسمها من اجل استعادة الضفة الغربية المحتلة. ففي تقرير صحفي اسرائيلي في١٤/ ٩ذكر ان الاردن يروج لمشروع عمره سبع سنوات لحل القضية الفلسطينية ، ويضمن الحكـــم الذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية كجزء من المملكة المتحدة .

ونسبت صحيفة « هآرتس » الاسرائيلية الى مصادر مصرية قولها أن الاردن سيحتفظ بمسؤوليات الدفاع والعلاقات الخارجية للمنطقة المدارة ذاتيا والتي ستكون القدس الشرقية عاصمتها ، وبامكانية ضم قطاع غزة الى هذا الكيان . وان هذا المشروع قد عرض على وفد منظمة التحرير الفلسطينية الذي زار الاردن في شهر آب الماضي . (السفير ٩/١٤) . من جهة اخرى ، اعلن انور الخطيب (محافظ

القدس السابق) في عمان ، ان الحل الوحيد الممكن والمحدد للمسألة الفلسطينية يتمثل في العودة الى مشروع المملكة المتحدة .

كذلك ذكرت صحيفة « الانباء » الكويتية ان منظمة التحرير الفلسطينية قد منحت الاردن التفاوض باسمها من اجل استعادة الضفة الغربية . واوضحت الصحيفة نقلا عن مصادر ديبلوماسية ان هذا الاتفاق حصل اثناء اللقاء الذي تم بين ياسر عرفات والملك حسين ، اثناء اجتماعهما في آب الماضي . (السفير ٩/١٤) .

حول هذه الانباء ، التي تواترت فيما يشبه الحملة المنظمة سئل ياسر عرفات عندما كان في مدريد في مؤتمره الصحفي الذي عقده قبل مغادرته لها فأجاب : « لم يرد مثل هذا الاقتراح ، لقد عقدت مع الملك حسين اكثر من لقاء في هافانا والاردن ، وساعقد لقاءات اخرى عندما اعود الى المنطقة ، ونحن وقعنا بيانات مشتركة واضحة وصريحة ، ولا افهم هذا الذي يتردد في بعض الاوساط حول دولة فيدرالية . (وفا ٩/١٦) .

من جهة اخرى نفى رئيس وزراء الاردن مضر بدران (٩/١٧) اعتزام الاردن احياء مشروع المملكة المتحدة ، وكرر رفض الاردن الانضمام مستقبلا الى مفاوضات كامب ديفيد ، كما اكد ايمان الاردن بقيام دولة فلسطينية للشعب الفلسطيني على ارضه ، وبإيمانه كذلك بضرورة تعديل القرار ٢٤٢ لانه لا يتضمن الاعتراف بحق تقرير مصير الشعب الفلسطيني (السفير ٩/١٨) .

وسط هذه الانباء ، قام رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وكل من عبد المحسن ابوميزر – وياسر عبد ربه عضوي اللجنة ، بزيارة للاردن استغرقت يوما واحدا . حيث اجريت المباحثات مع الملك حسين ، ورئيس الوزراء مضر بدران ، والشريف عبد الحميد شرف رئيس الديوان الملكي ، وعامر خماش وزير البلاط ، والفريق الركن زيد بن شاكر وسليمان مراد وزير الداخلية .

وقد تناولت المباحثات التقييم الشامل للوضع العربي الراهن والتطورات الاخيرة في المنطقة وعلى الصعيد الدولي ، كما تم استعراض وتحليل لنتائج الاتصالات والمشاورات التي تقوم بها م . ت . ف . والاردن على الصعيدين العربي والدولي . وذلك بغرض كسب الدعم والتأييد للحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره على ارضه الوطنية . كما جرى تقييم الاتصالات الاردنية – الفلسطينية السابقة في ضوء ما تم الاتفاق عليه (وفا ، ٩/٢٠) .

وفي ختام الزيارة تلا السيد حسن ابراهيم وزير الدولة الاردني للشؤون الخارجية البيان الصحفي عن المباحثات : قام الاخ ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بزيارة الاردن واجتمع بجلالة الملك حسين وجرت مباحثات تناولت الاوضاع العربية والدولية الراهنة والعلاقات الثنائية بين الجانبين .

وقد تم استعراض شامل للنتائج الايجابية للاتصالات التي تمت في المجالين العربي والدولي في المرحلة الاخيرة . كذلك القرارت والنتائج الهامة التي انبثقت عن مؤتمر القمة السادس لدول عدم الانحياز في هافانا ، وخاصة ما يتعلق منها بالقضية الفلسطينية والشرق الاوسط ، والقرارات التي كانت مؤيدة تأييدا قويا لحقوق الشعب الفلسطيني والقضية العربية ، ولقد تم التأكيد في المباحثات على ضرورة مواصلة العمل المشترك ومتابعة اللقاءات والتأكيد على ما تم الاتفاق عليه في اللقاءات السابقة وتنسيق الجهود العربية لتعزيز قرارات الجمعية العامة وتعزيز التضامن العربي ومؤتمر بغداد (وفا ، ٩/٢٠) .

في بيروت ، وتعقيبا على الزيارة ، قالت وكالة « رويتر » نقلا عن مصادر فلسطينية ان الملك حسين اقترح على ياسر عرفات ، عقد مؤتمر قمة مصغر يضم بالاضافة الى الاردن ومنظمة التحرير كل من الكويت وسوريا والسعودية ، وذلك لاعداد صيغة بديلة لاتفاقي كامب ديفيد ، واقترح تقديم هذه الصيغة الى الدول الاوروبية والاتحاد السوفياتي . كما ذكرت ، ان الملك حسين نصح عرفات بالتروي في محاولة اقامة حوار مع الولايات المتحدة ، قائلا ، ان حوارا فلسطينيا – اميركيا في الوقت الحاضر لن يؤدي الى شيء . (النهار ، ٩/٢١) . ونسبت وكالة « رويتر » ايضا ، الى مصادر فلسطينية مطلعة في بيروت قولها ، ان م . ت . ف . تطالب باطلاق سراح ٦٠ سجينا فلسطينيا من المعتقلين في السجون الاردنية منذ اوائل السبعينات . وقالت المصادر ان المنظمة حثت على اطلاق سراح جميع السجناء ولكن رفض هذا الطلب من قبل الاردن (السفير ، ٩/٢٧) .

صابر موسى

المناطق المحتلة

١

اسرائيل تصادر اراضي عرب النقب
حملة تحريض واسعة ضد العرب في اسرائيل

تعرض العرب في اسرائيل خلال الاشهر الاخيرة الماضية ، الى حملة من التحريض والاضطهاد وسلب الاراضي والممتلكات ، تعتبر من ابشع ما تعرضوا له منذ قيام اسرائيل . وابرز مميزات هذه الحملة عمليات الاستيطان الواسعة التي تنفذها وتخطط لها السلطات الاسرائيلية في منطقة الجليل ، وفق سياسة « تهويد » المنطقة ، ثم المصادقة الاولية في الكنيست على مشروع قانون مصادرة اراضي العرب البدو في النقب ، اضافة الى حملة التشهير والطعن التي تشنها السلطات الاسرائيلية ضد العرب ، بسبب تماثلهم مع قضيتهم القومية ودفاعهم عن حقوقهم .

المصادرة « القانونية » لاراضي العرب البدو في النقب

صادق الكنيست الاسرائيلي يوم ٣١ / ٧ / ٧٩ في القراءة الاولى على مشروع قانون « استملاك الاراضي في النقب » ، المعروف في اسرائيل باسم « قانون البدو » ، باغلبية ٤٦ صوتا من الائتلاف ضد ٤٤ صوتا من المعارضة، وامتناع نائبين عن التصويت . وقد تم تحويل مشروع القانون الى لجنة الخارجية والامن لاستكمال بحثه وطرحه مجددا على الكنيست للمصادقة عليه في القراءة الثانية ، ثم الثالثة . وعلم من خلال العرض الذي قدمه وزير المالية الاسرائيلي سيمحا ارليخ ، اثناء عرضه لمشروع القانون امام الكنيست ، ان السلطات الاسرائيلية ستستولي بموجبه على ١٥٧ الف دونم من اراضي العرب البدو في المنطقة الواقعة ما بين بئر السبع وعراد في النقب ، والمعروفة بتل ــ ملحاتا (تل المالحة) . وقد زعم ارليخ ان نصف هذه المساحة مخصص لانشاء القواعد العسكرية ، والباقي « لاعادة توطين البدو » ضمن مواقع سكنية محددة . اما بالنسبة للتعويضات فقد ادعى ان « البدو سيمنحوا تسهيلات خاصة مثل : تعويض على الاراضي والمباني وآبار المياه . ثم مساعدة بقيمة ١٠٠ الف ليرة للعائلة لايجاد مكان سكن بديل ، وتخصيص قطعة ارض لمن كان يسكن بصورة دائمة ، منذ مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ ، على ارض ستنقل الى الدولة وفق القانون ... كذلك ستمنح تعويضات على شكل اراضي زراعية (وكميات محددة) من المياه لمن يرغب في ذلك » (هارتس ، ١ /٨ / ٧٩) . والنقطة الاهم في مشروع القانون هي حرمان العرب في المنطقة من امكانية التوجه الى القضاء فيما يتعلق بقيمة التعويضات ، وذلك بواسطة تحديد قيمتها في مواد القانون ، مما يعني انه ، وفقا للقانون نفسه لن يكون من المسموح لاي شخص التقدم بشكوى الى المحكمة في هذا الصدد .

« قانون البدو » وسياسة التمييز

يلاحظ ان معارضة قانون الاستيلاء على اراضي العرب في النقب لم تات من جانب العرب في اسرائيل فقط ، وانما برزت ايضا لدى نواب معارضين في الكنيست ، وعدد كبير من الاسرائيليين الذين اعتبروه مضرا بسمعة اسرائيل لدى الراي العام العالمي . « فالاصدقاء كالاعداء سيدركون ان المعاملة

القاسية للاقلية العربية لا تشمل سكان المناطق المحتلة فقط ، وانما سكان اسرائيل العرب ايضا ... » (ايلي فاينغرش ، عل همشمار ، ٧ /٨ /٧٩) . ومن خلال النقاش الدائر في اسرائيل حول مشروع القانون هذا يمكن حصر علامات الاستفهام التي اثيرت حوله في النقاط التالية : « هل ثمة ما يبرر عملية المصادرة السريعة ؟ وهل تتلاءم المصادرة مع الحاجة الى اقامة المطار العسكري ام تتعداها ؟ كذلك ، هل من الجائز حرمان البدو من التوجه الى المحاكم القضائية فيما يتعلق بعمليات المصادرة ؟ [واخيرا] هل ان التعويضات التي يحددها القانون ملائمة لمبادىء مجتمع متحضر » (النائب امنون روبينشتاين ، هارتس ، ٣ /٨ /٧٩) . وقبل طرح وجهات النظر بين الاسرائيليين من مسؤولين وغيرهم حول هذه القضايا ، لا بد ان نذكر ان معظم المعارضين للقانون المقترح « لا يعترضون على الحاجة الى الاسراع في مصادرة الاراضي المطلوبة من اجل نقل المنشآت العسكرية من سيناء الى النقب . وانما السؤال هو كيف يتم ضمان مصادرة الاراضي المطلوبة فقط ، ومن ثم منح تعويضات ملائمة للبدو المتضررين من جراء عملية المصادرة » (افتتاحية دافار ، ٣ /٨ /٧٩) .

بالنسبة للسؤال الاول المتعلق بعملية المصادرة السريعة ، زعم وزير المالية ارليخ ان « الحاجة الامنية العليا والرغبة القوية في عدم تعريض اتفاق السلام مع مصر الى الخطر ، هما العاملان اللذان دفعا الحكومة الى اقتراح قانون مصادرة الاراضي في النقب ... واكد ارليخ ان الحكومة وضعت مشروع القانون هذا بعد ان علمتها التجربة ان الاجراءات العادية تكون عادة طويلة وصعبة ، وتفشل سلفا كل احتمال لانهاء [بناء] المطارات في النقب في الوقت القصير المخصص له » (هارتس ، ١ /٨ /٧٩) .

الا ان ادعاء ارليخ هذا لا اساس له من الصحة ، خاصة وان السلطات الاسرائيلية تسعى منذ زمن بعيد للاستلاء على اراضي العرب في النقب ، من خلال الادعاء لنفسها بحق ملكيتها ، على اعتبار ان البدو لا يملكون اثباتات تبرهن ملكيتهم وفق القانون الاسرائيلي (راجع توفيق فياض « قضية عرب النقب » ، شؤون فلسطينية ، العدد ٩٢ /٩٣ ، تموز /اب (يوليو / اوغسطس) ١٩٧٩ ، من ٢٧٠ ــ ٢٧٧) . وقد علم انه كان قد جرى تصنيف المنطقة المصادرة حاليا في تل المالحة ، منذ عهد المعراخ ، اي قبل سنين عديدة من توقيع معاهدة السلام ، كمنطقة ملائمة لاقامة مطار دولي ثان لاسرائيل .« الا ان المفاوضات الاولية مع العرب البدو كشفت مشاكل كثيرة تتعلق بعملية اخلائهم عن المكان » (ايلي فاينغرش ، عل همشمار ، ٧ /٨ /٧٩) . وقد تذرعت اسرائيل الآن بحجة اقامة المطارات العسكرية لوضع يدها على المنطقة بالقوة ، وبواسطة قانون صادر عن الكنيست ، « اذ ان هناك حاجة ملحة لبدء العمل [في المطارات] ، لذلك ليس ثمة ما يبرر عملية المصادرة فقط ، وانما حتى البدء في تنفيذها وقيام الجيش الاسرائيلي بالسيطرة [على المنطقة] بسرعة كبيرة » (النائب امنون روبينشتاين، هارتس ، ٣ /٨ /٧٩) .

اما بالنسبة للسؤال الثاني المتعلق بمساحة المنطقة المصادرة ومدى ضرورتها لاقامة المطار العسكري ، فقد اتضح ان ٧١ الف دونم في هذه المنطقة المصادرة ليست ضرورية لهذا الغرض . وقد بررت الحكومة ذلك في زعمها ان هذه المساحة ستستعمل لاعادة توطين العائلات في تل ــ المالحة ، وهي العائلات التي لا حق لها في اي مساحة من الارض وفق القانون . بالرغم من ذلك « فهناك علامات استفهام كثيرة حول هذه المسالة ، ومشروع القانون لم يتطرق اليها بما فيه الكفاية ... [اذ] ليس في اقوال الشرح المرفقة بهذا المشروع اي تفصيل للحقائق [في هذا الشأن] . وقد احضر نواب من كتلة المعراخ وسكان من النقب خرائط مفصلة تثبت ان المنطقة المصادرة لا تتناسب ابدا مع الحاجة الى اقامة المطار العسكري . واوضح النائب ابراهام كاتس ــ عوز ان جزءا كبيرا من المنطقة المصادرة ليست له اية علاقة باقامة المطار واعادة توطين العائلات التي سيتم اخلاؤها من هنالك ، وسيشمل ذلك عشرات الالاف من الدونمات التي صودرت دون اي مبرر»(المصدر نفسه) . وفيما يتعلق بالسؤال الثالث ، حول حرمان البدو من التوجه الى القضاء ، يلاحظ ان هناك معارضة شديدة حول هذه المسالة ، خاصة بين اعضاء المعراخ . فقد اعلن النائب موشي شاحال (معراخ) ، خلال البحث في مشروع القانون : « اننا لا نعارض الحاجة الى [انشاء] المطار العسكري ، ولكن لا يمكن قبول مشروع قانون يحرم المواطن من حقه الاساسي في التوجه الى المحكمة

لتحصيل حقوقه » (هـارتس ، ١ /٨ /٧٩) . كذلك اعلن النائب مردخاي نيرشومنسكي (من كتلة شاي) « ان هذا القانون يبرهن ... كم نحن بحاجة الى دستور . لو كان لدينا دستور ، لما امكن تقديم مشروع قانون كهذا ، لا ديمقراطي ، ويحرم المواطن حقوقه دون ان تتوفر له امكانية الدفاع عن نفسه » (المصدر نفسه) . وقد فسر النائب امنون روبينشتاين مسالة حرمان البدو من التوجه الى القضاء بقوله : « ان الغاء صلاحيات المحاكم قد تم بأسلوب مزدوج : اولا ، بالنسبة لقضية المصادرة ذاتها لا تستطيع المحكمة ان تشكك [في صحة] قانون صادر عن الكنيست ، لذا لا يمكن ان تصدر حكما [لصالح المشتكي] حتى ولو توفرت لديها الادلة ، مثلا ، بان الارض لم تصادر لخدمة اهداف القانون ، وليس كما هو مطلوب وفق اتفاقية السلام [مع مصر] . ثانيا ، بالنسبة لقضية التعويضات فان القانون نفسه يحدد المبالغ المستحقة ولا يترك مجالا للمحكمة للبت بها .

« صحيح ان القانون يترك للمتضررين خيار التوجه الى المحكمة لطلب المساعدة حسب احد قوانين الانتداب المتعلقة [بقضايا] الاستملاك للمتطلبات العامة ، الا ان هذه النظام الذي يعتبر خاطئا من اساسه وملائما لنظام حكم استعماري وليس لمجتمع ديمقراطي ، غير ملائم بالطبع لقضية نقل مجموعة كاملة من السكان ، بافرادها وبيوتها ، من مكان الى آخر . وخلافا لقوانين اسرائيلية اخرى فانه لا يضمن توفير سكن بديل لمن يفقد مكان سكنه » (امنون روبينشتاين ، هارتس ، ٣ /٨ /٧٩) .

وانطلاقا من هذا الحديث ، ننتقل الى السؤال الرابع المتعلق بقضية التعويضات المطروحة على البدو وفق القانون . ويلاحظ هنا ان البحث في هذه المسالة تركز في نقطتين اساسيتين : اولا ، قيمة التعويضات بحد ذاتها . ثانيا ، التمييز ما بين البدو وبين سكان مستوطنات سيناء الذين سيتم اخلاؤهم من المنطقة واعادة توطينهم من جديد في اماكن اخرى ، وربما في الاراضي المصادرة في النقب ، ثم التعويضات المبالغ بها المطروحة عليهم .

بالنسبة للتعويضات للسكان البدو، فان قيمتها وفق مشروع القانون تعتبر مهزلة وتمييزا ، ربما لم يسبق لهما مثيل حتى الآن . فقد كشفت لجنة فرعية تابعة للجنة الخارجية والامن في الكنيست كانت قد شكلت لاستكمال البحث في مشروع قانون البدو ، في اجتماع مشترك لها مع ممثلي مديرية عقارات اسرائيل ووزارة العمل ومستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية ، وبعض نواب الكنيست ، ان توجيهات الحكومة لماموري التخمين لديها تمثلت في حساب مبالغ التعويضات وفق مستوى التطوير الذي ساد في اراضي النقب سنة ١٩٤٨ ، وهذا يفسر قيمة التعويضات القليلة التي ستدفع للسكان البدو . وقد علق النائب يوسي سريد الذي كان حاضرا في الاجتماع ، على هذه القضية بقوله : « انها فضيحة ... بان يقوم وزير العمل شموئيل تامير باخفاء هذه الحقيقة عن سابق قصد ، عن الكنيست ... اذ انني اشك في ان مشروع القانون كان سيقبل بصيغته الحالية لو علم الجميع بهذه المسالة » (هارتس ، ٣٠ /٨ /٧٩) . وردت وزارة العدل على اقوال سريد هذه بان تعويض البدو على اساس مستوى التطوير في منطقتهم سنة ١٩٤٨ ، قد تم تحديده وفق مشروع وضعته حكومة رابين سنة ١٩٧٥ « اي حزب النائب سريد ، ووفق راي مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية آنذاك النائب شموئيل طوليدانو ، ووزير العدل في تلك الحكومة حاييم تسادوك » (هارتس ، ٣١ /٨ /٧٩) .

ان حساب التعويضات للسكان البدو ، وفق هذا القانون ، يكشف صراحة التمييز الذي تتبعه السلطات الاسرائيلية ضد العرب في اسرائيل ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان « القاعدة المتبعة في انظمة المصادرة والاستملاك للمتطلبات العامة ، تقول بانه ينبغي ان تكون التعويضات لصاحب الملك وفق قيمته يوم المصادرة . وواضح ان هذه القيمة تتأثر باعمال التطوير التي حدثت في البلد . وفي الحقيقة يمكن القول ان قيمة الارض هي ذات علاقة مباشرة بحجم التطوير في البلد الذي تتواجد فيه » (افتتاحية هارتس ، ٣١ /٨ /٧٩) . الا ان هذه القاعدة لا تنطبق على السكان البدو ، وفق السياسة الاسرائيلية الرسمية ، وانما على مستوطني سيناء ، الذين بدات الحكومة المفاوضات معهم بشان اخلائهم من المكان ، عارضة عليهم ، منذ البداية ، تعويضات تزيد قيمتها عن ملايين الليرات الاسرائيلية للعائلة الواحدة .

وقد وصف الدكتور يونس ابو ربيعة ، وهو طبيب

من اصل بدوي ، في مقابلة له مع معاريف (٣ / ٨ / ٧٩) هذا القانون بانه « اول قانون في اسرائيل يتعلق عن سابق قصد وعلنا وصراحة وبدون خجل ، ليس بجميع السكان ، وانما بالسكان البدو في النقب فقط . لذلك فهو قانون عنصري بارز » . ويتساءل ابو ربيعة « لماذا يسري هذا القانون على البدو فقط وليس على اليهود سكان يميث ؟ فكلاهما ينبغي اخلاؤه في وقت محدد ، كي لا تضطر اسرائيل الى خرق معاهدة السلام » . ويمكننا ان ندرك مدى التمييز الذي يتحدث حوله ابو ربيعة وغيره اذا ما تطرقنا الى القيم الفعلية للتعويضات التي ستدفع للبدو في اطار هذا القانون . فبموجبه : كل من يملك ١٩٩ دونما يستحق دونما واحدا مقابلها ، ومن يملك ٣٩٩ دونما يحصل على ٣ دونمات ، ومقابل ٤٠٠ دونم يحصل على ٤ دونمات . اما العائلة المكونة من ٢٠ نفرا ، والتي تملك ٥٠ دونما ارضا زراعية خصبة مغروسة بالاشجار المثمرة ، وتملك مسكنا وبئر مياه عذبه ، فيحق لها الحصول على ٤ دونمات وتعويضات قصوى بقيمة ٣٢٠,٠٠٠ ليرة ، اي « ثمن نصف غرفة في حي من الاحياء الفقيرة في اسرائيل » (عاموس كينان ، يديعوت احرونوت ، ٣٠ / ٧ / ٧٩) . ورغم ذلك فان هذه العائلات تعتبر سعيدة الحظ بالنسبة لمعظم العائلات الاخرى التي ستكتفي بتعويضات قيمتها ٢٣٠,٠٠٠ ليرة ، و ١٤٠,٠٠٠ ليرة . وبالطبع لن تستطيع هذه ايجاد مكان سكن بديل بهذه المبالغ ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان شراء مسكن بسيط جدا في اسرائيل ، أو حتى بنائه ، يكلف حاليا وكحد ادنى ما بين نصف مليون الى مليون ليرة . وهناك ايضا عائلات تسكن الاكواخ ، تتراوح التعويضات التي تستحقها ، وفق القانون ، ما بين ٦٥٠٠ ــ ١٣٠٠٠ ليرة (من المقابلة مع يونس ابو ربيعة ، معاريف ، ٣ / ٨ / ٧٩) . اي اجرة عامل في الشهر .

لقد بدأت السلطات الاسرائيلية تنفيذ عملية المصادرة لاراضي البدو في النقب ، حتى قبل المصادقة على مشروع القانون نهائيا في القراءة الثانية والثالثة ، اذ اعلن وزير العدل ، شموئيل تامير ، ان لجنة خاصة بدأت المفاوضات مع البدو في تل ــ ملحاتا (تل ــ المالحة) بهدف اخلائهم من منطقة تبلغ مساحتها ٨٧ الف دونم في مرحلة اولى ، من اجل البدء في اقامة المطار العسكري (على همشمار ، ٦ / ٨ / ٧٩) .

كانت ردة فعل السكان البدو عنيفة ، خاصة بعدما ادركوا عدم جدوى التوجه الى المحاكم ، في المحافظة على اراضيهم وحقوقهم . وشاركهم في ردة فعلهم هذه السكان العرب في الجليل وغيره من المناطق العربية الاخرى التي تتعرض لحملات مماثلة من مصادرات الاراضي والممتلكات والاضطهاد . وربما تكون تلك المظاهرة التي شارك فيها الاف العرب ، في اواخر تموز الماضي ، امام مبنى الكنيست ، ابرز تعبير لحالة الغضب والاحتجاج التي تنتاب العرب في اسرائيل ، فقد هتف المتظاهرون « لا تنازل عن اراضينا » ، « نعم للتطوير لا للسلب » ، « مع السلام وضد طمس الحقوق » ، « الدخول الى المحاكم الاسرائيلية محظور على الكلاب والبدو » ، « البدوي ليس فولكلورا وانما انسان » ، « يجب وقف مصادرات الاراضي وهدم البيوت » ، « بالروح بالدم نفديك يا جليل » ، « ليسقط الاحتلال وفلسطين عربية » (على همشمار وزوهاديريخ ، ١/٨/٧٩) .

الجليل « والخطر العربي »

في الوقت الذي كانت فيه هذه الهتافات تنطلق امام باحة الكنيست ، كان هنالك اجتماع منعقد في ميناه بين وفد من رؤساء المجالس المحلية اليهودية في الجليل ، ومجموعة من نواب كتلة ليكود ، وبعض الصحافيين . وقد جاء هؤلاء « يشكون همهم بصوت ملؤه الاسى ومثير للشفقة [بسبب] نجاح الهجوم العربي المتواصل لاحتلال اراضي الجليل بهدف منع الاستيطان اليهودي في المنطقة ، ولضمان اغلبية عربية في المستقبل القريب ، كوسيلة اعداد ديمغرافي لمطلب ديمقراطي يتمثل في ضم الجليل الى الدولة الفلسطينية التي ستقوم مستقبلا على انقاض الحكم الذاتي » (حغاي ايشد ، دافار ، ٢ / ٨ / ٧٩) . وكان اول المتحدثين رئيس المجلس المحلي في روش ــ بينا ، المدعو تسفي راسكو ، حيث اعلن ان رؤساء المجالس اليهودية يمثلون ٢٠٠ مستوطنة يهودية في الجليل وغور الاردن وفي هضبة الجولان ، يعيش فيها نحو ٣٠٠ الف من اليهود . واضاف راسكو ان « يهود الجليل كانوا يشكلون قبل خمس سنين ٥٢٪ من سكان الجليل ، الا انه في سنة ١٩٨٠ ، يتوقع ان يتبادل عددهم مع العرب » . واضاف ان « مديرية يتعادل اسرائيل تملك ٧٧٠ الف دونم من بين ١,١ مليون دونم في الجليل

الاوسط . الا ان العرب سيطروا على ٣٢٠ الف دونم من هذه المنطقة ، لذلك فهم ليسوا بالمساكين او المسلوبين » (يتسحاق شور ، عل همشمار ، ١ /٨ /٧٩) . وزعم راسكو ايضا ان الاراضي التي بقيت في حوزة مديرية العقارات ، لا تعتبر صالحة للزراعة في معظمها ،«واذاما الاسرائيليون رغبوا الاستيطان بها حاضرا او مستقبلا فينبغي وقف اقامة ٢٣ مرصدا . اما الهدف من انتظام عرب الجليل ، بما في ذلك مظاهرتهم الكبيرة امام مبنى الكنيست ، فهوضمان استمرار السيطرة العربية على اراضي الدولة واحباط عملية رصدها » حفاي ايشد، دافار ، ٢ /٨ /٧٩) .

كذلك ادعى رئيس المجلس المحلي في منحاميا ، بني شليطا ، « انه لن يبقى فراغ في الجليل خلال فترة قصيرة ، واذا لم تجر اقامة المراصد خلال زمن قصير ، سيستولي العرب على اراض اضافية تابعة لمديرية عقارات اسرائيل » . واضاف شليطا مؤكدا قول زميله راسكو ، ان المراصد التي تجري اقامتها في الجليل تهدف الى الحفاظ على احتياطي الارض للاستيطان اليهودي . « فالعرب في الجليل يعارضون المشروع الصهيوني في المنطقة من اساسه . انهم غير مسلمين بقيام دولة يهودية ، واذا ما قامت دولة عرفاتية فسينضمون اليها » (يتسحاق شور ، عل همشمار ، ١ /٨ /٧٩) .

كذلك تحدث رئيس المجلس الاقليمي للجليل الغربي (الاسفل) بني غور فينكل فقال انه يعيش في هذه المنطقة ٧٠٠٠ يهودي ، في ١٦ مستوطنة ، مقابل ٤٦٠٠٠ عربي في ٨ قرى كبيرة . « واذا منحت الحكومة افضلية في الميزانيات ، فلن تكون هناك صعوبة في توطين اليهود في الجليل بسرعة » (المصدر نفسه) . وحسب قول رئيس المجلس الاقليمي للجليل الاعلى ، شمعون كروش ، فان « الحكم الذاتي سيتحقق في الجليل وليس في الضفة الغربيه »(المصدر نفسه) .

حملة تحريض واسعة

تثير حملة المعارضة والاحتجاج التي يقودها العرب في اسرائيل ، ضد مصادرة اراضيهم والتعدي على حقوقهم ، الراي العام الاسرائيلي ضدهم وبتوجيه من السلطات الرسمية ، كما حدث مع سكان قرية معليا في الجليل الاعلى ، الذين حاولوا الدفاع عن اراضيهم بواسطة التصدي للجرافات الاسرائيلية، التي كانت في طريقها للاستيلاء على مساحة من اراضي القرية واعدادها لاقامة مرصد عليها بهدف تحويله الى مستوطنة فيما بعد . وقد اعتقل العديد من سكان قرية معليا بتهمة التعرض « لممتلكات الدولة ولرجال الشرطة » .

الا انه يبدو ان معارضة مصادرة الاراضي ، « وتهويد » الجليل ، ليست الامور الوحيدة التي تثير حملة التحريض ضد العرب خاصة في الجليل ، وانما هناك مسالة تماثلهم مع القضية الفلسطينية ، والخط الذي تطرحه منظمة التحرير الفلسطينية في النضال والتحرير. ومن هنا جاء تصريح قائد المنطقة الشمالية العميد افيغدور بن ـ غال، الذي اعلن امام مجموعة من النواب الاسرائيليين الذين كانوا يتفقدون المستوطنات في هضبة الجولان ، من ان النصف مليون عربي الذين يعيشون في الجليل هم « سرطان في قلب الدولة . ان هؤلاء العرب يتماثلون مع م . ت . ف ويحصلون منها ومن الدول العربية على المساعدة . ويعتبرون انفسهم قوة طلائعية للاوساط القومية العربية ، فينتظرون فرصة للانقضاض علينا . لذلك يجب الاهتمام بالاستيطان في الجليل اكثر من الجولان » هارتس ، ٩٠ / ٨ /٧٩) .

اثار تصريح بن ـ غال ، هذا موجة شديدة من الاحتجاج لدى العرب في الجليل ، وصلت الى حد مطالبة سكرتارية لجنة رؤساء المجالس المحلية العربية وزير الدفاع باقالة بن ـ غال من منصبه. اما بالنسبة للراي العام الاسرائيلي فقد انقسم بين مؤيد له ومعارض . فعلى الصعيد الرسمي اكتفت الحكومة الاسرائيلية بتوجيه توبيخ ، عبر وزير الدفاع ، الى بن ـ غال ، مفاده ان عرب الجليل « هم مواطنو اسرائيل وليس من حق احد توجيه الذم لهم » (المصدر نفسه) . اما على الصعيد العام فقد اقتصرت المعارضة على الاوساط الاسرائيلية اليسارية فقط مثل الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) وكتلة شيلي ، وحركة حقوق المواطن. فقد علق النائب اوري افنيري على تصريحات بن ـ غال بقوله : « لقد تسببت اقواله في ازعاجنا بشكل كبير . ماذا كنا سنقول لو اعلن جنرال اميركي بأن اليهود هم سرطان في جسم الدولة الاميركية . لقد طلبنا باسم اللجنة السياسية لحركة شيلي من وزير الدفاع عزل قائد المنطقة الشمالية من منصبه حالا واصدار

الاوامر الواضحة لجميع ضباط الجيش بالامتناع عن الادلاء بتصريحات كهذه، والتي لا تغضب نصف مليون من مواطني اسرائيل فحسب ، بل تمس ايضا مسا خطيرا بامن الدولة على المدى البعيد . كيف سنطلب من العرب الاخلاص للدولة في الوقت الذي ينظر فيه قادة المناطق اليهم على انهم خونة وسرطان » ن.إ.إ ، ٩ و ٧٩/٨/١٠ ، العدد ١٨٤٥ ، ص ٤)

الا ان معظم التعليقات وردود الفعل الاسرائيلية جاءت مؤيدة لاقوال بن ـ غال ، خاصة من جانب رؤساء المجالس المحلية والرجالات العامة في الجليل ، الذين اعلنوا عن تماثلهم الكامل مع قائد المنطقة الشمالية . فقد اعلن تسفي راسكو ، رئيس مجلس روش ـ بينا المحلي بأسم مجموعة من رؤساء المجالس المحلية ، انه ورفاقه يؤيدون اقوال العميد بن ـ غال «المخلصة والصريحة، لانه من خلال معرفتنا للوضع من المنطقة عن كثب ندرك ان وصف العميد للعرب واقعي (معاريف ، ٧٩/٨/١٠) .

كذلك دعمت وسائل الاعلام المختلفة ، خاصة الصحف البارزة المقربةمن السلطة، اقوال بن ـ غال معتبرة ان هدف « اولئك الذين يطالبون برأسة » ليس سوى تحقيق ربح سياسي ، اذ « هل اقوال [بن- غال] خطيرة فقط ؟ والواقع ـ هل هو افضل ؟ ربما يستحسن بدلا من التهجم على قائد المنطقة الشمالية ، التوقف لحظة والتفكير بذلك الواقع الذي يهدد الطابع اليهودي ـ الاسرائيلي في الجليل ومجمل العلاقات ما بين العرب واليهود هنالك ... ان المشكلة في الجليل لا تتمثل فقط في النسبة ما بين عدد اليهود والعرب ، انها قبل كل شيء مسألة طبيعة العلاقات بين الاسرائيليين من ابناء الشعبين واضح بالطبع . ان هناك امرا حيويا بالنسبة لاسرائيل ولوجودها يحتم وجود اكثرية يهودية في المنطقة قدر الامكان . ولكن هل علاقات الجوار اقل اهمية ؟ وما هو [مصير] مواطن من نهاريا يرغب في السفر الى معلو ت بعد غروب الشمس ، الا انه يخشى ذلك خوفا من التعرض له من جانب سكان قرية عربية . هل تفوقنا الكمي يساعده في هذه الحالة ؟ ثمة مشاكل في الجليل ، وهناك تطرف في اتجاه معاد لاسرائيل ، ومؤيد لمنظمة التحرير . هناك تماثل مع اعداء اسرائيل ... وعداء متزايد تجاه اليهود ... ربما تعبر اقلية عنه فقط ، ولكن الامور لا تقاس هكذا . انها تقاس بالموافقة الشاملة من جانب مجمل السكان مع التصرف العدائي الذي تظهره اقلية تجاه الدولة ...

لقد تحدث بن ـ غال حول المساعدة التي تمنحها م.ت.ف لعرب الجليل ان هذه الامور لم تعد سرا ، والمساعدة ليست شفهية واخلاقية فقط .. (تسفي البيليغ ، يديعوت احرونوت ، ٧٩/٨/١٢) .

يلاحظ ان حملة التحريض ضد العرب تزداد يوما بعد اخر ، بسبب « جرأة » هؤلاء على تأييد قضيتهم والدفاع عن حقوقهم فاقوال العميد بن ـ غال لم تات في فراغ . ففي هذه الايام .. تتصاعد حملة التماثل بين عرب ارض ـ اسرائيل مع النشاط الفلسطيني، وهو النشاط المعادي حسب رأي يهود اسرائيل ... والكراهيـة والحقد لا يعودان الا بالمثل ، وعلى العرب الا يفكروا ان بامكانهم تدمير السيادة اليهودية دون ان يتلقوا ردا من اليهود وبالحملة نفسها . واذا وجد هناك بين اليهود من يقول ان افضل رد هو التجاهل ، او مصلحة اولئك الذين يحملون لواء الكراهيـة والسائرين وراءهم ، فان هذا الرد ليس رد مجتمع يطمح في الحياة .

« من الافضل ان تكون اقوال بن ـ غال ... تحذيرا لمن يساوره الاعتقاد ان اليهودي الاسرائيلي الذي اقام هنا دولته المستقلة ، وسفك دمه ودم ابنائه في الدفاع عنها ، سيسلم بالمصير الذي رسمته له م.ت.ف ومؤيدوها واتباع مؤيديها . ويجب ان نضيف ونقول انه اذا لم تكف التحذيرات ، فستعقبها امور اخرى : فالتطرف ليس لعبةتخص لاعبا واحدا فقط » (أ. شفايتسر ، هارتس ، ٧٩/٨/١٤)

وينبغي عدم الاستخفاف بهذه الحملة المعادية للعرب في اسرائيل ، اذ انها تختلف هذه المرة عن الحملات التي كانت تشن ضدهم في الماضي . فنضال العرب في اسرائيل الآن لم يعد يقتصر على الدفاع عن حقوقهم المعيشية ورفع الظلم والاضطهاد وانما تعدى ذلك ليصبح شكلا من اشكال النضال الفلسطيني واهدافه . فالدفاع عن ارض الجليل والنقب هو قضية قومية ، قبل كل شيء ،وليست قضية تعويضات وقوانين عنصرية لم تعد تفاجيء احدا من العرب . والنظرة الى الاستطان الاسرائيلي ، في الجليل ، لم تعد تختلف لدى معظم العرب في اسرائيل ، عن نظرتهم الى الاستيطان في المناطق المحتلة ، لذلك ، فالتوقع للمستقبل يتمثل في ازدياد حدة المواجهة ، وليس تخفيفها ، كما يأمل بعض الاسرائيليين .

ح ٠ ش

٢

اسرائيل مستمرة في محاولات تشديد قبضتها على المناطق المحتلة

● ردود الفعل على قرار شراء الأراضي

على أرضية مفاوضات الحكم الذاتي بين اطراف كامب ديفيد ، وفي اجواء التصريحات الاميركية بشأن الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، ورغبة من اسرائيل في الاسراع بخلق امر واقع في الضفة الغربية وقطاع غزة ، من خلال توسيع المستوطنات اليهودية ، والسيطرة على الاراضي ، أصدرت الحكومة الاسرائيلية في ١٩٧٩/٩/١٦ قرارا يسمح بموجبه لليهود بشراء الاراضي في المناطق المحتلة .

وفي اعقاب الجلسة التي اتخذ فيها القرار صرح معظم الوزراء الاسرائيليين بان حكومة بيغن اتخذت هذا القرار بناء على برنامج الليكود الانتخابي . وفسر اريبه ناؤر ، سكرتير الحكومة مغزى القرار بالقول : « بموجب الوضع القائم الآن ، كان كل شخص في العالم يتمتع بحق شراء الاراضي في هذه المناطق ، باستثناء اليهود الاسرائيليين . ولا يمكن تجريد انسان بسبب يهوديته او بسبب اسرائيليته من هذا الحق . ان حق الاتجار بالأرض ، وبيعها ، وشرائها يجب ان يمنح للجميع بالتساوي ، وهذا هو مغزى قرار الحكومة » (ر . ا . ، العدد ١٨٧٤ ، ١٦ و ١٩٧٩/٩/١٧ ، ص ٥) .

غير انه على الرغم من ذلك ، لا تتوقع المصادر الاسرائيلية ان يحل هذا القرار مشكلة نقص الاراضي اللازمة للاستيطان ، كما انه لن يساعد في ايجاد من يبيع ارضه من العرب .وقد اعتبرت «الدوائر التي تعالج قضايا شراء الاراضي في الضفة الغربية ... ان القرار يشكل ضربة مميتة لامكانية شراء اراض من العرب ، اذ ان التهديد [لاولئك] الذين يرغبون في بيع اراضيهم سيزداد . ويأتي هذا التهديد من الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية » (ر.ا. ، العدد ١٨٧٥ ، ١٧ و١٩٧٩/٩/١٨ ، ص ٣) . كما علم « ان السنة الاخيرة لم تشهد أي صفقة لشراء اراض عربية . ويعتقد خبراء بشراء الاراضي ، ان القرار لن يؤدي الى تحسين الوضع ، ويتوقعون حدوث العكس » (المصدر نفسه) .

ويرى حنان بورات ، عضو سكرتارية غوش ايمونيم ان هذا القرار لن يكون « بديلا لمصادرة الاراضي للاغراض العامة والقومية ، مثل الاستيطان .. وهو يأمل في ان لا يأتي هذا القانون للتخلص من هذه الضرورة ، اي مصادرة الاراضي في هذه الظروف الصعبة التي نعيشها عشية الحكم الذاتي » (ر.ا. ، العدد ١٨٧٨ ، ٢٠ و١٩٧٩/٩/٢١ ، ص ١٤) .

ويبدو ، من ناحية ثانية ، ان القرار الاسرائيلي وقع كالصاعقة على السكان العرب ، الذين يخشون من « ان يشكل ... من الناحية السياسية ... خطوة اضافية لازالة الحواجز . بين اسرائيل والمناطق [المحتلة] » (ك . امنون ، عل همشمار ، ١٩٧٩/٩/٢٠). وكان لذلك اكبر الاثر في إفشال محاولات السلطات الاسرائيلية ، ايجاد اراض لاقامة مستوطناتهم وتوسيعها . فقد بحث ، مثلا ،

سكان مستوطنة كريات اربع عن عربي مستعد لبيع أراضيه فلم يجدوا . فالمستوطنة ، كما يقول أحد مستوطنيها ، بحاجة الى أراض كثيرة لتوسيعها ، لتصبح مدينة كبيرة ولكن « لم نجد احدا من العرب يبيع الأراضي المطلوبة » (ر.أ.أ ، العدد ١٨٨٣ ، ٢٨ و٢٩/٩/١٩٧٩ ، ص ٧) . وكذلك قام سكان مستوطنة بيت حورون بعدة محاولات لشراء الاراضي من العرب لتوسيع مستوطنتهم ، باءت كلها بالفشل . ويرى اسحاق لوري ، سكرتير المستوطنة ، « ان العرب لا يبيعون أراضيهم لانهم غير مهتمين بالأمر ، ولم تسفر كل المحاولات ، الا عن عقد صفقة صغيرة ، كانت حصيلتها مساحة ١٤ دونما ، ولم يبد العرب اي استعداد لبيع المزيد » (المصدر نفسه) .

وكانت ردود الفعل على هذا القرار في الأوساط العربية ، واضحة وقاطعة في رفضها له شكلا ومضمونا ، واعتباره خطوة على طريق ضم المناطق المحتلة لاسرائيل . ويرى بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ، ان هذا القرار يفسر مشروع الحكم الذاتي ، بمعنى « حكم ذاتي للسكان بدون وطن » (عل همشمار ، ١٩/٩/١٩٧٩) . اما رئيس بلدية حلحول فقد أعلن ان القرار هو ذريعة للسيطرة على أراض اخرى « لأن اسرائيل تتذرع بالأمن ، وتصادر الاراضي للاستيطان » (ر.أ.أ ، العدد ١٨٧٤ ، ١٦ و١٧/٩/١٩٧٩ ، ص ٩) .

كما دعا ابراهيم الطويل رئيس بلدية البيرة ، الى الضرب بيد من حديد ، على كل من يبيع أرضا من اراضي فلسطيني (المصدر نفسه) .

وأصدرت الهيئات النسائية في الضفة الغربية بيانا استنكرت فيه القرار ، ودعت الى افشاله والتصدي له . وجاء في البيان : « اما وان الاعلان العالمي لحقوق الانسان ينص ... على انه لا يحق تجريد أحد من ملكه أو ارضه بالقوة ، فان قرار الحكومة الاسرائيلية ، السماح لليهود باستملاك الاراضي في المناطق العربية المحتلة ، لا يكفي القول فيه انه باطل ، أو غير شرعي ، أو غير منطقي فحسب ، بل انه يلزم العالم العربي بالتحرك السريع لاسقاطه قانونيا ، ودوليا ، ولوضع الدول الموقعة على ميثاق حقوق الانسان أمام التزاماتها » . وأضاف البيان : « ان الشعب الذي افتدى ارضه بدمائه منذ ان كان له وجود ومواقف وتاريخ ، لن تتغير مواقفه ، كما انه لن يفرط في مقر عظام ابائه واجداده وخبزه وعمله وعزته وكرامته ، ولن يسمح بمرور اي قرار لاعادة تهجيره وتشريده الى اي أرض ، ويصبح بلا وطن ولا انتماء » (فلسطين الثورة ، ٢٠/٩/١٩٧٩) .

وفي الخليل ، اصدر المجلس البلدي بيانا استنكر فيه بشدة هذا القرار واعتبره تطبيقا عمليا للمؤامرة المشتركة التي نسجت خيوطها في كامب ديفيد . واكد المجلس في بيانه ، على ان ارادة الشعب الفلسطيني لن تنكسر أو تلين حتى نيل حقوقه كاملة في وطنه (المصدر نفسه) .

وأرسلت بلدية غزة ، برقية احتجاج طويلة الى كل من رئيس الحكومة الاسرائيلية ، ووزير الدفاع ، وقائد منطقة غزة ، والرئيسين كارتر والسادات ، وكورت فالدهايم سكرتير الامم المتحدة ، والى لجنة حقوق الانسان في جنيف ، جاء فيها « ان هذا القرار ، سيكون اشارة للمتطرفين اليهود مثل غوش ايمونيم ، وجماعة ارض ــ اسرائيل الكاملة ، لشراء الاراضي من العرب ، وتحويلها الى مستوطنات اسرائيلية لمنع حل المسألة الفلسطينية ، التي هي لب المشكلة في الشرق الاوسط » . واضافت البرقية : « اننا متأكدون من ان العرب لن يبيعوا الارض التي يملكونها ، لكن هناك أراض عامة ، لا توجد اي حقوق لسلطات الاحتلال بالتصرف فيها . وان مجلس بلدية غزة يرى بهذا القرار برهانا على عدم رغبة حكومة اسرائيل في اقرار السلام ، حيث انه يعارض كل الاعراف الدولية ، ويعارض مواثيق جنيف المتعلقة بالاراضي المحتلة » (عل همشمار ، ١٩/٩/١٩٧٩) .

الاستيطان في الاراضي المحتلة

« يعتبر ما يقوم به شارون عملا بطوليا ، لكنه لا يكفي ، اذ يجب ايجاد إجماع داخل كتلة الليكود للضغط على الحكومة » . بهذه العبارة عبر مردخاي تسيبوري نائب وزير الدفاع عن حقيقة مواقف كتلة الليكود ، التي اجتمعت يوم ١٣/٩/١٩٧٩ لبحث قضية الاستيطان في الاراضي المحتلة ، حيث دعت الحكومة ، لطرح خطة رئيسية للاستيطان لمنع النقاش الدائم ، والازمات السياسية عند إقامة كل موقع استيطاني جديد . (عل همشمار ١٤/٩/١٩٧٩)

وتحدث شارون رئيس اللجنة الوزراية لشؤون الاستيطان امام اجتماع الكتلة ، فذكر ان مشروع الاستيطان في الضفة الغربية يواجه صعوبات كبيرة ، وانه مقتنع بأن الحكومة ستساعده في تخطي هذه الصعوبات . وادعى ان القاعدة التحتية قائمة الآن في الضفة الغربية لاستيعاب مئات الالاف من السكان (المصدر نفسه) . وفي نهاية النقاش ، اتخذت كتلة الليكود قرارا بالاجماع ، يدعو الحكومة الى الالتزام بنشر مشروع رئيسي للاستيطان وعليها ان « تعمل بسرعة لحل مشكلة الاراضي الناقصة لمستوطنات مرتفعات الجولان ، ووادي الاردن ، والضفة الغربية وقطاع غزة ، لكي يمكن تثبيتها ، واستمرار تطويرها (المصدر السابق نفسه) .

وكشف الدكتور بن اليسار ، مدير مكتب رئيس حكومة اسرائيل الاسباب الكامنة وراء إقامة المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، رغم كل الانتقادات الموجهة الى السلطات الاسرائيلية في هذه الفترة ، بقوله انها معدة « لمنع قيام دولة فلسطينية ... فكل عمل يمنع قيام دولة فلسطينية يدفع السلام الى امام، ومستوطناتنا في الضفة الغربية شرعية ، ليست مجرد نزوة ، بل هي حقيقة نابعة من سياستنا » (ر.ا.، العدد ١٨٧١ ، ١٢ و١٣/٩/١٩٧٩ ، ص ١١) .

واستطرادا لهذه السياسة الرسمية الواضحة للسلطات الاسرائيلية ، تحرك مستوطنو كريات اربع ، وحطموا السياج المقام حول مستوطنتهم ، لاقامة مستوطنة جديدة مؤقتة ؛ لانهم ، حسب قولهم ، ضاقوا ذرعا من الوعود التي اعطيت لهم لتوسيع مستوطنتهم ، والتي لم ينفذ شيء منها حتى الآن . واضاف سكان المستوطنة ، ان كريات اربع تحولت مؤخراً الى غيتو مغلق ، ومحصور داخل مدينة الخليل الكبيرة . « وقد استغل العرب هذا الوضع وبنوا عشرات المنازل والمساجد ، متفاخرين ، من اموال المساعدات السعودية . وبذلك فانهم يحققون سيطرة على المناطق الخالية ، والهدف هو منع تطور القرية » (هاتسوفيه ، ١٤/٩/١٩٧٩) .

ووصف مراسل الاذاعة الاسرائيلية ، اسلوب المواطنين العرب في مقاومة الاستيطان اليهودي بقوله ، « ان العرب يبنون منازل سكنية دون ترخيص ، على طول طريق حوتسيه شومرون قرب قريتي حارس وبديا . وبالقرب من مستوطنة ريحان يقوم السكان من القرى المجاورة بغرس الاشجار ، مما يشير الى نواياهم بوضع اليد على الاراضي هناك . كما بدأ السكان باستصلاح اراض صحراوية على طول طريق ارنس همفراسم ، والتي تسمى ايضا مشروع الون ، (ر.ا. ، العدد ١٨٧١ ، ١٢ و ١٣/٩/١٩٧٩ ، ص ١٣) .

وطرح رعنان فايتس رئيس دائرة الاسيتطان في الوكالة اليهودية امام رؤساء المنظمة الصهيونية مشروعا لاقامة ١٤١ مستوطنة خلال ثلاث سنوات ، منها ٢٦ في الضفة الغربية ، ١١ في وادي الاردن ، ٩ في الجليل ، ٨ في مرتفعات الجولان ، ٢ في غوش عتسيون .

وفي معرض استعراضه لاوضاع المستوطنات ، اعترف فايتس انه من اصل ١١٠ مستوطنات اقيمت بعد حرب ١٩٦٧ ، يوجد ٧٠ منها في وضع اقتصادي صعب ، وان تسعا من المستوطنات الجديدة وضعها الاقتصادي جيد . واقترح فايتس بناء ٦٣٢ وحدة سكنية باستثمار يبلغ خمسة مليارات وخمسمائة مليون ليرة اسرائيلية ، حيث تكلف كل وحدة سكنية ٧٥٠,٠٠٠ ــ ٨٥٠,٠٠٠ ليرة . وفي المستوطنات التي لا يوجد فيها قاعدة تحتية ، تكلف الوحدة السكنية مليون ليرة (عل همشمار ، ٢٤/٩/١٩٧٩) .

كما ادلى منتياهو دروبلس الرئيس الثاني لدائرة الاستيطان بالوكالة اليهودية ، بدلوه. في طرح مشاريع الاستيطان بالضفة الغربية ، واقترح توسيع المستوطنات القائمة حول مدينة نابلس ، بحيث تحاط باربع كتل استيطانية ، وتعتبر كل من مستوطنات ترتسا ، وشافي شومرون ، وكيدوميم والون موريه طليعة هذه الكتل (ر.ا. ، العدد ١٨٧٦ ، ١٨ و١٩/٩/١٩٧٩ ، ص ١٥) .

ودعا مجلس مستوطنات الشمال والجولان ، الحكومة الاسرائيلية للتنفيذ السريع لمشروع « العشرة الاف » الهادف الى اسكان الجولان بعشرة الاف مستوطن حتى اوائل الثمانينات ، لمضاعفة السكان اليهود في الجولان . وطالب رئيس المجلس ، الحكومة بان ترى في الجولان ، منطقة ذات اهمية عالية ليس فقط بالكلام ، وانما بالفعل » (دافار ، ٢٠/٩/١٩٧٩) .

وفي غزة ، اثار رشاد الشوا رئيس البلدية امام

منسق الاعمال في المناطق المحتلة اللواء داني مات ، والحاكم العسكري العميد اسحاق شيفف ، ما تردد مؤخرا حول احتمال اقامة مستوطنة جديدة بالقرب من بيت لاهيا شمالي غزة (رأ . أ ، العدد ١٨٩٠ ، ١٠ و١١/١٠/١٩٧٩ ، ص ١٣) .

والأمر المثير للدهشة هو انه بينما تتحدث السلطات الاسرائيلية عن مشاريع وخطط كثيرة لاقامة مزيد من المستوطنات الجديدة ، فان الحالة التي تعيشها المستوطنات سيئة جدا ، سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية . ويتضح من احدى التحقيقات ان جميع المستوطنات مقامة في معسكرات مؤقتة ، وفي مباني مصنعة مسبقا وهي تتلف طوال فصل الشتاء . كما ان الطرق المؤدية الى المستوطنات غير معبدة ، وهي موحلة عند هطول المطر . ويعتبر وضع مستوطنة الون مورية أسوأ وضع تعانيه اي من المستوطنات ، لان الطريق المؤدية اليها ترابية ولا يمكن الوصول اليها في الشتاء ، كما ان المياه لا تصل اليها لعدم وجود انبوب للمياه . ولا يجري تزويدها بالغذاء بصورة منتظمة « مما يضطر الجيش الى استخدام طائرات الهليوكبتر بنفقات وبجهود كبيرة ، مع وجود أخطار نتيجة الرياح الشديدة التي تهب على المنطقة » (عاموس لفيف ، معاريف ، ٢٠/٩/١٩٧٩) .

وعلق أحدهم على النتائج التي توصل اليها رعنان فايتس ، حول مستقبل الاستيطان في الاراضي المحتلة ، فذكر ان المشكلة الاساسية هي في الاهداف السياسية لمشاريع الاستيطان لحكومة الليكود ، والهدف هو اقامة مستوطنات عديدة بكل ما يمكن في الضفة الغربية من خلال الوهم « ان الامر الواقع هو الذي يؤثر على تحديد مستقبل هذه المناطق . ولكن تعلمنا من قضية مستوطنات مشارف رفح ، والتي وافق بيغن وحكومته على اخلائها ، انه حتى المستوطنات التي انفقنا عليها مليارات عديدة من الليرات ، مثل يميت ، لا تضمن بقاء الاسرائيليين في المكان نفسه. ومن العدل الاشارة ، الى ان المستوطنات العديدة التي لا يقدم لها ضمانات لاستمرار وجودها سوف تقدم قرابين لافضلية الاستيطان في الضفة الغربية » (من افتتاحية عل همشمار ، ١٩/٩/١٩٧٩) .

مصادرة الاراضي

واستمرارا في سياسات مصادرة الاراضي العربية المحتلة ، لحاجات توسيع ، وتكثيف المستوطنات ، صادرت سلطات الاحتلال ٥٠٠ دونم ، تعود ملكيتها لسكان قرية اسكريا في منطقة غوش عتسيون ، من اجل توسيع مستوطنة روت تسوريم .

اما صاحب الارض ابراهيم عودة « المتمسك بأرضه المصادرة بعناد ، فقد تغيب عن المكان ، لانه لا يريد ان يمتثل لأمر الحاكم العسكري » (هآرتس ، ٢٠/٩/١٩٧٩) .

كما صادرت سلطات الاحتلال عشرين الف دونم من اراضي قريتي دير استيا ، والنبي سباط ، على طريق جنين ــ نابلس (عل همشمار ، ١٤/٩/١٩٧٩) . وقد أثار اعضاء مجلس قرية دير استيا المجاورة لطريق نابلس ــ قلقيلية ، احتجاجا على مصادرة اراضيهم التي تبلغ ١٦ الف دونم . وذكرت الاوساط الاسرائيلية ، ان المصادرة تمت لاغراض عسكرية (وهي حجة يختفي وراءها الهدف الحقيقي للمصادرة) . وستشق في المنطقة طرق تربط المستوطنات المختلفة في منطقة كرني شومرون ، ومن بينها مستوطنات كرني شومرون أ ، وب ، وج (هآرتس ، ٢١/٩/١٩٧٩) . ويقول يهودا ميرون ، سكرتير مستوطنة كرني شومرون ، ان المكان سيشكل مستقبلا مدينة كبيرة على طريق قلقيلية ــ نابلس . سيقيم فيها في المرحلة الاولى ٢٥٠٠ عائلة . وستقام هذه المدينة الجديدة عندما تتجمع المستوطنات القائمة الآن حولها ، وهي تبعد مسافة ١٥ دقيقة عن قلقيلية (المصدر نفسه) .

وصادرت سلطات الاحتلال كذلك ١٢٠٠ دونم من اراضي قرية طوباس العربية . واحتج سكان القرية لدى الحاكم العسكري على مصادرة اراضيهم ، التي تمت تحت حجة الضرورات الأمنية كذلك (رأ . أ ، العدد ١٨٨٩ ، ٩ و١٠/١٠/١٩٧٩ ، ص ١٣) .

٣ ــ النشاط السياسي

على هامش الاجتماعات التي عقدها دايان مع عدد من زعامات الضفة الغربية (راجع شؤون فلسطينية ، العدد ٩٥ ، تشرين الاول ١٩٧٩ ، ص ١٢٦) التقى وزير الخارجية الاسرائيلي في ٩/١٠/١٩٧٩ ، مع انور الخطيب ، احد شخصيات القدس ومن كبار الموظفين السابقين في الضفة الغربية . وصرحت الاوساط الاسرائيلية بعد

انتهاء اللقاء ، ان تلك المباحثات تمت ضمن إطار اللقاءات التقليدية التي اجراها دايان مع اشخاص من الضفة الغربية للاطلاع على ارائهم . ومن المعروف ان انور الخطيب سافر الى الاردن ، واجرى مباحثات رسمية مع رئيس الحكومة مضر بدران ومع شخصيات اردنية رفيعة ، (ر.أ أ ، العدد ١٨٨٩ ، ٩ و١٠/١٠/١٩٧٩ ، ص٧) .

وصرحت مصادر في القدس الشرقية ، ان انور الخطيب اطلع في الاردن على الخطوات السياسية التي ينوي الادن اتباعها ، وعن النية « الرامية لتشكيل طاقم مفاوضات من شخصيات فلسطينية مقربة منه » (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى ، ابدى كريم خلف رئيس بلدية رام الله ، استعداده للجلوس والحديث مع اسرائيليين مؤيدين للقضية الفلسطينية . ولكن فيما يتعلق بممثلي اسرائيل الرسميين ، فانه ليس على استعداد للالتقاء بهم ، لانه لا يعتبر نفسه ناطقا باسم الفلسطينيين . ووجه خلف انتقاده للفلسطينيين الذين اجتمعوا مع موشي دايان. واضاف ، من ناحيتي فانا على استعداد « للالتقاء بوزير الدفاع عيزر وايزمن فقط . ولكن اذا طلب دايان ذلك ، فانا لست مستعدا للقائه . وبامكاني الالتقاء مع وزير الدفاع لانه مسؤول عن المناطق المحتلة . واذا طلب دايان الالتقاء بي فسأنصحه بالتوجه الى عرفات ، وهذا وفقا للمبادىء الموجهة للفلسطينيين ، والتي تحظر عقد لقاءات واتصالات بناءعلى اتفاقيتي كامب ديفيد » (ر.أ .أ. ، العدد ١٨٨٧ ، ٥ و٨/١٠/١٩٧٩ ، ص ١٩) .

وشهدت الأراضي المحتلة تحركا نشطا لرؤوساء البلديات والشخصيات الاخرى ، سواء داخل الضفة الغربية وقطاع غزة أو بالاشتراك في مؤتمرات وندوات مؤيدة للقضية الفلسطينية في الخارج . ورغم معارضة السلطات الاسرائيلية لسفر معظم رؤساء البلديات الى الخارج للاشتراك في هذه المؤتمرات ، الا انها عادت وتراجعت عن ذلك .

وفي اطار مفاوضات الحكم الذاتي ، التقى روبرت شتراوس المبعوث الامريكي الخاص برئيس بلدية بيت لحم الياس فريج في القنصلية الامريكية بالقدس يوم ١١/٩/١٩٧٩ ، للاطلاع على موقف فريج من مسالة الحكم الذاتي . وقد اكد فريج للمبعوث الامريكي ، ان مشروع الحكم الذاتي لا يؤمن مطلبنا الاساسي ، الا وهو الحرية وانشاء وطن قومي للفلسطينيين ، « وإنني ارفض مفاوضات الحكم الذاتي لأن منظمة التحرير هي التي تمثل موقف الشعب الفلسطيني » (ر.أ .أ. ، العدد ١٨٧٠ ، ١١ و١٢/٩/١٩٧٩ ، ص ٣) .

وحول موضوع الاتحاد الفدرالي بين الضفة الغربية والاردن ، اكد فريج للسفير شتراوس ، انه بعد قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، يمكن اجراء مفاوضات مع الاردن لاقامة اتحاد يستند الى اسس ديمقراطية » (المصدر نفسه) .

واجتمع رشاد الشوا رئيس بلدية غزة يوم ١٨/٩/١٩٧٩ مع جيمس لينارد ، نائب رئيس الوفد الامريكي في مفاوضات الحكم الذاتي . وصرح الشوا عقب اللقاء ، انه اكد وجهة النظر الفلسطينية حول المفاوضات القائمة ، وان « منظمة التحرير هي المخولة اجراء اي مفاوضات ، اذا كان سيكتب لهذه المفاوضات اي نجاح » (ر.أ.أ ، العدد ١٨٧٧ ، ١٩ و ٢٠/٩/١٩٧٩ ، ص ١٢)

وفي الأسبوع الاخير من شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩ توجهت معظم شخصيات الضفة الغربية وقطاع غزة الى الخارج للاشتراك في مؤتمرات وندوات عالمية عقدت لتأييد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . وفي هذا السياق ، توجه رشاد الشوا ، الدكتور حيدر عبد الشافي ، والمحامي زهير الريس الى روما للاشتراك في ندوة فلسطينية نظمتها اللجنة الايطالية للتضامن والصداقة مع الشعب الفلسطيني (راجع التقرير الخاص عن الندوة في هذا العدد) كما توجه فهد القواسمه الى جنيف للادلاء بشهادته امام لجنة حقوق الانسان .

وتوجه بسام الشكعة ، وكريم خلف ، وتبعهم فهد القواسمة الى واشنطن لحضور المؤتمر الفلسطيني — الامريكي لتأييد الشعب الفلسطيني .

وفي شهادته امام لجنة حقوق الانسان في جنيف قال قواسمه ، ان ٧٤ مستوطنة اقيمت في الاراضي المحتلة منذ الاحتلال حتى الآن ... وان هذه

المستوطنـات تقـام بحجـة الضرورات الامنيـة الاسرائيلية . وتساءل قواسمه ، من هو أحوج الى الأمن ، اسرائيل التي هي اقوى دول المنطقة ، ام الفلسطينيون الذين يعيشون تحـت الاحتـلال ؟ واضاف قواسمه ، ان اسرائيـل تغلـق المدارس والجامعات وتطرد المدرسين الذين لا ينصاعـون لاوامرها ، وحذفت من برامج التعليم مقاطع تتعلق « بالتاريخ العربي ، والتاريخ الاسلامي لافهام الطلاب انهم عرق ادنى ، كما جرى تغيير مقاطع من القرآن تتحدث عن اليهود واليهودية . (ر.ا.ا ، العدد ١٨٧٢ ، ١٣ و ١٤/٩/١٩٧٩ ، ص ١٦)

واثر عودة كريم خلف الى الضفة الغربية ، تحدث عن نتائج جولته في الولايات المتحدة ، واعرب عن تفاؤله لوجود تغيير في الولايات المتحدة . ولقد حدث هذا التغيير في وسائط الاعلام ، وفي المؤتمرات ، وفي الصحافة ، وحيثما تذهب تسمع الناس يتحدثون عن القضية الفلسطينية ، وان هناك شعبا اسمه الشعب الفلسطيني ، له حق العيش والوجود في دولة مستقلة (ر.ا.ا ، العدد ١٨٨٧ ، ٥,٨/١٠/١٩٧٩ ، ص ١٨) .

وكان رئيسا بلدية رام الله وبيت لحم قد حضرا مؤتمرين في الولايات المتحدة . الأول ، المؤتمـر الفلسطيني الامريكي الذي شارك فيه فلسطينيون من سكان الولايات المتحدة وكندا ، وكان خلف ابرز خطبائه . والثاني هو مؤتمر لجنة حقوق الانسان ، الفلسطيني . وفي كلمته التي القاها خلف امام المؤتمر ، حدد اسباب وقوف الشعب الفلسطيني ضد اتفاقيات كامب ديفيد ، لانها تتجاهل كون القضية الفلسطينية تتركب من ثلاثة عناصر ، الزعامة ، والشعب والأرض . إن الاتفاقية تتجاهل الزعامة ، لانها تتجاهل م . ت . ف والشعب ، لانها تعتبرنا مجرد لاجئين وليس مواطنين . والأرض لكوننـا نعارض ابقاء السيادة الاسرائيلية على المناطـق (المصدر نفسه) .

واخيرا اكد خلف ، ان الفلسطينيين سيناضلون ضد الحكم الذاتي ، لكن ليس ضد السلام ، فنحن نريد السلام ولكن ليس عبر الحكم الذاتي . وبما انني لا احمل السلاح فان الادارة العسكرية لن تتمكن من معاقبتي (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى ، قامت مجموعة من رؤساء بلديات الضفة الغربية مؤلفة من الياس فريج (بيت لحم) ، حنا الاطرش (بيت ساحور) ، ابراهيم الطويل (البيرة) ، عودة رنتيس ، مساعد رئيس بلدية رام الله ، وعبد العزيز السويطي رئيس بلدية اريحا ، بزيارة قنصل اسبانيا في شرقي القدس، وقدموا له رسالة شكر على الاستقبال الذي جرى لياسر عرفات اثناء زيارته الرسمية لمدريد . وجاء في الرسالة « ان حكومة اسبانيا كشفت عن حقيقة كونها الدولة الأولى في غرب اوروبا التي دعت عرفات لزيارة رسمية ، واثبتت بذلك اعترافا حقيقيا بمنظمة التحرير ، وبحقـوق الفلسطينيـين » (دافـار ، ٢٥/٩/١٣٩) . وقـد اكد القنصـل لرؤسـاء البلديات ، استمرار حكومته في سياستها المعروفة ، ومساعدة الفلسطينيين . (المصدر نفسه) .

منع نشاط اللجنة التحضيرية للجبهة الوطنية

في اطار الاستعدادات التي يقوم بها الاسرائيليون لانشاء الحكم الذاتي ، واجراء الانتخابات البلدية، اصدر الحكم العسكري يوم ١٠/١٠/١٩٧٩ قرارا بمنع انشاء اللجنة التحضيرية للجبهة الوطنية ، واوضح انه ستجري محاكمة كل من يعمل في اطار تلك اللجنة .

ويقول الحكم العسكري ، ان اللجنة التحضيرية للجبهة الوطنية كانت تنظيما سريا اهتم بتنظيم سكان المناطق ، وتنظيم عمليات الاحتجاج ضد اتفاقيتي كامب ديفيد ، كما شكلت حلقة الاتصال بين م.ت.ف وسكان المناطق .

وتضيف مصادر الحكم العسكري ، ان تلـك اللجنة كانت مسؤولة عن اقامة المؤتمرات الكبيرة التي عقدت في نابلس وبيت لحم ضد اتفاقيتي كامب ديفيد ، وعن اعمال سرية اخرى ، وهي تضم بين اعضائها رؤساء بلديات رام الله ونابلس وحلحول ، اضافة الى شخصيات اخرى من الضفة الغربية وقطاع غزة . وشكلت اللجنة القاسم المشترك بين الهيئات الوطنية ، ويعتقد انها اقيمـت بزعامـة شيوعيـة (ر.ا.ا ، العـدد ١٨٩٠) ، ١٠ و ١١/١٠/١٩٧٩ ، ص ١٠) .

وقال كريم خلف ردا على اجـراءات الحـكم العسكري في منع النشـاط السيـاسي بالمناطـق المحتلة ، انه من الصعب فهم موقف ادارة الحكم العسكري . فهي تمنعنا من مناقشـة المسائـل

السياسية من جهة ، في حين انها تستشيرنا في المسائل ذاتها من جهة اخرى . وكان يشير بذلك الى لقاءات اللواء داني مات منسق الاعمال في المناطق برؤساء البلديات . (المصدر نفسه) .

واستدعى الحكام العسكريون في بعض مدن الضفة الغربية وقطاع غزة ، اعضاء اللجنة التحضيرية للجبهة الوطنية الفلسطينية واطلعوهم على الاراء الصادرة ، بموجب قانون الطوارىء ، الذي يعتبر هذه اللجنة تنظيما غير قانوني ، ويحظر عليهم ممارسة نشاطات في هذا الاطار .

وتضيف المصادر الاسرائيلية ، ان وجود الدكتور النتشه بين صفوف اللجنة التحضيرية ، وهو عضو رسمي في المجلس الوطني الفلسطيني ، يؤكد حقيقة انها انشط الخلايا السياسية للمنظمة في الضفة الغربية والقطاع . وان هذه اللجنة ارسلت قبل اسبوع رسالة الى ياسر عرفات ، تعهدت فيها باحباط مشروع الحكم الذاتي (ر.ا .ا .، العدد ١٨٩١ ، ١١ و ١٢/١٠/١٩٧٩ ، ص ٩) .

وكانت الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة ، قد اصدرت برنامجا سياسيا شاملا ، ادانت فيه اتفاقيات كامب ديفيد ، وكل المشاريع الاخرى الهادفة الى فرض حلول على حساب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . واعلنت الجبهة تمسكها بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني دون قيد او شرط ، وبكافة اساليب النضال ، وان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

واكد البرنامج ، على ضرورة التحالف والتلاحم مع حركات التحرر الوطني في العالم ، وتوطيد العلاقات مع المعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي . وحدد ، برنامج الجبهة الوطنية ، مهمات النضال الوطني الفلسطيني في المرحلة القادمة في مقاومة الاحتلال ، ودحره وتقرير مصير الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، والنضال لاحباط مؤامرة كامب ديفيد ، والمشاريع التآمرية بكل اشكالها ، كمشروع الحكم الذاتي ، ومشروع المملكة العربية المتحدة .

وشدد البرنامج على ضرورة النضال بلا هوادة ، من اجل الاعتراف بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني امام كافة الهيئات والمحافل الدولية ، والتصدي لمحاولات تنصيب النظام الاردني أو اي نظام عربي آخر ناطقا بلسان شعبنا الفلسطيني او اعطائه اي دور في تقرير مصيرنا الوطني (الحرية ، العدد ٩٣٦ ، ١٥/١٠/١٩٧٩) ص ٢٦) .

زيارة القس جاكسون للضفة الغربية

في نطاق الزيارة التي قام بها الزعيم الاسود ، القس جيسي جاكسون للمنطقة ، زار الضفة الغربية يوم ٢٦/٩/١٩٧٩ اثناء زيارته الى اسرائيل ، وقد حاول جاكسون في لقاءاته مع الاهلين اقناعهم باتباع اسلوب النضال الذي اتبعه السود في الولايات المتحدة لأن هذا الاسلوب ، كما قال ، يصلح للفلسطينيين ايضا (ر.ا.ا ، العدد ١٨٨١ ، ٢٦ و ٢٧/٩/١٩٧٩ ، ص ٧) .

وفي حديث لصحيفة جوردن تايم الصادرة في عمان ، قال جاكسون بعد انتهاء زيارته للضفة الغربية ، ان على اسرائيل التراجع الى خطوط ١٩٦٧ ، والتنازل عن شرقي القدس ، كشرط لسلام عادل ابدي . وانه اتضح له ، خلال جولته في الضفة الغربية ، ان المستوطنات الاسرائيلية تسلب الفلسطينيين الحياة . وانه يرى الاستيطان عملا عدوانيا واكثر خطورة من الوجود السوفياتي في كوبا . (المصدر نفسه) .

اضراب المعتقلين في السجون الاسرائيلية

في السابع من شهر تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٩ اعلن المناضلون الفلسطينيون المعتقلون في سجن بئر السبع اضرابا مفتوحا ، حتى ترضخ سلطات السجون لمطالبهم باعتبارهم اسرى حرب ، ومعاملتهم على هذا الاساس وفق القوانين الدولية .

وجاء الاعلان عن الاضراب في رسالة وجهها المعتقلون في سجن بئر السبع الى رؤساء بلديات الضفة الغربية ، تكشف الاوضاع المتدهورة، التي يعانيها السجناء ، وقالت الرسالة :

« تحية من المكبلين بقيود السجن ، وحقارة السجان الى المكبلين بقيد السجن الاكبر ، سجن الاحتلال ، تحية من وسط الالم والمعاناة الى من هم جديرون باستيعاب مثل هذه الظروف . اننا نتوجه بدعوتنا هذه الى اناس ليس بمجرد الشعور تجاههم

بفهم واقعنا بل الى من هم يتفاعلون مع هذا الواقع كتفاعلهم مع الارض والقضية ، وايمانهم بحتمية النصر والتحرير والعودة ، وتحقيق السلام العادل على ربوع ارض فلسطين الحبيبة . (فلسطين الثورة ، ١٠/١٠/١٩٧٩) .

واشادت الرسالة بموقف رؤساء البلديات المشرف ، ضد الحلول الاستسلامية التي يظن البعض انه يستطيع فرضها على الشعب الفلسطيني . ثم شرحت الرسالة اوضاع السجن وظروفه غير الانسانية ، وحالة المعتقلين الصحية المتدهورة ، حيث تفتك بهم امراض القلب والبواسير ، وامراض العيون والجلد وغيرها ، ناهيك عن سوء التغذية ، وعدم توفر العلاج للمرضى من السجناء الذين تتطلب حالتهم نقلهم الى المستشفيات .

واضافت الرسالة « اننا لم نعتد هدر الكرامة اكثر من ذلك ، فالوضع خطير جدا ، وقابل للانفجار ، وعليه وان لم يتم في الفترة الحالية ، اي تقدم ملموس في ظروفنا الاعتقالية ، سنقدم قربانا امام مذابح الطغيان والعدوان ، من اجل نيل حقوقنا ، ولن نتورع عن دفع الثمن غاليا ، وسنبقى نناضل ما بقيت لنا ارادة في الثائر المؤمن » .

« وفي الختام لا بد ان ننوه لكم وبشكل جدي ، انه في الايام القليلة القادمة ، سيقدم المعتقل على خوض مرحلة نضالية وخطيرة ومرهون بموقفكم الذي ننتظر نتائجه بفارغ الصبر ، وكلنا أمل بعظيم مجهوداتكم وحسن تصرفكم وخصوصا ما زال مؤكدا لنا هذه الحقيقة. حقيقة الجهود التي بذلتموها عندما اعلن اخواننا في النضال في سجن عسقلان اضرابهم التاريخي عن الطعام عام ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ المنصرم . وانها لثورة حتى النصر والتحرير » (المصدر نفسه) .

وجرت تحركات شعبية في الضفة الغربية تأييدا لنضال المعتقلين في سجون الاحتلال ، ودعما لمطالبهم في تحسين ظروف الاعتقال . وقد جرت في بيرزيت مظاهرة طلابية كبيرة ، نظمها طلاب جامعة بيرزيت في ٧/١٠/١٩٧٩ ، واعتقلت السلطات الاسرائيلية اثر ذلك ١٨ طالبا (السفير ، ٨/١٠/١٩٧٩) .

وفي القدس ، اعلنت امهات الاسرى في سجن بئر السبع اضرابا عن الطعام في مكاتب الصليب الاحمر في القدس الشرقية احتجاجا على وفاة احد الاسرى نتيجة ضربه اثناء التحقيق (ر.ا.ا. ، العدد ١٨٩٠ ، ١٠ و ١١/١٠/١٩٧٩ ، ص ١٢) .

وعقد طلاب جامعة بيت لحم في ٩/١٠/١٩٧٩ اجتماعا للجمعية العمومية ، اعلنوا خلالها تضامنهم مع المعتقلين ، وقرروا بعد مناقشتهم للظروف والاوضاع داخل سجون الاحتلال اتخاذ الخطوات اللازمة لمساعدتهم ومؤازرتهم وذلك بالاعتصام داخل حرم الجامعة ، وارسال وفد من الطلبة الى مقر الصليب الأحمر الدولي لشرح المعاناة التي يعيشها المعتقلون . وقرر الطلبة اصدار بيان يستنكرون فيه جميع التصرفات التي يمارسها الاحتلال في ارهاب الجماهير والتضييق عليها (فلسطين الثورة ، ١١/١٠/١٩٧٩)

ونتيجة لهذه التحركات لجماهير المناطق المحتلة ، اضطرت السلطات الاسرائيلية الى نفي الاخبار التي انتشرت عن وقوع جرحى داخل سجن بئر السبع ، بعد صدامات بين المساجين وسجانيهم كما كذبت هذه السلطات الانباء التي قالت ان احد المعتقلين استشهد نتيجة التعذيب في السجن (ر.ا.ا ، العدد ١٨٩٠ ، ١٠ و ١١/١٠/١٩٧٩ ص ١٣)

ورضخت سلطات الحكم العسكري لأحد مطالب المعتقلين في السماح بتحسين اوقات الزيارات من قبل ذويهم . واعلنت مصادر الحكم العسكري ، ان اتفاقا تم مع الصليب الأحمر الدولي لتنظيم زيارات خاصة يوم ١٣/١٠/١٩٧٩ لذوي المساجين في بئر السبع ، وطلبت من المعنيين تقديم طلباتهم بهذا الخصوص الى ممثل الصليب الأحمر في القدس الشرقية . (ر.ا.ا ، العدد ١٨٩١ ، ١١ و ١٢/١٠/١٩٧٩ ص ١٠) .

اسـرائيليات

زيارة السادات الى حيفا
شتراوس ـ ومفاوضات الحكم الذاتي

الزيارة ـ اهداف غير معلنة

في السادس من ايلول انتهت زيارة الرئيس المصري الثالثة الى اسرائيل . ومجرد النظر الى وقائع هذه الزيارة وما اسفرت عنه من النتائج (انظر شؤون فلسطينية ، العدد ٩٥ ، تشرين الاول ١٩٧٩ ، ص ١٢٨ ـ ١٣٨) ، لا بد أن يثير الكثير من التساؤلات حول هذه الزيارة وأهدافها غير المعلنة. ، على الرغم من أن السادات نفسه ، كان قد اكد في مؤتمره الصحافي المشترك مع بيغن ، في ختام زيارته : « ان الهدف الاساسي لزيارتي كان لكي اواصل عملية تطبيع العلاقات والالتقاء بالشعب الاسرائيلي .. لقد جئت الى حيفا كرد لزيارة رئيس الحكومة الاسرائيلية لنا » (هآرتس ومعاريف ، ١٩٧٩/٩/٦) . ثم اضاف السادات مؤكدا : « لم آت لانه كان بيننا خلافات في الرأي في موضوع النفط وقوات الامم المتحدة .. فاذا كانت أيـة خلافـات في هذيـن الموضوعين ، فاننا قد توصلنا الى اتفاق حولهما في عشر دقائق » (المصدر نفسه) . وكان الخلاف حول هذين الموضوعين ، على كل حال ، قد بث بين اللجان الاسرائيلية ـ المصرية المشتركة المعنية ، خلال الزيـارات الرسميـة للمسؤولـين من كلا الطرفين ، قبل (قيام السادات) بهذه الزيارة . ويعني ذلك أن هذه الزيارة كانت قد انتهت دون أية نتائج فعلية ، لكونها النتائج الوحيدة التي أعلن عنها في نهاية الزيارة ، لكي يكون لهذه الزيارة نتائج . وهذا ما يعزز الشكوك حول اهداف هذه الزيارة اكثر .

غير ان السادات قال بعد ذلك مناقضا نفسه : « لقد شغلنا البارحة واليوم في محادثات مكثفة في جميع المواضيع » (المصدر نفسه) . ولكننا لو استثنينا « العشر دقائق » التي حل فيها السادات وبيغن « خلافاتهما » في موضوعي النفط وقوات الامم المتحدة ، ثم استثنينا موضوعي الجنـوب اللبناني والاستيطان الاسرائيلي في الأراضي المحتلة من المحادثات ، وفقا للتقرير المقتضب الذي قدمه رئيس الحكومة الاسرائيلية لاعضاء حكومته ، في الجلسة الاسبوعية التي تلت الزيارة عن محادثات حيفا ، والذي كشف فيه عن أنه « لم يبحث موضوع المستوطنات وموضوع العمليات العسكرية في الجنوب ، في المحادثات التي اجراها مع الرئيس السادات في حيفـا » (ر . أ ، العـدد ١٨٦٨ ، ١٩٧٩/٩/١٠) ، لوجدنا انه لم يتبق على جدول اعمالهما من المواضيـع العالقـة بينهمـا سوى موضوعي « الحكم الذاتي ، ومكانة القـدس » . ولكن بيغن اكد ايضا ، في سياق تقريره امـام الحكومة ، انه والسادات كانا قد بحثـا هذيـن الموضوعين « بخطوط عريضة فقط » (هآرتس ، ١٩٧٩/٩/١٠) . وهذا يتم ـ كما عودانـا في محادثاتهما المنفردة السابقة ـ خلال دقائق معدودة ايضا . ومن هنا يطرح السؤال ما الذي بحثـه السادات وبيغن في محادثاتهما المنفردة المكثفة في حيفا ؟ وما هو الموضوع الذي استأثر بالجزء الاكبر من الوقت ، من بين « جميع المواضيع » التي بحثت خلال الثلاثة ايام من زيارة السادات ؟!

الجواب على هذا السؤال ، في اعتقادنا ، يكمن في تصريحات السادات نفسه.فمن خلال رده على اسئلة الصحافيين في مطار اللد قبيل مغادرته ، والتي حرص على ان يكرر فيها مرات ومرات بأن هذا الوقت المتبقي كانا قد « كرساه لمحادثات عامة ، حول الوضع في الشرق الاوسط ، ولدور الدول الكبرى ، وللتطورات في العالم العربي » (هآرتس ، ١٠/١٠/١٩٧٩) . ولا بد لنا من الربط بين هذه « المحادثات العامة » ، وبين التفاؤل الكبير الذي ابداه السادات ، بالنسبة « للتطورات المتوقعة في العالم العربي » (هآرتس ، ٦/٩/١٩٧٩) ، وتركيزه على « الشقاق الحاصل بين سوريا والعراق ، وضعف النظام في دمشق » ومن ثم ثقته الأكيدة بـ « انضمام الاردن الى عملية السلام المصرية ـ الاسرائيلية » (المصدر نفسه ، وهآرتس ، ١٠/٩/١٩٧٩) ، وبالتالي ربطها بـ « جولة الافق الاستراتيجية للوضع في الشرق الاوسط » (انظر شؤون فلسطينية ، العدد ٩٤ ، ايلول ١٩٧٩ ، ص) ، التي تمت بين السادات وبيغن في محادثات الاسكندرية خلال زيارة الأخير لمصر في شهر تموز الفائت . هذه المحادثات التي شكلت في رأينا بداية حلف غير مكتوب بين مصر واسرائيل لاعادة تقسيم الخارطة السياسية في الشرق الاوسط . ولا ندري ما اذا كانت زيارة السادات لحيفا قد تمت صدفة عن طريق البحر ، برفقة قطع من سلاح البحرية المصرية ، وما اذا كان لذلك علاقة بمرور القطع الحربية الاسرائيلية الثلاث في قناة السويس قبل شهرين فقط ، ومن ثم بزيارة قطع البحرية الاميركية هذا الشهر لميناء الاسكندرية وما يتردد في الاونة الأخيرة من تهديدات مبطنة للدول العربية النفطية ، والخطة الاميركية الموضوعة « لأمن الخليج » .

اما بالنسبة للموضوع الفلسطيني ومفاوضات الحكم الذاتي الجارية بين مصر واسرائيل ، فلا بد للمراقب لما ادلى به السادات وبيغن من تصريحات في مؤتمرهما الصحافي ، او في مطار اللد ، من الانتباه الى ان السادات غير في هذه الزيارة ، طبيعة الفترة التي حددها للانتهاء ، من مفاوضات الحكم الذاتي ، والتي اكثر من ذكرها في المحادثات التي سبقت توقيع معاهدة السلام . فالسادات لم يتكلم هذه المرة عن « فترة السنة » التي حددها كفترة ملزمة ومحددة لاتمام مفاوضات الحكم الذاتي . بينما حول مناحيم بيغن هذه « الفترة الملزمة » ، لفترة زمنية مطاطة لا بد من الوصول خلالها لـ « تقدم فعلي » وليس لاتمامها . وهذا ما اكده الرئيس المصري في معرض رده على الصحافيين في مطار اللد بقوله : « في محادثاتي مع رئيس الحكومة مناحيم بيغن ، كنا مدركين للحاجة في الوصول الى تقدم بشأن القضية الفلسطينية ، بأقرب وقت ممكن » (هآرتس ، ٧/٩/١٩٧٩) . وبذلك يكون قد اكد« المعلومات التي تسربت « من أنه « وافق على ان تستمر مفاوضات الحكم الذاتي ، وفقا للخط الذي رسم لها حتى الآن » (المصدر نفسه ، ٦/٩/١٩٧٩) .

جولة جديدة من المفاوضات

في الوقت الذي انتهت فيه محادثات الرئيس المصري مع رئيس الحكومة الاسرائيلية في فندق دان وهاكرمل في حيفا ،ابتدأت في فندق دان اركاديا في هرتسيليا ، جولة جديدة من مفاوضات الحكم الذاتي في ٩/٩/١٩٧٩ . وقد « انقسم المشتركون في هذه الجولة الى عدة لجان فرعية » (ر.أ. ١ ، العدد ١٨٦٨ ، ٩ و١٠/٩/١٩٧٩ . وهآرتس ، ١٠/٩/١٩٧٩) . وقد كلفت كل لجنة بمعالجة نوع معين من القضايا حيث كان « الخلاف » قد تركز بين الوفود حول مسالتين : « ترتيبات الانتخاب ، وصلاحيات الادارة الذاتية » (المصدر نفسه) . فالمصريون يطالبون بأن « تشمل قوائم المنتخبين لادارة الحكم الذاتي عرب القدس الشرقية » ،مما دعا د . مئير روزن ، الذي ترأس هذه الجولة من المحادثات ، لأن يعرب عن اعتقاده بأنه من « غير المتوقع التوصل الى حل لهذه المسائل في الايام الاربعة القادمة » (المصدر نفسه) ، وهي الفتره التي حددت لهذه الجولة .

ومن الجدير بالذكر ، ان رئيس الوفد الاميركي لمفاوضات الحكم الذاتي جيمس ليونارد ، كان قد « تغيب عن هذه المحادثات » . وكان المبعوث الخاص للرئيس الاميركي الى الشرق الاوسط ، السفير روبرت شتراوس ، قد استدعاه الى القاهرة لكي « ينضم اليه في محادثاته » مع القادة المصريين قبل توجهه الى اسرائيل « لاجراء محادثات مع رئيس الحكومة ، ووزير الخارجية ورئيس الفريق الوزراي لمفاوضات الحكم الذاتي ، د . يوسف بورغ » (هآرتس ، ٩/٩/١٩٧٩ ور.أ.أ ، العدد ١٩٦٩ ، ١٠ و١١/٩/١٩٧٩) .

مقترحات غير معلنة

حمل شتراوس ، وفقا للمصادر الاسرائيلية ، هذه المرة معه « افكارا ومقترحات ومبادرات اميركية تتعلق بمحادثات الحكم الذاتي » ، للمحافظة على « استمرار النشاط الدبلوماسي للولايات المتحدة المتعلق بموضوع الحكم الذاتي » ، (المصدر نفسه ، وهآرتس ١٠/٩/١٩٧٩) .لخصتها هذه المصادر باقتراحين هما : « تشكيل لجنة خاصة لمناقشة وضع القدس الشرقية وعلاقة سكانها بالحكم الذاتي ، واخرى لمناقشة التطلعات الامنية لتدابير الحكم الذاتي باشتراك وزيري الدفاع الاسرائيلي والمصري ، وممثل عن الولايات المتحدة » (المصدر نفسه) .

الا ان اسرائيل سارعت للاعلان عن انها « لن تستجيب لمبادرة السفير الاميركي روبرت شتراوس » ، لانها « لا ترى في الولايات المتحدة أو مصر مفاوضين في المباحثات » حول التدابير الامنية التي سوف تتبع في الضفة الغربية وقطاع غزة عند اقامة الحكم الذاتي . وذلك ، لانها تعتبران الجيش الاسرائيلي هو « المخول » بموجب اتفاقات كامب ديفيد « بتحديد الاماكن التي سيرابط فيها بعد انشاء الحكم الذاتي » (هآرتس ، ١٠/٩/١٩٧٩) . وان « الاردن فقط » هو الطرف المفاوض مع اسرائيل بالنسبة « للتدابير الامنية على جانبي الحدود المشتركة بين الدولتين » (المصدر نفسه) .

وتعتمد اسرائيل في مواقفها هذه على « البند ١ (ب) في اتفاق الاطار لكامب ديفيد » . وينص هذا البند على ان « يتم انسحاب لقوات اسرائيلية مسلحة » . اما القوات الاسرائيلية المتبقية فـ « يتم انتشارها في مناطق الأمن التي سوف تفصل » (المصدر نفسه) . كما تعتمد على البند ١ (ج) في اتفاق الأطار الذي يبحث في المفاوضات للوصول الى « حل ثابت في مناطق الحكم الذاتي » . وينص هذا البند فيما ينص عليه ، على ان « ... يصار الى اجتماع لجنتين منفردتين ولكنهما مرتبطتان ببعضهما ... اللجنة الثانية مؤلفة من مندوبين اسرائيليين ومندوبين اردنيين ينضم اليهم مندوبون منتخبون من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة، للتفاوض حول اتفاقية السلام بين اسرائيل والاردن ... المفاوضات تقرر بين سائر الامور ، مكان الحدود ، وطبيعة التدابير الامنية » (المصدر نفسه) .

غير ان روبرت شتراوس ، لم يحدد قبل توجهه الى اسرائيل ما اذا كان يحمل معه مقترحات جديدة بالفعل، بل وصرح لدى هبوطه في مطار اللد قادما من القاهرة بأن « ليس الاميركيون فقط ، وانما اسرائيل ومصر ايضا توافقان على نفس الجدول الزمني وشكل التقدم في مفاوضات الحكم الذاتي » (هآرتس ، ١٢/٩/١٩٧٩) . واضاف شتراوس : « في الاشهر القريبة ، سوف تطرح المشاكل الاكثر تعقيدا على بساط البحث ، اما الآن فاننا نستطيع بحث ما لدينا من المواضيع » (المصدر نفسه)

اما عن محادثاته التي اجراها مع رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ، ووزير داخليته ، د . يوسف بورغ فقد صرح : « يمكننا الآن العودة الى الخلف لرؤية ما تم انجازه من اتفاقات كامب — ديفيد » . واضاف ملخصا زيارته بانها « تعتبر خطوة في مسار السلام الذي نلتزم جميعا بتحقيقه » .(ر أ. أ ، العدد ١٨٧٠ ، ١١ و١٢/٩/١٩٧٩) . الا ان المصادر المقربة من د . بورغ اكدت بأن كلا من شتراوس وبورغ ، كانا قد وعدا خلال المحادثات التي اجرياها ، بـ « تقديم مقترحات جديدة لدفع محادثات الحكم الذاتي » (المصدر نفسه).ولكن شتراوس نفسه لم يفصح عن طبيعة مقترحاته . وكل ما قاله هو ان الولايات المتحدة « سوف ترسل خبراء الى كل مجموعة عمل من المجموعات التي ستشكل في اطار مفاوضات الحكم الذاتي » ، والتي ستعكف على بحث « المواضيع التقنية المتعلقة بمجالات نشاط المجلس الاداري » ، (المصدر نفسه) . الذي سيشكل في الضفة الغربية وقطاع غزة .

اما عن الموقف الاميركي من م . ت .ف ودورها في هذه المفاوضات ، فقد اكد شتراوس لمناحيم بيغن ود . بورغ بصورة قاطعة « ، ان الرئيس كارتر وادارته « لا يحاولان جر م . ت . ف الى طاولة المفاوضات » ، (المصدر نفسه) . ولهذا فقد اعتبرت الاوساط السياسية الاسرائيلية ، ان ما قاله شتراوس ، « يشكل تحولا في الموقف الاميركي » ، وان الولايات المتحدة قد « تراجعت عن وجهة نظرها الأصلية » من انه « يجب التعجيل في وتيرة المفاوضات ، والسعي الى ضم فلسطينيين اليها باسرع وقت ممكن (ر أ. أ ، العدد ١٨٧٠ ، ١١ و١٢/٩/١٩٧٩ ، وهآرتس ، ١٣/٩/١٩٧٩)

وخلصت هذه الاوساط الى ان مفاوضات الحكم الذاتي ، ستجري خلال الاشهر الثلاثة المقبلة « بجو هادىء في مجموعات العمل واللجان » . اما « المشاكل الصعبة » ، فانها سوف « تطرح في بداية السنة المقبلة فقط » ، (هآرتس ، ١٩٧٩/٩/١٣) . لا سيما وان مجموعات العمل الاسرائيلية ـ المصرية ـ الاميركية في مفاوضات الحكم الذاتي ، التي كانت تعقد جولة اخرى من المفاوضات في هرتسيليا ، كانت قد انتهت من هذه الجولة في اليوم الأخير لزيارة شتراوس ، بعد ان نجحت في « اعداد تقرير مشترك يبحث في مجالات المسؤولية ومصدر الصلاحية » (هآرتس ، ١٩٧٩/٩/١٣) ، لكي تقدمه الى اللجنة الوزارية الاسرائيلية ـ المصرية المشتركة التي « ستجتمع بكامل هيئتها في الاسكندرية في ١٩٧٩/٩/٢٦ » ، (المصدر نفسه) . وربما كان لزيارة روبرت شتراوس تأثير على مجرى هذه المحادثات ، وازالة « العقبات » التي تحدث عنها د . مئير روزن الذي ترأس هذه الجولة من المفاوضات .

توفيق فياض

قضايا دولية

الحضور الفلسطيني على الخريطة الدولية
من مواقع البابا الى مواقع كاسترو

لم يكن الحضور الفلسطيني على الساحة الدولية قبل الآن بمثل الكثافة التي يفرض بها نفسه خلال الفترة الاخيرة . ويمكن القول ان الاجواء التي تحيط القضية الفلسطينية بالاهتمام الدولي تفوق حتى تلك التي سادت ابان ظهور فلسطين والقضية امام الجمعية العامة للامم المتحدة قبل خمس سنوات ممثلة في شخص ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وخطابه الشهير .. خطاب غصن الزيتون والبندقية .

بل ان اجواء الاهتمام الدولي بالقضية الفلسطينية خلال هذه الفترة تفوق ما يمكن للمراقب السياسي ان يتذكره من اهتمام دولي متلاحق ومتصاعد بقضية مثل قضية الاعتراف بالصين الشعبية وبتمثيلها في الأمم المتحدة .. في الفترة التي سبقت مباشرة سقوط « الفيتو » الاميركي عن انضمام بكين الى المنظمة الدولية ، وفي ذلك الوقت كانت الاعترافات المتلاحقة قد فرضت على الولايات المتحدة واقعا دوليا جديدا اضطرت للاستجابة له بعد سنوات طويلة (من ١٩٤٩ الى ١٩٧٢) ظلت تعتبر خلالها ان نظام تايوان (فورموزا) هو وحده الصين .

وتوضح متابعة التفاعل بين الحضور الفلسطيني على الساحة الدولية والاهتمام الدولي بالقضية الفلسطينية على مدى الاشهر الاخيرة ان الحضور الفلسطيني هو عملية (سيرورة) متطورة ، وصاعدة بشكل لم يعد بامكان القوى الفاعلة ضده ، اي ضد الحضور الفلسطيني ، ان توقف هذا التطور والتصاعد . وبمعنى اكثر تحديدا كانه لم يعد بامكان القوى الصهيونية او الامبريالية الحيلولة دون تحقيق الحضور الفلسطيني انجازات ايجابية على صعيد العلاقات الدولية او الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني والاعتراف بمنظمة التحرير بوصفها الممثل الشرعي الوحيد لهذا الشعب . ان توالي الاعترافات الدولية بمنظمة التحرير الفلسطينية ، واتساع نطاق الاهتمام بالقضية الفلسطينية ، واتساع نطاق الاقتناع العالمي بضرورة قيام الدولة الفلسطينية كشرط لا غنى عنه لاي سلام حقيقي في منطقة الشرق الاوسط ... كل

هذا يجري دون أن تستطيع اسرائيل ، او الولايات المتحدة ، الحيلولة ، دون حدوثه حتى في اطار دولي تعتبر تقليديا حليفة للولايات المتحدة الاميركية وملتزمة بالتنسيق معها في مجالات السياسة الخارجية . وهذا مغزى اتساع نطاق الاعتراف في اوروبا الغربية بأهمية العامل الفلسطيني وقدرته ايجابا وسلبا بالنسبة لأية حلول او خطط للسلام في الشرق الأوسط .

فضلا عن ذلك فان الحضور الفلسطيني بالنسبة للولايات المتحدة نفسها اصبح يغطي قطاعات باكملها ، ربما كان الاميركيون السود اوسعها عددا واهتماما في الفترة الاخيرة . ولكن ثمة قطاعات اخرى من الرأي العام الاميركي صارت تفكر بالقضية الفلسطينية كجزء من المشهد العالمي ، بل كجزء من المشهد الاميركي نفسه . وقد كملت هذه الحقيقة نفسها منذ الآن ، وقبل ان تبدأ حتى المرحلة الاولية. من انتخابات الرئاسة الاميركية في اهتمام عدد من المرشحين باعلان مواقف واقتراحات محددة من القضية الفلسطينية على وجه التحديد (وليس ازمة الشرق الاوسط في عموميتها) كمدخل لا غنى عنه لتحديد سياستهم الخارجية امام الناخبين الاميركيين ، بل وامام احزابهم .

واذا كان قد بدا للاميركيين ان من السهل القاء اللوم على اوروبا الغربية في اهتمامها المتصاعد بالقضية الفلسطينية بالقول بانه اهتمام نفطي اي انه خضوع لضغط احتمال التعرض للمقاطعة النفطية العربية .. فان امتداد هذا الاهتمام الى داخل المجتمع الاميركي ربما في ذلك المجتمع السياسي نفسه ـ يقلل كثيرا من مصداقية هذا اللوم ، ويؤكد ان الحضور الفلسطيني اساسي ، وليس ثانويا تابعا للحضور النفطي العربي ، في ساحة السياسة العالمية ، وان كان احدهما لا ينفي الآخر ، وان كان كل منهما يدعم الآخر بدرجات متفاوتة جغرافيا وظرفيا .

والواقع ان متابعة التطورات الجارية حول الحضور الفلسطيني تؤكد ان اتجاه تيار هذه التطورات هو صوب مزيد من الضغوط الدولية على الولايات المتحدة واسرائيل ، ليس من جانب الدول التي تقف اساسا ولاعتبارات موضوعية معروفة مسبقا الى جانب العرب فحسب ، بل من جانب دول ظلت الى جانب الولايات المتحدة واسرائيل لسنوات طويلة تقاوم الاعتراف بالقضية الفلسطينية وشرعيتها وتمثيلها . وهكذا يمكن القول ان الولايات المتحدة واسرائيل تلزمان في الآونة الاخيرة مواقع دفاعية خالصة امام هجوم الدبلوماسية الفلسطينية المتلاحق في جبهة دول عدم الانحياز ، وفي اوروبا الغربية ، وفي قلب الولايات المتحدة نفسها .. وما لذلك من انعكاسات داخل « اسرائيل » .. نفسها .

لا يعني هذا ان الولايات المتحدة واسرائيل متوقفتان عن متابعة جهودهما لمنع انتشار موجة الاعترافات بمنظمة التحرير الفلسطينية ، خاصة من جانب دول اوروبا الغربية ، من جانب قوى سياسية مؤثرة داخل الولايات المتحدة .. انما يعني ان الضغط الاميركي والاسرائيلي في هذا الاتجاه لم يعد هو التيار الرئيسي الفاعل في التطورات ، بل ان التيار الرئيسي يتمثل في ضغوط دول العالم ـ بما فيها دول اوروبا الغربية ، حتى الاطلسية ـ على الولايات المتحدة واسرائيل لاتخاذ مواقف مبنية على سياسة « واقعية » وادراك لحقائق القوى في الشرق الاوسط ، وفي مقدمتها حقيقة الوجود الفلسطيني وقدرة الثورة الفلسطينية وحركة الثورة الفلسطينية عموما في التأثير على الاحداث الاقليمية والعالمية .

وتزداد فاعلية الضغط الممارس على السياسة الاميركية والاسرائيلية بفعل تحول مواقف مجموعات الدول ـ مثل مجموعة الدول غير المنحازة ومجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة ـ من مواقف قطرية متناثرة الى سياسة جماعية يتم اقرارها واعلانها كسياسة موحدة .. الامر الذي يجعل مواجهتها بضغط مضاد اميركي واسرائيلي اشد صعوبة بكثير مما لو كانت سياسات منفردة .

وسواء ، كان توافق توقيت هجوم الدبلوماسية الفلسطينية ، وحضورها الكثيف على الساحة اللبنانية مع بداية الدورة الجديدة للجمعية العامة للامم المتحدة امرا مقصودا او غير مقصود ، فانه قد اتاح اعطاء صورة « بانوراما » او بالاحرى خريطة واضحة ـ للمواقع التي دخلتها القضية الفلسطينية وفرضت حضورها عليها . ولنا ان نتصور كيف شغل الحضور الفلسطيني فعلا كل المسافة بين المواقع التي عبر عنها البابا يوحنا بولس الثاني في خطابه امام الجمعية العامة ، (١٠/٢) بما يمثله مركز البابا من اهمية عظمى للعالم الكاثوليكي كله ، والمواقع التي عبر عنها الزعيم الكوبي فيديل كاسترو في خطابه امام الجمعية العامة

(١٠/١٢) ، بما يمثله مركز كاسترو من اهمية عظمى لعالم عدم الانحياز ولعالم الثوريين التقدميين في كل البلدان بغير استثناء .

لم يكن من قبيل المصادفة ان البابا بولس الثاني لم يذكر ايا من اطراف مشكلة الشرق الاوسط ، الا فلسطين . كما لم يكن من قبيل المصادفة ان البابا لم يشر بشيء الى اتفاقات « كامب ديفيد » ولا الى المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية . فالبابا في الفقرة الخاصة بالشرق الاوسط من خطابه يقول :

« ان املي لعظيم في ان الحل لازمة الشرق الاوسط يقترب . اننا في الوقت الذي نحن فيه على استعداد للاعتراف بقيمة اية خطوة حقيقية او محاولة لتسوية الصراع ، فانني اريد ان اعيد الى الاذهان انه لن تكون هناك اية قيمة لاية خطوة ما لم تمثل حجر زاوية في سلام شامل في المنطقة ... سلام قائم بالضرورة على الاعتراف المتساوي بحق الجميع ، وسلام لا يقصر عن أن يأخذ في اعتباره التسوية العادلة للقضية الفلسطينية » .

صدر البابا اذن موقفه بانه دون فلسطين لا سلام . اما انه لم يشر ايجابيا الى « كامب ديفيد » فهو موقف لا تخفى دلالته . اما انه لم يأت على ذكر اسرائيل بالاسم في هذا الخطاب ايضا فهو بدوره موقف بالغ الدلالة على استمرار التمسك بسياسة الفاتيكان التقليدية .. سياسة عدم الاعتراف باسرائيل .

وقد ذهبت صحيفة « واشنطن بوست » (١٠/٩) في تفسير تناول البابا للقضية الفلسطينية الى مداه الاقصى ، فاعتبرت ان البابا اتخذ موقف جبهة الرفض العربي (...) ، او قالت الصحيفة الامبركية في مقال لمعلقها ستيفن روزنفيلد :

عبر البابا في معرض حديثه عن الشرق الاوسط عن آراء يمكن فهمها على الفور كما لو كانت صادرة عن جبهة الرفض العربي . وهو موقف يرفض عملية كامب ديفيد . وان الكثيرين يتساءلون عما اذا كان كامب ديفيد سيؤدي الى تسوية شاملة . وتساؤلهم هذا منصف . ولكن البابا ذهب الى ابعد من هذا حين قال . ان عملية كامب ديفيد لا قيمة لها اذا لم تؤد الى سلام شامل . ما انه تخطى حقيقة اسرائيل ، ولم يذكرها بالاسم ولو مرة واحدة . وكل ما دعا اليه هو الاعتراف العادل بحقوق الجميع . والقضية الفلسطينية وحدها هي التي نالت المباركة البابوية » .

واختتم روزنفيلد مقاله متسائلا . الا يعزز هذا الهدف الفلسطيني الجلي في الامل باختفاء اسرائيل بشكل او بآخر ؟ ثم الا يعطي هذا تأييدا معنويا بارعا للجهود التي تعمل على اختفاء اسرائيل ؟

على الطرف الآخر من الخريطة الدولية كان موقف الرئيس الكوبي فيديل كاسترو ، على منبر الجمعية العامة للامم المتحدة ايضا ، حيث تحدث باسم حركة عدم الانحياز التي يرئسها منذ انعقاد مؤتمرها السادس في هافانا في شهر ايلول (سبتمبر) الماضي . وخطاب الزعيم الكوبي لم يكن وحده الحدث ... انما كان استقبال الجمعية ، العامة له هدفا هاما مؤكدا كثافة الحضور الفلسطيني .

قال كاسترو في الفقرة الخاصة بالشرق الاوسط من خطابه :

« ان الاسرائيليين الصهاينة يرتكبون اكبر جريمة في التاريخ المعاصر بسبب عمليات الاضطهاد والمذابح التي ينزلونها بالشعب الفلسطيني الذي طرد من أرضه وتشتت في أرجاء العالم » . وقال كاسترو ان حركة عدم الانحياز تؤيد حق الشعب الفلسطيني في وطن قومي داخل فلسطين التاريخية . واضاف ليدين سياسات الولايات المتحدة في الشرق الاوسط بما فيها اتفاقات « كامب ديفيد » فقال«ان شيئا لا يوازي المجازر البشرية الجماعية التي ارتكبها النازي اكثر من اعمال التشريد والاضطهاد والمجازر التي تمارسها الآن الامبريالية والصهيونية ضد الشعب الفلسطيني » .

وقد ذكرت وكالات الانباء العالمية (الغربية) انه لم يحدث في تاريخ الجمعية العامة للامم المتحدة ان اثارت عبارات من خطاب لاحد رؤساء الدول مثل الحماس الذي اثارته فقرات خطاب كاسترو عن الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية . وقالت وكالة « يونايتد برس » الامريكية (١٠/١٢) ان اعضاء الجمعية وقفوا وصفقوا طويلا تأييدا لما قاله الزعيم الكوبي في هذا الصدد .

لقد استطاع كاسترو ان ينقل جو التأييد الحاسم الذي احاط بالقضية الفلسطينية في مؤتمر عدم الانحياز في هافانا كاملا الى الجمعية العامة للامم

المتحدة ، مضيفا اليه وحدة الكلمة . حيث تجسدت في خطابه كل ارادة دول عدم الانحياز .. دون ان ينقص ذلك من وزن كاسترو الثوري والنضالي .

على المسافة بين موقع البابا وموقع كاسترو ـ وامام الجمعية العامة للامم المتحدة ، كان موقع اوروبا الغربية الذي عبر عنه هنري سيمونيه وزير خارجية بلجيكا الذي تحدث نيابة عن المجموعة الاقتصادية الاوروبية (السوق الاوروبية المشتركة) . قال سيمونيه ان اعادة السلام الى منطقة الشرق الاوسط تحتاج الى تسوية عادلة وشاملة للنزاع تكون مبنية على الاعتراف بالحقوق القومية للشعب الفلسطيني ، وبحقه في تقرير المصير، وحقه في وطنه والجلاء الاسرائيلي عن الاراضي العربية المحتلة ، بما في ذلك القدس . واضاف سيمونيه ان على الفلسطينيين انفسهم ان يقرروا مع الاطراف المعنية الصيغة الفعلية التي يريدون اعطاءها لهويتهم القومية . ولا بد من اشراك ممثلي الشعب الفلسطيني ، وخاصة منظمة التحرير الفلسطينية في السعي وراء تسوية شاملة للنزاع .

قبل هذا الخطاب بأيام قليلة كان سيمونيه نفسه يقول ، في مقابلة ، مع مجلة « مونداي مورننغ » ـ انه فيما يعني الاوروبيين فان لهم بالفعل اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية . ان معظم البلدان الاوروبية ـ إن لم يكن كل هذه البلدان ـ لها اتصالات مع المنظمة، الأمر الذي يعني اننا نعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كواقع .

هذا المعنى نفسه قاله ايضا مايكل اوكيندي وزير خارجية ايرلندا (الجنوبية) بوصفه رئيسا للسوق الاوروبية المشتركة .

كما عبر عنه هانز ديتريش غينشر وزير خارجية المانيا الغربية الذي قال في خطاب بلاده امام الجمعية العامة (٢٨/٤) : ان هناك اتجاها متزايدا في العالم يطالب بضرورة اشتراك الشعب الفلسطيني في تسوية شاملة ، والا فانه لا يمكن التوصل الى سلام دائم .

وقال غينشر ان مثل هذه التسوية الشاملة تتطلب الاعتراف من جميع الاطراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره .

وقد وصف موقف المانيا الغربية بالذات بين دول اوروبا الغربية بأنه الموقف الذي تتزعم به بون المجموعة الاوروبية ضد اسرائيل . وقالت المجلة الالمانية التي قالت هذا الوصف (دير شبيغل) .

« لو نظرنا لعدد الدول التي اعلنت اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية ـ والتي تزداد مع مرور الايام ، نجد انها اكثر من مجموع الدول المعترفة باسرائيل في الامم المتحدة ، على الرغم من ان اسرائيل عضو فيها ... وبينما تتسع قاعدة منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات مع مرور الزمن، اصبحت الدولة اليهودية اليوم ، التي سبق للاتحاد السوفياتي ان اعترف بها ، طريدة العدالة وسط التجمعات الشعبية في هذا العالم ، فقد اتهمها معظم دول العالم الثالث والدول الشرقية في كافة اجتماعاتها بالعنصرية ، ووصفها بانها شكل من اشكال الاستعمار الجديد ، واقرب ما تكون الى جنوب افريقيا .

خارج اطار الامم المتحدة ايضا كان من الواضح في تطورات كثافة الحضور الفلسطيني ان الحركة ليست في اتجاه واحد .. انما في اتجاهين . فليست فلسطين وحدها تتجه الى الآخرين . الآخرون يتجهون نحو منظمة التحرير الفلسطينية .

ياسر عرفات ـ بعد زيارة اسبانيا التي سبقتها قمة فيينا مع برونو كرايسكي وفيلي برانت ـ زار تركيا ، بعد ان صار لمنظمة التحرير الفلسطينية تمثيلها السياسي في انقرة ، لتستمر حركة فلسطين نحو اوروبا الغربية تحطم اسوار الحصار التي استمرت تمنع عن اوروبا ، الا تأثيرات الصهيونية العالمية ، واسرائيل .

في الوقت نفسه كانت الحركة في الاتجاه العكسي . وفد زعماء السود الاميركيين برئاسة جيسي جاكسون جاء ساعيا الى فلسطين .. مدركا بأن فهم القضية الفلسطينية من قادة فلسطين انفسهم ضرورة لا غنى عنها . وقد بادر السود الاميركيون الذين قرروا خوض معركتهم من جديد في الولايات المتحدة .. هذه المرة من اجل ان يكون لثلاثين مليون صوت للسود في الانتخابات دورهم في رسم السياسة الخارجية لبلادهم .

زيارة تركيا (٥/١) نظرت اليها الدوائر الغربية من زاوية بالغة الاهمية لانها اعتبرتها اول زيارة يقوم بها الزعيم الفلسطيني لدولة عضو في حلف

الاطلسي ، اي انها « اختراق » اخر له مغزى خاص ، لا يتوقف عند حدود اوروبا الغربية الجنوبية .. انما يتعداها الى مظلة حلف الاطلسي ، في وقت ينتظر فيه بين يوم وآخر اعتراف دول اوروبية اخرى اعضاء في الحلف .. بينها بريطانيا وفرنسا وهولندا وايطاليا .

ومن هنا يكتسب ما قاله بلند اجاويد رئيس الوزراء التركي امام ياسر عرفات في انقره اهميته باعتباره دالا على تأثير الدور الفلسطيني في الشرق الاوسط الذي تعد تركيا جزءا لا يتجزأ منه .. والذي ينظر اليه حلف الاطلسي على انه جناحه الجنوبي امنيا واستراتيجيا . لقد قال اجاويد : « نحن مع حريتكم واستقلالكم ، وبدون ذلك لا يمكن ان يكون هناك استقرار في الشرق الاوسط . واذا لم تتحقق حقوقكم الوطنية ، فان السلام لن يستقر في الشرق الاوسط ، وكذلك في العالم » .

مجيء وفد زعماء السود ــ في الوقت نفسه ــ لعقد اللقاءات مع منظمة التحرير الفلسطينية ــ والتصريحات التي ادلى بها جاكسون في المنطقة ــ وخاصة في بيروت ــ كان ضربة قاسية لاسرائيل ربما بقدر يفوق كونه انتصارا لنضال الثورة الفلسطينية . فاسرائيل والصهيونية في مركزهما الرئيسي في الولايات المتحدة لم تتحملا مشهد اللقاء الفلسطيني ــ الامريكي الاسود .. حيث كان لا بد من تشكيل وفد اسود بديل ليزور اسرائيل بأي ثمن ! ..

بعد عودته الى واشنطن (١٠/٥) باشر جاكسون عقد سلسلة من اللقاءات والاجتماعات مع كبار المسؤولين واعضاء الكونغرس الامريكي ليشرح لهم نتائج جولته ولقاءاته مع السيد ياسر عرفات . وصرح احد مساعدي جاكسون (١٠/٧) بأن القس عاد اكثر تحمسا وتأييدا للقضية الفلسطينية بعد ان تفهم وجهة نظر المقاومة الفلسطينية وقيادة منظمة التحرير . وقال هذا المساعد ان الانطباعات التي كونها خلال تلك الجولة تتلخص في ضرورة اقدام الحكومة الامريكية على خطوات ايجابية تجاه منظمة التحرير والدول العربية المعارضة لاتفاقات « كامب ديفيد » .

واضاف ان هذه الخطوات يجب ان تتلخص في اقامة وطن قومي فلسطيني ، وحث اسرائيل على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، ووقف عملياتها وهجماتها العسكرية ضد الجنوب اللبناني .

صحيفة « واشنطن بوست » الامريكية نفسها التي اعتبرت ان البابا كان في اطار جبهة الرفض العربي في خطابه امام الجمعية العامة كان لها تعليق في الاتجاه نفسه على مهمة جيسي جاكسون وتصريحاته في الشرق الاوسط . فقد كتبت (١٠/١٠) تقول : « ان مما يخدم مصلحة منظمة التحرير الفلسطينية ان يعود جاكسون الى الولايات المتحدة لينشر الرسالة باعتدال المنظمة واهليتها الجديدة لتكون شريكا في الحوار مع الولايات المتحدة ، وهي الرسالة التي ابلغها جاكسون الى واشنطن يوم امس . والواقع انه عندما طلب جاكسون من منظمة التحرير وقف العنف ضد اسرائيل والاعتراف بها والانضمام الى مفاوضات كامب ديفيد . رفضت المنظمة ذلك » . واختتمت « واشنطن بوست » هذا التعليق بقولها . « يجب تنبيه جاكسون وغيره من الزعماء السود الذين انضموا اخيرا الى نقاش الشرق الاوسط ، الا ينثني عزمهم ، اذ قد يتمكنون من المساعدة على تحويل المنظمة نحو اهداف سلمية . فمن المحتمل ان تعكس مساهمتهم مقدار المثابرة والواقعية وسداد الرأي الذي يضيفونه الى المهمة » .

الحدث الابرز التالي في عملية استمرار الاختراق الفلسطيني للساحة الامريكية تمثل في خطة عرضها جون كونالي المرشح لخوض معركة انتخابات الرئاسة الامريكية المقبلة (١٩٨٠) عن الحزب الجمهوري . لحل ازمة الشرق الاوسط . وقد لخصت الصحف الامريكية (١٠/١٢) خطة كونالي في النقاط التالية .

ــ سحب الوحدات العسكرية الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة .

ــ سحب جميع المستوطنات الاسرائيلية من هذه الاراضي .

ــ قرار فلسطيني بشأن امكانية اقامة دولة فلسطينية مستقلة او منطقة حكم ذاتي ضمن الاردن .

ــ تسوية عن طريق التفاوض لمسألة القدس .

ــ اتفاق للتجارة الحرة بين الدولة الفلسطينية واسرائيل .

وقد تضمنت خطة كونالي اضافة الى هذه النقاط اقتراحات بضمانات اميركيـة عسكريـة وماديـة « لمواجهة وصد النفوذ السوفياتي في المنطقة .

ولكن الامر الذي له مغزى كبير في صدد موقف كونالي هو ان هذه اول مرة يتبنى فيها مرشح للرئاسة الاميركية موقفا على هذا القدر من التحديد والوضوح من القضية الفلسطينية . وقد ادى هذا الى اثارة رد فعل صادق من جانب الدوائر الصهيونية في الولايات المتحـدة . فسـارع المؤتمـر اليهـودي الاميركي ــ الذي يضم رؤساء الجاليات اليهودية من انحاء الولايات المتحـدة ــ الى مهاجمـة مشروع كونالي ووصفه بانه « مشروع لا يخدم عملية السلام في الشرق الاوسط » .

وخارج اطار نقاط المشروع فان موقف كونالي كان اكثر دلالة على تغير تجاه اسرائيل، اخذت بوادره تظهر على الساحة السياسية الاميركية ، وان يكن ذلك خارج اطار الادارة ، فقـد انتقد كونالي ، في الخطاب الذي قدم فيه مشروعـه ، صميم المساعدات الاميركية التي تحصل عليها اسرائيل ، وقال انه يجب الا تتجاوز هذه المساعدات ما يتطلبه امن اسرائيل فقط ، وهي الآن تتجاوز هذا النطـاق وتشجعها على الاستيلاء على الاراضي . كما المح كونالي الى وجود تناقض في المصالح بين الولايات المتحدة واسرائيل .

بل ان كونالي انتقد اتفاقات « كامب ديفيد » التي كانت قد اجمعت التيارات السياسية المختلفة في الولايات المتحدة في البداية على اعتبارها انتصارا كبيرا للرئيس جيمي كارتر ــ فقال ان هذه الاتفاقات لم توفر الاساس لمفاوضات ناجحة حول القضايا المتبقية .

وكان للموقع الاميركي ازاء القضية الفلسطينية وازاء التقدم السريع للحضـور الفلسطينـي على الخريطة السياسية العالمية وجه اخـر ظهـر في اجتماعات محافظي صندوق النقد الدولي التي عقدت في بلغراد (٢ ــ ١٠/٥) فقـد كان الحضـور الفلسطيني مطروحا بشدة على الصندوق من خلال اقتراح من مجموعة الدول النامية (١١٥ دولة) الاعضاء في الصندوق بمنـح منظمـة التحريـر الفلسطينية صفة مراقب في الاجتماع السنـوي لصندوق النقد الدولي من البنك الدولي للانشـاء والتعمير . وقد قدم الاقتراح عن هذه المجموعة مندوب باكستـان وركزت صحيفـة «فاينشـال تايمز » البريطانية(١٠/٢) ان الاقتراح لقـي موافقـة اجماعية . وكان مجلس ادارة صندوق النقد الدولي قد نصح روبرت مولدن (رئيس وزرا. نيوزيلاندا ورئيس اجتماع الصندوق) قبل عشرة ايام برفضه طلب المنظمة اذا ما قدم اليه . وتشير تعليقات مولدن نفسه الى انه ضد فكرة اقحام سياسة الشرق الاوسط فيما يفترض ان يكون اجتماعا يختص بشؤون المال والتنمية .

الا ان النفوذ الاميركي كان له الدور الحاسم من خلال الفيتو في الاجتماع السنوي للصنـدوق ، فرفض طلب ١١٥ دولة نامية بضم منظمة التحرير كمراقب اسوة بوضعها المماثل في باقي وكالات ومجال الامم المتحدة . وهكذا تكرر الموقف نفسه الذي وقفته واشنطن ضد المنظمة في الاجتمـاع السنوي السابق للصندوق في العام الماضي ، وكان في واشنطن . ولم يكن خافيا على الصحافة الاوروبية ان اسرائيل تقاوم بشدة مثل هذا الاقتراح . وقالت صحيفة « سكوتسمان » البريطانية (١٠/١) ان من الخيارات المفتوحة التي يدرسها الرسميـون. اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية كضيف ، مما يستثني المنظمة من الاشتراك في الجلسة الافتتاحية وبعض حفلات الاستقبال فقط . ولكن الممثل ان تقاوم اسرائيل وبعض الدول الصناعية الغربية طلب قبول المنظمة كمراقب » .

سمير كرم

قضـايا عسكريـة

هل تحصل اسرائيل على المقاتلة « ف ــ ١٨ »

قالت مجلة « ايرانترناشيونال » ، المتخصصة في شؤون الطيران ، في عددها الصادر في تموز (يوليو) ١٩٧٩ ، ان قيادة السلاح الجوي الاسرائيلي ابدت مؤخرا ، بصورة غير رسمية ، اهتمامـا خاصا بالطائرة المقاتلة الاميركية الجديدة « ف ــ ١٨ ل كوبرا » ، وهي الطراز الخاص بالعمل من قواعد جوية ارضية من الطائرة المقاتلة الجاري تطويرها حاليا لحساب البحرية الاميركية والمسماة « ف ــ ١٨ هورنت». واستطردت المجلة المذكورة موضحة أن اهتمام قيادة السلاح الجوي الاسرائيلي بالطائرة « ف ــ ١٨ ل كوبرا » يدخل ضمن نطاق بحثها متطلبات تطوير القوة الجوية الاسرائيلية في منتصف الثمانيات ، وضرورة التخطيط لها من زاوية ان معظم المقاتلات الحالية ذات قدرات قتال نهاري وضمن ظروف رؤية جيدة رئيسية ، وهذا يثير قلق القيادة الجوية الاسرائيلية ، ولذلك تنظر الى الطائرة « ف ــ ١٨ » كوسيلة محتملة لسد الثغرة المشار اليها في تكوين السلاح الجوي الاسرائيلي . والجدير بالذكر أن الطائرة المذكورة ذات قدرات متطورة في القتال الليلي أو ضمن ظروف رؤية سيئة ، وسيكون سعرها ونفقات تشغيلها اقل من سعر نفقات الطائرة « ف ــ ١٥ » ، ذات القدرات المماثلة ، والموجود منها حاليا لدى الطيران الاسرائيلي ٢٥ طائرة ، وسوف يحصل على ١٥ طائرة اضافية اخرى ، ضمن صفقـة الطائرات الثلاثية التي اجرتها الولايات المتحـدة الاميركية مع كل من اسرائيل ومصر والسعودية في العام الماضي (جاء في تقرير ميزان القوى العسكري عن العام ٧٩ ــ ٨٠ الذي اصدره المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في « لندن » مؤخرا ان لدى اسرائيل ٤٨ طائرة « ف ــ ١٥ ») . وتعتبر طائرات « ف ــ ١٥ » هي المقاتلات الاسرائيلية الرئيسية القادرة على التصدي للمقاتلات العربية من طرازي « ميغ ــ ٢٣ » «وميغ ٢٥ » ، خاصة في ظروف الرؤية الجوية السيئة أو في القتال الليلي . وتتوافر « الميغ ــ ٢٣ » حاليا لدى الاسلحة الجوية العربية السورية والعراقية والليبية والجزائرية (واليمـن الجنوبي مؤخرا على الارجح) . أما « الميغ ــ ٢٥ » فتوجد لدى ليبيا والجزائر وسوريا . وتقول المصادر الدولية للمعلومات أن الموجود منها لدى الـدول المذكورة من النوع الخاص بالاستطلاع غالبا (نظرا لقدرة الطائرة الفائقة على التحليق على ارتفاعات شاهقة وبسرعة كبيرة ، الامر الذي يتيح لها تصوير مساحات كبيرة من الارض والافلات في الوقت ذاته من وسائل الدفاع الجوي المعادية) . ولكننا نعتقد أن هناك عددا من النوع المقاتل من طائرات « الميغ ــ ٢٥ » موجود لدى ليبيا وسوريا .

ولكن الكتلة الرئيسية من المقاتلات الاسرائيلية تتالف من الطائرات « ف ــ ٤ فانتوم » ، التي يوجد منها نحو ٢٤٠ طائرة لدى الطيران الاسرائيلي ، وهي تعتبر طائرات من جيل سابق لجيل « الميغ ــ ٢٣ » الموجودة لدى الاسلحة الجوية العربية . فقد دخلت « الفانتوم » الخدمة العملية في السلاح الجـوي للبحرية الاميركية في اخر العام ١٩٦٠ ، على حين بدأ دخول « الميغ ــ ٢٣ » الخدمة في السلاح الجوي

السوفييتي في العام ١٩٧٠ . وتعتبر اكثر تفوقا عن « الفانتوم » ، خاصة في مهام القتال الجوي (وهي المهمة الرئيسية لها) . وفي الوقت نفسه فان المقاتلة الاسرائيلية الصنع من طراز « كفيرس ـ ٢ » تعتبر اساسا طائرة قتال ضمن ظروف رؤية جيدة ، فضلا عن قدرتها في مهـام القصف الارضي . (تمتلك اسرائيل نحو ١٠٠ طائرة منها) . وكذلك الحال بالنسبة الى المقاتلة الاميركية الاكثر تطـورا من « الكفيز » ، وهي ال « ف ـ ١٦ » ، التي ستستلم اسرائيل منها ٧٥ طائرة في المستقبل القريب ، وفقا لصفقة الطائرات الثلاثية ، ويحتمل أن تحصل على مزيد منها نتيجة لزيارة وزير الدفاع الاميركي الاخيرة للمنطقة التي جرت في شباط (فبراير) ١٩٧٩ . وعموما فان ال « ف ـ ١٦ » يبدو انها ستحل اساسا محل طائرات الهجـوم الارضي من طراز « P ـ ٤ سكاي هوك » التي يوجد منها نحو ٢٧٥ طائرة حاليا لدى الطيران الاسرائيلي . إذ أصبح من الضروري البحث عن بديل لها بعد أن مضى عليها نحو ربع قرن منذ ان حلق نموذجها الاختباري الاول في العام ١٩٥٤ .

وهكـذا يتضح لنا ان تجديد السلاح الجوي الاسرائيلي خلال الثمانينات يتطلب توفير مقاتلة جديدة ذات قدرات متطورة في جميع الاجواء ، تكون كلفتها الاقتصادية معقولة ومحتملة ، بحيث تشكل القوة الاساسية للمقاتلات الحديثة الاسرائيلية المطلوبة لـمواجهة التطورات الجارية والمحتملة في الاسلحة الجوية العربية . وضمن هذا الاطار تطرح الطائرة « ف ـ ١٨ ل كوبرا » كأداة ملائمة لتنفيذ المتطلبات سالفة الذكر . وهي مقاتلة تفوق جوي (اي طائرة مخصصة اساسا للاشتباك القريب مع المقاتلات المعادية) مزودة بمحركين قوة دفع كل منهما ٧٢٦٠ كلـغ عند استخدام الحراق الخلفي ، ويقدر وزنها القتالي العادي بنحو ١٢٥٠٠ كلغ ، ويقدر مداها القتالي (في مهام القتال الجوي) نحو ١٤٠٠ كلم . وستسلح ، على الارجح ، بمدفع سداسي السبطانة عيار ٢٠مم ، فضلا عن انه سيكون لها ٩ نقاط تعليق تحت أجنحتها وهيكلها تصلح لحمولات مختلفة ما بين صواريخ جو ـ جو أو قنابل وصواريخ جو ـ ارض ، أو حمولات مشتركة من الاسلحة المذكورة . فضلا عن امكان حمل خزان أو أكثر من الوقود الاضافي على واحدة او اكثر من نقاط التعليق المذكورة . وسوف تكون سرعتها ضمن المقاتلات ذات السرعة ٢ ماك (وحدة سرعة الصوت التي تبلغ ١٢٠٠ كلم) . وتتميز بتقنية متطورة في مجال الالكترونات ، اذ يقال ان رادارها سيكون قادرا على تتبع ٨ أهداف في وقت واحد أثناء الاشتباكات الجوية .

وكـــانت صحيفة « معاريف » الاسرائيلية قد ذكرت ، في ٧٨/٢/١٢ ، أن شركة « ماكدونل ـ دوغلاس » الاميركية التي تصنع الطائرة « ف ـ ١٨ » عرضت على اسرائيل شراءهذا النوع من الطائرات ، والسماح لها بالاشتراك في انتاج بعض اجزائها ، وأن الشركـــة نقلت الى المسؤولين الاسرائيليين التفاصيل السرية لهذه الطائرات التي لا تزال قيد التطوير[١] .

وعموما فان المسالة لا تزال ، وفقا لما هو معلوم من مختلف مصادر المعلومات المنشورة ، لا تزال قيد البحث والدراسة ولم تخرج بعد الى حيز الاتفاق وعقد الصفقات ، بحكم أن الطائرة ذاتها لا تزال في مرحالة التطوير السابقة للانتاج .

سوريا تحصل على مقاتلات « ميغ ـ ٢٥ »

في ٧٩/١٠/٢ عقـد الجنـرال « يهـوشوا ساغوي » ، رئيس الاستخبـارات الاسرائيليـة ، مؤتمرا صحفيا قال فيه أن سوريا عززت قوتها الجوي بضم طائرات مقاتلة معتـرضة من طراز « ميغ ـ ٢٥ » قبل اسبوعين . كما قال أن الاتحاد السوفييتـي زود سوريـا بطائـــرات من طراز « سوخوي ـ ٢٢ » وأن هذه الطائرات تعتبر اقل تطورا من الطائرات الاميركية من طرازي « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » . واستطرد « ساغوي » قائلا ان الرئيس « حافظ الاسد » قد يطلب من السوفييت (يقصد خلال زيارته الاخيرة) تزويد بلاده بطائرات اكثر تطورا من طراز « ميغ ـ ٢٧ » التي تستطيع ان تواجه طائرات « ف ـ ١٥ » في معركة جوية .

وقبل أن نعلق على مسالة امتلاك سوريا لطائرات « الميغ ـ ٢٥ » ، التي سبق أن رددتها بعض مصادر المعلومات الغربية (نذكـــر تقرير ميزان القوى الصادرة عن المعهـد الـدولي للدراســات الاستراتيجية عن عام ٧٦ ـ ٧٧ ، أن سوريا لديها سرب استطلاع يضم ٢٠ طائرة « ميغ ـ ٢٥) ، نرى ضرورة توضيح بعض النقاط التي وردت في

---

١ ـ نشرة م.د.ف عدد ايار (مايو) ١٩٧٨ ، صفحة ٢٧٣ .

حديث « ساغوي » نظرا لما تضمنته من اخطاء قد تثير الالتباسات في الأذهان .

● ذكر « ساغوي » أن سوريا تلقت طائرات من طراز « سوخوي ــ ٢٢ » ، التي تعد اقل تطورا من طائرات « ف ــ ١٥ » و « ف ــ ١٦ » . والواقع ان طائرات « سوخوي ــ ٢٢ » أو « سوخوي ــ ٢٠ » ، التي يرد ذكرها في المطبوعات الغربية المتعلقة بالطيران أو موازين القوى ، ليست الا نماذج معدة للتصدير الخارجي (يقال انه ينقصها عادة بعض المعدات الالكترونية) من الطائرات « سوخوي ــ ١٧ » . وهي طائرات مقاتلة مخصصة للهجوم الارضي والقصف التكتيكي ، وتملك قدرة قتالية في الدفاع عن نفسها ضد المقاتلات المعادية ، اثر افراغها لحمولتها من القنابل وخزانات الوقود الاضافي ، وذلك بواسطة مدفعيها من عيار ٣٠ مم . ومن ثم لا يجوز مقارنتها من الناحية النوعية مع المقاتلات « ف ــ ١٥ » و « ف ــ ١٦ » ، التي تعتبر مقاتلات تفوق جوي في الاساس ، رغم قدرتها على القيام بمهام قصف تكتيكي . فالاخيرة تتفوق عليها خاصة على الارتفاعات العالية ، نظرا لأن « السوخوي ــ ١٧ » (وكذلك موديلاتها الأخرى) ثقيلة الوزن نسبيا بحكم تصميمها الخاص بالمناورة الحادة على الارتفاعات المنخفضة ، وتصفيح باطن هيكلها الخ . وقد استخدمت هذه الطائرات في حرب ٧٣ من قبل مصر وسوريا تحت اسم « سوخوي ــ ٢٠ » ، كما يوجد منها حاليا نحو ٤٨ طائرة لدى سوريا ، وحوالي ٤٦ لدى مصر . وتوجد أيضا لدى كل من السلاح الجوي العراقي والليبي والجزائري واليمني الجنوبي .

« والسوخوي ــ ١٧ » مزودة بمحرك تبلغ قوة دفعه ، عند استخدام الحراق الخلفي ، نحو ١١٢٠٠ كلغ ضغط ، وسرعتها القصوى على ارتفاع سطح البحر ١٣٠٠ كلم/ساعة ، وحوالي ٢٣٠٠ كلم على ارتفاع ١٢ الف متر . واقصى ارتفاع عملي لها ١٧٥٠٠ متر . وتستطيع أن تحمل على ٨ نقاط تعليق ٥ أطنان من القنابل كحمولة قصوى . ولكن حمولتها النموذجية هي ٣,٥ اطنان وخزاني وقود اضافيين ، ويبلغ مداها في الحالة المذكورة ٣٦٠ كلم في حالة التحليق على ارتفاعات منخفضة ، ونحو ٦٣٠ كلم في حالة تحليقها على ارتفاع عال ــ منخفض ــ عال . وقد سبق أن حلقت ٣ طائرات منها فوق بيروت بعد ظهر يوم ٢٥/٤/٧٩ ، اثر تحليق الطيران الاسرائيلي اكثر من مرة في صباح وظهر اليوم ذاته . والجدير بالذكر انها ذات اجنحة قابلة للحركة لزيادة قدرتها على المناورة والسرعة وفقا لظروف القتال الجوي المختلفة .

● ويقول « ساغوي » ايضا أن الرئيس « الاسد » قد يطلب من السوفييت طائرات « ميغ ــ ٢٧ » التي تستطيع مواجهة طائرات « ف ــ ١٥ » في معركة جوية . والذي نود أن نوضحه في هذا الخصوص أن « الميغ ــ ٢٧ » هي النوع المعدل من « الميغ ــ ٢٣ » للقيام بمهام القصف التكتيكي والدعم الأرضي القريب والاختراق في العمق العملياتي لعزل ميدان القتال البري عن القواعد الادارية والتعزيزات الاحتياطية . وهي قادرة على اداء هذه المهام بدقة رمي في مختلف ظروف الرؤية ومن ارتفاعات شديدة الانخفاض ، بحكم تزويدها برادار خاص بتلافي التضاريس الارضية وجهاز لازر لتحديد المدى . وهي مزودة بمحرك تبلغ قوة دفعه ، مع الحراق الخلفي ، ١١٥٠٠ كلغ ، وتبلغ سرعتها القصوى على ارتفاع سطح البحر نحو ١٣٩٢ كلم ، وسرعتها القصوى على ارتفاع ١٢ الف متر ١٦٠٠ كلم (السرعة الاولى هي الاهم بالنسبة للمهام الاساسية للطائرة) . وحمولتها القصوى من القنابل ٤,٥ اطنان ، وحمولتها النموذجية ٣ أطنان بالاضافة الى خزان وقود اضافي . وفي هذه الحالة يبلغ مداها على ارتفاع منخفض نحو ٥٦٠ كلم ، ومداها على ارتفاع « عال ــ منخفض ــ عال » ٨٩٠ كلم . وهي مسلحة بمدفع دوراني سداسي الفوهات من عيار ٢٣ مم للدفاع عن نفسها . واجنحتها قابلة للحركة . ويوجد منها لدى سوريا حاليا نحو ٤٨ طائرة ، كما تتوافر لدى ليبيا والجزائر والعراق ومصر . وهي ليست معدة لمواجهة المقاتلات كمهمة اولى لها ، وانما تلك هي مهمة « الميغ ــ ٢٣ » ، التي تبلغ سرعتها القصوى على الارتفاعات العالية ٢٤٤٦ كلم/ساعة وتتمتع بقدرات مناورة كبيرة في القتال الجوي .

● اما « الميغ ــ ٢٥ » فهي مقاتلة معترضة ، بدات اختباراتها الاولية في منتصف الستينات ودخلت الخدمة العملية بالسلاح الجوي السوفييتي عام ١٩٧٠ ، وكانت مصممة في الاصل لاعتراض قاذفة قنابل أمريكية تسمى « ب ــ ٧٠ » ذات قدرات كبيرة في السرعة والارتفاع ، ولكنها لم تدخل الخدمة العملية وهي ، أي « الميغ ــ ٢٥ » مزودة بمحركين قوة دفع الواحد منهما ، عند استخدام

الحراق الخلفي ، ١١٢٠٠ كلغ (أي أن الاثنين تبلغ قوتهما ٢٢٤٠٠ كلغ) . وتوفر المحركات المذكورة سرعة قصوى للطائرة على الارتفاعات العالية(وهو اختصاص الطائرة الاساسي) تبلغ ٢٩٨٠ كلم/ساعة ، وذلك في حالة استخدام الحراق الخلفي لفترة قصيرة . وسرعتها على ارتفاع سطح البحر ١٠٤٥ كلم/ساعة . .وتستطيع « الميغ ـ ٢٥ » أن تصل الى ارتفاع يبلغ ٢٤ الف متر ، حيث لا تستطيع اي طائرة مقاتلة اخرى أن تصل وتكون لها قدرات قتال عملية . ويبلغ مداها القتالي في حالة قيامها بمهمة اعتراض جوي (أي تصدي للطائرات المعادية بسرعة ومن مسافة بعيدة نسبيا عنها بواسطة الصواريخ جو ـ جو) نحو ١١٠٠ كلم . أما مداها في حالة قيامها بمهمة اشتباك جوي قريب لمدة دقيقتين فيبلغ نحو ٢٠٠٠ كلم ، ويصل مداها في حالة استخدامها صواريخ جو ـ أرض ضد أهداف ارضية الى نحو ٢٢٠٠ كلم . (أما النوع المخصص منها لمهام الاستطلاع الجوي فيصل مداه الى ٢٧٠٠ كلم) . والجدير بالذكر انه في حالة قيام « الميغ ـ ٢٥ » بمهمة اعتراض جوي فانها تقلع من المطار مستخدمة الحراق الخلفي ثم تواصل رحلتها بسرعة قصوى حتى تصل الى اقصى مدى لها ، في الحالة المذكورة ، ثم تطلق صواريخها من طراز «أ . ا ـ ٦ اكريد » الذي يبلغ مداه نحو ٥٠ كلم نحو الطائرة المعادية ، وهو موجه بالرادار . وفي حالة قيامها بمهمة قتال جوي تحلق نحو الهدف بالسرعة القتالية المثلى ، ولذلك يزيد مداها الى ٢٠٠٠ كلم ، نظرا لنقص استهلاك الوقود ، ثم تطلق صواريخها من الطراز ذاته ولكنها تكون موجهة بالاشعة تحت الحمراء ويبلغ مداها ٢٢,٥ كلم . وتستطيع ان تحمل ٤ صواريخ ، وعادةً ما يكونون اثنين من كل نوع . والنوع الحديث منها ، المسمى « م » ، يسلح بمدفع ثنائي او سداسي من عيار ٢٣ مم ، ويحمل ٦ صواريخ جو ـ جو فضلا عن خزاني وقود اضافيين ، والرادار المجهز به له قدرة النظر الى اسفل ، والصواريخ غالبا مزودة برؤوس رادارية باحثة ، ولذلك فانها قادرة على اصابة الطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة من موقعها المرتفع المشرف على ساحة الاشتباك ، من مسافات تصل الى ٥٠ كلم . ومن ثم فان لها قدرة على اعتراض طائرات ال « ف ـ ١٥ » بالصواريخ بعيدة المدى من فوقها ، وكذلك قدرة الاشتباك معها في قتال قريب بالصواريخ والمدافع على ارتفاعات عالية ، وتحقيق تفوق واضح عليها . خاصة وانها تتميز عنها من حيث السرعة والارتفاع العملي والمدى القتالي . إذ تبلغ السرعة القصوى لل « ف ـ ١٥ » ٢٦٥٠ كلم (لفترة قصيرة) ، واقصى ارتفاع عملي لها ١٩,٢٠٠ متر ، واقصى مدى (في حالة قيامها بمهام دورية قتالية) نحو ١٨٠٠ كلم . ومن ثم فان حصول سوريا على سربين أو ثلاثة من « الميغ ـ ٢٥ » (٣٢ ـ ٤٨ طائرة) يحقق توازنا ، بل تفوقا ، جويا لها بالنسبة لطائرات « ف ـ ١٥ » الاسرائيلية . وعموما فان طائرات ال « ف ـ ١٥ » قابلة للاسقاط بسهولة نسبيا ، بواسطة طائرات « الميغ ـ ٢٣ » ، خاصة اذا ما توفرت للاخيرة ظروف ملائمة من حيث الانذار المبكر وادارة العمليات الجوية . بل قد يتاح للميغ ـ ٢١ فرصة اسقاط « ف ـ ١٥ » ، كما كاد أن يحدث خلال المعركة الجوية الثانية التي جرت بين « الميغ ـ ٢١ » وال « ف ـ ١٥ » في سماء لبنان ، يوم ٧٩/٩/٢٤ . حيث كادت احدى طائرات « ف ـ ١٥ » ان تسقط لولا تمكنها من الفرار في اللحظات الاخيرة ، وفقا لما روته صحيفة « جيروزاليم بوست » في رسالة لها من « واشنطن » ، نشرت في ٧٩/١٠/١٠ . قالت فيها ان « عيزر وايزمان » وزير الدفاع الاسرائيلي اشار الى هذا الحديث خلال محادثاته مع المسؤولين العسكريين الاميركيين . وهذا الاحتمال ليس ببعيد ، بعد أن يستوعب الطيارون السوريون خبرات اشتباكاتهم مع ال « ف ـ ١٥ » ، مثلما حدث من قبل بالنسبة لطائرات « ف ـ ٤ فانتوم » التي اسقطتها المقاتلات السورية من طرازي « ميغ ١٧ » و « ميغ ـ ٢١ » من النوع الاقل حداثة عن النوع الموجود حاليا لدى الطيران السوري .

« اسقاط طائرة بدون طيار فوق سوريا »

في محاولة لاجراء استطلاع للعمق السوري وجمع معلومات عن القوات والقواعد الجوية وبطاريات الصواريخ الموجودة فيه ، فضلا عن اختبار مدى كفاءة اجهزة الدفاع الجوي وحساسية وسائل الكشف والرصد والتتبع لديها ، دفعت اسرائيل بطائرة استطلاع بدون طيار يوم ٧٩/١٠/٧ عبر سماء لبنان الى سوريا ، وكانت هناك طائرات مقاتلة اسرائيلية عادية تحلق وقتئذ فوق لبنان . ولكن المقاتلات السورية اسقطت طائرة الاستطلاع المشار

اليها الى الشمال من « دمشق » بعد ظهر اليوم المذكـــور ، دون تدخل من الطائرات الاسرائيلية القريبة والموجودة في سماء لبنان .

والمعروف ان اسرائيل لديها عدة انواع من الطائرات بدون طيار ، وقد حصلت على بعضها قبل حرب ١٩٧٣ ، واستخدمتها خلالها في مهمات الاستطلاع الجوي ، والتشويش الالكتروني ، واجتذاب نيران الصواريخ أرض ــ جو والمقاتلات العربية . وقد عززت ما لديها من هذه الطائرات عقب الحرب من الولايات المتحدة ، كما صممت وانتجت نوعا منها اسمه « ماستيف » مخصص لاعمال الاستطلاع التكتيكي والعملياتي لصالح التشكيلات المقاتلة مباشرة ، ولذلك تحمل على شاحنات ملحقة بالتشكيلات . والطائرة بدون طيار هي طائرة ذات محرك نفاث ، ذات جسم واجنحة وذيل تشبه الطائرة العادية ، ولكنها عادة تكون اصغر حجما منها بدرجات مختلفة وفقا لنوعها وطبيعة المهام المعدة للقيام بها . ويجري توجيهها بواسطة جهاز لاسلكي مركب داخلها ، يتلقى الاشارات من مركز توجيه ارضي أو جوي أو بحري . ويتم اطلاقها من فوق منصة خاصة (ثابتة أو متحركة) ، أو طائرة نقل ضخمة تحمل عدة طائرات من النوع المذكور تحت اجنحتها . ويتم التحكم في مسارها وفق برنامج محدد مسبقا يتضمن خط السير والمناورات والمهام المطلوبة منها . ويبقى الموجه لها قادرا على متابعتها والتحكم فيها طالما ظلت ضمن مدى الرادار الذي يستخدمه ، وبعد ذلك يستمر عملها وفقا للبرنامج المحرك وفتح مظلة الهبوط ، وحتى لا يتأثر جسمها كثيرا عند الارتطام بالارض ، مما يتطلب اجراء اصلاحات بها ، تقوم طائرات الهليكوبتر الكبيرة بالتقاطها اثناء هبوطها نحو الارض . ويوجد لدى اسرائيل ثلاثة انواع من الطائرات بدون طيار اميركية الصنع . الاولى تعرف باسم « ريان ــ ١٦٦ فايربي ــ ٢ » ، ويبلغ وزنها ١٠٢٧ كلغ ، وفتحة جناحيها ٢,٧ متر ، وطولها ٨,٧٥ امتار ، وسرعتها القصوى ١٢٥٠ كلم/ساعة على ارتفاع سطح البحر و١٨٠٠ كلم على ارتفاع ١٥٠٠٠ متر ، وارتفاعها يصل الى ١٨٣٠٠متر ، وفترة تحليقها المعتادة ٧٥ دقيقة على ارتفاع ١٥٠٠٠ متر ، ويمكن اطلاقها من منصة ارضية أو من طائرة « أم » .

وطائرة النوع الثاني تسمى « ريان ١٤٧ » ، وتزن ما بين ١٧٠٠ و ٢٢٠٠ كلغ (وفقا لانواع المعدات التي تحملها) ، وفتحة جناحيها حوالي ٤ امتار وطولها نحو ٩ امتار ، وسرعتها القصوى ١١٥٠ كلم/ساعة . وتصل الى ارتفاع ١٨٣٠٠ متر ، ومدى عملها العادي ١٢٨٥ كلم ، واقصى مدى لها ٢٣٠٠ كلم . ويمكن لطائرات النقل « هيركوليز سي ــ١٣٠ » أن تحمل ٤ طائرات منها . وتستخدم في أعمال الاستطلاع الجوي والتشويش الالكتروني ورصد اجهزة الرادار وتوجيه رميات المـــدفعية والصواريخ ارض ــ أرض . وتحتوي الطائرة الام التي توجهها على أجهزة توجيه الطائرة المذكورة واجهزة استقبال المعلومات التي تقدمها وتحليلها بشكل اولي ، ويمكنها التقاط الطائرة في الجو او توجيهها للهبوط على الارض . ويبدو أن هذا النوع هو الذي اسقطته الطائرات السورية ، كما توضح الصور المنشورة لها .

والنوع الثالث من الطائرات الاسرائيلية بدون طيار يسمى « تشوكار » . ويبلغ وزنها الاقصى ١٩٧ كلغ ، وفتحة جناحيها ١,٧٣ وطولها ٢,٨٧ امتار . وهي بذلك اصغر الطائرات الثلاث (تصغرها الطائرة الاسرائيلية الصنع « ماستيف » إذ يبلغ وزنها ٧٠ كلغ فقط) . ولذلك فهي تستخدم اساسا كهدف طائر لتدريب الطيارين واطقم الدفاع الجوي الارضي على الاصابة . ولذلك تتميز بقدرتها على المناورة الحادة اللازمة للتدريب على اصابة الطائرات . وتبلغ سرعتها القصوى ٩٥٤ كلم/ساعة على ارتفاع ٦١٠٠ متر ، وارتفاعها العملي ١٢٢٠٠ متر ، ومداها الاقصى ٥٨٥ كلم . هذا وقد علق الجنرال « دافيد عفري » ، قائد السلاح الجوي الاسرائيلي ، على اسقاط الطائرة الاسرائيلية بدون طيار فوق سوريا ، فقال « ان خسارة الطائرة الاسرائيلية التي تحلق بدون طيار اثبتت أن السلاح السوري المضاد للطائرات بالغ الفاعلية » . واوضح انه من الصعب تحديد مكان هذه الطائرات التي تحلق على ارتفاع شاهق ، لكن اسقاطها ليس صعبا اثر ذلك بسبب سرعتها المحدودة وضعف قدرتها على المناورة . كما ذكر أن سعر الطائرة من هذا النوع يبلغ مليون دولار .

« البحرية الاسرائيلية على نظام جديد للدفاع الجوي »

نشرت مجلة « انترناشيونال ديفنس ريفيو » في

العدد رقم ٦ الصادر عام ١٩٧٩ ، أن البحرية الاسرائيلية وقعت عقدا مع الحكـــومة الاميركية مؤخرا ، يقضي بشراء الاولى ١٤ وحدة من نظام الدفاع الجوي المسمى « م ١٥ فالانكس » قيمتها المالية ٦٤,٩ مليون دولار . والمعروف أن هذا النظام عبارة عن مدفع دوراني سداسي السبطانات من عيار ٢٠ مم مزودة بجهاز رادار وادارة نيران الي ، يمكنه من التقاط الاهداف الجوية التي تطير على ارتفاع منخفض بسرعة ودقة وتوجيه النيران اليها بسرعة وفاعلية . وسوف تسلح زوارق الصواريخ الاسرائيلية من فئة « ريشيف » اساسا (التي يوجد منها نحو ١٠ زوارق حاليا) بهذا النظام الدفاعي ، وذلك لدعم قدرتها على التصدي للهجمات الجوية ، وكذلك لمحاولة تدمير الصواريخ الموجهة اليها من الزوارق المعادية في حالة كشفها ورصدها مبكرا ، وهو ما يقال أن النظام المذكور قادر على تحقيقه بفضل أجهزته الالكترونية وآلية توجيهه وسرعة وغزارة نيرانه .

محمود عزمي

صدر حديثا
عن مركز الابحاث

منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي – الاوروبي

تاليف
احمد صدقي الدجاني

صدر حديثا
عن مركز الابحاث

التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني
الجزء الثاني
١٩٤٨ ـ ١٩٦٧

تاليف
نبيل أيوب بدران

Palestine Affairs

No. 96 November , 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

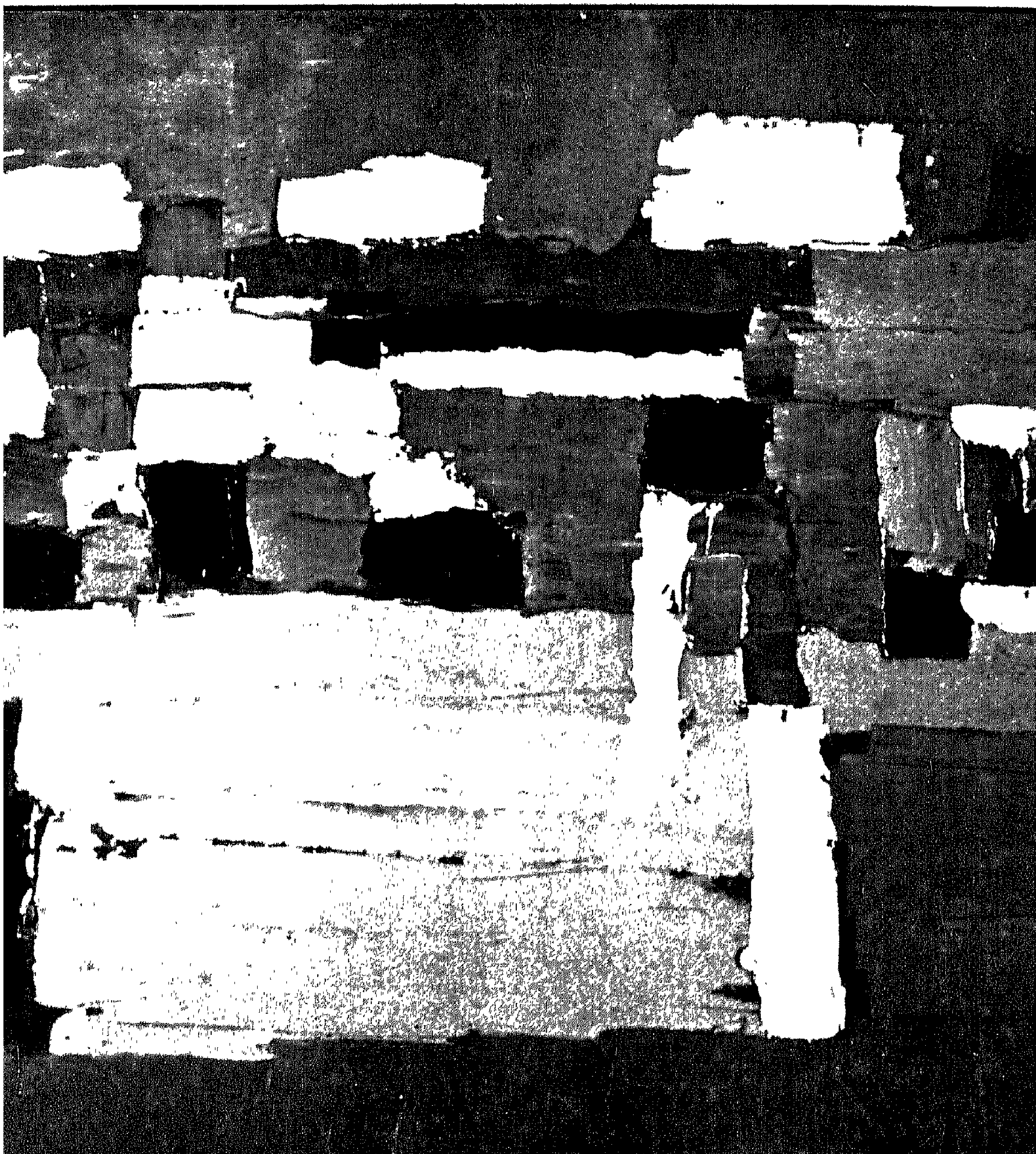
Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعــر: ٥ ل.ل. في لبـنان
٦ ل.س. في سوريّـا
٦٥٠ فلسـاً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولـة الامارات العَربيـة
٦ ل.ل. في سـائر الاقطـار العَربيـة
٧٥٠ درهـماً في ج.ع.ل.
٧,٥٠ درهم في المغرب

شؤون فلسطينية

٩٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

٩٧ — **كانون الاول (ديسمبر) ٩٧٩**

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

المدير العام : صبري جريس
رئيس التحرير : محمود درويش

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، راس بيروت ـ لبنان ، ص . ب ١٦٩١

تلفون : التحرير والتوزيع ٢٥١٢٦٠

برقيا : مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع · غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل . ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل . ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل . ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل . ل . في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

الغلاف للعالمي . دى ستايل

مصطفى الحسيني

الاقتراب الغربي من فلسطين : منطقان وطريقان

شهدت الفترة الاخيرة موجة من التأييد والاعتراف الاوروبيين بمنظمة التحرير الفلسطينية ، باعتبارها ممثلا شرعيا وحيدا لشعب فلسطين . كما شهدت تأييدا أوروبيا واسعا لمطالب المنظمة ، المتمثلة في الاقرار بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، وإقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني ، كما شهدت أيضا مؤشرات ، وان تكن بعد مدغمة ، إلا أن الولايات المتحدة تتلمس ، وإن يكن بكثير من الحذر ، طريقها نحو حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية .

ويكاد المراقب لا يستطيع ان يفصل بين موجة التأييد والاعتراف الاوروبية ، وبين التوجهات ــ غير المتبدية ــ لسياسة الولايات المتحدة ، بل يكاد المراقب يرى في التحرك الاوروبي مقدمة لتحرك أميركي . مقدمة بأي معنى كان : أي سواء أتمثلت هذه المقدمة في كون التأييد والاعتراف الاوروبيين بمنظمة التحرير الفلسطينية ومطالبها ، يكشفان لا جدوى الموقف الاميركي المقاطع للمنظمة ، أم تمثلت في أن الاقتراب الاوروبي من المنظمة ومطاليبها ، هو تمهيد منسق لتحول حثيث مقبل في السياسة الاميركية نحو المنظمة .

فتحديد إطار ما يبدو « مطلبا فلسطينيا » بالحوار مع الولايات المتحدة الاميركية ، يصبح أمرا ملحا ، في هذا المناخ .

وتحديد هذا الاطار ، يعني ــ أول ما يعني ــ جلاء مسألتين :

الأولى : رؤية منظمة التحرير للهدف من حوار مع الولايات المتحدة الاميركية .

والثانية : علاقة مثل هذا الحوار بمجمل التوجه الفلسطيني .

□

١ ـ الهدف من الحوار

هناك منطقان يحددان الهدف من حوار من هذا القبيل .

المنطق الأول : هو الذي يبرر السعي الى هذا الحوار ، ممثلا في كون الولايات المتحدة ، تملك من الموقع ، وبالتالي من الدور ، قدرا مهما في السياسات الدوابة ، بعامة ، وفي أزمة الشرق الاوسط بما يعني ذلك الحوار ؛ لذا ، ومن وجهة نظر السياسات العملية ـ سياسات التعامل مع الوقائع ، والاعتراف بموازين القوى السائدة ، فان من يسعى الى حل القضية الفلسطينية لا مفر له من بحث ذلك مع واشنطن ، ضمن بحثه مع آخرين .

ولا يخفى ان هذا هو المنطق الذي تحرك على أساسه الرئيس المصري أنور السادات ، منتقلا من « حل دولي » لأزمة الشرق الأوسط الى « حل أميركي » لها ، متدهورا الى « حل اسرائيلي أميركي » ، وذلك عندما طرح مقولته الشهيرة « إن اميركا تملك ٩٩٪ من أوراق اللعبة » .

وقد يختلف الآخذون بهذا المنطق ـ حيثما وجدوا ـ مع السادات ، حول كم من الاوراق تملك الولايات المتحدة . لكن يبقى المنطق قائما ، ويبقى منطقا انهزاميا ، لانه يقوم على الاقرار بان « مقدرات الصراع بيد العدو أكثر مما هي بيدي » ، ولانه يقوم على القبول بفكرة السعي الى ايجاد وتطوير ضغط أميركي على اسرائيل ، من أجل ان « تتعقل » هذه الأخيرة ، وتقبل بموقف « أكثر اعتدالا » .

اما المنطق الثاني : فهو الذي يرى في السعي الى هذا الحوار ، وفي قيامه ، تحقيقا لهزيمة معنوية لاسرائيل . ومنطلق هذا المنطق ، انه اذا كانت الولايات المتحدة الاميركية أكبر حلفاء اسرائيل ، أو هي ـ بتعبير الاسرائيليين ـ « صديقها الوحيد » في العالم ، فان قبول الولايات المتحدة بما لا تقبل به اسرائيل في القضية الفلسطينية ، بالذات ، وفي الموقف من منظمة التحرير الفلسطينية تحديدا ، يشكل بالنسبة لاسرائيل هزيمة معنوية ذات قيمة معتبرة .

يدلل على قيمة تلك الهزيمة المعنوية ، كون أن أهم عناصر « الثمن » الذي طلبته اسرائيل من واشنطن ، مقابل توقيع اتفاقية سيناء الثانية في العام ١٩٧٥ ، هو أن تتعهد بألا تتحدث الى منظمة التحرير الفلسطينية .

قد يبدو الفرق بين المنطقين أكاديميا ، ما دامت النتيجة في النهاية واحدة : حوار بين واشنطن ومنظمة التحرير الفلسطينية ، لكن حقيقة الامر غير ذلك ؛ فاختيار أي من المنطقين هو الذي يرسم لمنظمة التحرير الفلسطينية طريقها الى هذا الحوار ، ويحدد شروطه ، ويقرر الى حد بعيد حصيلته .

ولبيان ذلك ، فان اعتماد المنطق الاول ، منطق السعي الى الحوار ، تسليما بما تملكه واشنطن من « أوراق اللعبة » ، كثرت الاوراق أم قلت ، يعني ان على منظمة التحرير الفلسطينية ان تسعى الى الحوار ، وأن تجعله هدفا بارزا من أهدافها . انها ترى فيه العنصر الذي يجب ان تدخله على حركة الصراع ، وبالتالي فان عليها ـ بالمنطق نفسه ـ أن تدفع مقابلا له

من مواقفها. وهــذا بالضبط ما تطرحه حكومة الولايات المتحــدة و« المعتدلون » فــي اسرائيل : اذا كنتم تريدون الحوار فعليكم ان تعدلوا ميثاقكم الوطنى ، وان تقبلوا بالقرار ٢٤٢ ، وأن تعلنوا اعترافكم بحق اسرائيل في الوجود ، وان توقفوا جهدكم العسكري ... الخ .

أما اعتماد المنطق الثانى ، منطق اعتبار قيام الحوار هزيمة معنوية لاسرائيل ، فانه يعني ، في المسلك السياسي العملي ، ان تفتح منظمة التحرير مسألة الحوار ، لكى تجعل واشنطن ، في النهاية ، هي التي تسعى اليه وليس العكس.ويكون ذلك بأن تخلق المنظمة سلسلة متراكمة ومتنامية من الوقائع السياسية ، تجعل واشنطن ترى ان من مصلحتها ان تفتح ذلك الحوار ، وبالتالي تكون واشنطن هى المطالبة بدفع ثمن الحوار ، أو على الاقل لا تكون في موقع من يستطيع ان يطلب الى المنظمة دفع ثمن هذا الحوار .

ما هو المقصود بـ « خلق سلسلة من الوقائع السياسية .. الخ » ؟ ان بعض امثلة ، مما وقع مؤخرا من تطورات في هذا المجال ، تقدم عينة من هذه الوقائع :

أزمة أندرو يونغ مثلا ، بما أحدثته من جدل داخل الادارة الاميركية ، بما خلقته من شكوك بين الموالين لاسرائيل في أميركا وبين الادارة الاميركية ، بما خلقته من ريب وخلافات بين الموالين لاسرائيل في اميركا وبين الاميركيين السود : بما أثارته لدى الكثير من رجال السياسة والأعمال الاميركيين حول جدوى السياسة الأميركية الحالية والمقاطعة لمنظمة التحرير ، بل وحول تأثيرها السلبي على المصالح الاميركية في الشرق الأوسط .. الخ .

مثال آخر : هو ذلك الاقتراب الأوروبي المتزايد من منظمة التحرير الفلسطينيــة ومطالبها .

عندما تتواجد الوقائع وتأخذ في التفاعل ، تكون المهمة الجديدة هي تنشيط التفاعل ؛ تطوير الوقائع؛ توسيع دائرتها ؛ دفعها الى قلب الحقل السياسي الاميركي . وذلك كله حادث الآن ، لكن حدوثه لا يعني تحقق المستهدف منه ، لان الطرف الآخر ، في الجدل العلمي ، لا يقف ساكنا ، انما يحاول أيضا أن يوظف الوقائع ذاتها بتفاعلاتها وتطوراتها ، في اتجاه دفع جدلية مسعى الحوار ، نحو المنطق الاول ، منطق التسليم لواشنطن بما تملك من وزن ، وبالتالي إبقائها في موقع من يفرض شروطه من أجل بدء الحوار ، وان يفرض شروطه على مجرى الحوار عندما يبدأ ، وان يفرض مواصفاته على حصيلته .

وذلك كله أيضا حادث الآن . فالجهد الاميركي الجاري في كواليس مسرح الجدل الفلسطيني ـ الاميركي ، ينطلق ، راهنــا ، من نقطتين :

الاولى : أن تجمد محادثات ما يسمى « الحكم الذاتي الفلسطيني » ، وتوقع فشلها ، يعني انه لانقاذ « كامب ديفيد » ، لا بد من حوار أميركي مع منظمة التحرير الفلسطينية ،

والثانية : انه بدون رضــا اسرائيل عن هذا الحوار ، فان مجرد بدئه ، أو حتى القبول به من حيث المبدأ ، يحقق هدفا عربيا ـ فلسطينيا ، في جدل الصراع العربي/ الفلسطيني ـ الاسرائيلي .

لذلك ، فان المؤشرات تقول ان ، المسعى الاميركي الآن ، هو أن يبدأ ذلك الحوار ، اذا بدأ وعندما يبدأ ، برضا اسرائيل . ولعل أقوى هذه المؤشرات هي استقالة دايان ، في الوقت والصيغة التي اعلنت بها ، وما يبدو من جهد أميركي غير مرئي ـ تراه الحكومة الاسرائيلية بوضوح ـ لزيادة تأزيم أزمة حكومــة بيغن ، علها تتغير ، أو تغير من موقفها المتمسك بالتزام كيسنجر بعدم التحدث الى منظمة التحرير الفلسطينية .

فاذا قبلت واشنطن الحوار ، بعد أن تسقط اسرائيل تمسكها بتعهد كيسنجر ، تجرد الحوار من هدفه العربي ـ الفلسطيني ، أي أنه لن يعود نصرا معنويا فلسطينيا ولا هزيمة معنوية اسرائيلية ، انما يصبح ، بالاحرى ، عكس ذلك ، يصبح مجرد حلقة جديدة في جهد سياسي فلسطيني واقع في شرك التسليم بحيوية وأساسية الدور الاميركي في « التوصل إلى حل » ، أي يصبح جهدا سياسيا فلسطينيا بمنطق ساداتي ، ويصبح انقاذا لكامب ديفيد ، وهو ما ترمي اليه السياسة الاميركية .

٢ ـ الحوار مع اميركا ومجمل التوجه الفلسطيني

كما أن الحوار مع أميركا ، عندما ينطلق من المنطق الصحيح ، يصبح بذاته هزيمة معنوية لاسرائيل ، فانه في الوقت نفسه ، وبعد أن يحقق هذه النتيجة ، يمكن ان يصبح نقطة انطلاق جديدة في مجمل التوجه الفلسطيني ، كما يمكن ان يصبح نقطة انتكاس ، أو على الأقل تجمد ، في هذا التوجه .

فاذا سلمنا ان الاقتراب الاوروبي الجاري من منظمة التحرير الفلسطينية ومطالبها الوطنية ، هو ، على هذا الوجه أو ذاك ، مقدمة للحوار الفلسطيني ـ الاميركي ، فان فهم مضمون هذا الاقتراب ، يساعد كثيرا على جلاء النقطة السابقة .

فمن منظور أوروبي غربي ، وبالتالي وفي النهاية القصوى ، يجري هذا الاقتراب الاوروبي ، على قاعدة من التفاهم السائد حول حدود المطالب الفلسطينية ، أي على قاعدة من التفاهم السائد على المعنى العملي لمضمــون كل من برنامج النقاط العشر ، وبرنامج النقاط الخمس عشرة ، اللذين يشكلان ، حاليا ، البرنامج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ان المعنى العملي ، المتفاهم عليه ، أو المفهوم دوليا ، هو ان مطالب المنظمة هي حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، باتجاه تحقيق اقامة دولة فلسطينية على أراضي الضــفة الغربية وقطاع غزة ، بالرغم من أن أيا من البرنامجين لا يذكر هذا التحديد الجغرافي .

فاذا كانت أوروبا الغربية تقترب من منظمة التحرير الفلسطينية على أساس من هذا الفهم لمطالب الاخيرة ، فان الخطوة المنطقية التالية تكون ان تحاول أوروبا الغربية ، وأميركا اذا اقتربت على النحو نفسه من المنظمة ، وعندما ، تقترب ، ان تحول هذا الفهم أو التفاهم الضمني ، الى التزام صريح من جانب المنظمة بحدود جغرافية لمطالبها ، تتطور ، أو بالأحرى تنتكس ، في خطوة تالية من جدل العلاقة ، الى حدود جغرافية سياسية لتلك المطالب ، من قبيل تشكيل سبق لقدرات تلك الدولة المحددة جغرافيا على هذا النحو ، ومن قبيل صيغ ـ أو بالأحرى قيود ـ على نمط علاقة تلك الدولة الفلسطينية ، عندما تقوم ، مع جيرانها ، أي مع المملكة

الأردنية ــ مثلا : شكل للفيدرالية أو الكونفيدرالية ــ ومع سوريا ــ مثلا : حظر لاي خطوة اتحادية على أي مستوى ــ ومع اسرائيل ــ مثلا : نوع من « الاعتماد المتبادل » في الاقتصاد . وكل ذلك خلافا لما نص عليه برنامج النقاط العشر .

ويمكن رؤية ذلك التطور المحتمل لمضامين الاقتراب الاوروبي الجاري ، في المعركة الدبلوماسية الجارية من حول منظمة التحرير الفلسطينية .

فاذا كانت واشنطن تشترط للحوار مع المنظمة ، راهنا ، ان تعترف هذه الاخيرة بالقرار ٢٤٢ .. الخ ، فان الهدف الاميركي الآن هو تخفيض المطالب الوطنية الفلسطينية ، من مستوى التفاهم الدولي السائد على الترجمة العملية للبرنامج السياسي للمنظمة ، الى ما دون دولة في الضفة والقطاع .

وإذا كانت أوروبا الغربية ــ في اقترابها من المنظمة ــ تؤيد ، بدرجة أو بأخرى ، تعديلا للقرار ٢٤٢ ، أو إعادة تفسيره ، بحيث يقترب من تلك الترجمة العملية للبرنامج السياسي ذاته ، فان ذلك يتضمن ، في الضرورة ، سعيا الى ان تطرح المنظمة بأنها ملتزمة بتلك الترجمة العملية ، وهو الموقف نفسه الذي ستتخذه الولايات المتحدة عندما تصل الى قرار بالاقتراب من المنظمة على النحو الاوروبي الجاري .

أي توجد في ثنايا هذا الاقتراب الاوروبي الجاري ، والاقتراب الاميركي المحتمل ، كل هذه العوامل بصورة ضمنية ، وقد تتحقق كلها ، وقد يتحقق بعضها ضمن ديناميكية تنازلية لذلك الاقتراب ، وقد لا يتحقق منها شيء بل قد يتحقق العكس ضمن ديناميكية تصاعدية تملك منظمة التحرير الفلسطينية مفاتيح إطلاقها .

تنطلق تلك الديناميكية التصاعدية ، من استخدام الاقتراب الاوروبي من المنظمة ومطالبيها الوطنية ، والاقتراب الاميركي المماثل والمحتمل ــ اذا وقع وعندما يقع ــ باعتبار ان ذلك كله يمثل اضافة الى ما تتمتع به المنظمة ومطالبها من تأييد دولي ، وهي إضافة تسهم في إعادة صياغة التفاهم الضمني ، أو الفهم السائد دوليا لبرنامج المنظمة المتمثل في برنامجي النقاط العشر والنقاط الخمس عشرة ، على نحو يفوق المعنى العملي المتفاهم عليه والمفهوم دوليا الآن .

أي أنه ، في ظل ميزان معين للقوى ، ساد التفاهم والفهم الدولي على ان المعنى العملي لبرنامج منظمة التحرير الفلسطينية يعني دولة فلسطينية في الضفة والقطاع ، وانه في ظل ميزان آخر للقوى ، يتقوى فيه مركز المنظمة في التوازن الدولي ، باضافة التأييد الغربي الى تأييد حركة التحرر الوطني العالمية ، ودول العالم الثالث ، ودول المنظومة الاشتراكية ، يخلق ذلك ديناميكية جديدة تبرر تفاهما وفهما دوليا على معنى عملي آخر يفوق المعنى العملي السائد حاليا .

وبدلا من أن يكون الاقتراب الغربي من المنظمة ، ومطالبها الوطنية ، طريقا الى الزامها ، صراحة لا ضمنا ، بالمعنى العملي السائد حاليا لبرنامجها ، وربما تمهيدا لاحاطة هذا المعنى العملي بشروط تنتقص منه ، يمكن ان يكون هذا الاقتراب قوة دافعة الى تفاهم دولي جديد .

والشرط الاولي ، لخلق تلك الديناميكية التصاعدية الجديدة واطلاقها، هو الا ينبهر أحد بهذا الاقتراب الغربي ، والا يستعجل جني الثمار العملية لتحققه، أي اعتماد سياسة نفس طويل .

فاذا كان القول المشهور بأن السياسة هي فن الممكن ، قولا صحيحـا دائما ، فان لهذا القول تفسيران ؛

واحدهما انه يعني الحصول على الممكن في ظل وقائع ومعطيات وتوازنات قائمة . وهو تفسير قصار النفس من السياسيين .

وثانيهما انه يعني استخدام عوامل النمو والتطور الكامنة في الوقائع والمعطيات والتوازنات القائمة ، لتطوير الممكن ، وباستمرار، في علاقة جدلية تشبه الجني من أجل الغرس والغرس من أجل الجني ، في دورة حيوية متتابعة متوالدة لا تعرف نقطة جمود . وهو تفسير طوال النفس من الثوريين .

ولقد قامت سياسة منظمة التحرير الفلسطينية حتى الآن ــ في جوهرها ــ على قاعدة من هذا التفسير الاخير .

فيصل حوراني

الميثاق الوطني ومرقعه في سياق تطور الفكر السياسي الفلسطيني

مقدمات تعديل الميثاق

لم ينجح رئيس منظمة التحرير الفلسطينية احمد الشقيري ، وهو صاحب أكبر سلطة للقرار والبت في منظمة التحرير الفلسطينية ، في أن يجمع حول زعامته القوى الفدائية أو السياسية الفلسطينية . وقد توالت الانتقادات لمواقف وعمل المنظمة في عهد رئاسته لها ، وتوالت المشاكل : انصبت الانتقادات من القوى الفلسطينية الجديدة على نهج المنظمة وأسلوب عملها ، وانصبت من الجميع على مسلك رئيسها ، وانصبت بشكل خاص على التعارض بين الأقوال الملاينة أو المسترضية التي يدلي بها والسلوك الذي يسلكه في الواقع . وكان من شأن هذا وحده أن يزعزع مكانته على الساحة الفلسطينية حتى ولو لم تتوفر أسباب اخرى .

غير ان السبب الجوهري الذي قاد آخر الأمر الى زعزعة منطق أحمد الشقيري هو بروز منظمات العمل الفدائي منذ مطلع العام ١٩٦٥ واتساع شعبيتها . وهذا عامل لم يزعزع فقط مكانة أحمد الشقيري الذي اتخذ منها ، هو والمحسوبون عليه ، موقفاً سلبيا ، بل زعزع أيضا شعبية العرب القوميين الذين كانوا يعارضون اتجاه الاستقلال الفلسطيني بوصفه نزعة اقليمية . وكان أوفرهم شعبية على الساحة الفلسطينية ، قبل ذلك ، الناصريون ، ومنهم حتى ذلك الوقت حركة القوميين العرب . يضاف الى هذا ان سلطات الجمهورية العربية المتحدة اتخذت هي الأخرى موقفاً سلبيا من العمليات المسلحة التي باشرتها فتح وغيرها داخل اسرائيل . وهو موقف انعكست آثاره على الناصريين الفلسطينيين .

والحقيقة ان فتح ، الداعية الاهم ، من بين المنظمات الجديدة* ، الى نهج الكفاح المسلح

---

* في وقت متقارب مع ظهور فتح برز تنظيم فدائي آخر تشكل في سوريا باسم :جبهة التحرير الفلسطينية . اسسه الضابط في الجيش السوري أحمد جبريل ورفاقه وصار اسمه اليوم الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة .

قد شرعت منذ اتخذت قرارها بالتهيئة للعمل المسلح تجري اتصالات مع الدول العربية لاقامة صلات تعاون معها .

ووفقا لمصادر الكاتب نجحت فتح في وقت مبكر (١٩٦٣) باقامة صلات تعاون وثيق مع سلطات الجزائر ، وخاصة مع هواري بومدين وزير الدفاع . كما نجحت بعد ذلك بقليل في اقامة صلات مع قيادة حزب البعث الحاكم في سوريا ومع قيادة الحكم فيها .

وحاولت قيادة فتح بدأب أن تشق طريقا للتعاون مع السلطات المصرية(١) على الرغم من موقفها السلبي ازاء العمل الفلسطيني المسلح . والواضح ان فتح كانت تولي أهمية كبيرة لهذا التعاون ، حتى انها طلبت وساطة قيادة حركة القوميين العرب بهذا الخصوص في عام ١٩٦٥ ، ثم وسطت شخصيات صحفية مصرية . وقد أفهمتهم شخصيات صحفية نافذة ان معلومات المخابرات المصرية عنهم غير كافية ومتناقضة . وقالت : عندما بدأتم أول عملية اهتمت المخابرات بجمع المعلومات عنكم واستنتجت انكم تنظيم فلسطيني مستقل ، ثم وردت معلومات عن تعاونكم مع السلطات السورية ، فتصورت انكم مرتبطون بحزب البعث العربي الاشتراكي .

والاهم من هذا التحفظ ان السلطات المصرية كانت تتهيب من نتائج العمليات المسلحة داخل اسرائيل ولا تحبذها . *

وبالرغم من أن مفاوضي فتح ، الذين ذهبوا للقاهرة ، طالبوا بمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر والحوا في الطلب ، فان الوساطات فشلت في تحقيق ذلك ، ونجحت فقط في تنظيم لقاء لواحد من وفد فتح المفاوض مع مسؤول أمني مصري . وقد تمسك المسؤول الامني بمطلبه في الحصول على معلومات وافية عن تنظيم فتح أسماء قادته ، وهيكل التنظيم ، وأماكن قوته وضعفه ، ووسائل تمويله ومصادره . وقال المفاوض الفتحاوي أن هذه الأمور يمكن ان تناقش فقط مع الرئيس جمال عبد الناصر ، ولم تتيسر له مقابلته .

وفي غضون ذلك كانت فتح قد كلفت بعض كوادرها للعمل الدعائي في القاهرة وخاصة في أوساط الطلاب والمثقفين ، ونجحت ، على هذا الصعيد في تأمين حضور لها يلفت النظر . كما كانت بطبيعة الحال على صلة بتجمعات الطلبة المصريين في الخارج ، بحكم زمالة طلبتها الفلسطينيين لهم . وقد عبر هؤلاء عن وجهات نظرهم عندما التقوا في الاسكندرية في مؤتمر انعقد للمبعوثين المصريين في الخارج . في ذلك المؤتمر خطب الوزير المصري كمال رفعت فهاجم حركة القوميين العرب ، وقال كلاما وديا عن فتح . وبالاضافة لكمال رفعت تبنى صحفيون مصريون الدعوة للحوار مع فتح وطالبوا بها .

بعد حرب حزيران

وظلت الأمور على هذا النحو بين الجفاء الرسمي والقليل من النجاح في الاتصالات الخاصة ، الى ان وقعت حرب حزيران العام ١٩٦٧ . وأعطت نتائج هذه الحرب ، كما هو

---

* رعت السلطات المصرية في قطاع غزة عمليات مسلحة قام بها في الخمسينات فدائيون من القطاع ، انتهت بوقوع حرب ١٩٥٦ .

معروف ، دفعة الانطلاق الكبيرة للعمل الفدائي الفلسطيني ، وارتفعت شعبيته الى الاوج ، مما دفع الدول العربية التي انهزمت جيوشها في الحرب الى التباري في اعلان تأييدها ، وبرزت فتح على ساحة العمل الفدائي في المقدمة .

بعد الحرب التقى وفد من فتح مع وزير الخارجية المصري أنذاك محمود رياض ، الذي أبدى تعاطفا كبيرا مع الحركة ، وحث قادتها على تصعيد النشاط المسلح في الأراضي المحتلة .

ودخلت علاقات فتح مع مصر في مرحلة جديدة رعاها الرئيس جمال عبد الناصر والعديد من معاونيه على النحو المعروف . بينما كانت علاقاتها مع كل من سوريا والعراق على احسن ما يكون . وكانت لها علاقات اخرى تم بناؤها ، بصورة أو باخرى ، مع عدد آخر من الدول العربية . وصار موقف فتح ، اذن ، قويا على الساحة الفلسطينية والعربية ، وكذلك نفوذها وشعبيتها . وصارت الدعوة الى الكفاح المسلح ، التي كانت هي المبادرة في تطبيقها ، دعوة شاملة ، لا تجد في وجهها معارضة تستطيع أن تقف على قدمين راسختين .

وعلى صعيد آخر أدت نتائج حرب حزيران الى توجيه انتقادات كبيرة لقيادة أحمد الشقيري ، واذا كان بعض هذه الانتقادات فقط مما يستحق ان يوجه اليه وحده ، وبعضها الآخر يصح توجيهه للجميع،فان اكثر الانتقادات انهالت عليه ، لأنه الاضعف بين قادة القمة العرب ، ولذا انهال عليه ما كان ينبغي أن يوجه اليهم جميعا من انتقادات .

وتحركت القوى الفلسطينية باتجاه الدعوة لتطوير أوضاع منظمة التحرير ، بحيث تستجيب للمطالب القديمة المرفوعة منذ ما قبل الحرب ، وللتطورات التي استجدت بعدها . وصار واضحا ان احمد الشقيري لن يستمر زعيما للمنظمة ، وان مسانديه من العرب ، وابرزهم في مصر ، قرروا التخلص من عبء مساندته ودعم الاتجاه للبحث عن بديل .

وفي سياق هذه التحركات عرضت جهات مصرية على فتح استعدادها لتبني مسألة مجيء فتح لقيادة المنظمة ، غير ان قيادة فتح أجابت بأنها لا تريد أن تأتي نتيجة دعم خارجي ، مصرة على ان يتم التبديل من داخل المنظمة ، بما هو شأن من الشؤون الفلسطينية الداخلية تجري مناقشته في مؤسسات المنظمة(٢)

وفي غضون ذلك التقى ياسر عرفات ووفد من قادة فتح ، ضم صلاح خلف وفاروق القدومي عضوي اللجنة المركزية ، مع الرئيس جمال عبد الناصر في لقائهم الاول . وتم في هذا اللقاء البت في مسائل التعاون السياسي وغير السياسي المطروحة للنقاش . وقد أفهمهم الرئيس عبد الناصر أن القاهرة ستحتفظ بصلاتها مع المنظمات الفلسطينية الاخرى ، ونصح بأن تتعاون فتح مع هذه المنظمات ، وأن تدعم الصغيرة منها .

ونجح أحمد جبريل أمين سر جبهة التحرير الفلسطينية (الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة ، فيما بعد) في ايجاد طريق لتعاون محدود بين منظمته وبين السلطات المصرية . ورعت مصر ، حين ابتدأت تختلف مع حركة القوميين العرب ، عدة منظمات فدائية فلسطينية نشأت بعد العام ١٩٦٧ . وقد ساهمت فتح بدور بارز ، هو الأول ، في الاعداد لاحداث التبديل المطلوب

في منظمة التحرير . واتخذت قيادة فتح قرارها البات بهذا الشأن .

وهنا ينبغي ان نتوقف قليلا لنلاحظ ان فتح كانت في دعايتها السابقة تهاجم المنظمة ، وكانت قواعدها التنظيمية والجماهيرية سلبية أو أميل الى السلبية تجاه مسألة العمل من داخل المنظمة . وقد احتاجت قيادة فتح الى حملة من نوع جديد ، لتهيئة أجوائها هي لقبول قرار القيادة . وهكذا تمت في تنظيمات فتح كلها ، وفي أماكن احتشاد جماهيرها ، مناقشة واسعة مهدت الجو للخطوة الجديدة(٣) .

وانطلق العمل من أجل التبديل المطلوب على عدة مستويات . فبالاضافة لما كانت فتح والمنظمات الاخرى تهيئه وجه عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية مذكرة الى احمد الشقيري ، طالبوه فيها بالتنحي عن رئاسة اللجنة التنفيذية(٤) .

ولم تتم مبادرتهم تلك بمعزل عن تاثير فتح . وقد روى نمر المصري أحد أعضاء اللجنة الذين وقعوا على المذكرة للكاتب انهم كانوا قد أصبحوا على قناعة بأن منظمات الكفاح المسلح يجب ان تتولى مسؤولية قيادة المنظمة ، وانهم عملوا لتحقيق ذلك . ولم يشأ ان يقول انهم صاروا مقتنعين أيضا بعدم صلاحية أحمد الشقيري لقيادة المنظمة .

وانتظمت الاتصالات من أجل تشكيل مجلس وطني جديد يأتي بقيادة جديدة ، وشهدت تلك الاتصالات مناقشات طويلة ، بعض جوانبها كان عسيرا ، بين فتح والمنظمات الاخرى والقوميين العرب والبعثيين الذين يحكمون في سوريا والذين كان قد صار لهم تنظيم فلسطيني خاص في الحزب . وانتهت الاتصالات الى الاتفاق على تشكيل مجلس وطني جديد من /١٠٠/ عضو(*) واستقر الرأي على ان يكون لحملة البنادق ، التسمية التي بدأت تلتصق بدعاة الكفاح المسلح ، الاغلبية في المجلس : ٣٨ للمنظمات الفدائية معظمهم من فتح(**) و ٢٠ لجيش التحرير الفلسطيني والباقي تتوزعه التنظيمات الشعبية والمستقلون (٥) .

وقد اشترطت فتح ، اثناء التحضير لعمل المجلس ، ان يتم تعديل الميثاق القومي ، وكذلك تعديل الميثاق الاساسي للمنظمة ، بما ينسجم مع طروحاتها التي رأينا أهم جوانبها في المذكرة التي وجهتها فتح الى الدورة الثانية للمجلس الوطني ، باتجاه تأكيد استقلالية النضال الفلسطيني ومؤسساته . وفي هذا السياق اشترطت أيضا تحرير ارادة جيش التحرير الفلسطيني من التبعية للدول العربية وللقيادة العربية الموحدة وتعديل الاتفاقات بينه وبين الدول المضيفة . كما اشترطت فتح أن يتم التحالف بين المنظمات والقوى الفلسطينية داخل المنظمة على أساس جبهوي(٦) .

وواجهت قيادة فتح الانتقادات وهي تتوجه للمساهمة في قيادة المنظمة من جانبين : من أعضاء فتح الذين رأوا في دخولها منظمة التحرير تقييدا لارادتها ، لحساب الدول العربية

---

* كان اخر عدد لاعضاء المجلس السابق قد تجاوز الـ ٤٠٠ .

** لا يعكس الرقم المعلن لمندوبي فتح في أي مجلس وطني ، بما فيه هذا المجلس ، وزنها الفعلي فيه . فبالاضافة له هناك أعضاء فتح الذين يدخلون المجالس ممثلين للتنظيمات الشعبية ، أو كمستقلين . ووفقا لمصادر الكاتب ظلت فتح تتمتع باغلبية ساحقة في المجالس المتعاقبة منذ ١٩٦٨ .

واستغراقا في العمل الرسمي يبهت روح فتح الثورية ، ومن قوى خارج فتح اتهمتها بأنها تأتي الى قيادة المنظمة لكي تحجم دورها لحساب دور فتح .

وفي نهاية المطاف تشكلت لجنة تحضيرية لتسمية أعضاء المجلس الجديد ، على ضوء الاتفاق الذي تم بين فتح والمنظمات الاخرى ، وضمت اللجنة من قادة فتح ياسر عرفات وخليل الوزير وكمال عدوان ، كما ضمت وديع حداد من قادة القوميين العرب ، وأحمد جبريل . وفي عداد اعضائها كان يحيى حمودة الذي خلف أحمد الشقيري بصفة موقتة في رئاسة اللجنة التنفيذية . وأمكن أن تنهي اللجنة عملها وتشكل المجلس الجديد (الثاني ، باعتبار ان الاول هو الذي انعقد في القدس في دورته الأولى وعقد دورتين بعدها في القاهرة وغزة) . ودعي المجلس الجديد الى عقد دورته الرابعة في القاهرة بين العاشر والسابع عشر من تموز ١٩٦٨ .

الجديد في الميثاق الوطني

ظهرت الحاجة جلية اذن لتعديل الميثاق القومي والنظام الاساسي تعديلا جوهريا بعد أربع سنوات فقط من وضعهما . وهذا ما قامت به الدورة الرابعة للمجلس الوطني ، التي انعقدت في القاهرة في تموز العام ١٩٦٨ في ظروف عرفها القارىء .

وغيرت التعديلات التي ادخلت على الميثاق القومي العديد من مضامينه واتجاهاته في عدد من نواحيه الهامة ، مما سنتعرض له بالتفصيل . ولذا جاءت التعديلات واسعة بحيث أن المجلس لم يسمها تعديلات ، وانما قدم الميثاق بصياغة جديدة ، وأعطى له اسما جديدا هو « الميثاق الوطني الفلسطيني » .

الميثاق في صياغته الجديدة : جاء الميثاق الوطني(٧) خلوا من المقدمة التي اشتمل عليها الميثاق القومي ، وضم ثلاثا وثلاثين مادة ادرجت مسلسلة من غير تبويب ، وبذلك زاد عدد مواده بمقدار أربع مواد عن عدد مواد الميثاق السابق . وهذا لا يعني أن الميثاق الجديد اضيفت اليه اربع مواد . فالواقع ان مواد بعينها حذفت ، وأضيفت مواد جديدة كلية ، وتغيرت أرقام مواد اخرى ، مما سنراه بالتفصيل أثناء مناقشتنا لمواده .

عروبة فلسطين: نصت المادة الاولى على أن « فلسطين وطن الشعب العربي الفلسطيني ، وهي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير ، والشعب الفلسطيني جزء من الامة العربية » . وهكذا ابرزت اولى مواد الميثاق الوطني النزعة الفلسطينية للتمسك بالشخصية الفلسطينية الوطنية والاستقلال الوطني الفلسطيني ، فأحلت تعبير « فلسطين وطن الشعب العربي الفلسطيني » محل « فلسطين وطن عربي » الذي ورد في مطلع المادة الاولى من الميثاق السابق ، من غير أن تغفل عن تحديد صفة فلسطين كجزء من الوطن العربي أو صفة شعبها كجزء من الامة العربية .

وتطابق نص المادة الثانية مع نص مثيلتها في الميثاق السابق وهو « فلسطين بحدودها التي كانت قائمة في عهد الانتداب البريطاني وحدة اقليمية لا تتجزأ » . الا أن مدلولات هذا النص تبدلت بتبدل سياقها بين المادتين التي سبقتها والتي تبعتها .

فقد نصت المادة الثالثة على ما يلي : « الشعب العربي الفلسطيني هو صاحب الحق الشرعي في وطنه ، ويقرر مصيره بعد أن يتم تحرير وطنه وفق مشيئته وبمحض ارادته واختياره » . وهي حين تضمنت المادة الثالثة من الميثاق السابق الجزء الاول من نص المادة الجديدة هذه ، فان نصها اقترن باضافة : « وهو جزء لا يتجزأ من الامة العربية يشترك معها ... الخ ... » بينما اقترن في الجديدة بالنص على حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره « وفق مشيئته وبمحض ارادته واختياره . وهكذا اقترن الحق في الوطن بالحق في تقرير المصير ، بينما ورد المعنيان في الميثاق السابق في سياقين منفصلين . واعطت المادة الجديدة ، مثل مثيلتها السابقة ، لحق تقرير المصير مفهومه الحقوقي الجامد ، فلم يصبح تقرير المصير جزءاً من عملية التحرير وتتويجا لها .

ووصفت المادة الرابعة الشخصية الفلسطينية وقالت انها : « صفة لازمة لا تزول ، وهي تنتقل من الآباء الى الابناء » ، مستخدمة ، بذلك ، التعبير ذاته الذي استخدمته المادة المماثلة في الميثاق السابق . غير ان المادة الجديدة أضافت عبارات لها دلالتها في سياق تأكيد استقلالية الشخصية الفلسطينية اذ قالت : « وان الاحتلال الصهيوني وتشتيت الشعب العربي الفلسطيني نتيجة النكبات التي حلت به لا يفقدانه شخصيته وانتماءه الفلسطيني ولا ينفيانهما » . وبهذا أدرج الحديث عن الشخصية الفلسطينية في موضعه الصحيح ، وصار تأكيداً للانتماء الوطني الفلسطيني في وجه الاحتلال الذي جهد ليبدل معالم الوطن المغتصب ، وفي وجه الشتات ، وفي وجه أية محاولات تستهدف اذابة الشخصية الوطنية والغاء الانتماء الفلسطيني ، أيا كان مصدرها .

تعريف الفلسطيني : نصت المادة الخامسة على ما يلي : « الفلسطينيون هم المواطنون العرب الذين كانوا يقيمون اقامة عادية في فلسطين حتى عام ١٩٤٧ سواء من أخرج منها أو بقي فيها ، وكل من ولد لأب عربي فلسطيني بعد هذا التاريخ داخل فلسطين أو خارجها هو فلسطيني » . وبهذا احتفظت المادة الخامسة في الميثاق الوطني بنص مثيلتها ، السادسة ، في الميثاق القومي .

أما المادة السادسة التي أرادت ان تحدد : من هم اليهود الفلسطينيون ، فقد نصت على ما يلي : « اليهود الذين كانوا يقيمون اقامة عادية في فلسطين حتى بدء الغزو الصهيوني يعتبرون فلسطينيين » . وهو نص يختلف اختلافا كبيراً عن نص المادة المماثلة في الميثاق السابق ، وان ظل من بعض جوانبه يتضمن ، مثله ، شيئا من الغموض . فقد حدد النص الجديد « اليهودي الفلسطيني » بما حدد به « العربي الفلسطيني » وهو الاقامة العادية في فلسطين ، واسقط الشروط التي وضعها الميثاق السابق ، وهي توفر الرغبة بالتزام العيش بولاء وسلام في فلسطين ، كما أسقط الشرط الغامض حول الأصل الفلسطيني لليهودي ، وظل مع ذلك فارق وحيد بين التحديدين الخاصين بالفلسطيني العربي وبالفلسطيني اليهودي : اعتبار « العام ١٩٤٧ » ، وهو تاريخ واضح لا يحتمل الالتباس ، بالنسبة للعربي ، واعتبار « بداية الغزو الصهيوني » بالنسبة لليهودي ، وليس خافيا انه تاريخ لا بد ان يقع خلاف على تحديده . وهنا يبرز غموض النص بالنسبة لتعريف اليهودي الفلسطيني : فأي تاريخ يمكن اعتماده لتحديد موعد بدء الغزو الصهيوني ؟ اذا كنا سنعتمد تاريخ أول هجرة يهودية لفلسطين تمت

برعاية المنظمة الصهيونية ، فان اليهود الذين أقاموا قبلها في فلسطين اقامة عادية ، لم يكن قد بقي منهم احد ، على أغلب الظن ، في العام ١٩٦٨ ، عام وضع الميثاق الوطني . واذا كنا سنعتمد تاريخ بداية الانتداب البريطاني ، الذي عملت سلطاته رسميا على حماية الاستيطان الصهيوني ومشروع الوطن القومي اليهودي ، فان عدد المتبقين من اليهود الذين أقاموا في فلسطين قبل ذلك أقل شأنا من ان تخصص لهم مادة في الميثاق الوطني . وترد الملاحظة ذاتها لو اعتبرنا التاريخ المقصود هو تاريخ بداية أول نشاط مسلح لفرض الاستيطان بالقوة .

واذا اعتبرنا تارخ بداية الغزو هو تاريخ اعلان قيام دولة اسرائيل ، الذي كرس من وجهة نظر الصهاينة تاريخ سيطرتهم على وطن الشعب العربي الفلسطيني ، فان تعريف الميثاق سيصبح شاملا لمعظم اليهود من سكان اسرائيل . ولا نظن ان ذلك كان واردا في ذهن واضعيه في العام ١٩٦٨ .

وهناك في هذا التعريف نقطة اخرى غامضة : لقد نص الميثاق على اعتبار من ولد لأب عربي فلسطيني بعد ١٩٤٧ فلسطينيا ، وأغفل النص على منح هذا الحق ذاته لأبناء اليهود الفلسطينيين ، أغفل النص على ذلك من غير ان ينص على حرمانهم منه ، فظل الامر غامضا وحمال أوجه .

والنقطة الغامضة الثالثة ، التي انتقلت الى الميثاق الجديد من مثيلتها في السابق ، تتصل بتحديد مفهوم الاقامة العادية بالنسبة لليهودي ، وستبرز صعوبة فهمها ما دامت أغلبية يهود اسرائيل حتى ذلك الوقت ، وخصوصا في ذلك الوقت ، تؤيد الصهيونية وتشترك في أنشطتها السياسية والعسكرية الموجهة ضد العرب .

اننا لا نقع في شبهة الخطأ اذا قلنا ان التعريف الذي تضمنه نص المادة الجديدة يثير اشكالات أقل مما يثيره التعريف السابق ، غير ان اشكالات ما ظلت قائمة ، وعكست شيئين اثنين معا : استمرار غموض وتعقد هذه المسألة من أساسها في الفكر السياسي الفلسطيني من جهة ، والتهيب من البت بشأنها من جهة اخرى .

واذا كان استمرار غموضها نظرا لطبيعتها المعقدة أمرا يمكن تبريره ، فان التهيب من مجابهتها و البت بشأنها أمر أقل قابلية للتبرير ، خاصة بعد ان رفعت فتح شعار الدولة الفلسطينية الديمقراطية ، وصار مطلوبا تحديد اليهود المندوبين لان يكونوا شركاء للعرب في هذه الدولة .

ويمكن ان نستبق رصد التطورات اللاحقة لنقول ان ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية قد أعلن بهاتين الصفتين أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الثاني ١٩٧٤ « اننا عندما نتحدث عن آمالنا المشتركة من أجل فلسطين الغد فنحن نشمل في تطلعاتنا كل اليهود الذين يعيشون الآن في فلسطين ويقبلون العيش معنا في سلام ودون تمييز على أرض فلسطين »[٨] .

هذا الاعلان اشار الى نوايا قيادة منظمة التحرير والثورة الفلسطينية ، الا أنه لم يعط لصفة اليهودي الفلسطيني تعريفها الكامل المحدد تحديدا دقيقا من الناحية الحقوقية ، ولم

ينعكس مضمونه ، وهذا هو الاهم ، في الميثاق الوطني الفلسطيني ، أو في أي من قرارات المجالس الوطنية ، حتى بالصيغة التي أعلنها ياسر عرفات .

الكفاح المسلح والوحدة الوطنية : نصت المادة السابعة على أن « الانتماء الفلسطيني والارتباط المادي والروحي والتاريخي بفلسطين حقائق ثابتة ، وان تنشئة الفرد الفلسطيني تنشئة عربية ثورية واتخاذ كافة وسائل التوعية والتثقيف لتعريف الفلسطيني بوطنه تعريفا روحيا وماديا وتأهيله للنضال والكفاح المسلح والتضحية بماله وحياته لاسترداد وطنه حتى التحرير ، واجب قومي » .

هذه المادة تتماثل في بعض عباراتها فقط مع المادة الثامنة من الميثاق السابق . وتضيف اليها عبارات ومعاني ذات مدلولات هامة ، تعكس التطور في الفكر السياسي وفي الممارسات العملية الفلسطينية الذي تم بين العامين ١٩٦٤ و ١٩٦٨ . وهي تؤكد الانتماء الفلسطيني والارتباط المادي والروحي بفلسطين ، بوصفها حقائق ثابتة لا يمكن دحضها . وبهذا التأكيد تشير الى الدعاوى الصهيونية ، التي حاولت ان تجد صلة بين اليهود وفلسطين ، بوصفها أوهاما تقصر عن مستوى الحقائق الثابتة حول صلة العرب بفلسطين . كما أنها تؤكد على « تنشئة الفرد الفلسطيني تنشئة عربية ثورية » واضعة هذه العبارة لتحل محل العبارة التي وردت في الميثاق السابق ، والتي كان نصها : « تنشئة الجيل الفلسطيني تنشئة عربية قومية » . وقد صار التوجه اذن نحو الفرد وليس نحو الجيل باطلاقه ، وفي الفرق بين التوجهين ينعكس الفرق بين ممارسة الذين يبنون تنظيمات ويدربون أفرادها ، وممارسة الذين يخطبون أمام الكتل الجماهيرية . كما صارت التنشئة تنشئة عربية « ثورية » وليس « قومية » مما يحدد بدقة أكثر هدف التنشئة المنشودة من جهة ، ولا يحصر التوجيه بالفكر القومي وحده من جهة اخرى .

ولو تفهمنا مدلول هذا التعديل في العبارة على نحو أشمل لأمكن ان نلاحظ انها تتضمن نوعا من الاقرار بأن العقيدة القومية هي واحدة من العقائد السائدة بين الفلسطينيين ، وليست العقيدة الوحيدة . وبهذا صار من الممكن ان تستوعب العبارة الجديدة العقائد كلها من قومية ومادية ودينية ... الخ .. وقد حددت بقية عبارات المادة وسائل هذه التنشئة ، ودعت الى توفير وسائل التوعية والتثقيف والتعريف بالوطن ماديا وروحيا ، كما دعت الى توفير وسائل تهيئة الفرد للنضال وللكفاح المسلح وللتضحية بالمال والحياة من أجل تحرير فلسطين . واعتبرت ذلك كله واجبا قوميا ، وبهذا أعطت مفهوما أغنى وأوسع لواجبات منظمة التحرير في هذا المجال ، محررة النص عليها من الانشائية التي وسمت مثيله في الميثاق السابق ، ومستجيبة للظروف النضالية التي كانت قد برزت في ابان ممارسة العمل المسلح .

ونصت المادة الثامنة على ما يلي : « المرحلة التي يعيشها الشعب العربي الفلسطيني هي مرحلة الكفاح الوطني لتحرير فلسطين ، ولذلك فان التناقضات بين القوى الفلسطينية هي من نوع التناقضات الثانوية ، التي يجب أن تتوقف لصالح التناقض الاساسي فيما بين الصهيونية والاستعمار من جهة ، وبين الشعب العربي الفلسطيني من جهة ثانية ، وعلى هذا الأساس فان الجماهير الفلسطينية ، سواء من كان منها في أرض الوطن او في المهاجر ،

تشكل ، منظمات وأفراداً ، جبهة وطنية واحدة تعمل لاسترداد فلسطين وتحريرها بالكفاح المسلح » .

هذه المادة عدلت تعديلا جوهريا نص ومضمون المادة التاسعة من الميثاق السابق ، واضافت اليها ما افتقرت اليه من تحديد لطبيعة المرحلة ، ولطبيعة الوحدة الوطنية التي تستلزمها ، واسقطت منها النص المعادي للعقائدية والحزبية ووصفت المرحلة وصفا دقيقا بعبارات معاصرة ، افتقدها الميثاق السابق ، وصفتها بأنها مرحلة الكفاح الوطني لتحرير فلسطين ، وبنت على هذا الوصف الدعوة الى تنحية التناقضات الثانوية وتوظيف الجهد المشترك لمواجهة التناقض الرئيسي وبينــت ان التناقض الرئيسي هو مع الصهيونية والاستعمار ، ودعت على أساس ذلك الى جبهة وطنية تضم المنظمات والافراد، كما دعت الى انتهاج اسلوب الكفاح المسلح. فهي، اذن، لم تتسترعلى التناقضات القائمةداخل الشعب العربي الفلسطيني بعبارات انشائية وديماغوجية كما فعل الميثاق السابق ، وانما اقرت بوجودها . وهي لم تنكر وجود العقائد والمنظمات المختلفة ، كما فعل الميـثاق السابق ، بل أقرت بوجودها ايضا ، ولم تتبجح بالقول ، نيابة عن أهل فلسطين ، ان المذاهب العقائدية لا تشغلهم عن واجبهم الأول وهو التحرير ، موجهة الاتهام للعقائدية ، ولم تزعم نيابة عنهم ، ومن فوقهم ، بانهم جميعاً جبهة وطنية واحدة ، بل وضعت الامر في سياقه الصحيح وعلى ضوء الوصف الدقيق لطبيعة المرحلة ، فدعت الى ان تتشكل بارادة الافراد والمنظمات ، مع الاقرار بما بينهم من تناقضات ، جبهة وطنية تعمل في هذه المرحلة من أجل تحقيق الهدف المشترك .

هذا التحليل الذي استندت اليه المادة الجديدة ، وهذه الدعوة الى الجبهة الوطنية بالصيغة التي وردت فيها ، شكلا ، في رأينا ، في اسلوب ممارسة العمل الوطني ، واحداً من أهم تطوراته منذ مؤتمر القدس ، وعكسا الهامش المشترك بين مفاهيم التيارات التي وجدت في المجلس الوطني الرابع ، وهي تيارات فتح والعرب القوميين ، ومنهم قوميون كانوا قد ابتدأوا ينفتحون على الفكر الماركسي .

وقدمت المادة التاسعة نصا جديداً ليس له مثيل في الميثاق السابق وهو : « الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين ، وهو بذلك استراتيجية وليس تاكتيكا ، ويؤكد الشعب العربي الفلسطيني تصميمه المطلق وعزمه الثابت على متابعة الكفاح المسلح والسير قدما نحو الثورة الشعبية المسلحة لتحرير وطنه والعودة اليه ، و[على] حقه في الحياة الطبيعية فيه وممارسة حق تقرير مصيره فيه والسيادة عليه » .

ويجدر ان نتذكر ، ازاء هذه المادة ان المنظمات الفدائية التي عدل الميثاق تحت تأثيرها ، كانت قد بدأت تمارس الكفاح المسلح قبل ذلك بسنوات ، وكانت جميعها بغير استثناء ترفع شعارات تتطابق مع نص هذه المادة حول الكفاح المسلح . وكان حزب البعث العربي الاشتراكي ، وله على الساحة الفلسطينية منظمة الصاعقة الممثلة في المجلس ، يفعل الامر ذاته ، وكانت حركة القوميين العرب ، التي انبثق عنها بعد العام ١٩٦٧ تنظيم مسلح هو تنظيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، قد أسقطت تحفظها السابق تجاه العمل الفلسطيني المسلح

الذي ابتدائه فتح . وقد جاء مطلع هذه المادة يعكس هذه التطورات كافة ، في غمرة الحماس لعودة الشعب العربي الفلسطيني لحمل السلاح بعد انقطاع امتد منذ العام ١٩٤٨ ، وبعد توفر الظروف التي جعلت معظم الفرقاء العرب يهللون لهذه العودة ، ويحيطون العمل الفدائي بشعبية واسعة . تلك الشعبية التي اتسعت وترسخت خاصة لأن الفدائيين الفلسطينيين استطاعوا ان يتابعوا العمل المسلح ، بينما كانت الجيوش العربية التي انهزمت في حرب العام ١٩٦٧ تعيش حالة وقف اطلاق النار .

كما يجدر ان نتذكر أن هذه الشعبية بلغت الذروة بعد موقعة الكرامة (نيسان ١٩٦٨ أي قرابة شهر قبل انعقاد الدورة الرابعة للمجلس) ، وهي المعركة التي تصدى فيها عدد من الفدائيين الفلسطينيين لغزوة اسرائيلية استهدفت قرية الكرامة في غور الأردن الشرقي ، وأوقعوا في قواتها خسائر مادية وبشرية ملموسة . وقد ارتدت الغزوة في اليوم الذي وقعت فيه ، ولم ينجم عنها احتلال لارض جديدة . وقر في ذهن الرأي العام الفلسطيني والعربي أن الغزوة ارتدت بفضل بسالة الفدائيين الفلسطينيين في التصدي لها . وأعطيت لموقعة الكرامة أهمية استثنائية بسبب المقارنة ، التي لا بد من وقوعها ، بين نجاح العدد القليل من الفدائيين الفلسطينيين وبين هزيمة الجيوش الكبيرة قبلها باشهر .

في هذا الجو جرى تعديل الميثاق ووضع النص على أن « الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد ... » وجرى تأكيده بعبارة : « وهو بذلك استراتيجية وليس تاكتيكا » وغاب أي نص حول اشكال النضال الأخرى عن هذه المادة وعن غيرها من مواد الميثاق .

ولا شك ان لوضع عبارة الطريق الوحيد ، مقرونة بالكفاح المسلح ، أسبابا اخرى زيادة على السبب الذي ذكرناه آنفا : فقد وضعت صيغة الطريق الوحيد وجرى التشدد في وضعها في مواجهة الدعوة الى التسوية السياسية للنزاع العربي – الاسرائيلي . وهنا تجدر الاشارة الى أن مجلس الأمن الدولي كان قد صاغ بنود هذه التسوية في تشرين الأول العام ١٩٦٧ وتضمنها قراره الشهير الذي حمل الرقم ٢٤٢ . ووافقت على القرار من بين الدول العربية المعنية كل من مصر والاردن ، ورفضته سوريا ، كما رفضته منظمة التحرير . وقد دعا القرار الى تحقيق تسوية سياسية بالوسائل السلمية تقوم على أساس انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها قواتها العسكرية في حزيران العام ١٩٦٧ والبحث عن حل عادل لمشكلة اللاجئين ، على ان تعترف الدول العربية باسرائيل وبحقها في حدود آمنة (٩) . وهكذا صار شعار « الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد ... » يعني ، في جوهره ، رفض بنود هذه التسوية ، بما تدعو اليه من اعتراف باسرائيل ، ويعني في الوقت نفسه الدعوة الى استئناف الحرب لاسترداد الأراضي المغتصبة ، كما صار يعني على الجانب الفلسطيني الصرف التمسك بمطلب تحرير فلسطين بكاملها في وجه ما بدا من استعداد بعض الدول العربية للاعتراف باسرائيل ، وصار تجنب الحديث عن أشكال النضال الاخرى مقصودا لتجنب الوقوع في شبهة الموافقة على التسوية السياسية التي حدد أسسها القرار ٢٤٢ ، وان ظل يعكس استهانة القائمين بالكفاح المسلح بجدوى هذه الأشكال . ومن المدهش ان المنظمات الفدائية التي انبثقت عن احزاب ومنظمات

سياسية ، شاركت في اظهار هذه الاستهانة ، وكانت في أحوال عديدة أشد تشدداً من فتح في هذا المجال .

واذا كنا نحاول أن نقدم تفسيراً للظروف التي أملت التشدد في لصق صفة الوحيد بالكفاح المسلح ، بما هو وصف غير دقيق وبما ينطوي عليه من استهانة باشكال النضال الاخرى لا يبررها واقع النضال ومتطلباته ، فهذا لا يعني ان الموقف المتشدد قد حظي بموافقة فلسطينية اجماعية خارج المجلس الوطني ، كما كان الحال داخله . كل ما في الامر انه كان شعارا غالبا املته ظروف طاغية ، والقوى التي تشددت في رفعه ذاتها لم تلبث ان خففت من تشددها تحت تأثير الممارسة العملية لاشكال النضال الاخرى .

وفيما عدا حكاية الطريق الوحيد هذه ، فقد تحددت في المادة (التاسعة) بصورة اجلى مطالب الحركة الوطنية الفلسطينية : تحرير الوطن والعودة اليه ، وممارسة حق تقرير المصير فيه والسيادة عليه .

وهكذا نص الميثاق الجديد صراحة على الكفاح من أجل تحقيق حق الشعب العربي الفلسطيني في السيادة على وطنه ، وهو نص غاب عن الميثاق السابق . وبتحديد هذا المطلب على نحو واضح خطت منظمة التحرير خطوة اخرى نحو صياغة مطلب السلطة الوطنية والدولة المستقلة . وفي هذه المادة جاء مطلب السيادة محددا بسيادة الشعب العربي الفلسطيني على وطنه ، وليس غائما كما كان شأنه حين ورد مرة واحدة في المادة السادسة عشرة من الميثاق السابق من غير ان تقترن السيادة بالوطن الفلسطيني حصرا .

ونصت المادة العاشرة ، وهي جديدة كلية ، على أن « العمل الفدائي يشكل نواة حرب التحرير الشعبية الفلسطينية ، وهذا يقتضي تصعيده وشموله وحمايته وتعبئة كافة الطاقات الجماهيرية والعلمية الفلسطينية وتنظيمهاواشراكها في الثورة الفلسطينية المسلحة وتحقيق التلاحم النضالي الوطني بين مختلف فئات الشعب الفلسطيني وبينها وبين الجماهير العربية ، ضمانا لاستمرار الثورة وتصاعدها » . وأهمية هذه المادة ، بالاضافة لانها تصور الفكر السائد تصويرا دقيقا ، تأتي من انها لم تنجر الى المبالغة ، التي كانت رائجة ، في تقييم حجم ودور العمل الفدائي في الحدود التي وصل اليها حتى ذلك الوقت . فقد اعتبرته « نواة » لحرب التحرير الشعبية المنشودة ، وليس الحرب ذاتها ، ودعت بالتالي الى مزيد من الجهود على الساحتين الفلسطينية والعربية لكي يصبح كذلك ، أي لكي يصل العمل الفدائي الى مستوى حرب التحرير الشعبية الشاملة : وبهذا ظهر قادة العمل الفدائي ، الذين وضعوا الميثاق الجديد ، أكثر تواضعا من الجهات التي اعلنت ، نيابة عنهم ، ان حرب التحرير الشعبية قد ابتدات بالفعل ، وحملتهم ، بتقديسها المبالغ به للعمل الفدائي ، ما لم يدعوا أنهم يحملونه أو يطيقونه من أعباء .

ونصت المادة الحادية عشرة ، كما فعلت مثيلتها العاشرة في الميثاق السابق ، على أن « يكون للفلسطينيين ثلاثة شعارات : الوحدة الوطنية ، والتعبئة القومية ، والتحرير » . وهذا هو نصها كله . وقد غابت عنه اذن العبارات التي وردت في مثيلتها في السابق وهي : « وبعد ان يتم تحرير الوطن يختار الشعب الفلسطيني لحياته العامة ما يشاء من النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية » . بما يشتمل عليه هذا النص الذي غاب عن استهانة بالتوجهات

الراهنة التي تحدد نوع ذلك الاختيار .

فلسطين والعرب : جاء نص المادة الثانية عشرة مطابقا لنص مثيلتها المادة الحادية عشرة في السابق ، بغير زيادة أو نقصان ، على النحو التالي : « الشعب العربي الفلسطيني يؤمن بالوحدة العربية . ولكي يؤدي دوره في تحقيقها يجب عليه ، في هذه المرحلة من كفاحه الوطني ، ان يحافظ على شخصيته الفلسطينية ومقوماتها ، وان ينمي الوعي بوجودها وان يناهض أيا من المشروعات التي من شأنها اذابتها أو اضعافها » .

وكذلك جاء نص المادة الثالثة عشرة مطابقا لنص مثيلتها الثانية عشرة في السابق . وقرر أن « الوحدة العربية وتحرير فلسطين هدفان متكاملان يهيىء الواحد منهما تحقيق الاخر : فالوحدة العربية تؤدي الى تحرير فلسطين وتحرير فلسطين يؤدي الى الوحدة العربية ، والعمل لهما يسير جنبا الى جنب » . وأكدت اعادة المادة على هذا النحو انطفاء حدة الجدل التي كانت قائمة حول علاقة الوحدة بالتحرير وأسبقية اي منهما .

وكذلك تطابق نص المادة الرابعة عشرة مع مثيلتها الثالثة عشرة في السابق . وظل على هذا النحو : « مصير الامة العربية ، بل الوجود العربي بذاته رهن بمصير القضية الفلسطينية . ومن هذا الترابط ينطلق سعي الأمة العربية وجهدها لتحرير فلسطين ، ويقوم شعب فلسطين بدوره الطليعي لتحقيق هذا الهدف القومي المقدس » . وظلت في الميثاق الجديد ، اذن ، تلك الفكرة المخطئة والمهولة ، التي ترهن مصير الأمة العربية بأسره بل وجودها ذاته بمصير قضية من قضاياها .

وجاءت المادة الخامسة عشرة تعديلا لمثيلتها الرابعة عشرة . وادخلت هنا تعديلات جوهرية ذات مغزى واضح في الدلالة على فهم جديد لدور الشعب الفلسطيني ولدور الأمة العربية في تحرير فلسطين . فالمادة كما كانت في الميثاق السابق تضمنت في مطلعها النص على أن « تحرير فلسطين من ناحية عربية هو واجب قومي تقع مسؤوليته كاملة على الامة العربية ، شعوبا وحكومات ، وفي طليعتها الشعب العربي الفلسطيني...» وقد أضيفت لهذا المطلع في الميثاق الجديد عبارة جعلته على النحو التالي : « هو واجب قومي **لرد الغزوة الصهيونية والامبريالية عن الوطن العربي الكبير ولتصفية الوجود الصهيوني في فلسطين** * تقع مسؤوليته... ». وبهذه الاضافة اتضح بصورة أجلى لماذا صار التحرير واجبا عربيا عاما ، وليس فلسطينيا فحسب ! اذ اقترنت عروبة الواجب بربطه بالخطر الصهيوني الذي يتهدد البلاد العربية الأخرى وليس فلسطين وحدها .

لا شك ان نتائج حرب حزيران ١٩٦٧ ، التي صيغ الميثاق الجديد في ظلها ، ساعدت على تثبيت وجود هذا الخطر في الاذهان ، بعد ان استطاعت اسرائيل ان تغزو وتحتل أراضي دول عربية أخرى . وكانت بقية النص في المادة السابقة على النحو التالي : « ومن أجل ذلك فان على الامة العربية ان تعبىء جميع طاقاتها العسكرية والمادية والروحية في سبيل تحرير فلسطين » . أما في المادة الجديدة فقد اضيفت كلمة « **البشرية** » الى الطاقات المطلوب تعبئتها ، واضيفت

* وضعنا خطوط التشديد لابراز الكلمات المضافة .

بعد تعداد هذه الطاقات عبارة « **للمساهمة مساهمة فعالة مع الشعب الفلسطيني في تحرير وطنه** » . وفي ختام المادة السابقة ورد النص التالي : « وعليها بصورة خاصة ان تبذل للشعب العربي الفلسطيني العون والتأييد وتوفر له الوسائل والفرص الكفيلة بتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه » . بينما صار النص بما اضيف اليه في المادة الجديدة على النحو التالي : « وعليها بصورة خاصة **في مرحلة الثورة الفلسطينية المسلحة القائمة الآن** ان تبذل **وتقدم** للشعب الفلسطيني **كل** العون **وكل** التأييد ، **المادي والبشري** وتوفر له **كل** الوسائل والفرص الكفيلة بتمكينه **من الاستمرار** للقيام بدوره **الطليعي في متابعة ثورته المسلحة حتى التحرير** » . وبهذا التعديل تحددت المساهمة المطلوبة من الامة العربية في توفير ما يهيىء للشعب الفلسطيني ان يواصل ثورته المسلحة ، التي شرع فيها بالفعل ، وان يطورها ، وجرى التشدد في مطالبتها بذلك ، الامر الذي عبرت عنه اضافة كلمة « كل » ثلاث مرات .

النواحي الروحية والانسانية: وجاء نص المادة السادسة عشرة متطابقا تماما مع نص مثيلتها في الميثاق السابق المادة الخامسة عشرة : « تحرير فلسطين من ناحية روحية يهيىء للبلاد المقدسة جوا من الطمأنينة والسكينة ، تصان في ظلاله جميع المقدسات الدينية ، وتكفل حرية العبادة والزيارة للجميع من غير تفريق ولا تمييز ، سواء على أساس العنصر أو اللون أو اللغة أو الدين ، ومن أجل ذلك فان أهل فلسطين يتطلعون الى نصرة جميع القوى الروحية في العالم » . وظل على هذا الاساس مفهوم القوى الروحية محصوراً بالدينية ، ولم يقدم الميثاق الجديد ، شأنه في ذلك شأن سابقه ، أية اشارة توحي بأن القوى الدينية لا يمكن ان تؤيد كلها أهداف الشعب العربي الفلسطيني الوطنية .

واضيفت في هذا السياق مادة جديدة كلية هي المادة السابعة عشرة ، وحددت بين دوافع التحرير دافعا جديداً هو الانساني ، وهذا نصها : « تحرير فلسطين ، من ناحية انسانية ، يعيد الى الانسان الفلسطيني كرامته وعزته وحريته ، كذلك فان الشعب العربي الفلسطيني يتطلع الى دعم المؤمنين بكرامة الانسان وحريته في العالم » . وهي المادة الوحيدة في الميثاق الجديد التي تحمل بصمات سافرة من آثار مرحلة « البكائية » في النظرة الى قضية فلسطين . فالنص على ان « تحرير فلسطين من الناحية الانسانية يعيد الى الانسان الفلسطيني كرامته وعزته ... » ينطوي على اقرار بأن الانسان الفلسطيني سيظل حتّى التحرير بغير عزة ولا كرامة ، وهذا حكم خاطىء لا يحتاج البرهان على خطئه الى نقاش طويل أو قصير، ولا ندري كيف اقحمت هذه الفكرة المتفجعة في الميثاق، اذ لم يجد الكاتب بين من قابلهم من يتذكر لماذا اضيفت اليه . انما يمكن الاستنتاج انها اضيفت بعد المادة التي صاغت التطلع الى دعم القوى الدينية ، لتصوغ التطلع الى دعم « المؤمنين بكرامة الانسان وحريته في العالم » من غير المتدينين .

الناحية الدولية : اما المادة الثامنة عشرة فقد تماثلت مع المادة السادسة عشرة في السابق ، واختلفت عنها باسقاط عبارة واحدة منها ؛ اذ نص مطلع المادة السابقة على أن « تحرير فلسطين من ناحية دولية هو عمل دفاعي تقتضيه ظروف الدفاع عن النفس كما نص عليه ميثاق الامم المتحدة » ، بينما سقطت من المادة الجديدة عبارة : « كما نص عليه ميثاق

الامم المتحدة » . وبذلك ارتبط التحرير بحق الدفاع عن النفس بما هو حق طبيعي معترف به ، وليس بما هو حق منصوص عليه في ميثاق الامم المتحدة فحسب ، وصارت المادة كلها على النحو التالي : « تحرير فلسطين من ناحية دولية هو عمل تقتضيه ضرورات الدفاع عن النفس ، من أجل ذلك فان الشعب الفلسطيني الراغب في مصادقة جميع الشعوب يتطلع الى تأييد الدول المحبة للحرية والعدل والسلام ، لاعادة الاوضاع الشرعية الى فلسطين واقرار الامن والسلام في ربوعها وتمكين أهلها من ممارسة السيادة الوطنية والحرية القومية » . وظل نص هذه المادة بعد تعديله يحمل ذلك العيب الذي حمله النص السابق ، وهو اجتزاء الحديث عن الناحية الدولية بمفهوم واحد جامد هو واجب الدول في تأييد حق الدفاع عن النفس ، وغياب أية اشارة للكتل والاتجاهات الدولية وللعوامل التي تحدد مواقفها مع او ضد هذا الحق أو ذاك .

رفض التقسيم وتصريح بلفور : وجاء نص المادة التاسعة عشرة متطابقا مع نص المادة السابعة عشرة في الميثاق السابق بلا زيادة أو نقصان ، وهذا هو نصها : « تقسيم فلسطين الذي جرى عام ١٩٤٧ وقيام اسرائيل باطل من أساسه مهما طال عليه الزمن ، لمغايرته لارادة الشعب الفلسطيني وحقه الطبيعي في وطنه ، ومناقضته للمبادىء التي نص عليها ميثاق الامم المتحدة وفي مقدمتها حق تقرير المصير » . وبهذا التطابق ظل الموقف من قرار التقسيم على حاله كما ابتدأ منذ صدور قرار التقسيم في العام ١٩٤٧ . واذا كان من شأننا ان نعرف ان مزيدا من الاصوات كان قد ارتفع منذ حرب العام ١٩٦٧ لينتقد الموقف الجامد السابق من قرار التقسيم ، في سياق الدعوة الى وضع أهداف مرحلية للكفاح الوطني الفلسطيني ، فان أقل تلك الأصوات المنتقدة هو الذي صاغ انتقاداته مكتوبة . وهذه الانتقادات لم تنعكس على أية حال لا في مناقشات لجنة الميثاق ولا في قرارات المجلس الوطني .

وتطابق أيضا نص المادة العشرين مع مثيله نص المادة الثامنة عشرة مع فارق بسيط هو ان النص الجديد سمى « تصريح بلفور » ما سماه النص السابق « وعد بلفور » . وهذا هو النص الجديد : « يعتبر باطلا كل من تصريح بلفور وصك الانتداب وما ترتب عليهما . وان دعوات الروابط التاريخية أو الروحية بين اليهود وفلسطين لا تتفق مع حقائق التاريخ ولا مع مقومات الدولة في مفهومها الصحيح ، وان اليهودية بوصفها دينا سماويا ، ليست قومية ذات وجود مستقل ، وكذلك فان اليهود ليسوا شعبا واحدا له شخصيته المستقلة ، وانما هم مواطنون في الدول التي ينتمون اليها » .

وهنا ظل الميثاق الجديد يحمل في هذه المادة خطأ المضاهاة بين الروابط التاريخية الموهومة بالفعل ، وبين الروابط الدينية التي ما زال بعضها قائما والتي جرى الاقرار بها ضمنا في الميثاق الوطني ذاته في مادته السادسة عشرة . وظل يحمل خطأ المضاهاة أيضا بين اتباع الديانة اليهودية ممن يعيشون في فلسطين وفي دول العالم الاخرى .

رفض التصفية والحل : بعد تثبيت ما أكده الميثاق السابق من رفض لوعد بلفور وللتقسيم ولما ترتب عليهما ، اضيفت الى الميثاق الجديد مادة جديدة هي المادة الحادية والعشرون ، وهذا نصها : « الشعب العربي الفلسطيني ، معبراً عن ذاته بالثورة الفلسطينية المسلحة ، يرفض كل الحلول البديلة عن تحرير فلسطين تحريراً كاملا ، ويرفض كل المشاريع

الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية أو تدويلها » . وهو نص يلخص وجهة نظر القوى التي وضعت الميثاق ازاء الظروف التي استجدت منذ حرب العام ١٩٦٧ ، فيرفض التسوية السلمية التي كان يجري الترويج لها على أساس تطبيق قرار مجلس الامن الدولي ذي الرقم ٢٤٢ ، بما يشتمل عليه خاصة من اعتراف عربي باسرائيل ، ويقرر وزن ودور الثورة الفلسطينية المسلحة بما هي تعبير عن ذات الشعب العربي الفلسطيني ، ويؤكد التمسك بهدف تحرير فلسطين تحريراً كاملا بما هو نقيض لوجود اسرائيل ، من جهة ، ونقيض لدعوة التسوية السلمية من جهة اخرى ، ويتزود في هذا الاتجاه فيرفض « كل المشاريع الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية أو تدويلها » ما هو منها موجود وما يمكن أن يوجد .

حول هذا الرفض كانت تلتقي في ذلك الوقت ، وبغير أيما تردد ، القوى الفلسطينية الممثلة في المجلس الوطني كافة . ومن بين القوى الفلسطينية عموما لم يتخذ موقفا ايجابيا من مساعي التسوية السلمية سوى الشيوعيين الذين لم يكونوا ، آنذاك ، ممثلين في المجلس الوطني أو في أي من مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية الاخرى . وهنا تستوقفنا عبارة « يرفض كل المشاريع الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية أو تدويلها » .

ان جذور الرفض عميقة في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية برمته . وتعبير الرفض نستخدمه هنا بما هو وصف لموقف ، لحالة ، لنهج في العمل ، من غير ان يتضمن أي حكم سياسي أو أخلاقي . والعبارة التي أشرنا اليها « كل المشاريع الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية » ورفض المشاريع المشار اليها باطلاقها ، تعطي مظهرا نموذجياً لحالة الرفض .

منطقيا : قضية فلسطين لا بد ان تصفى ذات يوم : فهي لن تظل قائمة ومحتدمة الى الأبد . وهناك قوى عديدة تعمل من أجل تصفيتها ، قوى يقف في قطبيها الشعب الفلسطيني ، من جهة ، والحركة الصهيونية ، من الجهة المقابلة . ولا شك ان كل قوة تعمل كي تتم التصفية لصالحها . وهنا تتقيم المواقف والاتجاهات : مصداقيتها وعدالتها ومشروعيتها وفق الاتجاه الذي تسير فيه الجهود نحو التصفية، الحقة والعادلة والتي تنسجم مع الشرعية القائمة على العدل ، أو العدوانية التوسعية التي تكرس الاغتصاب . وعلى هذا الاساس فان لمنظمة التحرير ، بمعنى من المعاني ، مشروعها لتصفية القضية الفلسطينية ، وان للصهيونية مشروعها ايضا . وبينهما على هذا الجانب أو ذاك عشرات القوى لها مشاريعها المتناقضة أو المختلفة أو المتماثلة . أما النص في الميثاق الوطني على رفض كل المشاريع الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية ، هكذا باطلاقها ، فهو المظهر الصارخ لحالة الرفض الفلسطيني ، بما هو موقف ومنهج في التفكير والممارسة سلبيان . ولا نظن ان في الدوافع التي املت وضع هذه المادة ومثيلاتها في الميثاق أي رغبة معلنة في أن تستمر قضية فلسطين قائمة ومحتدمة الى أبد الآبدين .

على غرار ذلك يمكن تقييم ما اعتادت الادبيات الفلسطينية أن ترده الى وقت قريب حول رفض حل القضية الفلسطينية ، الحل باطلاقه ، وليس طبقا لمضمونه .

ويزعم الكاتب ، الذي عني بهذه النقطة وبمتابعتها في الفكر والمواقف السياسية الفلسطينية لعدة سنوات ، ان الرفض بما هو حالة سلبية في تاريخ الحركة الوطنية

الفلسطينية ، قد انضافت الى أسبابه التي كانت قائمة ولها مبرراتها ، أسباب جديدة بعد بروز الثورة الفلسطينية المسلحة وبروز الوزن الخاص لفلسطينيي المهاجر ، الذي استند اليها . فالكثير من الناس الفلسطينيين والكتل الفلسطينية ، توفرت لهم ولها ، في ظل بروز الثورة المسلحة والاهتمام العربي والعالمي الواسع بها ، مصالح ارتبط وجودها ونماؤها ودوامها ، في أذهانهم ، باستمرار قضية فلسطين بغير حل . ويمكن ان نراقب مظهرا واحداً ، واحداً فقط ، من مظاهر هذه الحالة لتاكيد هذا الرأي:اذ من المعروف ان عدد الذين يمكن ان يعدوا نجوما في المجالات السياسية والثقافية والفنية والعسكرية وحتى الاقتصادية من بين الفلسطينيين قد أصبح في ظل الثورة المسلحة يفوق المألوف . وكثير من هؤلاء حصلوا على صفة النجوم وامتيازاتها على امتداد الوطن العربي ، وأحيانا على امتداد العالم ، لان لهم صلة بقضية فلسطين ، ولانها قضية من القضايا التي تثير اوسع الاهتمام ، ولاسباب اخرى عديدة من هذا القبيل ، وليس لأنهم يتمتعون بمواهب خارقة لا يتمتع بمثلها مصريون أو عراقيون ، أو جزائريون أو يمنيون ليست لهم صلة مباشرة بقضية فلسطين . فلو حلت هذه القضية بأي شكل من الأشكال ، ولو حلت بصفة خاصة لمصلحة شعبها وحقوقه الوطنية ، فان الاهتمام بها سيتضاءل بعد الحل ، وسيأخذ الشعب الفلسطيني ، الذي سيصير مطالبا بالانصراف لبناء حياته العادية ، حجمه كشعب صغير في هذا العالم ، ولن يصبح من بين أبنائه نجما الا من يستحق ذلك بكفاءته الخاصة ومواهبه الخارقة .

وقد أثبت المجرى اللاحق للأحداث أن هذه الحالة « الانتفاخية » ان صح التعبير توجد أكثر ما توجد بين الفلسطينيين الذين يعيشون خارج وطنهم ، ولذا صار من الملحوظ ان الفلسطينيين الذين ظلوا في وطنهم تحت السيطرة المباشرة للاحتلال هم الاقرب الى دعم البرامج الايجابية ، بما تشتمل عليه من صلابة ومثابرة في التصدي للاحتلال من جهة ومن تأييد للمطالب والخطط التي تسعى لتحقيق انجازات ملموسة على طريق المسيرة الوطنية ، من الجبهة الأخرى(١٠) .

لقدعكس الموقف المعبرعنه في المادة الحادية والعشرين التي نحن بصدد مناقشتها موقف الرفض الفلسطيني التقليدي الممتد عبر سنوات سابقة.وحتى بالنسبة للذين دفعتهم تجربتهم فيما بعد الى التمييز بين أنواع الحلول والمشاريع وتقييمها طبقا لاتجاهاتها ومضامينها وظروف طرحها ، حتى بالنسبة لهؤلاء ، كان موقفهم في العام ١٩٦٨ خالي الذهن من امكانية مرحلة الاهداف الوطنية ،وينطبقهذا أيضا على فتح التي كانت صاحبة أكبر تأثير في صياغة الميثاق الوطني (١١) .

الصهيونية والدعم الدولي : قدمت المادة الثانية والعشرون ، مضاهية مثيلتها في السابق المادة التاسعة عشرة ، تعريف الميثاق الوطني للحركة الصهيونية . واذا كان التعريف الذي قدمه الميثاق السابق تعريفا جيداً ، فقد جاء التعريف الجديد أوفى واشمل واكثر دقة . وتمكن ملاحظة ذلك من مقارنة النصين :

قال نص المادة التاسعة عشرة في الميثاق السابق : « الصهيونية حركة استعمارية في نشوئها ، عدوانية وتوسعية في أهدافها ، عنصرية تعصبية في تكوينها ، وفاشستية بمراميها

ووسائلها . وان اسرائيل بوصفها طليعة هذه الحركة الهدامة وركيزة للاستعمار مصدر دائم للقلق والاضطراب في الشرق الاوسط خاصة وللاسرة الدولية بصورة عامة . ومن أجل ذلك فان أهل فلسطين جديرون بعون الاسرة الدولية وتأييدها » .

وقال نص المادة الثانية والعشرين في الميثاق الجديد : « الصهيونية حركة سياسية مرتبطة ارتباطا عضويا بالامبريالية العالمية ومعادية لجميع حركات التحرر والتقدم في العالم ، وهي حركة عنصرية تعصبية في تكوينها عدوانية استيطانية في أهدافها ، وفاشية نازية في وسائلها ، وان اسرائيل هي أداة الحركة الصهيونية وقاعدة بشرية جغرافية للامبريالية العالمية ونقطة ارتكاز ووثوب لها في قلب الوطن العربي لضرب اماني الامة العربية في التحرر والوحدة والتقدم . إن اسرائيل مصدر دائم لتهديد السلام في الشرق الاوسط والعالم أجمع ، ولما كان تحرير فلسطين يقضي على الوجود الصهيوني والامبريالي فيها ،ويؤدي الى استتباب السلام في الشرق الأوسط ، لذلك فان الشعب الفلسطيني يتطلع الى نصرة جميع أحرار العالم وقوى الخير والتقدم والسلام فيه ، ويناشدهم جميعا ، على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، تقديم كل عون وتأييد له في نضاله العادل المشروع لتحرير وطنه » .

هذه الاضافات أبرزت الدور المعادي للتقدم العربي الذي تلعبه الحركة الصهيونية واسرائيل ، مشيرة ، على نحو ما ، الى التكوين الاجتماعي للحركة الصهيونية ، وان اتت الاشارة عامة للغاية ، مؤكدة بجلاء وبأكثر مما فعل الميثاق السابق ، الصلة بينها وبين الامبريالية العالمية . كما أبرزت دور اسرائيل في مواجهة الطموحات القومية العربية ، رابطة بين حصول الشعب الفلسطيني على مطالبه الوطنية وبين الرغبة في احلال السلام في الشرق الأوسط ، وتوجهت الى العالم ، ليس باطلاقه كما فعلت المادة المماثلة في الميثاق السابق ، وانما من زاوية نظر جديدة تشمل ضمنا التمييز بين من تربطهم مصالحهم بالمصالح الوطنية الفلسطينية وهم « جميع أحرار العالم وقوى الخير والتقدم والسلام فيه » وبين غيرهم . وناشدتهم تقديم كل عون وتأييد للشعب الفلسطيني في كفاحه العادل المشروع ، وذلك « لان تحرير فلسطين يقضي على الوجود الصهيوني والامبريالي فيها ، ويؤدي الى استتباب السلام في الشرق الأوسط ». أي أنها ربطت بصورة متبادلة بين العون المطلوب من قوى الخير والتقدم والسلام لكفاح الشعب الفلسطيني وبين المهمات التي يتصدى لها هذا الكفاح ، مما يندرج في سياق مهمات هذه القوى المطلوب عونها . وهكذا فان الميثاق الجديد لم ينشد العون من الأسرة الدولية وانما من القوى المرشحة لتقديمه ، مع اقراره بما بينها من اختلاف في الميول والاتجاهات ، وبهذا قدم صورة متطورة واكثر تطابقا مع واقع الحياة الدولية وطبيعة واتجاه الكفاح الوطني الفلسطيني ، وكشف بالتالي عن فهم أعمق لهذا كله .

ثم ان الاضافات ثبتت نقطة جديدة هامة ، وهي ان هدف الكفاح الفلسطيني هو القضاء على الوجود الصهيوني والامبريالي في فلسطين ، واضعة كليهما على مستوى واحد ، ومظهرة ان ذلك الكفاح لا يستهدف القضاء على اليهود الموجودين في فلسطين أو في هذا الوجود الصهيوني أي في اسرائيل . ومع ان الهدف ظل كما كان في الميثاق السابق هو تحرير فلسطين ، فان الايضاح الذي قدمته هذه المادة تضمن الرد الفلسطيني على ما تقوله المصادر الاسرائيلية حين

تتهم الفلسطينيين بأنهم يريدون القضاء على اليهود من سكان اسرائيل ، وتدرج حركتهم الوطنية في عداد الحركات المناهضة للسامية . بل ان الميثاق الذي تحدث عن القضاء على الوجود الصهيوني في فلسطين لم ينص على القضاء على اسرائيل ذاتها ، وانما اكتفى ،ومعذرة من التكرار ، بالنص على ان تحرير فلسطين هدفه القضاء « على الوجود الصهيوني والامبريالي فيها » .

بعد هذا ، جاءت المادة الثالثة والعشرون متطابقة مع مثيلتها في السابق تطابقا كاملا وهذا نصها : « دواعي الامن والسلم ومقتضيات الحق والعدل تتطلب من الدول جميعها ، حفظا لعلاقات الصداقة بين الشعوب واستبقاء لولاء المواطنين لاوطانهم ، ان تعتبر الصهيونية حركة غير مشروعة وتحرم وجودها » .

وتطابق مطلع المادة الرابعة والعشرين مع نص مثيلتها الحادية والعشرين في الميثاق السابق وهذا نصه : « يؤمن الشعب العربي الفلسطيني بمبادىء العدل والحرية والسيادة وتقرير المصير والكرامة الانسانية وحق الشعوب في ممارستها » . أما النص الذي ورد بعد هذا في المادة السابقة وهو : « ويؤيد جميع المساعي الدولية التي تهدف الى اقرار السلم على أساس الحق والتعاون الدولي الحر»، فقد اسقط بكامله من المادة الجديدة . حدث ذلك على الرغم من أن النص الذي اسقط لم يتحدث عن المساعي الدولية التي تستهدف اقرار السلم في فلسطين والشرق الاوسط ، اذ لو انه فعل ذلك لصار مفهوما لماذا سقط في ظل الرفض الشامل للحل السلمي لقضية الشرق الأوسط . ولعله اسقط بسبب التأثيرات الماوية التي كانت ملموسة آنذاك على الفكر الفلسطيني في هذه المسألة بالذات ، أو أنه اسقط تزودا في التحوط ضد اعطاء خلق الانطباع بأن واضعي الميثاق قد يؤيدون أيضا المساعي الدولية المبذولة آنذاك لاقرار السلام في الشرق الأوسط على أساس بنود القرار ٢٤٢ ، أو للسببين كليهما .

دور منظمة التحرير : وتطابق القسم الأول من نص المادة الخامسة والعشرين في الجديد مع مثيلتها الثالثة والعشرين في السابق : « تحقيقاً لأهداف هذا الميثاق ومبادئه تقوم منظمة التحرير الفلسطينية بدورها الكامل في تحرير فلسطين » . واسقطت من المادة الجديدة عبارة « وفق النظام الاساسي لهذه المنظمة » التي وردت في السابقة ، والتي ليس لها لزوم كبير ، ما دامت هناك مادة خاصة في الميثاق حول النظام الاساسي .

وحلت المادة السادسة والعشرون محل مثيلتها الخامسة والعشرين في السابق . وقد نصت المادة السابقة على ما يلي : « تكون هذه المنظمة مسؤولة عن حركة الشعب الفلسطيني في نضاله من أجل تحرير وطنه في جميع الميادين التحريرية والتنظيمية والسياسية والمالية وسائر ما تتطلبه قضية فلسطين على الصعيدين العربي والدولي » .

ونصت بصيغتها الجديدة على ما يلي : « منظمة التحرير الفلسطينية **الممثلة لقوى الثورة الفلسطينية** مسؤولة عن حركة الشعب العربي الفلسطيني في نضاله من أجل **استرداد** وطنه وتحريره **والعودة اليه وممارسة حق تقرير المصير فيه** ، في جميع الميادين **العسكرية** والسياسية والمالية وسائر ما تتطلبه قضية فلسطين على الصعيدين العربي والدولي » . وقد ثبتت الاضافات ، التي ميزناها بخطوط التشديد معاني جديدة هامة ، عكست ، هي

الاخرى ، التطورات التي استجدت على الساحة الفلسطينية والعربية ، وأولها ان منظمة التحرير هي الممثل لقوى الثورة الفلسطينية بما يشتمل عليه هذا القول من تثبيت لشرعية الثورة ، ومن اقرار بشرعية وجود القوى الفلسطينية ، ومن تأكيد لكون المنظمة هي الممثلة لها جميعا : وثانيها تثبيت ارتباط حقوق العودة وتقرير المصير بالتحرير : وثالثها تثبيت مسؤولية المنظمة وحدها عن حركة الشعب الفلسطيني في اتجاه هذه الحقوق في كافة الميادين ، بما فيها الميدان العسكري أيضاً .

ان النص على ان المنظمة هي الممثلة لقوى الثورة الفلسطينية قد ثبت موقفا متقدما في النظرة الى المنظمة ، بل مكسبا انتزعته الثورة الفلسطينية بالفعل منذ هيمنت قواها على مؤسسات المنظمة . الا ان النص بالصيغة التي ورد فيها في الميثاق الوطني صار فيما بعد قاصراً عن استيعاب موقف لاحق او مكسب لاحق ، تم تأكيده في قرارات عربية ودولية ، هو موقف الاقرار بأن المنظمة هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني بأسره ، وليس لقوى الثورة الفلسطينية وحدها .

وتماثل جزء من المادة السابعة والعشرين مع مثيله في المادة السادسة والعشرين من الميثاق السابق . هذا الجزء هو : « تتعاون منظمة التحرير الفلسطينية مع جميع الدول العربية كل حسب امكانيتها » . ثم اختلفت المادتان بعد ذلك اختلافا جوهريا . فقد اضيف الى المادة في صيغتها الجديدة : « وتلتزم بالحياد فيما بينهما ، في ضوء مستلزمات معركة التحرير وعلى أساس ذلك»، وعادت المادتان متماثلتا في ختامهما بنص واحد : « ولا تتدخل في الشؤون الداخلية لاية دولة عربية » .

واضيفت مادة جديدة كلية هي المادة الثامنة والعشرون وهذا نصها : « يؤكد الشعب العربي الفلسطيني أصالة ثورته الوطنية واستقلاليتها ، ويرفض كل أنواع التدخل والوصاية والتبعية » .

واضيفت مادة جديدة اخرى هي التاسعة والعشرون ونصها : « الشعب العربي الفلسطيني هو صاحب الحق الأول والأصيل في تحرير واسترداد وطنه ، ويحدد موقفه من كافة الدول والقوى على أساس مواقفها من قضيته ومدى دعمها له في ثورته لتحقيق أهدافه » .

في هذه الاضافات الثلاث انعكست أيضا حصيلة التطور في ميزان القوى وفي الظروف والمواقف على الساحتين الفلسطينية والعربية ، ما بين انشاء منظمة التحرير ووصول حملة البنادق الى قيادتها مروراً بحرب حزيران ١٩٦٧ وتأثيراتها . ففيها أكد الميثاق الجديد التزام الحياد في خلافات الدول العربية فيما بينها ، وقيده « في ضوء مستلزمات معركة التحرير وعلى أساس ذلك » . وعاد الميثاق الجديد فثبت مبدأ عدم تدخل المنظمة في الشؤون الداخلية للدول العربية ، الا انه وضع المبدأ الذي يقابله ، الذي غاب عن الميثاق السابق ، وهو رفض الشعب العربي الفلسطيني لكل انواع التدخل والوصاية والتبعية . وفيها أكد الميثاق ان الشعب الفلسطيني هو صاحب الحق « الأول والأصيل » في استرداد وطنه . وهو تأكيد له معناه الشامل في عملية التحرر كلها ، وله ايضا معناه الخاص المتصل بالموقف من مطالبة الاردن بالسيادة على الضفة الغربية . وفي الرد على وجهات نظر بعض العـرب القوميين ممن شغلتهم

مسألة عروبة الضفة الغربية ولم يشغلهم الاهتمام بتحديد الاجابة على السؤال الذي طرح بعد بروز العمل الفلسطيني المسلح : حول مستقبل الضفة ولمن ستكون السيادة عليها(١٢) .

وهكذا جاء النص المضاف معززا لاتجاه -لاستقلال الفلسطيني بوجهيه : استقلال العمل الوطني الفلسطيني معبراً عنه بمنظمة التحرير والاستقلال الوطني للشعب العربي الفلسطيني .

وثبتت الاضافات مبدأ آخر هاما وهو ان الشعب العربي الفلسطيني يحدد موقفه من كافة الدول والقوى على أساس مواقفها من قضيته ومدى دعمها له في ثورته لتحقيق أهدافه . وهو واحد من المبادىء التي حكمت سلوك فتح على وجه الخصوص وجرى تثبيته في الميثاق الوطني .

واذا كان مضمون هذا المبدأ مما توافق عليه القوى الوطنية الفلسطينية كافة ،فان آراءهـا تتفاوت وتتعارض أحيانا في اسلوب ممارسته . وقد تجلت أخص الفروق عند تطبيقه في الممارسة ، حيث اعتادت فتح ان تعتبر الموقف منها موقفا من الثورة ، وتعتبره المقياس الوحيد في تقييم الدول والقوى، بصرف النظر عن الأوجه الأخرى، السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمواقف هذه الدول والقوى ، بينما أخذت منظمات فلسطينية اخرى ، وخاصة التي انبثقت عن أحزاب وتنظيمات سياسية ، ذلك المقياس بعين الاعتبار ولكنها لم تستخدمه كمقياس وحيد . ولم يكن الامر بغير استثناء في الحالتين . فقد تأخر على سبيل المثال الوقت الذي قام فيه تعاون مباشر بين فتح وبين عدد من الدول الاشتراكية التي فضلت ان ينصب اتجاه تعاونها مع منظمة التحرير ، ومع ذلك كانت فتح بين القوى الفلسطينية التي دفعت باتجاه التحسين الكبير في علاقات المنظمة مع تلك الدول . وعلى الوجه الآخر استطاعت فتح ان تقيم علاقات تعاون ثابتة مع المملكة العربية السعودية وحكامها حتى في الوقت الذي كان فيه حكام المملكة لا يقيمون أي علاقة مع منظمة التحرير ، ويناصبون العداء اطرافا فلسطينية اخرى وقوى وأنظمة عربية وطنية تقدمية حليفة لفتح . وقد قامت هذه العلاقات مع المملكة السعودية بعد أن نجحت فتح في توثيق علاقاتها بكل من مصر وسوريا ، أي بعد العام ١٩٦٧(١٣) .

وساءت، على سبيل المثال أيضا ، علاقات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، في وقت من الاوقات مع النظامين الوطنيين التقدميين في كل من مصر وسوريا ، على الرغم من انهما بين الانظمة العربية كانا بعد هزيمة حزيران يتحملان أكبر العبء في مواجهة اسرائيل .

خلاصة القول حول هذه النقطة ، ان المبدأين اللذين ثبتهما الميثاق الوطني حـول عدم التدخل وعدم التدخل المقابل لم يصمدا دوما أمام زخم الواقع وتشابكه وقوة المصالح التي أملت الرغبات في التدخل . ومع ذلك فان تثبيتهمـا عزز التوجه الاستقلالي الفلسطيني ، مما لم يفعله الميثاق السابق .

واضيفت بعد ذلك مادة جديدة اخرى الى الميثاق هي المادة الثلاثون ، ونصها : « المقاتلون وحملة السلاح في معركة التحرير هم نواة الجيش الشعبي الذي سيكون الدرع الواقي لمكتسبات الشعب العربي الفلسطيني » .

وثبتت المادة الحادية والثلاثون ، كما فعلت مثيلتها في السابق السابعة والعشرون ان

« يكون لهذه المنظمة علم وقسم ونشيد ويقرر ذلك كله بموجب نظام خاص » .

ونصت المادة الثانية والثلاثون ، مثل مثيلتها التاسعة والعشرين ، على ان « يلحق بهذا الميثاق نظام يعرف بالنظام الاساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، تحدد فيه كيفية تشكيل المنظمة وهيئاتها ومؤسساتها واختصاصات كل منها وجميع ما تقتضيه الواجبات الملقاة عليها بموجب هذا الميثاق » .

ونصت المادة الثالثة والثلاثون ، كمثيلتها التاسعة والعشرين في السابق على أن « لا يعدل هذا الميثاق الا بأكثرية ثلثي مجموع أعضاء المجلس الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية في جلسة خاصة يدعى اليها من أجل هذا الغرض » . وبذلك ظل من الممكن تعديله في جلسة خاصة في أي دورة من دورات المجلس الوطني ، من غير حاجة الى دعوة المجلس لدورة خاصة .

حق السيادة : تحدثنا حتى الآن عن التعديلات والاضافات التي دخلت على الميثاق بصياغته الجديدة وبدلت كثيراً من مضامينه واتجاهاته على ضوء ما اضيف اليه من مواد . وهناك مادتان في السابق أسقطتا برمتهما فلم تردا في الجديد :

اولاهما : المادة التي حملت الرقم ٩ والتي نصت على « ان المذاهب العقائدية سياسية كانت او اجتماعية او اقتصادية لا تشغل أهل فلسطين عن واجبهم الاول في تحرير وطنهم ، والفلسطينيون جميعا جبهة وطنية واحدة يعملون لتحرير وطنهم بكل مشاعرهم وطاقاتهم الروحية والمادية » .

كان وضع هذا المادة حتى في العام ١٩٦٤ عودة الى الوراء بالنسبة لتطور الحركة الوطنية الفلسطينية وأفكارها . وقد سقطت في ميثاق العام ١٩٦٨ بسبب ذلك ، ولان القوى التي وضعت الميثاق ، وبعضها قوى حزبية أقرت فيما بينها صيغة لتعاونها في اطار منظمة التحرير على أساس جبهـوي بما هي قوى وتنظيمات وأحزاب معترف بها . وسقوط هذه المادة يمثل هو الآخر تطوراً ايجابيا جرى تثبيته في الميثاق الوطني .

وثانيتهما : المادة التي حملت الرقم ٢٤ ونصت على ان « لا تمارس هذه المنظمة أية سيادة اقليمية على الضفة الغربية في المملكة الاردنية الهاشمية ولا قطاع غزة ولا منطقة الحمة ، وسيكون نشاطها على المستوى القومي الشعبي في الميادين التحريرية والتنظيمية والسياسية والمالية » .

وقد صار واضحا بعد استعراض الميثاق الجديد بكامله ان مادة كهذه لم تعد ذات موضوع . وان التأكيدات الصريحة التي ثبتها الميثاق الجديد حول حق الشعب العربي الفلسطيني في السيادة على وطنه وتقرير مصيره فيه ، قد اسقطت تلقائياً مضمون المادة الرابعة والعشرين هذه ، التي وضعت في ظروف تأسس المنظمة في العام ١٩٦٤ استجابة لشرط اردني ، وفي وقت لم يكن فيه مؤسسوها معنيين بمسألة السيادة الوطنية الفلسطينية .

تعديلات النظام الاساسي

التعديلات العامة : ادخلت الدورة الرابعة للمجلس الوطني التي وضعت الميثاق الوطني

خمسة عشر تعديلا واضافة (١٤) على النظام الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، لتجعله ينسجم مع الصياغة الجديدة للميثاق ، ومع التطورات المستجدة على الساحة الفلسطينية والعلاقات الفلسطينية ـ العربية .

هذه التعديلات والاضافات وضعها المجلس بما هي تعديلات واضافات طرأت على هذه المادة او تلك من مواد النظام الاساسي ، ولم يقدم صياغة جديدة له ، كما فعل بالنسبة للميثاق . وسنتعرض فيما يلي لاهمها مما له صلة بغرض هذه الدراسة :

عدلت المادة الثالثة عشرة التي كانت تعطي للمجلس حق انتخاب رئيس اللجنة التنفيذية وحده وتعطي للرئيس حق تسمية اعضائها ، فاصبحت بعد التعديل على النحو التالي : « ١ ـ يتم انتخاب جميع اعضاء اللجنة التنفيذية من قبل المجلس » . وهو تعديل عكس الرغبة في تعزيز صلاحيات المجلس ، وانهى ذلك الوضع الشاذ الذي كان فيه رئيس اللجنة التنفيذية يملك ، وفق النصوص ذاتها ، كل الصلاحيات بما فيها صلاحية تعيين قيادة الشعب العربي الفلسطيني . وعكس أيضا طبيعة التحالف الجبهـوي القائم في منظمة التحرير والمتمثل في وجود مندوبي المتحالفين كافة كاعضاء في المجلس الوطني ، ومن ثم في اللجنة التنفيذية ، مما جعل المزاجية الفردية أقل تأثيراً في انتقاء اعضاء اللجنة على حد سواء . واضيفت الى النظام بعد ذلك مادة هذا نصها : « تنتخب اللجنة التنفيذية من داخل المجلس الوطني » . وبذا أوجب النظام أن يكون أعضاء اللجنة من بين اعضاء المجلس حصراً ، واذا اخذنا بعين الاعتبار أن المزاجية أصبحت على ضوء التطورات الجديدة أقل تأثيراً في انتقاء أعضاء المجلس ، صار من الممكن ان نتصور ان الذين سيأتون من بينهم الى اللجنة لا بد ان يكونوا ممثلي منظمات أو شخصيات وطنية لم يجـر اختيارها اعتباطا .

واضيفت الى النظام أيضاً مادة جاء فيها : « اذا شغرت العضوية في اللجنة التنفيذية بين فترات انعقاد المجلس الوطني ، لاي سبب من الأسباب ، تملأ الحالات الشاغرة كما يلي ... » وتلا ذلك تفاصيل اسلوب ملئها . وعكست هذه الاضافة الطبيـعة الجديدة للجنة التنفيذية كلجنة منتخبة من المجلس ، كما عكست ، في الوقت نفسه ، الاهتمام بان ينتظم عمل اللجنة ازاء أي طارىء يهدد هذا الانتظام .

وعدلت المادة الثامنة والعشرون من النظام الذي جاء فيها : « تشكـل وحدات فلسطينية خاصة وفق الحاجات والخطة العسكرية التي تقررها القيادة العربية الموحدة بالاتفاق وبالتعاون مع الدول العربية ... » عدلت تعديلا جوهريا استجاب للشرط الذي وضعته فتح حول استقلالية جيش التحرير الفلسطيني واستجاب للمزاج الفلسطيني العام بهذا الشأن وصار نصها كما يلي : « تنشىء منظمة التحرير الفلسطينية جيشا من أبناء فلسطين يعرف بجيش التحرير الفلسطيني ، تكون له قيادة مستقلة ، تعمل تحت اشراف اللجنة التنفيذية وتنفيذ تعليماتها وقراراتها الخاصة والعامة ، وواجبه القومي ان يكون الطليعة في خوض معركة تحرير فلسطين » .

وبذا ربط النظام جيش التحرير بمنظمة التحرير بوصفه احدى المؤسسات التي تنشئها المنظمة ، واتبع قيادة الجيش للقيادة السياسية للمنظمة ، والزمه بتنفيذ تعليماتها الخاصة

والعامة ، وأنهى تبعيته للقيادة العربية الموحدة ، بما هي في واقع الأمر تبعية للقيادات العسكرية في الدول المضيفة . هذا ما فعله النظام بعد تعديله . اما في الممارسة العملية التي تبعت ذلك فان الامور لم تجر في كل الاوقات على النحو الذي حدده النظام الأساسي وتوخاه الذين رغبوا في ان يستقل جيش التحرير الفلسطيني عن تبعيته للدول العربية المضيفة . وظهرت حالات شقت فيها قيادة جيش التحرير عصا الطاعة هنا أو هناك . كما ان الاتفاقات التي سبق ان عقدتها المنظمة حول وجود وعلاقات الجيش في كل من الدول المضيفة لم تعدل ، مما أبقى لتلك الدول الحقوق التي رتبتها هذه الاتفاقات وما أتاحته لها ، وأكثر من ذلك ، من فرص التأثير ليس على اجراءات قيادات الجيش الفلسطيني ، بل على مواقفها أيضا . مع ذلك فان تثبيت استقلالية جيش التحرير وتبعيته للقيادة السياسية الفلسطينية وحدها على نحو لا يقبل الالتباس في التفسير ، أعطى للقيادة ، على الاقل ، الحق في أن تدين المتمردين وتعزلهم وتقطع صلتهم بالمنظمة وتحجب عنهم التمويل والامداد ، وترفض الاعتراف بشرعية أية اجراءات تتخذ مخالفة للنظام ، كلما وجدت ضرورة وامكانية لفعل ذلك .

واضيفت عبارة ذات مغزى الى المادة الثالثة من النظام ، التي حددت أسس العلاقات داخل المنظمة بين المستويات المختلفة فيها ، وجعلت الاضافة من بين هذه الاسس : « دعم الثورة الفلسطينية المسلحة والعمل على استمرارها وتصعيدها .. حتى النصر» .

التعديلات التنظيمية : اما التعديلات ذات الصبغة التنظيمية فقد تناولت المجلس الوطني فأقرت ان يحل المجلس الجديد ـ المنعقد في الدورة الرابعة ـ محل المجلس السابق ، وبذا أصبح هذا المجلس هو الثاني في تاريخ منظمة التحرير ، وأن تكون مدته سنتين يخلفه بعدها مجلس آخر او يجتمع هو نفسه » ويقرر اما تمديد مدته لفترة اخرى او ان يشكل مجلس جديد بالطريقة التي يقرها » . وأعطت للمجلس نفسه ، وليس لرئيس اللجنة التنفيذية او للجنة تحضيرية ، الحق في اضافة اعضاء جدد اليه « حسبما يرى ذلك ملائما وبحسب ما تمليه متطلبات معركة التحرير ومقتضيات تعميق الوحدة الوطنية » . وبذلك ظل الباب مفتوحاأمام زيادة ممثلي المنظمات في المجلس أو زيادة المستقلين ، او تمثيل منظمات جديدة . حيث كانت حركة تشكيل المنظمات الفدائية الجديدة ناشطة آنذاك ، تحت تأثير ازدياد شعبية العمل الفدائي والمساعدات العربية له ومحاولات التأثير على ساحته . وكانت لدى فتح سياسة مقررة في ان تجد كافة المنظمات الفلسطينية طريقها الى ساحة العمل الفلسطيني المشترك(١٥) .

ووضعت الدورة الرابعة أيضا « اللائحة الداخلية للمجلس الوطني الفلسطيني »(١٦) وأوجبت أن « يكون للمجلس مكتب رئاسة من رئيس ونائبين وأمين سر ، ينتخبهم المجلس في بدء انعقاده » . وبينت واجبات مكتب الرئاسة والرئيس . وأوجبت أن يعقد مكتب المجلس اجتماعات سرية بدعوة من رئيسه . أي أنها بهذا كله أوجدت هيئة لها اعتبارها هي هيئة مكتب المجلس ،يكون لها مقر خاص دائم وسكرتير اداري ثابت يعينه المكتب .

وفصلت اللائحة الداخلية اسلوب عمل المجلس ، وتشكيل لجانه وعملها وصلاحياتها ، وبينت تفاصيل اسلوب تعديل النظام الاساسي معطية فرصا مناسبة لمناقشة التعديلات المقترحة مناقشة متروية . كما تضمنت بابا يحدد أسباب واسلوب اسقاط العضوية التي يمكن اسقاطها

فقط في ثلاث حالات : الغياب المتتالي بدون اذن او عذر ، والعمل مع حكومة أو مؤسسة أو دولة أجنبية غير عربية مما يبعث الشك في استقامته الوطنية ، أو القيام بعمل مخالف لميثاق المنظمة أو نظامها الاساسي . وأوجبت ان تتوفر أغلبية الثلثين في قرارات اسقاط العضوية .

---

(١) الاتصالات مع مصر رواها للكاتب خالد الحسن عضو اللجنة المركزية لفتح ، في مقابلة شخصية ، كانون الثاني ١٩٧٨ .

(٢) محمود عباس « ابو مازن » عضو اللجنة المركزية لفتح ، مقابلة شخصية ، أيار ١٩٧٩ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) راجع قصة التنحي كما رواها احمد الشقيري من وجهة نظره في كتابه : الهزيمة الكبرى ، جـ ١ ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ ـ ص ٢٠٥ ، والتي جعل فيها السبب الأول لتنحيته هو موقفه المعارض لتوجه القادة العرب في قمة الخرطوم نحو التسوية السياسية .

(٥) راشد حميد (اعداد) مقررات المجلس الوطني الفلسطيني ١٩٦٤ ـ ١٩٧٤ ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٥ ـ ص ٢٣ .

(٦) خالد الفاهوم ، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني ، مقابلة شخصية ، اب ١٩٧٨ .

(٧) النص الكامل للميثاق الوطني في : حميد ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٢ وما بعدها .

(٨) كراس « ياسر عرفات في الامم المتحدة » ، دار القدس ، بيروت ، بغير تاريخ ، ص ٢٥ .

(٩) راجع نص القرار في : قرارات الامم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي ١٩٤٧ ـ ١٩٧٤ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية (بيروت) ومركز الوثائق والدراسات (ابو ظبي) ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٩٧ و١٩٨ .

(١٠) عربي عواد ، عضو قيادة الجبهة الوطنية الفلسطينية في المناطق المحتلة ، عضو المجلسين الوطني والمركزي في م . ت . ف . وقد قال للكاتب انه لم يلمس وجود الرفض لمسا فعليا الا بعد ان ابعدته السلطات الاسرائيلية عن الضفة الغربية ، في العام ١٩٧٣ . مقابلة شخصية ، تموز ١٩٧٩ .

(١١) عباس « ابو مازن » ، مصدر سبق ذكره .

(١٢) انظر مثلا : عبد الرحمن غنيم : البعث والكيان الفلسطيني ، مكتب الثقافة والدراسات والاعداد الحزبي في القيادة القطرية للتنظيم الفلسطيني الموحد ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، مطبعة القيادة القومية ، دمشق ١٩٧٨ ، ص ٩٤ وما بعدها .

(١٣) الحسن ، مصدر سبق ذكره .

(١٤) النص الكامل للتعديلات في : حميد ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٩ وما بعدها .

(١٥) عباس « ابو مازن » ، مصدر سبق ذكره .

(١٦) نصها الكامل في : حميد ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٦ وما بعدها .

صبري جريس

تأسيس "الوطن القومي اليهودي في فلسطين" ١٩١٧ ــ ١٩٢٣

٣ـ اسس الوطن القومي واجهزته وملامحه

كانت* بداية الحكم المدني البريطاني في فلسطين ، في ظل نظام الانتداب ، في تموز (يوليو) ١٩٢٠ ، فاتحة مرحلة جديدة من مراحل نمو الوطن القومي اليهودي ، استكملت خلالها عملية ارساء أسسه وأجهزته ، التي وضع بعضها قبل نشوب الحرب العالمية الاولى ، والآخر خلال فترة الحكم العسكري البريطاني ، بعد الحرب مباشرة . وبينما كان الصهيونيون يبذلون الجهود من اجل اقرار الانتداب على فلسطين ، واعداد صكه بشكل يؤمن افضل الشروط لتحقيق مشروعهم ، كانوا ايضا ، على صعيد آخر ، منهمكين في عمليات تنظيم وتأسيس واعادة بناء داخلية ، في فلسطين وخارجها ، بعضها كان استكمالا لانشطة سابقة ، وبعضها مستحدثا . ومع نهاية هذه المرحلة ، كانت ملامح الوطن القومي اليهودي ، في معظمها ، قد تبلورت في فلسطين ، كما تبلورت أطر النظام الصهيوني هناك وفي الخارج . وقد حكمت هذه الاطر نمو الوطن القومي ، فيما بعد ، لفترة غير قصيرة ، ولا يزال بعضها قائما حتى اليوم .

الاجتماع الصهيوني في لندن (تموز ١٩٢٠)

في الوقت الذي كان هربرت صموئيل يخطو فيه خطواته الأولى في وضع أسس نظام الانتداب البريطاني في فلسطين ، مع اوائل تموز ١٩٢٠ ، كان الصهيونيون يعقدون في لندن ، خلال الشهر نفسه ، اجتماعا موسعا ثالثا ، (وكان الاجتماع الأول قد عقد سنة ١٩١٩ ، والثاني في شباط ــ فبراير ــ ١٩٢٠) ، دعا وايزمن لعقده ، وحضره نحو ٢٨٠ شخصا ، للبحث في اسس السياسة التي ينبغي اعتمادها لاقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين . ويبدو ان خيبة الأمل ، التي اصابت الصهيونيين ، في موقف الزعيم الصهيوني الاميركي براندیس وجماعته ، قد أثرت في طبيعة الاجتماع ، اذ كان معظم المدعوين اليه من مؤيدي وجهة نظر وايزمن في السياسة الصهيونية[١] ، بشكل او بآخر . وبالرغم من الفوضى التي سيطرت على الاجتماع[٢] ، فقد ساد الانسجام اكثرية المشتركين فيه ؛ مما سهل اتخاذ قرارات مهمة ،

* تتمة للمادة المنشورة في العددين السابقين من شؤون فلسطينية ، رقم ٩٥ ورقم ٩٦ .

طبعت النشاط الصهيوني بطابعها خلال فترة الانتداب برمتها ، على الأقل .

كانت المسألة الاولى المهمة ، التي بحثها اجتماع لندن ، من حيث تأثيرها في النشاط الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، هي مسألة استملاك الاراضي . وفي هذا الصدد ، تقرر « ان أس الاسس في سياسة الاراضي الصهيونية ، هو جعل الارض التي يقام عليها الاستيطان اليهودي ملكا للشعب اليهودي » (٣) . اما « الجهة المخولة تنفيذ سياسة الاراضي العبرية ، في القرية والمدينة ، فهي الكيرن كاييمت ليسرائيل » (٤) (الصندوق القومي اليهودي ، Jewish National Fund) (٥) . ومهام الكيرن كاييمت ، كما قرر المجتمعون ، هي : « استملاك الأراضي في ارض ـ اسرائيل ، بأموال التبرعات المجموعة من الشعب ، على ان تكون تلك الاراضي ملكا له ، حيث تسلم لاغراض الزراعة او البناء ، بواسطة الايجار الخاضع لقوانين الوراثة . كما يسمح للعامل ، الذي ينقصه رأس المال ، بالاستيطان فيها ، على ان تقوم [الكيرن كاييمت] بتأمين العمل العبري ، ومراقبة كيفية استثمار تلك الاراضي ، ومنع المضاربات بشأنها » (٦) . واعلن المجتمعون ، ايضا ، ان المستوطنين ، الذين يلتزمون بمبادىء الكيرن كاييمت ، اولى من غيرهم في الحصول على القروض المعطاة من المؤسسات الصهيونية . وطالبوا بانشاء مؤسسة رسمية تابعة للمنظمة الصهيونية ، تتولى الاشراف على سوق بيع الاراضي (٧) (وهو ما فشلت المنظمة ، على أية حال ، في تنفيذه) .

وحتى هنا ، تتطابق القرارات التي اتخذت في الاجتماع ، مع وجهات نظر الفئات العمالية الصهيونيــة ـ بالرغم من انها لم تستجب لكل طلباتها ـ التي كانت تعتبر الارض التي تملكها شركة الكيرن كاييمت « ارضا قومية » ، نظرا للقيود التي فرضتها المؤسسات الصهيونية على انتقال ملكيتها ، او كيفية استغلالها لضمان بقائها في ايدي الصهيونيين(٨) . غير ان الاجتماع ضم كذلك عددا من الصهيونيين غير الاشتراكيين ، الذين طالبوا بالسماح لرأس المال الخاص ، وللمبادرة الفردية ، بأن يلعبا دورهما في بناء الوطن القومي (ولم يكن وايزمن نفسه بعيدا عن مثل هذا الاتجاه) . لذلك ، اتخذ الاجتماع قرارات اخرى تلائم هذه المواقف ؛ فقد اوصى « بايجاد طرق يستطيع رأس المال الخاص ، بواسطتها ، الاشتراك مع الكيرن كاييمت في شراء الاراضي ... على ان يصبح ما يستملك منها بهذه الطريقة ، ملكا للشعب في نهاية الامر »(٩) . لكن على الرغم من هذا القرار ، لم يلعب رأس المال الخاص دورا كبيرا في استملاك الاراضي في فلسطين ، وترك المجال للكيرن كاييمت ، وغيرها من مؤسسات استملاك الاراضي الصهيونية .

كيرن هايسود (الصندوق التأسيسي)

كانت المسألة الثانية التي بحثها اجتماع لندن ، هي مسألة تأمين الاموال الضرورية لبناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين . وقد قرر في هذا السبيل ، انشاء مؤسسة مالية للهجرة والاستيعاب ، سميت « كيرن هايسود » (الصنــدوق التأسـيسي ، Palestine Foundation Fund) . وفي ٢٣ ايار (مايو) ١٩٢١ ، سجلت هذه المؤسسة في بريطانيا كشركة محدودة الضمان ، هدفها « القيام بكافة الاعمال الضرورية ، او التي قد تكون مفيدة ، لتنفيذ تصريح حكومة جلالته (المعروف باسم وعد بلفور) ، بتاريخ ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، بشأن اقامة وطن قومي يهودي في ارض ـ اسرائيل »(١٠) . وكانت كيرن

هايسود قد اصدرت ، على اثر انشائها ، بيانا « الى اليهود عامة »(١١) ، اعلنت فيه ان هدفها هو « العمل من اجل هجرة [يهودية] واسعة الى ارض ـ اسرائيل ... والاسراع في تطويرها ، بواسطة هذه الهجرة ، على اسس اقتصادية قوية ، بما يعود بالبركة على شعبنا وجيراننا والبلد بأكمله »(١٢) . كما اوضحت كيرن هايسود ، في بيانها ، ان «الهجرة والاستيطان يعنيان ، عمليا ، شراء الاراضي واستصلاحها ، وشق الطرق ومتفرعاتها ، وبناء سكك الحديد والموانىء والجسور ، وتجفيف المستنقعات ، والري ، وغرس الغابات ، واستغلال القوى المائية ، وبناء المدن ، وتطوير الصناعة والحرف والتجارة ، وتنظيم شؤون المساعدات الاجتماعيــة ، والثقافة »(١٣) . وهذا البيان بمثابة برنامج « مرن للغاية ، من حيث طريقة تنفيذه ، وقد يضم اي شكل لاي مشروع ... فمنذ الفي سنة لم نحظ بهذه المناسبة العظيمة ، ولن نحظى بها ثانية في ايامنا او ايام ابنائنا »(١٤) . لذلك لا بد من ان ينبري اليهود ، بأسرهم ، للمساهمة في دعم هذا البرنامج . « لكننا لا نطلب تبرعات ، فالجهد الجبار ، المطلوب بذله اليوم ، يمكن تجسيده في ضريبة ذاتية ثابتة ومنهجية . ان لدينا تقاليد يهودية مرموقة هي « الاعشار » ، وينبغي الارتقاء الى ممارستها »(١٥) .

علق الصهيونيون على كيرن هايسود ، مع تأسيسها ، آمالا عريضة ، باعتبارها شقيقة الكيرن كاييمت ومكملة لها ، تشاركها الاشراف على كافة نواحي الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، حيث تتولى الاولى الاشراف على عمليات شراء الاراضي المخصصة للاستيطان ، بينما تهتم الثانية بتوطين المهاجرين في تلك الاراضي ، وتأمين سبل معائشهم . وزادت من تلك الآمال ، الاوضاع المالية الحرجة التي كانت تمر بالمنظمة الصهيونية العالمية آنذاك ، والصعوبات التي واجهتها لتمويل مشاريعها . لكن لم يمر وقت قصير حتى اتضح ان تلك الامال كانت في غير محلها : اذ لم تتمكن كيرن هايسود إلا من جمع جزء يسير من الاموال الضرورية ، رغم النشاط الواسع الذي بذلته بين كافة الفئات الصهيونية واليهودية في العالم ، مما ساهم في اضعاف المنظمة الصهيونية ماليا ، وكاد يشل قدرتها على الحركة . ولعل احسن دليل على حراجة وضع المنظمة الصهيونية المالي ، وضعف امكاناتها ، خلال هذه الفترة ، هو ان كيرن هايسود لم تستطع ان تجمع ، خلال السنة الاولى من تأسيسها ، الا نحو ٣٠٠ الف جنيه استرليني ، بينما « كلفها » المؤسسون ، في ضوء تقديرهم حاجات المنظمة ، بجمع مبلغ ٢٥ مليون جنيه استرليني خلال تلك السنة(١٦) . حتى ان كيرن هايسود لم تستطع جمع هذا المبلغ بعد ربع قرن من تأسيسها كذلك ؛ اذ بلغ مجموع ما جمعته من اشتراكات وتبرعات ، حتى منتصف سنة ١٩٤٧ ، نحو ٢١,٥ مليون جنيه استرليني فقط (وكانت كيرن هايسود قد نشطت في الولايات المتحدة الاميركية ، منذ السنة الثانية لتأسيسها . وفي سنة ١٩٢٦ تغير اسمها ، لاعتبارات تنظيمية ، فصار « النداء الفلسطيني الموحد » United Palestine Appeal ، ثم تغير الاسم ، للاعتبارات ذاتها ، مرة اخرى سنة ١٩٢٩ ، فصار « النداء اليهودي الموحد » United Jewish Appeal ، الذي لا يزال يعمل به هناك حتى يومنا هذا) .

وتجدر الاشارة هنا الى ان قلة امكانات المنظمة الصهيونية المالية، على الشكل الذي اشرنا اليه ، اثرت بشكل مباشر على سياستها ، وحملت الصهيونيين على التخلي عن كثير من الاحلام

التي راودتهم منذ صدور وعد بلفور ، ودفعتهم بالتالي الى اعادة النظر في خططهم بشأن فلسطين . وكانت قلة الموارد المالية ، التي ادت بدورها الى تقليص المشاريع الصهيونية ، واحدا من الاسباب الرئيسية التي دفعت الزعامة الصهيونية الى الموافقة على اجراءات « القضم » البريطانية في التعهدات التي منحت لهم ، ابتداء من الموافقة على « سلخ » شرق الاردن عن المنطقة المخصصة لاقامة الوطن القومي اليهودي ، مرورا بتفسير وعد بلفور رسميا ، في كتاب تشرشل الابيض لسنة ١٩٢٢ ، بأنه يعني اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، لا تحويل فلسطين باكملها الى وطن قومي لليهود ، وانتهاء باتباع سياسة « مقدرة فلسطين الاقتصادية على الاستيعاب » كقاعدة لادخال المهاجرين اليهود اليها .

تسوية الخلافات حول الشؤون الثقافية

اضافة الى الناحيتين المهمتين اللتين بحثهما اجتماع لندن الصهيوني الثالث في تموز ١٩٢٠ ، وهما مسألة استملاك الاراضي في فلسطين وكيفية توطين اليهود فيها ، طرحت للبحث في الاجتماع نفسه مسألة خلافية قديمة ، تركزت حول الموقف الصهيوني الرسمي من شؤون التعليم والثقافة . وسبب هذا الخلاف ، الذي احتدم بشكل خاص خلال عهد هرتسل ، هو الفروقات العميقة في المفاهيم الاساسية بين الصهيونيين العلمانيين من جهة ، والمتدينين من جهة اخرى ، حول نظرة كل من الطرفين للتعليم والثقافة ، ومحاولة كل طرف حمل المنظمة الصهيونية ومؤسساتها على تبني وجهة نظره رسميا ، واعتمادها(١٧) .

وبعد وفاة هرتسل ، توصل الطرفان الى اتفاق فيما بينهما ، مفاده ان يترك لكل فئة من العلمانيين او المتدينين حرية ممارسة النشاط الثقافي كما تراه مناسبا ، بشرط الا تتدخل المنظمة الصهيونية ، رسميا ، لمصلحة اي من الاطراف المتناحرة . لكن على الرغم من ذلك ، كانت الخلافات تثور ، من حين الى آخر ، بين العلمانيين والمتدينين ، حول هذه المسألة او تلك ، لتتبعها مناقشات صاخبة . وقد توقف هذا الجدل خلال سني الحرب العالمية الاولى ، الا انه استؤنف ، بحماس كبير ، مع نهايتها(١٨) .

ومع انعقاد اجتماع لندن الصهيوني ، طالب المتدينون ، ممثلين بمنظمة المزراحي ، بالاعتراف بدائرة تعليم مستقلة خاصة بهم . غير ان الاجتماع رفض قبول الاقتراح واقر ، بدلا من ذلك ، حلا وسطا بين وجهتي النظر المتدينة والعلمانية . فقد صادق المجتمعون على قرارات تثبت التعددية في جهاز التعليم اليهودي في فلسطين ؛ اذ اعترفوا بأنواع مختلفة من المدارس ، منها المدارس « العامة » التي طالب بها العلمانيون ، والمدارس « الدينية » التي خصصت للمتدينين ، ولكل منها برامجه وأهدافه التعليمية الخاصة به ، مختلفا بعضها عن البعض الآخر . وكان الاساس الوحيد المشترك بين تلك المدارس ، هو تركيزها على « اللغة العبرية والهوية القومية اليهودية »(١٩) ، اللتين لم تعرفا في القرارات . كذلك منحت المدارس الدينية ادارة ذاتية ، كاملة بالنسبة للشؤون الثقافية ، وواسعة بالنسبة للشؤون الادارية والمالية . وبموافقتهم على هذا الحل الوسط ، أمل العلمانيون في ان تعمل المزراحي على كسب الفئات اليهودية المتدينة لمصلحة الحركة الصهيونية . وقد قامت المزراحي ، الى حد ما بذلك ؛ لكنها عملت ايضا ، في الوقت نفسه ، على دعم المعسكر المتدين وتوسيعه ، وحاولت فرض وجهات

نظرها على المتدينين بأسرهم في اكثر من مناسبة (ولا تزال ـ على اية حال ـ اسس هذا الحل الذي يقر وجود مدارس و« تيارات » ومناهج تعليم وثقافات مختلفة ، معمولا بها في اسرائيل حتى اليوم) .

اطر النشاط الصهيوني العالمي

اضافة الى النواحي التي اشرنا اليها ، بحث اجتماع لندن الصهيوني ، في تموز ١٩٢٠ ، مسألة تنظيم النشاط الصهيوني في العالم ، ومتابعته ، والاشراف عليه (وكان رئيس دائرة التنظيم في المنظمة الصهيونية قد اعلن في الاجتماع ، ان عدد الصهيونيين المسجلين بلغ ، آنذاك ، نحو مليون شخص[٢٠]). الا ان الاجتماع لم يتخذ اي قرار في هذا الصدد ، وأحال المسألة الى المؤتمر الصهيوني ، الذي تقرر عقده في السنة التالية . وكان النشاط الصهيوني ، على أية حال ، قد توسع بعد الحرب العالمية الاولى ، بدرجات قصوى حتى تلك الوقت ، وشمل الطوائف اليهودية في بضع عشرات من دول العالم ، خصوصا بعد الحماس الذي سيطر على دوائر صهيونية عدة ، على اثر اصدار وعد بلفور ، ثم فرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، وتعهد بريطانيا ، بموجبه ، بالعمل على انشاء وطن قومي لليهود في البلد .

لكن على الرغم من امتداد النشاط الصهيوني ، بالشكل الذي اشرنا اليه ، بقي الجزء الفاعل منه ، من حيث تأثيره على نمو الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، محصوراً بين اليهود في دول قليلة جدا ؛ اذ لم تستجب اكثرية اليهود في معظم دول العالم الى دعوات الصهيونيين للهجرة الى فلسطين ، وامتنعت ، لاسباب عدة لا مجال لاثباتها هنا ، عن تقديم مساعدات اقتصادية فاعلة لبناء الكيان الصهيوني في البلد ، وعلى وجه التحديد ، وفيما يتعلق باثنين من التجمعات السكانية اليهودية الكبرى الثلاثة في العالم ، التي برزت بعد الحرب العالمية الاولى في الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي وبولونيا ، لم يحالف الصهيونيون الحظ كثيراً ، رغم الآمال العريضة التي علقت عليهم .

ففي الولايات المتحدة ، امتنع الصهيونيون الاميركيون ، عموما ، عن الانخراط بشكل فاعل في النشاط الصهيوني ، خصوصا خلال العشرينات والثلاثينات ، واكتفوا بتأييد الحركة الصهيونية « معنويا » ، فلم تهاجر منهم الى فلسطين الا اعداد قليلة جداً ، ولم يساهموا ايضا في تمويل المشاريع الصهيونية بصورة ملحوظة ، رغم كثرة عددهم[٢١] . وسبب ذلك هو أن اكثرية اولئك الصهيونيين مثلهم مثل معظم اليهود في أميركا آنذاك ، كانوا من ابناء الجيل الثاني او الثالث من المهاجرين اليهود ، من روسيا القيصرية ودول اوروبا الشرقية ، المنهمكين في متابعة عملية استيعابهم في المجتمع الاميركي .

وفي الاتحاد السوفياتي ، أثّر الحظر الذي فرضته السلطات في النشاط الصهيوني هناك ، فكاد يشله ، رغم ان عددا لا بأس به من المهاجرين اليهود الروس دخل الى فلسطين خلال العشرينات والثلاثينات .

اما في بولونيا ، فقد كان للصهيونيين شأن آخر ، ولم يكن تجمعهم فيها ، اساسا ، يقل

اهمية عن باقي التجمعات الصهيونية في العالم، ان لم يكن،آنذاك،اهمهاعلى الاطلاق،من حيث اتساع نشاطه وفورانه و« اصالته » . اذ ان الفكرة الصهيونية انتشرت ، أساسا ، بين يهود بولونيا وروسيا القيصرية وبعض دول اوروبا الشرقية . وكان الصهيونيون البولونيون قد حظوا ، منذ احتلال المانيا ارض بولونيا في اواخر سنة ١٩١٥ ، بظروف مريحة للغاية ، مقارنة بتلك التي كانت قائمة في عهد القياصرة ، ساعدتهم على توسيع نشاطهم ، خصوصا بعد ان قامت سلطات الاحتلال الالماني بالغاء قوانين التمييز القيصرية ضد اليهود في البلد ، ثم اعتبارهم طائفة دينية مستقلة ، واخيرا الاعتراف بشرعية المنظمة الصهيونية . وبقيت هذه الاوضاع على حالها ، عموما ، بعد الاعتراف باستقلال بولونيا ، التي ضم اتفاق السلام معها موادّ تعهدت بموجبها بالمحافظة على حقوق الاقليات فيها ، ومن بينها اليهود (وكانت « مادة الاقليات » في اتفاقية الصلح مع بولونيا ، هي النموذج الذي صيغت بموجبه حقوق الاقليات في الاتفاقيات التي عقدت ، على اثر انتهاء الحرب ، مع دول اوروبية عدة ، مما سهل بدوره ممارسة النشاط الصهيوني في تلك الدول)(٢٢) .

نتيجة هذه الاوضاع ، تمتع اليهود في بولونيا ــ دستوريا على الاقل ــ مع استقلالها سنة ١٩١٨ ، بحقوق لم يفكروا فيها ابان الحكم القيصري الروسي ؛ فتحولوا الى مركز لليهودية في العالم ، وانشأوا ، مثلا ، المدارس والمؤسسات الثقافية الخاصة بهم ، الحاخامية والعلمانية ، واصدروا صحفهم المستقلة ، باللغة العبرية ولغة الايديش ، واقاموا المسارح اليهودية . كما لعب اليهود دورا مهما في الحياة السياسية في البلد ، فأسسوا الاحزاب والنقابات العمالية ومنظمات الشبيبة الخاصة بهم . لكن كان لهذه الحرية انعكاساتها السلبية ايضا ؛ اذ انقسم اليهود ، وفقا للتيارات الدينية او السياسية التي تبلورت بينهم في العهد القيصري ، الى ثلاثة اجنحة رئيسية : المتدينين ، من اتباع الحاخامية التقليديــة او الحسيديم ، والبوند واتباعه من الفئات العمالية غير الصهيونية ، والصهيونيين على اختلاف اتجاهاتهم السياسية . واحتدم تنافس شديد بين هذه الاجنحة الثلاثة ، اضطر الصهيونيون بسببه الى تكثيف نشاطهم بشكل لم يعهدوه من قبل ، للتصدي لتحديات مناوئيهم من المتدينين والبوند(٢٣) . ونتيجة ذلك ، اتسعت صفوف الصهيونيين ، وازداد عددهم ، بصورة كان من المتوقع معها ان يساهموا بفعالية في بناء الوطن القومي في فلسطين ، بما في ذلك النواحي المالية . لكن حكومة بولونيا اتبعت ، على اثر استقلال البلد ، سياسة اقتصادية تهدف الى تحجيم الطبقة المتوسطة اليهودية وكسر « احتكارها » فروعا اقتصادية عدة ، مما ادى ، في نهاية الامر ، الى زعزعة مركز تلك الطبقة ، وحمل اعداد كبيرة منها على الهجرة . لذلك وجدت المؤسسات الصهيونية نفسها بحاجة الى المزيد من الاموال لاستيعاب اولئك المهاجرين من صهيونيي بولونيا ، بدلا من الاعتماد عليهم في تمويل المشاريع الصهيونية في فلسطين . ومن ناحية ثانية ، اصبح الصهيونيون البولونيون ، نتيجة اوضاعهم هذه ، من اكثر الفئات الصهيونية غليانا ، ومن ثم اهتماما بما يجري في فلسطين . فقد حسموا ، خلال فترة ما بين الحربين العالميتين ، اكثر من موقف للحركة الصهيونية في الاتجاه المعبر عن رغباتهم . وقد ساعدهم في ذلك ايضا احتلال ممثليهم ، نتيجة كثرة عددهم بالمقارنة مع التجمعات الصهيونية الاخرى ، نحو ثلث عدد المقاعد في كافة المؤتمرات الصهيونية التي عقدت خلال تلك الفترة(٢٤) .

وتجدر الاشارة ايضا الى ان اكبر نسبة من المهاجرين اليهود ، الذين دخلوا فلسطين خلال هذه الحقبة ، جاؤوا من بولونيا .

العمال الصهيونيون يعيدون النظر

بموازاة التحركات التي كانت القيادة « البورجوازية » الصهيونية تقوم بها ، في مطلع العشرينات ، استعدادا لبدء عملية انشاء الوطن القومي ، التي تزامنت مع التغيرات التي طرأت على اوضاع اليهود في دول عدة ، كما اشرنا ، كانت القوى الصهيونية « الشعبية »كذلك،وهي عمالية اساسا ، تقوم بنشاط خاص بها . وكان من بين الدوافع الرئيسية لهذا النشاط ، الخلافات في الآراء التي تفشت بين العمال الصهيونيين ، خصوصا بعد فرض الانتداب البريطاني على فلسطين واعلان نية اقامة وطن قومي لليهود فيها من جهة ، وانتصار الثورة في روسيا ، وشعورهم بضرورة دراسة ما نجم عن هذه الاوضاع الجديدة ، واتخاذ مواقف منها ، من جهة اخرى . لذلك عقدت ، في بداية العشرينات ، مؤتمرات صهيونية عدة ، اسفرت عن انشقاقات في معظم الاحزاب والمنظمات العمالية الصهيونية من ناحية ، واقامة اخرى مكانها من ناحية ثانية . وفي الوقت نفسه ، اسست منظمات صهيونية جديدة . واسفرت هذه التحركات ، مع نهايتها ، عن عملية خلط اوراق شبه كاملة ، رسمت خريطة جديدة للقوى الصهيونية العمالية ، من حيث الاطر التنظيمية او المواقف العقائدية . وكانت الخلافات حول التمسك بالاشتراكية ، وتعليق الامال عليها ، لحل المسألة اليهودية ، من جهة ، او التشبث بالصهيونية والاتجاه نحو اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، بمحاولة الدمج بين الاشتراكية والصهيونية ، من جهة ثانية ، المحور الرئيسي الذي دارت حوله الانشقاقات ، وعمليات التنظيم الجديدة واعادة النظر تلك (في الوقت الذي راح النشاط الصهيوني الرئيسي فيه ، ينتقل تدريجيا الى بولونيا) .

كانت تساعيري تسيون « المتحالفة » مع حزب هابوعيل هاتسعير في فلسطين اولى المنظمات الصهيونية التي سارت على هذه الطريق . ففي بولونيا ، اعلنت الاكثرية في تساعيري تسيون ، في اواخر سنة ١٩١٩ ، انها تعتبر نفسها حزبا مستقلا يدين بالاشتراكية ، وقامت بقطع علاقاتها مع المنظمة الصهيونية العالمية ، موضحة انها ستشترك في اجتماعات المنظمة الصهيونية في بولونيا لغايات اعلامية فقط . ولم يحظ هذا القرار بموافقة الاقلية من جناح « الكادحين » ، الذين كانوا يعتبرون انفسهم اشتراكيين — ثوريين ويتحفظون من الماركسية الصرف ، فانشقوا عن المنظمة واسسوا حزبا جديدا ، سموه « الكتلة الصهيونية الشعبية ، هابوعيل هاتسعير »(٢٥) ، تأكيدا لتبعيتهم لحزب هابوعيل هاتسعير في فلسطين ، والتزامهم بمواقفــه .

وفي روسيا ، عقدت تساعيري تسيون مؤتمرها الثالث سرا في خاركوف ، في ايار ١٩٢٠ (اي بعد مرور شهر تقريبا على اعتقال اعضاء المؤتمر الصهيوني في موسكو) ، واعلن اعضاؤها انهم لا يعتبرون انفسهم ، من الان فصاعدا ، « كتلة شعبية » بل حزبا ، سمي « الحزب الصهيوني — الاشتراكي ، تساعيري تسيون »(٢٦) . وامتنع الحزب الجديد عن اتخاذ اي موقف من الماركسية ، واكتفى باعلان انه يقبل في صفوفه اي صهيوني —

اشتراكي ، يدعو الى التركيز على النشاط الصهيوني في فلسطين . كما اعلن هذا الحزب « اعترافه بنظرية صراع الطبقات ، ولكنه اعطاها تفسيرا بناء [على غرار « الاشتراكية البناءة » التي نادى بها حزب احدوت هعفوداه في فسطين] ، من خلال اتجاه يهدف الى دمج ... المهام الاستيطانية الخلاقة في ارض ـ اسرائيل في مهام النضال الطبقي »(٢٧) . لكن هذا التحول لم يحظ كذلك بموافقة جناح « الكادحين » ، الذي اصر على الاحتفاظ بالاسم السابق : « الكتلة الشعبية ، تساعيري تسيون » .

من ناحية ثانية ، كان حزب هابوعيل هاتسعير ، الذي اقيم اصلا في فلسطين ، بقربه الفكري من تساعيري تسيون ، قد وسع نشاطه ، واقام له فروعا في اكثر من بلد اوروبي ، كان اهمها فرع المانيا ، الذي اتبع ما سماه الاشتراكية الشعبية ، وتحفظ من الماركسية المادية ، وشدد على وحدانية الوجود اليهودي . وقد راس فرع هابوعيل هاتسعير في المانيا الدكتور حاييم ارلوزوروف (في مطلع الثلاثينات : رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية) والدكتور مارتن بوبر (فيما بعد الفيلسوف اليهودي ـ الصهيوني المعروف) . وفي مطلع سنة ١٩٢٠ ، قرر الحزبان اندماجهما ، فدعيا الى مؤتمر ، عقد في براغ بتشيكوسلوفاكيا في اواخر آذار (مارس) ، حضره عدد من كبار زعماء هابوعيل هاتسعير في فلسطين ، كان بينهم يوسف شبرينتساك (فيما بعد رئيس الكنيست في اسرائيل) ، واهرون دافيد غوردون ، واليعيزر يافيه ، وتسفي يهودا ، وغيرهم . وتقرر اقامة منظمة ، سميت « الاتحـاد العـالمي (هيتأحـدوت) لهابوعيل هاتسعير وتساعيري تسيون » ، تضم فروع الحزبين في اوروبا الشرقية واوروبا الغربية وفلسطين(٢٨) . ودعا الاتحاد ، في دستوره ، الى توحيد كل الفئات العمالية والاشتراكية داخل المنظمة الصهيونية العالمية ، « لان هدفا مشتركا يوحدهم جميعا ، هو اقامة مجتمع عبري حر في ارض ـ اسرائيل ، على اسس العمل الذاتي ، بدون مستغِلين او مستغَلين ... وجميعهم يصبون ، ايضا ، الى تجديد حياة الشعب في المهجر ، على اسس مجتمع عامل لا يستغِل ولا يستغَل »(٢٩) . والواضح ان هذا البرنامج انطلق اساسا من نظريات غوردون بشأن « دين العمل »(٣٠) . وقد صادق الاتحاد ، مرة اخرى ، على مواقف هابوعيل هاتسعير ، الذي تحفظ من الماركسية منذ تأسيسه . ولم يحظ هذا البرنامج بموافقة تلك الفئات من الحزب ، التي كانت تتمسك بالماركسية ، وفقا لمفاهيم خاصة بها ، فقامت سنة ١٩٢١ بتأسيس هيئة منفصلة ، سمتها « العصبة العالمية للصهيونيين الاشتراكيين ، تساعيري تسيون » ، كان من بين ابرز زعمائها يسرائيل بار ـ يهودا ، وزلمان آران (فيما بعد وزيرا الداخلية ، والمعارف والثقافة في اسرائيل) . وبذلك انشق تساعيري تسيون ، الى شطرين (وفي سنة ١٩٢٥ ، اندمج الصهيونيون ـ الاشتراكيون بحزب احـدوت هعفـوداه في فلسطين) .

وفي الوقت نفسه ، حدثت تطورات مماثلة داخل الاتحاد العالمي لبوعالي تسيون ، وهو انذاك اكبر التنظيمات العمالية الصهيونية ؛ اذ كان عدد اعضائه قد ارتفع من ٤ او ٥ آلاف عضو ، عشية الحرب العالمية الاولى ، الى ٦٠ الف عضو في مطلع العشرينات ، مما دفعهم الى التصرف كأنهم الحركة الام لكافة التنظيمات اليهودية العمالية . ولكن على الرغم من توسع صفوفهم على هذا الشكل ، وازدياد عددهم ، كان اعضاء بوعالي تسيون ابعد ما يكونون عن

الانسجام العقائدي ؛ اذ تبلورت بينهم تيارات عدة ، متناقضة العقائد ، لكل منها مواقفه الخاصة به . وزاد نشوب الثورة في روسيا تلك التناقضات حدة ، خصوصا ان اعضاء بوعالي تسيون كانوا قد اعلنوا ، منذ تأسيس اتحادهم ، التزامهم بالماركسية ، وان تم ذلك بحسب تفسير بزوخوف لها(٣١). وقد تركزت الخلافات ، اساسا ، على نقطتين :الموقف من الثورة الاشتراكية ، والعلاقة بالكيان الصهيوني في فلسطين .

ومع انتهاء الحرب العالمية ، كانت اللجنة المركزية لاتحاد بوعالي تسيون ، قد عقدت اجتماعا في ستوكهولم ، سنة ١٩١٩ ، اعلنت فيه انها « تؤيد بناء ارض ــ اسرائيل اشتراكية ، [مما يقتضي] تأميم الاراضي والمصادر الطبيعية ، والاخذ بالمبدأ التعاوني ــ الاجتماعي بالنسبة لكل فروع الاستيطان والعمل الزراعي ، والصناعة ، والتجارة والحرف »(٣٢) . وقررت اللجنة ايضا ايفاد بعثة الى فلسطين لدرس الاوضاع فيها . وقد اتفق اعضاء البعثة ، بعد عودتهم من فلسطين ، على ضرورة توطين اليهود فيها ، « على اسس اشتراكية » ، الا انهم حذروا من وهم « الاعتقاد بأن المؤتمر الصهيوني ، بتركيبه الاجتماعي الحالي [البورجوازي] ، يستطيع ان يكون المشرف على خلق ارض ــ اسرائيل تعاونية »(٣٣) . لذلك دعوا الى عقد مؤتمر عام للعمال اليهود ، تحت اشراف بوعالي تسيون ، للعمل على تأمين القروض الضرورية لذلك ، لان « العامل اليهودي ، في الوقت الذي يتقوض فيه المجتمع الرأسمالي ، يستطيع ان يقوم وحده ببناء ارض ــ اسرائيل اشتراكية ، وهو مجبر على ذلك وملزم به »(٣٤) .

وقد جوبه هذا القرار بمعارضة تلك الفئات من بوعالي تسيون ، التي كانت تحبذ التعاون مع الفئات الصهيونية غير العمالية لاقامة الوطن القومي في فلسطين ، فازدادت الخلافات داخل الاتحاد العالمي حدة ، بشكل كاد يشل فعاليته . لذلك عقد الاتحاد مؤتمرا عاما في فيينا ، بين ٢٧ تموز (يوليو) و٨ آب (اغسطس) ١٩٢٠ ، للبت في تلك الخلافات ، وادرجت على جدول اعماله نقطتان رئيسيتان : الاولى ، هي العلاقة بالاممية الثانية ؛ والثانية ، هي الموقف من النشاط الصهيوني في فلسطين . وعند طرح النقطة الاولى للتصويت ، اقترع ١٧٨ عضوا الى جانب اقتراح يدعو الى الانفصال عن الاممية الثانية والانضمام الى الاممية الثالثة (الشيوعية) ، وامتنع ١٧٩ عن التصويت ، وصوت عضو واحد ضد الاقتراح . وازاء هذه النتيجة ، لم يبق مبرر لطرح النقطة الثانية للتصويت : اذ انشطر الاتحاد العالمي الى قسمين : قسم « يميني » ضم بوعالي تسيون في الولايات المتحدة وبريطانيا والارجنتين ، والتحق به ايضا حزب احدوت هعفوداه في فلسطين ؛ وقسم « يساري » انتسبت اليه فروع الاتحاد في معظم دول اوروبا الشرقية ، التي كانت تضم ، آنذاك ، أكثرية بوعالي تسيون . وكان كل اتحاد يضم ايضا عددا من الفئات غير المتجانسة عقائديا(٣٥) .

أثّر انشقاق بوعالي تسيون بشكل ملموس على نشاطهم في فلسطين . فقد ضم الاتحاد « اليميني » اقلية ، رفض معظمها الهجرة الى البلد ، اما الاتحاد « اليساري » ، فقد تخلى عن الصهيونيين ، وانهمك في اجراء مفاوضات مع الاممية الثالثة لحملها على قبوله عضوا فيها . وخلال فترة المحادثات تلك ، تبلورت ايضا داخل الاتحاد « اليساري » ، ثلاثة تيارات ، طالب

اولها بالانضمام الى الكومنترن بأي ثمن ، وقطع اية علاقة بالصهيونيين لتسهيل ذلك ، بينما اعلن الثاني موقفا مؤيدا للصهيونية ، في حين اتخذ الثالث موقفا وسطا يسعى للمحافظة على العلاقة بالطرفين . ومع فشل تلك المفاوضات ، التي استمرت نحو سنتين ، تفكك الاتحاد ، وانشقت عنه فئات واحزاب عدة ، ذات اتجاهات عقائدية مختلفة : منها الصهيوني ، او الصهيوني ـ اليساري ، او الشيوعي . وكانت قد حدثت ، في الوقت نفسه، تطورات مماثلة داخل تلك الاقلية من بوعالي تسيون في فلسطين ، التي رفضت الانضمام الى حزب احدوت هعفوداه ، عند اقامته سنة ١٩١٩ ، فأسست حزبا جديدا سمي « حزب العمال الاشتراكيين » (مفليغيت بوعاليم سوستياليستيم) ـ وعرف باسم « موبسي » ـ ثم تغير اسمه فصار « حزب العمال الاشتراكيين اليهود » . وسرعان ما تبلور داخل هذا الحزب تياران مختلفان : تيار صهيوني ـ اشتراكي ، وتيار شيوعي . وخلال سنتي ١٩٢٢ و١٩٢٣ ، اتحدت الفئات المتقاربة عقائديا ، الموجودة في فلسطين او خارجها ، واقامت حزبين جديدين : بوعالي تسيون سمول (اليساريين) من جهة والحزب الشيوعي الفلسطيني (اليهودي) من جهة اخرى(٣٦) (وكان لكل من الحزبين ، فيما بعد ، موقفه من الكيان الصهيوني في فلسطين) .

السياسة العمالية في فلسطين

كان لانشقاقات المعسكر العمالي اليهودي او الصهيوني خارج فلسطين ، تأثيرها المعاكس على العمال الصهيونيين في البلد :فقد غذت لديهم الميل الى الاتكال على انفسهم ورص صفوفهم ، باعتبار انهم يخوضون معركة « تحقيق » الصهيونية فعليا في فلسطين ، وانهم لا يستطيعون ، بالتالي ، السماح لانفسهم بالانهماك في « ترف » الخلافات النظرية . وكانت المجموعات العمالية ، ممن يؤيدون حزبي احدوت هعفوداه وهابوعيل هاتسعير وغيرهما ، القوى الصهيونية الرئيسية في فلسطين ، عشية احتلالها من قبل البريطانيين ، ثم فرض الانتداب عليها ، على الرغم من ان اليمين الصهيوني المعتدل ، الممثل بالصهيونيين العموميين على اختلاف اتجاهاتهم ، كان آنذاك ، القوة المسيطرة على المنظمة الصهيونية عالميا . وبحكم وضعهم هذا ، لعب العمال الصهيونيون دورا مهما خلال هذه المرحلة من تأسيس الوطن القومي اليهودي ، اذ كانوا الجهة الوحيدة التي تولت ، آنذاك ، تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين . وقد تم ذلك من خلال وجهات نظرهم ومنطلقاتهم العقائدية ـ الاجتماعية عموما ، من دون ان يظهروا اهتماما كبيرا بالقرارات الطنانة التي كانت تتخذها المؤتمرات الصهيونية المنعقدة خارج فلسطين ، في حال التعارض بين تلك القرارات وبين اهدافها .

وكان العمال الصهيونيون غير راضين ، على العموم ، عن سياسة المنظمة الصهيونية العالمية ، لا سيما الاستيطانية منها ، خلال هذه الفترة (ولم يتغير موقفهم هذا ، على أية حال ، حتى منتصف الثلاثينات ، عندما سيطروا على المنظمة) . ويعود « عدم الرضى » هذا الى سببين : اولهما ، ان المنظمة لم تقدم لهم الدعم المالي الكافي لتمويل مشاريعهم الاستيطانية وغيرها ، او ان كل ما قدمته ، او ما كانت تستطيع تقديمه ، كان غير كاف ؛ وثانيهما ان قيادة المنظمة « البورجوازية » ، الممثلة في اللجنة التنفيذية الصهيونية ، والمؤلفة بأكثريتها من الصهيونيين العموميين (حتى مطلع الثلاثينات) كانت « تتدخل » في شؤونهم ، من حين الى آخر ، فتعارض قيامهم بـ « تجارب » استيطانية « اشتراكية » جديدة ، وتسعى الى تقوية

العنصر « البورجوازي » بين المستوطنين في فلسطين ، على حساب « الاشتراكيين » . ولم يكن العمال راضين عن سياسة حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين ، بعد ان رفضت السلطات منحهم حقوق استيطان في اراض شاسعة ، كانوا يطالبون بتسليمهم اياها من دون مقابل . لكن خيبة أملهم في القيادة الصهيونية والسلطات البريطانية معا ، لم تدم طويلا ، ولم تؤثر فيهم كثيرا ؛ اذ سرعان ما كيفوا انفسهم مع الواقع الجديد ، وقرروا اتباع سياسة الاعتماد على النفس ، والعمل تبعا لامكاناتهم المالية والبشرية وتطويرها تدريجا (وهي السياسة التي لم تكن الا استطرادا للاسلوب الذي انتهجه عمال الهجرة الثانية الصهيونية ، منذ سنة ١٩٠٤) ، وراحوا يقيمون مختلف المؤسسات ، الاقتصادية والاستيطانية والنقابية وغيرها ، لتقوية مراكزهم على كافة الصعد من ناحية ، واستيعاب المهاجرين الجدد ، العمال منهم على وجه التحديد ، من ناحية ثانية . وثابر العمال على تنفيذ سياستهم هذه ، باصرار يلفت النظر ، فاحرزوا نجاحات كبيرة ، مكنتهم ، مع منتصف الثلاثينات ، من السيطرة على معظم مرافق الكيان الصهيوني في فلسطين ، انطلقوا منها ، بعد ذلك ، ليسيطروا على المنظمة الصهيونية العالمية بأسرها .

لكن الجناح العمالي الصهيوني لم يتمكن ، على أية حال ، من احراز هذه النجاحات لوحده ؛ اذ سرعان ما خرج من عزلته ، ووجد مناصرين خارج معسكره ، قدموا له خدمات كبيرة . وكان من ابرز اولئك المناصرين الدكتور وايزمن نفسه ، مع ما كان له من نفوذ ، بوصفه رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية . وكان وايزمن قد توصل ، من خلال اشرافه على النشاط الصهيوني عموما ، الى قناعة مفادها ان العمال هم الفئة الوحيدة القادرة على تنفيذ صهيونيته « العضوية » ، فقرر مساعدتهم ، لانه – على حد تعبيره – « بين الهاوية والنشاط [الصهيوني] العملي في فلسطين ، يقف مجتمع العمال التعاوني ، الذين شعرت بالتعاطف معهم ، برغم انني لم اعتبر نفسي ابدا واحدا منهم ... [لذلك] تبلور ، تدريجا ، حلف غير مكتوب بين تلك المجموعة من اصدقائي في ما يسمى حركة الصهيونيين العموميين ، وبين جماهير العمال في مستوطنات فلسطين ومصانعها ، الذين شكلوا عصب الحركة الصهيونية . وكان هذا هو ضمان وعينا السياسي ، وشعورنا بالمسؤولية وتحررنا من اوهام [الصهيونيين] الاصلاحيين ووسائل العنف على حد سواء »(٣٧) . ووصف مؤرخ الحركة العمالية المناوئة « لعمال وايزمن » (وهي نقابة العمال القومية – « هستدروت هاعوفديم هاليئوميت » – التي اسست في منتصف الثلاثينات ، باشراف الصهيونيين الاصلاحيين اليمينيين) نتائج هذا « الحلف غير المكتوب » بقوله : « ان زعماء الاحزاب العمالية كانوا قريبين جدا من وايزمن ، من حيث مفهومهم للصهيونية ... وعندما عقدوا حلفا [معه] ، ايدوا زعامته بالطبع ، بينما امّن هو تجيير اموال الصناديق الصهيونية لمشاريعهم »(٣٨) .

كتيبة العمل (غدود هعفوداه)

لم يتخل العمال الصهيونيون ، على الرغم من مناصرة وايزمن وصحبه اياهم ، عن سياستهم المستقلة ، النابعة من سعيهم وراء مصالحهم ، بل باشروا تنفيذها في مرحلة مبكرة . ففي نهاية سنة ١٩١٨ ، بعد انتهاء الحرب مباشرة ، تتالى وصول اعداد صغيرة من

المهاجرين اليهود الى فلسطين ، بطرق مختلفة . وقد ازدادت اعداد اولئك المهاجرين خلال النصف الاول من سنة ١٩١٩ ، مما حمل رئاسة المنظمة الصهيونية على اصدار نداءات الى فروعها ، في مختلف الدول الاوروبية، تحثها فيها على ايقاف تدفق المهاجرين الى فلسطين ، الى ان تكتمل الاستعدادات لاستيعابهم(٣٩) . ولم تحظ هذه النداءات برضى العمال ، الذين كانوا معنيين بزيادة عددهم في فلسطين بأية طريقة ، فقاموا ـ في اول عملية تحد لرئاسة المنظمة الصهيونية ـ بايفاد مبعوثين عنهم الى خارج البلد ، لحث المهاجرين على القدوم اليه وتنظيم عملية هجرتهم . واسفر هذا النشاط عن دخول بضعة الاف من المهاجرين اليهود الجدد الى فلسطين ، خلال سنة ١٩١٩ والنصف الاول من سنة ١٩٢٠ ؛ اي قبل ان تصدر سلطات الانتداب البريطاني اول قانون ينظم الهجرة الى البلد . وكان اولئك المهاجرون طلائع موجة جديدة من الهجرة ، عرفت بـ « الهجرة الثالثة » ، استمرت حتى سنة ١٩٢٣ ، ودخل الى فلسطين عبرها نحو ٣٥ الف مهاجر يهودي (منهم حوالى ١٨٠٠ ، سنة ١٩١٩ ، وما يزيد على ٨ الاف خلال السنوات ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢) . وقدم نحو ١٢ الفا من اولئك المهاجرين من الاتحاد السوفياتي ، و٩ الاف من بولونيا ، والباقون من دول اوروبية وآسيوية مختلفة(٤٠) .

كانت اكثرية المهاجرين الجدد ، خصوصا اولئك الذين قدموا من الاتحاد السوفياتي وبولونيا ، من اعضاء منظمة هيحالوتس ، المدربين على مهن يدوية ، اهمها الزراعية ، والقريبين في مفاهيمهم الاجتماعية ـ السياسية من ابناء الهجرة الثانية (الذين قدموا الى فلسطين خلال السنوات ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ ، وانشأوا فيها مختلف الاجهزة والمؤسسات العمالية) . لذلك لم يجدوا صعوبة في الاندماج فيهم ، فشكلوا واياهم ، بسرعة ، قوة متماسكة ، راحت تسعى الى اقامة « المجتمع العمالي » الصهيوني في فلسطين . ولم تتمكن طلائع اولئك المهاجرين ، فور قدومهم الى فلسطين ، من انشاء مستوطنات خاصة بهم ، لعدم وجود اراض زراعية كافية في حيازة مؤسسات الاستيطان الصهيونية من جهة ، ولقلة امكاناتها المالية من جهة اخرى ، فقاموا بتعاطي الاعمال التي توفرت لهم . وكانت السلطات البريطانية تسعى حثيثا ، في ذلك الوقت ، لانشاء ادارات حديثة في فلسطين ، واقامة المنشآت التابعة لها ، مما ادى الى توفير مجالات عمل كثيرة ، استوعبت معظم اولئك المهاجرين : فعملوا في البناء وشق الطرق ، ومنشآت سكك الحديد والتليفون والموانىء والنقل والوظائف الحكومية على اختلافها(٤١) . وكان اكثر من نصف مهاجري الهجرة الثالثة من الشباب العازبين او الازواج الشبان ، مما ساعدهم على التكيف ، بسهولة نسبية ، مع الاوضاع الجديدة(٤٢) .

وما ان مرت بضعة اشهر على وصول المهاجرين الجدد الى فلسطين ، حتى راحوا يلعبون دورا متميزا ، كان له صداه بين المستوطنين العمال . وكانت اولى خطواتهم ، في هذا المجال ، سعيهم لتنظيم انفسهم ، بطريقة خاصة بهم . ففي ٢٥ آب (اغسطس) ١٩٢٠ ، قرر نفر منهم ، اثناء حفل تأبيني اقيم بمناسبة مرور نصف عام على مقتل ترومبلدور ، اقامة ما سموه « كتيبة يوسف ترومبلدور للعمل والدفاع » ، او « كتيبة العمل » (غدود هعفوداه) . وكان هدف المؤسسين ، ومعظمهم من اعضاء هيحالوتس في روسيا سابقا ، المتأثرين بالثورة البولشفية، من اعلان انشاء الكتيبة، هواقامة تنظيم عمالي شامل، يقبل انضمام كل عامل او مهاجر اليه ، مهمته تنفيذ اي نوع من العمل « الطلائعي » ، الضروري لاقامة المجتمع العمالي

الصهيوني في فلسطين(٤٣) . والواضح ان هذا الاتجاه كان مناقضا للرأي الداعي الى اقامة ذلك المجتمع باعتماد اسلوب الاستيطان الزراعي فقط ، ضمن تياري الكبوتساه او الموشاف ، وهما آخر ما توصل اليه فكر ابناء الهجرة الثانية التنظيمي .

لم يزد عدد اعضاء كتيبة العمل ، عند تأسيسها ، على بضع عشرات ، الا انه ارتفع تدريجا ، فوصل الى ما يزيد على الفي عامل ، بعد نحو خمس سنوات من اقامتها . وكانت الكتيبة قد عقدت اول مؤتمراتها في حزيران (يونيو) ١٩٢١ ، واعلنت ان هدفها هو « بناء البلد باقامة كومونة عامة للعمال اليهود في ارض ــ اسرائيل » ، وذلك « بتنظيم الاعضاء في مجموعات منضبطة » وانشاء « صندوق عام » يزودهم بحاجاتهم ، وتأمين « انتاج خاص » يدعم ذلك الصندوق، و«توسيع القاعدة الاقتصادية ، وتحسين شروط العمل عن طريق استغلال فائض الارباح »(٤٤) . وخلال فترة قيامها ، شكلت كتيبة العمل مجموعات مختلفة ، قامت بتنفيذ شتى الاعمال في كافة انحاء فلسطين ، وتعاونت ، في هذا المجال ، مع بعض الفئات العمالية الاخرى ، مثل انصار الكبوتساه الكبيرة واتباع هاشومير هاتسعير .

تاسيس الهستدروت

انصبت جهود ابناء الهجرة الثالثة ، الى جانب عملهم في اقامة كتيبة العمل ، على الدعوة الى تأسيس اتحاد عام للعمال اليهود في فلسطين ، لاحساسهم بضرورة انشاء مثل هذا الاتحاد ، نتيجة الاوضاع التي نشأت على اثر توتر العلاقات بين الفئات العمالية ، ذات الاتجاهات السياسية المختلفة . فبعد اقامة حزب احدوت هعفوداه ، في اواخر سنة ١٩١٩ ، ورفض هابوعيل هاتسعير الانضمام اليه ، ازداد التوتر في العلاقات بين الحزبين ، واشتد التنافس بينهما ، فراح كل منهما يقيم مؤسسات خاصة به ، موازية لتلك التي يقيمها الفريق الاخر . ولم يمر وقت طويل ، حتى اقيم مكتبان للاستخدام ، ومكتبان لاستيعاب المهاجرين ، ومؤسستان للضمان الصحي ، وشركتان لمقاولات البناء وغيرهما(٤٥) . لذلك وجد المهاجرون الجدد انفسهم مضطرين ، مع وصولهم الى فلسطين ، الى التوجه لهذه المؤسسة او تلك ، لتدبير شؤونهم ، ومن ثم تقرير مواقفهم السياسية واعتبارهم ، رغما عنهم ، اعضاء في هذا الحزب او ذاك(٤٦) ، وهو ما لم تكن اكثريتهم على استعداد له . وقد ادى ذلك الى ردود فعل مختلفة ، تبلورت على اثرها مواقف تدعو الى اقامة اتحاد عمالي عام ،غير حزبي ، يقبل في صفوفه اي عامل ، بغض النظر عن ميوله الحزبية ، ويشرف على كافة الشؤون النقابية . وكان المهاجرون الجدد اكثر المتحمسين لهذه الفكرة . الا ان الاحزاب تلكأت في اعلان موافقتها ، فاستمرت المفاوضات بينها بهذا الشأن عدة اشهر ، الى ان تكللت بالنجاح ، تحت ضغط اللاحزبيين . وفي تموز ١٩٢٠ ، عقد اتفاق بين احدوت هعفوداه وهابوعيل هاتسعير ، تعهد الطرفان بموجبه بالدعوة الى عقد « مؤتمر عام لعمال ارض ــ اسرائيل ، لبحث طرق العمل المشترك ، واقامة المؤسسات الضرورية لذلك ... [بشرط] الا تدرج مسألة الغاء الاحزاب على جدول اعمال المؤتمر العام »(٤٧) .

ومع توقيع هذا الاتفاق ، سارت الاستعدادات لعقد المؤتمر العام للعمال بخطى حثيثة . وكانت الخطوة الاولى اجراء انتخابات عامة بين العمال ، لاختيار ممثلين عنهم في المؤتمر . وقد

اشترك في تلك الانتخابات ٤٤٢٣ عاملا وعاملة ، وزعت اصواتهم على اربع قوائم ، فحصلت قائمة احدوت هعفوداه على ١٨٦٤ صوتا ، وهابوعيل هاتسعير على ١٣٢٤ صوتا ، وقائمة المهاجرين الجدد (التي ضمت هيحالوتس وهاشومير هاتسعير) على ٨٤٢ صوتا ، وحزب العمال الاشتراكيين اليهود ، ذو الميول الشيوعية على ٢٠٢ اصوات . وعلى الاثر ، سمى المندوبون للمؤتمر ، من بين مرشحي تلك القوائم ، فبلغ عددهم ٨٧ مندوبا ، كانت حصة كل من القوائم الاربع المشار اليها ، على التتـالي : ٣٨ و٢٧ و١٦ و٦ مندوبين .

افتتح المؤتمر العام للعمال اليهود في فلسطين ، في ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠ ، في احدى قاعات معهد الهندسة التطبيقية (التخنيون) في حيفا ، واشترك فيه ، بالاضافة الى المندوبين ، حشد من العمال وبعض المسؤولين الصهيونيين . واستمر المؤتمر خمسة ايام ، لم يكتف المجتمعون خلالها بمناقشة الشؤون العمالية فقط ، بل تطرقوا الى كافة اوجه النشاط الصهيوني في فلسطين كذلك ، كما ناقشوا تطلعاتهم للمستقبل ، باعتبار ان مهامهم لا تنحصر في الشؤون النقابية ، بل تمتد لتضم معظم نواحي الوطن القومي في فلسطين ، الذي ينبغي عليهم المساهمة في انشائه . وظهر هذا الاتجاه واضحا في القرارات التي اتخذها المؤتمر ، عندما اعلن اقامة اتحاد عام للعمال ، او ــ بحسب الاسم الرسمي بالعربية ــ « النقابة العامة للعمال اليهود* في ارض ــ اسرائيل » (الهستدروت) .

وضعت الهستدروت ، عند تأسيسها ، دستورا يعرف بها ويشير الى اوجه نشاطها واتجاهاتها . وجاء في المادة الاولى من هذا الدستور « ان النقابة العامة [الهستدروت] توحد جميع العمال [واصحاب الاعمال الحرة] في البلد ، الذين يعيشون من كدحهم دون استغلال عمل غيرهم ، وذلك من اجل تنظيم شؤون العاملين في البلد ، الاستيطانية والاقتصادية ، وايضا الثقافية [وكان قد نشأ خلاف بين اعضاء المؤتمر حول علاقة الهستدروت بالشؤون الثقافية ، ولذلك اعدت المادة بهذه الصيغة] لاقامة مجتمع العمل اليهودي في ارض ــ اسرائيل»(٤٨) . كما تقرر ان تؤلف الهستدروت من نقابات مهنية ، بحيث يستطيع كل فرد الانضمام اليها من خلال النقابة التي تضم العاملين في قطاع مهنته فقط .

ولاقامة « مجتمع العمل اليهودي في ارض ــ اسرائيل » ، لم تكتف الهستدروت بالسعي لتنظيم الشؤون النقابية البحت ، بل تطرقت الى امور اخرى غيرها ، اعتبرت الاهتمام بها ضروريا لاقامة ذلك المجتمع . لذلك اعلنت ان « دائرة نشاطها » تضم ، على سبيل المثال ، « تنظيم وتطوير القرى الزراعية ، وباقي فروع العمل في القرية والمدينة ، وتنظيم كتائب عمل ومجموعات للزراعة والصناعة » ، وتنفيذ اعمال المقاولات ، و« تنظيم العمال في نقابات مهنية شاملة ، توحد العمال كلهم مهنيا على اساس غير حزبي » ، وتحسين ظروف العمل وانتاجيته ، والتدريب المهني ، والتعاونيات ، والضمان الاجتماعـي ، و« تنظيـم شؤون الحراسـة

---

* اتخذ مؤتمر الهستدروت العاشر ، المنعقد في تل ــ ابيب في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٦ قرارا يقضي بحذف كلمة « اليهود » من اسم الهستدروت بعد قبول العمال العرب اعضاء . إلا ان المؤتمر رفض اقتراحا يدعو الى استبدال عبارة « ارض ــ اسرائيل » بكلمة « اسرائيل » .

والدفاع » ، واستقبال المهاجرين وايجاد عمل لهم ، وتنظيم هجرة العاملين الموجودين خارج فلسطين ، ونشر اللغة العبرية بين العمال ، واقامة مؤسسات ثقافية ، عامة او زراعية او مهنية ، واصدار صحف مهنية . واعلنت الهستدروت ، ايضا ، انها ستوثق علاقاتها بكافة المنظمات العمالية اليهودية خارج فلسطين ، التي تؤمن بضرورة « بناء ارض ـ اسرائيل عاملة » وانها سترسل مندوبين عنها الى مؤسسات الاستيطان الصهيونية(٤٩) .

واتخذ المؤتمر ، ايضا ، مجموعة من القرارات التنظيمية ، حيث اعلن تشكيل مجلس للهستدروت، مؤلف من ٢٧ عضوا . وتركت اربعة من مقاعده شاغرة ، لكي يمنح اثنان منها لمندوبين عن العمال المهاجرين من اليمن ، واثنان آخران لمندوبي العاملات . وكُلّف المجلس بانتخاب اللجنة التنفيذية للهستدروت ، وادارة مؤسساتها المركزية . كما قرر المؤتمر جعل الهستدروت مسؤولة عن ادارة المؤسسات غير الحزبية ، التي كانت الاحزاب قد اقامتها ، واوصى باقامة نقابة عامة للعمال الزراعيين ، وانشاء مكتب اشغال عامة موحد ، ومصرف للعمال يتولى تمويل مشاريع الهستدروت . واعلن المؤتمر ـ في عملية تحد اخرى من قبل العمال للقيادة الصهيونية ـ تبنيه ودعمه اربع نقاط استيطانية صغيرة ، كانت مؤسسات الاستيطان الصهيونية قد حكمت عليها ، لاعتبارات اقتصادية ، بالزوال(٥٠) .

انهمكت الهستدروت ، خلال السنة الاولى لقيامها ، في انشاء مختلف اجهزتها ومؤسساتها . وكانت اولى تلك الاجهزة مجالس العمال في المدن والمناطق ، التي اعتبرت فروعا اقليمية للهستدروت . وتقرر ان يختار العمال ممثليهم ، في هذه الاجهزة ، بالتصويت وفق قوائم حزبية او فردية ، لا على اساس المهنة كما هي الحال بالنسبة لاعضاء مؤتمر الهستدروت ، وذلك لتوسيع قاعدة التمثيل النسبي ، وضمان تمثيل كل اقلية من اقليات تلك المجالس(٥١) . واقيم ايضا ، في مطلع سنة ١٩٢١ ، « مكتب الاشغال العامة والبناء » ـ وتغير اسمه سنة ١٩٢٤ فصار شركة « سوليل بونيه » (يخطط ويبني) ـ بعد توحيد مكتبي المقاولات التابعين لحزبي احدوت هعفوداه وهابوعيل هاتسعير . ولعبت هذه الشركة دورا بارزا في تأمين العمل لاعداد كبيرة من العمال اليهود ، خلال سني الهستدروت الاولى ، خصوصا بعد ان تقلص حجم الاشغال العامة التي بادرت سلطات الانتداب الى تنفيذها(٥٢) . وكانت لجنة الهستدروت التنفيذية قد باشرت فور تشكيلها ، بالتعاون مع رئاسة المنظمة الصهيونية ، اتخاذ الاجراءات الضرورية لاقامة مصرف العمال (بنك هابوعاليم) ، الذي حصل في الاول من ايار ١٩٢١ على ترخيص بمزاولة نشاطه . وكان الهدف من اقامة هذا المصرف ، الذي اودعت اسهمه التأسيسية لدى اللجنة التنفيذية للهستدروت لضمان سيطرتها عليه ، ايجاد مؤسسة مالية لتمويل مشاريع الهستدروت ، لا منح القروض للعامل الفرد . وقد اقيمت لهذا الغرض مؤسسة مالية اخرى هي « كوفات ملفيه » (صندوق القروض)(٥٣) .

وفي الوقت نفسه ، بذلت الهستدروت جهودا تنظيمية كبيرة لحمل اكبر عدد من العمال على الانضمام اليها ، فأحرزت ، خلال فترة قصيرة ، تقدما ملموسا . فقد تبين من احصاء عام للعمال اليهود في فلسطين ، اجرته اللجنة التنفيذية للهستدروت في ١٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٢ ، اي بعد مرور اقل من سنتين على تأسيس النقابة ، ان ٨٣٩٤ عاملا من بين ١٦,٦٠٨

عمال ، اي ما يزيد قليلا عن النصف (٥٠,٥٤٪) كانوا اعضاء فيها (واجاب ١٤,٤٢٦ عاملا عن السؤال المتعلق بتاريخ قدومهم الى فلسطين ، فاتضح ان ٢١٩٠ عاملا منهم (١٦,٦٪) كانوا من مواليد البلد ، و٤٧٦ (٣,٢٪) قدموا اليها مع هجرة هواة صهيون و٢٥٧٢ (١٧,٨٪) من ابناء الهجرة الثانية ، و٨٩٨٦ (٦٢,٣٪) من ابناء الهجرة الثالثة)(٥٤) . واستمر عدد اعضاء الهستدروت بعد ذلك في الازدياد ، فأصبحت تضم ، عموما ، نحو ثلثي العمال اليهود في فلسطين بأسرهم ، وتحولت الى مركز قوة لا يستهان به ، للجناح العمالي الصهيوني .

المؤتمران الصهيونيان الثاني عشر والثالث عشر

بعد فترة استعداد طويلة ، وفي حالة من الضعف الذي سيطر على المنظمة الصهيونية العالمية ، عقد المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (وهو اول مؤتمر يعقد بعد الحرب العالمية الاولى) في كارلسباد بتشيكوسلوفاكيا ، خلال ١ ــ ١٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٢١ ، بحضور ٥١٢ مندوبا ، يمثلون ٨٥٥,٥٩٠ صهيونيا من دافعي رسوم العضوية (الشيكل)(٥٥) . ويلاحظ ان عدد الصهيونيين المسجلين ازداد بشكل ملحوظ خلال سنوات الحرب وبعدها . فوصل ، سنة ١٩٢١ ، الى نحو اربعة اضعاف ما كان عليه عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني السابق ــ الحادي عشر ــ سنة ١٩١٣ ، حيث بلغ عددهم ، انذاك ، ٢١٧,٢٣١ شخصا . والواضح ان صدور وعد بلفور ، ثم فرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، وما ادبا اليه من انتعاش في الامال باقامة كيان صهيوني فيها ، كانت الاسباب الرئيسية وراء تلك الزيادة في عدد الصهيونيين المسجلين . وقبيل انعقاد المؤتمر ، لم تتمكن التنظيمات الصهيونية ، على اختلافها ، من اجراء انتخابات لاختيار المندوبين له ، لاسباب عدة ، لذلك اتفق على تعيينهم ، فجاء ٣٧٦ مندوبا منهم يمثلون منظمات قطرية صهيونية في بلدان مختلفة ، و٩٥ عن المزراحي ، و٤١ عن الاحزاب العمالية . واتخذ المؤتمر قرارات ، صادق بموجبها على معظم الاجراءات التي اتخذتها القيادة الصهيونية منذ انتهاء الحرب . وانتخب وايزمن رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية ، وسوكولوف رئيسا للجنة التنفيذية الصهيونية ، التي انقسم اعضاؤها الى قسمين ، يقيم الاول منهما بشكل دائم في لندن ، والثاني في القدس .

وبالاضافة الى ذلك ، اقر المؤتمر الصهيوني الثاني عشر لوائح تنظيمية جديدة للمنظمة الصهيونية ، تعرف بأجهزتها المختلفة وتحدد بوضوح حقوق وواجبات كل منها وصلاحياته(٥٦) ، ووضعت انظمة لضبط الانتخابات للمؤتمرات الصهيونية ، واخرى للاشراف على تأسيس الاتحادات الصهيونية الاقليمية ومراقبة نشاطها . كما انشأت « محكمة شرف » للنظر في المخالفات المبدئية ، واحيانا التنظيمية ، التي قد يرتكبها الصهيونيون . وعدلت هذه اللوائح ، فيما بعد ، من قبل اكثر من مؤتمر صهيوني(٥٧) . وكانت هذه الاجراءات قد اتخذت في محاولة من المنظمة الصهيونية لملاءمة نفسها مع تعليمات المادة الرابعة من صك الانتداب ، تسهيلا للاعتراف بأنها هي الوكالة اليهودية ، « ما دامت الدولة المنتدبة ترى ان نظامها وتأليفها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض » ، وحتى يسمح لها بأن « تشير وتعاون في ادارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك ، مما يؤثر في انشاء الوطن القومي

اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين » ، الى ان يتم تشكيل تلك الوكالة اليهودية ، الامر الذي لم تتمكن المنظمة الصهيونية من تنفيذه الا سنة ١٩٢٩ . وعدا ذلك ، لم تسفر مباحثات المؤتمر الصهيوني الثاني عشر عن شيء يذكر ، فوصفه وايزمن ، بعد انفضاضه ، بأنه « ساهم في حمل الحركة على النزول [من عليائها] الى الارض ، لمواجهة الحقائق الصعبة ، والسير في الطريق الوحيد الذي قد يؤدي الى النجاح ، طريق العمل البطيء والشاق والمنهجي في فلسطين »(٥٨) .

وبعد مرور سنتين على انعقاد هذا المؤتمر ، عقد المؤتمر الصهيوني التالي ، الثالث عشر ، في كارلسباد ايضا ، بين ٦ و١٨ آب ١٩٢٢ ، بحضور ٣٢١ مندوبا ، يمثلون ٩٥٧,٩٨٢ صهيونيا من دافعي رسوم الشيكل(٥٩) . وكان من ابرز اعمال هذا المؤتمر ، مناقشة اقتراح انشاء الوكالة اليهودية ، التي نص صك الانتداب على اقامتها . غير ان هذا الاقتراح ، الذي دعا الى اشراك يهود غير صهيونيين ، للافادة من قدراتهم المالية ، في اقامة الوكالة اليهودية والمساهمة في الاشراف على ادارتها ، وحظي بتأييد وايزمن ، اثار معارضة اقلية المندوبين(٦٠) ، فانسحب اوسيشكين وجابوتينسكي من اللجنة التنفيذية الصهيونية ، وانتخب المؤتمر لجنة جديدة وايزمانية النظرة .

وعلى صعيد آخر ، اثبتت نتائج الانتخابات للمؤتمر الصهيوني الثالث عشر ، ان الحركة الصهيونية كانت ، في مطلع العشرينات ، خاضعة لسيطرة تيار صهيوني يميني معتدل ، عرف باسم الصهيونيين العموميين (الذين حصلوا على ١٦٩ مقعداً في المؤتمر ، من اصل ٣٢١ مقعداً : اي ٥١٪)، على الرغم من الضجيج الكبير الذي كان يثيره الجناح العمالي الصهيوني ، بكافة فئاته من جهة ، والصهيونيون المتدينون ، من اتباع المزراحي وغيرها من جهة اخرى . وكان اسم الصهيونيين العموميين يطلق على تلك الفئات من الصهيونيين الملتزمين ببرنامج بازل فقط ، دون ان يكون لهم اي موقف محدد من النواحي الاقتصادية والاجتماعية للوطن القومي اليهودي في فلسطين . لذلك كان نشاطهم محدوداً في نشر الفكرة الصهيونية في المهجر ، ودعم النشاط والطلبات الصهيونية عموما ، وتأمين الاموال اللازمة لبناء الكيان الصهيوني في فلسطين ، دون ان يهتموا ، مثلا ، باقامة مؤسسات او مشاريع اقتصادية لاعضائهم في البلد ، كما فعل الجناح العمالي او المتدينون ، مما شكل سببا رئيسيا في انحسار نفوذهم ، على المدى الطويل . وقد اعتبر الصهيونيون العموميون انفسهم جزءا من احزاب المركز الليبرالية الديمقراطية ، ويمكن النظر اليهم بوصفهم طبعة جديدة من الكتلة الديمقراطية(٦١) ، التي نشطت خلال عهد هرتسل . وكانت بعض جمعيات الصهيونيين العموميين قد اصدرت سنة ١٩٢٣ ــ في احدى المرات النادرة التي يعبر فيها الصهيونيون العموميون ، او أية فئة منهم ، عن مواقفهم السياسية بوضوح ــ « برنامجا » اعلنت فيه « ان الاهداف السياسية للصهيونية يمكن ان تنفذ عمليا بواسطة جهود وقوى الامة كلها فقط ، لا بواسطة جهود وقوى افراد او مجموعة ، او قوى هذه الطبقة او تلك . وتوحد الحركة الصهيونية ، لتحقيق اهدافها ، كل فئات الشعب وطبقاته ، وتقدم القضايا القومية على مشاكل النمو الاجتماعي ... الداخلية . ولذلك لا ينبغي ان يستند اسلوب عمل الحركة على اساس صراع الطبقات ، او على اساس النشاط الحزبي المنفصل ، بل على اساس نشاط منظمة شعبية شاملة ، توحد داخلها كل اسس

الحركة الاجتماعية وتياراتها الفكرية(٦٢) . ولهذا « ينبغي ان تضع الحركة [الصهيونية] نصب عينيها خلق الظروف فقط ، التي تساعد على استغلال الطاقة الشعبية في مشروع البعث [اليهودي] ، دون [التدخل] في الاعمال الناجمة عن النشاط القومي المتجدد »(٦٣) . وكان الصهيونيون يعتبرون وايزمن زعيما للتيار الصهيوني العمومي ، وخير ممثل لاتجاهاته ومواقفه السياسية .

وشهدت نهاية هذه الفترة نشوء حزب او تيار صهيوني رابع ـ بالاضافة الى الصهيونيين العموميين و المزراحي والجناح العمالي ـ هو الصهيونيون الراديكاليون (او الديمقراطيون) ، الذين اشترك ٢١ مندوبا عنهم في المؤتمر الصهيوني الثالث عشر ، سنة ١٩٢٣ . ولم يكن الصهيونيون الراديكاليون ، الذين كانوا بأكثريتهم من صهيونيي بولونيا وترأسهم يتسحاق غرينباوم وناحوم غولدمان (فيما بعد ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية) ، يختلفون كثيرا في منطلقاتهم الاساسية عن الصهيونيين العموميين . ولكنهم تميزوا عنهم بمعارضة سياسة وايزمن « المرنة » ، القائمة على التسويات ، تجاه البريطانيين ، ولم يوافقوا ايضا على ضم غير الصهيونيين الى الوكالة اليهودية . وايد الراديكاليون كذلك ، خلافا للصهيونيين العموميين ، الاستيطان العمالي « الاشتراكي » او التعاوني ، باعتباره اساسا لبناء الكيان الصهيوني في فلسطين . لكن على الرغم من نشوء هذا الحزب الجديد ، الذي وجد نفسه ، رغم « يمينيته » ، يقف الى جانب الجناح العمالي ، ويعارض في الوقت ذاته المزراحي ، نظرا لتشديده على العلمنة، وبقي الصهيونيون العموميون القوة الرئيسية المسيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية حتى مطلع الثلاثينات .

تاسيس « هيئة العاملين » (حفرات هاعوفديم)

في ضوء هذه السيطرة « اليمينية » على المنظمة الصهيونية العالمية واجهزتها ، لم يكن لدى الجناح العمالي الصهيوني من طريق ، لتأمين مصالحه ، الا الامعان في سياسة الاعتماد على النفس ، وتقوية اجهزته الخاصة به ، وفي مقدمتها الهستدروت . فبعد مرور سنتين على تأسيسها ، عقدت الهستدروت مؤتمرها الثاني في تل ـ ابيب ، بين ٧ و٢٠ كانون الثاني ١٩٢٣ . وكانت انتخابات اعضاء هذا المؤتمر قد اسفرت عن فوز حزب احدوت هعفوداه بأكثرية المقاعد (٦٩ من اصل ١٣٠) ، وحصل هابوعيل هاتسعير على ٣٦ مقعداً ، واقتسمت الباقي سبع قوائم صغيرة اخرى(٦٤) ، كانت ثلاث منها يسارية او ذات ميول شيوعية ، وحصلت مجتمعة على ١٠ مقاعد . وبقيت نسبة توزيع المقاعد هذه في مؤتمرات الهستدروت اللاحقة ، على حالها ، بشكل او بآخر ، منذ ذلك الوقت ؛ اذ اسفرت الانتخابات لتلك المؤتمرات عن فوز أحدوت هعفوداه (مباي منذ سنة ١٩٣٠ ، وحزب العمل الاسرائيلي منذ سنة ١٩٦٨) دائما بأكثر من نصف عدد المقاعد ، بينما اقتسمت الباقي مجموعة من القوائم الصغيرة الاخرى(٦٥) . والواضح ان نسب القوى هذه مكنت احدوت هعفوداه(ثم مباي، فحزب العمل الاسرائيلي) من السيطرة على الهستدروت منذ اقامتها ، وتحويلها الى اداة في ايدي الحزب ، استغلها لتنفيذ سياسته ، وان أصر ، في الوقت نفسه ، على اشراك اية فئة استطاع التفاهم معها في ادارة النقابة وتحمل مسؤولياتها . والواضح ايضا ان هذا الوضع منح الهستدروت قيادة مستقرة ، واثقة بنفسها ، مما مكنها من ممارسة نشاطها على الوجه الاحسن .

عقد مؤتمر الهستدروت الثاني في فترة غير مريحة بالنسبة للعمال الصهيونيين ؛ اذ بدأت بوادر انكماش اقتصادي في الظهور ، سنة ١٩٢٣ ، في عدد من مجالات العمل التي كانت تتركز فيها اعداد كبيرة من اولئك العمال ، فتفشت البطالة بينهم . وكان من نتيجة ذلك ، ان نزح من فلسطين ، سنة ١٩٢٣ ، نحو ٣٥٠٠ شخص من المهاجرين القدامى ، في مقابل ٨١٠٠ مهاجر قدموا اليها في السنة نفسها وكانت هجرة القدامى هؤلاء الى خارج فلسطين ، بسبب تدهور اوضاعهم الاقتصادية اساسا . ولكن ، من ناحية ثانية ، كانت القوى الفعالة في الهستدروت قد حددت حتى ذلك الوقت ، ومن خلال التجربة ، موقفها من النقابة ونشاطها ، والمهام التي ينبغي ان توكل اليها . وزادت الازمة من بلورة تلك المواقف ، وتصميم اصحابها على تحمل مسؤولياتهم . لذلك جاء المؤتمر الثاني اكثر اهمية ، حتى من المؤتمر الاول التأسيسي ، من حيث تأثيره على توضيح اهداف الهستدروت ، وتحديد مهامها وانشاء اجهزتها الدائمة .

كان من ابرز اعمال المؤتمر الثاني للهستدروت تعديل دستور النقابة ، بما في ذلك المادة الاساسية (الاولى) منه ؛ اذ شطبت كلمة « ايضا » قبل « الثقافية » (انظر اعلاه) ، وذلك لازالة اية قيود على عمل الهستدروت في المجال الثقافي ، واستبدلت عبارة « شؤون العاملين » بعبارة « الطبقة العاملة » ، فأصبحت المادة تقرأ كما يلي : « توحد النقابة العامة للعمال اليهود في ارض ــ اسرائيل [الهستدروت] وتنظم كل العمال ، الذين يعيشون من كدحهم دون استغلال عمل غيرهم ، وذلك من اجل تنظيم كل شؤون الطبقة العاملة في البلد ، الاستيطانية والاقتصادية والثقافية ، لاقامة مجتمع العمل اليهودي في ارض ــ اسرائيل »(٦٦) . واعترف المؤتمر بحق كل عاملة او عامل بلغ السابعة عشرة من عمره ، بالانضمام الى الهستدروت ، ما دام موافقا على مبادئها ، بغض النظر عن مواقفه السياسية .

واضيفت مادة اخرى الى « اسس الهستدروت » توضح أن من بين اهدافها « اقامة علاقات زمالة مع العمال العرب في البلد ، وتنمية العلاقات مع حركة العمال اليهودية والدولية في العالم »(٦٧) .

واتخذ المؤتمر مجموعة من القرارات الاخرى ، كان من ابرزها اصدار صحيفة يومية للهستدروت باللغة العبرية ، هي « دافار » (شيء) ، التي تصدر منذ سنة ١٩٢٥ (وقبلها كانت صحيفة « هآرتس » ــ البلد ــ المستقلة ، ذات الميول الليبرالية ، قد بدأ صدورها في فلسطين منذ سنة ١٩١٩) ، وتأسيس دار نشر ، هي « عام عوفيد » (شعب عامل) ، التي لم يكن بالامكان تأسيسها الا سنة ١٩٤٢ . ووسعت صلاحيات كل من اللجنة التنفيذية ومجلس الهستدروت ، وهما الجهازان اللذان كلفا الاشراف الفعلي على النقابة وادارة شؤونها اليومية (وكان دستور الهستدروت ، قد عدل مرة اخرى ، في مؤتمرها الثالث المنعقد سنة ١٩٢٨)(٦٨) .

غير ان اهم اعمال المؤتمر الثاني كانت ، من دون شك ، وضع الاسس التنظيمية والقانونية لنشاط الهستدروت الاقتصادي . وكانت هذه الناحية ، انطلاقا من مفاهيم مؤسسي الهستدروت وقادتها ، بالغة الاهمية ، من حيث اثارتها عددا من الاسئلة التي طرحها المؤتمر على نفسه . فأعضاء الهستدروت وقادتها هم ، اولا ، مجموعات من المهاجرين الى فلسطين ،

يهمها اجتذاب المزيد من المهاجرين الى البلد، للتعاون معهم في اقامة «مجتمع العمل اليهودي». لذلك يجب ان يكون واضحا الى اي مدى يمكن ان تستغل الهستدروت ومؤسساتها لتسهيل عملية استيعاب الهجرة وتوسيعها ، بواسطة اقامة المشاريع الاقتصادية المختلفة . ثم ، ثانيا ، ما هي ضمانة الا تتحول مشاريع الهستدروت ، في حال نجاحها ، الى مؤسسات راسمالية تستغل باقي العمال ، « وكيف سنحافظ على طابعها الطبقي والاجتماعي والصهيوني ؟ ... [واخيرا] كيف سنحصل على الامكانات الضرورية لتوسيع نشاطنا الاقتصادي وتطويره ؟»(٦٩) . وقد ناقش المؤتمر هذه الاسئلة ، وما تفرع عنها ، طويلا ، وقرر « انشاء هيئة اقتصادية عليا لجمهور العاملين، ذات صلاحيات تشريعية، تراقب نشاط الهستدروت الاقتصادي وتوجهه ، بكل نواحيه »(٧٠) . وسميت هذه الهيئة « حفرات هاعوفديم [« هيئة العاملين » ، وتعني ايضا « مجتمع العمال »] اليهودية التعاونية للاستيطان والصناعة واعمال المقاولات والتموين ... » ، ومهمتها « تنظيم وتطوير وتقوية النشاط الاقتصادي ... لجمهور العاملين ، في كل فروع الاستيطان والعمل في القرية والمدينة ، على اساس المساعدة والمسؤولية المتبادلة »(٧١) . وبلغة اخرى ، اعتبرت الهستدروت نفسها ، بقرارها هذا ، مؤسسة اقتصادية ، بالاضافة الى كونها ، في الوقت ذاته ، اتحاد عمال ، بحيث يعتبر من ينضم اليها ، حال انضمامه ، عضوا في نقابة عمال من ناحية ، ومساهما في شركة من ناحية اخرى .

واعتبر مؤتمر الهستدروت « هيئة العاملين » ، في تحديده صلاحياتها ، « مالكة كل مؤسسات الهستدروت المالية والتعاونية ، ولها حق انشاء المؤسسات والمشاريع والصناديق المالية ، وفي حيازتها تودع اسهم مصرف العمال التأسيسية ... وباقي الشركات الفرعية . ولها ايضا حق فرض الضرائب وتحديد أجر العمل في مؤسساتها ومزارعها ... وحق تقدير اثمان المنتوجات . وتنسق هيئة العاملين اعمال مختلف المؤسسات ، وتراقب ادارتها ، وتصادق على مشاريعها ، وتشرف على تنفيذها ، وتوجه نشاطها ، لمصلحة جمهور العاملين »(٧٢) . اما « هيئة العاملين » نفسها ، فقد اعلنت في عقد تأسيسها ، عند تسجيلها من قبل سلطات الانتداب في ١٢ آذار ١٩٢٤ ، ان هدفها هو « توحيد العمال اليهود في ارض – اسرائيل ، على اسس تعاونية ، في كل فروع العمل ، يدوية كانت ام مكتبية »(٧٣) . ولتنفيذ هذا الهدف ، منحت الهيئة نفسها صلاحية العمل في عدة مجالات متنوعة ، كان من بينها توطين اعضائها في القرية او المدينة : العمل في مجال القنص وصيد الاسماك : انشاء المصانع والورش : مزاولة اعمال المقاولات : افتتاح دكاكين ومخازن : امتلاك وسائل نقل برية وبحرية وجوية : تأسيس المصارف وغيرها من المؤسسات المالية : مساعدة اعضائها في احضار اقاربهم من الخارج : التأمين في حالات الوفاة : تأسيس الشركات الفرعية لاصدار الكتب والصحف وتأسيس المكتبات والمسارح ومؤسسات التعليم والثقافة العمالية : انشاء المؤسسات الطبية على اختلاف انواعها، والقيام «بتنفيذ كل ما من شأنه المساعدة على تحقيق اهداف الهيئة »(٧٤) . وقد التزمت هيئة العاملين بأهدافها المعلنة هذه ، فعملت في المجالات التي ورد ذكرها ، وفي غيرها ايضا ، وامتد نشاطها ليشمل كافة نواحي الاقتصاد الصهيوني في فلسطين . ولم تمر الا فترة قصيرة حتى اتضح ان الجناح العمالي الصهيوني ، عندما انشأ

الهستدروت ، بشطريها النقابي والاقتصادي ، قد اقام واحدة من اهم المؤسسات ، التي نمت بسرعة وكادت تطبع الوجود الصهيوني في فلسطين بطابعها الخاص ، بل كاد يظهر احيانا ، خصوصا في اواخر العشرينات والثلاثينات ، ان الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، بمعظم ابعاده ، وجد تعبيرا عنه في الهستدروت ومؤسساتها . ومع منتصف الثلاثينات ، كانت الهستدروت قد تحولت الى مركز قوة داخل الكيان الصهيوني في فلسطين ، وخارجه ، لم يكن من السهل منافسته ، فاستغله الجناح العمالي ، وانطلق منه للسيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية (وكانت الهستدروت قد انضمت ، سنة ١٩٢٤ ، الى الاتحاد العالمي للنقابات المهنية في امستردام ، وفي السنة التالية انضمت « هيئة العاملين » الى الاتحاد العالمي للتعاونيات(٧٥)) .

النشاط والفكر الاستيطانيان

اثرت الحرب العالمية الاولى ، بشكل ملموس ، على النشاط الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، فكادت تشله : اذ لم تؤسس خلال سنواتها الاربع ، الا مستوطنة واحدة ، هي كفار غلعادي ، التي اقامها اعضاء هاشومير سنة ١٩١٦ . ومع انتهاء الحرب ، سارع ممثل شركة يكا(٧٦) في فلسطين ، حاييم مرغليت – كلفارسكي ، دون استشارتها ، الى اقامة اربع مستوطنات صغيرة ، كانت تل حاي من بينها ، في اقصى شمال البلد(٧٧) ، في اواخر سنة ١٩١٨ . غير ان يكا رفضت الموافقة على هذا المشروع ، فأزيلت ثلاث من تلك المستوطنات ، وبقيت الرابعة ، وهي ايليت هاشاحار . وتوقعت الفئات العمالية المختلفة والمهاجرون الجدد ، ان تسارع مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية الى تنشيط عمليات الاستيطان ، حال عودة علاقاتها مع اليهود في فلسطين الى وضعها الطبيعي ، بعد انتهاء الحرب . إلا ان المنظمة لم تتمكن من القيام بذلك الا بعد مرور نحو سنتين على انتهاء الحرب ، عندما تبلورت سياستها من حيث اسلوب بناء الوطن القومي ، بانتصار وجهة النظر الوايزمانية ، من جهة ، وأقر الانتداب البريطاني على فلسطين من جهة اخرى . وكانت مؤسسات الاستيطان الصهيونية قد اضطرت ايضا الى التريث قبل استئناف نشاطها ، نتيجة ضعف امكانات المنظمة الصهيونية المالية من ناحية ، واغلاق مكاتب تسجيل الاراضي (الطابو) في فلسطين ، ومن ثم ايقاف عمليات بيع الاراضي وشرائها ، من ناحية ثانية .

نتيجة هذه الاوضاع ، سيطر الركود على النشاط الاستيطاني الفعلي في فلسطين ، خلال المرحلة التي تلت انتهاء الحرب العالمية : فلم يتمكن قسم الاستيطان التابع للمنظمة الصهيونية العالمية ، وهو الهيئة الجديدة التي تولت الاشراف على تنفيذ العمليات الاستيطانية ، من تأسيس اول مستوطنة جديدة بعد الحرب (وهي دغانيا ب) الا في اواخر سنة ١٩٢٠ ، على الرغم من ان ادارة القسم سلمت الى شخصين من اركان الجناح العمالي ، المهندسين اسحاق فولكاني وعكيفا اطينغر ، اللذين كانا متحمسين للغاية لاقامة المستوطنات الجديدة . وفي الفترة نفسها (اواخر سنة ١٩٢٠) اقيمت مستوطنة جديدة اخرى ، بالقرب من القدس ، هي كريات عنافيم .

لكن على الرغم من هذا النشاط الفعلي الضئيل ، كانت هذه الفترة زاخرة بالافكار

الاستيطانية الجديدة ، التي اثرت ، فيما بعد ، بشكل ملحوظ على طابع الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، واتجاهاته . ويبدو ان الآمال التي عقدها واضعو نظريات الاستيطان الصهيونية على اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وتوقعهم بدء تنفيذ خطط استيطانية منهجية في البلد ، دفعت كلا منهم الى الادلاء بدلوه . لكن كانت هناك ، من ناحية ثانية ، اسباب عملية للغاية ، ناجمة عن التجارب الاستيطانية الصهيونية التي نفذت حتى ذلك الوقت ، دفعتهم الى هذا الاتجاه . فالمستوطنات من نوع الموشافاه ؛ القائمة على الملكية الخاصة (وكانت معظم المستوطنات التي اقامها هواة صهيون او روتشيلد في فلسطين ، خلال فترة الهجرة الاولى ، من هذا النوع) لم تحظ باعجاب المسؤولين الجدد عن عمليات الاستيطان ، ولا برضى المرشحين للاستيطان انفسهم . وسبب ذلك هو ان العمال العرب كانوا يسيطرون على العمل فيها ، فأصبحت غير صالحة لاقامة « مجتمع العمل اليهودي » ، لذلك قضت المصلحة بعدم اقامة مستوطنات مماثلة لها . وكانت المنظمة الصهيونية العالمية قد عملت اساسا ، منذ ان قررت بدء نشاط استيطاني فعلي في فلسطين بعد وفاة هرتسل ، على « التصدي » لهذا النوع من المستوطنات ، فتبنت تجربة جديدة لاقامة ما سمي « مستوطنة تعاونية » في مرحفياه ، اسست سنة ١٩١١(٧٨) . لكن اتضح ، بعد مرور عشر سنوات ، ان تلك التجربة فشلت ، لاسباب مختلفة(٧٩) . لذلك لم يبق الا ذلك النوع من المستوطنات ، المعروف باسم الكبوتساه ، على غرار تلك التي اقيمت في دغانيا ــ أ سنة ١٩٠٩(٨٠) . الا ن التجربة التي خاضتها الكبوتساه ، وهي مجموعة المستوطنين الصغيرة ، أثارت معارضة لها لدى بعض المستوطنين ، الذين راحوا يطالبون باتباع اساليب استيطانية جديدة .

وكان من ابرز منتقدي تجربة الكبوتساه ، شلومو لافي (لفكوفيتش) ، الذي اوضح في سلسلة مقالات نشرها في « كونترس » ، مجلة احدوت هعفوداه ، ان الكبوتساه لم تكن ناجحة بما فيه الكفاية ، لان مؤسسيها لم يستطيعوا الاستمرار في « خطوتهم الثورية الاولى » بواسطة زيادة عددهم . لذلك كان مصير الكبوتساه الصغيرة ، المنغلقة على ذاتها ، ضيقة الافق « فقراً دائما ، واكتفاء بأقل ما يمكن ، ومراوحة ، ومشاحنات صغيرة ، واستبدال اعضاء بشكل دائم ، ومشاكل لا نهاية لها »(٨١) . اما البديل لذلك ، فهو الكبوتساه الكبيرة ، المستعدة لاستيعاب المهاجرين الجدد ، التي تعمل في الزراعة والصناعة والحرف ، وتسعى الى الاكتفاء الذاتي ، « فترتاح من الفقر والضيق والعجز الدائم في ميزانيتها »(٨٢) . ثم ان الانتاج في المزرعة الكبيرة اقل تكلفة منه في الصغيرة . كما ان الكبوتساه الصغيرة ، ذات العدد المحدود من الاعضاء ، ستحتاج حتما الى تشغيل عمال مستأجرين ، عند جني المواسم ، مثلا ، مما يمس بأسسها العقائدية ــ الاجتماعية . اما الكبوتساه الكبيرة ، فليست بحاجة الى ذلك ، لانها تستطيع ان تجند العمال من بين الحرفيين من اعضائها ، كأن تطلب من النجارين او الخياطين او البنائين الانتقال الى العمل في الزراعة ، عند الضرورة ، ثم العودة الى عملهم الاصلي ، بعد انجاز الاعمال الضرورية . فالهدف هو « ان تنتج المزرعة اكثرية سلعها بنفسها ، لكي تكون متعلقة بالسوق بأقل مدى ممكن . ان السوق تستغل المنتج ، ولذلك يجب السعي الى الاكتفاء الذاتي بأكبر قدر ممكن »(٨٣) . وكان هذا البرنامج قد عرض على المؤتمر الصهيوني الثالث عشر ، فأقره ، واعتبر اساسا لاقامة ذلك النوع من المستوطنات التي عرفت باسم الكيبوتس ، وهو عبارة عن كبوتساه كبيرة ..

واضافة الى تيار الكبوتساه الكبيرة (الكيبوتس) ، تبلور خلال هذه الفترة تيار استيطاني آخر ، راح يدعو الى تأسيس ما سماه « موشاف عوفديم » (مستوطنةعاملين). وقد انطلق مؤيدو الموشاف ، عند وضعهم أسسه ، من القواعد الاستيطانية الصهيونية نفسها التي تمسك بها مناصرو الكيبوتس . لكنهم ، على عكسهم ، طالبوا باعتبار العائلة ، لا الفرد ، الوحدة الاستيطانية الاساسية . اذ كان زعيمهم ، اليعيزر يافيه ، يعتقد « ان العائلة هي عنصر طبيعي واساسي في حياة الشعب »(٨٤) ، وظروف معيشتها ضمن الكيبوتساه غير مريحة ، وينبغي تغييرها . لذلك دعا يافيه(٨٥) الى تأسيس الموشاف على « ارض قومية » ، وهي تلك التي تملكها مؤسسات الاستيطان الصهيونية خصوصا الكين كاييمت ، على ان تمنح كل عائلة مساحة معينة من الارض ، تستطيع استغلالها بقوى افرادها وحدهم من ناحية ، ويكفي محصولها لسد حاجاتهم من ناحية ثانية . وتتعاون العائلات ، وتساعد الواحدة منها الاخرى في تنفيذ الاعمال الموسمية الضرورية ، وتقيم اجهزة تسويق او شراء مشتركة . الا ان كل عائلة تملك ، في نهاية الامر ، الارباح التي تحصل عليها من مزرعتها ، وتتصرف بها كما يحلو لها ، شرط الا يتعارض ذلك مع مصلحة الموشاف العامة . ولم تكن فكرة الموشاف ، عمليا ، الا تحديثا لنظرية المستوطنة التعاونية التي وضعها اوبنهايمر(٨٦) . وقد ايد حزب هابوعيل هاتسعير ، بحماس ، اقامة هذا النوع من المستوطنات . وكانت فكرة انشاء الموشافيم (جمع موشاف) قد عرضت ايضا على المؤتمر الصهيوني الثاني عشر سنة١٩٢١ ، فوافق عليها(٨٧) .

بقيت الافكار الاستيطانية الجديدة هذه حبرا على ورق ، الى ما بعد فرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، وتعيين هربرت صموئيل مندوبا ساميا فيها ، عندما تمكنت المؤسسات الصهيونية من تحديد سياستها الاستيطانية من ناحية ، واعيد افتتاح مكاتب تسجيل الاراضي (الطابو) ، مما مكن الصهيونيين من عقد صفقات اراض جديدة بشكل قانوني من ناحية اخرى . ومع افتتاح مكاتب الطابو ، في منتصف سنة ١٩٢٠ ، نشط الصهيونيون في شراء الاراضي في مختلف انحاء فلسطين ، فسجلت تلك المكاتب ، منذ افتتاحها وحتى اواخر سنة ١٩٢٢ ، تحويل ما مساحته ١٤٨,٧٠٠ دونم (الدونم يساوي ١٠٠٠ متر مربع) تقريبا من الاراضي لملكية اليهود(٨٨) . وبذلك وصلت مساحة الاراضي التي كانوا يملكونها في فلسطين آنذاك ، الى نحو ٥٦٩,٣٠٠ دونم ؛ اذ تقدر مساحة تلك التي كانت في حيازتهم حتى سنة ١٩٢٠ ، بنحو ٤٢٠,٦٠٠ دونم(٨٩) . وتقع الاراضي التي استملكها اليهود خلال هذه الفترة في اماكن مختلفة من فلسطين . فمنها ، مثلا ، نحو ٢٢٠٠ دونم من اراضي قرية ابو غوش ، الواقعة الى الغرب من القدس ، التي سلمت الى مستوطنة كريات عنافيم(٩٠) ، و٥٠٠٠ دونم بالقرب من كفر سابا ، اقيمت عليها فيما بعد بلدة رعنانا(٩١) ، و١٩,٠٠٠دونم الى الشرق من حيفا ، اقيم عليها كيبوتس ياغور ومصنع الاسمنت « نيشر »(٩٢) ، و١٦,٠٠٠ دونم على السهل الساحلي ، الى الشمال من يافا ، اقيمت عليها بلدة هرتسليا(٩٣) .

الا ان اكبر صفقة بيع ارض عقدت خلال هذه الفترة ، كانت تلك التي تمت ، مرة اخرى ، مع عائلة سرسق البيروتية ، وقد اشترى الصهيونيون بموجبها ما مساحته ٧٠,٠٠٠

دونم من اخصب الاراضي الزراعية الواقعة في مرج ابن عامر ، الى الجنوب من مدينة الناصرة[٩٤] . وكان الصهيونيون قد اشتروا ، من عائلة سرسق نفسها ، نحو ٥٣,٠٠٠ دونم من الاراضي في المنطقة نفسها ، قبل الحرب العالمية الاولى[٩٥] (وكانت مستوطنة مرحفياه قد اقيمت على جزء من هذه الاراضي) ، فارتفعت بذلك مساحة الاراضي التي استملكوها في تلك المنطقة الى نحو ١٢٠,٠٠٠ دونم ، مقسمة الى ثلاث قطع كبيرة ، قريب بعضها من بعض . وقد اقيم على هذه الاراضي ، مع مرور الوقت ، عدد من المستوطنات الصهيونية المزدهرة . لكن اتضح ايضا ان استملاك هذه الاراضي كان ذا اهمية استراتيجية خاصة ؛ اذ شكلت المستوطنات التي اقيمت عليها حلقة وصل بين مجموعتي المستوطنات الصهيونية ، اللتين كانتا قائمتين في فلسطين قبل الحرب : الاولى الى الشمال من طبريا ؛ والثانية على امتداد السهل الساحلي بين حيفا ويافا . فخلقت بذلك امتدادا اقليميا ــ استيطانيا ــ يهوديا بين المستوطنات الواقعة في اقصى شمال فلسطين وتلك الواقعة في اقصى الجنوب ، مع ما للامر من اهمية (وشكلت تلك المستوطنات ايضا ، مع تكثيفها وازدياد عدد سكانها ، حاجزاً بشرياً يهودياً ، فصل منطقة الجليل في شمال فلسطين عن باقي اجزاء البلد ، مما خلق واقعا كان له تأثيره عندما طرحت مشاريع تقسيم فلسطين ، في مرحلة لاحقة . كما مكن ذلك الصهيونيين من السيطرة على تلك المناطق بسهولة نسبية ، بعد تحسين وضعهم الاستراتيجي فيها ، خلال حرب ١٩٤٨) .

وعلى صعيد آخر ، وضعت ، خلال هذه الفترة ، اسس اقامة انواع جديدة من المستوطنات . فالافكار الاستيطانية الجديدة ، التي اشرنا اليها ، لم تبق طويلا مجرد نظريات : اذ سرعان ما وضعت موضع التطبيق . ونتيجة لذلك ، نشب خلاف بين مستوطني دغانيا ، الواقعة بالقرب من طبريا ، سببه مطالبة جزء من مستوطنيها بتحويلها من كبوتساه صغيرة (تضم عشرات من المستوطنين) ، الى كيبوتس كبير (يضم بضع مئات) ، ادى الى انشقاق مؤيدي الكيبوتس عن المستوطنة الام ، واقامة دغانيا ــ ب[٩٦] (وفي مرحلة لاحقة ، تحولت دغانيا ــ أ ايضا الى كيبوتس) .

وكان قد نشب في دغانيا ــ أ ، في الفترة نفسها ، خلاف آخر ؛ اذ نشأت ، في المستوطنة ذاتها ، فكرة اقامة الموشاف ، التي اثارت مشاحنات حادة بين المستوطنين ، فاقت تلك التي استحكمت بين مؤيدي الكبوتساه والكيبوتس . فقد سكت انصار الكبوتساه ، في نهاية الامر ، على فكرة الكيبوتس ، ووافقوا حتى على اقتسام اراضيهم مع مؤيديها . لكن فكرة الموشاف لم تكن بالنسبة لهم الا مجرد « هرطقة »[٩٧] ، لم يستطيعوا احتمالها . لذلك شددوا الخناق على اتباعها ، الى ان اضطر اولئك الى ترك المستوطنة ، ثم المنطقة بأسرها ، فسلمتهم دائرة الاستيطان مساحة من الارض ، في مرج ابن عامر ، على طريق حيفا ــ الناصرة الرئيسي ، اقاموا عليها ، في اواخر سنة ١٩٢١ ، اول مستوطنة من نوع الموشاف ، وهي نهلال[٩٨] . وكان بين مؤسسيها اليعزر يافيه ، صاحب فكرة الموشاف ، وشموئيل دايان (والد موشي دايان) ، وفيما بعد سكرتير حركة الموشافيم وغيرهم .

وكانت قد اقيمت ، في سنة ١٩٢١ ، ثماني مستوطنات اخرى ، عدا نهلال ، وهي : موشاف كفار يحزقيل ، وثلاثة كبوتسات غيفع وتل يوسف وعين حارود[٩٩] (وكانت

مجموعة من « كتيبة العمل » قد اقامت كبوتس عين حارود ، الذي انشق فيما بعد الى كيبوتسين ، حمل كل منهما الاسم نفسه) ، وبلدة رعناناه ، ومدينة رامات غان .

وفي سنة ١٩٢٢ ، اقيمت ثماني مستوطنات جديدة : ٤ كبوتسات ــ بيت الفا (الذي اقامته مجموعة من هاشومير هاتسعير) ، حفتسي باه ، ياغور وغنيفار ، وموشافان : بلفوريا ، التي انشئت تخليدا لذكرى بلفور ، ومرحفياه (مستوطنة مرحفياه الاولى تحولت الى كيبوتس) ، وبلدة بنيامينا ، التى انشأها البارون بنيامين روتشيلد ، تخليدا لاسمه(١٠٠) ، ومدينة غفعاتايم .

اما في سنة ١٩٢٣ ، فقد اقيمت اربع مستوطنات جديدة : كبوتس مزرع وموشافا كفار جدعون وتل عدشيم ، وبلدة رامات هاشارون .

وكانت بلدة رعنانا وموشاف بلفوريا قد اقيما من قبل مجموعة من الصهيونيين الاميركيين ، الذين انشأوا شركة لتوطين المهاجرين الافراد ، سموها « كهيلات تسيون » (مجموعة صهيون) ، وفقا للاسس التي عملت بموجبها شركة تطوير اراضي فلسطين . وتعاونت الشركتان ، فيما بعد ، على اقامة عدد من المستوطنات الصهيونية في فلسطين(١٠١) .

ومع نهاية فترة الهجرة الثالثة ، سنة ١٩٢٣ ، كانت قد اقيمت في فلسطين ٢٣ مستوطنة يهودية جديدة (ويشير هذا الاحصاء فقط الى تلك المستوطنات التي لا تزال قائمة في فلسطين حتى يومنا هذا) ، بين كبوتس وموشاف وبلدة ومدينة ، منذ سنة ١٩١٨ . وكان عدد المستوطنات اليهودية التي اقيمت في فلسطين ، حتى صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، قد بلغ ٤١ مستوطنة ، فارتفع بذلك عدد المستوطنات الاجمالي ، في اواخر سنة ١٩٢٣ ، الى ٦٤ مستوطنة .

الموقف من العـــرب

كان الموقف من العرب في فلسطين ، او العلاقات معهم ، واحدة من المشاكل الرئيسية التي جابهت الصهيونيين ، قيادة واحزابا وافرادا ، بعد الاحتلال البريطاني للبلد ، كما جابهت القدامى منهم ، خلال الحكم العثماني . لكن على الرغم من مركزية هذه الناحية ، فان اكثرية الصهيونيين لم تعرها اهتماما ملحوظا ، خصوصا خلال الفترة التي تلت الاحتلال البريطاني مباشرة ، حيث انحصر الاهتمام بـ « المسألة العربية » في النواحي النظرية فقط ، وتبلور في ٣ اتجاهات : اولها اعتبر الموقف من العرب قضية مهمة ينبغي تقديم تنازلات كبيرة لحلها ؛ وثانيها رأى ان الوجود العربي في فلسطين مشكلة ينبغي التخلص منها ، بينما اضاف الثالث ان ذلك لن يتم الا بواسطة خلق الحقائق الجديدة في فلسطين(١٠٢) . أما وايزمن ، في بداية نشاطه في فلسطين بعد احتلال البريطانيين لها ، فقد اعتبر القضية الفلسطينية جزءاً من المسألة العربية بأسرها ، تحل ، اقتصاديا ، في فلسطين ، عندما يتحسن مستوى معيشة سكانها العرب نتيجة للمشاريع الصهيونية ، وسياسيا خارجها ، في « مثلث دمشق ــ بغداد ــ مكة » ، مركز الحركة العربية(١٠٣) . ولم يكن موقف المسؤولين الصهيونيين الآخرين يختلف كثيراً عن الاتجاهات التي اشرنا اليها ، فقد « اعتبر الاشخاص الذين رأسوا القسم السياسي في البعثة الصهيونية ، ان مهمتهم الاساسية هي اقامة علاقات ثابتة بين البعثة والموظفين

البريطانيين »(١٠٤) . حتى ان اوشيسكين ، احد رؤساء ذلك القسم قال مرة « في العالم كله توجد مسألة يهودية . فهل فعل العالم شيئا من اجلها ؟ وماذا سيحدث اذا نشأت في [فلسطين] مسألة عربية ؟ »(١٠٥) .

وقد كان هناك ، على كل حال ، عدد من العوامل التي دفعت الصهيونيين الى اتخاذ المواقف التي اشرنا اليها . فالقيادة الصهيونية كانت منهمكة في المفاوضات مع بريطانيا وغيرها ، لفرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، ومن ثم صياغة نصوصه على الشكل الذي يكفل انشاء الوطن القومي اليهودي في البلد على احسن واسهل ما يمكن . اما المهاجرون الجدد من ابناء الهجرة الثالثة ، فسرعان ما وجدوا انفسهم يسيرون على خطى من سبقوهم من ابناء الهجرة الثانية ، الذين كانوا قد بلوروا مواقف عدائية واضحة من العرب(١٠٦) . لذلك فضلوا ، في احسن الاحوال ، تجاهل « المسألة العربية » ، وانهمكوا في حل مشاكل استيعابهم في فلسطين من ناحية ، وراحوا يسعون الى تأسيس المؤسسات العمالية المختلفة ، لاقامة « مجتمع العمل اليهودي » في البلد من ناحية ثانية. وعلق الجميع آمالهم على بريطانيا، من حيث حفظها الامن والنظام في فلسطين وتمكينهم من اقامة الوطن القومي ، استنادا الى « حقوقهم » بموجب وعد بلفور والتفسيرات الموسعة التي اعطوها لها ، وصك الانتداب وبنوده .

لكن ، لم يمر الا وقت قصير ، حتى اتضح لاكثرية الصهيونيين ، قيادة وافرادا ، ان آمالهم العريضة وتوقعاتهم المتفائلة كانت في غير محلها . فقد بقيت بريطانيا فعلاً عند تعهدها باقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، ولكنها قلصت مضمونه ، واعلنت سياسة « الالتزام المزدوج » تجاه العرب واليهود في فلسطين ، ورفضت عددا من الطلبات الاستثنائية التي تقدم بها الصهيونيون ، خصوصا تلك التي اقترحوا بموجبها تشكيل قوى الامن في البلد ، حاميات او شرطة ، من يهود ينبغي تعيينهم في مناصبهم بعد استشارة المؤسسات الصهيونية(١٠٧) . ولم يمر الا وقت قصير حتى تكوّن لدى الصهيونيين الشعور بأن بريطانيا « تخلت » عنهم(١٠٨) ، واصبح همها الرئيسي ضمان بقائها في فلسطين من خلال استرضاء العرب وكسب ودهم او ، على الاقل ، هدوئهم . اما عرب فلسطين ، فقد اعلنوا معارضتهم الشديدة للصهيونيين ، حال دخول البريطانيين الى البلد . وسرعان ما راحوا يشنون الهجمات المسلحة على اليهود من حين الى آخر ، ويوقعون القتلى بينهم ، كما حدث في آذار ونيسان ١٩٢٠ في تل حاي والقدس ، وفي ايار وتشرين الثاني ١٩٢١ في يافا والقدس وبعض المستوطنات اليهودية .

وازاء هذه الاوضاع الجديدة ، راح الصهيونيون يعيدون النظر في موقفهم من العرب تدريجاً . فبعد اضطرابات ايار ١٩٢٠ ، في شمال فلسطين ، اضطر الصهيونيون الى بحث مسألة علاقاتهم مع العرب ، فقرروا القاء اللوم على السلطات البريطانية التي لم تهتم باستتباب الامن ، كما اتفقوا على تقوية الهاغاناه(١٠٩) . وقام المجلس الملي اليهودي باصدار نداء « الى العرب » ، قال فيه : « ان ارض ــ اسرائيل هي وطننا الوحيد ... [ولكن] هناك مكان في البلد لنا ولكم ايضا »(١١٠) . واضاف البيان كذلك ان اليهود ينوون القدوم الى

فلسطين « لاحياء صحاريها وتطوير مصادرها الطبيعية ... [بواسطة] نشاطنا وعلمنا وقوانا المادية والروحية ... ونحن لا نسعى للحرب او للخلافات التي لا ينجم عنها الا الضرر ... للطرفين »[١١١] . وأصبح هذا النداء نموذجا لنداءات درج الصهيونيون على اصدارها ، في أعقاب كل اضطراب كان يقع في فلسطين . كذلك قررت الزعامة الصهيونية اقامة لجنة تعنى بالعلاقات مع العرب[١١٢] ، الا ان القرار لم ينفذ .

واتبع الصهيونيون النهج نفسه بعد اضطرابات ايار : حيث انتقلوا الى مجال تنفيذ بعض الاستنتاجات التي كانوا قد توصلوا اليها ، بخاصة محاولة تحسين علاقاتهم مع العرب . وبعد ان هدأت الاضطرابات ، قررت اللجنة التنفيذية الصهيونية اعتماد صندوق خاص لمنح القروض والرشاوى للمؤيدين العرب[١١٣] . كذلك انشىء حساب آخر لتمويل حزب عربي مؤيد للصهيونيين . وسرعان ما تمكن كلفارسكي من اقامة هذا الحزب ، الذي عرف باسم الجمعية القومية الاسلامية (Moslem National Association) ، بهدف مجابهة الجمعيات المسيحية ـ الاسلامية التي نشطت آنذاك . الا ان تلك الجمعية لم تعمر طويلا ، على أية حال[١١٤] .

ومع انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني عشر ، في ايلول ١٩٢١ ، كان الصهيونيون لا يزالون في دوامة الخلافات حول موقفهم من العرب ؛ تلك الخلافات التي وجدت تعبيرا واضحا عنها في كلمات عدد من الزعماء الصهيونيين . فبينما انتقد بعض المندوبين القيادة الصهيونية لاهمالها الاهتمام بالمسألة العربية[١١٥] ، اعلن اوشيسكين ان العرب لن يعترفوا بالواقع الجديد في فلسطين الا بعد ان يكثر عدد اليهود هناك ، ويشتد عودهم[١١٦] . أما جابوتينسكي فقد دعا الى عدم الاكتراث بالمعارضة العربية ، « لان اميركا لم تحصل على موافقة الهنود الحمر عندما وطئت البيض فيها ، واستراليا ايضا لم تطلب موافقة السود »[١١٧] . لكن بعض الزعماء الصهيونيين كانوا اكثر « واقعية » : اذ طالب الزعيم العمالي بيرل كاتسنلسون ، مثلا ، بمنح العرب واليهود في فلسطين حكما ذاتيا واسعا[١١٨] ، بينما نصح سوكولوف ، رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية ، العرب بالسعي للوصول الى اتفاق مع اليهود والعيش معهم ، بدلا من العمل على الغاء وعد بلفور[١١٩] . اما وايزمن رئيس المنظمة ، فقد كان اكثر وضوحا ، باعلانه ان الصهيونيين مستعدون للوصول الى اتفاق مع العرب ، ولكن على أساس وعد بلفور فقط[١٢٠] .

وفي ختام مداولاته ، اتخذ المؤتمر الصهيوني الثاني عشر قرارا دعا فيه الى العمل من أجل الوصول الى اتفاق مع العرب : « لأن تصميمنا كبير على العيش مع الشعب العربي ، من خلال علاقات سلام واحترام متبادلة ، وان نحول بيتنا المشترك ، بالتعاون معه ، الى كومنولث مزدهر ، يكفل لكل شعب من الشعبين ، استمرار تطوره القومي دون ازعاج »[١٢١] . وحاول بعض الصهيونيين تفسير هذا القرار بأنه يعني اعترافا من قبل الصهيونية بحقوق الشعب العربي الفلسطيني القومية ، ولكن سرعان ما اتضح ان الهدف منه كان تقديم موقف صهيوني معتدل الى بريطانيا ، للابقاء على التزامها بقبول الانتداب وتنفيذه في فلسطين[١٢٢] . غير ان هذا القرار ايضا لم يغير شيئا في واقع الموقف الصهيوني من الفلسطينيين .

وتجدر الاشارة هنا الى ان مسألة اقامة علاقات مع العرب لم تكن ايضاً ، رهنا بارادة الصهيونيين وحدهم، بغض النظر عن عدم وجود شيء لديهم، لعرضه على العرب، وحملهم على اقامة علاقات معهم، او اتخاذ موقف « معتدل » منهم. فخلال هذه الفترة لم تكن الحركة الصهيونية في وضع من القوة يسمح لها باتخاذ مواقف سياسية مستقلة، خارجة عن ارادة البريطانيين ، الذين لم يكونوا معنيين ، كما اتضح من تصرفاتهم ، بأي وفاق عربي ــ يهودي ، لكي يتسنى لهم استغلال التناقض بين الطرفين لمصلحتهم (وكان وايزمن نفسه ممن وعوا جيداً هذه الحقيقة(١٢٣)) . وقد عمل البريطانيون اكثر من مرة ، على عرقلة اية اتصالات يهودية ــ عربية ، وافشالها . فخلال سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، بذل الصهيونيون ، مثلا ، كل ما في وسعهم لتوثيق علاقاتهم مع فيصل ، وقدموا له اقتراحات مختلفة ، من بينها عقد حلف معه وتبادل « التمثيل الدبلوماسي » بين الطرفين . الا ان البريطانيين ، الذين كانوا مطلعين على هذه المحاولات ، من الجانب الصهيوني على الاقل ، تلكأوا في منح موافقتهم ، واوعزوا الى الصهيونيين اخيرا بالكف عنها(١٢٤) .

وفي اوائل سنة ١٩٢٢ ، جرت اتصالات ومفاوضات ، في القاهرة وجنيف ، في محاولة للوصول الى اتفاق ما بين اليهود والعرب ، وذلك بين ممثلين عن المنظمة الصهيونية وبعض الزعماء العرب ، كان من بينهم رياض الصلح واميل الغوري وفارس الخوري . الا ان تلك الاتصالات توقفت عندما علم البريطانيون بها(١٢٥). وفي اواخر سنة ١٩٢٢، زار الامير عبدالله، امير شرق الاردن، لندن لاجراء مباحثات مع الحكومة البريطانية، واجتمع خلال وجوده هناك خمس مرات مع الدكتور وايزمن . وحاول عبد الله ، خلال هذه اللقاءات ، جس نبض المنظمة الصهيونية ومعرفة موقفها من اقتراح تقدم به ، مفاده ان تعترف المنظمة به اميرا على فلسطين ، بالاضافة الى شرق الاردن ، لقاء اعترافه وتعهده بتسهيل انشاء الوطن القومي ، في كل من فلسطين وشرق الاردن . وقد لقي هذا الاقتراح حماسا لدى اكثرية اعضاء الادارة الصهيونية ، حتى ان جابوتينسكي وافق عليه . غير ان البريطانيين عارضوا ذلك(١٢٦) (وبقي عبد الله ، على أية حال ، عند « عشقه » هذا لامارة فلسطين ، وحاول من حين الى آخر(١٢٧) ، الافلات من قبضة البريطانيين والعمل لتحقيق حلمه ، الا ان كل محاولاته باءت بالفشل ، حتى جاءت حرب ١٩٤٨) .

وازاء هذه المعارضة البريطانية من ناحية ، ونظرا لصعوبة الوصول الى اتفاق مع العرب وانعدام الرغبة فيه ، لما قد يتبعه من قيود تفرض على النشاط الصهيوني في فلسطين من ناحية ثانية ، توقف الصهيونيون عن بذل اية محاولات جديدة في هذا الصدد . ومع نهاية سنة ١٩٢٣ ، خصوصا بعد ان استتب الهدوء في فلسطين ، كاد الصهيونيون ان « ينسوا » العرب ، وانهمكوا في تنظيم شؤونهم الداخلية وبناء الوطن القومي .

تأسيس الهاغانـــــاه

كانت احدى العبر الرئيسية التي تعلمها اليهود من الاضطرابات التي وقعت في فلسطين في مطلع العشرينات ، وعجزت السلطات البريطانية عن منع وقوعها او تكرارها ، هي ضرورة الاعتماد على النفس ، واقامة منظمة يهودية عسكرية ، تتولى شؤون الدفاع (هاغاناه) عن

كافة المستوطنين الصهيونيين في فلسطين(١٢٨) .

ولم تكن فكرة اقامة منظمة عسكرية صهيونية بمثابة تجديد بالنسبة لفئات عديدة من الصهيونيين ؛ اذ كان بعضهم قد اقام في فلسطين ، خلال الحكم العثماني ، منظمة هاشومير شبه العسكرية(١٢٩) ، لتتولى اعمال الحراسة في المستوطنات اليهودية . ومع ارتفاع حدة التوتر بين العرب واليهود ، على اثر دخول البريطانيين الى فلسطين ، واتضاح معالم سياسة الوطن القومي تدريجيا ، عاد رجال هاشومير الى ممارسة مهنتهم ـ هوايتهم القديمة ، وراحوا يقيمون « لجانا للدفاع » عن اليهود في فلسطين ، في هذه المنطقة او تلك(١٣٠) . وفي الوقت نفسه ، سعت المنظمة الى زيادة عدد اعضائها بقبول متطوعين جدد ، وقررت عقد مؤتمر موسع للبحث في كيفية تنظيم شؤون الدفاع . غير ان خلافات حادة نشبت في المؤتمر الذي عقد في مستوطنة تل عدشيم ، في ١٨ ايار ١٩٢٠ ، أدت في نهاية الامر الى اتخاذ قرار بحل هاشومير ، واقامة « منظمة قطرية ، غير حزبية وسرية » ، بدلا منها ، « تتولى شؤون الدفاع عن الييشوف بأكمله ، في القرية والمدينة »(١٣١) ، على ان يتولى اعضاء هاشومير تنفيذ ذلك ، بالتنسيق مع حزب احدوت هعفوداه .

وبعد مرور اقل من شهر على قرار هاشومير هذا ، عقد المؤتمر الاول لاحدوت هعفوداه ـ بعد مرور بضعة اشهر على تأسيسه ـ بين ١٣ و١٥ حزيران ١٩٢٠ ، فشكر هاشومير على الثقة التي منحه اياها ، وقرر « من خلال شعوره بالاهمية والمسؤولية التاريخية ، الاستجابة للمبادرة التي فرضتها عليه منظمة هاشومير ، بشأن الاهتمام بترتيب شؤون الدفاع ، وتنظيم مساهمة العمال في نظام الدفاع ، وتأمين المضمون القومي والاجتماعي لهاغاناه شعبية في البلد ... »(١٣٢) . كما قرر المؤتمر الزام اعضاء الحزب بالاستجابة لتعليمات لجان الهاغاناه ، عندما تقام في مناطقهم ، وكلف هاشومير بانشاء « منظمة الهاغاناه » ، بشرط ان « تقام بشكل تكون خاضعة معه لمراقبة المشتركين فيها ، وتسعى لان تقبل بين صفوفها كل شخص ملائم للقيام بأعمال الدفاع ، يوافق على حمل هذا العبء »(١٣٣) . ومع اتخاذ هذا القرار ، شكل احدوت هعفوداه لجنة خماسية ، مؤلفة من ثلاثة من اعضاء هاشومير سابقا ، هم : يسرائيل شوحاط ويوسف نحماني ويسسخار سطيكوف ، واثنان من جنود الكتائب اليهودية المسرحين ، الياهو غولومب ودوف هوز ، لتنفيذه . لكن خلافا وقع بين اعضاء اللجنة ، حول طريقة تنظيم الهاغاناه واسلوب عملها ، منع احراز اي تقدم . فقد اصر رجال هاشومير ، باعتبارهم « خبراء » في الشؤون الامنية ، على منحهم حرية العمل لاقامة التنظيم بحسب ما يرتأونه ، دون « التدخل في شؤونهم » ، بحيث تقام في النهاية منظمة « مستقلة » ، بينما عارض غولومب وهوز هذا الاتجاه بشدة ، موضحين ان قوة عسكرية كالهاغاناه ينبغي ان تكون خاضعة لرقابة واشراف مؤسسات معتمدة ، منتخبة بشكل ديمقراطي . لذلك « فان من حق الييشوف المنظم وواجبه ، الاشراف على كل خطوة تخطوها الهاغاناه ، التي ينبغي ان تكون القوة المدافعة عن سلامة الييشوف وأمنه . اما اخضاع هذه القوة لسيطرة حفنة من الاشخاص ، فقد يعرض سلامة [الجمهور] وامنه للخطر »(١٣٤) . وحظي موقف غولومب وزميله بتأييد احدوت هعفوداه ، الذي راح يتصرف منذ تأسيسه ، باعتباره اكبر الاحزاب العمالية الصهيونية في فلسطين، كأنه « المسؤول » عن اقامة «مجتمع العمل اليهودي» في

البلد ، « وبناء ارض ــ اسرائيل اشتراكية » ، فأعلن ان من بين حقوقه ايضا الاشراف على أي نظيم عسكري قد ينشئه المستوطنون اليهود(١٣٥) . وعند تأسيس الهستدروت ، في اواخر سنة ١٩٢٠ ، حرص احدوت هعفوداه ، رغم معارضة حزب هابوعيل هاتسعير ، على حملها على تبني ذلك القرار الداعي الى ضرورة اهتمامها « بتنظيم شؤون الحراسة والدفاع » (انظر اعلاه) ، باعتبارها المؤسسة الرئيسية التي تمثل العمال اليهود في فلسطين وتضم اكثريتهم بين صفوفها ، ولذلك ينبغي ان تشرف ايضا على الشؤون الامنية التي تهمهم والمستوطنين كافة . وبقيت الهستدروت مسؤولة ، رسميا على الاقل ، عن شؤون الهاغاناه حتى سنة ١٩٢٩ .

لكن على الرغم من اتخاذ هذه القرارات ، لم يكن من السهل على الهستدروت تنفيذ مهامها بشأن « تنظيم شؤون الحراسة والدفاع » ، حتى مع تأييد احدوت هعفوداه ودعمه اياها ، نظرا للخلافات في وجهات النظر التي سادت بين دوائر صهيونية مختلفة في فلسطين حول مضمون الهاغاناه ومهامها ، او حتى جدوى انشائها ، والمواقف المتباينة والخلافات التي نشأت على اثر ذلك . فبالاضافة الى الخلافات التي نشبت بين جماعة هاشومير ، وعلى رأسهم شوحاط ، ورجال « الييشوف المنظم » ، وعلى رأسهم غولومب ، حول مفهوم كل منهما للهاغاناه ومهامها واسلوب تنظيمها وطريقة عملها ، اعلنت فئات صهيونية اخرى تحفظها ، او معارضتها اقامة اية قوة عسكرية . فقد سادت داخل حزب هابوعيل هاتسعير ، تحت تأثير تعاليم غوردون ، صاحب نظرية « دين العمل »(١٣٦) ، اتجاهات مسالمة ، رأت ان من الافضل للعمال الا يقتربوا من مجال الامن وانشاء القوى العسكرية ؛ لان مثل هذه الاعمال من اختصاص سلطات الانتداب اساسا . وبقيت هذه المجموعة من هابوعيل هاتسعير عند موقفها هذا لفترة طويلة ، وشكلت حتى بعد اتحاد حزبها مع احدوت هعفوداه واقامة مباي سنة ١٩٣٠ ، ما عرف باسم جناح « الحمائم » في الحزب الجديد(١٣٧) . كما اعلن المزارعون في المستوطنات القديمة ، الموشافوت ، استياءهم من محاولات « اليسار » اقامة قوة عسكرية ، خوفا من ان تستغل مثل هذه القوة ، في المستقبل ، في السيطرة عليهم(١٣٨) ، واجبارهم ، مثلا ، على تطبيق قواعد « العمل العبري » . وظهر ايضا تيار ثالث ، تزعمه جابوتينسكي ، عارض ، بسخرية ، انهماك العمال « الهواة » في انشاء منظمات عسكرية سرية ، وطالب ، بدلا من ذلك ، بالعمل على اقامة قوة يهودية عسكرية علنية ، بموافقة سلطات الانتداب ، لتتولى مهام حفظ الامن والنظام في فلسطين .

وانضمت الى هذه الفئات المعارضة ، مع مرور الوقت ، رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ايضا ، التي خشيت هي الاخرى ، ان يستغل الجناح العمالي القوة العسكرية التي قد ينشئها لممارسة الضغوط عليها . وفي منتصف سنة ١٩٢٠ ، اي عندما باشر العمال اقامة اولى لجان الهاغاناه ، سارع الدكتور ايدر ، رئيس القسم السياسي في البعثة الصهيونية ، الى تحذير وايزمن من « ان هذه التنظيمات جميعها [يقصد لجان الهاغاناه] مهيأة لان تستغل كأدوات سياسية ، لفرض برامج حزبية معينة ... انني ، كما تعلم ، اتعاطف مع الحركة العمالية ،ولكنني لا احبذ قيام زعماء بفرض طلباتهم بواسطة قوة ، يزعمون انها عسكرية ، تقف من ورائهم . ان صموئيل [المندوب السامي] سيتخذ الاجراءات الضرورية للحفاظ على

امن المستوطنات اليهودية في فلسطين . ومع ازدياد الثقة بالحكومة الجديدة ، نستطيع الاعتماد على قواها الدائمة ، ثم تصفية لجان الهاغاناه تدريجا »(١٣٩) . غير ان رئاسة المنظمة الصهيونية لم تتمكن ، على أية حال ، من تصفية تلك اللجان ، فازدادت الخلافات بينها وبين الهاغاناه تعقيدا ، خصوصا بعد ان امتنعت الاخيرة عن الاستجابة لطلبات السلطات ، التي ابدتها المنظمة ، بشأن تصفية نشاطها . لذلك قررت الادارة الصهيونية ، في اواخر سنة ١٩٢٢ ، ايقاف المساعدات المالية والسياسية ، التي كانت تقدمها للهاغاناه(١٤٠) .

ونتيجة هذه المعارضة للهاغاناه من ناحية ، والمواقف المتباينة من طبيعتها وطرق تنظيمها وعملها من ناحية ثانية ، تأرجح نشاطها بين مد وجزر . فقد كانت المنظمة تنشط من حين الى آخر ، عندما يزداد التوتر بين العرب واليهود ، ثم تعود الى الانهماك بخلافاتها الداخلية والخارجية ، عندما تهدأ الاوضاع . وكانت الخطوات التنظيمية الاولى التي اتخذتها ، خلال هذه الفترة ، عبارة عن انتخاب لجان هاغاناه في معظم المناطق اليهودية ، خصوصا بعد اضطرابات ايار ١٩٢١ ، ثم تعيين قادة للمدن الكبرى خلال سنة ١٩٢٢ . كما افتتحت المنظمة بعض دورات التدريب ، خلال هذه الفترة ، واشترت كميات من الاسلحة في فيينا ، بينها رشاشات ، ونقلتها الى فلسطين عن طريق ميناء بيروت . لكن مع استتباب الامن وسيطرة الهدوء على فلسطين ، عادت الخلافات الى التحكم في الهاغاناه : فانقسمت على ذاتها ، في اواخر سنة ١٩٢٢ ، قبل ان تستكمل بناء هيكلها التنظيمي ، الى شطرين : جماعة شوحاط وجماعة غولومب (وراحت تغط في نوم عميق ، لمدة سبع سنوات متتالية ، الى ان ايقظتها اضطرابات ١٩٢٩)(١٤١) .

وحتى ذلك الوقت ، استتب الهدوء في كافة ارجاء فلسطين ، وانهمك الصهيونيون في بناء الوطن القومي وتقوية اسسه .

---

(١) انظر ايضا « كتسفي نورداو » (مؤلفات نورداو) ، القدس : المكتبة الصهيونية ، ١٩٥٤ ، الجزء الرابع ، ص ١٩٦ ــ ١٩٨ (بالعبرية) .

(٢) افياتار فرايزل ، هامدينيوت هاتسيونيت لاحار هتسهارات بلفور ، ١٩١٧ ــ ١٩٢٢ (السياسة الصهيونية بعد وعد بلفور ، ١٩١٧ ــ ١٩٢٢) ، تل ــ ابيب : جامعة تل ــ ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧٧ ، ص ١٣٧ (بالعبرية) .

(٣) ح. مرحفياه ، « عام فيموليدت » (شعب ووطن) ، القدس : هليفي ، ١٩٤٧ ، ص ١٨٩ . (بالعبرية) .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) انظر ايضا صبري جريس ، تاريخ الصهيونية ، بيروت : مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٧٧ ، الجزء الاول ، ص ١٦١ ــ ١٦٣ .

(٦) مرحفياه ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٩ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦١ ــ ١٦٣ .

(٩) مرحفياه ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩٠ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ .

(١١) النص في المصدر نفسه ، ص ١٩٧ ــ ١٩٩ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٧ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٨ .

(١٤) المصدر نفسه .

(١٥) المصدر نفسه .

(١٦) انظر نص قرارات الاجتماع في هارتس ، ١٠/٨/١٩٢٠ .

(١٧) انظر ، لمزيد من التفاصيل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١٣ ــ ٢١٦ .

(١٨) انظر مقالة موشي رينوت ، « النقاش حول بناء جهاز التعليم العبري في ارض ــ اسرائيل ، ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ » في « هاتسيونوت ، ميئاسيف لتولدوت هاتنوعاه هاتسيونيت فيهاييشوف هايهودي بايرتس ــ يسرائيل » (الصهيونية ، مجموعة لتاريخ الحركة الصهيونية والييشوف اليهودي في ارض ــ اسرائيل) ، تل ــ ابيب : جامعة تل ــ ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧٨ ، الجزء الخامس ، ص٧٨ ــ ١٠٨ (بالعبرية) .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .

(٢٠) راجع محاضرة الدكتور هانتكه في الاجتماع ، كما اوردتها هارتس ، ٢/٨/١٩٢٠ .

(٢١) انظر ، للتفاصيل ، شمشون كيرشنباوم ، « هيستوريا شل عام عولام » (تاريخ اليهود) ، تل ــ ابيب : دفير ، ١٩٦٥ ، الجزء الاول ، ص ١٣٣ ــ ١٥٢ (بالعبرية) .

(٢٢) انظر شؤون فلسطينية ، العدد ٩٥ ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٩ ، ص ٤٣ ــ ٤٦ .

(٢٣) التفاصيل في كيرشنباوم ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٨٩ ــ ١٠٨ .

(٢٤) انظر الجداول في « هاكونغرس هاتسيوني هايود ــ طيط » ([محاضر] المؤتمر الصهيوني التاسع عشر) ، القدس : المنظمة الصهيونية العالمية ، ص XVII - XVIII ، و« المؤتمر الصهيوني العشرون » ، ص XIV-XV ، و« المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرين » ، ص خ ــ خ أ (٢٠ ــ ٢١)

(٢٥) تسفي ابن شوشان ، « تولدوت تنوعات هابوعاليم بايرتس ــ يسرائيل » (تاريخ حركة العمال في ارض ــ اسرائيل) ، تل ــ ابيب : عام عوفيد ، ١٩٦٣ ، الجزء الاول ، ص ٣٧٣ ــ ٣٧٤ (بالعبرية) .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧٣ .

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ ــ ٣٧٦ .

(٢٩) موشي براسلافسكي ، « تنوعات هابوعاليم هايرتس ــ يسرائيليت » (حركة العمال في ارض ــ اسرائيل) ، تل ــ ابيب : هاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٦٦ ، الجزء الاول ، ص ٢٤٤ (بالعبرية) .

(٣٠) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٥ ــ ٢٥٩ .

(٣١) انظر ايضا المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ ــ ٢٣٣ .

(٣٢) براسلافسكي ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٣٨ .

(٣٣) المصدر نفسه .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ .

(٣٥) ابن شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص٣٨٢ ــ ٣٨٤ ، وبراسلافسكي ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٢ .

(٣٦) انظر ، للتفاصيل ، بيرتس مرحاف ، « تولدوت تنوعات هابوعاليم بايرتس ــ يسرائيل ، ١٩٠٥ ــ ١٩٦٥ » (تاريخ حركة العمال في ارض ــ اسرائيل ، ١٩٠٥ ــ ١٩٦٥) ، مرحفياه : سفريات بوعاليم ، ١٩٦٧ ، ص ٦٨ و٧٢ ــ ٧٥ و٨٣ (بالعبرية) .

(٣٧) Chaim Weizmann, *Trial and Error* (London: East and West Library, 1950), p. 448.

(٣٨) يهوشواع اوفير ، «سيفر هاعوفيد هليئومي » (كتاب العامل القومي) ، تل ــ ابيب : اللجنة التنفيذية لمنظمة العمال القومية ، ١٩٥٩ ، ص ٢٣ (بالعبرية) .

(٣٩) « هابروتوكوليم شل هافاعاد هابوعيل هاتسيوني » (محاضر جلسات اللجنة التنفيذية الصهيونية) ، تل ــ ابيب : جامعة تل ــ ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧٥ ، الجزء الاول ، ص ١٠٦ و١٢٧ و١٣٢ و٢٢٦ ــ ٢٢٧ (بالعبرية) .

(٤٠) *Encyclopedia of Zionism and Israel* (New York: Herzl Press and Mc Graw Hill, 1971), Vol. 1, pp. 538-539; *Encyclopedia Judaica* (Jerusalem: Keter Publishing House Ltd., 1971), Vol. 9, p. 533 and *A Survey of Palestine* (Jerusalem: Gouvernement Printer, 1946), Vol. 1, pp. 185, 193-194.

(٤١) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه .

(٤٢) يهودا ايرز (رئيس التحرير) في « سيفر هاعلياه هاشليشيت » (كتاب الهجرة الثالثة) ، تل ــ ابيب : عام عوفيد : ١٩٦٤ ، الجزء الاول ، ص ٢٥ و٣٨ (بالعبرية) .

(٤٣) براسلافسكي ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ١٩١ .

(٤٥) ابن شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٤٢١ .

(٤٦) براسلافسكي ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٩٨ .

(٤٧) ابن شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٤٢٩ .

(٤٨) النص في المصدر نفسه ، ص ٤٤٦ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧ .
(٥٠) المصدر نفسه .
(٥١) المصدر نفسه ، الجزء الثاني ، ص ١٥ ـ ١٧ .
(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ ـ ٢٣ .
(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٤٩ ـ ٥٢ .
(٥٤) المصدر نفسه ، ص ١٨ ـ ١٩ .
(٥٥) انظر ، للمصدر ، الحاشية رقم (٢٤) اعلاه .

(٥٦) انظر ترجمة عربية لنصوص اللوائح في ملف وثائق فلسطين (القاهرة : وزارة الارشاد القومي ، الهيئة العامة للاستعلامات ، ١٩٦٩) ، الجزء الاول ، ص ٣١١ ـ ٣٢٢ .

(٥٧) انظر النصوص وتعديلاتها في مرحفياه ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٣ ـ ١٢٢ .

(٥٨) Weizmann, *op. cit.*, p. 344
(٥٩) انظر ، للمصدر ، الحاشية رقم (٢٤) اعلاه .

(٦٠) لمزيد من التفاصيل حول النقاش ، انظر هارتس ، ١٩٢٣/٨/٩ ، ص ٢ .
(٦١) انظر جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٨ ـ ١٨١ .
(٦٢) مرحفياه ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٦٢ .
(٦٣) المصدر نفسه .
(٦٤) بيرتس مرحاف ، « تولدوت تنوعات هابوعاليم بايرتس ـ يسرائيل ، ١٩٠٥ ـ ١٩٦٥ » (تاريخ حركة العمال في ارض ـ اسرائيل ، ١٩٠٥ ـ ١٩٦٥) ، مرحفياه : سفريات بوعاليم ، ١٩٦٧ ، ص ٣٥٣ (بالعبرية) .
(٦٥) انظر ايضا ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .
(٦٦) مرحفياه ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٢ .
(٦٧) المصدر نفسه .
(٦٨) انظر النصوص الاصلية وتعديلاتها في المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ ـ ٢٨٢ .
(٦٩) ابن شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ٩١ .
(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .
(٧١) المصدر نفسه .
(٧٢) المصدر نفسه .
(٧٣) انظر ايضا نص دستور « هيئة العاملين » في مرحفياه ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٦ .
(٧٤) المصدر نفسه .
(٧٥) ابن شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ١٨٧ .
(٧٦) انظر ، لمزيد من التفاصيل حول يكا ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠ و٢٣٧ و٢٤٤ ـ ٢٤٦ .
(٧٧) موشي سميلانسكي ، « براكيم بتولدوت هاييشوف » (فصول في تاريخ اليبشوف) ، تل ـ ابيب : دفير ، ١٩٥٩ ، الجزء الاول ، الكتاب الرابع ، ص ٦٢ (بالعبرية) .
(٧٨) انظر ، لمزيد من التفاصيل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٦ و٢١٢ ـ ٢١٣ .
(٧٩) ابن ـ شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .
(٨٠) جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .
(٨١) ابن شوشان ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٤١٣ .
(٨٢) المصدر نفسه .
(٨٣) المصدر نفسه ، ص ٤١٤ .
(٨٤) المصدر نفسه ، ص ٤١٦ .
(٨٥) انظر مقالة يافيه عن موشاف عوفديم في براسلافسكي ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٧١ .
(٨٦) انظر ، لمزيد من التفاصيل ، الكس باين ، « تولدوت هاهتيشفوت هاتسيونيت » (تاريخ الاستيطان الصهيوني) ، رامات غان : مسادة ، ١٩٧٠ ، ص ١٧٢ ـ ١٨٠ (بالعبرية) .
(٨٧) المصدر نفسه ، ص ٢٣٢ .
(٨٨) A Survey of Palestine, *op. cit.*, Vol. 1, p. 244.
(٨٩) جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٤٥ ، وانظر ايضا :

A. Granott, *Agrarian Reform and the Record of Israel* (London: Eyre and Spottiswoode, 1956), p. 28; A Survey of Palestine, *op. cit.*, Vol. 1, p. 376.

(٩٠) ع. اشبل (محرر) ، « شيفعيم شنوت هاخشارات هاييشوف » (سبعون سنة لشركة تطوير اراضي فلسطين) ، القدس : شركة تطوير اراضي فلسطين ، ١٩٦٩ ، ص ٥٠ (بالعبرية) .
(٩١) المصدر نفسه .
(٩٢) المصدر نفسه .
(٩٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ـ ٥٧ .

(٩٤) ارثور روبين ، « شلوشيم شنوت بنيان بايرتس ـ يسرائيل » (ثلاثون سنة من البناء في ارض ـ اسرائيل) ، القدس : شوكن ، ١٩٣٦ ، ص ١٦٤ ـ ١٦٧ (بالعبرية) .
(٩٥) سعاديــاه باز ، « زخرونــوت » (منكرات) ، حيفا : اصدار عائلة المؤلف ، ١٩٦٣ ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ (بالعبرية) .
(٩٦) انظر ايضا باين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٣ ـ ١٦٨ .

(٩٧) انظر ايضا شبتاي طيفت ، « موشي دايان » (موشي دايان) ، القدس وتل ـ ابيب : شوكن ، ١٩٧٢ ، ص ٣٣ (بالعبرية) .
(٩٨) انظر ، للتفاصيل ، باين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٤ . وانظر ايضا سميلانسكي ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، الكتاب الرابع ، ص ١٠٦ ـ ١١٦ .
(٩٩) انظر ، للتفاصيل ، سميلانسكي ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، الكتاب الرابع ، ص ١١٧ ـ ١٤٦ .
(١٠٠) المصدر نفسه ، ص ١٥١ ـ ١٥٦ .
(١٠١) المصدر نفسه ، الجزء الثاني ، الكتاب الخامس ، ص ١٥ .
(١٠٢) Neil Caplan, *Palestine Jewry and the Arab Question, 1917 - 1925* (London: Frank Cass and Company Limited, 1978), pp. 3-5.
(١٠٣) *Ibid*, p. 17 - 18; Simha Flapan, *Zionism and the Palestinians* (London: Croom Helm Ltd., 1979), pp. 55 - 57.
(١٠٤) يوسف اوليتسكي ، « ميزوراه ـ لدنياه » (من تشتت الى دولة) ، القدس : احياساف ، ١٩٥٩ ، الجزء الاول ، ص ٢٦٠ .
(١٠٥) المصدر نفسه .
(١٠٦) انظر ، للتفاصيل ، جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٦ .
(١٠٧) Caplan, *op. cit.*, p. 20
(١٠٨) انظر ، للتفاصيل ، « سيفر تولدوت هاهاغاناه » (كتاب تاريخ الهاغاناه) ، (رئيس التحرير : بن ـ تسيون دينور) ، تل ـ ابيب : معرخوت والمكتبة الصهيونية ، ١٩٥٦ ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، ص ٦٤١ ـ ٦٥٢ .
(١٠٩) Caplan, *op. cit.*, pp. 61 - 62
(١١٠) « سيفر هاتعودوت شل هافاعاد هليئومي شل كنيست يسرائيل بايرتس يسرائيل » (كتاب الوثائق للجنة القومية لكنيست ـ يسرائيل في ارض ـ اسرائيل) ، (رئيس التحرير : موشي اطياس) ، القدس ، مطبعة رفائيل حاييم هاكوهين م. ض. ، ١٩٦٣ ، ص ١٥ (بالعبرية) .
(١١١) المصدر نفسه .
(١١٢) Caplan, *op. cit.*, pp. 63-64
(١١٣) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه ، ص ٩٨ ـ ١٠٤ .
(١١٤) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه ، ص ١٢٧ ـ ١٤١ .
(١١٥) انظر ، مثلا ، نص خطابي غولدبرغ في هارتس ، ٢٧/٩/١٩٢١ ، ص ٢ ؛ ودافيد يالين في المصدر نفسه ، ٦/١٠/١٩٢١ ، ص ٢ .

(١١٦) من خطاب اوشيسكين ، المصدر نفسه ، ٢٨/٩/١٩٢١ ، ص ٢ .
(١١٧) من خطاب جابوتينسكي ، المصدر نفسه ، ٢٦/٩/١٩٢١ ، ص ٢ .
(١١٨) من خطاب كاتسنلسون ، المصدر نفسه ، ٢٥/٩/١٩٢١ ، ص ٢ .
(١١٩) من خطاب سوكولوف ، المصدر نفسه ، ١٩/٩/١٩٢١ ، ص ٢
(١٢٠) من خطاب وايزمن ، المصدر نفسه ، ١٦/٩/١٩٢١ ، ص ٣ .
(١٢١) اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣١٠ . وانظر ايضا :
Caplan, *op. cit.*, p. 115
(١٢٢) Ben Halpern, *The Idea of the Jewish State* (Cambridge: Harvard University Press, 1969), p. 337; Caplan, *op. cit.*, pp. 115-116.
(١٢٣) فرايزل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩٦ .
(١٢٤) انظر ، للتفاصيل ، مقالة مئير فيرطه ، « المفاوضات الصهيونية ـ العربية في ربيع ١٩١٩ والسياسة البريطانية » في مجلة « تسيون » ، المجلد ٣٢ (١٩٦٧) ، ص ٧٥ ـ ١١٥ (بالعبرية) .
(١٢٥) انظر التفاصيل في اهرون كوهين ، « يسرائيل فيها عولام هاعرفي » (اسرائيل والعالم العربي) ، مرحفياه : سفريات بوعاليم ، ١٩٦٤ ص ١٧٧ ـ ١٨٣ . وانظر ايضا اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣١٠ ـ ٣١٤ .
(١٢٦) كوهين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٤ .
(١٢٧) انظر ، مثلا ، اوليتسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٥ . وكذلك Frederick H. Kisch, *Palestine Diary* (London: Victor Gollancz, 1938), p. 36.
(١٢٨) Caplan, *op.cit.*, pp. 62 - 64, 104, 120.
(١٢٩) انظر جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ و٢٩٢ ـ ٢٩٤ .
(١٣٠) « كتاب تاريخ الهاغاناه » مصدر سبق ذكره ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، ص ٥٦٣ و٥٦٤ و٦٢٧ و٦٣٨ .
(١٣١) « سيفر هاشومير » (كتاب هاشومير) ، (رئيس التحرير : اسحاق بن ـ تسفي) ، تل ـ ابيب : دفير ، ١٩٦٢ ، ص ٥٧ .
(١٣٢) المصدر نفسه .
(١٣٣) المصدر نفسه .
(١٣٤) « كتاب تاريخ الهاغاناه » ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، الجزء الاول ، ص ٦٥ .

(١٣٥) انظر ايضا ، لمزيد من التفاصيل ، المصدر نفسه ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، ص ٦٥٤ ـ ٦٥٦ .

(١٣٦) انظر جريس ، مصدره سبق ذكره ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨ .

(١٣٧) اوري ميلشتاين ، « بدام فيايش ، يهودا ـ تسميحاتاه شل هاعتسماه هايسرائيليت » (بالدم والنار ، يهودا ـ نمو القوة الاسرائيلية) ، تل ـ ابيب . ليفين ـ ابشتاين ، ١٩٧٣ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(١٣٨) « كتاب تاريخ الهاغاناه » ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، الجزء الاول ، ص ١٢٨ .

(١٣٩) المصدر نفسه ، الكتاب الثاني ، الجزء الثاني ، ص ٦٤٠ .

(١٤٠) المصدر نفسه ، الكتاب الثاني ، الجزء الاول ، ص ١٦٣ .

(١٤١) التفاصيل في المصدر نفسه ، ص ١١٩ و١٢٩ ـ ١٣٠ و١٤٤ ـ ١٥٠ و١٦٤ .

جلنار النمس

القضية الفلسطينية في الامم المتحدة (١٩٤٧-١٩٧٣)

قرارات ومواقف

في اواخر الاربعينات ، واثرنهاية الحرب العالمية الثانية ، وصلت الاوضاع السياسية في فلسطين الى مدى من التأزم ، دفع بريطانيا ، باعتبارها الدولة المنتدبة على فلسطين ، وفي محاولة للتخلي عن انتدابها بعد ان استنفد اغراضه ، الى عرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة . وتم ذلك في مرحلة لم يكن العرب خلالها ، على الصعيدين الدولي والمحلي ، في وضع يسمح لهم بالاستجابة للتحديات التي نجمت عن تلك الخطوة ، مما ادى ، في نهاية الامر ، الى قيام اسرائيل وطمس القضية الفلسطينية ، خلال ما يقارب ربع قرن .

خمسة اعوام من الهزائم (١٩٤٧ ــ ١٩٥١)

اتسمت فترة ما بين سنتي ١٩٤٧ و١٩٥١ ، على الصعيدين العسكري والسياسي ، بهزيمة للعرب ، في مقابل نصر لاسرائيل . وفي تلك الفترة ايضا ظهر اهتمام المنظمة الدولية الواسع بالقضية الفلسطينية ، اذ كرست لها عدة اجتماعات ، وعالجتها عدة منظمات وشكلت لها عدة لجان ، واتخذت قرارات ، الا ان اكثرها كان في مصلحة اسرائيل .

انشاء اللجنة الخاصة (U.N.S.C.O.P.) : طلبت بريطانيا عقد دورة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة ، في ٢ نيسان (ابريل) ١٩٤٧ ، للنظر في مستقبل الحكم في فلسطين ، فادرج ، في السنة نفسها ، بند « قضية فلسطين » في جدول اعمال الدورة الاستثنائية الأولى للجمعية العامة ، ثم توالى ادراجه في كافة دوراتها اللاحقة حتى الدورة السادسة سنة ١٩٥١/ ١٩٥٢ . وتحت هذا البند ، كانت تناقش كافة المسائل المتعلقة بفلسطين .

وفي الدورة الاستثنائية الاولى ١٩٤٧،منحت الوكالة اليهودية فرصة الادلاء بشهادتها بموجب القرار رقم ١٠٢ ، ومنحت الهيئة العربية العليا حق الكلام باسم فلسطين،بموجب القرار رقم ١٠٥ ، فتحدث ممثلها المحامي هنري كتن ، « واكد مطالبة عرب فلسطين بالاستقلال ووقف الهجرة [اليهودية] فورا ، [كما] اعلن معارضة عرب فلسطين لاية لجنة تؤلف ، ورفضهم لأية قرارات تصدر اذا كانت لا تتفق ومطالبهم»[١]. وكانت الارجنتين والولايات

المتحدة قد تقدمتا باقتراحين منفصلين بشأن انشاء لجنة خاصة بفلسطين : فقد اقترحت الارجنتين تأليف لجنة من ١١ عضوا من الاعضاء الدائمين في مجلس الامن ، مع عضو من بلد عربي ، وخمسة اعضاء من بلدان اخرى لتمثيل كل المناطق ، والاستماع الى المندوب البريطاني وممثلي العرب واليهود ، ويكون لها كامل صلاحية تسجيل الوقائع ورفع التوصيات . اما الاقتراح الاميركي فقد نص على تأليف لجنة من ٧ اعضاء من غير الاعضاء الدائمين في مجلس الامن ، وبدون مندوبين عرب . كما تضمن حق اللجنة في جمع وتحليل المعلومات المتعلقة بالمسألة الفلسطينية ، وتسجيل اقتراحات الحكومات والمنظمات والافراد وبالتالي اعطاء الحلول . وقد تم تبني الاقتراح الاميركي بعد تعديله ، في اعقاب فشل اقتراح سوفياتي ــ بولندي بتعديل الاقتراح الاميركي على نحو يقضي بزيادة الجملة التالية : « ان تعطي اللجنة اقتراحات لاقامة الدولة الديمقراطية الفلسطينية المستقلة » . وكان المندوب السوفياتي قد اعلن ان حل القضية الفلسطينية يتم باقامة الدولة الواحدة ، العربية ــ اليهودية ، مع حقوق متساوية بين العرب واليهود .

واذا كان من غير الممكن ان تقوم دولة كهذه بسبب استمرار الصراع العربي ــ اليهودي ، «فان تقسيم فلسطين بين دولة يهودية ودولة عربية يصبح ضروريا»[٢]. وكان هذا اول اقتراح بتقسيم فلسطين يطرح في الامم المتحدة . وقد لقي هذا الاقتراح احتجاجا شديدا من قبل الدول العربية الاعضاء التي طالبت بحقوق الفلسطينيين واستقلالهم ، كما طرح خلال النقاش سؤال رئيسي بشأن اللاجئين اليهود في اوروبا وعما اذا كانت هذه المسألة ستربط بالقضية الفلسطينية ام لا . فقد اوضح مندوب اوروبي اهمية الفصل بين المسألتين ، لان ربطهما لا يسهل ايجاد اي حل عادل ومناسب للقضية الفلسطينية . كذلك اصر المندوب السوري على ان هاتين المسألتين منفصلتان ، بينما اصر مندوب الوكالة اليهودية على ربطهما معا[٣] .

وهكذا لم يحظ الاعتراف بالحقوق الفلسطينية بتأييد عام ، كما ان ميثاق اللجنة الخاصة لم يشر الى انتهاء الانتداب وإستقلال فلسطين ، وتم ربط مسألة اللاجئين اليهود الاوروبيين بالقضية الفلسطينية . وفي ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٧ ، اتخذت الجمعية العامة قرارا تحت رقم ١٠٦ ، وباكثرية ٤٥ صوتا في مقابل ٧ وامتناع ١ عن التصويت « بتأليف لجنة خاصة لفلسطين United Nations Special Commitee on Palestine, U.N.S.C.O.P.] وتكليفها باعداد تقرير بشأن مسألة فلسطين ، للنظر فيه في دورة الجمعية العادية المقبلة ، وسيكون للجنة اوسع السلطات للتأكد من الحقائق وتسجيلها ، ولتحري جميع المسائل والقضايا المتعلقة بقضية فلسطين ، وعلى اللجنة الخاصة ان تقرر قواعد اجراءاتها والقيام بالتحقيقات في فلسطين ، وحيث ترى ان ذلك قد يكون مفيدا ، وتتلقى الشهادات الخطية والشفهية ودرسها ، من السلطة المنتدبة ، وممثلي سكان فلسطين ، ومن الحكومات والمنظمات والافراد ، كما ترى ذلك ضروريا وكما تعتبره ملائما في كل حالة . وان تولي المصالح الدينية اقصى عنايتها ... »[٤] . كما طلبت الجمعية العامة ، في القرار رقم ١٠٧ ، من سكان فلسطين الامتناع عن التهديد بالقوة او استعمالها .

التقسيـــــم : زارت اللجنة الخاصة فلسطين في منتصف شهر حزيران (يونيو) ١٩٤٧ . فاستقبلت بالاضراب . واقيم ، اثناء وجودها في القدس ، مهرجان كبير للعمل من

اجل المحافظة على الاراضي العربية ومقاومة سياسة الاحتلال(٥) . وابرقت اليها القيادة الفلسطينية في الهيئة العربية العليا ، تعلن عدم تعاونها معها ، لان الامم المتحدة رفضت تبني انهاء الانتداب واستقلال فلسطين ، وفشلت في فصل مسألة اللاجئين اليهود عن المشكلة الفلسطينية ، وفضلت المصالح الدينية العالمية على مصالح السكان الفلسطينيين ، وان حقوق الفلسطينيين واضحة وليست بحاجة للتحقيق ، لكنها تستحق الاعتراف بها وفق ميثاق الامم المتحدة . وفي المقابل اجتمع ممثلو الجامعة العربية باللجنة الخاصة في لبنان ، واوضحوا ان مصير فلسطين لا يقرره الا شعبها ، وان لا حق للصهيونية فيها .

اما المنظمات اليهودية، فقد تعاونت مع اللجنة الخاصة وقدمت لها العديد من الوثائق التفصيلية ، في حين قدمت الدول العربية ورقتين تتضمنان معلومات مختصرة ، لعدم رغبتها في التعاون معها .

واستمعت اللجنة الخاصة كذلك ، الى دافيد بن ـ غوريون ، رئيس الوكالة اليهودية آنذاك ، الذي رفض التقسيم ، مدعيا ان كل فلسطين هي من حق الصهيونية ، ومتهما بريطانيا بأنها لم تكمل هدف الانتداب وهو اقامة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين .

كذلك استمعت اللجنة الى حاييم وايزمن ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية آنذاك ، الذي كان يميل اكثر الى قبول التقسيم(٦) ، ثم انتقلت اللجنة الى جنيف ، وانبثقت عنها لجنة فرعية تفقدت مخيمات اللاجئين اليهود في المانيا والنمسا ، وقدمت تقريرا تضمن ان اكثرية اللاجئين اليهود يريدون الذهاب الى فلسطين هروبا من اللاسامية المنتشرة في اوروبا .

وانهت اللجنة الخاصة تحقيقاتها ، في آب ١٩٤٧ ، ثم وضعت تقريرا يلخص المسألة اليهودية والعربية على النحو التالي : المسألة اليهودية ، كما عرضتها الوكالة اليهودية ، هي ان هناك مصالح يهودية في فلسطين ، تتجسد ، كما نص الانتداب ، بقيام دولة يهودية في هذا البلد ، تؤمن مأوى للمهجرين اليهود . فهذه الدولة بحاجة الى استقبال اكبر عدد من المهاجرين اليهود ، لان حل « المسألة اليهودية » يعتمد اعتمادا اساسيا على الهجرة اليهودية ، وعلى حق اليهود في « العودة » الى فلسطين . اما المسألة العربية فتتلخص باقامة دولة فلسطينية عربية مستقلة غربي الاردن . ويعتبر العرب ان لهم الحق الطبيعي وغير المنازع في ملكية الارض التي يعيشون عليها منذ القدم ، وان لهم الحق « المكتسب » ، وفقا للوعود الرسمية خلال الحرب العالمية الاولى . فهم يرفضون الاعتراف بالانتداب الذي دمج به وعد بلفور لانه غير شرعي(٧) .

لم تتوصل اللجنة الخاصة الى اقتراحات موحدة ، بل قدمت الى الجمعية العامة تقريرا منطويا على مشروعين لحل مشكلة فلسطين احدهما مشروع الاغلبية ، والاخر مشروع الاقلية . وقد اقترح مشروع الاغلبية « انهاء الانتداب وتقسيم فلسطين : وانشاء دولتين : دولة عربية تتكون في الجليل الغربي ومنطقة نابلس الجبلية والسهل الساحلي الممتد من اسدود الى الحدود المصرية ، ودولة يهودية تتألف من الجليل الشرقي ومرج ابن عامر والقسم الاكبر من السهل الساحلي ومنطقة بئر السبع والنقب (اي القسم الاهم في فلسطين) . ثم وضع منطقة القدس وضواحيها تحت الوصاية الدولية وقبول ١٥٠,٠٠٠ مهاجر في الدولة اليهودية المقترحة بمعدل خمسة الاف مهاجر كل شهر ؛ على ان تنال الدولتان ، العربية واليهودية ، استقلالهما ، بعد

مرحلة انتقال مدتها عامان، تبدأ في اول ايلول [سبتمبر]١٩٤٧، وتستمر بريطانيا خلالهما في حكم فلسطين تحت اشراف هيئة الامم المتحدة . اما مشروع الاقلية ، فقد اقترح بدوره ، انهاء الانتداب ، ولكنه دعا الى انشاء دولة اتحادية قوامها دولة عربية ودولة يهودية ، وتكون القدس عاصمة هذه الدولة الاتحادية »(٨) .

وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، تبنت الجمعية العامة في دورتها الثانية ، القرار رقم ١٨١ باكثرية ٣٣ صوتا ، في مقابل ١٣ وامتناع ١٠ اعضاء عن التصويت وتحت عنوان « التوصية بخطة لتقسيم فلسطين » ، مشروع الاغلبية بعدما اجريت عليه تعديلات طفيفة تشمل انهاء بريطانيا انتدابها في ١ آب (اغسطس) ١٩٤٨ ، وتقسيم فلسطين الى دولتين مع اتحاد اقتصادي ، على ان تشمل الدولة اليهودية ثلاثة اقسام من فلسطين ، بينما تضم الدولة العربية اربعة اقسام ، بدلا من ثلاثة ، بعدما تقرر ضم يافا اليها ، واخيرا وضع القدس تحت الوصاية الدولية(٩) .

عارض العرب تقسيم فلسطين لانه لا يتفق مع القانون ولا مع العدل ومبادىء الديمقراطية . واقترحوا احالة القضية الفلسطينية وتوصية الامم المتحدة بتقسيم فلسطين ، الى محكمة العدل الدولية لتبدي رأيها . لكن القوى السياسية المؤيدة للتقسيم احبطت الاقتراح . ولقد حصل الصهيونيون على تأييد بعض الدول لقرار الجمعية العامة لتقسيم فلسطين ، بالضغط وسياسة القوة . كما ان الولايات المتحدة استخدمت نفوذها في اكراه اميركا اللاتينية ، ودول البحر الكاريبي وغيرها ، على الموافقة على هذا القرار . كذلك اجلت الولايات المتحدة جلسة التصويت عدة مرات ، ليتاح لها وللصهيونيين فرصة اكبر للضغط على بعض الدول لتصوت الى جانبها(١٠) .

لقد ادى قرار التقسيم هذا ، الى انفجار الوضع في فلسطين ، على شكل تظاهرات واضرابات دموية ادت الى مقتل حوالى ١٧٠٠ شخص من كلا الجانبين ، خلال الايام المئة التي تلت صدور القرار . كما دعا عرب فلسطين الى اضراب مدته ثلاثة ايام ، ونظموا التظاهرات تعبيرا عن الاحتجاج . اما اليهود فقد هللوا لانتصارهم السياسي واحتفلوا به(١١) . ومن جهتها ، اعلنت بريطانيا انها ستنهي انتدابها على فلسطين في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، اي قبل عدة اشهر من الموعد الذي حددته الامم المتحدة . وما ان اعلن قرار التقسيم حتى انسحبت سلطات الانتداب من تل ــ ابيب ، ثم سلمت السلطة لليهود في « الدولة اليهودية » المذكورة في القرار ، مما يسر تدفق مزيد من الاسلحة والرجال الى فلسطين(١٢) .

والجدير بالذكر ان الصهيونيين استطاعوا الحصول على هذا القرار بعد تحقيق انجازين منذ نقل امر البت بمصير فلسطين الى الامم المتحدة . « ويتمثل الاول في استبدال الدولة الحليفة ــ الحامية . فاصبحت الولايات المتحدة (بدلا من بريطانيا) التي برزت بوصفها الدولة الاقوى ، اقتصاديا وعسكريا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث تكون فيها لوبي صهيوني يملك قدرة ملحوظة من النفوذ والتأثير على النخبة السياسية الاميركية ... ويتمثل الانجاز الثاني في اقناع المجتمع الدولي بقوة مواقع الصهيونيين في فلسطين ... وبفعاليتهم في

حرب العصابات التي يشنونها على الانكليز ، وارادتهم في الاستقلال ، وباستحالة تعايشهم في دولة واحدة مع عرب فلسطين » . وقد يفسر هذا التقاء الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على تأييد التقسيم بعدما وضعا امام امر واقع(١٣) .

لقد كان قرار التقسيم جائرا لعدة اعتبارات : اولا لانه صدر من خارج نطاق صلاحيات الجمعية العامة وسلطاتها المنصوص عليها في ميثاق الامم المتحدة ؛ اذ ليس من حق الامم المتحدة ، او اي فرع منها ، اصدار قرار تقسيم اقليم لا تملك عليه اية سيادة اصلية او وراثية ؛ ثانيا ، ان اليهود كانوا يشكلون في تلك الفترة (١٩٤٧) ، اقل من ثلث سكان فلسطين ، وعشر هؤلاء فقط هم من السكان الاصليين ، اما الباقون ، فكانوا من اليهود المهاجرين . « كما ان اغلبية السكان ، حتى في الدولة اليهودية المقترحة هم من العرب . وبعبارة اخرى كان للعرب اغلبية في الدولة اليهودية المقترحة » . اما ما كان اليهود يملكونه ، فكان لا يزيد عن ٥,٦٦٪ من مجموع مساحة اراضي فلسطين . لكن قرار التقسيم اعطى الدولة اليهودية المقترحة ٥٤٪ من مجموع الاراضي ؛ ثالثا ، ان القرار يناقض مبدأ حق تقرير المصير لانه فرض قسرا على الشعب الفلسطيني من قبل القوى الدولية المهيمنة ، وهو يتغاضى عن اماني وحقوق ومطامح هذا الشعب في الحرية والاستقلال وتقرير المصير على كامل التراب ورفض التقسيم ؛ رابعا ، تنكر القرار لمبدأ مهم من مبادىء الامم المتحدة، وهو الحرص على السلام والامن والعدالة الدولية ، وفتح الباب امام التجاوزات لتنفيذ مآرب الدول القوية على حساب الامم والشعوب الضعيفة ؛ خامسا ، ان فلسطين قد صنفت في الانتداب بما عرف بفئة « أ » ، وهذا يعني ان على الدولة المنتدبة ان تهيىء فلسطين لنيل استقلالها باعتبارها قادرة على ادارة شؤونها بذاتها . لكن بريطانيا فعلت العكس ، بتنفيذها وعد بلفور . واخيرا ، لقد حصل هذا القرار على الاصوات المؤيدة تحت الضغط الاميركي والصهيوني كما ذكرنا سابقا .

انشاء اسرائيـــــل

بعد اشتداد الاضطرابات الداخلية ردا على قرار التقسيم ، انعقد مجلس الامن ، في ١٩ آذار ١٩٤٨ ، للنظر في اوضاع فلسطين . وقد طالب مندوب الولايات المتحدة ، وارين اوستن ، وقف التقسيم ما دام تنفيذه بالوسائل السلمية غير ممكن ، في ظل تلك الظروف . واقترح المندوب الاميركي وضع فلسطين تحت الوصاية الموقتة لمجلس الوصاية التابع للامم المتحدة ، وعقد جلسة خاصة للجمعية العامة . وقد رفض مندوب الوكالة اليهودية الاقتراح وحذر مجلس الامن من اتخاذ تلك الخطوات . لذلك دعا المجلس الى انهاء العنف فحسب . ويذكر ان هذا الموقف الاميركي لم يبق ثابتا ، بل طرأت عليه تغيرات مستمرة . وقد اتخذت الصهيونية ، من جانبها ، خطوات عديدة وسريعة لتغيير الوضع وفرض الامر الواقع على العالم . فقامت المنظمات الصهيونية (الهاغاناه والارغون وشتيرن) بشن هجمات على السكان العرب ، وارتكبت المجازر ، مثل مذبحة دير ياسين ومذبحة قرية ناصر الدين .

وامام هذه التطورات ، والانسحاب البريطاني السريع ، وتوسع الاحتلال الصهيوني ، وازدياد النزوح العربي ، لم تستطع الامم المتحدة السيطرة على الوضع(١٤) . وحالت بريطانيا

دون ان تتسلم اللجنة الخاصة (.U.N.S.C.O.P) مهامها . وكان المندوب البريطاني قد اعلن ، في مجلس الامن ، أن بلاده ستستمر في تحمل مسؤولية ادارة فلسطين ، وحفظ الامن والقانون فيها ، طوال مدة الانتداب (اي حتى ١٥ ايار ١٩٤٨) . وانذرت بريطانيا بأنها ستعامل بالقوة كل تدخل خارجي في شؤون فلسطين ، هادفة بذلك الى تحذير البلدان العربية من مساعدة الفلسطينيين العرب ، الذين كانوا يتعرضون لهجمات مختلفة(١٥) .

وعقدت الجمعية العامة ، في ٢٦ نيسان ١٩٤٨ دورة خاصة ثانية ، لبحث القضية الفلسطينية ، اعلنت بريطانيا فيها انها لن تشارك في فرض تسوية لا يقبلها الطرفان المتصارعان ، موضحة ان التقسيم لم يكن منزهاً عن التحيز . لكن الصهيونيين عارضوا ، بشدة ، العدول عن التقسيم ورفضوا فكرة الوصاية ، فتم التخلي عن ذلك .

وفي ١٤ ايار ١٩٤٨ ، وبموجب القرار رقم ١٨٦ ، الذي نال تأييد ٣١ دولة في مقابل ٧ دول صوتت ضده وامتناع ١٦ دولة عن التصويت ، قررت الجمعية العامة تعيين وسيط دولي تكون له الصلاحيات التالية : « استعمال مساعيه الحميدة لدى السلطات المحلية والطائفية في فلسطين ، في سبيل تأمين القيام بالخدمات الضرورية لسلامة سكان فلسطين ورفاهيتهم ؛ تأمين حماية الاماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية في فلسطين ؛ ايجاد تسوية سلمية للوضع في فلسطين ، والتعاون مع لجنة الهدنة في فلسطين التي عينها مجلس الامن ... وان يرفع تقارير شهرية عن تقدم مهمته»(١٦). وقد اعفيت لجنة فلسطين ، في القرار نفسه ، من الاستمرار في ممارسة المسؤوليات المذكورة في قرار التقسيم . وفي اليوم نفسه ، اعلن المجلس الملي اليهودي ، بعد احتلال عدة مدن و مناطق من « الدولة العربية » ، قيام الدولة اليهودية (اسرائيل) . كما انتهى الانتداب البريطاني رسميا ، فتوالت اعترافات عديدة باسرائيل من قبل عدة دول ، اهمها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

وفي اليوم التالي ، ١٥ ايار ١٩٤٨ ، دخلت سبعة جيوش عربية الى فلسطين « للمحافظة على حقوق السكان العرب من الارهاب الصهيوني»(١٧). وفي اليوم نفسه ، وجهت جامعة الدول العربية مذكرة الى الامم المتحدة ، توضح فيها اسباب تدخلها في فلسطين وتؤكد ان سكان فلسطين احق بحكمها وبتقرير مصيرهم ، طبقا لاحكام ميثاق عصبة الامم وميثاق الامم المتحدة . وان اعمال الاخلال بالامن ، والارهاب ، والاستعمار الصهيوني ، قد ادت الى نزوح ربع مليون ونيف من العرب الفلسطينيين الى البلدان المجاورة . كما ان هذه الاحداث هي تهديد سلم الدول العربية ، المسؤولة عن حفظ الامن والسلم في ساحتها وفي فلسطين . وقد رأت حكومات هذه الدول انها مضطرة الى التدخل في فلسطين لمساعدة سكانها على اعادة السلم والامن ، وحكم بلدهم بالعدل والقانون ، وحقنا للدماء(١٨) .

وهكذا نشبت المعارك في فلسطين ، وكانت بمثابة حرب عربية ــ اسرائيلية اولى ، شهدت هدنتين ، نادى بهما مجلس الامن : الهدنة الاولى ابتداء من ١١ حزيران ١٩٤٨ ، دامت لمدة شهر ، وكان قد رتبها الوسيط الدولي برنادوت ؛ الهدنة الثانية ، غير محددة بفترة معينة ، بدأت بتاريخ ١٨ تموز ، وامتدت حتى ١٦ تشرين الاول ١٩٤٨ ، حين خرقها الاسرائيليون . ثم توقف القتال في هدنة ثالثة في اواخر سنة ١٩٤٩ . وخلال هذه المعارك ، احتل الاسرائيليون قسما

كبيرا من « الدولة العربية » وكافة الاراضي المقتطعة « للدولة اليهودية » بموجب قرار التقسيم .

ولقد كان قيام اسرائيل نتيجة سياسات عديدة منذ زمن طويل ، ولم يكن وليد سنة ١٩٤٨ فقط . فبريطانيا ، مثلا ، لعبت الدور الاكثر اهمية في تسهيل انشاء اسرائيل ، عبر دعمها المطلق والصريح للصهيونية عند وضع وعد بلفور ، الحجر الاساسي للدولة الاسرائيلية ، وتنفيذه خلال الانتداب . كما مارست بريطانيا ، فيما بعد ، سياسة متناقضة ومترددة ، من موقع حرصها على ادامة سيطرتها على جزء من فلسطين ، وهذا ما يفسر تصرف بريطانيا المتناقض في الامم المتحدة وفي فلسطين . فمن جهة ، كانت تقف موقف الحكم المحايد في الجمعية العامة ، مع اصرارها على تحمل مسؤوليتها حتى نهاية الانتداب ، وتنتقد التقسيم لانه « لم يكن مجردا من التحيز » ؛ ومن جهة اخرى ، تنسحب بسرعة من فلسطين ، تاركة للصهيونيين فرصة للتمركز واستيراد السلاح ، بينما تمنعه عن العرب وتجردهم منه . كما استعملت الحكم الاردني ، آنذاك ، اداة لها في اقتسام فلسطين ؛ اذ اتفقت معه على ان يحتل القسم الذي خصصه قرار التقسيم للعرب ، عند انتهاء الانتداب ، ودون مهاجمة المناطق المخصصة لليهود(١٩) .

اما الولايات المتحدة ، فقد لعبت دوراً مهما في الاحداث التي ادت الى نشوء اسرائيل . فقد قدمت كل الدعم الاقتصادي والعسكري والسياسي للصهيونيين ، وتبنت دائما الموقف الاسرائيلي في الامم المتحدة . ويذكر ان ترومان ، رئيس الولايات المتحدة ، آنذاك ، كان قد وعد حاييم وايزمن ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، باعتراف بلاده بالدولة اليهودية فور اعلانها . وبالفعل ، كان ترومان اول من اعلن اعتراف بلاده باسرائيل . وقد وقع هذا النبأ كالصاعقة على وارن اوستن ، المندوب الاميركي في الامم المتحدة ، الذي كان ما يزال يعمل على وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية(٢٠) .

اما العرب، ونتيجة لتواطؤ وخيانة بعضهم ، فقد هزموا في الحرب ، وعجزوا عن انقاذ اكثر من بعض المناطق التي حددها لهم قرار التقسيم . كما انهم لم يستطيعوا منع قيام الدولة الاسرائيلية ، نظرا لضعف استعداداتهم ، واعتقادهم بأن عرضا بسيطا للعضلات يكفي لحمل الصهيونيين على الاستسلام . ثم ان دوافع قرار التدخل كانت متناقضة ، وغير متمحورة حول انقاذ فلسطين . فقد حارب كل جيش عربي بمفرده ، وتبعا لاهداف دولته واغراضها السياسية . ثم ان الجيوش العربية كانت تفتقر الى خبرة قتالية مناسبة ، ومعنوياتها لم تكن عالية ، وفساد ضباطها كان ظاهرة ملفتة(٢١) .

ومن اهم العوامل التي ادت الى نشوء اسرائيل وضع الفلسطينيين المتخلف ، شأنهم شأن كافة الشعوب العربية آنذاك ، في مقابل وضع الصهيونيين المتقدم . فقد كان اقتصاد الفلسطينيين يقوم بشكل اساسي على الزراعة ، ضمن علاقات انتاج اقطاعية . اما من حيث الوضع الاجتماعي ، فقد كان نظام القرابة سائدا ، والنزعة العشائرية مسيطرة ، وكان الشعب منقسما على ذاته . وقد لعبت القرابة دوراً في عرقلة الاندماج القومي العربي وتسييس المجتمع . اما معظم الاحزاب الفلسطينية ، التي كانت الى حد بعيد ، امتدادا للانقسام العشائري ، فلم ترق في نضالها ضد الانتداب البريطاني ، وفي طلبها الاستقلال ، الى مستوى نضالها ضد الصهيونية .

وفي المقابل عمل الصهيونيون تحت المظلة الاستعمارية ، وامتدادا لها ، وكانوا منظمين على عدة صعد، وكان لهم نوع من البرلمان المنتخب ، ومجلس تنفيذي ، ونقابة للعمال (الهستدروت) ، وقرى زراعية تعاونية (كيبوتسات) منظمة عسكريا ، وكانت لهم منظمة عسكرية (الهاغاناه) ، التي صارت الجيش الاسرائيلي فيما بعد .

كما كانت المرأة معبأة ومشاركة في المجهود الحربي والاعمال المرتبطة به . وهكذا ، نجد ان المجتمع الصهيوني كان على درجة من التعبئة والتنظيم والتهيؤ للمعركة ، اضافة الى الخبرات الحربية التي اكتسبتها بعض وحداته العسكرية في الحرب العالمية الثانية . وعليه ، فان قيام اسرائيل وهزيمة ١٩٤٨ جاءا ايضا نتيجة قصور وتفسخ في المجتمع الفلسطيني ، في مقابل مجتمع صهيوني منظم وتآمر دولي واسع(٢٢) .

قبول اسرائيل في الامم المتحدة

في ٢٨ حزيران ١٩٤٨ ، قدم الوسيط الدولي الكونت برنادوت ، للطرفين المتصارعين في فلسطين ، اقتراحا يتضمن نقاطا عدة اهمها : ضم المنطقة العربية في فلسطين للاردن ، واقامة اتحاد فدرالي بين الاردن واسرائيل يعنى بمسائل الدفاع والاقتصاد والسياسة الخارجية ، على ان يدير كل جانب شؤونه الداخلية . كما اقترح الوسيط الدولي ضم النقب للاردن ، والجليل لاسرائيل ، بينما تبقى القدس عربية ، وتصبح حيفا مرفأ مستقلا ، واللد مطارا مستقلا . لكن الطرفين رفضا هذا الاقتراح . وفي ١٦ ايلول ١٩٤٨ ، قدم برنادوت ، الى الجمعية العامة ، توصيات اخرى لحل مشكلة فلسطين ، نبه فيها الى ان « الدولة اليهودية لم تولد بسلام كما تمني لها [في قرار التقسيم] ، بل بالعنف واراقة الدماء » . وشدد على ضرورة التحرك السريع من قبل الامم المتحدة ، مؤكدا ان الحل العادل والدائم لن يتحقق ما لم يتم الاعتراف بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة الى وطنهم الذي اقتلعوا منه بعد مئات من السنين تربطهم به . واشار الى خطر استبدالهم بالمهاجرين اليهود الجدد . كما لاحظ الوسيط الدولي ان هناك نهبا وسرقة وتخريبا وتدمير قرى ، بدون اي ضرورة عسكرية لذلك ، واوصى بتعديل مشروع التقسيم بحيث تضم منطقة النقب لـ « الدولة العربية »، والجليل لـ« الدولة اليهودية » ، وان تعاد مدينتا اللد والرملة للعرب . اما القدس ، فتوضع تحت اشراف الامم المتحدة ، فيصبح لكل دولة ارض مترابطة غير متقاطعة كما كانت عليه في قرار التقسيم . وقد خشيت اسرائيل قبول الامم المتحدة هذه التوصيات . لذلك اقدمت مجموعة ترتدي زي الجيش الاسرائيلي ، على اغتيال برنادوت ، في ١٧ ايلول ١٩٤٨ ، في الجزء المحتل من القدس(٢٣) .

وفي ١١ كانون الاول ١٩٤٩ ، تبنت الجمعية العامة القرار رقم ١٩٤ ، باكثرية ٣٥ صوتا ، في مقابل ١٥ وامتناع ٨ عن التصويت ، وهو قرار مبني على توصيات برنادوت ، وينص على حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة ، والتعويض على من لا يرغب في ذلك . كما اشار الى وجوب حماية الاماكن المقدسة ، ووضع القدس تحت اشراف دولي دائم ، وانشاء لجنة توفيق تابعة للامم المتحدة ، مكونة من ثلاث دول اعضاء (اختيرت فيما بعد ، وهي فرنسا وتركيا والولايات المتحدة) لها الصلاحيات التالية : القيام بالمهمات التي اوكلت الى الوسيط الدولي ، وتنفيذ المهمات والتوجيهات المحددة التي تصدرها الجمعية العامة او مجلس الامن ، وتقديم تقرير الى الجمعية العامة في الدورة العادية الرابعة يحتوي على اقتراحات مفصلة بشأن نظام

دولي دائم لمنطقة القدس ، وتوصيات بشأن الاماكن المقدسة في تلك المنطقة ، وتسهيل اعادة اللاجئين وتوطينهم من جديد(٢٤) . ولقد كان هذا القرار مهما في تاريخ القضية الفلسطينية ؛ اذ سجل اول اعتراف دولي بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة . وقد اعيد ذكره وشدد عليه في كل دورات الجمعية العامة اللاحقة . ولقد صوت العرب ضد هذا القرار ، ورفضوا المفاوضات المباشرة مع اسرائيل ، لكنهم تعاملوا مع لجنة التوفيق على امل ان تسهل عودة اللاجئين وانسحاب اسرائيل حتى حدود التقسيم ، وكذلك الانسحاب من القدس . ومع ذلك ، فقد انطوى هذا القرار على مأساة ثلاثية : فهو جاء متأخرا ومفتقرا للاداة التي تستطيع تنفيذه ولالتزام الامم المتحدة بهذا التنفيذ ، اذ صدر بعد سبعة اشهر من انشاء اسرائيل مما سمح لها بتثبيت كيانها ، وتمكين سلطتها على الاراضي التي احتلتها ، وتشريد مليون فلسطيني . ولاكثر من مرة تحدت اسرائيل الامم المتحدة التي كانت عاجزة عن تطبيق القرارات ، اذ نقلت عاصمتها من تل ـ ابيب الى القسم الغربي المحتل من القدس . وبالنتيجة ، كان القرار رقم ١٩٤ اعترافا دوليا بحق اللاجئين في العودة ، بالرغم من انه لم يساعد ، في الواقع العملي ، على اعادتهم . وبالرغم من فشل لجنة التوفيق ، التي انشئت بموجب هذا القرار ، باستثناء ما حققته في مؤتمر لوزان ، حيث وقع الحاضرون اتفاقية سميت ببروتوكول لوزان ، تجاهلت اسرائيل مرة اخرى ، هذه الاتفاقية ، وعملت بما يناقضها ، الامر الذي ادى الى توقف اللجنة عن العمل سنة ١٩٥٦ ، بعد فشلها امام تعنت اسرائيل في عدة مواقف ، لكنها ما زالت قائمة رسميا .

وفي اطار محاولات التوفيق بين العرب واليهود ، جاء مؤتمر لوزان الذي كان عبارة عن محادثات غير مباشرة بين العرب واسرائيل ، شدد العرب من خلالها على ضرورة حل قضية اللاجئين ، واولويتها . بينما اصرت اسرائيل على ربط كل ذلك بتوزيع الاراضي بموجب اتفاقية سلام ، الا ان لجنة التوفيق لم تنجح في ربط المسألتين . وفي ١٢ ايار ١٩٤٩ وقعت اسرائيل والدول العربية بروتوكول لوزان الذي يعتبر حدود التقسيم اساسا للنقاش مع اللجنة وينص على تدويل القدس وعودة اللاجئين وحق من لا يعود بالتعويض(٢٥) . وكانت لجنة التوفيق قد ابلغت الجمعية العامة ، في تقرير لها ، ان الطرفين ينويان توقيع البروتوكول . وعلى هذا الاساس ، وقبل يوم واحد من توقيعه قبلت الجمعية العامة اسرائيل عضوا في الامم المتحدة بموجب القرار رقم ٢٧٣ الذي نال اكثرية ٣٧ صوتا في مقابل ١٢ ، وامتناع ٩ عن التصويت . وينص هذا القرار على « ان اسرائيل دولة محبة للسلام ، راضية بالالتزامات الواردة في الميثاق ، قادرة على تنفيذ هذه الالتزامات ، وراغبة في ذلك »(٢٦) .

واعتقدت الامم المتحدة واعضاؤها بأن مجرد توقيع اسرائيل على البروتوكول يعني انها ستنسحب من الاراضي التي احتلتها وستعيد المهاجرين . لذلك غضت النظر عن القرارات السابقة ، التي لم تنفذها اسرائيل ، وقبلتها عضوا بشرط تطبيقها القرارات . الا ان اسرائيل ، بعدما حصلت على ما تريد ، احتفظت بالاراضي ، ثم احتلت غيرها فيما بعد ، وتجاهلت اللاجئين العرب ، متنكرة لبروتوكول لوزان ، الذي لم توقعه الا سعيا لقبولها في الامم المتحدة وتأمين مصالحها ، معتبرة ان البروتوكول لا يعدو كونه نظريا ، وانه « لا يقوم على اساس عملي ، واعلنت انها دولة ذات سيادة ، ولا تملك الامم المتحدة الحق في ان تتدخل في مسائل تخص [اراضيها] »(٢٧) . وخلافا لمضمون البروتوكول ، طالبت بأن تبقى حدودها مع مصر

ولبنان والاردن كما كانت عليه وقت الانتداب . اما القسم الاوسط من فلسطين (الضفة الغربية فيما بعد) ، فقد اعترفت اسرائيل بالقوات الاردنية الموجودة فيه كقوات امر واقع . وكانت تعني بذلك استمرار احتلالها باقي الاراضي . وقد رفض العرب ذلك ، ولكن بدون جدوى[٢٨] .

ان قبول عضوية اسرائيل في الامم المتحدة يعد سابقة وحالة خاصة جداً . فهي الدولة الوحيدة التي كان قبولها مشروطا ، وبناء عليه ، واذا لم تنفذ هذه الشروط ، يصبح ضروريا وواجبا ان تعلق عضويتها في الامم المتحدة . « واذا ما رجع المرء الى محاضر مناقشات المنظمة الدولية ... بشأن قبول عضوية اسرائيل ، يكتشف الامور المعهودة نفسها : الضغط ، الاكاذيب ، وانصاف الحقائق ، والحملة الاعلامية ، وهي الظواهر التي واكبت الاقتراح في الامم المتحدة من اجل خلق تلك الدولة » . ومع « ان الولايات المتحدة كانت تبذل كل ما اوتيت من جهد لقبول اسرائيل ، ولطمأنة الامم المتحدة الى ان اسرائيل ستطبق قراراتها » ، فقد « خاب امل » الرئيس ترومان ، نتيجة عناد اسرائيل وعدم اكتراثها بقرارات المنظمة الدولية . والواقع ان موقف اسرائيل حيال لجنة التوفيق الدولية ومؤتمر لوزان كان « استغلالا وقحا »[٢٩] .

وهكذا ، لم تولد فلسطين العربية . كما ان فلسطين الوسطى ، اي الضفة الغربية ، ضمت للاردن عمليا في ٢٥ كانون الاول ١٩٤٩ في مؤتمر اريحا ، رغم معارضة الدول العربية وضمت رسميا في ٢٤ نيسان ١٩٥٠ ، واحتفظت مصر بقطاع غزة ، وبهذا اصبحت القضية الفلسطينية مشكلة عربية ـ اسرائيلية ، واصبحت اسرائيل اداة طيعة في يد الاستعماريين القديم والجديد ، اللذين لم يتخليا عنها ، بل عملا دائما على دعم نفوذها وتثبيت اقدامها . ففي ٢٠ ايار ١٩٥٠ ، اصدرت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا ما يعرف بالتصريح الثلاثي (The Anglo--American--French Agreement) الذي يعلن رغبة هذه الدول في السلام والاستقرار في المنطقة ، ورفضها استخدام القوة بين دول الشرق الاوسط ، واعتزامها اتخاذ اجراءات لمنع اية انتهاكات للحدود (اي خطوط الهدنة) تقوم بها احدى الدول . فقد كان الهدف الحقيقي من هذا التصريح ، تكريس حدود الهدنة كحدود ثابتة لا يجوز اجتيازها أو انتهاكها ، « وارساء ضمانات جديدة للكيان الاسرائيلي في فلسطين ، وتهديد العرب اذا فكروا في استعادة اراضيهم بالقوة . واوضحت الدول الثلاث ، فيما بعد ، انها لم تكن تعني ، بتصريحها هذا ، الا حماية اسرائيل من اعتداء العرب » . وهكذا تغاضت عن اعتداءات اسرائيل المتكررة ، لان ذلك يتفق تماما مع مخططاتها الهادفة الى السيطرة على المنطقة .

أما الدول العربية نفسها فلم تقم بأية عمليات حربية ضد اسرائيل ، خرقا لاتفاقيات الهدنة ، ولكنها استمرت في مقاطعة اسرائيل اقتصاديا وسياسيا . ولكن اسرائيل كانت تقوم دائما بغارات عسكرية نظامية على العرب وعلى نطاق واسع[٣٠] .

القدس في الامم المتحدة (١٩٤٧ ـ ١٩٥٠)

كانت مسألة القدس من اهم المشاكل التي نتجت عن الاغتصاب الصهيوني ، وقد احتلت مكانا بارزا في مناقشات الامم المتحدة ، اذ بحثت ، في اكثر من مناسبة ، في كل من الجمعية العامة ومجلس الامن ومجلس الوصاية ، ولجنة التوفيق ، وغيرها . كما اتخذت عدة قرارات

بخصوصها ، وكتبت عنها عدة تقارير ، وقدمت لها عدة حلول . وهذا الاهتمام الكبير بها ، من جانب الامم المتحدة ، يعكس الاهتمام العالمي ويظهر مكانة القدس الرفيعة ، عبر التاريخ ، بالنسبة لبعض الشعوب والديانات .

نجمت مسألة القدس ، في الامم المتحدة ، عن عدة اعتبارات ، منها قرار التقسيم ، الذي يعتبر تدويل القدس « الحل الامثل » للحفاظ على الاماكن المقدسة ، وينص على ان يكون للقدس « كيان منفصل (Corpus Separatum) خاضع لنظام دولي خاص ، وتتولى الامم المتحدة ادارتها ، ويعين مجلس وصاية ليقوم بأعمال السلطة الادارية نيابة عن الامم المتحدة . وتشمل مدينة القدس بلدية القدس الحالية ، مضافا اليها القرى والبلدان المجاورة ؛ ابعدها شرقا ابو ديس ، وابعدها جنوبا بيت لحم ، وابعدها غربا عين كارم ، وتشمل المنطقة المبنية من قرية قالونيا ... وتكون السلطة التشريعية الضرائبية بيد مجلس تشريعي منتخب بالاقتراع العام والسري ، على اساس تمثيل نسبي لسكان المدينة البالغين ، وبغير تمييز من حيث الجنسية »(٣١) .

رفض العرب قرار التقسيم ، لا سيما البند الخاص بالقدس ، موضحين عدم الحاجة اليه عندما تكون فلسطين دولة ديمقراطية واحدة تضم المسلمين والمسيحيين واليهود . اما الصهيونيون فقد دعموا القرار ، بما فيه بند تدويل القدس ، ليحصلوا على تأييد اكبر عدد من الدول الكاثوليكية(٣٢) . فقد كان هدفهم آنذاك ، هو انشاء دولة يهودية على جزء من فلسطين ، ثم التوسع واحتلال باقي المناطق في الوقت المناسب ، وهذا ما حدث فعلا فيما بعد . كما رفض كل طرف ان تكون الاكثرية في المجلس التشريعي من الطرف الاخر ، مما حمل مجلس الوصاية ، في مشروعه المقدم للجمعية العامة في ٢١ نيسان ١٩٤٨ . على طلب تغيير التعليمات بخصوص التنظيم التشريعي للمدينة(٣٣) .

وفي ٦ ايار ١٩٤٨ ، اتخذت الجمعية العامة بأكثرية ٣٥ صوتا وامتناع ١٧ ، قرارا حمل الرقم ١٨٧ يتضمن توصية سلطة الانتداب ، استنادا الى القوانين المعمول بها في فلسطين قبل ١٥ ايار ١٩٤٨ ، بتعيين رجل محايد ، يقبله العرب واليهود ، مفوضا بلديا خاصا ، يقوم ، بالتعاون مع اللجان الطائفية الموجودة في القدس ، بتنفيذ المهمات التي تقوم بها حتى الان اللجنة البلدية . وقد عين الاميركي هارولد ايفانس ، لهذا الغرض ، فحضر الى القدس ومكث فيها مدة قصيرة من الوقت ، فشل خلالها في اقناع الطرفين بالتعاون معه ، فعاد الى بلاده . وفي ٢٨ و٢٩ حزيران ١٩٤٨ قدم الوسيط الدولي المنتدب من قبل الجمعية العامة ، اقتراحا لكلا الطرفين ، لحل قضية فلسطين ، بما فيها وضع القدس التي اقترح ان تبقى عربية ، مع ادارة محلية للجالية اليهودية فيها ، وتدابير خاصة تتعلق بالاماكن المقدسة . وقد وصف وزير خارجية الحكومة الاسرائيلية الموقتة هذه الاقتراحات بأنها كارثة ومأساة ، ورفضها . فرد عليه الوسيط الدولي ، في السادس من تموز ١٩٤٨ ، برسالة اشار فيها الى صعوبة عزل القدس سياسيا عند اي تقسيم لفلسطين ، كما اشار الى ضرورة ايلاء المدينة اهتماما كبيرا ، بالنظر الى خصوصيتها الناتجة عن كثرة اليهود فيها ، تاركا كيفية البت في ذلك مفتوحة وقابلة للنقاش . ثم ذكر في رسالته ان القدس ، رغم اهميتها بالنسبة للديانة اليهودية ، لم تكن يوما جزءا من الدولة اليهودية ، بل كانت دائما منفصلة عن دستورها وحدودها ، معتبرا ان

المقترحات المقدمة لم يكن القصد منها سيطرة العرب على اليهود[٣٤] .

وبعد نشوب حرب ١٩٤٨ ، دعا مجلس الامن ، في القرار رقم ٥٠ الصادر في ٢٩ ايار ١٩٤٨ ، الى عقد هدنة ، وحث « جميع الحكومات والسلطات المعنية ، على ان تتخذ كل الاحتياطات الممكنة [لضمان حرية] الاماكن المقدسة ومدينة القدس ، بما في ذلك حماية حرية الوصول الى جميع المزارات والمعابد بغرض العبادة ... » . وعند اعلان الهدنة الثانية ، اضفيت اهمية خاصة على القدس ، في قرار مجلس الامن رقم ٥٤ الصادر في ١٥ تموز ١٩٤٨ ، اذ امر الاطراف « بوقف اطلاق النار فورا وبدون شروط في مدينة القدس » ، باعتباره « قضية ذات ضرورة ملحة وخاصة » . واصدر المجلس ايضا « تعليماته الى الوسيط ليواصل جهوده من اجل نزع السلاح عن مدينة القدس ، دون اجحاف بمستقبل وضعها السياسي ، وليؤمن حماية الاماكن المقدسة والابنية والمواقع الدينية في فلسطين ، وحماية الوصول اليها »[٣٥] .

كثف الوسيط الدولي جهوده لجعل القدس مدينة منزوعة من السلاح . فقبل العرب بذلك ، ورفضه الاسرائيليون ، لانهم كانوا يحتلون مناطق عربية كاللد والرملة ، وكانوا قد فتحوا طريقا بين القدس وتل ــ ابيب ، لنقل الاسلحة والامدادات ، واعتبروا القدس جزءا من الدولة اليهودية ، وفقا لسياسة الامر الواقع . وقد اوصى الوسيط الدولي ، في آخر تقرير له للجمعية العامة، بأن توضع القدس تحت نفوذ الامم المتحدة، حيث يكون لكل من الطرفين حكم ذاتي.

وفي خريف ١٩٤٨ ، اجتمعت الجمعية العامة ، فيما كانت القوات الاسرائيلية قد احتلت القدس الجديدة بكل احيائها العربية ، بينما كان الجيش الاردني مسيطراً على المدينة القديمة التي تحتوي على اكثر الاماكن المقدسة . ولم يحل كل ذلك دون الحاح الجمعية العامة على تدويل المدينة وفقاً لمشروع التقسيم . وكانت لجنة التوفيق قد اوكلت ، عند اقامتها ، بتقديم اقتراحات مفصلة بشأن نظام دولي دائم لمنطقة القدس ، تتضمن توصيات بشأن الاماكن المقدسة الموجودة في هذه المنطقة ، التي يجب ان تتمتع بأولوية خاصة على سائر مناطق فلسطين ، بوضعها تحت مراقبة الامم المتحدة الفعلية ، وتأمين نزع السلاح عنها في اقرب وقت ممكن .

وبعدما وقعت اسرائيل بروتوكول لوزان ، الذي ينص على قبول مشروع التقسيم كأساس لحل المشاكل الثلاث : الارض ، اللاجئين ، القدس ، وحصلت على قبول عضويتها في الامم المتحدة ، نقلت عاصمتها الى القدس مع بعض الوزارات ، برغم القرارات الدولية والاحتجاج العربي .

وفي ٩ كانون الاول ١٩٤٩ ، اعادت الجمعية العامة ، في القرار رقم ٣٠٣ ، تأكيد وضع القدس تحت نظام دولي دائم . وفي اليوم التالي ، وبواسطة القرار رقم ٣٥٦ فتحت اعتماداً لوضع نظام دولي للمدينة بمبلغ ٨ ملايين دولار اميركي .

وفي الدورة الخامسة للجمعية العامة سنة ١٩٥٠ ، قدمت اللجنة الخاصة تقريرا يتضمن مشروعا يمنع اليهود او العرب من اتخاذ القدس عاصمة . وقد رفض الاسرائيليون هذا القرار ، لتمسكهم بالقدس عاصمة لهم ، وهددوا بمنع مجيء اي مندوب للامم المتحدة الى اسرائيل .

اما مجلس الوصاية ، فقد اتخذ عدة قرارات تتعلق بالقدس ، نخص بالذكر منها القرار

رقم ١١٤ الصادر في ٢٠ كانون الاول ١٩٤٩ ، الذي دعا اسرائيل الى الغاء نقل بعض الدوائر والوزارات الى المدينة . وفي ١١ شباط ١٩٥٠ ، اصدر المجلس القرار رقم ١١٨ ، ودعا فيه كلا من اسرائيل والاردن الى ابداء رأيهما في تعديل مشروع نظام القدس . كما اصدر بتاريخ ٤ نيسان ١٩٥٠ قراراً حمل الرقم ٢٣٢ ، دعا فيه الى التعاون لتنفيذ التعديل . الا ان المجلس اضطر الى الاعلان اخيرا ، في ١٤ حزيران ١٩٥٠ وبموجب القرار ٢٣٤ ، عدم استعداد الدولتين للتعاون من اجل تنفيذ النظام المقترح ، وقرر رفع المسألة الى الجمعية العامة في دورتها الخامسة . ولكن هذه الاخيرة لم تتخذ اي قرار بالنسبة لمسألة القدس ، فأسدل الستار عليها ، الى ان ظهرت مجددا سنة ١٩٦٧(٣٦) .

وكالة الغوث (United Nations Relief and Warh Agency)

كان اول قرار يتحدث عن اللاجئين الفلسطينيين وحقهم في العودة ، منذ طرح القضية الفلسطينية على الامم المتحدة ، هو قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ ، وقد ذكرناه سابقا ، وهو ينص على انشاء لجنة توفيق ووضع القدس تحت اشراف دولي .

وكانت الجمعية العامة قد اتخذت قرارا بالاجماع حمل الرقم ٢١٢ بتاريخ ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٨ ، يقضي بانشاء صندوق خاص للاجئين الفلسطينيين ، بهدف « تخفيف وطأة المجاعة والبؤس بين اللاجئين الفلسطينيين » ، واعتبار ذلك « اقل الشروط لنجاح جهود الامم المتحدة لاحلال السلام في ذلك البلد ... » . ولهذا فوضت الجمعية « الامين العام تأسيس صندوق خاص تدفع اليه المساهمات التي ستدار كحساب خاص ، وتطلب [منه] اتخاذ جميع التدابير اللازمة لتقديم المعونة الى اللاجئين الفلسطينيين ، ولانشاء المنظمة الادارية التي قد تلزم لهذه الغاية ، وتعيين مدير لوكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين ، وتفويضه في اتخاذ جميع ما يراه ملائما من مسؤوليات التخطيط العام لبرنامج الاغاثة وتنفيذه » . لكن اسرائيل رفضت عودة اللاجئين الى ديارهم ، كما رفضت التعويض عليهم ، وجعلت هذه المسألة مشروطة بأبرام صلح نهائي . واصدرت الجمعية العامة قرارا آخر تحت رقم ٣٠٢ ، في دورتها الرابعة ، في ٨ كانون الاول ١٩٤٩ ، بتأليف وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى وتشغيلهم (عرفت بالاونروا ، .U.N.R.W.A) ، « بغية تلافي احوال المجاعة والبؤس بينهم ، ودعم السلام والاستقرار »(٣٧) . ووجدت الاونروا ، بوصفها هيئة موقتة تابعة للامم المتحدة ، منذ سنة ١٩٥٠ ، وتجدد الجمعية العامة ولايتها بصورة دورية ، ومهمتها « توفير الخدمات للاجئين الفلسطينيين ؛ اي الاشخاص او احفادهم الذين كانت فلسطين مكان اقامتهم العادية لفترة لا تقل عن سنتين قبل النزاع العربي ـ الاسرائيلي في سنة ١٩٤٨ ، والذين فقدوا ، من جراء ذلك النزاع ، ديارهم ومورد رزقهم » . ومن الواضح ان لمشكلة اللاجئين ابعادا تتخطى ، الى حد كبير ، البعد الانساني المحض . الا ان الوكالة لا تهتم الا بجزء من المشكلة وهو توفير الخدمات للاجئين الفلسطينيين ، ريثما يتم وضع تسوية عامة في الشرق الادنى . وتوصي الجمعية العامة سنويا بعودة اللاجئين الى ديارهم الاصلية ، او التعويض عليهم . لكن اسرائيل تجاهلت كل هذه القرارات حتى الان(٣٨) . بل ان « اسرائيل والدول المؤيدة لها ، حينذاك ، ولا سيما الغربية منها التي كانت تساهم في موازنة وكالة الاونروا ، كانت تهيىء عقول اللاجئين والشعب العربي معا [للاعتقاد بأن] حل مشكلة

اللاجئين لن يتم عن طريق اعادتهم الى ديارهم ، كما نصت على ذلك الفقرة ١١ من القرار ١٩٤ ... للعام ١٩٤٨ ، بل عن طريق توطينهم ودمجهم في الحياة الاقتصادية في البلاد العربية التي تم اخراجهم اليها »(٣٩) .

وقد برز ذلك ، للمرة الاولى ، في ٢ كانون الاول ١٩٥٠ ، حين اتخذت الجمعية العامة القرار رقم ٣٩٣ بأكثرية ٤٦ صوتا ، وامتناع ٦ عن التصويت . وقد جاء القرار ينص « على ان الجمعية العامة ودون اخلال بأحكام الفقرة ١١ من قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ [التي اكدت حق اللاجئين في العودة او التعويض] ، تعتبر ان اعادة دمج اللاجئين في حياة الشرق الادنى الاقتصادية ــ سواء باعادتهم الى ديارهم او باعادة توطينهم ــ امر ضروري ، تمهيدا للوقت الذي تكون فيه المساعدة الدولية غير متوفرة ، ولتحقيق السلام والاستقرار في المنطقة . وتكلف الوكالة بتأسيس صندوق اعادة الدمج ، يستخدم لمشاريع تطلبها اية حكومة في الشرق الادنى وتوافق عليها الوكالة ، بغية اعادة التوطين الدائم للاجئين ، ولصرف الاغاثة لهم . وتعتبر انه للفترة الواقعة بين ١ تموز ١٩٥١ و٣٠ حزيران ١٩٥٢ ، يجب ان يتبرع للوكالة بما لا يقل عن ٣٠ مليون دولار تقريبا ، للاغراض المبينة اعلاه »(٤٠) . ويورد هذا القرار « للمرة الاولى ، موضوع دمج اللاجئين في الحياة الاقتصادية للشرق الاوسط ، ويظهر حقيقة نيات اسرائيل وحلفائها ، منذ ذلك الوقت ، لانهاء المساعدة للاجئين وتوطينهم في البلاد العربية »(٤١) .

وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ ، اي بعد ستة اشهر من حلول الموعد المحدد في القرار السابق ، ونظرا لاستمرار مساعي اسرائيل وانصارها لتصفية قضية اللاجئين الفلسطينيين ، اتخذت الجمعية العامة القرار رقم ٥١٣ بأكثرية ٤٧ صوتا وامتناع ٧ عن التصويت ، بتبني برامج الاونروا لثلاثة اعوام للاغاثة واعادة الدمج ، وبتخصيص ٢٠٠ مليون دولار لاعادة توطين اللاجئين في البلاد العربية ، خلال ثلاث سنوات ، على ان يغطى هذا المبلغ بتبرعات الدول الاعضاء(٤٢) .

ومن الملاحظ ان عبارة « المحافظة على الامن والسلام في الشرق الاوسط » تتكرر في كل تقرير تقدمه وكالة الغوث الى الجمعية العامة ، وكل محضر اجتماع بين ممثل الوكالة ومندوبي الدول المتبرعة . فـ « الامن والسلام في هذه المنطقة » ودور وكالة الغوث في المحافظة عليهما ، حجة اساسية تحث بها الوكالة الدول الكبرى للتبرع لها . فـ « الامن والسلام » هنا لا يعنيان الا المحافظة على الوضع القائم . وليس من الغريب ان تؤيد الولايات المتحدة وبريطانيا واسرائيل والدول الاوروبية كل قرارات الجمعية العامة المتعلقة بالاونروا ، وليس غريبا ايضا ، ان تكون الولايات المتحدة هي المتبرع الاول للوكالة ؛ اذ تبرعت ، بين ١٩٥٠ و١٩٧٢ ، بما يعادل ٦٥,٥٪ من مجموع ميزانية الوكالة . ثم تأتي بريطانيا ، في المرتبة الثانية ، وقد تبرعت ، خلال هذه الفترة ، بما يعادل ١٥,٤٪ من مجموع الميزانية(٤٣) . وكان هذا واحدا من الاسباب التي جعلت الفلسطينيين يتحفظون على الأونروا ، رغم حاجتهم اليها .

مرحلة فتور سياسي (١٩٥٢ ــ ١٩٦٧)

شهدت القضية الفلسطينية ، طوال الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٥٢ و١٩٦٧ ، فتوراً وجموداً سياسيين ، لا سيما في الامم المتحدة بعد توقف ادراج بند « فلسطين » على جدول اعمال

الجمعية العامة ، ولم يذكر شيء عن فلسطين او شعبها ، في وثائق المنظمة الدولية ، سوى ما جاء في القرارات الخاصة باللاجئين ، وما اشارت اليه التقارير عن اوضاع وكالة الغوث . وفي هذه الفترة ، انشئت قوات الطوارىء الدولية ، التي تمركزت على الحدود العربية ــ الاسرائيلية .

وقف ادراج القضية الفلسطينية على جدول اعمال الجمعية العامة : اشرنا ، في السابق ، الى ان « قضية فلسطين » كانت مدرجة على جدول اعمال الجمعية العامة ، منذ طرحها على الامم المتحدة في نيسان ١٩٤٧ وحتى الدورة السادسة ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ ، ثم طويت في الدورة السابعة العادية ، المنعقدة في ١٤ تشرين الاول ١٩٥٢ . « وكان وراء طيها ، واحلال القضايا الفرعية ، المشتقة عنها ، محل القضية الكلية ، التي هي قضية فلسطين ، قصة تآمر طويل ومناورات معقدة ، كان المقصود بها طمس هذه القضية ، « واحلال الفروع محل الاصول »(٤٤) .

ففي الدورة السابقة المذكورة اعلاه ، قدم الامين العام تريغفي لي ، المعروف بتأييده اسرائيل ، جدول اعمال ، تضمن بنداً بعنوان « تقرير مدير وكالة الاونروا » حمل الرقم ٢٠ ، من دون ان يدرجه تحت بند « قضية فلسطين » كما كان الامر سابقا . لذلك طلبت الدول العربية الاعضاء في المنظمة ، آنذاك ، ادراج مادة اضافية على جدول الاعمال ، تحت عنوان « لجنة التوفيق لفلسطين وعملها على ضوء قرارات الامم المتحدة » (عرفت فيما بعد ، بالبند رقم ٦٧) ، كما قدمت الدول نفسها مذكرة اوضحت فيها ان الامم المتحدة لم تنجز مهامها بخصوص القضية الفلسطينية ، وان القرارات الصادرة عنها لم تنفذ ، وطلبت تقديم فكرة شاملة عن نشاط لجنة التوفيق ، في ضوء القرارات المتخذة . وقد استهدفت الدول العربية ، بذلك ، معالجة قضية فلسطين بكاملها ، في ضوء قرارات الامم المتحدة واعمال لجنة التوفيق الدولية(٤٥) . وسرعان ما تقدم الوفد الاسرائيلي بطلب ادراج بند اضافي (حمل الرقم ٦٨) يتضمن « شكوى حول خرق الدول العربية لالتزاماتها بموجب الميثاق وقرارات الامم المتحدة واحكام اتفاقات الهدنة المعقودة مع اسرائيل ، والتي تلزمها ان تمتنع عن سياسة العداء وممارستها ، وان تسعى الى التوصل الى اتفاق من اجل اقامة علاقات سلمية مع اسرائيل » . وقد ارفق الوفد الاسرائيلي طلبه هذا بمذكرة مؤرخة في ٩ تشرين الاول ١٩٥٢ ، عن عدم احراز أي تقدم من اجل عقد اتفاقات سلام مع البلدان العربية ، كما نصت على ذلك اتفاقات الهدنة سنة ١٩٤٩ . وقد بنيت المذكرة على قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ ، الذي « طلب من الحكومات العربية ان تسعى الى تسوية لجميع خلافاتها مع اسرائيل عن طريق التفاوض معها ، وهو ما كررته الجمعية العامة في قرارها ٥١٢ ، في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ . ومع ذلك ما زالت الحكومات العربية ترفض التفاوض مع اسرائيل ، وتمارس سياسة عدوانية ازاءها ، مما يخالف الميثاق »(٤٦) .

وهنا لا بد من التذكير بأن القرار رقم ١٩٤ لم يطلب من الدول العربية الدخول في المفاوضات المباشرة ، بل دعا « الحكومات والسلطات المعنية الى توسيع نطاق المفاوضات المنصوص عليها في قرار مجلس الامن ، الصادر في ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٨ ، والى البحث عن

اتفاق بطريق مفاوضات تجري اما مباشرة ، او مع لجنة التوفيق ، بغية اجراء تسوية نهائية لجميع المسائل المعلقة » بين الاطراف(٤٧) .

اذن ، كان واضحاً ان اسرائيل كانت تسعى لعرقلة البند العربي ، والحؤول دون اصدار قرار ملائم بالاستناد اليه . وفي هذا السبيل ، طلبت ادراج البند رقم ٦٨ .

احالت الجمعية العامة البنود الثلاثة ، المذكورة اعلاه ، للنقاش على اللجنة السياسية الخاصة ، التي قدمت ، بناء على ذلك ، مشاريع قرارات ثلاثة ، يعكس اولها ــ وقد تبنته الدول الغربية ــ وجهة نظر اسرائيل ؛ اذ يطلب فض المنازعات بين الطرفين المتصارعين ، بالطرق السلمية ، ودخولهما في مفاوضات مباشرة من اجل حل كافة المشاكل . كما يهدف الى عقد صلح بين هذه الدول المتحاربة ، ويقر بالامر الواقع الذي فرضته اسرائيل ، لعدم تقيده بقرارات الامم المتحدة السابقة ، المؤيدة للعرب . وهو يهدف ، ايضا ، الى طي القضية الفلسطينية نهائيا . لذلك رفض مندوبو الدول العربية ، الاعضاء في المنظمة آنذاك ، المشروع كله ، مذكرين اللجنة بمضمون قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ ، من حيث وضع القدس تحت اشراف دولي ، وحماية الاماكن المقدسة ، وتسهيل عودة اللاجئين . وهو المشروع الذي لم ينفذ . كما اشار المندوبون العرب الى ان لجنة التوفيق قد فشلت في تحقيق هذا القرار ، وطالبوها بايضاح اسباب فشلها ، متهمين اياها بالتحيز لمصلحة اسرائيل ، مذكرين ببروتوكول لوزان ، الذي حدد خريطة التقسيم اساساً للتسوية .

اما مشروع القرار الثاني ، الذي قدمته بعض الدول الاسيوية ، فيحمل وجهة النظر العربية ، لعدم دعوته الى مفاوضات مباشرة ، ولتشديده على ضرورة تقيد لجنة التوفيق بقرارات الامم المتحدة السابقة في مساعيها لايجاد حل .

اما مشروع القرار الثالث ، الذي قدمته سوريا ، فقد طلب من محكمة العدل الدولية ان تبدي رأيها فيما : ١ ــ اذا كان للاجئين الفلسطينيين حق العودة ، وممارسة حقوقهم على املاكهم ومصالحهم ؛ ٢ ــ اذا كان لاسرائيل حق في التنكر لهذه الحقوق ؛ ٣ ــ اذا كانت هذه الحقوق واجبة الاحترام حكما لذاتها ، او خاضعة ، وجوبا ، لمفاوضات بين دول ليس اللاجئون من رعاياها ؛ ٤ ــ اذا كان يحق للدول ان تعقد اتفاقات حول هذه الحقوق .

وعلى العموم ، كانت هذه الجلسة من اعنف الجلسات التي عرفتها الامم المتحدة ومن اشدها . وقد نجح المشروع الاول في اللجنة السياسية ، واحيل الى التصويت في الجمعية العامة في ١٨ كانون الاول ١٩٥٢ . ولأنه كان بحاجة الى ثلثي الاصوات ، بحسب الميثاق والاجراءات الداخلية ، فقد فشل ، اذ نال ٢٤ صوتا ، ضد ٢١ ، وامتناع ١٥ عن التصويت(٤٨) .

وعقدت الجمعية العامة دورتها الثامنة ، في ١٥ ايلول ١٩٥٣ ، وادرج على جدول اعمالها بند واحد هو تقرير مدير وكالة الاونروا رقم ١٩ ، « ولم يحاول المندوبون العرب في تلك الدورة ، او بعدها ، اعادة ادراج قضية فلسطين على جدول الاعمال ، خوفا من فشل مثل هذا الاقتراح ، وبالتالي الحاق الاذى بالقضية الفلسطينية » . خصوصا ان قرار المفاوضات المباشرة قد هزم في الجمعية العامة ، على رغم ما سعت اليه اسرائيل وانصارها ، في ضراوة وشراسة ، من اجل انجاحه .

لقد احرز العرب نصرا على المدى القريب ، لكن النتيجة النهائية ، وتعتبر نصرا لاسرائيل على المدى البعيد ، هي ان قضية فلسطين ، كبند مستقل ، قد طويت من جدول الاعمال ، منذ الدورة السابعة ١٩٥٢ حتى نهاية الدورة ٢٨ في كانون الاول ١٩٧٣ ، وحل محلها تقرير مدير وكالة الاونروا . ثم اضيف بند جديد ، في عام ١٩٥٦ ، يتعلق بقوات الطوارىء ، وبند آخر في ١٩٦٧ حول الوضع في الشرق الاوسط(٤٩) .

اما في مجلس الامن ، فكانت تدرج حتى سنة ١٩٦٧ تحت بند « قضية فلسطين » كافة القضايا والشكاوى المتعلقة بها . ولكن عندما اجتمع مجلس الامن في ٢٣ ايار ١٩٦٧ ، للنظر في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، لم تدرج ، تحت بند « القضية الفلسطينية » ، ثلاث رسائل قدمت بخصوصها ، كما جرت العادة حتى تلك الوقت ، بل وضعت هذه الرسائل في جدول الاعمال دون اي عنوان او بند معين .

وقد اعرب مندوب الاردن عـن دهشته لهذا الاجراء ، وايده مندوبا الاتحاد السوفياتي وبلغاريا . لكن بعد اندلاع حرب حزيران ، لم يجر اي تصحيح لجدول الاعمال ، حيث الغي بند « القضية الفلسطينية » في مجلس الامن ، شأنه في الجمعية العامة .

ان اهمية وجود بند « قضية فلسطين » على جدول اعمال الجمعية العامة لا ترتبط بمدى تأثيره في المناقشات وتطورها فقط ، بل وفي القرار الذي يصدر نتيجة هذه المناقشات ويتم التصويت عليه ايضا . فقد يعتبر بند « تقرير مدير وكالة الاونروا » اللاجئين الفلسطينيين احد اوجه المشكلة ، الا انه لا يشير الى مشكلة فلسطين وشعبها . ثم « ان الفرق شاسع وجوهري بين ان يبْحث في القضية كقضية قائمة في ذاتها ، لها اساسها واوجهها وحلولها المتعلقة بها ، و [بين] أن يبحث فيها على هامش بند آخر ولو كان متعلقا بها . كما ان « البند » ، بالنسبة الى اي قضية ، هو بمثابة التعريف والتحديد لها . والتعريف او الحد هو ما كان جامعا مانعا ، بحيث يحول دون الالتباس والغموض والتداخل »(٥٠) .

قوات الطوارىء : في ٢٣ نيسان ١٩٤٨ (اي قبل اعلان قيام دولة اسرائيل في ١٥ ايار ١٩٤٨) ، اتخذ مجلس الامن القرار رقم ٤٨ ، الخاص بانشاء لجنة هدنة لفلسطين ، مهمتها الاشراف على تنفيذ قرار وقف العمليات العسكرية ، وطلب المجلس من الوسيط الدولي التعمل معها .

وبعد انتهاء حرب ١٩٤٨ ، كانت قد وقعت اربع اتفاقيات هدنة بين اسرائيل والدول العربية المجاورة . فقد وقعت مصر في ٢٤ شباط ١٩٤٩ ، ولبنان في ٢٣ آذار ١٩٤٩ ، والاردن في ٣ نيسان ١٩٤٩ ، وسوريا في ٢٠ تموز ١٩٤٩ ، اتفاقيات هدنة مع اسرائيل ، كانت كسبا سياسيا وعسكريا للدولة اليهودية ؛ فقد تخلى الاردن عن مناطق شاسعة من الاراضي الفلسطينية دون قتال ،واحتفظ الصهيونيون بكل ما تمكنوا في احتلاله من فلسطين كما اقامت الهدنة منطقة حراما في القدس ، تفصل بين الاردن واسرائيل ، ومنطقة منزوعة من السلاح في العوجة على الحدود المصرية ـ الاسرائيلية ، وفي التوافيق على الحدود السورية ـ الاسرائيلية . وقد ادعى الاسرائيليون ان الهدنة لا تتحقق بوجود حالة حرب ، معتقدين ان باستطاعتهم ارغام

العرب على سلام دائم في المنطقة عن طريق فرض الامر الواقع . لكن الدول العربية رفضت ذلك ، واصرت على اعتبار ان حالة الحرب ما زالت قائمة ، لان الهدنة موقتة ولا تعتبر صلحا ، وان خط وقف اطلاق النار ليس حدودا دولية ، بل هو حد فاصل ، كما ان القرى التي تقع عليه تبقى عربية(٥١) .

وقد انتهكت اسرائيل اتفاقيات الهدنة عدة مرات ، منذ ١٩٤٩ ، وشنت غارات عسكرية منظمة على العرب ، مما اجبر مجلس الامن على ادانتها في قرارات عديدة ، منها ما صدر بسبب هجماتها المتكررة على الحولة (١٩٥١) ، وقبيه (١٩٥٣) ، ونحالين (١٩٥٤) ، وغزة (١٩٥٥) والمخفر السوري وبحيرة طبريا (١٩٥٥) ، وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء (١٩٥٦) ، والقرى السورية في منطقة بحيرة طبريا (١٩٦٠ و١٩٦٢) ، وقرية السموع (١٩٦٦) . ولم يحدث مرة واحدة ان ادان مجلس الامن ايا من الدول العربية بسبب هجوم على اسرائيل ، وانتهاك اتفاقيات الهدنة(٥٢) .

اذن ، فقد كانت اسرائيل ، دائما ، هي التي تخرق اتفاقيات الهدنة ، مبررة هجماتها هذه بأنها عقاب للدول العربية وانتقام منها ، لانها سمحت للفدائيين بالعمل والانطلاق من اراضيها . وكانت اسرائيل تحاول ايضا ، عبر تلك الاعمال ، اجبار العرب على الاعتراف بها ؛ فقد اعلن دايان ، مثلا ، في اواخر اب ١٩٥٥ ، في خطاب له امام ضباط الجيش ، مبررا انتهاكات الهدنة ، « ان هدف المعارك في اوقات السلم ، هو توطيده »(٥٣) .

ولم تفعل الامم المتحدة ، في مواجهتها تلك الظروف ، اضافة الى ادانتها اسرائيل ، كما اشرنا سابقا ، غير اتخاذها ، في ٢٩ ايار ١٩٤٨ القرار رقم ٥٠ ، القاضي بتزويد لجنة الهدنة بعدد كاف من المراقبين العسكريين ، فعرفت منذئذ بـ « هيئة رقابة الهدنة » (U.N.T.S.O.) .

وفي ١١ آب ١٩٤٩ ، اتخذ مجلس الامن القرار رقم ٧٣ ، الذي انهى مهام الوسيط الدولي ، مما جعل هيئة الرقابة تابعة للامم المتحدة مباشرة .

ولم تستطع المنظمة الدولية اجبار الاطراف المتصارعة على ايقاف الحرب وإحلال السلام ، كما لم تنجح هيئة الرقابة في منع انتهاكات الهدنة المتكررة التي اشرنا اليها سابقا ، وكان اخطرها العدوان الثلاثي على مصر في ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦ ، الذي استهدف التهام قطاع غزة وضرب مصر والسيطرة على قناة السويس .

اتخذت الجمعية العامة ، بعد ذلك ، عدة قرارات تدعو لوقف اطلاق النار ، والانسحاب الى خطوط الهدنة ، وانشأت قوات طوارىء لمراقبة وقف القتال ، تمركزت حيث انسحبت القوات المعتدية . وقد انسحبت اسرائيل ، بفعل الضغوط ، في شهر اذار ١٩٥٧ ، الى ما وراء خطوط الهدنة ، بعد فتح خليج العقبة امام سفنها . ووضعت مصر قطاع غزة تحت ادارتها ، برغم ما اشترطته اسرائيل للانسحاب ، من حيث مرابطة قوات الطوارىء في القطاع وتوليها ادارته . وتمركزت القوات الدولية حتى عام ١٩٦٧ على حدود الهدنة المصرية ــ الاسرائيلية ، لمنع الاحتكاك العسكري ، ومنع نشاط الفدائيين ، مما ادى الى تجميد الموقف(٥٤) .

حرب ٦٧ والقرار ٢٤٢

عندما نشبت الحرب الاسرائيلية ــ العربية الثالثة ، في الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، احتلت اسرائيل ــ كما هو معروف ــ مدينة القدس القديمة وقطاع غزة وصحراء سيناء والضفة الغربية لنهر الاردن ، ومرتفعات الجولان السورية . ولم يتوقف القتال الا بعد صدور اربعة قرارات بوقف اطلاق النار ، عن مجلس الامن ، تجاهلتها اسرائيل ، الى ان حققت مزيداً من مطامعها التوسعية .

لقد كان من ابرز نتائج هذه الحرب ، التي احتلت فيها اسرائيل اراضي عربية جديدة، تفاقم مشكلة اللاجئين ، اذ زاد عددهم ، اضافة الى احتلال مدينة القدس القديمة ومحاولة ضمها لاسرائيل ، برغم اعلان الامم المتحدة بطلان ذلك ، وبالتالي تحول الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، فصار صراعا حول انسحاب اسرائيل من بعض الاراضي العربية ، بينما كان في السابق ، صراعا حول شرعية اسرائيل في الوجود .

اما على صعيد الامم المتحدة ، فقد كان مجلس الامن يعمل ، منذ صباح ٥ حزيران ، لوضع حد للحرب . فتبلورت ثلاثة اتجاهات اميركيــة وسوفياتية وهندية ، تدعو جميعها الى اصدار قرار بوقف اطلاق النار . وقد تبنى مجلس الامن مشروع القرار الاميركي تحت رقم ٢٣٣ بتاريخ ٦ حزيران ١٩٦٧ ، بعد تصلب الولايات المتحدة في موقفها . ويدعو هذا القرار الى وقف اطلاق النار بمعزل تام عن اية مسألة اخرى . ثم اتخذ المجلس في الايام التالية ، ثلاثة قرارات جديدة تدعو لوقف اطلاق النار ، هي القرارات ٢٣٤ و٢٣٥ و٢٣٦ . فالقرارات الثلاثة الاولى (٢٣٣ و٢٣٤ و٢٣٥) لم تدع المتحاربين للعودة الى مواقعهم قبل اندلاع الحرب ، كما جرت العادة في جميع القرارات السابقة .

اما قرار مجلس الامن رقم ٢٣٦ ، الصادر في ١١ حزيران ١٩٦٧ ، فقد ادان انتهاكات وقف اطلاق النار ، ود دعا الى اعادة اية قوات تكون قد تقدمت الى الامام بعد الساعة ١٦,٣٠ في ١٠ حزيران ١٩٦٧ ، الى مراكز وقف اطلاق النار فورا » . وكان من الصعب معرفة مكان وجود تلك القوات في هذه الساعة بالذات ، لان اسرائيل لم تسمح لمراقبي الهدنة بالدخول الى منطقة القتال على الجبهة السورية لمراقبة التحركات العسكرية ، الا صباح ١١ حزيران ، خلافا لما كان يدعيه مندوب اسرائيل في مجلس الامن .

وفي ١٧ حزيران ١٩٦٧ ، عقدت الجمعية العامة للامم المتحدة دورة طارئة خامسة ، بناء على طلب الاتحاد السوفياتي ، لبحث الوضع الناجم عن حرب حزيران ، واتخاذ قرار لتصفية آثار العدوان ، وتحقيق الجلاء الفوري للقوات الاسرائيلية الى ما وراء خطوط الهدنة . فقدمت كل من البانيا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ودول عدم الانحياز ودول اميركا اللاتينية ، خمسة مشاريع قرارات فشلت جميعها ، اذ لم تنل اكثرية . الا ان امراً واحدا برز وتوضح خلال تلك الدورة ، وهو ان الاكثرية الساحقة من الاعضاء اجمعت على التمسك بمبدأ عدم الاعتراف بالاستيلاء على الاراضي عن طريق القوة(٥٥) .

وفي ١٤ حزيران ١٩٦٧ ، تبنى مجلس الامن القرار رقم ٢٣٧ ، الذي يدعو اسرائيل الى احترام حقوق الانسان في المناطق التي تأثرت بالصراع ثم تبنت هذا القرار الجمعية العامة في ٤

تموز١٩٦٧٠ ، واصدرته تحت رقم ٢٢٥٢ ، بأكثرية ساحقة . كما تبنت الجمعية العامة القرارين رقم ٢٢٥٣ و٢٢٥٤ ، المتعلقين بالقدس ، في ٤ و١٤ تموز ١٩٦٧ ، وسنشير اليهما فيما بعد .

وبعد مشاورات عديدة ، ظهرت فيها اتجاهات مختلفة ، قدمت الى مجلس الامن ، في اوائل تشرين الثاني ١٩٦٧ ، ثلاثة مشاريع قرارات لم تنل موافقة المجلس ، فعمد اللورد كارادون ، مندوب بريطانيا الاسبق لدى مجلس الامن ، الى العمل على وضع صيغة تتضمن اقل ما يمكن ان يتفق عليه اعضاء المجلس . وقد وجد كارادون تلك الصيغة في مشروع قرار تبناه مجلس الامن بالاجماع ، في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، عرف بالقرار رقم ٢٤٢ ، وهو القرار الذي مثل ، في نظر بعض الدول العربية ، الحل السلمي المنشود في هذه المرحلة ،وقد نص على:

« ان مجلس الامن ،

« ــ اذ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطر في الشرق الاوسط ،

« ــ واذ يؤكد عدم القبول بالاستيلاء على اراض بواسطة الحرب ، والحاجة الى العمل من اجل سلام عادل ودائم تستطيع كل دولة في المنطقة ان تعيش فيه بأمن ،

« ــ واذ يؤكد ان جميع الدول الاعضاء ، بقبولها ميثاق الامم المتحدة ، قد التزمت بالعمل وفقا للمادة الثانية من الميثاق ،

« اولا : يؤكد ان تحقيق مبادىء الميثاق ، يتطلب اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ، ويستوجب تطبيق المبدأين الاتيين :

أ ــ سحب القوات المسلحة الاسرائيلية من اراض [النص الفرنسي يقول des territoires occupés اي من الاراضي التي] احتلت في النزاع الاخير ؛

ب ــ انهاء جميع ادعاءات الحرب او حالاتها ، واحترام كل دولة في المنطقة ، والاعتراف بذلك ، وكذلك استقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد او اعمال القوة .

« ثانيا : يؤكد ايضا الحاجة الى :

أ ــ ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة ؛

ب ــ تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ؛

جـ ــ ضمان المناعة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة ، عن طريق اجراءات بينها اقامة مناطق مجردة من السلاح .

« ثالثا : يطلب من الامين العام تعيين ممثل خاص ، للذهاب الى الشرق الاوسط ، كي يقيم ويجري اتصالات مع الدول المعنية ، بغية ايجاد اتفاق ، ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقا للنصوص والمبادىء الواردة في مشروع القرار هذا .

« رابعا : يطلب من الامين العام ان يرفع تقريرا الى مجلس الامن ، حول تقدم جهود الممثل الخاص في اقرب وقت ممكن »(٥٦) .

واذا نظرنا الى ما في مضمون فقرات هذا القرار من معان واهمية في تاريخ القضية الفلسطينية ، نجد ان الفقرة الاولى ، تعرب عن قلق مجلس الامن للوضع في الشرق الاوسط ، لا لاغتصاب فلسطين وتشريد شعبها واقامة اسرائيل . فهذا القلق ، هو قلق على المصالح

الاميركية والاسرائيلية في المنطقة . كما ان الفقرة المذكورة لا تؤكد وجود خطر ، او خرق للامن والسلام ، او عمل عدواني ، بل تنوه بالخطر . لذلك تضع القرار ، كما اعلن واضعه اللورد كارادون ، ضمن الفصل السادس من ميثاق الامم المتحدة ، الذي يدعو الى فض الخلافات بالطرق السلمية ، ولا يوجب اي الزام ، بل يشرط تنفيذ القرار بقبول الاطراف المعنية به . اما الفقرة التي تقضي بـ « سحب القوات المسلحة الاسرائيلية من اراض (النص الفرنسي : من الاراضي التي) احتلت في النزاع الاخير » ، فتحدد القوات وتسميها ، وتحدد الاراضي زمنيا فقط . وقد حاولت الدول العربية ، عن طريق مندوب الهند ، حمل كارادون على ان يضمن قراره فقرة تقول « من جميع الاراضي » او « الى ما قبل ٥ حزيران » ، وان يغير نص « حدود آمنة » . لكنه رفض رفضا باتا ؛ فاعتبر مندوب الهند ان الانسحاب المشار اليه يعني الانسحاب الى حدود ما قبل ٥ حزيران . لكن ، وبعد مشاورات عديدة ، وافق المندوب البريطاني على ان يعلن : « ان لكل وفد في المجلس الحق في ان يعطي تفسيره للقرار » . وهذا لا ينفي التفسير الهندي او يؤكده . ووافقت على التفسير الهندي الاكثرية الساحقة ، بما فيها الاتحاد السوفياتي وفرنسا . اما الولايات المتحدة وكندا والدانمارك ، فقد رفضته ، وبقي تفسير هذا الجانب من القرار عرضة للاجتهاد . اما الفقرة التي تدعو الى « انهاء جميع ادعاءات الحرب و ... اعمال القوة » ، والفقرة التي يؤكد فيها مجلس الامن الحاجة الى « ضمان المناعة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق اجراءات بينها اقامة مناطق مجردة من السلاح » ، فتعنيان الكيان الصهيوني ، وتعطيانه وجودا ابديا وضمانات ، وتؤديان الى اعتراف واقعي باسرائيل ، لا الى اعتراف قانوني فحسب ، لمجرد صدور القرار نفسه . كما ان الفقرتين المذكورتين اعلاه ، تمنعان العرب من اي عمل عسكري ضد اسرائيل ، وتمنعان السماح بالعمل الفدائي . لكنهما لا تؤديان الى الغاء المقاطعة الاقتصادية، بل الى انهاء حالة الحرب فقط ، والى تصفية استسلامية نهائية للقضية الفلسطينية . اما ما يتعلق بـ « ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة » ، فهو اقرار لاسرائيل بحق استخدام خليج العقبة وباب المندب وقناة السويس والبحر الاحمر ، مما يشكل كسبا آخر لاسرائيل . اما عبارة « تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين » ، فتحتمل اكثر من معنى بالنسبة للتسوية العادلة ؛ اذ لم تذكر العودة ولم تشر اليها ، وهذا يعني ان التسوية العادلة هي التعويض والاسكان في بلاد العالم . كما ان المعنى غير محدد بالنسبة للاجئين . فهل يعني القرار اللاجئين الفلسطينيين فقط ، ام اللاجئين اليهود ايضا ، كما فسرته اسرائيل ؟ ثم ان كلمة لاجئين تقلص قضية شعب له الحق في تقرير مصيره ، ويملك اراضي فلسطين ، وله الحق فيها كوطن ، كما ان تقليص قضية شعب الى قضية لاجئين هو تنكر لحقوق هذا الشعب ولوجوده ، وجعله مجموعة افراد . ثم ان بند « حرية الملاحة » قد سبق بند « اللاجئين » ، مما يعني ان للاول الاولوية على الثاني . اما الفقرتان الاخيرتان المتعلقتان بالمبعوث الدولي ، فتميعان القضية الفلسطينية ، ومطاليب العرب ، وتكرسان حالة اللاحرب واللاسلم في المنطقة ، وتسمحان باستمرار الاحتلال الاسرائيلي ، وبمزيد من المكاسب لاسرائيل .

بعد هذا العرض الذي تناول القرار ٢٤٢ ، يمكن ان نخلص الى مجموعة ملاحظات : فهو اولا ، لم يذكر فلسطين كأرض او كشعب ؛ ثانيا ، في حين انه لا يوجب المفاوضات المباشرة ،

نجد انه لا يستبعدها . وبما انه يقع في الفصل السادس من ميثاق الامم المتحدة ، فمعناه ان على الاطراف المتحاربة ان تستعمل ايا من الطرق السلمية ، المتراوحة بين المفاوضة واللجوء الى المنظمات الدولية او الاقليمية ، لحل النزاع بينها . ولقد رفض العرب ، في مؤتمر الخرطوم ، المفاوضات المباشرة ، الا انهم لم يستبعدوا الوسائل السلمية الاخرى ، بينما رفضت اسرائيل كل الوسائل السلمية ما عدا المفاوضات المباشرة ؛ ثالثا ، ان القرار هو محاولة لاعادة تقسيم ما تبقى من فلسطين . فهو يدعو للانسحاب ، لكنه يعطي الكيان الصهيوني حق تعديل الحدود ، بدعوى الحدود الامنة . فحتى لو انسحبت اسرائيل الى ما قبل ٥ حزيران ، فان القرار يتخطى قرار التقسيم ، ويعطي شرعية الاعتراف الدولي المطلوب بحدود ٥ حزيران ، ثم ان الانسحاب قد ربط بالاعتراف وبحرية الملاحة . لكن اسرائيل والولايات المتحدة ، فسرتا القرار بأنه يطلب الانسحاب لا الى حدود ما قبل ٥ حزيران ، بل الانسحاب من بعض المناطق فقط رابعا ، لم يقتصر القرار ٢٤٢ على تجاهل الحقوق القومية والانسانية الثابتة للشعب الفلسطيني ، بل تجاهل ايضا شروط وعد بلفور وقرار التقسيم ، التي كانت تقيد اسرائيل وتلزمها ، امام المجتمع الدولي ، بالتزامات قانونية معينة ، كما تجاهل قرارات الامم المتحدة المتعاقبة ، التي اكدت وجوب تقيد اسرائيل بتلك الشروط ، وطالبتها بالعودة عن انتهاكاتها في الماضي ، والتوقف عن انتهاكها في المستقبل(٥٧) ؛ خامسا ، عبر الفلسطينيون من خلال منظمة التحرير الفلسطينية وجميع فصائل المقاومة ، عن رفضهم القرار ٢٤٢ بينما وافقت الدول العربية عليه ، برغم كل ما اعطاه لاسرائيل من حقوق واعتراف وارض وانهاء لحالة الحرب وحرية ملاحة . وفي المقابل ، ورغم هذه المكاسب ، رفضت اسرائيل القرار ، ورفضت تنفيذه ، ابتزازا لمزيد من المكاسب ، ولفرض شروط اكثر تعنتا . سادسا ، يسجل القرار واقع ميزان القوى بين الفريقين العربي والاسرائيلي ، ولقد صدر قبل ان يستوعب العالم المعنى الكامل لظهور المقاومة الفلسطينية وامكاناتها البعيدة . فقد جاء بمثابة « غالب ومغلوب » بالنسبة لاسرائيل والعرب ، و« لا غالب ولا مغلوب » بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . فالمطلب الاميركي كان ، وما يزال ، هو تأمين سلامة اسرائيل واستمرار بقائها . اما المطلب السوفياتي ، عام ١٩٦٧ ، فكان اعادة القوات الاسرائيلية الى حدود ما قبل ٥ حزيران . فجاء القرار حلا وسطا بين المطلبين ؛ سابعا ، ان « وعد بلفور خلق القضية الفلسطينية بخلق كيان صهيوني محفوف بالقيود ، ومشروع التقسيم سعى لان يكون تسوية ، او حلا وسطا ، للقضية التي خلقها وعد بلفور . اما قرار مجلس الامن [٢٤٢] فقد كان تحريرا لاسرائيل من القيود السابقة ، ونسخا للضمانات والشروط التي اعطيت للشعب الفلسطيني فكان بالتالي [نوعا من التصفية] للقضية الفلسطينية »(٥٨) .

مرحلة انتقالية (١٩٦٨ ــ ١٩٧٣)

بعد انتهاء حرب حزيران ، ادرجت الجمعية العامة ، في ١٨ ايلول ١٩٦٧ ، بموجب القرار رقم ٢٢٥٧ « مشكلة الشرق الاوسط » على جدول اعمالها . ومنذ تلك الحين ، ناقشت الامم المتحدة كل ما يتعلق بالقضية الفلسطينية وبالصراع العربي ــ الاسرائيلي تحت هذا البند ، حتى عام ١٩٧٤ .

وقام الامين العام للامم المتحدة بتعيين السفير السويدي غونار يارينغ ، ممثلا خاصا له

ليقوم بمفاوضات السلام في الشرق الاوسط ، وبالاتصالات المنوه عنها في الفقرة الثالثة من القرار ٢٤٢ . وقد تسلم يارينغ مهمته في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، وقام مباشرة باتصالات مع مصر والاردن واسرائيل . ومنذ اللحظة الاولى لبدء مهمته ، وضعت اسرائيل العراقيل امامه . وقد فشل ، في ختام جولاته العديدة ، في جعل القرار المذكور اساسا للسلام ، اذ اتضح له من خلال اتصالاته بالطرفين ، ان هناك وجهات نظر مختلفة ، وتفسيرا مختلفا لذلك القرار ؛ الامر الذي ادى الى تجمد مهمته ، كممثل للامين العام ، في اوائل السبعينات .

اما اسرائيل ، فقد اختارت الامم المتحدة ، بأجهزتها ولجانها ، ساحة لاعلان الحرب على العرب ، وعلى الثورة الفلسطينية التي برزت كقوة فاعلة في المنطقة بعد حرب ١٩٦٧ . فقد اعتمدت اسرائيل على الاعلام الواسع المدروس ، وتكتيل القوى داخل الامم المتحدة ، للتشهير والتحطيم والتهديم ، ولتوجيه مزيد من الضربات لفلسطين وشعبها . ولقد اثبتت تطورات الاحداث التاريخية ، انها لم تنجح في تحقيق كامل اهدافها ، وان مجرى التاريخ اخذ يتحول ضدها(٥٩) . فقد شهدت الفترة الواقعة ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٤ ، تصاعدا في قرارات الامم المتحدة المناصرة للقضية الفلسطينية وللشعب الفلسطيني ، وفيها اعتراف بحقوقه وبحقه في تقرير مصيره ، اضافة الى القرارات الخاصة بالقدس .

قرارات حول احترام حقوق الانسان في الارض المحتلة

كان مجلس الامن قد طالب في قراره رقم ٢٣٧ ، المتخذ بالاجماع في ١٤ حزيران ١٩٦٧ ، بـ « احترام حقوق الانسان الاساسية ، وغير القابلة للتصرف ، في ظروف الحرب المتقلبة » . كما دعا المجلس الى وجوب الاذعان « لجميع الالتزامات الناجمة عن اتفاقية جنيف ، الخاصة بمعاملة اسرى الحرب بتاريخ ١٢ آب ١٩٤٩ ، من قبل الاطراف المعنية في النزاع ، [ودعا حكومة اسرائيل] الى تأمين سلامة وخير وامن سكان المناطق التي جرت فيها عمليات عسكرية ، وتسهيل عودة اولئك الذين فروا من هذه المناطق منذ نشوب القتال ... ، وطلب من الامين العام متابعة تنفيذ هذا القرار تنفيذا فعالا ورفع تقرير عن ذلك الى مجلس الامن »(٦٠) .

وقدتأسست على القرار المذكور قرارات اخرى تدعو الى احترام حقوق الانسان في الاراضي المحتلة . ففي ٤ تموز اكدت الجمعية العامة مضمون هذا القرار ، بقرارها رقم ٢٢٥٢ ، الذي اتخذته بأكثرية ١١٦ صوتا وامتناع ٢ عن التصويت . وقد اصبح هذان القراران مرتكزا لجميع قرارات الامم المتحدةالتي اتخذت فيمابعدحول حقوق الانسان في الارض المحتلة، المعروفة بالقرارات « الانسانية » . « وقد اوفد الامين العام ، تنفيذا للقرار ٢٣٧ ، ممثلا خاصا له للمناطق المحتلة ، ورفع تقريره لكل من الجمعية العامة ومجلس الامن ، في ٢ تشرين الاول ١٩٦٧ ، عن سكان هذه المناطق ، وعدم عودة النازحين عنها ، ومعاملة اسرى الحرب العرب »(٦١) . واعادت الجميعة العامة تأكيد القرارين المذكورين في قرارها رقم ٢٣٤١ الصادر في ١٩ كانون الاول ١٩٦٧ . وفي ١٩ كانون الاول ١٩٦٨ ، اتخذت الجمعيةالعامة القرار رقم ٢٤٤٣ الخاص بانشاء لجنة خاصة ، مؤلفة من ثلاث دول اعضاء (سيلان ، يوغوسلافيا ، الصومال) ، للتحقيق في الممارسات الاسرائيلية التي تمس حقوق الانسان في المناطق المحتلة .

وقد رفضت اسرائيل التعاون مع هذه اللجنةالتي قامت ، رغم ذلك ، بعملها ، وزارت المنطقة ، وقدمت عدة تقارير حول الانتهاكات التي ارتكبتها اسرائيل في المناطق المحتلة ، من خرق لاتفاقيات جنيف ١٩٤٩ ، الى اجراءات تعسفية ضد السكان العرب ، مرورا بتغيير معالم المناطق المحتلة . وفي ١٠ كانون الاول ١٩٦٩ ، اتخذت الجمعية العامة قرارها رقم ٢٥٢٥ ، الذي أعربت فيه عن اسفها لعدم تنفيذ قرار عودة اللاجئين ، او التعويض عليهم ، وتأكيد الحقوق غير القابلة للتصرف لشعب فلسطين ، ولفتت نظر مجلس الامن الى السياسة الاسرائيلية في الاراضي المحتلة، ومددت فترة عمل الاونروا(٦٢) . وقد كان هذاالقراراول قرار، منذ ١٩٤٨ ، تستخدم الجمعية العامة فيه عبارة « شعب فلسطين » بعدما كانت تعتمد عبارة « اللاجئين الفلسطينيين » . كما كانت هذه هي المرة الاولى التي تقر فيها الجمعية العامة بحقوق هذا الشعب غير القابلة للتصرف . وكانت لجنة حقوق الانسان ، التابعة للامم المتحدة ، « قد شكلت ، اثر دراستها لقضايا حقوق الانسان في المناطق المحتلة في اذار ١٩٦٩ ، فريق عمل ، مؤلفا من النمسا وبيرو وتنزانيا والسنغال والهند ويوغوسلافيا ، للتحقيق في انتهاكات اسرائيل المستمرة لحقوق الانسان ، وخاصة لاتفاقية جنيف الرابعة . ورغم عدم تعاون اسرائيل مع هذا الفريق ، فقد قام بعمله وقدم تقريرا مفصلا في ٢٠ كانون الثاني ١٩٧٠ » .

كما كان المفوض العام للاونروا يقدم للجمعية العامة التقارير السنوية « التي تبحث في ما حل بالنازحين الجدد بعد عام ١٩٦٧ ، من اضطهاد وتشريد وعذاب ، وما لحق باللاجئين العرب في مخيماتهم في المناطق المحتلة ، التي هدم جيش اسرائيل بعضها ، وشرد من غزة بالذات عشرات آلاف اللاجئين . كما حولت منشآت اخرى للاجئين ، وبعض المدارس والمستشفيات ، الى منشآت وثكنات يستفيد منها الجيش الاسرائيلي » .

واستنادا لهذه التقارير التي ذكرناها ، والى تقارير هيئات دولية اخرى ، كاللجنة الدولية للصليب الاحمر ، ومنظمة العفو الدولية ، نجد ان العديد من هذه القرارات ، التي صوتت عليها الهيئات الدولية ، قد اكدت انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان وادانتها ، واعتبرتها جرائم حرب .

وكانت ، الجمعية العامة ، ولجنة حقوق الانسان ، تدينان اسرائيل ، كل عام ، لانتهاكها اتفاقيات جنيف ، على الاصعد التالية :

١ ــ التدمير الكلي او الجزئي لقرى ومدن في المناطق المحتلة ؛
٢ ــ اقامة مستوطنات اسرائيلية في المناطق العربية المحتلة ؛
٣ ــ ترحيل وطرد السكان المدنيين ؛
٤ ــ ارغام السكان على التعامل مع السلطات الاسرائيلية ضد ارادتهم ؛
٥ ــ سوء معاملة المدنيين وقتلهم بدون اسباب ؛
٦ ــ العقاب الجماعي ؛
٧ ــ تعذيب المسجونين ؛
٨ ــ الاعتقالات ، وسوء معاملة المعتقلين وحرمانهم من استشارة محامين ؛
٩ ــ الغاء القوانين العربية في المناطق المحتلة ؛

١٠ ـ استملاك الاراضي العربية ؛
١١ ـ السطو على الآثار والمعالم الثقافية ؛
١٢ ـ منع وصول الكتب المدرسية لمدارس الاونروا واليونيسكو في الارض المحتلة .
١٣ ـ حرمان النازحين من حق العودة .

وقد استهترت اسرائيل باتفاقيات جنيف وبقرارات الامم المتحدة ، وقامت في قطاع غزة والضفة الغربية ، منذ ١٩٦٧ ، بأعمال ارهابية ، من قتل واعتقالات وتهجير وتدمير منازل . واصدرت تعليمات لايقاف العمل باتفاقيات جنيف . وصادق وزير العدل الاسرائيلي على ذلك في ٢ كانون الاول ١٩٦٨ ، « مدعيا انه ليست هناك افضلية لاحكام اتفاقية جنيف على القانون الاسرائيلي وتعليمات القادة الاسرائيليين العسكريين ، المطبقة في المناطق المحتلة »(٦٣) .

بداية الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني

كان من نتائج تصعيد نضال الشعب الفلسطيني والدول العربية ، على الصعيدين السياسي والعسكري ، وبعدما انصب الاهتمام ، في السابق على اللاجئين ومشاكلهم ، ان اعترفت الامم المتحدة بحقوق الشعب الفلسطيني ، التي لا يمكن التنازل عنها كما عبر عنها قرار الجمعية العامة رقم ٢٥٣٥ ، الذي ذكرناه سابقاً .

وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٠ ، اكدت الجمعية العامة في القرار رقم ٢٦٤٩ ، « شرعية نضال الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والاجنبية ، والمعترف بحقها في تقرير المصير ، لكي تستعيد ذلك الحق بأية وسيلة في متناولها ... وادانت تلك الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير على الشعوب المعترف لها بذلك الحق ، وخصوصا شعوب افريقيا الجنوبية وفلسطين » . وكان هذا القرار اول اعتراف من الامم المتحدة بأن الاحتلال الاسرائيلي هو بمثابة استعمار ، وأن نضال الشعب الفلسطيني ضده هو حق معترف به .

وطالبت الجمعية العامة ، في القرار رقم ٢٦٧٢ بتاريخ ٨ كانون الاول ١٩٧٠ ، باعادة السكان المشردين ، واعترفت لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق وبحق تقرير المصير ، وفقا لميثاق الامم المتحدة، واعلنت ان الاحترام التام لحقوق شعب فلسطين غير القابلة للتصرف ، هو عنصر لا غنى عنه في اقامة سلم عادل ودائم في الشرق الاوسط .

كما اكدت الجمعية العامة في القرار رقم ٢٧٨٧ بتاريخ ٦ كانون الاول ١٩٧١ ، شرعية نضال الشعوب ، بما فيها شعب فلسطين ، في سبيل تقرير المصير ، والتحرر من الاستعمار والتسلط والاستعباد الاجنبي ، ثم عادت فأكدت هذه المبادىء في القرار رقم ٢٩٥٥ ، بتاريخ ١٢ كانون الاول ١٩٧٢ ، والقرار رقم ٣٠٣٤ بتاريخ ١٨ كانون الاول ١٩٧٢ ، والقرار رقم ٣٠٧٠ بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٣ ، والقرار رقم ٣١٠٣ بتاريخ ١٢ كانون الاول ١٩٧٣ .

والجدير بالذكر ، ان قرار الجمعية العامة رقم ٣٠٣٤ بتاريخ ١٨ كانون الاول ١٩٧٢ ، قد اتخذ على اثر عملية ميونيخ ، وبعد مناقشات طويلة وحادة ، نجح من خلالها سفير المملكة العربية السعودية جميل البارودي ، في تعديل الطلب الذي تقدم به الامين العام فالدهايم ، في ٨ ايلول ١٩٧٢ ، بادراج بند جديد في جدول اعمال الجمعية العامة تحت عنوان « اجراءات منع الارهاب وغيره من انواع العنف التي تهدد او تودي بحياة الابرياء ، او تعرض للخطر الحريات

الاساسية » . فقد اضيفت الى النص فقرة مهمة هي : « وبدراسة الاسباب وراء تلك الانواع من الارهاب ، واعمال العنف الكامنة في البؤس والاحباط والاسى واليأس التي تتسبب في قيام بعض الناس بالتضحية بأرواح البشر ، بما فيها ارواحهم ، في محاولة لاجراء تغييرات جذرية » . مما حول المناقشات من موضوع ادانة « الارهاب » الى درس الاسباب الكامنة وراءه ، اي الغوص الى عمق المأساة الفلسطينية . وبنتيجة ذلك كله ، اتخذت الجمعية العامة ، في ختام مناقشاتها تلك ، قرارا حثت فيه الدول « على تكريس عنايتها الفورية ، لايجاد حلول عادلة سلمية للاسباب الاساسية التي تؤدي الى اعمال العنف » . واعادت التأكيد على الحق الثابت في تقرير المصير والاستقلال لجميع الشعوب الواقعة تحت الاستعمار وانظمة التمييز العنصري وانواع السيطرة الاجنبية الاخرى ، وتدعيم شرعية نضالها ، خصوصا نضال الحركات التحررية . وذلك وفقا لاغراض ميثاق الامم المتحدة ومبادئه وسواه من قرارات اجهزتها ذات الصلة بالموضوع . وادانت « استمرار اعمال القمع والارهاب التي تقدم عليها الانظمة الارهابية والعنصرية ، في انكار حق الشعوب الشرعي في تقرير المصير والاستقلال ، وغيرهما من حقوق الانسان وحرياته الاساسية »(٦٤) .

القدس في الامم المتحدة (١٩٦٧ ــ ١٩٧٤)

احتلت اسرائيل الجزء الشرقي من القدس بمافيه البلدة القديمة، في حزيران ١٩٦٧، بعد استيلائها على الجزء الاكبر منها في حرب ١٩٤٨ . وتحت شعار توحيد المدينة المقدسة ، اخذ الاسرائيليون يقومون « بمصادرة اراضي وعقارات المواطنين العرب ، وطمس حضـــارة اجدادهم ، والاعتداء على مقدساتهم ، واذابة اقتصادهم وتغيير معالم البناء التي اشتهرت بها مدينتهم ، واستبدال كل ذلك بالانسان الاسرائيلي ، والملكية والحضارة والمقدسات والتنظيم الاسرائيلي . وبالاختصار : تهويد المدينة بأقصى ما يمكن من السرعة ، متحدين بذلك جميع المواثيق الانسانية ، غير عابئين بالشكاوى العربية ، او بالقرارات الدولية » ، عاملين بقول هرتسل الشهير : « اذا حصلنا يوما على القدس ، وكنت لا ازال حيا ، وقادرا على القيام بأي شيء ، فسوف ازيل كل شيء ليس مقدسا لدى اليهود فيها ، وسوف احرق الاثار التي مرت عليها قرون »(٦٥) . وكان ابرز ما تقدمه اسرائيل من اجراءات ، خلال السنوات الممتدة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٤ ، هو استعمال الارهاب والنسف والهدم ، كوسيلة لطرد السكان ، وابعاد المواطنين ، ومصادرة الاملاك ، وضم القدس اداريا وسياسيا ، والاكراه على استعمال بطاقات هوية ورخص العمل الاسرائيلية ، وتهويد الاقتصاد العربي من خلال منع التجارة الا بالبضائع الاسرائيلية ، وتهويد القضاء النظامي ، وتهويد التعليم العربي ، وتغيير اسماء الشوارع والطرقات والساحات ، والاستيطان الاسرائيلي ، واحراق المسجد الاقصى والاعتـداءات المتكررة على الاماكن الدينية المسيحية والاسلامية في القدس(٦٦) .

وفي دورتها الطارئة الخامسة الخاصة المنعقدة بين ١٧ حزيران و٢١ تموز ١٩٦٧ ، وفي اثناء مناقشة ازمة الشرق الاوسط نظرت الجمعية العامة في قضية القدس ، واتخذت بشأنها القرار ٢٢٥٣ الصادر بتاريخ ٤ تموز ١٩٦٧ ، بأكثرية ٩٩ صوتا ، وامتناع ٢٠ عن التصويت .

وقد اعربت الجمعية العامة ، في قرارها هذا ، عن قلقها الشديد للحالة السائدة في القدس

نتيجة التدابير الاسرائيلية لتغيير مركز المدينة ، واعتبرت تلك التدابير غير صحيحة ، وطلبت من اسرائيل الغاء كافة هذه التدابير ، والامتناع فورا عن القيام بأي عمل من شأنه تغيير وضع القدس . وطلبت من الامين العام اعلامها واعلام مجلس الامن بالحالة ، وبتنفيذ هذا القرار ، في غضون اسبوع على الاكثر . وبالفعل ، قدم الامين العام تقريره في ١٠ تموز ١٩٦٧ ، موضحا فيه ان اسرائيل لم تتراجع عن اي من الاجراءات التي اتخذتها ، وانها ماضية فيها . وفي ١٤ تموز ١٩٦٧ ، اكدت الجمعية قرارها السابق بالقرار ٢٢٥٤ الجديد ، الذي لاحظت فيه ، « مع اشد الاسف وابلغ القلق » ، عدم التزام اسرائيل بالقرار ٢٢٥٣ ، وامتناعها عن تنفيذه ، وكررت طلبها الغاء جميع التدابير التي تم اتخاذها ، والامتناع فورا عن القيام بأي عمل من شأنه تغيير الوضع في القدس . » وقد عين الامين العام ، على اثر هذا القرار ، ممثلا خاصا له هو السفير تالمان من سويسرا ، الذي ذهب الى القدس ودرس الاوضاع فيها ، وقدم تقريرا ثانيا الى كل من الجمعية العامة ومجلس الامن في ١٢ ايلول ١٩٦٧ . واتضح من هذا التقرير ، أن اسرائيل طبقت على القدس بكاملها ، وبعض المناطق العربية المحيطة بها ، التي كانت تابعة للاردن سابقا ، التشريعات الاسرائيلية كما اخذت في تهجير سكانها واستملاك الاراضي العربية »(٦٧) .

وفي ٢٠ كانون الاول ١٩٧١ ، اكدت الجمعية العامة ، في قرارها رقم ٢٨٥١ ، « ان كل الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل لاستيطان الاراضي المحتلة ، بما في ذلك القدس المحتلة ، باطلة ولاغية كليا » . لكن قرارات الجمعية العامة وسخط العرب والمسلمين ، لم تردع اسرائيل عن القيام باعمالها الوحشية في المدينة المقدسة ، كما ذكرنا سابقا ، مما اجبر مجلس الامن على اعادة النظر ، ست مرات في موضوع القدس ، وصوت على ستة قرارات هي : ١ ــ القرار رقم ٢٥٠ بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٦٨ ، الذي اعتبر ان اقامة عرض عسكري في القدس سيزيد من خطورة التوتر في المنطقة ، وسيكون له انعكاس سلبي على التسوية السلمية ، ودعا اسرائيل الى الامتناع عن اقامة العرض العسكري في القدس في ٢ ايار ١٩٦٨ ؛ ٢ ــ القرار رقم ٢٥١ بتاريخ ٢ ايار ١٩٦٨ ، الذي يبدي الاسف العميق لاقامة اسرائيل العرض العسكري في القدس ، رغم قراره السابق ؛ ٣ ــ قرار رقم ٢٥٢ في ٢١ ايار ١٩٦٨ ، دعا فيه اسرائيل الى الغاء جميع الاجراءات التي اتخذت فعلا على وجه السرعة ، واعلن ان جميع الاجراءات التشريعية والادارية والتصرفات التي اتخذتها اسرائيل ، بما في ذلك نزع ملكية الارض والممتلكات فيها بقصد تغيير هذا الوضع ، هي اجراءات باطلة ، ولا يسعها ان تغير من وضع القدس ؛ ٤ ــ القرار رقم ٢٦٧ ، بتاريخ ٣ تموز ١٩٦٩ ، الذي « اكد المبدأ القائل ان الاستيلاء على الاراضي بالفتح العسكري غير مقبول . وابدى اسفه لفشل اسرائيل في احترام قرارات مجلس الامن والجمعية العامة ، وشجب بشدة جميع الاجراءات المتخذة لتغيير وضع القدس واعتبرها باطلة ، ودعا اسرائيل ، مجددا ، الى الغاء جميع الاجراءات التي من شانها تغيير وضع القدس » ؛ ٥ ــ بعد احراق المسجد الاقصى في ٢١ آب ١٩٦٩ مما ادى الى اصابته باضرار بالغة ، وأثار عواطف المسلمين في جميع انحاء العالم ، اصدر مجلس الامن القرار رقم ٢٧١ في ١٥ ايلول ١٩٦٩ ، وادان فيه اسرائيل لحرقها المسجد وتدنيسه ؛ ٦ ــ القرار رقم ٢٩٨ بتاريخ ٢٥ ايلول ١٩٧١ ، وقد ابدى مجلس الامن فيه ، اسفه لعدم احترام اسرائيل قرارات الامم المتحدة الخاصة باجراءاتها لتغيير وضع القدس .

اما في اليونسكو ، فقد ادينت اسرائيل لتخريبها الممتلكات الثقافية والتاريخية ؛ ففي خريف ١٩٦٨ ، اتخذت اليونسكو قرارين : الاول برقم ١٥ م/ ٣٣٤٢ ، توصي فيه بالامتثال للميثاق المتعلق بحماية المعالم الثقافية في حالة النزاع المسلح ، والثاني برقم ١٥ م/ ٣٣٤٣ ، دعت فيه اسرائيل الى المحافظة على المعالم الثقافية ، خصوصا في القدس القديمة ، وان تمتنع عن اية عملية حفريات او اية عملية لنقل هذه المعالم او تغيير ميزاتها الثقافية . لكن اسرائيل لم تأبه بهذه القرارات ، واستمرت في حفرياتها . واتخذت اليونسكو ، عام ١٩٧٠ ، قرارين آخرين هما : القرار رقم ٨٢ والقرار رقم ٨٣ ، ادانت فيهما اسرائيل على احراق المسجد لاقصى واستمرارها بالحفريات ، كما دعتها ، بصورة مستعجلة ، في القرار رقم ١٧ م/ ٣٤٢٢ بتاريخ تشرين الثاني ١٩٧٢ ، الى الكف عن تغيير معالم القدس ، وعن الحفريات الاثرية .

اما لجنة حقوق الانسان ، فقد اتخذت عدة قرارات ، ادانت فيها اسرائيل لخرقها حقوق الانسان في الاراضي المحتلة ، وفي قرارها رقم ٤ بتاريخ ١٤ آذار ١٩٧٣ فقد اكدت ، من جديد ، بطلان جميع الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية لتغيير الطابع السكاني والديمغرافي للمناطق العربية المحتلة ، وخصت القدس بالذكر(٦٨) .

بداية التحول والانتصار السياسي

في ٦ تشرين الاول ١٩٧٣ ، نشبت الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة ، واعتبرت نتائجها بمثابة انتصار سياسي وعسكري للعرب ؛ اذ كانت فاصلا قاطعا بين عصرين : عصر ماض مشحون بالهزائم والانتكاسات ، وعصر جديد مليء بالامل والثقة بالنفس . لقد اصبح من الثابت ، اولا « ان ما تم اقتحامه وتحطيمه في ٦ تشرين لم يكن فقط خط بار ـ ليف المنيع ... انما جدار الخوف [لدى العرب] وفقدان الثقة بالنفس ، وغلبة الشعور بالتدني في مواجهة التفوق الحضاري والتكنولوجي لاسرائيل » ؛ ثانيا : كان رد الفعل العربي ، على المستويين الرسمي والشعبي ، بالمشاركة العسكرية والمادية لدول المواجهة ، ولاول مرة في تاريخ العرب الحديث ، توحيد العرب من المحيط الى الخليج ، لمواجهة الاحداث ؛ ثالثا ، استخدم العرب سلاح البترول للضغط على الولايات المتحدة ودول اوروبا الغربية . فعقد وزراء البترول العرب مؤتمرين في الكويت و« قرروا خفض الانتاج بنسبة محددة شهريا ، الى ان يتحقق الانسحاب الاسرائيلي االكامل من الاراضي العربية الواقعة تحت الاحتلال . وبسبب استحكام ازمة الطاقة ، اصدرت دول الجماعة الاوروبية التسع ، في اوائل تشرين الثاني ١٩٧٣ بيانا تضمن تأييدا غير مشروط لحقوق العرب المشروعة في هذا النزاع ، وادانة قاطعة لسياسات اغتصاب الاراضي والاحتفاظ بها بالقوة التي تنتهجها اسرائيل » ؛ رابعا : استخدم العرب مقاييس جديدة في علاقاتهم وتعاملهم مع الدول الاخرى، مما دفع الاكثرية الساحقة من الدول الافريقية الى قطع علاقاتها الدبلوماسية باسرائيل؛ خامسا: بدأت الولايات المتحدة، خوفا من تصاعد اجراءات حظر النفط العربي ضدها ، بتحرك دبلوماسي لايجاد منطلقات اساسية وضرورية لتسوية عادلة ودائمة في منطقة الشرق الاوسط(٦٩) . وفي ٢٢ تشرين الاول ١٩٧٣ ، اتخذ مجلس الامن قرارا برقم ٣٣٨ ، يدعو فيه لوقف اطلاق النار فورا ، ولتنفيذ القرار ٢٤٢ بجميع اجزائه ، ولبدء مفاوضات بين الاطراف المعنية تحت اشراف ملائم ، بهدف اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط .

وقد شددت الولايات المتحدة على ضرورة الاسراع في بدء المحادثات بين الفرقاء المعنيين ، وحذرت من تدخل الدولتين الكبريين ، الذي قد يؤدي الى مجابهة نووية . اما الاتحاد السوفياتي ، فشدد ، بدوره ، على ضرورة المفاوضات لاقامة سلام عادل ودائم في المنطقة ، وانسحاب اسرائيل من الاراضي التي احتلتها في حرب ١٩٦٧ « واحترام سيادة كل دولة في المنطقة ، واحترام اراضيها واستقلالها السياسي ، وحقها في الحياة في سلام ، والاعتراف بذلك كله » ، وضرورة تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ، التي فسرها الاتحاد السوفياتي « بضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ، اي حق تقرير المصير في الضفة الغربية وقطاع غزة واشتراك م.ت.ف. في مؤتمر السلام الذي كثر الحديث عنه(٧٠) .

وفي ٢١ كانون الاول ١٩٧٣ ، عقد مؤتمر جنيف بحضور كل من مصر والاردن واسرائيل ، برئاسة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، واشراف الامين العام للامم المتحدة . « وقد عقد المؤتمر اجتماعين عامين ، واجتماعاً مغلقاً ، ولخص الامين العام ، خلاله ، المؤتمر بقوله انه قد اتفق باجماع الاراء على استمرار عمل المؤتمر ، بواسطة انشاء فريق العمل العسكري الذي سيناقش مسألة فصل القوات » . وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٧٤ ، وقعت اتفاقية فصل القوات الاسرائيلية ـ المصرية ، نتيجة لمؤتمر جنيف ، وفي ٣١ ايار من العام نفسه ، وقعت اتفاقية مماثلة بين سوريا واسرائيل ، واقيمت على خطوط الفصل قوة مراقبي فصل القوات التابعة للامم المتحدة .

ومن نتائج حرب تشرين ١٩٧٣ ، بروز المقاومة الفلسطينية بشكل واضح ، كقوة مقاتلة في المنطقة ، لها وزنها العسكري والسياسي . وقد ادت هذه الحرب ، ايضا ، الى عودة قضية فلسطين الى الامم المتحدة كقضية سياسية ، بعد ان كانت تتداول كقضية لاجئين . « ففي ايلول ١٩٧٤ ، تقدمت مجموعة الدول العربية والدول الاشتراكية وبعض دول عدم الانحياز ، الى الجمعية العامة ، بطلب ادراج بند « القضية الفلسطينية » في الدورة التاسعة والعشرين ، بشكل مستقل عن ازمة الشرق الاوسط . وقد وافقت الجمعية العامة على هذا الطلب ، ودعت في ١٤ تشرين الاول ١٩٧٤ ، باغلبية ١٠٥ اصوات ، منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، للاشتراك في مناقشة القضية امام المنظمة الدولية .

« وبعد غياب استمر حوالي ٢٥ عاما ، عرضت قضية فلسطين على الامم المتحدة كقضية تحرر وطني وحق تقرير مصير لشعب مطرود من وطنه » . وقد ازداد التضامن العالمي مع الشعب الفلسطيني ، والاعتراف العالمي بـ م.ت.ف. كممثل وحيد شرعي للشعب الفلسطيني . وتتابعت ، منذ تلك الوقت ، قرارات الامم المتحدة المناصرة للقضية الفلسطينية . ويعود فضل مكانة القضية الفلسطينية هذه ، على الصعيد الدولي ، الى الفلسطينيين انفسهم ، « الذين حملوا السلاح وناضلوا في سبيل حقوقهم المغتصبة »(٧١) .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب المعاصر ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ ، ص ٧٥

Evolution of the Palestine Problem, Part II 1947--1977, U.N.: New York, 1977, pp. 7-8.

(٢) United Nations, *The Origins and*

New York, 1977, pp. 7--8.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) « قرارات الامم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي ١٩٤٧ – ١٩٧٤ » (اعداد جورج طعمه) ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٥ ، ص ٤ .

(٥) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٠٥ .

(٦) United Nations, *«The Origins...» op. cit,* p. 10--12.

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٣ – ١٤ ز

(٨) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٩٩ .

(٩) « قرارات الامم المتحدة ... » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤ و١٦ .

(١٠) Sami Hadawi, *Bitter Harvest; Palestine 1914--1967»* New York: New York Pres, 1967, pp. 92--94.

وعمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٩٩ و٧٠٠ .

(١١) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٠٦ .

(١٢) Hadawi, *op. cit.*, pp. 100--101

(١٣) ياسين الحافظ ، « دور التأخر العربي في تأسيس اسرائيل : من وعد بلفور الى قيام الدولة » ، شؤون فلسطينية ، العدد ٨١ ، آب ١٩٧٨ ، ص ١٦ .

(١٤) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٠٠ – ٧٠٧

(١٥) Hadawi, *op. cit.*, p. 100

(١٦) « قرارات الامم المتحدة .. » ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦ .

(١٧) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧١٢ – ٧١٣ .

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) عصام سخنيني ، « ضم فلسطين الوسطى الى شرقي الاردن ، ١٩٤٨ – ١٩٥٠ » ، شؤون فلسطينية ، العدد ٤٠ ، كانون الاول ١٩٧٤ ،

(٢٠) John H. Davis, *«The Evasive Peace»*, Great Britain, John Morray, 1968, p 39.

(٢١) ياسين الحافظ ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٨ – ١٢ ، ١٨

(٢٣) Hadawi:, *op. cit,* p. 156--158

(٢٤) « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ١٨ – ١٩ .

(٢٥) United Nations, *op. cit,* p. 51

(٢٦) « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ٢١ .

(٢٧) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٢١ .

(٢٨) United Nations, *op. cit,* p.51

(٢٩) ج. هـ. جانسن ، « اسرائيل والامم المتحدة : عضوية مشروطة » شؤون فلسطينية ، العدد ٤٩ ، ص ١٧ – ٢٠ .

(٣٠) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٢٤ – ٧٢٦ .

(٣١) « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ .

(٣٢) George Tomeh, *«Jerusalem At The United Nations»*, Palestin Liberation organization, Political department, p. 4.

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٣٤) المصدر نفسه ص ٧

(٣٥) « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٣٧) المصدر نفسه ص ١٩ – ٢١ .

(٣٨) الامم المتحدة ، « تقرير المفوض العام لوكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى ، ١ تموز – ٣٠ حزيران ٧٨ » ص ١ .

(٣٩) جورج طعمه ، « وحدها قضية فلسطين اخضعت صياغتها لتزييف وشطب » النهار ، ١٤ حزيران ١٩٧٤ .

(٤٠) « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(٤١) جورج طعمه ، « وحدها قضية فلسطين ... » مصدر سبق ذكره .

(٤٢) « قرارات الامم المتحد... » مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠ .

(٤٣) نزيه قوره ، « نظرة اولية في ميزانية وكالة الغوث ودلالاتها السياسية » شؤون فلسطينية ، العدد ٣٠ ، ١٩٧٤ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٤٤) جورج طعمه ، « كيف طويت قضية فلسطين من جدول اعمال الامم المتحدة » النهار ١٣ حزيران ١٩٧٤ .

(٤٥) جورج طعمه ، « وحدها قضية فلسطين ... » مصدر سبق ذكره .

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ١٨ .

(٤٨) جورج طعمه « وحدها قضية فلسطين ... » مصدر سبق ذكره .

(٤٩) المصدر نفسه

(٥٠) جورج طعمه ، « كيف طويت قضية فلسطين ... » مصدر سبق ذكره .

(٥١) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧١٥ ـ ٧١٨ .

(٥٢) « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، رقم ٩٢ ـ ٩٣ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٠٦ ـ ١١١ ـ ١٧١ ـ ٢٢٨ .

(٥٣) E.L.M. Burns, *Between Arab and Israeli*, Beirut, The Institude for Palestinan Studies, 1969, p. 58--66.

(٥٤) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٢٩ ـ ٧٣١ .

(٥٥) جورج ديب ، « قرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، دراسة وتحليل » ، الثقافة العربية ، آب ـ ايلول ١٩٧٠ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٨٨ .

(٥٦) المصدر نفسه .

(٥٧) فايز صايغ ، « ملاحظات على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ » شؤون فلسطينية عدد ١٥ ، سنة ٧٢ ، ص ٥ ـ ١٨ .

(٥٨) المصدر نفسه .

(٥٩) جورج طعمة ، « القضية الفلسطينية والصراع العربي الاسرائيلي في الامم المتحدة ١٩٦٥ ـ ١٩٧٤ » ، شؤون فلسطينية ٤١/ ٤٢ ك ٢ ـ شباط ١٩٧٥ ص ١١٩ ـ ١٣٨ .

(٦٠) « قرارات الامم المتحدة .. » مصدر سبق ذكره .

(٦١) « القضية الفلسطينية ... » مصدر سبق ذكره .

(٦٢) « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ .

(٦٣) جورج طعمه ، « القضية الفلسطينية ... » ، مصدر سبق ذكره .

(٦٤) المصدر نفسه ، « قرارات الامم المتحدة ... » مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٩ .

(٦٥) روحي الخطيب ، « الاجراءات الاسرائيلية لتهويد القدس بين ٦٥ و١٩٧٥ » شؤون فلسطينية ٤١/٤٢ ك ٢ ـ شباط ١٩٧٥ .

(٦٦) المصدر نفسه .

(٦٧) جورج طعمه « القضية الفلسطينية ... » ، مصدر سبق ذكره .

(٦٨) المصدر نفسه ، و« قرارات الامم المتحدة ... » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، ١٩٨ ـ ٢٠٥ و٢٣٢ .

(٦٩) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٤٦ ـ ٧٤٨ .

(٧٠) منير شفيق ، « المؤامرة الامبريالية من القرار ٢٤٢ الى ٣٤٠ » ، دراسات عربية السنة ١٠ ك ١ ١٩٧٣ ، ص ٢٨ ـ ٤١ .

(٧١) عمر عبد العزيز عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٤٩ ـ ٧٥٦

هـاني حوراني

سمات الحركة العمالية الاردنية وتركيبها الداخلي (١٩٥٠-١٩٥٧)

ما ان انتزع العمال حقهم في التنظيم النقابي حتى تسارعت وتيرة تشكيل النقابات وانتظام العمال والمستخدمين في صفوفها . فبين نهاية العام ١٩٥٣ (اي عام صدور قانون نقابات العمال رقم ٣٥) وحتى منتصف العام ١٩٥٦ تشكلت في الاردن ٣٩ نقابة ، كان لها ما يزيد على الخمسين فرعا (١) .

ويعكس الجدول رقم (١) ادناه هذه الحقيقة بسطوع ، فقد قفز عدد النقابات بوتيرة سريعة ، وتضاعف عدة مرات خلال سنوات قليلة جدا : ففي العام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ اقتصر عددها على ٦ نقابات ، فتضاعفت في العام التالي الى ٢٤ نقابة ، وفي العام ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ بات عددها ٣٩ نقابة ، اي اكثر من ستة اضعاف عددها في عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ . وتضاعف عدد فروع النقابات بالوتيرة ذاتها خلال السنوات المذكورة . اما عدد اعضاء النقابات فقد قفز بوتيرة اسرع ، بالنظر الى ضآلة عددهم في سنة انطلاق الحركة النقابية . ففي العام ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ كان عددهم يوازي ٤٨٩٧ عضواً ، اي عشرة اضعاف عدد الاعضاء في العام الذي سبقه (اي ٥٤/ ١٩٥٥) . لكن هذا العدد ارتفع عام ١٩٥٦ــ ١٩٥٧ الى ٩١٢٨ عضوا ، اي بنسبة ارتفاع تزيد عن ٨٦,٤٪ بالمقارنة مع عددهم في العام ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ .

ويعود هذا النمو العددي للنقابات واعضائها خلال هذه السنوات القليلة الى جملة من الشروط المساعدة والمحفزة اهمها ما يلي :

اولا : تفاقم المشكلات الحياتية والاقتصادية التي كان يعاني العمال والشغيلة وسائر المستخدمين بأجر منها ، كالبطالة ، والغلاء وتدني الاجور وطول ساعات العمل واتساع نطاق الفصل التعسفي والتسريح والتخفيض العشوائي للاجور ، وتردي ظروف العمل ، وغياب التشريعات التي تكفل حقوق العمال وتوفر لهم الحد الادنى من الضمانات الاجتماعية والصحية .

لقد كانت المشكلات المذكورة ، واشتداد الاستغلال الرأسمالي لقوة العمل في ظل غياب

الحماية القانونية والعملية لحقوق العمل ، وكذلك الخشية الدائمة من التسريح والانضمام الى جيش العاطلين عن العمل ، كانت هذه جميعها العامل الرئيسي المحفز لعملية تسارع الاقبال على الانتظام النقابي(٢) .

ثانيا : احتدام الصراع الوطني والاجتماعي ، واتساع نطاق نضال مختلف القطاعات الشعبية من اجل الحريات والديمقراطية والتحرر الوطني والاستقلال ، ومن ثم اختلال ميزان القوى الداخلي الناجم عن هذا الاتساع للقاعدة الاجتماعية المشاركة في الحركة الجماهيرية من اجل التحرر الوطني والديموقراطية ، هذان العاملان عجلا في انتزاع العمال والمستخدمين لحقهم في التنظيم النقابي ، وتشكيل منظماتهم النقابية . فقد جاء تشكيل الحركة النقابية العمالية في اطار نهوض مختلف القطاعات الشعبية والمهنية ، من اجل تشكيل منظماتها الخاصة ، ففي النصف الاول من الخمسينات ، وتحت تأثير وقيادة الاحزاب السياسية الوطنية والديموقراطية ، تشكلت نقابات المحامين والاطباء والمعلمين والموظفين والطلبة والنساء ولجان السلم واللجان الوطنية (٣) .

ثالثا : استناد الطبقة العاملة الناشئة الى تراث وخبرات الحركة العمالية الفلسطينية ، والى دور الكوادر والقيادات النقابية العمالية الفلسطينية النازحة الى الاردن ، الامر الذي عجل في تشكل الحركة العمالية في الاردن ، وجنبها الكثير من المصاعب واشكال التخبط التي يتحتم التعرض لها ، لو انها انطلقت بدون الاستناد الى تقاليد وخبرات الطبقة العاملة الفلسطينية وحركتها النقابية .

رابعا : مبادرة النقابات العمالية منذ نشوئها الى توحيد صفوفها في اطار اتحاد عام للنقابات ، الامر الذي ضاعف من اهمية ووزن الحركة العمالية ، وعوض الضعف النسبي لكل نقابة على حدة ، ومكن من دفع مختلف القطاعات الى الانتظام النقابي والى انشاء نقاباتها الخاصة (٤) .

الجدول رقـــم ١
الحركة النقابية الاردنية ٥٣/ ١٩٥٤ ــ ٥٨/ ١٩٥٩

التفاصيل	السنـــــوات					
	١٩٥٤/٥٣	١٩٥٥/٥٤	١٩٥٦/٥٥	١٩٥٧/٥٦	١٩٥٨/٥٧	١٩٥٩/٥٨
عدد النقابات	٦	٢٤	٣٩	٣٨	٣٧	٣٩
عددفروع النقابات	٦	٣٦	٥١	٥٠	٤٩	٥٣
عدداعضاء النقابات	٧٢	٤٦٥	٤٨٩٧	٩١٢٨	٩٥٦٦	٩٨٣٢
واردات النقابات بالدينار	ـــ	٤٣٠	٢٩٢٧	٥٠٩٨	٥٢٢٤	٤٩٠٠
مصروفات النقابات بالدينار	ـــ	٢٦٦	٢٠٧٦	٣٥٥٧	٤٧٧٦	٤١٦٦

على ان تسارع وتيرة تشكل النقابات تحت تأثير العوامل المحفزة للتنظيم النقابي يجب ان لا تصرف الانظار عن النواقص والعيوب التكوينية التي عانت منها الحركة العمالية النقابية وحدت من دورها . ان الاستعراض السريع التالي يلقي الضوء على السمات العامة للحركة العمالية النقابية وعلى تكوينها الداخلي في المرحلة المبكرة من تشكلها .

السمة الاولى : طغيان وزن نقابات عمال الخدمات داخل الحركة النقابية العمالية

يبرز التكوين العام للحركة النقابية العمالية في هذه المرحلة الثقل الاساسي المميز لنقابات عمال ومستخدمي القطاعات الخدمية ، حيث نجد ان نسبة نقابات العاملين في الخدمات العامة والاعمال الكتابية الى مجموع النقابات في البلاد كانت توازي النسب التالية: ٦٦,٦٪ ، ٥٤,٢٪ ، ٥٥,٥٪ ، ٤٣,٢٪ ، وذلك خلال السنوات الاربع التالية: ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ و١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ بالترتيب .

كما كان عدد الاعضاء المنتسبين الى النقابات الخدمية المذكورة اعلاه يوازي النسب التالية:٥٢٪ ، ٧٩,١٪ ، ٦٩,٤٪ ، ٣٥,٩٪ وذلك في السنوات نفسها . (راجع الجدول رقم « ٢ ») .

واذا كانت النسب المذكورة تشير الى ميل ثقل النقابات الخدمية والكتابية واعضائها الى الانخفاض بالنسبة الى مجموع الحركة النقابية ، فذلك يعود بالاساس الى صدور قرارات حكومية بحل عدد من النقابات الخدمية والكتابية كنقابات الموظفين والمعلمين كما سيمر معنا (٥) .

ومن المفهوم تماما ان يبرز الوزن الطاغي لنقابات عمال ومستخدمي الخدمات في مرحلة تاسيس الحركة النقابية ، وفي تلك الطور من نشوء وتشكل الطبقة العاملة الاردنية ، في ظل تدني حجم ووزن القطاعات العمالية البروليتارية وتوزعها على عدد كبير من المؤسسات الصغيرة وما ينجم عن ذلك من ضعف التقاليد والعلاقات البروليتارية والاستعداد للانتظام الجماعي في النقابات . كما انها من المظاهر الايجابية ان تعمد قطاعات العمال والشغيلة والمستخدمين في المرافق الخدمية الى الاستفادة من الفرص المتاحة لها للانتظام ، والناجمة عن تجمعها في مؤسسات عمل ومرافق كبيرة تساعد على تكتلها وانتظامها الجماعي النقابي . كما هو الحال مع عمال ومستخدمي السكك الحديدية ومطارات الجيش البريطاني واجهزة التعليم الحكومي والخاص وتعليم وكالة الغوث والاجهزة الحكومية (موظفي الصنف الثاني) والبلديات .. الخ .

لكن يجب ان لا يغيب عن البال اثر نمط التطور الكولونيالي المشوه الذي حكم توجه الاقتصاد الاردني وطابعه العام ، الذي ارسى اسس النمو غير المتوازن للاقتصاد الوطني من خلال تضخيمه للقطاعات الخدمية على حساب القطاعات الانتاجية كالصناعة والتعدين والزراعة والكهرباء . فلقد ترك هذا النمط من التطور الكولونيالي اثارا عميقة على التكوين العام للطبقة العاملة ، ليس فقط في هذه المرحلة وانما ايضا في المراحل اللاحقة ، حيث اضعف طابعها البروليتاري وقلل من حجم ودور الشرائح العمالية الصناعية ، وافسح المجال على الصعيد

الموضوعي امام شيوع التقاليد والعلاقات والثقافات غير البروليتارية ولا سيما البورجوازية الصغيرة منها ، واضعف بالمقابل فرص تجمع وتركيز القطاعات العمالية في مراكز انتاجية كبيرة وترسيخ التقاليد النضالية البروليتارية كالانتظام والمثابرة والنضال الجماعي المنظم والوعي بوحدة مصالح الطبقة العاملة ومصيرها .

وبلا ريب فان أثر هذا التكوين الاقتصادي العام والنمو في اطار التبعية للامبريالية على الحركة النقابية العمالية كان شديد الضرر ، فلقد كان العمال ينتقلون من مناشئهم الاجتماعية المتعددة غير البروليتارية (الفلاحية ، الحرفية ، البرجوازية الصغيرة .. الخ) محملين بكل تصوراتهم وتقاليدهم واوهامهم البعيدة كل البعد عن التصورات والتقاليد والنظرات البروليتارية ، دون ان يجدوا في مواقعهم الجديدة ، في اطار الطبقة العاملة ، الظروف والشروط الانتاجية وتقاليد العمل التي تكفل ارساء الوعي والتقاليد النضالية البروليتارية .

ففي اوساط العمال والمستخدمين الذين يعمل معظمهم في القطاعات الخدمية ، تنتشر تأثيرات الطبقات الاخرى ، وتبرز الميول الفردية والمطامح نحو التحرك الى ارباب عمل او الى منتجين مالكين مستقلين . وفيها تنتعش فرص هيمنة النزعات الانتهازية النقابية بشقيها اليميني واليساري المتطرف ، بسبب ضعف تقاليد الانتظام والنضال الجماعي والاستقرار والجلد والمثابرة الدؤوبة على هذا النضال (٦) .

ولذلك فان احتلال نقابات عمال الخدمات مركز الثقل الطاغي على تكوين الحركة العمالية ، مثلما كان يعكس مظهرا حتميا من مظاهر الطبقة العاملة ذات الثقل الكبير لعمال الخدمات ، فانه بالمقابل كان يحمل بذور وامكانيات خطر هيمنة الانتهازية وميول المساومة في صفوف الحركة العمالية .

السمة الثانية : هيمنة الطابع المهني والحرفي على التنظيم النقابي

تنجم الصفة الثانية للحركة العمالية ، اي هيمنة الطابع المهني والحرفي على تنظيم النقابات من واقع غلبة الطابع الحرفي وطابع المؤسسة الصغيرة على الصناعة الاردنية بشكل خاص وعلى المؤسسات الانتاجية الاخرى بشكل عام . هذا الامر ترك اثاره ايضا على تكوين القطاعات العمالية الصناعية ، وعلى تقاليدها ، واستعداداتها وميولها ومطامحها . لذلك نجد ان النقابات العمالية المنظمة على اساس الصناعة او القطاع الصناعي قليلة العدد جدا. فهي (كما يبين الجدول رقم « ٣ ») تقتصر على نقابات عمال السجائر والتبغ ، والفوسفات ، والاسمنت ، والكهرباء . بينما نجد ان بقية النقابات ذات طابع تنظيمي يقوم على الصلة المهنية او الحرفية : نقابات عمال البناء ، والخياطة ، والاحذية ، والمخابز ، والحدادة ، والنجارة ، والبلاط ، والحلاقة ، والدقاقة ، والاشغال .. الخ .

السمة الثالثة : اختلال مستوى انتشار التنظيم النقابي بين الضفتين وبين المحافظات

كان مستوى انتشار التنظيم النقابي على صعيد المناطق وما بين ضفتي الاردن مختلا اختلالا شديدا ، ذلك ان تركز النشاط الاقتصادي والمرافق الخدمية والاستثمارات الاساسية في

الجدول رقم ٢
النقابات الاردنية حسب نوعها خلال ١٩٥٣/٢٩٥٤ و١٩٥٨/١٩٥٩

التفاصيل	السنـــــوات					
	١٩٥٤_٥٣	١٩٥٥_٥٤	٥٥ _ ١٩٥٦	٥٦ _ ١٩٥٧	١٩٥٨_٥٧	١٩٥٩_٥٨
نقابات الخدمات العامة						
عدد النقابات	٣	١٠	١٣	١٤	١٣	١٠
عدد فروع النقابات	٣	١٥	١٨	١٩	١٨	٢٢
عدد اعضاء النقابات	٢٩	١٥٦	٢٥٨٦	١٥٦١	٢٣٠٢	٣٠٣٢
وارداتها بالدينار	—	٩٠	١٢٣٣	٢٤٨٧	٣٠٦٦	٣٠٦٧
مصروفاتها بالدينار	—	٦٧	٧٢٧	٢٠٧٧	٢٥٤٤	١٥٨٢
نقابات الاعمال المهنية						
عدد النقابات	١	٨	١٣	١٥	١٦	١٢
عدد فروعها	١	١٣	١٩	٢١	٢٠	٢٣
عدد اعضائها	٢٨	٧٦	١١١٢	٢٥٨١	٣٧٨٧	٣٧١٨
وارداتها بالدينار	—	—	١٣٠٠	١٥٦١	١٧٢٦	٢٢٣٩
مصروفاتها بالدينار	—	—	١١١٣	١٢٣٨	١٥٤٩	٢١٢١
نقابات الاعمال الكتابية						
عدد النقابات	١	٣	٧	٢	٢	١
عدد فروعها	١	٣	٧	٢٥	٣	١
عدد اعضائها	٩	٢١٢	٨١٥	٧٢٢	٧٢٢	٦٤٢
الواردات بالدينار	—	٣٤٠	٢٣٤	٣٨٧	—	—
المصروفات بالدينار	—	١٩٩	١٣٠	٧٨	—	—
نقابات الاعمال اليدوية						
عدد النقابات	١	٢	٦	٧	٦	٦
عدد فروعها	١	٥	٧	٨	٨	٨
عدد إعضائها	٧	٢١	٢٨٤	١٢٦٤	١٧٥٥	٢٤٤٠
الواردات بالدينار	—	—	١٦٠	٦٦٣	٤٣٢	٥٩٤
المصروفات بالدينار	—	—	١٠٦	١٧٤	٢٨٣	٤٦٣

المصدر: وزارة الشؤون الاجتماعية ،تقرير باحصاءات متنوعة صادرة عن دائرة الاحصاءات العامة ، ١٩٥٩ ،

العاصمة عمان ، وانتعاش سوق العمل فيها وبالتالي احتشاد اعداد كبيرة من الايدي العاملة في العاصمة ، قد انعكس ميكانيكيا في تركز النشاط النقابي في العاصمة عمان وعلى حساب المناطق والضفة الغربية .

فمن الجدول المذكور انفا (رقم « ٣ ») تبين انه من بين ٢٨ نقابة عمالية كانت قائمة في نهاية ١٩٥٥ ، كانت ٢١ نقابة منها تتخذ من عمان مركزا لها . ومن بين هذه النقابات كانت اثنتان في مناطق صناعية قريبة من عمان (الفحيص والرصيفة) . بينما لم توجد في الضفة الشرقية سوى نقابتين فقط تتخذان مركزا لهما خارج عمان ، هما نقابة البنائين المعماريين في اربد ونقابة عمال ومستخدمي مطارات الجيش البريطاني في المفرق ، ولم يكن لاي منهما فرع في المدن الاخرى .

اما على صعيد الفروع ، فقد كان في الضفة الشرقية سبعة فروع للنقابات كانت جميعها في اربد .

وبالمقابل ، فان الضفة الغربية لنهر الاردن التي كانت اسبق الى التنظيم النقابي ، لم يكن للنقابات العمالية فيها سوى ستة مراكز ، توزعت بين القدس والخليل واريحا وبيت ساحور . ولم يكن للنقابات المذكورة (اي التي تتخذ من مدن الضفة الغربية مركزا لها) فروع اخرى . بينما كانت للنقابات التي تتخذ من مدن الضفة الشرقية (وعمان تحديدا) مركزا لها ، ثلاثة فروع اخرى في مدن الضفة الغربية هي نابلس والقدس والخليل .

وهكذا كانت حصة عمان من مراكز النقابات ٧٥٪ وحصة الضفة الشرقية من هذه المراكز ٨٢٪ ، وكانت ايضا حصة الضفة الشرقية من الفروع النقابية ٧٠٪ ، مقابل ١٨٪ للضفة الغربية من مراكز النقابات و ٣٠٪ من فروعها . وقد اتسمت نقابات الضفة الغربية فضلاً عن قلتها العددية بالطابع الحرفي الصارخ (٧) .

السمة الرابعة : بساطة التنظيم الداخلي للنقابات

لقد كانت الحركة العمالية مكونة من مجموعة من النقابات ينضوي معظمها داخل الاتحاد العام لنقابات العمال ، ومن نقابات اخرى مستقلة عن الاتحاد وغير مرتبطة بأي اتحاد اخر(٨) . وللاتحاد مجلس مركزي تتمثل فيه النقابات بحسب نسبتها العددية ، وفي العام ١٩٥٥ كان المجلس يضم ٣٤ عضوا يمثلون ٢٣ نقابة في اطار الاتحاد . وكانت اغلب النقابات ممثلة في المجلس بعضو واحد. وكانت اعلى نسب التمثيل هي لنقابة سواقي السيارات ونقابة عمال ومستخدمي الخط الحديدي ، حيث كان لكل منهما ثلاثة ممثلين في المجلس(٩) .

وكما رأينا فان اغلب النقابات العمالية كانت نقابات مهنية ، لكن النقابات من حيث تنظيمها الداخلي وشمولها لم تحمل سمات النقابة العامة لعمال المهنة او مجموعة من المهن المترابطة . اذ غالبا ما كانت تقتصر على تنظيم عمال المهنة في المدينة الواحدة ، ولا تتصف بصفة الشمول لعمال المهنة في البلد بأسره . ولذلك كانت اغلب النقابات بلا فروع في المدن الاخرى . ونجد ان عمال العديد من المهن منتظمون في مدينة او اثنتين ، لكنهم غير منتظمين في المدن الاخرى . بل نجد ان عمال مهنة ما ينتظمون في مدينة صغيرة لكنهم غير منظمين نقابيا في المدن الاخرى ، خاصة الكبيرة (١٠) .

الجدول رقم ٣

النقابات في ضفتي الاردن من حيث تاريخ تأسيسها ، مراكزها وفروعها وعدد ممثليها في الاتحاد العام لنقابات العمال

النقابة	مركزها	فروعها	تاريخ التأسيس	عدد ممثلي النقابة في الاتحاد
١ نقابة عمال الدخان والسجائر	عمان	لا فروع لها	٩٥٣/١٢/٢٧	٢
٢ نقابة عمال كهرباء القدس	القدس	لا فروع لها	٩٥٣/١٢/٢٩	(ليست منضمة للاتحاد)
٣ نقابة عمال البناء	عمان	لا فروع لها	٩٥٣/١٢/٢٧	١
٤ نقابة السلاخين	عمان	لا فروع لها	٩٥٣/١٢/٢٧	(زالت من الوجود)
٥ نقابة موظفي سنجر	عمان	لا فروع لها	٩٥٤/٣/٢٧	١
٦ نقابة عمال الخياطة	عمان	اربد	٩٥٤/٤/٤	٢
٧ نقابة عمال مناجم الفوسفات	الرصيفة	لا فروع لها	٩٥٤/٤/٤	٢
٨ نقابة عمال الاحذية	عمان	اربد القدس الخليل	٩٥٤/٤/١٨	٢
٩ نقابة عمال بلدية القدس	القدس	لا فروع لها	٩٥٤/٥/٣١	١
١٠ نقابة عمال المطابع	عمان	لا فروع لها	٩٥٤/٨/٤	١
١١ نقابة سواقي السيارات	عمان	اربد	٩٥٤/٨/٥	٣
١٢ نقابة عمال النجارة	عمان	اربد	٩٥٤/٨/١٤	١
١٣ نقابة عمال الفنادق والمقاهي والمطاعم	عمان	لا فروع لها	٩٥٤/٨/١٩	١
١٤ نقابة عمال الحدادين	عمان	لا فروع لها	٩٥٥/٢/١٥	١
١٥ نقابة عمال الكهرباء والميكانيك	عمان	اربد	٩٥٥/٢/٥	١
١٦ نقابة موظفي وعمال السكك	عمان	لا فروع لها	٩٥٥/٢/٢٢	٣
١٧ نقابة البنائين المعماريين	اربد	لا فروع لها	٩٥٤/١٢/٢٣	(ليست منضمة للاتحاد)
١٨ نقابة موظفي تجارة الاقمشة	عمان	لا فروع لها	٩٥٥/٢/١٥	١
١٩ نقابة عمال المخابز	عمان	اربد	٩٥٥/٢/١٥	٢
٢٠ نقابة عمال الاسمنت	الفحيص	لا فروع لها	٩٥٥/٢/١٥	٢
٢١ نقابة عمال النقافة بالخليل	الخليل	لا فروع لها	٩٥٥/٥/١	(ليست منضمة للاتحاد)
٢٢ نقابة عمال الاشغال في الخليل	الخليل	لا فروع لها	٩٥٥/٥/١	١
٢٣ نقابة عمال ومستخدمي مطارات الجيش البريطاني	المفرق	لا فروع لها	٩٥٥/٥/١	١
٢٤ نقابة عمال وكالة الغوث	اريحا	لا فروع لها	٩٥٦/٧/٢٣	١
٢٥ نقابة عمال البلاط	عمان	نابلس	٩٥٥/٨/١٦	١
٢٦ نقابة عمال ومستخدمي البلديات والمؤسسات التجارية والاعمال الخاصة	عمان	اربد	٩٥٤/٨/٥	٢
٢٧ نقابة عمال الحلاقة	عمان	لا فروع لها	٩٥٥/٩/٢٤	١
٢٨ نقابة عمال الصدف الفنيين	ساحور	لا فروع لها	٩٥٦/١/٢	(ليست منضمة للاتحاد)

المصدر : خريس والصفدي ، الحركة النقابية العمالية في الاردن ، ص ٦٢ ـ ٦٣

ولقد لعب غموض قانون نقابات العمال دوره في تأخير تشكيل النقابات فروعا لها في المدن الاخرى . اذ لم ينص على حق النقابة في فتح فروع لها في انحاء البلاد ، وظل حق تشكيل الفروع النقابية مدار جدال وصراع بين الحركة العمالية والسلطات الحاكمة لفترة غير قصيرة من الزمن ، كانت خلالها السلطة تتمنع عن الموافقة على انشاء فروع للنقابات . الى ان صدر عن وزير العدل الاردني تفسير يؤكد حق النقابات في تأسيس الفروع ، على اعتبار ان القانون نص بصورة مطلقة على تسجيل النقابات (١١) . وعلى اثر ذلك سارعت النقابات الى توسيع نطاق عملها وحثت عمال مختلف الحرف والمهن على التكتل النقابي في فروع تابعة للنقابات في المدن الاخرى ، وكانت نقابات عمال الكهرباء والميكانيك والاحذية والمخابز وسائقي السيارات

في مقدمة النقابات التي شكلت فروعا لها في المدن الاخرى ، ثم تلتها النقابات الاخرى (١٢) .

اما العلاقة بين الفروع والمراكز فقد نظمت على اعتبار ان هذه الفروع خاضعة للنظم الاساسية للمراكز . وبموجب هذه النظم يترتب على هذه الفروع ان تدفع للمراكز ٢٠٪ من وارداتها ، كما ان امناء سر المراكز يعتبرون امناء سر عامين يحق لهم الاشراف والتفتيش على الفروع التابعة لنقاباتهم .ويتمتع اعضاء الفروع بالحقوق والامتيازات التي يتمتع بها الاعضاء في مركز النقابة ، وكان يترتب على كل فرع من فروع النقابة ان يقدم للمركز الرئيسي ، شهريا ، لائحة تضم عدد العمال المنتسبين الى الفروع ، وعدد العاطلين عن العمل منهم ، واسماء مهنهم وايرادات الفرع ونفقاته (١٣) .

ومع ان العديد من النقابات كان لها فروع في المدن الاخرى ، الا ان اكثرها في تشكيل الفروع لم يزد عدد فروعه عن ثلاثة ، وهي نقابة عمال صناعة الاحذية التي كان لها فروع في اربد والقدس والخليل بالاضافة الى مركز عمان . بينما نجد ان نقابات المستخدمين والموظفين كانت في بعض الاحيان تضم ثمانية فروع ، كما هو الحال مع نقابة المعلمين والمعلمات التي كان مركزها عمان ولها فروع اخرى في اربد ونابلس والخليل والكرك ، ومعان ، وكذلك نقابة معلمي ومعلمات وكالة الغوث الدولية ، التي كانت تضم ١١ فرعا في القدس وعمان واريحا وبيت لحم والكرامة والخليل واربد وطولكرم ونابلس وجنين وقلقيلية*(١٤) .

---

* كانت الانظمة الداخلية للنقابات تعبر عن الطابع العام للتنظيم الداخلي للحركة العمالية في هذه المرحلة ، فعلى سبيل المثال كان النظام الداخلي لنقابة عمال المطابع يتضمن جملة من المواد المبسطة ، التي تنص على حق النقابة في تشكيل فروع لها في جميع انحاء الاردن ، واهدافها ، وشروط العضوية ، وصلاحيات ادارة النقابة ، ولجانها ، وكيفية اجراء الانتخابات ، واختصاصات امين السر وامين الصندوق ومراقبي الحسابات ومالية النقابة ، وامتيازات الاعضاء ، وطريقة حل النقابة ، وطريقة وضع نظامها الداخلي ، وطريقة عزل الهيئة الادارية .

ويعرف النظام الداخلي بأهداف النقابة ، التي تتلخص في تنظيم عمال الطباعة والدفاع عن مصالحهم والسعي لايجاد تشريعات تحمي العمال وتصون حقوقهم ، وتؤمن لهم الضمانات اللازمة في حالات اصابات العمل والعجز والمرض والشيخوخة . اما شروط العضوية فهي تسري على كل عامل مستخدم في مهنة الطباعة ، مقابل اجر ، ويخضع لنظامها الداخلي ، او تعرف النقابة نفسها تبعا لقانون النقابات بانها تضم مجموعة من عمال الطباعة لا يقل عددهم عن سبعة اعضاء . كما تنص شروط العضوية على اسس تحمي وحدة النقابة وعلى تشكيل لجنة تحكيم للبت في النزاعات بين الاعضاء والادارة ، ولها صلاحيات الفصل والجزاء والتأنيب ، ويحق للعامل الطعن في قراراتها الى الهيئة العامة للنقابة . وينتخب اعضاء لجنة التحكيم لمدة ستة اشهر من اعضاء النقابة شريطة الا يكونوا اعضاء في الهيئة الادارية للنقابة ، ومهمتها الفصل في المنازعات والخلافات ، وقراراتها قابلة للاستئناف لدى الهيئة العامة .

اما بالنسبة الى الانتخابات فقد نص النظام على اعلان موعدها قبل شهر كامل وتحديد

السمة الخامسة : محدودية القاعدة العمالية المنتظمة داخل الحركة النقابية العمالية

على الرغم من اتساع نطاق تأسيس النقابات العمالية خلال السنوات ١٩٥٤ ـ ١٩٥٧ الا ان الحركة النقابية ظلت تضم قطاعا صغيرا فقط من قاعدتها العمالية . كما ان كل نقابة كانت ايضا تضم قلة قليلة من عمال القطاع المهني والصناعي الذي تمثله . ففي شباط ١٩٥٥ كان عدد اعضاء ١٦ نقابة عمالية يوازي ٣٩٤٠ عضوا (اي بمتوسط ٢٤٦ عضوا لكل نقابة) وقد ارتفع عدد اعضاء ١١ نقابة من ١٧٥٥ عضوا في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٤ الى ٢٠٩٠ عضوا في شباط ١٩٥٥ . اي من متوسط ١٦٠ عضوا لكل نقابة الى متوسط ٢٨١ عضوا (١٥) .

وعلى الرغم من عدم وجود ارقام شاملة عن تعداد عضوية كل نقابة الا ان الامثلة التالية تبين وضع قسم هام من الحركة النقابية ، ففي العام ١٩٥٥ كان عدد اعضاء نقابة السواقين ٨٠٠ عضو ، وهي اكبر نقابة من حيث العضوية ، بينما كان عدد اعضاء نقابة عمال الفنادق والمطاعم والمقاهي ٣٥٠ عضوا ، وعدد اعضاء نقابة عمال الانشاءات ٣٠٠ عضو . وكانت نقابات عمال الاسمنت والسكك الحديدية والكهرباء تضم ٢٥٠ عضوا في كل منها (١٦) .

ويعود تدني حجم القاعدة المنظمة للحركة العمالية الاردنية في مرحلتها التأسيسية الى جملة من العوامل الموضوعية والذاتية ، لعل اهمها هو تفتيت قطاعات العمال والشغيلة والمستخدمين

شروط الانتخابات وموعد قبول الترشيح وانتهائه وموعد تسديد الاشتراكات والرسوم المتأخرة . كما نص على تعيين لجنة للاشراف على الانتخابات من غير المرشحين وتنظيم جدول بأسماء الناخبين والمرشحين . كما نص ايضا على ان الانتخاب يتم بالاقتراع السري ، ويعتبر الانتخاب قانونيا بحضور اكثر من نصف الاعضاء ،.واذا لم يكتمل العدد في الاجتماع الاول يعتبر الانتخاب الثاني بعد اسبوع قانونيا مهما كان عدد الحضور .

ويتضمن النظام الداخلي ضوابط لحسن سير عمل الهيئة الادارية للنقابة ، فينص على فصل كل عضو من اعضائها ، اذا تخلف عن حضور اجتماعاتها ثلاث مرات متوالية دون عذر مقبول . واذا لم يحضر في المرة الرابعة بعد انذاره يفصل وينتخب بديل له . ويحق لكل عامل مسدد جميع اشتراكاته ان يرشح نفسه بعد مضي ٣ اشهر على انتسابه للنقابة .

ويعطي النظام الداخلي حق فصل احد او كل اعضاء الهيئة الادارية بطلب من نصف اعضاء النقابة ، ويعتبر طلبهم هذا قرارا وتوجه الدعوة لانتخابات جديدة . اما حل النقابة فلا يتم الا بموافقة ثلثي اعضاء النقابة .

ويعتبر النظام الداخلي لنقابة المطابع نموذجا على بساطة التنظيم النقابي ، وعلى طابعه الديمقراطي ، واحترامه لحقوق الاعضاء دون اخلاله بسلامة ووحدة النقابة . واذا صح قول السيدين خريس والصفدي من ان النظام الداخلي لنقابة عمال المطابع كان نموذجا لما اتفقت ان تسير بموجبه معظم النقابات العمالية المسجلة في الاردن ، فان هذا يعني ان الشروط الداخلية للحركة العمالية في مرحلة تأسيسها كانت متقدمة بمراحل عن وضعها في الوقت الراهن .

بين اعداد كبيرة من المؤسسات والمنشآت المهنية والصناعية والانتاجية والحرفية ، وقلة عدد مؤسسات العمل الكبيرة الصناعية منها والتعدينية والخدمية (فيما عدا المؤسسات الحكومية الواسعة نسبيا) ، وشيوع التقاليد والروابط الحرفية والعائلية والابوية داخل المؤسسات الصغيرة ، التي تميع الوعي الطبقي والشعور بالحاجة الى التنظيم الجماعي للعمال . هذا بالاضافة الى شيوع المفاهيم البرجوازية الصغيرة والنخبوية عن التنظيم النقابي ، والتي لا تنظر الى النقابة باعتبارها منظمة جماهيرية يجب ان تضم كل العمال او القطاع الاكبر منهم ، وانما تنظر اليها باعتبارها منظمة للقطاع الاكثر وعيا من العمال ، او باعتبارها هيئة للوساطة بين العمال وارباب العمل ، تنوب عن العمال في النضال وانتزاع الحقوق العمالية ، او باعتبارها واجهة سياسية او موقعا للوجاهة والزعامة الاجتماعية والسياسية .

وما من شك في أن عداء السلطة وارباب العمل للتنظيم النقابي ، وخشية العمال من الملاحقة او الفصل من العمل كانا وراء تخوف العمال من الانتظام النقابي الذي كاد يعتبر شكلا من النشاط السياسي ، كما ان قانون نقابات العمال الذي اباح لكل سبعة عمال فأكثر تربطهم رابطة المهنة او العمل في مؤسسة واحدة حق تشكيل نقابة خاصة بهم ، افسح المجال امام الاتجاهات النخبوية للاكتفاء بتنظيم عدد قليل من عمال المهنة او المؤسسة وامام اضعاف دور ونفوذ الحركة العمالية ، من خلال قيام عدد كبير من النقابات الضعيفة وذات القاعدة المحدودة من الاعضاء .

ومع ان ضمور قاعدة العضوية في النقابات ظل سمة بارزة حتى نهاية المرحلة التأسيسية ، الا انه لا يمكن تجاهل الاتجاه المتزايد لنمو حجم عضوية النقابات عاما بعد عام . فمن الجدول رقم « ٤ » يتضح ان متوسط حجم العضوية في النقابات كان يرتفع من ١٢ عضواً عام ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ الى ١٩ عام ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ ، الى ١٢٥ عام ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ ، الى ٢٤٠ عام ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ ، والى ٢٥٨ عام ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ . وبينما كانت العضوية تتراوح بين حد ادنى هو ٧ اعضاء وحد اقصى هو ٢٨ عضوا كمتوسط العضوية عام ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ ، بات هذا المتوسط يتراوح عام ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ بين حد ادنى هو ٢٥٤ عضواً ، وحد اعلى هو ٣٦١ عضواً .

ولقد نجم عن محدودية القاعدة العمالية المنتظمة في النقابات العمالية ، سمة اخرى هامة اتصفت بها الحركة النقابية العمالية هي ضعف مواردها ووضعها المالي . فقد كانت النقابات تعتمد في مواردها على رسوم واشتراكات الاعضاء بصورة شبه مطلقة ، وكانت اشتراكات الاعضاء لا تتجاوز ١٠٠ فلس شهريا (١٧) . وكانت هذه الاشتراكات لا تكاد تغطي نفقات واجرة مقر النقابة بسبب تدني حجم العضوية . ولقد نشأت الحركة العمالية بدون اي سند او دعم مالي من السلطات الحكومية ، وظلت كذلك الى ان منحت الحكومة الى الاتحاد العام مساعدة مالية قدرها ١٧٠٠ دينار اردني خلال عام ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ (١٨) . اما مالية الاتحاد العام فقد كانت تعتمد على مساهمة النقابات الاعضاء في الاتحاد ، والتي تسهم كل منها بـ ٢٠٪ من وارداتها لتمويل موازنة الاتحاد العام (١٩) . وبشكل عام كانت واردات النقابات غاية في البؤس ، فمتوسط ايرادات كل نقابة لم يزد عن ١٧,٩ ديناراً لعام ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ ، ثم ارتفع الى ٧٥ ديناراً ثم الى ١٣٤ ديناراً ثم الى ١٤١ ديناراً في الاعوام ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦

الجدول رقم ٤

متوسط حجم العضوية في النقابات حسب نوعها للسنوات ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ و١٩٥٧ ـ ١٩٥٨

النقابات حسب نوعها	متوسط عدد الاعضــــاء				
	٥٣/ ١٩٥٤	١٩٥٥/٥٤	١٩٥٦/٥٥	١٩٥٧/٥٦	١٩٥٨/٥٧
النقابات عموما	١٢	١٩	١٢٥ ـ ١٢٦	٢٤٠	٢٥٨
نقابات الخدمات العامة	٩ ـ ١٥	١٥ ـ ١٦	١٩٩	١١١ ـ ١١٢	٢٥٤
نقابات الاعمال الكتابية	٩	٧٠ ـ ٧١	١١٦ ـ ١١٧	٣٦١	٣٦١
نقابات الاعمال المهنية	٢٨	٩ ـ ١٠	٨٥ ـ ٨٦	١٧٢	٢٣٦
نقابات الاعمال اليدوية	٧	٧	٦٤	١٨٠ ـ ١٨١	٢٩٢ ـ ٢٩٣

و١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ و١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ وكانت النقابات مضطرة لتكييف نشاطها تبعا لهذه الموارد المتدنية ، ولذلك كانت لا تعاني من العجز عن تسديد نفقاتها كما يبين الجدولان رقم « ١ » و« ٢ » . وما من شك ان هذا كان على حساب نشاطها ودورها[9] ؟

---

(١) وزارة الشــؤون الاجتماعيــة (تقريــر ستانسل) صادر عام ١٩٥٩ ، ص ٣٩ .
كذلك راجع الارقام العامة حول عدد النقابات لدى علي خريس وصلاح عبد الكريم الصفدي ، **الحركة النقابية في الاردن** ، الاردن ، ص ٦١ و٦٢/ ٦٦

(٢) راجع الفصل الثالث من هذه الدراسة والتي تبين الظروف المعيشية والاقتصادية للعمال والشغيلة في هذه الفترة . (شؤون فلسطينية ـ العدد ٩١ الصادر في حزيران ١٩٧٨) ص ٣٠ ـ ٤٣

(٣) تشكلــت نقابة المحامين عام ١٩٥٢ ونقابة الاطباء عام ١٩٥٣ ونقابات الموظفين والمعلمين عام ١٩٥٥ كما تشكلت اللجان الوطنية عام ١٩٥٥ ولجان السلم ومنظمات النساء والطلبة قبل ذلك العام .

(٤) تشكل الاتحاد العام لنقابات العمال في الاردن في عام ١٩٥٤ . راجع الفصل الرابع من هذه الدراسة المنشورة في مجلة « الحرية » (العــدد ٩١٤ ـ السنة العشرون) الصادر يوم ٧ ايار ١٩٧٩ وفي العدد ٩١٥ الصادر يوم ١٤ ايار ١٩٧٩ .

(٥) في ١٤ كانون الثاني ١٩٥٦ صدر بلاغ عن رئيس الوزراء يعلن فيه عدم شرعية نقابات الموظفين والمعلمين الحكوميين . راجع خريس والصفدي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٧ .

(٦) سنعالج اثر هذا التكوين العام للطبقة العاملة على الحركة العمالية وعلى النظرة السائدة للنقابة ووظيفتها ودورها وعلى حجمها وعلى اسلوب تنظيم النقابات وذلك في الفصل التالي المكرس لمشكلات الحركة العمالية في مرحلة تشكلها .

(٧) تتضح السمة الحرفية لنقابات الضفة الغربية من اسماء غالبيتها : نقابة عمال النقافة ونقابة عمال الاشغال وكليهما في الخليل وليس لهما فروع في المدن الاخرى ، كذلك نقابة عمال الصدف الفنيين في ساحور ، ومن فروع النقابات في الضفة الغربية: نقابة عمال الاحذية وعمال البلاط (راجع الجدول رقم « ٣ » في هذا الفصل) .

(٨) راجع خريس والصفدي ، مصدر سبــق ذكره ، ص ٦٠ ـ ٦١ . راجع ايضا الجدول رقم (٣) الذي يتضمن قائمة باسماء النقابات التي يضمها الاتحاد العام للنقابات والاخرى المستقلة .

(٩) نسب تمثيل النقابات في مجلس الاتحاد العام هي ممثل لكل نقابة لا يزيد عدد اعضائها عن خمسين واثنان اذا كان عدد اعضائها بين ٥٠ واقل من ١٠٠ عضو ، وثلاثة اذا كان عدد اعضائها يزيدون عن

٢٠٠ عضو . راجع ايضا الجدول رقم (٣) في هذا الفصل .

(١٠) قائمة النقابات التي يضمها جدول رقم ٣ مثال ساطع على اقتصار النقابات على جزء محدود من عمال المهنة وسنعود الى هذه الظاهرة في فصل قادم .

(١١) راجع خريس والصفدي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٦٢ ـ ٦٣ وص٦٦ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٧١ ـ ٨٠ .

(16) HARRIS, G.L. *People, its Society, it's Culture,* Newhaven, *1958 P)131.*

(17) *Ibid.* p. 131

(18) I.B.R.D. *« The Economic Development of Jordan»* hopkins press, Baltimore. 1957. p.245.

(19) *Ibid.* p.245.

(20) HARRIS *op. sit,* p. 132.

محي الدين صبحي

شعر الحقيقة في عصر السقوط*

افلاطون يريد شاعرا اكثر خشونة وقسوة ، ليحافظ على صحة ارواح جنوده في الجمهورية الفاضلة ـ اي ليحافظ لهم على ادراكهم السليم لنكبة فقدان الوطن ، ويحفظ لهم وعيهم من التأثير المدوخ للشعر المزوق المصقول الذي يرش العسل على الجثث المتفسخة لقتلى الغارات الاسرائيلية . ونحن لا نذهب بعيدا في هذا التأويل ، فلدينا من أفلاطون نص آخر يؤيد تفسيرنا ويوضح ما شرعه مُعين بسيسو في شعره :

ـ « نحن على استعداد لنعترف بان هومر اعظم الشعراء واول كتاب المأساة ، ولكن لا بد ان نظل على موقفنا الحازم من الاقتناع بأن تمجيد الآلهة والثناء على مشاهير الرجال هما الشعر الوحيد الذي يجب ان يسمح به في دولتنا ، لانها اذا تجاوزت هذا وسمحت للآلهة المعسولة اللسان ان تدخل ، سواء في الملحمة او الشعر الغنائي ، فلن يسود في دولتنا القانون وتعقل الجنس البشري ، اللذان لم يحظيا قط بأفضل مما نالا من اجماع عام لدينا ، وانما ستسود اللذة والالم ....

ولكن لعل الآلهة لا تعزو الينا اي فظاظة او نقص في التهذيب ، اذا أخبرناها بوجود خصام قديم بين الفلسفة والشعر » ـ (الجمهورية ١٠ ، ٦٠٧) .

قد يسامحنا افلاطون اذا وضعنا بدلا من « تمجيد الآلهة » مصطلح « تمجيد الوطن » . فبهذا التعديل تتطابق شرعتا الفيلسوف القديم والشاعر الحديث ضد « الآلهة المعسولة اللسان » ، لان هدفهما مشترك : « التعقل » عند افلاطون مرادف « للتوعية » عند معين بسيسو ، وكلاهما هدف الشعر .

التقى الشاعر بالفيلسوف لان هدف الفيلسوف كان اقامة دولة فاضلة وهدف الشاعر استعادة وطن مسلوب . فوظيفة الشعر في الحالتين ان يكون سلاحا في معركة التوعية . وحين تكون التوعية هدف الشعر لا تعود اللذة او الالم غرضا للاثارة . وشعر التوعية هو شعر الحقيقة العارية الفجة ، اي هو شعر الحكمة ، « الفلسفة » بمعناها الاصلي . وهو بالتالي خصم لدود للشعر المعسول الكلمات وخالق الاوهام .

* نشر القسم الأول من هذه الدراسة في العدد السابق .

على هدى الافكار السابقة يمكن ان نفهم كيف ان مرثية القائد المصري عبد المنعم رياض الذي استشهد عام ١٩٦٩ في حرب الاستنزاف على ضفاف قنال السويس ــ نفهم كيف تحولت هذه المرثية الى هجوم على الشعر والشعراء :

لجهنم
بالكلمة ذات القرط وذات الخلخال .
بالشاعر وربابته ، بالموال
وبسيرة فرسان بني عبس وهلال .
لجهنم .
يا أوزان بحور الشعر العلنية ...
ووقوفا في الصف
صفا واحدا

بالخوذة والسونكي
يا كل الكلمات الهاربة من القاموس
يا كلمات ما طافت حول الكعبة
او رجمت ابليس

انها الفلسفة ضد الشعر ، بل هي الحكمة ضد التزييف ، ولنقل انه شعر الحقيقة ضد شعر التزويق .

وليس عجيبا ان اقسى ثورات معين بسيسو ضد شعراء الصقل ، انما تنفجر عند الحديث عن وطن او عن شهيد لان الشاعر يكون ازاء الصدق المطلق فلا يملك الا ان يرفض كل صنعة او زخرفة او مثالية في كل اسلوب . لذلك نراه يبحث عن كلمات هاربة من القاموس ، لم تتعهر ولم تتدجن ضمن تاريخ القصور والمراسم الدينية . لان الكلمات المعسولة التي كثر استعمالها حسب الطلب ، تجعل الشاعر اشبه بالجرسون الذي يقدم لنزلاء الفندق جميعهم وجبة موحدة . يقول في قصيدة « الخروج » :

صرنا نطبخ يا « محمود » الوردة ونقدمها
في فندقنا لجميع النزلاء
فطورا وغذاء وعشاء

وتشبيه الشاعر بالجرسون يتردد كثيرا ، وخاصة في قصيدة « النقش بالازميل والرسم بالطباشير على جلد غزة »

الشاعر كالجرسون

يكتب بالشوكة فوق الصحن

يكتب ويحطم فوق الارصفة صحونه

ماذا نكتب نحن عصافير الشمع ،

المربوطة بالصمغ ،

الواقفة على أسلاك التليفون ؟

لم يبق لنا غير الارصفة وغير الجدران

واصبع فحم

لم يبق سوى الابرة والخيط ومنديل

والنقش على جلدك بالازميل

هذه سلسلة مواقف مهينة يفرضها عصر القمع على الشاعر ، فان قاومها قتل وان استسلم لها امتثل . لكن الشاعر الممتثل للتعليمات التي تأتيه من سلطة ما أشبه بالجرسون الذي يلبي طلبات الزبائن بكل ادب ودونما تعليق او تعديل . غير ان الشاعر لا يمكن ان يستمر في الطاعة ، فلا يلبث ان يحطم صحونه . الشاعر الحر عصفور طليق ، اما الشاعر الممتثل فأشبه بعصفور صمغت رجلاه على اسلاك التليفون ... الكلام يمر عبره وهو لا يستطيع حراكا . اما الشاعر اذا ابى ان يمتثل طوح به التمرد الى التشرد وحرم من وسائل الاعلام المدجنة ، فلم يبق له الا ان يكتب شعره بالفحم على الجدران . في نهاية المقطع يزداد الموقف الواقعي تعنتا ، مثلما يزداد الموقف الفني بلورة : اما ان يغدو الشاعر فتاة تتلهى بشغل الابرة ، او يبيع وطنه ويشارك جلاديه في « النقش على جلدك بالازميل » ـ أي على جلد غـزة موطن الشاعر ومسقط رأسه .

هذه المقطوعة المضادة للشعر بصورها والفاظها وجرسها ، هي لوحة تشكيلية شديدة التعبير عن العلاقة بين الشاعر والعصر : هي شعر لكنه خال من الاوهام . الشاعر لا يقطف النجوم ولا يحول شعره الى رصاص أو قنابل ، وانما هو عند معين بسيسو من يقول كلمة حق في عصر الباطل ويرضى بان يدفع الثمن . وتقرير الواقع هو فضحه وكشف الدرك الذي تردى فيه العرب . وحين تكون التوعية هدف الشعر لا تعود اللذة والالم غرضا للاثارة . وبالتالي فنحن ازاء نصوص تنقل الحقيقة البشعة شعرا عاريا فجا يصدم الوعي والذوق . وبهذه الصدمة التي يتلقاها القارىء يؤدي الشعر وظيفته ـ لانه يخرج عن طور تخدير الوعي وهدهدة الحواس

ويدخل في مرحلة تكثيف الواقع وعرضه بكل ما فيه من هوان وانحطاط ، دون اي توجيه اخلاقي او سياسي . فكأن شاعرنا حين يقذف بالواقع الدنيء أمام بصيرة القارىء يترك هذا القارىء مع وجدانه ليتساءل : هل ما سمعه حق وصدق ، فان كان حقا فما العمل ، وما هو السبيل الى تغيير هذا الواقع ؟

ومعين بسيسو يحقق في شهادته المدمرة هذه مرتبة رفيعة من التنزه الفني « ARTISTIC - DISENTERESTEDNESS » بالصورة التي نادى بها « كانت وشوبنهاور » . فقد جادل أصحاب هذه المدرسة بحق ان مهمة الفنان تقتصر على عرض الوضع كما يراه بأمانة وحياد ، لا يحق معهما حتى للفنان ان يتدخل في شرح او توجيه ، فاذا وصل العمل الفني الى المتلقي كانت نزاهة الفن وحياده اوكد أسباب المتعة في نفس المتلقي الذي يصبح بعد ذلك حرا في العمل بالاستبصار او تركه . وقد يبدو غريبا ان نتحدث عن الحياد والتنزه في نتاج شاعر كمعين بسيسو الذي يكاد ان يكون اكثر الشعراء العرب انحيازا الى تحرير وطنه وانغماسا في النضال من اجل تطوير امته العربية المتخلفة . ومع ذلك فيمكن الجزم ، دون كبير مجازفة ، بأن شعر معين بسيسو يحوز صفة التنزه والحياة الصعبة على شاعر في مثل موقعه ـ فهو بعد ان بلور رؤيته عن الواقع العربي ، وشحذ أدواته الفنية وتمكن من استخدامها كيف شاء ، اكتفى بعرض هذه الرؤية بكامل عناصرها ـ كما شاهدناها في ـ تصويره « لعصر الكلاب » ـ دون ان يستصرخ ضمائر الناس او ايديهم لتهديم هذا الواقع المتفسخ . وبذلك نجا من التوجيه والخطابة اللذين افسدا معظم الشعر العربي الملتزم بقضية اجتماعية اوسياسية . فكان ، مرة أخرى ، الشاعر الطليعي . لقد كون رؤيا عن الواقع العربي واكتفى بعرضها عرضا فنيا جيدا . وهذه هي حدود كل فنان عظيم . اما ان هذه الرؤيا مطابقة للواقع أو مجحفة بحقه أو مهادنة له ، فهذا أمر متروك للفنان كلية ولا يحق للنقد الأدبي ان يقاربه الا من زاوية المناقشة الايديولوجية ، وهي ليست من عمل النقاد بل من مهمات المنظرين وموظفي الرقابة ـ وكلا الفريقين من جماعة السلطة ولا علاقة لهما بهيكل الأدب ورسالته المقدسة .

غير ان القارىء العربي ، ومعه الناقد العربي ، لا بد ان يشعرا بالتقدير والاحترام لشاعر يملك هذا المقدار العظيم من جهنمية البصيرة ، وحرية الراي ، وشجاعة الجهر به في وجه وضع عربي تغيب عنه الديمقراطية والتنمية ، في الوقت الذي يواجه أشرس غزوة امريكية ـ صهيونية عرفها العالم المعاصر . وكما يعرف القارىء فقد بدأت هذه الغزوة المستمرة بقسم من فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ثم اتسعت خلال الثلاثين عاما التي تلتها لتشمل جميع الدول العربية في بلدان الشرق الاوسط .. ولا تزال تطالب بالمزيد من الاراضي والدعم العسكري ضد حركة التحرر العربي .

وبما أن فلسطين هي وطن الشاعر فانها أيضا موضوع حبه ومضمون رؤياه وعلامة خلاصه وخلاص شعبه من بطش الاحتلال الاسرائيلي ، وذل التشرد في البلاد العربية وباقي بقاع الأرض . غير أن العجز العربي خلال اربع حروب (١٩٤٧ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣) لم يلق في قلوب الفلسطينيين اليأس من استرداد حقوقهم المشروعة ، بل أثار فيهم روح التحدي والمقاومة ، مما دفعهم الى تنظيم مقاومتهم المسلحة .

ولئن كان في كل رؤيا فنية أصيلة جانبها السلبي ووجهها التبشيري الايجابي ، فان القصائد التي تدور حول وطن الشاعر ، فلسطين ، يمكن اعتبارها المضمون الاكثر ايجابية في رؤيا معين بسيسو ، ربما لانها هي النواة التي شع منها شعره ، وتبلورت حولها رؤيته للواقع والفن . ففي حياة الفلسطينيين ، كل شيء يبدأ من فلسطين وينتهي بفلسطين .

ولكن قبل ان ننتقل الى فلسطين ، دعونا ننهي هذا القسم من الدراسة بخاتمة قصيدة « الخروج » التي وجهها شاعرنا معين بسيسو الى صديقه « محمود درويش » حين اصبح هذا الشاعر معنا . ففي هذه الخاتمة تتركز تماما وبصورة نهائية صورة الشاعر في الواقع العربي عند معين بسيسو ، لان الشاعر القادم سوف يغادر وطنه المحتل لا ليصل الى أرض الحرية بل لينتقل من تعسف سلطة غاشمة الى واقع بيروقراطي اكثر تهديدا لموهبة الشاعر باغراءاتها ووعيدها على حد سواء :

ان علينا ان نهرب
اعرف انك عصفور طيب
والوطن جميل ،
والوطن يكون جميلا ،
حين يكون الوطن بعيدا
لكن حين يصير الوطن قريبا ،
ويصير الوطن نشيدا
ويصير الوطن مكاتب
ويصير الوطن ثعالب
ويصير الجرح « موظف »
ان علينا ان نرجف ...

فلسطين بين الشيزوفرانيا والجريان

لو تأملنا في المقطع السابق لوجدنا معين بسيسو يقول « الوطن يكون جميلا حين يكون الوطن بعيدا » . وبيان ذلك من وجهة النظر الفلسطينية ان البلاد العربية تبدو جميلة متحررة حين ينظر اليها الفلسطيني الواقع تحت الحكم الاسرائيلي . لكن هذا الفلسطيني اذا ما غامر وهاجر وجد ان الوطن العربي مؤلف من مكاتب وثعالب .. الخ .

فقد اندمجت القضية الفلسطينية في القضية العربية لان الحركة الصهيونية اندمجت في تيار الاستعمار الاوروبي ثم الاميركي ، لهذا كانت كل معركة تحررية يخوضها قطر عربي ضد مستعمريه ، هي في جانب منها معركة فلسطينية . وقد أذكى هذا التساند ، الشعور القومي عند العرب ، وزاد من الاواصر القومية الطبيعية التي أوجدتها وحدة الارض واللغة والثقافة والتاريخ ــ فوحدة المعركة نتيجة وتتويج لكل عوامل الوحدة القومية بين العرب في مختلف اقطارهم . ولهذا فلا عجب ان شاعرنا قد أصدر ديوانه الثاني « المعركة » عام ١٩٥٢ إبان الكفاح المسلح ضد الانجليز في قنال السويس ، ثم عام (١٩٥٦) ابان العدوان الثلاثي على مصر ، حين كان طالبا يدرس في القاهرة وهو في العشرينات من عمره . وقد جاءت معظم قصائده اناشيد غنيت ابان معارك القنال ثم اعادت الثورة الفلسطينية اذاعتها ابان المعارك في السبعينات :

انا لا اخاف من السلاسل فاربطوني بالسلاسل
من عاش في أرض الزلازل لا يخاف من الزلازل
لن المشانق تنصبون ، لمن تشدون المقاصل
لن تطفئوا ، مهما نفختم في الدجى ، هذي المشاعل
الشعب أوقدها ، وسار بها قوافل في قوافل

ان المرء يحتاج الى كثير من الايمان والاندفاع لكي يصيح الصيحة التي يطلقها هذا النشيد عام ١٩٥٢ ، حين كان شمال افريقيا بأكمله مستعمرة فرنسية ، وكانت اسرائيل تخلف بريطانيا في احتلال فلسطين ، وكانت بريطانيا امبراطورية لا تغيب عنها الشمس سواء في بغداد او الاردن او عدن . ومع ذلك فقد خاض العرب معركة القنال بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٥٦ ، وبزغ نجم شاعرنا منذ ذلك الحين كصوت بارز من اصوات التحرر القومي . وكانت الرؤيا واضحة في أشعاره :

فارفعوا الايدي عن أرض القناة
فبحار العالم المصطخبة
لم تعد أمواجها للقرصنة
والايادي العفنه .
ليس هذا عصر توفيق الجبان
لا ولا عصر ديغول

مونتغو مري والفلول

ليس هذا عصر نوري ـ مندريس

عصر صيادي الرؤوس

ليس ذا عصر دالاس

انه عصر جديد

عصر انسان جديد

ولدته فوق أطلال « دين بين فو » الخضاب

ابتسامات جياب

عصر باندونغ واعراس الامل

عصر خبز وعسل ...

وما ان انتهت معركة القنال حتى بدات معركة العرب ضد حلف بغداد والنظام الملكي في العراق ، وتلتها معركة العرب لتخليص الاردن من الاستعمار البريطاني .... والشاعر موجود في كل تلك المعارك يسهم فيها وينشر شعاراتها . والذين تجاوزوا الاربعين من القراء العرب يشعرون بحنين عند مطالعة تلك القصائد وبصرف النظر عن قيمتها الفنية . ففي غمار المعركة يهتم المقاتل لان يسمع الكلمة التي تشدد على أهدافه دون ان يلتفت كثيرا الى اتساقها الشكلي . وهكذا فحكم الناقد يأتي متأخرا ، وربما لهذا السبب كان الناقد مقيدا بأن يقيس نتاج الشاعر بأجود ما فيه . وهذا المقياس لا ينطبق على الادب وحده بل يسري على جميع مجالات النشاط البشري . فالعداء يسجل له أسرع شوط قطعه ، ومتسلق الجبال يذكر بأعلى قمة تسنمها ، والمخترع والاديب والشاعر انما يذكرون بالاضافات التي اضافوها على انجازات البشر ، فليس المهم ان يفرض ظرف من الظروف على احد الشعراء ان ينظم قصائد عادية ، لكن المهم جدا ان يستطيع الشاعر تجاوز هذا المستوى .

بل ان الشاعرية استطاعت في تلك الفترة المبكرة ان تومض بعض ومضات حلوة . فنقرأ في اولى قصائده المنشورة :

وأحس الطوفان وهو على القمة ... يتلو بصوته المسموع

قصة اليأس وهو يمشي ... على الارض برأس مكلل مرفوع

ونجد بالاضافة الى أناشيده الجيدة في معركة القنال ، هذا المطلع الرائع :

فمك المكبل بالحديـــد وفمـــي المكبـــل بالنشيد
صوتان للحرية الحمـــراء و في وطـــن العبيد

وفي ديوان « الاردن على الصليب » عام ١٩٥٨ بعض قصائد جميلة ، تتصدرها قصيدة تضم صورة نادرة :

أنا مصلوب أغرد

ولعمان ونابلس واربد

والى الليل الصديق

صار بيتا للمطارد

لم يجب شباكه طرقة كعب البندقية

فلا شك انها صورة رائعة تلك التي تتخيل الليل بيتا يسكن فيه المناضل السياسي فيختبيء عن عيون البنادق التي تطرق كل النوافذ ...

وما قلناه في شعره السياسي المبكر يصح ايضا في شعره الوطني . ذلك ان قطاع غزة الحق بالحكم المصري بعد قيام اسرائيل . وما لبثت هذه الدولة القائمة على العدوان ان بدأت عدوانها في حرب القنال باحتلال غزة . وبعد ان انسحبت القوات الاسرائيلية من القنال تلكأت في الانسحاب من غزة ، بل ان حكومة بن غوريون في شراهة الصهيونية للارض العربية ، اعلنت بلا خجل ولا مواربة ضم قطاع غزة الى ارض اسرائيل ، فاشتعلت في القطاع مقاومة ضارية استمرت منذ بدء الاحتلال الى نهاية الانسحاب :

قد اقبلوا ، فلا مساومة

المجد للمقاومة

لراية الاصرار شاهقة

للموجة الحمراء من صيحاتنا المعلقة

على الشوارع الممزقة

وأخيرا انسحب المحتلون الاسرائيليون من غزة ، مخلفين حقدا لا ينتهي :

حينما أرسف بالاسوار في كل مساء

ولكم مر مساء ومساء

ويحوم الليل كالطائر في منقاره خيط ضياء

لنجوم لا أراها في السماء

يفرد القلب جناحيه بعيدا ويطير

لبساتينك يا غزتي الخضراء في ليل الجحيم

وتطالعنا غزة في ايماضات عديدة حلوة معذبة خلال الديوان بأكمله ، وكذلك يافا . أما فلسطين فهي الحب والعذاب والصمود والنضال . انها الغربة والاستلاب والتصميم بالرغم من السجون والهزائم . لكننا لا نجدها مشخصة معينة كما في شعر محمود درويش الذي هو شاعر فلسطين بحق . اما معين بسيسو فيقدم لنا فلسطين عبر النضال من اجلها ، لذلك كان شعره فيها يحمل طابع الشمول العربي بالمعنى الذي نقول فيه ان النضال من اجل فلسطين مسؤولية عربية ، وعلى هذا فشعر محمود درويش اكثر اختصاصا بفلسطين ، اما معين بسيسو فقد عرب القضية الفلسطينية ، فكل حديث عن فلسطين انما يمر من خلال الضمير العربي ، ومن هنا جاء شعره اكثر تعددا في مشاهده وتنويعاته وافكاره وطرقه في الاداء . اذ لما كان كل شيء على الاطلاق في الحياة العربية لا بد ان يصب في الطاحونة الفلسطينية فقد عمد معين بسيسو الى تعميق الصبغة الفلسطينية في معالجته للقضايا العربية ، وجر هذه القضايا جرا بمختلف الوسائل الانتقادية ليسوق العرب الى تلك الطاحونة . ولهذا جاء شعره سياطا لاهبة تتعمد انتقاء اخشن الالفاظ واقذع الصور .

ان اسلوب الصدمة في شعر الحقيقة ليس موجها الى الفلسطينيين ، فهؤلاء المشردون او المستعمرون مقاتلون بطبيعتهم وبحكم موقعهم . ان التوعية عن طريق تجريح الواقع وتشريحه وتجريده من كل اقنعته واغطيته موجهة الى العرب المسترخين في اوطانهم ، والقانعين بما حققوا لها من استقلال شكلي يتيح للطبقات الحاكمة والمالكة ان تتمتع بثمار الوطن ، غافلة عن واجباتها القومية في تحقيق الوحدة العربية وتحرير الأرض العربية وتطوير الاقتصاد العربي .

ومعين بسيسو يختلف عن كل الشعراء الفلسطينيين والعرب قاطبة في انه منذ البداية الاولى – اي قبل ١٩٥٠ حين اصدر ديوانه الاول – لم يستصرخ الضمائر العربية ولم يستنجد بالحكام العرب ولم يستحث هممهم او عزائمهم . لم يكن لديه اوهام تضلله ولا مصالح تخدره ، فبدأ سيرته الشعرية خارجيا متمردا ثم انقلب الى هجاء يمر الواقع العربي ، لا بعرضه مشوها بل بزيادة تشويهه وتحويله الى مسخ كاريكاتوري يفوق الواقع – اي يقدم حقيقة الواقع . فالشاعر الخارجي حين ينفصل عن قومه ويهجوهم بأنه يفضل صحبة الوحوش وخلقياتها على صحبة قومه وخلقياتهم ، يعتقد في قرارة نفسه ان قومه خانوه دون ان يخونهم – ابعد من ذلك ، يعتقد الشاعر الصعلوك ان قومه خانوه وارادوه ان يخون نفسه ، وبالتالي فان انفصاله عنهم وهجاءه لهم هما نوع من الامانة لحقيقته الذاتية ولحقيقة القبيلة التي ينتمي اليها بينما هي لا تنتمي اليه ولا الى حقيقتها . فالشنفرى يستعيض عن اهله بمصاحبة الوحوش في البراري : الذئب القوي والنمر الاملس والضبع ذات العرف الطويل – ويقول ان هذه الوحوش هي الاهل لانها لا تذيع سر الشاعر ولا تخذله اذا اتى امرا جعل القبائل الاخرى تهاجمه وتطلب دمه ، وهو بذلك انما يعرض بقومه ويشجب اخلاقهم ويفضح تخاذلهم :

ولي دونـــكم اهلـــون : سيـــد عملس

وارقـــط زهلـــول ، وعرفـــاء جيأل

هم الاهـــل : لا مستـــودع السر ذائع

لديهـــم ، ولا الجانـــي ،بمـــاجر ، يخذل

لنقارن هذا التصور بأبيات نظمها معين بسيسو قبل ١٩٥٢ :

ايـــن شعبـــي ؟ لقـــد تذكرت اني

لي ديـــن في عنقـــه ، لي عمر

ايـــن انفاســـه تحطـــم قيدي

ايـــن ثاراتـــه ، امـــا لي ثأر ؟

فنشاهد الشاعر يندد يتخاذل قومه ويعرض بأخلاقهم . ويمكن ان نمضي في صور المقارنة الى ابعد حد ، مع التوسيع اللازم للمشهد الاخلاقي . فقد رأينا معين بسيسو يمجد صمود الشاعر ضد مغريات السلطة وضد التعذيب ، فأي شيء هذا اذا لم يكن هو ذاته الفخر الذي افتخره الشنفرى بنفسه حين ذكر خلوه من الجشع ، الى النراد واستغناءه عن صحبة قومه الجبناء ، بصحبة فؤاده الجسور وسيفه الصقيل وقوسه المتينة ؟

لقد نشأ شعر الصعاليك ، ومجتمعهم ، خارج المؤسسات فجاء ضدها . ولذلك نرى شعر معين بسيسو صداميا في الشكل والمضمون : انه لا يريد ان ينتمي الى الامة بل يريدها ان تنتمي اليه ، لذلك لن يصبح عربيا الا اذا اصبح العرب فلسطينيين ــ دون ان تحمل هذه المقولة اي معنى شعوبي ، الا بمقدار ما يكون الشنفرى او عروة بن الورد او سليك بن السلكة شعوبيين ؟

ومثلما اننا لا نجد في شعر الصعاليك صورة مفصلة متكاملة لعالم افضل ، بل نجد رفض الواقع القائم وهجرانه ومحاربته ــ اي نجد الممارسة تغلب على التصور ، كذلك فاننا في شعر معين بسيسو لا نجد يوتوبيا ولا دعوة اليها ــ شكرا لله ــ بل نجد ممارسة نضالية داخل الشعر وخارجه ، ممارسة هدامة ، تنقض البناء الشعري مثلما تنقض البناء الواقعي : حتى فلسطين لا تتجلى الا عذابا ومعاناة في سبيل فلسطين :

للذي بعدي فلسطين : امرأة

وانا لي الشهداء

كلما تنتابني الحمى ادواى بالدماء

الدم الداء وما منه شفاء

للذي بعدي السموات : امرأة

وأنا لي الانبياء

آه ما أحلى السماء

حينما يطرد منها الانبياء

يا فلسطين اللصوص الرقباء

اين من كأسك اهرب ؟

كل من مد يدا لك بالعنقود

في زنزانة الخمر تعذب

اشربي لو مرة كأسي ،

فطول العمر من كأسك أشرب

ففلسطين هنا ليست ارضا ولا وطنا ولا قضية ... انها حالة تعتري الشاعر ، مرض روحي يحيل الشاعر الى مخلوق هو في المسافة الوسطى بين المسيح المصلوب والقاتل المنتقم . لذلك لا نرى رمز المسيح او الصلب يتردد كثيرا ، فهو يستعمله مرة واحدة في قصيدة الخل عام ١٩٦٣ ، لكنه يكثر من الحديث عن « لصوص الصلبان » و(الله اورشليم) وعن كل من قتلوا المسيح لان له ثأرا عندهم .

ولكي نرى الى اي حد تشكل فلسطين « حالا » وجودية تهز كيان الشاعر فيغدو غير من نعرف ، ادعي ان اسلوب الشاعر يتغير كلما مر ذكر فلسطين . ويتضح هذا التغير بصورة ملموسة في قصائده الفلسطينية اذ يصبح اسلوبها تشكيليا . بخلاف اسلوبه في قصائده عن العصر او الشعر التي تتميز اولاها بالهجاء وتاليتها بالسخرية . ولست ترى شاعرا يمكن ان تتغير طريقته في الاداء الشعري الا اذا كان في حال وصار في حال اخرى – بالمعنى الوجودي الذي يسلم بقدرة الانسان على الانسلاخ عن نفسه وبناء ذات اخرى . او حتى بمعنى الشيزوفرانيا غير الحادة حيث لا يؤدي فصام الشخصية الى انقطاع كلي بين الشخصيتين .

لسنتجمع ما وقر في نفوسنا من انطباع عن اسلوبه في العصر والشعر ثم نقارنه بهذه المقطوعة :

العين المخلب في الغاب

تبحث عن صيد . والحدأة

شاخت ، راحت تتوكأ فوق جناحيها

نخر السوس المنقار

فهذا المطلع لقصيدة « غصن ليمون » عام ١٩٦٦ مبني على الطريقة التشكيلية في بناء اللوحة من مجموعة تفاصيل يكون كل منها وحدة بنائية ، ولو أمعنا في تأمل القصيدة لوجدناها مشكلة عن قصد على هذه الصورة الموصوفة :

يا غصن الليمون الجوال

دارت كالطاحون

على الأجنحة الأيام .

وانتحب البلبل .

فتح عينيه الطفل الميت

في البستان .

رقد على تابوت الثلج البركان .

بصق على وجه القمر الثعبان .

انتن فوق الجبل القربان

الطريقة الخشنة المتنافرة ذات المضمون الهجائي اخذت تتشكل تشكلا جديدا . صارت الصور منفصلة على شكل وحدات مستقلة لكن اجتماعها بعضها الى البعض الآخر يشكل كلا جديداً . فهنا ليس لدينا سرد عن شيء ، وانما لدينا مجموعة من الأشياء تتراكب لتشكل سياقا . هذا السياق لا يفضي بنا إلى فلسطين بل الى حالة فلسطينية كالتي تقدمها تتمة هذه القصيدة :

سكت العود

واحترق العنقود

اجراس ورود

يقرعها طفل قد عصبوا عينيه

اجراس ورود

و« اللد » على ظهرك

والنار بساط ممدود

وجراد قد حط على حقل جليد

قد تكون هذه القصيدة اوضح مثال لان شاعرنا قد وجهها الى صديقه « اسماعيل شموط » الرسام الفلسطيني ولكن معظم قصائد ديوان « الاشجار تموت واقفة » تنهج هذا النهج فيما يتعلق بفلسطين ، وهي على التوالي « الوجه الآخر للشجرة » « ثلاث كؤوس لاهل الكهف » وبخاصة المقطع الاول ، « العندليب في البئر » ، « يافا في بطن الحوت » ... وقد يخطر للمرء ان هذا النهج مجرد مرحلة اسلوبية توصل اليها الشاعر في تطوره خلال اواسط الستينات ، ولكننا نقرأ في « الاغنية المعصوبة العينين » عام ١٩٦٣ :

اين القمر المعصوب العينين يساق ؟

وسط السحب الفارغة الاشداق

اسوار تفتح وظلال عارية تركض ...

فنجد انفسنا مرة اخرى تجاه اسلوب يتشكل من صور منفصلة تقود الى الحديث عن فلسطين ، ثم تتقدم في الزمان فنقرأ اسطورة جميلة في قصيدة (الوردة والعصفور) عام ١٩٧٢

تنحو هذا المنحى التشكيلي ونجد « مجنون تل الزعتر » عام ١٩٧٥ يصيح في مطلع قل له نظير :

ما دلني أحد

عليه ، كنت فوق التل

ديوان شعر فوق كيس رمل

وقد رأيته

مرصعا بالنار والجذور طار

مرصعا بالقمح والاحجار دار

فلو أن رساما أراد ان يرسم شاعرا فوق تل الزعتر في لحظة انهياره ، ولو انه كان يريد ان يكابر فلا يعترف بأن التل قد انهار ، هل كان في وسعه ان يرمز للشاعر بأكثر من ديوان شعر فوق كيس رمل ؟ ولقداسة المقاومة باكثر من تصوير التل يطير (مرصعا بالنار والجذور) ثم يدور (مرصعا بالقمح والاحجار) ؟ وهذا الترصيع بالرموز الفلسطينية هو الذي يجعل تل الزعتر ارضا فلسطينية على تراب لبنان بالقرب من بيروت بل ان (دائرة الطباشير الفلسطينية) تمعن في التشكيل حتى تقف نفسها على تفسير الالوان . هل نحن بحاجة الى المزيد من البراهين على هذه الحالة العجيبة في اسلوب الشاعر ؟ ان بين القصائد الاولى التي ظهرت فيها هذه الحالة وبين اخر قصيدة في الديوان اكثر من عشر سنوات صنع فيها الشاعر عشرات القصائد التي تختلف في اسلوبها عن الاسلوب التشكيلي ، ولكن هذا الاسلوب يلح على الشاعر فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني ، فنقرأ في آخر القصائد ، وهي مرثية بعنوان « سورة يوسف سلمان » :

دخلت زنزانة يوسف سلمان

كانت الى جواره

غزالة حبلى وضعت رأسها

على ركبته ،

كان يوسف سلمان

قد شق فلذة من قميصه

يبلها في بقية من رذاذ البرق

في كفه ،

ويمسح وجه الغزالة

اما بقية المرثية فتفصيل لهذه اللوحة .

على العموم ، فيما يتصل بموضوع انقسام الشخصية ، فان قصائد الشاعر تدل على

مقدرة فذة لديه في تخيلُ نفسه في طرف ومراقبتها الواعية من طرف اخر ، فكأن المتكلم شخص بعيد كل البعد عن الرجل الآخر الذي يتحدث عنه . من الامثلة الواضحة على هذه الابداعية ـ فنحن حتى حين نستعمل مصطلح « الشيزوفرانيا » لا نريد به المصطلح الطبي ، وانما نبتغي منه ان يساعدنا على جلاء حالات الابداع لدى الشاعر ، لان وضعه الشخصي لا يهم النقد كثيرا في صحته النفسية او ترديها ـ قصيدة « الى طفلتي دالية » عام ١٩٦٥ وهي تنقل الينا حلم الشاعر المنفي بأن يمضي الشتاء في صحبة ابنته ، لكن هذا الحلم البسيط مستحيل ... استحالة حلم مشنوق ان تلمس قدماه الارض ثانية ، اي ان يعود الى الحياة :

وكمصلوب يحلم

لو تلمس قدماه

الارض النائية كنجم

لو يمشي

لو يسمع وقع خطاه.

انا احلم بشتاء

انا احلم نمشي

كفك شعلة برق

في كفي شعلة أزهار

تحت الامطار ...

فلولا قدرة الشاعر على ان يرى نفسه في موقع المشنوق الذي اصبحت الارض تحت قدميه أبعد من النجم ، لما استطاع أن يقدم الينا هذه الصورة التي تعطي معادلا موضوعيا لحالة الشوق التي يحس بها الى ابنته مع استحالة اشباع شوقه . ان هذه القصيدة التي تعود الى اواخر الخمسينات مكتملة الملامح . لان الشاعر الاصيل لا يتغير بل يلد كاملا مثل الوليد البشري الذي يخرج من رحم أمه كامل الاعضاء والسمات والطباع . كل ما يفعله له الزمان انه يعطيه الفرصة ليستكمل نضجه ويبلغ اشده . والذين يتحدثون عن تطور الشاعر أو تغير الشاعر أو تحولات الشاعر لا يدركون ان الشاعر يخرج عن اصالته حين يبدل صوته . فكل الفرضيات الاساسية يجب ان تكون متضمنة في نتاج الشاعر الاولى ، ثم تتخلق وتتفرع بفعل التجربة والممارسة والثقافة . وقد تكون من شهادات الاصالة النادرة ان نجد في اول قصيدة منشورة هذين البيتين اللذين يدلان على الفصام :

أنـــا في النهـــر صورة كسرتها
يـــد اعمـــى ، خيالــه لماح

فتماســـكت عالقـــا بظلالي
وهـــي تطفـــو كأنهـــا الواح

فقد وقع في النهر ووقعت معه صورته . الا ان الصورة انكسرت فتعلق هو بظله بينما سارت صورته مع الماء مبتعدة عنه . كم تشبه هذه التهويمات اضغاث الاحلام ، او احلام اليقظة حيث يرى المرء نفسه يقوم بأعمال ويدلي بأحاديث بينما يكون جالسا في محله على مقعد في حديقة او مدرسة او وظيفة . ان احساس الشاعر بالحياة كجريان جارف ، يذكي الفصام بين ذاته الراقدة الصلبة وصورته المتكسرة . اما كفاحه لكي يطفو ويظل على قيد الحياة وسط الجريان فهو كفاح الفلسطيني الذي يلاحق صورته لئلا يذهب بها النهر الجارف . فهو دائما منفصم بين قاتل ومقتول ، ثابت ومجروف :

هذا انا ...

آخر متراس هوى

وآخر الاسرى أنا

وآخر الجرحى انا

وآخر القتلى انا

وآخر القراصنة

لكن بعدي البحار لن تكون آمنة

عام ١٩٧٣

ومع الازدواج في الصورة عن الذات بين الضحية والجلاد ، نجد صورة النهر والبحر والمراكب .. وقد نجد دليلا على الجريان صورة السحاب المتلاشي والشمع الذائب ، اشارة الى تقلب الاحوال في زمان غير مستقر على حال لكنه يتطلب صراعا دائما :

أبعدي عن وجهي الشمعة

ذاب الشمع غطاني

وما غطى فمي

ابعدي عن وجهي الموجة

ذاب الموج غطاني

وما غطى دمي

آه اعطيني قطرة حبر واتركيني

للسكاكين التي تعرف عنوان عيوني

آه اعطيني قطرة حبر واقتليني

ايها المركب ميناؤك قد كان وما زال ... جبيني

ايها المركب فوق الجفن واقف

لم ازل فوق دمي

يا ايها المركب واقف

وبدون تطويل في الاستقصاء يمكن القول ان صور المياة المتحركة تعطي الاحساس الفلسطيني بجريان الاحداث في الزمان ، اما المياه الاسنة فغالبا ما تدل على ركود الزمان العربي .

هذا هو عالم معين بسيسو ، خشن ، فج ، منغلق على صراع دام وهمجي ولا نهاية مرتقبة . خال من اي تعلل بالاماني ، من اي وعد بشري او الهي . فهو مثل الامر المطلق « الكانتي » ، جزاؤه في فضيلته ذاتها وليس في شيء خارج عنها ، تخوض الصراع ، تثبت في المعركة ، فتنتقل الى صراع آخر ومعركة اخرى الى ان تموت ، فينبت مقاتل آخر يحتل مكانك . هذا ما بدآ به معين بسيسو شعره في نشيد المعركة عام ١٩٥٢ :

أنا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح

واحمل سلاحي لا يخفك دمي يسيل من السلاح

وانظر الى شفتي اطبقتا على هوج الرياح

وانظر الى عيني اغمضتا على نور الصباح

انا لم امت ، انا لم ازل ادعوك من خلف الجراح

وهذا ما انهاه في ديوانه الاخير في قصيدة « مجنون تل الزعتر » عام ١٩٧٥ التي لا ينتهي اعجاب الناقد بالحمى والجنون فيها :

ايها التل العظيم هذي لحظة انتصارنا

فكلما تساقر السكين في رقابنا

تخرج الاشجار من اجسادنا

وبين هاتين القصيدتين على مدى ربع قرن عشرات القصائد تؤكد حقيقة واحدة : المعركة مستمرة ، سواء اكان الشاعر (في الطريق الى الزنزانة) عام ١٩٦٦ :

أنا الآن بين جنود الطغاة

انا الآن اسحب للمعتقل

وما زال وجه ابي ماثلا

أمامي .. يسلحني بالامل

وأمي .. وأمي ... أنين طويل

ومن حولها اخوتي يصرخون

ومن حولهم .. بعض جيراننا

وكل له ولد في السجون

ولكنني رغم بطش الجنود

رفعت يدا اثقلتها القيود

وصحت بهم : انني عائد

بجيش الرفاق ... بجيش الرعود

او كان يحتمي من خطر داهم فيختبيء :

هكذا التقينا ...

لم يكن لقاؤنا مصادفة

قد كنت خائفا

وكنت خائفة

لكنه يظل يترقب قدوم قاتليه :

سيعودون ، فما زالوا هنا

أنت في قائمة القتلى ، وفي قائمة القتلى أنا

....

يصعدون الدرج الآن ، تركت الباب مفتوحا لهم

....

وصلوا الآن ، تركت الباب مفتوحا لهم

ولكم

انا لص وطني ، انا عاشق

اطلقوا كل البنادق ...

هذا العاشق ، عاشق حتى الشهادة ، بلا هوادة :

وطني

انك تعرفني ...

أحملك ، أحبك في صدري سعفة نخل

واحبك في صدري سكين

وأحبك في ظهري سكين

واحبك في عنقي غصنا من ورد

واحبك في عنقي سكين

هذا الحب في كل الحالات لوطن ضائع ، يوازيه كره في كل الحالات لاي انتماء أخر . تبدأ هذه الحالة للشعور بالحرمان. فالفلسطيني محروم مما يتمتع به الآخرون :

كل الرايات المنفية قد عادت

يا وطني

الا رايتك المنفية من افق

ترتحل الى افق

(١٩٦٣)

ولكن هذه الراية لم تضع ولم تتلاش :

ما زال من الراية خيط

ينمو في ريحك يا وطني ...

مشكلة هذا الشعور بالحرمان انه يزداد ويتكاثف على مر الايام :

جرس التليفون يرن

الو ، الو ، الو ،

لكن الاسلاك تقهقه

في وجهي يا وطني

محروم من صوتك

محروم من صرخة ميلادك

محروم من صرخة موتك (عام ١٩٧٠)

ومع هذا الشعور المستمر والملح بالحرمان ينشأ رفض لاي انتماء آخر :

أخاف ان اسير تحت الساريات·

فالرياح عاصفة

اخشى سقوط ساريه

تقتلني ، اخاف ان اموت

تحت علم غريب

اخاف ان اموت تحت علم

أرفض كل خيط فيه

يا الهي الكبير

يا وطني

يا قمرا محنطا صغير

احمله في حقيبة السفر

فما يراه الآخرون سواري ترتفع عليها الاعلام يراه الشاعر الفلسطيني ادوات تهديد له بالقضاء عليه . وقد تبدو مضحكة ملاحظته « اخشى سقوط سارية » لاعتمادها على الوسواس اكثر من المنطق ، غير ان حدة استجابة الشاعر للرموز الوطنية تتساوى مع شعوره بالغربة والاستلاب ALIENATION :

والقبرات يا محمد

صديقة وفية لكنها من غير ذاكره

تظل طول عمرها مهاجره

تبيت في عش بناه غيرها

ترقد في كفن

من نسج غيرها

بعيدة عن الوطن عام (١٩٦٩)

والكفن في شعر معين بسيسو ، رمز المصير او هو المآل الى الوطن ، تعبيرا عن الرغبة الغريزية عند الانسان في ان يدفن بين أهله وأجداده ، وهي الرغبة التي فسرها يونغ بأنها رغبة العودة الى الرحم ، ولا يبدو هذا التفسير مصيبا ، فالرغبة في الوطن وفي ان يستقر فيه حيا وميتا بين أهله رغبة اصيلة لا تحتاج الى احالة خارجية لتفسيرها :

لو كان لي وطن

لكان لي كفن

اما حساسية الشاعر تجاه الرموز الوطنية والالوان التي تمثلها فتقترن الاستلاب بالذل :

الآن دمشق

لن أصبغ باللون الازرق عيني

لن أصبغ باللون الازرق كفي وقدمي

لن أصبغ باللون الازرق جلدي

يكفينا موتا بين اللون الابيض

واللون الازرق

فاللون الازرق لون العلم الاسرائيلي . اما اللون الابيض فهو لون الهزيمة والاستسلام . والمقطع جزء من قصيدة بعنوان « جنديا كان الله وراء متاريس دمشق » نظمها الشاعر في دمشق ابان حرب سوريا ضد اسرائيل عام ١٩٧٣ . وفيها نتنسم ريح الخلاص نوعا ما . يقول الشاعر لبردى :

حين الاربطة البيضاء

سقطت عن قدمك ، ومشيت على وجه الصخر

على وجه الماء

كان الله على شاطىء حيفا

يصطاد السمك لاطفال فلسطين

ويصرخ من هول العشق

ستجيء الآن دمشق

مثل هذا الاحساس بالانجاز ــ وليس بالخلاص ــ نجده في قصيدة « الرصاصة الاولى » عام ١٩٦٩ وهي القصيدة الموجهة الى حركة فتح والمستوحاة منها . ولكي نعرف مدى ايمان معين بسيسو بالشعر والشعراء ، يجدر ان نلاحظ ان معظم هذه القصيدة التي تمثل ميلاد المقاومة الفلسطينية المسلحة وتحتفل به ، عبارة عن محاجة مع بقية الشعراء ينعي عليهم فيها مذاهبهم ويدعوهم الى مذهبه في قول الحقيقة . في نهاية القصيدة يعتبر ان مذهبه انتصر ما دام قد وجد الثوار الذين يقولون كلمته ويرون رأيه :

فلننزف يا « فتح »

سنموت اذا ضمدنا الجراح

وليصبغ دمنا كل زجاج شبابيك العالم

وليصبغ وجه العالم

هذا العالم

فلنغرس تحت وسادته اصبع ديناميت

ما دمنا يا « فتح » على الاسلاك الشائكة نبيت

لن يتمدد هذا العالم فوق سرير

هذا العالم اكل طويلا لحم فلسطين

بالشوكة والسكين

الفرادة تعلو على الاصالة

في الابيات السابقة نجد معين بسيسو يدعو الفلسطينيين الى معاملة العالم بالفظاظة التي عاملهم بها . فيما يتعلق بالشاعر نفسه فقد طبق هذا المبدأ منذ ان قال الكلمة الاولى في شعره . فهذه الخشونة والفظاظة التي تميز الشكل الشعري عنده ليست سوى انعكاسات لما رآه من فظاظة العالم . وهذا الشكل المنفلت من كل القيود تعبير عن حيوية داخلية مذهلة ، عن حرية مطلقة يمنحها الشاعر لنفسه دون انتظار موافقة من اية مؤسسة في الفن او الايديولوجيا . فأنت لا تستطيع ان تجد معين بسيسو في كتاب احمر او بيان فني كان قد شرح لغيره . كيف ينبغي على الشعر ان يكون وهو يخاطب لينين باللهجة التي يخاطب بها عبد الناصر باللهجة التي يخاطب بها القراء والشعراء . يحدث الجميع عن الحاضر ويقدم لهم الحقيقة دون شروح ولا تنظيرات . وهو حين يعرج في لفتات قليلة ، الى التراث العربي ينتقي منه شعر الاعراب السذج ، كما في تضمينه لجملة « كما ترى » في قصيدة « رسالة في زجاجة الى جمال عبد الناصر » ــ فهذه الجملة مقترضة من أحد الاعراب وتروى عادة للتندر ، لكن معين بسيسو وضع فيها الواقع العربي كله :

نحن كما ترى

والبحر هائج كما ترى

وخلفنا المطاردون مثلما ترى

مما يدل انه شاعر زنجي عن وعي بعد أن تزنح بالغريزة ، ومن علائم الاتساق بين رؤيته ومذهبه في القول الشعري ان تحديقه الطويل في الواقع العربي لا ينعكس في شعره بقول الحقيقة فقط ، وبتغليب صيغة الحاضر على ما عداه من الازمنة ، وانما تراه ايضا في انعدام اية بلاغة متأنقة . فمعظم تعابيره كلامية مأخوذة من الكلام الذي يدور بين الناس ، والشعر لمح ينبثق من وسط هذا الكلام بالذات مثلما ينبثق من تكوين المواقف . وهذا كله يمنح بناء القصيدة فسحة واسعة تستوعب فيها كل ما يخطر للشاعر من رؤى ومضامين . بل انك ترى هلهلة النسج واضحة في الابيات وضوح واقعية المفردات المستخدمة لرسم الصور ، ثم يأتي تراكب الجمل وتقطعها ليضيف الى الاستطرادات صعوبة المتابعة ، بحيث لا يستسيغ القصيدة الا احد شخصين : مستمع في احتفال جماهيري يستجيب للاداء السريع للصور والافكار المباشرة ، ثم لا يحفل بعد ذلك بتفاوت الايقاعات وتراكب الجمل ، او ناقد يقرأ القصيدة مرات ثم يضعها في السياق الفني للديوان بأكمله . وهنا تكمن صعوبة كل شعر يخرج عن الحد الاوسط المتعارف عليه في عالم الادب المتداول . وهذا لا يعني ان في وسع ناقد ان يرد هذا الشعر بوصفه شعرا هاربا من الناحية الفنية ــ ولكن صعوبة تقبله وتبريرها بمقاييس الادب الشائع يصرفان الاهتمام عن هذا النوع من الشعر بعد اذاعته على الناس . من هنا انحصر تاثير الشاعر في

طبقتي الجمهور الواسع والشعراء الشبان الذي دهشوا للمفارقات المسرحية واستجابوا للروح المأساوية وآمنوا بضرورة استمرار المعركة . ولكن جفاف اللفظ ، وعاميته احيانا ، وخشونة التركيب والابتذال المقصود في الصور مع القدرة على تنقيتها وتصعيدها الى ارفع الدرجات الفنية ... ولكن كل ذلك يضعهم على حافة الخطر فهذا شعر لا يمكن تقليده لانه مفصل على قياس صاحبه ورؤيته للعالم .

ومع ذلك ،وبالرغم من الحيرة البادية التي يوقعنا فيها مثل هذا الشعر الفريد ، لا بد من التساؤل : اين التفاوت ، اين الضعف في النسيج ، واين تسقط القصيدة واين تستجاد ، ما دام هذا التركيب الخشن يفرض نفسه على مخيلتنا بشكل آسر ؟ والجواب هو انه لا يمكن محاكمة الديوان ككل ، لانه في هذه الحالة سيفرض نفسه ويعتبر عصيا على النقد . لا بد من مناقشة نقدية لكل قصيدة بمفردها لان القصيدة الجيدة فيه لها فرادتها البادية في اتساق الصور واحكام البناء ، على الرغم من ان طريقة الغوطية GOTHIC - STYLE تتسع للتفرعات والاستطرادات والشذوذات . لكن هذا لا يمنع ان تأتي القصيدة في النهاية وحدة مكتنزة كأنها افرغت في قالب ، فلا وهي في مبانيها ولا انقطاع فكريا في معانيها ولا تركيب ذهنيا في صورها . فشتان مثلا بين قصيدة « أ ، ب » وقصائد : « الى رامبو » حيث يغلب التصور الذهني ، و« اغنية الى سمرقند » حيث تقع القصيدة في السرد وتفتقر الى اللمحات الشعرية التي يجب توفرها لتميز الشعر عن السرد القصصي ، و« ثانيا » حيث الفكرة تحكم القصيدة ، وبعدها « قصيدة على اوراق البردى » حيث تخفق الاسطورة في التحول الى صورة معاصرة بسبب كثرة الاستطرادات التي تتحول الى حشو هو عبء على القصيدة يبتعد بها عن الهدف ، اي يقلل من تأثيرها ، كذلك فان قصيدة « مليكة المراكشية » تنوء بعبء التطويل الذي جعل التماعات الشعر تكاد تغيب في لهاث البوح الذي يمزج بين السيرة الذاتية والتاريخ العام . في حين ان قصيدة « الغزالة » اكثر تماسكا لان الشاعر اقل اندفاعا ، على ما يبدو . ولكن الناقد يجد نفسه في شك من صحة احكامه ، لان هذه الاحكام مستمدة من مقاييس الشعر المصقول . اما الاحكام الفعلية فينبغي ان تنشأ من المقارنة بين قصيدة وقصيدة ، فنوازن بين القصائد السابقة وبين قصائد ذات جودة لا تدفع ، مثل بعض القصائد التي درسناها من ديوان « الآن خذي جسدي كيسا من رمل » عام ١٩٧٥ ، حيث كان الشاعر في احسن حالاته الشعرية ، ولا ريب في ان هذا الديوان قمة انتاجه اذا اعتبرنا الفمة الاولى في ديوان « قصائد على زجاج النوافذ » عام ١٩٦٩ حيث تبلور اسلوبه وظهرت ملامح نضجه التعبيري والرؤيوي منذ القصائد الاخيرة في ديوان « الاشجار تموت واقفة » عام ١٩٦٦ .

ان المقارنة بين القصائد ذاتها تستطيع ان تمنح الناقد معيارا لتخليص الجيد من الاجود في هذا الشعر الاشعث الذي يتأبى على الاختيار الدقيق . ولكن من الصعب الاحتكام الى اي مقياس خارجي للشعر المألوف . وهنا تكمن فرادة الديوان ، بل وصعوبة ان يكون له اتباع ، لان كل تقليد معرض للانفضاح ان كان مباشرا وللسقوط ان كان محاكاة . فالتعلق والتسلق على الشعر المصقول ايسر بكثير منه على الشعر الخشن ، لان النمط الاخير اذا لم يفلح في انشاء سياق عريض من الوقائع والسخرية والتحدي والمواقف المسرحية والحيل البهلوانية يسقط سقوطا ظاهرا جدا .

ان معين بسيسو يرتكب كل المحرمات التي يتجنبها الشعر العربي الحديث ، فهو مباشر ، فج ، غير رمزي ولا اسطوري ولا فكري ولا عاطفي ولا صوفي ولا بروليتاري ولا حتى فلسطيني بمقاييس القواميس والكليشهات الجاهزة ـ انه الشعر الذي يورد كل تلك العناصر بشكل مضاد فيتفرد ويأتي حاملا الينا كل الزمن العربي الرديء دون مواربه ولا تصعيد ولا تعال ولا توجيه . كل ما فيه انه خبيث مختال في التفافه حول الواقع واستخلاص حقيقته المنفردة ثم ادائها بشكل صادم مكهرب .

شعر معين بسيسو ليس شعر الواقع بل شعر الحاضر الذي يهدم الحاضر ثم يدهش حين يجد انه شق بعمله هذا طريقا الى المستقبل لاحبة :

تفاجئني الارض ، إن الشجر
يخبيء اسلحة ، والقمر
يقوم بطبع المناشير ...

× × × ×

تفاجئني الارض ، ان الحجارة
تقاتل ، والانظمة
بنادقها ملجمة

× × × ×

تفاجئني الارض
هذي اصابع كفي
اقلام مدرسة في رفح
والوان طفل على شط غزة
يرسم عكا
ويرسم في كفه الكرملا
ويرسم في كفي القسطلا
ويعلن اضرابه الاولا

... فهذه هي البشارة ، وهذا هو النصر : ان يستمر النضال من جيل الى جيل بلا هوادة .

تلك هي ضمانة الثورة لا من اجل فلسطين وحدها بل لخلق امة عربية متحررة موحدة .

كتب معين بسيسو في مقدمته التي مهدت سبيلنا الى عالمه المقلم الاظافر ـ كتب يقول :

« في كل ثورة كبيرة هناك شاعر كبير ، انه قبلها يكون ـ تكون فيه ـ وبعدها يكون ـ يكون فيها ـ » والثورة الكبيرة تكون ثورة شاملة لكل مجالات الحياة ، فتنجب شعراء تتعدد رؤاهم وأساليبهم بتعدد مجالات الثورة وتستشرف المستقبل نحو البشارة .

سامي اسماعيل :
فلسطيني أميركي في سجون إسرائيل

سامي اسماعيل شاب فلسطيني يحمل الجنسية الاميركية ، ومن مواليد العام ١٩٥٤ في بروكلين ـ ولاية نيويورك ، امه رسمية رضوان من دير ياسين حيث جرت المذبحة الشهيرة وجرح فيها خاله واعتقل جده ، ثم انتقلوا الى البيرة قرب رام الله . وهو طالب دراسات عليا ومعيد في قسم الهندسة الكهربائية بجامعة ولاية متشيغان . توجه الى فلسطين المحتلة في ١٩٧٧/١٢/٢١ لزيارة والده المريض واعتقل في نفس اليوم حتى افرج عنه في ١٩٧٨/١٠/٢٠ بعد حملة تضامن عالمية معه . دافعت عنه المحامية اليهودية فيليتسيا لانغر عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » ، اثناء اعتقاله ومحاكمته في « اسرائيل » .

سامي اسماعيل . شاب متواضع وصادق يتكلم بلهجته « البيراوية » ، نسبة الى مدينة البيرة ، بطلاقة الفلاحين الفلسطينين ، ويعتذر لي عن لغته العربية الضعيفة ، وهو يتقن الانجليزية بطلاقة تامة اكثر من العربية .

حضرت المحامية لانغر الى صوفيا ، العاصمة البلغارية ، لتزوج ابنها ميخائيل الذي يدرس الاخراج السينمائي في المانيا الديمقراطية .وحيث ان زوجة ابنها بلغارية فقد تم العرس في صوفيا ، وقد لبى سامي اسماعيل وتيري فيلنر الدعوة التي سبق ان ارسلتها فيليتسيا لهما لحضور العرس فحضرا من الولايات المتحدة الاميركية . ذلك ان لانغر تعتبر سامي ابنها الثاني وسامي يعتبر فيليتسيا امه الثانية . حدث هذا في السجن حين قال لها : انني اعتبرك امي فلا تتركيني لهؤلاء الذئاب ،وقالت له : انك ابني . وقد صدر كتاب جديد للمحامية لانغر بعنوان « من مفكرتي » اهدته إلـى « ولدي ميخائيل وسامي » . ان الاهداء يرمز الى امكانية التعايش الفلسطيني مع التقدميين اليهود ولكن هذا التعايش يصطدم بالجدار الصهيوني اي « دولة اسرائيل الصهيونية » كما تبين ذلك معظم قصص كتابها .

قلت له: دعنا نسجل قصتك .

قال لي: اولا وقبل كل شيء . ان تجربتي لا تقاس من حيث المعاناة بما عاناه ويعانيه شعبنا في السجون . لقد عرف الناس بقصتي بسبب حملة التضامن معي كاميركي ، بينما هناك الالاف في السجون الذين لم يذكرهم ولا يتذكرهم احد . بل ولم تكتب عن بطولتهم الحقيقية اية كلمة . ولهذا هل تسمح لي ان ابدأ الحديث بالقليل القليل عنهم ، قبل ان اروي لك قصتي .

ـ بالمناسبة كان حديثنا هذا يجري عندما نشرت الصحف ووكالات الانباء اخبار محاكمة البطلين الشابين حسين فياض وخالد ، بطلي « عملية تل ـ أبيب » التي استشهد فيها ١١ مناضلا في آذار ١٩٧٨ وقبل الغزو الاسرائيلي للجنوب .

وفجأة قال لي سامي : هل تعرف ... انني اعرف حسين وخالد ؟

قلت له : في السجن طبعا .

قال : نعم . اثناء « الفورات » القليلة في باحة السجن او في التواليت كنا نلتقي .

قلت له : فلنبدأ الحديث عن حسين وخالد .

قال سامي اسماعيل :

... القوارب الفلسطينية الثلاثة تقل ١٣ فدائيا . من المقرر ان يصلوا الى الهدف المحدد خلال ساعات قليلة . ساروا على لجة الماء تتقاذفهم العواصف . الرحيل من بيروت الى حيفا شاق وصعب « والمنفى مهنة صعبة » ايضا . انه الرحيل الى ارض الاجداد والآباء . سيشمون عطر البرتقال من الكرمل الساحر الى شاطىء غزة . تاهت القوارب الثلاثة في البحر الابيض المتوسط ، قالوا للمتوسط : حتى انت يا متوسط تتآمر مع الاعداء علينا . ضاعوا في عرض البحر . لم يروا سوى السماء والماء . انقلب احد القوارب في البحر . كان مليئا بالذخيرة والطعام . غرق بطلان في اعماق البحر . بقي معنا قليل من السلاح والمؤونة . بقينا في الماء مدة يومين ونحن لا نعرف اين سنتوجه . لم نخف على الاطلاق . لقد اصابنا نوع من القنوط ، فنحن لا نعرف اين نحن . ظل بعضنا بدون سلاح ، ولكن لا بد من حيفا وان طال السفر .

بعد يومين من العذاب شاهدنا نوعا من السمك يجري اسرابا باتجاه ما . هتف احد الرفاق : هل تعرفون ، ان هذا السمك لا يمشي الا باتجاه الشاطىء . ساروا وراء هذا السمك (لقد ذكروا اسمه لي ولكنني نسيت) وهم يطلقون الاعيرة النارية في سماء المتوسط ولم يروا انسا ولا جنا رغم اطلاقهم النار .

وفجأة صدق السمك ولاح الشاطىء الحبيب . فهبطنا اليه .

لم نعرف اين نحن . وجدنا سيارة فامتطيناها باتجاه ما .

قمنا بدوريات استطلاع ، بينما ظل آخرون ينتظرون .

لقد عرفنا اين نحن الآن ، اننا في الطريق المؤدية الى تل – ابيب.

نصبوا حاجزا – على الطريقة اللبنانية – وانتظروا . جاء باص كبير محمل بجنود البحرية كما يبدو من ملابسهم . اوقفوه . جاء باص آخر اوقفوه ايضا وربطوا الباصين معا . ثم نقلوا ركاب احد الباصات الى الباص الآخر . كان معظمهم من ضباط البحرية ، واتجه الباص الى تل –أبيب.كنا احد عشر ولم نكن جميعا مسلحين . مررنا على مراكز للشرطة فاطلقنا عليها النار . بعد ان اطلقوا النار على مراكز الشرطة عرف العدو بالخبر فحضرت عشرات السيارات العسكرية وطائرات الهليكوبتر وطوقوا الباص . اعلن الشباب بالمكبر ، ان هدفهم سلمي وهو اطلاق خمسة فدائيين في السجون مقابل اطلاق الرهائن . وضع الاسرائيليون عدة حواجز ، ورفضوا الرد على المطالب . كرر الشباب النداء: اننا لا نريد قتل احد ، فقط نريد اخراج خمسة من الفدائيين ولسنا مسؤولين عما سيحدث فالقرار في ايديكم . لكن الاسرائيليين رفضوا .

فجأة وبينما نحن نعلن طلبنا بمكبر الصوت ، اطلق الاسرائيليون النار على عجلات الباص فـ « بنشروه » . وفجأة قذفت طائرة هليكوبتر قنابل مسيلة للدموع . كرر الشباب النداء فأعلن الاسرائيليون رفضهم واستمروا في اطلاق القنابل والعيارات باتجاه الباص . وحاصروا الباص من جهاته الاربع . وحدث ارتباك شامل . حاول بعض الجنود اصطيادنا من الباب ونوافذ الباص فلم يفلحوا . حينئذ قمنا بتفجير الباص بمن فيه وكان معظمهم من جنود البحرية .

استشهد الشباب جميعا ما عدا حسين وخالد . جرح خالد برصاصة في كتفه من رصاص الجنود الذي اطلقوه كالمطر على الباص . جرحت « دلال المغربي » فحملها « حسين » الى خارج الباص . احاط الاسرائيليون بحسين وخالد . طلب حسين اسعاف دلال المغربي ، رفض الجنود . لفظت دلال انفاسها الاخيرة . حسين وخالد بلا

سلاح . قبض الجنود عليهم* وجرى استجوابهم على الفور .

ضابط كبير سأل خالد كم عددكم ؟ فأجاب : ١١ .

ثم سأل الضابط « حسين » كم عددكم يا كلب ؟ فأجابه : ٢١ .

فسأله : اين الباقون . قال له حسين : توجهوا الى مدينة تل ـ أبيب ». حينئذ صعق الاسرائيليون (نشرت وقتها الصحف ووكالات الانباء خبرا يقول باستمرار الاستنفار العام في الجيش الاسرائيلي بحثا عن « المخربين ») وفعلا اتجه عدد من الجنود باتجاه المدينة بحثا عن الفدائيين ألوهميين ، بينما حاصر ما لا يقل عن مائتي جندي وضابط ـ حسين وخالد ـ وبعد ثلاثة ايام من التعذيب اعترف حسين ان العدد هو ١١ كما ذكر زميله خالد .

وظل خالد ينزف دما طيلة التحقيق ، ورفضوا علاجه الا باطفاء السجائر على جرحه .

يقول سامي اسماعيل : لا تستغرب . ذات مرة . جاؤوا بمعتقل فلسطيني كسرت يده من انفجار لغم ، وكانوا يرفعون يده المكسورة ويضربونه عليها .

واضاف سامي : كنت اثناء العملية في سجن « كفاريونا » . يومها منعوا عنا سماع الاذاعة الاسرائيلية واقفلوها نهائيا . منعوا الفورة منعوا الطعام . اقفلوا ابواب السجن بشكل كامل . ولكننا تسلقنا الجدران وشاهدنا من بعيد الحواجز في المدينة ولم نشاهد بشرا على غير العادة وتسرب لنا الخبر فيما بعد . واضافة لهذا بدأ ضباط السجن يهينوننا بدون سبب ويشتموننا ويستفزوننا .

يقول سامي :

بعد ايام كان حسين وخالد في سجننا « كفاريونا » ولا تتصور التعذيب . نحن كنا نعيش في الجنة قياسا عليهم . كانت زنزانة فاصلة بيني وبينهم ولكننا كنا في الزنزانات العلوية وهم في السفلية اي ان حسين وخالد كانوا يعيشون في « سجن في السجن » : لا طعام . لا نوم . ٢٤ ساعة . بوكسات . ضرب بكعب البندقية على الرأس وعلى الاعضاء التناسلية . علقوهم من ارجلهم ومرات اخرى من ايديهم مع الضرب . كانوا يسلطون عليهم ذبذبات كهربائية وهم في الزنزانة ولم افهم شيئا عن هذه الذبذبات ولكني كنت اسمع صراخهما العالي المسموع من كل الزنزانات . ثم كان حسين وخالد بعد اطلاق هذه الذبذبات ينزفون دما من عيونهم وافواههم وآذانهم .

وذات يوم عروهما تماما ووضعوا على ظهريهما قطعا كبيرة من الثلج وتركوها تذوب . كانوا يبولون دما ويبولون بصعوبة .

سأقول لك باختصار : كان الاسرائيليون مصممين على قبرهم احياء .

على سبيل المثال : كانوا يرشون عليهم الغاز البارد . فتصور معي اننا نحن المساجين في الغرف والزنازين الاخرى لم نستطع ان ننام لمدة اسبوع بسبب الغاز المتسرب الينا من زنزانة حسين وخالد لانه غاز حارق .

سأقول لك : رغم هذا كانت معنوياتهم عالية جدا .

سأقول لك : ان مئات من الجنود كانوا يجيئون من الثكنات العسكرية يزورون زنزانة حسين وخالد وهم مدهوشون ويتطلعون الى هؤلاء الابطال وكأنهم مخلوقات عجيبة . ثم يبصقون عليهم ويشتمونهم . كان هذا يحدث كل يوم . ذات يوم جاء ما يقرب من مائة جندي .

وبما انه ليس من حق هؤلاء الجنود ان يضربوا حسين وخالد فقد كان الجنود يأتون بمكانس طويلة ويضربون خالد وحسين من خارج الزنزانة . لقد عرفت انهم تناولوا اول حمام بعد ثلاثة اشهر من اعتقالهم . اما الحمام فهو عبارة عن ماء بارد يلقونه على اجسادهم بلا صابون او منشفة فابلهم الصليب الاحمر الدولي بعد شهرين ونصف من اعتقالهم مع ان القانون يقول انه من حق الصليب الاحمر مقابلة السجين بعد ١٥ يوما من الاعتقال . ولكن اسرائيل قالت بعد اعتقالهم بشهرين ونصف ان خالد وحسين اعتقلوا قبل ١٥ يوميا فقط .

* الاخطاء اللغوية الواردة في النص ناتجة عن الخلط بين العامية والعربية في حديث سامي اسماعيل .

ويعلق سامي اسماعيل قائلاً :لاول مرة عرفت معنى النضال عندما شاهدتهم . كان حسين وخالد يقولون دائما للجنود: جئنا لارضنا . جئنا لاخراج خمسة من المساجين واسرائيل هي التي رفضت وبدأت باطلاق النار على الباص .

ــ وسألت سامي : حتما لقد تعرفت على مساجين كثيرين . هل تتذكرهم ؟

قال سامي : نعم تعرفت على مئات ، ولكن لا اتذكر كل الاسماء . ولكنني سأروي لك قصص بعض من تعرفت عليهم :

١ ــ منذر ملحس : اعتقد انه افرج عنه . قضى عشر سنوات . لم اكن اتصور ان يقضي انسان عشر سنوات في زنزانة ويمتلك هذه المعنويات الكبيرة كما كان منذر . كان وزنه قد وصل الى ٤٠ كلغ وهو نحيل الجسد .

٢ ــ وليم كليكيان : اعتقل على ما اعتقد العام ١٩٦٨ اثر قيادته لدورية عسكرية عبر الاردن ، وكان محكوما بـ ١٢ سنة ، ولكنهم فتحوا له ملفا جديدا لانه ضرب ضابطا اسرائيليا في السجن .

٣ ــ الأعمى : لا اتذكر اسمه ربما ــ الحاج عفانة ــ عمره ٥٥ سنة تقريبا ، فقد بصره في السجن خلال التعذيب وهو انسان امي وبسيط . لم يأخذوا اعترافا منه . حكم عشر سنين . وقضى ٨ سنوات وقد طالب الصليب الاحمر الدولي باطلاق سراحه ولكن اسرائيل رفضت . سأقول لك : حتى الضباط في السجن يخجلون ويقولون من باب المجاملة : سيخرج قريبا ولكنهم لم يفرجوا عنه ورفضوا علاجه . سأقول لك : انهم يفعلون هذا متعمدين فبعد ان ينخر المرض جسدك وبعد ان تصبح انسانا بلا فائدة للحياة . ربما يرسلونك للمستشفى واي مستشفى سأحدثك فيما بعد .

٤ ــ محمد زاهي بلعاوي : افرج عنه على ما اعتقد . متهم بالانتماء لمنظمة فدائية ، والخربشة على الحائط وعضوية خلية . كسروا خمسة اضلاع له . وكان النوم والطعام ممنوعا عنه وكان لا يستطيع الوقوف فكانوا يعطونه ابر المخدرات . وقعوه على اعتراف باللغة العبرية وهو لا يعرف حرفا منها . ولم يكن يستطيع ان يذهب الى الحمام (التواليت) .

عالجوه بربط اضلاعه المكسورة بخرقة من القماش الوسخ . حين حاكموه في المحكمة حمله الجنود على الاكتاف لانه لا يستطيع المشي .

٥ ــ احمد شريعة : عمره ٦٧ سنة من مخيم بلاطة في قرية نابلس تهمته : ان ابنه (١٢ سنة) اشترك في مظاهرة وعوقب بدفع ١٠ الاف ليرة فلم يستطيع الاب ان يدفع المبلغ ولانه لم يدفع حكم الاب ثلاثة اشهر سجن .

٦ ــ اولاد قلنديا : اطفال من مخيم قلنديا . « جابتهم » فيليتسيا لانغر وعبد عسلي (المحاميان) الى السجن وكانت فيليتسيا تريد رفع معنوياتي بعد ان عوقبت بحبس انفرادي لمدة سبعة ايام وعرفتهم علي . اعمارهم من ١٣ ــ ١٥ سنة وعددهم ١٦ طفلا . قائدهم عمره ١٣ سنة . خجلت امامهم وشعرت وانا اسلم على القائد انني اسلم على قائدي .

اعتقلوا في اذار ١٩٧٨ بعد حرب الجنوب . فقد شعروا ان عليهم واجبا . كانوا في المخيم اثناء حرب الجنوب يشاهدون السيارات العسكرية المحملة بالجنود والسلاح متجهة الى الجنوب اللبناني . بالمناسبة هم مجرد اطفال ليسوا تابعين لاي تنظيم كان . ولكن رؤية السيارات العسكرية المتجهة للجنوب اللبناني هزتهم فاتخذوا قرارا في الصف في مدرستهم . القرار هو ضرورة الاسهام في المعركة ومساندة الثورة الفلسطينية في محنتها كما قال قائدهم ١٣ سنة . وتماما كما الكبار . اصطفوا في الشارع الرئيسي لمخيم قلنديا . وقسموا انفسهم الى مجموعات . واعطوا اشارات لبعضهم . كانوا قد صنعوا قنبلة مولوتوف بسيطة . وحين مرت احدى السيارات العسكرية الاسرائيلية اعطى القائد الطفل الاشارة ببدء الهجوم فالقوا القنبلة على السيارة .

في المحكمة صاح المدعي العام وهو من عصابة غوش ايمونيم ــ في وجه المحامية لانغر قائلا: هؤلاء اطفال .

اولادك ليسوا اطفالا يا لانغر . اولادك خربوا جنديا كاملا وجرحوا خمسة جنود .واصر على محاكمتهم ثم سجنوا .

نتائج العملية احترق جندي وجرح خمسة . وضعوهم في سجن الدامون .

٧ ـ جمال شلقو : عضو في منظمة فدائية ، على ما اعتقد هذه هي تهمته ، وانه كان في سوق الكرمل حين وضع عبوة قرأه الاسرائيليون وظلوا يطاردونه حتى امسكوه ورغم هذا حدث الانفجار حيث وجهت له تهمة جرح ٢٧ شخصا . لمدة ثلاثة ايام وهم يعذبونه لم ينطق بكلمة واحدة .. واعتقلوا والده وشقيقه ١٣ سنة . سجنوه مدى الحياة ، ولما ضرب ضابطا في السجن اضافوا ٨٠ سنة .

٨ ـ علي الجمال : يظهر كأنه في الاربعين من عمره وهو لم يتجاوز الثلاثين . يعمل « كندرجي » . ظل معتقلا اداريا لمدة ٥٢ شهرا . ظهره تقوس وغارت عيناه . رفض ان يوقع على اعتراف . وقضى تحت التعذيب اثناء التحقيق ١٠٠ يوم . اعتقد ان هناك شخصا آخر قضى تحت التعذيب ١١٤ يوما وهو من مدينة نابلس . يجدد الاعتقال الاداري كل ستة اشهر تلقائيا . لو انهم في البلدان العربية يجددون جوازات سفر الفلسطينين بهذه السرعة .

طلبوا من علي الجمال ان ينفى وان يوقع بالقبول وهم سيطلقون سراحه فرفض .

٩ ـ نادر العفوري : حطموا جسده . فقد عقله . قطعوا بزه . رفضوا ارساله للمستشفى . بدون تهمة (اسرائيل تعتقل عندما تشك انك تفكر) و (حتى تثبت براءتك يجبرونك على التوقيع على اشياء لم تفعلها) .

١٠ ـ حضنوري من شعفاط : وجهوا له تهمة حرق باصات اسرائيلية . عمره ٢١ سنة تقريبا اجبروه على التوقيع وهو لم يفعل شيئا في الحقيقة .

ـ احيانا تعلن اسرائيل عن كشف الذين قاموا بعمليات . والحقيقة ان من تعتقلهم يكونون ابرياء . ولكنها تريد ان تثبت لجماهيرها انها ليست عاجزة وهذا لرفع معنويات الاسرائيليين حتى لو كان من تقبض عليه لم يفعل شيئا وهي تعرف ذلك .

ـ جريدة « الانباء » الصهيونية التي تصدر بالعربية هي الوحيدة التي يرسلونها لنا في السجن وهي مليئة باخبار الانفجارات . وهذه الجريدة متخصصة بضرب التنظيمات الفلسطينية ببعضها البعض .

اذا كنت بريئا وهم يعرفون يضطرون الى سؤالك :

من تحب اكثر : ياسر عرفات ام نايف حواتمة ام جورج حبش ؟ هذا عندما لا يكون لديهم معلومات حول هويتك . فاذا رفضت استمروا في تعذيبك حتى تجيب على السؤال فاذا اجبت تحت التعذيب . وجهوا لك رسميا تهمة عضوية تنظيم ما .

في اسرائيل لا يوجد قوانين . مزاج القاضي هو الذي يتحكم .

□

قلت لسامي اسماعيل : ما رايك ان نعود لقصة اعتقالك ؟

قال :

انا طالب في جامعة ولاية متشيغان وكنت « دودة دراسة » واهم هدف عندي هو الدراسة . اقوم لادرس وانام لادرس . لدي ٢٠ ساعة عمل في الاسبوع كمعيد في الجامعة . لم اكن نشيطا سياسيا بل لم اكن واعيا سياسيا . اتعاطف مع الثورة الفلسطينية وكنت اتعاطف بشكل خاص مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ولكني لم اكن في يوم من الايام عضوا فيها . كنت اشتري مجلة « الهدف » هذا كل ذنبي . والدتي من دير ياسين التي ذبح بيغن معظم اهلها في المذبحة الشهيرة .

والدي كان عمره ٨٣ سنة وهو احد اثرياء مدينة البيرة وكان مريضا مرض الموت اي الوداع الاخير . فاتصلت عائلتي من بلدة البيرة بي لاحضر اللحظات الاخيرة لموت والدي وشعرت انني ارتكب جريمة ان لم اذهب لوداعه . لم يكن لدي فكرة الى هذا الحد ان الاسرائيليين فاشست ولهذا اخذت الامر ببساطة .

ولكن لا بد ان اقول لك شيئا : قبل سفري لـ « اسرائيل » وبتاريخ ٤ ــ ١١ ــ ١٩٧٧ جاء افراد من المخابرات الاميركية الى منزلي في لانسنج بولاية متشيغان وقبلها في ١ ــ ١١ ــ ١٩٧٧ سرق بيتي ولاظهار ان السرقة عادية سرقوا التلفزيون والراديو وبعض الحاجيات ولكنني اكتشفت سرقة جواز سفري الاميركي لانه مختوم بختم دخول الجماهيرية الليبية (اعلن نيكسون الرئيس الاسبق انه امر ووافق على اقتحام بيوت الفلسطينيين اثناء حكمه اعلن هذا في جامعة اكسفورد) .

قلت لرجال المخابرات : هل انا تحت التحقيق ؟

قالوا : لا.

للعلم اذا قالوا نعم . لا يحق لهم (في القانون) ان يعتقلوني دون وجود محامي . ولكني لم انتبه وقدمت لهم القهوة وكان من المفروض ان اطردهم . ولكنهم قالوا لي : انني اشكل خطرا على الامن الداخلي للولايات المتحدة .

قلت لهم : عصبة الدفاع اليهودية في الولايات المتحدة تقيم الان معسكرا تدريبيا . لماذا ؟ اذهبوا وحققوا معهم . اليس ذلك مضرا لامن الولايات المتحدة ؟

ثم ادعوا انهم لا يعرفون انني اميركي الجنسية.

بعدها بايام فوجئت بتلفونات ليلية للازعاج فقط واعتقد انها المخابرات الاميركية . لست متاكدا . ولكن الذين كانوا يتصلون بي يقولون : رأيناك اليوم مع فلان او رأيناك في الساعة الفلانية في المكان الفلاني . واستمر الازعاج التلفوني الى يوم سفري للبلاد.

سأعود لقصة السفر : فبعد ان اتصلت عائلتي من البيرة مؤكدة ضرورة المجيء بسبب خطورة وضع والدي . ذهبت وجددت جواز سفري اي استخرجت جواز سفر جديد بدلا من المسروق .

وسافرت من الولايات المتحدة الى مطار اللد على طائرة اميركية يوم الاربعاء ٢١ ــ ١٢ ــ ١٩٧٧ . هبطت الطائرة حوالي الساعة الثالثة والنصف عصرا في مطار اللد .

حين نزلنا . صفقت مع السياح الامريكان . بعد قليل جاءت مجندة ونادتني فورا وصفوني مع العرب وبعض اليابانيين واحد الالمان . كنت افكر في والدي . وضعوني في سيارة عسكرية وكنت احمل شنطة سامسونايت ثم وقفت السيارة بعد دقائق وانزلوني منها . صاح جندي . لا تفتح الشنطة . احملها هكذا « اوعى تلفها هيك » ــ « شيلها هيك » واخذوني الى مكتب في المطار حجارته من طوب وادخلوني وكانوا يمشون بعيدا عني مسافة ٢٠٠ م لاعتقادهم ان متفجرات في الشنطة .

كانت شنطتي مليئة بالكتب الجامعية : الكترونيك ــ فيزياء ــ ميني كومبيوتر ــ اقتصاد هذه هي الكتب التي حملتها .

اجلسوني فجلست . دخل ضابط عرفت ان اسمه داني ، وصاح اسمك الكامل قلت له : سامي علي اسماعيل

صاح مرة اخرى : لا . ان اسمك الكامل هو . سامي علي اسماعيل احمد جاد الله القرعان(فيما بعد في السجن كان الجنود يتعمدون مناداتي بـ سامي القرعان لاظهار معرفتهم بالاسرار) .

سألني داني عن اخواتي . اولاد عمي . عائلتي (من طقطق لسلام عليك) فاستغربت الامر . في الحقيقة لم اكن خائفا لانني اعرف انني لم ارتكب جرما .

قلت له : ولماذا تسأل عن شجرة العائلة ؟

صاح بي : هل تريد ان تعرف يا كلب؟

(قال . طال ورقة . وصار يقرأ . انت منظم ومدرب. ويجب ان توقع فورا لتذهب لرؤية والدك . اكتب . أين كنت في اغسطس ١٩٧٦ . لقد ذهبت الى ليبيا) .

ينفعل سامي وهو يروي (الله يلعن ابو ست أبوه. كال انا مدرب) .

قلت له : ذهبت الى ليبيا ليس كزيارة سرية فانا اعرف طلبة ليبيين في امريكا وقد دعوني لارى ليبيا واتعرف عليها .

قال الضابط: مهما قلت . لا يوجد احد يذهب الى ليبيا الا لكي يتدرب .

قلت له : مش في ديمقراطية عندكم في اسرائيل . فاذا ثبت شيء علي فحاكمني . ولكني بريء .

(ويوم ما قلت لو كلمة ديمقراطية وشو يا عز الدين . عليه عينين بخوفن. فنطر عينيه وصاح فيه) :

ديمقراطية . لا يوجد عندنا ديمقراطية . من قال لك هذا الكلام فقد ضحك عليك . الديمقراطية عندنا للاستهلاك الاعلامي الخارجي . نحن نقول للامريكان هذا قولا لمجرد الاعلام . ومتى نزل اي شخص عن الطائرة المتوجهة لاسرائيل عليه ان ينسى افكاره عن الديمقراطية على سلم الطائرة وسنضربك يا سامي وستوقع . وصار يضحك (ديمقراطية . قال . ديمقراطية)

وصاح بي : وقع . واذهب لوالدك .

قلت له : دعني اتصل بأهلي أو بالقنصلية الاميركية في اسرائيل لاخبرهم فقط انني محتجز عندكم .

ولكنه رفض . ودخل ضابط عرفت ان اسمه يعقوب وبدأ يضحك مع الآخر ويكرران ــ وهما يضحكان ــ « ديمقراطية . ديمقراطية » .

لعلمك يا عز الدين: انا عشت حياة كما يسمونها بالامريكاني « حياة محمية » فانا لم اعش في مخيم ولم اصادف مشاكل في حياتي على الاطلاق . كل شيء متوفر لي .

امروني بنزع ملابسي فنزعتها ثم عادوا فأمروني بلبسها فلبستها ثم عادوا فامروني بنزعها وهكذا . الى ان وضعوا الكلبشات في يدي ثم وضعوني في سيارة اتجهت من المطار الى سجن « بتاح تكفا » وهنا بدأت مرحلة جديدة .

يوجد غرفة خاصة للتحقيق . كان معي اثنان من ضباط الاستخبارات رموني في غرفـــــة منتنة باردة فيها اسفنجة تسمى سرير . بطانيتان . برد شديد . صراصير تمشي . باب حديدي كامل . ثقب صغير في السقف فقط . اخذوا ساعتي فلم اعرف الزمن ولكني قدرته تقديرا بالواحدة ليلا . سطل للبول .

بدأوا التحقيق واجبت على جميع الاسئلة . ولكنهم لم يقتنعوا .

اتهموني انني اعرف مخازن اسلحة في الضفة الغربية وانني مدرب . وسألوني عن اليسار الامريكي . وقالوا انني اعرف من قتل الملحق العسكري الاسرائيلي قبل سنوات في واشنطن . منعوني من النوم . كانوا يأمرونني بنزع ملابسي كاملة ثم يامرونني برفع كرسي لساعات طويلة وفي آخر الليل سقطت مغشيا علي وفقدت الوعي . صحوت على لكمات احد الضباط وهو يقول لي : انك تدعي فقدان الوعي ايها الكذاب . ثم حملني وأجلسني على كرسي وسألني عن منظمة الطلبة العرب في امريكا . وركزوا كثيرا على الطلبة الايرانيين في امريكا ومن اعرف منهم وما هي نشاطاتهم (كان الشاه في الحكم).

جاء « داني » وبدأ لمدة ساعة وهو ينتف شعر شواربي شعرة شعرة ثم بدأ آخر يضربني بقبضة يده وآخر مع خيزرانه حتى فقدت الوعي مرة اخرى ومرة اخرى كانوا يلكمونني صائحين : اصحى يا كذاب . تركوني لمدة ساعة فاصبت بهستيريا وبدأت اصرخ في الغرفة .

وقال داني هل تريد ان تعرف الديمقراطية .

وهجم ثلاثة علي ولكموني حتى نزف الدم فتركوني قليلا .

(حتى الان لم تكن عائلتي قد عرفت بمصيري فقد علمت فيما بعد ان عائلتي اتصلت بفرع شركة الطيران واستفسروا عني فاجاب فرع اسرائيل للشركة قائلا : انه لا يستطيع الاجابة على هذا السؤال . فاتصلت عائلتي بالشركة في امريكا فأخبروهم انني سافرت الى « اسرائيل » وذكروا رقم الرحلة واليوم) .

. واضربت عن الطعام . وفي اليوم التالي كان يوم البصاق . فقد بصقوا وظلوا يبصقون علي لساعات طويلة . يمسكني الضابط من شعري ويلفني ويصرخ : يا كلب يا عكروت ويبدأ في « التف » على وجهي ويصيح :

« الف ام فلسطينية تبكي ولا ام يهودية واحدة تبكي »..

ويصرخ آخر : نقطة دم تنزل من اصبع صغير ليهودي . سأدمركم .

يقول سامي اسماعيل : اصبت بهستيريا وبدأت اصرخ بهم :

اطلقوا علي الرصاص . اريد ان اموت.

ولو استمروا بنفس الطريقة في نفس اليوم لفقدت عقلي . وصرت ارجوهم ان يقتلوني .

ـ بعد ايام عرفت عائلتي فاتصلوا بالقنصلية الاميركية في اسرائيل .

جاء القنصل مارك ديفيدس الى السجن ويصطحبه مترجم اسمه شلومو وايز وهو صهيوني .

قلت له يا مستر ديفيدس. انني بريء وهم يريدون ان يأخذوا مني اعترافا بالقوة وقد ضربوني وها انت ترى آثار التعذيب على جسدي قال المستر : انا متأسف . انا لا استطيع ان افعل لك شيئا . فاسرائيل دولة مستقلة ذات سيادة . اقصى ما استطيع ان افعله ان اتصل لك بمحامي ولكن يجب ان تعرف انه لا يوجد سجين يرى المحامي قبل ان يوقع على الاعتراف .

قلت له يا مستر مارك . انهم يهينونني في كل لحظة وقد اضربت عن الطعام .

قال القنصل : لماذا تضرب عن الطعام -. يبدو ان الطعام جيد ولذيذ .

قلت له: هذه المرة جاءوا بهذا الطعام الخاص لانك موجود . .

قال : سأطلب منهم ان يسمحوا لك بالنوم ثلاث ساعات على الاقل ورحل القنصل .

وبعد قليل عرفت انه (القنصل) حكى للمخابرات كل شيء . حينئذ بدأت معركة الكاراتيه من طرف واحد ، فقد بدأوا بمعاقبتي لانني تكلمت للقنصل وبدأوا « طاخ . طيخ . طاخ . طيخ » حتى فقدت الوعي . وبعد ان صحوت صاحوا بي : لماذا تحتج للقنصل . وقالوا بالحرف : القنصل في جيبتنا . ها هو قد جاء لك . ماذا فعل لك . لا شيء . وحتى تستريح وتطمئن فان امريكا لن تفعل لك شيئا ما دمت في قبضة « عدالتنا » .

اجلسوني على الكرسي ، ثم فتح احدهم ملفا واطلعني على الصفحة الاولى حيث كتب بالانجليزية « مكتب التحقيقات الفيدرالي الاميركي » . وقد قرأته بأم عيني . ولكنه امتنع عن اطلاعي على باقي الصفحات ، وبدأ يقلب الملف ، ويقول : هل تعرف سان فرنسيسكو ، شيكاغو ، وعدد لي عددا آخر من المدن الامريكية . انت عضو بمنظمة الطلبة العرب من هم ابرز اعضائها بتاريخ كذا القيت خطابا في مظاهرة . ثم يقلب الملف ويضحك قائلا: « والله يا » ... « كاين نشيط . بتاريخ كذا تظاهرت ضد اسرائيل » وظل يقلب في الملف ويعلق وانا صامت .

قلت له : نعم تظاهرت ضد اسرائيل ولكن في الولايات المتحدة.

ولكنه لم يرد وقال : اقرأ « الفاتحة » الآن . هل تحفظها ؟

قلت له : نعم . ولكن لماذا ؟

قال عليك ان تبدأ القراءة فورا.

وبدات بقراءة فاتحة القرآن وحين وصلت الى « غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين » وقعت في خطأ فقلت « غير المغضوب عليهن .. » فصاح بي يا كذاب . حتى القرآن لا تعرفه هذا يدل على انك ماركسي لينيني وعقلك مغسول بالماركسية . فما هي علاقتك باليسار الاميركي ؟

(الخطأ اللغوي الذي ارتكبه سامي في الآية القرآنية اي « عليهن بدلا من عليهم »ناتج عن لهجته البيراوية فأهل البيرة يتكلمون هكذا).

لاحظوا ان مرض والدي جعلني في حالة نفسية صعبة . ولهذا فعلوا التالي: اتصلوا او هكذا ادعوا برام الله واخبروني ان والدي قدتوفي ثم بدأوا في اعطائي دروسا في احترام الوالدين والاحسان لهما . وبعدها قالوا: «يجب ان تعترف بانك قدتدربت على السلاح فـ ٦٠٪ من سكان الضفة والقطاع قد تدربوا على السلاح ونحن نعرف ذلك . انه من السهل ان نقتلك ولكنك ستموت بالتقسيط »

كانوا يتكلمون لغة اليدش خوفا من ان اكون افهم العبرية . وفجأة صاح بي احدهم وهو يلكمني : سنعلمكم ايها الفلسطينيون . سنذبحكم واحدا واحدا .

الاربعاء وبعد اسبوع بالضبط من اعتقالي اخذوني من السجن في سيارة عسكرية مغلقة وحين توقفت فتحوا السيارة . وانزلوني .

عرفت الآن انني سأدخل بيتي . كان ثمانية جنود يحيطون بالبيت فدخلت البيت . كان والدي في النزاع الاخير ، وضج البيت بالبكاء . دخلت الى الحمام فوقف رجل مخابرات على باب الحمام . كان لقاء حزينا استغرق عشر دقائق . اعادوني بعدها الى السيارة المغلقة ثم الى السجن مرة ثانية .

في المساء جاءت فيليتسيا لانغر . كنت محطما نفسيا وجسديا ولكنني سررت لدى رؤيتي لفيليتسيا . ارسلوا سجيناًليستمع الينا ولكني كنتاكلمها بالانجليزية . ورفعت فيليتسيا من معنوياتي ، اعطتني دفعة من الامل في الحياة . كنت قد جمعت ١٢ حبة مهدىء وكنت انوي ان اشربها جميعها دفعة واحدة لكي انتحر واستريح ولكن فيليتسيا صادرت الاقراص مني .

سمعت باسم فيليتسيا لانغر في خريف ١٩٧٧ عندما صدرت تقارير الصنداي تايمز حول تعذيب الفلسطينيين في سجون الاحتلال . وقرأتها ، حيث ورد اسمها . لقد تأثرت بفيليتسيا لانها يهودية تقدمية . ثم ان ملامحها الشخصية هي ملامح الام .

جاءوا بخارطة ليبيا في اليوم التالي . كل شارع بشارعه . وطلبوا مني ان اوضح لهم اين كنت بالضبط . ثم جاءوا بخارطة مفصلة لمدينة طرابلس الليبية وفي الخارطة صور لمنشآت عسكرية ليبية . وطلبوا مني ان احدد في اي قاعدة تدربت . وكان جوابي واحدا: لقد ذهبت في زيارة عادية لليبيا ولا اعرف قواعد عسكرية او مدنية .

جاء إلى السجن دبلوماسي امريكي من القنصلية اسمه جيمس كيرر بوجود الصهيوني شلومو وايز الذي يدعي انه مترجم في السفارة .

طلبت من ديفيدسون القنصل الاميركي ان يخبرني بالتهم الموجهة لي ولكن جيمس كيرر قال لديفيدسون : من الحكمة ان لا تخبره بشيء . والآن فيليتسيا قدمت احتجاجا رسميا لدى السفارة الامريكية قال السيد كيرر: اكتب عن التعذيب . اعطاني ورقة وتحتها كاربونة قلت له : لماذا الكاربونة ؟ قال : نسخة للسفارة والامريكية ونسخة للبوليس الاسرائيلي .

اليوم الخامس عشر . اخذوني الى المحكمة موثوق اليدين ، طليق اللحية ورائحتي كريهة بسبب عدم الاستحمام . استقبلتني فيليتسيا على باب المحكمة ، قلت لها : انك تذكرينني بالام لمكسيم غوركي .

لم يسمحوا لاخوتي بالدخول . وفي المحكمة . عادوا الى طرح الاتهامات اياها . كنت اريد ان اتكلم ولكن الحاكم يقاطعني ويقاطعفيليتسيا .كانت المحكمة اشبه بسوق الخضار . استغرقت المحكمة ٤ دقائق .

عندما اعادوني الى السجن سمحوا لي بتناول الطعام مع سجناء اخرين وهذه لاول مرة رأيت فيها عربا (من سنة ١٩٤٨) من المثلث موقوفين تهمتهم : ان جاسوسا قال انهم قتلوا ضابطا اسرائيليا . وقد اغتيل هذا الجاسوس فاتهموهم بقتله .

وتعرفت في السجن على يهود يمنيين متهمين بتهم جنائية ، كانوا حوالي اربعين شخصا وكانوا يحبونني فاغتاظ رجال المخابرات من علاقتي الحسنة مع هؤلاء فقد وضعني رجال المخابرات مع هؤلاء لكي يعتدوا علي فيسهل تبرير اعادتي للزنزانة الانفرادية .

نسيت ان اقول لك : انه في اليوم الرابع عشر لاعتقالي توفي والدي . وهنا اخذوني في سيارة مغلقة محروسة بستة عشر جنديا اضافة لرجال المخابرات . كانت الجماهير تحتشد بالمئات في جنازة والدي ، حين انزلوني من السيارة ولم يسمحوا لي بالمشي في الجنازة ، فكوا الكلبشات عن يدي ولكنهم لم يسمحوا لي بالصلاة مع الناس في المسجد . سمحوا لي بالوقوف على الرصيف .

(كنت افكر في السجن وكان تفكيري ضيقا انني الوحيد المعذب في هذا العالم وان لا احد يهتم بي) . ولكن هذه اول مرة ترتفع معنوياتي بشكل جيد حين شاهدت بحر الجماهير في جنازة والدي تتجه نحوي لتلقي السلام ويقبلونني ويقولون بصوت عال (رغم وجود ٣ ضباط مخابرات قربي) ، كانوا يقولون لي : الله معك . نحن معك . مع فلسطين . ويهزون يدي بقوة ومحبة ، حينئذ بكيت ، بكيت على والدي الراحل وعلى شعبي العظيم . وقد حدثت مناوشات كلامية بين الجماهير والمخابرات والجنود ، فقام الجنود بابعاد الناس عني وفورا امتطيت السيارة محروسا بستة عشر جنديا . لقد خافوا حين شاهدوا طلبة المدارس قد بدأوا يخرجون من مدارسهم ولذا اعادوني الى السجن .

في اليوم الثاني والعشرين من اعتقالي سمحوا لي بالاستحمام لاول مرة وحين كانت الساعة الرابعة صباحا رموني في الكاريدور لانهم يريدون ان يحققوا مع سجين جديد .

اخذوني الى المحكمة واستغرقت المحاكمة ١٢ دقيقة . اعادوا فيها نفس الاتهامات وهي التعاطف مع الثورة الفلسطينية اضافة الى كوني « ماركسي لينيني خطير » . لعلمك حتى تلك اللحظة لم اكن اعرف ما هي الماركسية وصوروني كأنني اخطر انسان مر عليهم . وقد نفيت كل ذلك .

تخيلت في تلك اللحظات لو كان معي كلاشنكوف سوفييتي لقضيت عليهم من حقدي على اكاذيبهم الملفقة .

ثم اعادوني الى السجن الذي قضيت فيه ثلاثين يوما . وفي صباح اليوم التالي نقلوني الى سجن كفاريونا .

في سجن كفاريونا: اخذني الضابط الى غرفة رقم ٨ في سجن كفاريونا . كان في الغرفة ما يقرب من ٢٥ سجينا من: فتح – الديمقراطية – الشيوعيين – الشعبية – النضال الشعبي ... بنسب متفاوتة .

استقبلني الشباب بحماس وترحاب كبيرين (الموت مع الجماعة رحمة والمعاناة مع الجماعة اسهل) . الطعام اصبح افضل قليلا من السابق. قدم الشباب لي السجائر والملابس. كان يحق لنا شراء ٧ – ٨ سجائر يوميا . كان يسمح لكل سجين أن يشتري بمئة ليرة اسرائيلية في الشهر وبطبيعة الحال ليس كل سجين قادر على امتلاك مئة ليرة ولذلك كانت علاقاتنا المادية مشتركة تتسم بروح المحبة والاشتراكية . في هذا السجن قسمان لليهود وقسم للعرب .

كان كثير من المعتقلين من السجون الاخرى يمرون لليلة واحدة الى سجن كفاريونا ثم يتابعون الى سجون اخرى. ومن هنا نظل نسمع قصص السجناء في المعتقلات الاخرى في رام الله ونابلس وطولكرم والخليل وجنين وعسقلان وبئر السبع وغيرها . وسجننا كان من افضل السجون في فلسطين المحتلة. حيث ان وضع السجون الاخرى لا يمكن القول عنه سوى انه يتشابه مع معتقلات النازيين الالمان .

كنا ننام كل ثلاثة اشخاص على اسفنجة رائحتها كريهة . وكان برنامجنا هو في الساعة الحادية عشرة صباحا يبدأ « العدد » . نلعب بعدها الشطرنج وفي فترة العصر يبدأ التثقيف من قبل العناصر الواعية .وفي هذا السجن بدأ الشباب يشرحون لي « ما هي الماركسية اللينينية » التي اتهمت بكوني ضليعا بها وبانني ماركسي لينيني خطير .

وهي دروس مبسطة في العادة . وفي المساء تبدأ التمثيليات والغناء .
بطبيعة الحال عاقبونا عدة مرات بشكل جماعي سواء بمنع « الفورة » او بالزنزانة الانفرادية بسبب هذه النشاطات . وعادة ما تقوم حراسة السجن بتفتيش مفاجيء خلال ساعات النهار فتبعثر كل شيء في الغرفة . و«الفورة » عبارة عن ساعة ' نصف منها صباحا والنصف الاخر مساء . اما السجناء اليهود فـ « فورتهم » خمس ساعات يوميا .

قدمت احتجاجا لفيليتسيا خلال زيارتها لي، وبدون الحرس اقتطعوا الورقة التي كتبت عليها في دفترها دون ان تدري . ودعتني فيليتسيا وبعد ان ذهبت ناداني ضابطان « حدعون » و« تسيمح » . نادوا علي بمكبر الصوت فجروني انا وسجينين آخرين هما : « حنون » و« الاسمر » يعملون كعمال في السابق ومحكومون بالسجن لمدة ١٨ سنة . وتقدم مني الضابط « تسيمح » فقلت له شو في ؟ فصرخ بي « مش عارف شو في يا « ... » ؟!! . ثم بدأ « الطاخ . طيخ » . وعندما هربت منه مترين لحقني ومد يده لضربي فوضعت له يدي في حالة الدفاع فجفل وهرب الى الوراء ظانا انني اريد ضربه ، فضحك الضابط الاخر « جدعون » . وهنا تقدم الاثنان وبدأ بركلي حتى فقدت الوعي ثم لما صحوت جروني الى الزنزانة الانفرادية .

(ومرة امرني ضابط يهودي مصري بخلع ملابسي للتفتيش عن الدخان المهرب وتركني عاريا وقال : انتظر حتى اجي وعندما عاد قلت له: كل واحد له يوم . وهنا ضربني بعصا على راسي واخذني لمدير السجن فقال لي مدير السجن: سأجعلك « كفتة » اذا تكلمت مرة اخرى بهذه الالفاظ) .
كان السجين اسعد سعد يغني لنا اغنية على وزن اغنية لممثل سوري اسمها « فطوم » والممثل هو غوار . وكنا نردد وراءه:

نمي وبمك يا خيه
مصوه الحرامية
بدنا رز وبدنا طحين
وشو ها الديمقراطية
ما بنرضى بأنصاف حلول
سلمية
بدنا ترجع فلسطين
عربية

وهناك اغان جميلة كان يرددها المتظاهرون في الضفة كنا نغنيها في السجن ولكني نسيتها .
بقيت في الزنزانة الانفرادية . اما « حنون » و« الاسمر » فقد رشوهما بالغاز بتهمة انهم هم الذين اخبروا فيليتسيا عن اوضاع السجناء . كانت الزنزانة مغلقة ليلا نهارا ورفضوا ان نذهب الى الحمام ورفضوا آن يأتوا بسطل للبول . كنا نبول بين ماسورتين في الزنزانة . ثم يدخل حرس السجن علينا صائحين : يا كلاب لماذا رائحة زنزانتكم كريهة؟!
طلبني المدير فقلت له ان « حنون » و« الاسمر » لم يتكلما لفيليتسيا وانما انا وحدي الذي اتحمل المسؤولية . حينئذ اخرجوهما بعد ثلاثة ايام الى الغرفة العادية .
وكان المدير يصرخ كلما رآني: يجب ان تقول ياكلب : ماذا يجري بينكم وبين فيليتسيا لانغر. هل تعرف ان عقاب تسريب المعلومات الحبس اربع سنوات اضافية ؟!.
رفضت الاعتذار عما فعلت فاعادوني للزنزانة . ارسلوا لي اثنين من السجناء الاسرائيليين طوال كالمردة لينامو ا في الزنزانة . فنام السجينان على مساحة ٤/٥ من الزنزانة فظللت طيلة الليل واقفا بينما يشخر السجينان وانا اتسلى مع الجرذان التي كنت اطردها عن قدمي وترفض الذهاب . ثم اعادوني الى الغرفة العادية بعد سبعة ايام .
في ١٢ ـ ٦ ـ ١٩٧٨ اقتادوني الى المحكمة وكانت حملة الانصار الامريكيين في جامعتي قد بدأت تتضح معالمها فارسلوا الى المحكمة استاذي البرفسور بار من كلية الهندسة الكهربائية ـ جامعة متشيغان مع روس آن ازبورن من سكرتيرية الجامعة . وقد سمح الاسرائيليون لهم بالدخول الى المحكمة مع العلم انهم منعوهم من زيارتي في السجن . وكانت محاكمتي في المحكمة المركزية في تل ـ أبيب. تصور ان الشهود السبعة الذين احضروهم في

محاكمتي كلهم رجال مخابرات من الذين حققوا معي . وكان الواحد منهم يلبس الطاقية ويقسم انه لا يكذب وعندما ضبطتهم فيليتسيا يكذبون ، طالبت بمحاكمتهم ولكن القاضي امرها بالسكوت واعطى استراحة قصيرة .

وعندما عدنا اقسم الشهود المحققون من رجال المخابرات ان التحقيق معي كان برضاي وبدون اجبار وان ضابط المخابرات سخن لي الخبز وجاء لي بالغذاء مع الشاي واعطاني قلما وورقة وانني كتبت الافادة برضاي وبدون اجبار . واضاف الشاهد: يجب معاقبته فقلت للقاضي : امي من دير ياسين ومناحيم بيغن هو الذي يجب معاقبته .

حينئذ صرخ بي: اخرس . لا تتكلم في السياسة . يجب ان تجيب على السؤال الذي اوجهه فقط .

وكانت المدعية العامة واسمها « سيروتا » تنظر لي بحقد . فقلت لها : لماذا تكرهين الفلسطينيين . نحن شعب طرد من ارضه . وانا اؤيد هذا الشعب كامريكي وحتى الرئيس كارتر ادلى ان الشعب الفلسطيني عانى طويلا حتى كارتر بتاعكم .

واضافت لانفر: حتى كارتر يؤيد وطنا للفلسطينيين.

قال القاضي : حتى كارتر لا يفهم ما يتحدث عنه حين يتحدث.

(وكان القنصل الامريكي جالسا ولم ينبس ببنت شفه) .

واضاف القاضي : يجب ان لا تتكلم في السياسة . انني امرك امرا .

استاذي البروفسور بار حمل ٢٥ افادة ووثيقة من الجامعة تثبت حسن سلوكي وكان حاضرا حيث طلب الكلمة. وقد ادلى البروفسور بار بشهادة رائعة بشأني وانتهى الى القول : ان سامي اسماعيل بريء فردت عليه « سيروتا »:. كيف عرفت انه بريء؟

قال بار: لان الانسان يظل بريئا حتى يدان .

وحاول ان يتكلم عن القانون الدولي . فقاطعوه قائلين :

مستر بار . لقد اجبت على السؤال . وهذا يكفي . يجب ان تتوقف فصرخ البروفسور بار : انا احب ان ادلي بشيء لانني جئت من امريكا خصيصا . الا يحق لي ان اتكلم دقائق معدودة؟

قال المدعي والحاكم : اذا اردت ان تقول شيئا فتفضل الى مكتبي غدا .

وكان نص قرار المحكمة انني لم اجيء للتخريب وانني جئت لزيارة والدي ولكن من اجل ان يتعلم الاخرون « لن نسامح هذا الشخص فهو قد قام باعمال عدائية في الولايات المتحدة ضد اسرائيل وتدرب في ليبيا ولهذا قررنا سجنه ١٥ شهرا».

ثم اعطوني الكلمة فقلت :

انا بريء من التهم الموجهة لي . جريمتي الوحيدة انني تضامنت مع شعبي الفلسطيني المضطهد والذي لا وطن له وتضامن مع الشعوب المضطهدة في جميع انحاء العالم . وهذا لا يؤذي احدا .

اخذوني الى سجن كفاريونا ومنعوني من وداع الشباب وبدأت المرحلة الثالثة من سجني بنقلي الى سجن « معص لياهو » وهو محطة لنقل السجناء الى سجون اخرى . تعرفت في هذه المحطة على جنود هاربين من الجيش ومنهم يهودي من طشقند .

تعرفت على « ضابط كوماندوز اسرائيلي » قال لي:

« شاركت في معركة الكرامة وفي حرب ٧٣ وقد خسرنا كثيرا في معركة الكرامة . وقال الضابط : انا الآن مع الفلسطينيين رغم انني ساهمت في عملية اغتيال كمال ناصر ــ كمال عدوان ــ محمد يوسف النجار .. وكنت اقوم بعمليات خاصة كثيرة . وبعد حرب ٧٣ اقسمت ان لا احمل السلاح لان زملائي ماتوا وانا احب ان اعيش ، احب ان لا اظل حيوانا . كنت حيوانا لمدة خمس سنوات اقتل الانسان واشرب الشاي على جثته . اما الان فانا ارفض الخدمة في الجيش» .

هذا ما قاله لي الضابط بالحرف .

جاءوا في هذا السجن ــ المحطة بعالمة نفس امريكية اصغر سنا مني فبدأت تسالني اسئلة سخيفة مثل: هل دخنت الحشيش قبل ان تاتي الى « اسرائيل » او هل سبق لك ان شاركت في جرائم ؟ او هل لديك صديقة ؟

فقلت لها: هل لديك صديق ؟ يبدو انك لم تعثري على عمل في امريكا فجئت تجربين موهبتك السيكولوجية هنا . فطردتني .

في اليوم الثاني اخذوني الى سجن الدامون وهو « اوسخ » سجن بالنسبة لي .

سجن الدامون: اول من قابلت في سجن الدامون انيس قرعاوي ،(اعتقل عام ٧٢) قال لي انيس: انتبه ، هذا السجن عبارة عن غابة وضعوا فيها النمر والاسد مع الارنب مع الحمامة مع الافعى ولا يمر يوم دون مشاكل .

وضعوني في غرفة تظل تنام فيها على الارض حتى تخلو احدى الاسفنجات التي يسمونها اسرة . تصور انهم يضعون الاطفال السجناء في سن الرابعة عشرة والثانية عشرة مع الحشاشين . وباعتقادي ان حراس السجن كانوا يساهمون في ادخال « الحشيشة » الى السجن . ولهذا تعلم الاطفال التدخين .

شاهدت في هذا السجن دروزا فلسطينيين هاربين من الخدمة في الجيش ـ أطفــال قلنديــة ـ ومن كافة التنظيمات الفلسطينية ومن الشيوعيين الفلسطينيين .

في هذا السجن كان من المفروض ان اعمل كمعلم للغة الانجليزية ولكنهم امروني بالتوجه لقسم « الكرخيا » وهو قسم لصنع اضبارات للجيش الاسرائيلي والشرطة اي ملفات وهي « اوسخ شغله » و ٩٥٪ من السجناء العرب يعملون في هذا العمل الشاق والمهين . فباقي المهن الجيدة كالتنظيف والبناء والنجارة والحدادة للسجناء اليهود . كل الاشياء المريحة للسجناء اليهود فمن الصعب مثلا ان يذهب اي عربي لقسم النجارة او الحدادة .

كنت اشعر بالغيظ وانا اقرأ على الملف اسم « الجيش الاسرائيلي » او « الشرطة الاسرائيلية » فاتهموني انني اتقصد لف الملفات بشكل خاطىء فطردوني ووضعوني في القفص للعقاب .

قلت للضابط : قررت ان لا اعمل في اي عمل يساعد الجيش الاسرائيلي المحتل .

قال الضابط : يجب ان تذهب الى الزنزانة .

هذا الضابط يهـودي مغربي اسمه شكر محكوم عليه بالاعدام من قبل السجناء في سجن بئر السبع ولهذا نقلوه الى سجن الدامون وهو خبير في زرع الشقاقات بين السجناء . فمثلا كان يستدعي احد السجناء لمدة سبع ساعات للجلوس في ادارة السجن ليشككنا في هذا السجين .

وفعلا استطاع هذا الضابط ان يخلق معركة شفرات بين السجناء العرب اليهـود بسببي ؟. وضعوني في الزنزانة وجاء القنصل الاميركي في اسرائيل لزيارتي فقال القنصل بالحرف كل يوم تصنع مشكلة ، يجب ان تعلم انك سجين في اسرائيل وهي دولة مستقلة ذات سيادة .

قلت له : هل هذا موقف الحكومة الاميركية الرسمي من قضيتي :

قال نعم هذا هو . اذا قالوا لك اصنع قنابل وارصف شوارع يجب ان تنفذ .

قلت : انا ارفض هذا الموقف الرسمي وانا اسف لهذا وانت باستمرار تكرر لي ان اسرائيل دولة مستقلة وانا لا اريد ان اسالك لماذا تتدخلون في شؤون الاتحاد السوفياتي بسبب اناتولي شيرنسكي (صهيوني سجن في الاتحاد السوفياتي يعمل لصالح الاستخبارات الاميركية) ؟

قال القنصل: قصة شيرنسكي مختلفة كلية ولا يمكن مقارنتها بقصتك .

قلت له :انني اميركي المولد والجنسية ولا تتدخلون لانقاذي بينما تتدخلون من اجل شيرنسكي مع انه يهودي سوفياتي .

المهم ان القنصل الاميركي وقف مع ادارة السجن وقضيت سبعة ايام في الزنزانة الانفرادية بسبب رفض العمل في الكرخيا .

جاءت عائلتي لزيارتي فمنعوني من رؤيتها لانهم اعتبروا زيارة القنصل زيارة « عائلية » ولا يحق لي زيارة اخرى .

سجلوني في قسم التنظيفات لكن الضابط شكر رفض واعادني للزنزانة ، وجاء القنصل ومعه طالبة امريكية من حملة التضامن معي ويبدو ان القنصل مسح دماغها فبدأت الفتاة تقنعني بضرورة العمل .

قلت لها : مع الاسف ان موقف حكومتنا الاميركية هو ان اصنع قنابل وارصف الشوارع للاسرائيليين .

قال القنصل : لم اقل هذا .

قلت له لقد قلت بلسانك هذا الكلام .

فخاف القنصل وقال : اذا قلت هذا فانني اسحب كلامي .

وعدوني ان اعمل في المنجرة بعد تدخل فيليتسيا ، فقد كانت فيليتسيا كالمرأة الحامل تريد ان تلدني فقضيت الوقت في المنجرة .

كنت في هذه الفترة اقرأ كثيرا بعض الكتب المهربة وعلى سبيل المثال قرأت كتابا ــ ضد الاتحاد السوفياتي ــ كانوا قد وزعوا نسخا كثيرة منه ومع هذا فقد ازداد حبي للاتحاد السوفياتي بعكس ما ارادوه .

وقرأت المادية التاريخية والجدلية والاقتصاد السياسي الماركسي وبعض القصص وكتاب مهرب لتوفيق زياد اسمه « تصراوي في الساحة الحمراء » .

في ١٩ ــ ١٠ ــ ١٩٧٨ وضعوني في شاحنة . كنا فيها مقيدين وتوجهنا الى سجن الرملة . كنت اكل ما تبقى من طعام السجناء ولهذا اصبحت في حالة يرثى لها . وكان قد نخر جسدي مرض جلدي بسبب عدم النظافة .

وسجلت لطبيب الجلد الذي كانوا قد وعدونا بحضوره ومرت ثلاثة اشهر ولم يأت . ودفعت نقودا كاشتراك في بعض الجرائد قبل ستة اشهر من خروجي وادعوا انها وصلت في يوم خروجي حيث « لطشوا المصاري » وعرفت فيما بعد ان اهلي ارسلوا لي شيكات ولكن لم استلم شيئا منها .

لا يهم فانا اليوم في سجن الرملة لمدة ليلة واحدة حيث سيفرج عني . وفي الصباح ارسلت لي فيليتسيا عشرين دولارا من نقودها الخاصة كهدية . واخذوني بسيارة الى مطار اللد وانا مقيد بالكليشات . وحين اوشكت الطائرة على الاقلاع الى نيويورك فكوا قيودي . صعدت سلم الطائرة وانا ارفع علامة النصر للصحفيين الذين تجمعوا . وقبل ان تصل الطائرة الى نيويورك بقليل سلموني جواز سفري وحين حطت الطائرة في مطار نيويورك استقبلني اهلي واساتذتي ، وحين اخذت طائرة اخرى الى مدينة لانسنج التي اقيم فيها وحطت الطائرة في المطار شاهدت مئات من المواطنين والطلبة يرفعون العلم الفلسطيني والشعارات المؤيدة للثورة الفلسطينية واقامت لجنة حقوق الانسان احتفالا كبيرا .

اعترف وليم وبستر (مكتب التحقيقات الفيدرالي) في ندوة اقامتها مجموعة صهيونية تعمل على جمع المعلومات ، اعترف انه سلم معلومات كاملة عني للحكومة الاسرائيلية ونشرت الخبر صحيفة يهودية هي « جويش تلغراف آجنسي » ، لقد سلمتني الاستخبارات الامريكية للذئاب .

لقد سبق ان قدم القنصل الاسرائيلي في شيكاغو ــ اثناء وجودي في السجن ــ الى جامعتي في لانسنج واجتمع مع الاساتذة ليقنعهم انني مخرب وخطير ، وانهم لا يعرفون عني شيئا ، وانهم يجب ان يشكروه لانه كشفني ، على حد تعبيره . ولكن اساتذتي رفضوا اقواله ووقعوا على عريضة تطالب باطلاق سراحي . كذلك اصدر مجلس بلدية ديترويت عريضة تطالب «اسرائيل» باطلاق سراحي ، ولكن الصهاينة ضغطوا على مجلس البلدية فسحبت العريضة . كذلك ارسلت السفارة الاسرائيلية في واشنطن ٣٠ الف نسخة من منشور تشرح فيه سبب اعتقالي وتصفني بالمخرب ، ولكن جامعتي رفضت الاتهامات واصدرت نشرة لعدة اعداد ترفض هذه الادعاءات . وهكذا عدت من تجربة قاسية مريرة ولكن هذه التجربة ساهمت في تصليب شخصيتي . فسلاما لشعبي اينما كان ، سلاما للسجناء في سجون الاحتلال ، سلاما للثورة الفلسطينية ، وسأظل مع شعبي حتى ينتصر .

اعدها وكتبها عز الدين المناصرة

تقارير

زيارة عرفات للبرتغال والمؤتمر العالمي للتضامن مع الشعب العربي وقضيته المركزية فلسطين

لشبونة من ٢-٦/١١/١٩٧٩

الانشطة التحضيرية

الاهمية الاولى لهذين الحدثين انهما اظهرا مدى الوزن والتأثير اللذين لمنظمة التحرير الفلسطينية على الصعيد العالمي ، ومدى اتساع التأييد للمنظمة على هذا الصعيد . وهذا المؤتمر الذي اشترك فيه ممثلو ٢٢٥ هيئة ومنظمة وحزبا ، سبقته انشطة تحضيرية واسعة للغاية امتدت خلال شهور هذا العام .

ويمكن معرفة مدى اتساع هذه الانشطة من خلال استعراضنا التالي لها : فقد ابتدأت فكرة عقد مؤتمر عالمي اولا ، بتوجه قرره مجلس السلم العالمي في العام الماضي لعقد مؤتمر من هذا النوع من اجل التضامن مع الشعب الفلسطيني بالذات . واقترحت لشبونه مكانا لعقده ، غير ان اسبابا تتعلق بظروف القوى البرتغالية التي ستتحمل اعباءه، جعلتها تطلب منحها فرصة اطول للتحضير له ، بينما كان مجلس السلم العالمي قد قرر عقد المؤتمر ، وهكذا انعقد في بازل في ايار ١٩٧٩ بدل لشبونه . الا ان القوى الديمقراطية في البرتغال بقيت عند استعدادها لاستضافة مؤتمر آخر للتضامن مع الشعب الفلسطيني .

وعندما قررت « الامانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي » الدعوة لمؤتمر عالمي للتضامن مع الشعب العربي جرى تداول حول المكان المناسب له . وكانت الاراء تتراوح بين عقده في بلد عربي او اوروبي غربي او اشتراكي . وهنا بادر « مجلس السلم والتعاون البرتغالي » ، الذي تتمثل فيه القوى البرتغالية الديمقراطية ، فجدد الاعلان عن استعداده لاستضافة مؤتمر كهذا في لشبونه . هذا الاستعداد افصح عنه الجانب البرتغالي في اول اجتماع عقدته اللجنة التحضيرية للمؤتمر العالمي (التي تشكلت بمبادرة من الامانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي) في روما ، وتمت الموافقة في (اللجنة على عقد المؤتمر في لشبونة .

والجدير بالذكر ان هذه اللجنة التحضيرية العالمية تتكون من ممثلي ٦٨ حزبا وهيئة من مختلف القارات ، ويضمنهم بطبيعة الحال ممثلون عن الامانة الدائمة العربية ، التي تضم في عدادها ممثلين عن منظمة التحرير . وقد شكلت اللجنة الدولية« سكرتارية تحضيرية » تتابع العمل التفصيلي ، يتمثل فيها ١٤ هيئة وحزبا من اعضاء اللجنة العالمية وبضمنهم ممثلو . م . ت . ف . بوصفهم اعضاء في الامانة العربية . واعضاؤها هم ممثلوا الهيئات المشاركة من كل من الاتحاد السوفياتي ، وكوبا ، من الدول الاشتراكية ، البرتغال وايطاليا واليونان من دول اوروبا الغربية ، وجنوب افريقيا من افريقيا ، وكذلك ممثلو مجلس السلم العالمي والاتحاد العالمي للنقابات والاتحاد العالمي للشباب الديمقراطي والطلاب ، بالاضافة لممثلي الامانة الدائمة العربية .

عقدت هذه السكرتارية العالمية سلسلة من الاجتماعات ، بهدف التحضير لعمل المؤتمر ، وذلك في بيروت .

(اذار ١٩٧٩) ، واثينا (ايار ١٩٧٩) ، وطرابلس الغرب (آب ١٩٧٩) ، ولشبونه قبل ايام من افتتاح المؤتمر .

وخلال هذه الاجتماعات المتتالية ، وضعت السكرتارية التحضيرية العالمية هذه خطة عمل واسعة للتحضير للمؤتمر الكبير .

وفيها اتفق على ان تقدم له اوراق عمل ثلاث تتناول الموضوعات الثلاثة التي سيناقشها ، وهي :

١ ــ الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني ،

٢ ــ الوضع في الاراضي العربية المحتلة ، والصهيونية ،

٣ ــ المخططات الامبريالية والسياسية والاميركية في المنطقة وحق الشعب العربي في مقاومتها .

وتقرر ان تناقش هذه الموضوعات ، كل على حده ، في ثلاث ندوات منفصلة تسبق انعقاد المؤتمر .

وانعقدت على هذا الاساس ندوة في هلسنكي في اوائل حزيران ١٩٧٩ ، تركز الحضور فيها اساسا على ممثلي البلدان الاسكندنافية ودول البلطيق . كما حضرها ممثلو عدد من الاطراف المعنية ويضمنهم م . ت . ف ، التي قدمت ورقة عمل اخذت كاساس لمناقشات الندوة . اما الموضوع الذي اختصت به الندوة فهو الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني . وتم وضع الورقة المطلوبة للمؤتمر باسم الندوة .

والندوة التالية شهدتها باريس في تموز ، وفيها نوقش الموضوع الثاني وهو الوضع في المناطق المحتلة ، والصهيونية ، على اساس ورقة العمل التي قدمتها م . ت . ف . ايضا . وهنا لم يتم تبني الورقة الفلسطينية بكاملها ، ذلك ان عددا من الاحزاب الاشتراكية الاوربية بالاضافة للحزبين الشيوعيين الفرنسي والايطالي ، تحفظت ضد بعض الاراء الواردة حول الصهيونية ، مما حال دون التبني الكامل لها .

ثم انعقدت ندوة ثانية في طرابلس في اواخر آب ١٩٧٩ وموضوعها هو المخططات الامبريالية والسياسية الاميركية ، الخ . وقد واجهت هذه الندوة مشكلة تتصل بالموقف من الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) . ذلك ان احدى الاوراق المقدمة للندوة والتي تتصل بالتضامن مع الشعب اللبناني ، وردت فيها عبارة تنص على ان كل الاحزاب الموجودة في اسرائيل صهيونية . هذا النص اعترض عليه المندوب التشيكوسلوفاكي وايده آخرون . ووقع الخلاف بشأنه أيضا بين الوفود العربية المشاركة من جهة ، ووفد م . ت . ف . من الجهة الأخرى ، الذي استذكر قرار المجلس الوطني الفلسطيني حول النقطة ذاتها .

ان الندوة تمكنت في النهاية من اعداد الورقة المطلوبة حول موضوعها الاصلي ، في حين ظهر ان الوفود العربية ، باستثناء الفلسطيني ، تعارض مشاركة راكاح في المؤتمر العالمي .

مع توالي هذه الندوات اجرت السكرتارية اتصالات واسعة شملت العالم كله . وقامت ثلاثة وفود من قبلها بجولات في كل من افريقيا واوروبا الغربية والمنطقة العربية . وهذا الوفد الاخير بالذات رئسه غوستاغوميس رئيس الجمهورية البرتغالية السابق ، احد انشط الذين اشتركوا في العمل لانجاح المؤتمر .

وعلى هامش المؤتمر تقرر ان تجري انشطة ثقافية فلسطينية في البرتغال تسبقه وترافقه وتتبعه ، فيما تشبه حملة واسعة لتعريف الرأي العام البرتغالي بالوجه الحضاري للشعب الفلسطيني .

زيارة عرفات

اثناء اجتماعات اللجنة التحضيرية وفي وقت مبكر من عملها انبثقت فكرة دعوة الاخ ياسر عرفات لحضور المؤتمر . وتمت الموافقة على توجيه الدعوة له بالاجماع مع الحماس الشديد ، وهي دعوة قبلها عرفات . وفي ايلول الماضي زار كاتب هذه السطور لشبونة تلبية لطلب من اللجنة التحضيرية البرتغالية ، بوصفه احد ممثلي م . ت . ف . في السكرتارية الدولية ، وذلك من اجل تنشيط الاعدادات الجارية بين يدي المؤتمر ، وترتيب برنامج الانشطة

الثقافية الفلسطينية على هامشه . وفي اثناء هذه الزيارة وبالتشاور مع اعضاء اللجنة البرتغالية تم الاتفاق على الاتصال بالحكومة البرتغالية ، من اجل توجيه دعوة رسمية من قبلها لعرفات . والجدير بالذكر ان اللجنة البرتغالية تضم في عداد اعضائها ممثلين عن الاحزاب البرتغالية الرئيسية كلها ، واهمها الشيوعي والاشتراكي بالاضافة لعدد من الشخصيات الوطنية . وقد جرى بالفعل اتصال مع الامناء العامين للحزبين : الشيوعي (الفارو كونهال) والاشتراكي (ماريو سواريس) ، وكذلك مع عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي الديمقراطي « باتسماو » . للتنسيق بهذا الصدد .

وقد ارسل الحزبان الشيوعي والاشتراكي ، بالاضافة لتأييدهما لتوجيه دعوة حكومية لعرفات،من جانبهما تباعا دعوتين للزعيم الفلسطيني . اما في الحكومة فقد جرت الاتصالات مع كل من ملوان تونس عضو مجلس قيادة الثورة ومع وزير الدولة البرتغالي للشؤون الخارجية ، اللذين رحبا بزيارة عرفات . ثم ارسلت الحكومة البرتغالية عبر الاقنية الدبلوماسية رسالة رسمية بهذا الصدد تظهر ترحيبها بزيارته واستعدادها لاستقباله رسميا . وتحدد عبر هذه الاقنية موعد الزيارة في ١٩٧٩/١١/١ بحيث تسبق موعد انعقاد المؤتمر بيوم واحد .

وعندما وصل عرفات في الموعد المتفق عليه ، كان في استقباله في المطار وزير الخارجية البرتغالي ممثلا للحكومة ، بالاضافة لاعضاء السكرتارية العالمية للمؤتمر . واستقبل فور وصوله الامناء العامين للحزبين الشيوعي والاشتراكي في مقر اقامته ، ثم عقد اول لقاء لـه مع المسؤولين الحكوميين وذلك مع وزير الخارجية في مقر الوزارة . والتقى بعده مع السيدة ماريو بيتا سيليو رئيسة الوزراء في مقرها . وشهد اليوم نفسه لقاء القمة بين عرفات ورئيس الجمهورية البرتغالي . وفي اليوم الثاني تم لقاء شديد الاهمية هو الآخر في مقر مجلس قيادة الثورة ، اشترك فيه اربعة من اعضائه . ثم خطب عرفات في مهرجان جماهيري كبير نظم خصيصا للاحتفاء به . وهذا اللقاء مع الجماهير بالاضافة للمؤتمر الدولي ، ميز زيارة عرفات للبرتغال عن زياراته المماثلة لبلدان اخرى في اوروبا الغربية .

الاستقبال واللقاءات كلها سادها جو من الود والترحيب متميز ، واخصها من هذه الناحية لقاء عرفات مع رئيسة الوزراء . واهم ما يمكن ذكره من انباء هذه اللقاءات ، بالاضافة لما اوردته مصادر الاعلام في حينه ، ان المسؤولين البرتغاليين عبروا عن تفهمهم لقضية ومطالب الشعب الفلسطيني ، وهم يؤيدون حقه في الحصول على الاستقلال وتقرير المصير ، وخاصة حقه في دولة مستقلة . وقد شرحوا موقفهم الذي يشتمل في الوقت نفسه على تأييدهم لتسوية عادلة في الشرق الاوسط قوامها قرارات الامم المتحدة التي تنص ايضا على حق جميع دول المنطقة في الوجود . وهم مما ذكروه عن تواضع دور البرتغال في السياسة الدولية ، مستعدون لتأييد حل يقوم على الاسس السابقة ومساندة اية مجهودات تتجه لتحقيقه . كما انهم حريصون من ناحية اخرى على تطوير علاقاتهم بالدول العربية ، آخذين بعين الاعتبار الروابط التاريخية التي ربطت الشعب البرتغالي بالعرب . ومن تحصيل الحاصل القول ان عرفات قد تبسط في شرح القضية الفلسطينية والموقف الفلسطيني . كما انه ابدى رغبة المنظمة في تطوير علاقتها مع البرتغال ، واستعدادها للاسهام في تعزيز العلاقات البرتغالية العربية عامة ، وتطوير التبادل الاقتصادي واوجه التعاون الاخرى بين الجانبين .

اما فيما يختص بفتح ممثلية للمنظمة في لشبونه ، وهو الموضوع الذي اثير خلال اللقاءات ، فان الجانب البرتغالي رأى ارجاء البت فيه الى ما بعد الانتخابات العامة التي ستجري في البرتغال في الثاني من شهر كانون الاول لهذا العام .

على الصعيد الآخر حضر عرفات جلسة افتتاح المؤتمر والقى كلمته فيها (انظر نصها في « فلسطين الثورة » ، ١٩٧٩/١١/٥) ، ثم استقبل عددا كبيرا من الوفود المشاركة فيها ، كما عقد جلسة للوفود العربية في المؤتمر وقدم لهم توجيهاته بصدد عمله .

اعمال المؤتمر

بعد جلسة الافتتاح توزع اعضاء المؤتمر على اربع لجان ، انصرفت ثلاث منها لمناقشة موضوعاته الثلاثة ، في حين تولت الرابعة اعداد برنامج تضامني يشتمل على مجموعة من الانشطة التي ستجري في الاعوام القادمة .

وهنا يصح ان نتوقف عند اثنتين من النقاط التي ثار بشأنها خلاف داخل السكرتارية العالمية في اجتماعها صبيحة افتتاح المؤتمر .

النقطة الاولى تتعلق بتوجيه الدعوة لتوفيق زياد وفليتسيا لانغر بصفتهما الشخصية . هذا الاقتراح وافق عليه الجميع باستثناء العرب الذين شذ عنهم ممثل م . ت . ف . وحده . وانتهى الامر بالسكرتارية العالمية الى طي موضوع الدعوة ، حتى لا تؤثر على عمل المؤتمر ازاء التشدد العربي .

ولما اجتمع عرفات بالوفود العربية حرص خلال حديثه معها على اظهار وتأكيد موقف المنظمة المعروف من هذه المسألة ، معبرا عن تقديره الكبير لهاتين الشخصيتين المناضلتين .

وكان الحزبان الشيوعيان الايطالي والفرنسي قد رهنا مشاركتهما في المؤتمر بتوجيه هذه الدعوة ، الا انهما شاركا فيه برغم عدم توجيهها ، وامام الالحاح الشديد عليهما من اللجنة التحضيرية الدولية ، وغيرها من الاطراف ، واكتفيا بتسجيل اعتراضهما على عدم توجيه الدعوة . اما النقطة الثانية التي اثارت نقاشا حادا في اجتماع السكرتارية العالمية فكانت حول الوثائق التي انبثقت عن ندوات هلسنكي وباريس وطرابلس . اذ كان مطلب الامانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي ان يتم تقديم هذه الوثائق للجان المؤتمر كوثائق وليس كأوراق عمل ، وان تتم مناقشتها واقرارها من قبل لجان المؤتمر وجلسته العامة بحيث تصبح وثائق صادرة عنه .

الا ان الاطراف الاخرى في السكرتارية الدولية ، ومعها ممثل منظمة التحرير ورئيس الوفد السوري ، رأت ان هذه الوثائق هي اوراق عمل مقدمة للجان . ويمكن ان تكون اساسا لمناقشتها وينتهي دورها بمجرد ان تصبح بين يدي اللجان ، وعن اعمال اللجان تنبثق التقارير التي تراها هي مناسبة وكذلك عن المؤتمر ، ومن ثم تصبح هذه التقارير وثائق صادرة عنه .

وقد اتصلت اجتماعات اللجان خلال ثلاثة ايام حتى فرغت من اعداد تقاريرها على ضوء الاوراق التي ناقشتها . ثم عرضت هذه التقارير على جلسة المؤتمر العامة وتمت المصادقة عليها . ومن روحها صدر بيان ختامي (راجع نصه في وفا ، ملحق خاص ١٧ / ١١ / ٧٩) .

ومن اجل ضمان استمرار فعالية المؤتمر وتأثيره انيطت بالسكرتارية التحضيرية العالمية ، التي مددت صلاحياتها ، مهمة متابعة تنفيذ قراراته ، وتنظيم سلسلة من الانشطة التضامنية مع كفاح الشعب العربي ، تغطي بلدان العالم ، وكان اول ما قررته بهذا الصدد هو ارسال وفد من قبلها سيرئسه غوستا غوميس الى الامم المتحدة ليقابل « كورت فالدهايم » امينها العام ، وينقل اليه قرارات المؤتمر .

ان نجاح المؤتمر يشكل انتصاراً جديداً على طريق الانتصارات التي تحققها قضية الشعب الفلسطيني في اوساط الراي العام العالمي ، ولا شك في ان هذا النجاح حققته جهود القوى كافة التي اسهمت في الاعداد له ، ويأتي في مقدمتها اللجنة التحضيرية البرتغالية ، وسكرتيرها التنفيذي سيلاس سيركويرا ، واللجنة التحضيرية العالمية ورئيسها عمر الحامدي .

عبد الله الحوراني

المجابهة الاميركية ــ الايرانية

شهدت مدينة طهران ، يوم ١٩٧٩/١١/٤ ، تظاهرة حاشدة ، نددت بالامبريالية الاميركية ، ودعت الى ضرب مصالحها في منطقة الشرق الاوسط . وقد توجه بعض المتظاهرين ، نحو السفارة الاميركية ، وقاموا باحتلالها ، واحتجزوا فيها ١٠٠ رهينة ، منهم ٦٠ اميركيا . وعملية الاحتلال هذه نفذها طلبة ايرانيون من انصار آية الله الخميني .

وروى احد الطلبة : « ان الخطة لاحتلال السفارة وضعت قبل اسبوعين ونصف الاسبوع ، وشملت كل التفاصيل . ولم يكن يعلم بالخطة ، حتى صباح يوم الاقتحام ، سوى ١٠ طلاب فقط . وقد جمعوا نحو ٥٠٠ طالب مسلم ، يوثق بهم ، من اربع جامعات ، وطلبوا منهم التوجه الى السفارة ، بعدما ابلغوهم ما يترتب عليهم عمله » (« النهار » ، ١٩٧٩/١١/١٢) . وطالب الطلبة الولايات المتحدة الاميركية بتسليم الشاه الذي يعالج فيها ، الى ايران ، في مقابل الافراج عن الرهائن . وقد ردت الولايات المتحدة على ذلك بالاعلان عن عدم استعدادها لتسليم الشاه ، مما ادى الى بدء تصاعد الازمة بين الولايات المتحدة وايران ، ودفع الى السطح بمجموعة من الظواهر ، كان ابرزها ثلاث :

١ ــ كشف ازمة السلطة داخل ايران .

٢ ــ وضع الولايات المتحدة الاميركية امام تجربة ، الخيارات فيها قليلة وصعبة ، وابراز اهمية عامل النفط كقوة اقتصادية سياسية .

٣ ــ اظهار اهمية الثورة الفلسطينية في المعادلة السياسية في منطقة الشرق الاوسط .

الصراع داخل السلطة الايرانية

شكل احتلال السفارة الاميركية حدا فاصلا في مسيرة الحكومة الايرانية التي رأسها مهدي بازركان بعد انتصار الثورة الايرانية في شباط ١٩٧٩ . فبعد احتلال السفارة، تعهد بازركان بالافراج عن الدبلوماسيين الاميركيين المحتجزين فيها . الا ان الخميني ايد عملية الاحتلال » (« الشرق الاوسط » ، ١٩٧٩/١١/٧) . وهكذا لم يبق امام رئيس الحكومة الايراني الا تقديم استقالته الى حاكم ايران غير المعلن آية الله الخميني . وفعلا قدم بازركان استقالته في ١٩٧٩/١١/٥ ، وجاء في بيان الاستقالة قوله : « نتيجة الخلافات المتكررة ، ونظرا الى التدخل والمعارضة واختلاف الاراء ، اصبح من المستحيل علينا ان نقوم بواجبنا ونستمر في تحمل مسؤولياتنا ...ان خلاص البلاد ونجاح الثورة في هذه المرحلة التاريخية الدقيقة ، لن يكونا ممكنين من دون وجود حكومة متحدة ومتفقة في الرأي ؛ لذلك اقدم استقالة حكومتي ، لتستطيعوا تعيين شخص آخر لتشكيل حكومة جديدة » (« النهار » ١٩٧٩/١١/٧) .

ويجدر التذكير بأن هذه ليست المرة الاولى التي يستقيل فيها بازركان ؛ اذ سبق له ان قدم استقالته مرتين ، الاولى في آذار (مارس) ١٩٧٩ ، عندما اخذ عليه الخميني « ضعفه وترفه وميوله الغربية » ؛ والثانية في تموز (يوليو) ١٩٧٩ ، عندما انتقد الخميني « عقليته المتسامحة » . وفي المرتين السابقتين تراجع بازركان عن الاستقالة ، بعد الاجتماع بآية الله الخميني . اما هذه المرة ، فقد ارسل استقالته من طهران ، فقبلها الخميني

واعلنها من قم . وقد سبق الاعلان عن قبول الاستقالة اجتماع بين الخميني ومحمد بهشتي نائب رئيس مجلس الخبراء ، الذي قال بعد الاجتماع : « ان ايران في حاجة الى الاستقرار » (« السفير » ١٩٧٩/١١/٧) .

وقد اوضح مهدي بازركان واقع السلطة في ايران ، في حديث له مع الصحافية الايطالية اوريانا فالاتشي ، حين قال لها : « اذا ما قلت اني في القيادة ، فهذا لن يكون صحيحا ، واذا ما قلت ان الخميني هو القائد الوحيد ، فهذا لن يكون دقيقا ، واذا ما قلت ان في القيادة العديد من الناس ، فهذا لن يكون واضحا » (« الشرق الاوسط » ، ١٩٧٩/١١/٧) .

ويمثل بازركان التيار المدني الليبرالي في الثورة وفي السلطة الايرانية ، فهو يتزعم حركة تحرير ايران التي اسسها في عام ١٩٦٣ ، والتي اصبحت اقوى الاحزاب في عهد الشاه ، مما دفع الاخير الى حظر نشاط الحركة . وكان بازركان سابقا من المقربين الى الدكتور مصدق ، كما عمل في الجبهة الوطنية الى جانب كريم سنجابي وشاهبور بختيار بعد سقوط مصدق . ويتهم معارضو بازركان ، من انصار آية الله الخميني ، حكومة بازركان بممالأة الامبريالية الاميركية . وبعد احتلال السفارة اعلنت هذه الاتهامات بشكل صريح من قبل انصار الخميني الذين اعتمدوا ، في اثبات الاتهام ، على ايراد ذكر اجتماع بازركان ووزير خارجيته ابراهيم يازدي ووزير الدفاع مصطفى شمران ، الى بريجنسكي مستشار الرئيس الاميركي لشؤون الامن القومي ، عندما كانوا في الجزائر ، قبل اكثر من اسبوع من تاريخ احتلال السفارة . وقد اعلن النبأ حجة الاسلام احمد الخميني نجل الامام الخميني ، وقال : « ان رئيس الوزراء لم يعلم والدي مسبقا باجتماع الجزائر » . كما حمل الطلاب ومؤيدوهم على بازركان بسبب تلك الاجتماع ، وقالوا : « ان رئيس الوزراء يجلس مع الذئاب الاميركيين » (« السفير » ، ١٩٧٩/١١/٧) .

وقد عرض قضية الخلافات بين انصار آية الله الخميني وحكومة مهدي بازركان ، جلال الدين فارسي عضو اللجنة المركزية في حزب الجمهورية الاسلامية ، وعضو مجلس الخبراء ، في مقابلة صحافية ، عدد فيها موضوعات الخلاف وصنفها في اربع قضايا هي :

« ١ ــ قضية العلاقات الايرانية ــ الاميركية ؛ اذ تريد الثورة انهاء العلاقات الخاصة التي كانت قائمة بين عهد الشاه وبين اميركا .

« ٢ ــ قضية العلاقات الايرانية ــ الفلسطينية ؛ اذ وقفت الثورة بقوة ضد كل المحاولات التي بذلت من داخل الوزارة ضد قطع العلاقات الدبلوماسية مع النظام المصري ، وانشاء علاقات خاصة ومتينة مع منظمة التحرير الفلسطينية .

« ٣ ــ قضية اعادة بناء الجيش على اسس جديدة .

« ٤ ــ قضية الاممية الاسلامية في مواجهة الاقليمية الايرانية » (« السفير » ، ١٩٧٩/١١/١٠) .

ويرى فارسي ان احتلال السفارة الاميركية هو « في حقيقته هجوم على سياسة الحكومة تجاه اميركا ، لان العلاقات الايرانية ــ الاميركية ، كانت احد ميادين الصراع مع الثورة المضادة منذ بداية عهد الثورة » (« السفير » ، ١٩٧٩/١١/١٠) .

وقد حاولت حكومة مهدي بازركان ، في آخر اجتماع لها ، قبل استقالتها ، دفع هذا الاتهام ، فاعلنت الغاء معاهدتي التعاون المعقودتين بين ايران وروسيا في عام ١٩٢١ ، وبين ايران والولايات المتحدة في عام ١٩٥٩ ، وهما معاهدتان تسمحان لكلتا الدولتين بالتدخل العسكري في الاراضي الايرانية عند الحاجة . لكن ذلك الالغاء لم ينف الاتهام عن حكومة بازركان ، وحسمت مسالة السلطة ، في هذه المرحلة ، لمصلحة المجلس الثوري الذي كلفه الامام الخميني بتسيير شؤون المرحلة المؤقتة التي تنتهي باقرار الدستور واجراء الانتخابات في ايران .

الصراع مع الولايات المتحدة الاميركية

تنطلق الثورة الايرانية ، في عدائها للولايات المتحدة ، من منطلق ان الولايات المتحدة دعمت حكم الشاه باستمرار ، وانها اعادته الى السلطة بعد ان اسقطت حكومة الدكتور مصدق في ١٩٥٣ . ويتساوى العداء للشاه ، لدى الايرانيين ، مع العداء للولايات المتحدة . ولا نتناول الامور اذا قلنا ان السفارة الاميركية هي التي اعدت الانقلاب ضد مصدق واشرفت عليه . لذا ، شعر الايرانيون بأن قبول الشاه في الولايات المتحدة قد ينطوي على اعداد لعملية مشابهة لما حدث في ١٩٥٣ ؛ فكانت عملية احتلال السفارة والمطالبة بتسليم الشاه . وقد جاءت لهجة البلاغات التي اذاعها الطلبة من راديو طهران ، تشي بهذه التخوفات . فقد ورد في البلاغ رقم ١٥ ما نصه : « ان الجواسيس الذين هم رهائن لدينا ، يلقون منا عناية جيدة . ونحن نعلن لاميركا ان اي عمل عسكري ، او غير

عسكري سيؤدي الى تصفية جميع الرهائن ، والمسؤولية كلها ستقع حينذاك على الولايات المتحدة ... ان مركز التجسس والتآمر للولايات المتحدة سيبقى في ايدينا حتى النهاية » (« النهار » ، ٩/١١/٧٩) . وبعد احتلال السفارة ، شكلت الولايات المتحدة ، لمواجهة ذلك ، ما يشبه غرفة عمليات ضمت وزير الخارجية فانس ، ووزير الدفاع براون ، ووزير الطاقة دنكان ، وآخرين ، لتدارس الوضع ، واتخاذ الاجراءات التي تساعد في انقاذ الرهائن . وقد وجهت نداء الى كافة دول العالم لمساعدتها على انقاذهم ، فلقيت نداءاتها عددا من الاستجابات عبر عنها هودينغ كارتر الناطق الرسمي باسم الخارجية الاميركية ، الذي اعلن : « ان الولايات المتحدة اجرت اتصالات بعدد من الدول الاخرى ، وكل واحدة قدمت نوعا من المساعدة » (« النهار » ، ٨/١١/١٩٧٩) .

اما داخل الولايات المتحدة فقد ثارت مشاعر عدائية لايران ، عبرت عنها الصحافة وشجعتها الادارة . وانطلقت في واشنطن دعوات للقطيعة مع ايران ، ومن هذا القبيل ما افصحت عنه الـ « واشنطن بوست » ، حين قالت : « ان الجماعات المختلفة التي تتطاحن من اجل السلطة ، بدأت سباقا معاديا لكل ما هو اميركي ، وبالتالي ، فان واشنطن لم يعد لها دور تقوم به ... وبشكل خاص لا نرى سببا لاستمرار السفارة الاميركية في طهران ، او البعثة الايرانية في واشنطن في مثل هذه الظروف » (« الشرق الاوسط » ، ٧/١١/١٩٧٩) . لكن الرئيس الاميركي طلب من الاميركيين التحلي بالصبر . اما الاجراءات العسكرية فقد استبعدت الادارة الاميركية اللجوء اليها كما ذكرت البيانات الصادرة عن وزارة الخارجية .

وفي اطار الحملة الدبلوماسية لاطلاق سراح الرهائن ، اوفد الرئيس الاميركي وزير العدل السابق رمزي كلارك ، يرافقه احد اعضاء مجلس الشيوخ ، الى طهران . لكن الوفد الاميركي توقف في اسطنبول ، عندما ردت طهران على خبر ايفاد كلارك ببيان اذاعه الخميني على الشعب ، وجاء فيه : « نرفض رفضا باتا استقبال عملاء اميركا ، ولا يحق لاعضاء المجلس الثوري [ولأي موظف كبير] استقبالهم ... اننا قدمنا اقتراحا الى الاميركيين ... وهو : تسليم الشاه ، او طرده » (« السفير » ، ٩/١١/١٩٧٩) .

على صعيد ماخر ، اتصل كلارك بممثل منظمة التحرير الفلسطينية في اسطنبول ، طلبا للمساعدة ، كما اتصل السناتور الاميركي فيندلي برئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات في الموضوع نفسه ، ووجه بالمقابل رسالة الى كارتر ، يطلب فيها منه توجيه رسالة مباشرة الى عرفات للتدخل لدى طهران . وقد ترافقت هذه الاتصالات مع ذهاب وفد فلسطيني برئاسة رئيس غرفة عمليات منظمة التحرير العميد سعد صايل « ابو الوليد » الى ايران ، لشؤون تتصل بالعلاقات الايرانية ــ الفلسطينية ، مما روج شائعات عن وساطة فلسطينية . ولكن الادارة الاميركية اكدت في تصريح هودينغ كارتر انه « لم تجر اتصالات مباشرة بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية ، حول رحلة وفد المنظمة الى طهران في مهمة وساطة » (« النهار » ، ٨/١١/١٩٧٩) .

الفلسطينيون طرف وليسوا وسيطا

قلنا ان زيارة الوفد الفلسطيني الى طهران ، ترافقت مع انتشار شائعة عن وساطة فلسطينية . وقد اعلنت وزارة الخارجية الاميركية عن امتنانها لذلك . فقد قال هودينغ كارتر : « ان منظمة التحرير الفلسطينية ستؤدي خدمة تتميز بمسؤولية كبيرة ، اذا ساعدت في ضمان الافراج عن ٦٠ رهينة اميركية في السفارة الاميركية في طهران ... اننا نرحب بمثل هذه المساعدة » (« النهار » ، ٩/١١/١٩٧٩) . ورد الطلاب الايرانيون على تلك الشائعات ببيان قالوا فيه : « اننا على اتصال مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ونحن نتوقع من اخواننا الفلسطينيين ان يتبعوا خط الامام الخميني ، ويمتنعوا عن بذل الجهود السياسية » (« السفير » ، ٩/١١/١٩٧٩) . وقد سبق للطلاب ان قاموا برفع العلم الفلسطيني الذي يحمل صورة الاخ ابو عمار والامام الخميني (« وفا » ، ٧/١١/١٩٧٩) .

اما الثورة الفلسطينية ، فقد قطعت الطريق على الشائعات عندما اصدرت بيانا جاء فيه : « ان اي تحرك ممكن ان تقوم به الثورة الفلسطينية ، انما ينطلق ، اولا وقبل كل شيء ، من علاقتها الحميمة مع ثورة الشعب الايراني ومع قيادته الحكيمة والشجاعة ... لان ما يربط بين الثورتين انما هو علاقات مصيرية ... لذا كانت حركتنا في هذا الاتجاه ، مع الاخوة الايرانيين ... وبالطريقة التي تخدم مصلحة ومستقبل الشعب الايراني الشقيق » (« وفا » ، ٨/١١/١٩٧٩) . كما ادلى العميد صايل في طهران ، بتصريح نفى فيه ان يكون قد حضر الى ايران للتوسط بشأن السفارة الاميركية ، مؤكدا ان الثورة الفلسطينية ترفض التوسط في مثل هذه القضايا ، لانها تخص الثورة الايرانية (« وفا » ، ٩/١١/١٩٧٩) . وعلى الجانب الايراني ، نفى جلال الدين فارسي وجود وساطة فلسطينية ، عندما قال : « نحن لم نبلغ عن وجود وساطة فلسطينية ، والذي نعرفه ان المقاومة الفلسطينية منا ، وانها طرف ، وليست وسيطا . ان الذي يتوسط يضع نفسه في الوسط بيننا وبين اميركا ، وانا

ضد ان تكون المقاومة الفلسطينية وسيطا » (« السفير » ، ١٩٧٩/١١/١٠) . ولم يتم ، بعد ، اتصال اميركي رسمي بمنظمة التحرير الفلسطينية ، للتوسط في موضوع الرهائن ، والاعتقاد السائد هو ان الولايات المتحدة لن تلجأ الى منظمة التحرير الا اذا اغلقت جميع الخيارات الاخرى في وجهها .

وقد بدأت الولايات المتحدة ، فعلا ، في محاصرة ايران اقتصاديا ، وهذا ما اعلن عنه الرئيس كارتر في بيان الى الشعب الاميركي قال فيه : « اني اصدرت الاوامر بوقف مشتريات كل انواع النفط من ايران التي تستخدم في الولايات المتحدة » (« النهار » ، ١٩٧٩/١١/١٢) ، علما بأن الولايات المتحدة تستورد من ايران ٦٠٠ — ٨٠٠ الف ب/ي ، اي ما يوازي ١٠٪ من النفط الاميركي المستورد ، وما يساوي ٤ — ٥٪ من الاستهلاك الاميركي . اما ايران ، فقد اعلنت حظر شحن نفطها الى الولايات المتحدة .

وعلى صعيد الوساطات ، لم يستجب الخميني ، حتى الان ، لاي منها ، وهو الذي قال لوسيط ارسله قداسة البابا : « لو كان يسوع المسيح حيا لادان اليوم كارتر » (« السفير » ، ١٩٧٩/١١/١٣) . اما الشاه المطلوب ، فقد اعرب عن استعداده لمغادرة الولايات المتحدة . وقد تبرع السادات فأعلن عن استعداده « لاستقبال شاه ايران ، والاطباء الاميركيين الذين يعالجونه ، وذلك لانقاذ الولايات المتحدة الاميركية من مأزقها الراهن في ايران » (« السفير » ، ١٩٧٩/١١/١٠) .

كيف ستتطور قضية احتلال السفارة الاميركية في طهران ؟ وكيف سيعالج الطرفان المأزق الراهن ؟ الاحتمالات كثيرة ، والخيارات صعبة ، تحكمها اعتبارات داخلية وعالمية في كلا البلدين . وقد طلب وزير خارجية ايران المكلف بمتابعة موضوع احتلال السفارة ، ابو الحسن بني صدر ، من مجلس الامن ، التدخل في الموضوع ، وابدى الامين العام كورت فالدهايم استعداده للتدخل . ان العالم ينتظر ، فهيبة الولايات المتحدة امام الامتحان .

احمد شاهين

شهريات

المقاومة الفلسطينية

١

المساهمة الفلسطينية في التحضير للقمة العربية

١ ــ مطلب التفاهم الفلسطيني اللبناني

هموم الجنوب اللبناني وما يصب فيها او يتفرع عنها من عناصر محلية وفلسطينية وعربية ودولية ، شغلت حيزا كبيرا من اهتمامات القيادات الفلسطينية ، ومثلها فعلت المسائل المرتبطة بانعقاد مؤتمر القمة العربية المتوقع . وقد كانت هذه وتلك موضع الدراسة في عدد من الاجتماعات القيادية تناولتها من جوانبها المتعددة . ففي ١٩٧٩/١٠/١٤ كان الوضع في الجنوب بين الموضوعات الاساسية التي تناولها اجتماع المجلس الثوري لحركة فتح ، الذي انعقد بحضور الاخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية القائد العام لقوات الثورة ، وغالبية اعضاء اللجنة المركزية للحركه وفيه « تم التاكيد على حرص الحركة على وحدة لبنان ارضا وشعبا ، واهمية الدفع باتجاه الوصول الى حل سياسي للمشكلة اللبنانية يحفظ سيادة ووحدة وسلامة وعروبة لبنان » ، كما تم التاكيد ايضا على « العلاقة المصيرية التي تربط الثورة الفلسطينية بالقوى الوطنية والتقدمية والقومية اللبنانية وسلامة وصحة نظرتها الى مسالة الجنوب اللبناني والقمة العربية القادمة » (وفا، ١٠/١٥) .

ولدراسة الموضوع ذاته انعقد برئاسة عرفات اجتماعان للقيادة الفلسطينية اللبنانية المشتركة : الاول في ١٠/١٩ تناول الوضع في الجنوب (وفا، ١٠/٢٠) والثاني في ١١/٩ ، وهو الاجتماع الذي اشترك فيه ايضا اثنان من اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية هما عبد الرحيم احمد واحمد صدقي الدجاني . وفيه بحثت عدة موضوعات وخاصة وجود المقاومة في جنوب لبنان ، واتخذت قرارات لمواجهة كافة الاحتمالات المتوقعة (وفا ، ١٠/١٩) .

وعلى صعيد قيادة منظمة التحرير عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعا في بيروت في ١٠/١٥ ناقش هذا الموضوع مع موضوعات اخرى ، كما عقدت اجتماعا ثانيا في ١١/٨ تناول ايضا الجهود المبذولة لعقد القمة العربية (وفا، ١٠/١٥ و١١/٨) . اما الجوانب العسكرية فقد جرى بحثها في اجتماع « المجلس العسكري الاعلى للثورة الفلسطينية » الذي ترأسه عرفات يوم ١٠/٢٦ (وفا ١٠/٢٦) .

هذه الاجتماعات المتعددة واجتماعات اخرى على مستويات اقل ، بلورت توجهات السياسة الفلسطينية وخطط العمل والتحرك الذي غطى ساحات واسعة .

اما الانباء التي تسربت في اواخر شهر ايلول الماضي حول « المبادرة الاميركية » لمعالجة الوضع في الجنوب ، وما نشرته مصادر غير رسمية من بعض بنودها ، فلم يأت ما يؤكدها رسميا من قبل الادارة الاميركية ، او يضيف اليها ، بل ان تصريحات المسؤولين الاميركيين التي تلت نشر هذه الانباء جهدت لكي تصور الامر وكأنه مجرد افكار متداولة لا ترقى الى مستوى الخطة المعدة والمقررة .

وبالرغم من هذا التحفظ الاميركي ضد الاعلان عن وجود خطة ، فان الاطراف المعنية كافة تصرفت على اساس انها موجودة ، مما يعني ان لدى هذه الاطراف معلومات لم تستقها من المصادر المنشورة وحدها . على اساس ذلك اعلنت القيادة الفلسطينية رفضها للمبادرة الاميركية (راجع : ف.ح. المقاومة الفلسطينية ، « شؤون فلسطينية » تشرين الثاني ١٩٧٩ ــص ١٥٠) . وموقفها هذا جرى ايضاحه بعد ذلك سواء من خلال البيانات والتصريحات التي توالت ، او في الاتصالات التي اجرتها مع الجهات اللبنانية والعربية الاخرى بين يدي مؤتمر القمة .

وفي غضون ذلك اتصلت جهود القيادة الفلسطينية من اجل الوصول لحل للوضع في الجنوب تتم صياغته بالتعاون مع كل من لبنان وسوريا، ويأخذ بعين الاعتبار طبيعة الوضع وعناصره كلها ، على اساس القناعة بأن متطلبات مجابهة العدوان والتوسع الاسرائيليين في الجنوب تشكل حجر الزاوية لاية سياسة عربية تتصدى لمثل هذا الحل . وهذا ما عبرت عنه افتتاحية « فلسطين الثورة » حين قالت : « ان المصلحة الوطنية والقومية تفرضان تنسيقا فلسطينيا ــ لبنانيا ــ سوريا على قاعدة المصلحة القومية المشتركة لمواجهة اسرائيل وعملائها داخل لبنان ، ولمواجهة المبادرة الاميركية ولاخذ قرارات عربية بالدعم والمساندة من مؤتمر القمة العربي » . وكذلك حين حذرت الذين يريدون حلا مطابقا للمبادرة الاميركية من أن السير وراء المبادرة ليس سوى « دعوة صريحة الى التأزيم الداخلي من جديد وجر لبنان الى نار الحرب والاقتتال الــداخلي » (« فلسطين الثورة » ، ١٠/٢٩) .

وبالرغم من ان اجتماع القمة الاخير (راجع : ف.ح. ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٠) بين عرفات والاستــاذ اليــاس سركيس ، رئيس الجمهوريــة اللبنانية ، قد خلق انطباعات متفائلة حول امكانية التوصل الى تفاهم فلسطيني ــ لبناني مشترك ، تكون سوريا في صلبه ، فان مسلك الدولة اللبنانية بعد ذلك ، وهي تجهد لاستقطاب التأييد العربي لوجهة نظرها الخاصة ، لم يطرأ عليه اي تعديل . اما القيادة الفلسطينية فقد اظهرت من جانبهــا الاستعداد الكامل لتسهيل ما تطلبه الدولة ، وخاصة ما يتصل برغبتها المعلنة في ادخال وحدات من الجيش اللبناني الى بعض مناطق الجنوب ، وذلك اذا تم التفاهم على تصور مشتــرك لمواجهــة المخاطــر الاسرائيلية فيه . وفي هذا الصدد اعلن صلاح خلف « ابو اياد » ، عضو اللجنة المركزية لفتح ، وعضو المجلس المركزي لمنظمة التحرير ، « انه لا يوجد في الثورة الفلسطينية ، والحركة الوطنية اللبنانية ، والجبهة القومية ، من يمانع في دخــول الجيش اللبناني الى الجنوب ، بخاصة اذا كانت مهمة هذا الجيش ان يقاتل من اجل استرجاع البقعة العزيزة من ارض لبنان من الخائن سعد حداد » . ثم قرن قوله هذا بالتساؤل : « لماذا لا يتحدثون عن اطماع اسرائيل في لبنان ... انهم يتجاهلون هذه الاطماع ويــركزون فقــط على الوجــــود الفلسطينــــي » (« السفير » ، ١٠/٨) .

وفي المنحى ذاته تحدث د. جورج حبش ، الامين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، الذي قال : ان موقفنا من دخول الجيش الى الجنوب مرتبط بالمهمة التي يدخل على اساسها ، « فاذا كانت هذه المهمة مقاتلة اسرائيل وعملاء اسرائيل في الجنوب ، المتمثلين حاليا بقوات سعد حداد ، فاننا سنكون متعاونين مع اي جيش يؤدي هذه المهمة ، اما اذا كان الهدف ــ وهذا ما يبدو حتى الان ــ هو التمهيد لمزيد من الضغط العسكري او السياسي على الوجود الوطني المسلح الفلسطيني واللبناني في الجنوب ، بهدف اجلائه عن هذه المنطقة الى شمال الليطاني ، فمن الطبيعي في هذه الحال ان نعترض ونرفض دخــول الجيش الى الجنــوب » (« الهدف» ، ١٠/٢٧) .

وفي المنحى ذاته ، ايضا ، تحدث نايف حواتمة ، الامين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، ولخص عناصر الخطة الاميركية الاسرائيلية ، ليظهر ان هدفها ، فيما يتصل بالجنوب ، هو اجلاء قوات المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية عنه . وذلك تحت شعار ظاهره بريء هو دخول الجيش ، بينما يراد في الحقيقة زيادة عدد قوات الطوارىء الدولية حتى تتحول الى قوات ردع دولية تحل محل القوات العربية ، ثم تتولى قوات اسرائيل ضبط ولجم قوات سعد حداد مع دخول رمزي لوحدة من الجيش اللبناني الى المنطقة التي يسيطر عليها من اجل ذر الرماد في العيون فقط . وعلى اساس معرفته هذه ببنود الخطة الاميركية ــ الاسرائيلية خلص حواتمة الى القول : « علينا ان نمزق كل الاثواب والشعارات

الديماغوجية التي تتستر هذه الخطة بها ، حتى تصبح مرئية على حقيقتها لاعرض الجماهير ، وكونها خطة لتصفية المقاومة والقوى الوطنية في جنوب لبنان ، لا خطة ادخال للجيش اللبناني الى الجنوب » (« الحرية» ، ٢٩/١٠) .

والواضح انه بالرغم من توفر رغبة القيادة الفلسطينية واصرارها على التعاون مع الدولة اللبنانية ، على اساس تعزيز صمود الجنوب ضد اسرائيل وضد السياسة الاميركية ، وبالرغم ايضا مما اشاعه لقاء عرفات وسركيس ، فان زاويتي النظر اللبنانية والفلسطينية بقيتا مختلفتين . وهذا الاختلاف اوضحته جريدة « النهار » فيما نسبته لمصدر فلسطيني لم تفصح عن اسمه ، على اساس ان الجانب اللبناني يحاول معالجة قضية الجنوب من منظور ضيق ، فيحصر همه في ارسال الجيش الى بعض المناطق الجنوبية ، وفي تجييش رأي عام ضاغط على الفلسطينيين وغير ذلك من الامور . (« النهار » ، ١٩/١٠) .

وقد القى حديث عرفات مع الشاذلي القليبي ، الامين العام لجامعة الدول العربية ، حين التقاه في دمشق ، ضوءا جليا على حقيقة الموقف الفلسطيني ازاء المسألة من منظورها الشامل .

ففي هذا الحديث قال عرفات ، في معرض رده على مقترحات استعرضها القليبي ، ناقلا في سياقها وجهة النظر اللبنانية كما سمعها من المسؤولين في بيروت ، قال عرفات : « ان اسرائيل تنفذ مع الولايات المتحدة واطراف عميلة محلية مؤامرة تستهدف رأس المقاومة الفلسطينية ، وهي تريد هذا الانسحاب [الفلسطيني] الذي يجري الحديث عنه ، لتحقق انتصارا مجانيا لن يكون الا حلقة في سلسلة تنوي انجازها كلها » . وذلك في وقت « يعرف فيه العرب كلهم والعالم كله ايضا ان اسرائيل لن تقف عند مطلب معين من لبنان حتى ولو انسحبت المقاومة الفلسطينية الى بيروت » . وفي الحديث تذكير بأن اسرائيل قاتلت سبعة اشهر متتالية ، وشنت حملات شرسة على المخيمات الفلسطينية والمواقع والجماهير اللبنانية ، من اجل ان تفرض الانسحاب على الفلسطينيين ، وهو الانسحاب ذاته الذي يجري الحديث عنه مجددا ، بالرغم من ان الهجمات العسكرية الاسرائيلية ذاتها فشلت في فرضه . وقد وصف عرفات مطلب الانسحاب هذا بأنه « يشكل في الحقيقة ارضية المبادرة الاميركية التي اعلنا رفضنا لها باعتبارها مؤامرة في مخطط كامب ديفيد » ، معتبرا ان هذه المؤامرة « تريد من العرب ان يفرضوا علينا بالحياء ما عجزت اسرائيل عنه بالحرب » .

اما عن جماهير الجنوب فان المقاومة الفلسطينية ، طبقا لحديث قائدها العام ، هي المعنية بها ، وهي التي « ترى ضرورة تخليصها من الجحيم الذي تعيشه ، لكن هذا الحل [القائم على الانسحاب الفلسطيني] لن يكون الا تنازلا سيجعل اسرائيل توسع دائرة شراستها الى مناطق جديدة في الجنوب ، [بينما] الحل الوحيد الذي يمكن ان يخلص الجنوب من محنته ، ويحافظ على كرامة العرب وسمعتهم ، هو وقوف العرب موقفا جادا ، يوفر عناصر الصمود لجماهير الجنوب اللبناني ، ويوفر عناصر المواجهة للقوى التي تتصدى للمؤامرة الاميركية الاسرائيلية ، وبشكل خاص لسوريا والمقاومة الفلسطينية » . (« السفير » ، ٢٧/١٠) .

واظهر عرفات للقليبي ، من جديد ، ان « منظمة التحرير الفلسطينية مع وحدة لبنان ارضا وشعبا ومع بسط شرعية الدولة اللبنانية على كل اراضيها وادخال الجيش اللبناني الى الجنوب كله » (المصدر نفسه) .

وفي هذا الحديث ايضاح للمنظار الفلسطيني ، والنظرة الفلسطينية الشاملة . وهي تتلخص ، كما رأينا ، بأن لا تعارض بين تعزيز الصمود في الجنوب ضد اسرائيل واتباعها ، وبين بسط شرعية الدولة اللبنانية عليه ، مثلما انه لا تعارض بين المحافظة على الحقوق الفلسطينية التي نصت عليها الاتفاقات المبرمة مع السلطة اللبنانية ، وبين ممارسة هذه الشرعية . وفي كل الاحوال ، فان منظمة التحرير ، كما قال رئيسها عرفات ، « تعتبر ان المواجهة هي مع المؤامرة الكبرى ، مع كامب ديفيد ومسيرة السادات . لذلك فانها ، وبالاتفاق مع اشقائها العرب ، وبخاصة السوريين ، ستواجه اية محاولة لتمرير المؤامرة الاميركية سواء من خلال القمة العربية او خارجها » . (المصدر نفسه) .

وفي سياق المساعي التي لم تتوقف من قبل القيادة الفلسطينية بأمل الوصول الى تفاهم مشترك فلسطيني لبناني ، التقى صلاح خلف في ٢٨/١٠ مع رئيس الحكومة اللبنانية د. سليم الحص . وكان

هدف اللقاء زحزحة بعض العقد التي تحول دون تحديد بنود هذا التفاهم المنشود . وقد امتنع الجانبان عن الادلاء بأي تصريح بعد انتهاء الاجتماع ، في حين نسبت الصحافة لمصادر حكومية لبنانية انها وصفت نتائج اللقاء بأنها « معقولة وغير سيئة » ، مع نفيها ان يكون الجانبان قد توصلا الى ترجمة عملية للتفاهم المبدئي الذي تم بينهما قبل شهر من هذا اللقاء الاخير . واتضح ، زيادة على هذا ، ان الحركة الوطنية اللبنانية ما تزال متحفظة حيال دخول الجيش الى الجنوب (« النهار » ، ١٠/٢٩) .

وفي السياق ذاته التقى عرفات ود. الحص في اول ايام عيد الاضحى لقاء شهد مداولة حول الموضوع ذاته ، وامتنع الجانبان بعده ، ايضا ، عن الادلاء بأي تصريح . ومع ذلك فان هذا اللقاء الودي اسهم في مواجهة اشاعات متشائمة سبقته عن احتمال تأجيل انعقاد القمة بسبب عدم الاتفاق على موقف مشترك بشأن الجنوب (« السفير » ، ١٠/٣١) .

وفي ١١/٨ ، بعد عودة عرفات من لشبونة ، وزيارته لكل من بغداد ودمشق ، وعشية اجتماع اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير من اجل مناقشة آخر التطورات ، استقبل د. الحص وفدا فلسطينيا ضم خليل الوزير« ابو جهاد » ، عضو اللجنة المركزية لفتح ، وعبد المحسن ابو ميزر ، الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية ، واثنين آخرين من اعضائها ، هما احمد صدقي الدجاني وحبيب قهوجي . هذا اللقاء وصفه ابو ميزر بأنه « تم بمبادرة من الرئيس الحص [وانه] حلقة من حلقات ستتبعه تستهدف تعميق التنسيق الفلسطيني اللبناني على قاعدة صمود لبنان والثورة الفلسطينية بما يكفل المصالح الحقيقية للشعب اللبناني والفلسطيني » . ولما سئل ابو ميزر عما اذا كان قد امكن التوصل الى تصور معين في اطار هذا التنسيق ، اجاب « إن هذا اللقاء ليس الاخير ، ولذلك فاننا ما زلنا في دور تبادل الافكار بروح عميقة من المسؤولية الوطنية والقومية » (وفا ، ١١/٩) . والواضح ان اوصاف ابو ميزر للقاء ، بالرغم مما تنطوي عليه من مجاملة ، لا تؤكد ان فرص تحقيق تفاهم فلسطيني لبناني بين يدي القمة العربية هي فرص محققة ، الا ان اقواله هذه تعني ، في المقام الاول ، ان المنظمة راغبة في ان تستقصي اي فرص من هذا النوع ، مهما ضؤلت ، وذلك تعبيرا عن تمسكها بأهمية تحقيق هذا التفاهم كأساس لتجنب الدخول في مجابهة في القمة ، تشغلها عما هو اهم ، وهو بحث امكانية تعزيز الصمود العربي عامة ، في وجه سياسة كامب ديفيد .

٢ ـ المطالب الفلسطينية في القمة

وفي الوقت الذي كانت تتوالى فيه الاتصالات الفلسطينية اللبنانية ، كانت الساحة العربية تشهد ، هي الاخرى ، سلسلة من الاتصالات التحضيرية من اجل مؤتمر القمة . وهي اتصالات شملت اطراف القمة كلها ، ونشطت بصفة خاصة في هذه الفترة لتشمل امرين اثنين : موضوعات القمة ، وموعد انعقادها . واذا كان قد تم البت في ان القمة ستنعقد في تونس ، وفي أن انعقادها سيتم تطبيقا لقرار سابق من قمة بغداد ، وليس تلبية للمطلب اللبناني الرسمي من اجل مناقشة موضوع الجنوب وحده ، فان موعد انعقادها هو الذي لم يكن قد بت فيه حتى يوم اعداد هذا التقرير (١١/١٤) . الا انه امكن الاتفاق على ان ينعقد مؤتمر لوزراء الخارجية في الرابع عشر من تشرين الثاني . وهذا المؤتمر هو الذي سيحدد موعد القمة . ولو سارت الامور في مؤتمر وزراء الخارجية بحيث لا يقع ما ليس في الحسبان ، فمن المنتظر ان يكون الموعد المبدئي ، الذي سبق الاعلان عنه ، وهو العشرون من تشرين الثاني ، او اي موعد قريب منه ، هو التاريخ الذي ستلتئم فيه قمة تونس .

على الجانب الفلسطيني لم تظهر اية تحفظات ، لا بالنسبة لانعقاد مؤتمر القمة ذاته ولا بالنسبة لموعده . وقد صرح فاروق القدومي « ابو اللطف » ، رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير ، في وقت مبكر ، بأن القمة ستنعقد وستعالج الوضع في الجنوب اللبناني ، وذلك في اطار معالجتها للقضايا العربية الاخرى المتعددة التي سيطرحها جدول الاعمال . واشار الى مؤتمر وزراء الخارجية الذي سيسبق القمة من اجل التحضير لعملها (« فلسطين الثورة » ، ١٠/١٢) .

وفي سياق الاعدادات لتنسيق الموقف بين يدي القمة ، التقى عرفات وبصحبته اثنان من اعضاء اللجنة المركزية لفتح هما صلاح خلف ومحمد غنيم « ابو ماهر » ، مع الرئيس السوري حافظ الاسد في ١٠/٢٣ في دمشق (وفا ، ١٠/٢٤) ، حيث تم في هذا

اللقاء ، وفي لقاءات اخرى تبعته بين مسؤولين فلسطينيين وسوريين ، وضع اسس وتفاصيل العمل الفلسطيني – السوري المشترك ، والطروحات المشتركة في القمة .

وفي السياق ذاته قام عرفات مع وفد فلسطيني ، ضم عبد الرحيم احمد ، عضو اللجنة التنفيذية ، ومحمد ابو ميزر ، احد مسؤولي العلاقات الخارجية في فتح ، بزيارة لبغداد في ٢٧/١٠ ، والتقى مع الرئيس العراقي صدام حسين ، وعدد آخر من المسؤولين العراقيين . هذه الزيارة وصفتها مصادر فلسطينية بأنها تمت « في اطار التهيئة لمؤتمر القمة العربي المقبل ، بحيث تجيء قرارات هذا المؤتمر متممة لقرارات قمة بغداد » . واشارت المصادر ذاتها « الى رغبة فلسطينية في المساعدة على تحقيق موقف سوري عراقي مشترك في المؤتمر » (« السفير » ، ٢٨/١٠) .

وقد وصف عرفات نتائج الزيارة بأنها كانت « ايجابية وتم خلالها تنسيق المواقف ازاء مجمل القضايا الراهنة ... [في] مواجهة مؤامرات كامب ديفيد ، والحكم المحلي داخل الارض المحتلة ، وما يحدث في جنوب لبنان والاعتداءات الاسرائيلية على شعبنا الفلسطيني واللبناني ، والتحديات الحضارية التي تواجه امتنا العربية ، وكل المتغيرات في الساحة العربية والدولية » . وقال ان هذه كانت اهم المواضيع التي تم بحثها مع الرئيس صدام حسين (« السفير » ، ٢٩/١٠) ، مفسحا المجال بهذا القول للاعتقاد بأن البحث تناول مواضيع اخرى .

اما عن اشاعات وجود ورقة عمل فلسطينية – لبنانية فقد اوضح انه « لا توجد ورقة عمل »كهذه ، « ولكن المهم ان يكون هناك اتفاق لبناني فلسطيني قبل المؤتمر » معززا بقوله هذا الانطباع الذي تركه مسلك المنظمة بمجمله ازاء هذه المسألة ، والذي تجلى فيه حرصها على تحقيق هذا الاتفاق قبل القمة تسهيلا لعملها . وقال عرفات ايضا في معرض حديثه عن زيارته لبغداد : « نحن نرحب بأن تكون المشكلة [اللبنانية] جزءا من موضوعات المؤتمر لان على المؤتمر ان يناقش الوضع العربي بكامله في مواجهة كامب ديفيد » (المصدر نفسه)

وخلال الزيارة ، وبعد التقائه بعرفات ، نوه نعيم حداد ، رئيس مكتب فلسطين والكفاح المسلح في القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم ، باهمية اللقاءات بين الحزب والثورة الفلسطينية ، وذلك على حد تعبيره « للوقوف بوجه المؤامرات والمخططات الصهيونية والامبريالية التي تحاك ضد امتنا العربية والثورة الفلسطينية » ، (« الجمهورية » ، بغداد ، ٢٩/١٠) .

وفي بغداد ايضا دعا عرفات الى استخدام سلاح النفط ، موضحا انه « لا بد ان نضع في حساباتنا التهديد باستخدام القوة في منابع النفط » ، ومؤكدا على ان « من حق امتنا العربية ان تستخدم كل اسلحتها بما فيها السلاح الاقتصادي لان المعركة ليست معركة عادية » (المصدر نفسه) .

وبعد زيارة بغداد انتقل عرفات الى الجزائر ليشترك في احتفالاتها ، في ١/١١ ، بالذكرى الخامسة والعشرين لانطلاقة الثورة الجزائرية. وقد انعقد في العاصمة الجزائرية لقاء قمة لرؤساء دول جبهة الصمود والتصدي ، اشترك فيه عرفات مع كل من رؤساء الجزائر وسوريا. وليبيا واليمن الديمقراطية . وفي هذا اللقاء ، الذي صدر عنه بيان مشترك موجز كانما ليؤكد على بقاء الجبهة واستمرارها ، جرى التداول ايضا بشأن موضوعات القمة العربية المقبلة .

ويمكن القول ان الاتصالات الفلسطينية بين يدي القمة ، سواء من خلال الزيارات واللقاءات ، ام المراسلات ، قد غطت كل البلدان العربية الممثلة فيها . ومن بين هذه الاتصالات جميعها برزت ، على نحو خاص ، اهمية التنسيق السوري الفلسطيني ، سواء فيما يتصل بمسألة الجنوب اللبناني ، او بالمسائل الاخرى الاشمل المطلوب مناقشتها في القمة . فالجانبان ، الفلسطيني والسوري ، تجمعهما هموم واحدة ، وتصورات مشتركة ، يتصل اخصها بضرورات تعزيز المجابهة العربية لمخططات كامب ديفيد وللعدوان الاسرائيلي بمجمله ، وللمؤامرات التي تنشط مستهدفة سوريا والمقاومة الفلسطينية كليهما . وهذا ما عبر عنه عرفات في خطاب القاه في ٢٥/١٠ في افتتاح مهرجان تضامني عالمي انعقد في دمشق حين قال : « ان الصمود في الجبهة الشرقية والشمالية مهم جدا ، بعد ان نقل السادات الجبهة الغربية الى صفوف الاعداء . وان الجيش العربي السوري هو الذي يمثل الصمود في جبهتنا . من هنا افهم كل التحركات داخل سوريا

وخارجها ، ولماذا يتركز الهجوم المعاكس ضد سوريا وفي الوقت نفسه يتركز على ابادتنا مع اخواننا في الحركة الوطنية والتقدمية والجبهة القومية في جنوب لبنان ، كما يتركز على شعبنا داخل الارض المحتلة لفرض مؤامرة الحكم الذاتي » (وفا ، ١٠/٢٦) . وهذا ايضا ما حملم على القول ، بعد ان حضر لقاء قمة الجزائر ، ان اللقاء انعقد بمبادرة من الرئيس حافظ الاسد « باعتباره رئيسا لجبهة الصمود والتصدي ، انطلاقا مما تحمله سوريا من دور اساسي وفعال في الجبهة الشرقية » (« الثورة » ، دمشق ، ١٠/٧) .

وهو نفسه ما جعل صلاح خلف يشيد بالعلاقات الفلسطينية ـ السورية التي وصفها بأنها « علاقات استراتيجية تنطلق من موقع سياسي في مواجهة حلف كامب ديفيد » ، ويحذر من « اعوان الاستعمار [الذين] يبذلون محاولات لضرب هذه العلاقة ما بين سوريا والمقاومة الفلسطينية » . وقد اشاد خلف ايضا بتطور العلاقات السورية مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاخرى ، في معرض تعليقه على زيارة الاسد الاخيرة لموسكو ، واصفا هذه العلاقات بانها « استراتيجية ومميزة لان الاتحاد السوفياتي قلعة من قلاع الصمود العربي » ومؤكدا بمقابل ذلك « أن هناك حقيقة واحدة وهي اننا في حرب مع الولايات المتحدة ، وكل ما عدا ذلك مجرد اشاعات واقوال » (« تشرين » ، دمشق ، ١١/٨) .

على صعيد اخر ، وفي سياق المساهمة الفلسطينية للتحضير للقمة عبر التنسيق مع الحلفاء ، انعقد في دمشق ، في ١٠/٢٩ ، اجتماع ضم عرفات وعبد الحليم خدام نائب رئيس وزراء سوريا ووزير خارجيتها وعددا من قادة الحركة الوطنية والجبهة القومية في لبنان . وفيه تركز البحث على الوضع العام في المنطقة ، وعلى الوضع في جنوب لبنان . (وفا ، ١٠/٣٠) .

ومن خلال ما تقدم يصح الاستنتاج بأن القيادة الفلسطينية بذلت جهدا واسعا من اجل ان تنعقد قمة تونس لتستكمل نهج قمة بغداد في التصدي لحلف كامب ديفيد وسياسته ، ومن اجل أن يتحمل فرقاء القمة مسؤوليات اكبر في تعزيز قدرات الصمود والمجابهة التي تتصدى لها ، بصفة خاصة ، كل من منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا وحلفائها في لبنان . وكذلك من أجل ان يضطلع فرقاء القمة بما يرتبه عليهم من مسؤوليات الوضع في الجنوب اللبناني ، واولها وأهمها المحافظة على دور القوى التي تتصدى فيه لمجابهة اسرائيل .

وفي هذا الصدد قال نايف حواتمة عن النتائج المتوقعة من القمة ، ان طبيعتها تتوقف على « صلابة ودرجة موقف منظمة التحرير وسوريا وحركة الصمود العربية داخل القمة ، وعلى قاعدة : لا للخطط والتاكتيكات الاميركية الجديدة في لبنان وجنوبه » . (« الحرية » ، ١٠/٢٩) .

وطالب جورج حبش الدول العربية بأن « تفي بوعودها فتدعم كافة القوى الوطنية الفلسطينية واللبنانية ، التي تتصدى للاحتلال الصهيوني للجنوب وللهجمات الاسرائيلية المباشرة وغير المباشرة » . وقال : « ان على الدول البترولية القادرة ان توفر لجماهير الجنوب الدعم الذي يمكنها من الصمود . نحن مع قمة عربية تنعقد من اجل هذا الغرض ، وضد اية قمة هدفها الضغط على الثورة الفلسطينية لكي تجلو من منطقة الجنوب » (« الهدف » ، ١٠/٢٧) .

اما عرفات فقد أوجز ما ستفعله منظمة التحرير في القمة بقوله : « في القمة سأقدم خطة لمزيد من الصمود ، وسلاح النفط سيستخدم في الوقت المناسب ، اما الجنوب فهو جزء من استراتيجية شاملة » .

وطالب بضرورة « ضرب رأس الافعى وهي المصالح الاميركية في المنطقة » ، وذلك « كي يشعر الشعب الاميركي ان مصالحه في خطر » ، مبديا دهشته ازاء « المنطق الذي يقول بعدم علاقة اميركا المباشرة ، في الوقت الذي تعطي فيه اميركا لاسرائيل السلاح والمال والدعم السياسي والعسكري » . (« فلسطين الثورة » ، ١١/١٢ ، عن مقابلة مع ياسر عرفات في « النهار العربي والدولي ») .

ف.ح.

٢
النشاط الفلسطيني في الخارج

اتصلت الانشطة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية يوما بعد يوم ، في الساحة العالمية بشكل عام ، وفي اوروبا الغربية بشكل خاص . وفي ظل اتساع الاعتراف بالمنظمة على نطاق واسع ، كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، أخذ مزيد من الدول الغربية يدرك ان السلام في الشرق الاوسط لا يتم الا بمشاركة الفلسطينيين ، عبر ممثلهم م.ت.ف. ، مع الاقرار بحقهم في تقرير المصير واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة .

فقد قام فاروق القدومي ، رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بجولة اوروبية ناجحة ابتدأها بزيارة لبلجيكا في ٢٤ تشرين الاول ١٩٧٩ ، ملبيا دعوة رسمية قابل خلالها رئيس وزرائها ووزير خارجيتها ، هنري سمونيه ، وعقد معه اجتماعا حضره وزير خارجية النمسا الزائر ، فيليبي لد باهر بوصفهما عضوين في اللجنة التنفيذية للسوق الاوروبية المشتركة ، وهذا اول اتصال رفيع بين م.ت.ف. وبين اللجنة الاوروبية (السفير ، ٢٥/١٠/٧٩) .

وقد اعلن القدومي في مؤتمر صحفي عقده في بروكسل ، عقب مباحثاته مع وزير الخارجية البلجيكي ، انه « ممتن للموقف المتقدم الذي تقفه بلجيكا بشأن القضية الفلسطينية » . وقال انه كان هناك تشديد في المحادثات على الحاجة الى انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة ، وعلى الاعتراف بالحقوق الفلسطينية . وردا على سؤال حول احتمال اعتراف بلجيكا رسميا بـ م.ت.ف. ، قال ان المباحثات التي يجريها هي بمثابة اعتراف واقعي . اما سمونيه فقد ابلغ المؤتمر الصحفي المشترك ان الوقت لم يحن بعد لاعتراف رسمي ، مع انه يعتبر م.ت.ف. الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني . ووصف المنظمة بانها الوسيلة التي يعبر بها الشعب الفلسطيني عن ارادته ، وبانها تتحدث باسم اغلبية كبيرة من الشعب الفلسطيني . (السفير ، ١٦/١٠/١٩٧٩) .

وفي وقت لاحق اعلن سمونيه ان القدومي يتخذ نهجا معتدلا قريبا من سياسة عرفات ، كما اعلن ايضا ان م.ت.ف. اكدت له استعدادها للمشاركة في مفاوضات حول الشرق الاوسط مشابهة لمؤتمر جنيف عام ١٩٧٣ ، مع مشاركة الاتحاد السوفييتي ، وان اتفاقيات كمب ديفيد غير مقبولة (International Herald Tribune, Oct. 31, 1979) .

واجتمع فاروق القدومي بـ كلود شيسون ، المفوض الاوروبي لشؤون التنمية ، وبحث معه في مشكلة « الحوار بين الشمال والجنوب » ، حيث تشارك م.ت.ف. في هذا الحوار ضمن الجانب العربي . وقد تم هذا الاجتماع بعلم وموافقة روي جيكنز ، رئيس هيئة السوق الاوروبية . (فلسطين الثورة ، ٢٧/١٠/٧٩) . ومع انه لم يصدر اي بيان عن اللقاء فقد اعتبر من قبل المراقبين السياسيين بمثابة اعتراف بأن اي مساعدة قادمة للفلسطينيين ستكون من خلال م.ت.ف.
(International Herald Tribune, Oct. 31, 1979)

بعد هذا الاجتماع توجه القدومي الى العاصمة الايطالية تلبية لدعوة وزير خارجيتها ، فرنكو ماريا مالفاتي . وعقد معه محادثات تناولت العلاقات بين ايطاليا ومنظمة التحرير ، وصفها وزير الخارجية الايطالي بانها مفيدة . مؤكدا على ان ايطاليا تعترف بالدور السياسي الذي تلعبه م.ت.ف. (فلسطين الثورة ، ٢٨/١٠/٧٩) . « وقالت مصادر ايطالية ان ايطاليا تعتبر منظمة التحرير حقيقة سياسية

قائمة في الشرق الاوسط لكن ذلك بعيدا جدا عن الاعتراف الدبلوماسي الكامل . واضافت المصادر ان مالفاتي استبعد الاعتراف القانوني بمنظمة التحرير الفلسطينية لان مثل هذه الروابط لا يمكن اقامتها الا بين دول وحكومات . وان اعتبار ايطاليا منظمة التحرير الفلسطينية حقيقة سياسية قائمة هو امر يتمشى مع السياسة المشتركة لدول السوق الاوروبية المشتركة التسع . وقالت ايضا ان مالفاتي ابلغ القدومي ان خلافات اساسية بشأن محادثات كامب ديفيد ، وامن حدود اسرائيل ، لا تزال تفصل بين دول السوق الاوروبية المشتركة ومنظمة التحرير الفلسطينية . (السفير ، ٢٩/١٠/٧٩) .

واعلن مالفاتي ان محادثات روما كانت ايجابية جدا ، وان الاعتراف الكامل بمنظمة التحرير الفلسطينية كحكومة لا بد ان يسبقه تكوين تلك الحكومة ، واذن فالاعتراف السياسي ، في الوقت الحاضر ، يعتبر الشكل الارقى »

(International Herald Tribune, 31 Oct. 1979)

وفي ٢ تشرين الثاني ١٩٧٩ عقد المؤتمر العام للشعب العربي في لشبونة اجتماعا عالميا للتضامن مع الشعب العربي الفلسطيني . وقد حضر المؤتمر رئيس اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف. ياسر عرفات والقى خطابا . وكان هذا المؤتمر بمثابة انتصار كبير للقضية الفلسطينية .

اما على صعيد العلاقات الايرانية الفلسطينية ، فقد قام خليل الوزير (ابو جهاد) ، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ، وعضو القيادة العامة لقوات العاصفة ، بزيارة لايران في ١٢/١٠/٧٩ ، على رأس وفد فلسطيني يضم سعد صايل ، « ابو الوليد » قائد العمليات العسكرية في م.ت.ف. ، وصخر والعقيد فخري وغازي الحسيني . واستقبل الوفد ، في مطار مهرباد ، ابراهيم يزدي ، وزير الخارجية الايراني انذاك ، وهاني الحسن ، ممثل الثورة الفلسطينية في ايران . وتوجه ابو جهاد والوفد المرافق له مع وزير الخارجية الايراني الى باحة جامعة طهران حيث كان في استقبالهم سماحة الامام آية الله منتظري ، ووزير الاعلام ، ميناشي ، وعدد من كوادر الثورة الايرانية . وقبل بدء الصلاة وصل رئيس مجلس الوزراء الايراني آنذاك مهدي بازركان ، الذي رحب بالوفد . والقى ابراهيم يزدي

كلمة قدم فيها خليل الوزير الذي القى في المصلين ، الذين تجاوز عددهم مليون نسمة ، كلمة جاء فيها ان انتصار الثورة الأيرانية ووحدة الشعب وتغلبه على المشاكل سوف يعزز من صمود ونضال الشعب الفلسطيني والامة العربية في مواجهة كامب ديفيد والاطماع الاسرائيلية . (وفا ، ١٣/١٠/١٩٧٩ ، السفير ١٣/١٠/١٩٧٩) .

واجتمع الوفد الى عدد من المسؤولين في الثورة الايرانية وفي مقدمتهم آية الله منتظري ، ورئيس الوزراء آنذاك ، مهدي بازركان ، ووزير خارجيته ابراهيم يزدي ، ووزير الاعلام ، وحجة الاسلام هاشمي رفسنجاني ، وابو الحسن بني صدر ، عضو مجلس الثورة الايراني الذي تولى وزارة الخارجية بعد استقالة حكومة بازركان ، وكانت الاجتماعات كلها تدور حول العلاقات الفلسطينية الايرانية ، والعلاقات الايرانية العربية ، وآخر التطورات في الشرق الاوسط والجنوب اللبناني (فلسطين الثورة ، ١٤/١٠/١٩٧٩) .

وزار الوفد آية الله الخميني في مدينة قم . وعقدت جلسة خاصة لمدة ساعتين بين الامام الخميني وابو جهاد وابو الوليد وهاني الحسن ، بحثت فيها المواضيع التي ذكرناها سابقا ، وسلم ابو جهاد الامام الخميني رسالة من ياسر عرفات ، رئيس اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف. . واكد الخميني الموقف الايراني الثابت من القضية الفلسطينية ، واستعداد ايران لدعم الشعب الفلسطيني بكل الوسائل . وابلغ الوفد انه يتمنى ان يصلي في القدس قريبا ، والمطلوب هو برنامج عربي موحد لتحريرها . (وفا ، ١٥/١٠/٧٩ . السفير ، ١٦/١٠/٧٩) .

وقد زار ابو جهاد المقر المركزي للحزب الجمهوري الاسلامي ، حيث اجتمع مع الدكتور بهشتي ، والقى كلمة اشاد فيها بالثورة الايرانية التي اعطت دعما جديدا للثورة الفلسطينية ، وزار مجلس الخبراء الايراني ملبيا دعوة رئيس المجلس آية الله منتظري ، الذي القى كلمة ترحيبا بالوفد وتأييدا للثورة الفلسطينية ، كما القى ابو جهاد كلمة شرح فيها آخر تطورات القضية الفلسطينية (وفا ، ١٥ و١٦/١٠/١٩٧٩) .

وبعد جلسة مباحثات اخيرة مع وزير الخارجية الايراني حيث تم استعراض عام وشامل لجميع القضايا ذات الاهتمام المشترك ، دعي مديرو مكاتب

منظمة التحرير الفلسطينية في بلدان الخليج للانضمام الى الوفد الفلسطيني في ايران .

وتم اجتماع بين الوفد الفلسطيني الزائر ومديري مكاتب المنظمة في مقر م.ت.ف. في طهران ، وابلغ الممثلين بنتائج المحادثات المتعلقة بالبلدان التي يمثلون م.ت.ف. فيها « والتي تحمل اخبارا مطمئنة وطيبة للجميع » ، وسلموا رسائل الى رؤساء دول الخليج العربية تؤكد ان ايران اسقطت سياسة الشاه السابقة في ان تقوم بدور الشرطي في الخليج . و« قد عرض ابو جهاد مع ممثلي الدول العربية في طهران نتائج زيارته لايران . وخلال حفل استقبال اقامه السفير السعودي ، عميد السلك الدبلوماسي العربي ، جرى استعراض للوضع في الشرق الاوسط » . (فلسطين الثورة ، ١٦/١٠/٧٩ . السفير ، ١٧/١٠/١٩٧٩ . السفير ، ١٨/١٠/١٩٧٩) .

وعقد ابو جهاد مع رئيس الوزراء آنذاك جولة من المباحثات حول الوضع في الشرق الاوسط ، وفي الجنوب اللبناني ، وحول العلاقات بين ايران والخليج العربي . ثم شارك ابو جهاد في المهرجان الذي اقيم في مقبرة « بهشت زهرا » جنوب طهران ، لمناسبة مرور ٤٠ يوما على وفاة آية الله الطالقاني . وحضر المهرجان كبار مسؤولي الدولة واعضاء المجلس الثوري .

لقد كان لزيارة الوفد الفلسطيني لايران اهمية خاصة ، لانها ، كما وصفها خليل الوزير بعد عودته لبيروت ، « استهدفت دراسة الوضع السياسي الراهن ، وابعاد المخطط الاميركي ، وآخر تطورات قضية فلسطين ، والعلاقات الثنائية بين الثورة الفلسطينية والثورة الايرانية ، والوضع على الساحة اللبنانية وخاصة في الجنوب ، ثم العلاقات الايرانية — العربية وبالذات مع دول الخليج » . ولهذه الزيارة عدة نتائج منها ان الزيارة قد خرجت ، كما كان متوقعا سلفا ، بتوطيد وتعزيز العلاقة بين الثورة الفلسطينية والشعب الايراني . وان لهذه النتيجة معناها ودلالتها في هذا الوقت بالذات ، حيث كثرت المخططات ضد الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة . وقد اكد قادة الثورة الايرانية لابي جهاد ، وفي عدة مناسبات ، « ان عليهم دورا سينجزونه تجاه الثورة الفلسطينية ، بما في ذلك دعمها بكل السبل السياسية وغير السياسية » . اما النتيجة الثانية فهي دعم ايران للبنان وخاصة للجنوب ، حيث اكد قادة الثورة الايرانية انهم سيعملون على تعزيز التماسك والتلاحم اللبناني — الفلسطيني في الجنوب ، وتوفير كل سبل الصمود امام العدوان والابتزاز والضغط الصهيوني . والنتيجة الثالثة هي ان الثورة الايرانية « لا يمكن الا ان تكون الحليف الطبيعي للشعب العربي ، ولا يمكن الا ان تكون في موقع التكامل معه ، ... ، وانه لا تعارض بين الجهد العربي والثورة الايرانية بل تكامل فيما بينهما . وان ايران ستظل مع العرب ولن تكون ايران الشاه ، ولا ايران الشرطي » . (فلسطين المحتلة ، ٢٩/١٠/١٩٧٩ . السفير ، ٢٥/١٠/٧٩) .

ج.ن.

المناطق المحتلة

نهوض في مقاومة الاحتلال تحفزه قضية الشكعة

حفزت قضية ابعاد السيد بسام الشكعة ، رئيس بلدية نابلس ، سلسلة من ردود الفعل داخل المناطق المحتلة وخارجها ، وانشطة اشتركت فيها اوسع القطاعات الجماهيرية بالاضافة الى القيادات الوطنية . وبهذا تحولت القضية الى معركة مواجهة شاملة بين الشعب الفلسطيني ، وسلطات الاحتلال ، واجراءاتها الرامية الى تثبيت سيطرتها التي تجسدت في بناء المستوطنات ، ومصادرة الاراضي ومحاولات افراغ المناطق المحتلة من القيادات والشخصيات الوطنية ، واساسا مساعيها

للتمهيد لفرض مشروع الحكم الذاتي بالصيغة التي تريدها .

وكان واضحا خلال الفترة الاخيرة ، وبعد عجز اطراف كامب ديفيد ، ويضمنهم اسرائيل ، عن ايجاد طرف فلسطيني يقبل بمشروع الحكم الذاتي لاستخدامه ممثلا للفلسطينيين بديلا عن منظمة التحرير الفلسطينية . ان الخطة الاسرائيلية القائمة ، هي تدبير المكائد ، واستخدام كل الحجج الممكنة لطرد الشخصيات الوطنية من الضفة الغربية . وهي ان بدأت بتنفيذ مخططها هذا بمحاكمة رئيسي بلديتي رام الله والبيرة ، بحجة ضرب احد الحراس الاسرائيليين ، فانها لن تنتهي بقرار ابعاد الشكعة بتهمة تاييده لاعمال المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال ، استكمالا لنفس المخطط .

كيف ابتدعت سلطات الاحتلال قضيةابعاد الشكعة ؟

بدأت القصة عندما سربت وسائل الاعلام الاسرائيلية ، يوم ١٩٧٩/١١/٥ ، اقوالا منسوبة الى رئيس بلدية نابلس ادلى بها امام « منسق العمليات » في المناطق المحتلة الجنرال داني مات ، حيث كان يدور الحديث حول رفض بلدية نابلس جر المياه الى سكان المدينة من بئر حفرها الحكم العسكري . وما لبث اللواء مات ان سال الشكعة عن رايه بالاحكام التي صدرت ضد فدائيي عملية الساحل (عملية مجموعة دلال المغربي التي نفذت في ربيع العام الماضي على ساحل فلسطين المحتلة) . وقال الشكعة في معرض جوابه على سؤال الضابط الاسرائيلي « ان هذه العملية ، مثلها مثل سائر العمليات . وان الذين قاموا بها ، انما قدموا لاطلاق سراح اخوان لهم من سجون اسرائيل ، وان مسؤولية المجزرة التي حدثت تقع على عاتق اسرائيل ... وان العمليات التي يقوم بها رجال الكوماندوس الفلسطيني تعدها منظمات ، بينما تعد العمليات الوحشية التي تجري ضد الفلسطينيين دولة تريد القضاء على الشعب باسره » . (ر.أ.أ. ، العدد ١٩١١ ، ٧ ، ١٩٧٩/١١/٨ ، ص ٤) .

وبينما كانت جلسة الكنيست ، يوم ١٩٧٩/١١/٧ ، مخصصة للبحث في قضية التعيينات الوزارية الجديدة ، تحول النقاش فجاة الى موضوع تصريحات الشكعة . وتفاوتت مواقف معظم اعضاء الكنيست بين المطالبة بطرد الشكعة ، او محاكمته او اقصاءه عن منصبه . وعكست النقاشات التي دارت في الجلسة مدى قلق السلطات الاسرائيلية من تزايد نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية عالميا ، التي عكستها المواقف الوطنية الصلبة في الارض المحتلة . وفي هذا الاطار ، تحدث النائب شمعون بيرس عن اقوال الشكعة ووصفها بانها نابعة من سياسة الحكومة . ورد بيغن قائلا « لا يجوز مهاجمة الحكومة بسبب ازدياد قوة منظمة التحرير الفلسطينية في العالم ، كما لا يجوز اتهام حزب العمل باللقاءات التي تمت بين كرايسكي وبرانت عضوي الاشتراكية الدولية بياسر عرفات ... انتم تشنون الهجمات بسبب الصعوبات اليومية التي لا انفي وجودها ، لكن هجومكم علي لن يجدي » (المصدر نفسه) .

وبالفعل ، فقد اتخذت الحكومة الاسرائيلية قرارا يوم ١٩٧٩/١١/٨ يقضي بطرد الشكعة خارج فلسطين المحتلة . واثر الاستئناف الذي تقدمت به المحامية اليهودية التقدمية فيليتسيا لانغر اجلت المحكمة الاسرائيلية العليا تنفيذ قرار الطرد ، لحين البت في الشكوى المقدمة منها . وقامت السلطات الاسرائيلية بعد ذلك باعتقال الشكعة ، يوم ١٩٧٩/١١/١١ ، تمهيدا لابعاده . كما اجتمعت الحكومة الاسرائيلية يوم ١٩٧٩/١١/١٤ على شكل لجنة وزارية للأمن ، وقررت تنفيذ قرار الطرد بعد مصادقة المحكمة العليا على ذلك .

وحتى تاريخ كتابة هذه السطور ، في ١٩٧٩/١١/١٥ ، لا تزال السلطات الاسرائيلية ماضية في تنفيذ قرارها ، رغم استقالة جميع رؤساء البلديات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، رغم موجة الاستنكار العالمية التي قوبل بها هذا القرار .

ردود الفعل في الاراضي المحتلة على قرار طرد واعتقال الشكعة

مع الاعلان عن قرار الطرد ، شهدت مدن الضفة الغربية وقراها نشاطا سياسيا كثيفا ، سواء بعقد لقاءات للتنسيق بين رؤساء البلديات انفسهم لمتابعة التطورات ، واتخاذ مواقف مشتركة ، او باصدار بيانات الشجب والاستنكار والاضراب ، والتصدي لقوات الاحتلال .

ففي نابلس ، كشف الشكعة الاهداف الحقيقية للحملة الصهيونية ضده ، ووصفها بانها تستهدف ضرب الوحدة الوطنية لجماهير الشعب الفلسطيني

وتصفية الرموز الوطنية المناهضة للاحتلال الفاشي واستبدالها برموز عميلة ، ضد مصالح الجماهير واهدافها الوطنية . وعن لقائه بالجنرال مات قال الشكعة ، ان مات حاول استخلاص حكم مني بادانة العمل او تأييده ، لكنني بقيت مصراً على عمومية الحديث ، وتحليل الموقف العام ، وعملية الساحل بالذات ، وربطها بسياسة الاحتلال العدوانية في الارض العربية المحتلة وفي الجنوب اللبناني .

واضاف الشكعة انه اوضح خلال مقابلته للجنرال مات ، ان تلك العملية هي من عمل منظمة تضم افراداً فلسطينيين ، في الوقت الذي نرى فيه اسرائيل ، العضو في الامم المتحدة ، تمارس اعمال القتل علنا ، وعلى نطاق واسع ضد الشعبين الفلسطيني واللبناني في جنوب لبنان ، كما لا يخفي ذلك المسؤولون الاسرائيليون انفسهم . ولذا فان الرد على الظلم وانتهاك القوانين الدولية والانسانية هو حق تقره الشرائع الدولية والسماوية وبالأساليب المتوافرة .

واستطرد الشكعة قائلا ، ان ما حصل من اثارة للموضوع ، وبالشكل الذي تم في الصحافة والكنيست ، وما يمكن ان يترتب على ذلك ، لا يعدو كونه خطة مدبرة للنيل من الفئات والشخصيات الوطنية في المناطق المحتلة ، وخلق الظروف المواتية لذلك .

واضاف الشكعة ، ايضا ، ان المطالبة الهستيرية بمحاكمته تعتبر استكمالاللمحاكمة الصورية التي يتعرض لها كل من كريم خلف رئيس بلدية رام الله ، وابراهيم سليمان الطويل رئيس بلدية البيرة في قضية ملفقة . ويعتبر ذلك استمرارا للملف الطويل والضخم الذي تراكم بعد مسيرة الاستنكار ضد قيام مستوطنة الون موريه ، من اجل تحقيق الهدف الذي فات سلطات الاحتلال العسكرية آنذاك (وفا ، ١٩٧٩/١١/١٨) .

واصدر مجلس بلدية نابلس ، يوم ١٩٧٩/١١/٨ ، بيانا موقعا من جميع اعضاءه جاء فيه : « امام المحاولات المستمرة التي تقوم بها اجهزة الحكم العسكري في الضفة الغربية المحتلة تجاه البلديات عموما ، وتجاه بلدية نابلس بشكل خاص ممثلا برئيس البلدية حينا ، والمجلس البلدي واعضائه حينا آخر ... نعلن :

١ ــ ان المجلس البلدي رئيسا واعضاء متفقون بالاجماع على ما يلي :

أ) انهم جزء من الشعب الفلسطيني في كل اماكن تواجده .

ب) ليس من الممكن ابعادهم عن قضية شعبهم ، والتي هي قضية واحدة لكل فلسطيني .

ج) ان المجلس البلدي يعلن استنكاره لاستمرار الاحتلال والاجراءات المترتبة على استمرار[ه] تحت اي حجة كانت .

د) ان المجلس يعتبر استمرار الاحتلال عدوانا على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، وعودة مشرديه ، واقامة دولته المستقلة على ارضه .

هـ) ان المجلس البلدي يشارك الشعب الفلسطيني في كل مكان ، اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد له .

٢ ــ ان المجلس البلدي المنتخب من خلال الواقع ، كونه تحت الاحتلال ، يعتبر نفسه ذا صلاحيات للقيام بجميع الواجبات التي ينص عليها القانون طبقا لمصلحة البلدية الوطنية قبل كل شيء .

٣ ــ اننا نستنكر الاساليب الارهابية التي تمارسها سلطات الاحتلال العسكرية بين حين وآخر ضد المجالس البلدية ، ورؤسائها ، واختلاق الحجج لوضعهم تحت تهديد الاجراءات القانونية تمهيداً لتمرير مخططات كامب ديفيد ، والمخططات التصفوية ، بما فيها الحكم الذاتي . واخر هذه الاساليب حملة التحريض التي يتعرض لها رئيس البلدية اثر مقابلته لمنسق شؤون المناطق المحتلة » .

وطالب البيان ايضا بايقاف الحملات المغرضة ضد الشكعة ، واعتبر ان اي اجراء يتخذ ضده هو اجراء ضد المجلس ومواطني نابلس عامة (وفا ، ١٩٧٩/١١/٩) .

كما ارسل مجلس بلدية نابلس ، وموظفو وعمال البلدية ببرقيات استنكار الى كل من وزير الدفاع الاسرائيلي والحاكم العسكري للضفة الغربية المحتلة ، طالبوا فيها بوضع حد للاجراءات التي تتخذها سلطات الاحتلال ضد رئيس بلديتهم ، واعتبروا ان هذه الاجراءات موجهة ضد جميع المواطنين ، وليس ضد الرئيس فقط .

وفي يوم ١٩٧٩/١١/١١ ، وعلى اثر قرار الحكومة الاسرائيلية بطرد بسام الشكعة خارج فلسطين المحتلة ، اعلن الاضراب العام في جميع انحاء الضفة الغربية . وعقد مجلس بلدية نابلس

اجتماعا طارئا ، قرر فيه بالاجماع تقديم استقالة المجلس البلدي الى الحاكم العسكري .

كما عقد اجتماع شعبي شاركت فيه مئات من ممثلي مختلف القطاعات ، اعلن المجتمعون فيه ، تضامنهم ووقوفهم الى جانب المجلس البلدي ورئيسه الشرعي المنتخب ، واعتبار القرار الصادر بطرد رئيس البلدية غير قانوني وغير شرعي . واعلنوا كذلك ، استنكارهم لمصادرة الاراضي ، واقامة المستوطنات عليها ، وآخرها مصادرة ٧٠ الف دونم من اراضي منطقة جنين . ودعا بيان صدر عنهم المواطنين الى التضامن مع المجلس البلدي ، وناشدهم ان يكونوا في حالة انضباط وتأهب لمواجهة الخطوات المنتظرة (وفا ، ١٩٧٩/١١/١١) .

وفي القدس ، عقدت الهيئة الاسلامية العليا ، يوم ١٩٧٩/١١/١٠ ، اجتماعا تدارست فيه ابعاد وتطورات قضية الشكعة ، وارسلت في نهاية اجتماعها برقية الى عيزر وايزمن جاء فيها :

« ان الهيئة الاسلامية تابعت بقلق تطورات قضية بسام الشكعة ، رئيس بلدية نابلس . وترى الهيئة ان القضية عامة تخص جميع المواطنين في المناطق المحتلة ، وهي قضية انسانية شاملة ، تتعرض لحق اساسي من حقوق الانسان ، وهي حرية التعبير عن الراي ، وتخالف القوانين الدولية ... » . واعلنت الهيئة الاسلامية ، عن تضامنها مع بلدية نابلس ممثلة برئيسها وانها تضم صوتها الى جميع البلديات والمؤسسات المختلفة حول هذه التصرفات وتدعو السلطات الصهيونية الى التراجع عن قرارها . (وفا ، ١٩٧٩/١١/١١) .

واصدرت لجنة الطلاب الفلسطينيين في الجامعة العبرية بالقدس ، بيانا اوضحت فيه ان السلطات الاسرائيلية خططت لعملية ابعاد الشكعة منذ ان ولد برنامج الادارة الذاتية ، والأصح منذ ان مات هذا البرنامج في مهده . وقد نفثت جماهير شعبنا الفلسطيني بصمودها ووحدتها الوطنية الصلبة برنامج الادارة الذاتية ، المترتب على المؤامرة الثلاثية والحلف العسكري الصهيوني — المصري — الاسرائيلي .

وأكد البيان ، ان الشعب الفلسطيني لن يتنازل عن حقه في تقرير المصير حتى امام اشرس عمليات القمع والارهاب . وكما فشلت محاولات الابادة والتصفية في جنوب لبنان ، ستفشل حتما محاولة القضاء على الحركة الثورية المتمثلة في الجبهة الوطنية في البلديات والنقابات ، وكافة التنظيمات الجماهيرية في الضفة الغربية وقطاع غزة (وفا ، ١٩٧٩/١١/١٣) .

ونفذ طلاب المدارس في القدس ، يوم ١٩٧٩/١١/١٣ ، اعتصاما في مدارسهم احتجاجا على الاجراءات التعسفية التي تمارسها سلطات الاحتلال ضد بسام الشكعة ، وتضامنا مع الموقف الموحد لجميع المجالس البلدية ، والهيئات والمؤسسات الوطنية في الارض المحتلة (وفا ، ٧٩/١١/١٤) .

وفي رام الله والبيرة ، اعلنت الجماهير ، عبر مؤسساتها وجمعياتها في المؤتمر الشعبي الذي انعقد في قاعة البلدية يوم ١٩٧٩/١١/١٠ ، تضامنها الكامل ، واستنكارها لقرار سلطات الاحتلال ابعاد الشكعة عن مركزه الوطني في بلدية نابلس . وخرج المواطنون في رام الله والبيرة وبيرزيت بمظاهرات صاخبة يوم ١٩٧٩/١١/١١ ، ونددت المظاهرات بسلطات الاحتلال القمعية التعسفية .

كما عقد في مدينة رام الله اجتماع لرؤساء المجالس البلدية في الضفة الغربية ، حددوا فيه يوم الثلاثاء ١٩٧٩/١١/١٣ موعداً لتقديم استقالاتهم الجماعية في حالة عدم استجابة سلطات الاحتلال لطلبهم بالافراج عن الشكعة ، رئيس بلدية نابلس ، وعودته الى مزاولة مهام منصبه وخدمة ابناء المدينة . وقرأ كريم خلف رئيس بلدية رام الله على الصحافيين برقية موقعة من قبل ٢١ رئيس بلدية ، وموجهة الى وزير الدفاع الاسرائيلي ، هذا نصها :

« المجتمعون مساء اليوم (١٩٧٩/١١/١٢) في بلدية رام الله والممثلون لاحدى وعشرين بلدية ، قرروا ابلاغكم بقرارهم باستقالة جميع المجالس البلدية فورا في جميع مدن الضفة الغربية ، اذا لم يفرج عن الاخ بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ، وعودته لمزاولة عمله كرئيس للمجلس البلدي في نابلس ، معتبرين اعتقاله انتهاكا لحقوقنا الانسانية والوطنية » .

وفي الخليل ، اعلن فهد القواسمة رئيس البلدية ، بعد جلسة طارئة للمجلس البلدي يوم ١٩٧٩/١١/٩ حضرها ايضا رئيسا بلديتي دورا وحلحول ، انه

واعضاء المجلس البلدي سينفذون استقالاتهم الجماعية فورا اذا اقدمت السلطات الصهيونية على تنفيذ قرار الابعاد . وارسل المجتمعون برقية الى المسؤولين الاسرائيليين ، طالبوا فيها بالكف عن اساليب التهديد والوعيد التي تمارسها السلطات الصهيونية ضد العناصر الوطنية .

وعقد في الخليل ايضا يوم ١٢/١١/١٩٧٩ مؤتمر وطني شاركت فيه المجالس البلدية القروية في محافظة الخليل ، والجمعيات الخيرية ، والهيئات الدينية . واصدر المجتمعون بيانا جاء فيه :

منذ ان وطأت اقدام الاحتلال العسكري الاسرائيلي ارض فلسطين ، وهو يعد الخطة بعد الخطة لتنفيذ مبادىء الصهيونية بالاستيلاء على الارض قطعة قطعة ، ضاربا في سبيل ذلك القوى المعارضة ، متجاهلا نداءات الراي العام العالمي ، ومصعداً اقصى الممارسات الشاذة والانتهاكات اليومية والاستفزازية الموجهة ضد المواطنين في الارض المحتلة ، ومصادرة الاراضي واقامة المستوطنات في طول البلاد وعرضها ، والسجن وهدم البيوت على اصحابها وابعاد المواطنين ... وزادت كل الممارسات حدة وعنفا بعد مؤامرة كامب ديفيد .

واهاب البيان ، بوعي الشعب وادراكه ، وقدرته على تحطيم المؤامرة بصموده ، ورسوخه ، والخروج من النكسات اكثر ايمانا وقوة وصلابة .

واكد المجتمعون في بيانهم على المبادىء التالية :

١ ـ ان صمودنا وتمسكنا بحقنا لا يغير منه اسلوب العنف الجديد الذي تنتهجه السلطة العسكرية المحتلة ، ولا يزيدنا ذلك الا صلابة وقوة ، والتفافا حول قياداتنا الوطنية .

٢ ـ ان ابعاد رئيس بلدية نابلس ، او أي مواطن آخر انما هو خرق واضح لحقوق المواطن ، وانتهاك للقوانين والاعراف الدولية ، واعتداء على الحقوق الشخصية الوطنية ، وبالتالي اعتداء على حقوق كافة المواطنين في هذا البلد . ونطالب السلطات بالغاء قرار الابعاد بحق رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة .

٣ ـ ان شعبنا يؤكد وحدته وتماسكه والتفافه حول اهدافه الوطنية ، ويعلن مجدداً رفضه لمؤامرة كامب ديفيد ، وما تمخض عنها ، ويجدد عهده بالصمود حتى يحقق غايته الوطنية ، باقامة دولته الوطنية المستقلة بقيادة م.ت.ف.

٤ ـ نشجب سياسة الاستيطان ، ومصادرة الاراضي وسياسة القمع والتنكيل .

وفي جامعة بيت لحم ، عقد اجتماع جماهيري يوم ١٣/١١/١٩٧٩ شارك فيه رؤساء واعضاء مجالس بلديات من كافة مدن الضفة الغربية وقراها ، وممثلين عن الهيئات والمؤسسات الوطنية والشعبية . وصدر بيان اثر الاجتماع اكد على الرفض المطلق لخطة التسوية الامبريالية التي يتبناها الثالوث العدواني المتمثل في الامبريالية الاميركية واسرائيل والنظام المصري المرتد . واجمع المؤتمرون على تبني القرارات التالية :

١ ـ يشجب المؤتمر قرار سلطات الاحتلال بابعاد السيد بسام الشكعة والقيام باعتقاله ، ويصرون على المطالبة بالافراج عنه فورا والغاء كافة الاجراءات المتخذة ضده .

٢ ـ يعلن المؤتمرون ان ما صرح به الشكعة هو رأي كل مواطن ، وان الجميع يؤكدون انه من حق شعبنا استخدام كافة اشكال النضال التي يراها ملائمة بما فيه الكفاح المسلح من اجل استرداد حقوقه الوطنية .

٣ ـ يرى المؤتمرون في قرار السلطات هذا ، اجراء عملية تستهدف تهيئة الاجواء الملائمة لتنفيذ مشروع الحكم الاداري الذاتي الهزيل ، ولتفريغ الوطن المحتل من كل الاصوات الوطنية الرافضة لمؤامرة كامب ديفيد وما تمخض عنها .

٤ ـ يؤيد المؤتمرون الخطوة النضالية التي قامت بها البلديات بالاستقالة الجماعية ، ويطالبون البلديات بالاستمرار في موقفها المشرف .

٥ ـ يؤكد المؤتمرون ان م.ت.ف. وجماهير شعبنا الابي ستواصل الضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه الانجرار الى مستنقع مؤامرة الحكم الاداري الذاتي سيء الصيت .

٦ ـ يدعو المؤتمرون الى العمل على توسيع قاعدة العمل الجماعي ، وانشاء الاتحادات واللجان الشعبية .

٧ ـ يدين المؤتمرون سياسة الاستيطان ، ونهب الاراضي التي تقوم بها العصابات الصهيونية ، ويؤكدون على شرعية ملكية جماهيرنا لهذه الارض .

٨ ـ يرفض المؤتمرون كافة المشاريع ... الهادفة الى اعادة احياء مشروع المملكة المتحدة بثوب جديد .

٩ ـ تؤكد الجماهير المحتشدة في هذا المكان ، اصرارها على تصعيد حدة نضالها كجزء لا يتجزأ من مجموع نضالات شعبنا البطل ، حتى يتم تحطيم مشروع الحكم الاداري الذاتي .

١٠ ـ يؤكد المؤتمرون ، ان تعميق الوحدة الوطنية هي من اهم مستلزمات النضال ضد كافة المشاريع المشبوهة (وفا ، ١٩٧٩/١١/١٤) .

كذلك اعلن قطاع غزة وقوفه وتضامنه مع بلديات الضفة الغربية ، وقرر مجلس بلدية مدينة غزة الذي انعقد في منزل رئيسه رشاد الشوا ، انه يحتفظ بحقه في التصرف اذا لم تتراجع سلطات الاحتلال عن قرارها بابعاد الشكعة . واكد المجلس ، ان جماهير غزة جزء لايتجزأمن الشعب الفلسطيني الذي يناضل ضد الاحتلال الصهيوني ، ويتمسك بحقه الشرعي والطبيعي في تقرير مصيره واقامة دولته المستقلة ، ذات السيادة . ويؤكد ان م.ت.ف. ممثله الشرعي الوحيد (وفا ، ١٩٧٩/١١/١٠) .

جنين : وشهدت جنين ،تحركات جماهيرية واضرابات شارك فيها مختلف القطاعات في المدينة . وأرسل المجلس البلدي برقية الى وزير الدفاع الاسرائيلي ، احتج فيها على قرار السلطات الاسرائيلية ابعاد الشكعة ، واعتبرت هذا العمل موجها ضد شعبنا الذي رفض اتفاقية كامب ديفيد والحكم الذاتي . (وفا ، ١٩٧٩/١١/١١) .

وكذلك ، شاركت مجالس مدن وبلديات بقية الضفة الغربية في هذه التحركات الشعبية ، وارسلت برقيات استنكار الى المسؤولين الاسرائيليين ، كما شاركت في الاضراب الذي اعلن يوم الاحد ١٩٧٩/١١/١١ .

محاولة لشق الصف الوطني : في سياق تطورات قضية الشكعة ، حاولت السلطات الاسرائيلية ابراز بعض وجهات النظر التي اتخذها في البداية رؤساء البلديات في الضفة الغربية ، وكأنها خلافات على مواقف اساسية ، حيث ان رؤساء بلديات غزة ، وخان يونس ، والخليل ، وبيت لحم تريثوا في الاستقالة ، الى ان يتم اللقاء مع وزير الدفاع الاسرائيلي وايزمن . واشاعت الدوائر الاسرائيلية ان هناك خلافا بين من أسمتهم بالمتطرفين او المعتدلين من رؤساء البلديات ، وان « فتح طلبت من رؤساء البلديات عدم الاستقالة حفاظا على مواقعهم السياسية . ولكن الجبهة الوطنية في الضفة الغربية المقربة من التيارات اليسارية المنتمية الى جبهة الرفض طالبت رؤساء البلديات بالاستقالة فورا ، التزاما بالقرار الذي اتخذوه في ندوة رام الله » (ر.ا.ا. ، العدد ١٩١٥ ، ١٢ و١٩٧٩/١١/١٣ ، ص ٤) .

لكن جميع رؤساء البلديات في الضفة وقطاع غزة لم يمهلوا السلطات الاسرائيلية كثيراً من الوقت حتى حسموا الامر ، باعلانهم التوصل الى قرار متكامل ، بعد اجتماع عقدوه في مبنى بلدية رام الله ، حيث اعلن كريم خلف امام الصحافيين : « اذا لم يطلق سراح بسام الشكعة حتى يوم الثلاثاء ١٩٧٩/١١/١٣ ويعاد الى منصبه ، سنستقيل جميعا » (ر.ا.ا. ، العدد ١٩١٤ ، ١١ و١٩٧٩/١١/١٢ ، ص ٢) .

اما الصفعة الثانية التي تلقتها السلطاتالاسرائيلية ، كرد على محاولتها شق الصف الوطني ، فقد جاءت من قيادة المقاومة الفلسطينية ، التي أصدرت بيانا ، اثر اجتماع عقدته مساء ١٩٧٩/١١/١٣ ، دعت فيه جماهير الشعب الفلسطيني في الوطن المحتل الى مزيد من وحدة الصف والنضال المشترك ضد العدو ، ومخططاته التآمرية . وجاء في البيان :

تتصاعد المؤامرة التي رسمتها اطراف حلف كامب ديفيد ضد جماهير شعبنا وقضيتنا ، فبعد أن عجزت هذه الاطراف عن فرض مخططاتها الرامية الى تصفية قضية فلسطين ، وضرب طموح وآمال شعبها وحركته التحررية عبر مشروع الحكم الذاتي الذي رسم في أطار كامب ديفيد ، بعد هذا العجز يحاول العدو الصهيوني تفتيت وحدة شعبنا في الداخل ، ووحدة الموقف الوطني الذي صمد في وجه كافة المخططات ، وعلى راسها مخطط الحكم الذاتي التصفوي . ففي الوقت الذي يقوم به العدو بمصادرة الاراضي العربية ، واقامة المزيد من المستوطنات عليها ، ويركز من وجوده الاستيطاني العنصري يحاول الان ضرب الموقف الوطني عبر محاولة تفتيت القوى الوطنية والمجالس البلدية والقروية ، ومحاولة بلبلة جماهيرنا الملتفة حول هذا الموقف ، وحول

الرموز الوطنية التي التزمت به وقادت النضال في هداه .

ان قيادة فصائل الثورة الفلسطينية اذ ترى في هذا المخطط محاولة جديدة من سلطات الاحتلال لاحكام قبضتها على ارضنا المحتلة ، ولضرب مقاومة جماهيرنا الشعبية المناضلة لمخططاتـه ، تدعـو بوضوح ، وبما لا يدع اي مجال للبس او غموض من جماهير شعبنا في الداخل ، بأن ترص صفوفها ملتفة حول الموقف الوطني الرافض والمقاتل لمشروع الحكم الذاتي ، كما تدعو جماهيرنا في الداخل بأن تلتف حول الموقف الوطني المرتبط بالنضال ضد مشاريع وخطط العدو الصهيوني في وطننا المحتل ، وفي المقدمة مشروع الحكم الذاتي .

وانطلاقا من وعيهـا وادراكهـا لمسؤولياتهـا التاريخية ، فان القيادة الفلسطينية في اجتماعها المنعقد في ١٢ تشرين الثاني ١٩٧٩ تؤكد على ما يلي :

اولا : دعوة رؤساء البلديات والمجالس القروية كافة الى اتخاذ موقف وطني موحد من اعتقال رئيس بلدية نابلس الاخ بسام الشكعة ، وذلك بالانضمام الى زملائهم الذين قدموا استقالاتهم احتجاجا على قرارات واجراءات العدو الصهيوني بحق بلديـة نابلس .

ثانيا : كما تدعو قيادة الثورة الفلسطينية جماهير شعبنا في الداخل ، الى تصعيد نضالها ضد اجراءات العدو الصهيوني ، الهادفة الى الانفراد بالبلديات الوطنية الواحدة تلو الاخرى ، في محاولة لتمزيق الصـف الوطنـي الفلسطينـي تمهيداً لفـرض مشروع الحكم الذاتي .

ثالثا : ان قيادة الثورة انطلاقا من ادراكها لخطورة الظرف تحمل رؤساء البلديات والمجالس القروية مسؤولية تاريخية في التصدي الجماعي ، والموحـد للمخططـات الصهيونيـة الامبرياليـة ، بالتضامن الكامل مع بلدية نابلس ، وفي التصدي لاي محاولة لبلبلة صفوف الجماهير وصرفها عن الالتفاف الكامل حول الموقف الوطني الذي عبر عنه البرنامـج السيـاسي المرحلي لمنظمـة التحريـر الفلسطينية ، في حق شعبنا بالعودة وتقرير المصير ، واقامة الدولة الوطنية المستقلة على ارضه ، دون قيد او شرط .

ان قيادة الثورة الفلسطينية ، تحيي الموقـف الشجاع لمجلس بلدية نابلس ، وتقدر عاليا تضامن جميع المجالس البلدية الوطنية التي تضامنت فورا مع بلدية نابلس بموقف جماعي احبط خطة العدو بالاستفراد ببلدية نابلس . كما تحيي قيادة الثورة جماهير شعبنا المنتفضة في الاراضي المحتلة ، التي تؤكد اصرار شعبنا على مواصلة الكفاح حتى دحر الاحتلال ، واتفاقات كامب ديفيد واسقاط معاهدة الخيانـة المصريـة ـ الاسرائيليـة (وفـا ، ١٤/١١/٧٩) .

رغم ان قضية ابعـاد الشكعـة ، استأثـرت بالاحداث التي جرت في المناطق المحتلة خلال الشهر الماضي ، فان خلفية هذا الابعاد ترجع الى النشاط السيـاسي الواسـع الـذي قامـت به مختلـف الشخصيات ، والهيئات ، والجماهير الوطنيـة في الارض المحتلة ، والذي اوجد حالة وطنية عامة تسود في الاراضي المحتلة ، كان لها اثر كبير في بلورة قرار الحكومة الاسرائيلية بطرد الشكعة خارج فلسطين المحتلة .

ويبدو ان قرار السلطات الاسرائيلية هذا ، هو خطوة اولى ستتلوها خطوات من النوع نفسه ويتأكد هذا من خلال الاجراءات التي بدأت السلطـات الاسرائيلية اتخاذها في الضفة الغربية وقطاع غزة ضد الجبهة الوطنية برغم انها قائمة في الاراضي المحتلة منذ ما قبل حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

ورغم ان الجهات الاسرائيلية اعلنت الجبهـة منظمة غير شرعية ، فان القرار اتخذ بعد تأكدها من العلاقة التي تربطها مع منظمة التحرير ، فان واقع الامر غير ذلك . فقد ربطت المصادر الاسرائيلية هذا القرار بقرب موعد الانتخابات البلدية في الضفة الغربية (المفترض ان تجري في ربيـع ١٩٨٠) « التي ستزيد من قوة تأثير العناصر الراديكالية ... ومثل هذه التطورات من المحتمل ان تخرب مسيرة التحضير للانتخابات الضرورية لاقامة مؤسسات الحكم الذاتي » (دانـي روبنشتايـن ، دافـار ١١/١٠/١٩٧٩) .

وخشية الاسرائيليين من الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال لا تنبع من فراغ . بل ان الهدف من اجراءاتهم هو « وضع حد للنشاطات السياسية » .

ولكن حقيقة الامر عكس ذلك ، « فان تجربة ١٢ سنة من الحياة تحت الحكم العسكري الاسرائيلي ، علمت القيادات العربية بكل مستوياتها الحياة في

ظروف [الاحتلال] . ومن هذه الزاوية لا توجد حدود للاحتيال ، وكذلك لا توجد حدود للمنع ، (يوسف تسورئيل ، معاريف ، ١٤/١٠/١٩٧٩) .

وفي هذا السياق تعترف المصادر الاسرائيلية بقدرة الفلسطينيين على تشكيل اطر وتنظيمات اجتماعية وثقافية مختلفة ، تكون في جوهرها بؤرا للنشاط السياسي . « ولا توجد امكانية للادعاء ضد اي واحدة منها بأنها تشكل مركزا للتحريض ضد اسرائيل . واذا وجد من يدعي ذلك ويصدر قرارا بجعلها غير قانونية ، فخلال اسابيع محدودة تقام اطر جديدة ، تحت اسماء اخرى ... وفي مثل هذه الظروف ، لا يوجد اذا ما يدعو للتعجب لماذا يسخر رئيس بلدية رام الله ، عندما علم بقرار منعه من النشاط في اطار اللجنة التحضيرية ، التي اعتبرت غير قانونية ... وكذلك ليس من المستغرب ان تقام لجان عديدة ، تدعي انها تعمل في مجالات اجتماعية ، بينما النشاط الحقيقي هو العمل في الشؤون السياسية » (المصدر نفسه) .

اسرائيل تخشى اجراء الانتخابات البلدية

تستكمل في نيسان (ابريل) ١٩٨٠ فترة الاربع سنوات لبلديات الضفة الغربية . وفي تقدير اوساط سياسية وامنية اسرائيلية « ان تلك الانتخابات سوف تضع حدا لآمال ايجاد شخصيات في الضفة الغربية ، توافق على الانضمام لمباحثات اقامة الحكم الذاتي » (هآرتس ، ٩/١٠/١٩٧٩) .

والجدير بالذكر ان اول انتخابات جرت في الضفة ، بعد حرب ١٩٦٧ ، كانت عام ١٩٧٢ . وكان عدد اصحاب حق الاقتراع آنذاك ٣٥ الفا . وفي الانتخابات الثانية ادخلت اسرائيل بعض التعديلات على قانون الانتخابات وارتفع عدد اصحاب حق الاقتراع الى ٨٥ الف شخص ، منهم ٣٥ الف امرأة .

وتمثل هذه الزيادة الاجيال الشابة المثقفة والتي « تعلمت » النشاط السياسي حديثا . وعلى العكس من الانتخابات السابقة « فانها لن تناضل من اجل انتخابات قيادات لا تمثلها » (يوسف تسورئيل ، معاريف ، ١١/١٠/١٩٧٩) . ففي المدن الكبيرة ، مثل رام الله ، ونابلس ، والخليل ، والبيرة ، وبيت لحم وطولكرم ، واريحا ، « يثبت رؤساء البلدات وجودهم داخل الجمهور وتسمع آراؤهم السياسية كل يوم تقريبا » (المصدر نفسه) .

ولا يوجد للجيل الصغير هذا ، شأن « بقضايا المجارير والكهرباء ، وانما هو معني بما يقوله رئيس البلدية ، عن القضية الفلسطينية ، وعن منظمة التحرير الفلسطينية ، وعن معارضته لاي حديث مع ممثلي اسرائيل في شأن مستقبل المنطقة » (المصدر نفسه) .

وتنبع الازمة الحقيقية لاسرائيل في هذا الاطار من ناحيتين ، الاولى ، ان موعد الانتخابات البلدية يتصادف مع موعد بداية تطبيق مشروع الحكم الذاتي . ومن ناحية اخرى فان الاسرائيليين يحاولون بقدر الامكان المحافظة على ادعاءاتهم امام الرأي العام بأنهم دولة ديمقراطية ، وان ادارتهم للمناطق تتمتع بهذه الروح الديمقراطية على العكس مما كان عليه الوضع ايام الحكم الاردني ، او مما سيكون عليه الوضع لو اتت اية سلطة اخرى غير اسرائيلية .

محمد عبد الرحمن

اسرائيليات

الحكومة الاسرائيلية تعيد تنظيم صفوفها في ظل استقالة وزير الخارجية دايان والحكم باخلاء مستوطنة ايلون موريه

حفل الوضع السياسي الاسرائيلي ، خلال الفترة الاخيرة ، بعدة تطورات هامة انعكست آثارها على الوضع الداخلي ، وساهمت في زعزعة مكانة الحكومة الاسرائيلية ، التي تعاني من مشاكل عديدة ، سواء

فيما يتعلق بأدارة سياستها الخارجية ، او سياستها في المجالين الاجتماعي والاقتصادي . ويمكن القول ان التطورات او الاحداث التي توالت في اسرائيل ، خلال هذه الفترة ، ليست سوى تحصيل حاصل لاخفاق الحكومة ، وفشل سياستها على مختلف الاصعدة ، ابتداء من مفاوضات الحكم الذاتي ، مروراً بتطبيق بنود معاهدة السلام مع مصر ، والمخططات الاستيطانية الواسعة في المناطق المحتلة لدوافع سياسة تمليها عناصر يمينية متطرفة ، وجدت من يؤيدها داخل الحكومة ، وانتهاءاً بالوضع الاقتصادي المتأزم في اسرائيل ، والمتمثل اساسا في معدلات التضخم المالي المرتفعة خلال هذه السنة .

استقالة وزير الخارجية دايان

لم تفاجيء استقالة وزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان ، يوم ٧٩/١٠/٢١ ، احداً داخل الحكومة او خارجها ، ذلك آن دايان كان قد بعث برسالة الاستقالة الاولى الى رئيس الحكومة بيغن ، قبل هذا الموعد بثلاثة اسابيع . ويلاحظ ان دايان حاول بهذا الاسلوب لعب نفس الدور الذي كان يمارسه اثناء حكم المعراخ ، الا وهو التهديد بالاستقالة ، على امل ان يستجيب الاخرون لمطالبه ويطلبوا منه البقاء . الا ان رد فعل بيغن ، هذه

المرة ، لم يتجاوز حدود ابداء الاسف ، كما عبر عنه اثناء جلسة الحكومة يوم ٧٩/١٠/٢١ معلنا : « لقد تسلمت كتاب الاستقالة . اشكره [اي دايان] فله علينا حقوق كثيرة » (هآرتس ، ٧٩/١٠/٢٢) .

ما هي اسباب استقالة دايان ؟ برر دايان استقالته في بيان القاه امام الحكومة بقوله : « لقد تحدثت ثلاث مرات مع رئيس الحكومة حول نيتي في الاستقالة ، لانني لا استطيع التسليم بموقف اسرائيل في محادثات الحكم الذاتي . ان مسألة العلاقة مع عرب المناطق هي مسألة اساسية يمكن تسويتها . فخلال جميع جولاتي في العالم واجهت الكثير من الاسئلة حول هذه القضية ، لكنني لم استطع اعطاء اجوبة مقنعة بسبب عدم مشاركتي في المفاوضات وعدم موافقتي على الاسلوب الذي تدور به ، وعلى جزء من المبادىء الموجهة لموقف اسرائيل في هذه المسألة . لم يحدث اي تقدم في المفاوضات حول الحكم الذاتي حتى الان ، ولا يستطيع وزير الخارجية الاستمرار في عمله في الوقت الذي لا يهتم به في القضايا الاساسية وانما بالمواضيع الهامشية فقط . انني لا اشارك في المفاوضات حول هذا الموضوع ، لانني لا اتفق تماما مع مواقف الحكومة حوله » (المصدر نفسه) .

ويلاحظ ان دايان لم يرغب في قطع جميع الخيوط مع بيغن وحكومته، وبـ مشيدا » « بوطنيتها وبسروره » في كونه احد اعضائها . « ولولا بيغن وهذه الحكومة في السلطة ، لكان المعراخ هو الذي يدير الان شؤون البلاد ، ولكننا الان في ذروة مفاوضات متقدمة حول اعادة [الضفة الغربية] او اجزاء منها الى ايد عربية . ان فضل هذه الحكومة يعود الى اصرارها على مواصلة تمسكها [بالضفة الغربية] . ولو كان بيريس ، الون وابين في الحكم لاعيدت هذه المنطقة الى العرب » (المصدر نفسه) .

واذا لخصنا اسباب استقالة دايان ، كما وردت في تصريحاته الصحفية ، خاصة في مؤتمره الصحفي الذي عقده بعد يومين من استقالته ، وفي رسالته إلى رئيس الحكومة بتاريخ ٧٩/١٠/٢ ، يمكننا التوصل الى الاستنتاجين التاليين :

اولا ، ان دايان لم يكن له دور في السياسة الخارجية او اقرارها داخل الحكومة الاسرائيلية . صحيح انه لعب دوراً في المفاوضات حول معاهدة السلام مع مصر ، وكان لآرائه وقعها في هذا الموضوع ، خصوصا اثناء مفاوضات كامب ديفيد ، الا انه استطاع لعب هذا الدور طالما اراءه لم تكن تتعارض ابدأ مع اراء بيغن والفريق المقرر داخل الحكومة الاسرائيلية ، خصوصا وايزمان ووزراء المفدال .

وبعد انتهاء المفاوضات حول الاتفاق مع مصر ، اقصي دايان جانبا عن المفاوضات حول الحكم الذاتي ، التي سلمت للجناح المتطرف داخل الحكومة ، اي المتدينين . وحسب قول دايان : « لا يمكن ان يقوم وزير الخارجية بتأدية واجبه على الوجه الافضل ، طالما انه غير مشارك ، وليس بين المقررين لسياسة اسرائيل في مسألة العلاقات مع عرب المناطق ... » (من رسالته الى بيغن كما نشرت في هآرتس ، ٧٩/١٠/٢٢) .

ثانيا ، ليس هنالك خلافات جوهرية بين مفهوم دايان لمشروع الحكم الذاتي وبين مفهوم الحكومة الاسرائيلية له ، وانما هنالك التباس حول اسلوب التطبيق فقط . فدايان يؤيد الاستيطان في المناطق

المحتلة ، خصوصا في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ويعتبر انه « ليس هناك ضرر في اقامة مستوطنات يهودية قرب تجمعات سكانية عربية ، على غرار مستوطنة كطيف التي تقوم على مسافة قريبة من قطاع غزة . ويجب اقامة مستوطنات تكون بعد ذلك جزءا من اسرائيل . فالحل يكمن في الحياة المشتركة وليس في التقسيم ، وعلينا [اي اسرائيل] ان نقيم المستوطنات على هيئة كتل مترابطة فيما بينها . اما تحفظي الوحيد فيكمن في وجوب عدم السيطرة على اراض خاصة ، سواء كانت صخرية ام غير صخرية . هنالك مساحات واسعة من الاراضي الحكومية في المناطق ولا يوجد اي عائق لاقامة مستوطنات عليها » . (من مؤتمره الصحفي ، يديعوت احرونوت ، ٧٩/١٠/٢٤) .

لقد عاد دايان وطرح مشروعه حول مدننة الحكم العسكري قبل استقالته . ويتمثل مشروعه هذا في اخراج الحكم العسكري من المناطق ، ونقل صلاحياته الى هيئة ادارية مدنية . ويلاحظ ان مشروع دايان هذا قديم ، فقد ذكره في مقال له نشر في صحيفة معاريف في شهر حزيران (يونيو) ١٩٧٦ – اي قبل انضمامه الى حكومة بيغن بسنة تقريبا – وفحواه انه « يجب على اسرائيل ان تبادر بشكل فردي الى اخراج معسكرات الجيش والمكاتب والاشخاص من المدن العربية ، وتتمركز على التلال في الخارج ، [مثلا] على الجبل خارج نابلس وليس داخلها ، فتمكن العرب من العيش كما يحلو لهم دون ان يتجول جنود وضباط وحكام يهود في شوارعها ، اذ ليس هناك اية حاجة الى ذلك . ففي نظرنا [اي الاسرائيليين] جنودنا لطيفون ، بينما في نظر العرب ليسوا سوى جيش احتلال . انهم ليسوا زوارا او جيرانا ، وانما هم رعاع يفرضون انفسهم عليهم بقوة السلاح » (كما اوردها موشي جاك ، معاريف ، ٧٩/١٠/٢٢) .

وقد اعتبر دايان ان خطوة كهذه من شأنها ان تدفع السكان العرب ، في المناطق المحتلة ، نحو المشاركة في تطبيق مشروع الحكم الذاتي . ومن هنا جاءت لقاءاته مع بعض الشخصيات في المناطق في شهر ايلول الماضي . وقد نقلت الصحف العربية الصادرة في القدس في ذلك الوقت ان دايان تحدث اثناء لقائه مع الدكتور حيدر عبد الشافي من غزة ، حول « اخراج الحكم العسكري [من المناطق المحتلة] ، مما سيضطر السكان الى اقامة هيئة ادارية ذاتية لهم » (المصدر نفسه) . وقد شرح دايان ، بعد استقالته ، اهداف خطواته تلك بقوله : « كنت اجري لقاءات كثيرة مع عرب فلسطينيين يعيشون في الضفة الغربية وغزة ، حتى مع اولئك المعروفين بتاييدهم لـ م.ت.ف. ... فمن مصلحتهم التقدم والموافقة على الحكم الذاتي ... واعتقد ان هناك احتمالا جيداً لان يوافقوا عليه ، والمفتاح لذلك هو في الحديث معهم . فمن الناحية العملية يواجه العرب الخيار بين رفض اتفاقات كامب ديفيد ، الذي يعني استمرار الحكم العسكري ، [وبين القبول بها] . وما هي الفائدة التي سيحققونها من وراء [رفضهم] ؟ فحتى اذا كانوا يرغبون في انشاء دولة فلسطينية او الوصول الى اتفاق مختلف عما توصلنا اليه في كامب ديفيد ، فانهم لا يستطيعون تبديل وجه الامور . ان [الحكم الذاتي] افضل شيء يستطيعون الحصول عليه ، [خاصة] وانهم يرغبون في التخلص من الحكم العسكري ، ويدركون ان الفرصة لتحقيق ذلك تكمن في الموافقة [على هذا المشروع] » (يديعوت احرونوت ٧٩/١٠/٢٨) .

وبلغة اخرى ، ان مشروع مدننة الحكم العسكري – كما طرحه دايان – ينبع من صميم المصلحة الاسرائيلية في « التسهيل » على السكان العرب ، ودفعهم نحو القبول بواقع الحكم الذاتي والمشاركة في تطبيقه . فالحكم العسكري – حسب صيغة دايان – « يجب ان يخرج من مدن الضفة ، وان تكون قيادته العليا في القدس او تل – ابيب ، وهو مصدر الصلاحية ، وهذا كل شيء . واذا رفض العرب انتخاب ممثليهم للمجلس الاداري ... فعلى رؤساء البلديات الذين سينتخبون في السنة المقبلة ، ان يحصلوا على اذن (غير قائم اليوم) للاجتماع وكأنهم يشكلون مجلسا ، للبحث في الامور فيما بينهم » (المصدر نفسه) . كذلك اعلن دايان ان مشروعه هذا ، اي مدننة الحكم العسكري ، يجب ان ينفذ في اطار المفاوضات حول الحكم الذاتي (يديعوت احرونوت ، ٧٩/١٠/٢٤) ، مما يثبت القول ، ان الخلاف بين دايان والحكومة يدور حول اسلوب تطبيق هذا المشروع ، وليس حول جوهره .

ردود الفعل حول استقالة دايان : لم تتجاوز ردود الفعل حول استقالة دايان حدود ابداء « التأسف » و« الاستغراب » ، داخل الحكومة ، خاصة وانه لا يمثل كتلة سياسية داخل الائتلاف

الحكومي ، وبالتالي فأن بقاءه او غيابه لا يؤثر على موازين القوى الائتلافية بين اكبر كتلتين داخل الحكومة ، ليكود والمفدال . لقد اكتفى وزير الداخلية ورئيس الوفد الاسرائيلي لمفاوضات الحكم الذاتي ، يوسف بورغ ، بالاعراب عن اسفه للاستقالة ، واضاف ان دايان « كان بامكانه ان يكون شريكا في المفاوضات حول الحكم الذاتي ، وهو الذي قرر عدم المشاركة ... ان اية حكومة اخرى كانت ستبدأ بالتفاوض حول اعادة [الضفة الغربية] ، والامتناع عن ذلك الان هو المبرر المصيري لوجود هذه الحكومة » (هارتس ، ٢٢/١٠/٧٩) . كذلك اعلن وزير العدل شموئيل تمير : « انني آسف لاستقالة دايان باسم الحركة الديمقراطية . اما مبرراته فانها تثير الاستغراب خصوصاً وان مبادىء هامة في المفاوضات حول الحكم الذاتي ، مثل مصدر الصلاحيات الاسرائيلي ، وادارة المفاوضات حول الوضع الدائم [للمناطق] بعد مرور خمس سنوات ، هي من نتاج فكره . ما هي اذن مبرراته ؟ ان افكاره حول مدننة الحكم العسكري من طرف واحد غير مفيدة في هذه اللحظة » (المصدر نفسه) .

وقد استغلت المعارضة قضية استقالة دايان للطعن في الحكومة وسياستها ، والمطالبة بتقديم موعد الانتخابات . فقد اعلن وزير الخارجية السابق يغئال الون ، ان « الاستقالة جاءت متأخرة سنتين ونصف السنة عن موعدها . فمنذ البداية كان انضمام دايان الى حكومة ليكود مخالفا للعرف السياسي » . واعتبر الون استقالة دايان بمثابة اعتراف بفشل السياسة الخارجية للحكومة « وهروب من المعركة وهي لا زالت في اوجها ... ان دخوله الى الحكومة كان خطأ ، واسلوب استقالته يشهد مرة اخرى على اسلوب المغامرة في تولي المناصب العامة » (هارتس ، ٢٢/١٠/٧٩) . كذلك رفض زعيم حزب العمل شمعون بيرس اقتراح تشكيل حكومة تكتل وطني ، لان المطلوب ، حسب رأيه ، ليس حكومة كهذه ، وانما انتخابات مسبقة (المصدر نفسه) . كما صرح سكرتير عام حزب العمل حاييم بار ـ ليف ، ان « القاعدة البرلمانية للحكومة قد تقلصت باثني عشر نائبا منذ تشكيلها ، لذا عليها اخلاء مكانها » (المصد رنفسه) .

اما وسائط الاعلام فقد ركزت في تعليقاتها على استقالة دايان ، على الاسباب الشخصية للاستقالة . فقد اعتبر الكاتب الاسرائيلي حغاي ايشد ، وهو احد المقربين من دايان وبن ـ غوريون سابقا ، « ان دايان اراد على ما يبدو الحصول على تفويض شخصي من مناحيم بيغن ، للبحث عن مخرج من التناقضات العميقة لمشروع الحكم الذاتي ... وايجاد [صلة] بين رغبة بيغن في اعتبار [الضفة الغربية] جزءا غير منفصل من اسرائيل في المستقبل، وبين الحاجة الى التعايش مع الفلسطينيين... لقد حدث تناقض في المصالح والمشاعر بين دايان وبيغن ، وليس بوجه خاص بين مشاريع واهداف سياسية محددة » (حغاي ايشد دافار ، ٢٦/١٠/٧٩) . ويزعم ايشد ان اسلوب دايان يقضي الحسم في الموضوع الفلسطيني ، وهو ما لا يرغب به بيغن « الذي لا يستطيع ان يتنكر تماما لناخبيه [ويفرض عليهم] تنازلا عن [الضفة الغربية] حتى قبل ان [يتقبلوا] الانسحاب من سيناء كله ... فبيغن يعتبر نفسه مضطرا لتأجيل الحسم في الموضوع الفلسطيني ، ويفضل ان يورثه لمن سيأتي بعده ، خاصة وان الجدول الزمني لاتفاقات كامب ديفيد يمكنه من ذلك ، وحتى ان السادات سيكون راغبا ، كما يبدو ، من تمكينه من ذلك . فمصر ستحصل على سيناء كلها ، وتتفرغ بعد ذلك لمعالجة المشكلة الفلسطينية بكل نواحيها ، سوية مع خليفة بيغن . اما دايان فيرغب في حسم الموضوع الفلسطيني الان ، وبيغن لا يعرف صيغة هذا الحسم ... وليس هذا عجيبا ، اذ حتى دايان نفسه لا يعرف » (المصدر نفسه) . ويبدو ان هذه الاقوال تتلاءم مع تطور الامور وواقعها حتى الان ، فاسناد مهمة مفاوضات الحكم الذاتي الى وزير الداخلية بورغ ، يثبت في نهاية الامر ، ان هذا المشروع ليس سوى تغطية ووسيلة لتحقيق الاهداف الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، كما يفهمها بيغن ورفاقه في ليكود والمفدال ، وان رأي دايان لم يكن يتعارض مع هذه الاهداف ، وانما يعتبر ان تحقيقها ينبغي ان يتم في الظروف المناسبة . والدليل على ذلك ما ذكره دايان في رسالته المذكورة الى بيغن يوم ٢/١٠/٧٩ ، من انه يعارض جزءا من الايضاحات بشأن المواقف الاسرائيلية من مشروع الحكم الذاتي التي تم وضعها قبيل البدء بالمفاوضات حول تطبيق هذا المشروع (هارتس ، ٢٢/١٠/٧٩) . وقد كشفت المصادر الاسرائيلية ان بيغن اورد في تلك الايضاحات ان « اسرائيل تعلن من طرف واحد

مطلبها الخاص بتجسيد حقها غير القابل للطعن في السيادة على مناطق [الضفة الغربية] وقطاع غزة ، في نهاية فترة السنوات الخمس من الحكم الذاتي . وان هذا الاعلان قد ورد الى جانب اعلان آخر يقول ، ان اسرائيل لن تسمح ابداً بقيام دولة فلسطينية » (هآرتس ، ٧٩/١٠/٢٥) . ويتمثل اعتراض دايان هنا ، في ان هذا الموقف يختلف عن الموقف الذي اعلنه بيغن امام الكنيست في شهر كانون الاول (ديسمبر) ، ١٩٧٧ ، اثناء عرضه لمشروع الحكم الذاتي ، والقائل « بان اسرائيل تصر على حقها ومطلبها في السيادة على [الضفة الغربية] وغزة ، مع ادراكها ان هناك مطالب اخرى ، لذا فهي تقترح من اجل الاتفاق والسلام ، ابقاء مشكلة السيادة مفتوحة في هذه المناطق » . ويعتبر دايان ان الاعلان الاسرائيلي المتشدد ، من شانه ان يفشل المفاوضات الدائرة ، خاصة وان هذا الاعلان يعتبر وثيقة موجهة للمفاوضين الاسرائيليين (المصدر نفسه) .

على أي حال ، تم استبعاد دايان عن مفاوضات الحكم الذاتي ، « فوزير الداخلية يسافر الى لندن لادارة مفاوضات سياسية حول موضوع رئيسي ، بينما يضطر هو للاهتمام بالقضايا الهامشية ... لذا حاول الاحتجاج بواسطة رسالته الى بيغن ، وربما كان يأمل في ان يحاول هذا اصلاح الخلل في عمل الحكومة ، الا ان بيغن لم يشأ الدخول في خصومة مع المقدال » (موشيه جاك ، معاريف ، ٧٩/١٠/٢٢) .

محكمة العدل العليا تامر باخلاء مستوطنة ايلون موريه

اذا كانت استقالة دايان قد فجرت ردود فعل عنيفة داخل اسرائيل ، خصوصا من جانب المعارضة ، ضد الحكومة وسياستها ، فان قرار محكمة العدل العليا بشأن مستوطنة ايلون موريه ، قد ادى الى زعزعة اهم الاسس التي تقوم عليها هذه السياسة في المناطق المحتلة ، وهو الاساس الاستيطاني .

فقد اتخذت المحكمة المذكورة قراراً لا سابق له في اسرائيل ، يطالب الحكومة باخلاء مستوطنة ايلون موريه من المستوطنين والمباني التي اقيمت على اراض يملكها سكان القرية العربية رجيب ، كان الحكم العسكري قد صادرها في الماضي من اجل اقامة هذه المستوطنة . وقد اتخذت المحكمة قرارها بالاجماع، بحضور خمسة قضاة ، على راسهم نائب رئيس المحكمة موشي لنداو . وعلل القضاة قرارهم في ان المبادرة لعملية الاستيلاء على الارض جاءت لاعتبارات سياسية ، رغم ادعاء الحكومة في ان الارض مطلوبة لدوافع امنية . وورد في القرار ايضا ان تأثر الحكومة « بالرغبة القوية التي اظهرها اعضاء غوش ايمونيم في الاستيطان في عمق ارض ــ اسرائيل » كان اكبر من تأثرها بوجهات النظر المهنية [الامنية] التي قدمها رئيس الاركان ، عندما قررت الاستيلاء على الارض . وعلى ضوء ذلك قررت المحكمة ان اقامة مستوطنة ايلون موريه لم تنبع من الضرورات الامنية ، لذا فان اقامتها على اراض خاصة يعتبر امراً غير شرعي ، وينبغي اخلاؤها (هآرتس ، ٧٩/١٠/٢٣) . وعلم ان القضاة الاسرائيليين استندوا ، في اتخاذ قرارهم هذا ، الى عدة نقاط اساسية منها اختلاف الرأي بين رئيس هيئة الاركان العامة ووزير الدفاع . وقد علق القاضي لنداو حول ذلك بقوله : « انه لامر ملفت للنظر ، فوزير الدفاع خبير بالقضايا الامنية ، فكيف يطلب منا مثله ان نبدي قناعتنا ، اذا كان لا يرى ضرورة عسكرية لاقامة المستوطنة في هذا المكان بالذات ؟ ومن انا حتى اخالفه الرأي ؟ » . واضاف لنداو : ان الاعتبارات التي اعتمدها في اصدار القرار لم تكن اعتبارات عسكرية ، وشدد على انه ليس من صلاحية المحكمة معالجة الامور السياسية او الامور ذات الطابع الديني او التاريخي ، وان القرار الذي صدر ، ينطلق من احكام القانون الدولي بالنسبة للجيش الذي يمثل ارضا ، لا تتبع الدولة قانونيا . وعلى هذا الاساس اتخذ القرار . وكدولة لها قانون تحترمه ، واستناداً الى قانون علماني يسمح لنا بذلك ، كان لزاما علينا تطبيق هذا القانون (ر.أ.ا. ، العدد ١٩٠٠ ، ٢٢ و٧٩/١٠/٢٣ ، ص ٤) .

فور صدور القرار اجرى رئيس الحكومة بيغن استشارات عاجلة مع وزير الزراعة ارييل شارون ووزير العدل شموئيل تمير والمستشار القضائي للحكومة اسحاق زمير ومدعي عام الدولة جبرئيل باخ ، تناولت جوانب القرار المفاجيء والانعكاسات المحتملة بالنسبة للاستيطان في المناطق المحتلة . وكانت النتيجة الاولية للاستشارات ــ كما تفيد المصادر الاسرائيلية ــ هي انه على الحكومة عدم اظهار معارضتها القرار ، التي يمكن تفسيرها

كتفويض لمكانة المحكمة . كذلك توضح خلال هذه الاستشارات ، ان لا خطر بعد صدور هذا القرار ، على المستوطنات الاخرى في الضفة الغربية . وقد دعم هذا الرأي ما ورد في اقوال القضاة من انه بالامكان وضع اليد على الاراضي واقامة المستوطنات فيها ، في حال اصدار امر بذلك من مسؤولين كبار في الجيش ، لدوافع امنية . « كما ان القرار لا يمس مشاريع الاستيطان في الضفة ، ويعتبر في النهاية اهانة ، اكثر منه مساسا فعليا بمكانة الحكومة في مجال الاستيطان » (المصدر نفسه ، ص ٤ ـ ٥) .

رغم هذا الاعلان الرسمي حول ضرورة احترام قرار المحكمة وتنفيذه ، انقسم اعضاء الحكومة الاسرائيلية بين مؤيد لتنفيذ القرار بصورة تامة ، وبين من يؤيد تنفيذه بشكل جزئي او ايجاد وسيلة ما لتجاوزه وابقاء المستوطنين من اعضاء غوش ايمونيم في مكانهم . وقد ترأس المجموعة الاولى وزير الدفاع عيزر وايزمان معلنا انه « يعارض كل محاولة لتجاوز قرار المحكمة في شأن اخلاء مستوطنة ايلون موريه ، على غرار اصدار قانون ذي مفعول رجعي ، او اقامة معسكر للجيش في جزء من المستوطنة . رغم ذلك فقد اعرب وايزمان عن استعداده لايجاد مكان ملائم لنقل المستوطنة »(يديعوت احرونوت، ٢٥/١٠/٧٩) .

اما المجموعة الثانية فقد تزعمها وزير الزراعة اريئيل شارون الذي هدد اولا بالاستقالة في حال اخلاء هذه المستوطنة (دافار ، ٢٤/١٠/٧٩) ، ثم عاد وهدد بتحريض اعضاء غوش ايمونيم باستخدام القوة في حال اخلائهم ، قائلا : « اخشى ان يستخدم اليهود الدافع ضد اليهود » . (ر.أ.أ. ، العدد ١٩٠٧ ، ٢ و٣/١١/٧٩ ، ص ٣) . وتبين من خلال تصريحات شارون ان « هدفه الاساسي من وراء اظهار هذه المعارضة هو دفع الحكومة نحو اتخاذ قرار بصدد انشاء عدد كبير من المستوطنات في السامرة ، واصدار قانون يمنع مستقبلا تدخل محكمة العدل العليا في شؤون الاستيطان في المناطق (دافار ، ٢٤/١٠/ ٧٩) . وقد شرح شارون موقفه هذا فيما بعد قائلا : « ان حق العيش في ارض ـ اسرائيل ، لا يمكن ان تمنحه المحكمة ، وليس لها الحق في منعه ... ان هدفنا هو وجود شعب اسرائيل في ارض ـ اسرائيل ، والقانون هو احد الوسائل الاساسية التي تمكن هذا الوجود ، وهو ليس هدفا في حد ذاته ...

« ان قرار اقامة ايلون موريه هو قرار حكومة اسرائيل ، وقد اتخذ بعد مناقشات اساسية وطويلة ... لذلك فمشكلة المستوطنة هي مشكلة الحكومة ، وليس مشكلة السكان هنالك . وكل محاولة لالقاء المسؤولية على عاتق المستوطنين ، لا تعتبر سوى تهرب الحكومة من مسؤوليتها . فالمسألة لا تتعلق بايلون موريه فقط ، بل ان جميع المستوطنات القائمة والتي ستقوم مستقبلا في [الضفة الغربية] وغور الاردن ، هي على كفة الميزان ... وتواجه خطراً شديداً ... على الحكومة ان تجد له حلا واسعا وشاملا (من مقابلة مع شارون ، معاريف ، ٢٦/١٠/٧٩) . والحل ، في نظر شارون ، يكمن في « سلسلة من الاجراءات التي ينبغي اتخاذها فورا دون تأخير : عملية تشريع [اصدار قانون] سريعة بالنسبة للمستقبل ، لئلا تتكرر مشاكل كهذه ، فالاستيطان هو عملية سياسية ، ولا يمكن ان يخضع لقرار المحكمة . وينبغي المصادقة فورا على خطة استيطانية واسعة وشاملة للسنة المقبلة . وتخصيص موارد مالية كبيرة لتنفيذها . هذا هو [الحل] الشامل وليس فقط حلا لمشكلة ايلون موريه ... اريد الا يكون قرار المحكمة حجر الزاوية لاخلاء المستوطنات ، بل على العكس : ان يكون حافزاً على توسيع الاستيطان بحجم لم نعرفه حتى الان . وينبغي ايجاد وسيلة قانونية ، تحرر المحكمة من واجب اتخاذ قرارات سياسية » (المصدر نفسه) .

ويلاحظ ان موقف شارون هذا يلقى تأييدا واسعا بين اعضاء حركة غوش ايمونيم ، الذين بادروا الى المطالبة « باحداث تغييرات في القانون ، تمكن من تنفيذ عملية استيطان واسعة ليس على اساس مبدأ الاستيلاء على الارض لاغراض امنية . وفي اطار هذه التغييرات يتم ايجاد حل لمشكلة ايلون موريه » (هآرتس ، ٢٨/١٠/٧٩) . وقد اجرى اعضاء هذه الحركة عدة لقاءات مع وزراء ونواب من حزب المفدال وحركة حيروت ، للبحث في قضية ايلون موريه ، مطالبين بالمبادرة الى اصدار قانون جديد يمكن المستوطنة من البقاء في مكانها . ويبدو ان رأيهم هذا قد لاقى تأييداً بين المتدينين واعضاء حيروت ، الا ان الحسابات الائتلافية داخل الحكومة ، والخوف من انسحاب الحركة الديمقراطية ، قد حال دون تبني هذا الرأي علنا ، في الوقت الحاضر على الاقل (هآرتس ، ٢٥/١٠/٧٩) .

وادى الضغط الذي مارسته حركة غوش ايمونيم على الحكومة ، بمساعدة الوزير شارون والاوساط الدينية المتطرفة ، الى دفع الحكومة للبحث عن تسوية لمشكلة اخلاء مستوطنة ايلون موريه ، توفق بين رايي وزير الدفاع وايزمان ووزير الزراعة شارون . فقد قرر مجلس الوزراء الاسرائيلي ، نزولا عند رغبة شارون ، توسيع الاستيطان في الضفة الغربية وغور الاردن وقطاع غزة ، وهضبة الجولان ، عن طريق زيادة عدد المستوطنات القائمة واقامة مستوطنات اخرى على « اراض تابعة للدولة » . كما تقرر تشكيل لجنة وزارية « لاتخاذ القرارات التفصيلية المتعلقة بالموضوع ، في ضوء تقرير كامل سيقدمه المستشار القانوني للحكومة . اما بالنسبة لمستوطنة ايلون موريه ، فقد وافق مجلس الوزراء على حل وسط ، وفقا لمقترحات المستشار القانوني ، القاضية بنقل المستوطنة الى جبل الكبير ، المحاذي لمدينة نابلس ، والذي تبلغ مساحته ضعف مساحة ايلون موريه الحالية . وستقام المستوطنة على اراض حكومية ».واعلن وزير التربية والتعليم زفولون هامر بعد انتهاء جلسة الحكومة ، « انه تم اتخاذ قرار مبدئي هام في موضوع الاستيطان ، حيث كلفت لجنة وزارية دراسة الجوانب المكانية والقانونية والمالية والتخطيطية المتعلقة بهذا الموضوع . وبالنسبة لمقترحات كل من الوزيرين وايزمان وشارون ... فهنالك تلمسا مشتركا يجمعهما ، وهو الرغبة في تطوير الاستيطان اليهودي في ارض ـ اسرائيل » (ر.ا.ا. ، العدد ١٩١٤ ، ١١ و١٢/١١/١٩٧٩ ، ص ٩ ـ ١٠) .

وعلم ان الوزير شارون طرح خلال جلسة الحكومة مشروعه الاستيطاني لعام ١٩٨٠ ، وهو يقضي باقامة ١٦ مستوطنة وتسع كتل استيطانية . واوضح شارون ان معظم المستوطنات ستقام على « اراض للدولة » في حين ان جزءا ضئيلا فقط سيقام على اراضي لم تسو ملكيتها بعد . اما وايزمان فقد طالب باجراء دراسة لوضع الاراضي في المناطق المحتلة قبل اتخاذ قرارات حول الاستيطان (المصدر نفسه) .

ردود الفعل على اخلاء ايلون موريه

اتسمت ردود الفعل على قضية ايلون موريه بتوجيه النقد الشديد الى الحكومة والدعوة الى اسقاطها . فعلى الصعيد الحزبي ، استغلت المعارضة ، بجميع احزابها ، قضية استقالة دايان وقرار المحكمة العليا بشأن اخلاء مستوطنة ايلون موريه ، لتقديم خمسة مقترحات لحجب الثقة عن الحكومة في جلسة الكنيست التي عقدت يوم ٢٢/١٠/٧٩ . وقد دعت المقترحات الخمسة الى اقالة الحكومة وتقديم موعد الانتخابات .

وكان اول المتحدثين في جلسة الكنيست زعيم حزب العمل شمعون بيرس الذي اشار الى استقالة دايان وقضيةايلون موريه ، كحقيقتين تثبتان فشل سياسة الحكومة . وفي معرض هجومه الشديد على الحكومة تساءل بيرس : « هل هناك شخص [في الحكومة]يسأل نفسه وبجدية ، الى اين تتدهور الامور في المجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . لقد مضى على وجود هذه الحكومة ٨٥٤ يوما رفعت بها الدين القومي الى ٨٧٥ مليار ليرة ، اي ان الدين يزيد كل يوم بمبلغ ثلاثة ارباع المليار من الليرات . وخلال ٢٩ شهراً ارتفع التضخم بنسبة ٢٢٥٪ ، ولا زال يرتفع بمعدل ٨٪ شهريا . ولقد تضاعف العجز التجاري ووصل التعلق بالولايات المتحدة الى درجة لا سابق لها . وانتقلت مبالغ طائلة من الاموال من جيوب العاملين الى جيوب الاغنياء ، فبقي الازواج الشباب والمهاجرون دون مسكن ، والعامل لم يعد يعرف قيمة اجره » (هآرتس ، ٢٤/١٠/٧٩) . واضاف بيرس ، معلقا على قول بيغن عند تسلمه السلطة ، « انه سيكون الكثير من ايلون موريه » ، بقوله : « ان هذه المستوطنة تحولت الى رمز . ولقد امتص الرمز والمكان في آن واحد ضربتين قويتين : حكم قضائي وقرار حكم سياسي ... ولن يؤيد المعراخ اية محاولة للتحايل على تنفيذ قرار المحكمة » (المصدر نفسه) . وفي نهاية كلمته دعا بيرس الحكومة الى الاستقالة قائلا : « انكم تحسنون صنعا مع الشعب ، اذا حررتموه من تقاعسكم . هذه الحكومة لا تستطيع سوى القيام بأمر واحد ، هو ان ترحل فوراً . فليس لديها ما تقدم افضل من ذلك » (ر.ا.ا. ، العدد ١٩٠١ ، ٢٣ و٢٤/١٠/٧٩ ، ص ٤) . الا ان الكنيست رفض مشاريع حجب الثقة عن الحكومة ، اذ جاءت نتيجة التصويت لصالح الحكومة ، بأكثرية ٥٩ صوتا مقابل٤٧ صوتا (المصدر نفسه) .

اما ردود الفعل في وسائل الاعلام ، فقد اتسمت ايضا بتوجيه النقد الى سياسة الحكومة في المجال الاستيطاني وغيره ، والدعوة الى تنفيذ قرار المحكمة

بحذافيره . « فالقرار يعتبر ضربة سياسية قوية للحكومة ويمس بمكانتها بصورة كبيرة ... بعد ان ظهرت في هذه القضية ، بانها لا تعمل بنية حسنة ، مستخدمة مبررات الامن بصورة كاذبة . وبهذه الوسيلة ورطت حكومة اسرائيل مؤسستين رسميتين هامتين : الجيش ، الذي اضطر الى ادخال نفسه في قضية اتضح ان ثمة خلاف حولها ، والنيابة العامة ، التي اضطرت للدفاع عن هذه القضية الخاسرة في المحكمة » (من افتتاحية هآرتس ، ٢٣/١٠/٧٩) . وظهر ان هناك دعوة جماعية في وسائل الاعلام الى تنفيذ قرار المحكمة ، « لان هذا الامر هو من واجب الحكومة الان ، وليس ارسال مبعوثين الى ايلون موريه للتفاوض مع المستوطنين وكأنهم دولة عظمى اجنبية » . (من افتتاحية هآرتس ، ٢٤/١٠/٧٩) .

الحكومة تعيد تنظيم صفوفها

رغم هذه الانتقادات القوية ، ومراهنة اوساط واسعة داخل اسرائيل وخارجها على ان يقوم بيغن بتقديم استقالة حكومته ، خصوصاً بعد قضية ايلون موريه ، يبدو ان رئيس الحكومة استطاع تجاوز هذه المشكلة والمحافظة على وضع شبه مستقر داخل حكومته ، ولو بصورة مؤقتة ، اذ ان هنالك الكثير من المشاكل التي لا زالت معلقة .

لقد استغل بيغن فرصة استقالة دايان لاعادة تنظيم شاملة داخل الحكومة ، خصوصاً فيما يتعلق بوزارتي الخارجية والمالية . فبالنسبة لحقيبة وزارة الخارجية ، كان ابرز المرشحين لتوليها نائب رئيس الحكومة يغئال يادين ، ولكنه رفضها قائلا ان كل عضو في الحركة الديمقراطية يجد صعوبة في تولي هذا المنصب (ر.ا.ا. ، العدد ١٩٠٥ ، ٢٨ و٢٩/١٠/٧٩ ، ص ٣) . وقد علم فيما بعد ان يادين اشترط للموافقة على القبول بمنصب وزارة الخارجية ، منحه صلاحية ادارة مفاوضات الحكم الذاتي (هآرتس ، ٢٨/١٠/٧٩) . كذلك رفض وزير الداخلية بورغ هذا المنصب قائلا انه راض عن عمله وليس في نيته التخلي عنه (المصدر نفسه كذلك رشح اعضاء حركة حيروت رئيس الكنيست اسحاق شامير لتولي هذا المنصب ، آملين ان يعزز وجوده الجناح المؤيد للحكومة ، فيصبح وزن حركة حيروت داخلها افضل مما هو عليه اليوم (المصدر نفسه) . الا ان هذا التعيين لم يتم ، ولذلك احتفظ بيغن لنفسه بحقيبة وزارة الخارجية ، الى جانب رئاسة الحكومة ، حتى ايجاد مرشح ملائم .

الا ان عملية اعادة التنظيم الاساسية في الحكومة طالت وزارة المالية ، حيث تم تعيين يغئال هورويفيتس وزير التجارة والصناعة سابقا (كان قد استقال من حكومة بيغن احتجاجا على الانسحاب من سيناء) وزيراً للمالية ، بدلا من سمحه ارليخ الذي عين نائبا ثانياً لرئيس الحكومة . ومع تعيين هورويفيتس راحت الحكومة تعلق بعض الامال على اصلاح الوضع الاقتصادي ، الذي وصل الى درجة من التأزم لم تعهدها اسرائيل من قبل ، خاصة في مجالي التضخم المالي والديون الخارجية . وفور تسلمه المنصب بادر هورويفيتس الى الاعلان انه سيعمل على فك الارتباط الاقتصادي بالولايات المتحدة ، بواسطة توفير الدولارات عن طريق الصناعة المعدة للتصدير ، بعد توفير التسهيلات لها . كذلك اعلن انه لن يتراجع عن الانقلاب الاقتصادي ، الذي خطط له ونفذه الوزير ارليخ . ويعني ذلك استمرار السياسة الحالية فيما يتعلق برفع الرقابة عن العملة الصعبة في اسرائيل وتوحيد قيمة صرف الليرة ، وتشجيع المبادرة الحرة مع تقليص الدور الحكومي في النشاط الاقتصادي . واهم المواضيع التي يتطلع هورويفيتس الى حلها هو موضوع التضخم ، الذي يتوقع ان يتجاوز معدله الـ ١٠٠٪ خلال هذه السنة . ويبدو ان تقليص الميزانية العامة هي الوسيلة التي سيتبعها الوزير الجديد في محاولة اصلاح الوضع (ر.ا.ا. ، العدد ١٩٠٦ ، ٢٩ و٣٠/١٠/٧٩ ، ص ٥) .

ولا تعني عملية اعادة التنظيم هذه داخل الحكومة ، اصلاح وضعها بصورة كاملة ، او الحد من المشكلات التي تجابهها ، « فهي اشبه بسفينة تغرق .. وكما يبدو حكم عليها بالانهيار خلال بضعة اشهر » (من افتتاحية دافار ، ٢٢/١٠/٧٩) . وهناك من يعتبر « ان اشغال حقيبة الخارجية او الحقائب الاخرى ليست سوى مسألة ثانوية فقط . فاستقالة دايان هي بداية النهاية لحكومة بيغن ، وكل تعيين جديد في الحقائب داخلها ليس سوى حل مؤقت حتى اجراء الانتخابات المبكرة » (دانييل بلوخ ، دافار ، ٢٢/١٠/٧٩) .

لم تؤد استقالة دايان وقضية ايلون موريه وحتى المشكلات الاقتصادية والاجتماعية المتأزمة التي تعيشها اسرائيل ، الى حسم الوضع السياسي

الداخلي ، بواسطة اسقاط الحكومة . وهنالك من يقول في اسرائيل ان بيغن ، لو اراد الاستقالة فعلا ، لما سمح لدايان بترك الحكومة ، مما يعني انه لا زال قادرا على التحرك داخليا . ويساعد بيغن في ذلك عوامل خارجية منها استمرار محادثات الحكم الذاتي ، رغم عدم التقدم الذي يميزها ، ثم اهتمام مصر ، على ما يبدو ، باستقرار الوضع داخل اسرائيل ، لئلا يؤثر الامر على عملية الانسحاب من سيناء . وعلى اي حال ، يبدو ان المشكلات الداخلية هي التي ستحسم الوضع اخيرا ؛ سواء كان الامر متعلقا بالخلاف حول الاستيطان ، او حول السياسة الاقتصادية والاجتماعية . وبالمدى الذي سيكون به بيغن قادرا على تجاوز هذه المشاكل ، فانه لن يقدم على تقديم استقالته ، خاصة وان انتخابات مبكرة لن تكون في صالحه حاليا . لذا فان امكانية قياس ما تبقى من عمر الحكومة بأيام او اسابيع ـ كما راهن البعض مؤخرا ـ ليس سوى خطأ ، اذ ربما استمرت بضعة اشهر اخرى .

مفاوضات الحكم الذاتي تراوح مكانها

على صعيد محادثات الحكم الذاتي ، اسفر اللقاء الثلاثي الذي عقد في لندن في اواخر الشهر الماضي ، بين رئيس الوفد الاسرائيلي بورغ ، ورئيس الوزراء المصري مصطفى خليل والسفير الاميركي الخاص لمحادثات الحكم الذاتي روبرت شتراوس ، عن تحقيق اتفاق حول الترتيبات المتعلقة بالاشراف على الانتخابات للمجلس الاداري . وبناءا على هذا الاتفاق ستبقى سلطات الحكم العسكري مصدر الصلاحيات ، اثناء عقد انتخابات الحكم الذاتي ، التي ستجري تحت رقابة مشتركة من موظفين اسرائيليين وعرب فلسطينيين محليين ، يتم تعيينهم بموافقة الاطراف المعنية . كذلك سيسمح لوسائل الاعلام العالمية بالدخول الى المناطق لمراقبة الانتخابات والتحدث عنها . واشار المراسلون الاسرائيليون الى ان فكرة اجراء الانتخابات تحت مراقبة دولية قد سقطت نهائيا . « وعادت الاطراف فدعت الحكومة الاردنية للانضمام الى المفاوضات ، كما دعت ممثلي عرب ارض ـ اسرائيل للمشاركة بها ضمن اطاري وفدي مصر والاردن » . (ر.أ.أ. ، العدد ١٩٠٤ ، ٢٦ و٢٧ /١٠ /٧٩ ، ص ٣) . وقد علم فيما بعد ان استعداد مصر لتأجيل بحث مسألة مصدر صلاحيات مجلس الادارة الذاتية ، في مقابل استعداد اسرائيل للتقرب من الموقف المصري فيما يتعلق بترتيبات الاشراف على الانتخابات للمجلس ، قد ادى الى انهاء سريع لمفاوضات لندن وتحقيق الاتفاق المذكور (دافار ، ٢٨ /١٠ /٧٩) . وعلى اي حال ، فان هذا الاتفاق لا يعبر عن اي تقدم في جوهر المفاوضات ، اذ ان تحديد صلاحيات المجلس الاداري بقي موضع الخلاف الاكبر بين الاطراف . وكل ما تم ليس سوى تقدما في المجال الاجرائي فقط .

اما التطور الاخر في مجال مفاوضات الحكم الذاتي فكان استبدال السفير الاميركي الخاص لهذه المفاوضات روبرت شتراوس ، بالمحامي اليهودي الثري سول مينوفيتس من واشنطن ، وذلك بسبب تفرغ شتراوس لادارة حملة الرئيس كارتر الانتخابية . وذكرت الاذاعة الاسرائيلية « نقلا عما يشاع في واشنطن » ـ ان شتراوس ترك منصبه لانه وصل في المفاوضات الى طريق مسدود ، وان ادعا بأن كارتر بحاجة له في حملته الانتخابية ، ليس سوى مخرجا لانقاذ نفسه (ر.أ.أ. ، العدد ١٩٠٩ ، ٥ و٦/١١/٧٩ ، ص ٧) . وربما يكون هذا القول صحيحا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار التصريحات المتشائمة التي صدرت عن شتراوس بشأن احتمال التوصل الى اتفاق في مفاوضات الحكم الذاتي .

اما بالنسبة لتطبيق معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ، فقد انسحبت اسرائيل في يوم ١٥ /١١ /٧٩ من منطقة سانت كاترين في سيناء ، قبل شهرين من الموعد المحدد ، وذلك كبادرة حسنة للرئيس السادات ، بمناسبة مرور سنتين على زيارته الى القدس .

كذلك توصلت مصر واسرائيل الى اتفاق بينهما بشأن اسعار النفط الذي ستشتريه اسرائيل من مصر ، والذي تصل كميته الى مليوني طن سنويا . وقد تم التوصل الى الاتفاق بشأن الاسعار اثناء لقاء وزير الدفاع الاسرائيلي وايزمان بالرئيس السادات في القاهرة في يوم ٢٣ /١٠ /٧٩ ، حيث طرح وايزمان مشروع تسوية لتحديد اسعار النفط المصري الى اسرائيل ، بعد اعادة حقول علما . وعلم ان خلاصة الاتفاق جاءت حلا وسطا بين موقف اسرائيل ، التي طلبت شراء النفط المصري بسعر ٢٢ ـ ٢٣ دولارا للبرميل ، بما ينسجم مع اسعار اوبيك ، بينما طلبت مصر سعرا يصل الى ٣٢ ـ ٣٣ دولارا للبرميل وفق اسعار السوق الحرة .

وتفيد المصادر الاسرائيلية ان ما تم في اتفاق القاهرة هو وضع مبادىء ستجري حسابات الاسعار طبقا لها ، وترتبط بنوعية النفط ومزاياه ومواعيد تسليمه . ويبدو ان الحل الوسط يحدد سعر البرميل بـ ٢٦ ـ ٢٨ دولارا للبرميل (دافار ، ٧٩/١٠/٢٤ ور.أ.أ. ، العدد ١٩٠٩ ، ٥ و٧٩/١١/٦ ، ص ٨) .

حنـه شاهيـن

« رصد إذاعة إسرائيل »

نشرة استماع يومية للاذاعة الاسرائيلية باللغة العبرية .

عادت نشرة « رصد اذاعة إسرائيل » الى الصدور ، مجدداً ، عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية . وقد أضيف الى موادها ما تبثه إذاعة الجيش والتلفزيون الاسرائيلي أيضاً .

ترسل النشرة الى المشتركين فقط

الاشتراك السنوي

٥٠٠ ل.ل. ، عدا أجور البريد .

ترسل الاشتراكات الى :

قسم التوزيع ، مركز الابحاث ، م . ت . ف . ، ص.ب. ١٦٩١ ، بيروت ــ لبنان .

صدر حديثاً
عن مركز الابحاث

منظمة التحرير الفلسطينية
والحوار العربي ــ الاوروبي

تأليف
احمد صدقي الدجاني

٢٢٢ صفحة من القطع الكبير ، ١٠ ل .ل .

Palestine Affairs

No. 97 December 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

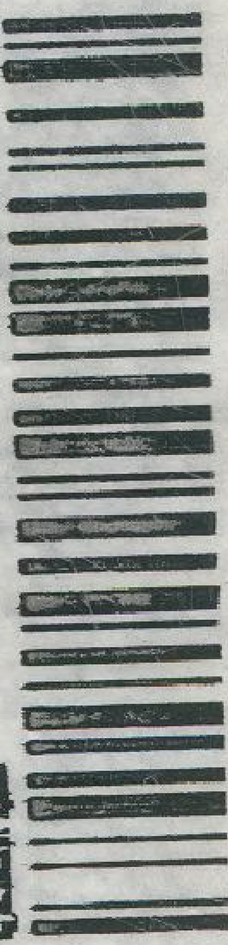
Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعر: ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهماً في ج.ع.ل.
٧,٥٠ درهم في المغرب


Bibliotheca Alexandrina
0532048
